دوستويفسكي



الإخوة كارامازوف



الإخوة كارامازوف

دوستويفسكي

الإخوة كارامازوف

الجزء الأول

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

الكتاب: الإخوة كارامازوف - الجزء الأول

المؤلف: دوستويفسكي

الترجمة: فارس غصوب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي **-** بيروت **-** لبنان

(ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01

ص. ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107

www. dar-alfarabi. com

e-mail: info@dar-alfarabi. com

الطبعة الأولى**:** حزيران **2016**

المحتويات

القسم الثالث

ملاحظة المؤلف

أشعر أنني في حالة من الارتباك وأنا أبدأ سرد قصة حياة بطل روايتي ألكسي فيودوروفتش كارامازوف. أريد القول: إنني أعلن، حقاً، أن ألكسي فيودوروفتش هو بطل روايتي. بيد أنني في وضع يمكّنني من معرفة أن هذا الإنسان هو كل شيء عدا كونه رجلاً كبيراً، مما يحدو بي إلى توقّع أسئلة لا مفرّ منها، مثل: ماذا لدى ألكسي فيودوروفتش من مميَّز حتى اخترته ليكون بطل روايتك؟ ما الذي قام به من أعمال خاصّةٍ نادرة؟ ممَّن ولماذا هو ذائع الشهرة؟ لماذا ينبغي أنا القارىء أن أضيّع وقتي لأتعرَّف أحداث حياته؟

السؤال الأخير هو الأكثر حرجاً، لأنني لا أستطيع أن أردَّ عليه إلا بجواب واحد: «ستجدون ذلك، ربما، في الرواية». لكن ماذا إذا قرأوا الرواية ولم يجدوا فيها ما أقول وإذا ما بقوا على اختلاف في الرأي معي فيما يتعلق بشخصية ألكسي فيودوروفتش المميزة؟ أقول ذلك لأن الحزن في القلب وأنا أستشعر به. بالنسبة إلي، إنه رجل فذّ، غير أنني أشك، فعلاً، في الوصول إلى إثبات ذلك للقارىء. في الحقيقة إنه رجل عظيم لكنه غير محدَّد بعد وليس بالوضوح الكامل. ومن المستغرب إذاً، في عصر مثل عصرنا، أن نفرض على الناس مثل هذا الوضوح. هناك أمر، على ما أعتقد، خارج الشك إلى هذا الحد أو ذاك هو أنه رجل غريب الأطوار لا بل فريد حقاً. لكن واقع أن يكون غريب الأطوار أو فريداً هو أمر يسيء أكثر مما يدفع إلى الاهتمام، خاصة عندما يجهد كل الناس ليوحِّدوا خصوصياتهم ويلتمسوا بعض الوضوح في هذه الفوضى الشاملة المشتركة. والفرادة في أغلب الأحيان هي حالة خاصة وتميُّز. ألا تعتقدون ذلك؟

وبعد، إذا كنتم لا توافقون على هذه الفرضية الأخيرة وتجيبونني: «لا»، أو «ليس دائماً»، فذلك يجعلني شديد الثقة بما يتعلق بأهمية بطلي ألكسي فيودوروفتش. لأن الغريب وحده ليس هو «دائماً» حالة خاصة وتفرُّداً فحسب بل عكس ذلك، أعتقد أنه قد يحمل في ذاته نواة حقيقة عصره بينما الآخرون جميعهم يبتعدون عنها كأنما دفعتهم هبّة ريح عابرة فأبعدتهم، فترة وجـيزة، عن القاعدة على حين غرَّة...

كان بإمكاني ألَّا أتوسع في هذه التعليلات الغامضة وغير الهامّة، وأن أبدأ، بمنتهى البساطة، بدون مقدّمة؛ كانت ستحظى روايتي، على كل حال، برضى القارىء. لكن المصيبة أنني أعرض قصة حياة واحدة في روايتين. والرواية الأساسية هي الثانية لأنها تتضمّن أعمال بطلي في عصرنا، وأعني في الفترة المحدّدة والمعاصرة التي نعيشها. فالرواية الأولى جرت أحداثها قبل ثلاثة عشر عاماً وهي ليست في الواقع رواية بل إنها، تحديداً، فترة بسيطة من مرحلة شباب بطلي. ومن المستحيل أن أتخلّى عنها لأن هناك أشياء كثيرة في الرواية الثانية يتعذَّر فهمها. ولكن، على هذا النحو، فإن صعوباتي الأولى سوف تتعقد أكثر فأكثر. إذا كنت أنا، أي كاتب السيرة، أعتقد أن رواية واحدة، إن حدث ذلك، هي كثيرة على بطل متواضع وغير محدّد، فكيف يمكنني أن أتقدّم بروايتين وكيف لي أن أفسِّر مثل هذا الادّعاء؟

بما أنني أتيه في محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة اتخذت القرار بأن أضعها جانباً بدون حلول. ومن البديهي أن القارىء ثاقب الفكر قد يتوقَّع ما أهدف إليه، منذ البداية،

وتثور ثائرته عليّ متسائلاً لماذا أهدرت، من أجل لا شيء، كل هذه الكلمات العقيمة والوقت الثمين. عن كل ذلك أقدِّم جواباً واحداً محدداً: أهدرت كلاماً عقيماً ووقتاً ثميناً لسببين هما اللياقة أولاً ثم المكر. ولن يجدي القول إنني حذّرت القارىء من هذا الأمر أو ذاك. لاحظوا، إنني مسرور بأن روايتي تنقسم بذاتها إلى قصتين مع الاحتفاظ «بالوحدة الأساسية للمجموع»: بعد قراءة القصة الأولى، يستطيع القارىء أن يحكم بنفسه إذا ما كان ذلك يستحق العناء، من وجهة نظره، أن ينخرط في قراءة القصة الثانية. طبعاً، ما من أحد مجبر على أيّ شيء. في وسع المرء أن يتخلّى عن الكتاب بعد قراءة الصفحتين الأوليين من القصة الأولى ولا يعود إلى قراءته أبداً. لكن، يوجد، مع ذلك، قرّاء يتمتعون بالرهافة بحيث يقرأون الكتاب حتى النهاية لكي لا يقعوا في حكمهم المتجرّد: أعتقد أن هذا هو شأن النقاد الروس، مثلاً، فأنا أرتاح إليهم؛ ورغم ما يتّصفون به من دقة واستقامة في الرأي فإنني أقدِّم لهم حجة مشروعة بأن يتوقفوا عن قراءة الفصل الأول من الرواية. حسن، هذه هي كل مقدّمتي. أعترف أنها لا تفيد شيئاً. وبما أنني كتبتها، فلتبقَ.

ولننتقل الآن إلى الموضوع.

القسم الأول

الكتاب الأول

قصة عائلة صغيرة

I

فيودور بافلوفتش كارامازوف

كان ألكسي فيودوروفتش كارامازوف الابن الثالث لفيودور بافلوفتش كارامازوف المالك العقاري في مقاطعتنا والذي كان معروفاً جداً في زمنه (واسمه لا يزال حتى اليوم حاضراً في ذاكرتنا) بسبب وفاته المأسوية والمبهمة التي حدثت منذ ثلاث عشرة سنة، تلك الوفاة التي سوف أتناولها في مقطع محدّد من هذا الكتاب. والآن سأكتفي بالقول عنه هذا «المالك العقاري» (كما يُسمّى عندنا على الرغم من أنه لم يُقم في ملكيته طوال حياته) شيئاً واحداً ألا وهو أنه كان ينتمي إلى هذا النموذج الغريب الذي نجده مع ذلك، غالب الأحيان. أريد القول هذا النموذج من الناس الذين ليسوا رديئين ومنحطّين فحسب بل في الوقت نفسه، لا يفيدون لشيء، إنما يعرفون، بشكل عام، كيف يديرون أعمالهم الموروثة وأعمالهم هم فقط، على ما أعتقد. انطلق فيودور بافلوفتش، مثلاً، من لا شيء. كان من صغار الملّاكين العقاريين، يأكل تارة عند هذا أو ذاك، يعيش على موائد الناس، ومع ذلك، وُجدت لديه ثروة، بعد موته، قيمتها مئة ألف روبل من الفضة عداً ونقداً. وفي الوقت نفسه، استمرَّ طوال حياته واحداً من أولئك الشاذين غريبي الأطوار في كل مقاطعتنا. وأكرر القول، إن ذلك لم يكن غباءً منه. فهؤلاء الشاذون، بأكثريتهم، كانوا من الدهاة وليسوا أغبياء أبداً. لكن الأمر هو أنهم لا يفيدون لشيء. وفضلاً عن ذلك فهم يشكلون فئة خاصة وطنية.

لقد تزوج مرتين وأنجب ثلاثة أبناء: البكر هو ديمتري فيودوروفتش، من زوجته الأولى، والاثنان الآخران هما إيفان وألكسي، من زوجته الثانية. كانت زوجة فيودور بافلوفتش الأولى متحدّرة من عائلة وافرة الغنى، من أسرة ميوسوف الأرستقراطية العريقة، وكان أفرادها هم أيضاً، ملاكين عقاريين في مقاطعتنا. كيف حدث، بالضبط، أن فتاة شابة ذات مهرٍ كبير ورائعة الجمال تتمتع بذكاء خارق ومليئة بالحيوية، كالكثيرات عندنا في الجيل الراهن.

لكن كما كان ذلك نادراً في الجيل السابق، استطاعت أن تتزوج من رجل تافه «طِرح» كما يسمّيه كل الناس في ذلك الوقت، لن أجهد نفسي كثيراً في تفسير ذلك الأمر. والواقع أنني عرفت فتاة من الجيل القديم الذي سبق جيلنا، جيل «الرومنسيين»، بقيت سنين طويلة تهيم بحبّ رجل كان بإمكانها أن تتزوجه بسهولة ورويّة، وانتهت، مع ذلك، إلى أن تتصور في مخيلتها جميع العقبات الشائكة التي تحول بينهما. وذات ليلة عاصفة رمت بنفسها من أعلى جرفٍ عميق جداً فقضت نحبها ضحية لنزواتها الخاصة وذلك لهدف أوحد هو أن تتشابه مع أوفيليا بطلة شكسبير. حتى هذا الجرف الذي اختارته وأحبّته، منذ زمن طويل، أنه أقلّ جمالاً ولو كان شاطئاً مبسطاً لأُمكن ألّا يقع حادث الانتحار هذا. هذه قصة واقعية، ويجب الاعتقاد أن في حياتنا الروسية منذ هذين الجيلين الأخيرين أو الثلاثة، وقع الكثير مثل هذه الأحداث. وعلى المنوال نفسه، كان زواج أديلاييدا إيفانوفنا ميوسوفا هو أيضاً صدى لمؤثرات خارجية «وغضب فكرة أسيرة»[1]. ربما أرادت بذلك أن تعبّر عن استقلالها النسوي وأن تتحدَّى الأحكام الاجتماعية وأن تتحرر من استبداد أسرتها وجنسها. وقد أقنعها خيالها ولو للحظة وجيزة، بأن فيودور بافلوفتش على الرغم من كونه إنساناً طفيلياً، وكان مع ذلك، واحداً من أشجع الرجال وأكثرهم طرافة في عصر الانتقال هذا نحو

مستقبل أفضل، بينما لم يكن، في الحقيقة، إلا مهرّجاً شريراً وحقيراً. والمثير في هذا الأمر هو أن الزواج كان مجرد عملية اختطاف، افتتنت بها أديلاييدا إيفانوفنا. بينما كان فيودور بافلوفتش مهيَّأً، بشكل خاص، بحكم وضعه الاجتماعي إلى هذا النوع من المغامرات، لأنه كان يرغب بكثير من الحماسة والشغف أن تتوفر له فرصة نجاح في الحياة مهما تكن الوسيلة. فالتسلُّل إلى أسرة رفيعة المقام والحصول على مهرٍ جيد كانا يغريانه إلى حد كبير. أما بالنسبة إلى الحبّ المتبادل فيبدو أنه لم يكن له أي وجود لا من جهة الخطيبة ولا من جهته هو، رغم جمال أديلاييدا إيفانوفنا بحيث إن تلك حالة كانت فريدة في نوعها في حياة فيودور بافلوفتش كلها، هو الذي بقي طوال حياته ملتهب العواطف يمكن أن يعشق في طرفة عين أيَّ امرأة يتعرّف إليها، شرط أن يُشجَّع على ذلك. والحالة هذه، فقد كانت أديلاييدا إيفانوفنا تلك المرأة الوحيدة التي لم تُثر لا رغبته ولا عواطفه.

أدركت أديلاييدا إيفانوفنا بعد الاختطاف فوراً أنها لا تشعر نحوه إلا بالاحتقار، وهكذا برزت عواقب هذا الزواج بسرعة رهيبة. ورغم أن أسرتها قد سارعت إلى قبول هذا الأمر ولم ترفض أن تدفع المهر الذي يعود إلى الهاربة، فبدأت حياة الزوجين تصبح مضطربة تتخلّلها المشاكل. وقيل إن الزوجة الشابة أظهرت، في هذا الظرف، نبلاً ورفعةً لم يأتِ بمثلهما فيودور بافلوفتش الذي استطاع، كما نعرف اليوم، أن يدبِّر أموره فوراً ويأخذ كلَّ ثروتها دفعة واحدة، وهي ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل. فما إن قبض هذا المبلغ الزهيد حتى كانت هي قد فقدت رأس مالها نهائياً. القرية والمنزل الفخم الذي كانت تملكه في المدينة، وهما من ضمن المهر، فقد بقي سنين طويلة يحاول بكل قواه أن ينقلهما إلى اسمه بسند قانوني، وكان يمكن أن ينجح في ذلك، بدون شك، لأن ما كانت تحسّ به المرأة تجاه زوجها من احتقار واشمئزاز، بتوسّلاته الوقحة في كل لحظة وبمطالبته المستمرة، كان قد حضَّها على التنازل له عن القرية والمنزل. لكن لحسن الحظ، أن أسرة أديلاييدا إيفانوفنا قد تدخلت في الوقت المناسب لتضع حداً لهذه المكائد.

وعُرف من مصدر موثوق به أن معارك حقيقية جرت بين الزوجين. وقيل إن فيودور بافلوفتش لم يكن المنتصر في تلك المعارك بل كانت أديلاييدا إيفانوفنا ذات الطباع الحادة والجريئة وصاحبة البشرة السمراء والمزاج النزق والبنية القوية المدهشة. وأخيراً، انتهى الأمر بأن هجرت المنزل الزوجي وهربت من فيودور بافلوفتش مع طالب إكليريكي يعمل مدرِّساً ويعيش في فقر مدقع، تاركة لزوجها أمر الاهتمام بابنه ميتيا الذي له من العمر ثلاث سنوات. واستغلّ فيودور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله مجموعة من النساء وراح يشرب الخمر من دون رادع حتى السكر. أثناء ذلك، راح يطوف في المقاطعة كلها شاكياً والدموع في عينيه، لكل من يصادفه في طريقه أن أديلاييدا إيفانوفنا قد هجرته ويروي شقاءه لجميع الناس. كان وهو يقوم بذلك لا يتورّع عن أن يقصَّ عن حياته الزوجية تفاصيل يحمرّ وجه الزوج خجلاً منها. والغرابة في الأمر أنه كان يجد نوعاً من اللذة في أن يمثّل أمام الملأ هذا الدور المضحك، دور الزوج الذي خانته زوجته. وكأنما يسرُّه أن يكون في هذه الحالة، فهو يصف المصيبة مضيفاً إليها مزيِّناً لها. فكان بعضهم يقول له ساخراً منه: «يبدو عليك يا فيودور بافلوفتش أنك قد حزت ترقية، فأنت تبدو مسروراً جداً رغم شقائك». حتى أن الكثيرين منهم كانوا يضيفون أنه كان مسروراً من هذه العودة إلى لعب دور المهرّج، ويتظاهر عمداً بأنه لا يرى ما يبعث في وضعه على الضحك، وذلك كي يزيد ما يتّصف به هذا الوضع من طابع هزلي. ومن يدري مع ذلك؟ ربما كان ذلك نوعاً من السذاجة. وأخيراً، نجح الرجل في اكتشاف أثر زوجته الهاربة. كانت المسكينة في بطرسبرغ. انتقلت إليها مع صاحبها المدرِّس وتحررت فيها بشكل كامل. اضطرب فيودور بافلوفتش فوراً لدى سماعه هذا النبأ وقرّر الذهاب، على وجه السرعة، إلى بطرسبرغ. لماذا؟ هو نفسه، لا يعرف السبب. كان يمكن، ربما، أن يذهب إلى بطرسبرغ. لكنه عندما اتخذ هذا القرار شعر فوراً أنّ من حقّه أن يسكر بإفراط كي يملك الشجاعة على القيام بهذه الرحلة. وبينما كان يسكر،

وصله خبر وفاتها في بطرسبرغ عن طريق أسرتها. توفيت المرأة فجأة في غرفة تحت سطح أحد المنازل. ويقول بعضهم إنها ماتت بداء التيفوس، والبعض الآخر يقول إنها قضت من «الجوع». عندما تلقَّى فيودور بافلوفتش خبر وفاة زوجته كان في حالة سكرٍ شديد. ويقال إنه راح يركض في الشوارع رافعاً ذراعيه إلى السماء، صائحاً: «الآن حرَّرت عبدك يا ربّ!»[2] وتقول رواية أخرى إنه بكى بكل جوارحه وكأنه طفل صغير، بحيث إذا رآه أحدهم أشفق عليه رغم ما يبعث في النفس من تقزز. قد تكون الروايتان صحيحتين، بمعنى أن الرجل قد اغتبط بتحرره، ولكنه في الوقت نفسه، بكى على محررته. إن الناس، في أغلب الأحيان، وحتى المتوحشين من بينهم، هم أكثر سذاجة وبساطة مما يمكن أن نتصوّر. وهذا ينطبق علينا نحن أيضاً.

II

التخلُّص من ابنه الأول

نتصوَّر، طبعاً، أي أب ومرب يمكن أن يكونه مثل هذا الرجل. وبوصفه أباً، قد حدث له ما كان يجب أن يحدث، أي إنه تخلّى كلياً عن الطفل الذي أنجبه من أديلاييدا إيفانوفنا ليس لأنه يضمر له كرهاً أو لأنه يكنّ له حقداً من حيث إنه زوج مخدوع بل لأنه نسيه كلياً. وبينما كان يزعج كل الناس بدموعه وشكاواه وحوَّل منزله إلى بيت للدعارة، اهتمّ بالطفل ذي الثلاث السنوات، خادم أمين يدعى غريغوري، ولولاه لما وُجد أحد يستبدل له قميصه الصغير. أضف إلى ذلك أن عائلة أمّ ميتيا، هي أيضاً في بادىء الأمر، قد نسيت الطفل. كان جدّ الطفل السيد ميوسوف، والد أديلاييدا إيفانوفنا قد بارح هذا العالم. وكانت زوجته التي أصبحت أرملة، جدَّة الطفل، قد انتقلت إلى موسكو وهي تعاني مرضاً شديداً. وكل شقيقاتها قد تزوّجن. فبقي الطفل ميتيا سنة كاملة، مع الخادم غريغوري في كوخ خشبي للخدم. والأرجح أن الأب لو تذكّر ابنه (وهو لا يمكن أن ينسى وجوده) لأسرع بطرده من ذلك الكوخ لأن الطفل يزعجه في مجونه. لكن حدث أن عاد من باريس، أحد أبناء عمّ المرحومة أديلاييدا إيفانوفنا، ويدعى بيوتر (Piotr) ألكسندروفتش ميوسوف، الذي كان عليه أن يعيش سنوات عديدة في الخارج وكان يومذاك شاباً فتيّاً، ولكنه من نوع خاص مختلفٍ عن سائر أفراد أسرة ميوسوف. متنور نشأ وترعرع في العواصم الكبرى فضلاً عن كونه أوروبياً بأسلوب حياته وقد بقي حتى آخر حياته ليبرالياً على طراز سنوات 1840 - 1850؛ كانت له صلة بأكثر الرجال المفكرين ليبراليةً في زمننا، سواء في روسيا أو في الخارج، وقد عرف برودون وباكونين معرفة شخصية. وبعد كل هذا المطاف من جولته، كان يحلو له، بصورة خاصة، أن يستعيد ذكريات مشاعره خلال الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط/ فبراير في العام 1848 التي اندلعت في باريس، وكان يحلو له أيضاً أن يعرِّف المستمعين إليه، في هذه المناسبة، أنه وجد نفسه وراء المتاريس. كانت تلك إحدى ذكرياته الأكثر بهجة في شبابه. كان يملك ثروة خاصة تقدَّر في ذلك العصر بألف نفس حسب المعايير القديمة. وكانت أملاكه الشاسعة تقع بالقرب من مدينتنا الصغيرة وتحاذي أراضي ديرنا الشهير الذي أقام عليه بيوتر ألكسندروفتش، منذ شبابه الأول، أي بعد أن ورث هذه الأراضي فوراً، قضيَّةً طال أمدها، وهي تتعلق بحقوق الصيد في النهر أو حقوق قطع الأشجار في الغابة أو غير ذلك. لست على معرفة بكل التفاصيل، وتلك قضية تافهة في ذاتها ولكن اعتبر أن من واجبه كمواطن وكإنسان مثقّف أن يقاضي «الإكليروس». فلما علم بكل قصة أديلاييدا إيفانوفنا التي كان يتذكرها، بدون شك، حتى إنه كان قد التقى بها فيما مضى، وعلم بوجود الطفل ميتيا، قرّر أن يتدخل في الأمر رغم احتقاره لفيودور بافلوفتش وما كان يشعر به إزاء تصرّفاته من استنكار؛ التقى في هذه الظروف، للمرة الأولى، فيودور بافلوفتش فأبلغه صراحةً وبوضوح أنه يرغب في أن يهتمّ بتربية الطفل. وتوجَّب عليه أن يروي، لاحقاً، كأنما يريد أن يبرز أخلاق فيودور بافلوفتش، أن هذا الأخير، عندما تكلّم معه عن ميتيا، بدا عليه، في أول الأمر، أنه لا يعرف أيَّ طفل يعني، وبدت عليه الدهشة من أن يكون له ابن صغير يقيم في مكان ما في منزله. يمكن أن تكون قصة بيوتر ألكسندروفتش تحمل بعض المبالغة، فممَّا لا شك فيه أنه لم يبتعد كثيراً عن الحقيقة. أما في الواقع فإن فيودور بافلوفتش كان طوال حياته يحبّ أن يمثّل وأن يظهر فجأة في دور غير متوقع، دون أن يكون لذلك سبب، ودون أن

يجني فائدة، بل ربما أصابه ضرر، جراء ذلك، في كثير من الأحيان. وتلك سمة نجدها لدى عدد كبير من الناس، وربّما يكون بعضهم على جانب وافر من الذكاء، فهي ليست وقفاً على فيودور بافلوفتش وحده. وعالج بيوتر ألكسندروفتش الأمور بعزم وحزم، فتمَّ تعيينه وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيودور بافلوفتش)، لأنه، رغم كل شيء، هناك بقية من إرث تركته الأم بعد وفاتها، وهو منزل وقطعة أرض صغيرة. وهكذا، انتقل ميتيا ليعيش في كنف هذا العم الذي لا عائلة له. فأسرع عائداً إلى باريس ليقيم فيها مدَّة طويلة بعد أن رتَّب أموره وتقاضى ريع أراضيه وعهد بالطفل إلى إحدى بنات أعمامه وهي سيّدة من موسكو. وحدث أنه خلال إقامته في باريس قد نسي كلياً، هو أيضاً، الطفل، سيّما بعد ثورة شباط/ فبراير تلك الشهيرة التي أثرَّت في خياله حتى أصبح غير قادر على نسيانها إلى آخر أيامه. وتوفيت السيّدة الموسكوفية فانتقل ميتيا إلى منزل إحدى بناتها التي تعهّدته وكانت متزوجة. أعتقد أنه غيَّر مكانه بعد ذلك للمرة الرابعة. لكنني لا أريد أن أسترسل الآن في ذكر هذه التفاصيل سيّما وأنني سوف أتحدث بإسهاب عن هذا الابن الأول من أبناء فيودور بافلوفتش. أما الآن، فحسبي أن أتوقف على بعض الإشارات التي لا بدَّ منها والتي بدونها لا أستطيع أن أبدأ سرد روايتي.

بادىء ذي بدء، إن ديمتري فيدوروفتش هذا كان الوحيد من بين أبناء فيودور بافلوفتش الثلاثة، الذي كان مقتنعاً بأنه يملك ثروة صغيرة ستعود إليه عندما يبلغ سنّ الرشد فيصبح مستقلاً. وقد قضى عمر المراهقة والسنوات الأولى من شبابه في حياة ملؤها الاضطراب. وقبل أن ينهي دراسته الثانوية دخل مدرسة عسكرية وأُرسل بعد ذلك إلى القفقاس ونال ترقيةً، لكنه تورط في مبارزة فجُرِّد من رتبته، ثم ترقّى مجدداً، وغرق في حياة المجون فبدّد مبالغ ضخمة، ولم يبدأ بتلقّي أموال من أبيه فيودور بافلوفتش إلا عندما بلغ سن الرشد وكان غارقاً في الديون. ولم يعرف أبوه فيودور بافلوفتش إلا بعد أن بلغ سن الرشد، وذلك عندما قدم إلى مدينتنا، لأول مرة، يناقش أباه في شأن ميراثه. ويبدو أنه نفر من أبيه دفعة واحدة فمكث عنده فترة وجيزة، ثم عاد راجعاً بعد أن حصل منه على مبلغ من المال وعقد معه اتفاقاً غامضاً للحصول على ريع أرضه تباعاً دون أن يتمكن من إقناع أبيه على أن يحدّد له قيمة الأرض وإيرادها (هذه نقطة ملحوظة). أدرك فيودور بافلوفتش منذ المرة الأولى (وهذه أيضاً نقطة يجب تسجيلها) أن لدى ميتيا فكرة مبالغة وغير صحيحة عن ثروته. لقد كان فيودور بافلوفتش بالغ السرور لأسباب خاصة به؛ وقد استنتج أن الفتى كان طائشاً مندفعاً في أهوائه ونافد الصبر مستعجلاً، ويكفي أن تعطيه أي مبلغ حتى يهدأ على الفور ولو موقتاً. هذا ما راح فيودور بافلوفتش يستغله، أي التخلص من ابنه بإعطائه دفعات صغيرة يرسلها إليه من حين إلى آخر. حتى عندما، نفد صبر ميتيا وعاد إلى مدينتنا بعد أربع سنوات لينهي مسألة الإرث، مرة ثانية ونهائية مع أبيه، أصيب بالدهشة عندما علم أنه لم يعد يملك شيئاً. حتى أنه كان من الصعب أن يدقق في الدفعات التي أخذها من والده والتي أصبحت تتجاوز قيمة الأرض الموروثة فأصبح هو المدين لأبيه وليس أبوه مديناً له. وكانت دهشته رهيبة أكثر عندما علم أنه بموجب الاتفاق الذي عقده مع أبيه أصبح لم يعد له الحق بالمطالبة بشيء. صُعق الفتى وشعر أنه خُدع وأنّ أباه يكذب عليه فثارت ثائرته حتى أصبح كمن فقدَ صوابه. هذه هي الحالة التي أدّت إلى الكارثة التي تشكل موضوع روايتي الأولى التمهيدية، أو بتعبير أفضل، قصَّتها الخارجية. ومع ذلك، وقبل الانتقال إلى هذه الرواية يجب أن أتكلّم عن ابنيْ فيودور بافلوفتش الآخرين شقيقي ميتيا وأن أفسّر من أين جاءا إلى هذه الحياة.

III

الزواج الثاني

والابنان الثانيان

بعد أن رتب فيودور بافلوفتش مسألة طفله ميتيا تزوّج مرّة ثانية بسرعة. استمر هذا الزواج الثاني ثماني سنوات. وزوجته الثانية، صوفيا إيفانوفنا، كانت هي أيضاً فتاة في مقتبل العمر من إقليم آخر حيث ذهب لفترة قصيرة للقيام ببعض الأعمال التي كان يشارك فيها يهودي حقير. واسترسل فيودور بافلوفتش في الفسق والشراب والمجون، ولم يتوقف أبداً عن الاهتمام برأس ماله، فعرف دائماً كيف يتدبَّر أعماله الصغيرة بنجاح حتى وإن كان ذلك بشكل قذر. كانت صوفيا إيفانوفنا «يتيمة صغيرة» بدون عائلة منذ طفولتها، وهي ابنة شماس غير معروف! نشأت في منزلٍ ثريّ لمحسنة ومربِّية قاسية القلب في آن، سيدة أرستقراطية عجوز، أرملة الجنرال فوروخوف. لا أعرف كل التفاصيل لكنني سمعت همساً، أن هذه اليتيمة القاصر، المسكينة اللطيفة المتواضعة التي لا حول لها، وُجدت، ذات يوم، تحاول أن تشنق نفسها بمسمار في غرفة المؤونة لشدّة ما تحملت من قسوة الغضب والنزوات المستمرة من تلك العجوز التي لم تكن في الظاهر شريرة، ولكنها، في الواقع، امرأة جعلها الفراغ مستبدة لا تحتمل. طلب فيودور بافلوفتش يد الفتاة فاستعلموا عنه ورفضوه. ومرّةً جديدة، وكما في الزواج السابق، اقترح على الفتاة اليتيمة أن يختطفها. والأرجح أنها لم تكن لتوافق أبداً على الزواج به لو علمت تفاصيل حياته بدقّة. لكن المسألة جرت في إقليم آخر. وماذا يمكن لفتاة في السادسة عشرة أن تدرك أنه من الأفضل أن ترمي نفسها في النهر على أن تبقى في منزل المحسنة إليها. وهكذا انتقلت الفتاة المسكينة من منزل محسنة إلى منزل محسن. وهذه المرة، لم يقبض فيودور بافلوفتش فلساً واحداً، لأن «الجنرالة» غضبت ولم تعطه شيئاً غير أنها لعنت الاثنين معاً. وهو لم يكن يتوقع أن يقبض شيئاً في هذه المرة، ولم يكن يغريه إلا جمال الفتاة البريئة الرائعة، خاصة ما تتمتع به من براءة أحدثت تأثيراً ملتهباً في نفس هذا الرجل الماجن الذي لا يهتم إلا بالجمال الأنثوي المبتذل. «تانك العينان الصغيرتان البريئتان قد اخترقتا نفسي على الفور كحدِّ الموسى»: كان يردّد ذلك، فيما بعد، بضحكته القذرة المعروفة عنه. ويجوز أيضاً أن ذلك الافتتان لم يكن لدى ماجنٍ مثله إلا وجهاً من وجوه اللذة الجسدية. ولأنه لم يكسب أيّ تعويض مالي، لم يكن فيودور بافلوفتش يشعر بأي حرج تجاه زوجته، فاستغلَّ شعورها بأنها «مذنبة» تجاهه هو الذي «أنقذ» حياتها، مستغلاً، بالإضافة إلى ذلك، ما يتصف به من طبعها من لطافة وتواضع، وداس أبسط قواعد الحياة الزوجية. فراح يقيم حفلات المجون في منزله، بحضور زوجته، ويجمع فيه نساءً عاهرات. أستطيع أن أذكر، كسمة مميزة، أن الخادم غريغوري، الرجل السكوت والغبي والعنيد أيضاً، الذي كان يكره سيّدته السابقة، أديلاييدا إيفانوفنا، قد انحاز، في هذه المرة، إلى السيدة الجديدة، يدافع عنها ويختصم مع فيودور بافلوفتش، بشكل غير لائق من خادم. حتى إنه، ذات مرة، وضع حداً لحفلة ماجنة وطرد بالقوة أولئك المومسات اللواتي استقدمهنّ إلى المنزل. بعد ذلك، أصيبت هذه المرأة التعيسة الشابة التي عانت من الإرهاب منذ طفولتها، أصيبت بمرضٍ نسويّ عصبي ينتشر، غالباً، في أوساط الطبقة الشعبية وبين الفلّاحات اللواتي يُسمَّين بسبب هذا المرض «النساء المولولات». ومع هذا المرض الذي

يصيبها بنوبات هستيرية رهيبة، كانت المريضة تعاني، أحياناً، حالةً من الجنون. لكنها أنجبت ابنين لفيودور بافلوفتش، هما إيفان وألكسي، الأول بعد سنة على زواجها، والثاني ألكسي بعد ولادة الأول بثلاث سنوات. وعندما ماتت، كان عمر الصغير ألكسي ثلاث سنوات؛ وإني أعرف، مهما يبدو هذا الأمر غريباً، أن ذكرى أمه عاشت في ذهنه طوال حياته ولو بشكل يشبه الحلم طبعاً. كان مصير هذين الطفلين، بعد موتها، كمصير الابن الأول ميتيا. نسيهما والدهما وهجرهما كلياً، فضمَّهما غريغوري إليه، في كوخه الخشبي. وفي ذلك الكوخ، اكتشفتهما «الجنرالة» العجوز المهووسة التي كانت محسنة لأمّهما ومربّية لها. في ذلك الوقت، كانت لا تزال على قيد الحياة. وخلال تلك السنوات الثماني لم تستطع أن تنسى الإهانة التي أُلحقت بها. كانت، في تلك الفترة، تتابع أخبار «حبيبتها صوفيا»، واستعلمت عن كل التفاصيل، فلما عرفت بنبأ مرضها الخطير والبيئة المتوحشة الفاضحة التي تحيط بها، قالت بصوت عالٍ مرتين أو ثلاثاً، أمام صديقاتها إنها غلطتها، «والله وحده مَن يعاقبها على نكرانها الجميل».

بعد ثلاثة أشهر بالضبط على وفاة صوفيا إيفانوفنا، ظهرت «الجنرالة» فجأة في مدينتنا الصغيرة واتجهت على الفور إلى منزل فيودور بافلوفتش. وإن كانت إقامتها لم تتجاوز نصف الساعة في مدينتنا، لكنها وجدت الوقت الكافي لتقوم بأشياء كثيرة. كان ذلك عند المساء؛ وفيودور بافلوفتش الذي لم تره منذ سنوات، أسرع إلى استقبالها وهو في حالة سكرٍ بعض الشيء. يقال إنها، في طرفة عين، مذ رأته، وبدون أي تفسير عاجلته بصفعتين قويتين مدوّيتين، دون أيّ تردد، ثم، بدون كلام، أمسكته من شعره وهزّته ثلاث مرات، واتجهت به إلى الكوخ حيث يوجد الطفلان. وإذ لاحظت، من النظرة الأولى، أنهما لم يستحمّا منذ أمد طويل وأنّ ملابسهما الداخلية كانت متّسخة، وجّهت إلى غريغوري أيضاً صفعة أخرى، قائلة له إنها ستأخذ الولدين إلى منزلها، ثم انطلقت بهما كما كانا بعد أن لفَّتهما بغطاء ووضعتهما في عربتها ورجعت بهما إلى المدينة. تقبَّل غريغوري هذه الصفعة كعبدٍ مطيع دون أن ينبس بكلمة بل رافق السيدة النبيلة حتى العربة، وقال لها بتأثر وهو ينحني بكل قامته: «إن الله سيكافئها بسبب هذين اليتيمين». «وأنت، رغم ذلك، أبله». قالت له «الجنرالة» صارخة وهي تهمّ بالانصراف. وبعد أن تفحص فيودور بافلوفتش كل العملية وجد أن كل شيء قد جرى كما يجب. ثم لم يرفض، بعد ذلك، أيَّ عقبة ووقَّع اتفاقاً رسمياً مع «الجنرالة» على أن يُربَّى ولداه في منزلها، أما بالنسبة إلى الصفعات التي تلقّاها فقد طاف وهو يتباهى بها في المدينة كلها.

توفيت «الجنرالة»، بعد ذلك بزمن قصير وأورثت كلاً من الطفلين مبلغ ألف روبل في وصيتها التي نصّت على أنّ هذا المبلغ «مخصَّص لتعليمهما فقط، ولا يجوز أن ينفق منه شيء إلا عليهما شرط أن يكفيهما حتى بلوغ سن الرشد لأن هذا المبلغ الكبير يكفي لإعالة طفلين مثلهما؛ فإذا اعتقد بعض الهواة أن هذا الإرث غير كافٍ فليدفعوا النقص من جيوبهم هم»، الخ. إنني لم أقرأ شخصياً الوصية ولكن قيل لي إنها تضمنت أموراً غريبة من هذا القبيل وإنها كُتبت بشكل طريف. والوارث الرئيسي الذي آلت إليه أموال العجوز كان رجلاً شريفاً ورئيس نبلاء المقاطعة، هو إيفيم بتروفتش بولينوف. وبعد أن تواصل مع فيودور بافلوفتش اكتشف أن هذا الرجل لن يدفع فلساً واحداً لتعليم ولديه (رغم أن فيودور بافلوفتش لم يرفض ذلك مباشرة إنما اقتصر على المماطلة وربّما الاستزادة في أقوال عاطفية. عندئذ، قرر إيفيم بتروفتش أن يهتم بالولدين شخصياً، وتعلّق، بصورة خاصة، بأصغرهما ألكسي فربّاه في عائلته نفسها خلال سنوات، أرجو من القارىء أن تبقى هذه النقطة في ذهنه منذ البداية. فإذا تمكّن هذان الشابان أن يحظيا في حياتهما كلها بتربية حسنة وثقافة ملائمة فيعود الفضل، في ذلك، إلى إيفيم بتروفتش، هذا الإنسان الأكثر نبلاً وإنسانية وهو من النوع الذي نادراً ما نقع على مثيل له. احتفظ بالألف روبل التي ورثها كلّ من الولدين من «الجنرالة» وعندما بلغا سن الرشد كان الألف، بفضل الفوائد، قد أصبح ألفين.

لقد تعهّد تربية الولدين من أمواله الخاصة وأنفق عليهما أكثر من الألف روبل طبعاً. لن أدخل هنا في سرد تفاصيل حياتهما خلال الطفولة والمراهقة وسأكتفي بالمحطات الأساسية. عن الابن البكر إيفان، أقول إنه أصبح على مرّ الزمن مراهقاً يتّصف بالتجهُّم والانطواء على الذات، ولم يكن خجولاً بل كان يبدو أنه أدرك منذ العاشرة من عمره أنه يعيش هو في كنف عائلة وإحسان شخص آخر. وأنّ أباهما من النوع الذي يخجل المرء التحدّث عنه. أظهر هذا الصبي في عمر مبكر (هذا ما يقال على الأقل) قدرات خارقة وتفوّقاً في الدراسة. إنني لا أعرف كل التفاصيل، لكنني أعرف أن الصبي غادر عائلة إيفيم بتروفتش وهو في الثالثة عشرة تقريباً والتحق بمدرسة ثانوية في موسكو، وهناك أقام في «بانسيون» لست أدري أيّ عالم في التربية ذي خبرة وذائع الشهرة، كان صديق الطفولة لإيفيم بتروفتش. وقد حكى إيفان بنفسه، فيما بعد، أن ذلك كلّه يعود إلى ما يتصف به إيفيم بتروفتش «من اندفاع لأعمال الخير» قد شجعته فكرة أنّ هذا الصبي ذو مواهب فائقة يجب أن يهتمّ به عالم تربية عبقري. لكن إيفيم بتروفتش والمربّي العبقري كانا قد انتقلا كلاهما من هذه الدنيا حين أنهى الفتى دراسته في الثانوية، فالتحق بالجامعة. ولأن إيفيم بتروفتش لم يعرف أن يتخذ تدابيره والألف روبل التي أوصت بها «الجنرالة» المهووسة للطفلين والتي أصبحت، بفضل الفوائد، ألفين، تأخر استلامهما بسبب الكثير من الاجراءات الشكلية والآجال التي لا بدّ منها في بلادنا. اضطرَّ الشاب خلال السنتين الأوليين اللتين قضاهما في الجامعة، أن يكسب رزقه بنفسه ويؤمّن حاجاته لكي يتابع دراسته. وجدير بالذكر أنه لم يحاول أن يكتب لأبيه ربما عن كبرياء وإما عن احتقار له أو بالتالي لأنّ عقله الهادىء قد أشار إليه ألّا ينتظر مساعدة جدّية من أبيه. على أية حال، حافظ الشاب على هدوئه، واستطاع، في نهاية المطاف، أن يجد عملاً، بدأ، أول الأمر، بإعطاء دروس بأجر قدره فلسان ثم استطاع أخيراً، بالسعي من إدارة تحرير للصحف إلى إدارة أخرى، أن يكتب مقالات مقتضبة من عشرة أسطر، عن حوادث الشارع، موقَّعة باسم «شاهد عيان». إن تلك المقالات المقتضبة، حسبما يقال، كان لها جانب فضولي ولاذع بحيث لاقت نجاحاً كبيراً. بذلك أظهر هذا الشاب تفوّقه العملي والثقافي على أولئك الشبّان الكثيرين، من الجنسين، الذين يعيشون في عوز في عواصمنا ويحاصرون إدارات التحرير من الصباح حتى المساء، دون أن يحسنوا ابتكار شيء غير تكرار طلبهم الدائم، وهو أن يكلَّفوا بالترجمة عن اللغة الفرنسية أو نسخ المقالات. ولما تمرَّس إيفان فيدوروفتش بالتحرير تابع عمله ونشر خلال السنوات الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات ذات شأن عرض فيها للعديد من المؤلفات ذات مواضيع متخصّصة فأصبح معروفاً في الأندية الأدبية. إلا أنه لم ينجح بأن يجذب إليه فجأة انتباه حلقة واسعة من القراء إلا في أواخر تلك الفترة، فصار عدد كبير منهم يذكرونه دائماً. وما إن أكمل دراسته الجامعية واستلم الألفي روبل وبدأ يستعد للسفر إلى الخارج. حتى نشر ذات يوم في إحدى كبريات صحفنا اليومية مقالاً غريباً جذب إليه نظر غير المتخصصين من القراء، خاصة وأن المقال يتناول موضوعاً ليس له أي صلة بما انصرف اليه الشاب من دراسات علمية. فقد تناول مقاله مسألة كانت موضع نقاش دائم ألا وهي، محكمة الكنيسة وبعد أن تفحص عدداً من الآراء التي تناولها هذا الموضوع، عبّر عن آرائه الشخصية. تميز مقاله، بصورة خاصة، باللغة التي كتب بها كما بالخاتمة التي آل إليها وقد اتصفت بأنها غير متوقعة. والحال هذه، فإن عدداً كبيراً من رجال الإكليروس اعتبروا الكاتب واحداً منهم. وفي الوقت عينه، أعرب ليس العلمانيون فقط وإنما عدد كبير من الملحدين أيضاً عن تأييدهم وقدّموا له التهاني. في نهاية المطاف استنتج بعض الأشخاص ثاقبي البصيرة أن المقال ليس سوى مزاح ومهزلة. وإذ أذكر هنا هذه الحالة، بشكل خاص، فذاك أن المقال قد دخل في حينه إلى ديرنا الشهير الذي يولي مسألة محكمة الكنيسة اهتماماً بالغاً. لقد أحدث ذهولاً عاماً. وبعد أن كُشف عن اسم الكاتب، اهتم الناس بكونه من مدينتنا، وابن «هذا فيودور بافلوفتش بالذات». وفجأة، وفي تلك اللحظة، ظهر الكاتب شخصياً في مدينتنا.

ماذا جاء يفعل إيفان فيدوروفتش عندنا؟ أذكر جيداً أنني طرحت هذا السؤال على

نفسي منذ تلك اللحظة وأنا أحس بنوع من القلق. فهذه الزيارة المشؤومة التي كانت مصدراً لوقوع أحداث عديدة، بقيت في ذهني زمناً طويلاً لا بل استمرت أمراً مبهماً لم أتمكن من فهمه أبداً. وعلى وجه العموم، كان مستغرباً أن يقرر شاب يتمتع بهذه المعرفة وبهذه الكبرياء وهذا الحذر، المجيء فجأة إلى منزل سيّئ السمعة إلى منزل والد تجاهله طوال حياته ولم يتعرّف إليه وحتى إنه نسي وجوده. ويعلم الإبن أن أباه الذي كان سيرفض في أي ظرف، إعطاء ابنه بعضاً من المال إذا ما طلب منه ذلك، كان يخاف دائماً من أن يطلب منه ابناه، إيفان وألكسي، ذات يوم، بعض المال الواحد تلو الآخر. وها هو الشاب يقيم في منزل مثل هذا الأب، ويقضي فيه شهراً ثم آخر، ويتفاهمان على أفضل وجه. ولم يدهشني هذا الأمر أنا وحدي بل أدهش الكثيرين أيضاً. وكان بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف الذي سبق وتحدثت عنه، أحد أقارب زوجة فيودور بافلوفتش الأولى يومذاك يقيم عندنا في قطعة الأرض التي يملكها بالقرب من المدينة، قادماً من باريس بعد أن اتخذها مقراً له نهائياً. أذكر أن هذا الأخير كان من أشد الناس دهشةً حين التقى الشاب إيفان، فأولاه اهتمامه وصار يشعر بالمنافسة معه في ما يتعلق بالعلم والثقافة مع شيء من الألم كان يخفيه. ويقول لنا، غالباً، في تلك الفترة عندما يتكلم عنه: «إنه رجل ذو كبرياء، ليس صعباً عليه كسب رزقه؛ فماذا جاء يفعل هنا؟ من الواضح أنه لم يقصد والده للحصول على بعض المال لأنّ والده لن يعطيه شيئاً. أما لكي يعاقر الخمرة ويسترسل في المجون فذاك ليس من عادته. ومع ذلك، أصبح الوالد لا يستطيع التخلي عنه لشدة تعلّقه به». هذا صحيح. ومن الواضح أن الشاب كان يؤثّر في والده ويبدو أن هذا الأخير كان يطيعه أحياناً رغم كونه لا يتمتع بطبع اجتماعي، ويكون أحياناً شرساً، وقد بدأ الوالد يحسّن في سلوكه بعض الشيء.

ولم يُعرف إلَّا فيما بعد أن إيفان فيدوروفتش قد جاء بناءً على طلبٍ من أخيه البكر ديمتري فيدوروفتش الذي دعاه ورآه للمرة الأولى رغم مراسلته له قبل رحيله إلى موسكو لمعالجة قضية هامة تتعلق بديمتري فيدوروفتش. ماذا كانت تلك القضية؟ سيعرف القارىء كلّ تفاصيلها في حينه. وإن يكن، ومنذ تلك اللحظة وأنا على علم مسبق بذلك الظرف الخاص، بدا لي إيفان فيدوروفتش لغزاً محيّراً، وبقيت زيارته مهما قيل عنها، أمراً لا تفسير له.

أضيف أيضاً أن إيفان فيدوروفتش كان يبدو للناس أنه الوسيط والموفِّق في الخلاف بين والده وأخيه البكر ديمتري فيدوروفتش الذي كان يخطط لخلاف مع والده لا بل لإقامة دعوى قضائية ضده.

إن هذه العائلة الصغيرة، أكرر القول، قد وجدت ذاتها مجتمعة للمرة الأولى في حياتها وأن بعض أفرادها لم يسبق لهم أن تلاقوا يوماً من الأيام. فالابن الأصغر ألكسي فيدوروفتش كان الوحيد الذي أقام منذ عام في مدينتنا التي قدم إليها قبل أخويه. وعن ألكسي هذا بالضبط يصعب عليّ أن أتحدث في هذه القصة التي هي بمثابة تمهيد للرواية قبل أن أضعه في صلب الأحداث. مع ذلك، ينبغي أن أكتب عنه أيضاً، مقدّمة لكي أوضّح سلفاً أمراً غريباً هو، أنني مرغم على أن أقدّم بطلي للقارىء منذ المشهد الأول للرواية في لباس مترهِّبٍ مبتدىء. أجل، إنه يسكن في ديرنا منذ عام، ويبدو أنه يتهيأ للاعتكاف فيه طوال حياته.

IV

الابن الثالث، أليوشا

لم يكن يومذاك قد بلغ العشرين من عمره (كان أخوه إيفان في الرابعة والعشرين، بينما أكبر الأخوين ديمتري كان في الثامنة والعشرين). قبل كل شيء، أعلن أن الشاب أليوشا لم يكن متعصباً دينياً ولم يكن، في رأيي، صوفياً البتة. وأعبّر مسبقاً عن رأيي الحاسم فيه: إنه بمنتهى البساطة، إنسان صديق للبشرية، نضج منذ نعومة أظفاره؛ وإن هو اختار طريق الدير فذلك لأن هذا الطريق بدا له في تلك الفترة الطريق الوحيد الذي ينبغي أن تنطلق فيه حياته، والمكان المثالي لخلاص نفسٍ تطمح، بعيداً عن البغض في هذا العالم إلى الارتماء في نور الحب وإذا كانت تلك الطريق قد اجتذبته فذلك بفضل التقائه كائناً يعتبره غير عادي، واحد من رهبان ديرنا، هو زوسيما العجوز الذي تعلَّق به الشاب تعلّقاً فيه كل الحرارة التي تملأ قلبه العطِش. لكنني لا أنكر أن هذا الشاب، حتى في تلك الفترة، كان غريب الأطوار جداً، وكان كذلك منذ المهد. بالمناسبة فقد سبق أن ذكرت، في هذا الشأن، أنه بعد وفاة أمه وهو في الرابعة من عمره، احتفظ بذكراها طوال حياته؛ يرى وجهها ويشعر بملاطفاتها. وكان يقول: «كما لو أنها كانت حاضرة في الحقيقة أمامي أو تقريباً». هذا النوع من الذكريات يُحفر في النفس (وهذا ما يعرفه الجميع) حتى في سنّ أصغر، حتى في الثانية من العمر. لكنها، في مثل هذه الحالة، لا تكون إلا مثل نقاط من الضوء تخرج من العتمة أو مثل زاوية صغيرة من لوحة كبيرة جداً انطفأ معظمها وامَّحى إلا تلك الزاوية الصغيرة. احتفظ الشاب بذكرى أمسية هادئة من إحدى أمسيات الصيف، ونافذة مفتوحة، وأشعة مائلة ترسلها الشمس أثناء المغيب (وأكثر ما يتذكر هو من تلك الأشعة المائلة). وفي إحدى زوايا الغرفة إيقونة وسراج صغير يشتعل أمامها. وأمام الإيقونة تركع الأمّ وقد أصيبت بنوع من الهستيريا وهي تطلق صراخاً حاداً وأنات موجعة، تمسكه بذراعيها، وتشدّه إلى صدرها بقوة حتى تؤلمه، وتبتهل إلى أمّ الله أن تحميه وأن ترعى هذا الطفل الذي تمدُّه الأم بذراعيها إلى الإيقونة كأنما لتحميه أم الله. وفجأة تظهر ممرِّضة وتنتزعه من بين يديها وهي في ذعر بالغ. هذه هي اللوحة! ويحتفظ أليوشا أيضاً منذ تلك اللحظة بذكرى وجه أمه: وكان يقول إن وجهها كان مروِّعاً لكنّه رائع الجمال، على قدر ما استطاع أن يتذكر. نادرون هم الذين أحبَّ أن يتحدث معهم عن هذه الذكرى، كان في طفولته وفي عمر المراهقة قليل التحدث عن نفسه، لم يكن ثرثاراً، وليس ذلك عن حذر أو خجل ولا عن تجهُّم في طبعه، لا، بعكس ذلك تماماً، بل بسبب شيء آخر وكأنه نوع من الهمّ الداخلي، الشخصي الذي لا يتعلق بالآخرين بل به شخصياً، وهذا الأمر كان ينسيه حتى وجود الآخرين. مع ذلك، كان يحب الناس. لقد عاش حياته كلها في ثقة كبيرة بالناس؛ وما من أحد أبداً كان يعتبره رجلاً ساذجاً. كان في داخله شيء يُشعر الآخرين بأنه لا يريد أن ينصِّب نفسه حكماً على الناس ويرفض أن يدين أحداً (وهكذا بقي طوال حياته). ويمكن الاعتقاد أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه، ولكن بمرارة كئيبة في غالب الأحيان. وفوق ذلك، لا يدهشه شيء ولا يخيفه شيء وذلك منذ مطلع صباه. وفي منزل والده، الذي كان ماخوراً للدعارة، كان يكتفي بالسكوت، وهو في التاسعة والعشرين من العمر، محافظاً على طهارته، يبتعد صامتاً إذا أحسَّ بأنه لا يستطيع تحمّل رؤية هذا المشهد أو ذاك، دون أن يُظهر شيئاً من الاحتقار أو الإدانة لأي شخص. أما والده، الطفيلي القديم، الذي كان سريعاً إلى إدراك الإهانة والشعور بها، فقد استقبله، في

بادىء الأمر، بشك وحذر، وشعر تجاهه بمشاعر لا تحمل من الودّ الكثير (إنه مفرط في الصمت تجاهي ومسرف في التفكير دون كلام)؛ لكنه أخذ بعد أسبوعين تقريباً يعانقه ويضمّه بين ذراعيه. صحيح أنه كان يقوم بذلك بدموع السكران ومشاعر السكر، مع ذلك، كان واضحاً أنه يحبّه بصدق وبعمق، كما لم يحب أيّ رجل أبداً.

على كل حال، كان جميع الناس يحبّون ذاك الشاب، حيثما وجد، وذلك منذ طفولته الأولى. وعندما كان يعيش في منزل المحسن إليه ومربّيه إيفيم بتروفتش بولينوف، بلغ من تعلّق كل أفراد العائلة به أنهم اعتبروه واحداً منهم تقريباً، وقد دخل ذلك المنزل وهو لا يزال في عمر من المستحيل إطلاقاً، تصوّر وجود مكر مقصود لديه ورياء، أو فنّ الممالأة والإرضاء، موهبة جعل الآخرين يحبونه. سيما وأن هذه الموهبة في إيقاظ حب خاص قد ولدت معه. وهكذا كان الأمر نفسه في مدرسته أيضاً فكان في ظاهره من الأولاد الذين لا بدَّ أن يوقظوا في رفاقهم الحذر، ويجلبوا لأنفسهم سخرية رفاقهم، لا بل عداوتهم. فهو على سبيل المثل، كثيراً ما كان يعتزل فيغرق في التأمل. كان يحب أن ينزوي في زاوية ما لكي يقرأ بعض الكتب. ومع ذلك، فقد أحبّه رفاقه؛ حتى إنه بقي طوال حياته المدرسية أثير رفاقه دون منازع. نادراً ما كان يتحمس إنما كان لا يبدو مرحاً. يكفي أن تنظر إليه حتى تعرف أنّ ذلك لا يعود إلى نفوره من الناس بل لأنه شخص ذو نفس هادئة. وكان يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه وربّما هذا هو السبب في أنه كان لا يخاف أحداً. لكن الصِّبْية سرعان ما أدركوا أنه لا يتباهى بشجاعته بل يظل بسيطاً منطلقاً على سجيته كأنما لا يشعر بجرأته؛ ولا يحتفظ أبداً بذكرى إساءة أصابته أو إهانة ألحقت به. وغالباً ما كان يبادر إلى التحدث مع الشخص الذي أساء إليه أو أهانه، وذلك بعد الحادثة بساعة واحدة فقط؛ فكان يبدو في حديثه حينئذ من الثقة بالنفس ما يُشعر الآخر بأن شيئاً لم يحدث بينهما. كان لا يبدو عليه أنه نسي الإساءة أو سامح مقترفها عمداً بل كان يرى أن الاساءة لم تحدث وذاك ما يعجب له الصِّبية ويسحرهم على الفور. لم تكن فيه إلا سمة واحدة أغوت زملاءه، في كل صفوف المدرسة، من الصف الأول حتى الأخير، هي أن يمازحوه ليس عن سخرية مؤذية بل لأن ذلك كان يضحكهم. كانت تلك السمة نوعاً من الخجل المتعلق بالاحتشام الشديد. كان ينفر من الأحاديث ومن بعض الألفاظ التي يتبادلها التلامذة عن النساء؛ ومع الأسف إن هذه الأحاديث والألفاظ التي تجري في المدرسة يستحيل استئصالها. ثمة تلامذة ذوو نفس وقلب طاهرين ما يزالون أولاداً صغاراً، غالباً ما يجدون لذة في التحدث عن هذه الأمور، بصوت مرتفع أحياناً، ويصفون مشاهد قد يخجل حتى الجنود التفوّه بها. بيد أن هؤلاء يجهلون أو لا يفهمون، في حالات كثيرة، أموراً أصبحت في أيامنا هذه عادية أو مألوفة عند الأولاد الصغار من أبناء الطبقة المثقفة والطبقة الراقية. وأعتقد أن هذا الأمر لا يجوز أن يُصنف فجوراً أو تهتكاً فهو ليس خروجاً عن الأخلاق بل هو نوع من الإباحية اللفظية التي يروق التلامذة أن يعتبروها دلالة رهافة في الذوق وجرأة جديرة بالتقليد. وعندما لاحظ التلامذة أن «أليوشكا كارامازوف» كان يسدّ أذنيه بسرعة عندما يباشرون بالحديث عن هذه الأمور صاروا يتحلّقون حوله ويتفوّهون بكلمات نابية وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة، فيما كان هو يتخبط بينهم ويقع على الأرض ويغطي وجهه دون أن يقول لهم كلمة واحدة ودون أن يغضب بل يتحمل الإساءة دون أن ينبس بكلمة. وفي النهاية، ورغم كل شيء، تركوه وشأنه، وتوقفوا عن معاملته «كبنت صغيرة» لا بل قد حلّ محل السخرية نوع من العطف عليه. وبالمناسبة، كان دائماً من بين التلامذة الممتازين في المدرسة غير أنه لم يكن الأول أبداً.

بعد وفاة إيفيم بتروفتش بقي أليوشا سنتين في مدرسة المقاطعة. وسافرت زوجة إيفيم بتروفتش الحزينة بعد موته فوراً إلى إيطاليا مع عائلتها التي لم تكن تتألف إلّا من الجنس النسائي بينما انتقل أليوشا إلى منزل سيدتين لم يسبق أن رآهما من قبل، تربطهما بعائلة إيفيم بتروفتش قربى بعيدة. أما التكاليف فلم يكن يعرف الكثير عنها. هناك سمة أخرى في طبعه ومن أكثر السمات بروزاً وهي أنه لم يكن يهمه أبداً أن يعرف من يعيله

بالضبط. من هذه الناحية، كان النقيض المطلق لأخيه البكر إيفان فيدوروفتش الذي عاش في التقتير خلال السنتين الأوليين من دراسته في الجامعة، يعيش من عمله ويشعر منذ طفولته أنه يعيش على حساب الآخرين في منزل أحد المحسنين إليه. مع ذلك، من المستحيل، على ما أعتقد، أن ندين بقساوة هذه السمة الغريبة في طبع أليوشا، لأن كل من يعرفه، ولو قليلاً، يقتنع فوراً عندما يطرح هذا السؤال، بأنه كان واحداً من أولئك الشبان الذين يشبهون بسطاء القرية، أولئك الذين إذا هبطت عليهم ثروة ضخمة من المال لم يترددوا في أن يعطوها لأول من يسألهم ذلك أو أن ينفقوها إما لعمل الخير وإما ربما لنصّاب حاذق يطلبها منهم. وبشكل عام، كان كل شيء يجري وكأن أليوشا لا يعرف قيمة المال، وبالطبع، يجب أن يُفهم هذا الكلام مجازاً لا بمعناه الحرفي. عندما كان يُعطى مصروفه الذي لم يكن يطلبه أبداً، كان يبقى المال معه طوال أسابيع أحياناً لا يعرف ماذا يفعل به، وأحياناً أخرى ينفقه بسرعة رهيبة ويختفي كله في طرفة عين. وكان بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف رجلاً دقيقاً جداً في شؤون المال وذا نزاهة بورجوازية. بعد أن لاحظ ألكسي، ذات يوم، قال عنه القول المأثور: «إن هذا الشاب، بدون شك، هو الإنسان الوحيد في هذا العالم، الذي إذا تركته فجأة وحيداً وبدون فلس واحد في وسط مدينة تعدُّ مليون نسمة، وهو لا يعرفها، لا يضيع ولا يموت من الجوع ولا من البرد، لأن كل الناس، وفي لحظة واحدة، يقدّمون له المأكل والمسكن، وإذا لم يُعط مسكناً فهو يتدبّر أمر سكنه وحده في لحظة قصيرة ولا يكلّفه ذلك أيَّ جهد ولا أيَّ مذلّة، والشخص الذي يأويه لا يشعر بإزعاج إطلاقاً بل، على العكس، يجد في ذلك سروراً».

لم يكن قد أنهى دراسته في الليسيه. وكان عليه أن يقضي سنة كاملة فيها عندما أعلن فجأة، ذات يوم، لتينك السيدتين أنه سيذهب إلى منزل والده لأمر خطر بباله. لامته السيدتان كثيراً ورفضتا، بادىء الأمر، السماح له بالذهاب. كانت الرحلة تكلّف قليلاً من المال، ولم تسمح له السيدتان أن يرهن ساعة اليد - وهي هدية من عائلة المحسن إليه قبل سفرها إلى الخارج، لكنهما زوَّدتاه بمبلغ من المال وأعطيتاه ملابس شخصية وثياباً داخلية. إلا أنه، أرجع إليهما نصف المبلغ قائلاً إنه حريص على السفر في الدرجة الثالثة. ولدى وصوله إلى مدينتنا الصغيرة رفض الإجابة عن الأسئلة الأولى التي طرحها عليه والده: «ماذا أتى بك الآن قبل أن تنجز دراستك؟» وبدون جواب مباشر أظهر، كما قيل، تأملاً غير عادي مما عُرف عنه. وعُلم فيما بعد، أنه كان يفتش عن قبر أمه. وقد اعترف هو نفسه، على الفور، أنه لم يأتِ إلّا لهذا الهدف. ولكنني، أشكّ، بأن يكون هذا السبب الحقيقي. فالأكثر احتمالاً أنّ السبب الحقيقي هو أنه في تلك الآونة، كان يجهل هو ذاته ذلك، ولم يعرف أن يشرح ما هو الدافع الذي برز فجأة في نفسه ودفعه بشكل لا يُقاوم في مثل هذا الطريق الجديد، غير المعروف، والذي لا مفرَّ منه. لم يتمكن فيودور بافلوفتش من أن يرشده إلى المكان الذي دفنت فيه زوجته الثانية لأنه لم يزر قبرها منذ وُضع النعش فيه، ونظراً إلى الزمن الطويل الذي انقضى، فقد امَّحى مكان القبر كلياً من ذاكرته.

في ما يختص بفيودور بافلوفتش، فقد عاش مرحلة طويلة خارج مدينتنا. بعد موت زوجته الثانية بثلاث سنوات أو أربع ذهب إلى جنوب روسيا وانتهى به الأمر في أوديسا حيث عاش سنوات عديدة متتالية. وقد تعرَّف، في بادىء الأمر، على حدِّ قوله: «بكل أنواع اليهود»، وأخيراً، لم يعد يعاشر اليهود فقط بل كان يُستقبل في «منازل العبريين». ويجدر الاعتقاد أنه، في تلك الفترة، قد عرف كيف يطوّر قدرته على تكديس المال وسلبه. ولم يرجع، بصورة نهائية، إلى مدينتنا إلا قبل وصول أليوشا بثلاث سنوات. ولاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه شاخ بشكل غريب بينما لم يبلغ سنّ الشيخوخة بعد. وكان يتصرّف بشكل ليس أكثر نبلاً بل أكثر وقاحة، فرأينا مثلاً أن هذا المهرّج القديم أصبح يحوِّل الآخرين إلى مهرّجين. وصار يتعاطى الفجور مع النساء، ولا أستطيع القول كما كان يفعل في السابق، بل بطريقة تثير الاشمئزاز أيضاً. وسرعان ما فتح في مقاطعتنا كلها خمارات جديدة.

ومن الواضح أنه كان يملك ربما مئة ألف روبل أو أقل من ذلك. وبدأ كثيرون من سكان المدينة والمقاطعة كلها يقرضونه، فوراً، أموالاً لقاء فوائد مرتفعة، وهذا أمر طبيعي. بدا كأنه أبله، كأنه فقدَ توازنه في الفترة الأخيرة، وفَقدَ ثقته بنفسه، وقد أُصيب بنوع من الخبل فهو ما إن يبدأ في أمر ما حتى ينتقل إلى غيره، ويبدو مشتت الفكر، وغالباً ما يفرط في السكر وكان خادمه المعروف غريغوري الذي هو أيضاً قد شاخ بعض الشيء يقوم بدور المربي. إذن، لقد عانى فيودور بافلوفتش الكثير من المتاعب الصعبة. لكن وصول أليوشا أثَّر فيه من الناحية النفسية وكأنه أيقظ في هذا العجوز الذي شاخ قبل الأوان، ما كان يكمن في نفسه منذ زمن بعيد. وكان غالباً ما يقول لأليوشا وهو ينظر إليه: «هل تعلم»، إنك تشبهها، أقصد هكذا كان يسمّي زوجته المتوفاة والدة أليوشا. وأخيراً، دلَّه الخادم (hurleuse) «»المولولة غريغوري إلى قبر «المولولة» الصغير. ورافقه إلى مقبرة المقاطعة ودلَّه على شاهدة من المعدن، في زاوية غير مكشوفة، رخيصة الثمن وفيها شيء من الذوق، كُتب عليها اسم وأصل وعمر وسنة وفاة المرحومة، وحُفر عليها في الأسفل، بضعة أبيات من شعر قديم كان يستخدمه الجميع وتُزيَّن به قبور أبناء الطبقة المتوسطة. وفوجىء بأن هذه الشاهدة كانت قد وُضعت بفضل اهتمام غريغوري، وهو نفسه الذي وضعها على قبر «المولولة» المسكينة ودفع ثمنها بعد أن ألحّ عشرات المرات على فيودور بافلوفتش مذكراً إياه بوجود هذا القبر الصغير، وبعد ذلك، سافر فيودور بافلوفتش إلى أوديسا غير عابىء ليس بالقبر فحسب بل بذكرياته كلها. لم يبدِ أليوشا أيّ انفعال شخصي أمام قبر أمه فاكتفى بالاستماع إلى ما رواه غريغوري عن وضع هذه الشاهدة، وبقي بضع لحظات ورأسه غارق بين كتفيه دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. ومنذ ذلك اليوم لم يعد إلى زيارة المقبرة، وربَّما خلال السنة بكاملها. لكن هذا الحدث أثَّر في فيودور بافلوفتش وأحدث فيه ردّة فعل غير متوقعة. فأخذ، فجأة، ألف روبل وانطلق إلى ديرنا يطلب أن تُقام صلوات على راحة نفس زوجته. لكن، ليس زوجته الثانية أمّ أليوشا، «المولولة»، بل زوجته الأولى أديلاييدا إيفانوفنا التي كانت تضربه. وفي مساء ذلك النهار عينه، أفرط في السكر وشتم الرهبان بحضور أليوشا. فهو بعيد جداً عن أن يكون رجل دين، فهو لم يشعل شمعة واحدة بخمسة «كوبيكات» أمام إيقونة. إن أشخاصاً من هذا النوع يجتاحهم سيل من المشاعر والأفكار الغريبة.

سبق وقلت إن وجهه تغضّن كثيراً. كان وجهه، في تلك الفترة، يحمل شيئاً يشهد بقوة على طابع وجوهر حياته كلها. بالإضافة إلى الجيوب الطويلة والمتورّمة التي برزت تحت عينيه الصغيرتين اللتين هما دائماً وقحتان خدرتان ساخرتان، وإلى التجاعيد الصغيرة العميقة التي ظهرت على وجهه الصغير المشحِم، وكانت جوزة عنقه متطاولة وسمينة تتدلّى تحت ذقنه الدقيق كأنها صرّة فتضفي على وجهه سيماء شهوانية منفِّرة. أضف إلى ذلك، فماً نهماً ومتمدداً وأهدلَ تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء متفتتة تقريباً. يتناثر اللعاب من فمه كلما تكلّم. هذا، وكان هو نفسه يتندَّر على وجهه، وأعتقد أنه كان راضياً عنه. كان يشير في كلامه، بصورة خاصة، إلى شكل أنفه الكبير لكن الدقيق جداً والبارز التقوُّس. كان يقول: «هذا أنفٌ رومانيّ حقاً، ويقول في الوقت نفسه إن جوزة عنقه تشبه رأس نبيلٍ روماني حقيقي في عصر الانحطاط». كان معجباً بوجهه، ظاهرياً.

بعد أن وجد، بسرعة، قبر أمّه، أعلن أليوشا لوالده فجأة أنه يريد الدخول إلى الدير وأنّ الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئاً. وأضاف أن ذلك هو رغبته المطلقة وهو يطلب علناً السماح الأبوي. وكان العجوز يعرف مسبقاً أنّ الراهب الناسك زوسيما الذي وجد خلاصه في محبسة الدير، قد أثّر، بصورة خاصة، في «ابنه الطيب».

طبعاً، غمغم بعد أن استمع إلى طلب أليوشا دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. بشكل - رزين من دون أن يفاجأ. إنه أشرف راهب بينهم. إذن، إلى هناك تريد أن تذهب يا بنيّ الطيب! كان نصف سكران وفجأة ابتسم ابتسامته الطويلة المخمورة التي لا تخلو من المكر

ولا من الخبث المخمور. هِمْ، أنا، أحسست أنك سوف تنتهي إلى هذا الأمر. هل تتصوّر؟ كنت أما (dot) تسعى إلى ذلك بالضبط! في الواقع، إنك تملك ألفَي روبل هما لك، وهذه بائنتك أنا، يا ملاكي، فلن أتخلّى عنك أبداً، والآن أيضاً، سأدفع لهم مبلغاً ما، إذا طلبوا مني ذلك. لأنهم إذا لم يطلبوا مني شيئاً، فأيُّ نفعٍ من إجبارهم على ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ لأنك أنت تنفق المال مثل عصفور الكناري. تكفيك حبَّتان صغيرتان في الأسبوع. همْ! أتعلم؟ هناك في الدير لديهم ضيعة صغيرة خارج المدينة. والكلّ يعرف أنها لا تضمّ شيئاً إلّا «نساء الدير». وهنَّ يقمن فيه، ولهذا السبب يسمّونهنّ هكذا. وعددهنّ ثلاثون امرأة، كما أعتقد. لقد زرت المكان. أتعلم؟ إنه لأمر شائق، في نوعه طبعاً، من ناحية التنوع. العيب الوحيد هو أن النساء هن روسيّات فقط ولا توجد بينهنّ فرنسيّة واحدة. ومن السهل استقدام أجنبيات، لأن الإمكانات لا تعوزهم لكي... ومتى عرفت الفرنسيّات ذلك جئن على الفور. أما هنا، فلا يوجد شيء من ذلك. ليس لديهم «نساء دير». وعدد الرهبان مئتان فقط. يا للعفّة! إنهم لا يصومون. أعترف أن... هِمْ! أتريد أن تكون راهباً؟ أنا، في الحقيقة، أرثي لحالك، يا أليوشا، صدّقني، إنني أحبك. هل تعلم؟ إسمع، هذا عمل جيّد. سوف تصلّي لأجلنا نحن الخطأة لأننا قد اقترفنا خطايا كثيرة على هذه الأرض. إنني أتساءل دائماً: «من سيصلّي لي إذن؟ هل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان؟ يا ولدي الصغير اللطيف، أنا، من هذه الناحية، غبيّ، إنه أمر بشع. ربّما لا تصدّقني؟ بشع. صدّقني! أنا، مهما أكن غبياً في هذه الأمور، لكنني أفكّر فيها. وتساءلت: «من المستحيل أن تنسى الشياطين التقاطي عندهم بكُلّاباتها عندما أموت». حسناً. كُلَّابات؟ من أين تأتيهم الكُلّابات؟ ممَّ صُنعت هذه الكُلَّابات؟ من حديد؟ من الذي يصنعها؟ هل لديهم مصنع هناك أو ماذا؟ أراهن أن الرهبان هناك في الدير يفترضون أن في الجحيم يوجد سقف. حسناً، أنا أؤمن بوجود الجحيم ولكن بدون سقف. هكذا، تكون ألطف وأكثر ثقافة وأقرب إلى اللوثرية. هذا ما أريد قوله. لأنه، في النهاية، أليس الشيء نفسه، بسقف أو بدون سقف؟ هذه المسألة كلها ملعونة. أليس كذلك؟ انظر أين تكمن! لأنه: إذا لم يكن ثمة سقف، لا توجد كُلّابات، وبدون وجود كُلّابات، كل ما تبقّى، بالتالي، لا يصدَّق. إذاً، من الذي سيجرني بالكلّاب، هذا إذا جروني؟ ماذا سيحدث إذاً في تلك اللحظة؟ أين هي الحقيقة إذاً في هذا العالم؟ يجب اختراع كل ذلك، اختراع هذه الكلّابات من أجلي أنا خصيصاً، من أجلي وحدي فقط؛ لأنك لو عرفت يا أليوشا، لأنني القذارة التي يمكنني أن أقوم بها!...

- لا، ليس لديهم كلّابات. قال أليوشا بصوت عذب وجادّ وهو يراقب والده بانتباه.

- صحيح. صحيح. لا يوجد إلا ظلال كلّابات. أعرفُ. أعرفُ. هناك فرنسي يصف الجحيم بما يلي: «رأيت ظلَّ حوذيّ كان ينظّف ظلَّ عربة بظلِّ فرشاة»[3]. أنت تعرف، يا صغيري، لماذا لا توجد كلّابات؟ سوف تقضي بعض الوقت عند الرهبان، ستغنّي شيئاً آخر. أنظر. فتّش أنت عن الحقيقة وارجع إليّ وأخبرني. فيكون الذهاب إلى العالم الآخر أسهل، لأنني أكون قد عرفت ماذا يوجد هناك. سيناسبك العيش عند الرهبان أكثر مما في منزلي مع عجوز سكّير ومع هؤلاء الصبيَّات... أنت، على الأقل، مثل ملاك، لن يمسَّك شيء. أخيراً، آمل أن لا يمسَّك شيء، ولهذا السبب، أسمح لك، وهذا رجائي الأخير. فالشيطان لم يأكل رأسك بعد. ستشتعل، ستنطفىء، ستشفى، ثم ستعود إليّ. وأنا، سأنتظرك. أنا أشعر جيداً أنك الإنسان الوحيد على هذه الأرض، الذي لم يدنّي، يا صغيري الطيّب، أشعر بذلك. وهل يمكن أن لا ألاحظه!

وانفجر بالبكاء. كان عاطفياً. كان شريراً وعاطفياً.

V

الزهاد المتوحدون (Starets)4

ربّما اعتقد بعض القراء أن الشاب الذي أتكلم عنه مريض، ذهولي الطبع وذو شخصية ضعيفة، حالم، شاحب اللون، نحيل الجسم ضعيف يفتقد النشاط. على العكس، كان أليوشا، في تلك الفترة، مراهقاً في التاسعة عشرة، طويل القامة مورَّد الخدين، ساطع النظر، يشعّ عافية، وكان جميل الوجه مستقيماً، له قامة أكثر من متوسطة، وشعره بنّي غامق وجهه مستطيل، عيناه براقتان متباعدتان قليلاً ذواتا لون رمادي داكن. إنه مفرط في التفكير وهو، ظاهرياً، هادىء جداً، ربّما يقال إن الخدّين المتورّدين لا ينفيان لا التعصّب ولا التصوّف. أما أنا فأعتقد أن أليوشا كان واقعياً أكثر من أيّ رجل آخر. طبعاً، في الدير، كان يؤمن كلياً بالمعجزات، ولكن المعجزات، في رأيي، لا تزعزع، إطلاقاً، إنساناً واقعياً. فليست المعجزات هي التي تدفع رجلاً واقعياً إلى الإيمان. فالواقعي الحقيقي، إن كان غير مؤمن، سيجد دائماً في ذاته القوة والقدرة على عدم الإيمان بالمعجزة. وإذا ما وجهته معجزة كواقع لا يمكن دحضه، يرفض تصديق حواسه ولا يقبل هذا الواقع. وإذا قرّر، أخيراً، أن يقبل هذا الواقع، يقبله لكونه حدثاً طبيعياً كان يجهله من قبل. فالمعجزة، لدى الواقعي، ليست هي التي تولّد الإيمان، إنما تولد من الإيمان. قال توما الرسول إنه لا يؤمن قبل أن يرى. وعندما رأى قال: «أنت ربّي وإلهي!» هل المعجزة هي التي دفعته إلى الإيمان؟ أغلب الظنّ أنْ لا، فهو لم يؤمن سوى لأنه يريد أن يؤمن، وكان قد آمن كلياً، من قبل، في أعماق كيانه عندما كان يقول: «لن أؤمن طالما لم أرَ».

ربّما يقال إن أليوشا كان محدوداً قليل الثقافة لم يكمل دراسته في الثانوية، الخ. صحيح أنه قطع دراسته في الليسيه، لكن أن يقال إنه غبيّ ومحدود فذلك غير عادل أبداً. وأكرر ما سبق أن قلت: إذا كان قد اختار هذا الطريق، فذاك لهذا السبب البسيط وهو أن هذا الطريق، في تلك الفترة، هو الذي قدم له فجأة مثال الخلاص لنفس تتحرق للخروج من الظلمات إلى النور. أضف إلى أنه كان شاباً من أبناء جيلنا تقريباً شريفاً في طبيعته، يطلب الحقيقة ويفتش عنها ويؤمن بها. فلما اكتسب الإيمان ألحَّ فوراً، بكل قوة روحه، على تقدُّم روحي سريع مع رغبة جامحة بأن يضحّي بكل شيء في سبيلها، حتى لو كانت حياته ذاتها. وإن كان هؤلاء الشبان، مع الأسف، لا يعرفون أن التضحية بالحياة هي ربما أسهل التضحيات في عدد كبير من الحالات، وأن يضحّي المرء، مثلاً، بخمس سنين أو ستّ من شبابه المندفع لدراسة صعبة وشاقّة، وللعلوم، ولو ليضاعفو عدة مرات قواه الذاتية ذاته في خدمة هذه الحقيقة عينها وهذا التقدم الذي أحبوه ونذروا أنفسهم لإنجازه، هذه التضحية، وهذا ما يتأكد يومياً، هي بالنسبة إلى الكثير من الناس، تفوق بكثير قواهم. ولم يختر أليوشا إلّا هذه الطريق التي هي نقيض كل الطرق الأخرى ولكن بالتعطُّش نفسه لتقدُّمٍ سريع. وما إن اقتنع بعد تفكير عميق، بأنّ الله وخلود النفس موجودان بشكل طبيعي، حتى قال في سرِّه: «أريد أن أعيش للخلود ولا أقبل المساومة على النصف». وبالطريقة نفسها، بالضبط، اقتنع بأنه إذا لا وجود لله ولا للخلود أصبح على الفور من الملحدين والاشتراكيين (لأن الاشتراكية ليست المسألة العمالية فقط أو مسألة ما يُسمَّى بـ «الدولة الرابعة». لا، إنها، في الأساس، مسألة الإلحاد، مسألة التجسد الحديث للإلحاد، مسألة برج بابل القديمة، الذي يشيد بدون الله، ليس

لبلوغ السموات من الأرض بل لإنزال السموات إلى الأرض). وبدا لأليوشا أنه من الغريب والمستحيل العيش كما في السابق، فقد قيل: «أعطِ كل شيء واتبعني إذا أردت أن تكون كاملاً». فقال أليوشا في نفسه، عندئذ: «لا أستطيع أن أعطي روبلين اثنين مقابل كل شيء». ومقابل «اتبعني»، أذهب إلى القداس. ربّما احتفظ بذكريات من طفولته الأولى تتعلق بديرنا المجاور للمدينة حيث استطاعت أمّه أن تصطحبه إلى القداس، وربّما أيضاً أن تكون تلك الأشعة المائلة للشمس الغاربة أمام الإيقونة التي كانت أمه «المولولة» ترفعه بذراعيها باتجاهها قد تركت فيه أثراً بالغاً. ربّما لم يأت إلى مدينتنا، في تلك الفترة، إلّا لكي يتحقق من أمرٍ ما، هل يعطي «كل شيء» الآن أيضاً أم يعطي روبلين فقط. وكان قد التقى في الدير ذلك الناسك...

هذا الناسك، كما سبق أن أشرت أعلاه، هو الزاهد زوسيما. لكن يتوجب عليَّ أن أقول هنا بضع كلمات عمّا يمثّله، بوجه عام، هؤلاء النسّاك في أديرتنا، وآسف، في الحقيقة، لأنني لا بالمعرفة الراسخة ولا بالاطلاع الكافي. لذلك سأحاول أن أفسّر الأمر ببضع كلمات وبشرح سطحي. قبل كل شيء، يؤكد المختصّون أن الزهاد المتوحدين والمؤسسة التي يمثلونها لم يظهروا في أديرتنا الروسيّة إلّا حديثاً، منذ زمن لا يتعدّى المئة سنة، بينما وُجدت المؤسسة في الشرق الأرثوذكسي كله، وبصورة خاصة في سيناء وفي جبل آثوس منذ أكثر من ألف سنة. ويؤكدون أنها، عندنا في روسيا، قد وُجدت أو لنقل يجب أن تكون قد وُجدت بالضرورة بعد كوارث التاريخ الروسي، من غزو التتار والاضطرابات الداخلية وانقطاع العلاقات بالشرق بعد الاستيلاء على القسطنطينية، وقد غمرها النسيان عندنا واختفى نساكها. ولم ترَ النور مجدداً عندنا إلّا في نهاية القرن الماضي بفضل جهود أحد كبار النسّاك (هكذا يسمونهم)، وهو الناسك بابيسي فيليتشكوفسكي وتلامذته، ولكن، منذ ذلك الوقت، وبعد ما يقرب من المئة سنة، لم يعد النساك موجودين إلّا في عدد صغير من الأديرة، لا بل عانوا، أحياناً، من الاضطهادات وكأنهم بدعة جديدة في روسيا. ازدهرت هذه المؤسسة عندنا، في أرضنا الروسية، في منسكٍ شهير، هو كوزلسكايا أوبتينا. متى وبواسطة مَنْ دخلت ديرنا (؟) أيضاً، لا أعرف، لكنه كان يقال إنهم في التعاقب الثالث للنساك الذين كان آخرهم زوسيما، والذي كان يشرف على الموت تقريباً بسبب المرض، بينما لا يُعرف من سيحلّ محلّه. إن هذه المسألة كانت هامة بالنسبة إلى ديرنا، لأنه حتى ذلك الوقت، لم يكن لديه شيء يمنحه الشهرة: فلا رفات قديسين شهداء ولا إيقونات عجائبية، ولا أساطير مرتبطة بتاريخنا. لم يكن يعكس مآثر تاريخية ولم يُسهم في أي عمل تجاه وطننا. لقد ازدهر وأصبح شهيراً في روسيا كلّها بفضل النساك الذين كانوا يجتذبون الحجاج الذين يأتون إلى منطقتنا من مسافات تبعد آلاف الفراسخ. فمن هو إذاً الناسك؟ إنه الناسك الذي يسيطر على نفسك وإرادتك وبإرادته هو ذاتها. تختار ناسكاً وتتنازل عن إرادتك وتعطيه إياها بطاعةٍ مطلقة متنازلاً كلياً عن «أنَاكَ». والذي يختار هذا الطريق مدرسةً لهذه الحياة الرهيبة إنما يقوم بذلك، طوعاً، أملاً في أن يتغلَّب، بعد طريق طويل، على ذاته ويصبح سيّد نفسه لكي يكون، في النهاية، قادراً بالطاعة على أن يصل إلى حرية كاملة، حرية تجاه نفسه، ولكي يتجنب مصير أولئك الذين عاشوا حياتهم ولم يتوصلوا إلى معرفة أنفسهم. وهذا الاختراع، أعني مؤسسة النساك، ليس مجرد أمر نظري إنما هو نشأ في الشرق من ممارسة يعود تاريخها إلى أكثر من ألف سنة. فالواجبات تجاه الناسك لا علاقة لها «بالطاعة» المألوفة التي كانت موجودة دائماً في أديرتنا الروسية. وهنا، يقوم اعتراف أبدي من كل الذين يرتبطون بالراهب، وصلة لا تنفصم بين الذي يربط وبين المرتبط به. يُحكى، على سبيل المثل، أن مبتدئاً، في الأزمنة الأولى من المسيحية، لم يخضع لأوامر فرضها عليه ناسكه، فتركه وهجر الدير وسافر إلى بلاد أخرى من سوريا إلى مصر. وهناك، بعد أن بلغ تقدُّماً روحياً كبيراً، استطاع، أخيراً، أن ينال التعذيب والموت شهيداً في سبيل إيمانه. والحالة هذه، عندما دفنت الكنيسة جسده معتبرة إياه قديساً، صاح الشمَّاس فجأة: «فليخرج الموعوظون!» فطار النعش من مكانه وفي داخله جسد الشهيد، إلى خارج الكنيسة (Catéchumènes)

(الهيكل)، وتكرّر ذلك ثلاث مرات. وعرف أخيراً أن هذا الرجل القديس الذي عانى التعذيب، خالف، في ما مضى، نذر الطاعة وهجر ناسكه. فلذلك، لا يمكن أن ينال الغفران رغم عظمة تقدُّمه الروحي بدون أن يأذن ناسكه بذلك. وعندما استدعي الناسك للمساعدة أعفاه من نذره للطاعة. عندئذ، تمَّ دفنه. طبعاً لم يكن كل ذلك سوى أسطورة قديمة. ولكن، إليكم قصة حديثة واقعية: اعتكف أحد النسَّاك، الذين كانوا يعيشون في عصرنا، في جبل آثوس. وفجأة أمره مرشده الناسك بأن يترك جبل آثوس الذي تعلَّق به كأنه قديس القديسين وكملجأ أمين للسلام، من عمق أعماق روحه وصار يفضّله على كل ما عداه. أمره أن يذهب، في بادىء الأمر، إلى القدس ليحجَّ إلى الأماكن المقدسة، ثم يعود إلى شمال روسيا، إلى سيبيريا. قال له: «هناك مكانك وليس هنا». حزن الراهب حزناً شديداً واستبدَّ به الألم فذهب إلى القسطنطينية، إلى رئيس البطاركة وتوسَّل إليه أن يعفيه من نذره للطاعة. أجابه البطريرك بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، رغم رتبته، وبأنه لا توجد في العالم أي سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب الذي فرضه عليه ناسكه. هكذا إذاً، تتمتع هذه المؤسسة بسلطة يمكن أن تصبح بدون حدود ومغلقة. ولهذا السبب تعرَّض أتباع هذا النظام في عدد كبير من أديرتنا، للاضطهاد في أول الأمر، لكن النسّاك كسبوا بسرعة احترام الشعب لهم. وهكذا كان نساك ديرنا يستقبلون زواراً يتوافدون جماعات غفيرة من بسطاء الناس ومن نبلاء القوم يظهرون لهم إعجابهم ويعترفون لهم بشكوكهم وخطاياهم عندما رأى خصوم النساك ذلك، اشتكوا وادَّعوا أنه بهذه الطريقة إنما يُفسد بشكل جائر وتافهٍ سرُّ الاعتراف، مع أن ما كان يبوح به الراهب المبتدىء أو العلماني لهؤلاء النساك، من أعماق نفسه، يناقض سرّ الاعتراف. في نهاية المطاف، استقرَّت، أخيراً، هذه المؤسسة وانتشرت، شيئاً فشيئاً في الأديرة الروسية. يجب القول أيضاً إن هذا السلاح الذي يعود إلى أكثر من ألف عام، والذي يهدف إلى تحقيق إصلاح روحي للإنسان يرفعه من العبودية إلى الحرية وإلى الكمال الأخلاقي، يمكن أن يتحول سلاحاً ذا حدَّين وأن يولِّد لدى بعضهم، كما أعتقد، لا تواضعاً وسيطرة كاملة على الذات بل تكبُّراً شيطانياً يؤدي إلى استعباد النفس وليس إلى تحريرها.

كان الناسك زوسيما في الخامسة والستين من عمره، يتحدَّر من عائلة ملَّاكين عقاريين، وقد انخرط في العسكرية، وهو في ريعان شبابه، وعمل ضابطاً أعلى في القفقاس. بدون أي شك، أدهش أليوشا بنوعية روحه المميزة. كان أليوشا يقيم في الغرفة نفسها التي يعيش فيها الناسك الذي أحبَّه كثيراً فارتضى أن يكون بقربه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أليوشا، وهو يعيش في الدير، لم يكن قد ارتبط بعد بشيء، ويستطيع الذهاب حيث يشاء، ويغيب عن الدير أياماً بكاملها. وإن هو ارتدى جبَّة الراهب فإنما فعل ذلك طوعاً حتى لا يتميز بشيء عن الرهبان الآخرين في الدير. ومن الواضح أنه كان يحبّ ذلك. ولعلَّ مخيلة أليوشا المراهقة قد تأثرت بقوة بالسلطة والمهابة اللتين كانتا تحيطان دون توقف بناسكه. وكان كثيرون يقولون إن زوسيما العجوز الذي استقبل، خلال سنوات طويلة، هذا العدد من الذين كانوا يجيئون إليه فيفتحون له قلوبهم متعطشين إلى نصائحه وإلى كلامه صانع المعجزات، اكتسب قدرة غريبة على معرفة النفوس والآلام والتمنيات، حتى أصبح، قادراً منذ أول نظرة على أن يحزر هدف مجيء الشخص المجهول والرغبة التي تجيش في نفسه وأيّ نوع من الآلام يعذّب ضميره، فيدهش ويبعث الاضطراب في مَنْ يرونه لأول مرة حتى ليكاد يلقي في قلوبهم الذعر قبل أن يتفوّهوا بكلمة واحدة. مع ذلك، لاحظ أليوشا أن عدداً كبيراً من الأشخاص، جميعهم تقريباً، الذين يدخلون على العجوز لأول مرة، من أجل حديث حميم، كان يبدو عليهم القلق عند وصولهم، وعندما يخرجون كانوا جميعهم تقريباً يخرجون رابطي الجأش، فرحين سعداء. ومما أثر في أليوشا، بشكل غريب، هو أن العجوز لم يكن قاسياً أبداً. بالعكس. كان دائماً فرحاً في أسلوبه. وكان الرهبان يقولون إنه يحبّ، بصورة خاصة، أولئك الذين تحمل ضمائرهم عدداً أكبر من الآثام، وإنه يعطف على الذين هم أكثر خطايا. ومن بين الرهبان، حتى في أواخر حياة العجوز، أفراد يكرهونه ويشعرون تجاهه بالحسد ولكنّ عددهم كان قليلاً، ويلزمون الصمت رغم أنَّ بينهم عدداً من شخصيات شهيرة

وهامّة في الدير، كمثل الناسك، الذي كان من أقدم نسّاك الدير والذي اشتهر بالصوم والصمت بصورة غير عادية. بالرغم من كل شيء، انحاز أكثرية الرهبان إلى الناسك العجوز نهائياً وكان من بينهم من يحبّونه من صميم القلب بل إن منهم من أخلصوا له إلى درجة التعصّب. وكان هؤلاء يقولون بصراحة، وبصوت خفيض، إنه قديس، وهذا ما لا شكَّ فيه، وكانوا يتنبأون أن تحدث بعد وفاته، معجزات مباشرة ومجد عظيم سيحظى به الدير، في مستقبل قريب. وكان أليوشا، هو أيضاً، يؤمن، بدون أي شك، بالقوة العجائبية للناسك، تماماً كما كان مقتنعاً بقصة النعش الذي طار إلى خارج الكنيسة. ورأى أليوشا كم كان عدد الزوار كبيراً يصلون مع أولادهم المرضى أو أقاربهم البالغين يسألون الناسك أن يضع يديه عليهم ويقرأ بعض الصلوات، ويعودون سريعاً، وبعضهم في اليوم التالي، فيرتمون على قدميْ العجوز والدموع ملء عيونهم يشكرونه على شفاء أمراضهم. هل كان الشفاء حقيقياً أو مجرد تحسُّن في حالة المرضى؟ لم يكن هذا السؤال، بالنسبة لأليوشا موجوداً لأنه كان يؤمن بعمق بقوة معلمه الروحية، وكانت عظمته كأنها نصر له ذاتيّ. كان قلبه يرتجف فرحاً عندما يخرج العجوز لمواجهة جمهرة الناس الحجاج البسطاء القادمين من أقاصي روسيا والذين ينتظرون خروجه عند مدخل المنسك لكي يروه وينالوا بركته. كانوا ينحنون أمامه ويقبّلون رجليه والأرض التي يمشي عليها. كان الراهب الناسك يحدّثهن ويقرأ صلاة قصيرة ويباركهن قبل أن يصرفهن. وفي الآونة الأخيرة، وبسبب تفاقم المرض لم يعد يملك القوة للخروج من حجرته، فكان الحجاج، ينتظرون خروجه أياماً متتالية. بالنسبة لأليوشا، لم يكن يستغرب أن يحبّه الحجاج إلى هذا الحدّ، وأن يرتموا أمامه ويبكوا من الانفعال عندما يرون وجهه. كان يدرك تماماً بأنّ نفساً متواضعة كنفس الشعب الروسي البسيط، التي يرهقها العمل والبؤس، ويضنيها الظلم الدائم والخطيئة المستمرة، أن نفساً كهذه، لا توجد بالنسبة إليها حاجة أقوى من أن تجد مكاناً مقدساً أو قديساً تسجد أمامه خاشعة: «إذا كنا نحن نعيش في الخطيئة والكذب والتجربة، فلا يزال، يوجد على الأرض، في مكان ما، قديس، كائن أسمى هو الذي يملك الحقيقة وهو يعرف الحقيقة، إذن، لم تمت الحقيقة بعد على الأرض، ربّما بين يوم وآخر، ستمرّ من عندنا أيضاً ويعود ملكها على الأرض كما هو موعود». كان أليوشا يعرف أن الشعب كان يحسّ، على هذا النحو، هو يفهم ذلك. أما كون الناسك هو ذاك القديس الرائع، وحارس الحقيقة الإلهية بنظر الشعب فذلك ما لا يشكّ فيه لحظة واحدة، وكان إيمانه به لا يقلّ عن إيمان الفلاحين الباكين مع زوجاتهم المريضات اللواتي يمددْن أطفالهن إلى الراهب الناسك. ولعلَّ يقينه من أنّ الراهب الناسك سيكون للدير، بعد وفاته، مصدر مجدٍ خارق وأقوى من يقين أيّ راهب آخر في الدير. وبشكل عام، في هذه الآونة الأخيرة، كان يزخر بنوع من حماسة داخلية عميقة تلهب قلبه. وكان لا يقلقه أبداً أن يبقى هذا الناسك، رغم كل شيء، الأوحد أمامهم: «على كلّ حال، إنه قديس، وسرُّ بعثِ جميع البشر، يكمن في قلبه، هذه القدرة التي ستكفل إقامة الحقيقة على الأرض ويصبح جميع الناس قديسين يحبّون بعضهم بعضاً، ولن يكون ثمة فقراء ولا أغنياء ولا متكبرون ولا مستذلّون، سيصبحون جميعاً كأبناء الله، وسيسود الملكوت الحقيقي للمسيح». ذلك كان الحلم الذي يملأ قلب أليوشا.

يبدو أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الوقت قد أثَّر في نفس أليوشا تأثيراً شديداً. لقد تفاهم مع أخيه ديمتري فيودوروفتش، مع أنه الأخير الذي وصل، أسرع مما مع أخيه الشقيق إيفان. كان يرغب إيفان عن كثب، ولكن لم يحدث بينهما أيّ تقارب. رغم أن الأخير كان يقيم هناك منذ شهرين، وكانا يلتقيان غالب الأحيان، كان أليوشا يبقى صامتاً كأنه ينتظر شيئاً ما أو يخجل من شيء ما. أما إيفان الذي لاحظ نظراته المتفرسة والفضولية، أصبح لا يوليه اهتماماً. لاحظ أليوشا ذلك مع نوع من الاضطراب فعزا ذلك إلى الفرق بينهما في السنّ وفي التربية. لكن أليوشا كان يفكر في شيء آخر: فهذه الفضولية وقلّة اكتراث إيفان ناشئتان ربّما عن سبب لا يزال أليوشا يجهله، كان يبدو له أن إيفان منهمك البال دائماً بشيء ما، بمسألة داخلية ومهمة، وأنه يطمح إلى بلوغ هدفٍ صعب جداً فلا يلهيه عنه الاهتمام بأخيه وكان أليوشا يفكر في شيء آخر أيضاً: ليس هناك نوع من

الاحتقار تجاه هذا المبتدئ الصغير احتقارعالِم ملحد لراهب مبتدىء صغير؟ كان أليوشا يعرف أن أخاه ملحد. ومثل هذا الاحتقار - إذا وجد - قد لا يزعج أليوشا، وبالرغم من ذلك كان أليوشا ينتظر، وبقلقٍ فيه شيء من الغموض، اللحظة التي يقرر فيها أخوه التقرُّب منه. أما أخوه ديمتري فيودوروفتش فكان يتحدث عن أخيه باحترام بالغ ويتكلم عنه بنوع من الحماسة الاستثنائية، ومنه عرف أليوشا كل تفاصيل العلاقة الهامة التي توثقت بين الأخوين، في الآونة الأخيرة، هذه العلاقة الحميمة، فشدَّت أحدهما إلى الآخر. وكانت الأصداء الحماسية التي يبديها ديمتري تجاه أخيه إيفان تكتسب المزيد من الدلالة في نظر أليوشا خاصة أن ديمتري كان بالمقارنة بإيفان رجلاً بدون ثقافة، والاثنان معاً يشكلان مفارقة في الطبع والشخصية يجعل من المستحيل تصور رجلين أكثر تناقضاً منهما.

في تلك الفترة بالذات حصل اللقاء العائلي أو بتعبير أفضل، اجتماع العائلة بكل أفرادها المتنافرين في غرفة العجوز زوسيما، فترك في نفس أليوشا تأثيراً كبيراً. والحجة التي اتخذت لعقده كانت خاطئة. ففي تلك اللحظة بالضبط بلغ الخلاف القائم بين ديمتري فيودوروفتش ووالده فيودور بافلوفتش حول الإرث وتصفية الحساب ذروته، وتفاقمت العلاقات المتوترة بين الوالد وابنه بحيث أصبحت لا تحتمل. يبدو أن فيودور بافلوفتش، هو الذي اقترح على سبيل المثال فكرة عقد الاجتماع في غرفة الناسك زوسيما، دون أن يتدخَّل هذا الأخير مباشرة، ربما تضفي مكانة هذا الإنسان المحترم وشخصيته جوّاً يهدّىء النفوس ويصالح القلوب. وفكَّر ديمتري فيودوروفتش، الذي لم يسبق أن زار الناسك، والذي لم يره أبداً، تصوَّر، طبعاً، أن الهدف من هذا الاجتماع هو تخويفه منه ومع ذلك، وافق ديمتري على هذا التحدي لأنه كان ضمناً يلوم ذاته على الحدّة العنيفة التي كان يواجه بها والده في الفترة الأخيرة. وتجدر الإشارة إلى أنه ما كان يقيم في منزل والده، مثل أخيه إيفان، وإنما كان يقيم وحيداً في الطرف الآخر من المدينة. حدث، أثناء ذلك، أنّ بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف الذي كان يقيم في مدينتنا حينذاك، تحمّس بصورة خاصة لرأي فيودور بافلوفتش. وهو ليبرالي على طراز سنوات 1840 - 1850، ومفكر حرّ وملحد، قد ساهم، ربما عن سأم، في هذه المسألة بشكل فعّال، وربّما عن مزاحٍ طائش في السخرية. ورغب، فجأة، أن يرى الدير و«القديس»، وإذ كان النزاع بينه وبين الدير على تثبيت حدود ملكيته وحدود ملكية الدير، وعلى الحقوق الغامضة في قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر، لم يكن قد حُسم والدعوى لا تزال قائمة سارع إلى انتهازهذه المناسبة بذريعة أنه يريد أن يتّفق مع رئيس الدير، لأنه ليس من وسيلة لحلّ الخلاف إلّا حبّياً. وزائر بهذه النيَّة الطيبة من الممكن أن يُستقبل بشكل ألطف من الاستقبال الذي سوف يلاقيه لو ذهب إلى الدير بدافع الاستطلاع فحسب. أتاحت هذه الاعتبارات المتعددة تحريك بعض المؤثرات داخل الدير وأثَّرت في الناسك المريض الذي أصبح منذ فترة لا يبارح غرفته ويرفض بسبب سوء حالته استقبال الزوار الذين اعتادوا القدوم إليه؛ ووافق على الاجتماع وحُدّد يوم اللقاء. وقال الراهب الناسك لأليوشا مبتسماً: «مَن فوَّضني كي أكون الحكَمَ بينهما؟».

عندما علم أليوشا بشأن هذا اللقاء غاص في اضطراب شديد. إذا كان ثمة أحد من بين هذين الرجلين المتخاصمين المتنازعين سوف يأخذ هذا الاجتماع بجدّية فهو، بدون أدنى شك، أخوهما ديمتري. أما الآخرون فسيذهبون إلى الدير بدوافع طائشة وسخيفة قد تسيء إلى العجوز. هذا ما كان يدركه أليوشا بحقّ. فأخوه إيفان والسيد ميوسوف جاءا إلى الدير بداعي الفضول. وليس مستبعداً أن يكون في نيّة والده تمثيل مهزلة ساخرة. لزم أليوشا الصمت، وهو يحس ذلك، لأنه كان يعرف جيداً والده. فهذا الفتى كان أشدَّ ذكاءً مما يتصور بعض الناس. وكان ينتظر اليوم المحدَّد منقبض القلب بدون شك، كان في أعماق نفسه يتمنى أن تنتهي هذه النزاعات العائلية بشكل أو بآخر. لكنّ همّه الأساسي كان الراهب الناسك: كان يرتعد قلقاً عليه وحرصاً على مجده، ويخشى أن يلحقوا به الإهانة، ويخشى، بصورة خاصة، السخريات اللطيفة المهذبة التي يعتمدها ميوسوف وغمزات الاحتقار التي

يمكن أن يقوم بها أخوه المثقف إيفان؛ وهكذا، كان يتصور الأمر. أراد، في لحظة ما، أن يجازف ويُعلم الراهب الناسك، ويقول له شيئاً ما عن هؤلاء الأشخاص الذين سيأتون لزيارته، لكنه فكَّر في الأمر ولزم الصمت؛ أراد في عشية اليوم المحدَّد أن يبلغ أخاه ديمتري بواسطة صديق لهما أنه يحبه كثيراً وهو يعتمد على وعده. وبقي ديمتري محتاراً في شأن هذه الرسالة لأنه لم يستطع أن يتذكر بماذا وعد أخاه، ثم أجابه في رسالة خطية بأنه سوف يبذل كل جهوده لكي لا تقع أيٌّ «سفالة». وأضاف إنه رغم احترامه العميق للعجوز ولأخيه إيفان، إلّا أنه كان واثقاً بأنّ في الأمر فخاً أو مهزلة منحطة، وختم بقوله: «أفضِّل أن أبلع لساني على أن أقول ما يؤذي هذا الرجل القديس الذي تحترمه أنت كثيراً.» لكن الرسالة لم تكن لتطمئن أليوشا.

الكتاب الثاني

اجتماع في غير موضعه

I

الوصول إلى الدير

كان يوماً رائعاً، حاراً ومضيئاً. كنّا في نهاية شهر آب/ أغسطس. وكان اللقاء قد حُدِّد مع الناسك مباشرة بعد القداس الأخير حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف؛ ومع ذلك، لم يصل زوَّارنا إلى الدير في موعد القداس بل وصلوا، تحديداً، بعد الخروج من الكنيسة. وصلوا في عربتين. كان بيوتر ألكسندروفيتش ميوسوف في المركبة الأولى وهي عربة متأنقة يجرُّها جوادان رائعان، يصحبه أحد أقاربه البعيدين وهو شاب، في العشرين من عمره يدعى بيوتر فومتش كالغانوف كان يتهيأ للدخول إلى الجامعة. أما ميوسوف الذي كان الشاب يعيش، بصورة مؤقتة، عنده، فكان يصطحبه معه إلى الخارج، إلى زوريخ أو فيينّا، ليلتحق بالجامعة هناك وينهي دراسته. لم يكن الشاب قد اتخذ قراره بعد. كان واجماً شارد الذهن. كان وجهه لطيفاً، متين البنية، طويل القامة، في نظرته ثبات غريب: مثل كل الأشخاص الشاردين يحدّق إليك أحياناً بنظرة حادة وطويلة، ومع ذلك، فهو لا يراك أبداً؛ كان رجلاً سكوتاً، وأخرق قليلاً، وأحياناً يتحمس - إذا وُجد مع شخص حميم - فيتحول فجأة إلى ثرثار بشكل رهيب. ملتهب وضحوك، والله يعلم أحياناً لماذا. لكن هذه الحماسة تختفي بسرعة كما شبَّت فجأة. كان حسن الهندام دائماً، على شيء من التأنق. وهو يملك ثروة شخصية وينتظر مواريث أضخم. أصبح هو وأليوشا صديقين.

وصل فيودور بافلوفتش وابنه إيفان في عربة مستأجرة، قديمة جداً، يجرّها حصانان أشهبان عجوزان لا يقارنان بحصانَيّ ميوسوف. وتأخر ديمتري فيدوروفتش رغم أنه قد أُبلغ بالموعد منذ العشية. ركن الزائران عربتهما بالقرب من السور ودخلا الدير سيراً على الأقدام. يبدو أنّ أحداً من هؤلاء الزائرين ما عدا فيودور بافلوفتش لم يسبق له أن رأى الدير من قبل. أما ميوسوف الذي لم يدخل كنيسة منذ ثلاثين سنة، كان يتطلع حواليه بعين فضوليّة متظاهراً بعدم الاهتمام. لكن لم يجذب انتباه فكره الملاحِظ إلّا مبنى الكنيسة والمباني العادية المشتركة في داخل الدير، وهي مبانٍ لا تحمل شيئاً من جمال فنّ العمارة. كان المؤمنون يخرجون من الكنيسة وهم ينزعون قبعاتهم ويرسمون إشارة الصليب. كما كان يوجد أيضاً بعض المسافرين المتحدرين من طبقة اجتماعية عليا، وسيدتان أو ثلاث، وجنرال عجوز جداً. توقفوا جميعهم أمام الفندق. وفوراً احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين، ولكنَّ أحداً لم يعطهم شيئاً. وحده بتروشا كالغانوف أخرج من حافظة نقوده قطعة عشرة كوبيكات وسارع يدسّها مضطرباً، والله يعلم لماذا، في يد إحدى الفقيرات وهو يغمغم بسرعة: «توزَّعوها جميعاً بالتساوي». لم يبد له أحد من رفاقه ملاحظة بهذا الشأن، فما كان له إذن أن يحمرّ خجلاً، ولكنه لاحظ ذلك فازداد اضطراباً.

كان ذلك غريباً، على كل حال؛ في الحقيقة كان يجب أن ينتظرهم أحد. وربَّما مع بعض الاهتمام: فالأول تبرَّع مؤخراً للدير بألف روبل في الفترة الأخيرة، بينما الثاني كان ملّاكاً غنياً جداً وعلى جانب وافر من الثقافة، مرتبطون جميعهم به خاصة في ما يختص بحقوق الصيد في النهر إذا حسمت الدعوى لصالحه. ومع ذلك لم تكن توجد أيّ شخصية رسمية لاستقبالهم. ألقى ميوسوف نظرةً ذاهلة على حجارة القبور المجاورة للكنيسة وأراد أن يقول إن هذه القبور الصغيرة يجب أن تكون قد كلّفت العائلات مبلغاً طائلاً لكي يدفنوا

موتاهم في مكان «مقدَّس» مثل هذا. ولكنه آثر الصمت؛ فالسخرية البسيطة الليبرالية تحوّلت لديه إلى غضب. فغمغم فجأة وكأنه يكلّم نفسه:

- لا يعلم إلّا الشيطان هنا إلى من سنتوجّه في هذه الفوضى، وعلينا مع ذلك أن نسرع فالوقت يمضي...

وفيما هم في هذه الحيرة، رأوا سيداً متقدّماً في السنّ يقترب منهم؛ كان أصلع، يرتدي معطفاً فضفاضاً صيفياً وعيناه صغيرتان لطيفتان. نزع الرجل قبعته وقدَّم نفسه إليهم جميعاً بصوت معسول قائلاً ماكسيموف الملّاك العقاري من منطقة تولا. وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال:

- إن الناسك زوسيما يسكن في الصومعة، في الصومعة المنزوية، على مسافة أربعمئة قدمٍ من الدير تقريباً. بعد الغابة الصغيرة، الغابة الصغيرة...

- أعرف هذا، أجابه فيودور بافلوفتش، وراء الغابة، أليس كذلك؟ ولكننا نسينا الطريق المؤدي إليه لأننا لم نأتِ إلى هنا منذ زمن بعيد...

- حسناً، هناك، من الباب، ثم بخطّ مستقيم إلى الغابة الصغيرة... الغابة الصغيرة. هيّا بنا. هل أستطيع أن... إنني أنا أيضاً، أنا أيضاً... الطريق من هنا، من هنا...

خرجوا من السور وساروا في الغابة الصغيرة. كان ماكسيموف، في الستين من عمره، يسير إلى جانبهم، بل الأحرى، يكاد يركض إلى جانبهم وهو يتفرّس فيهم جميعاً بنوع من الفضول.

- قال ميوسوف بقساوة، إننا ذاهبون إلى هذا الراهب الناسك لأمر يتعلّق بنا وحدنا، وقد حصلنا على موعد لمقابلته، لذلك نحن شاكرون لك لأنك أرشدتنا إلى الطريق، لكننا نطلب منك ألَّا تدخل معنا.

- أنا، لقد سبق ورأيته... لقد رأيته... «إنه فارس عظيم». (بالفرنسية في الأصل).

وصفّق الملّاك بأصابعه في الهواء.

- الفارس، أيّ فارس؟ سأل ميوسوف مستغرباً.

- العجوز، العجوز العظيم، هذا العجوز... شرف هذا الدير ومجده... زوسيما، هذا العجوز الذي...

راهب قصير القامة، كان يركض باتجاه السائرين، شاحب اللون جداً ومعتلاً. توقف فيودور بافلوفتش وميوسوف. وخاطبهم الراهب بعد أن انحنى أمامهم بتهذيب حتى كاد رأسه يبلغ مستوى الحزام:

- إن الأب، رئيس الدير، يرجوكم، بمنتهى التواضع، أيها السادة، أن تشرّفوه لدى عودتكم جميعكم من الصومعة لتناول طعام الغداء لديه. المائدة جاهزة في الساعة الواحدة ليس أكثر. ثم التفت نحو ماكسيموف وأضاف: وأنت أيضاً مدعو.

- طبعاً، طبعاً! هتف فيودور بافلوفتش وقد طار فرحاً بهذه الدعوة اسمع لقد تعهّدنا جميعنا بأن نتصرّف هنا بلياقة... ستأتي أنت أيضاً يا بيوتر ألكسندروفتش؟

- طبعاً، طبعاً! فأنا حريص على أن أرى كل عاداتهم في هذا المكان. لكن الشيء

الوحيد الذي يقلقني هو أنني في صحبتك يا فيودور بافلوفتش!

- أجل. إن ديمتري فيدوروفتش لم يصل بعد؟

- سيكون ذلك جيداً وإن لم يصل أبداً! أتعتقد أنه يسرني أن أجد نفسي مقحماً في هذه المسائل القذرة، وأن أتحمَّل رفقتك؟ إذاً، سنكون إلى المائدة، أشكر الأب الرئيس. قال ذلك وهو يلتفت إلى الراهب.

- لا، فأجاب الراهب من واجبي أن أرافقكم. أنا باقٍ معكم لأنني مكلّف اصطحابكم إلى الراهب الناسك.

فقال الملّاك ماكسيموف في هذه الحالة، سأكون عند رئيس الدير خلال ذلك الوقت. أنا ذاهب إلى الأب الرئيس فوراً.

- إن الأب الرئيس مشغول في هذه الساعة، و قال الراهب بلهجة مترددة ولكن كما تريد...

- يا له من مزعج، هذا العجوز القصير قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملّاك ماكسيموف يتجه راكضاً نحو الدير.

- إنه يذكّرني بفون زوهن[5] قال فيودور بافلوفتش.

- هذا كل ما لديك أن تقول... بماذا يشبه فون زوهن؟ أنت، أنت بالذات، هل رأيت فون زوهن؟

- رأيت صورة له. لا يشبهه بملامح وجهه، لا، بل بشيء يصعب تحديده، إنه شديد الشبَه بفون زوهن. هو نسخة ثانية عن فون زوهن. أنا، تكفيني نظرة واحدة ألقيها على وجهه لكي أعرفه.

الواقع: إنك خبير، لكن لا تنسَ يا فيودور بافلوفتش أنك أنت بالذات، منذ لحظة، قد وعدت بأن يكون سلوكك جيداً، لا تنسَ. أذكّرك بهذا. تماسك. إذا بدأت بلعب دور المهرّج فأنا لا أرغب في أن يضعانا، أنا وأنت، في سلة واحدة هنا... هل ترى الرجل الذي يتكلم مع الراهب، أخشى الدخول معه عند أناسٍ شرفاء.

ارتسمت على شفتيّ الراهب القصير النحيليتين الذاويتين ابتسامة لا تخلو من بعض الخبث، لكنه لم يجب بشيء، ومن الواضح أنه تعمّد الصمت شعوراً منه بكرامته الشخصية. فقطَّب ميوسوف حاجبيه أكثر فأكثر.

«ليقطع الشيطان رؤوسهم بالسيف جميعاً، هم مجرد واجهة تكونت خلال قرون، لكنها في الحقيقة، شعوذة وكلام فارغ». قال ميوسوف في نفسه.

- هذا هو المنسك، لقد وصلنا! السور وباب المدخل مغلقان. صاح فيودور بافلوفتش.

وراح يرسم إشارة الصليب، أمام صور القديسين المعلَّقة فوق وحول المدخل. وقال:

- لكل دير نظامه. هنا، في هذا المنسك ثمة خمسة وعشرون قديساً، القديسون الذين ينشدون خلاصهم، يقضون وقتهم ينظرون الواحد إلى الآخر، ويأكلون الكرنب. ولكن ما من امرأة واحدة تجتاز هذا الباب. هذا هو الشيء العجيب هنا. هذه هي الحقيقة. إلّا أنه قيل لي

إنّ العجوز يستقبل هنا بعض السيدات. وتوجّه بالكلام فجأة إلى الراهب القصير:

- النساء المنتميات إلى عامة الشعب، إنهنّ هنا، أنظر هناك. إنهنّ راقدات قرب الرواق ينتظرن. أما فيما يختص بسيدات المجتمع الراقي فقد شيدت لهنَّ فوق الرواق، لكن خارج السور، غرفتان صغيرتان، نرى نوافذهما من هنا؛ يدخل الناسك إليهما من باب داخلي متى سمحت له صحته، دون أن يجتاز السور طبعاً. مثلاً، ثمة سيدة ملّاكة من منطقة خاركوف، السيدة خوخلاكوفا، تنتظر، الآن، مع ابنتها المريضة. لقد وعد الناسك برؤيتهما رغم أنه قد أصبح ضعيفاً، منذ فترة، وأصبح بالكاد يخرج ليرى الناس.

- إذن، هناك ممرّ يؤدي من المنسك إلى مقر السيدات. فلا تظنَّ أيها الأب المحترم أنني أطلق الكلام كيفما شاء، فالأمر هو هكذا تماماً. أنت تعرف أنه في جبل آثوس، إذا كنت على علم بذلك، لا يمنعون زيارات النساء فقط بل، وبشكل عام، أيّ مخلوقة من الجنس الأنثوي. فلا دجاجات صغيرات ولا إوزة ولا عجلة صغيرة...

- فيودور بافلوفتش، سأعود إلى منزلي وسأتركك هنا، وحدك، سوف يرمونك خارجاً، إنني أحذرك.

- بماذا أزعجك يا بيوتر ألكسندروفتش؟ أنظر، صاح، وقد تقدَّم خطوة واحدة إلى داخل المنسك، أُنظر إلى وادي الورود هذا، حيث يسكنون!

في الواقع، ومع أنه ليس موسم الورد، فهناك عدد كبير من أزهار الخريف، رائعة كما هي نادرة، في كل مكان حيث يمكن أن تُزرع. إنها يد ماهرة، على ما يبدو، تهتمّ بها. توجد أحواض أزهار في أسوار الكنائس وبين المقابر. والبيت الصغير حيث توجد غرفة الناسك، بيت من خشب، بكل بساطة، مع رواق أمام المدخل، هو أيضاً محاط بالأزهار.

- هل كان الأمر على هذه الحال مع الناسك السابق، فارسونوفي؟ فهو، كما يقال، لم يكن يحب الأناقة، كان يغضب من جنس النساء ويوجّه إليهن ضربات بعصاه. قال فيودور بافلوفتش وهو يقترب من درج المدخل.

- صحيح أن العجوز فارسونوفي كان يبدو أحياناً، وكأنه بريء، لكن رويت عنه حماقات كثيرة. إنه لم يضرب أبداً أيّ شخص بعصاه. أجاب الراهب القصير. والآن، أيها السادة، انتظروا دقيقة واحدة وسأُبلغ عن وصولكم.

- فيودور بافلوفتش، أحذّرك للمرة الأخيرة، تصرّف بشكل لائق وإلّا جعلتك تدفع الثمن. تمتم ميوسوف مرة ثانية.

- أتساءل لماذا أنت ثائر الأعصاب أوَ هل أنت خائف من خطاياك الصغيرة؟ أجاب فيودور بافلوفتش بسخرية يُعرف عن العجوز أنه يقرأ في الأعين، هكذا يقال، وأنه يعرف لماذا يأتي الناس إليه. وما هذه الأهمية التي توليها لرأيهم، أنتَ، الباريسي، السيد المتقدم جداً، إنك تدهشني، لا بأس!

لكن الوقت، لم يفسح في المجال لميوسوف للإجابة عن هذه السخرية؛ ودعوهم للدخول. فدخل متوتر الأعصاب.

- «حسناً، الآن، أعرف نفسي، إنني متوتر الأعصاب، سأناقش... سأبدأ بالحماسة، سأخفض من قدري ومن قيمة أفكاري».

II

المهرّج العتيق

دخلوا الغرفة في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه الناسك قادماً من غرفة نومه الصغيرة. كان في الغرفة ناسكان من رهبان الدير ينتظران فيها خروج العجوز، الأب المسؤول عن المكتبة والأب بايسي، وهو رجل مريض رغم أنه ليس طاعناً في السنّ، وهو عالم شهير، كما يقال عنه، كما كان هناك، أيضاً شابّ في الثانية والعشرين من العمر تقريباً، ينتظره واقفاً في زاوية الغرفة (بقي واقفاً ولم يجلس)، يرتدي سترة مدنية، إكليريكي، وسيصبح لاهوتياً. والدير والجمعيّة الدينية معاً يهتمان به، لست أدري لماذا. كان شاباً طويل القامة، نضر الوجه، عريض الوجنتين، له عينان صغيرتان ضيّقتان تعبِّران عن ذكاء وانتباه. وكان وجهه ينم عن احترام ولياقة. حتى إنه لم يسلّم على الزائرين الذين دخلوا الغرفة مباشرة، وكأنه لا يحسب نفسه من مستواهم بل شخصاً ثانوياً ومرؤوساً.

خرج الناسك زوسيما من غرفته يصحبه مترهّب مبتدىء وأليوشا، نهض الراهبان فسلّما عليه بانحناءة حتى لامست أصابعهما الأرض، وقبَّلا يديه بعد أن باركهما، ثم ردَّ عليهما السلام بالانحناءة نفسها. جرى هذا الاحتفال بكثير من المهابة لا كما يجري طقس يومي، بل، بنوع من الانفعال. وشعر ميوسوف، مع ذلك، أن كل ذلك لا يعدو كونه تمثيلية متعمدة هدفها التأثير على الحاضرين. لكنه كان يقول في سرّه - وقد فكَّر في ذلك مساء الليلة البارحة - مهما تكن آراؤه، فعليه من باب اللياقة أن يقترب ويتلقّى بركة الراهب الناسك (ما دامت العادات المحلية تفرض ذلك)، على الأقل، ما دام لا يريد تقبيل يده. وعندما رأى كل هذه الانحناءات والقبلات التي قام بها الرهبان النساك، تراجع عن قراره فوراً. فسلَّم على الناسك بانحناءة، رجل مهذب من المجتمع الراقي ثم تراجع نحو كرسيه رصيناً وقوراً. فعل فيودور بافلوفتش مثله تماماً مقلّداً إياه وكأنه قرد حقيقي. وانحنى إيفان فيودوروفتش، بشكل لائق ورصين للغاية، واضعاً يديه على حزام بنطاله. بينما كالغانوف من شدة الاضطراب نسي أن ينحني. فأنزل الراهب الناسك ذراعه التي كان قد رفعها ليباركهم، وانحنى أمامهم مرة ثانية وطلب من الجميع الجلوس. احمرّ خدَّا أليوشا من الخجل. لقد تحقق ما تنبَّأ به.

جلس العجوز على كنبة صغيرة من خشب الأكاجو، مغطاة بجلد، من طراز قديم جداً، وأجلس ضيوفه، ما عدا الراهبين الناسكين، أمام الجدار المقابل مشيراً إلى أربعة مقاعد، مصنوعة من خشب الأكاجو، ومغطّاة بجلد أسود ومستعملة كثيراً. وجلس الراهبان الناسكان إلى الجانبين، أحدهما قرب الباب والثاني أمام النافذة. أما الإكليريكي وأليوشا والمبتدىء فظلّوا واقفين. كانت الغرفة صغيرة تولّد شعوراً بأنها بالية، وكان الأثاث وكل الأشياء الأخرى التي فيها قديمة وعادية. إناءان للأزهار على النوافذ، وفي الزاوية عدد كبير من الإيقونات، بينها واحدة للسيّدة العذراء، حجمها هائل ومرسومة بالألوان، من الواضح أنّ تاريخها يعود إلى عصر سابق على الانشقاق الديني الكبير، وإلى جانبها إيقونات من معدن لماع وبالقرب منها تماثيل أطفال منحوتة لهم أجنحة، وبَيْض صغير من الخزف، وصليب كاثوليكي من العاج، مع أمّ حزينة تضمّ الصليب بيديها، وبضع نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الإيطاليين تعود إلى القرون الماضية. وبالقرب من تلك المحفورات الفنيّة الجميلة والثمينة يوجد عدة نسخ ليتوغرافية روسية شعبية عاديّة تمثّل قديسين وشهداء ورهباناً، الخ، من تلك التي تباع ببضعة كوبيكات في جميع الأسواق. وهناك بورتريهات ليتوغرافية

لأساقفة قدماء أو معاصرين على الجدران الأخرى. جال ميوسوف بنظره على هذه «التفاهات» ثم نظر إلى العجوز بنظر ملحاح. فميوسوف يعتبر نفسه ثاقب النظر خاصة، أنه بلغ الخمسين من العمر، وهي سنّ يكون فيها المرء الذي ينتمي إلى المجتمع الراقي، ذكياً، ويتمتع بمركز مرموق قد اعتاد أن يحترم نفسه كثيراً، وأحياناً بالرغم عنه.

منذ اللحظة الأولى، لم يعجبه الناسك. كان ثمة في وجهه شيء لم يُرضِ بعض الآخرين أيضاً. كان رجلاً طيب القلب، قصير القامة، محدودب الظهر، له ساقان هزيلتان جداً، وعمره خمسة وستون عاماً، لكنه يبدو، بسبب مرضه، أكبر من عمره بعشر سنوات على الأقل. وجهه نحيل، ضامر، تنتشر فيه تغضنات صغيرة، وخاصة حول عينيه. عيناه صغيرتان لكنهما صافيتان، حادتان، ومشعَّتان، كأنهما نقطتان من ضوء. لم يبقَ من شعره إلّا خصلات بيضاء، على الصدغين فقط. كانت لحيته الدقيقة صغيرةً وغير كثَّة ومروَّسة، وشفتاه اللتان تبدوان ساخرتين، رقيقتان كأنهما حبل رفيع، وله أنف ليس طويلاً بل دقيق يشبه منقار عصفور صغير.

قال ميوسوف في سرّه: «من الواضح أنّ لديه نفساً شريرة، وعلى شيء من الكبرياء الحقيرة». وكان مستاءً جداً من نفسه.

دقَّت الساعة فوضعت حداً للمحادثة. إنها ساعة صغيرة زهيدة الثمن معلَّقة بالحائط، دقّت اثنتي عشرة دقة سريعة.

- حان الموعد المحدَّد ولم يصل بعد ابنا ديمتري فيودوروفتش، قال فيودور بافلوفتش أرجو المعذرة، نيابة عنه، أيها الناسك المبارك (ارتعش أليوشا لدى سماعه، حرفياً، قول أيها الناسك المبارك). اعتدت، أنا، أن أكون دقيقاً في المواعيد، لم أتأخر يوماً عن موعد دقيقة لأنني أتذكر أن دِقَّة المواعيد هي من أدب الملوك...

- لكنك، مهما قيل، أنت لست ملكاً. دمدم ميوسوف الذي لم يستطع أن يتمالك نفسه.

- أجل، صحيح، لست ملكاً. لكنني، يا بيوتر ألكسندروفتش، أعرف ذلك، من دون رأيك، أقسم لك! وهذا في كل مرة أقول كلاماً في غير موضعه وبدون معنى. ثم صاح بانفعال مفاجىء: يا صاحب السمو، إنك ترى أمامك مهرِّجاً، مهرِّجاً حقيقياً. هكذا أقدّم نفسي. هذه عادة قديمة، مع الأسف! وإن كنت أكذب، أحياناً، عن قصد، إنما أفعل ذلك لكي أضحك الناس وأكون لطيفاً. إسمع، منذ سبع سنوات، في مدينة صغيرة، كانت لديّ بعض الصفقات مع عدد من التجار، فأقمت الصلات بيني وبين بعضهم. قررنا أن نزور الإيسبرافنيك (مفوض الشرطة في المنطقة) ونطلب مساعدته في بعض الأمور ولكي ندعوه إلى تناول الغداء (استقبلنا هذا الإيسبرافنيك). حضر. إنه رجل كبير القلب، ضخم الجثّة، أشقر، صموت. والنماذج الذين من هذا الصنف هم الأشدّ خطراً في هذه الحالة: الكبد أجل الكبد. أنا سرت مباشرة باتجاهه، وقلت له بلهجة منطلقة كواحدٍ من رجال المجتمع: «لتكن نابرافنيك خاصتنا! (موسيقي معروف في تلك الفترة). فقال لي: «كيف؟ أيّ نابرافنيك؟ أنا، أدركت منذ الثانية الأولى، أن الصفقة قد ضاعت. بقي مكانه، وقوراً، قاسي المظهر، كأنه بابا (الحبر الأعظم). قلت له: «أردت أن أمزح لكي ألطّف الجوّ. في الواقع إن السيد نابرافنيك هو واحد من أشهر قادة الترتيل، ونحن، انسجاماً مع مؤسستنا، بحاجة إلى قائد ترتيل...» لقد شرحت له، أليس كذلك! وقارنت بذكاء أن ذلك كان صحيحاً؟ «المعذرة، قال لي، أنا إيسبرافنيك، ولا أقبل التلاعب لفظياً بشأن وظيفتي». ثم استدار وانصرف. فلحقت به صائحاً: «لا، لا، أنت إيسبرافنيك ولست نابرافنيك». «لا، قال لي، لقد قلتَها، قلت لي نابرافنيك». تصوّروا، سقطت صفقتنا في الماء! هكذا هي الأمور دائماً معي، أفعل دائماً هكذا؛ يجب دائماً؛ بمجاملتي، أن

أسيء إلى نفسي! ذات مرة، حدث ذلك منذ زمن بعيد، قلت لشخصية نافذة إنّ «زوجتك إنسانة حساسة»، بالمعنى المجازي، أعني أنها حساسة إذا أُسيء إلى كرامتها وإلى صفاتها الأخلاقية؛ وهو، أجابني على الفور: «لأنك داعبتها»؟ لا أتمالك نفسي دائماً، فقلت، لنكن مجاملين، فقلت له، «نعم، داعبتها» - يومها... فقط هذا، هذا ما حدث منذ زمن طويل، ولا أخجل الآن من أن أروي ذلك، لكن أنا، أسيء دائماً إلى نفسي!

- تماماً كما تفعل في هذه اللحظة». دمدم ميوسوف باشمئزاز.

كان الناسك يراقب الرجلين بصمت.

- عجباً، تصوّر يا بيوتر ألكسندروفتش، هذا أيضاً، هل تعلم، لقد تنبأت به منذ فتحت فمي، وإنني سأفعله. هل تعلم، كنت أشعر بأنك أنت ستكون أول من يوجِّه إلي الملاحظة. في مثل هذه اللحظات حين رأيت أن مزاحي لم ينجح، قلت له: يا صاحب السموّ، يتصلَّب خدّاي ويلتصقان بالفكَّين السفليين، مما يجعلني أشعر بتشجنات؟ يعود ذلك إلى أيام الشباب، عندما كنت طفيلياً أقتات على موائد النبلاء وأكسب قوتي بلعب دور الطفيلي. أنا مهرِّج، يا صاحب السموّ، أنا مهرِّج عريق، مهرّج بالولادة، إنني إنسان قرويّ ساذج؛ ربّما هناك شيطان يحرّكني، وهذا يحدث، وهو مختبيء في داخلي، لكنه متواضع. لو كان قوياً لاختار مسكناً آخر. أي مكان ما عداك يا بيوتر ألكسندروفتش، فأنت، لست مسكناً جيداً. أما أنا، فبالعكس، أنا أؤمن، أؤمن بالله. لم يساورني الشك إلّا في الأيام الأخيرة، لكن الآن، أنا هنا، أنتظر الكلمات الكبيرة الرنّانة. أنا، يا صاحب السموّ، مثل الفيلسوف ديدرو. أنت، تعرف، أيها الأب القديس جداً، كيف جاء الفيلسوف ديدرو إلى رئيس الأساقفة أفلاطون في عهد كاترين الثانية. دخل وقال له، مباشرة: «الله غير موجود»، فرفع الرجل القديس العظيم يده اليمنى وقال: «المجنون يقول في قلبه إن الله غير موجود»، فركع الآخر على ركبتيه وصاح: «آمنت، أقبل العماد». وهنا، فوراً، جرى تعميده. كانت الكونتيسة داشكوفا إشبينته، وكان عرّابه بوتمكين...

قال ميوسوف بصوت مرتجف ولم يستطع كبح جماحه:

- فيودور بافلوفتش، هذا لا يُحتمل! أنت تعرف جيداً أنك تكذب، وأن هذه القصة السخيفة هي أكذوبة، فلماذا تقوم بدور المهرِّج؟

- طوال حياتي، كنت أشعر أن هذه القصة هي أكذوبة. فصاح فيدور بافلوفتش والآن، أيها السادة، سأقول لكم الحقيقة بكاملها؛ أيها الراهب الناسك العظيم! سامحني، الشيء الأخير الذي قلته عن معمودية ديدرو، اخترعته في اللحظة ذاتها التي كنت أخبرها وقبل ذلك لم تخطر أبداً ببالي. لقد اخترعتها من أجل الإثارة، لهذا، لعبت دور المهرِّج، يا بيوتر ألكسندروفتش، لكي أكون خفيف الروح. ثم أنا، أنا نفسي، أتساءل أحياناً لماذا أقوم بذلك. فيما يتعلق بديدرو، وعن هذا «المجنون الذي يقول ذلك» فقد سمعت هذا القول من الملّاكين هنا أكثر من عشرين مرة، عندما كنت في مطلع سنوات شبابي وكنت أقيم عندهم وعند عمتك ذاتها مافرا فومينيشنا، يا بيوتر ألكسندروفتش، سمعت ذلك منها، كما أعتقد. وحتى هذا اليوم، جميع الناس مقتنعون بأن هذا الملحد ديدرو جاء إلى المتروبوليت أفلاطون ليناقش معه مسألة وجود الله...

وقف ميوسوف، وقد فقد صبره وأدرك أنه أصبح، هو أيضاً، مضحكاً. في الواقع، ما يحدث في هذه الغرفة هو أمر مستحيل كلّياً. ففي هذه الغرفة عينها، منذ ثلاثين عاماً أو أربعين تقريباً، في أيام الرهبان النساك السابقين، يجتمع الزائرون ولكن بروح من الاحترام العميق جداً وليس غير ذلك. إن جميع الذين كانوا مقبولين تقريباً، ويدخلون الغرفة، كانوا

يعرفون أنهم نالوا نعمة عظيمة جداً، والكثيرون منهم يركعون ولا يقفون أثناء فترة الزيارة كلها. وعدد كبير من الأشخاص، حتى «الأرفع مكانة» والأكثر معرفة؛ ومن بينهم من يتصفون بالأفكار الحرة، الذين يأتون إما من باب الفضولية وإما لسبب آخر، يدخلون إلى الغرفة ويحصلون على لقاء وجهاً لوجه، ويلزمون أنفسهم، من الأول حتى الأخير، الاحترام العميق واللياقة خلال كل مدّة اللقاء، سيّما وأن الدير لا يطلب مالاً، وأن كلّ ما فيه يتمّ بمحبّة ونعمة من جهة، ومن جهة أخرى، بندامة وتعطش إلى حلّ هذه المسألة الشائكة التي تطرح على النفس، أو أي لحظة صعبة لحياة قلب المرء. حيث أن فيودور بافلوفتش اندفع، فجأة، في تهريج، مع قلّة احترام تجاه هذا المكان الذي هو فيه، ما حدث لدى من يرون هذا المشهد، أو لدى بعضهم على الأقل، ذهولاً ودهشة. أما الراهبان الناسكان اللذان ظلّ وجهاهما هادئين، على كل حال، وكانا يتابعان بانتباه جدّي ما سيقول الراهب الناسك. لكن يبدو أنهما كانا جاهزين لينهضا كما فعل ميوسوف. وكانت دموع أليوشا على وشك أن تنهمر، وبقي خافض الرأس. وما كان يبدو له أكثر غرابة هو أن أخاه إيفان فيودوروفتش، الوحيد الذي كان يأمل منه أن يتدخل، وهو الوحيد الذي كان له تأثير في والده، بقي على مقعده لا يتحرك، وعيناه منخفضتان، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من الفضولية ليرى إلى ماذا سيؤدي هذا الأمر، كأنْ لا علاقة له بهذا الشأن.

- سامحني... بدأ ميوسوف كلامه متوجهاً إلى الناسك، إذا بدوت لك، ربما، أنا أيضاً، مشاركاً في هذا التهريج غير اللائق. فخطأي يكمن في أنني أعتقدت أن رجلاً مثل فيودور بافلوفتش، وهو يزور شخصية محترمة إلى هذا الحدّ، سيقبل بأن يعرف واجباته... لم أدرك أنه كان يتوجب عليَّ أن أعتذر لأنني دخلت برفقته إلى هذا المكان...

لم يكمل بيوتر ألكسندروفتش كلامه حتى تاه كلياً في ارتباكه، وأراد أن يخرج من الغرفة.

- لا تقلق، أرجوك، قال الناسك، ونهض فجأة على ساقيه الهزيلتين وأمسك بيديه الاثنتين بيوتر ألكسندروفتش، وأجلسه على كرسيّه، كنْ هادئاً أرجوك؛ وأُصرّ على أن تكون ضيفي - ورجع وهو ينحني، وجلس على كنبته الصغيرة.

- أيها الناسك العظيم، قلْ: هل يؤذيك اندفاعي، نعم أم لا؟ قال فجأة فيودور بافلوفتش، وقد استند بيديه الاثنتين إلى ذراعي كنبته كأنه ينوي النهوض؛ إذا كان الجواب موجباً لذلك... أجاب الراهب الناسك بيقين...

- أرجوك، بصورة خاصة، ألّا تقلق وألّا تنزعج، لا تزعج نفسك، تصرَّف وكأنك في منزلك، وخاصة، لا تخجل من نفسك فهذا هو أصل البلاء.

- تماماً كما لو كنت في منزلي؟ يعني بشكل طبيعي؟ إنّ هذا لكثير، كثير جداً. لكنني أوافق بتأثر! إسمع أيها الأب المبارك، لا تدفعني كثيراً، ففي حالتي الطبيعية، لا تجازف... حتى أنا نفسي، لن أصل إلى الحالة الطبيعية. إنني أنبهك لكي تحتاط. وكل ما تبقّى تحجبه ظلمات المجهول. ولا أعرف أيضاً من سيعطيني الدرس. هذا للعِلِم، أقول هذا لك يا بيوتر ألكسندروفيتش. أما أنت أيها الإنسان المقدس، إليك ما أقوله: إنني أبوح لك بإعجابي الشديد! ونهض رافعاً ذراعيه نحو السقف وقال: «بورك البطن الذي حملك، وبورك الثديان اللذان أرضعاك»، نعم، الثديان بصورة خاصة. لقد سبق ونصحتني، منذ برهة، بأن «لا تشعر بالعار من نفسك، فهذا هو أصل البلاء»، بملاحظتك هذه، نفذتَ إلى داخلي وقرأت ما في أعماقي. هذا هو ما أشعر به تماماً؛ أنا أشعر، دائماً، عندما أدخل على الناس، بأنني أحقر من الجميع، وأنّ الجميع يعتبرونني مهرّجاً، فأتوجَّه إليهم، عندئذ، بيني وبين نفسي قائلاً: «فليكن، سأمثّل لكم دور المهرّج. لا أبالي بما ستفكرون لأنكم جميعاً، من أولكم إلى آخركم،

أكثر حقارة مني». ولهذا السبب، أيها الناسك العظيم أهرِّج، أهرِّج لأنني خجول. لأنني جبان أتبجَّح. لأنني كنت، حين دخلت، متأكداً من أنّ كل واحد منكم سيعتبرني فوراً، ألطف وأذكى إنسان، لأصبحت عندئذ الطيبة مجسدة كإنسان!.

يا معلِّمي! قال وارتمى راكعاً، ماذا يجب عليَّ أن أفعل لأنال الحياة الأبدية؟ لقد كان من الصعب أن نحسم: هل كان يتابع لعب دور المهرّج أم كان حقاً في حالة من الانفعال؟

نظر إليه الناسك وقال له مبتسماً:

- أنت بذاتك تعرف... منذ زمن طويل، ماذا ينبغي أن تعمل، فأنت بالغ الذكاء: لا تستسلم للسكر وللفجور، وتحاش البذخ وعبادة المال، وأغلق حوانيت بيع الخمرة، وإذا كنت لا تستطيع إقفالها كلها فاغلق اثنين منها أو ثلاثة، وخاصة، نعم خاصة، لا تكذب.

- يعني أنك تشير إلى ديدرو ذاك؟

- لا... ليس بالضبط ديدرو. فلا تكذب على نفسك، فالذي يكذب على نفسه ويستمع إلى كذبه يصل إلى عدم رؤية الحقيقة، لا في ذاته ولا في من حوله. إذاً، ينتهي إلى فَقْد احترامه نفسه واحترامه الآخرين. وإذا كان لا يحترم أحداً، يتوقف عن الحبّ، وإن أصبح بدون حبّ، يندفع في أهوائه وراء الملذات الدنيئة فيصل إلى درجة الحيوانية الكاملة؛ وهذا كله، لا ينتج إلّا من الكذب المستمر على الآخرين وعلى نفسه. إنّ مَنْ يكذب على نفسه هو أول من يشعر بأنه مهان. لأنه ثمة لذة ما، أحياناً، بأن يشعر المرء بأنه مهان. أليس كذلك؟ يشعر الرجل أنَّ ما من أحد قد أهانه وإنما هو الذي اخترع إهانته بنفسه، وأنه كَذِب لتجميل الأمور. وبالغَ وحده تزييناً لوضعه. وتعلَّق بكلمة ليجعل من الفأرة جملاً. إنه يعرف ذلك جيداً، وبالرغم من ذلك، يسارع إلى إهانة ذاته، ويهين نفسه إلى حد التلذذ، والشعور بالفرح، ومن هنا بالذات يصل، هو يهينها إلى الشعور بحقد حقيقي... ولكن، إنهضْ عن الأرض، أرجوك، إجلس أرجوك، كلّ ما تقوم به ليس سوى حركات كاذبة...

- أيها الإنسان المبارك! إسمح لي أن أقبِّل يدك! قال فيودور بافلوفتش وهو يطبع قلبةً رنانة على يد الناسك الهزيلة. تماماً، تماماً. ثمة لذة أن يكون المرء مهاناً. لقد أحسنتَ قول ذلك. أنا لم أسمع أبداً مثل هذا الكلام. بقيت طوال حياتي أهين نفسي طلباً للذّة، بل طلباً للجمال أهنت نفسي، لأنه ليس فقط شعوراً باللذة فحسب بل، أحياناً، من الرائع أن يكون المرء مهاناً. هذا ما نسيت أن تقوله، أيها الناسك العظيم! إنه جميل. سأدوِّن هذا في كتابي. لقد كذبت، لقد كذبت دائماً، طوال حياتي كلها، في كل ساعة من اليوم. أنا في الحقيقة كاذب، أنا أبو الكذب! مهلاً، لا أعتقد أنني أبٌ للكذب. أنا أخطىء دائماً في الاستشهادات، حسناً، أنا ابن الكذب، وهذا يكفيني. الكذب على ديدرو فقط هو أمر مسموح أحياناً! فديدرو لا يسيء إلى أحد، لكن هناك كلمات يمكن أن تسيء. أيها الناسك العظيم، بالمناسبة، لقد نسيت، لكنني كنت أنوي، منذ ثلاث سنوات، أن أستعلم، أجيء إلى هنا لأستوضح هذه المسألة بشكل واضح وجلي، أن، أطلبُ منك: قلْ، أولاً، لبيوتر ألكسندروفتش بأن لا يقاطعني. هذا ما كنت أريد أن أطلبه منك: هل صحيح، أيها الأب النبيل، أن كتاب سِيَر حياة القديسين يروي، لست أدري في أيّ موضع، لم أعد أعرف أي قديس صانع المعجزات، واستشهد في سبيل إيمانه، أنه في النهاية، عندما قطعوا رأسه، نهض، وتناول رأسه، وقبَّله وملؤه المحبة، وسار مدّة طويلة، حاملاً إياه بيديه، وقبَّله. هل هذا صحيح، نعم أم لا؟ أجيبوني أيها الآباء الطيبون؟

- لا، ليس هذا صحيحاً. أجاب الناسك.

- لا يوجد شيء شبيه بهذا في كل سِيَر القديسين. فمن هو القديس الذي تقصده؟

سأله راهب متوحد مسؤول عن المكتبة.

- أنا ذاتي، لا أعرفه. أنا أجهل القصة ولا أعرفها. لقد خدعتُ خطأً. سمعت أحدهم يقول لي، سمعته يروي القصة. وهل تعلمون من رواها لي؟ إنه بيوتر ألكسندروفتش هذا الذي ثار، هنا، بشأن قصة ديدرو! هو الذي روى لي هذه القصة[6].

- غير صحيح! أنا لم أروِ لك أبداً هذه القصة! ثم إنني لا أتحدَّث إليك أبداً!

صحيح، إنك لم تروها لي أنا، لكنك رويتها في اجتماع كنت أنا موجوداً فيه، حدث ذلك منذ ثلاث سنوات. لهذا السبب، أنا أرويها، لأنك بتلك القصة المضحكة زعزعت إيماني، يا بيوتر ألكسندروفتش. أنت لم تعرف ذلك. ولم تكن على علمٍ بذلك. لكنني عدت إلى منزلي وقد تزعزع إيماني. منذ ذلك اليوم، وكل يوم بعده، أتزعزع أكثر. نعم، يا بيوتر ألكسندروفتش، أنت كنت السبب في سقوطي الكبير! هذا هو السبب وليست قصة ديدرو، أليس صحيحاً؟

راح فيودور بافلوفتش يتكلم بلهجة شعرية مؤثّرة، رغم أنه كان واضحاً للجميع، في هذه المرة، أنه يهرِّج. ومع ذلك، فقد تأذى ميوسوف.

- يا للسخافات، وهذه أيضاً كلها سخافات. دمدم قائلاً. صحيح، حسناً، ربَّما، ذات يوم، قد رويت شيئاً من هذا النوع. لكن، هذه أيضاً أخبروني إياها. فقد سمعتها في باريس، من أحد الفرنسيين، مثلما يزعمون عندنا، أن سِير القديسين يقرأونها أثناء الذبيحة الإلهية... إنه رجل مثقف جداً، درس، بشكل خاص، علم إحصائيات روسيا... عاش مدة طويلة فيها... أنا شخصياً، لم أقرأ سِير حياة القديسين... ولن أقرأها... الله وحده يعلم ماذا يُروى على مائدة الطعام!... كنا نتناول الطعام حينذاك...

- أجل، أنت، كنت تتناول الطعام، وأنا فقدت إيماني! تابع فيودور بافلوفتش ساخراً منه.

- ما شأني وإيمانك! صاح ميوسوف، لكنه، فجأة عاد إلى هدوئه وقال باحتقار: أنت تدنّس كلَّ ما تلمسه.

نهض الراهب الناسك فجأة من مقعده:

- المعذرة، أيها السادة، سأترككم بضع دقائق، قال، متوجهاً إلى جميع زوّاره، فهناك آخرون ينتظرونني وقد وصلوا قبلكم، وأنتَ، بالرغم من كل شيء، لا تكذبْ، قال متوجهاً إلى فيودور بافلوفتش وعلى وجهه تعبير من البهجة.

خرج من الغرفة فأسرع أليوشا والمبتدىء ليساعداه على هبوط السلَّم، كان أليوشا يلهث، كان سعيداً بأن الناسك قد انصرف ولم يُهنْ وبدا مرحاً. وتوجّه الراهب الناسك باتجاه الرواق ليبارك الذين ينتظرونه. لكن فيودور بافلوفتش أوقفه، بالرغم من كل شيء، أمام باب الغرفة.

- يا صاحب الغبطة! قال بتأثر، إسمح لي أن أقبِّل يدك مرة أخرى. معكَ، يستطيع المرء أن يتفاهم وأن يحبّ الحياة! هل تعتقد أنني أكذب دائماً وألعب دور المهرِّج؟ إعلمْ، أنّ كلَّ ما فعلت هنا، كان عمداً، لكي أختبرك، وأتأكد من أنه يمكن العيش معك، مثّلت هذا الدور. وإذا كان شخصي المتواضع يمكن أن يؤكد ذاته في جوار كبريائك؟ والآن، أشهد لك: نعم، يمكن العيش معك، والآن، سأسكت، سألتزم الصمت طوال ما تبقَّى من الوقت. سأجلس على المقعد، وأسكت، والآن، جاء دورك في الكلام يا بيوتر ألكسندروفتش، الآن، أنت الرجل

الأول... لمدة عشر دقائق.

III

النساء الثرثارات المؤمنات

في الأسفل، بالقرب من الرواق الخشبي الملاصق للحائط الخارجي من السور، احتشد جمهور ليس فيه إلّا نساء كنَّ عشرين ثرثارة. ينتظرنَ خروج الناسك لمقابلتهن فاحتشدن لانتظاره، وقد خرجت معهن السيدتان خوخلاكوفا وذهبتا إلى المكان المخصص للزوار النبلاء. كانتا اثنتين: الأم وابنتها. السيدة خوخلاكوفا الأمّ امرأة غنيّة ترتدي ملابس أنيقة، ولا تزال شابة وغايةً في الجمال، شاحبة الوجه قليلاً، لها عينان حادتان توشكان أن تكونا سوداوين. لم تتجاوز الثالثة والثلاثين. وقد أصبحت أرملة منذ خمس سنوات. أما ابنتها، وهي في الرابعة عشرة من العمر، فهي مصابة بشلل في الساقين. صبيَّة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر، وهي الآن تُدفع على كرسيّ طويل متحرك. لها وجه صغير جميل قد هزل قليلاً بسبب المرض لكنه بشوش دائماً، عيناها كبيرتان سوداوان لهما أهداب طويلة فيهما بريق من الدهاء. كانت أمّها تنوي، منذ فصل الربيع، أن تصطحبها إلى الخارج، لكنَّ أعمالاً بوشر بها في أرضهما أجبرتهما على البقاء حتى فصل الصيف. كانتا تقيمان في مدينتنا، منذ أسبوع، لقضاء بعض الأعمال لا لزيارة الدير. غير أنهما قامتا بزيارة الراهب الناسك، قبل ثلاثة أيام؛ وعادتا، الآن، رغم أنهما تعلمان أن الراهب الناسك لا يستطيع أن يستقبل أحداً. توسَّلتا، بأن «تنعما برؤية العجائبي الكبير»، مرة أخرى.

بانتظار وصول الراهب الناسك، كانت الأم جالسة على كرسيّ بالقرب من كنبة ابنتها، وعلى مسافة خطوتين منهما راهب عجوز ينتظر واقفاً، جاء، هو أيضاً، ليس من هذا الدير، بل من منسكٍ بعيد وغير معروف من الشمال. هو أيضاً، كان يريد أن يباركه الراهب الناسك. لكن هذا الأخير ظهر في الرواق واتجه مباشرة نحو الشعب. كان الجمهور محتشداً أمام درج المدخل، على بُعد ثلاث درجات تصل الرواق الواطىء بالحقل. وقف الناسك العجوز على الدرجة العليا وقد تلفّح بجبّته وبدأ يبارك النساء اللواتي تجمهرن أمامه. قدَّموا إليه في البدء امرأة «مولولة» يمسكونها من ذراعيها. وهذه الأخيرة، ما إن رأت الراهب الناسك، حتى أخذت، تطلق صرخات رهيبة و«تحوذق» وترتجف وكأنها تعاني أزمة تشنّج. فوضع الراهب الناسك جبَّته على رأسها، وقرأ صلاة قصيرة فهدأت وسكتت فوراً. لست أدري ماذا يحدث في أيامنا، ولكنه، أثناء طفولتي، قد أتيح لي مراراً أن أرى وأسمع هذه «المولولات» في القرى وفي الأديرة. كان يؤتى بهنّ إلى الذبيحة الإلهية، وكان صراخهنّ وعويلهن الذي يشبه عويل الكلاب، يملأ أرجاء الكنيسة. لكن عندما يرين القربان المقدس ويُقرَّبن منه يتوقف «المسّ» فوراً، ويهدأ المرضى لبعض الوقت. وأنا، عندما كنت طفلاً، كان ذلك يترك في نفسي أثراً قوياً ويدهشني. لكنني كنت أسمع من، بعض الملّاكين ومعلّمي مدرستي في المدينة، أن ذلك ليس إلَّا تمثيلاً كاذباً لكي لا تعمل هؤلاء النسوة، وأن من الممكن دائماً ردُّهنَّ إلى الصواب باستخدام القسوة. وتؤكد ذلك حكايات مضحكة كثيرة. وبعد ذلك، علمت من أطباء اختصاصيين كثيرين أن الأمر ليس تمثيلاً كاذباً بل هو مرض نسائي رهيب، يبدو أنه منتشر عندنا في روسيا، وأنّ سببه المصير المضني للنساء الفلّاحات عندنا. إنه مرض ناتج من الأعمال المرهقة التي تُفرض على المرأة بعد الولادات العسيرة بسبب سوء العناية الطبية. بالإضافة إلى ذلك، ينتج من الضرب المبرح، الخ، لأن بعض النساء لا يستطعن تحمُّله. أما ذلك

الشفاء العجيب الفوري للمرأة «الممسوسة» والمزبدة، عند اقترابها من القربان المقدس، الذي يفسّره بعضهم بالتظاهر الكاذب، وبخداع مقصود، يقوم به «رجال الدين» أنفسهم، فهو يحصل على الأرجح بشكل طبيعي جداً، والنساء اللواتي يدنين الممسوسات من القربان المقدس، والممسوسة نفسها بصورة خاصة، هنَّ مؤمنات بعمق، كحقيقة راسخة، بأنّ الروح الخبيثة التي تملَّكتهنّ لا تحتمل أن تقترب المريضة منها. لهذا السبب، يحدث دائماً (ويجب أن يحدث) في هذا المرض العصبي والنفسي أيضاً، لدى المرأة المريضة، نوع من الاضطراب أمام القربان المقدس، اضطراب ناتج عن توقّع معجزة وشيكة الحدوث للشفاء، وعن الإيمان الكلّي في أعماقها بأن الشفاء سوف يحدث حتماً. كان يحدث الشفاء ولكن إلى حين قصير. وهذا، ما حدث تماماً عندما غطّى الراهب الناسك المريضة بجبَّته.

كثيرات النساء اللواتي تجمهرنَ حول الناسك، كانت تنهمر من أعينهنَّ دموع التأثر والانخطاف في تلك اللحظة، وأخريات أردنَ أن يقبّلنَ ولو طرف ثوبه، وبعض منهنَّ ينتحبن بصوت خفيض. بارك الراهب العجائبي كلَّ امرأة منهنَّ وتحدَّث مع بعضهنَّ. كان يعرف «المولولة» التي جاؤوا بها إليه من بعيد، من قرية تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير، سبق أن جاؤوا بها إليه.

أنظروا، هذه امرأة جاءت من مكان بعيد! قال الراهب الناسك وهو يشير إلى امرأة أخرى لم تبلغ الشيخوخة بعد، لكنها تبدو نحيلة ومنهكة، لها وجه ليس ملوّحاً لكنه مسودّ كلياً. كانت راكعة تحدّق إلى الراهب الناسك بنظرة جامدة وفي نظرتها شيء من الجنون.

- أجل، يا أبتي الطيب، أنا قادمة من مكان بعيد، من مكان بعيد يبعد عن هنا ثلاثمئة فرسخ، من بعيد، يا أبتي، من بعيد، قالت المرأة بنبرة غنائية مع ترجيح متواتر للرأس، ويدها تسند خدّها. كانت تتكلم بلهجة أقرب إلى النحيب الطقوسي. إن بين فئات الشعب بلاء صامتاً، وصبوراً، يدخل في ذاته ويسكت. لكن، هناك أيضاً شقاء متفجِّر يبدأ، أولاً، بالدموع، وفجأة يتابع النحيب. وهذه حالة عند النساء بصورة خاصة. لكنه ليس أقلَّ ألماً من الشقاء الصامت. إن النحيب لا يريح النفس إنما يثير الأعصاب ويمزق القلب أكثر فأكثر، ومثل هذا الشقاء لا يبحث حتى عن عزاء فهو لا يتغذى إلّا من حسِّه بأنه لا يرتوي. فالنحيب ليس إلّا حاجة لرشِّ الملح على الجرح بدون توقف.

- أقول من الطبقة الحرفيّة؟ تابع الراهب الناسك وهو ينظر إليها بفضول.

- من المدينة، يا أبتي، من المدينة، من طبقة الفلاحين، لكن من المدينة، وفي المدينة نحن نسكن. ولكي أراك، يا أبتي، جئت. سمعناهم يتكلمون عنك، يا أبتي، نعم، سمعناهم. لقد دفنت طفلي الصغير، وذهبت أصلّي لله. ذهبت إلى ثلاثة أديرة، وإذا بهم يقولون لي: «إذهبي يا ناتاسيوشكا، إلى هنا أيضاً، إليكَ يا أبتي». جئت يوم أمس، تبعت القادمين وها أنا اليوم هنا.

- علامَ إذاً أنت تبكين؟

- أبكي أسفاً على طفلي الصغير، يا أبتي الطيب، كان له من العمر ثلاث سنوات إلّا ثلاثة أشهر. إنني أتعذّب بسببه، ابني الصغير، يا أبتي، طفلي الصغير. كان آخر ما بقي لي من أبنائي الأربعة. كان لنا أنا وزوجي نيكيتوشكا أربعة أبناء. إن أطفالنا لا يعيشون. صغارنا لا يصمدون، لا يصمدون. دفنت الثلاثة الأول، وسرعان ما تعزيت عنهم بهذا الأخير الذي دفنته ومن المستحيل أن أنساه. يُخيَّل إليّ أنني أراه، هنا، أمامي، إنه حيّ. لقد يبَّس قلبي. أنظر إلى ملابسه، إلى قميصه الصغير، إلى حذاءيه الصغيرين، وأنتحب. أعرض كل ما تبقّى منه، أشياءه الصغيرة، أتأملها، وأبكي. قلت لنيكيتوشكا، لزوجي: دعني أذهب، سيدي، إلى الحج.

إنه حوذيّ، نحن، لسنا فقراء، يا أبتي. لسنا فقراء، لدينا عملنا نديره بأنفسنا: الخيول والعربة. وماذا يفيدنا الآن هذا كله؟ بدأ عزيزي نيكيتوشكا يفرط في الشراب منذ تركته. أنا متأكدة من ذلك. وهكذا كان من قبل. كلّما أدرت ظهري يعود إلى الشراب. لكنني الآن لا أفكر فيه. تركت المنزل منذ ثلاثة أشهر. نسيته. نسيت كل شيء. لا أريد أن أتذكره. كيف أبقى الآن معه؟ قطعت علاقتي به. أنهيت علاقتي بجميع الناس. نهائياً، نهائياً. لا أريد أن أرى منزلي الآن أبداً ولا رزقي. لا أريد أن أرى شيئاً.

- إسمعي أيتها الأم، أجاب الناسك، ذات يوم، رأى قديس من قديسي الماضي، في الهيكل، أمّاً تبكي ابنها الذي فقدته مثلما فقدتِ ابنك الآن. ابنها الوحيد الذي دعاه الله إليه. قال لها القديس: «ألا تعلمين أن الأطفال الصغار يملكون جرأة عظيمة أمام عرش الله؟ ليس في الملكوت السماوي كله أحد أجرأ منهم. إنهم يقولون: «أيها الرب، أعطيتنا الحياة، فما إن رأيناها حتى استعدتها منا». يتوسّلون، ويلحون بجرأة أن يرفعهم الله فوراً إلى رتبة الملائكة. وقال لها القديس بعد ذلك: «أنتِ أيضاً افرحي ولا تبكي، لأنّ طفلك الصغير الآن هو عند الرب. إنه بين الملائكة». هذا ما قاله القديس للمرأة التي كانت تبكي ابنها فيما مضى. كان قديساً عظيماً لا يمكن أن يكذب على تلك المرأة. إعلمي هذا، أنتِ أيضاً، أيتها الأم الطيبة، أنَّ طفلك الآن هو أمام عرش الله. إنه سعيد وفرح. وصلّي لله من أجله. إذن، لا تبكي بل ابتهجي.

كانت المرأة تصغي إليه مسندة خدَّها إلى راحة يدها، وعيناها منخفضتان، ثم أطلقت تنهيدة عميقة.

كان نيكيتوشكا يعزِّيني هكذا تماماً، كلمة بكلمة، مثلك أنت. يقول لي: «أنتِ لست عاقلة؟ يقول لي: لماذا تبكين، فابننا الصغير، في هذه الساعة، هو بدون شك، أمام الله سيّدنا؛ إنه يرتّل مع الملائكة». كان يقول لي هذا الكلام، ويبكي هو نفسه، كنت أراه يبكي مثلما أبكي أنا. قلت له: «أعرف ذلك، يا نيكيتوشكا، وأين يمكن أن يكون إن لم يكن عند الله في هذه الساعة؟ ولكنه ليس عندنا، يا نيكيتوشكا، ليس معنا، ليس هنا، كما كان يجلس! ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى صغيرة، مرة واحدة لا أكثر، لن أذهب إليه، لن أقول شيئاً، سأنزوي في زاوية وأصمت، دقيقة واحدة فقط، وإن رأيته وإن سمعته، وهو يلعب في فناء المنزل، ويناديني بصوته الضعيف كما كان يفعل من قبل: «ماما، أين أنتِ؟». ليتني أستطيع أن أسمعه مرة واحدة صغيرة وهو يدخل الغرفة على قدميه الصغيرتين، هنا، بُكْ، بُكْ، وبسرعة، وبسرعة، وهكذا بسرعة، أتذكّر كيف كان يأتي إليّ صائحاً ضاحكاً. ليتني أستطيع أن أسمع وقع خطواته الصغيرة، أسمعها، نعم، أعرفها». ولكن لا، إنه ليس هنا، يا أبتي الطيب، لن أسمعه بعد اليوم أبداً! أنظرْ، هذا حزامه الصغير، أما هو فليس هنا، ولن أراه بعد الآن أبداً، أبداً. ولن أسمعه بعد الآن أبداً!...

وأخرجت من تحت قميصها، الحزام الصغير المزخرف، حزام طفلها الصغير، فما إن رأته حتى تملكها النشيج، فأطبقت أصابعها تخفي عينيها. وانهمرت، فجأة، دموعها كالجدول المتدفق.

- هذه راشيل القديمة، تبكي أطفالها، ولا تريد أن يعزّيها أحد، لأنهم ما عادوا» موجودين»[7]. تلك هي حالتكنَّ أيتها الأمهات على هذه الأرض. لا تتعزّي، لست بحاجة إلى أن تتعزي؛ لا تتعزّي، وابكي، في كل مرَّة تتذكرين أن طفلك الصغير هو ملاك بين ملائكة الله، وأنه ينظر إليك من علياء السماء، ويراكِ، ودموعك تفرحه ويريها لله. نعم، هذا البكاء الأمومي العظيم سيستمر طويلاً ولكنه سوف يستحيل في النهاية إلى فرح هادىء. ودموعك المرَّة سوف تصبح دموع الشعور بالسلام ونقاوة القلب، تلك التي تخلِّص من الخطايا. حسناً، أما ابنك الصغير، فسأصلي من أجله. ماذا كان اسمه؟

- ألكسي، يا أبتي الطيب.

- اسم حبيب، القديس ألكسي، رجل الله.

- ما أعظمه من قديس. سوف أصلّي من أجلك أنتِ، أيتها الأم، سوف أصلّي. وسوف أذكر حزنك في صلاتي. وسوف أصلّي أيضاً من أجل زوجك. لكنّ هجرك إياه خطيئة، عودي إلى زوجك واسهري عليه. إن ابنك عندما يرى من عليائه أنك تركت أباه سوف يبكي عليكما. لماذا تعذبينه؟ إنه حيّ، حيّ، لأن الروح حيّة إلى الأبد. وإن غاب عن المنزل فهو قريب منك غير مرئي. فكيف يمكنه الدخول إلى المنزل إذا كنت أنت قد تركت منزلك؟ من عساه يزور إن لم يستطع أن يجد أمه وأباه معاً؟ لن يجدكما أبداً. سيظهر لك في أحلامك اليوم فتتألمين فارجعي إلى منزلك ليرسل إليك أحلاماً جميلة! ارجعي إلى زوجك، أيتها الأم، ارجعي إليه اليوم بالذات.

- سأرجع، أيها الأب، سأرجع، وسأتّبع نصيحتك! لقد قرأتَ كلَّ ما في قلبي! يا عزيزي نيكيتوشكا، يا عزيزي نيكيتوشكا، أنت تنتظرني، يا حبيبي، تنتظرني! عادت المرأة إلى شكاواها، لكنّ الراهب الناسك كان قد استدار نحو عجوز قصيرة القامة، متغضنة، طاعنة في السنّ، لا ترتدي ملابس حاجّة بل ثوباً كنساء المدينة، كان بإمكان المرء أن يرى في عينيها أنها جاءت لأمر محدَّد، وأنها تريد أن تقول شيئاً. عرَّفت عن نفسها أنها أرملة ضابط صفّ، تسكن، في الواقع قرب مدينتنا. لقد خدم ابنها فاسنكا، لست أدري أين، في مفوضية للشرطة، ثم رحل إلى إيركوتسك في سيبيريا. ومن هناك، كتب إليها رسالتين ثم انقطعت أخباره منذ سنة، ولم يعد يكتب إليها أبداً. أرادت أن تسأل عنه وأن تستعلم عن مصيره، ولكنها لا تعرف إلى من تتجه.

- إن ستيبانيدا إيلنيشنا بدرياغينا، وهي تاجرة غنية، قالت لي، «خذي، منذ اليوم بعض المال، يا بروخوروفنا، واحمليه إلى الكنيسة ليُقام قداس الموتى عن راحة نفسه، فيتذكرك ويشدّه الحنين إلى المنزل فيكتب إليك»... هذا ما قالته لي تلك المرأة. وقد أكدت ستيبانيدا إيلنيشنا أن هذه طريقة مضمونة نجحت دائماً. لكنَّ في نفسي شكوكاً، فقلْ لي، وأنت ضياؤنا، هل هذا صحيح أم لا، وهل سيكون ذلك جيداً؟

- لا تفكري في هذا الأمر أبداً! ألا تخجلين من طرحك عليَّ مثل هذا السؤال. كيف يمكن أن يُصلَّى على روح حيَّة؟ خاصة وأنتِ أمُّه؟ ليقام له قداس الموتى؟ إنها خطيئة عظيمة تشبه السحر! لكن سوف يُغفر لك بسبب جهلك. لا، صلِّي بالأحرى إلى ملكة السموات فهي نجدتنا الدائمة ودفاعنا، أن تسهر على صحته وأن تغفر لك هذه الفكرة الخاطئة. واسمعي ما سأقوله لك، يا بروخوروفنا؛ سيعود إليك بسرعة أو سيكتب إليك رسالة حتماً. كوني على ثقة. وانصرفي وكوني هادئة. إن ابنك حيّ. صدِّقيني.

- يا محبوبنا جميعاً، فليمنحك الله النعمة أيها المحسن إلينا، أنت يا مَن تصلّي من أجلنا جميعاً، من أجل خطايانا.

لكن الراهب الناسك لاحظ بين الجمهور فلاحةً ذات عينين ملتهبتين تحدقان إليه، يبدو أنها مصابة بداء السلّ، لكنها لا تزال شابة. كانت تنظر بصمت وكأنّ عينيها تسألان شيئاً ما، وكانت تبدو كأنها تخشى أن تقترب.

- وأنتِ لماذا أتيت، أيتها الأخت اللطيفة؟

- أُنقذ حياتي، يا أبتي الطيب، قالت بصوت ناعم ومعتدل ثم ركعت وانحنت ساجدة عند قدميه. لقد أخطأت، يا أبتي الطيب، وأنا خائفة من خطيئتي.

جلس الراهب الناسك على الدرجة السفلى، واقتربت المرأة منه دون أن تنهض.

- أنا أرملة منذ ثلاث سنوات. قالت بصوت شبيه بالهمس وهي ترتجف، كنت قاسية. كان هرماً وكان يضربني بعنف. وعندما وقع مريضاً، نظرت إليه وقلت في نفسي: «إذا شفي من مرضه ونهض من جديد، ماذا سيحدث؟» عندئذ، خطرت ببالي تلك الفكرة...

- انتظري لحظةً، قال الناسك، ودنا منها ووضع أذنه على شفتيها.

تابعت المرأة بهمس خافت لا يكاد يُسمع منه أيّ شيء. وانتهت بسرعة.

- أهذا منذ ثلاث سنوات؟ سأل الراهب الناسك.

- نعم، منذ ثلاث سنوات. في البداية، لم أكن أفكر في الأمر، أما الآن، فبدأت أقضم ذاتي ويعتريني القلق.

- هل جئت من مكان بعيد؟

- من مسافة خمسمئة فرسخ من هنا.

- هل ذكرت هذا في الاعتراف؟

- ذكرته، ذكرته مرتين.

- وهل قبلوا أن تتناولي القربان المقدس؟

- قبلوا. أنا خائفة، خائفة من الموت.

- لا تخافي شيئاً، ولا تخافي أبداً. ولا تندبي نفسك. المهمّ ألَّا تتخلَّي عن الندامة، فالله يغفر كلّ شيء. ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن تكون على هذه الأرض خطيئة لا يغفرها الله لمن ندم عليها بصدق. ثم إن الإنسان لا يمكن أن يقترف خطيئة عظيمة تستنفد حبَّ الله اللامتناهي. وهل يمكن أن توجد خطيئة تتجاوز حبَّ الله؟ لا تهتمي إلا بالندامة، ندامتك في كل لحظة، واطردي من قلبك الخوف نهائياً. ثقي أن الله يحبك أكثر مما يمكنك أن تتصوري، حتى مع خطيئتك. إن خاطئاً واحداً يندم، له في السماء فرح أكبر من فرح عشرة بدون خطيئة، هكذا قيل منذ زمن بعيد. امضي إذاً. ولا تخافي. ولا تحقدي على الناس. إنسي الإساءات. اغفري في قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء. أقيمي معه سلاماً حقيقياً. إذا ندمت تشعرين بالحبّ. وإذا أحببتِ فأنت لله... إن الحبّ قادر على كل شيء، ينقذ كل شيء. وإن كنت أنا الخاطىء مثلكِ أشاركك ألمك وشكواكِ، فكيف يكون الله؟ إن الحبّ كنز عظيم، يمكننا به أن نكسب الأرض بكاملها، وأن نكفّر لا عن خطايانا نحن فحسب بل عن خطايا الآخرين أيضاً. انصرفي الآن، ولا تخافي.

ورسم إشارة الصليب عليها ثلاث مرات متتالية، وانتزع إيقونة صغيرة مقدسة من عنقه فوضعها في عنقها هي. هي، ودون كلام، انحنت لامس وجهها الأرض. فنهض ببطء، وأشرقت نظرته حين رأى امرأة تفيض عافية، وهي تحمل طفلها بين ذراعيها.

- أنا من فيشغوريبيه، يا أبتي الطيب.

- من مسافة ستة فراسخ، غير مهمّ، لقد أرهقك التعب مع طفلك الصغير، ماذا تريدين؟

- إذن، جئت لكي أراك فقط. لقد سبق أن جئت إليك، ألا تتذكر، أم أنك نسيتني؟ ذاكرتك ليست قوية، إذا كنت قد نسيتني. سمعت أنك كنت مريضاً، فقلت، حسناً، سأذهب لأراه. وها أنا ذا أراك. فكيف قالوا إنك لست على ما يرام؟ ستعيش من أجلنا عشرين سنة أخرى، أقسم بأن الله يحرسك! ومع كل هؤلاء الناس الذين يصلُّون من أجلك، فكيف يمكن أن تكون مريضاً؟

- أشكرك، من كل قلبي، أيتها المرأة اللطيفة.

- بالمناسبة، لديَّ طلب صغير. إليك خمسين كوبيكاً، فأعطها، يا أبتي اللطيف، لامرأة أخرى أكثر فقراً مني. وصلت إلى هنا، وقلت لنفسي: «من الأفضل أن أهب المال بواسطته فهو يعرف مَن التي تستحقها».

- شكراً، أيتها الطيبة، شكراً، أنا أحبك. سوف أفعل ما تطلبين. هل طفلك الذي تحملين هو بنت؟

- بنت صغيرة، أيها المبارك، واسمها ليزافيتا.

- فليباركِكما الله أنتما الاثنتين، أنت وطفلتك ليزافيتا. لقد أفرحت قلبي، أيتها الأم، وداعاً يا عزيزاتي، وداعاً أيتها المحبوبات، يا صديقاتي الطيبات.

باركهنَّ جميعاً وانحنى، بعمق، أمامهنَّ.

IV

سيّدة ضعيفة الإيمان

إن الزائرة سيدة، ملَّاكة عقارية، كانت تراقب كل هذا المشهد من محادثة الشعب البسيط ومباركته، وتذرف دموعاً خرساء تمسحها بمنديل صغير. كانت سيدة مجتمع، حساسة جداً، وصادقة، من وجهات نظر عديدة، وذات ميولٍ حسنة. فعندما اقترب الناسك منها، أخيراً، استقبلته بكثير من التعظيم.

- لقد انفعلت كثيراً عندما رأيت هذا المشهد المؤثر... قالت متأثرة ولم تكمل جملتها. أعرف أن الشعب يحبك. وأنا، أيضاً، أحب الشعب، وأرغب في أن أحبَّه، وكيف لا يحب المرء الشعب، شعبنا الروسي الطيب، البسيط في عظمته!

- كيف حال ابنتك؟ كنت ترغبين في التحدث إليّ مرة جديدة؟

- لقد طلبت ذلك بإلحاح شديد. وتوسَّلت، وكنت مستعدة أن أركع، وأن أبقى راكعة ثلاثة أيام تحت نوافذك لكي تستقبلني. لقد جئت لرؤيتك، أيها الشافي العظيم، لأعبِّر لك عن تأثرنا بالتعرف إليك، لأنك شفيت ابنتي ليزا، شفيتها شفاءً كاملاً، وكيف؟ لأنك يوم الخميس أقمتَ صلاة من أجلها ووضعت يديك عليها، هاتين اليدين اللتين كنَّا متلهّفين لتقبيلهما، ولكي نبدي لك عواطفنا واحترامنا!

- كيف شفيتُها وهي لا تزال على كرسيِّها؟

- لقد زالت حمَّى الليل عنها نهائياً، منذ يومين، منذ يوم الخميس؛ قالت السيدة مبادرة وبعصبيّة. بالإضافة إلى ذلك، أصبحت ساقاها أقوى. وهذا الصباح، نهضت بكامل عافيتها، وقد نامت طوال الليل؛ أُنظْر كم صحتها جيدة؛ وعيناها الصغيرتان تلمعان. قبل ذلك، لم تكن تكفّ عن البكاء، والآن، تضحك وهي فرحة وملؤها السعادة. اليوم، ألحت بإصرار مطلق بأن نتركها تقف على رجليها، وبقيت واقفة وحدها دقيقة كاملة بدون أي سند. وأقسمت لي بأنها، بعد أسبوعين من الآن، سوف ترقص رقصة سريعة. استشرت طبيبنا هرزنستوب، فهزَّ كتفيه وقال: هذا مدهش، أنا لا أفهم شيئاً. وتريد منا ألَّا نأتي إليك لنزعجك، أن لا نطير إلى هنا لنشكرك؟ أشكريه، يا ليزا، اشكريه!

اتخذ وجه ليزا الصغير اللطيف الضاحك هيئة الجدّ، وفجأة، نهضت عن كرسيّها، نصفياً، قدر ما استطاعت، ونظرت إلى الراهب الناسك ضامَّة يديها الصغيرتين أمامه؛ لكنها لم تستطع أن تضبط نفسها، فانفجرت فجأة ضاحكة...

- هو السبب، هو السبب! قالت مشيرة إلى أليوشا خجولة غاضبة كطفلة صغيرة لم تعرف كيف تسيطر على نفسها، وانفجرت ضاحكة.

ولو نظر أحد إلى أليوشا الذي كان واقفاً وراء الراهب الناسك، على مسافة خطوتين منه، للاحظ الاحمرار السريع الذي تلَّون به وجهه وغطَّى خدَّيه في لحظة. وأطلقت عيناه

وميضاً ثم انخفضتا.

- لديها رسالة لك، يا ألكسي فيودوروفتش... كيف حالك؟ قالت الأم متوجهة فجأة إلى أليوشا مادَّةً يدها الفتَّانة المغطاة بقفّاز. استدار الراهب، فوراً، نحو أليوشا، وحدَّق فيه. فاقترب هذا الأخير من ليزا ومدَّ إليها يده وهو يتصنَّع ابتسامة غريبة ومرتبكة. فاتخذت ليزا هيئةً جدّية، وقالت له وهي تناوله ورقة صغيرة:

- طلبت مني كاترينا إيفانوفنا بأن أسلّمك هذه. وهي ترجوك، بإلحاح، أن تمرَّ بها، وبأسرع ما يمكن، تريد أن تراك حتماً وتأمل ألّا تخيّب أملها.

- تطلب مني أن أزورها؟ في منزلها؟ أنا... لماذا؟ دمدم أليوشا بدهشة واضحة. وأصبح وجهه مهموماً.

- يتعلق الأمر بديمتري فيودوروفتش طبعاً... وبهذه الأحداث الأخيرة كلها، قالت الأم؛ لقد اتخذت كاترينا إيفانوفنا، الآن، قراراً في هذا الشأن... ولهذا السبب تريد أن تراك... لماذا؟ طبعاً، أجهل ذلك... ولكنها طلبت أن تراك بأقصى سرعة ممكنة. ستزورها، أليس كذلك؟ ستزورها حتماً، إنها مسألة واجب مسيحي.

- إنني لم أرها إلا مرة واحدة! قال أليوشا وهو فريسة الدهشة بالذات.

- ولكنها إنسانة نادرة وصعبة المقابلة... ولو ليس إلا بسبب ما قاست من آلام... فكِّر في ما عانته ولا تزال تعانيه حتى الآن، وفي ما ينتظرها أيضاً... كلّ هذا رهيب، رهيب!

- حسناً. سأذهب. قال أليوشا بعد أن تصفَّح الرسالة المقتضبة الملغَّزة التي لا تحتوي على أيّ توضيح أو تفسير.

صاحت ليزا، فجأة، وقد غمرتها الحماسة:

- أوه! كم سيكون ذلك لطيفاً ورائعاً من قِبلك. أنا، قلت ذلك لأمي: لن يذهب، حتماً، سوف يرفض، لقد اختار خلاصه في الدير. آه، كم أنت رائع، أجل رائع. أنا، في الحقيقة، فكَّرت دائماً أنك رائع. ويسرُّني أن أقول لك ذلك الآن.

- ليزا! تدخلت الأم قائلة بلهجة صارمة، مما لم يمنعها من الابتسامة فوراً. لقد نسيتنا، يا ألكسي فيودوروفتش، أنت ترفض أن تزورنا. ومع ذلك، قالت لي ليزا، مرتين، إنها لا تشعر بالارتياح إلا معك.

رفع أليوشا عينيه المنخفضتين، واحمرَّ وجهه مجدداً مرة أخرى، فجأة، دون أن يعرف هو نفسه لماذا، وضحك. كان الراهب الناسك لا يراه. كان قد بدأ حديثاً مع الراهب المارّ بالمدينة الذي كان ينتظر، كما سبق أن قلنا، قرب مقعد ليزا. كان واضحاً أنه راهب من أولئك العاديين جداً، أي واحد من الشعب، يملك أفكاراً محدودة ثابتة، لكنه مؤمن على طريقته الخاصة ومتصلب الرأي. ذكر للراهب الناسك أنه آتٍ من هناك، من الشمال البعيد، من أوبدورسك، من دير فقير جداً في سان سلفستر فيه تسعة رهبان. باركه الراهب الناسك ودعاه أن يزوره في غرفته متى أراد ذلك.

- كيف تجرؤ أن تقوم بأعمال مماثلة؟ سأله الراهب فجأة وهو يشير إلى ليزا برصانة وأبّهة، وكان يلمِّح إلى «شفائها».

فقال له الراهب الناسك:

- لم يحن بعد الوقت للحديث عن الشفاء. ليس التحسن شفاء تاماً، ربّما كان مردّه إلى أسباب أخرى. وإذا كان ثمة شيء فليس الأمر إلّا قوة تصدر عن الإرادة الإلهية. كل شيء يتم بإرادة الله. تعال زرني، أيها الأب، أضاف قائلاً إلى الراهب: إنني مريض وأعرف أن أيامي معدودة.

- لا. لا. لن يحرمنا الله منك! ستعيش طويلاً، طويلاً جداً. صاحت الأمّ. وممّا تشكو؟ إنك تبدو بصحة جيدة، وفرحاً وسعيداً.

اليوم، أشعر أن حالتي أفضل بشكل لا يصدَّق، ولكني أعرف أن هذا لن يدوم أكثر من دقيقة، أعرف الآن مرضي معرفة تامة. وإن بدوت لكِ فرحاً فلا شيء يمكن أن يفرحني أكثر مما فرحت بملاحظتك هذه. لأن البشر إنما خلقوا للسعادة، والذي يشعر بالسعادة الكاملة، له الحقّ أن يقول: «لقد حققت وصية الله على هذه الأرض». إن جميع الأتقياء وجميع القديسين وجميع القديسين الشهداء، كانوا جميعاً سعداء.

- ما أجمل كلامك، وما أروع هذه المعاني الجريئة والسامية، صاحت الأم؛ تتكلم فتخترق كلماتك قلوبنا، ومع ذلك، فالسعادة، السعادة - أين هي؟ من يستطيع أن يقول إنه سعيد؟ يا من تكرّمت فأتحت لنا رؤيتك اليوم، مرة جديدة، إسمع كلّ ما أستطيع قوله، في المرة الأخيرة، لم أجرؤ أن أتحدث عنه! كلّ ما يعذبني كثيراً ومنذ زمن طويل، طويل! إنني أتألم، سامحني، إنني أتألم... وفي نوعٍ من الانفعال الملتهب المتشنج ضمَّت يديها أمامه.

- مِمَّ تتألمين، بشكل خاص؟

- إنني أتألم... لأنني لا أؤمن...

- ألا تؤمنين بالله؟

- لا، لا، إني لا أتجرأ حتى أن أفكر في هذا، ولكن في الحياة الآخِرة، فذلك لغز! وما من أحد، ما من أحد يستطيع أن يجيب عن هذه المسألة! اسمع: أنت إنسان تشفي المرضى وتعرف النفس البشرية، لا أجرؤ أن أزعم، طبعاً، أنك تصدقني كلياً، ولكنني أؤكد لك، أقسم لك علناً، بأن ليست الخفّة هي التي تدفعني للكلام، الآن، بل فكرة الحياة الآخرة هذه، بعد الموت، هي التي تقلقني أكثر مما تعذبني، ترعبني وتخيفني... ولم أعرف إلى من أتجه طوال حياتي... لكنني الآن أتجرأ وأتوجَّه إليك... أيها الرب! ما عساك تظنّ بي الآن! ورفعت ذراعيها نحو السماء.

- لا تهتمي برأيي، أجاب الراهب الناسك، أنا مقتنع تماماً بصدق قلقك.

- كم أنا شاكرة لك! أغمض عينيَّ وأفكّر، وأقول لنفسي: «إذا كان كل البشر يؤمنون، فمن أين يأتي ذلك؟ وهنا، يؤكدون أن هذا ينشأ من الخوف من ظواهر الطبيعة المهدِّدة، وأن لا شيء من ذلك موجود. «ماذا، أقول لنفسي، أنا التي آمنت طوال حياتي، سأموت ولا يبقى مني بعد الموت شيء إلّا القليل من العشب الذي سوف ينبت على قبري»؛ كما قرأت لأحد الكتّاب. ذلك أمر مرعب! فكيف، كيف أعود إلى الإيمان؟ وأنا لم أؤمن إلّا عندما كنت طفلة صغيرة بشكل آليّ دون أن أفكر في شيء... فكيف السبيل إلى البرهان على ذلك، اليوم. جئت أسألك بكل تواضع وأركع أمامك. فإذا ضاعت مني هذه المناسبة اليوم، فلن يستطيع أحد أن يجيبني طوال حياتي. كيف يمكن اذن البرهان على ذلك، بأي شيء أقتنع؟ ما أشقاني، أنا هنا، وأرى من حولي كل العالم يهزأ بي، كل العالم تقريباً. فما من أحدٍ يقلقه هذا الأمر، وأنا وحدي لا أستطيع أن أتحمل. إنه أمر قاتل، أمر قاتل!

- هو قاتل، بدون أي شك، لكن لا سبيل إلى البرهان إطلاقاً، حتى ولو كان الاقتناع ممكناً.

- كيف؟ بأي طريقة؟

- بتجربة الحب النشط. حاولي أن يكون حبك لقريبك فعالاً وبدون كلل. كلما ازددت حباً اقتنعت بوجود الله وبخلود نفسك. ومتى توصلت إلى التخلي التام عن نفسك في حبّك لقريبك، عندئذٍ، وبدون أي شك، تحصلين على الإيمان، ولا يمكن لأيّ شك بعد ذلك، أن يساور نفسك، تلك حقيقة مجرَّبة، وهذا أكيد...

- الحبّ النشط؟ هذه مسألة وأيّ مسألة! أنظر: إنني أحب البشرية إلى درجة أنني أحلم، أحياناً، بالتخلي عن كل شيء، كل شيء، صدّقني، كلّ ما لديّ، وأترك ليزا لأصبح واحدة من راهبات المحبة. أغمض عيني، أفكر، أتأمل، وبعد دقائق أشعر بقوة لا تقاوم. فلا يخيفني أي جرح أو أي ضيم. أخمد الجراح، أنظفها بيدي، أعمل ممرضة لهؤلاء التعساء، وأنا مستعدة لأقبّل جراحهم...

- إن هذا لكثير، وإذا كان فكرك يحلم بهذه الأشياء وليس بأشياء أخرى. ربما، عن طريق الصدفة، صحيح أنك ستفعلين ذات يوم عملاً جيداً.

- نعم، ولكن هل أستطيع أن أصمد طويلاً في مثل هذه الحياة؟ تابعت المرأة بحرارة تصل حدَّ الهيجان. هذا هو السؤال الرئيسي!

هذا هو السؤال الذي يعذبني أكثر من سواه. أغمض عينيّ وأتساءل: هل سأصمد طويلاً في هذا الطريق؟ إذا لاحظت أن المريض الذي ستغسلين قروحه لا يعبِّر لك عن شكره وإنما هو يرهقك بنزواته، دون أن يقدِّر أو يلاحظ إخلاصك للإنسانية وحبّك لها؟ إذا هو شتمك، وأغلظ في القول، أو شكاك إلى سلطة (كما يحصل غالباً مع الذين يتألمون)، عندئذ، هل يستمر حبك، نعم أم لا؟ ولقد أجبت نفسي عن هذا السؤال، هل تتصوَّر؟ أجبت نفسي عن هذا السؤال بخوف: إذا كان ثمة شيء يمكن أن يطفىء فجأة حبّي «الفعال» تجاه الإنسانية، فذلك، لا يمكن أن يكون إلّا نكراناً للجميل. باختصار، أنا عاملة بأجر، وأريد أجري فوراً، يعني أن أُجزى مديحاً وأن يُدفع أجر حبّي بحبّ مماثل، وإلّا فأنا غير قادرة على أن أحب أحداً!

كانت قد وصلت إلى حالة من جلْدٍ ذاتي غاية في الجدّية. وبعد أن أنهت كلامها، نظرت إلى الراهب الناسك بنظرة تحدٍ مصممة.

قال الناسك:

- ذلك بالضبط ما أخبرني إياه طبيب منذ زمن بعيد. كان ذلك الرجل مسنّاً ولا شك في ذكائه. وكان يتكلم بالصدق عينه مثلك، ولئن كان مازحاً فقد كان مزاحه حزيناً، قال لي: «أحب الإنسانية، لكنني مندهش أنا ذاتي. كلما ازداد حبّي للإنسانية عامة، نقص حبّي للبشر خاصة، أي فردياً، بصفتهم أشخاصاً مميزين». وكان يقول لي: «يحدث لي، غالباً، أثناء أحلامي، أن تتملكني حماسة جامحة في خدمة الإنسانية، وربما، في الحقيقة، أرتضي أن أُصلب من أجل البشر، إذا بدا هذا ضرورياً، بشكل أو بآخر. ومع ذلك، لو أُريد لي أن أعيش يومين متتاليين في غرفة واحدة مع أيّ إنسان، لما استطعت أن أتحمل ذلك، إنني أعرف هذا بالتجربة. فكلما اقترب مني إنسان أحسست بأن شخصية تصدم ذاتي وتقسو على حريتي. أنا قادر، خلال أربع وعشرين ساعة، على أن أكره أفضل الناس: الأول لأنه يقضي وقتاً طويلاً في تناول الطعام على مائدته، والآخر لأنه مصاب بزكام ولا ينفك يمخط. إنني أصبح عدواً للناس كلما اقتربوا مني. ويضيف، بالمقابل، كان يحدث ذلك على ذلك النحو. وكلّما ازددت

كرهاً للناس أفراداً، ازداد حبي للإنسانية جملةً.

- فما العمل إذن؟ ما العمل في مثل هذه الحالة؟ هنا، لا، ثمة ما يدعو لليأس؟

- كلا، يكفي الآن أن تشعري، من جراء ذلك، بأنك تعيسة. افعلي ما تستطيعين. وسوف يُحسب لك هذا. لقد فعلت منذ الآن كثيراً ما دمت استطعت أن تقرأي في سرِّك، بهذا الصدق كله وهذا العمق! وإذا كنت، في المقابل، لم تحدثيني بمثل هذا الصدق كما تفعلين، في هذه اللحظة، إلا لكي تتلقّي على صدقك مديحاً، وطبعاً، لكي تسمعي مني إطراءً على حبك للحقيقة، كما فعلت ذلك، فإنك لن تصلي، طبعاً، إلى شيء على طريق حبك «الفعال»، هنا، لن يبقى شيء إلا في أحلامك، وتنقضي حياتك كالسراب. ولكن، أتدرين، ستنسين أيضاً الحياة الآخرة، بل ستنتهين إلى أن يهدأ بالك بطريقة أو بأخرى.

- لقد دمَّرتني! الآن، أدركت، في هذه اللحظة بالضبط، التي كلَّمتني فيها، أنني لا أرغب إلّا في سماع مديحك على صدقي عندما أخبرتك أنني لن أتحمل نكران الجميل!

- أصحيح، حقاً، ما تقولين؟ إذن، اقتنعت بأنك صادقة وبأنّ لك قلباً طيباً. فإذا لم تبلغي السعادة، تذكري دائماً أنك على الطريق السليم، واجهدي ألّا تتركيه. واهربي من الكذب خاصة، كل أنواع الكذب، وبصورة خاصة، كذب الإنسان على ذاته. راقبي كِذبك بالذات وافضحيه في نفسك ساعة بساعةٍ ودقيقة بدقيقةٍ؛ وتحاشي الاشمئزاز أيضاً، تحاشيه تجاه الآخرين وتجاه نفسك أيضاً: إن ما قد يبدو لك، في باطنك، شراً إنما يطهّره مجرّد ملاحظتك له. ابتعدي عن الخوف، فهو نتيجة الكذب. لا تخافي من جبنكِ في طريقك إلى الحب. وحتى أفعالك السيئة التي سوف تقومين بها، من أجل ذلك، حاولي ألّا تخافي منها، آسف لأنني لا أستطيع أن أقول لك ما يشجعك أكثر: لأن الحب الفعال، بالمقارنة بحبّ الأحلام، هو شيء قاسٍ ومخيف. فحبُّ الأحلام يحلم بتقدُّم سريع، ويحلم بأن كل الناس ينظرون إليه، حتى أنه يصل إلى التضحية بحياته شرط أن لا يستمر الأمر وقتاً طويلاً، وإنما يتمُّ بسرعة، كما على مسرح، كل واحد ينظر ويصفِّق. أما بالنسبة إلى الحب الفعال فهو جهد وصبر. وهو، بالنسبة إلى البعض، كما أعتقد، علم حقيقي. ثقي، مع ذلك، أنك حتى في اللحظة التي ستلاحظين فيها، مذعورة، وبرغم كل جهودك ليس لم تقتربي من الهدف فحسب وإنما ابتعدت عنه في تلك اللحظة أتوقع أنك ستبلغين هذا الهدف، وسترين بوضوح قوة الرب العجائبية في نفسك، هو الذي أحبك دائماً، وبالسرّ دائماً قد وجَّهكِ. اعذريني إذا كنت لا أستطيع أن أمكث معك وقتاً أطول، فهناك أناس ينتظرونني. إلى اللقاء.

كانت السيدة تبكي.

- ليزا، ليزا، باركها! قالت وارتعش جسدها كله فجأة:

- هي، هي لا تستحق حتى أن تُحبّ. لقد لاحظتها، طوال الوقت، كيف كانت تتسلَّى بالحماقات؟ قال الناسك بلهجة مازحة، لماذا لم تتوقفي عن السخرية من ألكسي؟

كانت ليزا، فعلاً، قد قضت وقتها كله في الشيطنة الصبيانية. منذ وقت بعيد، منذ الزيارة الأخيرة، لاحظت أن أليوشا يحمرّ خجلاً أمامها ويحاول ألّا ينظر إليها، فهي وهذا ما أعجبها. ولما لم يستطع مقاومة نظراتها الموجّهة إليه، كان أليوشا يرفع رأسه دائماً رغم إرادته، بقوة لا تقهر، وينظر إليها فترى هي في عينيه ابتسامة وسخرية. عندئذ تنحى جانباً وتبسم بمزاح إلى أن ابتعد واختبأ وراء ظهر الناسك. بعد بضع دقائق، التفت مجدداً ليرى ما إذا كانت لاتزال تنظر إليه أم هي كفَّت عن ذلك، فإذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيّها حتى كادت تخرج منه، تراقبه وتنظر إليه، من جانبٍ، منتظرة بكل قواها أن يوجِّه عينيه نحوها، فلما فاجأت نظرته إليها، انفجرت ضاحكة في قهقهةٍ لم يستطع حتى الناسك

أن يتحمّلها. فقال لها:

- لماذا تجعلينه يخجل إلى هذا الحدِّ، أيتها العفريتة؟

فجأة، احمرَّ وجه ليزا بشكل مفاجىء، والتمعت عيناها، واتخذ وجهها مظهر الجدّ الرهيب، فأجابت فجأةً، وبلهجة معاتبة ملؤها الحماسة والسخط؟

- وهو، لماذا نسي كل شيء؟ عندما كنت صغيرة كان يحملني بين ذراعيه، كنا نلعب نحن الاثنين. وكان يجيء ليعلّمني القراءة، هل نسيت ذلك؟ ومنذ سنتين فقط، أكّد لي عندما ودَّعنا أنه لن ينساني أبداً، وأننا سنستمر صديقين إلى الأبد، إلى الأبد، إلى الأبد! والآن فجأة يخاف مني كأنني سألتهمه، أو ماذا؟ لماذا لا يقترب مني، لماذا لا يكلّمني؟ لماذا لا يزورنا؟ أأنت الذي تمنعه: نحن نعرف أنه يتنزه حيث يريد. أنا، من غير اللائق، أن أدعوه، فهو الذي عليه أن يتذكرني أولاً، إن لم يكن قد نسيني. لا، الآن، يريد خلاصه! ألبستموه هذه الجبَّة الطويلة، وهو... إذا ركض يتعرض للسقوط على الأرض...

وفجأة لم تستطع السيطرة على نفسها فغطَّت وجهها بيديها وانفجرت في ضحك رهيب لا يُقاوم. هي ضحكتها الطويلة العصبية المتقطعة وغير المسموعة، استمع الناسك إليها مبتسماً، ثم باركها في حنان. وعندما همَّت بتقبيل يده، شدَّتها، فجأة، إلى عينيها وغرقت في الدموع:

- لا تغضب مني. أنا حمقاء، لا أساوي شيئاً... وأليوشا، لا شكَّ أنه على حق، إنه على حق حين لا يريد أن يرى فتاة سخيفة إلى هذا الحدّ.

- سأرسله إليكم حتماً. قاطعها الناسك.

V

لتكن مشيئتك، لتكن مشيئتك!

دام غياب العجوز عن غرفته ما يقارب خمساً وعشرين دقيقة. وكانت الساعة الثانية عشرة ونصف الساعة، ولم يصل بعد ديمتري فيودوروفتش الذي عُقد هذا الاجتماع من أجله. لكنه يبدو أنهم قد نسوه كلياً، وعندما عاد الناسك إلى غرفته فوجىء بضيوفه غارقين في نقاش عام حاد جداً. كان النقاش يدور بين إيفان فيودوروفتش والراهبين المتنسكين. وقد شارك ميوسوف في النقاش، في كثير من الأحيان، وبكثير من الحماسة، لكن، الحظّ لم يحالفه فبقي عنصراً ثانوياً لم يكترث المتناقشون لآرائه. ونادراً ما كان يجيبه المتناقشون مما يزيد من حنقه. لقد سبق له أن تناقش مع إيفان فيودوروفتش حول سعة معارفه ولم يستطع أن يتحمل هذا الازدراء الخفيف الذي أظهره له هذا الأخير. «على الأقل، كنت أعتقد، حتى الآن، أنني مطَّلع على كل ما هو متقدم في أوروبا، ولكن هذا الجيل الجديد يتجاهلنا بجرأة»، كان يفكر في سرِّه. أما فيودور بافلوفتش الذي وعد نفسه أن يجلس على كرسيه ويصمت، فبقي، بالفعل، صامتاً بعض الوقت، لكنه كان يراقب جاره بيوتر ألكسندروفتش، وعلى وجهه ابتسامة سخرية خفيفة، وكان، ظاهرياً، فرحاً بنزقه. كان يستعدّ لكي يثأر لنفسه، من عدَّة أشياء، ولا يريد أن يضيّع هذه المناسبة. أخيراً، وقد عيل صبره، مال على كتف جاره وراح يمطره بسخرياته، مرة جديدة، بصوت خفيض:

لماذا لم تنصرف منذ قليل، بعد تلك القصة عن «القديس الذي قُطعت عنقه» والقبلات التي طبعها على رأسه»؟ لماذا رضيت أن تبقى في رفقةٍ غير لائقة: بقيت لأنك شعرت بإهانة وبمذّلة، بقيت لتظهر قدراتك الفكرية وتثأر فيها لنفسك. والآن، لن تخرج من هذا المكان قبل أن تبرهن على ذكائك».

- إنها تتجدد، ثرثرتك؟ بالعكس، سوف أنصرف.

- الأخير، الأخير، نعم، ستبقى آخر من ينصرف!

أغضبه مرة جديدة فيودور بافلوفتش. حدث ذلك تقريباً عندما رجع الناسك.

هدأ النقاش لحظة، ولكن الراهب الناسك، بعد أن جلس في مكانه، جال بنظره على المتناقشين كأنما هو يشجعهم على متابعة النقاش. كان أليوشا الذي درس كل تعابير وجهه، لاحظ بوضوح، أنه كان منهوك القوى وأنه يتحامل على نفسه. ففي أواخر أيام مرضه، وقع في عدة غيبوبات بعد أن أُنهكت قواه: وهذا الاصفرار، هو، تقريباً، شبيه باصفرار الاغماء الذي يسبق الغيبوبة، وهو يغشى الآن وجهه، وقد اصفَّرت شفتاه. وكان واضحاً أنه لا يريد أن ينهي الاجتماع، كان لديه هدف كما يبدو - ما هو؟ كان أليوشا يلاحقه بعينيه بانتباه شديد.

- كنا نتكلم عن المقال الهام جداً الذي كتبه السيّد. قال الراهب المتنسّك يوسّيف، المسؤول عن المكتبة، متوجهاً إلى الراهب الناسك، ومشيراً إلى إيفان فيودوروفتش. لقد توصَّل السيّد إلى استنتاجات جديدة جداً، لكن يبدو أن الفكرة عينها ذات شقَّين، حول مسألة

القضاء الإكليريكي المدني ومدى صلاحياته. وقد ردَّ السيد في مقال صحفي على أحد رجال الدين الذي وضع كتاباً ضخماً حول هذه المسألة...

- يؤسفني أنني لم أقرأ المقال، لكنني سمعتهم يتكلمون عنه.

أجاب الراهب الناسك وهو يلقي على إيفان فيودوروفتش نظرة متفرسة ثاقبة.

- إن هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة بالفعل، قال المتنسِّك، مسؤول المكتبة، ويدحض بشكل جليّ، في مسألة القضاء الإكليريكي المدني، مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة.

- هذا مهمّ جداً. ولكن بأيّ معنى؟ قال الراهب الناسك سائلاً إيفان فيودوروفتش.

فأجابه هذا الأخير دون أن يصطنع ذلك التعالي الذي لم يكن لائقاً، وهذا ما كان يخشاه أليوشا حتى عشية أمس، وإنما تكلم بلهجة متواضعة ومتحفظة وفيها تقدير ظاهر، وبشكل جديّ، بدون أي فكرة مبيَّتة.

- أبدأ من مسلَّمة أن غموض العناصر أي جوهر الكنيسة وجوهر الدولة، كل على حدة، سوف يبقى قائماً إلى الأبد حتى وإن كان مستحيلاً، ولا توجد أي وسيلة تدفع النزاع إلى حالة، لا أقول طبيعية، إنما متوازنة لأن الكذب هو أساس المشكلة بالذات. إن التسوية بين الكنيسة والدولة في مسألة مثل مسألة القضاء، هي، برأيي، مستحيلة في جوهرها التام والخالص. إن رجل الدين الذي انتقدت نظرياته يؤكد أن الكنيسة تحتل، في داخل الدولة، مكانة محدودة ودقيقة. فأجبته، من جهتي، أنني أرى أن الكنيسة يجب، على نقيض رأيه، أن تحوي الدولة كلها، وأن لا تكتفي بموقع بسيط تعتصم به في داخل التنظيم الاجتماعي. وإذا تعذَّر الوصول إلى هذا الهدف في الظروف الحالية، لسبب أو لآخر، فيجدر أن ننظر إليه كونه الهدف المباشر والجوهري الذي ينبغي للمجتمع المسيحي أن يتجه إليه أثناء تطوره اللاحق.

- هذا صحيح بالمطلق! قال الأب باييسي، المتنسِّك السكوت والمثقف، بصوت حازم وعصبي.

فصاح ميوسوف مصالباً ساقيه بعصبية.

- إنها عقيدة ما وراء الجبال، الأكثر صحةً!

- دعك من هذا الكلام، نحن لدينا جبال نجتازها؟ ليس لدينا منها شيء! قال الأب يوسّيف، ثم توجَّه إلى الراهب الناسك وتابع:

- أجاب هذا السيّد، فيما قال، عن المسلَّمات التالية «الأساسية والجوهرية» أولاً: «ما من شريحة اجتماعية يجوز لها أو يتوجب عليها أن تدَّعي لنفسها واجب التصرف في الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها». ثانياً: «إن حقّ القضاء الجزائي والمدني يجب ألّا يتعلق بالكنيسة فهو يتناقض مع طبيعتها كمؤسسة قائمة بأمر من الله وكاتحاد إنساني غايته تحقيق أهداف دينية». ثالثاً وأخيراً: «إن مملكة الكنيسة لا تنتمي إلى هذا العالم».

- هذا تلاعب بالألفاظ لا يليق برجل دين. قاطعه مجدداً، الأب باييسي وقد نفد صبره. لقد قرأت الكتاب الذي رددت عليه، تابع يقول - متوجهاً إلى إيفان فيودوروفتش، وقد أدهشني كلام رجل الدين عندما قال: «إن ملكوت السماء ليس في هذا العالم». فإذا كان لا ينتمي إلى هذا العالم فالكنيسة مستحيل قيامها على الأرض. وفي التعبير الوارد في الأناجيل المقدسة، «ليس في هذا العالم»، ليس مستخدماً في هذا المعنى. فمثل هذا

التلاعب بالألفاظ مستحيل. إن سيّدنا يسوع المسيح، إنما تجسَّد بالتحديد لكي يقيم الكنيسة على الأرض. إن ملكوت السماء لا ينتمي إلى هذا العالم، هذا أمر بديهي، ولكن لا يمكن الدخول إليه إلا بواسطة الكنيسة التي تأسست وأقيمت على الأرض. لذلك، فهذا التلاعب بالألفاظ أمر غير لائق ومستحيل. إن الكنيسة، في الحقيقة، هي مملكة وقد أقيمت لكي تحكم، وأخيراً، تظهر دون شك كمملكة على كل الأرض - وهذا ما جاء في النبوءة.

وسكت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عمداً. وكان إيفان فيودوروفتش الذي يصغي إليه بانتباه واحترام، في صمت مطلق، تابع كلامه بالبساطة نفسها وبالطيبة عينها متوجهاً إلى الراهب الناسك.

- إن مجمل فكرة مقالي كلها تكمن في أن المسيحية، كانت في الأزمنة القديمة، أي القرون الثلاثة الأولى للمسيحية، لا تظهر إلا كنيسة فحسب. ولكن، عندما قررت دولة روما الوثنية أن تعتنق المسيحية، فالذي حدث، بالضرورة، هو أنها حين أصبحت مسيحية احتوت الكنيسة، وبقيت هي، بصفتها دولة، وثنية في عدد كبير من صلاحياتها. وروما بوصفها دولة، احتفظت بعناصر كثيرة من الحضارة الوثنية والحكم الوثنية. سيّما في ما يتعلق بأهداف الدولة ذاتها وأسسها نفسها. بينما كنيسة المسيح عندما دخلت في قلب الدولة لم تكن تستطيع، بدون أي شك، أن تضحّي بمبادئها، وبتلك الصخرة التي بُنيت عليها. لا يمكنها إلا أن تتابع أهدافها الخاصة كما وضعها الله لها نهائياً: وهي تحويل العالم بأسره، وبالتالي، كل الدولة الوثنية القديمة، إلى كنيسة.

وعلى هذا النحو، (أي لبناء المستقبل) لا يتوجب على الكنيسة أن تبحث عن مكان محدّد داخل الدولة مثل «كل طائفة اجتماعية» أو مثل «مجموعة أشخاص» ذات أهداف دينية (كما يقول عن الكنيسة هذا المؤلف الذي أردّ عليه)، بل، عكس ذلك، فكل دولة على الأرض يجب أن تتحوّل كلياً، في المستقبل إلى كنيسة، وأن لا تصبح أيَّ شيء آخر إلا كنيسة متخلّية عن كل أهدافها التي يمكن ألّا تتفق مع أهداف الكنيسة. وهذا لا ينتقص من شأنها، ولا يفقدها لا كرامتها ولا مجدها كدولة كبرى، ولا يسيء بشيء إلى مجد قادتها، وكل ما هنالك، أنه ينقلها من الطريق الضالّ، الذي لا يزال وثنياً ومزيّفاً، الذي تتبّعه، إلى طريق صحيح وحقيقي، الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى أهداف أبديّة. لهذا السبب، كان لمؤلف كتاب «أسس القضاء الإكليريكي المدني» أن يكون له حكم عادل لو أنه، ببحثه واقتراحه لهذه الأسس، لم يعتبرها إلّا تسوية موقتة، لا مفر منها، في عصرنا الخاطىء وغير الكامل، ولا شيء غير ذلك. أما أن يتجرأ المؤلف فيزعم أن هذه الأسس هي بجوهرها، لا بدَّ منها، أصيلة وأبدية، فهو يعارض الكنيسة ورسالتها المقدسة الأبدية التي لا بدَّ منها. هذا كل ما جاء في مقالي، اختصرته بشكل وافٍ.

- وباختصار، استأنف الأب بابيسي كلامه مشدّداً على كل كلمة، وحسب بعض النظريات الشائعة جداً في عصرنا التاسع عشر، يجب على الكنيسة أن تتحوّل إلى دولة، منتقلةً من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا، وأن تذوب في داخلها، بعد أن أخلت المكان للعلم ولروح العصر وللحضارة. فإذا رفضت وقاومت يُخلى لها في الدولة مكان محدود، تحت الرقابة، كما يجري اليوم في بلدان أوروبا المعاصرة. أما بالنسبة للإيمان وللمفهوم الروسيّين، فليست على الكنيسة أن تتحول إلى دولة، كما يجري الانتقال من صورة دنيا إلى صورة عليا، بل على العكس، يتوجب على الدولة، في نهاية المطاف، أن تتدبَّر أمورها لكي لا تصبح إلّا كنيسة، وكنيسة فقط. فلتكن مشيئتك، فلتكن مشيئتك!

- أعترف لك بأنك شجّعتني بعض الشيء؛ قال ميوسوف بسخرية وهو يصالب ساقيه. إذا صحَّ فهمي فأنت، إذن، ترى أن المسألة هي الوصول إلى مَثَلٍ أعلى بعيد جداً، وربما يمتد إلى يوم عودة المسيح. لك ما تريد. إنها فكرة جميلة جداً وطوباوية حول اختفاء

الحروب والديبلوماسيين والبنوك الخ، هذا شبيه بالاشتراكية بعض الشيء. لأنني، أنا، كنت أفكر، أنّ ما تقوله جدِّيّ، وأنّ الكنيسة، الآن، مثلاً، ستمارس السلطة فتقضي في الأمور الجزائية وتصدر أحكاماً بالجلد وبالأشغال الشاقة وحتى بالإعدام.

- ولكن، حتى لو كانت، الآن، لا توجد إلا محاكم إكليريكية مدنيّة، فالكنيسة، في الوقت الراهن، لن تصدر أحكاماً بالأشغال الشاقة والإعدام. إن الجريمة ومفهومها يجب أن يتبدّلا، الآن، بدون أي شك، لا دفعة واحدة ولا فوراً، إنما بسرعة... أجاب إيفان فيودوروفتش بلهجة هادئة ودون طرفة عين.

- هل أنت جادّ؟

سأل ميوسوف وهو يحدّق إليه.

- إذا احتوت الكنيسة كل شيء سوف تستبعد في داخلها المجرم والمتمرد بدل أن تقطع الرؤوس، تابع إيفان فيودوروفتش كلامه، قلْ لي: ما هو مصير المحروم؟ عندئذ، سوف يقطع صلته لا بالناس فحسب، كما هو الحال الآن، بل بالمسيح أيضاً: لأنَّ جريمته، عندئذ، لا تستعدي فقط الناس بل كنيسة المسيح أيضاً: وهذه هي الحال الآن، بالتأكيد، بالمعنى الدقيق، ولكن مع ذلك، هذا ليس مؤكداً، وضمير المجرم الحالي يمكن أن يجد طريقة لإراحة الضمير، فيقول لنفسه: «صحيح أنني أسرق ولكنني لست ضد الكنيسة ولست عدواً للمسيح». هكذا يفكّر المجرم، غالب الأحيان، في عصرنا هذا. أما يوم تحلّ الكنيسة محل الدولة، فسوف يصعب عليه أن يقول الشيء نفسه وإلا ينكر سلطة الكنيسة على الأرض كلها: «البشر جميعاً يخطئون أليس كذلك؟ وكل البشر ينحرفون وكل ذلك ليس سوى كنيسة مزيّفة، وأنا الوحيد، القاتل والسارق، أنا الكنيسة المسيحيةالحقيقية». وذلك موقف صعب جداً ويتطلّب شروطاً استثنائية وظروفاً لا تتوافر دائماً.

وانظر الآن، من جهة أخرى، إلى مفهوم الكنيسة ذاتها للجريمة: ألا يتوجب عليها تغيير هذا المفهوم المعاصر، الوثني تقريباً، وبدل أن تقطع، بشكل ميكانيكي، العضو المريض كما يجري اليوم لحماية المجتمع، وأن تتجدّد، وهذه المرة بشكل كامل، وبدون كذب، لخلق بعثٍ جديد للكائن البشري ولقيامته ولخلاصه...

- يعني ماذا تريد أن تقول؟ مرة أخرى، أنا لا أفهمك. قاطعه ميوسوف مجدداً. هذا نوع من الحلم. هذا الكلام مبهم ولا سبيل إلى فهمه. عن أيّ رفضٍ تتكلم، ما هذا النفي؟ أنا، أتساءل ألست تسخر مني، يا إيفان فيودوروفتش؟

هنا تناول الراهب الناسك، فجأة، الكلام واتجهت كل الأنظار إليه:

- ولكن، في الواقع، هذه هي الحال الآن. إذا كانت كنيسة المسيح غير موجودة الآن فإن المذنب لن يرتدع عن جريمته، وما من عقاب لهذه الجريمة، يعني لا يوجد عقاب حقيقي، والعقاب الميكانيكي، كما قيل منذ برهة، لا يزيد على أن يهيج النفس، في غالب الحالات، أما العقاب الحقيقي الوحيد الواقعي هو الذي يخيف ويهدِّئ في آن، والذي يكمن في حكم ضميره بالذات.

قال ميوسوف بفضولية حادة:

- يعني كيف يكون هذا؟ اسمح لي أن أسألك.

قال الراهب الناسك:

أنظر. إن كل هذه الاعتقالات وهذه الأشغال الشاقة، وما كان يضاف إلى ذلك، قبل - الآن، من تعذيب جسدي، هذا كله لا يصلح أحداً، وهو، بصورة خاصة، لا يردع أيّ مجرم. وعدد الجرائم لا ينخفض بل يزداد. أنت، مثلاً، يجب أن تعرف ذلك. والنتيجة هي أن المجتمع، بهذا الشكل، ليس محمياً إطلاقاً، وإذا بَتَرَ عضواً مؤذياً وحكم عليه بالنفي، بعيداً عن الأنظار، يُستبدل هذا المجرم، فوراً، بمجرمٍ آخر وربما باثنين آخرين. وإذا كان ثمة شيء يحمي المجتمع، في الوقت الراهن، ويصلح المجرم، ويبعثه رجلاً آخر فهو فقط شريعة المسيح التي تعيده إلى ضميره كما هو. وعندما يعترف المجرم بذنبه بوصفه ابناً لمجتمع المسيح أي الكنيسة، إذ ذاك يعترف بخطأه أمام المجتمع نفسه أي أمام الكنيسة. فإزاء الكنيسة وحدها لا الدولة يمكن أن يشعر المجرم بأنه مذنب. فإذا جرت ممارسة حق القضاء باسم الكنيسة، عرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهي حرمانهم ومن الذين يرجعون إلى داخله. والآن، فالكنيسة التي لا تملك أيَّ سلطة قضائية ولا تملك إمكانية الإدانة الأخلاقية ولا تهتمّ بالعقاب الفعلي للمذنب. لا تطرده من داخلها ولا تحرمه من الإرشاد الأبوي، وأكثر من ذلك، تحاول أن تحافظ مع المجرم على جميع العلاقات التي تربطه بالكنيسة المسيحية. إنها تقبله في الفروض الدينية وفي تناول القربان المقدس. إنها تنجده وتعامله كسجين وليس كمذنب. وماذا يحدث مع المجرم إذا كان المجتمع المسيحي نفسه، أي الكنيسة، ينبذه كما نبذه القانون المدني؟ ماذا يمكن أن يحدث لو أن الكنيسة هي أيضاً تعاقبه بالنفي الفوري والحتمي بعد أن عاقبه القانون المدني؟ إنك لا تستطيع أن تتصوّر يأساً أكبر يمكن أن يهوي إليه، سيَّما إذا كان مجرماً روسياً، لأنّ المجرمين الروس يحافظون على إيمانهم. ومن يدري أن لا يحدث عندئذ شيء رهيب كفقدان الإيمان في قلب المجرم اليائس، وعندئذٍ، ماذا يحدث؟ ولكن الكنيسة وهي مثل أمٍّ حنون ومُحبّة ترفض معاقبته، في الواقع، لأنها ترى أنه حتى دون أن تعاقبه هي، قد نال المجرم عقوبته من محكمة الدولة، وهو في حاجة إلى من يرأف به. والسبب الأساسي لرفضها هو أن محكمة الكنيسة، هي الوحيدة، التي تحوي في ذاتها الحقيقة ولا تستطيع، بالتالي، أن توافق بين الجوهري، أو على الصعيد الأخلاقي، أو حتى القبول بتسوية مع أيّ قضاءٍ آخر. وهنا، لا توجد وسيلة للمناورة. يبدو أن المجرم، في البلدان الأخرى، نادراً ما يندم، كما يقال، لأنّ المذاهب الأكثر حداثة تعزّز شعوره بأن الجريمة ليست جريمة، إنما هي تمرُّد على قوى الاضطهاد غير العادلة. فالمجتمع ينبذه من داخله بشكل آليّ تام، وبقوة تنتصر عليه وترافق إبعاده بحقد (هكذا يقولون عن أنفسهم هناك في أوروبا) يشفعه بحقد وبلامبالاة وبنسيان تام لهذا الذي لا يزال أخاً. إذن، كل شيء يجري دون أي عطف من الكنيسة لأنه، في حالات عديدة، لا توجد كنيسة على الاطلاق ولم يبق منها إلا رجال الإكليروس ومبانٍ دينية رائعة الجمال، الكنائس عينها انتقلت، منذ زمن طويل، من مرحلة دنيا وهي الكنيسة إلى مرحلة عليا وهي الدولة، وانتهت نهائياً فيها. وتلك هي، على ما يبدو، حالة المجموعات اللوثرية. أما بالنسبة إلى كنيسة روما فإنها منذ ألف سنة قد أقامت الدولة محل الكنيسة. لذلك، فالمجرم نفسه لا يشعر بأنه عضو في الكنيسة، وعندما ينبذه المجتمع يستسلم لليأس. وإذا عاد إلى مجتمعه، فإنه غالباً ما يشعر تجاه مجتمعه بكرهٍ يبلغ من القوة أن المجرم هو الذي ينبذ المجتمع منه. إلى أين يؤدي ذلك، يمكنك أن تتخيل هذا الأمر بسهولة. يمكن الاعتقاد، في حالات عديدة، أن الأمر يجري عندنا خارج المحاكم القائمة، فلدينا، بالإضافة إلى ذلك، كنيسة لا تفقد صلتها أبداً بالمجرم لأنها تعتبره ابناً عزيزاً وغالياً، بالرغم من كل شيء. وإننا نحتفظ، ولو فكرياً، بمحكمة الكنيسة ولو أنها غير فعالة، الآن، لكنها قائمة للمستقبل، على الأقل، من حيث كونها أملاً. والمجرم نفسه، يعترف بسلطتها في أعماق نفسه. وصحيح القول أيضاً، كما قيل منذ برهة هنا، إذا كانت محكمة الكنيسة تؤكد ذاتها في الواقع، بكل قوَّتها، أي إذا استطاع المجتمع كله أن يتحول إلى كنيسة، فمحكمة الكنيسة ستمارس إصلاح المجرم، بشكل لا تُعرف حدوده حتى الآن، بل، أيضاً، سينخفض عدد الجرائم بنسبة كبيرة جداً. إن الكنيسة نفسها، ستكشف المستقبل المجرم والجريمة المستقبلية في العديد من الحالات بشكلٍ مختلف كلياً مما هو عليه اليوم،

ويمكنها أن تستعيد الضالّ وترشد المجرم الذي تهيِّئه، وتجدِّد الساقط. واستطرد الراهب الناسك، وعلى وجهه ابتسامة حزينة؛ حتى الآن، فالمجتمع المسيحي، هو بالذات، ليس مهيَّأً وغير باقٍ إلَّا بفضل سبعة صالحين. وبما أنهم لا يزولون، فكل شيء يبقى راسخاً بانتظار تجدده الكامل وانتقاله من مجتمع، لم يعد طائفة وثنية تقريباً، إلى كنيسة واحدة شاملة تحكم الجميع. فلتكن مشيئتك، فلتكن مشيئتك، إلى دهر الداهرين. وهذا ما قد تقرَّر فقط منذ الأزل. ونخطىء إذا ما أقلقت أفكارنا مسائل الزمن أو المهل، لأن سرَّ الأزمان والمهل هما في حكمة الله وعنايته الإلهية وحبِّه. وذلك بعيد جداً في الحساب البشري، قد يكون، أحياناً، على وشك الظهور على عتبات حياتنا. أجل، فلتكن مشيئتك، فلتكن مشيئتك.

- لتكن مشيئتك. لتكن مشيئتك. أكد الأب باييسي بلهجة فيها الرصانة والوقار.

- هذا غريب. غريب إلى أبعد حدّ. قال ميوسوف، ولا يمكننا أن نقول بحرارة إنما بنوع من السخط.

- ما الذي يظهر لك غريباً؟ سأله الأب يوسِّيف بحذر.

فأجاب ميوسوف منفجراً، فجأة:

- يلغون الدولة على الأرض لكي يشيدوا مكانها الكنيسة كدولة! ليس هذا من فكر ما وراء الجبال فحسب بل أكثر بكثير مما وراء الجبال! حتى البابا غريغوار السابع نفسه لم يكن يحلم بهذا أبداً.

- السيّد يفهم العكس تماماً، قال الأب باييسي بقساوة. ليست الكنيسة هي التي ستتحول إلى دولة، إفهم ذلك. هذا رأي روما وحلمها، إنها تجربة الشيطان الثالثة! لا، الأمر بالعكس تماماً. فالدولة هي التي تتحوَّل إلى كنيسة والتي يجب أن ترتقي لتصبح الكنيسة على الأرض كلها. وذلك النقيض المطلق لروما ولعقيدتها لما وراء الجبال، ولتفسيرك أنت، وهو بعينه الرسالة العظيمة التي تحملها الأورثوذكسية على الأرض. فمن سماء الشرق سترتفع هذه النجمة.

كان ميوسوف في صمت وقور. وكان مظهره كله يعبّر عن شعور خارق بمهابته. وبدت على شفتيه ابتسامة متعالية، كان أليوشا يراقب كل شيء، وقلبه يخفق بسرعة كبيرة. لقد جعلته هذه المناقشة يضطرب حتى أعماق كيانه، فحوَّل نظره عرضاً على راكيتين الذي بقي جامداً في مكانه، واقفاً قرب الباب، يراقب كل شيء ويستمع بانتباه إلى كل شيء، وعيناه منخفضتان. ومع ذلك، فإن أليوشا، وقد رأى احمرار خدّيه أدرك أن راكيتين، هو أيضاً، كان مضطرباً أكثر منه، وعرف لماذا كان مضطرباً.

قال ميوسوف فجأة بلهجة وقورة وهيئة فيها تعاظم يتعدّى المألوف:

- اسمحوا لي، أيها السادة، أن أقصّ عليكم نادرة قصيرة. في باريس، منذ بضع سنوات، بُعَيد انقلاب كانون الأول/ ديسمبر، حدث لي أن قمت بزيارة، ذات يوم، لصديق التقيت عنده شخصية ذات نفوذ عظيم، لم يكن الرجل محقِّقاً، ولكن، يبدو، أنه كان يدير جهازاً هاماً من أجهزة الشرطة السياسية، وظيفة هامة جداً. انتهزت المناسبة، تدفعني فضولية قصوى، ودخلت في حديث مع هذه الشخصية. وبما أنه لم يكن عند صاحب المنزل بصفته زائراً بل بصفته مرؤوساً يقدّم تقريراً، وعندما لاحظ حفاوة رئيسه بي، شرَّفني بأن أفضى إليَّ ببعض الأمور وباح لي ببعض الأسرار، طبعاً إلى حدّ ما، يعني كان أقرب إلى الملاطفة منه إلى المصارحة، وهي ملاطفة معهودة عند الفرنسيين، سيَّما مع شخص أجنبي. لكنني استطعت أن أفهمه جيداً. جرى الحديث على الاشتراكيين الثوريين الذين كانوا

مضطهدين في ذلك الوقت. لا أريد أن أتعرَّض لموضوع الحديث الذي دار بيننا، بل أدعه جانباً، وأقتصر حديثي على أن أذكر لكم فكرة طريفة أفلتت من لسان هذا السيّد فجأة، فقال لي: «نحن، في الحقيقة، لا نخاف منهم كثيراً، هؤلاء الفوضويين الملحدين الثوريين، نحن نراقبهم ونعرف كلَّ ما يفعلون. لكنّ بينهم رجالاً من طراز خاص، وإن لم يكن عددهم كبيراً: أولئك هم الذين يؤمنون بالله وهم من المسيحيين، وهم اشتراكيون في الوقت نفسه. نحن نخاف من هؤلاء، أكثر من أيّ شيء آخر. هؤلاء أناس خطرون. إنّ الاشتراكي المسيحي هو أخطر من الاشتراكي الملحد». فاجأتني هذه الفكرة كثيراً، في تلك اللحظة، وقد تذكرتها الآن عندما سمعت كلامكم، أيها السادة، لست أدري لماذا...

- يعني تريد أن تقول إن ذلك ينطبق علينا، وإنك تعتبرنا اشتراكيين؟ سأله الأب بايسي فجأة ومباشرة. قبل أن يجد بيوتر ألكسندروفتش جواباً يقوله، فُتح الباب، وظهر ديمتري فيودوروفتش بعد تأخُّر طويل جداً، كانوا، جميعاً، في الواقع، لا ينتظرون وصوله، وأحدث هذا الوصول المفاجىء شيئاً من الدهشة.

VI

لماذا يعيش مثل هذا الرجل!

كان ديمتري فيودوروفتش شاباً في الثامنة والعشرين، قصير القامة، لطيف الوجه، ومع ذلك، يبدو أكبر من عمره بكثير. كان مفتول العضلات، إذا نظرت إليه أدركت أنه يتمتع بقوة جسدية هائلة، ومع ذلك، فقسمات وجهه تعبِّر عن شيء مَرَضي. هزيل الوجه، خداه خاسفان، ولونه يميل إلى صفرة غير صحّية. عيناه كبيرتان قاتمتان جاحظتان، تنظران إليك بحزم ولكن بشكل مبهم. عندما ينفعل ويخرج عن هدوئه ويتكلم بصوت ساخط، تبدو نظرته كأنها لا تخضع لمزاجه ولا تعبِّر عن شيء آخر، أحياناً، ولا تتفق أبداً مع الظروف القائمة. «من الصعب معرفة بماذا يفكر»، يقول عنه الذين كانوا يتحدثون إليه؛ والذين يلاحظون نظرته القائمة والواجمة يندهشون، غالباً، عندما يرونه ينفجر ضاحكاً فجأة ومقهقهاً مما يدل على مشاعر ملؤها الفرح والابتهاج، يندفع فيها ويستسلم لها في اللحظة عينها التي ينظر فيها إليك نظرةً جدَّ قاتمة، وهذا النوع من المظهر المرضي الذي يبدو على وجهه، فجأة، كان واضحاً جداً: كان كل الناس يعرفونه، وقد سمعوا ما يقال عن هذه الحياة المضطربة «المنحلَّة» التي استسلم لها في مدينتنا، في المدة الأخيرة، الكل يعرف أيضاً درجة الاهتياج القصوى التي وصل إليها في خصوماته مع والده بصدد أمور تتعلق بالمال. وقد سرت قصص عديدة في مدينتنا بصدد ذلك؛ والحقيقة، أنه كان بطبعه غضوباً وذا «فكر مشوش»، حسب تعبير قاضي الصلح سيميون إيڤانوفتش كاتشالينكوف أثناء أحد الاجتماعات. كان يرتدي ملابس أنيقة، متغندراً، وصدرة مزرَّرة، ويلبس قفازين أسودين، ويحمل بيده قبعة عالية. وكما يفعل كل عسكري متقاعد، منذ فترة قصيرة، فقد أطال شاربيه وحلق لحيته، ودفع شعره الكستنائي الغامق القصير إلى الأمام. وكانت مشيته عسكرية حازمة، واسعة الخطى. توقف، عند العتبة، لحظة قصيرة، وأجال نظره على الحاضرين، واتجه، فوراً، نحو الراهب الناسك وقد أدرك أنه هو السيّد هنا، فانحنى أمامه انحناءة طويلة وطلب بركته. فنهض الراهب الناسك وباركه. وقبَّل ديمتري فيودوروفتش يده باحترام، وباضطراب بالغ وبصوت يعبّر عن الاستياء، قال:

- أرجو، بكل تواضع، أن تسامحوني لأنني جعلتكم تنتظرون كل هذه الفترة الطويلة. إن الخادم سمردياكوف الذي أرسله والدي قد أجاب عن أسئلتي الملحّة، مرتين، بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حدِّد في الساعة الواحدة. والآن علمت بذلك...

- لا تقلق، قاطعه الراهب الناسك، ليس الأمر مهماً، قليل من التأخير، لا شيء خطيراً...

- أشكركم شكراً جزيلاً. لم أكن أنتظر ما هو أقلّ من طيبتكم. وانحنى ديمتري فيودوروفتش، بعد هذه الكلمات، مرة جديدة، ثم التفت فجأة نحو والده، فحيَّاه بانحناءة ملؤها الاحترام والتقدير. كان واضحاً أنه قد هيَّأ هذه التحية مسبقاً وأعدّها بإتقان، معتبراً أن من واجبه أن يبرهن بذلك على احترامه وحسن نواياه. فوجىء فيودور بافلوفتش، فوجد، على الفور حلاً فانتصب واقفاً عن كنبته يردّ تحية ابنه بتحية مماثلة. وصار وجهه، فجأة، رصيناً ومهيباً فما زاده ذلك إلا حقداً لا جدل فيه. وبدون أي كلمة، حيّا ديمتري

فيودوروفتش كل الموجودين في الغرفة بانحناءة عامة صامتة، واتجه نحو النافذة بخطى واسعة وحازمة، وجلس على المقعد الوحيد الذي كان لا يزال خالياً، ليس بعيداً عن الأب باييسي، ومال بصدره إلى الأمام مستعداً، على الفور، لسماع بقية المناقشة التي قطعها.

لم يمثل ظهور ديمتري فيودوروفتش أكثر من دقيقتين، وكان لا بدَّ للمناقشة أن تستأنف فوراً. لكن بيوتر ألكسندروفتش لم يرَ، هذه المرة، أن من واجبه الردَّ على السؤال الملحّ والمزعج الذي طرحه الأب باييسي.

- إسمح لي أن أضع جانباً هذه النقطة، قال بنوع من الخفة الاجتماعية؛ ثم إن المسألة معقدة للغاية. أنظر إلى ابتسامة إيفان فيودوروفتش: إنه يخفي شيئاً هامّاً في هذا الموضوع، فتوجّه بالسؤال إليه.

- ليس لدي شيء خاص أقوله، أجاب فوراً إيفان فيودوروفتش، إلّا ملاحظة بسيطة. إن الليبرالية الأوروبية وانفعاليتنا الليبرالية الروسية، غالباً ما يخلطان، ومنذ زمن طويل، بين الأهداف القصوى للاشتراكية وبين أهداف المسيحية. وهذه النتيجة الغريبة هي طبعاً السمة المميزة في التفكير. ويبدو أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفرد به الليبراليون والانفعاليون، بل يحدث، في حالات عديدة، عند رجال الدرك، أقصد رجال الدرك في البلاد الأجنبية طبعاً. وإنّ نادرتك الباريسية هي ذات دلالة هامة يا بيوتر ألكسندروفتش.

- بصورة عامة، رجاءً أن تعفوني من هذا الموضوع، كرَّر بيوتر ألكسندروفتش، إنما أيها السادة، سأقص عليكم نادرة أخرى شائقة ومميزة جداً، هذه المرة، عن إيفان فيودوروفتش نفسه. منذ خمسة أيام وليس أكثر، في مجتمع في مدينتنا، كان يتألف بصورة خاصة من سيدات فقط، أعلن صراحة، في نقاش جرى بين الحضور، أنّ ما من شيء في هذا العالم يمكنه أن يجبر البشر على أن يحبّوا بعضهم بعضاً، وأن قانون الطبيعة الذي يفرض على الإنسان أن يحب الإنسانية لا وجود له، وإذا كان الحب قد وُجد على الأرض، حتى الآن، فليس مردُّه إلى قانونٍ طبيعي بل لأن الناس يؤمنون بالخلود. وأضاف إيفان فيودوروفتش إلى ذلك، عابراً، أنّ كلَّ القانون الطبيعي موجود في هذا الاعتقاد. فيكفي أن يلغي الإنسان إيمانه بخلوده حتى يُلغى فوراً، ليس الحب فحسب بل كل القدرة على مواصلة الحياة في هذا العالم. وفوق ذلك، في الوقت الحاضر، إنه لن يبقى شيء منافياً للأخلاق وسيكون كل شيء مباحاً حتى أكل لحوم البشر. وأكثر من ذلك أيضاً، قال، أخيراً مؤكداً، إن القانون الأخلاقي للطبيعة، في نظر كل إنسان - في نظرنا أنا وأنت - متى كان هذا الإنسان لا يؤمن بالله وبخلوده، فالقانون الأخلاقي للطبيعة يجب أن يتحول فوراً إلى النقيض المطلق للقانون السابق أي القانون الديني، وأن الأنانية وحتى الجريمة لا تصبحان مباحتين للإنسان فحسب بل تصبحان مشروعتين وضروريتين على أنهما الحلّ الوحيد المعقول، لكي لا أقول الحلّ الوحيد النبيل لكل مشكلات الإنسان. مع هذه المفارقة، يمكنكم، أيها السادة، أن تحكموا على كل ما يروق أو ما ينوي أن يعلنه من آراء عزيزنا الخيالي والسفسطائي إيفان فيودوروفتش.

- إسمح لي، قال ديمتري فيودوروفتش فجأة كي أتأكد أنني سمعته جيداً «أن الجريمة ينبغي أن لا تعتبر مباحة فحسب بل يجب أن يُعترف بأنها ضرورية وكحلّ أذكى من مشكلات كل الملحدين»، هل هذا ما سمعته أو لا؟

- هذا هو بالضبط. أجاب الأب باييسي.

- أتذكَّر ذلك.

وبعد هذه الكلمات، لاذ ديمتري فيودوروفتش بالصمت، هو أيضاً، فجأة، كما تدخَّل فجأة في المناقشة، فاتجهت كل الأنظار إليه بفضولية.

- هل أنت متأكد أن زوال إيمان الناس بخلود النفس ستكون له هذه النتائج؟ سأل الراهب الناسك، فجأة، إيفان فيودوروفتش.

- نعم، هذا ما أكدته. إن الفضيلة غير موجودة إذا كان الخلود غير موجود.

- أنت سعيد، إذا كان هذا هو إيمانك أو أنك بائس جداً؟

- ولماذا أكون تعيساً؟ سأل إيفان فيودوروفتش مبتسماً.

- لأنه، حسب الاحتمال، لا تؤمن أنت نفسك، لا بخلود نفسك ولا بما كتبته عن الكنيسة وعن مسألة الكنيسة.

- ربما أنت على حق!... ولكنني، مع ذلك، لا أمزح إطلاقاً... قال إيفان فيودوروفتش معترفاً بغرابة وقد احمرَّ وجـهه فجأة.

- لم تكن تمزح كلياً. هذا صحيح. فهذه الفكرة لم تُحلّ بعد في قلبك وهي تعذبه. لكن الشهيد أيضاً يحب أن يمزح، أحياناً، في ما يتعلق بيأسه الشخصي هو أيضاً بسبب اليأس. والآن، أنت تمزح بسبب اليأس، بسبب مقالاتك في المجلات، وفي مناقشات الصالونات، دون أن تؤمن أنت بجدلك، وعندما تسخر من هذا الجدل تشعر بالغضب في أعماق ذاتك... هذه المسألة لم تُحسم بعد في ذهنك. وهنا يكمن شقاؤك العميق لأنه يطلب حلاً بأيّ سبب...

تابع إيفان فيودوروفتش سائلاً محدقاً إلى الراهب الناسك وعلى وجهه ابتسامة لا تفسير لها.

- وهل وجدت حلَّها؟ هل وجدت حلَّها إيجاباً؟

- إذا تعذّر حلُّها من الجانب الإيجابي فلن تحلّ أبداً من الجانب السلبي، أنت نفسك تعرف خصوصيّة قلبك هذه. وفي هذا يكمن كل عذابك. لكن، أشكر الرب لأنه وهبك قلباً سامياً قادراً على أن يتحمل مثل هذا التعذيب «أن يبحث ويفكر بحقائق الأعالي لأن حياتنا هي في السموات»، إسأل الرب أن يجد قلبك حلاً على هذه الأرض. وليباركك الله في طريقك!

رفع الراهب الناسك يده يريد أن يبارك إيفان فيودوروفتش، وهو في مكانه؛ لكن هذا الأخير، نهض فجأة من مقعده فاقترب منه، وتلقّي بركته، وبعد أن قبَّل يده عاد ليجلس في مكانه دون أن يتفوه بكلمة. كان تعبير وجهه صلباً ورصيناً. إن هذه البادرة التي قام بها، كما تلك المحادثة التي سبق وتبادلها مع الراهب الناسك، والتي كانت غير متوقعة من إيفان فيودوروفتش، كلّ ذلك، أحدث في كل فرد من الحضور أثراً بالغاً بما يشتمل عليه من سرٍّ وأبهة، وكأنه صمت مدة دقيقة، وكان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب بالغ. لكن ميوسوف رفع فجأة كتفيه، وفي اللحظة نفسها، قفز فيودور بافلوفتش عن كرسيه:

- أيها الراهب الناسك المقدس الإلهي! صاح مشيراً إلى إيفان فيودوروفتش. هذا ولدي، هذا من لحمي ودمي، هذا ولدي الحبيب! إنه الأكثر احتراماً، هو من نوع كارل مور. وهذا ولدي الآخر الذي دخل الآن، ديمتري فيودوروفتش هذا الذي جئت أستعين بك عليه. إنه أقلّهم احتراماً، شبيه فرانز مور، وهذان البطلان هما من مسرحية شيللر «قطاع الطرق»، وأنا من جهتي أشبِّه نفسي بغراف فون مور. فاحكم في الأمر، وأنقذنا! فنحن لا نطلب صلواتك فحسب بل نبوءاتك أيضاً.

- تكلَّم دون أن تمثّل دور بسطاء القرية، ولا تبدأ بإهانة عائلتك. أجاب الناسك بصوت ضعيف ومنهك، وكان التعب بادياً عليه وبدأت قواه تضعف بوضوح.

- مهزلة مهينة! كنت أشعر بهذا وأنا قادم إلى هنا. قال ديمتري فيودوروفتش واثباً عن كرسيِّه مستاءً. سامحني، يا أبتي المحترم، قال متوجهاً إلى الراهب الناسك، أنا رجل أمّي، ولا أعرف كيف يجب أن أناديك. لكنهم خدعوك، وأنت إنسان طيب القلب لأنك سمحت لنا أن نلتقي عندك. أبي لا يسعى إلّا إلى غايته، فيجب أن تسأله. لديه دائماً حساب. لكن هذا الحساب اليوم، أعتقد أنني أعرفه...

- كلّهم يتَّهمونني! كلّهم يتَّهمونني! صاح بدوره فيودور بافلوفتش. وبيوتر ألكسندروفتش يتَّهمني هو أيضاً. لقد اتهمتني، يا بيوتر، لقد اتهمتني! أضاف وهو يلتفت إلى ميوسوف مع أن هذا الأخير لم يخطر بباله أن يقاطعه. يتهمونني أنني خبأت مال أولادي في حذائي وتركتهم عراة. ولكن اسمح لي، أليس هناك محاكم؟ تحسم ذلك؟ هناك يكون حسابك، يا ديمتري فيودوروفتش، بالاستناد إلى إيصالاتك أنت، ورسائلك، واتفاقاتك، وكم هي ثروتك، وكم من المال بدَّدت، وكم بقي لك! لماذا يرفض بيوتر ألكسندروفتش أن يفصل في خلافنا هذا؟ إنه يعرف ذلك، لأن كل الناس ضدي، وديمتري فيودوروفتش لا يزال مديناً لي بمال، وليس مبلغاً زهيداً بل ألوف الروبلات، أليس كذلك؟ ولديّ وثائق في يدي! كل المدينة تتحدث عن فجوره. هناك، عندما كان في الجيش اعتاد أن يدفع ألف روبل أو ألفين لكي يغوي بعض العذارى! إنني أعرف هذا، يا ديمتري فيودوروفتش، هذه أمور يعرفها الجميع وبتفاصيلها السرّية. وأنا بإمكاني أن أبرهن على ذلك. أيها الأب المقدس، هل تصدّقني؟ لقد أفسد أخلاق فتاة من أنبل الفتيات، من أسرة كريمة ثرية، وهي ابنة رئيسه السابق وهو كولونيل مقدام قام بحملات عسكرية وحائز وسام القديسة أنّا مع عدد من السيوف! أفسد طهارة تلك الفتاة إذ تقدَّم بطلب الزواج بها، وها هي، الآن، هنا، يتيمة مع أنها خطيبته، بينما هو يتردد على مرأى منها إلى مومسٍ من المدينة. ولكن هذه المومس تعيش بما هو شبيه بالزواج المدني مع رجل محترم، هي حصن منيع، يتعذر الحصول عليه، وكأنها زوجة شرعية تماماً، وامرأة فاضلة، نعم، فاضلة! إنها فاضلة أيها الآباء الأجلّاء! ويريد ديمتري فيودوروفتش أن يقتحم هذا الحصن بمفتاح من ذهب، وهذا هو السبب في هجومه عليَّ الآن لأنه يأمل أن يسلبني مالاً. وبانتظار ذلك، صرف على هذه المومس ألف روبل وهو لا يزال يستدين من أجلها المال. إنه يستدين، وهل تعرفون ممَّن؟ أأقول يا ميتيا أو لا أقول؟

- سكوت! صرخ ديمتري فيودوروفتش. انتظر حتى أخرج من هنا، لأنني لن أسمح لك أن تدنّس بحضوري سمعة أنبل فتاة... مجرد تجرؤك على التلميح إليها إهانة لها... لا، لن أسمح بهذا!

كان يلهث.

- ميتيا، ميتيا! قال فيودور بافلوفتش بصوت كأنه الأنين محاولاً منع انهمار دموعه. ما عساك تفعل بالبركة الأبوية؟ وماذا سيحدث إن أنا لعنتك؟

- داعر وخبيث! صاح ديمتري فيودوروفتش.

- والده، أنظروا كيف يعامل والده! فكيف تكون إذاً معاملة الآخرين؟ تصوّروا أيها السادة: في مدينتنا، رجل فقير لكنه محترم. هو نقيب متقاعد. حلَّ به البؤس بعد فصله من الجيش، لكن ليس رسمياً، ولا حكم عليه، بقي محافظاً على شرفه، ويعيل أسرة كبيرة. منذ ثلاثة أسابيع، أمسكه ديمتري فيودوروفتش من لحيته في إحدى الخمارات، وجرَّه إلى الشارع، وراح يضربه في الشارع أمام الجميع. لماذا؟ لأن هذا النقيب هو رجل ثقة عندي أنا،

وقد عهدت إليه ببعض الأمور الصغيرة.

- كل هذا، كذب! صاح ديمتري فيودوروفتش وهو يرتجف غضباً. إنه حقيقة في الظاهر وكذب في الباطن! أبتي. أنا لا أحاول أن أبرِّر أفعالي، أجل، أعترف بذلك أمام الجميع. لقد تصرَّفت كبهيمة مع هذا النقيب. واليوم، أنا نادم على ما فعلت، يتأكلني غضبي الحيواني. لكن هذا النقيب الذي عهدت إليه ببعض الأعمال، إنما ذهب إلى تلك السيدة التي قلت عنها إنها مومس، تحدث إليها باسمك، وعرض عليها شراء السندات التي وقَّعتها لك وتحتفظ بها، وأن تلاحقني قضائياً من أجل أن تزجَّ بي في السجن إذا استمريت في إزعاجك بمطالبي في ما يتعلق بتصفية الحسابات. وأنت، الآن، تتهمني بأنني أميل إلى هذه السيدة بينما نصحتها أنت نفسك أن تجتذبني إليها. هي نفسها روت لي ذلك، ساخرةً منك! إذا أردت أن تدخلني السجن، فذلك فقط لأنك تغار مني، لأنك حاولت أن تزعج هذه المرأة بحبك! أعرف ذلك أيضاً! هي التي روته لي ضاحكةً عليك، هل تسمع؟ ساخرة منك، لقد أخبرتني كل شيء! هذه هي، أيها الآباء الأجلّاء، حقيقة هذا الرجل، هذا الأب الذي يتهجَّم على سوء سلوك ابنه! أيها السادة الشهود، سامحوا غضبي! لقد أحسست مسبقاً أن هذا العجوز الوقح جمعنا كلّنا هنا لكي يحدث فضيحة. ولقد جئت أنا لكي أسامحه إذا مدَّ إليّ يده، وأغفر له، وأعتذر منه! أما وقد أهانني الآن ولم يكتفِ بذلك بل تجرأ على إهانة أنبل فتاة، أتجنّب ذكر اسمها لأنني أحترمها، فقد قررت أن أفضح لعبته الدنيئة علناً رغم أنه والدي...

لم يستطع أن يتابع حديثه. كانت عيناه تقدحان شرراً وكان يتنفّس بصعوبة. لكن جميع من كانوا في الغرفة أصابهم الاضطراب كلهم، ما عدا الراهب الناسك، نهضوا عن مقاعدهم مضطربين. وتجهَّم وجها الراهبين المتنسكين لكنهما كانا ينتظران ما يقرره الراهب الناسك. ولم يكن هذا الأخير قد تحرك بعد. كان وجهه أصفر اللون ليس جرَّاء الانفعال إنما بسبب ضعفه المرضي. وكانت تشع على شفتيه ابتسامة متوسلة. كان قد رفع يده، على فترات طويلة، وكأنه رغب في تهدئة هؤلاء الممسوسين. وطبعاً، كان بإمكانه، بحركة واحدة أن يضع حداً لهذا المشهد. لكن، كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما، فراح يراقب بانتباه كلّي، كأنه يحاول أن يفهم شيئاً آخر، كأنَّ لديه شيئاً آخر لا يزال خافياً عنه. وأخيراً، شعر بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف بأنه قد أُذلّ وأهين.

- نحن كلنا مذنبون في هذه الفضيحة التي حدثت! قال بحرارة. وبالرغم من كل شيء، لم تكن لديّ فكرة عندما جئت إلى هنا، ولو أنني عرفت مع مَنْ سأكون... يجب أن ينتهي فوراً هذا الأمر! أبتي المبجّل، كن على ثقة بأنني كنت أجهل كلَّ التفاصيل التي كُشف عنها هنا. كنت أرفض تصديقها، وإنما عرفتها الآن لأول مرة... والد يغار من ابنه بسبب مومس، وهو نفسه يتفق مع هذه «المخلوقة» لكي يزجّ ابنه في السجن... هؤلاء هم الذين اضطررت إلى المجيء معهم إلى هنا... لقد خُدعت، أصرّح علناً للجميع أنني خُدعت، كما خُدع الآخرون...

- ديمتري فيودوروفتش! عوى فجأة فيودور بافلوفتش بصوت غير مألوف لدينا. لو لم تكن ابني لطلبتك للمبارزة... بالمسدس، على مسافة ثلاث خطوات... والأعين معصوبة! ختم قوله وهو يضرب الأرض بقدميه.

يمرّ الكذبة العريقون الذين قضوا حياتهم كلها يمثّلون، بلحظات يلعبون دورهم فيها فيرتجفون ويبكون انفعالاً، رغم أنهم قادرون على أن يقولوا لأنفسهم، في الوقت نفسه، أو بعد ثانية: «أنت تكذب أيها الكاذب العريق! أنت تمثّل حتى في هذه اللحظة، رغم غضبك «المقدس»، أجل، حتى في هذه الثانية من الغضب «المقدس».»

قطّب ديمتري فيودوروفتش حاجبيه بشكل رهيب، ونظر إلى والده نظرة ملؤها

الاحتقار الذي لا يوصف. ثم قال بصوت خفيض متقطع:

- كنت أفكر... كنت أفكر... أنني سأعود إلى وطني برفقة ملاك حياتي، خطيبتي، لكي أهتمَّ بآخر أيامها، فإذا بي أجد رجلاً فاجراً فاسقاً، وممثلاً من أفشل الممثلين!

- مبارزة! صاح العجوز مجدداً وهو يلهث، واللعاب يسيل من فمه عند كل كلمة. وأنت، يا بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف، إعلم، أيها السيد، أن سلالتك كلها لم تضم ولن تضم أبداً امرأة أرقى ولا أشرف، نعم، ولا أشرف، هل تسمع؟ من تلك التي تجرأت ودعوتها، أنت، «بالمخلوقة»! وأما أنت يا ديمتري فيودوروفتش، فقد استبدلت خطيبتك بهذه «المخلوقة»، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة، وهي خطيبتك، لا ترقى إلى مستوى كعب حذائها. هذه هي المرأة التي سميتموها مخلوقة!

- يا للعار! قال الأب يوسِّيف فجأة.

- أجل، عار وخزي! صاح فجأة بصوته الفتيّ المرتجف من الانفعال، الفتى كالغانوف الغاضب بعد أن لزم الصمت طوال الوقت.

- لماذا يعيش على الأرض رجل مثل هذا؟ زمجر ديمتري فيودوروفتش بصوت بهيم وقد انتشى غضباً، رافعاً كتفيه إلى الأعلى حتى بدا كأنه محدودب الظهر: لا، هل قلتم لي إنه من الجائز أن نسمح له بأن يدنّس الأرض التي يعيش عليها - وتابع، وهو يتأمل الحضور واحداً بعد الآخر مشيراً إلى والده العجوز بإصبعه، كان يتكلم بلهجة بطيئة ومتقطّعة.

- سمعتم، سمعتم أيها الرهبان ما يقول قاتل أبيه؟ صرخ فيودور بافلوفتش متهجماً على الأب بايبيسي. هذا هو جوابه على قولك «عار!» هل قلت لي أين العار؟ إن هذه «المخلوقة»، إن هذه «المومس»، ربما هي أقدس منكما، أنتما المتنسكين اللذين تبحثان عن خلاصكما! فهي، إذا كان ذلك صحيحاً، لقد سقطت في شبابها، ضحية بيئتها، لقد أحبَّت كثيراً، والمرأة التي أحبّت كثيراً، حتى المسيح غفر لها خطاياها... قال الأب المتواضع يوسّيف بعد أن نفد صبره.

- نعم، من أجل ذلك الحب، ذلك الحب بالضبط، أيها الرهبان. نعم، من أجل ذلك الحب، هنا، تفتشون عن خلاصكم بأكل الكرنب وتعتقدون أنكم صالحون! تلتهمون السمك النهري، سمكة صغيرة في اليوم فقط، وبأسماككم الصغيرة تعتقدون أنكم تشترون الله!

- مستحيل، مستحيل! صاح الحاضرون في الغرفة من كل جهاتها.

لكن هذا المشهد الذي وصل إلى حدِّ التقزز، تحوَّل فجأة إلى شكل غير متوقع: فجأة، نهض الراهب الناسك من مكانه، فأسرع أليوشا الذي أوشك أن يفقد صوابه من شدة خوفه على الراهب الناسك، وعلى الجميع، فتمكن أن يسنده من ذراعه. اتجه الراهب الناسك نحو ديمتري فيودوروفتش، فلما وصل إليه ركع. اعتقد أليوشا أن الراهب الناسك قد سقط على الأرض بسبب ضعفه، ولكن الأمر لم يكن كذلك. ركع الراهب وانحنى أمام ديمتري فيودوروفتش انحناءة كاملة، انحناءة دقيقة ومتعقّلة حتى كاد جبينه يلامس الأرض. دُهش أليوشا مذهولاً، فلم يتسنَّ له الوقت أن يمسكه عندما نهض. وارتسمت ابتسامة خفيفة، لا تكاد تُرى، على شفتيه.

- المعذرة، المعذرة! قال وهو ينحني أمام ضيوفه جميعاً في كل الجهات.

بقي ديمتري فيودوروفتش مصعوقاً بضع ثوان: انحنى الراهب الناسك أمامه حتى لامس الأرض. ماذا يعني هذا؟ وصاح فجأة: «يا ألله!».

خبأ وجهه بيديه وأسرع إلى الخارج، ولحقت به جمهرة المدعوين الذين، من شدّة اضطرابهم، لم يستأذنوا أو يحيّوا مضيفهم. فقط الراهبان المتنسكان وحدهما اقتربا لتلقّي بركته.

- لماذا ركع؟ هل هذا رمز أو ماذا؟

دمدم فيودور بافلوفتش محاولاً أن يستعيد الحديث، بعد أن هدأ روعه فجأة، كانوا يخرجون، في تلك اللحظة، من سور المنسك.

- لست مسؤولاً عن المجانين ولا عن مستشفى الأمراض العقلية، سأنسحب من صحبتك يا فيودور بافلوفتش، وبوسعك أن تثق أن هذا سيكون إلى الأبد. أين هو ذلك الراهب القصير الذي استقبلنا منذ قليل؟

لكن هذا «الراهب القصير»، أي الذي كان قد دعاهم، منذ قليل، إلى الغداء عند رئيس الدير، لم يدعهم ينتظرونه. كان يستقبل المدعوين ما إن ينزلوا درجات غرفة الراهب الناسك وكأنه كان ينتظرهم طوال الوقت.

- أرجوك، أيها الأب المحترم، أن تنقل إلى رئيس الدير احترامي العميق، وليعذرني، أنا ميوسوف، لدى الأب المحترم بسبب ظروف غير متوقعة، عن شرف تلبية دعوته إلى الغداء رغم رغبتي الصادقة في تلبيتها. قال بيوتر ألكسندروفتش للراهب بصوتٍ ساخط.

- إن الظروف غير المتوقعة هي، أنا، قال فيودور بافلوفتش فوراً. واعلم يا أبتي أنّ بيوتر ألكسندروفتش لا يريد البقاء معي وإلّا لبّى الدعوة فوراً، لكنك ستذهب يا بيوتر ألكسندروفتش، ستتشرف بتناول طعام الغداء عند رئيس الدير، وأتمنّى لك شهية طيبة، واعلم، أنا مَنْ سيمتنع عن حضور الوليمة وليس أنت! في منزلي، سأتناول الغداء في منزلي. هنا، لن أستطيع أن أبلع شيئاً، هل فهمت يا بيوتر ألكسندروفتش، يا قريبي العزيز جداً.

- أنا لست قريبك، ولم أكن قريبك أبداً، أيها الحقير!

- قلت لك ذلك عمداً لكي أزعجك لأنك ترفض عائلتك، ورغم كل شيء، فنحن أقارب. وباستطاعتي أن أبرهن على هذا حسب تقويم القديسين. أما أنت يا إيفان فيودوروفتش، فسأرسل إليك العربة لتعيدك إلى المنزل، فابقَ هنا إذا أردت. إن اللباقة تفرض عليك يا بيوتر ألكسندروفتش أن تذهب إلى غداء رئيس الدير لكي تعتذر عن الفضيحة التي شاركنا فيها جميعاً هناك...

- أصحيح أنك تنصرف؟ ألا تكذب؟

- كيف أجرؤ، يا بيوتر ألكسندروفتش، بعد كل الذي حدث؟ لم أستطع أن أتمالك نفسي، فاعذروني أيها السادة، لم أستطع أن أتمالك نفسي! بالإضافة إلى أنني مضطرب! وأنا أشعر بالعار أيضاً. أيها السادة، إن لدى بعض الناس شجاعة شبيهة بشجاعة الإسكندر المقدوني، وإن للبعض الآخر، شجاعة كشجاعة الكلب الصغير «أزورْ». وأنا الكلب «أزورْ»، أشعر أنني صغير! فكيف أشارك في هذا الغداء بعد عملي الطائش هذا، وأن ألعق مرق الدير؟ أشعر بالخجل، لا أستطيع ذلك، فاعذروني!

«الشيطان وحده يعرف أهو يقول الحقيقة أم أنه يمثّل؟ توقف ميوسوف كي يفكر، وهو يتابع، بنظره المذهول، المهرّج الذي كان يبتعد. والتفت هذا الأخير إلى الوراء فلاحظ أن بيوتر ألكسندروفتش يراقبه بعينيه، فأرسل إليه قبلةً بيده.

لكن أنت، أنت هل ستذهب إلى عند رئيس الدير؟ سأل ميوسوف، إيفان - فيودوروفتش بلهجة متعجرفة.

ولمَ لا؟ ثم أنا تلقيت الدعوة شخصياً من رئيس الدير. -

صحيح أنا أشعر بأنني مضطر إلى حضور هذا الغداء اللعين. تابع ميوسوف - بالمرارة العصبية نفسها دون أن ينتبه إلى أن الراهب الصغير يستمع إلى كلامه. نحن، على الأقل، يجب أن نعتذر عن كل ما قمنا به هنا، ولكي نشرح أننا... ما رأيك؟

أجل، يجب أن نشرح أن ليس نحن. على كل حال، لن يكون أبي معنا. قال إيفان - فيودوروفتش.

وإذا كان أبوك هناك! يا للغداء اللعين! -

ومع ذلك، تقدَّم الجميع. كان الراهب القصير ساكتاً يستمع إلى الحديث. وأثناء المسير، لاحظ أن رئيس الدير كان ينتظرهم منذ مدة طويلة، وأنهم قد تأخروا نصف ساعة. لم يجبه أحد. وأطلق ميوسوف نظرة حقد على إيفان فيودوروفتش.

سيحضر الغداء، وكأن شيئاً لم يكن! قال في سرّه؟ جبهة ثور، وضمير» كارامازوفي!».

VII

إكليريكي مهنوي

أعاد أليوشا الراهب الناسك إلى غرفة نومه الصغيرة وأجلسه على سريره. كانت غرفة صغيرة جداً، فيها الأثاث الذي لا غنى عنه. سرير ضيّق من الحديد عليه قطعة من لبَّاد بدل الفراش. وفي إحدى الزوايا، بالقرب من الإيقونات، توجد منضدة صغيرة عليها الصليب والإنجيل. تهالك الراهب الناسك على السرير خائر القوى. كانت عيناه تلمعان، وكان يتنفس بصعوبة. جلس ثم ألقى على أليوشا نظرة ثابتة كأنه يفكر في أمر ما.

- اذهب، يا عزيزي، اذهب. أنا، يكفيني بروفير ليساعدني. هم محتاجون إليك هناك. إذهب إلى رئيس الدير لتحضّر المائدة.

- اسمح لي بالبقاء هنا! رجاه أليوشا بصوت متوسل.

- هناك، فائدتك أكبر. لا يوجد هناك سلام. سوف تخدمهم وستكون مفيداً. سوف تستيقظ الشياطين فاتْلُ صلاةً. واعلم يا بنيَّ العزيز، (كان يحلو للراهب الناسك أن يناديه هكذا) الآن، مكانك ليس هنا. تذكر أيها الشاب؛ متى سمح الله فدعاني للقائه، غادر أنت الدير، واذهب بشكل نهائي.

ارتعش أليوشا.

- ماذا دهاك؟ الآن، مكانك ليس هنا. أباركك لمهمَّة عظيمة في هذا العالم. هناك أشياء كثيرة يجب أن تعرفها. يجب أن تتزوج. يجب. يجب أن تتحمل كثيراً قبل أن تعود إلى هذه الأماكن. لديك الكثير لتقوم به. ولكني لا أشك فيك، ولهذا السبب أنا أرسلك. المسيح معك. واعرف كيف تحافظ عليه، سوف يحميك. ستنتظرك آلام كبيرة ولكنك ستكون سعيداً في هذا الشقاء. هذه وصيتي لك: إبحث عن السعادة في الشقاء. إعمل، إعمل بدون كلل. تذكر ما أقوله لك، لأنني أعرف، ولو أنني أتحدث إليك الآن، أن أيامي بل ساعاتي أصبحت معدودة.

بدا على وجه أليوشا مجدداً انفعال شديد. وبدأ طرفا شفتيه يرتجفان.

- ماذا حلَّ بك أيضاً؟ سأله الناسك وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة، فليبكِ أبناء هذا العالم على أمواتهم. ونحن، هنا، نفرح مع الأب الذي يفارقنا إلى الأبد. نبتهج، ونصلي لأجله. دعني الآن، يجب أن أصلّي. اذهب، أسرع. ابقَ بالقرب من أخويك، لا قرب واحد فقط منهما، بل قرب الاثنين كليهما.

ورفع الراهب الناسك يده ليباركه. كان من المستحيل على أليوشا أن يحتجَّ، مهما تكن رغبته قوية في البقاء. كان يتوق أن يسأله، لكن السؤال كاد يفوته: على ماذا تدلّ تلك الانحناءة حتى الأرض أمام أخيه ديمتري. لكنه لم يجرؤ أن يسأله. كان يعرف أن الراهب الناسك سيشرح له ذلك، من تلقاء نفسه لو كان ذلك ممكناً، ومعنى ذلك أنه ليس من سلطته.

لكن تلك الانحناءة قد أحدثت في أليوشا تأثيراً بالغاً: كان أليوشا مؤمناً بعمق أنّ لهذه الانحناءة معنى سرّياً، وربّما رهيباً. ولما خرج من سور المنسك لكي يصل إلى الدير قبل بداية الغداء عند رئيس الدير (لكي يخدم على المائدة، طبعاً)، أحسَّ، فجأة، أن قلبه انقبض في صدره من الألم، وتوقَّف عن المسير فوراً: عادت تدوّي في نفسه كلمات الراهب الناسك التي أعلن فيها أنّ وفاته قد اقتربت. إن ما يتنبأ به الراهب الناسك، بهذه الدقة، لا بدَّ أن يحصل. وتلك في نظر أليوشا حقيقة مقدسة. فكيف ستكون حاله وحيداً بعد موت الراهب الناسك، دون أن يراه ودون أن يسمعه؟ وإلى أين سيذهب؟ هل يتوقف عن البكاء ويغادر الدير؟ أيها الرب! منذ زمن بعيد، لم يشعر أليوشا بمثل هذا القلق. أسرع الخطى ليجتاز الغابة التي تفصل المنسك عن الدير، وإذ شعر بعجزه عن تحمُّل أفكاره التي كان ثقلها يسحقه، راح يتأمل أشجار الصنوبر المعمّرة التي تنتصب على جانبَي درب الغابة. لم تكن المسافة طويلة، حوالى خمسمئة خطوة، وليس أكثر. وفي مثل هذه الساعة، من النادر أن يصادف المرء فيها أحداً. وما إن وصل أليوشا إلى أول منعطف حتى رأى راكيتين فجأة. كان هذا الأخير يبدو أنه ينتظر أحداً.

- ليس أنا مَنْ تنتظر؟ سأله أليوشا عندما اقترب منه.

- طبعاً، هو أنت! أجابه راكيتين ضاحكاً. أنت ذاهب إلى رئيس الدير. أعرف. توجد وليمة غداء. إنه منذ اليوم الذي استقبل فيه الأسقف والجنرال باخاتوف - هل تتذكر؟ - لم يقم مثل هذه المأدبة أبداً. أنا، لن أكون هناك. لكن أنت، اذهب إليه وحدك، وقدِّم المرق. قل لي، يا أليوشا: ماذا تعني هذه القصة؟ هذا ما أردت أن أسألك.

- أيّ قصة؟

- تلك الانحناءة حتى الأرض أمام أخيك ديمتري فيودوروفتش. لقد صدم جبهته بالأرض تقريباً!

- هل تقصد الأب زوسّيما؟

- طبعاً أقصد الأب زوسيما.

- صدم جبهته بالأرض؟

- إنني أقلّل من الاحترام، حسناً، أقلّل من الاحترام. لكن، ماذا تعني هذه القصة؟

- لا أعرف، يا ميشا، ماذا يعني هذا.

- كنت أعرف أنه لن يفسّره لك. ما من شيء معقّد في هذا الأمر، أعتقد أنها مجرد حركات تزمُّت في التقوى المتكررة. لكنّ كلّ هذه اللعبة، كان يقصدها. والآن، كل الثرثارين في المدينة يتحدثون في هذا الشأن، وسينشرونه في كل المقاطعة: «ماذا تعني هذه القصة؟» في رأيي، إن الراهب الناسك لا يعوزه نفاذ البصيرة. لقد أحسَّ أن هناك جريمة الحق العام؛ تفوح هذه الرائحة في منزلكم.

- الحق العام؟

كان واضحاً أن راكيتين ينوي قول شيء ما.

- في عائلتك، سيحصل الحق العام هذا. ستقع بين أخويك الصغيرين وأبيك الثري جداً. ولهذا السبب، صدم الأب زوسيما جبهته بالأرض. فإذا حدث شيء ما، سوف يقال: «لقد

توقَّع هذا، لقد تنبّأ به العجوز القديس!». تتحدث عن نبوءة، فمهما فعل، إنه قائد، كلا، هذا، سيحسبونه رمزاً أو شعاراً، الشيطان يعرف ماذا! سيجيبونك أنهم سيتذكرون: أنه تنبأ بالجريمة، أليس كذلك؟ واكتشف المجرم. وهكذا هو الحال مع بسطاء القرية. يرسمون إشارة الصليب أمام الحانة، ويرمون الكنيسة بالحجارة. والشيء نفسه بالنسبة إلى راهبك العجوز: يطرد الصالح بضربة عصا، وينحني أمام القاتل، حتى الأرض.

- أيّ جريمة؟ أيّ قاتل؟ ماذا دهاك؟ قال أليوشا، وتوقف أمام راكيتين مصعوقاً، فقال هذا الأخير:

- أي جريمة؟ كأنك تجهل ذلك؟ يدي في النار التي قد فكّرت فيها أنت بالذات. بالمناسبة، هناك سؤال: اسمع يا أليوشا، أنت، تقول دائماً الحقيقة، حتى ولو أنك جلست دائماً بين كرسيَّين؛ هل فكرت في هذا الأمر، نعم أو لا، أجب؟

- لقد فكرت في الأمر، أجاب أليوشا بلطف؛ حتى راكيتين نفسه اضطرب.

- جدياً؟ أنت أيضاً، اذاً، فكرت في هذا الأمر؟ صاح.

- أقصد... ليس أنه قد فكَّرت، تمتم أليوشا، لكن، أنت، الآن، تحدثت عن ذلك بشكل غريب جداً. فتصوَّرت أنني، أنا أيضاً، فكّرت فيه.

- أرأيت (كم هو واضح ما تقوله)، أرأيت؟ اليوم، وأنت تنظر إلى أبيك وإلى أخيك ميتنكا، فكّرت في الجريمة؟ إذن، أنا على حق، أليس كذلك؟

- لكن، انتظر، انتظر! قاطعه أليوشا قلقاً: من أين استنتجت هذا كله؟... ولماذا اهتمامك بهذا الأمر، إلى هذا الحدّ؟ لو أعرف ذلك، أولاً؟

- هذان سؤالان منفصلان، لكنهما طبيعيان. سأجيبك عن كل واحد على حدة. من أين استنتجت ذلك؟ أقول لك إنني ما كان لي أن أستنتج شيئاً لولا أنني، في لحظة معيَّنة، قد عرفت حقيقة أخيك ديمتري فيودوروفتش، كما هو تماماً، فجأة، وبسرعة. ولم أعرف ذلك بكليته. مع هؤلاء الناس، الذين هم شرفاء تماماً ولكنهم يغوصون في الملذات، يوجد حدّ يجب عدم تجاوزه، وإلّا أصبحوا لا يتورَّعون عن قتل أبيهم. وأبوك، السكير والمعربد، ليس لديه حدّ، ولم يعرف الاعتدال ابداً. الواحد مثل الآخر، غير قادرين على الانضباط. وطُقْ، إلى القبر...

- لا، يا ميشا! إذا كان ما تقصده هو هذا فقط، إذاً أنت تطمئنني. لن يصل بهما الأمر إلى هذا الحدّ.

- لماذا ترتجف هكذا، ما بك؟ أنت تعرف اللعبة: إنه رجل شريف، أعترفُ بذلك (إنه غبي ولكن شريف)، لكنه مدمن الملذات. هذه هي طبيعته، وهذا هو جوهر نفسه. لقد ورث هذا من أبيه، أورثه شهواته القذرة. ولا يوجد إلا أنت من يدهشني، يا أليوشا: كيف تمكنت أن تكون نقياً؟ وأنت أيضاً فرد من أسرة كارامازوف! لأن في أسرتك شهوانية تبلغ أقصى التأجج، إذاً، فهؤلاء الشهوانيون الثلاثة، الآن، يراقب واحدهم الآخر... وخنجره مخبّأ في كمّ قميصه. لقد تجابهوا هم الثلاثة. وأنت، كما أعتقد، ستكون الرابع.

- في موضوع تلك المرأة، أنت مخطىء. تمتم أليوشا مرتجفاً.

- غروشنكا، تقصد؟ أجاب راكيتين، لا، يا عزيزي، لا يحتقرها. عندما يكون صحيحاً أنه استبدل خطيبته بها، فهو، لا، لا يحتقرها. هنا... هنا يا عزيزي، يوجد شيء لا يمكنك أن

تفهمه الآن! عندما يقع الرجل في حب امرأة جميلة، أو جسد امرأة، أو جزء فقط من جسد امرأة (والماجن، طالب اللذة يعرف هذا جيداً)، لهذا السبب، يضحّي بأولاده من أجلها، ويبيع أباه وأمّه، وروسيا والوطن: إنه شريف، ويصبح قادراً على أن يسرق؛ إنه خجول، ويطعنك بالمدية؛ إنه مخلص، ويخونك. إن شاعر الساقين الصغيرتين لدى المرأة، بوشكين، تغنّى بالساقين الصغيرتين في قصائده8 وهناك آخرون لا ينظمون شعراً ولكنهم حين يرون الساقين، يضطربون. ليست مفاتن المرأة ساقين فقط... لا، يا عزيزي، حتى الاحتقار لا حيلة له بذلك، إذا سلَّمنا أنه يحتقر غروشنكا؛ إنه يحتقرها، لكنه لن يستطيع الانفصال عنها.

- فهمت! أفلت لسان أليوشا.

- أوه؟ لا بدَّ أن ذلك صحيح، وتفهمه جيداً، ما دمت قد اعترفت به منذ الكلمة الأولى. لقد قلتَ ذلك دون أن تقصد. فقد زلَّ لسانك. والاعتراف بذلك هو أكبر قيمة. إذاً، إنه موضوع تعرفه سابقاً، وقد فكّرتَ بالطبع في الشبقيّة الجنسيّة. جميل أن تكون بكراً! أنت، يا أليوشا، متظاهر بالتقوى، أنت قديس، لكنك تتظاهر بالتقوى. والشيطان يعلم بماذا تفكر، والشيطان يعرف ماذا أصبحت تعرف الآن! أنت بكر، ولكنه دفعك إلى ذلك، وأنا، كنت أراقبك منذ مدة طويلة! أنت واحد من أسرة كارامازوف، أنت أيضاً فرد من آل كارامازوف مئة بالمئة. إذاً، هذا يعني شيئاً ما، هو أن للعِرق وللوراثة أثراً. أنت شهواني من جهة أبيك، وبسيط من جهة أمك. لماذا ترتجف؟ هل لأنني أقول الحقيقة؟ هل تعرف ماذا حدث: طلبت مني غروشنكا: «جئني به (يعني أنت) أريد أن أنزع عنه ثوب الراهب». ليتك تعرف كيف طلبت ذلك: جئني به، جئني به!» لقد تساءلت ما الذي يجعلها تهتمّ برؤيتك إلى هذا الحدّ؟ أنت تعرف، هي أيضاً، هي امرأة خارقة!

- بلِّغها شكري، وقل لها إنني لن أجيء إليها. قال أليوشا وهو يبتسم بغضب. قلْ ما كنت تريد أن تقوله، يا ميشا، وأنا أيضاً، بعد ذلك، سأقول لك بماذا أفكر.

- ماذا لديَّ لأقول بعد، إنَّ كل شيء واضح. كل هذا أصبح من الماضي، إنها أغنية قديمة. إذا كنت، أنت أيضاً، تخبىء في ذاتك ماجناً شهوانياً، فماذا، بالأحرى، عن أخيك إيفان، وأنتما من السرير نفسه؟ هو أيضاً من آل كارامازوف، أنتم آل كارامازوف، كل مشكلتكم تكمن هنا: شهوانيون، طمَّاعون وبسطاء من القرية. إن أخاك إيفان الآن، يسلّي نفسه بكتابة مقالات لاهوتية خاضعاً في ذلك لحساب لا أدري ما هو، لأنه هو نفسه ملحد، وهو نفسه يعرف سفالته - أخوك، أعني إيفان. بالإضافة إلى هذا، يحاول أن يسلب أخاه ديمتري خطيبته، حسناً، أعتقد أنه سيحقق غايته. وهل تعرف كيف؟ بموافقة ميتينكا، لأن ميتينكا نفسه، سيتنازل له عنها، فقط لكي يتحرر منها، وأن ينصرف، بسرعة إلى غروشنكا. وهذا - لاحظ ذلك - بكامل نبله ولامبالاته. إن أمثال هؤلاء الناس هم الأشد خطراً! الشيطان وحده يعرفكم، وبعد ذلك: يعترف، هو نفسه، بسفالته. وهذه السفالة، هو الذي يسرع للقيام بها! اسمع أيضاً: الآن، إن أباك العجوز هو الذي يعترض طريق ميتينكا. لأن الأب أصبح، فجأة، مجنوناً بحبّه لغروشنكا، فما يكاد يلمحها حتى يسيل لعابه. ولأنه، وبسببها وحدها، أثار الفضيحة في الغرفة، لأن ميوسوف تجرأ وقال بأنها مومس. إن أباك عاشق مثل الهرّ. لقد استخدمها، في الماضي، في أمور حقيرة في خمَّاراته، وكان يدفع لها أجراً، والآن، وفجأة، شُغف بها. وهو منذ ذلك اليوم، يجهد في ملاحقتها ويحاصرها بعروضه، ويريد الزواج بها، ليس بشكل شريف بالتأكيد. حسناً، الأب والابن يتواجهان. وغروشنكا، هي، لم تختر لا الأول ولا الثاني، وإنما هي تتدلَّل، وتهزأ بهما. إنها مترددة تتساءل أيهما أكثر إفادة لها. أما الأب، فتستطيع أن تسحب منه مالاً، ولكنه لن يتزوجها أبداً، وهي تعرف ذلك، حتى لقد يعود إلى بخله بعد أن يربح المعركة فيقفل دونها خزنته. ومرحى أيها المال! في هذه الحالة، ميتيا أيضاً له ثمن، لا يملك مالاً، إنما هو قادر على أن يتزوجها! نعم، أن يتزوجها! يتخلّى عن

خطيبته ذات الجمال الرائع، يتخلّى عن كاترينا إيفانوفنا، الثرية النبيلة، ابنة كولونيل، ويتزوج غروشنكا، العشيقة السابقة للتاجر العجوز، الفلاح الداعر، سامسونوف، قاضي المدينة. ذلك كله، في الواقع، يمكن أن يؤدي إلى جريمة. وأخوك، لا ينتظر سوى هذا؛ بالنسبة إليه إنه المستفيد الكبير: يظفر بكاترينا إيفانوفنا التي يتحرَّق إليها، ويتصرَّف ببائنتها وهي ستون ألف روبلٍ. من أجل رجل صغير لا يملك فلساً واحداً، إنه لأمر مغرٍ كبداية. وسجِّل عندك هذا، أيضاً، أنه لا يكون في هذا، قد أساء إلى ميتيا، بل بالعكس، يكون قد قدَّم له خدمةً كبيرة، لأنني أعرف هذا، أنا، من مصدر موثوق به، أن ميتينكا، هو نفسه، وبصوت عالٍ، منذ الأسبوع الأخير، كان يصرخ ثملاً في إحدى الخمارات مع غجريات فتيّات، أنه غير جديرٍ بخطيبته كاترينا، وأن أخاه إيفان هو أهل لها. وكاترينا إيفانوفنا، من المؤكد أنها، ستقول نعم، في نهاية الأمر، ولن تصمد أمام رجل مغوٍ مثل إيفان فيودوروفتش. وهي الآن، مترددة بين الاثنين. إنني أتساءل ما الذي تجدونه، أنتم جميعكم، في إيفان هذا، حتى تفتتنوا به وتقفوا أمامه في حالة إجلال؟ كل ما يقوم به هو أنه يسخر: أنا مرتاح، أنا أتمتع على حسابكم.

- من أين تعرف كل هذا؟ ولماذا أنت متأكد إلى هذا الحد؟ سأله أليوشا فجأة، مهموماً وبعنف.

- وأنت لماذا تطرح عليّ هذا السؤال، ولماذا تخاف مسبقاً من جوابي؟ لأنك أنت أيضاً موافق على أنني قلت الحقيقة.

- أنت لا تحب إيفان! وإيفان لن يغريه المال.

- طيب؟ ما قولك بجمال كاترينا إيڤانوفنا؟ ألا يوجد غير المال فقط، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مغرٍ.

- إيفان يتطلع إلى ما هو أسمى، حتى أن الألوف لا تغريه. إيفان، لا يسعى إلى المال ولا يفتش عن الرخاء. ربّما كان يبحث عن الألم.

- وما هي هذه القصة أيضاً؟ أنتم جميعاً... النبلاء!

- آه يا ميشا، إنّ نفسَه هي دائماً عواصف، وعقله أسير الهموم. يتمتع بذكاء ثاقب وهو غير واثق. هو من أولئك الذين ليسوا بحاجة إلى الملايين، وإنما يتطلعون إلى حل المشكلات.

- سرقات أدبية؟ يا أليوشا. أنت تكرر أقاويل راهبك الناسك. تتكلم عن اللغز الذي طرحه عليهم إيفان! صاح راكيتين بغضب واضح، وقد تبدَّلت ملامح وجهه وانقبضت شفتاه.

- اللغز بحدّ ذاته سخيف، لا يوجد فيه شيء، والآن، استمعت إلى نظريته السخيفة: «إذا كان خلود النفس غير موجود فالفضيلة هي أيضاً غير موجودة، وبالتالي، فكل شيء مباح». (وقد صاح أخوك ميتينكا، عندئذ، هل تتذكر، عندما صرخ «سوف أتذكر ذلك»)، إنها نظرية تغري الأوغاد... أقول كلاماً سيئاً، إنها غباوة... ليسوا أوغاداً بل تلامذة متبجحين يحملون «أفكاراً عميقة لا حلَّ لها»، متبجّح صغير، لكن جوهر تفكيرهم كله هو: «من جهة أولى يستحيل عدم الاعتراف، ومن جهة أخرى يستحيل عدم الإنكار!» نظريته كلها ليست سوى نذالة! ستجد الإنسانية في ذاتها القدرات على أن تعيش للفضيلة، حتى بدون الإيمان بخلود النفس! وستجدها في حب الحرية والمساواة والأخوّة...

اهتاج راكيتين ولم يعد قادراً على ضبط نفسه. لكن، فجأة، وكأنه تذكّر شيئاً ما،

توقف عن الكلام.

- حسناً. هذا يكفي! قال وهو يبتسم بتكلّف. لماذا تضحك؟ هل تعتقد أن لديّ أفكاراً مبتذلة.

- لا، لم أفكر حتى أن أفكر أن لديك أفكاراً سخيفة. أنت ذكي ولكن... لننسَ... لقد كانت ابتسامتي بدون سبب. أعرف أنه من الممكن أن تغضب، يا ميشا، ولقد عرفت من لهجتك الغاضبة أنك، أنت أيضاً، لا تشعر تجاه كاترينا إيفانوفنا، بعدم الاكتراث. هذا، يا عزيزي، كنت أشك فيه، منذ فترة طويلة، ولهذا السبب لا تحب أخي إيفان. أنت تغار منه.

- أغار منه على مالها أيضاً؟ هذا أيضاً، أضفه إلى قولك!

- لا لن أضيف شيئاً عن المال، لا أريد أن أهينك.

- أُصدِّق، لأنك أنت تقول لي هذا. ولكن فليسفِّدكما الشيطان، أنت وأخاك إيڤان! لا يمكن لأيّ منكما أن يفهم أنه، بصرف النظر عن كاترينا إيفانوفنا، هناك شيء لا يحبّه المرء، ولماذا ينبغي لي أنا أن أحبّه، فليسفِّده الشيطان! لقد شرَّفني، هو نفسه، بأن انتقدني. ولماذا، أنا، لا يحق لي أن أنتقده؟

- لم أسمعه يتحدث عنك أبداً، ولا بكلمة واحدة، لا بخير ولا بسوء، لم يتكلم عنك أبداً.

- وسمعت، قبل أمس، في منزل كاترينا إيفانوفنا، أنه قال عنّي كلاماً أهون من الشنق. إنه يجهل من أنا، خادمك المتواضع! ومَن منّا يغار من الآخر، يا عزيزي، بعد هذا، إنني أتساءل! لقد تفضل وقال عني إنني لم أقرر، في مستقبل قريب، أن أصبح أرشمندريت، ولم أقرر الدخول في الرهبنة، وإنني سوف أذهب إلى بطرسبرغ لأعمل هناك في مجلة كبرى، ناقداً طبعاً. وأعمل محرراً مدة عشر سنوات، ثم، بعد ذلك، أصبح صاحب المجلة وأغيِّر اتجاهها، فأجعلها ليبرالية وإلحادية مع صبغة اشتراكية، مراعاة لقواعد الحذر. هذا يعني أنني سألعب على الحبلين وسأخدع الناس. وبعد ذلك، في آخر حياتي الصحفيَّة، أكون قد جمعت - حسب رأي أخيك - رأس مال ضخماً رغم الصبغة الاشتراكية فأستثمر المال مع يهودي صغير ما، إلى أن أشيد بناية فخمة في سان بطرسبرغ فأجعل مقرَّ التحرير في طابقها الأرضي، وأؤجّر ما تبقّى من الطوابق شققاً. حتى لقد حدّد أخوك موقع البناية، وهو بالقرب من الجسر الحجري الذي سيُبنى، كما يقال، فوق نهر نيفا، بين حيّ ليتايني وحيّ فيبورغ...

- آه، يا ميشا، هذا صحيح، وأغلب الظن أن هذا ما سيحدث حتى آخر كلمة! هتف فجأة أليوشا وهو غير قادر على أن يتمالك نفسه مع ابتسامة فرحة.

- أنت أيضاً، أنت أصبحت تنطق بهذه التهكمات، يا ألكسي فيودوروفتش!

- لا، لا، أنا أمزح. اعذرني! إنني أفكر في شيء آخر تماماً. ولكن، ما همَّ، قل لي: من استطاع أن يقول لك هذه التفاصيل، ومِمَّنْ إذاً، استطعت أن تسمعها؟ أنت لم تكن حاضراً عند كاترينا إيفانوفنا، عندما قال هذا عنك؟

- أنا لم أكن هناك، ولكن، كان ديمتري فيودوروفتش، وإنه ديمتري فيودوروفتش الذي سمعته بأذني. يعني، إن شئت، هو من قال لي، ولكنني سمعته، طبعاً دون إرادتي، لأنني كنت في غرفة نوم غروشنكا، ولم أكن أستطيع الخروج طالما ديمتري فيودوروفتش كان في الغرفة المجاورة.

- صحيح، نسيت أنكما قريبان، أنت وهي...

- قريبان؟ غروشنكا وأنا؟ يمكن أن نكون قريبين؟ أجاب فجأة راكيتين محمرَّ الوجه. هل جننت، أم ماذا؟ صحيح، إنك مختلّ.

- لماذا؟ ألستما قريبين؟ لقد قيل لي...

- أين سمعت هذا؟ لا، أنتم، آل كارامازوف، تصطنعون أوضاع الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء العريقة، بينما كان أبوك يتنقَّل كالمهرّج على موائد الآخرين، يقدّمون له الطعام، شفقةً، يأكله في المطبخ. أنا لست ابن كاهن، ولست سوى عثَّة أمامكم أنتم النبلاء، لكنني أرفض أن تهينني بهذه الخفة وهذا المرح. أنا أيضاً، لي شرفي، يا ألكسي فيودوروفتش! وهي، غروشنكا، المومس وأنا، لا يمكن أن نكون قريبين، أريد منك أن تفهم ذلك!

كان راكيتين مهتاجاً جداً.

- المعذرة. بحق السماء! لم أكن أستطيع أن أفترض هذا. ثم، لماذا هي مومس؟ هل هي... هكذا؟ سأله أليوشا وقد احمرَّ وجهه فجأة. أكرر لك ذلك: إنني سمعت أنها من عائلتك. وأنت تذهب لرؤيتها، غالب الأحيان، وقلت لي أنت بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقة حب... هل يمكنني أن أتصوَّر أنك تحتقرها إلى هذا الحدّ؟ وهل هي تستحق ذلك حقاً؟

- إذا زرتها، فلديَّ أسبابي الخاصة. وهذا كافٍ لكي تفهم. أما بالنسبة للقرابة، فإن أخاك أو حتى أباك، هما اللذان فرضا عليك هذه القرابة، يفرضانها عليك أنت وليس عليَّ أنا. ولكن، ما هذا؟ ما الذي يحدث؟ هل تأخرنا؟ لا يمكن أن يكونوا قد انتهوا من تناول الغداء، بهذه السرعة! أم هل أنَّ الأخوين كارامازوف قد دبَّرا «خديعة» ما! أراهن أنه هذا. انظر، هذا أبوك وإيفان فيودوروفتش وراءه. إنهما ينسحبان من عند رئيس الدير. وهذا الأب إيزودور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام ما. وأبوك يصيح أيضاً ملوِّحاً بيديه. أراهن على أنه يشتمه. انظر، هذا ميوسوف يخرج راكباً عربته. انظر إلى هناك، هذا ماكسيموف الملّاك يركض. إنها لفضيحة حقاً! اذاً لم يحصل الغداء! أتراهم ضربوا رئيس الدير أيضاً؟ أو أنَّ الآخرين هم الذين ضربوهم! هذا، لو رأيت هذا!...

لم يكن راكيتين يصرخ بدون سبب. لقد وقعت فضيحة فعلاً. فضيحة لم تكن في الحسبان... فضيحة غير متوقعة، لم يُسمع بمثلها من قبل. كل ذلك حدث تحت «وطأة الإلهام»...

VIII

الفضيحة

في الوقت الذي دخل ميوسوف وإيفان فيودوروفتش إلى مسكن رئيس الدير، أحسَّ بيوتر ألكسندروفتش الرجل النزيه والمستقيم، أن عملية ما سريعة ودقيقة تحصل داخله. شعر بالخجل لأنه غضب. شعر، في أعماق نفسه، أن رجلاً تافهاً مثل فيودور بافلوفتش، لا يستحق الاحتقار، أما هو، فكان ينبغي ألا يفقد هدوءه في غرفة الراهب الناسك بحيث لا يعود يسيطر على نفسه. «إن الرهبان، على الأقل، هنا، لا يتحملون مسؤولية شيء مما حدث، قال لنفسه وهو يصعد الدرج المؤدي إلى مسكن رئيس الدير. وما داموا، هم أيضاً، أناساً شرفاء (رئيس الدير والأب نيقولاي، هو أيضاً، يبدو أنه من أصل نبيل)، فلماذا لا أكون تجاههم لطيفاً ومهذباً ومحبّاً؟ لن أتهجَّم على آرائهم بل سأتظاهر بالموافقة عليها، فأكسب مودَّتهم... وسوف أبرهن لهم، في نهاية الأمر، على أن لا شيء يجمعني بهذا الإيزوب (Esope) هذا المهرّج، هذا التافه الذي، وقعت في فخه تماماً مثلما وقعوا هم...».

بالنسبة إلى الدعوى بصدد قطع الأشجار في الغابة، ومسألة حقوق الصيد في النهر (وكان لا يعرف هو نفسه أين هو المكان الذي كان يقوم عليه الخلاف) فقد قرر أن يتنازل لهم عنها، نهائياً، في ذلك اليوم بالذات، لاسيَّما وأن قيمة ذلك كله لا تكلِّف شيئاً يذكر، وسوف يسحب القضية من المحاكم، وينهي هذه الدعوى القديمة ضدَّ الدير.

كل هذه النيات الطيبة قد تعززت أكثر عندما دخلوا إلى غرفة طعام رئيس الدير. لم تكن هناك غرفة طعام، في الواقع، لأنَّ مسكن رئيس الدير يتألف من غرفتين فقط وإن كانت الغرفتان أوسع مساحة وأكثر راحة من غرفة الراهب الناسك. لكن أثاثهما لا يوحي بالرفاهية الخاصة: كان مصنوعاً من الجلد ومن خشب الأكاجو، من طراز العشرينات، حتى إن الأرضية الخشبية لم تكن مطلية. لكن كل شيء، في المقابل، كان يلمع نظافةً، وعلى كل النوافذ أزهار ثمينة. وما كان يلفت الانتباه، في تلك اللحظة، هو المائدة المرتَّبة رغم أنها ليست مترفة: الغطاء نظيف، والأواني لماعة، وثلاثة أنواع من الخبز الجيّد، وزجاجتان من نبيذ، وقمقمان مليئان بشراب العسل الذي يشتهر به الدير، وإبريق كبير من زجاج فيه شراب «الكفاس» الذي يُصنع في الدير، وهو شراب مشهور كثيراً في المقاطعة كلها. ولم يكن على المائدة أثر للفودكا. روى راكيتين، فيما بعد، أن وجبة الطعام، في هذه المرة، التي أعدت، تكوَّنت من خمسة أطباق: حساء سمك، وسمك مشوي، وأضلاع من السمك مشوية بطريقة مدهشة، وكريات من السمك الأحمر، ومثلجات، وفاكهة مسلوقة بالسكر، وفاكهة مع العصير، والبوظة، وأخيراً «مهلَّبية» من الفواكه. كان راكيتين قد رشف من كل ذلك، ولم يتمكن أن يقاوم فضوله فتسلل إلى مطبخ رئيس الدير، وهنا أيضاً، دخله عدة مرات. دخل إلى كل مكان. وكان يعرف كيف يتكلم مع الناس. كان له قلب قلق وحسود. وكان راضياً، كلياً، عن قدراته الهائلة، ولكنه يبالغ في حبّ ذاته بعصبيَّة. وكان يثق بأنه سيكون، في المستقبل، شخصية مرموقة. لكن أليوشا الذي كان يحبه كثيراً، كان يتألم في داخله لأنّ صديقه راكيتين رجل غير شريف، حتى إنه لم يخطر بباله أبداً أنه كذلك. وعلى العكس، يعرف أنه لا يسرق مالاً من على الطاولة، ويعتبر نفسه رجل الكمال الأخلاقي. هنا، ليس إيليوشا فقط لا يستطيع أن يفعل شيئاً، بل ولا أيّ شخص يستطيع أن يغيِّر رأيه.

وبما أنّ راكيتين شخصية ثانوية فلم يكن ممكناً أن يُدعى إلى الوليمة، لكن الأبوين يوسّيف وبابيسي كانا مدعوَّين، ومعهما متنسِّك آخر. كانوا ينتظرون في غرفة رئيس الدير، عندما وصل بيوتر ألكسندروفتش وكالغانوف وإيفان فيودوروفتش. وكان الملّاك ماكسيموف، في إحدى الزوايا، جالساً ينتظر هو أيضاً. استقبل رئيس الدير ضيوفه وتقدّم إلى وسط الغرفة. إنه عجوز طويل القامة، نحيل الجسم، لكنه لا يزال متين البنية، شعره أسود فيه خصلة رمادية كبيرة، ووجهه بيضوي شاحب اللون وصارم. حيّا ضيوفه بسكوت، ولكن، هذه المرة، لم يأتوا لتلقّي البركة. أراد ميوسوف أن يجازف ويقبّل يده، إلا أنّ رئيس الدير أبعدها في اللحظة المناسبة، ولم تتم قبلة اليد. بالمقابل، إيفان فيودوروفتش وكالغانوف، تلقيا البركة، يعني، بقبلة صغيرة على ظاهر اليد، هي الأبسط والأكثر شعبية.

- يتوجب علينا أن نعتذر، بعمق، يا أبتي المحترم، بدأ بيوتر ألكسندروفتش الكلام مظهراً أسنانه بشكل ودود، ولكن بلهجة وقورة ومحترمة، لأننا جئنا بدون أحد أصدقائنا، أريد أن أقول، بدون فيودور بافلوفتش. لقد اضطر أن يتغيّب عن هذه الوليمة، وليس بدون سبب؛ ففي غرفة الأب المحترم زوسّيما، اندفع في مناقشة مؤسفة مع ابنه وقال كلاماً في غير موضعه... أي كلاماً غير لائق أبداً... وأعتقد، يا أبتي المحترم، (وكان ينظر إلى الراهبين المتنسِّكين)، أنك قد علمت بذلك، ولهذا السبب، وإذ شعر بأنه مذنب، وبأسفٍ صادق، أحسَّ بالخجل، وهو يعجز عن تخطّيه. فطلب منّا، أنا وابنه إيفان فيودوروفتش أن نعرب لك عن أسفه الشديد وندمه الصادق... ويأمل أن يصلح خطأه، في المستقبل القريب، وحتى ذلك الحين، يرجو أن تباركه ويطلب منك أن تنسى ما حصل...

وسكت ميوسوف. بعد أن أنهى الكلمات الأخيرة من خطابه الطويل وقد شعر بالرضى التام عن نفسه بشكل لم يبق فيه أثر للغضب الذي اعتراه من قبل. وجد حبَّه الحقيقي للبشرية كلها.

استمع رئيس الدير إليه بوقار وأحنى رأسه قليلاً وأجاب:

- آسف من أعماق قلبي على الذي لم يأتِ. ربّما كنا تقاسمنا محبتنا أثناء هذه المأدبة، وشعرنا نحوه بمحبة. تفضلوا، أيها السادة، إلى المائدة.

أخذ مكانه أمام الإيقونة وبدأ الصلاة بصوت عالٍ، فخفض الجميع رؤوسهم باحترام، وتقدَّم الملّاك ماكسيموف إلى الأمام ضاماً يديه أمامه ليعبّر عن احترامه الخاص.

وهنا، قام فيودور بافلوفتش بمكيدته الأخيرة. ينبغي التذكير بأنه كان، في الواقع، ينوي الانصراف، وأحسَّ بالفعل أنَّ من المستحيل بعد سلوكه الفاضح في غرفة الراهب الناسك، أن يحضر مأدبة رئيس الدير؛ كأنَّ شيئاً لم يكن. لا، لأنه يشعر بخجلٍ من نفسه، أو لأنه يلوم نفسه، كان العكس تماماً هو الأصح! وكان يشعر، بالرغم من كلٍ ما حصل، أن حضور المأدبة سيكون غير لائق. لكن، ما كادت عربته تصل إلى أمام دار الضيافة، حتى أحسّ بتردد مفاجىء، فتوقف، على الفور، وتذكر أقواله في غرفة الراهب الناسك: «إنني أشعر، دائماً، عندما أدخل إلى مكان ما، أنني الأسوأ بين الجميع، وأنّ الجميع يعتبرونني مهرِّجاً! إذاً، فليكن، سألعب دور المهرِّج، لأنكم أنتم جميعاً أكثر غباءً مني، وأنذل منّي». تمنَّى لو ينتقم من الجميع على سفاهاته. وتذكَّر، بهذا الصدد، فجأة، أنه ذات مرة منذ مدَّة بعيدة، سُئل: «لماذا تكره هذا الشخص؟» فأجاب باندفاع المهرّج: «لماذا؟ سأقول لكم: صحيح أنه لم يسئ إليّ، لكن أنا، ارتكبت في حقّه حقارة قذرة، ومذ قمت بتلك الحقارة، أصبحت أكرهه على الفور». لمّا تذكّر هذا، ضحك بدهاء، وراح يفكر بضع لحظات. والتمعت عيناه، وبدأت شفتاه بالارتجاف: «لقد سُكبت الخمرة فيجب شربها، سوف أُكمل ما بدأته». ختم قوله فجأة. إن الشعور الخفيّ الذي خضع له، في تلك اللحظة، يمكن أن يُفسَّر بالتالي: «الآن، فات

أوان ردّ الاعتبار إلى نفسي، إذاً، مادام الأمر كذلك، فسأذهب حتى النهاية، وأهينهم أكثر، وسيرون، عندئذ، أنني لا أهتمّ بهم، ولا أحفل بما عدا ذلك، وانتهى الأمر». أمر الحوذي بأن ينتظره، وها هو يعود، مسرعاً، إلى الدير، حيث ذهب مباشرة إلى رئيس الدير. لم يكن يعرف بعد ماذا عليه أن يفعل، ولكنه يعرف أنه لا يمكنه السيطرة على نفسه، وأن أيّ «نقفة» ستدفعه بطرفة عين، إلى أقصى حدود الدناءة، مهما تكن. دون أن يتعرّض للوصول إلى أبعد من ذلك، ودون ارتكاب جريمة أو نزوة يمكن أن تؤدي به إلى المحكمة. وفي هذه الحالة الأخيرة، كيف يلجم نفسه، وهو يندهش حتى من قدراته على السيطرة في بعض الحالات. وصل إلى غرفة طعام رئيس الدير، فاقترب الجميع من رئيس الدير في اللحظة المحددة التي كانت فيها الصلاة قد انتهت، فاقترب الجميع من المائدة. وقف على العتبة، جال بنظرة على الحضور، ثم أطلق ضحكة طويلة ملؤها الغطرسة والخبث، وهو يتفرس فيهم جميعاً، بنظرة جسورة من أعماق عينيه.

- لقد ظنوا أنني ذهبت، وأنا، الآن، هنا! صاح بصوت دوّى في كل أرجاء الغرفة.

بعد لحظة، نظر إليه الجميع محدّقين إليه، دون أي كلام، وفجأة، شعر الجميع أنَّ أمراً سيئاً كريهاً سوف يحدث، مع فضيحة لا مفرّ منها. وانتقل بيوتر ألكسندروفتش من حالة المزاج الهادىء إلى حالة الغضب العارم. وكل ما كان قد هدأ وانطفأ في قلبه، التهبَ بسرعة.

- لا، هذا لا يحتمل، لا أستطيع. صاح. لن أطيق ذلك... لا أستطيع إطلاقاً!

صعد الدم إلى رأسه، واختلطت عليه الأمور. ونسي كل فصاحته! وتناول قبعته.

- ما الذي لا يستطيع أن يحتمله؟ صاح فيودور بافلوفتش. «لا يستطيع» أبداً و «لا يستطيع إطلاقاً»؟ يا أبتي المحترم، هل أدخل أو لا أدخل؟ هل تستقبل ضيفك؟

- أهلاً وسهلاً بكم، من كل قلبنا. أجاب رئيس الدير.

- أيها السادة، أسمح لنفسي، أضاف فجأة، أرجو، من أعماق قلبي، أن تنسوا خلافاتكم العابرة العائلية، وأن تلتقوا بالمحبة والوفاق مع أهلكم وتصلّوا للرب حول مائدتنا المتواضعة...

- لا، لا، هذا مستحيل! صرخ بيوتر ألكسندروفتش وقد خرج عن طوره.

- عجباً! إذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة إلى بيوتر ألكسندروفتش، فهو مستحيل بالنسبة إليّ، أنا أيضاً. إنه مستحيل، ولن أبقى. كنت أعرف ذلك، لدى وصولي، والآن، سأكون دائماً مع بيوتر ألكسندروفتش: تنصرف أنت يا بيوتر، إذاً أنصرف أنا، وتبقى أنت، أبقى أنا. إن الوفاق الذي أقمته بين الأهل قد أساء إليه كثيراً، أيها الأب الرئيس: إنه لا يعترف بي كأخ! أليس هذا صحيحاً يا فون زوهن؟ هذا هو فون زوهن أمامي. مرحباً، يا فون زوهن!

- أنت... أنا الذي تشير إليه؟... تمتم الملّاك ماكسيموف مذهولاً.

- طبعاً، هو أنت! صاح فيودور إيڤانوفتش. ومَنْ غيرك؟ ليس الأب الرئيس هو الذي يمكن أن يكون فون زوهن!

- لكنني لست فون زوهن، أنا ماكسيموف؟

- لا، أنت، فون زوهن! أنت تعرف، أيها الأب المحترم، من هو فون زوهن؟ لقد قُتل في ماخور - أعتقد أن هذا هو الاسم الذي تسمّون به تلك الأماكن عندكم - قُتل، وسُلب

بالقوة، بالرغم من شيخوخته، ووُضع في صندوق ثم سُمِّر، وشُحن طرداً مسجَّلاً، من بطرسبرغ إلى موسكو، في قاطرة الشحن. وبينما هم يسمِّرون الصندوق، كانت المومسات تغني وترقص على أنغام الغوسلي[9]، أعني البيانو.

إذاً، إن فون زوهن هو هذا الفون زوهن الذي ترونه الآن أمامكم. لقد بُعثتَ من بين الأموات، يا فون زوهن؟

- لكن، ما هذا الكلام؟ كيف؟

هذا ما سمعته مجموعة الرهبان النساك.

- فلنخرج! صاح بيوتر ألكسندروفتش متوجهاً نحو كالغانوف.

- لا، اسمحوا لي! قاطعه فيودور بافلوفتش قائلاً بصوت ثاقب، وهو يتقدم خطوة أخرى إلى داخل الغرفة. اسمحوا لي أن أنهي كلامي. هناك في الزنزانة تشتموني، لأن سلوكي كان غير محترم، وبشكل أدق لأنني تكلمت عن الأسماك الصغيرة. إن بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف، قريبي المحترم، يفضل أن يكون الكلام فيه نبالة أكثر مما فيه من الصدق. وأنا أقول: إنه العكس، أفضِّل أن يكون في كلامي من الصدق أكثر مما فيه من النبالة! ألست على حقّ يا فون زوهن؟ إسمح لي، أيها الأب الرئيس، ربّما أكون مهرجاً، وإنني أقدّم نفسي هكذا. ولكنني فارس من فرسان الشرف، وأريد أن أعبِّر عن نفسي. نعم، أنا فارس من فرسان الشرف، بينما بيوتر ألكسندروفتش هذا، ليس سوى حزمةٍ من غرور متصنّع. ولا شيء آخر إذا جئت، إنما لكي ألاحظ وأقول. عندي ابن هنا، هو ألكسي، يحقق خلاصه. أنا أبوه. يهمّني مصيره. ويجب أن أهتمَّ به. كنت أستمع طوال الوقت، كنت أمثِّل، وأنظر بهدوء؛ والآن، أريد أن أعرض عليكم الفصل الأخير! أنا أعرف كيف تجري الأمور عندنا؟ ما يقع، يبقى على الأرض عندنا، إذا وقع الخطأ مرة، يبقى على الأرض قروناً وقروناً. لكن كيف ذلك؟ أنا أريد أن أنهض! آبائي المقدسون، إنكم تثيرونني. الاعتراف هو سرّ مقدس كبيرأحترمه، أنا أيضاً، وأشعر تجاهه أنني مستعد أن أسجد على الأرض، وهنا، فوراً! لكن، في تلك الغرفة، كل الناس يركعون ويعترفون بصوتٍ عالٍ. فهل مسموح الاعتراف بصوت عالٍ؟ وإن آباء الكنيسة القديسين أمروا بالاعتراف همساً في الأذن، وبهذا الشرط فقط يبقى الاعتراف سراً، وذلك منذ زمن طويل. كيف تريدون أن أقول أمام جميع الناس إنني، أنا، فعلت هذا وهذا... حسناً، هل تفهمونني؟ ليس من الحشمة القول في بعض الأحيان. لا، يا آبائي، معكم، أتصوَّر أن الجميع سيقعون في عمليات الجلد... ما سأقوم به هو ما سأكتبه في الشكوى التي سأقدّمها إلى السينودس عند أول مناسبة... وابني ألكسي، سأصطحبه إلى منزلي...

هنا، توجد ملحوظة. كان فيودور بافلوفتش يعرف أين يدقّ ناقوس الخطر. لقد حدثت، في الماضي، وشايات حقودة، وصلت حتى الأسقف (ليس في ديرنا فقط، بل أيضاً في الأديرة الأخرى حيث أقيمت مؤسسة الرهبان المرشدين). وقيل إنهم كانوا يحترمون الرهبان المرشدين بالرغم من رتبة رؤساء الأديرة. وقيل، خاصة، إن الرهبان المرشدين يسيئون استخدام سرِّ الاعتراف. وقيلت أيضاً حماقات كثيرة، في أيامهم، الخ؛ وسقطت هذه الاتهامات، تلقائياً، بعد ذلك، سقطت كما في كل مكان. لكن الشيطان تمسَّك وركب فيودور بافلوفتش وراح يهوي به، متوتر الاعصاب، إلى قعر الدناءة، لقد لقّنه هذا الاتهام القديم الذي كان فيودور بافلوفتش نفسه لا يفهم منه كلمة واحدة. على كل حال، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام، سيَّما وأنّ أحداً لم يكن قد جثا على ركبتيه في غرفة الراهب الناسك، ولا اعترف بصوت عالٍ، ومعنى هذا أن فيودور بافلوفتش غير قادر على أن يرى، وكان يقول، اذاً، ما سمعه من أقاويل قديمة. والشيطان يعرف كيف كان يتذكر؟ شعر بأنه قال كلاماً سخيفاً فأراد، فجأة، أن يبرهن للمستمعين على أنه قال كل شيء ماعدا السخف. ورغم أنه

كان يعرف أن كل كلمة يضيفها إنما تفاقم قبح كلامه وتجعله يتردَّى أكثر في الحماقة، فلم يعد قادراً على أن يتوقف على المنحدر وينطلق كما من أعالي جبل.

- يا للنذالة! صرخ بيوتر ألكسندروفتش.

- اسمح لي. قال فجأة رئيس الدير، جاء في كلام الأقدمين: «وقولوا عني أشياء كثيرة جداً، وحتى أشياء دنيئة. فلما سمعتهم، قلت لنفسي: ليس هذا سوى بلسم يسوع الذي يجب أن يشفي الكبرياء في نفسي». لهذا السبب، نشكرك بمنتهى التواضع، أيها الضيف المحبوب!

وانحنى بعمق أمام فيودور بافلوفتش.

- هراء! كذب، وجمل قديمة! جمل قديمة وحركات قديمة! فالكذبة القديمة والانحناءات الروتينية حتى الأرض، أصبحت معروفة. وداعاً، أيتها التحيات! «قبلة على الشفتين وخنجر في القلب». تماماً كما جاء في كتاب شيللر «قطّاع الطرق». أنا لا أحب الكذب، أيها الآباء، أنا أريد الحقيقة! وليست الحقيقة في أكل الأسماك الصغيرة، سبق أن قلت لكم ذلك. آبائي الرهبان، لماذا تنقطعون عن أكل اللحم والدهن؟ لماذا تتوقعون نعماً في السموات على ما تحتملونه من تقشُّف؟ أنا أيضاً مستعد، أنا من أجل نعمة كهذه، مستعد أن أصوم! لا، أيها الراهب المقدس! كن فاضلاً في الحياة، قليلاً، كن مفيداً للمجتمع بدلاً من أن تحبس نفسك في ديرك، تأكل خبزاً محمصاً، ولكي تنال، فوق ذلك، مكافأة في الحياة الآخرة! ربما هذا، يبدو لك أصعب؛ أنا أيضاً، أجيد الكلام كما يتوجب، أيها الأب الرئيس. ماذا حضَّروا هناك! تابع وهو يقترب من المائدة. خمرة معتّقة، وعسل من معمل الإخوة إليسايف. آه، أيها الآباء المقدسون، لكن هذا لا يشبه الأسماك الصغيرة، أليس كذلك؟ وهذه الزجاجات التي وضعوها لكم هناك. هه، هه، مَن الذي جلبها؟ إنه الفلاح الروسي، العامل، بيديه الخشنتين والذي يدفع إلى الدير الفلس الذي كسبه منتزعاً إياه من عائلته، ومن حاجات الدولة! لأنكم أنتم، أيها الآباء المقدسون، تمتصون دم الشعب!

- إنه لكلام معيب لا يليق بك! قال الأب يوسّيف.

أما الأب بايسي فقد أصرَّ على الصمت في عناد. وأسرع ميوسوف خارجاً من الغرفة، وتبعه كالغانوف.

جيد، آبائي، أنا أيضاً، بيوتر ألكسندروفتش! والآن، لن تطأ قدماي ديركم. بوسعكم أن تتوسَّلوا إليّ راكعين، لن تطأ قدماي أبداً! أرسلت إليكم ألف روبل، فأيقظ هذا شهوتكم، هه، هه، لا، لن أضيف إلى ذلك شيئاً. أنا أنتقم من أيام شبابي الماضية لكل الإذلال الذي لحق بي. صاح وهو يضرب الطاولة بقبضة يده، وقد عصف به عنف مقصود.

لقد كلَّفني ديركم الكثير في حياتي. جعلني أذرف كل هذه الدموع المرَّة! أهجتم عليَّ زوجتي «المولولة». لعنتموني في كل كنائسكم. وأسأتم إلى سمعتي في المنطقة كلها. هذا يكفي. أيها الرهبان! الآن، نحن نعيش في عصر الليبرالية، في عصر السفن البخارية وسكك الحديد. لا ألف روبل ولا مئة روبل ولا مئة كوبيك، لن أعطيكم شيئاً.

ملحوظة جديدة: لم يحتل ديرنا، في حياته، مكاناً، في يوم من الأيام، ولا جعله يذرف دموعاً مرَّة؛ لكنه بلغ من اندفاعه في التمثيل أنه على وشك أن يصدّق، هو نفسه، الألم الذي كان يتظاهر به، حتى لقد كاد يبكي، شفقة على نفسه مما عاناه. ومع ذلك، شعر في تلك اللحظة، أنه آن الأوان لكي يتوقف. إن الأب الرئيس، أمام هذه الأكاذيب اللئيمة، لم يردَّ عليه بل انحنى برأسه مرة جديدة وقال بصوت رصين:

- لقد قيل أيضاً: «تحمّل بصبر وفرح الإهانة التي تصيبك، ولا تضطرب أبداً، ولا تغضب من الذي أهانك». وهذا، ما سنفعله.

- وكل هذا الهراء! لكم ما تطلبون، أيها الآباء (Peccamini) هذا هو، نعم أنا ذاهب، وسآخذ ابني ألكسي من هذا المكان إلى الأبد، بحكم سلطتي (Peccaminez). الأبوية. يا إيفان فيودوروفتش، يا بنيَّ المحترم، اسمح لي أن آمرك بأن تتبعني! وأنت يا فون زوهن، لماذا تبقى هنا؟ تعال لزيارتي في المدينة، فهناك سنمرح كثيراً. ليست المسافة سوى فرسخ صغير، من هنا، وبدل زيت الكتّان سأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل. سوف نأكل. سأقدّم الكونياك ومشروبات كثيرة. عندي «ماموروكوفا»10... هيا! فون زوهن! لا تضيِّع هذه المناسبة!

وخرج صارخاً وهو يحرّك يديه. وفي تلك اللحظة، لمحت راكيتين منصرفاً، ودلَّ عليه أليوشا.

- ألكسي! صاح أبوه، من بعيد، حين رآه. اليوم، ستسكن في بيتي. خذ وسادتك وفراشك، واختفِ عن هذا المكان نهائياً!

توقف ألكسي مذهولاً، يراقب المشهد بانتباه وبدون كلام. كان فيودور بافلوفتش قد اتخذ مكانه في عربته يتبعه إيفان فيودوروفتش مغموماً وصامتاً، حتى أنه لم يتسنَّ له الوقت لكي يلتفت يعود ويودّع أليوشا. وهنا، وقع مشهد جديد من التهريج لا يُصدَّق، زاد الأمور تفاقماً. فقد ظهر فجأة الملّاك ماكسيموف على مصعد العربة. كان يركض لاهثاً لكي لا يصل متأخراً. كان راكيتين وأليوشا قد رأياه يركض. كان مستعجلاً بحيث وضع قدمه على مصعد العربة بينما كانت قدم إيفان فيودوروفتش ما تزال عليها، وتمسَّك بهيكل العربة يريد أن يقفز إلى داخلها.

- أنا أيضاً، أنا أيضاً سأرحل معكم! صاح وهو يقفز إلى العربة مطلقاً ضحكة صغيرة مرحة وقد أشرق وجهه، وبدا عليه أنه مستعدّ لكل شيء: أنا أيضاً، خذوني معكم!

- أما قلتَ إنه؟ صاح فيودور بافلوفتش بحماسة. إنه فون زوهن! فون زوهن الحقيقي قام من بين الأموات! كيف استطعت أن تهرب من هناك؟ كيف استطعت أن تخدعهم، وكيف استطعت أن تترك المائدة؟ يجب أن يكون المرء عنيداً لكي يفعل هذا: أنا، عنيد. لكنك أنت تدهشني! اقفز، اقفز بسرعة! دعه يمرّ يا فانيا، سوف نمرح كثيراً. فليتمدّد، لست أدري أين، عند أقدامنا. هل تتمدّد يا فون زوهن؟ أم أنك تتسلق مقعد الحوذي؟... هيّا، اقفز، فون زوهن!

لكن إيفان فيودورفتش الذي كان قد استقرّ، فجأة، في العربة، دون كلام، دفع ماكسيموف بكل قواه، وضربه على صدره بقوة، فأبعده مسافة مترين. ومن الصدفة أنه لم يقع.

- امشِ! صاح إيفان فيودوروفتش يأمر الحوذي بخبث.

- ماذا دهاك؟ لماذا ضربته؟ سأله فيودور بافلوفتش. لكن العربة كانت قد تحركت. ولم يجب إيفان فيودوروفتش بشيء.

- وأنت! أضاف فيودور بافلوفتش وهو يختلس النظر إلى ابنه، بعد دقيقتين من الصمت. أنت الذي فكَّرت في هذه الزيارة، إلى هذا الدير، ودفعتني إليها، وشجعتني، فلماذا تغضب الآن؟

- توقّف عن سخافاتك، وكن مرتاحاً! قاطعه إيفان فيودوروفتش بصوت قاسٍ. لم يبقَ لنا سوى لحظة.

سكت فيودور بافلوفتش مجدداً، دقيقتين أو ثلاثاً.

- قليل من الكونياك، لا بأس به. قال بلهجة وقورة.

لكن إيفان فيودوروفتش لم يجب.

وصلنا، وأنت أيضاً، ستشرب معي.

وبقي إيفان فيودوروفتش ساكتاً.

- أما أليوشا، فلا بأس، سأخرجه من الدير، رغم أن هذا لن يعجبك، أيها الابن المطيع، كارل فون مور.

هزَّ إيفان فيودوروفتش كتفيه باحتقار ثم استدار، وراح ينظر إلى الطريق. وبعد ذلك، لم يتفوَّها بكلمة واحدة إلى أن وصلا إلى المنزل.

الكتاب الثالث

الشهوانيون

I

بين عامّة الناس

ينتصب منزل فيودور بافلوفتش بعيداً حتى عن وسط المدينة ولكن ليس على حدودها تماماً. كان منزلاً قديماً، لكنه حسن المظهر: طابق على مستوى واحد مع ميزانين، مطلي باللون الرمادي، يغطيه سقف من صفيح أحمر. ومع ذلك، بإمكانه أن يصمد مدة طويلة. كان فسيحاً ومريحاً، في داخله غرف ضيقة معتمة، وكل أنواع المخابىء، وسلالم صغيرة في أكثر من مكان. فيه أيضاً جرذان كثيرة، لكن فيودور بافلوفتش لا يزعجه وجودها أبداً: «مع ذلك، لا يحسّ المرء بالوحشة كثيراً، خلال الليل، عندما يكون وحيداً». ذلك أنه، في الواقع، قد اعتاد أن يصرف خدمه ليقضوا الليل في مبنى الجناح الملحق به، وهو يحبس نفسه في المنزل وحيداً طوال الليل. وكان ذلك المبنى الملحق الذي يقع في الفناء، فسيحاً ومتيناً. هناك أيضاً، كان فيودور بافلوفتش قد أقام مطبخه الخاص، مع أن في المنزل مطبخاً. كان لا يحب روائح المطبخ، فكان يؤتى اليه بالطعام عبر الفناء في الصيف كما في الشتاء. وبشكل عام، بُني المنزل لكي يحوي عائلة كبيرة العدد: من السادة كما من الخدم. يمكن أن يقيم فيه خمسة أضعاف العدد المقيم حالياً. وأثناء حدوث قصتنا لم يكن يسكن المنزل إلا فيودور بافلوفتش وإيفان فيودوروفتش، وفي جناح الخدم يسكن ثلاثة أشخاص: غريغوري العجوز وزوجته العجوز مارفا والخادم سميردياكوف، وهو لا يزال شاباً، يجدر الحديث عن بعض التفاصيل المتعلقة بهؤلاء الخدم الثلاثة. لقد سبق أن تحدثنا كثيراً عن العجوز غريغوري فاسيليفتش كوتوزوف. كان رجلاً قوياً وعنيداً، يمضي في عناد، وبخطّ مستقيم نحو هدفه، إذا كان هذا الهدف حقيقة راسخة. بشكل عام، كان رجلاً شريفاً ونزيهاً. لقد ألحّت عليه زوجته مارفا إينياتيفنا، وقد كانت طوال حياتها خاضعة لإرادة زوجها، ولاسيما بعد تحرير الفلاحين، بأن يترك فيودور بافلوفتش ويذهب إلى موسكو، ويفتح هناك دكاناً صغيراً (كانا قد جمعا قليلاً من المال). لكن غريغوري، شعر، فوراً، أن زوجته تتحدَّث عن تفاهات، لأن «كل النساء غير شريفات»، وينبغي لهما ألّا يتركا سيدهما القديم، على الرغم من كل ما يمكن أن يكون «لأن ذلك هو الواجب الذي يقع على عاتقهما الآن».

- هل تعرفين ما هو الواجب؟ سأل زوجته مارفا إينياتيفنا.

- أعرف ما هو الواجب، يا غريغوري فاسيليفتش، ولكن، ما هو الواجب الذي يجبرنا على البقاء هنا، هذا، ما لا أفهمه. أجابته مارفا بجزم.

- عجباً! أفهمتِ أم لا، هكذا سيكون، والآن، اسكتي!

وهكذا كان: لم يذهبا! وفيودور بافلوفتش حدَّد لهما أجراً، ليس بالمرتفع طبعاً، لكنه، كان يدفعه لهما بدون تأخير. كان غريغوري يعرف، بالإضافة إلى ذلك، أنّ له على سيّده تأثيراً لا نقاش فيه. كان يشعر بذلك، وهو على حق: إن فيودور بافلوفتش المهرّج، والماكر، والعنيد الذي يتمتع بطبعٍ قاسٍ في «بعض شؤون الحياة»، حسب تعبيره، كان ضعيفاً جداً في «شؤون أخرى من شؤون الحياة». وكان يعرفها جيداً، يعرف ذلك؛ وكان يخشاها. وكانت أذناه بالمرصاد «في بعض شؤون الحياة»، وذلك صعب جداً، إذا كان لا يستطيع الاعتماد

على شخص يثق به. وكان غريغوري الرجل الأجدر بالثقة في العالم كله. كان يمكن لفيودور بافلوفتش، مراراً، أثناء حياته، أن يُضرب، وأن يُضرب بأذى شديد، ولكن غريغوري كان ينقذه دائماً، ويتلقى، في كل مرة، النصح بخطاب مستفيض. لكن لم تكن الضربات وحدها تخيف فيودور بافلوفتش. لكن ثمة حالات قصوى، لا بل حالات دقيقة ومعقدة، كان فيودور بافلوفتش نفسه لا يمكنه تفسيرها وتحديد الحاجة غير العادية التي تبرهن على أن رجلاً مخلصاً وقريباً يقف إلى جانبه. تلك، كانت دائماً حالات شبه مرضيَّة: وهو الفاجر إلى أقصى الحدود، وهو الرجل القاسي في شهوانيته قسوة حشرة مؤذية. كان فيودور بافلوفتش يشعر في بعض لحظات السكر بنوع من خوف نفسيّ، وصدمة أخلاقية، يرهقانه جسدياً في أعماق نفسه. «أشعر بروحي، في تلك الحالات، أنها تندفع خارجةً من أحشائي». كان يقول أحياناً. ففي الحالات تلك، كان يودّ أن يوجد إلى جانبه، ليس بعيداً، ربّما في الغرفة نفسها، لكن في المبنى الملحق، رجل حازم ومخلص، لا يشبهه أبداً، لا يعرف الفجور، ورغم معرفته بأنواع تهتّكه، واطلاعه على أسراره، يسامحه من باب الإخلاص، ولا يعارضه، ولا يلومه عليها بشكل خاص، ولا يهدّده بعقوبات مقبلة لا في هذه الحياة ولا في الآخرة. ويستطيع أن يدافع عنه عند الحاجة - ممَّن؟ من امرئ مجهول ولكنه رهيب وخطر. وكان المهمّ عنده، أن يكون بالقرب منه رجل «آخر»، حاضر، رجل صديق قديم، يمكن أن يناديه، في لحظة من ألمٍ، لينظر إلى وجهه فقط، وربّما ليقول كلمة لا علاقة لها بأيّ موضوع: وهذا ممكن إن لم يكن غاضباً، وإذا كان غاضباً يشعر بمزيد من الحزن. وقد حدث لفيودور بافلوفتش (وإن نادراً جداً) أن يذهب إلى غريغوري في المبنى الملحق، أثناء الليل، فيوقظه من نومه ليطلب إليه أن يتبعه لحظة صغيرة. وكان غريغوري يجيء إليه، ويبدأ سيّده بالحديث عن تفاهات سخيفة، وأحياناً بتهكم ومزاح، ثم ينام نوماً هادئاً. لقد مرَّ فيودور بافلوفتش بشيء من هذا النوع، لدى وصول أليوشا. وأليوشا «طعن قلبه» لأنه «يعيش هنا، يرى كل شيء ولا يدين شيئاً». وفوق ذلك، حمل إليه شيئاً خارقاً جداً - غياباً كاملاً للاحتقار تجاهه، وحناناً دائماً، وتعلُّقاً طبيعياً لا افتعال فيه، ويستحقه. وهذا كله، كان بالنسبة إلى العجوز المتهتك المعادي للحياة العائلية، مفاجأةً إلهية غير متوقعة، بالنسبة إليه هو الذي لم يعشق إلا الفجور. وقد اعترف لنفسه، بعد رحيل أليوشا، بأنه عرف في ذاته أشياء لم يرد أن يفهمها أبداً.

سبق أن ذكرت في بداية قصتي إلى أي حدّ كان غريغوري يكره أديلاييدا إيفانوفنا، زوجة فيودور بافلوفتش الأولى، أمّ ابنه الأول ديمتري فيودوروفتش، وإلى أيّ حدّ، بالمقابل، كان يدافع عن زوجته الثانية «المَولولة»، صوفيا إيفانوفنا، ضدَّ سيّده بالذات، وكل من يمكن أن يفكر بالقول في حقّها كلمة سوء ولو عن طيش. وقد تحوَّلت هذه المودة في نفسه إلى فعل مقدس، بلغت من القوة أنه أصبح، حتى بعد عشرين عاماً، لا يستطيع أن يتحمل من أيّ إنسانٍ، أيّ إشارة تسيء إليها. وإن فعل يهاجمه على الفور، وكان غريغوري، في المظهر، رجلاً هادئاً ووقوراً، قليل الكلام، لا يتكلم إلا عن دراية، شاعراً بوزن كل كلمة. وتماماً بالشكل نفسه، كان من المستحيل أن تقرّر من النظرة الأولى، إذا كان يحب زوجته الخاضعة الطيعة أم لا. وفي الواقع، كان يحبّها فعلاً، وكانت هي تعرف ذلك. كانت مارفا إينياتيفنا هذه، ليست غبية ولعلّها كانت أشد ذكاء من زوجها، وأصدق منه، في شؤون الحياة اليومية، ومع ذلك، خضعت له دون أن تنبس بكلمة، ودون أن تناقشه منذ زواجهما، وكانت تحترمه، بدون أي شك، لتفوُّقه الروحي. ومن الملاحظ، أن الاثنين، طوال حياتهما، قليلاً ما كانا يتبادلان الكلام إلا بالأمور الضرورية، وهي أمور يومية. وكان غريغوري الوقور والمهيب يفكر في شؤونه ومشاغله وحده. وقد بلغ من هذا أن مارفا إينياتيفنا، عرفت نهائياً أنه ليس بحاجة إلى نصائحها. وكانت تشعر أنّ زوجها يقدِّر لها سكوتها، ويرى فيه دليلاً على ذكائها. أن يضربها. لم يضربها أبداً، إلا مرة واحدة - ولم يكن ضرباً عنيفاً على كل حال. وإليكم كيف؟ في السنة الأولى من زواج فيودور بافلوفتش بأديلاييدا إيفانوفنا، وذات يوم، في القرية، لم يكن نساؤها وبناتها قد تحرّرن من العبودية في ذلك الوقت، اجتمعن عند أسيادهن ليرقصنَ ويغنّين. وبينما كانت أولئك الفلاحات يغنين أغنية «في المروج...» إذا بمارفا إينياتيفنا، التي

كانت لا تزال في ريعان الشباب، تندفع فجأة إلى أمام جوقة المغنيات، وانطلقت في رقصة روسية لها وقع خاص، ليس كما يرقصن في الريف، مثل سائر الفلاحات، وإنما رقصت كما كانت ترقص عندما كانت خادمة في منزل آل ميوسوف الأثرياء، على المسرح الخاص بتلك العائلة التي استدعت له، من موسكو، أستاذاً للرقص ليعلّم الممثلين. رأى غريغوري خطوات رقص زوجته، ولدى عودتهما إلى البيت، بعد ساعة، أدّبها بشدِّها من شعرها. لكن الضربات توقفت هنا نهائياً، ولم تتكرر مرة أخرى في حياتهما. ثم إن مارفا إينياتيفنا قد توقفت، منذ ذلك الوقت، عن حبّها للرقص.

لم يرزقهما الله أولاداً؛ أنجبا طفلاً، لكنه مات. كان غريغوري يحبّ الأطفال، حتى إنه لا يخفي هذا الحب. أي إنه كان لا يخجل بالمجاهرة بذلك. عندما هربت أديلاييدا إيفانوفنا، احتضن ديمتري فيودوروفتش الطفل الصغير، وهو في الثالثة من عمره، وراح يهتم به سنة كاملة تقريباً، يمشّط شعره، ويغسل جسمه في الدلو. ثم اهتمّ بإيفان فيودوروفتش ثم بأليوشا، مما جعله يتلقّى صفعة. لكن سبق أن تحدثت عن ذلك. أما ولده، فلم يفرح به إلا بالأمل عندما كانت مارفا إينياتيفنا لا تزال حاملاً؛ ويوم ولد الطفل امتلأ قلب أبيه حزناً وهولاً. ذلك أن الطفل قد جاء إلى هذا العالم، بست أصابع. وعندما اكتشف ذلك، صُعق غريغوري إلى درجة أنه لم ينبس بكلمة إلى حين المعمودية، وكان ينزوي في الحديقة غارقاً في الصمت. كان ذلك في فصل الربيع، وخلال ثلاثة أسابيع متتالية، غرقَ في بستان الخضار. وفي اليوم الثالث كان يجب تعميد الطفل. في هذا الوقت، نضجت الفكرة في رأسه. دخل إلى مسكن الخدم حيث اجتمع الكهنة مع المدعوين. وأخيراً، جاء فيودور بافلوفتش شخصياً ليكون عراباً للصبي، وقال فجأة، من الأفضل ألّا يُعمَّد الطفل. لم يقل ذلك بصوت عالٍ ولم يسترسل في الكلام، وإنما قاله وهو لا يكاد ينطق بكلماته واضحة، وهو يحدج الكاهن بنظرة حادة عنيدة.

- لماذا هذا؟ سأل الكاهن بدهشة فرحة.

- لأنه... تنّين! تمتم غريغوري.

- تنِّين؟ كيف ذلك، تنّين؟

- حدث اختلاط في الطبيعة... غمغم بشكل غامض جداً ولكن بصوت صارم يوحي بأنه لا يريد أن يسهب في الشرح أكثر من ذلك.

ضحك الحاضرون قليلاً، وجرى تعميد الطفل المسكين ببساطة. صلَّى غريغوري بورع أمام جرن المعمودية، لكنه لم يبدّل رأيه في الوليد. لم يخلق أيّ صعوبة، وخلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل المريض، لم ينظر إليه أبداً. رفض أن يراه. وكان يقضي معظم وقته خارج منزله الخشبي. ولكن بعد أسبوعين، مات الطفل بمرض القُلاع، وهو نفسه من وضعه في تابوته الصغير، وتأمله طويلاً بحزن عميق. عندما أُهيل التراب على القبر الصغير جثا على ركبتيه وانحنى حتى الأرض أمام القبر. ومنذ ذلك اليوم، وخلال سنوات طويلة، لم يقل شيئاً عن ابنه. كما أن مارفا إينياتيفنا، هي أيضاً، لم تذكر أبداً طفلها. وإذا صودف أن تحدثت، مع هذه أو تلك، فذلك همساً، حتى في غياب غريغوري فاسيليفتش. وقد لاحظت مارفا إينياتيفنا، أنه منذ اللحظة المحددة، لهذه المقبرة الصغيرة، بدأ غريغوري يهتمّ، بشكل أساسي بالـ«شؤون الإلهية»، ويقرأ سِير حياة القديسين صامتاً منعزلاً، واضعاً على عينيه، في كل مرة، نظارتيه المدوَّرتين الكبيرتين المؤطرتين بالفضة. نادراً ما كان يقرأ بصوت عالٍ، إلا في أيام الصوم الكبير. وكان يحبّ قراءة «سفر أيوب» خاصة، كما حصل، والله أعلم من أين، على كتاب يحوي أفكاراً ومواعظ لـ «أبينا الناسك اسحاق السوري». كان يقرأ هذا الكتاب بإصرار، سنةً بعد سنة، دون أن يفهم منه شيئاً بطبيعة الحال، ولكن هذا

بالذات، هو ما جعله يتمسّك بهذا الكتاب أكثر. وفي الآونة الأخيرة، بدأ يستمع ويدرس آراء المتسوِّطين[11]، وقد التقى بعدد مهم في الجوار، فتأثر بهم بشكل واضح، ولكنه وجد من غير المستحسن الاعتقاد بإيمان جديد، وأن قراءاته «الشؤون الدينية» قد أضفت على وجهه طابعاً أكثر وقاراً.

ربّما كان لدى غريغوري ذا ميول صوفية. لكن هنا، وهذا صدفة، فإنّ حادثة ولادة وموت طفله ذي الأصابع الست تزامنت مع حادثة أخرى أكثر غرابة وغير متوقّعة أكثر مما هي طريفة، تركت في نفسه، كما قال ذات مرة، «أثراً لا يُمحى»: حدث أنه في اليوم عينه الذي دُفن فيه الطفل ذو الأصابع الست أنّ مارفا إينياتيفنا استيقظت ليلاً وسمعت ما يشبه بكاء مولود جديد. خافت فأيقظت زوجها. وهو، أصاخ السمع، فقال إن الأصوات التي يسمعها هي أصوات أنين «شبيه بأنين امرأة». نهض وارتدى ثيابه. كانت ليلة من ليالي شهر أيار الحارة. خرج إلى درج المدخل، فأدرك بوضوح أنّ الأنين صادر من جهة الحديقة. لكن الحديقة كانت مقفلة في الليل، من جهة الفناء، وما من وسيلة للدخول إليها إلا من هذا الممرّ لأنها محاطة بسياج مرتفع متين. عاد إلى منزله فأشعل سراجاً، وأخذ المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينبس بكلمة، غير عابىء بخوف زوجته الهستيري التي أصرَّت على أنها تسمع، بشكل واضح، بكاء طفل وليد، وأن هذا الصوت لا يمكن أن يكون إلا صوت طفلها يبكي في الحديقة ويناديها. ذهب غريغوري إلى الحديقة، بدون كلام، وأدرك، هناك، بوضوح، أن الأنين يصدر من الحمّامات الصغيرة المبنيَّة في الحديقة ليس بعيداً من الباب الحديدي، وأنه، في الواقع، أنين امرأة ما. وعندما فتح باب الحمامات، رأى منظراً جعله يتجمّد في مكانه: إن معتوهة مدينتنا التي تجوب الشوارع والتي يعرفها سكان مدينتنا تحت لقب إليزابيت الكريهة، قد تسللت إلى الحمّامات وأنجبت هناك طفلاً. وكان الطفل ينام قربها، وهي تحتضر بالقرب منه. لم تقل المرأة شيئاً لأنها لم تكن تجيد الكلام. ولكن من الأفضل شرح هذا الحدث على حدة.

II

ليزافيتا البشعة

ثمة حالة خاصة قد أقلقت غريغوري، بعمق، معززة فيه، بشكل نهائي، شكّاً مزعجاً ومنفّراً قد ألمّ به. كانت ليزافيتا الكريهة بنتاً قصيرة القامة جداً «لا يزيد طولها على خمس أقدام»، كما يقولون متذكرين إياها بتأثر عجائز مدينتنا الصغيرة، التقيات الصغيرات، بعد موتها. كان وجهها، وهي في العشرين من عمرها معافىً عريضاً ومحمرّاً كوجه فتاة بلهاء. أما نظرتها فكانت جامدة ومزعجة بدون عنف. تتجوّل دائماً حافية القدمين، في الشتاء كما في الصيف، ولا ترتدي إلّا قميصاً من قنّب. كان شعرها الأسود تقريباً كثيفاً جداً وجعداً يشبه صوف الخروف، يتكوَّم على رأسها كأنه «قبعة» ضخمة؛ بالإضافة إلى ذلك، فهو ملطخ دائماً بالوحل وبالتراب، وتتبعثر فيه أوراق الأشجار والعضيات والنشارات لأنها كانت تنام دائماً على الأرض وفي الوحول. كان والدها إيليا متسكعاً مدمَّراً مريضاً مدمناً الشراب، ويعيش، منذ بضع سنوات، عاملاً لدى أسياد أثرياء هم أيضاً حرفيون من مدينتنا. أما والدة ليزافيتا فقد قضت نحبها منذ زمن طويل. كان إيليا، وهو المريض الغاضب، يضرب ليزافيتا، بشكل غير بشري، بدون شفقة عندما كانت تدخل إلى المنزل. ونادراً ما كانت تجيء إلى منزلها، لأنها كانت تكسب قوتها من كل سكان مدينتنا الذين يعتبرونها «مجنونة بالمسيح». وقد حاول، أكثر من مرَّة، أسياد إيليا، وإيليا هو أيضاً، وعدد لا بأس به من المواطنين المحسنين في مدينتنا، ومن بينهم تجار، وخاصة أولئك النساء اللواتي يعملن في التجارة، أن يلبسوا ليزافيتا ثياباً محتشمة غير هذا القميص الوحيد، فكانوا يعطونها، لفصل الشتاء، ثوباً من جلد خروف كما يعطونها حذاءين، وهي، بشكل عام، تتركهم يفعلون ذلك بدون أن تحتج وتذهب، وهنا أو هناك، تبتعد عنهم وتذهب إلى فناء الكاتدرائية فتخلع عنها كلّ ما قدِّم لها: المنديل والتنورة والمعطف والحذاءين - وتترك كلّ شيء هناك وتمضي حافية القدمين، كما في السابق، وبالقميص فقط. وحدث ذات مرة، أن حاكم مقاطعتنا الجديد زار مدينتنا الصغيرة في جولة تفتيشية، وعندما رأى ليزافيتا، صدمَ منظرها أصدق عواطفه، ورغم أنه عرف أنها «ساذجة من القرية»، وقد قيل له ذلك فوراً، أصرَّ على أن امرأة شابة تهيم على الطرقات بقميص شيء يسيء إلى الاحتشام، ويجب وضع حدّ لهذا التصرف. لكن الحاكم انصرف ولم تهتمّ ليزافيتا بالأمر. ومات أخيراً أبوها، فأصبحت عزيزةً أكثر على كل القلوب المحبّة في المدينة كونها أصبحت يتيمة. وفي الواقع، كانت وكأنّ كل الناس يحبّونها، حتى الصِّبْية كفُّوا عن السخرية منها وتركوها وشأنها، مع أن الصِّبْية المراهقين في مدينتنا، وخاصة تلامذة المدارس، يتوجب أحياناً ردعهم. كانت ليزافيتا تدخل بيوت أناس لا تعرفهم وما من أحد يطردها. بالعكس: كان الجميع يعاملونها بلطف، ويعطونها فلسها فتذهب فوراً إلى مكان ما، وتضعه في صندوق إما للكنيسة وإما للسجن. وإذا أعطوها، في السوق، قطعة بسكويت تعطيها لأول طفل تصادفه، أو تستوقف إحدى سيداتنا الأكثر ثراءً، وتعطيها البسكويت وتقبله السيدات منها بفرح. بالنسبة إليها، كانت لا تتغذّى إلا بخبز أسود وبماء. كانت تدخل إلى متجر كبير، فيه كل شيء، فتجلس فيه وهو مليء بسلع ثمينة ومال، ولا يشك أصحاب المتاجر فيها أبداً. لأنهم يعرفون لو أنهم نسوا، تحت عينيها، ألوف الروبلات فلن تأخذ منها كوبيكاً واحداً. نادراً ما كانت تدخل إلى الكنائس، كانت تنام في أروقة الكنائس أو تجتاز سياجاً لبستان خضار، لهذا الشخص أو ذاك، (توجد في مقاطعتنا حتى اليوم أسيجة كثيرة

بدل الحواجز). وإلى منزلها، - يعني منازل السادة الذين أقام عندهم أبوها المتوفى - تذهب مرة في الأسبوع تقريباً. في فصل الشتاء، تذهب في كل الأيام ولكن لقضاء الليل فقط. فتقضي الليل إما في المدخل أو في الإسطبل. كان الجميع يندهشون أنها تستطيع تحمُّل مثل هذه الحياة، لكنها اعتادتها. ورغم أنها قصيرة القامة جداً لكنها ذات بنية متينة بشكل لا يصدَّق. ويؤكد بعض السادة عندنا أنها تقوم بكل هذا ليس عن تكبّر، ولكن، لست أدري، فهذا التفسير لا يصدَّق؛ لم تكن تستطيع أن تلفظ كلمة، فهي تحرِّك شفتيها، من حين إلى آخر، (وتصرخ، (تتحدثون عن كبرياء... حدث ذلك مرة ومنذ زمن بعيد.

في ليلة مضيئة ودافئة من شهر أيلول/ سبتمبر، ليلة قمرها بدر، وفي ساعة متأخرة بالنسبة إلى عاداتنا المحلية، كانت زمرة مخمورة من سادتنا السكارى تعود مجتازة أفنية الدور وبساتين المنازل، وكان عددهم خمسة رجال أشدّاء أو ستة، دخلوا النادي من «الفناء الخلفي»، وكان جانبا الشارع الصغير محاطين بسياج تمتد وراءه بساتين الخضار في المنازل المطلّة على الشارع الذي يوصل إلى جسر ممدود عرضاً على المستنقع الآسن الذي يسميه الناس عندنا نهراً. فاكتشفت الزمرة ليزافيتا، فجأة، وهي نائمة بين نباتات القراص والزؤان. توقف السادة السكارى أمامها ضاحكين في قهقهات مدوّية، وراحوا يطلقون كل أشكال المزاح الفاحش. وخطرت ببال شاب مخنث فكرة غريبة حول موضوع مستحيل: «هل يستطيع أحد، حتى أسوأ السيّئين، أن يرى في مثل هذه البهيمة امرأةً، في هذه اللحظة بالذات؟» فأجاب الجميع باشمئزاز متكبِّر أن لا. ولكن في هذه الزمرة، كان فيودور بافلوفتش. فتقدم في الحال وقال: نعم، يمكن اعتبارها امرأة، وامرأة كاملة، بل قد يكون في ذلك الكثير من الإثارة الخاصة، الخ. وفي تلك اللحظة، يجب أن نذكر أنه كان يحاول بشكل ملحّ لعب دور المهرّج، ويسعى أن يسطع نجمه، وأن يسلّي السادة، ويضحكهم، بالمساواة بينه وبينهم، في الظاهر طبعاً، ولكن بإظهار نفسه مهرّجاً حقيقياً. حدث ذلك في الفترة التي تلقى فيها من بطرسبرغ، نبأ موت زوجته الأولى، أديلاييدا إيفانوفنا، وقد وشَّح قبَّعته بشريط أسود، وأخذ يستسلم للسكر ويرتكب الفجور ممّا أثار الاشمئزاز في نفوس الكثيرين من أبناء المدينة، حتى الذين أكثرهم فجوراً، وراحت الزمرة تضحك لهذا الرأي غير المتوقع. وقد مضى أحدهم إلى حدّ محاولة تشجيع فيودور بافلوفتش على أن يفعل ذلك. أما الآخرون فاشمأزوا بشدة، ودائماً بمرح أكثر، وأخيراً، تابع الجميع طريقهم. وقد أكدّ فيودور بافلوفتش، فيما بعد، أنه ذهب مع كل الآخرين. ربما كان صحيحاً ما قاله، فما من أحدٍ يمكنه معرفة حقيقة الأمر، ولن يعرفها أحد أبداً. لكن، بعد خمسة أشهر أو ستة، بدأ الكلام في المدينة، باستنكار شديد، وهو أن ليزافيتا حبلى، وبدأت التساؤلات وطرح الأسئلة: «غلطة من هي؟ من هو المغتصب؟» هنا، انتشرت في كل المدينة إشاعة غريبة جداً تقول إن المغتصب هو فيودور بافلوفتش الذائع الصيت. من أين انبثقت هذه الإشاعة؟ من كل زمرة السادة السكارى لم يبقَ في مدينتنا إلا واحد، رجل مسنّ، محترم، مستشار دولة، له عائلة وبنات صبايا. ومهما قيل، فهو لم يروِ شيئاً حتى ولو كان يعرف ما حدث. أما المتواطئون الآخرون، وهم خمسة رجال أو ستة، فتواروا عن المدينة. لكن الإشاعة حدّدت بدقة فيودور بافلوفتش، واستمرت في اتهامه. وهذا الأخير، طبعاً، لم يتأثر كثيراً من ذلك. وامتنع عن الجواب عن أسئلة: الباعة والحرفيين. في تلك الفترة، كان مزهواً، لا يتحدَّث إلّا مع أنداده من الموظفين والنبلاء الذين كان يضحكهم كثيراً. أما غريغوري فقد دافع عن سيّده، في ذلك الوقت، ودافع بكل قواه. ولم يكن يدافع عنه فقط ضد كل تلك الوشايات بل يدخل، من أجله، في مناقشات ونزاعات، وقد نجح في إقناع الكثيرين. وكان يقول بلهجة جازمة: «إنها قاطع الطرق». (karp-à-la-Vis) «هي السافلة، هي المذنبة، ولم يكن المغتصب إلّا «كارب (هكذا كان يُسمَّى سجين سابق، ومجرم معروف في كل المدينة، هرب من سجن المقاطعة واختبأ في مدينتنا). بدت هذه الفكرة مقبولة، فتذكّر الناس كارب، وتذكروا، بدقة، أنه في تلك الليالي عينها في أوائل الخريف، تجوَّل في المدينة وسلب بالقوة ثلاثة أشخاص. لكن هذه الحادثة وكل تلك النقاشات، لم تحرم «ساذجة القرية» المسكينة من عطف الناس عليها.

بالعكس: صار الجميع يهتمون بها ويرعونها أيضاً. حتى إن التاجرة كوندراتيفا، وهي أرملة ثرية، قررت في نهاية شهر نيسان/ أبريل أن تأوي ليزافيتا في منزلها وأن تحتفظ بها إلى حين الولادة. لقد روقبت ليلاً نهاراً، ولكنها رغم كل هذه المراقبة استطاعت ليزافيتا في آخر يوم، أن تهرب «مساءً، من منزل السيدة سرّاً لتوجد في حديقة فيودور بافلوفتش. فكيف تمكنت وهي الحامل، أن تجتاز الحاجز المرتفع المتين للحديقة، فذلك بقي نوعاً من السرّ؟ يزعم بعضهم أن أناساً نقلوها إلى هناك، والبعض الآخر يقول إن قوة خفيَّة قد أوصلتها. والأرجح أن كل ذلك جرى بشكل طبيعي تماماً، ولكن بمهارة فائقة، فليزافيتا التي كانت تعرف تسلُّق الأسوار للوصول إلى بساتين الخضار، لكي تقضي الليل، لا بدَّ أنها تسلقت سور حديقة فيودور بافلوفتش، بشكل أو بآخر، ثم قفزت من أعلاه إلى الحديقة رغم حملها فتأذت بذلك طبعاً. أسرع غريغوري إلى مارفا إينياتيفنا وأرسلها لمساعدة ليزافيتا، بينما ركض هو يفتش عن قابلة عجوز، زوجة حرفيّ، تسكن في الجوار. لقد أُنقذ الطفل. لكن ليزافيتا قضت نحبها عند الفجر. فأخذ غريغوري الطفل وحمله إلى منزله، وأجلس زوجته ووضع الطفل على ركبتيها في مستوى صدرها: «ابن الله، يتيم - والداه، هما كل الناس، ونحن، أنا وأنتِ بشكل خاص. فصغيرنا المتوفى هو الذي أرسله الينا! وهذا الطفل وُلد من شيطان وأمّ قديسة، فأطعميه، ولا تبكي أبداً». وهكذا اعتنت مارفا إينياتيفنا بتربية الطفل الصغير. وجرى تعميده، وسُمّي بافل، أما الاسم الأبوي الذي كان يجب من الطبيعي أن يُسمّى به فهو فيودوروفتش. لم يعترض فيودور بافلوفتش، على أيّ شيء، وقد وجد الأمر طريفاً جداً ولكنه استمرَّ ينكر، بكل قواه، أنه هو الفاعل. وقد رحّبت المدينة بأنه تبنّى الطفل اللقيط. وارتأى فيودور بافلوفتش، فيما بعد، أن يسمَّى الطفل باسم عائلة، فأعطاه اسم سمردياكوف تيمناً باسم والدته ليزافيتا البشعة (سمردياستشايا).

اذاً، هذا هو سمردياكوف هو الذي أصبح الخادم الثاني لفيودور بافلوفتش، وكان يقيم في بداية قصتنا في المبنى الملحق مع العجوزين غريغوري ومارفا. واستُخدم طباخاً. يجب عليّ، في الواقع، أن أضيف أشياء خاصة به، لكنني أشعر بوخز في ضميري إذا أنا صرفت انتباه القارىء إلى الحديث عن خدمٍ عاديين، فها أنا أعود إلى قصتي آملاً أن يسمح لي السير الطبيعي لروايتي أن أعود إلى هذا الموضوع.

III

اعتراف قلب مضطرم، شعراً

إنّ أليوشا الذي سمع أمر والده يصرخ فيه، من عربته، بقي بعض الوقت مسمَّراً في مكانه وقد صعقته حيرة عظيمة. لا يمكن القول إنه بقي جامداً كعمود، هذا ما لم يحدث له أبداً. بالعكس، والبرغم من كل قلقه، تسنَّى له أن يذهب فوراً إلى مطبخ رئيس الدير ليستعلم عما قام به والده في الطابق العلوي. ثم انطلق في طريقه إلى المدينة آملاً أن يحلَّ، بشكل أو بآخر، اللغز الذي يتآكله. سأقول ذلك مسبقاً: إن صراخ والده وأمره بالإقامة في المنزل «مع مخدَّته وفراشه»، لم يُخفه إطلاقاً. فقد أدرك أن هذا الأمر بالرجوع إلى المنزل، الذي أطلقه والده بصوت مرتفع وبصراخ متصنِّع، إنما هو «بسبب التأثر» بل هو رغبة في التمثيل، كما حدث منذ فترة وجيزة عندما احتفل بورجوازي صغير في مدينتنا بعيد مولده، وأمام جميع المدعوين، غضب فجأة لأنه لم يُزد له من الفودكا، وقد كان في حالة سكر، فبدأ بتكسير الأطباق، ومزَّق ثيابه وثياب زوجته وحطّم كل الأثاث، وأخيراً، أخذ يحطم زجاج نوافذ المنزل، وكل ذلك في سبيل التمثيل. كان شيئاً من هذا النوع ما حصل لوالده بالتأكيد. وفي الغد، طبعاً، صحا البورجوازي الصغير من سكره وبكى على أطباقه وكؤوسه المحطمة. كان أليوشا يعرف أن العجوز سيسمح له في اليوم التالي، بدون شك، بأن يعود إلى الدير، وربما عند المساء. كان واثقاً كلياً بأنّ والده يمكن أن يسيء إلى أيّ كان، ما عداه. وكان أليوشا على ثقة بأن ليس هناك أحد في العالم يمكن أو يريد أن يحزنه، وما من أحد يمكنه ذلك ولو أراد. تلك كانت بالنسبة إليه بديهية واضحة ثابتة لا تقبل النقاش. وهو، في ذلك، مضى قُدُماً بدون تردد.

أمَّا ما كان يقلقه، في تلك اللحظة، فهو خوف آخر، من نوع مختلف أشدّ ألماً، بقدر ما كان هو نفسه غير قادر على تحديده. أريد القول: الخوف من المرأة، خوف من كاترينا إيفانوفنا تلك التي توسلت إليه بإلحاح في الرسالة التي أعطته إياها السيدة خوخلاكوفا، منذ بعض الوقت، أن يذهب لرؤيتها دون معرفة السبب. إن هذا الإلحاح وهذا الاضطرار، إلى الذهاب إلى منزلها، بأي ثمن، ولَّدا فوراً في قلبه نوعاً من إحساس معذِّب، وطوال الصبيحة، كان هذا الاحساس يلتهب في صدره، أكثر فأكثر قوة، ودائماً أكثر فأكثر ألماً، بالرغم من كل الأحداث التي تتالت في الدير وفي مسكن رئيس الدير، الخ، وما كان يخشاه لم يكن عدم معرفة ماذا تريد أن تقول له وما يتوجب عليه أن يجيب. وبشكل عام، لم يكن يخاف من المرأة بحدّ ذاتها، وهو بالتأكيد، كان يعرف بعض الشيء عن النساء، فقد عاش طوال حياته، منذ طفولته الأولى حتى وصوله إلى الدير، مع النساء، كان يخاف من هذه المرأة بالذات، من كاترينا إيفانوفنا بالتحديد، ولقد خاف منها منذ اللحظة المحددة التي رآها فيها للمرة الأولى؛ مع ذلك، رآها مرة أو مرتين - ولا ثالثةً، وتحدَّث معها، صدفة، ذات مرة، بضع كلمات. وكان يرى صورتها وكأنها صورة فتاة جميلة، شديدة الكبرياء، قوية السطوة. لكن، ليس جمالها ما كان يؤلمه، بل كان شيئاً آخر، كان الجانب غير المفهوم لخوفه، هو، الذي يفاقم خوفه. كانت أهداف هذه الفتاة من أنبل الأهداف. كان يعرف ذلك، إنها تسعى جاهدة لإنقاذ أخيه ديمتري الذي أخطأ بحقها، وهي لا تفعل ذلك إلا شهامة منها. رغم ما في هذه المشاعر من نقاء ورفعة، لا يستطيع إلا أن ينصفها. وكان يشعر بقشعريرة باردة تجتاح ظهره كله كلما اقترب

أكثر من منزلها.

عرف أنه لن يجد في منزلها أخاه إيفان فيودوروفتش الذي كان مقرباً جداً منها، فلا بدَّ أن يكون أخوه، بالتأكيد، مع والده. أما بالنسبة إلى ديمتري، فقد كان متأكداً بأنه لن يجده وهو يستشعر السبب. هكذا سيجري الحديث بينه وبينها. كان يتمنى رؤية أخيه ديمتري ولو دقيقة واحدة، قبل هذا الحديث المشؤوم. ودون أن يظهر له الرسالة، يمكنه أن يتبادل معه كلمة أو كلمتين. ولكنّ أخاه ديمتري يقيم في مكان بعيد؛ وعلى كل حال، وبدون شك، لن يكون في منزله في هذا الوقت. تردد لحظة ثم قرر أخيراً. رسم إشارة الصليب بسرعة، وكالعادة ابتسم بدون سبب ثم اتجه بخطى ثابتة نحو منزل هذه السيدة الرهيبة.

كان يعرف منزلها. ولكن يجب أن يمر بالشارع الكبير ثم يجتاز الساحة العامة الخ، كل ذلك يجعل المسافة طويلة. فمدينتنا الصغيرة مبعثرة جداً، ومسافاتها شاسعة جداً. أضف إلى ذلك، أن والده بانتظاره. فقرر أن يسلك طريقاً مختصرة عبر الأقنية وكل ممرات مدينتنا الصغيرة، وهو يعرفها كما يعرف راحة كفه. كان عليه أن يجتاز المسالك، وهذا يعني أن لا وجود لطريق، على طول السياجات المقفرة، التي يجتاز بعضها متجنباً هذا المسلك أو ذاك حيث يعرفه جميع الناس ويحيّونه. فمن هذه الطريق يستطيع الوصول إلى الشارع الكبير، أسرع بمرتين. كان عليه أن يمرّ بالقرب من منزل والده، أمام بستان، قريب من بستان والده، تابعٍ لمنزل صغير جداً وقديم، له نوافذ أربع قديمة وقد تشققت جدرانه. كان صاحب هذا المنزل الصغير هو، كما كان أليوشا يعرف ذلك، امرأة حرفية من المدينة، عجوز لها ساق واحدة، تسكن مع ابنتها التي كانت قد عملت خادمة رئيسية لدى جنرالات في الغالب. والآن، ومنذ ما يقرب السنة، وبسبب مرض أمها، تسكن في المنزل وتتبختر بملابسها الأنيقة جداً. كانت العجـوز وابنتها تعيشان حياة بؤس وعوز كبير. وكانتا تذهبان، يومياً، إلى مطبخ فيودور بافلوفتش تلتمسان بعض الحساء والخبز تقدمه لهما مارفا إينياتيفنا بسرور. لكن الفتاة كانت تأتي لتأخذ الحساء ولم تكن ترضى أن تبيع ثوباً واحداً من أثوابها الجميلة التي كان من بينها ثوب طويل الذيل. وقد عرف أليوشا، طبعاً، هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقه راكيتين الذي كان على معرفة بكل شيء في مدينتنا الصغيرة، ثم لم يلبث أن نسيها فوراً. لكنه عندما وصل إلى قرب حديقة الجارة تذكر الذيل الطويل فجأة فرفع رأسه بسرعة بعد أن كان مطرقاً طوال الفترة التي قضاها مفكراً خلال سيره. وفجأة كان اللقاء غير المنتظر إطلاقاً.

رأى أخاه ديمتري فيودوروفتش خلف سياج حديقة الجيران متسلّقاً، الله يعلم ماذا، مشرئباً متجاوزاً الحاجز بصدره، يومىء إليه، بكل قواه، بحركات من يده، ويطلب منه أن يأتي إليه متجنباً الصراخ بل متجنباً أن يقول كلمة واحدة بصوت مرتفع لكي لا يسمعه أحد؛ فأسرع إليه أليوشا فوراً باتجاه السياج.

- من حسن الحظ أنك استدرت وإلا لكنت اضطررت أن أصرخ. همس ديمتري فيودوروفتش لأخيه بصوت فرح ومسرع: كنت أفكّر فيك... تسلق من هنا! أسرع! كم هو رائع أنك أتيت.

كان أليوشا، هو نفسه، سعيداً أيضاً وقد تساءل عما يجب أن يفعله لكي يتسلق السياج. ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية وساعده على القفز. رفع أليوشا جبَّته وقفز مثل صبيّ صغير حافي القدمين.

- هيا، فلنحتفل بهذا! همس ميتيا متحمساً.

- إلى أين؟ سأله أليوشا هامساً بدوره، وهو ينظر حواليه فيرى أنهما وحيدان في

حديقة خالية تماماً إلا منهما، هما الاثنان؛ لا يوجد أحد. كانت الحديقة صغيرة.

لم تكن الحديقة واسعة طبعاً ولكن المنزل الصغير الذي تملكه العجوز وابنتها على مسافة خمسين خطوة على الأقل.

- لكن، لا يوجد أحد هنا، فلماذا تتكلم همساً؟

- لماذا أتكلم همساً؟ فليأخذني الشيطان.

صاح ديمتري فيودوروفتش فجأة بأعلى صوته.

- حقاً، فعلاً، لماذا أتكلم همساً؟ أنظر. هكذا فجأة تعمّ الفوضى الطبيعة! أنا موجود هنا سراً، وأحتفظ بالسرّ. سأشرح لك الأمر فيما بعد لإدراكي ضرورة الحفاظ على السرّ، وفجأة، بدأت أهمس بغباوة، مع أن ذلك لا داعي إليه أبداً. هيا، هناك! إياك أن تتفوه بكلمة واحدة. أودّ لو أضحك!

المجد لله في العالم

المجد لله في أعماق نفسي!...

قبل وصولك بلحظة كنت هنا، أردد هذين البيتين من الشعر...

تبلغ مساحة الحديقة هكتاراً، أو أكثر بقليل، ولم تكن مزروعة بالأشجار إلّا في جوانبها، على طول الأسوار الأربعة - وهي أشجار تفاح وزيزفون وسندر وقيقب. أما داخل الحديقة فكان فارغاً ويشكل فرجة حيث تحصد في الصيف أكوام من العلف. وكانت صاحبة البيت تؤجر الحديقة منذ أوائل الربيع ببضعة روبلات. كانت هناك بعض شجيرات من توت العلّيق وثمر الريباس وعنب آذار على طول الأسوار، وبالقرب من المنزل مساكب خضار، وذلك منذ فترة وجيزة. قاد ديمتري فيودوروفتش ضيفه باتجاه إحدى زوايا الحديقة الأبعد عن المنزل. هناك، وسط أشجار الزيزفون وشجيرات السندر الهرمة وأشجار البيلسان والغبيراء والإزدلخت يكتشف المرء ما يشبه بقايا استراحة تعود إلى زمن بعيد، منذ خمسين سنة حسب الأسطورة، أقامها صاحب المنزل في ذلك الزمن، وهو رجل يسمَّى ألكسندر كارلوفتش فون شميدت، ليوتنان كولونيل متقاعد. لكن، كل شيء مسوّس، وأرضيتها عفنة، وكل الأخشاب مترنحة، ورائحة العفونة تفوح من الخشب. وتوجد داخل الاستراحة طاولة من خشب مطلية باللون الأخضر، غاصت أرجلها في التراب ومحاطة بمقاعد هي أيضاً باللون الأخضر، ولا يزال ممكناً الجلوس عليها.

لاحظ أليوشا، فوراً، حماسة أخيه، ولكن عندما دخل إلى الاستراحة، وجد على الطاولة زجاجة كونياك ممتلىء نصفها وإلى جانبها كأس.

- هذا كونياك! قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً. وأنت، وأنت قد قلت لنفسك: «إنه يسكر من جديد». ألا تؤمن بالأشباح.

ابتعد عن الناس الفارغين المزيفين

وبدّد أوهامك واحترس...

أنا، لا أسكر، إنني «أتلذذ» كما يقول صديقك الحقير راكيتين... الذي سوف يصبح مستشار دولة، وسيقول دائماً إنني «أتلذذ». سأشدّك إلى صدري بقوة، يا أليوشا، سأضمك إلى صدري حتى لأكاد أحطمك، لأنَّ في كل العالم... في الحقيقة... في الحـ... قيـ... قة...

!(هل تفهم؟ هل تفهم؟) لا أحب غيرك

قال ديمتري فيودوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشوة والانخطاف.

أنت فقط، أنت ومخلوقة «فاجرة» عشقتها، وهذا ما جعلني أضيع... أن تعشق، لا - يعني أنك تحب، يمكن أن تكون عاشقاً وأنت حاقد. تذكر! في هذه اللحظة، طالما أنا أشعر بالابتهاج فأنا أتكلم! اجلس، هنا، إلى هذه الطاولة، وأنا سأجلس جانباً، أريد أن أنظر إليك، وأتكلّم، وأتكلّم. أنت لن تقول شيئاً، أنا سأتكلّم وأتكلَّم، لأنه آن الأوان! اسمع، أعتقد أن هذا صحيح، سأتكلم بصوت خافت... لأنه هنا... هنا... من الممكن أن توجد هنا آذان غير مرئية. سأشرح كل شيء. اتفقنا. سأتابع. لماذا كنت أحلم دائماً بك، وأريد أن أراك الآن، في هذه الأيام بالذات، والآن؟ لماذا في هذه الأيام، لأنني غداً سأنهار، لأنّ غداً تنتهي الحياة وتبدأ في آن. هل أحسست بذلك، في الحلم مثلاً، بأنك تسقط في هاوية أو من أعلى جبل؟ حسناً، أنا، هكذا أطير وليس في الحلم. لست خائفاً، وأنت أيضاً لا تخف. أقصد، أنا أخاف، ولكن هذا أمر جيد. يعني ليس جيداً، إنه مثير!... باختصار، إلى الجحيم؟ حسّ قوي، حسّ ضعيف، حسّ المرأة - ما همَّ، الأمر لا يعنينا... فلنمجّد الطبيعة: الشمس في كل مكان، ما أصفى السماء، الأوراق كلها خضراء، إنه قلب الصيف، والساعة لم تبلغ الثالثة بعد الظهر، سكوت! وإلى أين كنت ذاهباً؟

كنت ذاهباً إلى الأب، ولكني أنوي أن أمرَّ أولاً بكاترينا إيفانوفنا. -

إلى منزلها وإلى الأب! أوه! يا للصدفة! ولكن، أنا، لماذا كنت أناديك، لماذا كنت - أنتظرك، لماذا كنت أرغب بكل مسام جسمي وحتى كل أضلعي؟ لأنني كنت أريد أن أرسلك تحديداً إلى الأب، من قبلي، ثم إليها، إلى كاترينا إيفانوفنا، لكي أنهي الأمر معها ومع الأب، أن أرسل إليهما ملاكاً. كان بإمكاني أن أرسل أياً كان، ولكني كنت أريد أن أرسل ملاكاً. إذن، نعم، إذهب إليها وإلى الأب.

هل صحيح أنك كنت تريد أن ترسلني؟ سأل أليوشا بلهجة حزينة. -

كنت تعلم هذا. أرى أنك فهمت كل شيء فوراً. لكن، اسكت الآن، اسكت، لا تلمني - ولا تبكِ!

سكت ديمتري فيودوروفتش، وبقي يفكر بضع لحظات واضعاً إصبعه على جبينه:

إنها هي التي استدعتك، وهي التي كتبت إليك رسالة، أو هناك شيء آخر لكي - تذهب إليها، وإلا لماذا تذهب إليها؟

هذه رسالتها. أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه. فقرأها ميتيا بسرعة: -

وسلكت طرقاً مختصرة. أيتها الآلهة! أشكركِ على أنك وجَّهته في هذه الطريق، - فوجَّهتِ خطاه نحوي، مثل ذلك الصياد العجوز الأبله، كما تقول الحكاية، حول السمكة الذهبية. إسمع يا أخي! الآن، قررت أن أقول لك كل شيء، يجب قوله لشخص ما، للملاك في السماء، لقد سبق أن قلته، ولكن يجب أن أقوله للملاك على الأرض، وأنت، أنت الملاك على الأرض. ستصغي وتحكم وسوف تسامحني... وأنا، إن بي حاجة إلى أن يغفر لي إنسان أسمى. اسمع: إذا تحوّل اثنان عن كل مشاغل الأرض واندفعا، أو اندفع أحدهما، على الأقل، نحو العالم غير العادي، فإذا هو في اللحظة التي يهمّ فيها بلوغ السعادة أو يموت، يلقى إنساناً آخر فيقول له: إفعل هذا أو ذاك من أجلي، إفعل شيئاً لا يمكن أن يطلبه أحد، شيئاً لا يمكن أن يطلبه إنسان إلا على فراش الموت... فهل يمكن أن يرفض هذا الآخر طلبه... إذا

كان صديقاً، إذا كان أخاً؟

- سأفعل ذلك. ولكن قل لي بسرعة ما هو، أجابه أليوشا.

- لا تتعجَّل يا أليوشا: أنت مستعجل ومضطرب. لا شيء يدعو للتعجل، الآن، يدخل العالم في مرحلة جديدة. إنها لخسارة يا أليوشا أن ترقى إلى الانخطاف في تأملاتك! ولكن، اسمع ماذا سأقول! أنت لم تصل بعد إلى الانخطاف! ماذا أقول.

فليكن قلبك نبيلاً أيها الإنسان![12]

من قال هذا البيت من الشعر؟

قرر أليوشا الانتظار. لقد عرف أنه، في هذا المكان، سيقوم بمهامه الآن، بشكل جيد. استمر ميتيا يفكر بعض الوقت متكئاً بكوعه على الطاولة ورأسه منحنٍ في راحة يده. وبقي الاثنان صامتين.

- أليوشا! قال ميتيا. ستكون الوحيد الذي لا يضحك! أريد أن أبدأ... اعترافي... ولكنني لا أعرف اللغة (An die Freude) «بنشيد الفرح الذي نظمه شيللر «الى الفرح الألمانية. أعرف فقط أن هذا يُسمَّى «إلى الفرح»! فلا تظنّ أبداً أنّ هذه ثرثرة سكران. أنا لست سكران أبداً. الكونياك، إنه الكونياك، أنا لا بدَّ لي من زجاجتين لكي أسكر.

وسيلين السكير ذو الوجه الأحمر

على حماره يترنّح.[13]

وأنا لم أشرب إلا ربع زجاجة، وأنا لست سيلين. لست سيلين لكنني قوي لأنني اتخذت قراري بشكل نهائي! ستسامحني على اللعب بالألفاظ. وسيكون عليك أن تسامحني على الكثير من الأشياء اليوم، ليس على اللعب بالألفاظ فقط. لا تقلق. أنا لا أهذر. أنا أتكلم بجدية، وأدخل مباشرة في الموضوع. لن أجعلك تضيّع وقتك مثل يهودي صغير. إسمع، كيف هي البداية؟...

ورفع رأسه، وبقي مفكراً، وفجأة انطلق بلهجة نافذة:

متوحش، عارٍ، ساكن الكهوف

يختبىء في المغاور

البدوي يتيه في السهول

وهذه السهول يلتفها.

يجوب الصياد الغابات

حاملاً قوسه ونباله.

الويل للذين ترمي بهم

العواصف على شواطىء مقفرة!

*

من قمم الأولمب

نزلت سيريس تبحث عن ابنتها

التي سرقوها منها:

الأرض مهجورة تحت أقدامها

ما من زاوية، ما من ملجأ هناك

لاستقبال الإلهة

وما من هيكل لا يشهد

على تمجيد الآلهة.

*

ثمار الحقول، العناقيد اللذيذة

لا تسطع على الولائم

أجساد مدخّنة مقطعة

تتمدّد على المذابح الدامية

في مكان ما، حيث الإلهة

ترمي نظراً متألماً

تجد الناس في كل مكان

في إذلالٍ عميق![14]

*

فجأة، انفجر ميتيا بالبكاء. فأمسك أليوشا بيده.

صديقي، صديقي! في الإذلال، في الإذلال حتى يومنا هذا. إن عدد الأشياء التي - يتألم الإنسان بسببها، على الأرض، رهيب، رهيب عدد المصائب! لا تفكّر، لأنّ لي رتبة ضابط، يشرب الكونياك ويغرق في المجون، أنني إنسان فظ. أنا يا أخي العزيز، لا أفكّر إلا في مصير الإنسان المذلّ الذي يدعو إلى الشفقة. ذلك هو اهتمامي الأوحد تقريباً، ولست بكاذب عليك، فليشهد الله أنني لا أكذب أبداً، ولا أتباهى، لأنني عندما أفكر في هذا الإنسان، أنا أيضاً، أصبح هذا الإنسان عينه.

لكي يخرج الإنسان

من حالة الاذلال

يجب أن يقيم

تحالفاً أبدياً

مع الأرض الأمّ[15]

إلا أن المشكلة تكمن هنا: كيف يمكنني أن أقيم هذا التحالف الأبدي مع الأرض؟ أنا لا أزرع الأرض، أنا لا أفتح جوفها؟ هل يجب أن أصبح فلاحاً أو نوعاً من راعٍ صغير؟ إنني أسير دون أن أعرف هل أنا أغوص في النتانة والعار أم في الضياء والفرح؟ تلك هي التعاسة بعينها الآن، فكل شيء على الأرض لغز! وعندما أغوص في العار والعهر (ولم أكن أفعل شيئاً غير هذا على كل حال) كنت في كل مرة أعيد قراءة هذه القصيدة عن سيريس وعن الإنسان. فهل أصلحني ذلك؟ أبداً، لأنني كارامازوف. لأنني، في الحقيقة، إذا سقطت في الهاوية سأسقط مباشرة، رأسي إلى تحت وقدماي في الهواء، وأنا مسرور من السقوط بهذا الشكل المذلّ، فأنا أشعر عندئذ بنوعٍ من اللذة الجمالية. إذن، وأنا في هذا العار أبدأ النشيد. فلأكن ملعوناً، فلأكن سافلاً ومنحطاً، ولكنني، أنا أيضاً، أستطيع أن أقبّل زاوية من هذه الجبة

التي يرتديها إلهي، وأن أتبع الشيطان. ولكنني، رغم كل شيء، أنا ابنك أيها الرب، وأحبك، وأشعر بفرح بدونه لا يمكن للعالم أن يصمد ويوجد.

فرح أبديّ يروي

روح عمل الرب

الاختمار السرّي

يلهب كأس الحياة:

داعياً العشب إلى الضوء

مذوّباً السديم إلى شموس

يطلقها في الفضاء

الذي لا يبلغه عالِم الفلك.

*

في حضن الطبيعة المبارك

من يتنفس يشرب الفرح؛

إلى الشعوب والمخلوقات

هو الذي يهب لنا كل شيء:

نحن أصدقاء في المحن

الخمر والنِعم المتوَّجة

والشبق لدى الحشرات...

ويقف الملاك أمام الله.

ولكن كفى قصائد! لقد ذرفت دموعاً، وأنت تركتني أبكي قليلاً. إنها حماقة سيضحك الجميع منها. ولكن أنت، لا. أنظر إلى عينيك الجميلتين كيف تلتهبان. كفى قصائد! الآن، أريد أن أحدّثك عن الحشرات عن أولئك الذين وهب الله لهم اللذة.

الشبق لدى الحشرات!

يا أخي العزيز، أنا هوهذه الحشرة بالذات! وهذه القصيدة قيلت خصيصاً عنّي أنا. ونحن جميعاً، آل كارامازوف، على هذا النحو، وفي داخلك أنت، تعيش هذه الحشرة، فيك أنت الملاك، وهي تولّد العواصف في دمك. إنها عواصف، لأنَّ اللذة هي عاصفة. ذلك أنَّ اللذة شرّ أقوى من عاصفة! والجمال، هو شيء رهيب مرعب. رهيب لأنه لا تحديد له. وإذا لا يمكن تحديده فلأنَّ الله لم يضع سوى ألغاز. وفي الجمال، كل الشطآن تتقارب، وكل التناقضات تحيا معاً. أنا لست مثقفاً كبيراً، يا أخي العزيز، ولكنني فكّرت كثيراً في هذا الشأن. شيء رهيب. ما أكثر الأسرار على هذه الأرض! توجد ألغاز كثيرة على الأرض لتضطهد الإنسان! «جدْ لها حلاً كما تستطيع، وتدبَّر أمرك بحيث تخرج منها سالماً. الجمال! هو الشيء الذي لا أحتمله، وهناك الكثير، وحتى أنّ أناساً يتمتعون بقلب نبيل وبفكر سامٍ يتخذون «السيّدة»، في أول الأمر، مثلاً أعلى لهم، ثم ينتهون بمثَل سدوم. والأفظع من ذلك أيضاً هو حتى مع مثَل سدوم الأعلى، في أعمالهم لا يتنكرون أبداً لمثل «السيدة» الأعلى، وأن المثل الأعلى يلهب قلوبهم بصدق، يلتهبون بصدق في فترة شبابهم. لا، الإنسان ذو نفس رحبة، واسعة جداً، سأضيّقها. وحده الشيطان يعلم ما الذي يختبىء فيه! ما يتقبّله العقل كعار بالنسبة إلى القلب هو الجمال فقط. هل الجمال هو في سدوم؟ صدِّق، إنه كامن في

سدوم، بالنسبة إلى أغلبية الناس. هل كنت تعرف هذا السرّ أم لا تعرفه؟ ما هو فظيع هو أنّ الجمال، ليس فقط شيئاً مخيفاً، لكنه شيء يحمل سرّاً. الله والشيطان يقاتلان معاً، وساحة المعركة هي قلوب الناس. لاحظ أننا نشكو من الموضع الذي يؤلمنا. اسمع، الآن وصلنا إلى الواقع بالذات.

IV

اعتراف قلب مضطرم

حكايات صغيرة

إذن، هناك تعهرَّتُ وفجرت. لقد قال الأب منذ لحظة، إنني كنت أدفع ألوف الروبلات كي أفضَّ بكارات عذارى صغيرات. هذا كلام كذب، لم يحدث هذا أبداً. ما حدث في الواقع هو أنه من أجل «هذا»، لم تكن ثمة حاجة للمال أبداً. فالمال، بالنسبة إلي، أمر إضافي، نار في الروح، الزينة فقط. اليوم، مع سيدتي وغداً أستبدلها بمومس من الشوارع. وأنا، أمرح مع هذه وتلك، أنفق المال على النزوات وسعياً للهو. أنفق المال بغير حساب، الموسيقى، الجنون، والغجريات. وإذا لزم الأمر أعطيهن أكثر لأنهن يأخذنه بحماسة، وبعد، يجب الاعتراف، بأنهنّ كنَّ مسرورات وممتنات. لقد أحبتني بعض الآنسات، ليس جميعهن، بل عدد منهن، لقد حدث ذلك؛ ولكن، أنا، ما أحببت إلا الأزقَّة الصغيرة الضيقة، والزوايا المقفرة المعتمة، وراء الساحات العامة، فهنالك المغامرات والمفاجآت، والأشياء غير المتوقعة، النهر في الوحل. أنا، أتكلم مجازاً، يا أخي العزيز، ففي مدينتنا الصغيرة، لا توجد أزقّة ضيقة ملموسة من هذا النوع، ليس لدينا منها، ولكن من الناحية النفسية، نعم. لو كنت مثلي أنا لفهمت ماذا يعني هذا الأمر، أحببت المجون، أحببت العار في المجون، أحببت القسوة: ألستُ بقَّةً، ألست حشرة مؤذية؟ هذا يعني أنني واحد - من آل كارامازوف! ذات نهار، قمنا بنزهة إلى الريف، ذهبنا في سبع عربات ترويكا. ذات ليلة في فصل الشتاء، في عربة تزلُّج، رحت أشدّ على يد فتاة صغيرة كانت جارتي، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتي. تلك البنت الصغيرة، هي ابنة موظف، مسكينة، لطيفة، عذبة، طيّعة. تركت لي أن أفعل ما أشاء في العتمة. كانت المسكينة الصغيرة تعتقد أنني سأذهب في الغد إلى والديها لأخطبها (كنت أقدَّر، خاصة، كخطيب محتمل). وأنا، بعد ذلك، لم أقل كلمة واحدة، لم أقل لها شيئاً مدة خمسة أشهر. كنت أرى عينيها، في أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص، في كل المناسبات، كثيرة، عندنا) تتابعاني من عمق القاعة، فأرى الوميض الذي يشتعل في نظراتها، واللهيب المفاجىء الذي يدلّ على غضب ذليل. وكان هذا اللهو يستثير لذة الحشرة التي كنت أغذيها في نفسي. بعد خمسة أشهر، تزوجت موظفاً، ثم سافرت... بقيت غاضبة ولكن بقيت تحبني. وقد عاشا سعيدين في ذلك الوقت. لاحظ، أنني لم أقصّ هذه الحكاية على أحد، سكتُّ، ولم أعرّض سمعة الفتاة لسوء. صحيح أنني منحطّ في رغباتي وأحبّ الدناءة، ولكنني لست مجرداً من الشرف. إنَّ وجهك يحمرّ وعينيك تطلقان بريقاً. هذا يكفي، لن أزعجك بمثل هذه الحكايات القذرة. ولكن ما ذكرته لك ليس إلا نزراً قليلاً، هو زخرفات صغيرة على طريقة بول دو كوك، وإن تكن الحشرة المؤذية قد نمت في نفسي واستولت عليَّ حتى أعماقي. ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي، يا أخي العزيز، إن لي منها «ألبوماً» كاملاً؛ فليحفظ الله القلوب الصغيرة. كنت عندما أقطع صلتي بإحدى النساء، أفضل أن يتم ذلك بدون مشاكل. ثم إنني لم أخن أبداً. ولم أخبر أحداً أبداً. ولكن، هذا يكفي. أرجو ألّا تفكر أنني جئت بك إلى هنا لأقصَّ عليك هذه التفاهات! لا، سأخبرك شيئاً شيئاً. ولكن، لا تتفاجأ لأنني لا أخجل منك ولا أشعر بخجل أمامك، وأنني أتلذذ بإيقاظ هذه الذكريات.

- أنت تقول هذا لأنك رأيت وجهي قد احمرّ؟ قاطعه أليوشا فجأة. لم يحمرّ وجهي بسبب حكاياتك، ولا بسبب ما فعلت، بل لأنني، أنا، مثلك تماماً.

- أنت؟ إنك تبالغ قليلاً.

- لا، لا أبالغ. قال أليوشا بلهجة قاطعة. (كان واضحاً أن هذه الفكرة قد شغلت باله منذ مدة طويلة). إنها الدرجات نفسها دائماً. أنا ما زلت في الدرجة السفلى وأنت وصلت إلى العليا، لست أدري، ربما إلى الدرجة الثالثة عشرة. هكذا أرى الأمور، ولكن الأمر واحد، واحد تماماً. إن من وضع قدمه على الدرجة السفلى من السلّم لا بدَّ أن يصل إلى الدرجة العليا.

- إذن، يجب عدم وضع القدم أبداً؟

- على المرء أن يتجنب ذلك، إذا أمكن.

- هل تستطيع أنت؟

- أعتقد أن، لا.

أسكت يا أليوشا، أسكت، يا عزيزي. أريد أن أقبّل يدك، هكذا، حناناً، إن تلك المومس غروشنكا خبيرة في شؤون الرجال! لقد قالت لي، ذات يوم، إنها سوف تبتلعك بين لحظة وأخرى. أنا أسكت، أسكت: دعنا من هذه القذارات، دعنا من هذه القذارة، ولنصل إلى مأساتي، وهي أيضاً ملأى بالعفونة، يعني ملأى بكل أنواع الخسة والدناءات أيضاً. اسمع، ربما كذب والدنا العجوز عندما تحدث عن إغواء فتيات بريئات، ولكن، في الحقيقة، هو ما حدث في مأساتي، رغم أنه لم يحدث سوى مرة واحدة فقط، أو أنه لم يحدث أبداً. والعجوز عندما اتهمني بحكايات دنيئة كثيرة لا يعرف أيّ شيء عنها: لم أخبر أحداً عنها. أنت أول من عرفها. اعترف بذلك، بعد إيفان طبعاً. إيفان يعرف كل شيء، يعرف كل شيء قبلك منذ زمن طويل. إنه مثل القبر.

- إيفان هو قبر؟

- نعم.

كان أليوشا يستمع بانتباه كلّي. وبدأ ديمتري يسرد حكايته:

- كنت ليوتنان في تلك الكتيبة. إنها كتيبة ترابط على الجبهة وكنت تحت المراقبة، لا أدري، أشبه بمنفيّ. لكن المدينة استقبلتني استقبالاً رائعاً. كنت أنفق المال بلا حساب، وكانوا يعتقدون أنني غنيّ، وكنت أنا نفسي أعتقد ذلك. يبدو أن هناك سبباً آخر أعجبهم فيّ. كانوا غالباً ما يهزّون رؤوسهم، ولكنهم كانوا يحبونني. وفجأة، بدأ الليوتنان كولونيل، وهو عجوز، يناصبني العداء. ويتحيَّن الفرص للشجار معي. لكنني لم أكن بدون سند، ودافعت المدينة كلها عني. ثم إنه لم يكن ثمة شيء يستحق إلحاق الأذى بي. كانت غلطتي أنا، لأنني لم ألتزم بما يتوجب عليّ من الاحترام تجاهه. كنت متكبراً. وإن ذلك العجوز العنيد الذي لم يكن، في الواقع، رجلاً سيئاً، كان يستقبل الكثيرين في ما مضى، وكان قد تزوج مرتين، وماتت زوجتاه كلتاهما، كانت الأولى امرأة متواضعة من الشعب أنجبت له ابنة ساذجة هي أيضاً؛ في ذلك الوقت، كانت تعيش فتاةً تقترب من السنة الرابعة والعشرين من العمر، وتقيم عند والدها، وخالتها شقيقة أمها المتوفاة. وكانت الخالة امرأة بسيطة سكوتة. وابنة أختها، الابنة البكر لليوتنان كولونيل كانت سذاجتها تجمع الكثير من الجرأة والاقدام في آن. يسرّني وأنا أستحضر ذكراها أن أقول كلمة: إنني يا عزيزي، لم أعرف أبداً في حياتي كلها امرأة أجمل من تلك الفتاة، كان اسمها أغافيا[16]، تصوَّر، أغافيا إيفانوفنا. ولم تكن تخلو من الحُسن -

في الذوق الروسي - طويلة القامة، بيضاء البشرة، قوية البنية، عينان رائعتان، وذات وجه بدائي نوعاً ما. لم تتزوج، رغم أنها خُطبت مرتين. كانت تقول لا، دون أن تفقد بشاشتها. انعقدت صلة بيني وبينها - لا على تلك الطريقة، فقد كان كل شيء بريئاً، كنا صديقين لا أكثر. لأنه حدث لي أن أقمت علاقات صداقة مع نساء دون أيّ خطيئة. وكنت أخبرها كل هذه الأمور بصراحة تامة، وهي، كل ما تفعل، أنها تضحك. هناك نساء كثيرات يحببن الصراحة، ولكن تلك، عدا ذلك، كانت فتاة، وهذا ما كان يسلّيني كثيراً. أضف إلى ذلك أن بإمكان المرء أن يسميها آنسة. كانت الفتاة وخالتها تقيمان في منزل الأب وتحتجبان طوعاً، ولا تعتبران نفسيهما في مستوى سائر الناس. كان الناس جميعاً يحبونها، وكانوا كلهم بحاجة إليها، لأنها تجيد الخياطة، كما كانت مميزة: تملك موهبة، ولا تطلب مالاً عن خدماتها، وإنما تعمل لتكون مفيدة للناس لا أكثر، ولا ترفض أبداً، لكنها كانت تأخذ بعض المال إذا عُرض عليها. أما الليوتنان كولونيل، فلا علاقة له بشيء. كان واحداً من أبرز شخصيات محيطنا. يعيش حياة باذخة، ويستقبل كل أبناء المدينة في منزله، ويقيم ولائم غداء، وينظّم أمسيات رقص. عندما وصلت إلى المدينة والتحقت بالكتيبة، لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث عن ابنة الليوتنان كولونيل الصغرى التي سوف تصل قريباً، والتي يقال إنها ذات جمال فتّان، والتي تركت، منذ فترة قصيرة، إحدى أكبر المدارس الداخلية الأرستقراطية. وهذه الفتاة الثانية، كانت كاترينا إيفانوفنا الرائعة، ابنة الليوتنان كولونيل من زوجته الثانية التي ماتت هي أيضاً. هذه الزوجة الثانية، لم تكن من هذا العالم، كانت تنتمي إلى أسرة نبيلة، ابنة، لست أدري، أيّ جنرال كبير - رغم أنها لم تحمل إلى زوجها، هي أيضاً، أيّ روبل - ذاك ما عرفته من مصدر موثوق. إذن، كانت لها عائلة، اسم عائلة فقط، وربّما لها بعض الآمال، أما المال فلم يكن عندها شيء منه. ومع ذلك، عندما وصلت هذه التلميذة الداخلية (لتمضية بعض الوقت وليس لمدى الحياة) عادت مدينتنا الصغيرة بكاملها إلى صباها فتجددت: أرقى سيدات مجتمعنا، وزوجتا «صاحبي سعادة»، وزوجة كولونيل، وكل اللواتي يتبعهن، كلّهن يحطن بالفتاة، ويحتفين بها، في كل مكان، ويتبارين في إقامة الولائم لها. أصبحت ملكة الحفلات الراقصة، ونزهاتنا الريفية، حتى لقد أقيمت على شرفها حفلات تمثيلية يعود ريعها لإعانة مربيات عجائز، لست أدري من هنّ. أنا لم أقل شيئاً، بقيت متنحياً، ألهو وأقصف. وفي تلك الفترة عينها إنما اقترفت فضيحة أثارت اللغط في المدينة كلها. ذات يوم، لاحظت في حفلة في منزل كومندان المدفعية، أنها كانت تتأملني بنظرها، ولكنني في ذلك اليوم، لم أقترب منها: تظاهرت بالاستخفاف بهذه المناسبة التي عرضت لي التعرف بها. وبعد ذلك بوقت قصير، قررت أن أتحدّث معها. وهي، فلم تكد تتنازل وتنظر إليّ، وعبَّرت شفتاها عن احتقار. وأنا، قلت بيني وبين نفسي، انتظري قليلاً، فلسوف أثأر لنفسي. وكنت شرس الطباع، في أغلب الحالات، في ذلك الوقت، وكنت أعرف ذلك في نفسي، وقد أحسست، خاصة، أن «كاتينكا» ليست تلميذة داخلية ساذجة، لا، كانت لها شخصيتها، كانت قوية وشريفة، وأكثر من ذلك، ذكية ومثقفة. بينما أنا، لست ذكياً ولا مثقفاً. ربّما تعتقد أنني أردت أن أخطبها؟ أبداً. أردت أن أثأر لنفسي، أنا الشاب القوي، وهي لا تشعر بذلك. وبانتظار ذلك، اندفعت في اللهو والقصف، حتى أن الليوتنان كولونيل انتهى به الأمر إلى توقيفي ثلاثة أيام في السجن. في تلك الفترة، أرسل إليّ الوالد ستة آلاف روبل بعد أن بعثت إليه بتنازل خطّي عن جميع حقوقي الأخرى، يعني «صفَّينا حساباتنا»، وبأنني لن أطالبه في المستقبل بشيء أبداً. لم أكن أفهم شيئاً، في ذلك الوقت، يا أخي العزيز، حتى عودتي إلى هنا، وحتى الآونة الأخيرة، بل وحتى يومنا هذا الذي نحن فيه، لم أفهم أبداً شيئاً من أمر هذه الخلافات المالية مع الوالد. على كل حال، إلى الجحيم، دعنا من هذه المسألة، لي عودة إليها فيما بعد. في ذلك الوقت، عندما تلقّيت الستة آلاف روبل، عرفت، من رسالة أرسلها إليَّ أحد الأصدقاء، أمراً يهمّني كثيراً، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا الليوتنان كولونيل، وأنها تشتبه في أمره بارتكاب عملية اختلاس، أي إن أعداءه يدبّرون له مكيدة خبيثة. وإذ بقائد الفرقة يصل، فجأة، ويوبّخ ويشتم. وبعد فترة وجيزة، تلقّى أمراً بتقديم استقالته. لن أقصّ عليك كل

تفاصيل هذه القصة. صحيح أن هذا الرجل كان له، في الواقع، أعداء. وقد تنكرت له المدينة بأسرها، منذ تلك اللحظة، وفجأة، أظهرت له ولعائلته فتوراً واضحاً، وراح الناس يتجنبونهم! وفي ذلك الوقت، ارتكبت غلطتي الأولى. التقيت أغافيا إيفانوفنا التي احتفظت بصداقتي لها، وقلت لها:

- هل تعلمين أن المال العام الذي في عهدة أبيك، ينقص أربعة آلاف وخمسمئة روبل.

.

- كيف؟ لماذا تقول هذا الكلام؟ قالت لي أغافيا. لقد جاء الجنرال منذ بضعة أيام، وكل شيء كان منتظماً...

- نعم، كان المال كاملاً في ذلك الوقت، أما اليوم فلا.

خافت بشكل رهيب:

- لا تخفني، أرجوك! من قال لك هذا الكلام؟

- لا تقلقي... أجبتها. لن أقول كلمة لأحد. أنت تعرفين أنني، من هذه الناحية، ساكت كالقبر. لكنني أحب أن تعرفي أيضاً، عن هذه النقطة «مهما حدث» إذا طولب أبوك بهذه الأربعة الآلاف وخمسمئة روبل، وهو لن يستطيع أن يردّها فسيكون عليك - حتى لا يمثل أمام المحكمة، وحتى لا يُحكم عليه في أواخر عمره بأن يصبح جندياً بسيطاً - سيكون عليك أن تبعثي إليّ، خفيةً، بأختك الآنسة تلميذة المدرسة الداخلية. لقد تسلّمت، منذ مدة قصيرة، مبلغاً ضخماً، سأعطي لأبيك منه أربعة آلاف وخمسمئة روبل. وأقسم لك أن أحداً لن يعلم شيئاً عن هذا السرّ في يوم من الأيام.

«أيّ نذالة تقوم بها! قالت لي. (قالت لي هذا). أيّ نذالة دنيئة أنت! وكيف تتجرأ».

وانصرفت في إذلال رهيب. وأنا، صرخت، من ورائها، أقول لها مرة أخرى، إن أحداً لن يعرف شيئاً، سأحافظ على السرّ بشكل تام. إن هاتين المرأتين الطيبتين، أعني أغافيا وخالتها، أقول ذلك مسبقاً، قد ظهرتا في هذه القصة طاهرتين مثل الملائكة. وكانتا، في الواقع، تعبدان أختهما كاترينا المتكبرة، وتمّحيان أمامها، كأنهما خادمتان لديها، ومع ذلك، أسرعت أغافيا تقصّ الحادثة عليها، أي تروي لها حديثي معها. أنا، عرفت ذلك، فيما بعد، وكأنني كنت هناك. لقد قالت لها كل شيء، لم تخبّىء شيئاً. وهذا ما كنت أريده تماماً.

فجأة، وصل ميجر جديد ليتسلم قيادة الكتيبة. وتمّت الإجراءات. فإذا باللبوتنان كولونيل العجوز يقع مريضاً، فجأة، ولا يستطيع الحراك، ولم يخرج من منزله خلال يومين متتاليين، ولا يسلّم الأموال. وأكد طبيبنا كرافتشنكو أنه كان مريضاً حقاً. ولكنني كنت أعرف حقيقة الأمر تماماً، فقد اطلعت على التفاصيل سراً منذ زمن طويل: وهي أنّ المال يكون في الخزنة فوراً بعد زيارات السلطات ثم يختفي إلى حين، وذلك منذ أربع سنين. كان الليوتنان كولونيل يقرض هذا المبلغ رجلاً موثوقاً به، تاجراً من مدينتنا، أرمل عجوزاً، يدعى تريفونوف وهو ذو لحية ويضع نظارتين مذهبّتين. وهذا الأخير يمضي بالمبلغ إلى «المعرض» فيقيم صفقات، حتى إذا عاد إلى المدينة يُرجع المبلغ المقترض إلى الليوتنان كولونيل زائداً إليه قليلاً من الفوائد وهديّة. ولكن هذه المرة، عندما رجع تريفونوف من «المعرض» لم يردَّ المبلغ (عرفت هذه التفاصيل عن طريق الصدفة من شاب هو ابنه القذر الذي هو وريثه وهو فاسق لا مثيل له في هذا العالم). في هذه المرة، لم يرد تريفونوف المبلغ إذن، لدى عودته من «المعرض». فأسرع إليه الليوتنان كولونيل يطالبه بالمال، فقال له: «أنا لم أقترض منك شيئاً أبداً، ولم يكن بإمكاني أن أقترض منك شيئاً على كل حال». هذا

هو الجواب. جيد، إذن، بقي صاحبنا الليوتنان كولونيل في فراشه، يغطي رأسه بمنشفة، والسيدات الثلاث يفركن صدغيه بالثلج، وفجأة، يصل إلى منزله ساعٍ حاملاً دفتر الحسابات مع أمر بردّ الأموال بدون إبطاء، في مهلة ساعتين». فوقَّع العجوز المذكرة المرسلة إليه، وقد رأيت توقيعه بنفسي فيما بعد، ثم نهض قائلاً إنه يريد أن يرتدي بزته العسكرية، فيسرع إلى غرفة نومه ويتناول بندقية الصيد، فيحشوها برصاصة حربية، ويخلع حذاء قدمه اليمنى، ويضع فوهة البندقية على صدره متلمّساً الزناد بإصبع قدمه. لكن أغافيا، وقد ساورها الشك، تذكرت الحديث الذي جرى بيني وبينها، كانت قد تسللت وراءه خلسةً ورأت، في الوقت المناسب، ما كان يريد أن يفعل بنفسه. فأسرعت إلى الغرفة وارتمت عليه من الخلف وضغطت عليه بذراعيها فانطلقت الرصاصة في اتجاه السقف ولم تجرح أحداً. أسرعت المرأتان الأخريان أيضاً وانتزعتا منه البندقية، وقبضتا عليه... كنت، في تلك اللحظة، في منزلي، وكان الوقت مساءً، وأنا أستعد للخروج، ارتديت ملابسي وصفّفت شعري وعطرت منديلي وتناولت قبعتي، وفجأة، فُتح الباب، وإذ بكاترينا إيفانوفنا في مسكني.

ثمة أشياء غريبة: لم يلاحظ أحد، في تلك اللحظة، في الشارع، أنها قدمت لزيارتي، ولم يرها أحد تمرّ في المدينة. كنت أسكن في شقة أجّرتنيها زوجتا موظفين صغيرين، محترقتان وطاعنتان في السنّ، تخدمانني باحترام، وتنفذان أوامري، وكلتاهما لم تنطقا بكلمة واحدة في شأن هذه الزيارة، فبقيتا صامتتين كشدهدتيْ قبر. أنا، طبعاً، عرفت كل شيء فوراً. دخلت الفتاة ونظرت إليّ وجهاً لوجه. كان في عينيها القاتمتين حزم لا بل تحدٍ، غير أن شيئاً من تردد كان يظهر على شفتيها. كنت أرى ذلك.

- قالت لي أختي إنك ستعطيني أربعة آلاف وخمسمئة روبل وقد جئت أطلبها منك... بنفسي. وها قد جئت... أعطني المال!».

لم تتمكن أن تضيف على ذلك شيئاً، فقد اختنقت وخافت وتحطم صوتها وارتجفت شفتاها، وبدأت ترتجف الخطوط عند شفتيها. أليوشكا، هل تسمعني أم أنك تنام؟

- ميتيا، أعرف أنك ستقول لي الحقيقة كلها. قال أليوشا منفعلاً. سأقول لك الحقيقة وكل ما حدث، ولن أوفّر نفسي. إليك الحقيقة إذن، كانت فكرتي الأولى كارامازوفية. ذات مرة، يا أخي العزيز، لدغتني أم أربع وأربعين، فبقيت في فراشي مدة أسبوعين في الحمّى بسببها؛ في هذه المرة، إن أمّ أربع وأربعين أخرى لدغتني، في تلك اللحظة في القلب. حشرة مؤذية، هل تفهم؟ تأملت الفتاة جيداً. هل رأيتها؟ إنها رائعة الجمال، ولكن ليس هذا ما جعلها تبدو جميلة إذ ذاك. فما جعلها جميلة في تلك اللحظة، هي أنها كانت نبيلة، وأنا، كنت نذلاً، كانت جميلة بعظمة مروءتها، بالتضحية من أجل أبيها، وأنا، كنت البقَّة الحقيرة. وها هي الآن تقع تحت سلطة هذه البقّة وهذا النذل، ها هي، الآن، خاضعة كلياً لي أنا، كلّها، روحاً وجسداً. إنها في دائرة الأذية... سأعترف لك بالحقيقة، بصراحة: إن هذه الفكرة، فكرة أم أربع وأربعين قد سيطرت على قلبي واستولت عليّ، وملأت قلبي حتى كاد ينفجر. بدا لي أن ليس ثمة مجال لمقاومة: أن أتصرف مثل بقَّة، مثل رتيلاء مفترسة، بدون شفقة... هذا ما قطع أنفاسي. إفهمني: لو فعلت، لذهبت أخطبها منذ الغد لأختم هذه المغامرة بنبل إذا صحّ التعبير، فما يعرف أحد بما جرى، ولا يستطيع، أبداً، معرفته. لأنه وإن كنتُ رجلاً سافل الرغبات، لكنني رجل شريف. لكنني، فجـأة، في تلك اللحظة بالذات، سمعت صوتاً يهمس في أذني: «ولكن، أنت، غداً، ستكون شبيهاً، فهذه المرأة لن تستقبلك إذا ذهبت تخطبها في الغد، ولن تراك، وستكتفي بأن تأمر حوذيَّها بأن يطردك. ستقول لك: «إفضح سمعتي في المدينة كلها، فأنا لا أخاف منك!» ألقيت نظرة على الآنسة فعرفت أن ذلك الصوت لم يكذبني، فذلك بعينه ما سوف يحدث. سوف أُطرد. إنني أقرأ هذا في عينيها. تملكني حقد مسعور حين خطرت ببالي هذه الفكرة، فاشتهيت، فجأة، أن أقوم بأحقر عمل، بعمل خليق بخنزير،

بصاحب دكان: أنظر إليها وأدمّرها فوراً متهكماً قائلاً لها بلهجة يتقنها تاجر حقير.

- «تقولين أربعة آلاف روبل؟ لكنني، كنت أمزح. ماذا دهاك؟ إنك تعبثين كثيراً، يا سيدتي، في حساباتك. مائتا روبل، معقول. لو سألتني أن أعطيك مائتي روبل لفعلت، ولفعلت مسروراً وطوعاً، أما أربعة آلاف روبل، فذلك مبلغ لا يمكن أن نرمي به هباءً، يا آنستي! لقد أزعجت نفسك بدون طائل».

أرأيت، بالتأكيد، كنت فقدت كل شيء. كانت ستهرب. ولكن، أكون قد ثأرت لنفسي وأرضيت كرامتي. كنت سأبقى أبكي حسرةً طوال الليل بعد ذلك، ولكنني لو قلت لها ذلك الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها، في تلك اللحظة المحددة! صدّقني، لم يحصل لي، يوماً، أن نظرت إلى أيّ امرأة، في ذلك الوقت، نظرة فيها حقد؛ أما في تلك المرة فقد بقيت ثلاث ثوانٍ أو خمساً، أنظر إليها وأنا أشعر بحقد فظيع، قسماً بالصليب، ذلك الحقد الأهوج الذي لا تفصله عن الحب الجامح إلا شعرة! ذهبت إلى النافذة، ووضعت جبهتي على زجاجها البارد، وأتذكر أنّ الزجاج المتجلد قد أحرق جبهتي وكأنه نار. لم أبقها عندي طويلاً، اطمئن. التفت واتجهت نحو منضدتي، ففتحت الدرج وأخرجت منه حوالة بمبلغ خمسة آلاف روبل، تدفع لحامله، (كنت قد وضعتها في قاموسي الفرنسي). أريتها الحوالة دون أن أقول كلمة، ثم طويتها وأعطيتها إياها، وفتحت لها باب الممر بنفسي، ثم تراجعت خطوة إلى الوراء، وحييتها منحنياً حتى الحزام، بشكل فيه الاحترام الكبير والتأثير الممكن. صدّقني! هي، ارتعشت بكل جسدها، وحدَّقت إليّ لحظة، واصفرّ لونها بشكل رهيب فأصبح مثل القميص، وفجأة، دون أن تقول لي كلمة واحدة، ودون أن تظهر شيئاً من الخشونة، انحنت هي أيضاً، برفق عميق، حتى لامس جبينها قدميَّ، فحيَّتني ساجدةً لا كمثل آنسة في مدرسة داخلية - بل على الطريقة الروسية - ثم وقفت، بوثبة واحدة، وولَّت هاربة. عندما أسرعت في الخارج، كنت أنا، حاملاً سيفي فسللته، ووددت لو أغمده في صدري. لماذا، لست أدري. لو فعلت، لكانت حماقة مني طبعاً، ولكن بدون شك، بسبب الحماسة. هل تعرف أنه من الممكن أن يقتل المرء نفسه في بعض لحظات الحماسة؟ لكنني لم أقتل نفسي؛ قبّلت سيفي وأعدته إلى غمده - تلك تفاصيل كان بالإمكان ألا أرويها لك. وأعتقد أنني زخرفت دوري بعض الشيء عندما وصفت لك كل تلك الصراعات، وأنني أضفت بضعة أشياء لأمتدح نفسي. ولكن، لا بأس، لنسلّم بهذا. فليسقّد الشيطان جميع الجواسيس على القلب البشري! تلك هي «قصتي» مع كاترينا إيفانوفنا. والآن، لا يعرفها إلا أخونا إيفان وأنت. ولا أحد آخر!

نهض ديمتري فيودوروفتش، ومشى خطوة ثم أخرى وهو مضطرب، وأخرج منديله فجفَّف العرق عن جبينه. ثم عاد فجلس. لكن ليس في المكان الذي كان يجلس عليه، وإنما على مقعد آخر، المقعد المواجه المستند إلى الجدار المواجه، فاضطر أليوشا أن يستدير لكي يقابله.

V

اعتراف قلب حار

«المؤخرة فوق الرأس»

- الآن، عرفت النصف الأول من القصة. قال أليوشا.

النصف الأول، فهمته، إنه دراما مُثّلت هناك. أما النصف الثاني فهو تراجيديا، وهنا ستجري أحداثها.

- بسبب هذا النصف، أنا لا أفهم شيئاً أبداً. قال أليوشا.

- وأنا؟ هل أفهم أنا؟

- مهلاً يا ديمتري. هناك عنصر أساسي. قل لي: أنت خاطب، أليس كذلك؟ وما زلت خطيبها؟

- لم أكن خطيباً حينئذ، ولكن بعد أن أخبرتك بثلاثة أشهر. وغداة ذلك اليوم، بعد الذي حصل، قلت لنفسي إن القصة قد انتهت ولا تتمة لها، فإن ذهبت لأخطبها، فيبدو لي ذلك سفالة. ومن جهتها هي، طوال الستة أسابيع التي قضتها في مدينتنا بعد ذاك، لم تعطني أي إشارة بوجودها، إلا مرة واحدة في الواقع: غداة زيارتها، جاءتني خادمتها، ودون أن تتفوه بكلمة، ناولتني حزمة. وعلى الحزمة عنواني: إلى فلان. فتحتها، فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف. كانوا في حاجة إلى أربعة آلاف وخمسمئة فقط، فباعوا السند بخسارة أكثر بقليل من مئتي روبل، ثم أرسلت إليّ مئتين وستين روبلاً، كما أعتقد، لا أتذكّر جيداً؛ ولم يكن فيها إلا المال. لا رسالة ولا كلمة ولا أيّ تفسير. بحثت في داخل الحزمة عن أيّ إشارة، لا شيء! حسناً؟ اندفعت مجدداً ألهو وأقصف بما تبقّى لي من الروبلات، إلى درجة أن الميجر الجديد كان مرغماً على توبيخي. أما الليوتنان كولونيل فقد ردَّ مال الدولة، فدهش الجميع؛ لأنه لم يكن أحد يتصور أن لديه المبلغ كاملاً. وبعد أن أرجع المال، وقع مريضاً مجدداً، فلزم فراشه. بقي في السرير ثلاثة أسابيع، ثم فجأة، أصيب بضمور دماغي فمات بعد خمسة أيام. شيعت جنازته بمراسم عسكرية لأن وقته لم يكن قد حان بعد لتقديم استقالته الرسمية. وانتقلت كاترينا إيفانوفنا إلى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام، مع أختها وخالتها. وقبل سفرهنّ بالضبط، في اليوم نفسه، (لم أرهنَّ ولم أرافقهنّ)، وصلتني بطاقة صغيرة من ورق أزرق داكن، ورقة مخرَّمة، وقد كُتب في أعلاها سطر واحد بالقلم: «سأكتب إليك. انتظر رسالتي. ك.» هذا كل شيء.

والآن، سأشرح لك باختصار. في موسكو، تغيرت أحوالهنّ بسرعة، بوثبات لا مثيل لها إلا في الأساطير العربية. تلك الجنرالة، قريبتها الأساسية، فقدت فجأة، ووريثتيها الأقرب إليها وابنتي أختها - ماتوا بداء الجدري، خلال أسبوع، فاضطربت المرأة العجوز واحتضنت كاترينا كأنها ابنتها، كنجمة خلاص. وفوراً، كتبت وصية جديدة لمصلحتها، ولكن للمستقبل، وبالانتظار، أعطتها أربعة وعشرين ألف روبل بدون إبطاء، فهذا المبلغ «هو بائنتك، تصرّفي

فيه كما تشائين. كانت امرأة هستيرية، وقد راقبتها جيداً بعد ذلك في موسكو. وأنا، فجأة، تلقيت بواسطة البريد أربعة آلاف وخمسمئة روبل: فدُهشت وذُهلت، فلم أتمكن من الكلام. وبعد تسلمي الرسالة بثلاثة أيام، وصلتني الرسالة الموعودة. إنها معي الآن، فأنا أحملها طوال الوقت، وسأحتفظ بها حتى الممات. هل تريد أن أريك إياها؟ اقرأها: إنها تعرض عليَّ أن تصبح خطيبتي، تعرض عليّ هذا بنفسها: «إنني أحبك حتى الجنون، ولو كنت لا تحبني. ما همَّ. كن زوجي فقط. لا تخف: فلن أزعجك وسأكون قطعة أثاث في منزلك، أكون السجادة التي سوف تمشي عليها... أريد أن أحبك إلى الأبد، أريد أن أنقذك من نفسك...» لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التي كتبتها لي، بكلماتي القذرة، وبنبرتي الحقيرة الدائمة التي لن أستطيع التخلص منها أبداً! لقد اخترقت تلك الرسالة قلبي حتى اليوم. هل أنا مرح اليوم؟ وفوراً كتبت لها جواباً، كتبته بدموعي (لأنني كنت لا أستطيع الذهاب إلى موسكو فوراً). هناك شيء سأظل أشعر منه بالعار إلى الأبد. لقد ذكرت في رسالتي التي بعثت بها إليها أنها أصبحت غنية، وأنَّ لها بائنة ضخمة، أما أنا، فلست إلا ضابطاً فقيراً. تكلمت عن المال! كان يتوجب عليّ أن أسكت، ولكن هذا الكلام قد أفلت مني. وكتبت، في الوقت نفسه، فوراً، إلى إيفان في موسكو؛ شرحت له الموقف في رسالتي قدر الإمكان - ضمَّت الرسالة صفحات ستاً - وكلفت إيفان الذهاب إليها. لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ ما بالك تحدّق إليَّ؟ نعم، لقد وقع إيفان في حبها، ولا يزال يحبها، أنا أعرف ذلك جيداً... لقد ارتكبت حماقة، بنظركم، وبنظر جميع الناس... ولكن من الممكن أن تكون الحماقة هي الآن سبيلنا الوحيد إلى الخلاص جميعاً! ألست ترى مدى ما تكنّه له من احترام وما تحمله من تقدير؟ فهل يمكنها، إذا هي وازنت بيننا نحن الاثنين أن تحبَّ واحداً مثلي، ولا سيما بعد كل ما حدث هنا؟

- لكن، أنا متأكد أنها لا تستطيع أن تحبّ واحداً إلا مثلك أنت لا مثله هو.

- إنها تحب فضيلتها، وليس أنا. هذا ما أفلت من لسان ديمتري فيودوروفتش فجأة، دون أن يريد، مع شيء من الحقد. وانفجر ضاحكاً، وبعد ثانية، أطلقت عيناه بريقاً واحمرَّ وجهه وضرب الطاولة بقبضة يده بقوة. وصاح وملؤه غضب رهيب وصادق على نفسه:

- أقسم لك يا أليوشا، يمكن أن تصدّق إذا أردت. أقسم لك بالصليب وبأنَّ المسيح هو الله؛ مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بمشاعرها النبيلة، ولكنني أعرف أنني لا أرقى إلى مستواها، وأن نفسي لا تساوي جزءاً من ألف من نفسها، وأنّ لها من النبل ما لا ينعم به إلا ملاك من السماء! التراجيديا هي هنا، وأنا أعرفها بالتأكيد. وماذا لو فخَّمنا الكلام قليلاً؟ ألست أفخّم الكلام؟ فأنا صادق، هل تعرف، أنا صادق. أما إيفان فإني أتصوَّر أنه الآن يلعن، يتخيَّل الطبيعة، وهو الرجل الذكي! من الذي تفضّله المرأة؟ ولمن تعطي الأفضلية؟ تعطيها إلى نذل، هو أنا، والذي برهن هنا، وهو خاطب، وأمام كل الناس على عجزه على أن يتحكم في ميله إلى الفجور، وأمام خطيبته؟ نعم! إذن هذا هو الرجل الذي هو مثلي يُفضَّل، أما هو، الآخر، فيرفضها. ولماذا كل ذلك؟ لأن هذه فتاة تريد أن تتحدى قدرها وحياتها وأن يذهبا هباءً. إنه لسخف! أنا، بهذا المعنى، لم أقل شيئاً أبداً إلى إيفان، وهذا أمر بديهي. ولا هو اعترف أو أعطى إشارة حول هذا الموضوع. ولكن يجب أن ينال كل واحد منّا نصيبه، والأفضل يحتل المكان الذي يستحقه، وأما الآخر الذي لا يستحق ذلك المكان فيتسكّع في الأزقة المعتمة ويختفي من حياتهما إلى الأبد. وهذا الآخر سيجد له مأوى في الأزقة القذرة المتعفنة التي يحبها، وتجذبه إليها، والتي يشعر فيها أنه في منزله ليهلك هناك في الحقارة المقززة راضياً عنها طوعاً ومتلذذاً بها. إنني أسترسل الآن، لست أدري، في عبارات فارغة، وأقول ألفاظاً باليةً أجمعها من هنا وهناك. لكن الأمور سوف تجري هذا المجرى الذي أحدّده. سأغوص أنا في الحضيض، وهي، ستتزوج إيفان.

- انتظر، يا أخي العزيز. قاطعه أليوشا مجدداً مأخوذاً باضطراب شديد. هناك نقطة

لم تشرحها لي: أنت خطيبها، أليس كذلك، أنت خطيبها رغم كل شيء؟ فكيف إذن، تريد أن تفصم خطبتكما إذا كانت هي، خطيبتك لا تريد ذلك؟

- أنا خطيبها، الرسمي والمبارك، وقد احتفلنا بخطبتنا، حسب كل القواعد المقررة، ونلنا جميع المباركات المألوفة. تمَّ ذلك فور وصولي إلى موسكو، تمَّ وسط كثير من الإيقونات بحضور عدد كبير من المدعوين هم نخبة المجتمع وأخيار القوم. وقد باركتنا الجنرالة، حتى إنها هنّأت كاترينا إيفانوفنا - هل تصدّق ذلك؟ هنّأتها قائلة لها: «لقد أحسنت الاختيار يا بنيتي، إني أرى قرارة نفس هذا الشاب». أما إيفان فقد ناصبته العداء - هل تتصور؟ ولم ترضَ أن تهنئه، وقبل مغادرتي موسكو جرت بيني وبين كاترينا أحاديث طويلة، فكشفت لها عن نفسي كاملة بنبل وصدق، ووصفت لها أخلاقي بشكل دقيق، فأصغت إلى كل ما قلته.

كان اضطراب حنون

وكانت كلمات حنونة...

وكان أيضاً كلام فيه كبرياء. وجعلتني أقطع على نفسي عهداً لأصلح حالي. قطعت لها على نفسي ذلك العهد. وكما ترى...

- ماذا إذن؟

- لقد ناديتك، ودعوتك لتأتي إلى هنا، اليوم، - تذكر - من أجل أن أرسلك إلى هناك، إلى كاترينا إيفانوفنا...

- وماذا؟

- إنني لن أذهب لرؤيتها بعد اليوم أبداً. وانقل إليها تحيتي.

- وهل هذا ممكن؟

- لهذا السبب أرسلك أنت، لأنه من غير الممكن أن أذهب إليها بنفسي، فماذا أقول لها، وكيف أستطيع أن أقول هذا؟

- وأنت، إلى أين ستذهب؟

- إلى الأزقة!

- يعني إلى غروشنكا. قال أليوشا سائلاً وهو يرفع ذراعيه إلى السماء.

- فإذن، صحيح ما قاله راكيتين؟ لقد خطر ببالي أنك قد ارتضيت الذهاب إلى منزلها، ولكنني كنت آمل أن يكون قد انتهى هذا الأمر معها.

- أن أذهب، أنا الخاطب، إلى منزلها؟ هل هذا ممكن مع مثل هذه الخطيبة على مرأى من جميع الناس؟ لا، إن لي بقية من شرف رغم كل شيء. منذ اللحظة التي بدأت أذهب فيها إلى غروشنكا، فقدتُ صفة الخاطب وصفة الإنسان الشريف. ذلك أمر أعرفه جيداً. ما بالك تنظر إليَّ هكذا؟ أنا، حين ذهبت إليها أول مرة، إنما ذهبت لكي أضربها. كنت أعرف، ولديَّ البرهان الآن، أن ذلك الضابط الذي يكلفه والدي قضاء أعمال له، قد أعطى غروشنكا سنداً ممهوراً بإمضائي لكي تطالب بملاحقتي، فتضطرني، بهذه الوسيلة، أن أنسحب. أرادوا تخويفي. لذلك قررت أن أضرب غروشنكا. كنت قد رأيتها، ذات مرة، من بعيد، فلم تحدث

في نفسي أثراً كبيراً. وكنت أعرف وجود صاحبها التاجر العجوز الذي هو الآن مريض لا يستطيع النهوض من فراشه، ولكنه سيترك لها، مع ذلك، مبلغاً كبيراً. كنت أعرف أيضاً أنها تخزّن المال وتحاول أن تكسب المزيد منه بالإقراض بربا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة، هذه المومس الحقيرة. فذهبت إليها لأضربها. وبقيت عندها... كان الأمر صاعقة أو طاعوناً. لكنني قد أصبت وما أزال. وأنا أعرف أن لا مهرب لي منذ الآن، وأن كل شيء قد انتهى. فأنا أسير هذه المرأة، ولن أرى في الحياة، بعد اليوم، شيئاً سواها. فدورة الأزمان قد انتهت، هذه هي قضيتي. في تلك اللحظة، فجأة، كأنما عمداً، كان معي ثلاثة آلاف روبل، أنا، الذي لست إلا شحاذاً... فذهبنا معاً إلى موكرويه التي تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخاً، فوجدت هناك غجراً، رجالاً وبنات، وفتحت زجاجات شمبانيا، وسقيت جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات؛ أنفقت هناك الآلاف الثلاثة. وبعد ثلاثة أيام، لم يبق معي شيء. أصبحت عارياً مثل عقاب. وماذا كسب هذا العقاب؟ هل تعتقد أنني ظفرت منها بشيء؟ لقد رفضت أن تُريني شيئاً ولو عن بُعد. أقول لك هذا: إنها رشيقة، إن في جسدها نوعاً من تثنٍّ، غروشنكا المومس، تراه حتى في ساقها أيضاً، وتراه حتى في الإصبع الصغيرة من قدمها اليسرى. إنها تنساب انسياباً. لقد رأيت هذه الإصبع، وقبَّلتها، ولكن ذلك كان كل شيء. أقسم لك! كانت تقول لي: «أتزوجك إذا شئت، رغم فقرك. قل لي بأنك لن تضربني، وبأن تسمح لي أن أفعل ما أريد، فربّما أتزوجك». كانت تقول ذلك ضاحكة، وهي لا تزال تضحك حتى الآن!

نهض ديمتري فيودوروفتش من مكانه فجأة وبشكل هستيري. صار كالسكران دفعة واحدة. احتقنت عيناه دماً.

- إذن، صحيح أنك تريد أن تتزوج بها؟

- إذا وافقت، تزوجتها فوراً. وإذا رفضت بقيت كما أنا؛ سأعيش خادماً عندها. وأنت... أنت، أليوشا... قال ذلك وتوقف فجأة أمامه، وأمسكه من كتفيه وراح يهزّه بقوة: هل تعلم أيها الصغير البريء أن هذا كله ليس إلا هذياناً، ليس إلا كلاماً يدل على جنون، وأن الأمر هو أمر مأساة! إعرف يا ألكسي، أنه بإمكاني أن أكون رجلاً دنيئاً تستبد به رغبات دنيئة حقيرة. أما أن أكون لصاً صغيراً، نشّالاً، فذلك ما لا يمكن أن يكونه ديمتري كارامازوف أبداً! إذن، فاعلم أنني لص صغير، أنني لص نشال! قبل أن أذهب إلى غروشنكا لأضربها، كانت كاترينا إيفانوفنا قد استدعتني إلى منزلها سراً، وكلَّفتني (راجيةً أن أنفّذ طلبها في السرِّ فما يعلم به أحد)، أن أذهب إلى مركز المقاطعة، فأرسل هناك بواسطة البريد ثلاثة آلاف روبل إلى أغافيا إيفانوفنا في موسكو، حتى لا يعرف أحد بالأمر هنا. فهذه الثلاثة آلاف روبل هي التي كانت في جيبي عندما ذهبت إلى غروشنكا، وذهبنا معاً إلى موكرويه. بعد ذلك، تظاهرت بأنني ذهبت إلى المدينة ولكنني لم أسلّمها إيصال البريد، وإنما أكدت لها أنني أرسلت المال ووعدتها بأن آتيها بالإيصال في يوم آخر. وحتى الآن، لم أعطها إياه، لقد نسيت. والآن، ما رأيك، أنت، ستذهب إليها وتقول لها: «إنه يحييك». وستجيب هي: «والمال؟» فما عساك تقول لها؟ إنه طالب لذة دنيء. إنه كائن سافل لا يستطيع كبح شهواته. لم يرسل لك مالك، من قبل أن أنفقه، لأنه لم يستطع أن يضبط نفسه، إنه بهيمة. ولكن، مع ذلك، يمكنك أن تضيف: «لكنه ليس لصاً، هذه هي الثلاثة آلاف روبل، يرسلها إليك، وارسليها بدورك إلى أغافيا إيفانوفنا، وهو يحيّيك». وهنا، ستقول لك فوراً: «والمال؟».

- ميتيا، أنت تعيس، أجل! ولكن ليس بقدر ما تتصور - لا تنتحر يائساً، لا تنتحر!

- لماذا تفكر بأنني سأنتحر. لأنني لا أستطيع أن أردَّ لها الثلاثة آلاف روبل؟ هل هذه هي المشكلة، لا أريد أن أنتحر. ليست لديَّ القوة الآن، ربَّما فيما بعد.

- وماذا ستفعل عندها؟

- سأصبح زوجها. سأنال هذا الشرف. وإذا جاء عشيقها يزورها سأختبىء في الغرفة المجاورة. وسأنظف أحذية أصدقائها القذرة، وسأغلي الماء في السماور، وسأتولّى شراء ما تكلفني به...

- ستفهم كاترينا إيفانوفنا كل شيء. قال أليوشا بصوت مهتاج فجأة. ستفهم مدى تعاستك وستسامحك. إنها تتمتع بذكاء فذّ. لا يمكن أن يكون أحد أتعس منك، وستعرف هي نفسها هذا.

- لن تقبل شيئاً أبداً. أجاب ميتيا. ثمة أشياء، يا أخي العزيز، لا يمكن أن تقبلها أي امرأة. وأنت تعرف ما هو أفضل شيء تقوم به؟

- ماذا؟

- أن تردَّ إليها الثلاثة آلاف روبل.

- ولكن من أين آخذ هذا المبلغ؟ إسمعني: لديَّ ألفا روبل، وإيفان سيعطي ألفاً آخر، فيصير المجموع ثلاثة آلاف. خذ هذه الآلاف الثلاثة وردَّها إليها.

- ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة في جيبك؟ إنك ما زلت قاصراً حتى الآن، ولا بدَّ أن تذهب لتحيِّيها، في هذا اليوم نفسه، بالمال أو بدون المال، لأنني لا أستطيع أن أتحمَّل هذا الوضع. لقد بلغت الأمور هذا الحدّ. غداً سيكون قد فات الأوان، سيكون قد فات. سوف أرسلك إلى الوالد.

- إلى الوالد؟

- نعم، ستذهب إلى الوالد قبل أن تذهب إليها، وتطلب منه ثلاثة آلاف روبل.

- ما هذا الكلام يا ميتيا؟ لن يعطي هذا المبلغ. أعتقد أنه لن يعطيه، أعرف ذلك. هل تعلم يا ألكسي ما هو اليأس؟

- أعرف.

- فاسمع إذن: قانونياً، ليس مديناً لي بشيء أبداً، فقد أخذت حقوقي كلها، أعرف ذلك، ولكنه مدين لي أخلاقياً، أليس كذلك؟ يجب أن يدفع لي شيئاً ما. هل هذا صحيح أم لا؟ لقد شقّ طريقه في الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التي خلَّفتها أمي، فكسب من استثمار هذا المبلغ مئة ألف. فليعطني من هذه الثمانية وعشرين ألفاً، فليعطني ثلاثة آلاف فقط، لا أكثر، فينقذني من هذا الجحيم، وتُغفر له بذلك خطاياه الكثيرة! وأقسم لك إنني سأختفي متى حصلت على هذه الآلاف الثلاثة، فلا يرى وجهي بعدئذ ولا يسمع شيئاً عني. للمرة الأخيرة أوفّر له فرصةً ليتصرف كونه أباً.

قل له إن الله نفسه هو الذي يوفّر له هذه الفرصة.

- ميتيا، لن يعطي شيئاً أبداً.

- أعرف ذلك. أعرف أنه لن يعطي شيئاً، أعرفه جيداً، وخاصة الآن. وفوق ذلك، إليك ما أعرف أيضاً: الآن في هذه الأيام الأخيرة، ربما أمس فقط، وللمرة الأولى، عرف للمرة الأولى بشكل جدي (شدد على بشكل جدي) أن غروشنكا لا تمزح وأنها قد تتزوجني حقاً. هو

يعرف طبعها، هذه القطَّة، ويرى مخالبها. فهل يمكن أن يعطيني مزيداً من المال لكي يشجعها على تنفيذ نيَّتها، وهو عاشق مجنون بها؟ وليس هذا كل شيء، سأقول لك شيئاً آخر: أنا أعرف أنه، منذ خمسة أيام، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل، وأبدلها أوراقاً نقدية من فئة المئة روبل، ووضعها في حزمة كبيرة مختومة بخمسة خواتم، وربطها بشريط أحمر متصالب. ها أنت تلاحظ أنني مطَّلع على كل التفاصيل! وكتب على الحزمة هذه العبارة: «إلى ملاكي غروشنكا، إذا هي وافقت أن تجيء». كتب هذه العبارة هو نفسه، في كثير من العناية، وفعل ذلك كلّه سراً وبصمت. فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده، ما من أحد يعرف هذا الأمر إلا الخادم سمردياكوف الذي يثق به كما يثق بنفسه. إذن، هو الآن ينتظر وصول غروشنكا، منذ ثلاثة أيام أو أربعة، آملاً أن تجتذبها هذه الحزمة. لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها، فأجابته بأنها: «قد تجيء». لكن إذا ذهبت إلى العجوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك؟ هل عرفت، الآن، لماذا أختبىء في هذا المكان أترقَّب ما سيحدث؟

- تترقّبها هي؟

- أجل، هي. إن هاتين المومستين الجارتين قد أجَّرتا فوما غرفة من منزلهما، فوما هذا، رجل من مدينتنا، جندي سابق، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس في الليل. وفي النهار، يذهب إلى صيد ديوك الخلنج، ومنه يكسب رزقه. وأنا، الآن، أختبىء عنده. فلا هو، ولا العجوزان يعرفون السرّ، أي ماذا أراقب هنا.

- هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر؟

- وحده فقط. وهو الذي سيبلغني إذا حضرت إلى منزل العجوز.

- أهو الذي حدَّثك عن الحزمة؟

- أجل. هو من أخبرني السرّ الرهيب. حتى إيفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال. لقد قرر العجوز أن يرسل إيفان إلى تشرماشنيا، يوماً أو يومين للقيام بجولة هناك. جاء إليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل، فألحَّ العجوز على إيفان قائلاً: «اذهب إلى هناك نيابةً عني. قدِّم لي هذه الخدمة» والعجوز، يهدف إلى إبعاده يومين أو ثلاثة لكي لا يكون حاضراً عندما تأتي غروشنكا.

- إذن، هو ينتظر غروشنكا اليوم؟

- لا، لن تجيء اليوم. هناك قرائن تثبت ذلك. لن تأتي اليوم بدون شك! صاح ميتيا فجأة: سمردياكوف هو من هذا الرأي أيضاً، والوالد الآن يسكر، ومعه أخونا إيفان. إذهب إليه يا ألكسي واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة...

- ميتيا، عزيزي، ماذا دهاك؟ صاح أليوشا وهو ينهض فجأة من مكانه، ويتفرَّس في وجه ديمتري فيودوروفتش المضطرب، وقد اعتقد أنه أصبح مجنوناً.

- ماذا دهاك؟ لم أصبح مجنوناً بعد؟ قال ديمتري فيودوروفتش ببطء يشبه الأبهة وهو يحدّق إليه:

- أرسلك إلى الوالد، وأعرف ماذا أقول: أعتقد بالمعجزة.

- معجزة؟

- معجزة من العناية الإلهية. يستطيع الله أن يقرأ ما في قلبي ويرى يأسي. إنه يرى ما يجري هنا. هل يرضى أن يتمَّ هذا الأمر الفظيع؟ أنا أؤمن بالمعجزة، يا أليوشا، اذهب إليه!

- سأذهب. قل لي. هل ستنتظرني هنا؟

- سأنتظر. أعلم أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً وأنك لن تستطيع أن تنجح في مهمتك فوراً، لا بدَّ أنه سكران. سأنتظر ثلاث ساعات، أربعاً، خمساً وستاً وسبعاً إذا اقتضى الأمر. واعلم مع ذلك أن عليك الذهاب اليوم بالذات، ولو في منتصف الليل، أن تذهب إلى كاترينا إيفانوفنا، بمالٍ أو بدون مال، لتقول لها: قال لي إنه يحيّيك. إنني أحرص كلياً على أن تقول لها هذه العبارة: «كلَّفني أن أنقل إليك احترامه».

- ميتيا، ماذا لو جاءت غروشنكا اليوم... أو غداً أو بعد غد؟

- غروشنكا؟ سأترصدها، سوف أسرع وأمنعها من الوصول...

- وإذا...

- وإذا حدث؟ عندئذ سأقتل! لن أعيش.

- من ستقتل؟

- العجوز. أما هي فلن أقتلها.

- أخي العزيز، ما هذا الكلام؟

- لكن، لست أدري، لست أدري... ربما لن أقتله، ربَّما قد أقتله... أخشى ألّا أطيق رؤية وجهه، في تلك اللحظة، أكره جوزة عنقه وأنفه وعينيه وأكره ضحكته الخليعة. إنه يوقظ فيَّ قرفاً فظيعاً. ذلك ما أخشاه. قد لا أستطيع أن أسيطر على نفسي...

- أنا ذاهب إليه يا ميتيا. أعتقد أن الله سيفعل كل شيء من أجل ألّا يقع هذا الأمر الرهيب.

- أنا، سأبقى هنا، سأنتظرك هنا، آملاً أن لا تحدث معجزة.

وذهب أليوشا إلى منزل والده مفكراً.

VI

سمردياكوف

وجد والده لا يزال جالساً إلى المائدة فعلاً. كانت المائدة، حسب عادته الدائمة، موضوعة في غرفة الاستقبال رغم أن في المنزل غرفة طعام لائقة. كانت غرفة الاستقبال أوسع غرفة في المنزل، وذات أثاث قديم من باب الأبهة. أثاثها من الطراز القديم جداً مطليّ باللون الأبيض، منجَّد بقماش عتيق أحمر، نصفه من حرير والنصف الآخر من القطن. وعلى الجدران، بين النوافذ، وُضعت مرايا لها أطر مفخَّمة محفورة من طراز قديم، بيضاء اللون أيضاً ومذهَّبة. وعلى الجدران ورق مرسوم أبيض متشقق، وهنا وهناك نرى لوحتين كبيرتين، (بورتريه)، إحداهما، لست أدري لأي أمير كان حاكماً عاماً للمقاطعة قبل ثلاثين عاماً، والثانية لأسقف مات هو أيضاً منذ زمن بعيد. وفي الزاوية الأمامية عدد من الإيقونات تضاء أمامها في الليل مصابيح زيت، لا من قبيل التقوى بل لتبقى الغرفة مضاءة أثناء الليل. ذاك أن فيودور بافلوفتش لا ينام إلا في ساعة متأخرة جداً، في الثالثة أو الرابعة فجراً. ويقضي وقته، قبل ذلك، يتمشَّى في الغرفة إلى ما لا نهاية، أو يجلس على مقعد ليفكّر. أصبح هذا الأمر عادة له. وكان غالب الأوقات يبقى وحيداً طوال الليل بعد أن يصرف خدمه إلى المبنى الملحق. ولكن في أكثر الأحيان، يحتفظ بخادمه سمردياكوف الذي ينام في القبو على بنك خشبي. عندما دخل ألكسي، كانت وجبة الطعام قد انتهت، وجيء بالحلوى والقهوة. كان فيودور بافلوفتش يحب أن يأكل شيئاً من الحلوى بعد الغداء أثناء شرب كأس صغيرة من الكونياك. وكان إيفان فيودوروفتش بجانبه إلى الطاولة يحتسي القهوة. وكان الخادمان غريغوري وسمردياكوف واقفين قرب الطاولة. وكان يبدو في تصرف السيدين والخادمين، على السواء، مرح غير عادي. فيودور بافلوفتش يضحك ويقهقه بصوت عالٍ، وقد سمع أليوشا، وهو في المدخل، ضحكته الثاقبة التي يعرفها جيداً. فاستنتج فوراً من هذا الضحك أن والده لا يزال بعيداً عن حالة السكر، فهو مسترسل في نوبات الغبطة.

- ها هو ذا! ها هو ذا! صاح فيودور بافلوفتش فجأة وقد سرَّه أن يرى أليوشا: تعال وانضمّ إلينا، اجلس، قهوة؟ بدون سكّر، بدون سكّر، إنها ساخنة ولذيذة! لا أقدّم إليك كونياكاً، فأنت صائم. ولكن، هل تريد، هل تريد؟ لا، من الأفضل أن أقدّم إليك شراباً روحياً رائعاً! يا سمردياكوف، اذهب وافتح الخزانة... على الرف الثاني إلى اليمين. إليك المفاتيح، أسرع!

أراد أليوشا أن يرفض فوراً المشروب الروحي. قال له والده مشرق الوجه:

- على كل حال، سيؤتى بالمشروب، إن لم يكن إليك فسيكون لنا نحن. بالمناسبة، هل أكلت أم لا؟

لقد أكلت، قال أليوشا الذي لم يكن قد أكل، في الواقع، إلا كسرة خبز وشرب كوباً من عصير التفاح في مطبخ رئيس الدير: يمكن أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة، وسأكون شاكراً.

- برافو، يا عزيزي! سوف يشرب قهوة! أليس من الأفضل تسخينها؟ ولكن، لا، إنها لا

تزال تغلي. قهوة ممتازة. لقد حضَّرها سمردياكوف. صاحبي سمردياكوف فنان في إعداد القهوة وتحضير الفطائر، وكذلك في طهو حساء السمك. صحيح. تعال إلينا، ذات يوم، لتذوق حساء السمك هذا. لكن أعلمني مسبقاً. انتظر، انتظر، ألم آمرك هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود إلى المنزل نهائياً؟ ها، ها، ها، هل أتيت بفراشك؟

- لا، لم أجلبه. أجابه أليوشا مبتسماً.

- لقد خفتَ، لقد خفت منذ قليل، ها؟ لقد أخفتك؟ يا حبيبي، أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أجعلك تحزن. اسمع يا إيفان. لا أستطيع أن ينظر إلى عينيَّ ضاحكاً، لا أستطيع. فأحشائي تتحرك عندئذ. لأنني أحبه. اقترب يا أليوشا، أريد أن أمنحك بركتي الأبوية.

نهض أليوشا، ولكن فيودور بافلوفتش كان قد غيَّر رأيه:

- لا، لا. اجلس هنا. سوف تتسلَّى الآن، وخاصة بصدد مسألته، سوف تضحك كثيراً. تخيَّل أن أتان بلعام بدأت تتكلّم. وكيف تتكلّم، تتكلّم وما أفصحها!

لقد تبين أن أَتان بلعام ليست سوى الخادم سمردياكوف. شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين، كان يبدو شديد العزلة وسكوتاً، ليس لأنه متوحش أو خجول، لا، فهذه طباعه، فهو، في الواقع، عكس ذلك، إنه جسور حتى ليبدو عليه أنه يحتقر كل الناس. ولا بدَّ من القول، ولو بكلمتين، وبدقة، إن مارفا اينياتيفنا وغريغوري فاسيليفتش هما اللذان تولّيا تربيته، وقد شبَّ الصغير على نكران الجميل. كما كان يقول غريغوري، صبياً متوحشاً ينظر إلى الناس بازدراء. كان في طفولته يجد لذة كبيرة في أن يشنق قططاً ثم يدفنها بشكل احتفالي. وفي هذه المناسبات، يتدثَّر ببطانية يتخذها بمثابة جبّة كاهن، ويرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق القطة الميتة كمن يحمل مبخرة. وكان يسترسل في هذه اللعبة في خلوة تامة وسرّية كبيرة. فلما فاجأه غريغوري، ذات يوم، وهو يمارس هذه الرياضة، عاقبه بالضرب بالسياط. فانزوى الصغير، يومئذ، في إحدى الزوايا، وراح ينظر نظرة غضب وتهديد خلال أسبوع كامل.

- إنه لا يحبّنا، أنا وأنتِ، هذا المتوحش ولا يحبّ أحداً. كان غريغوري يقول لمارفا إينياتيفنا. ثم قال فجأة، وهو يلتفت إلى سمردياكوف: هل أنت بشري؟ أنتَ لست بشرياً! أنت ثمرة رطوبة الحمّامات. هذا هو أنت. لم يغفر سمردياكوف لغريغوري تلك الأقوال، كما اتضح ذلك فيما بعد. لقد علَّمه غريغوري القراءة قبل أن يبلغ الصبي السنة الثانية عشرة. راح يعلّمه التاريخ المقدس. لكن هذه المحاولة سرعان ما فشلت. ففي ذات يوم، أثناء الدرس الثاني أو الثالث، بدأ الصبي يضحك فجأة.

- ما بك؟ سأله غريغوري وهو يرشقه بنظرة قاسية من خلف نظارتيه.

- لا شيء. إن الله قد خلق الضياء في اليوم الأول، وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والكواكب، فمن أين جاء الضياء إذن في اليوم الأول؟

بُهت غريغوري لحظة. وكان الصبي ينظر إلى معلّمه بسخرية، حتى لقد كانت عيناه تنمَّان عن ازدراء. فلم يستطع غريغوري أن يلجم غيظه فإذا هو يضرب تلميذه على خدّه لطمة قوية وهو يقول له: من أين؟ من هنا.. وتلقَّى الصبي الصفعة دون أن ينبس بكلمة، ولكنه حزن وتوقّف عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام. وبعد ذلك الحادث بأسبوع أصابته أول نوبة من الصرع، وهو المرض الذي لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته. فعندما عرف فيودور بافلوفتش بالأمر تبدَّل موقفه من الفتى، وكان حتى ذلك الحين، لا يكترث له، رغم أنه لم يوبّخه أبداً، حتى لقد كان يعطيه كوبيكاً كلما صادفه. وكان يتفق له في حالات المزاج

الطيب أن يرسل إلى الصبي من مائدته بعض الحلوى. ولكن بعد أن عرف بمرضه، راح يهتم به بجدّية، فاستدعى طبيباً وأراد معالجته. لكن المرض استعصى على الشفاء. كانت نوبات الصرع تنتابه مرة في الشهر وبشكل منتظم. وهي على تفاوت في طول المدة، واختلاف في قوة النوبة. فالنوبة خفيفة تارة وخطيرة تارة أخرى. وقد حظر فيودور بافلوفتش على غريغوري أن ينزل في الصبي عقوبات جسدية. وأخذ يستدعي الصبي إليه من وقت إلى آخر. كما عارض في تعليمه أيّ شيء خلال تلك الفترة أخذاً بالاعتبار حالته الصحية. ومع ذلك، حدث في ذات يوم أن فاجأ فيودور بافلوفتش الفتى الذي أصبح مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره، قرب خزانة الكتب وهو يحاول أن يقرأ عناوين المؤلفات من وراء زجاج المكتبة. كان فيودور بافلوفتش يملك عدداً وافراً من الكتب. كان يملك نحو مئة كتاب، ولكنه لم يفتح أيَّ كتاب منها. وسرعان ما بادر فيودور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح المكتبة قائلاً له: اقرأ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتي بدلاً من التسكع في الخارج؛ وتناول فيودور بافلوفتش كتاباً عنوانه «سهرات في المزرعة قرب ديكانكا»[17]، اسمع، خذ هذا الكتاب أولاً.

قرأ الفتى الكتاب، ولكن لا يبدو عليه أنه أعجبه، حتى أنه لم يبتسم مرة واحدة، وبالعكس، انتهى من قراءته متجهم الوجه.

- وماذا؟ أليس كتاباً مضحكاً؟ سأله فيودور بافلوفتش.

سكت سمردياكوف.

- أجبْ، يا أهبل! قال فيودور بافلوفتش.

- كلّ هذا أكاذيب. أجاب سمردياكوف.

- إذن، فاذهب إلى الجحيم أيها الذليل. طيب. خذ. اقرأ «التاريخ العام» من تأليف سماراغدوف. ستجد فيه أحداثاً واقعية. اقرأ.

لكن سمردياكوف لم يقرأ من كتاب سماراغدوف أكثر من عشر صفحات حتى بدا له مضجراً. وأُعيد إغلاق المكتبة. بعد ذلك بقليلٍ، نقل غريغوري ومارفا إلى فيودور بافلوفتش أن سمردياكوف أصبح يقف من الطعام موقفاً فيه حساسية وتأذٍ كبير. صار حين يجلس إلى المائدة ليتناول حساءه، يمسك الملعقة ويقلّب بها الحساء مدققاً ومدققاً، وينعم النظر في الطبق طويلاً، ثم يملأ ملعقته ويذهب بها إلى الضوء.

- هل في الحساء خنفساء أم ماذا؟ سأله غريغوري.

- ربَّما ذبابة؟ أضافت مارفا.

لكن الفتى المتقزز من النظافة، لا يجيب شيئاً، لكنه تبين أن الأمر نفسه يحصل إزاء جميع أصناف الطعام سواء كان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك. يرفع شوكته فيأخذ بطرفها لقمةً يتفحصها طويلاً قبل أن يأكلها، كأنما هو يفحصها بميكروسكوب، ويتردّد وقتاً طويلاً لكي يقرر، وفجأة يضعها في فمه. لا، لكن هل تتصور نفسك سيداً؟ تمتم غريغوري محدِّقاً إليه. فلما أُبلغ فيودور بافلوفتش موقف سمردياكوف الجديد هذا، قرر فوراً أنه يصلح أن يكون طاهياً. فأرسله إلى موسكو ليتعلّم المهنة. قضى سمردياكوف عدة سنوات يتعلم المهنة، ثم عاد وقد تغيَّر وجهه كثيراً. دبَّت فيه الشيخوخة بشكل غريب فتغضَّن وجهه مما لا يتَّفق وعمره؛ واصفرّ لونه وصار شبيهاً بمخصيّ. أما من الناحية الأخلاقية فهو لم يتغيَّر عما كان عليه قبل ذهابه إلى موسكو. فهو لايزال متوحشاً لا يشعر بحاجة إلى أن يعيش في صحبة الناس. وفي موسكو أيضاً، كما عُرف فيما بعد، قضى وقته صامتاً، فمدينة موسكو لما هي

عليه لم تشغفه كثيراً، ولم يعرف منها إلا أماكن قليلة هنا وهناك. وقد ذهب، ذات مرة، إلى المسرح وعاد منه صامتاً ومستاءً. وفي المقابل، عاد إلينا من موسكو يرتدي ثياباً أنيقة وسترة وملابس داخلية نظيفة. ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين في اليوم، ويجد لذة خاصة في أن يمسح حذاءيه الأنيقين بدهانٍ إنجليزي خاص حتى يلمعا أكثر من مرآة. وكطاهٍ، برهن على أنه عظيم. وحدّد له فيودور بافلوفتش أجراً معلوماً، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس، ودهان الشعر، وشراء العطور، الخ، ومع ذلك، كان يبدو أنه يكره الجنس النسائي كرهه للرجال. يبتعد عنهنّ لكأنَّ وصولهنّ إليه مستحيل. وقد دُهش فيودور بافلوفتش من هذه الظاهرة، وراح ينظر إليها نظرة خاصة لأن له رأيه في هذا الموضوع. ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدّت وتكاثرت في ذلك الوقت، حتى أن مارفا إينياتيفنا اضطرت أن تقرّر إعداد وجبات الطعام بنفسها، في تلك الأيام. وذلك أمر لم يهتم به كثيراً فيودور بافلوفتش: لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع؟ كان يقول للطاهي الجديد، أحياناً، وهو يتفرس في وجهه وينظر إليه باشتباه: يمكنك أن تتزوج. بأيّ كانت؟ هل تريد أن أجد لك زوجة؟...

لكن سمردياكوف كان يصفر وجهه عند سماع هذه الأمور، ولا يجيب عن هذه الأسئلة؛ فينصرف عنه فيودور بافلوفتش عاجزاً. المهمّ أنه كان مقتنعاً بشهامته. كما أمكن أن يقتنع فيودور بافلوفتش بذلك مرة إلى الأبد، فهو لا يمكن أن يسرق شيئاً ولا يسطو على شيء أبداً. وذات يوم، استبدَّ السكر بفيودور بافلوفتش فأضاع في فناء منزله، في الوحول ثلاث أوراق نقدية ملونة كان قد قبضها منذ قليل، ولم يفتقدها إلا في صباح غدٍ، ما إن راح يفتش في جيوبه كلها حتى لمحها على طاولته. من أين جاءت إلى هنا؟ إن سمردياكوف قد عثر عليها فحملها إلى سيّده منذ عشية البارحة.

- أخي العزيز، لم أصادف في حياتي أناساً مثلك حتى اليوم». قال له فيودور بافلوفتش. يجب أن نضيف إلى هذا أنه لم يكن على اقتناع بأمانته فحسب بل كان يحبه أيضاً، ولست أدري لماذا، رغم أن الفتى كان متوحشاً معه كما مع الآخرين، وكثيراً ما كان ينظر نظرة شزراء ويلزم الصمت. وكان نادراً ما يتكلم، فلو تساءل أحد، في ذلك الوقت، وهو ينظر إليه لعلّه يشغل باله، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جواباً. ومع ذلك، سواء في المنزل أو في الفناء، أو في الشارع، كان يتوقف، فجأةً، ويبدو عليه أنه مسترسل في تفكير عميق خلال عشر دقائق أو أكثر، دون أن يتحرك من مكانه. ولو نظر إليه، في مثل هذه اللحظات، عالم فِراسة لأدرك أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع، وأن الأمر مجرد استسلام للأحلام، للرسام كرامسكوي لوحة رائعة عنوانها «المتأمل». تمثل غابة، في فصل الشتاء، وقد وقف في الغابة على الممر الذي يقطعها، فلاح يرتدي قفطاناً وينتعل خفَّين مثقوبين، فهو في عزلة تامة. لقد ضلَّ الفلاح طريقه هناك فبدا في العزلة الكاملة غارقاً في التأمل. والحق أن الرجل لا يفكر بل هو غارق في «التأمل»، فلو دفعه أحدهم، في تلك اللحظة، لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم وهو ينظر حوله لا يفهم شيئاً مما حدث له، وسرعان ما يعود إلى رشده. فلو سألته، في تلك اللحظة، عما كان يفكر لما استطاع أن يجيبك بشيء. ولكنه سيظل محتفظاً في أعماق نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله ذاك في تأملاته، وهي مشاعر عزيزة عليه، يجمِّعها في نفسه كما يدَّخر البخيل على نحوٍ لا يدركه بل ولا يشعر به، وهو لا يدري طبعاً لماذا يفعل ذلك، لم يعرف شيئاً: ربما هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنوات عديدة دفعته، ذات يوم، إلى أن يهجر كل شيء، فجأة، ويذهب إلى القدس تائهاً ينشد الخلاص، أو تدفعه، لا تدري لماذا، إلى أن يشعل النار في قريته فيحرقها. وقد يفعل الأمرين كليهما. إن هؤلاء الحالمين كُثُر في شعبنا. وبدون شك، إن سمردياكوف كان واحداً منهم، فهو يُراكم في نفسه المشاعر بنهم دون أن يعرف حتى الآن لماذا.

VII

المجادلة

لكن أتان بلعام بدأت تتكلم فجأة. وكان الموضوع غريباً: إن غريغوري عندما كان يحمل مشترياته من دكان التاجر لوكيانوف في الصباح سمع قصة جندي روسيّ وقع في الأسر عند تخوم البلاد البعيدة، لدى الأسيويين، فأرادوا إكراهه على إنكار المسيحية واعتناق الإسلام. فرفض أن ينكر إيمانه وارتضى أن يستشهد، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجّد المسيح. كانت صحف ذلك اليوم تتحدث عن مأثرة هذا الجندي، وهذا ما رواه غريغوري أثناء الغداء. كان فيودور بافلوفتش يحب أن يمزح، في كل مرة، بعد الغداء أثناء تناول الحلوى وأن يدخل في حديث صغير ولو مع غريغوري. وكان، في ذلك اليوم، مرح المزاج مبتهج النفس. وبعد أن استمع إلى هذه القصة وهو يتمزّز كأس كونياك، قال إن من الواجب أن يرفع ذلك الجندي، فوراً، إلى مصاف القديسين وأن يُهدى جلده المسلوخ إلى أحد الأديرة، «لكي يجتذب الجماهير والمال»! فقطَّب غريغوري حاجبيه عندما لاحظ أن فيودور بافلوفتش استرسل في التجديف كما هي عادته بدلاً من أن يتأثر. في تلك اللحظة، سُمع سمردياكوف يطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب. كان سمردياكوف قد سُمح له غالباً، حتى في السنوات السابقة، أن يحضر وجبات الطعام واقفاً أمام المائدة أي أن يستمع إلى المناقشات التي تليها. لكنه اعتاد منذ وصول إيفان فيودوروفتش إلى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الطعام في كل يوم تقريباً.

- ما بك؟ سأله فيودور بافلوفتش عندما سمع قهقهاته فعرف فوراً أنه يسخر، من غريغوري بالتأكيد.

- بصدد هذه القصة. أجاب فجأة سمردياكوف بشكل أخاذ وبصوت مرتفع. أنا أرى أن مأثرة ذلك الجندي الجدير بالثناء كانت عملاً بطولياً، ولكنني أرى أنه ما كان ليُحسب خاطئاً لو أنكر اسم المسيح ومعموديته، إنقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظاً بها لحسنات تكفِّر، بعد سنوات، عن ضعفه.

- ما كان ليُحسب خاطئاً؟ كيف هذا؟ أنت تكذب، وستذهب إلى هناك، إلى جهنم، وستُشوى مثل الخروف. أجاب فيودور بافلوفتش.

وهنا كان قد دخل أليوشا. وفيودور بافلوفتش، كما سبق أن رأيناه، كان مسروراً برؤيته بشكل غريب. قال، مع ضحكة صغيرة مرحة وهو يدعو أليوشا إلى الجلوس:

- هذا موضوع يهمّك أنت، هذا موضوع يهمّك أنت!

- بالنسبة إلى موضوع الخروف فليس الأمر على هذا الشكل؛ لن يكون هناك عقاب بسبب رأيٍ من هذا النوع، يجب ألّا يكون هناك عقاب إذا أردنا العدل الحقيقي. قال سمردياكوف بوقار.

- كيف ذلك، إذا أردنا العدل؟ صاح فيودور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح

وهو يلكز ركبة أليوشا.

- هذا فجور، لا أكثر! قال غريغوري وهو يحدّق إلى عينيّ سمردياكوف بغضب.

- أما عن قولك إن ذلك فجور، أليس كذلك، انتظر قليلاً يا غريغوري فاسيليفتش. قال سمردياكوف بصوت هادىء ورصين. واحكم أنت بنفسك: هبْ أنني وجدت نفسي أسيراً لدى جلّادي الجنس المسيحي وطلبوا مني أن ألعن اسم الله وأن أتنكَّر لمعموديتي المقدسة، أنا، ألا يسمح العقل في هذه الحالة أن أفعل ذلك، ولن تكون في هذا خطيئة.

- لكن، سبق أن قلت هذا، لا تكرّر ما سبق أن قلته، عليك أن تبرهن على ذلك!

- طاهٍ فاشل! دمدم غريغوري باحتقار.

- أما عن قولك طاهٍ فاشل، أجاب سمردياكوف. هنا أيضاً، تمهّل قليلاً، ولا تشتمني، بل فكِّر أنت يا غريغوري فاسيليفتش. هبْ أنني قلت لجلّاديَّ، لا، لست مسيحياً وأنا أنكر الله. أفلا تدينني محكمة الله الأسمى، في تلك اللحظة عينها، وتلعنني وأكون قد حُرمت من الكنيسة المقدسة، كأيّ وثني، منذ تلك اللحظة، بل منذ اللحظة التي تفوَّهت فيها بتلك الكلمات، بل منذ اللحظة التي راودتني فيها فكرة النطق بهذه الكلمات، بحيث لا يمضي ربع ثانية إلا وأكون قد حُرمت؟ أليس هذا صحيحاً أم لا، يا غريغوري فاسيليفتش؟

كان واضحاً أن سمردياكوف وجد لذة في التوجُّه بكلامه إلى غريغوري فاسيليفتش رغم أنه لا يجيب، في الواقع، إلا عن أسئلة فيودور بافلوفتش، وكان يعرف ذلك تماماً، لكنه يتظاهر بأن تلك الأسئلة إنما طرحها غريغوري.

- إيڤان! صاح فيودور بافلوفتش فجأة. ملْ عليّ كي أستطيع أن أهمس في أذنك.

- من أجلك يقول هذا الكلام، وهو ينتظر مجاملاتك، فامدحه إذن.

استمع إيفان فيودوروفتش بكثير من الاهتمام إلى هذه الملاحظة التي أسرَّ بها إليه والده.

- أسكت قليلاً يا سمردياكوف. عاد فيودور بافلوفتش يصيح. إيفان، ملْ إلى مستوى أذني.

مال إيفان إلى أذنه، مرة أخرى، مظهراً تلك الجدية السابقة نفسها.

- إنني أحبك كما أحب أليوشا. لا تفكر أنني لا أحبك. قليلاً من الكونياك؟

- بكل سرور. «أنت أيضاً، قد سكرت». قال إيفان فيودورفتش وهو يتفرس في والده. وكان، من جهة أخرى، يرقب سمردياكوف بانتباه يقظ.

- كافر وملعون منذ الآن! صاح غريغوري فجأة. كيف تتجرأ أن تستمر في المناقشة أيها الفاسق، عندما...

- قليلاً من الصبر. لا تطلق الشتائم، يا غريغوري، لا تطلق الشتائم! قاطعه فيودور بافلوفتش. وأصغِ إلى تتمة حديثي لأنني لم أنتهِ بعد. لأنني في الوقت عينه حيث يلعنني الله، فوراً، إذ ذاك، يعني في اللحظة القصوى، سأصبح مثل أيّ وثني تماماً. وتكون معموديتي قد أُلغيت، فلا يُحسب لها حساب، أليس هذا صحيحاً؟

فاستحثّه فيودور بافلوفتش بعد جرعةٍ من كأسه:

- أوصلنا إلى النتيجة، أيها الأخ العزيز، أسرع.

- إذا لم أعد مسيحياً، تابع سمردياكوف حديثه، إذن، يعني أنني لا أكذب على جلّاديَّ عندما يسألونني: «هل أنت مسيحي أم لست مسيحياً؟» طالما أن الله نفسه هو الذي أخرجني من مسيحيَّتي بسبب الشروع وحده وقبل أن يتسنى لي حتى قول كلمة واحدة لجلاديّ. فإذا كنت قد أُخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أُحاسب في العالم الآخر، وأيّ عدالة تقبل أن أُحاسب في العالم الآخر كما يحاسب مسيحي أنكر المسيح، مع أنني أكون قد جُردت من معموديتي بسبب نيتي وحدها حتى قبل أن أنكر ديني بالقول؟ إنني بعد أن جُردت من مسيحيتي، لا أنكر المسيح، لأنه لا يكون قد بقي لي دين أكفر به. هل يخطر ببال أحد، يا غريغوري فاسيليفتش، أن يلوم تتارياً ملعوناً على أنه لم يولد مسيحياً؟ من هو الذي يريد أن يعاقب مثل هذا التتاري، حتى في السماء؟ ما من أحد يسلخ ثوراً واحداً مرتين! وافترضْ أن الله القدير سيحاسب هذا التتاريّ بعد موته: إنه لن يوقع فيه إلا عقاباً بسيطاً (فمن غير المقبول ألّا يعاقب أبداً) ذلك أن الله يقدِّر أن هذا التتاري لم يأثم عندما وُلد من أبوين غير مسيحيّين. لا يمكن لله أن يرغمه بالقوة على القول إنه كان مسيحياً، ولا يمكن أن يعتبره مسيحياً، فإن اعتبره مسيحياً كان هذا كذباً واضحاً، والله، الذي هو ربّ السموات والأرض، لا يمكن أن يكذب، ولو في مناسبة واحدة، ولو في كلمة واحدة من كلماته.

بقي غريغوري أبكم مذهولاً يتطلع إلى الخطيب محملقاً. فهو، رغم أنه لم يستطع متابعة المناقشة قد أدرك بعض ما يتضمنه هذا الكلام المضطرب، فتجمّد كرجلٍ صدم الحائط بجبينه فجأة. وأفرغ فيودور بافلوفتش في فمه كأس الكونياك، وأطلق ضحكة حادة.

- أليوشكا، أليوشكا، هل رأيت هذا؟ يا له من حلَّالٍ للمشاكل! لا شك أنه تعلّم لدى اليسوعيين، ألا ترى ذلك يا إيفان؟ هذا اليسوعي السوقي؟ من الذي علَّمك كل هذا؟ لا تعرف سوى الكذب، يا حلّال القضايا الضميرية، تكذب وتكذب، وتعود فتكذب. اطمئن يا غريغوري، سوف نهدّم آراءه الوقحة، سوف نجعلها هباءً، حالاً وبدون إبطاء! قلْ لي أيها الأتان: لنفرض أنك على حق في موقفك من جلَّاديك، أنت، وفي قرارة نفسك، أنكرت إيمانك، وأنت قلتَ هذا الآن، وأصبحت في تلك اللحظة محروماً وملعوناً، فإذا كفرت فلن تكافأ على هذا في جهنم كما أتصوَّر. فبماذا تجيب عن هذا السؤال، أيها اليسوعي الظريف؟

- لا أنكر أنني أكون قد أنكرت ذاتي، وبالرغم من كل شيء، ليس في هذا أيّ خطيئة كبيرة، أليس كذلك، وإذا كانت خطيئة بسيطة فهذا خطأ عاديّ، عاديّ جداً.

- كيف هذا، عاديّ، عاديّ جداً؟

- كذّاب، وملعون، ملعوون. تمتم غريغوري.

- احكم في ذلك بنفسك، يا غريغوري فاسيليفتش. تابع سمردياكوف بصوت هادىء وواثق شاعراً بانتصاره ولكن مصطنعاً الكِبر مع خصم طُرح أرضاً. احكم أنت بنفسك يا غريغوري فاسيليفتش، لقد جاء في الكتاب المقدس أنه إذا كنت تملك الإيمان، ولولا تملك ذرة صغيرة منه، تستطيع أن تأمر هذا الجبل بأن ينتقل إلى البحر، فينتقل فوراً، عند أول أمر. إذن يا غريغوري فاسيليفتش، إذا كنت تبلغ من الإيمان ما يعطيك حقاً في إهانتي بدون انقطاع، فحاول، إذن، أن تأمر هذا الجبل لا لكي يذهب إلى البحر (فالبحر بعيد جداً من هنا) بل أن يتقدم قليلاً نحو ذلك الجدول الصغير الآسن الذي يجري وراء الحديقة. وسوف ترى بأم عينك في اللحظة ذاتها أنه لن ينتقل إلى أيّ مكان، وأنّ كل شيء سيبقى على ما كان

عليه، هادئاً جداً، مهما يكن صراخك قوياً. وهذا يعني، يا غريغوري فاسيليفتش، أنك أنت أيضاً لا تملك الإيمان الحقيقي بينما لا تكفّ عن إهانة الناس بذريعة أنهم لا يملكون الإيمان. يجب، وهنا أيضاً، أن نعترف على كل حال، أنه ليس في عصرنا هذا أحد على الإطلاق سواء كان أقوى الناس سلطة أو كان أحقر فلاح، لا يملك القدرة على أن ينقل هذا الجبل إلى البحر، ربما باستثناء رجل واحد أو اثنين، في أكثر تقدير، لكن هذين الرجلين لا بدَّ أن يكونا مختبئين في صحراء مصر ينشدان هناك الخلاص، فلا يمكننا العثور عليهما. وإذا كان الرجال الآخرون غير مؤمنين حقاً، يعني كل سكان الأرض إلا الراهبين الناسكين أو الثلاثة، وبأن الله يلعنهم بالرغم من كل رحمته التي نعرفها جميعاً فلن يغفر لأحد؟ ولهذا السبب، آمل إذا أنا شككت مرة أن أنال المغفرة بعد أن أذرف دموع الندم.

- توقَّف! صاح فيودور بافلوفتش بتألق. أنت تسلّم بأنَّ ثمة رجلين على الأقل في العالم يستطيعان أن يحركا الجبال إذن؟ سجِّل هذا يا إيفان. هذه هي سمة الرجل الروسيّ التي تنكشف في كل هذا.

كذلك قال فيودور بافلوفتش بصوت حاد كريه.

- ملاحظتك صحيحة تماماً، عندما ترى أن هذه سمة شعبية في الإيمان. قال إيفان فيودوروفتش مبتسماً.

- أنت موافق؟ إذن لا بدَّ أن أكون على حق. أليس كذلك يا أليوشا! إن ذلك سمة روسية؟

- لا، إن سمردياكوف ليس لديه الإيمان الروسي. قال أليوشا بلهجة حادّة وحاسمة.

- أنا لست أتكلم عن إيمانه بل عن هذه السمة، عن ذينك الناسكين. هذه السمة الصغيرة فقط: إنها سمة روسيّة، أليس كذلك، سمة روسيّة؟

- أجل، هي سمة روسية جداً. أجاب أليوشا مبتسماً.

قال فيودور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف:

- قولك هذا يساوي روبلاً، يا أتان، وسوف تقبضه اليوم بالذات. أما في ما عدا ذلك، فقد كذبت، كذبت، وأكرر إنك كذبت. فاعلم أيها الغبي أننا نحن جميعاً هنا، أن خفَّة العقل وحدها هي التي جعلتنا غير مؤمنين لأنّ وقتنا لا يتّسع للتفكير في الله، والله، ثانياً، قد أعطانا وقتاً قليلاً، أربعاً وعشرين ساعة فقط في اليوم، فنحن ليس لدينا الوقت لننام، ولا أقول الوقت اللازم للندامة. أما أنت فقد ارتددت عن إيمانك أمام جلّادك، مع أنه لا يمكن أن تكون في ذهنك فكرة أخرى غير فكرة الإيمان التي كانت هي بعينها التي يجب أن تكفل لها الغلبة! ألم تجر الخطيئة على هذا النحو، يا صديقي العزيز؟

- الخطيئة؛ هكذا جرت الأمور: لكن احكم أنت بنفسك يا غريغوري فاسيليفتش، إن ذلك يجعل الخطيئة أخفَّ شأناً ما دامت الأمور قد جرت بهذا الشكل. لأنه، إذا كنت مؤمناً، في تلك اللحظة بالحقيقة التي يجب أن أؤمن بها، عندئذ أرتكب خطيئة، في الواقع، إذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل إيماني وارتضيت أن أعتنق دين محمد الوثني. لكنني، ما كنت لأصل إلى الاستشهاد في تلك اللحظة، لأنه كان يكفيني أن أقول للجبل في تلك اللحظة: «تحرَّك واسحق جلّادي»، فيرتمي الجبل على الجلاد ويخنقه بثقله كأنه خنفساء، وأنا أمضي في سبيلي وكأن شيئاً لم يحدث، هادئاً، أرتل وأمجد الربّ. فإذا راودتني هذه الأفكار لتحقيق هذه الغاية منادياً: «اسحق الجلادين أيها الجبل»، فإذا بالجبل لا يستجيب لندائي أفلا

يهاجمني الشك عندئذ؟ هل قلت لي كيف يمكنني في مثل تلك الساعة من الخوف أن لا يساورني الشك؟ لقد عرفت سلفاً أنني لن أظفر بملكوت السماء كاملاً (لأنّ الجبل لم يتحرك وذلك دليل على أنّ إيماني ليس موضع ثقة هناك في الأعالي، ودليل على أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة). إذن، أيّ جدوى في أن يسلخوا جلدي حياً بدون فائدة؟ وحتى عندما يكونون قد سلخوا من جلد ظهري نصفه، فناديت الجبل مرة أخرى أن يسحقهم فإن الجبل لن يتحرك من مكانه رغم كل صراخي. ثم، وفي تلك اللحظة، يمكن أن أقع في الشك وأن أفقد عقلي بسبب خوفي بحيث أصبح عاجزاً حتى عن التفكير. ولماذا سأكون مذنباً إن لم أظفر لا بفائدة ولا بمكافأة، لا هنا ولا هناك - على الأقل أستطيع أن احتفظ بجلدي؟ إذن، انطلاقاً من رجائي الكبير برحمة الربّ، يتعزز أملي بأن خطاياي سوف تغفر بالكامل.

VIII

كأس كونياك صغيرة

كانت المناقشة قد انتهت ولكن الغريب هو أن فيودور بافلوفتش الذي كان يشعر بالغبطة قد اكفهرَّ وجهه وأفرغ كأساً أخرى من الكونياك في فمه، وبهذه الكأس تجاوز الحدَّ المألوف.

- انصرفا، هيّا، إليكما عنّي... أيها اليسوعيان! صاح بخادمَيه. سمردياكوف، أنت، إلى الخارج! وقبل حلول المساء سأرسل إليك الروبل الذي وعدتك به. وأنت يا غريغوري، لا تبكِ. إذهب إلى مارفا سوف تؤاسيك وتضعك في السرير. لا يدعاني أرتاح بعد الغداء، هذان الحقيران. أضاف، فجأة، بصوت ملؤه الغيظ وعندها اختفى الخادمان فوراً بعد تلقيهما الأمر؛ والآن، يأتي سمردياكوف كل يوم عند كل وجبات الطعام فهل أنت الذي تجتذبه؟ وماذا فعلتَ حتى فتنته؟ قال لإيفان فيودوروفتش.

- لم أفعل شيئاً على الإطلاق. أجاب هذا الأخير. إنما شعر نحوي بالاحترام. إنه خادم وحقير، لكنه من الذين يندفعون إلى الصف الأمامي متى حان الوقت.

- إلى الصف الأمامي؟

- سيكون هناك آخرون، أناس أفضل منه، ولكن سيأتي أيضاً أناس مثله، وهم الذين سيؤكدون أنفسهم في بادىء الأمر، ثم يأتي دور من هم أفضل منه.

- ومتى يحين الوقت؟

- ربما اشتعلت الأسهم النارية ثم انطفأت. إن الشعب لا يحب الآن هؤلاء الطهاة الفاشلين.

- هو هذا، يا أخي العزيز، بدأت أَتان بلعام تفكّر. هكذا، تفكّر، وتفكّر، والشيطان يعرف ذلك؛ إلى أين ستؤدي أفكارها في النهاية.

- إنه يجمِّع آراءه. قال إيفان ساخراً.

- أنا أعرف تماماً أنه يكرهني كما يكره الآخرين، وكما يكرهك أنت أيضاً رغم ما تظنّه من أنه «يكنُّ لشخصك الاحترام». أما بالنسبة لأليوشا، فهو يكره أليوشا، وهذا واضح جداً. لكن علينا أن نعترف أنه، في مقابل ذلك، لا يسرق، وهو يعرف كيف يسكت، ولا يثرثر خارج المنزل. وهو معلّم في طهو الفطائر. أما فيما عدا ذلك، فليذهب إلى الجحيم؛ وفي الحقيقة، ماذا يفيد التحدث عنه؟

- أما فيما يتعلق بأفكاره كلها، فأنا، من جهتي، أعتقد، على وجه العموم، أنَّ الفلاح الروسي يستحق أن يُضرب. لقد أكدت ذلك دائماً. إن فلَّاحنا هو سارق لا يستحق اللوم. ومن المستحسن الآن بأن يُضرب من وقت إلى آخر. والأرض الروسيّة لا تقوم إلا على الضرب.

فمتى تُقطع أشجار الغابات تضيع الأرض الروسيّة. أنا، أحب الناس الأذكياء. إننا أذكياء نحن. فقد توقَّفنا عن ضرب الفلاحين، وهم مستمرون في جلد أنفسهم. وما أعتاهم في ذلك: على قدر اعتبار المرء نفسه يكون فقدانه الاعتدال، أو كيف؟... على كل حال، هو يفقد الاعتدال... أما روسيا فهي بلد قذر. ليتك تعلم، يا صديقي، كم أكره روسيا. يعني لا أكره روسيا إنما أكره عيوبها... وربّما كرهت روسيا أيضاً. «هذه كلها قذارات»! هل تعرف ما الذي أحب؟ أحبّ الفكاهة.

- لقد شربت كأساً أخرى منذ برهة. يجب أن تتوقّف.

- سأشرب كأساً أخرى، ثم ثالثة، ثم أتوقف. لا، لقد قطعت سلسلة أفكاري. في موكرويه، سألت رجلاً عجوزاً، فأجابني: «نحن نحبّ كثيراً أن نضرب البنات بالسوط ونعهد بتنفيذ هذه العقوبة إلى شبَّان. فكثيراً ما يحدث أن الشاب الذي ضرب البنت بالسوط بالأمس، يجيئها في الغد خاطباً. وهكذا تستفيد البنات أيضاً من الضرب، وهنّ يحببنَ الضرب عندنا. ما رأيك في شبابنا المتأثرين بالمركيز دوساد؟ منظر مسلٍّ. ألا تعتقد أنه يجب أن نرى المشهد؟ لماذا يحمرّ وجهك يا أليوشا؟ لا تخجل يا صغيري. يا لها من خسارة أننا لم نحضر وليمة رئيس الدير لنقصَّ على الرهبان قصة بنات موكرويه! المعذرة يا أليوشا لأنني أهنت رئيس الدير منذ قليل. إن الخردل يصعد إلى أنفي في بعض اللحظات... لا شك أنني أكون خاطئاً، ولا شك أنني سأُعاقب إذا كان الله موجوداً. ولكن، إن لم يكن الله موجوداً فما فائدة جميع هؤلاء الرهبان؟ إذا لم يكن الله موجوداً فإنه لقليل جداً أن نقطع رؤوسهم لأنهم يعوقون التقدم! هل تصدقني يا إيفان إذا قلت لك إن هذا يؤذي مشاعري؟ لا، أنت لن تصدّقني... أنا أرى هذا في عينيك! أنت تظنّ كما سائر الناس أنني مهرّج لا أكثر. أليوشا، هل تصدقني إذا قلت لك إنني لست مهرّجاً فحسب؟

- أنا أعتقد أنك لست مهرجاً فحسب.

- أنا أصدّق ذلك. أعرف أنك تتكلم الآن بجدية. أنت تقول الحقيقة، وعيناك صادقتان. وإيڤان، لا، إيفان متكبّر... مع ذلك، لو كنت في مكانك، لتركت هذا الدير وانتهيت منه... هذه الصوفية، يجب اجتثاثها من الأرض كلها، يجب إلغاؤها بشكل تام لكي نردَّ الأغبياء إلى العقل. وهذا المال، ما أكثر الذهب الذي يمكن أن تستعيده خزانة الدولة بهذه الطريقة!

- لماذا نلغيها؟ قال إيفان.

- لماذا؟ لكي تسطع الحقيقة بسرعة.

- وإذا ظهرت هذه الحقيقة فستكون أنت أول من يعاقب ثم... يلغونك.

- حسناً. على كل حال، ربّما تكون مصيباً.

أنا أتان، صاح فجأة، فيودور بافلوفتش وهو يلطم جبينه بيده لطمة خفيفة:

- إذن، جيّد، فليبقَ ديرك يا أليوشا ما دام الأمر كذلك. أما نحن، الأذكياء فلنستمرّ في احتساء الكونياك! هل تعرف يا إيفان أن الله نفسه هو الذي أراد إقامة ذلك النظام، وأنا أراهن على ذلك. ولكن، قل يا إيڤان: هل الله موجود أم غير موجود؟ قل لي بجديّة! لماذا تضحك مجدداً؟

- أضحك لأنني تذكرت الفكرة التي عبَّرت عنها منذ لحظة بشكل فكه، بصدد إيمان سمردياكوف بوجود هذين الناسكين القادرين على تحريك الجبال.

- هل لأنَّ هذا شبيه بذاك الآن؟

- كثيراً.

- حسناً، أنا أيضاً إذن، روسيّ حقاً، أتصف بسمة روسيَّة، وأنت أيضاً تتصف بسمة من هذا النوع مهما تكن فيلسوفاً. هل تريد أن أبرهن لك على ذلك؟ سنراهن على أنني سأستطيع ذلك منذ يوم غد؟ ومع ذلك، قلْ: هل الله موجود، نعم أم لا؟ تكلَّم بجديّة، فأنا أريد أن أعرف ذلك الآن.

- لا، الله غير موجود.

- أليوشكا، هل الله موجود؟

- الله موجود.

- إيڤان: والخلود، هل هو موجود؟ هل هناك حياة أخرى، ولو ظلُّ حياة أخرى، ظلّ صغير، صغير جداً؟

- الحياة الأخرى بعد الموت غير موجودة.

- أبداً؟

- أبداً.

- أي العدم المطلق، أو أيّ شيء آخر؟ ربَّما وُجد قليل من حياة. لست أدري ماذا؟ ولكن ليس لا شيء!

- العدم الكامل.

- أليوشكا، هل الخلود موجود؟

- نعم موجود.

- والله والخلود؟

- نعم الله والخلود، وفي الله وفي الخلود.

- همْ، والأكثر احتمالاً هو أن إيفان صاحب الرأي السديد. ومع ذلك، ما أكثر التضحيات التي قدَّمها الإنسان من أجل هذا الإيمان. وكلّ هذه القوى التي قدّمها من أجل لا شيء باسم هذا الحلم، وهذا، منذ آلاف السنين! فمن الذي يسخر من الإنسان إذن؟ قل لي يا إيڤان؟ أسألك للمرة الأخيرة: الله موجود نعم أم لا؟ أسألك للمرة الأخيرة!

- للمرة الأخيرة أقول لك: غير موجود.

- إذن، من الذي يسخر من الناس، يا إيڤان؟

- الشيطان. أراهن على ذلك. أجاب إيفان ساخراً.

- إذن يوجد شيطان؟

- لا، لا يوجد شيطان أبداً.

- خسارة. فليأخذني الشيطان! لا يعرف أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به، الأول الذي اخترع الله. إن الشنق قليل عليه.

- لو لم يخترعوا الله لما وُجدت المدنيَّة.

- أيّ مدنيّة؟ لولا الله لما وُجدت؟

- نعم. ولما وُجد الكونياك أيضاً! الكونياك، يجب أن ننتزع منك القنينة.

- مهلاً، مهلاً، مهلاً يا عزيزي! كأساً صغيرة بعد... لقد أسأتُ إلى أليوشا. ألم تغضب يا ألكسي؟ يا عزيزي الصغير أليوشا، يا بنيَّ الطيب.

- لا، لست غاضباً. أعرف أفكارك. فقلبك خير من رأسك.

- أنا، قلبي خير من رأسي؟ يا ألله! وهو الذي يقول هذا الكلام أيضاً؟ إيفان، هل تحبّ أليوشكا؟

- أحبه.

- يجب أن تحبه. (كان فيودور بافلوفتش قد سكِر فعلاً). إسمع يا أليوشا، لقد أسأتُ إلى الراهب الناسك قبل قليل، لقد أهنته. كنت مهتاجاً. لا بأس، فالراهب الناسك يتمتع بروح المزاح. ما رأيك في ذلك يا إيڤان؟

- أعتقد أن هذا صحيح.

- أجل، أجل، إنَّ في داخله شيئاً من بيرون؛ إنه يسوعي، أقصد إنه روسيّ. وهو ككلّ مخلوق مستقيم لا بدَّ أن يسوءه أحياناً في السرّ أن يضطر إلى التمثيل، أن يصطنع مظاهر القداسة...

- لكنه يؤمن بالله.

- هو؟ لا. ألم تكن تعرف ذلك؟ هو يقول هذا لجميع الناس، يعني، ليس لجميع الناس طبعاً... بل للأذكياء ممن يأتون لزيارته. لقد قال جازماً للحاكم شولتس: أنا أؤمن، ولكن لست أدري بماذا.

- وهل هذا ممكن؟

- أقسم لك. ولكن، أنا أحترمه. إنَّ فيه عنصراً مفستوليسياً، أو الأحرى هناك شيء بينه وبين «بطل من زماننا».... أربينين[18]، إذا صدقت ذاكرتي. يعني أنه رجل شهوانيّ إلى درجة أنني الآن أخاف منه على ابنتي أو زوجتي إن هما ذهبتا للاعتراف عنده. فتصوَّر، هل تعرف أنه عندما يبدأ بالكلام... منذ سنتين، دعانا إلى تناول الشاي وبعض المشروبات الروحية (السيدات يرسلن إليه الخمور)، فراح يستحضر ذكريات ماضيه... فاضطررنا أن نتماسك كي لا ننفجر من الضحك... خاصة عندما حدَّثنا عن تلك المرأة المعوَّقة التي شفاها؛ قالت له: «لو لم تكن ساقاي تؤلمانني لرقصت لك». هل تتصوّر؟ وقد أسرَّ إلينا يومذاك: «كانت لي مغامرات!» وقد سلب التاجر ديميدوف[19] ستين ألف روبل.

- ماذا؟ هل سرقها؟

- استودعه الرجل المبلغ أمانةً لما عُرف به من صلاح. قال له: «احتفظ لي به عندك،

يا أخي العزيز، لأنَّ غداً سوف يفتِّش منزلي». وهو، احتفظ بالمبلغ. قال له: «هذه هبة للكنيسة، أليس كذلك؟» فقلت له أنا: «أنت حقير، هيّا». فأجابني: «لا... لست حقيراً بل أنا متسامح...» ولكن، لا، لا، لم يجر الحديث معه هو... لقد خلطت بينه وبين شخص آخر... دون أن ألاحظ ذلك، دون أن أشعر بذلك. حسناً، كأساً أخرى صغيرة أخيرة، يا إيفان، ثم خذ قنينة الكونياك. لقد كذبت، لماذا لم توقفني عن الكلام يا إيڤان... لماذا لم تقل لي إنني أكذب؟

- كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك.

- كذاب! تركتني أتكلم بدافع الحقد، بدافع الحقد فقط. إنك تحتقرني. إنك تحتقرني. جئت تعيش معي، وعندي في منزلي تحتقرني.

- إذن، سأرحل. هو الكونياك الذي شوَّش تفكيرك!

- لقد رجوتك باسم المسيح - الله أن تذهب إلى تشرماشنيا... يوماً أو يومين، وأنت، رفضت دائماً.

- سأذهب غداً ما دمت تلحّ.

- لا، لن تذهب. تريد أن تراقبني هنا. هذا هو هدفك، يا صاحب النفس السوداء، لهذا السبب ترفض دائماً؟

أصبح العجوز عاجزاً عن السيطرة على نفسه. وصل إلى حدود السكر، إلى حالة السكارى الذين هم في العادة مسالمون بحاجة مفاجئة إلى أن يغضبوا، وأن يظهروا ما هم قادرون عليه.

- ما لك تحدِّق إلي؟ وعيناك هاتان! عيناك تنظران إليَّ فتقولان لي: «أيها السكير العنيد»! عيناك هاتان تفيضان شكاً وتحتقراني، هاتان العينان... أنت أتيت إلى منزلي لغاية معيّنة في نفسك... وليس مثل أليوشا... وهو ينظر إليَّ بعينين تشعَّان صراحةً. أليوشا لا يحتقرني. يا ألكسي، إياك أن تحبّ إيفان...

- لا تغضب من أخي! توقّف عن إهانته! قال فجأة أليوشا بحزم.

- السبب هو... أصبحت لا أدري... أحسّ بوجع في الرأس. إرفع هذا الكونياك يا إيفان! للمرة الثالثة أقول لك هذا. ثم أطرق يفكر، واستطالت شفتاه بابتسامة خبيثة:

- لا تغضب يا إيفان على هذا العجوز المتزمّت. أنا أعرف أنك لا تحبني، ولكن لا تغضب. لا يوجد أيّ سبب لكي تحبني. ستذهب إلى تشرماشنيا، وسألحق بك أنا أيضاً حاملاً لك هدية... وسأعرِّفك هناك ببنت صغيرة، لاحظتها منذ زمن بعيد. هي الآن فتاة صغيرة رثَّة. لا تخف من البنات القذرات. لا تحتقرهنّ - فهنَّ لآلىء!...

قال ذلك وقبَّل يده.

ثم قال وقد انتعش فجأة وكأنَّه صحا لفترة عندما وجد موضوعه المفضَّل...

- بالنسبة إلي، يا فتياني الصغار! يا أولادي الصغار، يا خنازيري الصغار، بالنسبة إلي... أنا من جهتي، لم يحدث في حياتي أن أعجبتني امرأة بشعة، هذه هي قاعدتي! هل يمكنكم أن تفهموا هذا؟ كيف تستطيعون فهمه؟ إنَّ في عروقكم لبناً وليس دماً، لم تنضجوا

بعد! إن قاعدتي هي، وليأخذني الشيطان، أنَّ في كل النساء أشياء هامة للغاية لا يمكن تحديدها في امرأة أخرى. المهم أن يتمكن المرء من اكتشافها. وهذا هو السر! إنه موهبة! ما من امرأة يمكن أن تكون في نظري قبيحة. حسبها أن تكون امرأة. هذا وحده نصف الحبّ... وأنتم كيف يمكنكم أن تفهموا هذا؟ حتى العوانس لا بدَّ أن يكتشف المرء فيهنَّ ذلك، متى سنحت الفرصة، يذهله أن يتصور أنّ هناك أناساً أغبياء تركوهنّ يشخنَ دون أن يلاحظوهنَّ! أول شيء يجب أن يعمد إليه الرجل مع هذه الصغيرات الوسخات والقبيحات هو أن يدهشهنَّ. بهذه الوسيلة يجب التوسّل إليهنَّ. ألم تكن على علم بذلك؟ يجب أن تبلغ بهنَّ الدهشة حدَّ النشوة، حدَّ الشعور بالخجل من أنَّ سيداً أنيقاً أمكن أن يهيم حباً ببنتٍ، بدميمةٍ. إنه شيء رائع يشدّ العزيمة، أن يعرف المرء أنه سيبقى في هذا العالم إلى الأبد، سادة وخدم؛ ستبقى هناك بنت صغيرة رثَّة، يحلو لها أن تسعد سيدها. تلك هي سعادة الحياة! مهلاً... هل تعرف يا أليوشا؟ إن هذا الأمر يذكرني بأنني قد بعثت الدهشة دائماً في نفس أمك المرحومة. كنت أتركها مدة طويلة بدون ملاطفات، ثم فجأة وفي لحظة، أسترسل في إظهار كل أنواع العواطف، حتى إنني كنت أزحف على ركبتيّ، وأقبّل قدميها، فأنقلها في كل مرة - ما زلت أتذكر ذلك وكأنه حدث بالأمس - إلى حالة نفسية خاصة. فإذا هي تضحك ضحكة فريدة في نوعها، ضحكة واهنة وحادة، عصبية وقوية خاصة. وكان ذلك هو النوع الوحيد من الضحك الذي عرفته فيها. كنت أعرف أن مرضها يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها، فهي في اليوم التالي، تبدأ بالصراخ مثل «المولولة»، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبّر في الواقع عن أيّ فرح. لكنني كنت أرى ذلك الضحك عذباً سواء عبَّر عن فرح أم لا. فهل رأيتم كيف كنت أتمكن أن أجد في كل شيء جانباً جذاباً مجهولاً؟ وقد حدث، ذات يوم، أن بيليافسكي - وهو رجل متظرّف من مدينتنا، ثريّ جداً، كان يسعى إليها وبدأ يزورني في منزلي - وفجأة، صفعني على وجهي بحضورها. فأوشكت هذه المرأة التي هي مثل حملٍ أن تضربني بسبب هذه الصفعة! وراحت تؤنبني، قالت لي: «سمحت له أن يضربك؟ أن يضربك، وأن يصفعك! لقد أردتَ أن تبيعني له... كيف تجرأ على أن يضربك أمامي! لا أريد أن أراك بعد اليوم هنا أبداً! هيَّا اطلبه إلى المبارزة...» أخذتها إلى الدير لأهدّىء روعها، وصلَّى الرهبان من أجلها. لكنني، أقسم لك، يا أليوشا، أمام الله، أنني لم ألحق بها أذىً في يوم من الأيام، عزيزتي «المولولة»، إلا مرة واحدة، واحدة في السنة الأولى من حياتنا، ولم يحدث أيّ شيء بعد ذلك. كانت تسرف في الصلاة، في رأيي، وخاصة في أعياد السيّدة العذراء، وكانت تطردني من مكتبي. خطر ببالي، ذات مرة، أن أطرد هذه الأفكار من رأسها! فقلت لها: «هل ترين هذه الإيقونة؟ إيقونتك، انظري إليها. سأنتزعها من مكانها، انظري جيداً، تعتقدين بأنها تحقق المعجزات. سأبصق عليها الآن أمامك، ولن يحدث لي شيء!...» يا إلهي! عندما نظرت إليها حينذاك، قلت في نفسي، إنها ستقتلني فوراً. لكنها انتفضت، ورفعت ذراعيها نحو السماء، وغطَّت وجهها بيديها، وبدأت ترتجف بكل جسدها، ثم سقطت على الأرض... لقد انهارت كلياً... أليوشا، أليوشا! ما بك؟ ماذا أصابك!

قفز العجوز مذعوراً. كان وجه أليوشا قد بدأ يتغيّر شيئاً فشيئاً عندما راح العجوز يتحدث عن أمه. احمرَّ وجهه، والتهبت عيناه، وبدأت شفتاه تختلجان... وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذاً من لعاب وهو يتكلم دون أن يلاحظ ذلك، إلى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب. لقد وقع أليوشا في تلك الحالة نفسها التي عرضها والده في كلامه عن «المولولة»: نهض أليوشا عن الطاولة فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها والده، ورفع ذراعيه نحو السماء، ثم غطَّى وجهه بيديه، وتهاوى على كرسيّه، وراح جسمه يرتجف ويهتزّ في نوبة هستيرية تصاحبها دموع مرتعشة مباغتة صامتة. دُهش العجوز من هذا التشابه الخارق بين أليوشا وأمه.

- إيفان، إيفان! أسرع، هات ماءً. إنه مثلها، مثل أمه تماماً! أسكب على وجهه قليلاً من الماء. هكذا كنت أفعل مع أمه. هذا بسبب أمه، بسبب أمه... قال لإيفان.

- لقد كانت أمّه هي أمّي أنا أيضاً. أعتقد ذلك، فما رأيك؟ انفجر إيفان قائلاً فجأة، في سورة من غضب واحتقار، فارتجف العجوز حين رأى البرق يلتمع في عينيه. عندئذ، حدث أمر غريب جداً، لكنه لم يدم إلا بضع ثوان: يبدو أن العجوز نسي فعلاً أن أم أليوشا كانت أمّ إيفان أيضاً...

- كيف هذا؟ أمّك؟ دمدم دون أن يفهم. لماذا تقول هذا؟ عن أيّ أمّ تتكلم؟... أتكون هي حقاً؟... اللعنة! إنها أمّك أيضاً! لعن الله الشيطان! لا أعرف يا أخي العزيز! يا لهذه الذاكرة الرديئة التي ما عرفت مثلها أبداً. عذراً، هل قلت أنا، يا إيفان... ثم توقف فجأة على ابتسامة ماكرة طويلة مخمورة غامضة، غيَّرت ملامحه. وفي تلك اللحظة عينها، سُمعت من المدخل ضجّة مرعبة وكأنها صوت صاعقة، وسُمع صراخ مسعور، وانفتح الباب على مصراعيه، وظهر ديمتري بافلوفتش مندفعاً إلى الغرفة. فأسرع العجوز إلى إيفان مذعوراً:

- يريد أن يقتلني، سيقتلني... لا تتركني! صرخ وهو يتمسَّك بحافة سترة إيفان فيودوروفتش.

IX

الشهوانيون

فوراً بعد ديمتري بافلوفتش، سارع كل من غريغوري وسمردياكوف في الدخول إلى الغرفة. كانا قد تعاركا معه في المدخل لكي يمنعاه بالقوة من الدخول (تنفيذاً لأمر أصدره إليهما فيودور بافلوفتش منذ بضعة أيام). ومستفيداً من كون ديمتري فيودوروفتش قد دخل إلى الغرفة، فتوقف بضع ثوانٍ ليعرف إلى أين يجب عليه أن يتوجه، ركض غريغوري من الجهة الأخرى للطاولة وأغلق مصراعي الباب، الأول الذي يفضي إلى الغرف الداخلية، ووقف أمامه مصالباً ذراعيه، مستعداً لأن يمنعه من الدخول منه، حتى آخر رمق. فلما رآه ديمتري أطلق صراخاً حاداً بل زئيراً، وارتمى على غريغوري.

- هي إذن هنا. هنا خبأتموها! ابتعد أيها النذل!

أراد أن يدفع غريغوري ولكن هذا الأخير دفعه عنه، فجنَّ من الغضب، ورفع ديمتري يده وضرب غريغوري بكل قواه. سقط العجوز على الأرض مصعوقاً، ومرَّ ديمتري فوق جسده مسرعاً إلى الداخل. بقي سمردياكوف في الصالة، من الجهة الأخرى، شاحب الوجه مرتجفاً يشدّ نفسه إلى فيودور بافلوفتش.

- إنها هنا. صرخ ديمتري فيودوروفتش. رأيتها تتجه إلى هذا المنزل، ولكنني لم أتمكن من القبض عليها. أين هي؟ أين هي؟

أحدثت هذه الصرخة «إنها هنا» في فيودور بافلوفتش أثراً خارقاً فزال كل خوفه.

- أوقفوه! أوقفوه! صاح، وأسرع وراء ديمتري فيودوروفتش.

أثناء ذلك، كان غريغوري قد نهض، ولكنه ما زال طائش الرأس. فأسرع إيفان فيودوروفتش وأليوشا يركضان وراء والدهما. وسمعت في الغرفة الثالثة ضجة سقوط شيء على الأرض فتحطم وجلجل. إنها مزهرية كبيرة من الكريستال (ليست من أثمن المزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من الرخام، فاصطدم بها ديمتري فيودوروفتش أثناء ركضه فسقطت على الأرض وتحطّمت.

- أوقفوه! عوى العجوز بأعلى صوته. النجدة!

أما إيفان فيودوروفتش وأليوشا فقد تمكنا من إيقاف والدهما وأعاداه بالقوة إلى الغرفة.

- صغيري فانيا، صغيري ليوشا[20]! إذن، هي هنا، غروشنكا هنا. هي هنا. قال إنه رآها تركض...

- لماذا تلاحقانه! كان بإمكانه أن يقتلكما! صاح غاضباً بوجه والده، إيفان فيودوروفتش.

كان يلهث. لم يتوقع أن تأتي غروشنكا في هذه المرة. فلما سمع أنها جاءت إلى هنا، طاش رأسه فجأة، وارتعد جسمه كله، وكأنه أصبح مجنوناً.

- أنت نفسك رأيت! إنها لم تأت. صاح إيڤان.

- ربّما دخلت من المدخل الآخر.

- ولكن الباب مقفل، ومفتاحه معك.

وظهر ديمتري فجأة، مجدداً، في الغرفة. لقد وجد الباب الثاني مغلقاً طبعاً، لأنّ مفتاح ذلك الباب المغلق كان في جيب فيودور بافلوفتش؛ وكانت كل النوافذ في كل الغرف مغلقة هي أيضاً. لا تستطيع إذن، غروشنكا أن تدخل من أيّ جهة كانت. ولا يمكنها أن تخرج من أيّ جهة.

- اقبضوا عليه! عوى فيودور بافلوفتش عندما رأى ديمتري مجدداً. لقد ذهب ليسرق مالي، هناك، في غرفة النوم!

واستطاع أن يفلت من يديْ إيفان، فهجم مرة ثانية على ديمتري. لكن هذا الأخير رفع ذراعيه، وأمسك العجوز فجأة من خصلتَي شعره الباقيتين على صدغيه وشدَّه منهما فرماه على الأرض، واتسع له الوقت لأن يضرب وجهه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً. فأطلق العجوز أنيناً عميقاً. لكن إيفان فيودوروفتش، رغم أنه لا يملك من القوة البدنيّة ما يتمتع به أخوه، طوَّقه بكلتا ذراعيه وبكل قوته وأبعده عن العجوز. وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك، في حدود قوته، ممسكاً أخاه من أمام.

- أنت مجنون، أنت؟ لقد قتلته! صرخ إيڤان.

- إنها غلطتك! صاح ديمتري لاهثاً. وإذا لم أقتله هذه المرة، فسأعود مرة أخرى لأقتله! ولن تستطيع أن تمنعني!

- ديمتري! أخرج من هنا فوراً! قال أليوشا بلهجة عنيفة.

- ألكسي! أنت وحدك، قل لي، فأنا لا أصدِّق غيرك: هل كانت هنا، منذ قليل، نعم أم لا؟ لقد رأيتها بعيني وقد تسللت أمام السياج خارجةً من الزقاق، من هذه الجهة. ناديتها، فهربت...

- أقسم لك إنها لم تأتِ إلى هنا، ولم يكن أحد ينتظرها هنا!

- لكنني رأيتها... إذن هي... أريد أن أعرف الآن أين هي... إلى اللقاء يا ألكسي! لا تقل لإيزوب كلمة واحدة في أمر المال الآن. إذهب فوراً إلى كاترينا إيفانوفنا. يجب أن تذهب إليها حتماً. قل لها: «إنه يبلغك احترامه، احترامه، احترامه! يبلغك احترامه دموعاً!» وصِفْ لها المشهد.

أثناء ذلك، كان إيفان وغريغوري قد أوقفا العجوز، وأجلساه على مقعد. كان وجهه مدمًّى، ولكنه لم يفقد وعيه، وهو يستمع إلى صيحات ديمتري، ولا يزال يسيطر عليه الشعور بأن غروشنكا مختبئة في المنزل. رشقه ديمتري فيودوروفتش بنظرة غضب وهو منصرف.

- لا يعذبني ضميري لأنني سفحت دمك! قال. الويل لك أيها العجوز، إسهر جيداً على حلمك لأنني أنا أيضاً لي حلمي. إنني ألعنك وأنكرك كلياً...

- إنها هنا، إنها هنا، بدون شك! سمردياكوف، سمردياكوف. نادى العجوز بصوت محشرج وهو يومىء بإصبعه إلى الخادم.

- لا ليست هنا، أيها العجوز المجنون! صرخ فيه إيفان غاضباً. ها هو ذا يُغمى عليه! هاتوا ماءً، هاتوا منشفة! تحرَّك يا سمردياكوف!

ركض سمردياكوف لإحضار الماء. ونزعوا عن العجوز ثيابه، ونقلوه إلى غرفة نومه، ووضعوه على سريره، وربطوا رأسه بمنشفة مبلَّلة. فما إن لامس رأس العجوز مخدّته، وقد أوهنه الكونياك، وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية في لحظة، حتى أغمض عينيه وفقدَ وعيه. ورجع إيفان فيودوروفتش وأليوشا إلى الصالة. وجمَّع سمردياكوف حطام المزهرية، بينما غريغوري بقي قرب الطاولة، عيناه منخفضتان ومنحني الرأس.

- أنت أيضاً يجب ألّا تضع حول رأسك منشفة مبلَّلة، وأن تنام؟ قال أليوشا لغريغوري. سنبقى هنا بالقرب من السرير. لقد آلمك أخي كثيراً عندما ضربك... على رأسك.

- تجرأ على أن يضربني. قال غريغوري بصوت مبحوح واضح.

- قد تجرأ؟ لا أن يضربك وحدك بل ضرب والده أيضاً!.... قال إيفان فيودوروفتش وهو متغضّن الوجه.

- لقد غسلته في الدلو... وهو تجرأ على ضربي! ردَّد غريغوري.

- فليأخذني الشيطان! لو لم أبعده عنه لكان قتله. تُرى هل ينجو إيزوب؟ قال إيفان فيودوروفتش إلى أليوشا بصوت خافت.

- حمانا الله من هذا! أجاب أليوشا.

- ولماذا يحمينا؟ تابع إيفان الوشوشة عينها وقد شوَّه الغضب وجهه. فلتأكل الأفاعي بعضها بعضاً! ذلك هو المصير الذي تستحقه!

ارتعش أليوشا.

- طبعاً، سأمنع وقوع الجريمة كما فعلت الآن. ابق هنا يا أليوشا. وسأخرج أنا إلى الفناء، بدأت أشعر بالصداع.

عاد أليوشا باتجاه غرفة نوم والده، وبقي عند سريره وراء الستار ساعةً كاملةً. وإذا بالعجوز يفتح فجأة عينيه، ويطيل النظر إلى أليوشا محاولاً أن يتذكّر ومفكّراً. وفجأة، بدا على وجهه اضطراب يصعب وصفه.

- أليوشا، تمتم بصوت وجل، أين إيفان؟

- إنه في الخارج، يشعر بألم في رأسه. لكنه ساهر علينا.

- ناولني المرآة الصغيرة. هي هناك، ناولنيها!

مدَّ إليه أليوشا المرآة الصغيرة المدوَّرة ذات المسند المطوي التي كانت موضوعة على المنضدة. نظر العجوز إلى قسمات وجهه فيها: كان أنفه قد تورَّم كثيراً، وفوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء كبيرة.

- ماذا أصاب إيڤان؟ أليوشا، بنيَّ المحبوب، ابني الوحيد، أنا خائف من إيفان، أخاف منه أكثر مما أخاف من الآخر. أنا لا أشعر بالطمأنينة إلا معك. ولا أخاف منك...

- لا تخف من إيفان أيضاً. إيفان غاضب، ولكنه سيدافع عنك.

- أليوشا! والآخر، أين هو؟ ذهب مسرعاً إلى غروشنكا! يا ملاكي الصغير، قل الحقيقة: هل جاءت غروشنكا إلى هنا، نعم أم لا؟

- لم يرها أحد. إنها كذبة. لم تأت!

- يريد ميتكا أن يتزوجـها، أن يتزوجها!

- وهي لا تريد ذلك.

- سترفض، سترفض أن تتزوجه، سوف ترفض وتنبذه، سوف ترفض!

قال العجوز وقد انتعش فجأة فرحاً، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره في تلك اللحظة سوى هذه الفكرة. ومن شدة حماسته، أمسك يد أليوشا فوضعها بقوة على قلبه، حتى اغرورقت عيناه بالدموع. خذ الإيقونة الصغيرة، إيقونة أمّ الله تلك التي تكلمت معك عنها منذ برهة. خذها، هي لك، انقلها إلى مسكنك. وإني أسمح لك بالعودة إلى الدير... لا تؤاخذني لقد كنت أمزح. بي صداع يا أليوشا... يا عزيزي أليوشا... هدىء روعي، كن كالملاك، قل لي الحقيقة!

- تعود أيضاً إلى غروشنكا: هل كانت هنا، نعم أم لا؟ سأل أليوشا بألم:

- لا، لا، إنني أصدقك، ليس هذا. اذهب أنت بنفسك إلى غروشنكا، أو تدبَّر أمرك بحيث تراها واسألها بأسرع ما يمكن، حاول أن تعرف منها هي، أو أن تحزر من كلامها: أيّاً منّا تريد، هو أم أنا؟ هو؟ ماذا؟ هل تستطيع أن تفعل هذا أم لا!

- إذا رأيتها، سأسألها. دمدم أليوشا مضطرباً.

- لا، لن تقول ذلك لك. قاطعه العجوز. إنها شريرة. سوف تقبّلك. وستقول إنها تريدك أنت! إنها كذابة وقليلة الحياء! يجب ألّا تذهب إليها، إلى منزلها، أبداً!

- ثم إن الذهاب إليها ليس مستحسناً، ليس مستحسناً أبداً!

- قل لي: إلى أين كان يريد أن يرسلك عندما صاح قائلاً لك لحظة انصرافه «إذهب إليها»؟

- كان يرسلني إلى كاترينا إيفانوفنا.

- من أجل المال؟ ليطلب منها مالاً؟

- لا ليس من أجل المال.

- أنا أعرف أن ليس لديه مالاً ولا يملك فلساً واحداً. اسمع يا أليوشا. سأرتاح في هذه الليلة وسأفكّر. بوسعك أن تنصرف الآن. ربما إذا صادفتها... تعال إليَّ غداً، تعال حتماً. غداً، هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها. هل ستأتي؟

- سوف آتي.

- تظاهر بأنك تأتي من تلقاء نفسك لتزورني. لا تقل لأحد إنني طلبت ذلك منك. ولا تقل أيَّ كلمة لإيفان.

- طيّب.

- إلى اللقاء، يا ملاكي. لقد دافعت عني. لن أنسى هذا أبداً. سأقول لك في الغد شيئاً... يجب أن أفكّر في هذا الشيء...

- وكيف تشعر الآن؟

- سوف أنهض منذ الغد. سأكون قد شُفيت. سأكون في حالة جيدة، في حالة جيدة!...

وعندما اجتاز أليوشا الفناء، التقى أخاه إيفان جالساً على مقعد أمام البوابة؛ كان يكتب بعض الأشياء في دفتره الصغير. قال أليوشا لإيفان إن العجوز قد استيقظ واستعاد وعيه، وأضاف أنه قد سمح له بالعودة إلى الدير لتمضية الليل.

- أليوشا، أحب كثيراً أن أراك غداً صباحاً. قال إيفان ونهض بتودّد.

كان هذا التعاطف مفاجئاً جداً بالنسبة لأليوشا.

- غداً، سأكون عند السيدة خوخلاكوفا وابنتها. أجاب أليوشا. وربَّما ذهبت أيضاً إلى كاترينا إيفانوفنا، غداً إن لم أجدها اليوم في منزلها...

- هل أنت ذاهب، إذن، إلى كاترينا إيفانوفنا! لكي «تحيّيها» تحيّيها فقط؟ قال إيفان وهو يبتسم فجأة. وبقي أليوشا مضطرباً.

- أعتقد أنني فهمت كلّ ما قاله لك منذ قليل، وكذلك عدداً من أسئلة أخرى. وبدون شك، إن ديمتري يرسلك لتبلغها أنه يريد... أنه يريد... أقصد أنه يريد أن يقطع علاقته بها؟

سأله أليوشا:

- قل لي يا أخي، كيف سينتهي هذا الصراع الرهيب بين ديمتري والوالد؟

- لا يمكن التنبؤ بذلك. قد يسوَّى الأمر، وقد يهدأ الخلاف تلقائياً. إنّ هذه المرأة وحش مفترس. على كل حال، يجب حجز العجوز في المنزل، ومنع ديمتري من الدخول إليه.

- اسمح لي أيضاً بسؤال آخر، يا أخي: هل يحقّ فعلاً لكل إنسان أن يقرّر، حين ينظر إلى الناس الآخرين الذين لا يزالون يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يموتوا؟

- ما علاقة أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق؟ إن أكثرية الناس لا يحسمون هذا السؤال في قلوبهم على هذا الأساس بل هم يستلهمون اعتبارات مختلفة جداً عن هذا الاعتبار أقرب بكثير إلى الطبيعة. أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على أيّ كان أن يتمنّى ما يريده؟

- ولكن ليس موت الآخر؟

- ولماذا، ليس الموت؟ فماذا يفيد أن يكذب الإنسان على نفسه عندما يعيش جميع

الناس على هذا النحو، وقد لا يكون ممكناً العيش على غير هذا المنوال. هل تطرح أنت عليَّ هذا السؤال بسبب فكرتي عن «الأفعيين اللتين تأكلان نفسيهما»؟ فاسمح لي إذن أن أطرح عليك أنا أيضاً هذا السؤال في هذه الحالة: هل تعتقد أنني قادر، مثل ديمتري، على أن أسفح دم إيزوب، أي أن أقتله؟ ماذا؟

ما هذا الكلام يا إيفان؟ لم يخطر ببالي شيء من هذا أبداً. وحتى ديمتري، لا - أعتقد أنه...

هو هذا إذن؟ قال إيفان ساخراً. واعلم أنني سأدافع عنه دائماً. أما عن رغباتي، في - هذه الحالة، فإنني أحتفظ بحريتي التامة. إلى الغد. لا تحكم عليَّ، ولا تنظر إليَّ وكأنني وحش. أضاف وهو يبتسم.

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا من قبل. وأحسَّ أليوشا أن أخاه قام بالخطوة الأولى نحوه لغاية في نفسه، وأنه يبيِّت نيَّةً ما حتماً.

X

الاثنتان معاً

عندما خرج أليوشا من منزل والده شعر بأنه محطم الجسد ومنهك أكثر مما كان عليه حين دخله. كان فكره هو أيضاً كأنه مجزأ إلى قطع؛ مشتت بحيث كان هو نفسه يشعر أنه يخشى إيجاد الفكرة المشتركة لكل تلك التناقضات المعذِّبة التي عاشها في ذلك النهار. إن نوعاً قريباً من اليأس كان يحاصره وذلك أمر لا عهد لقلب أليوشا بمثله من قبل. ثمة مسألة كانت تسيطر على فكره كأنها كذبة، المسألة الرئيسية المميتة وغير القابلة للحل: كيف سينتهي هذا النزاع بين والده وديمتري في مواجهة تلك المرأة المرعبة؟ والآن، يعرف خطورة هذه المشكلة، بعد أن شهدها بنفسه ورأى الرجلين يتواجهان. والأحقُّ بالرثاء، على كل حال، هو أخوه ديمتري، لأنّ شقاءه رهيب، وهو تعيس كلياً، تعيس بفظاعة: إن الكارثة تتربَّص به. وهناك أناس آخرون لهم فيها أدوار أضخم كثيراً مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين. هذا كله يُحدث نوعاً من لغز. إن أخاه إيفان خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه، تلك التي تمنّاها أليوشا منذ زمن طويل. ومع ذلك، فإنّ خطوة تقرُّب أخيه هذه قد بثَّت في نفسه خوفاً غير مفهوم. هؤلاء النساء؟ كان ذلك غريباً: منذ قليل، كان ذاهباً إلى كاترينا إيفانوفنا يجتاحه اضطراب رهيب. والآن، يمضي إليها بدون وجل. وبالعكس، هو يستعجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن تنقذه من اضطرابه. لكن المهمة التي كلِّف بها تبدو له الآن أصعب: لقد عدل أخوه ديمتري نهائياً عن ردّ الثلاثة آلاف روبل. وهو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ إلى الأبد، وفقد كل أمل، طبعاً، فلن يتردد بعد اليوم عن أيّ سقوط. ثم قد ألحَّ عليه أن يقصّ لكاترينا إيفانوفنا المشهد الذي جرى في منزل والده.

كانت الساعة السابعة مساءً، وقد هبط الليل، عندما ذهب أليوشا إلى كاترينا إيفانوفنا التي تشغل في «الشارع الكبير» منزلاً فسيحاً فخماً. كان أليوشا يعرف أن كاترينا أيفانوفنا تعيش مع خالتين لها. الأولى، لم تكن سوى خالة أختها أغافيا إيفانوفنا، وهي بنفسها تلك الإنسانة الطيّعة في منزل والدها التي عُنيت مع أغافيا بكاترينا، بعد خروجها من المدرسة الداخلية. وكانت خالتها الثانية، سيدة من موسكو فارعة القامة، شاعرةً بعلوّ منزلتها، رغم أنها فقيرة. وكان يقال إن هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترينا إيفانوفنا في كل شيء، ولا تعيشان قربها إلا مراعاة للأوضاع الاجتماعية. أما بالنسبة إلى كاترينا إيفانوفنا فهي لا تطيع إلا الجنرالة المحسنة إليها، التي بقيت في موسكو بسبب مرضها، والتي كان على كاترينا أن تكتب إليها رسالتين أسبوعياً لتطلعها على كل تفاصيل حياتها.

عندما دخل أليوشا الرواق، طلب من الخادمة التي فتحت له الباب أن تبلغ أصحاب المنزل بوصوله. كان يبدو أنهم جالسون في الصالة على علمٍ بقدومه (لعلَّهم قد رأوه من خلال النافذة). سمع أليوشا، فجأة، حركة مبهمة ووقع خطوات نساء يركضن، وحفيف أثواب، كأنّ امرأتين أو ثلاثاً قد ركضن يخرجن من الغرفة. استغرب أليوشا أن يُحدث وصوله كل هذا الاضطراب. أُدخل الصالة فوراً بدون انتظار. كانت غرفة فسيحة مزدانة بأثاث كثير وأنيق، ليس على طراز الأرياف. فيها كثير من الدواوين والكنبات والطاولات الكبيرة والصغيرة، ولوحات تزيّن الجدران، ومزهريات ومصابيح على الطاولات، وأزهار كثيرة، بل وحوض أسماك على إحدى النوافذ. وبسبب الغبش، كانت الغرفة معتمة قليلاً في هذا الوقت.

رأى أليوشا خِماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أنّ أحداً كان يجلس عليه قبل لحظات، ورأى على الطاولة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين لا يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولا، وبسكويتاً، وآنية من الكريستال فيها زبيب من كورنثيا، وأوانيَ أخرى فيها سكاكر. لا شك أن أصحاب المنزل كانوا يقدّمون حلوى لضيوف عندهم. فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة، قطّب حاجبيه. لكن الستارة أُزيحت في تلك اللحظة عينها، ودخلت كاترينا إيفانوفنا الغرفة بخطى سريعة ثابتة مادّةً إلى أليوشا يديها كلتيهما، مبتسمة له فرحاً. وفي اللحظة عينها، دخلت خادمة تحمل شمعتين مشتعلتين وضعتهما على الطاولة.

- الحمد لله! وأنت أخيراً! كل صلواتي اليوم لم تتَّجه إلا نحوك! اجلس من فضلك!

صعق جمال كاترينا إيفانوفنا، أليوشا حين أخذه أخوه ديمتري إليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرّفها به، لأنّ كاترينا إيفانوفنا ألحّت أن تتعرف إليه. على كل حال، لم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثيراً. ذلك أن كاترينا إيفانوفنا قد أحسّت أن أليوشا مضطرب، فدارته في تلك المرة، فلم تتوجه بكلامها إلا إلى ديمتري فيودوروفتش، وسكت أليوشا طوال الوقت، ولكنه لاحظ المرأة الشابة، وخطف ببصره ما رآه فيها من مظهر الإرادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاقة الحركات على كبرياء وخيلاء. كانت هذه السمات في طبعها واضحة. وأحسَّ أليوشا أنه لم يبالغ في تصوُّرها. وقد أُعجب بعينيها الرائعتين السوداوين المشعتين اللتين تتّسقان مع لونها الشاحب الذي يميل إلى اللون الأصفر. ومع ذلك، كان في عينيها، كما في رسم شفتيها الرائعتين، شيء يمكن أن يتولّه به أخوه بشكل رهيب، ولكنه، لا يبدو أنه يوقظ في النفس حباً دائماً. ولقد عبَّر أليوشا لأخيه ديمتري عن شعوره هذا صراحةً، حين أصرَّ ديمتري، بعد انتهاء الزيارة، على أن لا يخفي عنه أخوه رأيه، وعندما توسّل إليه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته. قال له أليوشا يومذاك:

- ستكون سعيداً معها. ولكن ربَّما... سعادتك قد لا تكون هادئة.

- هذه هي الحقيقة يا أخي العزيز، إنّ اللواتي هنَّ من هذا النوع لا يتغيَّرن أبداً، ولا ينصعنَ للقدر. فهل تعتقد أنني لن أحبها إلى الأبد؟

- لا، ربما أحببتها إلى الأبد، ولكن ربما لن تكون سعيداً معها دائماً...

أفصح أليوشا عن رأيه، في ذلك اليوم، ولام نفسه كثيراً لأنه رضخ لإلحاح أخيه وعبّر عن أفكار «حمقاء» كهذه الأفكار. ذلك أنّ رأيه قد بدا له غبياً مذ عبَّر عنه. ثم إنه قد شعر بخجل شديد من جزمه في الحكم على امرأة. وقد ازدادت دهشته الآن عندما لاحظ منذ نظرة أولى ألقاها على كاترينا إيفانوفنا التي أسرعت تستقبله، أنه ربما قد خُدع عن حقيقتها في المرة السابقة وأنه أخطأ في الحكم عليها. في هذه المرة، كان وجهها يشرق طيبةً بسيطة خالية من أيّ تصنّع، وكانت قسمات وجهها تعبِّر عن صراحة حارَّة ملتهبة. ولم يبق من كلّ هذه «الكبرياء وهذه الخيلاء» اللتين خطفتا نظر أليوشا، من قبل، إلا التعبير عن جرأة نبيلةٍ وجسارة سامية، وكذلك تعبير عن ثقة بنفسها قوية وواضحة. وأدرك أليوشا، مذ رآها، أن مأساة وضعها إزاء هذا الرجل الذي تحبه بقوة لم تكن خافيةً عنها، وأنها ربما كانت على معرفة بكل شيء. ورغم ذلك، كان الضياء يشعُّ في وجهها كما يشعّ منها كل هذا الأمل بالمستقبل. وأحسَّ أليوشا، فجأة، أنه مذنب في حقّها. لقد غُلب وافتتن فوراً، ولكنه لاحظ بالإضافة إلى ذلك، منذ أولى كلماتها، أنها في حالة اضطراب نفسي عنيف لعلّه لم يكن مألوفاً لها، وهو اضطراب يشبه نوعاً من الإثارة.

- إذا كنت قد انتظرتك إلى هذا الحدّ، فلأنه لا يوجد غيرك الآن، أستطيع أن أعرف منه الحقيقة - وليس أيّ إنسان آخر!

- لقد جئت... تمتم أليوشا متحيراً. لقد أرسلني...

- آه. إنه هو الذي أرسلك، لقد أوجست ذلك. والآن عرفت كل شيء، كل شيء! قالت كاترينا إيفانوفنا وقد لمعت عيناها فجأة:

- لحظة، يا ألكسي فيودوروفتش! أريد أن أشرح لك مسبقاً لماذا انتظرتك إلى هذا الحدّ. إنني ربما كنت أعلم من الأمر أكثر مما تفترض. فلن أنتظر منك معلومات. وإليك ما أنتظر منك: أريد أن تطلعني على شعورك، على آخر ما رأيته فيه. واحرص على أن تذكر بشكل صريح ومباشر، وربما بخشونة (بأشدّ خشونة تريدها!) أن تذكر لي رأيك فيه وفي وضعه بعد لقائك إياه اليوم. لعلَّ ذلك خير من أن أحدثه أنا في الأمر، لأنه أصبح يرفض أن يراني. هل فهمت ما أريده منك؟ والآن: والآن، لماذا أرسلك إليّ، (كنت متأكدة أنه سيرسلك!) قُله بدون تردّد. قل كل شيء...

- لقد كلَّفني بأن... أنقل إليك احترامه... وأن أقول لك إنه لن يأتي بعد اليوم أبداً... وأن أحيّيك.

- تحيّيني؟ أهذا ما قاله، أهذه هي الكلمة التي استعملها؟

- نعم.

- ربّما استعملها دون أن يريد ذلك، ودون أن يلحّ أيضاً، لأنه لم يجد كلمة أخرى؟

- لا، لقد حرص على أن أستعمل كلمة «أحيّيك» هذه. لقد ألحَّ عليها ثلاث مرات لكي لا أنساها.

تخضَّب وجه كاترينا إيفانوفنا بالحمرة.

- ساعدني الآن يا ألكسي فيودوروفتش، أنا الآن في حاجة إلى مساعدتك: سأقول لك فكرتي، وأنت، وأنت تقول لي فقط إن كان رأيي صحيحاً أم لا؟ إصغ إليَّ. لو كان قد كلَّفك، صدفةً، بأن تبلغني «احترامه» دون أن يلحّ على هذه الكلمة بالذات، فإن كلّ شيء يكون قد قيل... وهنا، يكون الأمر قد انتهى! أما وأنه قد ألحَّ على هذه الكلمة، بشكل خاص، وعهد إليك أن ألّا تنسى أن تنقل إليَّ هذا «الاحترام» فمعنى ذلك أنه كان في حالة اضطراب، وربّما كان خارجاً عن طوره! لقد اتخذ قراراً، وهو يخاف من قراره! إنه لم يتركني بخطى حازمة، بل أسرع يسقط من أعلى الجبل، والإصرار على استعمال هذه الكلمة لا يمكن أن يعني إلا مجرد ثرثرة...

- نعم، نعم. أكد أليوشا بحرارة. وهذا هو شعوري الآن، أنا أيضاً.

- فإذا صحَّ هذا فإنه لم يضِع بعد! إنه مصاب باليأس فقط، لكنني أستطيع أن أنقذه. مهلاً: ألم يعهد إليك شيئاً بصدد المال، بصدد الثلاثة آلاف روبل؟

- طبعاً، لقد حدثني في هذا الموضوع، ولكن، هذا هو ربّما ما يرهقه أكثر من أي شيء آخر. كان يقول إنه الآن ملطَّخ الشرف، وإن كل شيء عنده سيّان. أجاب أليوشا باحتدام. لأنه في تلك اللحظة أحسّ بالأمل يعود إلى قلبه، وربّما كان هنالك مخرج وخلاص لأخيه.

- ولكن أنت... على علم بهذا المال؟ أضاف فجأة وسكت.

- أعرف ذلك منذ زمن طويل، أعرف ذلك طبعاً. لقد أرسلت برقية إلى موسكو لأسأل هل وصل المال، وكنت أعرف أن المال لم يُقبض. لم يرسل المبلغ، ولكنني لم أقل شيئاً. وفي هذا الأسبوع الأخير، عرفت مدى حاجته إليه، وأكثر من ذلك أيضاً... ولم يكن لي في هذا الشأن إلا هدف واحد: أن يعرف من الذي يستطيع أن يتوجّه إليه، ومن هو الصديق الأوفى، ولم يرد أن يعرفني، فهو لا يرى فيَّ إلا المرأة. وخلال أسبوع كامل، كنت أتعذب بشكل فظيع: ماذا يجب عليَّ أن أفعل حتى لا يشعر تجاهي بالخجل من أنه بدَّد تلك الثلاثة آلاف روبل؟ إفهمني، فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه، ولكن لا ينبغي له أن يشعر بالخجل تجاهي! هل يخجل أمام الله من الإفضاء إليه بأموره؟ لماذا لا يعرف ما أنا قادرة على احتماله في سبيله؟ أريد أن أنقذه نهائياً. فلينسَ أنني خطيبته. وها هو يخاف أمامي على شرفه! هل خشي الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسي فيودوروفتش؟ فلماذا لا أكون أنا، حتى الآن، جديرة بمثل هذه الثقة؟

نطقت بهذه الكلمات باكيةً، واغرورقت عيناها بالدموع.

- عليَّ أن أعلمك أيضاً ما وقع بينه وبين أبي. قال أليوشا بصوت متهدّج. وقصَّ عليها المشهد كله ذاكراً أن أخاه كان قد كلَّفه بأن يطلب له مالاً. وصف لها كيف أساء أخوه معاملة والده، وذكر لها أن أخاه قد ألحَّ عليه، بعد ذلك، مرة أخرى، أن يأتي إليها ليبلغها «احترامه»... ثم ذهب إلى تلك المرأة... ختم أليوشا كلامه بصوت خفيض.

- هل تعتقد أنني لا أستطيع أن أتحمَّل تلك المرأة؟ أيعتقد أنني لن أتحملها؟

- لكنه لن يتزوجها. قالت وانفجرت في قهقهة عصبية. هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بمثل هذا الهوى إلى الأبد؟ ذلك هوى وليس حباً. لن يتزوَّج، لأنها لن ترضى هي أن تتزوجه... قالت كاترينا إيفانوفنا مع ابتسامة غريبة.

- من الممكن أن يتزوجها. أجاب أليوشا في حزن خافضاً عينيه.

- لن يتزوجها، قلت لك! هذه الفتاة هي ملاك، هل تعرف ذلك؟ هتفت فجأة كاترينا إيفانوفنا بحماسة غير عادية. إنها من المخلوقات الخارقة! أعرف ما تتصف به من إغراء، ولكنني أعرف أيضاً طيبتها وصلابتها ونبلها. لماذا تنظر إليّ هكذا يا ألكسي فيودوروفتش؟ لعلّك أدهشت مما أقول، ربما لا تصدقني؟ يا أغرافينا ألكسندروفنا، يا ملاكي! صاحت، فجأة، لشخص ما وهي تنظر إلى الغرفة المجاورة. تعالي إلينا! إنه شاب لطيف، إنه أليوشا. هو على علمٍ بكل مشاكلنا. تعالي ليراك!

- كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التي ستناديني فيها. أجاب صوت نسويّ لطيف ومتلطّف جداً.

وأزيحت الستارة و... إنها غروشنكا بنفسها. اقتربت من الطاولة ضاحكةً وملؤها السعادة. أحس أليوشا أنه على وشك الانهيار. تسمَّرت عيناه عليها ولم يستطع تحويلهما عنها. كانت هي، إذن، تلك المرأة المخيفة - تلك «المفترسة» على حدّ القول الذي أفلت من أخيه إيفان قبل نصف ساعة. ومع ذلك، ما يراه أمامه، للوهلة الأولى، هو امرأة عادية جداً، بسيطة جداً، امرأة طيبة فتَّانة، حسناء، ولكنها شبيهة جداً بالنساء الحسناوات الأخريات اللواتي لا يُحسبنَ «عاديات». والحق أنها آية في الجمال، بل جميلة جداً جداً - ذات جمال روسيّ يعشقه الجميع حتى الجنون. هي امرأة طويلة القامة، لكنها أقلّ طولاً من كاترينا إيفانوفنا (هي طويلة جداً)، ويتميز جسمها بحركات لينة تكاد تكون صامتة، حركات تتصف انعطافاتها بالرقة والعذوبة نفسيهما اللتين تظهران حتى في صوتها. اقتربت منه، ولكن مشيتها ليست متينة حازمة كمشية كاترينا إيفانوفنا. إنها بالعكس، تمشي بدون ضجة. لا

يُسمع أبداً وقع خطاها على الأرض. واستلقت على أحد المقاعد فكان لحفيف ثوبها الحريري الأسود الفخم شيء من عذوبة في السمع. يلتف على عنقها الممتلىء الأبيض كالثلج، وعلى كتفيها العريضتين، شال ثمين من صوف أسود. هي في الثانية والعشرين من العمر. وتدلّ قسمات وجهها على أنها في هذه السنّ تماماً. لون وجهها ناصع البياض، ويعكس خداها لوناً زهرياً خفيفاً. وحدود وجهها عريضة جداً. فكُّها الأسفل بارز قليلاً. وشفتها العليا دقيقة جداً بينما الشفة السفلى الناتئة قليلاً تبدو أسمك من العليا بمرتين كأنها منتفخة. لكن شعرها الكستنائي الغامق الغزير الرائع، وحاجبيها الأسودين المخمليين، وعينيها بلونهما الرمادي - الأزرق الساطعتين، وأهدابها الطويلة، كل ذلك خليق بأن يجتذب إليه الرجل الأقل اكتراثاً والأشدّ ذهولاً، وبأن يجعل مثل هذا الرجل، ولو في قلب جمهرة، أو في زحمة شارع، أن يتوقف فجأة أمام هذا الوجه وأن يتأمل فيه طويلاً. وما أذهل أليوشا بشكل خاص، في هذا الوجه، هو تعبيره الطفولي البسيط. تنظر إليك وكأنها طفل، وكأنها سعيدة من لا شيء كأنها طفل. نعم، لقد تقدَّمت من الطاولة «ملؤها السعادة» وكأنها تنتظر، ما لا ندري ماذا، بفضولية طفولية بسيطة وفاقدة الصبر. وكان في نظرها ضياء يفرح القلب - أحسَّ به أليوشا. كان ثمة شيء آخر فيها لم يستطع أن يستبينه بوضوح ولكنه ترك فيه تأثيراً لا شعورياً، أعني تلك العذوبة وتلك الرقة في حركات جسمها وفي صمت حركاتها الرشيقة. ومع ذلك، كانت متينة البنية نامية الأعضاء. نتخيَّل تحت شالها كتفين عريضتين وصدراً كاعباً لا يزال صدر فتاة مراهقة. وهذا الجسم يَعِد بأن يكتسب اتساقات جسم فينوس ميلو، رغم أن نِسَبه مفرطة قليلاً منذ الآن. فالعارفون في جمال المرأة الروسية يتنبأون بدون خطأ، وهم يتأملون غروشنكا، بأنّ هذا الجمال النضر الفتيّ سيضمحل في عمر الثلاثين، وسيفقد انسجامه ويتحلّل، وسيترهّل وجهها وستظهر حول عينيها تجاعيد صغيرة، وعلى جبينها أيضاً، وسوف يقسو وجهها ويصبح أشدَّ احمراراً، أي إن جمالها، باختصار، جمال عارض مؤقت كالجمال الذي يُلاحظ غالباً لدى النساء الروسيات. لم يفكر أليوشا في هذا النوع طبعاً، ولكنه رغم افتتانه بها قد تساءل بإحساس غامض وبنوع من الأسف، لماذا تجرُّ كلامها هكذا، ولا تطلق صوتها في الحديث على سجيته بشكل طبيعي؟ إن المرء يشعر أنها تحسب الرشاقة والأناقة والجاذبية في هذه الطريقة في تلوين ألفاظها ونغماتها. والحقيقة أن تلك عادة سيئة تدل على أصلها الوضيع وعلى أفكارها السطحية، منذ طفولتها، كما عن الآداب الاجتماعية. وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يطاق بين هذا النطق المتصنّع والتنغيم المفتعل وبين ما يظهر في وجهها من تعبير عن فرح بريء وابتهاج ساذج، وعن الضياء في عينيها الوديع السعيد وكأنه ضياء لم يظل طفلاً بعد! قامت كاترينا إيفانوفنا فوراً، وأجلستها على كنبة أمام أليوشا، وطبعت بضع قبلات على شفتي غروشنكا الضاحكتين. كانت كأنها مغرمة بها.

- إننا نلتقي للمرة الأولى يا ألكسي فيودوروفتش، قالت بنشوة السكر. أردت أن أعرفها، أن أراها، أردت أن أزورها في منزلها ولكنها جاءتني من تلقاء نفسها مذ عرفت برغبتي. كنت على ثقة بأننا، أنا وهي، سنتمكن من التفاهم على كل شيء! أحسَّ قلبي بذلك... رجوني أن أتخلّى عن القيام بهذا المسعى ولكنني كنت أتوقَّع النتيجة السعيدة، فلم يخطىء ظني. شرحت لي غروشنكا كل شيء، وأطلعتني على كل نواياها. جاءتني كملاك يحمل إليَّ السلام والبهجة...

- لم تخجلي مني، يا آنستي الطيبة، أنت خليقة بي. قالت غروشنكا بصوت منغم متباطىء مع ابتسامة ظريفة مرحة.

- لا أسمح لك بأن تقولي لي مثل هذا الكلام، يا فاتنتي، يا ساحرتي! أأخجل منك أنت؟ دعيني أقبّل، مرة أخرى، شفتك السفلى هذه. كأنها متورمة قليلاً، كأنها متورمة! هذه قبلة أيضاً، هاتي قبلةً أخرى... وقبلة أخرى أيضاً... أنظر إليها كيف تضحك يا ألكسي فيودوروفتش. إن رؤية هذا الملاك تفرح القلب... احمرَّ وجه أليوشا واجتاحته ارتعاشات

خفيَّة.

- أنت تدلليني، يا آنستي اللطيفة، وأنا، لا أستحق كل مداعباتك هذه.

- لا تستحق! هي، هي لا تستحق! صاحت كاترينا إيفانوفنا باهتياج. اعلم يا ألكسي فيودوروفتش أنها فتاة خيالية لكنها فخورة بنفسها. أوه، فخورة! هي نبيلة القلب، يا ألكسي فيودوروفتش، وكريمة الطباع. هل تعرف ذلك؟ ولكنها كانت تعيسة فقط. لقد تعجلتِ فأرادت أن تضحّي بكل شيء من أجل رجل حقير، أو ربما طائش. كان ضابطاً هو أيضاً. وهبت له كل شيء. حدث هذا منذ زمن بعيد، منذ خمس سنين. وهو، نسيها، وتزوج. وهو الآن أرمل. كتب إليها يقول إنه آتٍ - اعلم أنه الرجل الوحيد، الرجل الوحيد، نعم، الذي أحبّته فعلاً وطوال حياتها، ولا تزال تحبه! سيأتي وستصبح غروشنكا سعيدة لأنها تألمت كل هذه السنوات الخمس. لكن مَن الذي يتجرأ على لومها، من يستطيع أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء! وحده ذلك العجوز - التاجر المعوَّق. لكنه كان لها بمثابة أب، كان صديقاً لها، كان لها حارساً. وجدها فريسة اليأس والألم بعد أن هجرها الرجل الذي أحبته... وقد فكّرت في أن تشنق نفسها. فأنقذها ذلك العجوز، أنقذها!

- لا، أنت تدافعين عني بقوة، يا آنستي اللطيفة، ولعلك في هذا تسرفين في التعجّل أكثر من الموسيقى. قالت غروشنكا بصوتها المتباطىء عينه.

- أنا، أدافع عنك؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك؟ وبأيّ حق نجرؤ على الدفاع عنك؟ غروشنكا، ملاكي، أعطيني يدك، أنظر إلى هذه اليد الجميلة، يا ألكسي فيودوروفتش، أنظر إلى هذه اليد الممتلئة الناعمة. هل تراها؟ لقد حملت إليّ السعادة، لقد أعادتني إلى الحياة. وأنا، انظرْ، سأقبّلها وجهاً وقفاً. هكذا، وهكذا، ومرة أخرى! ثلاث مرات متتالية، كما في حالة السكر؛ وطبعت قبلة على تلك اليد اللطيفة حقاً وإن هي مسرفة في السمنة. وكانت غروشنكا، وقد مدَّت إليها يدها، تراقب «الآنسة اللطيفة»، مع ضحكة قصيرة عصبية رنانة. وكانت مسرورة بتقبيل يدها على هذا الشكل. قال أليوشا لنفسه بسرعة: «لعلها تسرف في الحماسة»، واحمرَّ وجهه، وكان قلبه، كل ذلك الوقت، يشعر بأنه غير مطمئن.

- لا تخجليني، يا آنستي اللطيفة بتقبيل يدي هكذا، أمام ألكسي فيودوروفتش.

- أنا أريد أن أجعلك تخجلين؟ أجابت كاترينا إيفانوفنا بشيء من الدهشة. يا عزيزتي، إنك تسيئين فهمي!

- وأنتِ أيضاً فيما يخيَّل إليَّ يا آنستي اللطيفة. أنا، ربما أكون أخبث كثيراً مما تفكرين. إن لي قلباً شريراً، وأنا عنيدة. اجتذبت ديمتري فيودوروفتش إلى منزلي لكي أسخر منه.

- والآن، أنت التي تنقذينه. لقد قطعت وعداً. ستشرحين له، وستقولين له إنك لا تحبين رجلاً آخر، منذ زمن طويل، وإن هذا الآخر سيتزوجك...

- آه، لا. أنا لم أعطِ وعداً بهذا أبداً. أنت قلت لي هذا الكلام كله، أما أنا، فلم أعد بشيء.

- إذن، لقد فهمتك خطأً. قالت كاترينا إيفانوفنا بصوت خافت وقد اصفرَّ وجهها قليلاً. لقد وعدتِ...

- لا، يا آنستي الملاك، أنا لم أعدك بشيء أبداً.

قاطعتها غروشنكا بصوت هادىء مع النبرة الفرحة والبريئة نفسها. وأنت ترين الآن، يا آنستي المحترمة، كم أنا شريرة معك ومستبدة. أنا أفعل ما أريد فقط. قد أكون وعدتك بشيء، منذ قليل، ولكنني الآن أقول لنفسي: «ماذا لو أعجبني ميتيا من جديد؟» - ذلك أنه قد أعجبني، مرة في الماضي، لقد أعجبني طوال ساعة بكاملها. وأنا، ربما شعرت بأنني أستطيع الذهاب إليه لأقول له: تعال، اسكن في منزلي نهائياً منذ الآن... هكذا أنا، متقلّبة...

- منذ قليل، قلت... قالت كاترينا إيفانوفنا بعناء. قلتِ غير هذا كلياً...

- منذ بضع لحظات! ولكن، أنا، لي قلب حنون، وأنا غبيَّة. فعندما أتصوّر كلّ ما جعلته يقاسي من آلام! وإذا رجعت إلى منزلي، ورحت ألومه - ماذا يحدث عندئذ؟

- لم أكن أتوقع أن...

- أوه، آنستي. ما أطيبك وما أنبلك فالمقارنة معي؟ أنا الغبيّة، لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن بسبب طبعي السيِّئ. أعطيني يدك الصغيرة الجميلة، أنت أيضاً، يا ملاكي؛ قالت لها ذلك بحنان ثم أمسكت يدها بنوع من الوقار. آنستي اللطيفة، أعطيني يدك سأقبّلها كما قبّلت أنت يدي. قبّلتني ثلاث مرات، وأنا، عليّ أن أقبّل يدك ثلاثمئة مرة لكي نكون متساويتين. ولندع الأمور على ما هي عليه، ولنسلّم أمرنا إلى الله. ربّما سأكون أَمَتك كلياً، وأريد أن أخضع لك كأَمة. كما يشاء الله! فلا نقطع على نفسينا عهوداً أو وعوداً؛ هذه اليد، هذه اليد الجميلة، آه، ما أجمل يدك يا آنستي اللطيفة، إنّ جمالك لا يتصوره خيال.

ورفعت تلك اليد إلى شفتيها، على تلك النيّة الغريبة وهي أن «تردَّ إليها دينها» بالقبلات. لم تعارض كاترينا إيفانوفنا: كانت قد أصغت إلى الوعد الذي قطعته غروشنكا. وهو أنها قد تخضع لإرادتها «كلياً»؛ وهي تحدِّق إلى عينيها اللتين لا تزالان تعبّران عن تلك البراءة والصراحة والغبطة عينها... «لعلّها ساذجة بإسراف». قالت كاترينا إيفانوفنا في نفسها. وعاد الأمل يشرق في قلبها. وفي أثناء ذلك، كانت غروشنكا التي تبدو نشوى أمام «اليد الصغيرة الجميلة» فترفعها إلى شفتيها. لكن بعد أن وضعتها على شفتيها، تركتها لحظتين أو ثلاثاً، وكأنها تفكر في شيء ما. ثم قالت فجأة وهي تجرّ كلماتها بطيئة وتسكب فيها أرق التثنيات والترجمات العذبة:

- هل تعلمين، آنستي الملاك، لقد قررت فجأة أن لا أقبّل يدك الصغيرة، وانطلقت منها ضحكة مرحة.

- كما تشائين... ولكن ماذا بك؟ سألت كاترينا إيفانوفنا وجسدها كله يرتعش.

- حسناً. فليبق هذا في ذاكرتك، إنكِ، أنت، قبَّلت يدي، ورفضت أنا تقبيل يدك. كان ثمة شيء بدأ يلمع فجأة في عينيها، وحدَّقت إلى كاترينا إيفانوفنا بنظرة حادة، بفظاعة.

- يا للوقحة! قذفتها كاترينا إيفانوفنا كأنها أدركت شيئاً ما في هذه اللحظة، ونهضت من مكانها فجأة، فوقفت غروشنكا بدورها بدون إسراع.

- هذا ما سأذكره لميتيا بعد لحظة، أنك قبّلت أنت يدي ورفضت أنا أن أقبّل يدك.

- أخرجي، أيتها المومس!

- ألا تخجلين، ألا تخجلين؟ ألا تعرفين أن هذا غير لائق بك، أن تستعملي مثل هذه الألفاظ يا آنستي اللطيفة.

- أخرجي من هنا أيتها المومس العاهرة! زأرت كاترينا إيفانوفنا، وقد تغيّرت ملامح وجهها فجأة وبدأت ترتجف.

- أنت المومس القذرة. أنت التي عندما كنت فتاة، كنت تذهبين في الليل إلى منازل شبّان لكي تحصلي على مال، وتبيعين جمالك؟ إنني أعرف كل هذا، أعرف.

أطلقت كاترينا إيفانوفنا صرخة وحاولت أن تنقضّ عليها، ولكن أليوشا أمسكها بكل قواه.

- إياك أن تقولي كلمة واحدة! لا تجيبيها بشيء، لا تنطقي بحرف، سوف تنصرف، سوف تنصرف فوراً.

في هذه اللحظة، سمعت خالتا كاترينا إيفانوفنا صراخها فأسرعتا إلى الغرفة وتبعتهما الخادمة وأحطن جميعاً بها.

- نعم، أنا ذاهبة. قالت غروشنكا وهي تتناول شالها عن الديوان. أليوشا، حبيبي، رافقني، هيّا!

- اذهبي، اذهبي بسرعة. قال لها أليوشا متوسلاً ضامّاً يديه إحداهما إلى الأخرى.

- صغيري العزيز اللطيف أليوشا، رافقني! سأقول لك، أثناء الطريق، أشياء تسرُّك، تسرّك كثيراً... من أجلك أنت يا حبيبي أليوشا مثَّلت هذه المهزلة. رافقني، يا صغيري، ولن تندم على ذلك.

تحوَّل عنها أليوشا وهو يعقف يديه. وأسرعت غروشنكا راكضة وهي تطلق ضحكة مدوّية.

وأصيبت كاترينا إيفانوفنا بنوبة عصبية. فأخذت تبكي منتحبة تخنقها التشنجات. وكان الجميع من حولها يتحركون.

- لقد حذرتك. قالت لها كبرى خالتيها. أردت أن أمنعك... أنت مسرفة في الاندفاع... كيف أمكنك أن تقومي بهذه الخطوة! ألا تعرفين مثيلات هذه المخلوقات، ويقال إن هذه أخبثهنّ جميعاً... أنت تتصرفين على هواك!

- إنها نمرة: زأرت كاترينا إيفانوفنا. لماذا أمسكتني يا ألكسي فيودوروفتش، أردت أن أضربها، أن أضربها!

ولم تعد تسيطر على نفسها أمام أليوشا، ولعلها لم تشأ أن تسيطر على نفسها.

واتّجه أليوشا نحو الباب.

وصاحت فجأة كاترينا إيفانوفنا:

- يا ألله، وهي ترفع يديها إلى السماء. لكن هو! لم يخجل أن يكون حقيراً إلى هذا الحدّ، أن يكون فظاً! لقد أخبر هذه المخلوقة كل ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم، ذلك اليوم الملعون، الملعون إلى الأبد. «ذهبتِ تبيعين جمالك يا آنستي اللطيفة!»

إنها تعلم إذن. إن أخاك وغد يا ألكسي فيودوروفتش!

أراد أليوشا أن يقول شيئاً ما، لكنه لم يجد الكلمات. كان قلبه يعتصر ألماً.

- إذهب، يا ألكسي فيودوروفتش! إنني أشعر بالعار، أشعر بألم رهيب! عد غداً... أتوسَّل إليك جاثية، ارجع غداً. لا تحكم عليَّ، سامحني، أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسي!

خرج أليوشا يمشي مترنحاً. كان يودّ لو يبكي هو أيضاً مثلها. وأدركته الخادمة فوراً.

- نسيت الآنسة أن تسلّمك الرسالة الصغيرة من السيدة فوخلاكوفا. لقد احتفظت بها منذ الغداء.

تناول أليوشا الظرف الوردي الصغير، بشكل آليّ، ودسَّه في جيبه دون أن يفكر في ذلك.

XI

سمعة أخرى ضائعة

من المدينة إلى الدير توجد مسافة تزيد على الفرسخ قليلاً. كان أليوشا يسير بخطى مستعجلة على الطريق المقفرة في تلك الساعة. كان الليل قد هبط تقريباً، وأصبح البصر لا يميز الأشياء على مسافة ثلاثين متراً. وفي منتصف الطريق يوجد مفترق طرق. في هذا المفترق، وفي ظل شجرة صفصاف منعزلة، يُرى شبح. فما كان أليوشا يقوم بخطوة واحدة في المفترق حتى قفز الشبح منقضاً عليه، صارخاً فيه بصوت مروِّع:

- مالك أو حياتك!

- أهذا أنت يا ميتيا؟ قال أليوشا وقد ارتعش بعنف مدهوشاً.

- ها. هاها. لم تكن تتوقع هذا؟ قال ديمتري فيودوروفتش ضاحكاً. لقد تساءلت: أين يمكنني أن أنتظرك؟ بالقرب من منزلها؟ هناك ثلاث طرق مختلفة، يمكن أن يخيب ظني، فقررت، أخيراً، أن أنتظرك هنا، قائلاً لنفسي، لا بدَّ أن تمرّ بهذا المكان فلا توجد طريق أخرى توصل إلى الدير. جيِّد، قل لي الحقيقة الآن، اسحقني كما تسحق حشرة مؤذية. ماذا حدث لك؟

- لا شيء، يا أخي العزيز... هو الخوف فقط. آه، يا ديمتري! دم والدنا الذي سفح منذ قليل... قال أليوشا ذلك وبدأ يبكي. كان يودّ أن يبكي منذ مدة طويلة، والآن لا يعرف لماذا. أوشكتَ أن تقتله. لقد لعنته... والآن... فوراً... بدأت بالمزاح... «المال أو الحياة!».

- لماذا؟ هذا غير لائق أم ماذا؟ ألا يتفق هذا مع الوضع القائم؟

- لا، ليس هذا ما أردت قوله.

- مهلاً، أنظر إلى هذا الليل؛ إنك ترى كم هو معتم، الليل، والغيوم، والريح قد هبَّت! لقد اختبأت هنا، تحت شجرة الصفصاف، أنتظرك، قلت، فجأة، لنفسي: (بحق الصليب!)، ماذا يفيد التأجيل؟ ماذا أنتظر؟ هذه الصفصافة هي هنا، وها هو المنديل، وها هو القميص، يمكن أن نصنع منهما حبلاً، على الفور، بالإضافة إلى الحمَّالات. ماذا يفيد تدنيس كل شيء بحقارة وجودي؟ في تلك اللحظة سمعت وقع خطواتك على الطريق، فخطرت لي هذه الفكرة. فقلت في نفسي، لكن يوجد مع ذلك شخص أحبه، وها هو، هذا هو الإنسان الطيب، هذا هو، إنه أخي الصغير اللطيف الذي أحببته جداً. أحببتك جداً في تلك اللحظة. وقلت في نفسي: سوف أعانقه! لكن فكرة سخيفة راودتني «سأخيفه قليلاً لأسلّيه». لذلك صرخت كالأبله: «مالك!» فاغفر لي هذا التصرف الصبياني - إنه مجرد مزاح. أما بالنسبة إلى حالتي الصحية فهي على ما يرام... بئست هذه الأفكار كلها على كل حال! قل لي، أنت، الآن، كيف جرت الأمور هناك؟ ماذا قالت لك؟ هيا، اقضِ عليّ، اسحقني، لا توفرني! هل أصابتها نوبة هستيرية؟

- لا، ليس هذا هو الأمر... ليس هذا هو الأمر أبداً، هناك شيء آخر يا ميتيا... هناك... لقد وجدتهما كلتيهما هناك.

- كلتيهما؟ من هما؟

- غروشنكا عند كاترينا إيفانوفنا.

جمد ديمتري فيودوروفتش.

- هذا مستحيل! صاح. لا شك أنك تهذي! غروشنكا عندها؟

أخبر أليوشا أخاه كلّ ما جرى منذ اللحظة التي وصل فيها إلى منزل كاترينا إيفانوفنا. أخبره مدة عشر دقائق، ولا يسعنا القول إن حديثه كان واضحاً ومتّسقاً، لكن يبدو أنه نقله بدقة، وذكر الأقوال الهامة والوقائع الأساسية بحماسة مستعيناً بمشاعره الخاصة على توضيحها. واستمع أخوه ديمتري إلى حديثه صامتاً مركزاً عليه نظرته الحادة والمرعبة. وكان واضحاً بالنسبة لأليوشا، منذ الكلمات الأولى التي تفوّه بها أن أخاه قد فهم كل شيء. كان تعبير وجهه، كلما تعمّق أليوشا في سرد القصة، يزداد تجهماً حتى ليبدو مهدداً. قطّب حاجبيه، وكزَّ على أسنانه، وتفاقم جمود نظرته وأصبح مرعباً... ولكن، ما كان أشدَّ دهشة أليوشا عندما رأى وجه أخيه الذي كان حتى ذلك الوقت متوحشاً ومفترساً قد تغيَّر فجأة بشكل كامل. انفرجت شفتاه فوراً، وانفجر ديمتري فيودوروفتش يضحك مقهقهاً في ضحكة لا تقاوم وصريحة. حتى صار جسمه يتلوّى من الضحك، وبقي على هذه الحال مدة طويلة لا يستطيع أن يتوقف عن القهقهة ولا يستطيع أن يتكلم.

- إذن، لم تقبّل يدها الجميلة! رفضت أن تقبّلها وانصرفت بكل بساطة. صاح بنوع من الحماسة المرضيَّة التي كان يمكن أن تكون وقحة لولا أنها لم تكن عفوية. وزأرت الأخرى تقول عنها إنها نمرة! أجل، إنها نمرة! أنا أيضاً من هذا الرأي. إنها تستحق ذلك، تستحقه منذ زمن طويل! أنا لا أعارض، أيها الأخ العزيز أن تذهب إلى الإعدام. ولكن يجب أن أشفى أولاً! أنا أعرفها ملكة الوقاحة هذه! إن رفض تقبيل اليد يعبّر عن حقيقتها كاملة، بنت الجحيم تلك! إنها ملكة كل الشعوذات التي يمكن أن نتصورها على الأرض! إنها في نوعها، شيء من انخطاف! إذن، ركضت إلى منزلها؟ سأذهب إليها... آه... سأسرع إليها! لا تحاكمني يا أليوشا! أنا أعرف، وأنا موافق على أنه يجب القضاء عليها!

- وكاترينا إيفانوفنا! قال أليوشا حزيناً.

- هي أيضاً، أتصوَّرها، أراها، كما أنني صنعتها، أراها، نعم، كما لم أعرفها من قبل! إنها اكتشاف القارات الأربع أو الخمس! عمل كهذا! ولكن هذه هي، هذه هي تلميذة المدرسة الداخلية الصغيرة التي لم تتهيَّب أن تذهب إلى منزل ضابط غبي، معرِّضة نفسها لأبشع إهانة لإنقاذ والدها. ولكن يا لتلك الكبرياء، يا لهذا الميل إلى المجازفة والتحدي للقدر، التحدي الذي لا حدود له! قلت إن خالتها أرادت أن تمنعها؟ هل تعلم أن خالتها هذه ليست أقلَّ منها تشبّثاً بالرأي؟ إنها أخت جنرالة موسكو، ولقد كانت فيما مضى تتباهى بعظمة، لكن زوجها اتُّهم بالاختلاس، وفَقدَ كل شيء، حتى أراضيه. وما لبثت زوجته المتعجرفة أن غيَّرت لهجتها، ومنذ ذلك اليوم لم ترفع صوتها. إذن، أرادت أن تمنع كاتيا، فرفضت كاتيا أن تعمل بنصائحها؟ «أستطيع أن أتغلّب على كل شيء، كل شيء يخضع لي. إذا أردت فبوسعي أن أسحر غروشنكا». ذلك ما قالته وآمنت به منذ انبثقت الفكرة في رأسها؟ لعلك تعتقد أنها كانت البادئة بتقبيل يد غروشنكا، وفي ذلك حساب ماكر؟ لا، لقد كانت صادقة في حبّها، لا في حبّ غروشنكا الحقيقية، بل في حب حلمها هي بها، بحب الوهم. لأنه «حلمي»، لأنه «وهمي»! قل لي يا عزيزي أليوشا: ماذا فعلتَ حتى استطعت أن تفلت من تينك المرأتين؟

هل شمَّرت جبَّتك حتى عنقك؟ ها، ها، ها!

- أخي، أعتقد أنك لم تلاحظ مدى الإهانة التي ألحقتها بكاترينا إيفانوفنا عندما رويتَ لغروشنكا قصة زيارتها لك في ذلك اليوم المشؤوم! لقد صرخت هذه المرأة في وجهها قائلة في فظاظة: «ذهبت خفيةً تبيعين جمالك لشبَّان!» أخي، هل هناك إهانة أقوى من هذه الإهانة؟ كان أليوشا معذَّباً من تصوّره أنّ أخاه يبدو سعيداً لإهانة كاترينا إيفانوفنا، رغم أن هذا التصور لا يمكن أن يكون ممكناً.

- آه. تأوه ديمتري فيودوروفتش مقطباً حاجبيه فجأة، ثم ضرب جبهته براحة يده. لقد عرف الآن فقط هذا الموقف، رغم أن أليوشا قصَّ عليه كل شيء، وصراخ كاترينا إيفانوفنا «إنَّ أخاك حقير!» نعم، صحيح، أن أكون قد أخبرت غروشنكا عن ذلك «النهار المشؤوم»، على حدّ قول كاتيا. صحيح لقد حدَّثتها عن ذلك، لقد تذكرت! حصل هذا، في ذلك اليوم، في موكرويه، كنت ثملاً، وكانت الغجريات يغنّينَ... ولكنني، كنت أنتحب، كنت أنتحب في الوقت نفسه، وركعتُ أصلّي لإيقونة كاتيا، وفهمت غروشنكا ذلك. فهمت كل شيء. أتذكر الآن هذا... كانت تبكي هي أيضاً.. فليأخذ الشيطان النساء! هل يمكن أن يحدث غير ذلك الآن؟ لقد بكت في ذلك اليوم، والآن... «الخنجر في القلب»... هكذا هنَّ النساء.

ثم خفض رأسه وراح يفكّر:

- أجل، أنا حقير! وغدٌ بدون أيّ شك... قال فجأة بصوت مغتمّ. سيَّان أن أكون قد بكيت أو لا. ليس لهذا الأمر أيّ قيمة. على كل حال فأنا وغد!.. قل لهنَّ هناك إنني أقبل هذا النعت إذا كان في ذلك عزاء لهنّ. حسناً، وداعاً! لقد ثرثرنا كفاية! وما من شيء مفرح. ستذهب أنت في طريقك وأنا في طريقي. لا أريد أن أراك بعد الآن، حتى النهاية. وداعاً يا ألكسي!

شدَّ بقوة على يد أليوشا، وعيناه منخفضتان دائماً، دون أن يرفع رأسه، كأنه مجنون. واتجه نحو المدينة. كان أليوشا ينظر إليه وهو يبتعد دون أن يصدّق أنه ذهب نهائياً.

- مهلاً يا ألكسي! ثمة اعتراف آخر، لك أنت وحدك! قال ديمتري فيودوروفتش وقفل راجعاً فجأة. أنظر إليَّ، أنظر إليّ بانتباه: هل ترى أين؟ هنا. إنَّ رجساً قبيحاً يتهيّأ. (عندما قال له كلمة «هنا»، كان ديمتري فيودوروفتش يضرب صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب، كأنّ الرجس الذي يشير إليه مدفون في هذا المكان بعينه، في صدره، في مكان ما، مختبئاً في جيبه أو في كيس معلّق بعنقه). إنك تعرفني الآن: أنا وغد، وغد أصيل! فاعلم مع ذلك أن لا شيء مما فعلت في الماضي، ومما قد أفعله في الوقت الحاضر، يمكن أن يعادل في حقارته ما أحمله في نفسي، في هذه اللحظة، هنا، في هذا الموضع، على صدري، من رجس يتخمَّر ويمكنني أن أكبته. ذلك أنني حرّ أستطيع أن أحققه وأستطيع أن لا أحققه، لاحظ هذا... لكن اعلم، أنني سأحققه ولن أعدل عنه. منذ بضع ساعات رويت كل شيء، أخبرتك كل شيء إلا هذا الأمر وحده. لأنني خجلت من الاعتراف به. لا يزال في وقتي متّسع لكي أتراجع، وإذا توقفت، فسوف أستطيع، منذ يوم غد، أن أسترجع نصف شرفي الضائع، ولكنني لن أتوقَّف! سأنفّذ خطتي السوداء وأنت ستكون شاهداً على قراري الذي اتخذته وأنا في كامل وعيي! الموت والظلمات! فلا لزوم لأن أشرح لك شيئاً، ستعرف كل شيء في حينه، وفي ساعته، الزقاق القذر والبنت الجهنمية! وداعاً. لا تصلِّ من أجلي فأنا لا أستحق ذلك... ولست بحاجة أبداً إلى صلاتك! انصرف!...

وابتعد فجأة. وفي هذه المرة، رجع أليوشا إلى الدير. ولكن كيف هذا؟ ألن أراه بعد اليوم أبداً؟ ماذا يقول؟ كان يتساءل بشكل هستيري. دعك من كلامه! سأذهب إليه غداً،

...وسأراه حتماً، سأذهب إليه خصيصاً. كيف يمكنه أن يقول لي كلاماً كهذا؟

دار حول الدير واجتاز غابة الصنوبر متجهاً مباشرة إلى الصومعة. هناك، فُتح له الباب، رغم أن القاعدة لا تسمح لأحد بالدخول في مثل هذه الساعة المتأخرة. كان قلبه يرتجف حين دخل غرفة الراهب الناسك. لماذا؟ لماذا خرجت؟ لماذا أرسلني الراهب الناسك إلى العالم؟ هنا، مكان الصمت والقداسة، أما هناك فالاضطراب والظلمات التي يضيع فيها الإنسان ويضلّ فوراً...».

وجد في الغرفة المبتدىء بورفير، والأب باييسي الذي يقضي نهاره كلّه يجيء ساعةً بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيما الذي كانت حالته الصحية تتفاقم؛ عرف أليوشيا ذلك مذعوراً وكان يشعر بألم أكثر فأكثر. حتى لقد استُغني عن الحديث الذي اعتاد أن يجريه في المساء مع الإخوة الآخرين. وقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء، بعد الصلاة، وقبل استراحة الليل، في غرفة الراهب الناسك، وكان كل واحد منهم يعترف له علناً بصوت عالٍ بالخطايا التي اقترفها أثناء النهار، وبأحلامه، وبأفكاره، وبتجاربه، وبالمشاجرات التي حدثت. وكان بعضهم يعترفون راكعين، والراهب الناسك يستمع إليهم، ويحكم في أمورهم، ويصالح فيما بينهم، ويصدر أوامره، ويعرض عليهم كفّارات ثم يصرفهم. وعلى هذه الطريقة في «الاعتراف» كان يعترض الإخوة خصوم الرهبان المرشدين، قائلين إنها بدعة تفسد الاعتراف بوصفه سرّاً. حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية، أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شرّه على كونه لا يحقق الهدف الأخلاقي المطلوب، بل هو، في الواقع، يقود النفس إلى الخطيئة وإلى التجربة. وقالوا أيضاً إن عدداً كبيراً من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للراهب الناسك، وإنهم لا يذهبون إليه إلا لأن الآخرين يفعلون ذلك، فهم يخشون أن يتّهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد في أفكارهم إن هم امتنعوا عن الذهاب إلى الناسك. ويُحكى أن هناك بعض الإخوة كانوا يتفقون فيما بينهم، أحياناً، قبل الذهاب إلى الاعتراف في المساء على أن يمثّلوا أدواراً مختلفة: «أنا، سأقول إنني غضبت منك فتؤكد أنت ذلك وتثبته»، حتى يكون لدينا ما نقوله لكي ننتهي من هذه المهمة بسرعة. وكان أليوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلاً في بعض الأحيان. وكان يعرف أيضاً أن هناك أخوة كانوا يستاؤون من أن رسائل أقاربهم نفسها يستلمها الراهب الناسك أولاً ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها. ويُفترض طبعاً أن كل هذا يجب أن يتّبع بقلب حرّ وصادق، واندفاع روحيّ، تحقيقاً لأهداف السلامة وغايات الخلاص. ولكن لم يكن أيّ شيء صادقاً، بالعكس، كان ذلك خطأً وتمثيلاً. لكن الإخوة القدامى، الأكثر تجربة، كانوا يصرون قائلين إن «من دخل الدير طلباً للخلاص بنيّةٍ صادقة فلا بدَّ أن يجني فائدة روحية كبرى من مراعاة هذه القواعد أو الكفّارات المختلفة، وأن التقيّد بهذه القواعد لا بدَّ أن يعود عليهم بنفعٍ عظيم على طريق الخلاص؛ وأن أولئك الذين يشتكون من هذه الأمور ويرون فيها امتحانات لا غير مفيدة ليسوا برهبان حقاً، وما كان ينبغي لهم الدخول إلى الدير، لأنّ المكان الذي خلقوا له هو العالم؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن ينجوا من الخطيئة ولا من الشيطان لا في هذا العالم ولا في الدير، فلا مجال للقول إنّ هذا الاعتراف اليومي يمكن أن يحرّض على الخطيئة».

- إنه ضعيف جداً قد سيطر عليه النعاس، قال الأب باييسي لأليوشا بعد أن باركه بصوت خفيض، ومن الصعب إيقاظه. ولماذا نوقظه؟ لقد فتح عينيه خمس دقائق وطلب أن نبلغ الإخوة بركته وطلب منهم أن يصلّوا في هذا الليل من أجله، وفي نيّته أن يتناول القربان المقدس غداً مرة أخرى. وقد تذكرك يا أليوشا، وأراد أن يعرف إذا كنت قد ذهبت، فأجبناه بأنك في المدينة: «لهذا السبب باركته، فهناك مكانه الآن، وليس هنا». هذا ما قاله عنك. كان يفكر فيك بمحبة وكان مهتماً بمصيرك. فهل تدرك هذه الخطوة التي يوليك إياها؟ ولكن لماذا حدَّد لك أن تعيش في العالم زمناً؟ إذن، هناك شيء تنبَّأ به عن قدرك! إعلم يا ألكسي، حتى إذا أنت عدت إلى العالم فيجب أن تتصرف فيه بروح الطاعة التي ألزمك بها

...مرشدك متجنّباً الأفكار الطائشة والملذات المبتذلة

وخرج الأب بايبيسي ثانيةً. أمّا أنَّ الراهب الناسك قيد الانطفاء فذلك ما لا يشك فيه أليوشا، وإن كان يمكنه العيش يوماً آخر أو يومين. لذلك، قرر أليوشا بصلابة أن لا يغادر الدير رغم الوعد الذي قطعه على نفسه بالذهاب إلى رؤية والده، وبالذهاب إلى السيدتين خوخلاكوفا الأم وابنتها، وكاترينا إيفانوفنا وأخيه. فلن يخرج من الدير غداً، سيبقى بالقرب من الراهب الناسك حتى وفاته. وامتلأ قلبه بالحب ولام نفسه بمرارة على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسي، ولو للحظة واحدة، ذلك الإنسان الذي تركه في الدير على سرير الموت والذي يحترمه أكثر من أيّ إنسان في هذا العالم. ودخل إلى غرفة نوم الراهب الناسك وركع وانحنى حتى لامس جبينه الأرض أمام معلّمه النائم. كان الراهب الناسك ينام بلا حركة، وكان تنفّسه الضعيف يجري مطرداً ولكن بانتظام رغم أنه لا يكاد يُدرك. وكان وجهه ساكناً.

لدى عودته إلى الغرفة الأخرى - وهي الغرفة التي استقبل فيها، عند الصباح، الراهب الناسك ضيوفه - تمدّد أليوشا دون أن ينزع عنه ملابسه، وبعد أن خلع حذاءيه فقط، نام على الديوان الصغير الضيق والقاسي، المغطّى بالجلد، الذي اعتاد منذ زمن طويل النوم عليه في كل الليالي. وكان يكتفي بأن يضع عليه وسادة مستغنياً منذ مدة طويلة، عن وضع الفراش الذي حدَّثه والده عنه. وكان يخلع عنه جبَّة الراهب ويستعملها كغطاء. ولكنه قبل أن ينام يركع ويصلي مدة طويلة. لم يطلب من الله، في صلاته الحارة، أن يخلصه من قلقه، لأن عطشه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذي سبق أن عرفه والذي كان يغزو روحه دائماً بعد تلاوة فعل الشكر والتسبيح لله، وهذه هي صلاة المساء كلها. إن الفرح الذي يملأ قلبه يجلب له نوماً هادئاً ومريحاً. وهو يصلّي، في ذلك المساء، أحسَّ فجأة، في جيبه بوجود ذلك الظرف الصغير الوردي الذي أعطته إياه خادمة كاترينا إيفانوفنا عندما أدركته في الطريق. فاضطرب، ولكنه أكمل صلاته. ثم، بعد لحظات من التردد، فتح الظرف فكان يحتوي على رسالة صغيرة بتوقيع ليزا ابنة السيدة خوخلاكوفا، الصبيّة الصغيرة الرائعة التي سخرت منه، عند الصباح، بحضور الراهب الناسك.

ألكسي فيودوروفتش، كتبت تقول. أكتب إليك خفيةً عن جميع الناس، وحتى عن» أمي، وأعرف أن هذا عمل سيِّئ. ولكن يستحيل عليَّ العيش دون أن أبوح لك بما يختلج في قلبي، ودون أن أطلعك على العاطفة التي ولدت فيه، والتي يجب أن يجهلها جميع الناس الآن إلا نحن الاثنين. ولكن كيف أقول لك ما أريد قوله؟ يبدو أن الورق لا يمكن أن يحمرَّ خجلاً، ولكنني أؤكد لك أن هذا غير صحيح، لأنّ الورق يحمرّ الآن أمامي كما أحمرُّ أنا! عزيزي أليوشا، أحبك، أحبك منذ الطفولة، منذ سنوات موسكو التي كنتَ فيها مختلفاً عنك الآن. أحبك مدى الحياة. لقد اخترتك في قلبي لأقاسمك الحياة كلها ولننهي أيامنا معاً في الشيخوخة، شرط أن تترك الدير طبعاً. أما عن عمرنا فبإمكاننا أن ننتظر المدة القانونية. عندئذ أكون قد شفيت من مرضي، بدون شك، فأمشي وأرقص. ذلك أمر لا شك فيه. أنت ترى أنني فكَّرت في كل شيء. ولكن ثمة نقطة عجزت عن أن أتصوَّرها: ما عسى أن يكون رأيك فيَّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة؟ لا أتوقف عن الضحك وأقوم بسخافات، وقد أغضبتك قبل قليل. لكنني أؤكد لك أنني صلَّيت الآن أمام إيقونة أمّ الله قبل أن أقرر الكتابة إليك. أنا الآن أصلّي حتى هذه اللحظة، وأكاد أبكي.

هذا سرّي بين يديك: عندما تأتي غداً، لست أدري كيف يمكنني أن أنظر إليك؟ أوه، ألكسي فيودوروفتش، ماذا يحدث إن لم أستطع السيطرة على نفسي، أنا الحمقاء، إذا انفجرت ضاحكة حين أراك كما حدث لي هذا قبل قليل؟ سوف تعتبرني فتاة شريرة ساخرة ولن تصدّق ما جاء في رسالتي. لذلك، أرجوك، يا صديقي، إذا كان لديك بعض الشفقة عليَّ، أن لا تنظر إلى عينيَّ كثيراً عندما تأتي إلينا غداً لأنني، متى التقى نظري نظرك، يتملكني

ضحك لا سبيل إلى التغلّب عليه، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل... حتى في هذه اللحظة، أحسّ بأنني متجمدة من البرد حين أتصوّر ذلك. أستحلفك ألّا تنظر إليَّ أبداً، خلال بعض الوقت، عندما تأتي إلينا غداً، فانظر إلى أمّي أو نحو النافذة...

لقد كتبت إليك رسالة حب. يا الله، ماذا فعلت! لا تحتقرني يا أليوشا. إذا كان ما أفعله شراً كبيراً وإذا كنت أسبّب لك إزعاجاً، فسامحني. والآن، إن سمعتي الضائعة ربّما إلى الأبد هي الآن بين يديك.

واليوم سأبكي حتماً. وإلى الغد. إلى ذلك الغد الرهيب».

ليزا

حاشية: أليوشا، يجب أن تأتي لا محالة، لا محالة، لا محالة!

قرأ أليوشا الرسالة بدهشة وقرأها مرتين، ثم فكَّر، فإذا به يطلق ضحكة هادئة عذبة. ارتعش إذ بدت له هذه الضحكة خطيئة. ولكنه، بعد لحظة ضحك مجدداً تلك الضحكة نفسها، الهادئة والسعيدة. وطوى الرسالة على مهل، وأعادها إلى الظرف، ورسم إشارة الصليب، ونام. زال كل اضطراب من نفسه وكأنه السحر. «اللهم، اشملهم برحمتك، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين صادفتهم في هذا النهار، لأنهم تعساء ومضطربون. سدّد خطاهم! إن لديك طرقاً نجهلها: فأنقذهم بطرقك. أنت الحب، إبعث إليهم الفرح جميعاً!»

تمتم أليوشا وهو يرسم إشارة الصليب، ثم نام نوماً هادئاً.

القسم الثاني

الكتاب الرابع

الهستيريات

I

الأب فيرابونت

استيقظ أليوشا من نومه في ساعة مبكرة قبل بزوغ الفجر. وصحا الراهب الناسك وهو يشعر بضعف شديد، حتى وإن أراد أن يترك سريره لكي يجلس على الكنبة. كان في كامل وعيه، وبدا وجهه مضيئاً مليئاً بالفرح رغم التعب الشديد. وكانت نظرته مرحة ولطيفة ومشجّعة. ربما لن أعيش إلى آخر هذا اليوم. قال لأليوشا. ثم أعرب عن رغبته في أن يعترف ويتناول القربان المقدس فوراً. وكان الأب بايسي هو الذي يعرِّفه دائماً. وبعد الانتهاء من هذين السرَّين بوشر القيام «بالمسحة الأخيرة». فاجتمع الرهبان النساك في غرفته التي بدأت تمتلىء بالنساك شيئاً فشيئاً. وفي أثناء ذلك، كان قد طلع النهار، وبدأوا بالوصول من الدير. وبعد انتهاء القداس، رغب الراهب الناسك في توديع الجميع وقبَّلهم كلّهم. ولما كانت الغرفة ضيقة فقد كان القادمون الأُول يخلون المكان للقادمين بعدهم. جلس أليوشا إلى جانب الراهب الناسك الذي جلس مجدداً على كنبته. كان يتكلم ويعلِّم بقدر ما يستطيع. وكان صوته رغم ضعفه لا يزال صارم النبرة. «لقد علمتكم خلال سنوات طويلة، وخلال سنوات طويلة كنت أتكلم بصوت عالٍ. بحيث أصبح ذلك عادة عندي عندما أتحدث إليكم لأعلّمكم وأصبح الكلام أهون عليّ من الصمت رغم ضعفي، أيها الآباء والإخوة الأعزاء». (قال مازحاً وهو يجيل نظره المتأثر على الذين يزدحمون حوله). تذكّر أليوشا، فيما بعد، بعض الأفكار التي عبَّر عنها في ذلك الوقت. لكنه تكلم بشكل جميل ومتميز بصوت حازم، وكان خطابه غير متنافر. تحدَّث عن أمور كثيرة، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يرغب في قوله وأن يفصح مرة أخيرة وهو مشرف على الموت عن تلك الخطرات التي لا يتوصل المرء، أثناء حياته، أن ينقلها إلى الناس. وكان لا يقوم بذلك بهدف التعليم بل بظمأ إلى إشراك الجميع في فرحه وحماسته اللذين كانا يملآن نفسه وإلى نشر محبَّته في العالم مرة أخيرة من أعماق قلبه...

.(أحبّوا بعضكم بعضاً، يا آبائي؛ أحبّوا أبناء الله. (بقدر ما يستطيع أليوشا أن يتذكر»

لسنا أقدس من المدنيين لأننا اخترنا أن نعيش في الدير ولأننا مسجونون داخل جدرانه. بالعكس: إن كل أخٍ جاء إلى هنا قد أحسَّ واعترف هو نفسه، من مجرد أنه أتى إلى هنا، بأنه كان شراً من الإنسان العادي وأسوأ من جميع الذين بقوا في الحياة الدنيا... وكلما عاش الناسك بين هذه الجدران كلما شعر ذلك في أعماقه، لأنه في الحالة المعاكسة ليس لديه سبب للمجيء. وعندما يدرك أنه ليس أسوأ من المدنيين فحسب، بل إنه مذنب أيضاً في حق كل البشر، مسؤول عن كل الخطايا البشرية، خطايا الجماعات وخطايا الأفراد. فبهذا الشرط وحده، يتحقق الهدف من ترابطنا في الدير. اعلموا، أيها الأحبّة، أنّ كلاً منا هو مسؤول عن مظالم الجميع وعن كل فرد على الأرض، وهذا لا يحتمل الشك، لا بسبب الخطيئة المشتركة للعالم كله بل شخصياً، مسؤول عن جميع الناس وعن كل فرد على الأرض. إنّ هذا الشعور هو الذي يتوّج حياة الناسك وحياة كل إنسان، لأنّ الرهبان النساك لا يختلفون عن سائر البشر بل يحاولون أن يصيروا إلى ما يجب لكل الناس أن يصيروا إليه. فإذا تحقق هذا الهدف انفتحت قلوبنا للحب اللانهائي الشامل الذي لا يعرف الظمأ. وعندئذ، سوف يجد كل منا في نفسه القدرة على أن يكسب العالم كله بالحبّ وعلى أن يغسل

بدموعه خطايا العالم... فليسرْ كل منا بالقرب من قلبه وليعترف كل واحد بخطاياه لنفسه. لا تخافوا من خطاياكم وإن تكن واضحة لأفكاركم شرط أن تندموا على ارتكابها، ولكن إياكم والتسويات مع الله. لكنني أقول لكم، خفّفوا من كبريائكم. ولا تتعالوا على الصغار، ولا تتعالوا أيضاً على الكبار! لا تبغضوا الذين ينبذونكم ويهينونكم. ولا تكرهوا الملحدين، والأنبياء الكذبة، والماديين، وحتى أسوأ هؤلاء وأخبثهم ناهيك عن أخيارهم، لأنَّ بينهم أخياراً، في أيامنا هذه خاصة. أذكروهم في صلواتكم على هذا النحو: «أنقذ يا رب، جميع الناس، الذين لا يصلّي لهم أحد، وأنقذ الذين لا يريدون أن يصلّوا لك. وأضيفوا إلى ذلك فوراً: «اللهم إني لا أسألك هذا زهواً بنفسي فإنني شرّ كل الناس وكل فرد منهم... أحبوا أبناء الله. لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع. فإذا استسلمتم للكسل وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق أو إذا انسقتم إلى حب الخيرات المادية، فإن رجالاً من كل البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم. بشّروا بالإنجيل في صفوف الشعب... إياكم والجشع... إياكم والتعلق بالذهب أو الفضة، لا تمتلكوا منه شيئاً... آمنوا وارفعوا راية العقيدة، ارفعوها إلى الأعلى...

كان الراهب الناسك يتحدث بعبارات متقطعة أكثر مما يظهر هنا فيما دوَّنه بعد ذلك، أليوشا. كان يتوقف عن الكلام كلياً، من حين إلى آخر، كأنما يستجمع كل قواه، وكان يلهث بتقطع، ولكنه كان يشعر بنوع من الانخطاف. وكانوا يستمعون إليه في خشوع، ويندهشون من أقواله التي يرون فيها غموضاً. وقد كان الجميع يتذكرون هذه الأقوال. وعندما تغيَّب أليوشا عن الغرفة بضع لحظات، دُهش لدى عودته إذ لاحظ اضطراباً عاماً قد سيطر على جميع من كانوا يزدحمون أمام أبواب الغرفة. وهذا الانتظار، كان لدى بعضهم مقلقاً ولدى البعض الآخر مفرحاً. كان الجميع ينتظرون عملاً خارقاً وعظيماً بعد وفاة الراهب الناسك. وهذا الانتظار، كان يدلّ على شيء من خفّةٍ ولكنه سيطر على قلوب جميع الرهبان، حتى الذين أشدّهم صرامة. وكان الوجه الأشدّ صرامة هو وجه الراهب الناسك باييسي.

لم يخرج أليوشا من الغرفة إلا لأن راكيتين الذي رجع من المدينة حاملاً إليه من السيدة خوخلاكوفا رسالة غريبة، وقد استدعاه خفيةً بواسطة أحد الرهبان. وهذه الرسالة تبلغ أليوشا حادثاً غريباً جرى الآن في الوقت المناسب. والواقع، أن، في الأمس، ومن بين عدد من المؤمنات اللواتي جئن لينحنين أمام الراهب الناسك يتلقيّن بركته، كانت هناك امرأة عجوز، قصيرة القامة من مدينتنا، اسمها بروخوروفنا وهي أرملة صفّ ضابط. سألت الراهب الناسك هل في وسعها أن تطلب إقامة صلوات على راحة نفس ابنها فاسيلي الذي سافر لتأدية الخدمة العسكرية في سيبيريا، تقع في جهة إيركوتسك، ولم تصلها أخباره منذ سنة. سألت هل بإمكانها أن تطلب إقامة صلوات على راحة نفسه كما لو كان قد مات؟ أجابها الراهب الناسك بقساوة ومنعها، واصفاً هذه الممارسة بنوع من الشعوذة. لكنه سامحها، بعد ذلك، بسبب جهلها. وأضاف: «كأنـه يقـرأ فـي كتاب المستقبل» - كما تقول السيدة خوخلاكوفا في رسالتها - قائلاً لها إن «ابنها فاسيلي هو حيّ، بدون أي شك، وسيعود إليها قريباً، أو سيكتب إليها رسالة، وعليها أن تعود إلى منزلها مطمئنةً تنتظر عودته». فما الذي حدث؟ «أضافت السيدة خوخلاكوفا متحمسة: «لقد تحققت النبوءة، لقد تحققت كاملة، بل أكثر من ذلك». وما إن عادت المرأة العجوز إلى منزلها حتى تسلَّمت رسالة وصلتها من سيبيريا. وأكثر من ذلك: ففي هذه الرسالة التي كتبها إليها فاسيلي، في طريق عودته، من إيكاتيرنبورغ، يبلغ فاسّي أمّه أنه عائد إلى روسيا برفقة موظف، وأنه «يأمل أن يضمَّ أمّه بين ذراعيه»، بعد ثلاثة أسابيع. رَجَت السيدة خوخلاكوفا أليوشا ملحّة أن ينقل إلى رئيس الدير والمجموعة بكاملها نبأ هذه «المعجزة الجديدة من النبوءة». وتقول له خاتمةً رسالتها: «يجب أن يعرف الجميع، الجميع...» كتبت هذه الرسالة بسرعة، وكان واضحاً أنّ كل كلمة تزخر بانفعال قوي. لكن أليوشا لم يكن بحاجة إلى إبلاغ المجموعة النبأ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه: لأن راكيتين، عندما كلّف أحد الرهبان استدعاء أليوشا إليه، قد رجاه، في هذه المناسبة نفسها أن «يبلغ الأب المحترم باييسي، بكثير من الاحترام، أنه يودّ لو يراه فوراً

ليكلّمه في أمر هام جداً يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه بدون إبطاء، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة، آملاً في كثير من التواضع أن تُغتفر له هذه الجرأة». ولما كان الراهب، قصير القامة، قد نقل هذه الرسالة من راكيتين إلى الأب بابيسي قبل أن يرى أليوشا، فلم يبق على أليوشا بعد عودته إلى مكانه إلا أن يقرأ الرسالة وأن يسلّمها إلى الأب بابيسي من باب الأدب وتقيداً بالشكل. أخذ هذا الرجل الصارم يقرأ الرسالة، مقطّباً حاجبيه، فلم يستطع هو أيضاً عندما اطلع على قصة هذه «المعجزة» أن يخفي بعض المشاعر التي تملّكته، فأطلقت عيناه بعض الشرارات، وتليّنت شفتاه فجأة، فابتسم ابتسامة رصينة وعميقة.

- ليست هذه إلا بداية! قال فجأة بلا إرادة منه.

- ليست إلّا بداية، ليست إلا بداية! ردّد الرهبان المحيطون به. لكن الأب بابيسي قطّب حاجبيه مجدداً، وطلب من كل واحد، ولو لفترة وجيزة، ألّا يتكلم بصوت عالٍ إلى أحد مضيفاً بحذر كأنما يريد أن يهدئ ضميره، لكن دون أن يكون مقتنعاً بتحفظه كثيراً. «من الأفضل أن ننتظر لكي نتثبت من ذلك أكثر، لأن المدنيين كثيراً ما يظهرون خفَّة في هذا الشأن، والحوادث في مثل هذه الحالة قد يمكن أن تفسَّر بشكل لا شأن له بما هو فوق الطبيعة». انتقل خبر «المعجزة» بسرعة، وعرفه جميع الذين في الدير، وحتى الكثير من الزائرين الذين جاؤوا إلى الدير لحضور الذبيحة الإلهية. وكان أشدّ الناس انبهاراً في الظاهر، هو راهب منسك «سان سيلفستر»، ذاك القصير القامة الذي وصل يوم أمس من دير أوبدورسك بشمال سيبيريا. كان بالأمس قد انتظر الراهب الناسك واقفاً إلى جانب السيدة خوخلاكوفا. وبعد أن حيّا الراهب الناسك، سأله بمناسبة «شفاء» ابنة تلك السيدة كيف تتجرأ على أن تتعهّد مثل هذه الأمور؟

الواقع، هو أنه شعر بحيرة شديدة ولم يكن يعرف بماذا يجب أن يؤمن. فمساء أمس قام بزيارة إلى الأب فيرابونت، في الدير، في غرفته الخاصة، وراء خلايا النحل، وقد تأثر جداً بهذا اللقاء الذي جعله يشعر برعب قوي ومخيف. وهذا الرجل العجوز، الأب فيرابونت هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوي الذي اشتهر بصيامه وصمته، والذي كان يُعدّ، كما سبق أن ذكرنا، خصماً للراهب زوسيما، ولمؤسسة الرهبان بصورة خاصة، ويرى فيه بدعةً طائشة ومؤذية. إنه خصم خطر جداً رغم أنه بالكاد يكلم أحداً من الناس. وكان يبدو مخيفاً، بصورة خاصة، لأنّ رهباناً كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه ولأنَّ بين الزائرين المدنيين عدداً كبيراً يرى فيه رجلاً صالحاً وقديساً رغم تسليمهم بأنه «بسيط العقل». لكن هذه «البساطة» بعينها هي عنصر الجاذبية فيه. والأب فيرابونت لا يقابل الراهب زوسيما أبداً. ورغم أنه عاش في المنسك فما من أحد كان يزعجه بشأن مراعاة القواعد المتبعة في الدير لأن تصرفه كان تصرف رجل «بسيط». كان في الخامسة والسبعين أو أكثر، ويعيش وراء خلايا نحل المنسك، عند زاوية الجدار، في غرفة قديمة جداً مبنية من خشب شبيهة بالأطلال، وقد بُنيت خلال القرن الماضي، كما يقال، لراهب آخر اشتهر هو أيضاً بالصيام والصمت، هو الأب يوّنا، الذي عمَّر مئة وخمس سنوات وعُرف بأعمال قداسة لا يزال الناس في الدير وفي خارجه يروون عنها قصصاً شائقة. وقد استطاع الأب فيرابونت أن يظفر أخيراً، منذ سبع سنوات، بسكنى هذه الغرفة الصغيرة المنزوية التي لا تكاد تكون «خِربة» بسيطة والتي تشبه كابيلا لما تحتويه من إيقونات النذور التي تملأها ولكثرة عدد مصابيح النذور، أيضاً، التي تشتعل فيها أمام الصور المقدسة، ليلاً نهاراً. وقد كُلّف الأب فيرابونت أن يتولّى صيانتها. وكان لا يأكل، كما يقال، (وهذا كان صحيحاً) أكثر من كيلوغرام من الخبز كل ثلاثة أيام، كان يحمله إليه الراهب الذي يعتني بخلايا النحل ويسكن غير بعيد عن ذلك المكان أيضاً، كل ثلاثة أيام. فكان الأب فيرابونت نادراً ما يتحدّث إليه. وهو لا يأكل طوال الأسبوع، إلا هذين الكيلوين من الخبز إضافةً إلى خبز القربان المقدس يوم الأحد الذي كان رئيس

الدير يرسلها إليه بعد صلاة المساء، وهذا كان غذاؤه طوال الأسبوع. وكانت جرة الماء التي يشرب منها تُملأ له كل يوم. وكان نادراً ما يحضر القداس. وقد لاحظ زواره أنه يستطيع أن يقضي يوماً كاملاً في الصلاة راكعاً لا ينظر حوله. وإذا تحدّث أحد معه فحديثه مقتضب وجادّ وغريب، حتى ليكاد يكون فظاً. صحيح أنه كان يحدث، نادراً، أن يندفع في مناقشات أطول ولكنه في أغلب الأحيان يكتفي بإطلاق عبارة عجيبة يكون وقعها في نفس زائره وقع لغز محيِّر، ثم بالرغم من التوسلات لم يكن يشرح أبداً. ولم يكن في رتبة كاهن، كان راهباً بسيطاً. وقد راجت عنه إشاعة غريبة في الأوساط الجاهلة التي تؤمن بالخرافات هي أن الأب فيرابونت كان على اتصال بالأرواح السماوية ولا يتحدث إلا معها، وهو لهذا السبب يلتزم الصمت مع الناس. واستطاع راهب أوبدورسك، القصير القامة، أن يهتدي إلى الطريق الموصل إلى غرفة الأب فيرابونت.

- ربما رضي أن يخاطبك ببضع كلمات، لأنك راهب حاج، ولكن سترحل مثلما أتيت دون أن تنتزع منه كلمة واحدة. قال له الراهب الذي يتعهد خلايا النحل.

اقترب الراهب قصير القامة من غرفة الناسك وهو يشعر بخوف شديد، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد. كان الأب فيرابونت يجلس، في هذه المرة، أمام باب غرفته الصغيرة على مقعد صغير، وفوق رأسه، يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة. وطراوة المساء قد أنعشت الهواء.

ركع راهب أوبدورسك القصير أمام الناسك المقدس وطلب إليه بركته.

- هل تريد أيها الراهب أن أركع أنا أيضاً على الأرض أمامك؟ أجاب الأب فيرابونت. هيَّا انهض.

نهض الراهب قصير القامة.

- فلتحلّ عليك البركة. اجلس. من أين أتيت إلينا؟

وما أدهش راهب أوبدورسك القصير المسكين هو أن الأب فيرابونت، رغم أنه طاعن في السن، ورغم الصيام القاسي والصارم الذي يفرضه على نفسه، لا يزال متين البنية، قويّ الجسم، وهو منتصب القامة طويل، له وجه نضر لكنه نحيل، وهو في كامل صحته. يشعر المرء أنه ما زال يحتفظ بقوة بدنية عظيمة. وكانت بنيته بنية رياضية، وبالرغم من تقدّمه في السن، لا يزال شعر رأسه كثيفاً ليس أشيب كلياً، وقد كان فيما مضى حالك السواد، شعره كما لحيته؛ وعيناه رماديتان كبيرتان ساطعتان، لكنهما جاحظتان كثيراً بشكل يجذب النظر فوراً. وهو يتكلم مشدِّداً حرف «الواو» بصورة خاصة. أما لباسه فمعطف طويل أحمر من ذلك القماش الذي كان يسمّى في الماضي «جوخ السجناء»، مع حبل طويل يتَّخذه حزاماً. والعنق والصدر عاريان. وتحت الثوب يُرى قميص يكاد يبدو أسود اللون لأن الأب فيرابونت لا يبدِّله خلال شهور متتالية. وكان يقال إنه يثقل جسمه بسلاسل تزن خمسة عشر كيلوغراماً. وقدماه بلا جوربين، وهو ينتعل حذاءين عتيقين.

- أنا قادم من منسك سان سيلفستر الصغير في أوبدورسك. أجاب الراهب القصير الزائر بتواضع وهو ينظر إلى الناسك بعينيه السريعتين الحادتين اللتين لا تزالان مروَّعتين.

- أنا، أعرف صاحبك سان سيلفستر. لقد عشت فيه زمناً. كيف حاله؟ كيف صحته؟

اضطرب الراهب القصير.

- يا لكم من حمقى مجانين! كيف تحترمون الصوم هناك؟

- المائدة عندنا، ترتب حسب القاعدة الرهبانية التي يتبعها النساك: أثناء الصوم الكبير، في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، لا نحضر المائدة. وفي أيام الثلاثاء والخميس، يأكل الإخوة خبزاً أبيض، ويشربون «تيزان» مع العسل، وتوتاً برياً أو كرنباً مملّحاً مع قليل من طحين الشوفان مخلوط بالماء. وفي أيام السبت، نأكل شوربة شعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً، وكل ذلك مطبوخ بالزيت. ويضاف إلى الكرنب شيء من سمك مقدَّد وبرغل عادي في أيام الأحد. أما في أسبوع الآلام، فلا نأكل، من صباح الإثنين حتى مساء السبت، أي خلال ستة أيام، إلا خبزاً وماءً وخضاراً نيئة - وحتى هذا، نلتزم فيه حدود الاعتدال. ذلك أنه كان مباحاً لنا أن نأكل في ذلك الأوان، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع. ففي يوم الجمعة العظيمة لا نأكل شيئاً أبداً. وفي يوم السبت نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نأخذ بعضاً من خبز وماء وأن نشرب كأساً واحدة من النبيذ. وفي يوم الخميس من الأسبوع المقدس يُقدم إلينا طعام مطبوخ بلا زيت، ونشرب نبيذاً، وبعض المآكل الناشفة. ذلك أن مجمع الأساقفة الذي انعقد في الأوديسه قد أقرَّ النظام التالي في أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس: «لا يحسن قطع الصيام في خميس آخر الأسبوع حتى لا يفسد بذلك الصوم الكبير». هكذا نصوم. وهو، مع ذلك، لا يُعدّ شيئاً مذكوراً بالقياس إلى القاعدة التي فرضتها على نفسك يا أبانا المحترم. أضاف الراهب القصير الذي بدا أنه استردَّ شيئاً من رباطة جأشه، لأنك لا تأكل إلا الخبز والماء طوال السنة، حتى في يوم الفصح، ولأنّ مقدار الخبز الذي نأكله في يومين يكفيك أنت أسبوعاً كاملاً. في الحقيقة، إن المعجزة كبيرة في تقشُّفك.

- وفطر الغابات؟ سأله الأب فيرابونت فجأة، بطريقته الخاصة في نطق بعض الأحرف وهو يلفظ V مثل F ولا سيما حرف الجيم.

- فطر الغابات؟ كرر الراهب القصير بدهشة.

- طبعاً، أنا، أستطيع أن أستغني تماماً عن خبزهم. فلست بحاجة إليه أبداً: أذهب إلى الغابة إذا لزم ذلك فأتغذّى فيها بالفطر والثمار، بينما هم، لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز، فهم مرتبطون بالشيطان. إن في زماننا هذا وثنيين يؤكدون أن لا حاجة للصوم. فتفكيرهم مشبع بالتكبر والوثنية.

- إنها حقيقة مقدسة! قال الراهب القصير متنهداً.

- وهل رأيت الشياطين عندهم؟ سأل الأب فيرابونت.

- عند مَنْ، عندهم؟ سأل الراهب القصير بخجل.

- زرت رئيس الدير في عيد العنصرة من السنة الماضية. ومذ ذاك لم أعد إليه أبداً. لقد رأيت عندهم جنّاً! رأيت جنّاً يتسلّقُ صدره ويختبىء تحت مسوحه ولا تظهر منه غير قرونه. ورأيت واحداً آخر يختبئ في جيبه فلا يظهر منه سوى رأسه وعينيه الحادتين. لقد خاف منّي، أنا. ورأيت آخر في بطنه في أعمق كرشه، وبعضهم يحملونه فوق أعناقهم، يتشبّث بها الجنّ، هكذا، دون أن يراهم أحد.

- وأنت، هل رأيتهم؟ سأل الراهب القصير.

- قلت لك إنني رأيتهم... كان نظري يخترقهم. عندما خرجت من عند رئيس الدير، ماذا رأيت؟ كان واحد منهم يختبىء أمامي وراء الباب. كان طويل القامة، يبلغ طوله قدمين، وحتى أكثر. وكان له ذيل ضخم أشقر وطويل. كان ذيله في شقّ الباب، وأنا، لم أكن غبياً، فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله. وهو، صرخ وارتعش. وأنا، رسمت عليه إشارة الصليب

ثلاث مرات، فغطس. كما يُسحق عنكبوت ديس بالقدم، وتفسخت جثته عند زاوية الباب، فصار الهواء هناك موبوءاً، ولكن الرهبان لا يرون شيئاً ولا يشمون شيئاً! ولما رجعت بعد سنة إلى ذلك المكان. إنني أخبرك أنت وحدك هذا، لأنك غريب عن الدير.

- رهيب ما تقوله؟ وماذا بعد؟ قال الراهب القصير وقد ازدادت جرأته شيئاً فشيئاً.

- وددت لو أعرف، أيها الأب العظيم المحترم، هل صحيحة هي تلك الإشاعة التي تقال عنك، وهي أنك على صلة دائمة بالروح القدس؟

- إنه يهبط، هذا يحدث، هذا يحدث.

- هكذا يهبط؟ وبأيّ شكل؟

- بشكل عصفور.

- الروح القدس يظهر لك في شكل حمامة؟

- هذا هو الروح القدس، أما أنا فأحدّثك عن الروح المقدسة. الروح المقدسة هي شيء آخر، يمكن أن تأتي بشكل عصفور أو سنونوة أو حسّون أو في شكل قرقب.

- فكيف تميّزها عن قرقب عادي إذن؟

- لأنها تتكلم.

- كيف تتكلم؟ بأيّ لغة؟

- بلغة الناس.

- وكيف تحدثك إذن؟

- اليوم، اسمع، أبلغتني أنّ زائراً غبياً سيزورني وسيطرح عليّ أسئلة بلهاء.

هل تعرف أيها الناسك أنك فضوليّ جداً؟

- كلماتك الرهيبة التي تقولها، أيها الأب المحترم جداً، المقدس جداً، تابع الراهب القصير وهو يهزّ رأسه. لكنّ شيئاً من عدم التصديق ظهر في عينيه الصغيرتين المذعورتين اللتين عاد إليهما الخوف.

- هل ترى هذه الشجرة هناك؟ سأله الأب فيرابونت بعد لحظة صمت.

- أراها أيها الأب الطوباوي.

- أنتَ، بالنسبة إليك هي شجرة دردار. ولكن أنا، أرى فيها شيئاً آخر.

- ماذا ترى؟

انتظر الراهب القصير بضع لحظات سدى.

- يحدث لي هذا في الظلام. هل ترى هذين الغصنين؟ أثناء الليل، يظهر المسيح لي في هذا المكان فيمدّ إليّ ذراعيه ويفتش عني. أنا، أراه بوضوح، فأرتعش؛ ذلك شيء مخيف، شيء مرعب!

- لماذا هذا شيء مخيف ما دام هو المسيح؟

- قد يقبض عليّ ويأخذني إلى السماء.

- حيّاً؟

- ألم تسمع، إذن، عن مار الياس[21] وعظمته؟ «سوف يحيطني المسيح بذراعيه ويأخذني»...

رغم أن راهب أوبدورسك القصير، عندما رجع بعد هذا الحديث إلى الغرفة التي عيّنت له لدى أحد الإخوة، شعر بحيرة كبيرة، إلا أن قلبه كان يميل إلى الأب فيرابونت أكثر منه الراهب زوسيما. إن راهب أوبدورسك القصير، كان من الأنصار المتحمسين للصيام ويعتقد أن صائماً يملك من القوة ما يملكه الأب فيرابونت يمكن أن يكون بحق قد أُوتي موهبة «رؤية هذه المعجزات». وكانت أقواله، طبعاً، تبدو غير معقولة، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن تحتوي. إن كل «البسطاء» المأخوذين بالمسيح يعبّرون عن أنفسهم بهذه اللغة ويقولون كلاماً يدعو إلى الاستغراب. أما قصة ذيل الشيطان الذي سُحق، فإن الراهب القصير لم يصعب عليه تصديقها، لا بالمعنى الحقيقي ولا بالمعنى المجازي. عدا ذلك، كانت تراوده، حتى قبل زيارته إلى الدير، شكوك كثيرة حول مؤسسة الرهبان، حتى لقد شعر بعداوة لهذا النظام الذي لم يكن يعرفه إلا عن طريق السمع، وكان يعتبره، بعد أنظمة كثيرة أخرى، بدعةً مؤذية. وبعد أن قضى نهاراً في الدير تسنّى له الوقت أن يستمع إلى وشوشات خفيّة من بعض الإخوة ذوي العقول السطحية والمعادين للرهبان. وإذا كان بطبيعته ناسكاً ماكراً ومخادعاً يعرف كيف يتسلل بفضولية إلى كل مكان، فإن النبأ الجديد الخارق عن «المعجزة» التي حققها الراهب زوسيما قد جعله في حيرة رهيبة. وقد تذكر أليوشا، فيما بعد، أنه رأى، في زحمة الرهبان النساك المحتشدين قرب الراهب الناسك أو في جوار غرفته، هذا الراهب القصير من أوبدورسك ينتقل من مجموعة إلى أخرى، يصغي بفضولية إلى كل شيء ويطرح بعض الأسئلة. ولكنه، في حينه، لم يهتم بذلك وإنما تذكره فيما بعد... كانت لديه هموم في رأسه: كان الراهب زوسيما الذي انهارت قواه مجدداً قد انتقل إلى سريره. فعندما أغمض عينيه تذكر أليوشا، فجأة، فطلب إحضاره، فأسرع إليه أليوشا فوراً. ولم يكن بالقرب من الراهب الناسك إلا الأب باييسي والراهب الناسك يوسيف والمبتدىء بورفير. فتح الراهب الناسك عينيه المتعبتين مجدداً وحدَّق في أليوشا بانتباه، ثم سأله فجأة:

- هل ينتظرك ذووك يا صغيري العزيز؟

فاضطرب أليوشا.

وعاد الراهب الناسك يسأله:

- أليسوا في حاجة إليك؟ هل وعدت أحداً بالقيام بزيارات اليوم؟

- وعدت... أبي... وأخويّ... وآخرين أيضاً...

- قدَّرت ذلك. فاذهب إليهم حتماً. ولا تحزن. إعلم أنني لن أموت قبل أن أقول آخر كلماتي على هذه الأرض بحضورك. سأوجّه إليك آخر أقوالي، يا صغيري العزيز، إليك سأعهد بها، إليك أنت يا بنيّ لأنك تحبني. ولكن، بانتظار ذلك، امضِ الآن إلى الذين ينتظرونك.

أطاع أليوشا الأمر فوراً. رغم أنه قد شقّ عليه أن ينصرف. ولكن الوعد بسماع آخر كلماته على هذه الأرض، ولا سيما أنه سيوجّه هذه الكلمات إليه هو، وأنه سيعهد بها إليه كونها وصيّته الروحية، قد ملأ نفس أليوشا غبطة. لذلك أسرع الخطى ليستطيع أن ينجز

عمله في المدينة، ويعود إلى الدير بأقصى سرعة. وتحدَّث الأب بابيسي، هو أيضاً، إلى أليوشا عند وداعه، وأحدث في نفسه أثراً عميقاً وغير منتظر. حدث هذا عندما كان الاثنان يخرجان من غرفة الراهب الناسك.

تذكر أيها الشاب. بهذا بدأ الأب بابيسي كلامه دون أي تمهيد. تذكر أن المعرفة - الدنيوية التي نمت وأصبحت لها سلطة قوية، قد شرحت ونقدت، في خلال القرن الأخير، كل ما تركته لنا الكتب المقدسة من حقائق سماوية. فعلماء هذا العالم بعد أن قاموا بنقد قاسٍ لم يحتفظوا بشيء مما كان يُعدّ مقدساً فيما مضى. لقد حللوا بكثير من التدقيق كل جزء من أجزاء التعليم الديني على حدة، ولكن فاتهم إدراك الدين في مجموعه، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقاً. ذلك أن الحقيقة هي في المجموع، فلن يتمكنوا أن ينالوا منها، وسوف تبقى كما كانت من قبل، لا تستطيع أبواب الجحيم أن تتقيّأ شيئاً يؤذيها. ألم تعش هذه الحقيقة تسعة عشر قرناً؟ ألا تزال تعيش اليوم في حركات النفوس الفردية وفي حركات الجماهير الشعبية؟ حتى في نفوس أولئك الملحدين الذين دمروا كل شيء ويستمرون في الحياة، حتى الذين كفروا بالمسيحية وتمردوا عليها ما يزالون يحتفظون في أنفسهم بجوهر هذا المسيح وصورته، كما كانت في الماضي، واستحال عليهم، في الواقع، أن يتصوروا مثلاً أعلى، أسمى وأجدر بإعجاب الإنسان من المثل الأعلى الذي قدمه إلينا المسيح فيما مضى. وكل المحاولات التي من هذا النوع لم تؤدِّ إلى غير الفظاعة. فاحفظ هذا جيداً في ذاكرتك، بشكل خاص، ما دام الراهب الناسك الذي أرسلك إلى العالم، سيغادرك. ربما حين تتذكر في المستقبل هذا اليوم العظيم، لن تنسى أبداً كلماتي التي قلتها لك من أعماق قلبي لتنير لك طريقك. ذلك لأنك شاب، ولأنّ مغريات العالم ثقيلة، ولن تكفيك قواك وحدها للتغلّب عليها. حسناً. امضِ الآن أيها اليتيم.

وبعد هذا الكلام، أعطى الأب بابيسي بركته لأليوشا. فأدرك أليوشا فجأة، وهو يخرج من الدير، ويفكر في هذه الأقوال التي لم يكن يتوقّعها أنّ هذا الراهب الذي كان دائماً صارماً وقاسياً في معاملته، سيكون له بعد اليوم، صديقاً غير متوقّع وموجِّهاً يحمل له أعمق المودة - كما لو أن الناسك زوسيما قد عهد إليه بهذه المهمة وهو يحتضر. قال أليوشا يحدث نفسه فجأة: «من يدري؟ لعلَّ الأمر قد حصل على هذا النحو!» ألا تدلّ هذه الشروح العلمية غير المنتظرة التي سمعها، وهي شروح أدهشته، في بادىء الأمر، وأثارت استغرابه. ألا تدلّ أكثر مما يمكن أن يدل حديث آخر، على أن الأب بابيسي يكنُّ له عاطفة صادقة؟ لقد أسرع يزوّد عقله بالأسلحة التي تسهل عليه مواجهة مغريات هذا العالم، وأراد، بدون إبطاء، أن يحصِّن نفسه الفتية التي عُهد إليه بها، بأقوى الدروع التي يمكن أن يتصورها.

II

في منزل والده

قبل كل شيء، ذهب أليوشا إلى منزل والده. فتذكر وهو يقترب من المنزل أن والده قد ألحّ عليه كثيراً يوم أمس أن يتدبّر أمره لكي يدخل دون أن يراه أخوه إيفان. «لماذا اذن»؟ تساءل فجأة. «إذا كان الوالد يريد أن يقول لي شيئاً، لي وحدي فلماذا ينبغي عليّ الدخول خفية؟» يوم أمس، وبدون شك، كان يريد أن يقول لي شيئاً آخر من شدّة اضطرابه، لكن الوقت لم يتسنَّ له». هذا ما استنتجه. وبالرغم من ذلك، كان مسروراً عندما فتحت له مارفا إينياتيفنا الباب الحديدي (كان غريغوري قد وقع مريضاً فلزم الفراش في الجناح) فأجابت عن سؤال طرحه عليها، أن إيفان فيودوروفتش قد خرج منذ ساعتين.

- والوالد؟

- نهض من فراشه وهو يتناول قهوته. أجابت مارفا إينياتيفنا بخشونة.

دخل أليوشا. كان العجوز وحيداً إلى الطاولة، منتعلاً خفَّين، مرتدياً معطفاً صغيراً عتيقاً، وكان يدقق في بعض الحسابات تمضيةً للوقت دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلاً بهذا العمل الذي يقوم به. كان هو وحده في المنزل كله (كان سمردياكوف، هو أيضاً، قد خرج لشراء بعض الحاجات من أجل تحضير طعام الغداء). لم تكن الحسابات، إذن، هي التي تشغله. وكان يبدو عليه التعب والضعف رغم أنه استيقظ باكراً منذ الصباح وحاول أن يستجمع قواه. وعقد على جبهته التي ظهرت فيها بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل، منديلاً أحمر. وكان أنفه قد تورَّم، أثناء الليل، وعليه، هو أيضاً، بقع مماثلة، إن لم تكن كبيرة فهي تضفي على وجهه تعبيراً عن أذى وحنق. وكان العجوز يعرف ذلك. وعندما دخل أليوشا، حدَّق فيه بنظرة عدائية.

- القهوة باردة، صاح بغضب، فلن أقدم لك منها شيئاً. وأنا ألتزم اليوم حمية قاسية فلا أقدِّم إلا حساءً بالسمك. فماذا أتى بك؟

- أردت أن أطمئن عن صحتك. قال أليوشا.

- أعرف. وبالإضافة إلى ذلك، أنا أيضاً طلبت منك أن تزورني يوم أمس، كل ذلك سخافات! لقد أزعجت نفسك سدى. كنت متأكداً أنك ستأتي فوراً...

قال الوالد هذه العبارة بلهجة عدائية، ثم نهض من مكانه ونظر بقلق إلى المرآة ليرى أنفه (ربما ينظر إليه للمرة الأربعين منذ استيقظ صباحاً) وراح يعدّل المنديل الأحمر الذي يلف جبهته ويعقده بشكل مناسب.

- لقد اخترت اللون الأحمر فهو أفضل، لأنّ الأبيض يذكِّر بالمستشفى. قال بلهجة متكلفة. حسناً. ماذا وراءك من جديد؟ وكيف حال راهبك المرشد؟

- إنه في حالة سيئة جداً وقد يموت اليوم. أجاب أليوشا. ولكنّ والده لم يسمع

ونسي السؤال الذي طرحه عليه فوراً.

- إنه يحضّر كل المكايد ليخطف من ميتيا خطيبته، ولهذا السبب هو هنا. أضاف بخبث وبلؤم ونظر إلى أليوشا. قال فجأة. خرج إيفان.

- هو نفسه قال لك هذا؟ سأل أليوشا.

- أجل. قال ذلك منذ زمن طويل؟ ماذا تعتقد: قال لي هذا منذ ثلاثة أسابيع. لم يأتِ إلى هنا ليذبحني خفية، لا. لقد جاء لسبب ما؟

- ولكن، لماذا تقول هذا؟ قال أليوشا مضطرباً بشكل رهيب.

- إنه لم يطلب مالاً، صحيح، وعلى كل حال، لن أعطيه فلساً واحداً. إنني أريد، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش، أن أعيش في هذا العالم أطول عمر ممكن، ضع هذا في رأسك. لذلك سأكون في حاجة كبيرة إلى كل كوبيك مما أملك. وكلما عشت أكثر ازدادت حاجتي إلى المال. أضاف وهو يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً واضعاً يديه في جيبَي معطفه الفضفاض المتّسخ المصنوع من نسيج صيفي أصفر اللون. أنا الآن، بالرغم من كل شيء، لا أزال رجلاً، فعمري خمسة وخمسون عاماً بالتحديد. وأريد أن أعيش عشرين سنة أخرى، ولأنني سأشيخ طبعاً، فسوف أصبح منفّراً فلا يأتين إليّ من تلقاء أنفسهنّ راضيات، لهذا السبب أنا بحاجة إلى المال. لذلك تراني الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسي وحدها، يا بنيّ العزيز ألكسي فيودوروفتش، ضع هذا في رأسك، أريد أن أعيش حتى آخر أيامي في الخلاعة والمجون. إن الخلاعة تلطّف الحياة: جميع الناس يعيبون الخلاعة ولكنهم جميعاً يعيشونها. كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً بينما أنا أتعاطاها علناً. ولأنّ لي قلباً بسيطاً تعرضت لهجوم هؤلاء الأوغاد. أما جنّتك، يا ألكسي فيودوروفتش، فأنا لا أريدها. أريد أن تعرف هذا. إن الإنسان الشريف ليس له في الجنة ما يفعله، هذا إذا وُجد إنسان شريف؛ وفي رأيي أنا، أن المرء يموت فينتهي بموته كل شيء. ينام ثم لا يستيقظ، ولا شيء بعد الموت. تذكروني إذا شئتم، وإن لم تشاؤوا، فليأخذكم الشيطان. هذه هي فلسفتي. لقد تكلم إيفان يوم أمس فأحسن الكلام رغم أننا كنا سكارى. إن إيفان إنسان متبجّح. ليس رجل علم أبداً... وليست له ثقافة حقيقية. ويسخر من جميع الناس صامتاً - هذا كلّ ما يعرفه.

كان أليوشا يصغي إليه ولا يقول شيئاً.

- لماذا لا يكلمني أبداً؟ وإذا كلّمني، كان يمثّل؛ إنه وغد، أخوك إيفان! أنا سوف أتزوج غروشنكا، متى أردت ذلك. ما دمت أملك المال فيكفي أن أقوم بكل شيء، يا ألكسي فيودوروفتش! وذلك ما يخشاه إيفان، ويراقبني حتى لا أتزوج، ويحرّض ميتيا على أن يتزوج غروشنكا: هو يريد أن يبعدني عن غروشنكا (كأنه يظن أنني سأورثه مالاً حتى ولو لم أتزوج غروشنكا). ومن جهة أخرى، سينتزع من ميتيا خطيبته إذا تسنّى لميتيا أن يتزوج غروشنكا. ذلك هو الحساب الذي يجريه. إنه وغد، أخوك إيفان!.

- ما أشدَّ نزقك! ومردّ هذا إلى ما حدث لك بالأمس. فالأفضل أن تنام. قال أليوشا.

- أنت تقول لي هذا الكلام؟ أجاب العجوز وكأن هذه الفكرة قد ساورته في هذه اللحظة بالذات. تقول هذا. ولكن، لو سمح إيفان لنفسه بأن يقول لي ما قلته أنت، لثارت ثائرتي. معك وحدك أتيح لي أن أقضي لحظات طيبة. لأنني رجل شرير.

- لا، لست شريراً، إنك مشوَّش. قال أليوشا مبتسماً.

- اسمع. لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص ميتكا، ولست أدري حتى الآن

إذا كنت سأقرّر. أنا، لا أجهل أن «الموضة» الرائجة، اليوم، هي أن يُعدَّ احترام الآباء والأمهات عادة مبتذلة. ولكن القانون لا يسمح، حتى في أيامنا هذه، أن يجرَّ ابن والده من شعره ويركل وجهه بكعب حذائه، وأن يتباهى، أمام شهود، بأنه سيعود ليجهز عليه نهائياً - وأنا، إذا أردت، لزجّيت به في السجن لما حدث بالأمس.

- إذن، لقد صرفت النظر عن مقاضاته، أليس كذلك؟

- ثناني إيفان. أنا لا أحفل برأي إيفان. ولكن، هناك شيء آخر أعرفه...

مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو يهمس.

- لو اعتقل هذا الوغد، فهي ستعرف أنني رميته في السجن وستسرع إلى رؤيته فوراً. أما إذا رُوي لها اليوم أنه أوشك أن يقتلني أنا العجوز المسكين، إذا حدث هذا، فقد لا تتخلى عنه وستقوم بزيارتي أنا... لأنّ هذا هو طبعها: تحبّ أن تفعل كل ما هو نقيض. أنا أعرفها! بالمناسبة، هل تريد قليلاً من الكونياك؟ إشرب قليلاً من القهوة، إنها باردة، وأنا، سأضيف إليها ربع كأس من الكونياك فيطيب مذاقها.

- لا، لا أريد، شكراً. ولكنني سآخذ هذا الرغيف من الخبز إذا أعطيتني إياه. قال أليوشا وتناول رغيفاً من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبيكات ووضعه في جيب جبَّته. ثم أضاف في خشية وهو يحدق في وجه والده. أما الكونياك فلعلّك تعدل عنه، أنت أيضاً.

- أنت على حق. إنه يثيرني ولا يريحني أبداً. ولكنني سأشرب كأساً واحدة... وسأحتفظ به في الخزانة الصغيرة...

وفتح «الخزانة الصغيرة» وسكب كأساً وشربها ثم أقفل الخزانة من جديد، وردَّ المفتاح إلى جيبه.

- يكفيني هذا؛ كأس واحدة لن تقتلني.

- لقد أصبحت لطيفاً جداً الآن. قال أليوشا مبتسماً.

- حِمْ! لست بحاجة إلى الكونياك لكي أحبك. أما الأوغاد فأنا أعرف كيف يجب أن أعاملهم، لأنني وغد! فانكا، يرفض الذهاب إلى تشرماشنيا! لماذا؟ لأنه يريد أن يتجسس عليَّ: يريد أن يعرف كم سأعطي غروشنكا من المال إذا هي جاءت. كلّهم أوغاد! كلهم أوغاد! أما إيفان، فأنا لا أعترف به. من أين جاء هذا الحقير؟ إنه ليس مثلنا إطلاقاً. وماذا سأورثه أنا؟ لن أكتب حتى وصيّة، أريد أن تعرف ذلك. وأما ميتكا فسوف أسحقه كما الخنفساء. سأسحق خنافس الليل، أدوسها فتطقّ. وهكذا سأسحقه، صاحبك ميتيا. وإذا قلت صاحبك فلأنك تحبه. أنت تحبه. ولكن حبك له يقلقني. ولو أخذ إيفان يحبه لشعرت بالخوف ولخشيت على نفسي. لكن إيفان لا يحب أحداً. إن أناساً مثل إيفان ليسوا بشراً مثلنا، إنهم غبار أثارته الريح... تذهب الريح ويعود الغبار... أمس، خطرت ببالي فكرة سخيفة عندما قلت لك بأن تأتي هذا الصباح: أردت أن أكلّفك بأن تسأل ميتكا: هل إذا، نقدته ألف روبل أو حتى ألفين، هل يوافق هذا الشقيّ، هذا القذر، على أن يغادر هذه المدينة مدة خمس سنوات بل خمسين سنة، بدون غروشنكا طبعاً، متنازلاً عنها نهائياً؟

- سوف... سوف أسأله... تمتم أليوشا. وإذا أعطيته ثلاثة آلاف فربّما أن...

- لا! لا تكلّمه في هذا الأمر الآن! لقد غيَّرت رأيي. إنها فكرة سخيفة خطرت ببالي، يوم أمس، نعم. لن أعطيه شيئاً، لن أعطيه كوبيكاً واحداً، لأنني في حاجة إلى هذا المال أنا

نفسي - صرخ العجوز وهو يحرّك ذراعيه. سوف أعرف كيف أسحقه كما تُسحق خنفساء. لا تقل شيئاً، وإلا فقد تراوده الآمال. ثم، ليس ثمة ما تفعله عندي. فاذهب الآن. ولكن قل لي: هل تريد خطيبته، هل تريد كاترينا إيفانوفنا تلك التي أخفاها عني، هل تريد أن تتزوجه، نعم أم لا؟ لقد ذهبت أنت إليها بالأمس، كما يبدو؟

- لا تريد أن تتركه مهما حدث.

- هؤلاء هم الرجال الذين تحبّهم بنات الصالونات الرقيقات! معربدون وأوغاد! هؤلاء الآنسات الشاحبات هنَّ قذارات. يفكّرن في... أنا، لو كان لي شبابه، ووجهي أيام شبابي (لقد كنت أجمل منه عندما كنت في الثامنة والعشرين) لفزت أنا، أكثر منه. إنه وغد! أما غروشنكا فلن يحظى بها، لن يحظى بها، سأمرّغه في الوحل!

عند هذه الكلمات، التهب غضبه مجدداً.

- أنت أيضاً، اذهب من هنا. لا عمل لك عندي اليوم. قال بلهجة جافة خشنة.

اقترب أليوشا ليودّعه وقبَّله في كتفه.

- ماذا دهاك؟ سأل الوالد مندهشاً. سوف نلتقي أليس كذلك! أم تراك تفكّر أننا لن نلتقي أبداً!

- أبداً. لقد قبَّلتك بدون نية، دون أن أفكر في الأمر.

- نعم. وأنا أيضاً مثلك. أجاب العجوز وهو ينظر إليه. لحظة. انتظر لحظة، صاح العجوز من وراء ظهره. تعال إليَّ متى شئت، وبسرعة، سأذيقك حساء السمك، إنه حساء خاص ليس كحساء اليوم! عدْ، حتماً! تعال غداً، هل سمعت، تعال غداً!

وما كاد أليوشا يجتاز الباب، حتى اقترب العجوز من الخزانة الصغيرة وشرب نصف كأس دفعة واحدة. ثم دمدم وهو يتنحنح:

- سأتوقف! ثم أقفل الخزانة ووضع المفتاح في جيبه، واتجه نحو غرفة نومه، وتمدّد على سريره منهكاً، ونام فوراً.

III

مع الصِّبية السوقيين

حمداً لله أنه لم يسألني شيئاً عن غروشنكا، قال أليوشا وهو يخرج من عند والده متجهاً نحو منزل السيدة خوخلاكوفا. فلو فعل لاضطررت أن أحدّثه عن مقابلتي، يوم أمس، مع غروشنكا. وشعر أليوشا بحزن، أثناء الليل، لأن الخصوم يستعدون للمواجهة بقوى جديدة، وأن قلوبهم أصبحت مجدداً قاسيةً كالحجر، مع اليوم الجديد. وقال يحدث نفسه: «الوالد حانق غاضب وثمة فكرة في رأسه وهو يتمسَّك بها. وديمتري؟ هو أيضاً، في هذه الليلة، اشتدّ كرهه بدون شك، وقلبه، هو أيضاً، قد امتلأ حقداً. ولديه فكرة... أوه! يتوجب عليّ حتماً أن أراه في هذا اليوم، مهما كلّف الأمر...»

لكن أليوشا لم يتسع له الوقت للتفكير طويلاً: فقد وقعت له أثناء الطريق حادثة ليست ذات أهمية ظاهرياً ولكنها أحدثت في نفسه أثراً عميقاً. فما أن اجتاز الساحة ودخل في الزقاق للوصول إلى شارع ميخايلوفسكي الذي يوازي الشارع الكبير والذي لا يفصله عنه سوى جدول صغير (إن مدينتنا كلها تقطعها جداول صغيرة) حتى رأى أمام الجسر الصغير عصبةً من التلاميذ اليافعين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة لا أكثر. كانوا يعودون من المدرسة إلى منازلهم، يحملون على أكتافهم ذلك الكيس الصلب الذي يحمله التلاميذ، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً من جلد له حزام على الكتف؛ بعضهم يرتدي سترة، والبعض يرتدون معاطف قصيرة، وبعضهم ينتعلون جزمات عالية على ساقها أخاديد، من تلك الجزمات التي يحب انتعالها الأطفال المدللون - ما كان أليوشا يستطيع أن يمرَّ أمام أطفال بلا مبالاة، وكذلك كان شأنه أيضاً في موسكو. ولئن كان يفضّل الصغار الذين تبلغ أعمارهم ثلاث سنوات تقريباً، فإنّ التلاميذ الذين هم في العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيراً أيضاً: لذلك، رغب فجأة أن ينضم إلى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم في حديث. فلما اقترب منهم ناظراً إلى وجوههم المحمرة المنتعشة لاحظ فجأة أن كلاً منهم يحمل بيده حجراً وبعضهم حجرين. ورأى في الجهة الأخرى من الجدول على مسافة ثلاثين خطوة من المجموعة، طفلاً آخر، هو تلميذ أيضاً يحمل كيسه على الجنب، وأغلب الظنّ أنه في العاشرة من عمره وربّما أصغر من ذلك، كما يدل على هذا طول قامته - كان الصبي يراقب مجموعة التلاميذ الستة الذين يقابلونه بانتباه كلّي، وكان واضحاً أنه يعتبرهم أعداءه، وكان شاحب الوجه عليل الصحة، ولكن عينيه تلمعان. والتلاميذ، على ما يبدو، هم رفاقه الذين خرجوا من المدرسة معه. تقدَّم أليوشا بضع خطوات وتوجَّه بالكلام إلى صبيّ أجعد الشعر متورد البشرة يرتدي سترة سوداء وقال له:

- عندما كنت أنا أحمل كيساً مثلك، كنا نضعه على الجنب الأيسر حتى تناله اليد اليمنى بسهولة أكبر. أما أنتم فالكيس يتدلى عندكم من الجهة اليمنى وهذا ليس عملياً لكم.

أبدى أليوشا هذه الملاحظة مباشرة دون أن يلجأ إلى أي خدعة مهيأة، كما يفعل أيّ شاب عندما يريد أن يكسب ثقة طفل، وخاصة من بين مجموعة من الأولاد، وهو أن يدخل في الحديث معهم على الوجه الذي استعمله أليوشا، أي أن يخاطبهم في أمور ملموسة وجدّية، جاعلاً نفسه متساوياً معهم. وأليوشا يدرك ذلك بغريزته.

- ولكنه أعسر! صاح فوراً صبي آخر. إنه جريء ومعافى في الحادية عشرة من عمره. وبقي الصبية الخمسة يحدّقون إلى أليوشا.

- إنه يقذف الحجارة أيضاً باليد اليسرى. قال صبي ثان. وفي تلك اللحظة عينها، سقط حجر على المجموعة فلامس الأعسر لكنه أخطأه رغم أنه قد قُذف بإحكام وقوة. إن ذلك الصبي في الجهة الأخرى من الجدول هو الذي أطلقه.

- اضربه، سدّد إليه. صاح الجميع. هيّا يا سموروف!

لكن سموروف (الأعسر)، على كل حال، لم ينتظر، وثأر لنفسه فوراً: فرمى حجره على الصبي الواقف في الجهة الأخرى من الجدول، ولكنه لم ينجح: سقط الحجر على الأرض. وأُطلق حجر آخر على المجموعة، وفي هذه المرة، استهدف أليوشا مباشرة فأصابه في كتفه فأوجعه. وكانت جيوب الصبي في الجهة الأخرى من الجدول، ملأى بالحصى. وذلك ما يُرى حتى على مسافة ثلاثين خطوة لأن جيوبه كانت منتفخة تحت معطفه الضيّق.

- إنه حاقد عليك أنت. لقد أصابك خصيصاً، لأنك من آل كارامازوف، ألست من آل كارامازوف؟ صاح الصِّبْيَة مقهقهين. هيّا بنا، كلّنا معاً، اضربوا!

وانطلقت ستة أحجار من المجموعة في آن واحد. فأصاب أحدها الصبيّ في رأسه، فسقط، ولكنه عاد فنهض مسعوراً، وراح يضرب ضربةً بضربةٍ. وانطلق القصف بدون انقطاع. وكان الكثيرون من صِبْيَة المجموعة هم أيضاً لديهم حجارة احتياطية.

- وأخيراً! ألا تخجلون! ستة مقابل واحد، سوف تقتلونه! صاح أليوشا.

وقفز، ووقف في مواجهة الحجارة المتطايرة ليحمي بجسمه الصبيَّ الواقف من الجهة الأخرى من الجدول. فهدأ ثلاثة صِبية أو أربعة بضع لحظات.

وصاح صبيّ يرتدي قميصاً أحمر بصوت طفوليّ غاضب.

- هو الذي بدأ. إنه وغد. منذ قليل، طعن كراسوتكين في المدرسة بسكين. فسال دم كراسوتكين. ولم يشأ أن يشكوه. أما هو، فيجب ضربه...

- لكن لماذا؟ لا شك أنكم سخرتم منه؟

- أنظر، إنه يوجّه إليك حجراً في الظهر. إنه يعرفك. صاح الأطفال. إنه يستهدفك أنت الآن وليس نحن. هيّا بنا، كلّنا معاً، أصبه جيداً يا سموروف!

وعاد مجدداً تبادل الضرب بالحجارة، أكثر وحشية في هذه المرة. فأصيب صدر الصبي الذي في الجهة الأخرى من الجدول، فأطلق صرخةً، وبدأ يبكي، ثم ركض نحو القمة إلى جهة شارع ميخايلوفسكي، فأخذت المجموعة تقول مولولةً: «آه. آه، لقد خاف. هرب. خرقة مبلّلة!».

- أنت لا تعرف، حتى الآن، يا كارامازوف، أيّ لص هو هذا الصبي. إن قتله قليل عليه. ردّد الصبي الذي يرتدي سترة صغيرة وعيناه تبرقان وهو كبير المجموعة على ما يبدو.

- وماذا فعل؟ سأل أليوشا. إنه واشٍ بدون شك!

تبادل الصِبية نظرات ملؤها السخرية بشكل واضح.

- هل أنت ذاهب إلى شارع ميخايلوفسكي؟ تابع الصبيّ نفسه. أدركه إذن... انظر! لقد توقف، إنه ينتظر... إنه ينظر إليك.

- إنه ينظر إليك، إنه ينظر إليك! ردّد الصِبية الآخرون.

- أدركه إذن... واسأله هل يحب ليفة الحمام! اسأله هذا السؤال، وسترى، اسأله.

وكان ضحك شامل. نظر إليهم أليوشا، وهم نظروا إليه هو.

- إياك أن تذهب إليه، فسوف يقتلك... صرخ سموروف محذّراً.

- لن أسأله شيئاً عن ليفة الحمام لأنني أُراهن أنكم بهذه الكلمة، تسخرون منه. ولكني سأعرف منه لماذا يكرهكم إلى هذا الحدّ...

- اسأله إذن، اسأله! أجاب الصِبية ضاحكين. عبرَ أليوشا الجسر، وصعد، ماراً قرب سياج الأوتاد، متجهاً إلى الصبي المعتزل.

- إنتبه! صاح الآخرون يحذّرونه. لن يخاف منك، وسوف يطعنك بالسكين من خلف... كما فعل بكراسوتكين.

كان الصبي ينتظره دون أن يتحرك من مكانه. فلما اقترب منه أليوشا، رأى أمامه طفلاً في التاسعة من عمره لا أكثر، صبياً صغيراً هزيلاً، له وجه مستطيل، وشاحب اللون، وله عينان واسعتان سوداوان تنظران إليه بحقد. كان يرتدي معطفاً صغيراً عتيقاً أصبح صغيراً على قامته بشكل مضحك، وذراعاه العاريتان تخرجان من الكمَّين. وعلى السروال، تُرى رقعة عند الركبة اليمنى. ومن ثقب فاغر في حذاء القدم اليمنى يظهر الإبهام مطلياً بالحبر من قبيل الاخفاء. وجيبا الرداء منتفختان مليئتان بالحجارة: وقف أليوشا على مسافة خطوتين منه وألقى عليه نظرة سائلة. فأدرك الصبيّ فوراً من نظرة أليوشا أنه لا يريد أن يضربه. فهدأ رويداً رويداً، ووافق على أن يكلّمه.

- أنا وحدي وهم ستة... ولكنني سأغلبهم كلهم. قال فجأة، والتهبت شرارات في عينيه.

قال أليوشا:

- لا شك أن حجراً قد أوجعك!

- أنا أصبت سموروف في رأسه! صاح الصبي.

- هم قالوا لي هناك، إنك تعرفني، وإنك ضربتني بالحجر لسبب ما. سأله أليوشا.

وجَّه إليه الصبيّ نظرة قاتمة.

- أنا لا أعرفك. وأنت هل تعرفني؟ سأل أليوشا.

- دعني وشأني! صرخ الصبيّ فجأة بصوت غاضب دون أن يتحرك من مكانه وكأنه ينتظر شيئاً ما، والتهبت عيناه بشرارات جديدة.

- حسناً. سأنصرف. قال أليوشا. ولكن، أنا لا أعرفك ولا أسخر منك. قالوا لي إنهم يسخرون منك، ولكن أنا، لا أريد أن أفعل ذلك، وداعاً.

وانصرف أليوشا.

- راهب ترتدي سروالاً من الجوخ! صاح الصبيّ متابعاً أليوشا بنظرة تحدّ مؤذية متخذاً وقفة دفاع، معتقداً بأن أليوشا لا بدَّ أن ينقضّ عليه الآن. ولكن أليوشا استدار نحوه ونظر إليه، وأكمل طريقه. فما كاد يسير ثلاث خطوات حتى تلقَّى شيئاً في ظهره فشعر بألم شديد. لقد أصابه الصبيّ بأثقل حجر كان يحمل في جيوبه.

- إذن، أنت تهاجم من خلف؟ صحيح إذن ما قالوه عنك. إنك تضرب كما يفعل جبان. قال أليوشا واستدار مجدداً. غير أن الصبيّ وقد استبدَّ به غضب شديد، رماه، في هذه المرة، بحجر على وجهه مباشرة، لكن أليوشا سارع يحمي وجهه بذراعه، فأصابه الحجر في كوعه.

- ألا تخجل؟ ماذا فعلت لك؟ صاح أليوشا.

سكت الصبيّ وبقي جامداً في مكانه وقد بدا على وجهه الشرّ والعدوانية. كان مقتنعاً بأن أليوشا سينقض عليه، في هذه المرة، فلما رأى أنه لن يقوم بشيء من ذلك، استبدَّ به غضب مسعور كحيوان صغير فقفز من مكانه وانقضّ هو على أليوشا، وقبل أن يتسنّى لأليوشا الوقت للقيام بأي حركة ليدافع عن نفسه، كان الصبيّ الشرير قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكلتا يديه، وعضَّ خنصره عضّةً عنيفة، غارساً أسنانه في لحم الإصبع بكل قواه مدة ثانيتين. صرخ أليوشا من شدة الألم، وحاول أن يسحب إصبعه. فلما أرخى الصبيّ أسنانه أخيراً، أسرع هارباً، ثم وقف على مسافة من أليوشا. كانت العضَّة قوية جداً وقد بلغت العظم. وتدفّق الدم، فأخرج أليوشا منديله وربط الجرح ربطاً قوياً حول يده المجروحة فقضى في هذا التضميد دقيقة واحدة. وفي أثناء ذلك، بقي الصبيّ واقفاً ينتظر دائماً. أخيراً، نظر أليوشا إليه نظرة لطيفة:

- هل رأيت الجرح العميق الذي أحدثته في إصبعي؟ قال له. أحسب أنَّ هذا كاف، أليس كذلك؟ والآن، قل لي: بماذا أسأت إليك؟

نظر إليه الصبيّ متفاجئاً.

- حتى وإن كنت لا أعرفك، وهذه أول مرة أراك فيها. تابع أليوشا بلهجة هادئة دائماً. فمن المستحيل ألا أكون قد فعلت شيئاً يؤذيك. وإلا لما كنت تعتدي عليّ بدون سبب. فما هو الذنب الذي اقترفته في حقك، وبماذا أنا مذنب؟

ولكن الصبيّ، بدلاً من أن يجيب، بدأ يبكي بكاءً شديداً. وفجأة، ولَّى هارباً أمام أليوشا... وتبعه هذا الأخير على مهلٍ متّجهاً نحو شارع ميخايلوفسكي، وبقي وقتاً طويلاً يرى أمامه الصبيّ الهارب، لا يخفف سرعته، ولا يلتفت إلى وراء، ولعله ما زال يبكي بشدة. فقرر أليوشا، مهما كلَّف الأمر، أن يسعى إلى رؤية الصبيّ متى أتيحت له لحظة من حرية، ليوضح هذا السر الذي أحدث في نفسه أثراً قوياً. أما الآن، فليس لديه الوقت.

IV

في منزل آل خوخلاكوف

اقترب بسرعة من منزل السيدة خوخلاكوفا، وهو منزل من حجر كانت تملكه، منزل من طابق واحد، جميل، أحد أجمل منازل مدينتنا. ورغم أن السيدة خوخلاكوفا قد سكنت أكثر وقتها في مقاطعة أخرى تملك فيها قطعة أرض، أو أيضاً في موسكو حيث كان لها منزل خاص، فقد كانت تملك منزلاً في مدينتنا وقد ورثته من أجدادها. يجب أن نذكر مع ذلك أن قطعة الأرض التي تملكها في مقاطعتنا كانت أوسع الأراضي الثلاث التي تملكها. ومع هذا، كانت نادراً ما تأتي إلى مقاطعتنا. أسرعت تستقبل أليوشا في الرواق.

- هل تلقيت، هل تلقيت رسالتي بشأن المعجزة الجديدة؟ قالت فوراً بسرعة عصبية وحادَّة.

- تلقَّيتها.

- هل نقلت النبأ، هل أطلعت الجميع على الرسالة؟ لقد أرجعَ ابناً إلى أمّه!

- سيموت في هذا اليوم، قال أليوشا.

- لقد قيل لي هذا، أعرف المرض. آه، ما أشدَّ رغبتي في التحدث إليك! إليك أو إلى أيّ شخص آخر، عن كل هذه الأمور! بل إليك، إليك أنت! خسارة لعدم وجود أيّ وسيلة لكي أراه! إنّ المدينة كلها مقلوبة رأساً على عقب، وجميع الناس ينتظرون. ولكن، الآن، هل تعلم أن كاترينا إيفانوفنا هي عندنا الآن؟

- هذا حظّ موفّق! صاح أليوشا. سأراها إذن عندكم، لقد أصرَّت، يوم أمس، أن أزورها في هذا النهار.

- أعرف كل شيء. أعرف كل شيء. لقد سمعت كل تفاصيل ما حدث عندها يوم أمس... وكلّ تلك الفظاعات مع هذه... المخلوقة! إنها فاجعة، لو أنا كنت في مكانها - لست أدري ماذا كنت سأفعل في هذه الحالة! ولكن، ما رأيك أيضاً في أخيك ديمتري فيودوروفتش؟ آه، يا إلهي! أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسي فيودوروفتش: تصوَّر أنّ أخاك موجود الآن معها، يعني ليس أخوك ذاك نفسه، بل الآخر الرهيب الذي فعل بالأمس ما فعل، لكن الآخر إيفان فيودوروفتش، هو الآن هنا يتحدث معها: إن حديثهما رسميّ... لو تعلم ماذا يجري بينهما الآن، أؤكد لك أنه شيء فظيع! إنها قصة فظيعة، وما من وسيلة لتصديقها: كلّ منهما يضيِّع نفسه الآن، لا يدري أحد لماذا! وهما يعرفان ذلك، ويجدان فيه لذة كبيرة، هما الاثنان. لقد انتظرتك! كنت في حاجة إلى أن أراك. يستحيل عليَّ أن أتحمَّل هذا. سأقصّ عليك فوراً كل شيء. ولكن يجب عليَّ الآن أن أقول الشيء الأساسي آه، كدت أنسى الشيء الأساسي: قل لي لماذا أصيبت ليزا بنوبات عصبية؟ ما كادت تعلم بنبأ وصولك حتى ألمّت بها نوبة عصبية!

- ماما، أنت المصابة بنوبة هستيريا الآن، وليس أنا. زعق صوت ليزا مزقزقاً، من خلال شقّ الباب في الغرفة المجاورة. كان شقّ الباب ضيقاً جداً بينما الصوت على حدود التوتر حتى يكاد ينكسر كما يحدث حين يشعر المرء برغبته في الضحك الرهيب لا سبيل إلى السيطرة عليها بكل ما يملك من قوة. وقد لاحظ أليوشا هذا الشق الصغير فعرف أن ليزا تنظر إليه من خلاله بدون شك، وهي جالسة على كرسيِّها، ولكنه لا يستطيع أن يراها.

- ليس في ذلك غرابة، يا ليزا، فمع نزواتك، أنا أيضاً، سأصاب بنوبات عصبية، ذاك يعني أنها مريضة للغاية، يا ألكسي فيودوروفتش. لقد لازمتها الحمّى طوال الليل وكانت ترتجف! كدت أن أصبح مجنونة وأنا بانتظار الصباح لزيارة الطبيب هرزنستوب، وهو قال، إنه لم يفهم من ذلك شيئاً، ويجب علينا أن ننتظر. إن هرزنستوب هذا، كلما جاء يقول إنه لا يفهم شيئاً. ومذ اقتربت أنت من المنزل حتى أطلقت صراخاً وأصيبت بنوبة، ثم طلبت بأن تُنقل إلى هنا، إلى غرفتها القديمة...

- ماما، ليس بسببه هو، أردت أن أُنقل إلى هذه الغرفة...

- لا، هذا ليس صحيحاً يا ليزا، إن يوليا هي التي سارعت تبلغك أن أليوشا فيودوروفتش قد وصل، وكنت قد كلّفتها أن تترقب وصوله.

- ماما، حبيبتي، إن ما تقولين رهيب وليس بالأمر المضحك. ولكن أردت أن تصلحي الخطأ وأن تقولي الآن شيئاً يكون ذكياً فعلاً، فقولي، يا أمي العزيزة، إلى السيد ألكسي فيودوروفتش الذي وصل منذ هنيهة إنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يزورنا اليوم بعد حدث بالأمس، وبعد أن أصبح كل الناس يسخرون منه.

- ليزا، أنت تبالغين حقاً! أؤكد لك أنني سأتخذ في حقك، في نهاية الأمر، تدابير قاسية. من الذي يسخر منه؟ أنا سعيدة جداً بأنّه أتى. أنا في حاجة إليه، أنا لا غنى لي عنه. آه، يا ألكسي فيودوروفتش! إنني تعيسة جداً!

- ماذا أصابك يا أمي اللطيفة؟

- إنها، دائماً، نزواتك يا ليزا، وتقلُّب مزاجك، ومرضك، وهذه الليلة الرهيبة التي عانيت فيها الحمّى. إنه رهيب هرزنستوب هذا الأبدي، خاصة هذا الأبدي، الأبدي! ثم كل شيء، كل شيء، وحتى هذه المعجزة! آه، كم كنت متأثرة، كم كنت مضطربة، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش بما أحدثته هذه المعجزة! ثم هناك هذه المأساة التي تجري الآن في الصالون، والتي يستحيل عليّ احتمالها، يستحيل، أؤكد لك، يستحيل. إنها ملهاة وليس مأساة. قل لي: هل يعيش الراهب زوسيما حتى الغد، هل سيعيش؟ يا إلهي! ماذا يحدث لي، في كل لحظة أغمض عينيَّ أرى أنّ كل شيء هو سخافات، كل شيء، سخافات.

- أرجوك أن تعطيني خرقة نظيفة أربط بها إصبعي. قاطعها أليوشا فجأة. لقد جُرحت جرحاً عميقاً. وإصبعي تؤلمني بشكل فظيع الآن. كشف أليوشا عن إصبعه المعضوضة فكان المنديل ملطخاً ببقعة من الدم، فأطلقت السيدة خوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها.

- يا إلهي! يا لهذا الجرح! إنه فظيع!

لكن، ما إن لمحت ليزا إصبع أليوشا، من شقّ الباب، حتى فتحت الباب بدفعة قوية.

- أدخل إلى هنا، أدخل؛ صاحت بصوت آمرٍ صارم. والآن، كن جدّياً! يا إلهي! كيف أمكنك أن تسكت عن هذا طوال هذا الوقت! كان يمكن أن يفقد كل دمه يا ماما! كيف فعلت

هذا وأين؟ هاتوا ماءً قبل كل شيء، هاتوا ماءً. يجب أن نغسل الجرح، ثم تغطس إصبعك في الماء البارد لتهدئة الألم، وأن تبقيها في الماء. أسرعي، أسرعي يا ماما. وهاتوا طستاً. ثم صاحت في عصبية هلّا أسرعتم! كانت ليزا في ذعر كامل، فقد أحدث جرح أليوشا في نفسها اضطراباً رهيباً.

صاحت السيدة خوخلاكوفا:

- سوف أستدعي هرزنستوب.

- سوف تقتلينني يا ماما! إن صاحبك هرزنستوب سيجيء وسيقول إنه لا يعرف شيئاً! هاتوا ماءً، هاتوا ماءً! هاتي الماء بنفسك يا أمي، بحق الله، أو قولي ليوليا أن تسرع، إنها بطيئة، ولا تستطيع أن تقوم بشيء بسرعة! أسرعي، يا ماما، أو إنني سأموت...

- ولكن، ليس هذا الجرح البسيط بشيء. تدخّل أليوشا وقد أقلقه خوفهما.

أسرعت يوليا حاملة الماء. فغطس أليوشا إصبعه فيه.

- ماما، بحق السماء، اجلبي شاشاً، واجلبي أيضاً من ذلك الماء المحرق والذي يستعمل في مداواة الجروح، كيف يسمَّى! نعم، عندك منه. عندك. أنت تعرفينه يا ماما... تلك القارورة الموجودة في غرفة نومك، في الخزانة الصغيرة، على اليمين، هناك توجد قارورة وشاش للضماد...

- فوراً. سأجلب كل شيء، يا ليزا، ولكن لا تصرخي، ولا تقلقي. انظري كيف يحتمل ألكسي فيودوروفتش الألم بحزم! ولكن، أين جُرحت هكذا، بهذه الفظاعة، يا ألكسي فيودوروفتش؟

وخرجت السيدة خوخلاكوفا مسرعة. وذلك ما كانت تنتظره ليزا.

- أجب عن سؤالي أولاً. قالت مستعجلة إلى أليوشا. أين جُرحت بهذا الشكل؟ ثم نتكلم بعد ذلك في أمر آخر. إذاً؟

وإذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التي ستنقضي إلى حين عودة الأم كانت ثمينة جداً، فقد روى لها قصة لقائه السرّي بالتلاميذ موجزاً تفاصيل كثيرة، ولكنه روى لها الأساسيّ منها بشكل واضح ودقيق - وبعد أن استمعت ليزا إلى كلامه رفعت ذراعيها نحو السماء:

- كيف أمكنك أن تتدخل في شأن صِبية فاسدين وأنت ترتدي جبّتك؟ صاحت غاضبة كأنّ من حقّها أن توبّخه. إنك لطفل صغير، إنك لصبيّ شقيّ، لأصغر صبيّ يمكن أن نتصوره! المهمّ! اسأل عن هذا الولد الشقيّ الشرير، ثم حدثني بعد ذلك في أمره، فلا شك أن في الأمر سراً. هناك شيء ثانٍ الآن. قل لي أولاً يا ألكسي فيودوروفتش: هل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث في أمور لا تهمك، ولكن أن تتحدث فيها بشكل جدّي؟

- أنا قادر على ذلك تماماً.

الألم، أنا لا أشعر به أبداً.

- لأنك وضعت إصبعك في الماء. يجب تغيير الماء فوراً لأنه يسخن بسرعة، في طرفة عين. يوليا، أسرعي إلى القبو فائتيني بالثلج، وكذلك بطست آخر فيه ماء بارد. حسناً،

وقد خرجت الآن؛ فلنتحدث بجدية: هل لك أن تُعيد إليّ فوراً، أيها العزيز ألكسي فيودوروفتش، رسالتي التي بعثت بها إليك يوم أمس.

- فوراً، لأنَّ أمي قد تصل بين لحظة وأخرى، أنا لا أريد أن...

- ليست الرسالة معي.

- ليس صحيحاً، إنها معك. كنت متأكدة من جوابك هذا. إنها معك، في هذا الجيب! لقد تأسفت جداً على هذه المزحة الغبيّة. ردَّ إليّ هذه الرسالة فوراً! أعطنيها!

- تركتها هناك.

- لا يمكنك أن تعتبرني طفلة صغيرة، طفلة صغيرة جداً، بعد هذه المزحة الغبيَّة عن رسالتي! أرجوك أن تسامحني على هذه المزحة الغبيّة. أما الرسالة فيجب أن تأتيني بها في هذا اليوم عينه، قطعاً!

- اليوم، هذا مستحيل. لأنني سأعود إلى الدير، ولن أرجع لرؤيتك قبل يومين أو ثلاثة وربما أربعة، لأن الراهب زوسيما...

- أربعة أيام؟ هذا جنون! قل لي: هل سخرت منّي كثيراً؟

- لم أسخر أبداً.

- لماذا إذن؟

- لأنني صدقت كل ما كتبته.

- أنت تهينني.

- أبداً. عندما قرأتها، فكَّرت فوراً بأنّ الأمور ستكون على هذا الشكل. فمتى مات الراهب زوسيما سأضطر حالاً إلى مغادرة الدير. وبعد ذلك، سأستأنف دراستي، وسأتقدم إلى الامتحانات، ومتى انتهت المهلة القانونية، سنتزوج. وسوف أحبك، رغم أنني لم يتسع وقتي لأن أفكر في الأمر ملياً، فكّرت أنني لن أجد لنفسي زوجة أفضل منك، وقد أمرني الراهب الناسك بأن أتزوج...

- ولكنني مسخ، سوف يجرُّونني على الكرسي! قالت ليزا وهي تنفجر ضاحكة وقد احمرّ خداها بشدة.

- سأجرّ الكرسي بنفسي. وأنا مقتنع بأنك ستكونين قد شفيت من الآن فصاعداً.

- إنك مجنون! أجابت ليزا بعصبية. كنت أمزح فإذا بك تبني على هذا المزاح مشاريع مضحكة!... آه، هذه ماما قد رجعت في الوقت المناسب. ماما، لماذا تأخرت إلى هذا الحدّ؟ أنت دائماً تتأخرين! وهذه يوليا قد جاءت بقطعة الثلج!

- آه، ليزا! لا تصرخي أبداً - لا، لا تصرخي. أنا، إن صراخك... ماذا أفعل إذا كنت قد دسست هذا الشاش، لست أدري أين... لقد فتشت عنه كثيراً، فتشت... أتساءل أنك فعلت ذلك عمداً.

- لم يكن في وسعي أن أتنبأ، مع ذلك، أنه سيصل بجرح في إصبعه، فربّما يكون

صحيحاً أنني فعلت ذلك قصداً! ماما، ملاكي، إنك تقولين اليوم فكاهاتٍ ظريفة حقاً!

- أريد أن تكون ظريفة! لكن، ألا تفكرين يا ليزا في إصبع ألكسي فيودوروفتش وفي كل هذا! أوه، ليتك تعلم يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش مدى ما أعاني من ألم. ليست هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تقتلني، ليس هذا الطبيب هرزنستوب وحده هو الذي يرهقني، بل كل شيء، كل شيء دفعة واحدة، ذلك هو ما لا أملك القدرة على احتماله.

- كفى كلاماً، يا ماما، عن هرزنستوب! تابعت ليزا بضحكة مرحة. ناوليني الشاش والماء بسرعة، ماما؛ إنه ملح الرصاص يا ألكسي فيودوروفتش. تذكرت الاسم الآن، ولكنه مفيد جداً: تصوَّري يا ماما، أنه اقتتل في الشارع مع صِبْيَة سوقيين، وأنّ صبياً قد عضّه! أليس هو نفسه صبياً صغيراً؟ ما رأيك يا ماما؟ هل يمكنه بعد ذلك أن يتزوج؟ تصوَّري هذا يا ماما؛ يريد أن يتزوج؟ أليس هذا مضحكاً، أليس هذا فظيعاً؟

وتابعت ليزا ضحكها العصبي وهي تلقي على أليوشا نظرة منكِّدة.

- ما هذا الذي تقولينه عن الزواج يا ليزا؟ ثم إن هذا الأمر لا يعنيك أبداً... وذاك الصبيّ، أفلا يمكن أن يكون مصاباً بداء الكَلَب؟

- آه، يا ماما! هل يوجد صِبية مصابون بداء الكلب؟

- لماذا لا، يا ليزا، وكأنني قلت سخافة. من الجائز أن يكون الصبي قد عضَّه كلب مصاب بداء الكلَب، فإذا هو يعضّ بدوره كل من يقترب منه! لقد ضمدت إصبعك بشكل جيد يا ألكس فيودوروفتش. أنا، ما كان لي أن أتقنه إلى هذا الحد! أما تزال تشعر بألم، الآن؟

- قليلاً جداً، الآن.

- ألا تخاف من الماء؟ سألت ليزا.

- حسناً، هذا يكفي يا ليزا. صحيح أنني تسرعت عندما تكلمت عن الصبي المصاب بداء الكَلَب، فبدأتِ تستنتجين على الفور! إن كاترينا إيفانوفنا، وقد عرفت أنك الآن هنا، يا ألكسي فيودوروفتش، تلحّ على أن تراك حالاً، إنها تصرّ.

- آه، ماما، اذهبي إلى رؤيتها وحدك! إنه يتألم كثيراً الآن.

- لا، لا أشعر الآن بألم أبداً. وأستطيع أن أذهب إليها... قال أليوشا.

- ماذا! ستذهب! أنت إذن! أنت إذن!

- ولم لا؟ متى انتهيت من الحديث معها سأعود إلى هنا ثانية، فنتكلم عندئذ ما شئنا أن نتكلم. أنا، أودّ أن أرى كاترينا إيفانوفنا بأقصى سرعة لأنني أريد أن أعود إلى الدير في أسرع وقت.

- ماما، خذيه، رافقيه بسرعة! وأنت، يا ألكسي فيودوروفتش، وفِّر على نفسك عناء العودة إليَّ بعد مقابلة كاترينا إيفانوفنا. عد مباشرة إلى الدير. لقد انتابني النعاس ولم أنم طوال الليل. وهناك يطيب لك المقام أكثر!

- أنت تمزحين دائماً يا ليزا! صحيح سأكون سعيدة جداً إذا أنت نمتِ! قالت السيدة خوخلاكوفا.

- لا أعرف ماذا فعلت... سأبقى معك ثلاث دقائق إذا أردتِ، بل وحتى خمس دقائق. تمتم أليوشا.

- وحتى خمس دقائق! خذيه بسرعة يا ماما. إنه مخلوق مسخ!

- ليزا! هل أصبحت مجنونة! فلنخرج يا ألكسي فيودوروفتش، إنها اليوم شديدة النزوات، وأخشى أن نثير أعصابها. ما أشقى امرأة عصبية، يا ألكسي فيودوروفتش! لكن لعلّها شعرت حقاً بحاجة إلى النوم عندما رأتكما. ماذا فعلت حتى استطعت أن تردَّ إليها النعاس بهذه السرعة؟ ذلك عمل رائع!

- ماما، لطيف جداً ما تقولينه الآن! أحبّ أن أقبّلك، يا أمي الحبيبة.

- وأنا أيضاً أقبلك، يا ليزا! قالت السيدة خوخلاكوفا لابنتها وما إن بدءا بالابتعاد حتى راحت تخاطب أليوشا بوشوشة عميقة، سرية ومضطربة، لا أريد أن أؤثّر فيك بأيّ شيء، ولن أرفع الحجاب، ولكنك سترى، أنت بذاتك، ماذا يحدث هناك. إنه شيء رهيب. إنها المهزلة العجيبة: إنها تحبّ أخاك إيفان فيودوروفتش، ثم تحاول بكل قواها أن تقنع نفسها أنها تحبّ ديمتري فيودوروفتش. شيء فظيع! سأدخل معك، وإذا لم أُطرد سأنتظر حتى النهاية.

V

هيستيريا في الصالون

لكن الحديث في الصالون كان قد انتهى: كانت كاترينا إيفانوفنا مضطربة جداً رغم أنّ في وجهها تعبيراً صارماً. وفي اللحظة التي دخل فيها أليوشا والسيدة خوخلاكوفا، كان إيفان فيودوروفتش ينهض للانصراف. كان وجهه شاحب اللون قليلاً، فينظر إليه أليوشا بقلق. والواقع هو أنه هنا يكمن الجواب عن أحد الأسئلة التي كان أليوشا يبحث لها عن جواب، أحد الأسئلة الأكثر قلقاً الذي يعذبه منذ بعض الوقت. ومنذ حوالى شهر، جرت محاولة لإقناعه، مرات عدة، ومن مصادر مختلفة أن أخاه إيفان يحب كاترينا إيفانوفنا، وبشكل خاص، كان ينوي فعلاً «خطفها» من ميتيا. وقد بدا لأليوشا، حتى الأيام الأخيرة أنّ هذا الأمر شاذ، حتى وإن كان ذلك يقلقه كثيراً. كان يحب أخويه ويخشى أن تقوم بينهما عداوة. ومع ذلك، فديمتري فيودوروفتش قد قال له مباشرة وفجأة، أمس، إن هذه الخصومة مع أخيه إيفان تسعده، وإنها تساعده، هو وديمتري، في كثير من الأمور. تساعده على ماذا؟ كان أليوشا يتساءل: أن يتزوج بغروشنكا؟ ولكن هذا الفعل اعتبره أليوشا الأخير الأكثر يأساً. كان أليوشا نفسه بالإضافة إلى كل هذا، وحتى السهرة الأخيرة عشية أمس، مقتنعاً بدون أي شك بأن كاترينا إيفانوفنا هي أيضاً تحب أخاه ديمتري حباً جامحاً - ولكن هذا الاقتناع قد تزعزع في نفسه عشية البارحة. بالإضافة إلى أنه كان يُخيَّل إليه، دون أن يعرف لماذا، أن كاترينا إيفانوفنا لا يمكن أن تحب رجلاً من نوع إيفان وأنها تحب أخاه ديمتري كما هو، تماماً، رغم ما في هذا الحب من سخافة. لكن المشهد الذي جرى بالأمس مع غروشنكا قد أنبت في نفسه، فجأة، شعوراً آخر، وكلمة «هستيريا» التي استعملتها السيدة خوخلاكوفا جعلته يرتعش لأنه في تلك الليلة عينها، أثناء شبه النوم عند الفجر، قد كرر، بدون شك، في حلمه، كلمة: هستيريا! هستيريا! لقد حلم، طوال الليل، بالمشهد الذي حدث، يوم أمس، في منزل كاترينا إيفانوفنا. فعندما قالت له السيدة خوخلاكوفا بجزم إن كاترينا إيفانوفنا تحبّ في الواقع أخاه إيفان، وإنها تكذب على نفسها من قبيل الميل إلى «الهستيريا»، وتعذِّب نفسها بحب كاذب لديمتري فيودوروفتش؛ فاهتز أليوشا واضطرب متسائلاً: «ألا يمكن أن تكون هذه هي الحقيقة كاملة في هذه الكلمات رغم كل شيء!». ولكن، في هذه الحالة، ما هو وضع أخيه إيفان؟ فشعر أليوشا بفطرته أن امرأة مثل كاترينا إيفانوفنا تشعر بحاجة إلى السيطرة، وهي لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة إلا على رجل مثل ديمتري ولا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة على رجل مثل إيفان، لأن ديمتري وحده (ليس على الفور طبعاً إنما بمرور الزمن) قادر على الخضوع لها. وذلك «من أجل سعادته الشخصية» (وهذا ما يتمناه له أليوشا) وليس إيفان. فإن هذا الأخير لن يقبل الرضوخ لها، ولن يوفِّر له هذا الخضوع السعادة. هذا، على الأقل، ما كان أليوشا يفكّر فيه على أساس معرفته بطباع إيفان، وعلى أساس الفكرة التي نبتت لديه عن إيفان. إذن كل هذه الترددات وكل هذه الخواطر قد تسارعت وانفجرت في فكر أليوشا في اللحظة التي دخل فيها الصالون. ثم هاجمته فكرة أخرى أيضاً بسرعة البرق يتعذر كبتها فجأة: «فماذا لو كانت لا تحب أحداً، لا هذا ولا ذاك؟». وتجدر الملاحظة هنا إلى أن أليوشا كان يشعر بخجل من هذا النوع من الأفكار، وأنه قد لام نفسه على ذلك خلال هذا الشهر الأخير: «وماذا أعرف أنا عن الحب والنساء وكيف يمكنني أن أرى آراء من هذا النوع؟». كذلك كان يقول لنفسه مستاءً

بعد كل هذه الأفكار والتوقعات، التي كانت تراوده من هذا النوع. وعلى الرغم من كل شيء كان يستحيل عليه أن لا يفكر في هذه المسائل. كان يدرك بغريزته مثلاً أن هذه الخصومة بين أخويه، الآن، هي مسألة خطيرة جداً تتعلق بها أشياء كثيرة. «فلتأكل الأفاعي بعضها بعضاً»، كذلك قال بالأمس أخوه إيفان وهو يتحدث غاضباً عن والده وعن أخيه ديمتري. معنى ذلك، أنّ أخاه ديمتري كان بنظره أفعى، وربما منذ زمن طويل؟ أفلا يمكن أن يكون قد أصبح أفعى في اللحظة التي عرف فيها أخوه إيفان كاترينا إيفانوفنا؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت، بالأمس، من إيفان على بدون إرادةٍ منه، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة. فكيف يمكن، والحالة هذه، أن نتكلم عن أيّ وفاق بينهما؟ أليس في هذا مزيد من أسباب الخلاف والحقد والحرب داخل الأسرة؟ ومع ذلك، أيّهما بنظر أليوشا خاصة، أحقّ بالرثاء له؟ وما الذي يجب أن يتمناه لكل منهما؟ إنه يحبّهما كليهما. ولكن، في أي مكان بين جميع هذه التناقضات المخيفة، توجد السعادة التي يتمناها للأول أو للثاني؟ يمكن للمرء أن يضيع كلياً في هذا التشوش؛ وقلب أليوشا لا يتحمّل الحيرة، لأنّ حبه يتصف دائماً بأنه حب فعال. وكان غير قادر على أن يحب بشكل سلبي. فمتى أحبّ، يبادر إلى المساعدة، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدّد لنفسه هدفاً، وأن يعرف، بشكل دقيق، ما هو خير وما هو ضرورة لكل واحد منهما، ومتى عرف ذلك، كان سهلاً عليه عندئذ أن يساعدهما معاً. ولكن، بدلاً من هدف محدد، لم يكن في ذلك إلا حيرة وتشوشاً. لقد ذُكر أمامه تعبير «هستيريا!» فكيف يؤوّل هذا التعبير لكن ماذا كان يمكنه أن يفهم، هو، حتى في هذه الهستيريا؟ وهذا التشوش، فهو لا يفهم منه حتى الكلمة الأولى؟

ما إن لمحت كاترينا إيفانوفنا، أليوشا، حتى أسرعت تقول لإيفان فيودوروفتش الذي وقف في مكانه استعداداً للانصراف، بصوت فرحٍ وحيوي.

- لحظة فقط! إبق لحظة قصيرة. أريد أن أعرف رأي هذا الرجل الذي أثق به ثقة مطلقة. ثم تابعت تخاطب السيدة خوخلاكوفا: ابقي أنتِ أيضاً يا كاترينا أوسيبوفنا - لا تنصرفي. وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة خوخلاكوفا مقعدها أمامهما إلى جانب إيفان فيودوروفتش.

- هنا يوجد كل أصدقائي، كل الذين لديّ في العالم، كل أصدقائي الطيبين والأعزاء؛ بدأت تقول بحرارة، وبصوت ترتجف فيه دموع الألم الحقيقية. أحسَّ أليوشا في تلك اللحظة أنها قد تمكّنت من قلبه مجدداً.

- وأنت يا ألكسي فيودوروفتش، لقد كنت، بالأمس، شاهداً على تلك الفظاعة. ورأيت في أي حال كنت... أنت لم ترني في تلك اللحظة يا إيفان فيودوروفتش، أما هو فقد رآني. لست أدري، ماذا فكَّر فيّ، يوم أمس، لا أعرف شيئاً من ذلك، لا أعرف إلا شيئاً واحداً: إذا تكرر الشيء نفسه، اليوم، الآن، لكان ردّي هو الذي صدر عني بالأمس. إنك تتذكر حركاتي، يا ألكسي فيودوروفتش، وقد اعتقدت أن من واجبك أن تثنيني... (عند هذه الكلمات، احمرّ وجهها وبدأت عيناها تسطعان)، أصرّح لك يا ألكسي فيودوروفتش، أنني عاجزة عن الإذعان لأيّ شيء. واعلم، يا ألكسي فيودوروفتش، أنني أصبحت، لست أدري في هذه اللحظة إن كنت أحبه هو. بدأت أشعر نحوه بشفقة، وهذه علامة حب سيئة. إذا كنت أحبه، إذا استمريت أحبه، رغم كل شيء، فلن أشفق عليه الآن، وبالعكس، ربما سأكرهه...

أخذ صوتها يرتجف، وسطعت دموع صغيرة على أهدابها. فارتعش أليوشا: كان يفكر «أن هذه الفتاة هي نقية وصادقة و... قد أصبحت لا تحب ديمتري!».

- هذا صحيح، هذا صحيح! قالت السيدة خوخلاكوفا.

- انتظري يا عزيزتي كاترينا أوسيبوفنا! أنا لم أقل بعد الشيء الأساسي، لم أقل كلمتي الأخيرة وما قررته في هذه الليلة. أشعر أنني، ربما، اتخذت قراراً مريعاً، ولكنني أعرف أنني لن أعود عنه مهما حدث طوال حياتي بأيّ حال من الأحوال. لقد حسمت الأمر على مدى حياتي كلها. وإن صديقي المخلص الوفي، إن ناصحي النبيل الطيب الذي يقرأ ما في أعماق قلبي، إن إيفان فيودوروفتش، يؤيد رأيي بشكل كامل، ويطري على هذا القرار... وهو يعرفه...

- نعم، أنا أؤيد قرارك... قال إيفان فيودوروفتش بصوت خفيض لكنه حازم.

- أريد مع ذلك أن يقول لي أليوشا (آه. - سامحني يا ألكسي فيودوروفتش أنني سميّتك أليوشا) أحب أن يقول لي ألكسي فيودوروفتش، هو أيضاً، بحضور صديقيَّ هل أنا على حقّ؟

- أنا على يقين غريزي أنك أنت يا أليوشا أخي الحبيب (لأنك أخي الحبيب). تابعت تقول بحماسة وهي تمسك بيدها الحارة يد أليوشا الباردة. أنا أشعر أنّ قرارك وتأييدك سيعيدان الطمأنينة إلى نفسي رغم كل ما أقاسيه الآن من عذاب، لأن بعد كلامك سوف أهدأ، وأجد السلام - نعم، أنا أشعر بذلك!

- لا أعرف ماذا تريد أن تطلب مني، أعرف فقط أنني أحبك.

قال أليوشا والحيرة تبدو على وجهه.

- لكنني أحبك بكل قلبي، وأحرص على سعادتك أكثر من حرصي على سعادتي أنا...

- لكنني لا أفهم في هذه الأمور شيئاً... أسرع يضيف، لا يدري أحد لماذا.

- في هذه الأمور يا ألكسي فيودوروفتش، في هذه الأمور، الآن، الأساسيّ هو الشرف والواجب، ولست أدري ماذا أيضاً. إنه شيء أسمى وربما أسمى من الواجب عينه، يحدثني قلبي عن هذا الشعور الذي لا يُكبح ويقودني بدون لوم. باختصار، لقد اتخذت قراري: هَبْه تزوج هذه... المخلوقة (هنا أصبح صوتها مهيباً) التي لن أغفر لها أبداً، أبداً؛ فأنا لن أتركه هو، على الرغم من كل شيء، حتى في هذه الحالة! لن أتركه بعد اليوم أبداً. قالت بنوع من الهيستيريا ومن الحماسة الغريبة. لن أتعلّق بكمّه طبعاً، ولن أشقيه بحبي أبداً، لا، بالعكس. سأنتقل إلى مدينة أخرى، حيث تريد. ولكنني سأستمر أهتم به، وأسهر عليه طوال حياتي، طوال حياتي دون كلل. فإذا أصبح تعيساً معها، وذلك أمر لن يتأخر كثيراً، فليس عليه سوى أن يعود إليّ فيجد فيَّ صديقةً وأختاً... أختاً لا أكثر، طبعاً، ذلك أن كل شيء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود. يجب أن يعلم، يومئذ، أنني أخت له حقاً، أخت مخلصة تحبّه وقد ضحَّت في سبيله بحياتها. سوف أحسن التصرف بحيث يعرفني أخيراً، سوف أجبره على أن يعرفني، وبعد ذلك، سيعتمد عليَّ بدون خجل! قالت وكأنها في حالة غير طبيعية. سأكون الإله الذي إليه يوجّه صلواته: ذلك أقلّ ما يجب عليه لي تكفيراً عن خيانته، وعما عانيته أمس بسببه! يجب أن يرى في جميع أيام حياته أنني مخلصة له إلى الأبد، وأنني أحفظ العهد الذي قطعته رغم أنه قد خانني... لن أكون إلا وسيلة لسعادته (أحسب أنني لا أجيد التعبير عما بنفسي) سأجعل من نفسي آلة تصنع له السعادة، وذلك طوال حياتي، طوال حياتي، وليرَ هو هذا طوال حياته! هذا هو قراري! إن إيفان فيودوروفتش يؤيدني بشكل مطلق.

كانت تلهث. وكانت تتمنّى أن تفصح عن فكرها بشكل أرقى وأبرع، وأكثر طبيعية، لكن النتيجة دفقت بسرعة. إن المرء يحس، في كل ما قالته، اندفاع شبابها، وبقايا غضب

الأمس، وحاجتها إلى تأكيد عزتها وكبريائها من جديد. وأدركت هي ذلك، فجأة، فأظلم وجهها والتمع في عينيها تعبير شرير. ولاحظ أليوشا هذا، فأشفق عليها. وتدخَّل إيفان في تلك اللحظة قائلاً:

- أنا عبَّرت عن رأيي الشخصي. إن عواطف من هذا النوع كان بالإمكان أن تبدو عواطف مصطنعة هي ثمرة جهد، أمّا عندك أنت، فلا. لو تصرَّفت امرأة أخرى على هذا النحو لكانت على خطأ، أما أنت فلا. لست أدري كيف أفسّر ذلك، ولكنني ألاحظ أنك صادقة إلى أبعد حدّ، ولهذا السبب أنت على صواب...

- لكن، فقط هذه الدقيقة... وما هي هذه الدقيقة؟ إنها فقط إهانة الأمس - هذا ما تعنيه هذه الدقيقة! قالت فجأة السيدة خوخلاكوفا التي لم تعد تحتمل. وكان واضحاً أنها لم تكن تريد أن تقحم نفسها في المناقشة، ولم تعد قادرة على أن تكبح نفسها، فأفلتت منها فجأة هذه الفكرة السديدة.

- نعم، نعم، قال إيفان بعنف وقد بدا عليه الغضب واضحاً. نعم، لكن لدى امرأة أخرى، فهذه الدقيقة ليست سوى تعبير الأمس، وفقط دقيقة واحدة، ومع مزاج امرأة لها طبع كاترينا إيفانوفنا، فهذه الدقيقة سوف تستمر طوال حياتها؛ وذلك بالنسبة إلى الآخرين ليس إلا وعداً وبالنسبة إليها واجباً. إنها ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها! إن حياتك، يا كاترينا إيفانوفنا، ستنقضي، بعد اليوم، في تأمل أليم لمشاعرك الخاصة، وبطولتك وشقائك، وبعد ذلك، فهذا الشقاء ستخف وطأته بمرور الزمن، ولن تكون حياتك إلا التأمل الهادىء لمشروع جريء فيه كبرياء. أُنجز نهائياً مشروع ملؤه الكبرياء، ولكن، فيه يأس، على كل حال؛ وسوف تنتصرين. سيملأك هذا الشعور أخيراً بغبطة قصوى، ويصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك...

هذا ما قاله بلهجة حازمة فيها غضب واضح مقصود. وربما لأنه لا يريد أن يخفي نيَّته، أي كان يقول ذلك عمداً وللسخرية.

- يا إلهي، كل هذا خطأ، كل هذا! هتفت مجدداً السيدة خوخلاكوفا.

- ألكسي فيودوروفتش! هلّا قلت رأيك! إنني أشعر بحاجة تعذبني إلى معرفة رأيك. قالت كاترينا إيفانوفنا واغرورقت عيناها بالدموع فجأة.

نهض أليوشا عن ديوانه.

- ليس هذا بشيء، ليس هذا بشيء! تابعت وهي تبكي. إنها الصدمة، إنها ليلة أمس. ولكنني بحضور صديقين مثلكما، أنت وأخيك، أشعر بأنني ما زلت قوية... لأنني أعرف أنكما لن تتخليا عني أبداً...

- مع الأسف؛ منذ الغد، سأضطر أن أعود إلى موسكو، وأن أتركك فترة طويلة... قال إيفان فيودوروفتش فجأة.

- غداً إلى موسكو! قالت كاترينا إيفانوفنا وانقبض وجهها بكامله؛ فجأةً، ولكن... يا إلهي، ما هذا الحظّ! وقد تغيّر صوتها كلياً، وفي لحظة، طردت دموعها، في لحظة، ولم يعد لها أيّ أثر.

وفي الواقع، في خلال لحظة حدث هذا التغيّر الذي أدهش أليوشا: إن الفتاة المسكينة المهانة التي كانت تبكي منذ برهة، وهي في حالة من الهستيريا، قد حلَّت محلّها، فجأة، امرأة تسيطر على نفسها كلياً. وكانت تبدو سعيدة للغاية، مما لا يُعرف لماذا، وكأنّ

شيئاً أحدث فيها لذة قصوى.

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهي تبتسم بتهذيب:

- أوه، الحظّ، ليس ذلك لأنني أتركك، طبعاً لا. إنّ صديقاً مثلك لا يمكن أن يفكر في شيء كهذا. بالعكس: إنني تعيسة حين أتصوَّر أنني سأفقدك (واندفعت نحو إيفان فيودوروفتش، فأمسكت يديه وشدَّتهما بعاطفة ملتهبة). لا، الحظّ، هو أنك أنت شخصياً ستوضح لخالتي ولأختي أغاتا، في موسكو، الوضع الذي أنا فيه، وفظاعة الأيام التي أعيشها هنا، فأمّا مع أغاتا، فبصراحة وأمّا مع خالتي العزيزة فبشيء من المداراة. لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته، أمس، وهذا الصباح من عذاب وأنا أتساءل كيف أكتب إليهما هذه الرسالة الرهيبة... لأنه من المستحيل على المرء أن يروي هذه الأشياء في رسالة... أما الآن، فقد أصبح الأمر سهلاً لأنك ستكون عندها شخصياً وتشرح لها كل شيء. آه، كم أنا سعيدة! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحي. وإنك تعرف أنت أيضاً بنفسك، على كل حال، ما من شيء يمكن أن يحل عندي محلّ صداقتك... سأكتب الرسالة حالاً. وأنهت كلامها فجأة وهي تتجه نحو باب الغرفة.

فصاحت السيدة خوخلاكوفا وفي كلماتها لهجة لاذعة غاضبة:

- وأليوشا؟ ورأي أليوشا فيودوروفتش الذي كنت تحرصين على سماعه؟

- لم أنسه. قالت كاترينا إيفانوفنا قاطعةً حركتها.

- ولماذا تظهرين لي الآن كل هذه العداوة يا كاترينا أوسيبوفنا؟ سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة وحميميّة.

- إنني أؤكد ما قلته. لا غنى لي عن رأيه. وأكثر من هذا: أنا بحاجة إلى قراره! وسأفعل ما يقول. فانظر يا ألكسي إلى أيّ مدى أنا في ظمأ إلى سماع كلامك... ولكن، ماذا بك؟

- ما كان لي أن أصدّق هذا في يوم من الأيام! ما كان لي أن أتصوَّر هذا! صاح فجأة أليوشا بصوت أليم.

- ماذا، إذن؟

- هو، يسافر إلى موسكو، وأنت تقولين إنك سعيدة - وقد قلت هذا عمداً! ثم، فوراً، استدركت تؤكدين له أنك لست مسرورة لرحيله، وأنك، على عكس ذلك، يحزنك فقده... وهذا أيضاً قلته عمداً... كما في المسرح، كما لو كنت تمثلين كوميديا!...

- كما في المسرح؟ كيف؟ ماذا يعني هذا؟ سألت كاترينا إيفانوفنا بحرارة وقد بلغت ذروة الدهشة مقطبةً حاجبيها.

- ترددين على مسامعه أنك حزينة لحرمانك من صديق، رغم كل شيء، وتصرحين أمامه أنّ من حظّه الذهاب إلى... استأنف أليوشا وقد ضاق نَفَسه. وكان واقفاً أمام الطاولة ولم يجلس.

- إلى ماذا تريد أن تصل؟ إنني لا أفهم...

- وأنا أيضاً، لا أفهم... لقد اتضحت لي الحقيقة فجأة كأنما في ضوء برق. وتابع

أليوشا كلامه بصوت مرتجف ولاهث

أعرف أنه من غير المستحسن أن أقوله، ولكنني سأقول كل شيء مع ذلك. إليك - ذلك الضوء الذي رأيته: إنك لا تحبين أخي ديمتري، وربما ما أحببته منذ البداية... ثم إن ديمتري أيضاً لا يحبك أبداً، كما أظن... لا هو يحبك الآن ولا هو أحبك في الماضي. إنه يحترمك فحسب... أقسم لك، لست أدري ما الذي يجيز لي أن أكلمك على هذا النحو. ولكن، ...لا بدَّ أن يقول أحد الحقيقة أخيراً... ما دام لا يريد أحد هنا أن يقول الحقيقة

أيّ حقيقة؟ صاحت كاترينا إيفانوفنا بصوت هستيري - .

إليك الحقيقة! تمتم أليوشا وهو يحسُّ أنه يسقط من فوق سطح منزل. استدعي - حالاً ديمتري - وأنا أعرف كيف أعثر عليه - استدعيه إلى هنا. وليتناول يدك فيضعها في يد أخيه إيفان، فتجمعهما يداك، لأنك تعذبين إيفان، وذلك لأنك تحبينه... إنما تعذبينه لشغفك ...بالهيستيريا... لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لديمتري... وتحاولين أن تقنعي نفسك به

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام وسكت.

أنت... أنت... لست سوى ساذج من القرية... هذا هو أنت! قالت فجأة كاترينا - إيفانوفنا وقد اصفرَّ وجهها، وظهر على شفتيها الغضب. فراح إيفان فيودوروفتش يضحك، ونهض من مكانه حاملاً قبعته بيده.

أنت مخطىء يا عزيزي أليوشا. قال وقد بدا على وجهه تعبير لم يره فيه أليوشا - قبل ذلك أبداً، تعبير يفيض صدقاً مثل صدق المراهقين، ويفيض صراحة منطلقة على سجيّتها. إن كاترينا إيفانوفنا ما أحبتني أبداً! وكانت تعرف دائماً أنني أحبها. أنا، رغم أنني لم أحدّثها عن حبّي إطلاقاً - كانت تعرف ذلك، ولكنها لم تحبني. لا، ولا كنت صديقها في يوم من الأيام: هذه المرأة المزهوّة لم تكن في حاجة إلى صداقتي. لقد احتفظت بي إلى جانبها لكي تنتقم. انتقمت مني، نعم، مني أنا، لجميع الإذلالات التي أنزلها فيها ديمتري منذ أول لقاء بينهما... ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد احتفظت بها في قلبها وكأنها إهانة. هذا هو قلبها! وأنا، كل ما فعلته خلال ذلك الوقت هو أنني استمعت إليها تحدثني عن حبها له. والآن، سأنصرف. لكن اعلمي يا كاترينا إيفانوفنا أنك لا تحبين في الحقيقة إلا هو. وكلّما أذلَّك كلّما أحببته أكثر فأكثر. وفي هذا يكمن شعورك بالهستيريا. فأنت، تحبينه كما هو، تحبينه عندما يهينك. ولو أصلح نفسه ستتخلّين عنه فوراً ولن تحبينه أبداً. ولكنك بحاجة إليه لكي تتأملي باستمرار وفاءك البطولي، ولكي تتهميه بالخيانة. وذلك كلّه نتيجة تكبرك. إنّ ههنا الكثير من المذلة والمهانة، وذلك يعود إلى تكبرك... ما زلت شاباً، ولقد أحببتك جداً. والآن، أعرف أنّ ابتعادي صامتاً أحفظ لكرامتي أنا، وأخفّ وطأة على إذلالك أنت. ولكنني سأذهب بعيداً، ولن أعود أبداً. سأرحل نهائياً... إنني لا أحسن التعبير الآن. لقد قلت كل شيء... وداعاً يا كاترينا إيفانوفنا. وليس من حقك أن تؤاخذيني لأنني عوقبت مئة مرة أكثر منك: حسبي عقاباً أنني لن أراك بعد اليوم أبداً. وداعاً! لست بحاجة إلى مصافحتك. لقد آلمتني إيلاماً فيه من الوعي ما يجعلني لا أستطيع أن أسامحك في هذه اللحظة. سأسامحك فيما بعد، أما الآن، فلست بحاجة إلى أن أصافح يدك.

بالشكر يا سيدتي لا أحفل.

قال هذا البيت من الشعر مع ابتسامة جامحة، مبرهناً على نحوٍ لم يكن في الحسبان، أنه يستطيع هو أيضاً أن يقرأ شيللر، وأن يحفظ أبياتاً من شعره عن ظهر قلب، وذلك ما كان لأليوشا أن يصدّقه من قبل. وخرج من الغرفة حتى دون أن يودّع سيدة المنزل، السيدة خوخلاكوفا. ورفع أليوشا ذراعيه إلى السماء.

إيفان! صاح. إرجع يا إيفان! لا، لا، لن يعود الآن مهما يكن الثمن! قال مجدداً، - واضحاً في ألمه. لكنني، أنا، أنا المخطىء، أنا الذي بدأت! لقد تكلم إيفان بغضب. كان غير .محقّ وغضوباً... صاح أليوشا وكأنه نصف مجنون

.وفجأة انتقلت كاترينا إيفانوفنا إلى الغرفة المجاورة

:وتمتمت السيدة خوخلاكوفا تقول بصوت سريع متحمس

لم تقل شيئاً، كان كلامك لطيفاً مثل ملاك. سأبذل كل جهدي لكي لا يسافر إيفان - ...فيودوروفتش

وأشرق الفرح على وجهها، رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد: ولكن كاترينا .إيفانوفنا رجعت فجأة، حاملة في يديها ورقتين نقديتين كلّ منهما بمئة روبل

لي عندك رجاء كبير، يا ألكسي فيودوروفتش. قالت تخاطب أليوشا مباشرة - بصوت هادىء ورصين. منذ أسبوع، نعم، منذ أسبوع، على ما أعتقد قام ديمتري فيودوروفتش بارتكاب عمل طائش وغير لائق وفاضح للغاية. يوجد هنا مكان مشبوه هو نوع من «خمارة» التقى فيه ضابطاً متقاعداً، هو ذلك النقيب الذي يستعين به والدك في بعض أعماله. ولست أدري لماذا غضب ديمتري فيودوروفتش من هذا النقيب فأمسكه من لحيته وجرَّه إلى الخارج على مرأى من جميع الناس، وراح يضربه ضرباً مبرحاً مدة طويلة. وقال الذين شهدوا الحادث إن ابن هذا النقيب وهو تلميذ في مدرسة المدينة، صبي صغير فيما يبدو، أخذ يركض إلى جانب أبيه باكياً متوسلاً إليه أن لا يؤذي أباه، متضرعاً إلى الجميع أن يتدخلوا لحماية أبيه، ولكن الجميع كانوا يضحكون. سامحني يا ألكسي فيودوروفتش! ولكنني لا أستطيع إلا أن أشعر باستياء شديد حين أتذكر هذا العمل المخجل الذي اقترفه، ذلك العمل الذي لا يقدم عليه أحد غير ديمتري فيودوروفتش، بغضبه وبأهوائه الجامحة... بل إنني أعجز عن رواية هذه الحادثة، لا أستطيع... لذا أرتبك في كلامي، وقد سألت عن هذا البائس فعرفت أنه رجل فقير جداً يدعى سنيغيريوف. لقد ارتكب، لست أدري أي غلطة أثناء خدمته في الجيش، فسُرّح، لست أدري تماماً. والآن، هو وعائلته البائسة، أولاده المرضى وزوجته المجنونة فيما أظنّ، أصبحوا في حالة رهيبة من الفقر. إنه يعيش في هذه المدينة منذ فترة طويلة. لست أدري ماذا يعمل. لقد عمل كاتباً، والآن، فجأة، قطعوا عنه راتبه. عندئذ، خطرت أنت ببالي... أو إنني فكرت أن - لا أدري ماذا دهاني، فأنا مرتبكة - أردت أن أرجوك، يا ألكسي فيودوروفتش، يا عزيزي الطيب، ألكسي فيودوروفتش، أن تذهب إلى هذا الرجل، أن تفتش عن ذريعة لكي تراه، أقصد هذا النقيب - يا إلهي! إنني مرتبكة - وبلطف وباحتراس - كما لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمرَّ وجه أليوشا فجأة) أن تعطيه هذه المساعدة هاتين المئتين من الروبلات. إنه سيقبل هذه المساعدة بدون شك... أقصد أن عليك أن تلحّ في سبيل أن يقبلها... هل فهمت ما أقصده؟ ولكن، لا، يجب أن تشرح له أن الأمر ليس استرضاءً له حتى لا يشكو أمره إلى القضاء (يبدو أنه يريد أن يشكو أمره إلى القضاء) وإنما هو شعور بالمودة له، ورغبة في المساعدة، وليعلم أن هذا المبلغ هو منّي أنا، مني أنا، أي من خطيبة ديمتري فيودوروفتش، وليس منه هو نفسه.. باختصار: ستعرف كيف تتصرف... كان بالإمكان أن أذهب إليه أنا، ولكني أعرف أنك ستتدبّر الأمر خيراً منّي. إنه يسكن في شارع أوزرنايا، في منزل امرأة ثرية هي كالميكوفا... اصنع لي هذه الخدمة يا ألكسي فيودورفتش، بحق السماء. والآن، الآن أنا متعبة... إلى . ...اللقاء

واستدارت، فجأة، واختفت مجدداً بسرعة وراء الباب، فلم يتسع الوقت لأليوشا حتى لقول كلمة واحدة - وكان لديه ما يقوله لها - كان يريد أن يستغفرها، أن يعتذر إليها، أن

يتّهم نفسه أمامها، لأنّ قلبه كان ثقيلاً، فلم يرد الخروج من الغرفة دون أن يكلّمها. ولكن السيدة خوخلاكوفا أمسكته من ذراعه وقادته إلى الخارج، ثم توقفت في الرواق، كما فعلت للمرة الأولى.

- إنها متكبرة، إنها تصارع نفسها، ولكنها لطيفة رائعة وكريمة! قالت له السيدة خوخلاكوفا موشوشةً. آه، كم أحبها، ولا سيما في بعض اللحظات، وكم يعاودني الشعور بالرضى من جديد، وكم أنا سعيدة بكل شيء، الآن، مجدداً، بكل شيء، نعم، نعم بكل شيء! وأنت يا ألكسي فيودوروفتش الطيب، لم تكن على علم بكل شيء؟

- إعلم أننا جميعاً، جميعاً، - أقصد أنا وخالتيها - أي جميعاً، وحتى ليزا، منذ أكثر من شهر إلى الآن، كانت لدينا رغبة واحدة، صلاة واحدة؛ هي أن تقطع صلتها بديمتري فيودوروفتش المفضَّل لديك، لأنه لا يريدها، ولا يحبها أبداً؛ وأن تتزوج إيفان فيودوروفتش المثقف الرائع الذي يحبها أكثر من أيّ شيء في العالم. حتى لقد دبَّرنا مؤامرة هنا لهذه الغاية، ولعلّ ذلك أيضاً هو السبب في أنني بقيت هنا...

- ولكنها بكت، وقد انتابتها تجربة ثانية! صاح أليوشا.

- لا تصدِّق دموع النساء يا ألكسي فيودوروفتش - أنا دائماً ضد النساء في مثل هذه الحالة. أنا منحازة إلى الرجال.

- ماما، إنك تفسدينه بالدلال إنك تؤدين به إلى الهلاك! جاء صوت ليزا الشحيح من وراء الباب.

- لا، أنا سبب كل شيء. أنا المذنب الرديء! ردَّد أليوشا الحزين وهو يشعر بخزي معذّب من غضبته وخجله وهو يخفي وجهه بيديه.

- بالعكس: لقد تصرَّفت كملاك، كملاك، وأنا مستعدة أن أردد هذا ألف وألف مرة. أملّ من تكرار هذا...

- ماما، لماذا تصرف مثل ملاك؟ ردَّد صوت ليزا الخفيف.

- لا أعرف لماذا. وأنا أنظر إليهما، بدا لي فجأة أنها تحب إيفان، فقلت هذه الحماقة... ما عسى أن يحدث الآن!

- عمَّن تتكلّمان، عمَّن؟ قالت ليزا. إنك تقتلينني يا ماما! أطرح عليك سؤالاً - فلا تجيبينني.

وفي تلك اللحظة دخلت الخادمة مسرعة:

- السيدة كاترينا إيفانوفنا في حالة سيئة... السيدة تبكي... إنها ترتجف كثيراً وكأنها في نوبة عصبية.

فصاحت ليزا بصوت قلق هذه المرة:

- ماذا يحدث؟ ماما، أنا التي سأصاب الآن بنوبة عصبية وليس هي.

- ليزا، بحق السماء! لا تصرخي، لا تقتليني! إن عمرك لا يسمح لك بعدُ أن تعرفي ما يعرفه الكبار. سأجيء إليك فوراً - فأطلعك على كل ما يمكن أن أطلعك عليه.

يا إلهي. أنا ذاهبة، أنا ذاهبة... نوبة عصبيّة - ولكن هذه علامة جيدة يا ألكسي فيودوروفتش! رائع أن تنتابها نوبة عصبية. هذا ما يجب أن يحدث. أنا أقف دائماً ضدّ النساء في مثل هذه الحالات، ضد كل هذه النوبات العصبية والدموع النسائية. أسرعي وقولي لي إنني آتية إليها فوراً. على كل حال، ليس عليها إلا أن تحمِّل نفسها تبعة خروج إيفان فيودوروفتش على ذلك النحو! ولكنه لن يسافر. ليزا، بحق السماء لا تصرخي! صحيح أنك لا تصرخين. فأنا التي أصرخ. سامحي أمك المسكينة، ولكنني سعيدة، سعيدة، سعيدة! هل لاحظت يا ألكسي فيودوروفتش كم كان وجهه فتياً، إيفان فيودوروفتش، حين تكلّم وحين خرج مجدداً! كنت أعتقد أنه عالم وأكاديمي، ثم ها هو يكشف فجأة عن أنه شاب حقاً، حار القلب، صادق النفس، مليء بنضارة الشباب، وهو قليل التجربة... ما أروع هذا، ما أجمله، هو مثلك تماماً... وهذا البيت من الشعر باللغة الألمانية الذي ألقاه، هذا أنت أيضاً! أنا ذاهبة، أنا ذاهبة. أسرع يا ألكسي فيودوروفتش، قمْ بالمهمة، ثم عد إلى هنا بأقصى سرعة. ليزا، هل أنت في حاجة إلى شيء؟ بحق السماء، لا تؤخّري ألكسي فيودوروفتش ولو دقيقة أخرى، سيعود إلى رؤيتك بعد لحظة...

وخرجت السيدة خوخلاكوفا مسرعة. وحاول أليوشا قبل ذهابه أن يفتح باب ليزا.

- أبداً! صاحت ليزا. الآن، أمنعك من الدخول! تكلّم من الجهة الأخرى من خلف الباب. لماذا أصبحت ملاكاً؟ هذا كل ما أريد معرفته.

- من أجل سخافة غبيّة، يا ليزا، وداعاً.

- أمنعك أن تذهب هكذا! صاحت ليزا.

- إنّ بي حزناً غاية في الجديّة! سأعود حالاً. إنّ عذابي كبير، كبير جداً!

وخرج من الغرفة مسرعاً.

VI

هستيريا في مسكن خشبي

كان، في الواقع يعيش تعاسة جدية للغاية، تعاسة لم يشعر بمثلها إلا نادراً. لقد تفجَّر «وارتكب حماقة»، وفي أيّ موضوع: في مشاعر الحب! ولكن، ماذا أفهم في هذا الأمر، وماذا أستطيع أن أدرك في مثل هذه الشؤون؟ ردّد في نفسه للمرة المئة وهو يحمرّ خجلاً. ليس العار الذي أشعر به شيئاً يذكر، فالعار هو العقاب الذي أستحقه والتعاسة هي أنني سأكون الآن سبباً لآلام عديدة... لقد أرسلني الراهب الناسك إلى العالم لأوحِّد وأصالح، وهل بهذه الطريقة يكون التوحيد؟ وفجأة، تذكّر كيف «وحَّد اليدين»، وابتلى مجدداً بعار رهيب «لعلّني كنت صادقاً عندما فعلت هذا وينبغي أن أكون أكثر ذكاءً في المستقبل». استنتج فجأة، ولم يبتسم لاستنتاجه.

إن المهمة التي كلّفته بها كاترينا إيفانوفنا كانت أن يذهب إلى شارع أوزرنايا. في حين يسكن أخوه ديمتري، في وسط الطريق، ليس بعيداً عن شارع أوزرنايا، في زقاق ضيّق. فقرر أليوشا أن يزوره قبل أن يذهب إلى النقيب رغم إحساسه بأنه لن يجد أخاه. كان يشعر أنّ هذا الأخير سيحاول أن يتجنَّبه بعد اليوم، ولكنه أراد أن يعثر عليه مهما كلَّف الثمن. والوقت يمضي. وفكرة الراهب الناسك الذي يحتضر لم تبارحه دقيقة واحدة، ثانية واحدة، منذ اللحظة التي خرج فيها من الدير.

وقد برزت حالة أخرى في مهمَّة كاترينا إيفانوفنا، حالة هي أيضاً أثارت انتباهه بشكل قويّ: عندما تحدثت كاترينا إيفانوفنا عن الصبي الصغير، تلميذ المدرسة، ابن ذاك النقيب، الذي كان يركض إلى جانب أبيه باكياً، خطرت ببال أليوشا فوراً فكرة أنّ هذا الصبي يجب أن يكون التلميذ الذي عضّه في إصبعه، حين سأله أليوشا، فيمَ أساء إليه. وأصبح أليوشا الآن شبه متأكد من ذلك دون أن يعرف هو نفسه لماذا. وقد أبعدته هذه التأملات لحظة عن همومه، قرّر ألّا «يفكّر» في «التعاسة» التي كان هو سببها، وألّا «يعذِّب» نفسه بحسرات عقيمة، وإنما يعمل ما يجب أن يعمل، ويرى كيف ستجري الأمور. لقد نشطته هذه الفكرة نهائياً. فلما دخل في الزقاق المؤدي إلى حيث يسكن أخوه ديمتري، وأحسَّ أنه جائع، أخرج من جيبه قطعة الخبز التي أخذها من عند والده، فأكلها وهو في طريقه، فاستردّ بعضاً من قواه.

كان ديمتري غائباً. أصحاب المنزل الصغير - وهم نجّار عجوز وابنه وزوجته العجوز الصغيرة - بدأوا يحدجون أليوشا بنظرات ملؤها الشك. «إنه لم يبت هنا منذ ثلاثة أيام. فلعلَّه سافر. اذهب واستعلم عنه». أجاب العجوز عن أسئلة أليوشا الملحَّة. فعرف أليوشا أنه يجيب تنفيذاً لأوامر. أتراه عند غروشنكا؟ أم هو مختبىء عند فوما؟ سأل أليوشا مرة أخرى متعمداً أن يذكر هذه المعلومات السرّية.

ولكن أصحاب المنزل رموه بنظرة مذعورة. فقال أليوشا لنفسه: «هم يحبونه، إنهم ينحازون إليه، وهذا أفضل».

ووصل، أخيراً، إلى شارع أوزرنايا، أمام منزل ساكنة المدينة الصغيرة كاليكوفا البورجوازية، وهو بيت صغير متداعٍ، انحنى تحت ثقل السنين، وله ثلاث نوافذ تطل على الشارع، وفناء موحل، توجد في وسطه بقرة وحيدة. يتمّ الدخول إلى الفناء عبر رواق صغير؛ وإلى يسار الرواق تسكن صاحبة البيت العجوز وابنتها، وكلتاهما صمّاوان. فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله عن النقيب عدة مرات. وفهمت إحداهما، أخيراً، أن أليوشا إنما يسأل عن الرجل الذي يسكن في منزلهما مستأجراً فأومأت بإصبعها نحو الجهة الأخرى من الرواق مشيرةً إلى الباب المطلّ على المسكن الخشبي عينه. ولم يكن مسكن النقيب، في الواقع، سوى مسكن خشبي بسيط.

وضع أليوشا يده على القبضة الحديدية لكي يفتح الباب، وفجأة، ذُهل من الصمت غير العادي الذي يخيّم في الجهة الأخرى. لقد كان يعرف مما قالته له كاترينا إيفانوفنا أنّ للنقيب عائلة. فقال في نفسه: «إنهم نائمون كلهم، أو ربَّما سمعوا أنني هنا، فهم ينتظرون دخولي، فمن الأفضل أن أطرق الباب مرة أخرى». وطرق الباب. فسُمع جواب، ولكن ليس على الفور - إنما بعد نحو عشر ثوانٍ.

- من الطارق؟ صاح أحدهم بصوت جهوري ملؤه الغضب.

ففتح أليوشا، عندئذ، الباب واجتاز العتبة. فوجد نفسه في مسكن خشبي واسع جداً، ولكنه مزدحم بالأشخاص وبكل أنواع بقايا الأمتعة. فعلى اليسار مدفأة روسية كبيرة، ومن المدفأة حتى النافذة اليسرى رُبط حبل عُلِّقت عليه أنواع من الملابس الداخلية. وعلى طول الجدارين الجانبيين، من اليمين ومن اليسار، وُضع سريران فوق كلٍّ منهما غطاء من نسيج التريكو. أما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام من النوع الهندي، بعضها أصغر من البعض الآخر. وعلى السرير الآخر، إلى الجهة اليمنى، فليس عليه إلا وسادة واحدة صغيرة. وفي زاوية ضيقة تفصلها عن الغرفة ستارة، أو قطعة قماش، مشدودة بحبل أيضاً قد جُهزت زاوية لسرير ثالث. وخلف الستارة يوجد سرير مرتَّب على بنك وكرسيّ. وتحت النافذة الوسطى طاولة فلاحية مربّعة وبسيطة. والنوافذ الثلاث، تتألف كل واحدة منها من مربعات صغيرة خضراء تغطّيها العفونة، ولقد كانت مغلقة على كل حال، فالغرفة معتمة، بسبب ذلك، يشعر فيها المرء بالاختناق. وعلى الطاولة قدر ذات مقبض وصحفة فيها بقايا بيض، وقطعة خبز ناقصة وزجاجة خمر تكاد تكون فارغة. وقرب السرير الأيسر تجلس امرأة لها شيء من مظهر سيدة، ترتدي ثوباً من قماش هندي. كانت ناحلة الوجه جداً، لها خدان خاسفان جداً ينبئان، للوهلة الأولى، بحالتها المرضية. وقد فوجىء أليوشا خاصة بنظرة السيدة وهي نظرة تنمّ عن تساؤل وغطرسة في آن. وبينما كان أليوشا يتحدث مع سيد المنزل، لم تفتح السيدة فمها، لم تكفّ لحظة عن أن تتابع بعينيها الرماديتين المتكبرتين والمتسائلتين، الرجلين كليهما اللذين يتحدثان. وبالقرب من هذه السيدة، عند النافذة اليسرى تقف فتاة شابة دميمة الوجـه، شعرها أصهب وخفيف، ترتدي ثياباً فقيرة ولكنها محتشمة جـداً، كانت تنظر إلى أليوشا باحتقار. وعلى اليمين، قرب السرير أيضاً، كانت تجلس امرأة أخرى هي مخلوقة بائسة، فتاة في العشرين من عمرها، حدباء الظهر مشلولة الساقين. كما شُرح ذلك لأليوشا فيما بعد. وتُرى عكازتاها في الزاوية بين السرير والحائط. عيناها رائعتان ملؤهما الطيبة وهي تلقي على أليوشا نظرة هادئة متواضعة. وهذا رجل في نحو الخامسة والأربعين قد جلس إلى الطاولة ينتهي من أكل بيضة مقلية، نحيل الجسم، ضعيف البنية، متوسط القامة، أصهب اللون، ولحيته الصهباء أيضاً شبيهة بليفة عتيقة. (إن هذا الشبه بين اللحية و«ليفة مصفرَّة» قد خطفا بصر أليوشا فوراً دون أن يعرف لماذا؛ كما تذكر أليوشا ذلك فيما بعد). ومن الواضح أنَّه ذلك الرجل الذي صاح من الجهة الأخرى للباب: «من هنا»؟ ذلك أنه لم يكن في الغرفة رجل آخر. وعندما دخل أليوشا نهض عن الطاولة بحركة مفاجئة وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقَّبة، تقدَّم نحو أليوشا مسرعاً.

- هذا راهب يجمع الصدقات لديره. لقد عرف إلى أين يأتي! قالت الفتاة الواقفة في الزاوية اليسرى بصوت عالٍ. ولكن الرجل الذي اقترب من أليوشا استدار نحوها بسرعة وأجابها بصوت قلق و«محوزق»:

- لا، يا فارفارا نيكولايفنا، ليس هذا هو الأمر. لقد أخطأتِ! ثم تابع كلامه ملتفتاً إلى أليوشا مجدداً: اسمح لي أن أسألك ما الذي دفعك إلى زيارة... هؤلاء البؤساء؟

نظر إليه أليوشا بانتباه. إنها المرة الأولى التي يرى فيها هذا الرجل. إنَّ في مظهره وقاحة قصوى وفي الوقت نفسه جبناً شديداً. إنه يشبه إنساناً اضطر زمناً طويلاً إلى احتمال الذل والخضوع، ولكنه يهبّ الآن فجأة ليؤكد ذاته من جديد. أو الأحرى إنه رجل يشعر برغبة رهيبة في أن يضربك ولكنه يخاف من أن يُضرب هو نفسه. إن المرء يسمع في كلامه وفي نبرات صوته الحادة، نوعاً من سخرية ساذج من القرية تارة شريرة وتارة وجلة، فهو غير قادر على أن يجريها على نمط واحد حتى لتنهار في بعض اللحظات. لقد ألقى سؤاله عن «البؤساء» وهو يرتجف بكل جسده، محملقاً عينيه، قافزاً باتجاه أليوشا الذي تراجع خطوة إلى الوراء بشكل آليّ. كان الرجل يرتدي سترة قطنية قاتمة اللون، مرقَّعة في مواضع كثيرة ومليئة بالبقع. أما سرواله فهو فاتح اللون جداً، عليه أشكال مربعة، من نوع لا يرتديه أحد منذ زمن طويل، ومن نسيج رقيق، قد تجعَّد أدناه فكأنّ صاحبه صبيّ طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال قصيراً عليه.

- أنا... ألكسي كارامازوف... أجاب أليوشا.

- لي شرف معرفتك. أجاب الرجل ليبرهن على أنه لا يجهل شخصية الزائر. أنا أيضاً النقيب سنيغيريوف. ولكن هل لي أن أعرف ما الذي جاء بك على وجه التحديد...

- إنني أمرّ من هنا فقط. كل ما أردته هو أن أقول لك بضع كلمات باسمي شخصياً إذا كنت لا تمانع في ذلك...

- إذن، إليك هذا الكرسيّ! تفضّل فاجلس. أليس هذا ما يقال في المسرحيات الكوميدية القديمة «تفضَّل فاجلس»... وتناول النقيب كرسياً بحركة عنيفة (كرسيّ فلّاحي من الخشب الخام بسيط جداً) فوضعه في منتصف الغرفة تقريباً، ثم تناول كرسيّاً آخر مشابهاً فجلس عليه أمام أليوشا مستمراً في النظر إليه بحدَّة وقريباً منه بحيث تلامست ركبهما.

- إسمي نيكولاي سنيغيريوف، نقيب سابق في سلاح المشاة في الجيش الروسي. وسأظلّ نقيباً رغم عيوبي ورذائلي. أريد، بالأحرى، القول: النقيب لابيبين وليس سنيغيريوف لأنني في الشطر الثاني من حياتي بدأت بالإدمان، وتلك عادة ناشئة عن الانحطاط.

- هذا صحيح! قال أليوشا مبتسماً. ولكن، هل ذلك هو سبب أم نتيجة؟

- يشهد الله عليَّ أنها نتيجة. لقد صمدت طوال حياتي وفجأة سقطت ثم نهضت. وذلك بتأثير إرادة عليا. أراك تهتم بمسائل الحياة الحديثة، فهل لي أن أعرف السبب الذي جعلني أستحق شرف زيارتك؟ إنني أعيش هنا في ظروف لا تؤهلني للقيام بواجبات الضيافة.

- لقد جئت... لهذا الغرض...

- لهذا الغرض؟ قاطعه النقيب فاقداً صبره.

- في موضوع لقائك ذاك بأخي ديمتري فيودوروفتش. أجاب أليوشا برعونة.

- عن أيّ لقاء تكلمني؟ ذلك اللقاء، لا؟ هو إذن موضوع الليفة ليفة الحمام؟

قال ذلك وازداد اقتراباً من أليوشا حتى صدم في هذه المرة ركبتيه، وكانت شفتاه مزمومتين بشكل غير عادي.

- أي ليفة؟ تمتم أليوشا.

فصاح من وراء ستارة الزاوية صوت عرف أليوشا فوراً أنه صوت الصبي الذي لقيه منذ قليل.

- بابا، لقد جاء يشكوني أنا. صاح صوت الصبي يقول، أنا الذي عضضت إصبعه!

وانزاحت الستارة بعنف، فلمح أليوشا خصمه الصغير في الزاوية تحت الإيقونات، مستلقياً على فراش صغير موضوع على بنك وكرسيّ. كان الصبيّ نائماً مغطى بمعطفه الرث وبلحاف صغير قطني؛ كان واضحاً أنه مريض. وإذا صدق ما يدل عليه بريق عينيه فلا بدَّ أن تكون به حمَّى. إنه ينظر إلى أليوشا بدون خوف، لا كما في المرة الأولى، كأنه يريد أن يقول: «أنا الآن في بيتي، في بيتي، فحاول أن تصنع بي أيّ شيء».

- كيف عضّ إصبعك؟ سأل النقيب وهو يقفز عن كرسيّه. هل أنت من عضَّك في إصبعك؟

- نعم. أنا. منذ قليل، كان يتبادل في الشارع التراشق بالحجارة مع بعض الصبية. كانوا ستة وكان وحده. فاقتربت منه فضربني بحجر، أنا أيضاً. ثم رماني بحجر آخر مستهدفاً رأسي، فلما سألته ماذا فعلت له، انقضّ عليّ فجأة فعضَّني في إصبعي، لست أدري لماذا.

- سوف أجلده فوراً! سوف أجلده الآن! صاح النقيب وهو يقفز عن كرسيّه.

- لكنني لم أجئ لأشكوه أبداً. إنني أخبرك فقط... لا أريد أن تجلده أبداً. وأعتقد أنه مريض الآن...

- وهل صدَّقت أنني سأجلده؟ أصدَّقت أنني سأجلد عزيزي أليوشا، هكذا، فوراً، إرضاءً لك، وهل أنت تحرص على هذا إذن؟ تمتم النقيب ملتفتاً فجأة إلى أليوشا وقد لاح على وجهه التهديد كأنه يستعد أن ينقضّ عليه.

- آسف، يا سيدي ما أصاب إصبعك. ولكني أؤثر على ضرب أليوشا، إذا شئت، أن أبتر الآن أمام عينيك أربعاً من أصابعي بهذا السكين، إرضاءً لك، هل ترى هذا السكين؟ سأبترها به. أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعي كافياً لإرواء ظمأك إلى الانتقام، وأن تسمح لي بالإبقاء على الإصبع الخامسة...

وتوقف فجأة كأنه يختنق وكانت كل عضلة في وجهه ترتعش، وكانت نظرته تفيض تحدياً، لقد أصبح كأنه في حالة غير طبيعية.

- أعتقد أنني فهمت كل شيء الآن. أجاب أليوشا بصوت حزين ورصين دون أن يتحرك عن كرسيّه. إذن، ابنك صبي لطيف يحب أباه، وقد انقض عليَّ لأنني أخو الرجل الذي أساء إليك... فهمت الآن (ردَّد وهو يفكر). ولكن أخي ديمتري فيودوروفتش ندم على فعلته.

أعرف ذلك... فإذا سمحت له أن يأتي إلى هنا أو حتى أن يلقاك في المكان نفسه فسيكون مستعداً لأن يعتذر إليك أمام جميع الناس... إذا رغبت في ذلك.

- يعني أنه ينتف لحيتي ثم يعتذر مني... وينتهي كل شيء هكذا، أليس كذلك؟

- لا، بالعكس، إنه سيفعل ما تطلبه منه وكما تريد!

- هذا يعني إذا طلبت من «سموّه» أن يركع أمامي في تلك الخمارة نفسها - التي تسمَّى «العاصمة الكبرى» - أو حتى في الساحة العامة، فإنه يلبي طلبي، أليس كذلك؟

- نعم، يركع.

- كلامك يخترق قلبي حتى يكاد يفجر الدموع من عينيَّ! إنني أقدّر هذا الكلام، فاسمح لي أن أقدّم إليك أفراد عائلتي بكاملها: هذه عائلتي: بنتاي وابني... هذه ذريتي إذا جاز القول. فإذا متُّ أنا، فمن الذي سيحبّهم؟ ومن الذي يمكن أن يحبني أنا الرديء، من الذي يمكن أن يحبني؟ إن الله قد شاءت رحمته أن يكون لأمثالي عزاء كهذا. ذاك أنه لا بدَّ لرجل من نوعي أن يجد أحداً يحبه...

- إنها الحقيقة بعينها. أجاب أليوشا.

- كفى تمثيل دور المهرّج، أيكفي أن يظهر معتوه ما حتى تتصرفوا بشكل مخجل! صاحت الفتاة الواقفة قرب النافذة موجّهة كلامها إلى أبيها معبِّرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز.

- مهلاً، يا فارفارا نيكولايفنا، تذرَّعي بشيء من الصبر... دعيني أكمل ما أريد أن أقول. صاح أبوها بلهجة آمرة وهو ينظر إليها برضى. إنّ لها طبعاً صعباً، أليس كذلك؟ أضاف متوجهاً إلى أليوشا.

والطبيعة كلُّها

يرفض أن يباركها[22]

يعني أن هذا نسائي. هي ترفض أن يباركها. لكن اسمح لي أن أقدِّمك إلى زوجتي: أرينا بتروفنا، سيدة بدون ساقين، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً، الساقان، إنها تمشي ولكن ليس كثيراً؛ إنها من أصل وضيع جداً. يا أرينا بتروفنا، ابسطي أسارير وجهك: هذا ألكسي فيودوروفتش كارامازوف. وأنت يا ألكسي فيودوروفتش، اِنهض - وأمسك بذراعه بقوة لا يُتوقَّع مثلها منه، وأنهضه فجأة - إنني أقدّمك إلى سيدة، فعليك أن تنهض. اسمعي يا عزيزتي، هذا ليس كارامازوف نفسه الذي... الذي... هذا أخوه. شاب يشع فضائل وتواضعاً. إسمحي لي يا أرينا بتروفنا، اسمحي لي يا امرأتي، اسمحي لي أن أقبّل يدك أولاً.

وباحترام وحنان، قبّل يد زوجته. فأدارت الفتاة الواقفة قرب النافذة ظهرها وأشاحت بوجهها حتى لا ترى بعد ذلك شيئاً، إلا أن وجه الزوجة الذي كان يعبّر عن استعلاء وتساؤل، أصبح عذباً جداً.

وقالت:

- نهارك سعيد، تفضّل فاجلس يا سيّد تشرنومازوف!

- كارامازوف، يا حبيبتي، كارامازوف (إنها من أصل وضيع، أليس كذلك). وشوش

مجدداً.

- حسناً، كارامازوف، أو كما يريد. بالنسبة إلي فهو تشرنومازوف[23]. تفضّل فاجلس يا سيدي، لماذا أنهضك؟ فلأنني مقعدة كما قال لك. صحيح أنَّ لي ساقين، ولكنهما منتفختان مثل قادوسين أما بقية جسمي فهي منحلة. كنت سابقاً بدينةً جداً وها أنا الآن نحيلة مثل إبرة...

- إنها من الشعب البسيط، من الشعب البسيط. قال النقيب مرة أخرى.

- بابا، آه، بابا. صاحت فجأة الفتاة الحدباء التي كانت إلى ذلك الحين صامتة على كرسيّها وخبأت وجهها بمنديلها.

- مهرِّج! قالت الفتاة الواقفة قرب النافذة.

- أنظر ماذا لدينا. قالت الأم وهي تفتح ذراعيها مشيرة إلى ابنتيها. مثل غيوم تنسحب. وتمرّ الغيوم. وستعود فجأة الموسيقى. في ما مضى، عندما كنا في الجيش، كنا نستقبل غالب الأحيان زيارات كهذه. أنا لا أقصد أن أجرح شعورك بهذا التشبيه، يا سيدي الطيب، عندما تحبّ شخصاً فهذا الشخص تحبّه. وفي ذات يوم جاءت زوجة الشماس فقالت لي: «ألكسندر ألكسندروفتش رجل ممتاز. وناستازيا قالت لي إن بتروفنا هي وغد من الجحيم»! فأجبتها: «لكل امرىء أذواقه الخاصة. وما أنت سوى كرة صغيرة ولكنك كرة عفنة». قالت: «سنعرف كيف نؤدبك». فأجبتها: «يا جمرة من الجحيم! من سمح لك بالمجيء لتلقي دروساً؟». فقالت لي عندئذ: «أنا أجيئكم بهواء نقي، وأنت تجيئني بهواء موبوء». فأجبتها: «اذهبي واسألي أولئك الضباط إذا كان هوائي نقياً أو كيف؟ ومنذ ذلك الوقت بقي هذا في قلبي ولم يبارحه». وهكذا حدث لي منذ قليل، أن رأيت وأنا جالسة هنا، ذلك الجنرال نفسه الذي جاء يزورنا في أسبوع الآلام». فقلت له: «يا صاحب السعادة، هل تستطيع امرأة نبيلة أن تدخل هواءً نقياً؟ فأجاب: «هذا صحيح، ليس الهواء هنا نقياً. يجب فتح الباب أو النافذة... ماذا دهاهم جميعاً! لماذا يكرهون هوائي؟ إن الأموات ينشرون رائحة كريهة أكثر مني. قلت: «لن أفسد الهواء الذي تستنشقه، سأشتري لنفسي حذاءين ثم أمضي، ما دام الأمر كذلك». يا إلهي، يا أولادي الصغار، لا تدينوا أمكم! يا نيكولا إيلتش، يا حبيبي، هل فعلت شيئاً لا يرضيك؟ لم يبق لي إلا أليوشا، فهو يحبني، عندما يعود من المدرسة، يلاطفني. جاءني يوم أمس بتفاحة. سامحوني، يا صغاري الأحباء، سامحوا أمّكم يا أولادي، أشفقوا على أمّكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة. لماذا هوائي يزعجكم إلى هذا الحدّ!

وانفجرت المرأة التعيسة بالبكاء وانهمرت دموعها كالسيل. فأسرع إليها النقيب.

- عزيزتي، عزيزتي، حبيبتي اللطيفة، هدئي روعك، هدئي روعك! أنت لست وحيدة. الجميع يحبونك. الجميع يعبدونك! وراح يقبّل يديها ويدغدغ خدَّيها في حنان. ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذي بللته الدموع. وتراءت لأليوشا هو أيضاً أنَّ دموعاً تلمع في عينيه. هل رأيت؟ هل سمعت؟ واستدار فجأة نحوه وكأنه في جنون مشيراً بيده إلى المجنونة المسكينة.

- رأيت وسمعت. دمدم أليوشا.

- بابا، بابا، هل ستقيم الآن صلةً بهذا... قل له أن ينصرف! صرخ الصبي وقد نهض عن سريره نصف نهوض وراح يحدّق في أبيه بعينيه الملتهبتين.

وصاحت فارفارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة وقد استبدَّ بها، في هذه المرة،

غضب شديد فضربت الأرض بقدمها.

- دعك من تمثيل دور المهرّج، لتظهر أدوارك البلهاء التي لا تؤدي إلى شيء أبداً... فقال الأب.

- أنت من حقك أن تغضبي، في هذه المرة، يا فارفارا نيكولايفنا، وسألبّي طلبك بسرعة. يا ألكسي فيودوروفتش، تناول قبعتك، وسأتناول أنا قبعتي وسنخرج. أريد أن أتحدث معك جاداً، ولكن لا أستطيع ذلك بين هذه الجدران. إن هذه الفتاة القاعدة هناك هي ابنتي نينا نيكولايفنا التي نسيت أن أقدّمها إليك. إنها ملاك تجسَّد... ملاك نزل من السماء... هل بإمكانك أن تفهم هذا الكلام؟

- ها هو يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزّته بعنف. قالت فارفارا نيكولايفنا بعنف.

- أما هذه التي ضربت الأرض بقدمها ونعتتني بأنني مهرّج فهي أيضاً ملاك تجسَّد من عند الله، وهي على حق إذ تعاملني على هذا النحو. تعال إذن، يا ألكسي فيودوروفتش، يجب أن ننتهي من هذا الأمر...

وأمسك ذراع أليوشا، وأخرجه من الغرفة مباشرة إلى الشارع.

VII

وفي الهواء الطلق

الهواء، إنه الهواء الطلق، عندي، في قصوري، يكاد المرء يختنق، بكل معنى هذه الكلمة. هيّا، سيدي، فلنقم بنزهة قصيرة. أودّ أن لا تضجر هنا.

- أنا أيضاً لدي مسألة خاصة بك... قال أليوشا. ولكنني لا أعرف كيف أبدأ.

- كيف لا تعرف ذلك، لا تعرف أنّ لديك شيئاً، ولولا ذلك لما وطأت قدماك منزلي. أم أنك جئت تشكو إليّ ابني الشقي؟ ولكن هذا مستبعد. على ذكر الصبي؛ هناك، لم يكن بوسعي أن أشرح لك كل شيء، ولكن، هنا، الآن، فسأشرح لك الأمر. منذ أسبوع، كانت الليفة أكثف مما هي الآن - أعني لحيتي... أولئك التلامذة، بشكل خاص، هم الذين سمُّوا لحيتي ليفة. فمنذ أسبوع أمسك أخوك ديمتري فيودوروفتش لحيتي هذه وأخرجني من الخمارة وجرَّني إلى الساحة العامة. وكان التلامذة في تلك اللحظة عينها عائدين من المدرسة. وكان أليوشا بينهم. فعندما رآني في تلك الحالة ارتمى عليَّ صارخاً: «بابا، بابا!» وأمسكني بذراعيه وتشبَّث بي يريد أن يحررني مناشداً المعتدي بقوله: «دعه، دعه! هذا أبي، هذا أبي سامحه»! هكذا صرخ: «سامحه». وأمسك أيضاً ذراع أخيك، وقبَّل يده. ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبيّ في تلك اللحظة. لم أنسه ولن أنساه أبداً...

- أقسم لك. قال أليوشا. إن أخي سيعبِّر لك عن ندمه أصدق تعبير، ولو اضطر أن يركع أمامك في تلك الساحة العامة عينها... سأرغمه وإلا فلن يكون أخي!

- آه، آه، لا يزال الاعتذار مشروع اعتذار؟ وهذا ليس صادراً عنه مباشرة بل عن قلبك النبيل والحارّ. كان بإمكانك أن تذكر لي هذا، أليس كذلك؟ أما في هذه الحالة، فاسمح لي أن أصف لك نبل الضابط الذي أبداه أخوك في ذلك الظرف. فبعد أن جرَّني من ليفتي، تركني وقال لي: «أنت ضابط، وأنا أيضاً ضابط، فإذا استطعت أن تعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهداً فأرسله إليَّ - سوف أعطيك فرصة رغم أنك حقير». هذا ما قاله أخوك صاحب الروح الفروسية! انصرفت، بعد ذلك، مع ابني أليوشا، ولكن هذا المشهد العائلي، في ذلك اليوم، قد حُفر في ذاكرة الصبيّ إلى الأبد. كيف يمكن، بعد الآن، أن نستطيع المحافظة على مركزنا كأناس نبلاء؟ فاحكم أنت في الأمر بنفسك على كل حال، ما دمت قد رأيت قصورنا! لقد رأيت مسكننا، أليس كذلك؟ ثلاث سيدات، إحداهن بدون ساقين ومجنونة، والثانية مقعدة وحدباء، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يتحمله ظرفنا من ذكاء. إنها طالبة وتحلم بالعودة إلى بطرسبرغ لتدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا. ولن أقول شيئاً عن أليوشا. فهو لم يتجاوز التاسعة من عمره، وهو وحيد في هذا العالم. فإذا متُّ أنا - فما الذي سيحدث لهم جميعاً؟ إنني أطرح عليك هذا السؤال. إذا دعوت أخاك إلى المبارزة، فقتلني، فما هو الوضع الذي سيصيرون إليه؟ من الذي سيعتني بهم وسيهتمّ بأمرهم؟ والأنكى من ذلك أنه لن يقتلني بل سيصيبني بعاهة تقعدني: لن أستطيع بعدئذ أن أعمل، بل أصبح فماً لا فائدة منه، أصبح عالة عليهم. من الذي سيطعمني وسيطعمهم عندئذ؟ وقد أضطر أن أُخرج أليوشا من المدرسة وأن أرسله إلى

الشوارع كل يوم يستعطي الصدقات. ذلك ما يمكن أن تجرّه عليّ مبارزة من عواقب، إنها كلمة سخيفة، لا أكثر.

- سيطلب منك أن تسامحه، سيركع أمامك في وسط الساحة العامة. صاح أليوشا مجدداً وقد التهبت نظرته.

- أردت أن أشكوه إلى القضاء. تابع النقيب. ولكن، يكفي أن نرجع إلى نصوص القوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تعوض لي عن الاهانة الشخصية. زد على ذلك، أن أغرافينا ألكسندروفنا قد استدعتني وصرخت غاضبةً: «حاول أن تقدّم شكوى إلى القضاء، فسأكشف للقضاء اختلاساتك، وأبرهن على أنه ضربك معاقبة لك، وستكون أنت الملاحق يومذاك!» والله يعلم، هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بإرادتي أم أنني أُمرت بها فكنت أداة لا أكثر! أنا لم أفعل إلا بإرادة منها، وبأوامر من فيودور بافلوفتش؟ زد على ذلك، أنها أضافت تقول لي: «سأطردك من خدمتي نهائياً، فلن تجني مني، بعد ذلك، فلساً واحداً. وسأقول كلمة لصاحبي التاجر (بهذا الاسم تسمّي عجوزها: صاحبي التاجر)، فيطردك هو أيضاً». فتساءلت حينذاك: «إذا استغنى التاجر عن خدماتي؟ ما عساني أفعل، بعد ذلك، لكي أكسب رزقي؟ لأنه لم يكن قد بقي لي سوى هذين الاثنين بعد أن أصبح أبوك لا يثق بي لسببٍ آخر. حتى إنّ أباك يفكّر في جرّي إلى المحاكم مستنداً إلى الايصالات التي وقعتها بإمضائي. لقد رأيت بنفسك الظروف التي نعيش فيها. ولكن اسمح لي الآن أن أسألك: هل أوجعتك كثيراً عضَّة أليوشا في إصبعك؟ لم أجرؤ أن أطرح عليك هذا السؤال بتفاصيله في قصوري.

- نعم، أوجعتني كثيراً. فقد كان في حالة غضب شديد. لقد ثأر منّي أنا للإساءة التي أُلحقت بك، لأنني واحد من آل كارامازوف. لقد اتضحت المسألة الآن. لكنك لم ترَ كيف اقتتل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة. ذلك خطر جداً. فمن الممكن أن يقتلوه. هؤلاء أطفال لا يفكرون. فالحجارة تتطاير، ويمكن لحجرٍ أن يحطم رأسك.

- أُصيب اليوم بحجر، أليس كذلك، ولكن ليس على الرأس بل على الصدر، في موضع يعلو القلب قليلاً، فوصل إلى المنزل مزرقّاً باكياً وهو يئنّ، وها هو الآن مريض.

- يبدو أنه هو الذي يهاجمهم جميعاً. إنّ غضبه مما أصابك لا يستكين. ويزعم التلامذة أنه جرح الصبيّ كراسوتكين في جنبه بطعنة من سكين...

- لقد قيل لي هذا. نعم، إنه شيء خطر. إن كراسوتكين هذا هو ابن موظف وأخشى أن يجرَّ علينا هذا الحادث وبالاً...

- أنا أنصحك، تابع أليوشا محتدّاً، بأن لا ترسله إلى المدرسة إلى حين، إلى أن يهدأ... إلى أن يزول هذا الغضب الذي يتَّقد في قلبه...

- الغضب! أكمل النقيب. هذا هو الغضب؛ في كائن صغير يكمن غضب كبير جداً. وأنت لم تكن تعرف كل ذلك. فاسمح لي أن أشرح لك الأمر. بعد ذلك الحادث، أخذ جميع تلامذة مدرسته ينعتونه بالليفة. إن الأطفال، في المدرسة هم كائنات بدون شفقة. هم ملائكة الله إذا نظرت إلى كل واحد منهم على حدة، ولكنهم متى اجتمعوا، وخاصة في المدرسة، أصبحوا وحوشاً لا ترحم. راحوا يسخرون منه، فثار طبع أليوشا الصغير النبيل. ربما صبّي عادي، ولد معتوه، كان يستسلم ويشعر بالعار من أبيه، أما هو فقد هبَّ وحيداً ضدّ الجميع يدافع عن أبيه ويدافع عن الحقيقة أيضاً وعن العدالة، لأنه ما من أحد يعرف إلا الله وأنا، كم عانى من ألم حين قبَّل يد أخيك متوسلاً إليه «أن يغفر لأبيه». هم هكذا أطفالنا - أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم، أقصد أطفال الفقراء المهانين، لكنهم نبلاء، أليس كذلك؟ - أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الأرض منذ السنة التاسعة من عمرهم! فالأغنياء كيف

يستطيعون ذلك: فهم طوال حياتهم لن يروا بهذا العمق في يوم من الأيام. في حين أن ابني أليوشا قد غاص إلى عمق الحقيقة، في تلك اللحظة التي قبَّل فيها يد أخيك... لقد نفذت الحقيقة كلها إليه حينذاك، وانحفرت في كيانه مدى حياته كلّها. انتعش النقيب وهو يقول هذا الكلام وألمت به حماسة مفاجئة، حتى أنه ضرب بقبضة يده اليسرى راحة يده اليمنى كأنما ليوضح كيف انغرست «الحقيقة» في نفس أليوشا.

في ذلك النهار نفسه أصابته حمَّى فظلَّ يهذي طوال الليل. ولم يكلّمني إلا قليلاً - خلال النهار فالتزم الصمت. لكنه كان ينظر إليَّ، ينظر إليَّ من زاويته وقد مال على النافذة وتظاهر بأنه يحضِّر فروضه المدرسيّة. لقد أدركت أنه لم يكن يفكر في فروضه في تلك اللحظة. وفي اليوم التالي شربت فأصبحت لا أتذكر شيئاً. وراحت زوجتي عندئذ تبكي - إنني أحبها كثيراً - حسناً. لقد أنفقت آخر فلس أملكه لكي أسكر. لا تحتقرني يا سيدي: إنّ السُكارى في روسيا هم الرجال الأكثر لطفاً، والأكثر لطفاً عندنا هم السكارى. ونمت، ولم أحفل بأليوشا. وفي ذلك اليوم بعينه، أخذ الصبية يعيّرونه صارخين: «يا ليفة! أُخرج أبوك من الخمارة مشدوداً من لحيته، فأخذتَ تركض إلى جانبه تستغفر له!» وفي اليوم الثالث، عندما رجع من المدرسة، لاحظت أنه شاحب اللون، مهشَّم الوجه. فسألته: «ماذا بك؟» فلم يجب. وكان من المستحيل أن نتحدث في الغرفة، فلو تحدَّثنا لتدخَّلت الأم والبنات في الحديث... وكانت بناتي على علم بالحادث منذ أول يوم. كانت فارفارا نيكولايفنا ما تنفك تبدي استياءها: «مهرِّجون! جبناء! ما عسى يُنتظر منكم؟». قلت لها: «يا فارفارا نيكولايفنا، أنت على حق، لسنا بقادرين على شيء غير ارتكاب الحماقات». وبذلك أرحت نفسي منها للمرة الأولى، وفي المساء خرجت أتنزّه مع الصغير. يجب أن أذكر لك أنني كنت قد اعتدت أن أقوم بنزهة مع ابني كل مساء. وكنا نسلك عادة هذا الطريق الذي نسير فيه الآن، أنا وأنت: نخرج من المنزل ونصل إلى تلك الصخرة الكبيرة التي تراها على الطريق، يتيمة قرب السياج حيث تبدأ المراعي. المكان مقفر رائع. مشيت في ذلك اليوم وابني إلى جانبي، يده في يدي. إنّ يده صغيرة جداً، وأصابعه نحيلة وباردة. فهو يشكو من داء في صدره. قال لي فجأة: «بابا، بابا»! فسألته: «ماذا؟» قال: «في ذلك اليوم، حينما شدَّك...»: «ما العمل يا أليوشا؟»، قال: «لا تستسلم يا بابا! لا تستسلم أبداً! إنّ الأولاد في المدرسة يدَّعون أنه أعطاك عشرة روبلات تعويضاً لك». قلت له: «لا، يا أليوشا، لن أقبل منه مالاً في يوم من الأيام!» أخذ الصبيّ يرتجف بكلّ جسمه، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين وراح يقبِّلها. ثم عاد يقول: «بابا، اطلبه إلى المبارزة! فالأطفال يزعمون في المدرسة أنك جبان، وأنك لن تطلبه إلى المبارزة بل ستقبل منه عشرة روبلات». فشرحت له كيف أنني لا أستطيع أن أبارز أخاك، وأطلعته باختصار على الأسباب التي تعرفها، فاستمع إليَّ بانتباه، ثم صاح وقد التهبت نظرته ولمعت: «بابا، لا تستسلم أبداً. سأطلبه أنا إلى المبارزة عندما أكبر، فأقتله!». وأنا، أبوه، على كل حال، فاعتقدت أنّ من واجبي أن أقول له كلمة حق. فقلت: «إنها خطيئة أن يقتل إنسان إنساناً ولو في مبارزة». فصاح حينذاك: «سوف أبارزه حين أكبر، فأُلقيه على الأرض وأنتزع سيفه بضربة من سيفي، ثم أرتمي عليه وأشهر سيفي فوق رأسه وأقول: «أستطيع أن أقتلك فوراً، ولكنني سأعفّ عنك!» فانظر يا سيدي في أيّ شيء قد فكَّر هذا الصبيّ طوال يومين، أنظر إلى الأفكار التي شغلت رأسه الصغير طوال ذينك اليومين! لقد بقي يفكّر خفيةً، ليلاً نهاراً، في هذا الثأر بالسيف، ولا شك أنّ هذيانه في الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر. ولكنه الآن يعود من المدرسة مضروباً. ولم أعلم بشأن مشاجراته هذه مع رفاقه إلا أمس الأول. والآن، لن أرسله إلى المدرسة. لقد خفت عليه عندما عرفت أنه واجه كلّ تلامذة صفّه، وناصبهم العداء، وأنه هو من تحدّاهم أولاً. لقد خرجنا نتنزّه، مرة أخرى، ذات يوم، فإذا به يسألني: «بابا، هل الأغنياء أقوى من غيرهم في هذا العالم؟» فقلت له: «نعم يا أليوشا، إن الرجل الغنيّ هو الأقوى». فقال لي بعد ذلك: «بابا، سأصبح غنياً، ذات يوم، وسأصبح ضابطاً، أنتصر على الأعداء، فيكافئني القيصر بميدالية وأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن... وسكت بعض لحظات، ثم بدأت شفتاه ترتعشان، كما في المرة الأولى، وأضاف:

«أليست هذه المدينة مدينة شريرة؟» قلت له: «نعم يا صغيري أليوشا، ليست هذه المدينة محبَّبة إلى القلب كثيراً»، فقال: «لماذا لا نتركها إلى مدينة سكانها أفضل من سكان هذه المدينة، لماذا لا نغادرها إلى مدينة أخرى لا يعرفنا فيها أحد؟»، فأجبته بأنّ هذه هي نيَّتي، في الواقع، وسوف نغادر هذه المدينة متى كسبت قليلاً من المال. لقد سرَّني أن أصرفه بذلك عن أفكاره السوداء، ورحنا نحلم نحن الاثنين، ونناقش تفاصيل الانتقال إلى مدينة أخرى. قلت له: «سنشتري حصاناً وعربة. نُركب ماما، والأختين على العربة ونغطيهنّ جيداً، ونمشي نحن الاثنين إلى جانبهنّ. وقد أركبك أنت أيضاً من وقت إلى آخر، أما أنا فسوف أمشي على قدميَّ لأنّ علينا أن نراعي الحصان ونداريه وإلَّا ستنهار قواه إذا اضطر أن يجرَّ العائلة كلها. سنرحل عما قريب. بهذا وعدته. تحمس الصبيّ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يقوده وأن يمتطيه هي التي تثير حماسته أكثر من أيّ شيء آخر. إن الصبيّ الروسيّ يولد ومعه حصانه. وقد ثرثرنا مدة طويلة. وقلت لنفسي: «ليتمجّد اسم الله، على أنه استرجع طمأنينته وهدأت نفسه وسُرِّي عنه». حدث هذا في مساء أمس الأول. ولكن كل شيء تغيَّر مساء أمس. ذهب إلى المدرسة صباحاً وعاد قاتم الوجه مكفهرّ الأسارير. وفي المساء، أمسكته بيده لنقوم بنزهة. كان صامتاً، لم يقل شيئاً. الريح تهبّ قليلاً، والسحب تغطي الشمس. إنه قدوم فصل الخريف، وقد هبط الليل. كنا نسير وفي قلب كلٍّ منا حزن دفين. قلت له: «كيف علينا يا بنيّ أن نفكر في الإعداد لسفرنا؟» كنت أفكّر بأن نستأنف حديث الليلة البارحة. شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف في يدي. قلت لنفسي: «حالته سيئة، لا بدَّ أن هناك جديداً». وصلنا إلى تلك الصخرة التي تراها هناك، جلست عليها، على الصخرة. كان، في المساء، كثير من طيارات الورق التي يطلقها الأولاد. إنها تهمهم وتقرقع. رأينا ثلاثين طيارة على الأقل. ذلك هو الفصل الذي تطلق فيه هذه الطيارات الورقية. قلت له: «لقد آن لنا يا أليوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضاً، طيارة العام الماضي. سوف أصلحها. أين خبأتها؟ سكت ابني وأدار لي ظهره ناظراً إلى جانب. وفجأة، هبَّت علينا ريح مزمجرة مثقلة بسحابة من الرمل، فارتمى عليَّ بكل جسمه وطوَّق عنقي بذراعيه الصغيرتين وشدَّني إليه بقوة. أنت تعرف أن هذا النوع من الأطفال الصموتين الفخورين يحاولون أن يحبسوا دموعهم مدة طويلة ولكن حين ينفجر بكاؤهم أخيراً، لأنّ المهم أصبح فوق طاقتهم، فإنّ دموعهم تتدفق كالسيول وكأنها الجداول. ومن هذه السيول الساخنة أغرق وجهي كله فجأة. بدأ ينتحب في تشنُّج، ويرتجف ويشدّ جسمه إليَّ وأنا جالس على الصخرة. ثم صاح: «بابا العزيز اللطيف! ما أشدَّ ما أذلّك!» فبدأت أبكي أنا أيضاً. وتعانقنا وارتجفنا. فقال لي: «بابا، حبيبي بابا!» وكنت أجيبه: «أليوشا، أليوشتشكا!». لم يرنا أحد، وحده الله كان يرانا، وقد ينصفني عندما أموت. أشكر أخاك، يا ألكسي فيودورفتش، لن أجلد ابني لتكون مسروراً!

عندما ختم قصَّته، عاد إلى سخريته، واتخذ هيئة ساذج القرية. أحسَّ أليوشا أنه قد حظي بشيء من ثقته، وأنّ هذا الرجل ما كان له أن «يتحدث» إلى غيره بهذه الطريقة وأن يخبر غيره ما قصَّ عليه. وهذا ما شجَّع أليوشا الذي كان يرتعش متأثراً باكياً.

- آه، كم أتمنَّى أن أصالح ابنك الصغير! قال أليوشا. ليتك تستطيع أن تتدبَّر هذا الأمر...

- حتماً. دمدم النقيب.

- لكن، عليَّ الآن أن أحدثك في شيء آخر، شيء آخر تماماً. استمع. تابع أليوشا يقول: إن أخي ذاك نفسه، ديمتري، قد أهان خطيبته أيضاً، وهي فتاة نبيلة جداً، لا شكَّ أنك سمعت عنها. ولي الحق أن أحدّثك عن الإهانة التي ألحقها بها، بل ذلك واجبي أيضاً، لأنها بعد أن علمت بالإساءة التي نالتك وبعد أن عرفت الوضع الحزين الذي تعيش فيه، كلَّفتني... أن أحمل إليك مساعدة منها... إنّ هذه الفتاة هي التي ترسل إليك المساعدة وليس أخي ديمتري

الذي هجرها من جهة أخرى... والمساعدة ليست مني ولا من ديمتري ولا من شخص آخر، بل منها هي وحدها. إنها تتوسل إليك أن تقبل مساعدتها. ألم يُهِنْكما كليكما شخص واحد بعينه... ثم إنها لم تتذكرك إلا بعد أن أُلحقت بها الإهانة نفسها التي أُلحقت بك (الاهانة نفسها بقوَّتها)، إنها بالتالي مثل أخت تريد أن تساعد أخاها... لقد كلَّفتني، من جهتها، أن أطلب إليك قبول هاتين المائتين من الروبلات كمساعدة من أخت. ولن يعلم أحد بالأمر، ولن تروَّج أقاويل سيئة حول هذا الموضوع... إليك المائتي روبل؛ وأقسم لك، عليك أن تقبلها وإلا... وإلا أعتقد أن كل إنسان يجب أن يكون عدواً لقريبه! ولكنّ الأخوَّة في هذا العالم لا تزال موجودة بعد... إنّ لك نفساً نبيلة... يجب أن تفهم ذلك، يجب!

ومدَّ أليوشا إليه ورقتين نقديتين ملوَّنتين كلّ منهما بمئة روبل. وكان الرجلان أمام الصخرة الكبيرة إلى جانب السياج، ولم يكن أحد في الجوار. بدا أن الورقتين النقديتين قد أحدثتا في نفس النقيب تأثيراً رهيباً: ارتعش وكأنه أُخذ بالمفاجأة، فهو لم يحلم بشيء من هذا أبداً، ولم يكن يتوقع مثل هذه الخاتمة. لم يحلم أنّ أحداً يمكن أن يساعده بمثل هذه المساعدة الهامة. أخذ الورقتين النقديتين وبقي قرابة دقيقة غير قادر على الكلام. لقد طاف في وجهه تعبير جديد كلياً.

- إنها لي، لي أنا، أليس كذلك؟ كل هذا المال؟ مائتا روبل؟ يا يسوع! إنني لم أر مبلغاً كهذا منذ أربع سنوات! يا إلهي! وتقول، مثل أخت... هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح؟

- أقسم لك إنّ كل ما قلته صحيح! هتف أليوشا. فاحمرَّ وجه النقيب.

- اسمع يا سيدي العزيز، اسمع: هل أكون جباناً إذا أنا قبلتها؟ هل أكون جباناً في نظرك؟ يا ألكسي فيودوروفتش، اصغ إليّ حتى النهاية (أضاف بسرعة وهو يتحسَّس أليوشا بكلتا يديه): إنك تشجعني على قبول هذا المال لأنه مرسَل إليَّ من «أخت»، ولكن ألن تشعر نحوي، في قرارة نفسك، باحتقار. سآخذها. ما رأيك؟

- أقسم لك أن لا، لا. أقسم لك بحياتي أن لا! وما من أحد سيعلم بالأمر، لن يعلم به إلا نحن، أنا وأنت وسيدة أخرى هي صديقتها الحميمة...

- سيّدة!... اسمع يا ألكسي فيودوروفتش، اسمعني، يجب أن تسمعني. أشعر في هذه اللحظة أنني بحاجة إلى الإفصاح عن كل شيء. ثم تابع الرجل التعيس الذي بدأت تجتاحه شيئاً فشيئاً حماسة مشوشة تكاد تكون جنونية: إنك لا تستطيع أن تتصور ماذا تعني، بالنسبة إليّ اليوم هاتان المائتا روبل.

كان كأنه فقدَ السيطرة على أفكاره فهو يتكلم بسرعة وقلق وكأنه يخاف أن لا يُسمح له بقول كل شيء: أضف أنّ هذا المبلغ المكتسَب بشرف ترسله إليَّ «أخت» محترمة وقديسة؛ فأنا الآن، أستطيع أن أعالج الأم وابنتي، ملاكي الحدباء، نينوتشكا. لقد زارنا الدكتور هرزنستوب، شهامة منه، تفحصهما كلتيهما، خلال ساعة كاملة، وقال لنا: «إنني لا أفهم من الأمر شيئاً». وذكر أن المياه المعدنية (التي وصفها للأم) قد تفيدها كثيراً ويمكن شراؤها من الصيدلية. ووصف لها أيضاً حمامات للقدمين بأملاح طبية. وثمن المياه المعدنية ثلاثون كوبيكاً ويجب أن تشرب منها ما يقارب الأربعين زجاجة. أخذت الوصفة ووضعتها على الرفّ تحت الإيقونات، ولا تزال تنتظر هناك. كما وصف أيضاً لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل، كل يوم، مرة في الصباح ومرة في المساء. فكيف يكون بإمكانها أن تتبع هذا العلاج في «قصورنا»، من دون خادمة، من دون أحد يساعدها، وليس عندنا لا حوض ولا ماء؟ ونينوتشكا تشكو من الروماتيزم - لم أقل لك هذا من قبل - وهي تشعر في كل الليالي بألم شديد في كل الجانب الأيمن من جسمها. ولكن هل تصدّق؟ إن هذه الملاك من

عند الله تصارع عذابها لكي لا تقلقنا، وتُمسك عن الأنين لكي لا توقظنا من نومنا. نحن نأكل، كيفما تيسَّر، مما هو موجود، وهي تختار لنفسها آخر قطعة من الطعام، تلك التي تُرمى إلى الكلب. وتقول: «أنا لا أستحق حتى هذا، أنا أحرمكم منه، وأنا عبء عليكم». هذا ما يريد قوله نظرها الملائكي. ونحن نساعدها فيؤلمها ذلك، وكأنها تقول لنفسها: «أنا لا أستحق هذا، أنا لا أستحق هذا! أنا لست سوى مقعدة غير جديرة بالاهتمام ولا فائدة منها». تقول إنها لا تستحق ذلك، مع أنها هي التي تفتدينا بصلواتها عند الله! إنّ الحياة في منزلنا تصبح جحيماً بدونها، وبدون الكلمات المتواضعة الرقيقة التي تتقن كيفية قولها! لقد تمكنت أن تهدّىء حتى فاريا. وإياك أن تظلم فارفارا نيكولايفنا فهي أيضاً ملاك، وهي أيضاً ضحية. لقد أتت لزيارتنا، في هذا الصيف وفي جيبها كلّ ما تملك، ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من إعطاء دروس خاصة، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجرة سفرها حين عودتها إلى بطرسبرغ، في شهر أيلول، أي الآن، نحن، أخذنا هذا المال، مالها، وأنفقناه في سدّ جوعنا. والآن ليس لديها مال لكي تعود إلى بطرسبرغ، ثم إنها لا تستطيع أن تسافر لأنها تعمل في خدمتنا كأنها سجينة، مثل فرسٍ هرمة. وهي التي تعتني بالجميع، وتصلح، وترقع، وتغسل، وتنظف الأرض، وتضع الأمّ في سريرها، والأمّ لها نزوات، تبكي بدون سبب، فهي مجنونة!... والآن، سأستطيع بهذه الروبلات المئتين أن أستخدم خادمة... هل تفهم يا ألكسي فيودوروفتش؟ سأتمكن من معالجة مخلوقاتي الأعزاء، وأستطيع أن أرسل الطالبة إلى بطرسبرغ، وسوف أشتري لحماً فأحسِّن طعامنا الجديد. يا إلهي! إنه حلم!

كان أليوشا في منتهى السعادة لأنه وفَّرها لرجل مسكين.

- انتظر يا ألكسي فيودوروفتش، انتظر! أضاف النقيب ولاحت له رؤية جديدة ألهبت في نفسه حماسة جديدة، فتابع كلامه بسرعة محمومة. هل تعرف أنني، أنا وأليوشا، الآن، نستطيع أن نحقق أمنيتنا: نشتري حصاناً صغيراً وعربة. وسيكون الحصان أسود. يصرّ أليوشا على حصان أسود. وسنسافر، كما وصفت له سفرنا أمس الأول. إنني أعرف في مقاطعة «ك» محامياً. وقد علمت من شخص موثوق به أن صديقي هذا سيجعلني سكرتيراً في مكتبه. من يدري، قد يستخدمني فعلاً... سأقعد الأم إذن على العربة، وسأقعد عليها نينوتشكا أيضاً، ثم يمسك أليوشا بزمام الحصان فيجرّه، وأسير أنا على قدميّ إلى جانب العربة. وهكذا، نرحل جميعاً... يا إلهي! ليتني أستطيع أن أسترجع ذلك المبلغ الصغير الضائع، إذاً لأصبح معي من المال ما يكفيني لهذه الرحلة!

- سيكفيك، سيكفي! هتف أليوشا. سوف ترسل إليك كاترينا إيفانوفنا كل ما تحتاج إليه من المال. وأنا أيضاً عندي بعض المال. ستأخذ مني ما أنت في حاجة إليه كما يأخذ أخ من أخيه، من صديقه، وستردّه فيما بعد (ستصبح غنياً، ستصبح غنياً). صدّقني إن فكرة السفر إلى مقاطعة أخرى هي خير فكرة يمكن تصوُّرها. إنّ فيها خلاصك وخلاص ابنك الصغير خاصة. وأؤكد لك أنّ الاسراع أفضل شيء، سافر قبل حلول فصل الشتاء، سافر قبل اشتداد البرد. واكتب إلينا من هناك، وسنبقى إخوة... لا، ليس هذا حلماً!

أراد أليوشا أن يقبّله وهو في غمرة الفرح هذه. ولكن، عندما نظر إليه، توقَّف فجأة: مدَّ الرجل عنقه، وتراخت شفتاه، واصفرَّ لونه كأنما هو يهمس بطرف شفتيه أو يحاول أن يتكلم، ولم يخرج من فمه أيّ صوت، وبقي يهمس بطرف شفتيه. كان ذلك منظراً غريباً.

- ماذا حلَّ بك؟ سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدري لماذا.

- ألكسي فيودوروفتش... إنني... أنا... تمتم النقيب بصوت متقطع محدقاً في أليوشا بنظرة غريبة ووحشية وقد بدا كإنسان يهمّ أن يهوي من أعلى جبل بينما شفتاه تصطنعان ابتسامة.

- أنا... وأنت... هل تريد أن أريك براعة صغيرة من السحر! قال فجأة بهمس سريع ولكن بلهجة جازمة بدون أيّ تقطّع.

- براعة من السحر؟

- نعم براعة من نوع براعة الحواة! تابع النقيب هامساً وقد مال فمه إلى الجهة اليسرى وعينه اليسرى ترفّ وهو يحدّق إلى أليوشا دائماً وكأنه التصق به.

- ولكن، ماذا بك، أيّ براعة؟

- أنظر... أنظر. قال النقيب فجأة بصوت حاد. ثم أراه الورقتين النقديتين للمائتي روبل اللتين بقيتا طوال الحديث يمسكهما مشدودتين بين السبابة والإبهام من يده اليمنى ثم قبض عليهما فجأة وراح يدعكهما في راحة يده اليسرى بغضب حتى سحقهما.

- هل رأيت؟ هل رأيت؟ صرخ قائلاً لأليوشا وهو مصفرّ الوجه مهتاج. وفجأة رفع قبضة يده نحو السماء ورمى الورقتين المسحوقتين بكل قواه على الرمل.

- لقد رأيت؟ قال وهو يشير إليهما بإصبعه. ثم رفع قدمه اليمنى وراح يدوسهما بكعب قدمه بحنق مسعور وهو يصرخ لاهثاً بعد كل ضربة قدم.

- هذا هو مالك! أنظر إلى مالك! أنظر إلى مالك!

وفجأة قفز إلى الوراء، وانتصب أمام أليوشا. كان وجهه يعبر عندئذ عن شهامة لا تقهر.

- قل للذين أرسلوك إن ليفة الحمام لا تبيع شرفها! صاح وهو يمدّ ذراعه باتجاه السماء.

واستدار فجأة، ومضى راكضاً. وبعد أن اجتاز خمس خطوات التفت مجدداً نحو أليوشا وحرَّك يده بتحيَّة عسكرية. ثم بعد خمس خطوات أخرى استدار ملتفتاً نحو أليوشا مرة أخيرة. كانت الابتسامة الساخرة التي تشوِّه وجهه قد اختفت وحلَّت محلّها دموع. وبسرعة وبصوت مختلج، وهو ينتحب لاهثاً، صاح يسأل أليوشا.

ماذا سأقول لابني لو قبلت مالكم ثمناً لعارنا؟ ثم انصرف راكضاً دون أن يلتفت وراءه هذه المرة. وكان أليوشا ينظر إليه بحزن يعجز عنه الوصف، وأدرك أن النقيب لم يكن قد خطر بباله، حتى في آخر لحظة، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وسيرميهما. ها هو يركض الآن ولن يرجع. وكان أليوشا يعرف أنه لن يرجع. ورفض أن يركض وراءه ويناديه، كان يعرف لماذا. وعندما اختفى الرجل عن نظره، تناول أليوشا الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غارقتين في الرمل، ولكن دون أن يصيبهما أيّ تمزق، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان. ثم طواهما ودسَّهما في جيبه وذهب إلى كاترينا إيفانوفنا ليبلغها نجاح مهمته التي عهدت بها إليه.

الكتاب الخامس

أصدقاء وأعداء

I

الخطبة

كانت السيدة خوخلاكوفا هي أول من استقبل أليوشا مجدداً. كانت تركض؛ لقد حدث شيء خطير: إن نوبة الأعصاب التي أصابت كاترينا إيفانوفنا قد انتهت إلى إغماء تلاه ضعف رهيب ومخيف. فنامت وأدارت عينيها، وبدأت تهذي. وارتفعت حرارتها، واستدعي هرزنستوب والخالتان. وصلت الخالتان، ولكن هرزنستوب لم يأت بعد. الجميع موجودون في غرفتها. ينتظرون. ماذا سيحدث الآن؟ وهي في غيبوبة. «فماذا لو كانت حمًّى شديدة!

ألم ذعر شديد بالسيدة خوخلاكوفا التي كانت تردد بعد كل كلمة تقولها: هذه المرة، خطير، وخطير جداً». كما لو أنّ ما كان يحدث لها في السابق لم يكن جدياً. تركها أليوشا تتكلم بمرارة. أراد أن يروي لها مغامراته هو، ولكنها كانت تقاطعه بعد أول كلمة: لم يكن لديها الوقت للاستماع إليه. طلبت منه أن يبقى قليلاً مع ليزا، وينتظرها عندها.

- إنّ ليزا، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش. قالت له بما يشبه الهمس في أذنه، بدأت تدهشني إلى حدّ كبير، ولقد أثرت بي كثيراً، لذلك، فإن قلبي يسامحها على كل ما فعلت. تصوَّر، ما إن خرجت أنت حتى راحت تندم بصدق لأنها سخرت منك عياناً، يوم أمس واليوم. لكنها لم تكن تسخر بل كانت تمزح فقط. وقد بلغت من الأسف العميق أنها بكت، وهذا ما أدهشني. لم تندم أبداً عندما كانت تسخر منّي كانت تمزح دائماً. وأنت تعلم جيداً أنها لم تتوقف عن السخرية مني. أما الآن فالأمر خطير. الآن، كل ما يحدث هو خطير. إنها تحترم كثيراً رأيك، يا ألكسي فيودوروفتش، فلا يجوز أن تؤاخذها وتستاء منها، ممّا تقول. أنا شخصياً لا أفعل إلا هذا، أحاول أن أداريها لأنها ذكية جداً - أتصدِّقني؟ لقد ذكرت لي منذ لحظة أنك كنت صديق طفولتها - «صديق طفولتها الأكثر جدّية». تصوَّر هذا، «الأكثر جدّية» - فأين مكاني أنا إذن؟ إن لها في هذا المجال ذكريات حية ومشاعر عميقة، وخاصة جملها، وعباراتها الصغيرة غير المتوقعة أبداً. ذلك يخرج من فمها فجأة. إليك مثلاً قصة تلك الصنوبرة. كان في حديقتنا شجرة صنوبر، عندما كانت هي صغيرة جداً؛ أعتقد أن هذه الشجرة لا تزال موجودة، فلا يجوز التحدُّث عنها بصيغة الفعل الماضي. ليست أشجار الصنوبر بشراً فهي تبقى طويلاً دون أن تتغيَّر، يا ألكسي فيودوروفتش. قالت لي: «ماما، إنني أرى شجرة الصنوبر هذه في حلمي وكأنها مرسومة». يعني شجرة الصنوبر كانت مرسومة - الحق أنها قالت لي ذلك بطريقة أخرى. نسيت الآن كيف قالت ذلك. «إنها مرسومة». إنه أمر سخيف وقد قالت لي في هذا الموضوع أشياء طريفة، لست قادرة إطلاقاً على أن أردّدها لك. ولقد نسيت كل شيء. حسناً، إلى اللقاء. إنني مضطربة جداً، وأخشى أن أصبح مجنونة. آه، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش، أصبحت مجنونة مرتين في حياتي، وقد عالجوني. إذهب إلى ليزا وشجِّعها بشكل لطيف فأنت تجيد ذلك.

- ليزا! صاحت وهي تقترب من الباب. أنظري، لقد جئتكِ بألكسي فيودورفتش الذي أسأت إليه. وهو ليس غاضباً أبداً، أؤكد لك ذلك، بالعكس، يدهشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الأمر.

- شكراً ماما- أدخل يا ألكسي فيودوروفتش.

دخل أليوشا. نظرت إليه ليزا بهيئة بدت فيها منزعجة وفجأة احمرَّ وجهها كله. كان واضحاً أنها تشعر بخجل من شيء ما. وكما يحدث غالباً في مثل هذه الحالات، بدأت تتكلم بسرعة في أمور لا شأن لها في نظرها متظاهرة بأنها مهتمة بها في هذه اللحظة.

- لقد حدثتني أمي منذ لحظة، يا ألكسي فيودوروفتش، عن كل قصة المائتي روبل، وعن المهمّة التي كلّفت بها... تجاه ذلك الضابط المسكين... أخبرتني كل هذه القصة الرهيبة التي أهانته، وأنت تعرف أن أمي لا تجيد سرد مثل هذه القصص... وإنما هي تخلط الأمور بعضها ببعض. لقد استمعت أنا إليها، وبكيت. والآن، هل أعطيته المال، وكيف حاله الآن، هذا التعيس؟...

- المشكلة هي أنني لم أسلّمه المبلغ! تلك قصة طويلة. أجاب أليوشا متظاهراً، من جهته، بأن إخفاق مسعاه هو ما يشغل باله.

مع ذلك، لاحظت ليزا أنه يشيح بنظره، وهو أيضاً حاول ظاهرياً أن يتحدث في شؤون ليست لها أهمية. وجلس أليوشا إلى الطاولة وبدأ يروي القصة، ومذ قال بضع كلمات حتى زال ارتباكه كلياً، وعرف كيف يأسر، بدوره، انتباه ليزا. كان يتكلم تحت وطأة الانفعال الشديد الذي لا يزال يشعر به، وكانت قصته واضحة ومفصَّلة. وكان قد اعتاد، فيما مضى، في موسكو، أن يجيء إلى ليزا أيام كانت لا تزال طفلة، فيقصّ عليها ما وقع له من أحداث، أو يحدثها عن قراءاته، أو عن ذكريات طفولته. وفي كثير من الأحيان كانا يلفِّقان أحلاماً مشتركة أو يخترعان روايات بكاملها مفرحة وهزلية. وها هما، الآن، يستعيدان أجواء موسكو، ويشعران باستيقاظ الحياة التي قضياها قبل سنتين. اضطربت ليزا جداً من قصَّته. وعرف أليوشا كيف يرسم بانفعال عميق صورة أليوشنشكا. وعندما انتهى من سرد كل تفاصيل المشهد ووصف كيف داس المسكين المال، رفعت ليزا ذراعيها نحو السماء وصرخت بانفعال عنيف:

- إذن، لم تعطه المال؟ تركته يهرب؟ يا إلهي! كان عليك أن تلحق به وتدركه...

- لا، يا ليزا، هكذا أفضل، لأنني لم ألحق به.

قال أليوشا ونهض عن كرسيّه وسار بضع خطوات في الغرفة وهو في هيئة مغمومة.

- كيف هذا أفضل؟ لماذا هذا أفضل؟ والآن، ليس لديهم الخبز فسوف يهلكون.

- لن يهلكوا لأنّ هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل حال. سيقبلهما غداً. غداً سيقبلهما حتماً. تمتم أليوشا وهو يمشي مفكراً.

هل تعرفين يا ليزا، تابع يقول، وقد توقف فجأة أمامها. لقد ارتكبت خطأً ستكون له نتائج أفضل.

- أيّ خطأ، ولماذا ستكون له نتائج أفضل؟

- إليك لماذا، لأنه رجل خائف وضعيف الشخصية. لقد عانى كثيراً ولكنه لطيف جداً. حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأة بأنه أُهين، فراح يدوس المال لأنه، أؤكد لك، كان هو نفسه يجهل، حتى آخر لحظة، أنه سيدوس المال. إذن، يبدو لي أن ثمة أشياء كثيرة جرحت كبرياءه... أجل، كان ذلك أمراً لا بدّ منه في مثل وضعه... فهو أولاً، قد بالغ في إظهار

ابتهاجه بهذا المال أمامي، ولم يكتم سعادته عنّي؛ فلا بدَّ أنه شعر، بعد ذلك، بمذلّة من موافقته السريعة التي لم يتمكن من السيطرة عليها. فلو أنه اغتبط أقلّ وامتنع عن إظهار هذا الفرح، لو أنه اصطنع أوضاعاً كما يفعل كثير من الناس لأَخذ المال، لتحمَّل الوضع بسهولة أكبر، ولما رفض هذه المساعدة. لقد بالغ في الإخلاص وذلك ما جرح شعوره. آه، يا ليزا! إنه رجل طيب وصريح، وهذا ما يصعّب الأمور في مثل هذه الحالات. لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق سريع جداً جداً. وكان يضحك ضحكة قصيرة. لست أدري إذا كان يضحك أو يبكي... أقسم لك، إنه كان يبكي لشدّة حماسته... ويتكلم عن ابنتيه... عن الوظيفة التي عُرضت عليه في مدينة أخرى... ومذ فتح لي قلبه أحسَّ فجأة بالعار لأنه أظهر لي كل ما في نفسه، وإذا هو يشعر نحوي بحقد فجأة. إنه واحد من أولئك الفقراء المحتشمين جداً. وبصورة خاصة، شعر بالإهانة لأنه اتخذني صديقاً له بسرعة، واستسلم بسرعة. وقبلُ كان قد هدَّدني وأخافني، ثم حين رأى المال راح يعانقني. ولأنه عانقني، لم يتوقف عن ملامستي. فلهذه الأسباب شعر أنه أذلَّ نفسه. وهنا، ارتكبت تلك الغلطة، غلطة خطيرة جداً: قلت له فجأة بأن ليس لديه المال للانتقال إلى مدينة أخرى. وسوف يُعطى مزيداً من المال، وأنا شخصياً سأعطيه من مالي قدر ما يريد. ذلك ما أثّر به فجأة. لماذا أُقحم أنا نفسي في مساعدته؟ هل تعلمين يا ليزا أنه أمر رهيب، أنه أمر مضنٍ لرجلٍ جريح في كبريائه أن يرى جميع الناس يتقدّمون إليه محسنين... سمعت هذا الرأي كثيراً، وقد قاله الراهب زوسيما أيضاً. لا أعرف كيف أعبّر عن هذه الحقيقة، ولكن أُتيح لي أن ألاحظها بنفسي مراراً. وأنا شخصياً، هذا ما أشعر به. ورغم جهله، حتى آخر لحظة بأنه سيدوس المال، كان يشعر بذلك، وكان شعوراً لا بدَّ منه. ولم تكن حماسته قوية، إلّا أنه كان يشعر بأنه سيقوم بهذه الحركة... على كل حال، مهما تكن هذه الخاتمة تدعو للأسف، فلا ينبغي أن نقلق منها. بل إنني متأكد من أنّ ما حدث كان الأفضل وأن الأمور هي الآن على أفضل ما يرام...

- لماذا لا يمكن أن يكون إلّا على أفضل ما يرام؟ لماذا؟ صاحت ليزا وهي تنظر إلى أليوشا بدهشة كبيرة.

- لو أنه لم يدس المال بقدميه، يا ليزا، لو أنه أخذ المال، لظلَّ يبكي عندما وصل إلى منزله، من الذل ساعة بكاملها، ذلك أمر لا بدَّ منه. وسيبكي، وأقسم إنه سيأتي غداً لرؤيتي عند الفجر ويرمي بالورقتين النقديتين في وجهي، وسيدوسهما كما فعل منذ قليل، فيشعر بعدها بكرامة رهيبة وبالانتصار رغم علمه بأنه قد «ضيَّع نفسه». والآن، لن يكون هناك شيء أسهل من إرغامه على قبول هاتين المائتين من الروبلات، ليس أبعد من الغد، لأنه برهن على شرفه برفض المال ودوسه... ذلك أنه عندما أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكن يتنبأ أنني سأردّهما إليه غداً. وهو في حاجة ماسّة إلى هذا المال. ومهما يبلغ شعوره بالكبرياء فسيظلّ يفكّر في هذه المساعدة التي خسرها. وفي هذه الليلة، سيفكر أكثر في هذا المال. وأعتقد أنه سيأتي إليَّ مسرعاً لكي أُسامحه. إنما سأذهب أنا إليه معترفاً: «أنت إنسان كريم على نفسك، وقد برهنت على ذلك، فاقبل الآن هذا المال وسامحني». عندئذ، سوف يقبل المال!

عندما قال أليوشا هذه الكلمات، «وسوف يقبل»، كان فيما يشبه السكر. راحت ليزا تصفّق بيديها.

- آه، هذا صحيح! فهمت فجأة كل شيء بوضوح! أوه، أليوشا، أين تعلّمت كل هذه الأشياء؟ ما زلت شاباً وتعرف ما يجري في أعماق النفس... أنا لا أستطيع القيام بذلك...

- الأمر الأساسي هو إقناعه بأننا سنعامله بالمساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا. تابع أليوشا كلامه وكأنه في حالة سكر. يجب أن يشعر بأننا لا نعامله بالمساواة فحسب، بل على قدم التفوّق أيضاً...

- على «قدم التفوُّق» هذا رائع، يا ألكسي فيودوروفتش، ولكن أكمل، أكمل!

- يعني... إنني لم أحسن التعبير... عن قدم التفوق... لكن غير مهمّ لأن...

- طبعاً هذا غير مهمّ، هذا غير مهمّ طبعاً. سامحني يا أليوشا، يا عزيزي، لقد كنت حتى الآن لا أحترمك كثيراً، تقريباً... يعني كنت أحترمك، ولكن على قدم المساواة، أما بعد الآن، فسأحترمك على قدم التفوق. لا تغضب منّي يا عزيزي، إذا كنت «أمزح». أردفت فوراً بانفعال شديد. أحبّ أن أضحك، أنا صغيرة، ولكن أنت، أنت... قل لي يا ألكسي فيودوروفتش، ألا تعتقد أنّ في هذه الأفكار التي لدينا، التي لديك أريد أن أقول... لا في تصوراتنا نحن... شيئاً من الاستخفاف بهذا المسكين... إننا نشرِّح عواطفه واضعين أنفسنا فوقه، أفلا نبرهن على الاستخفاف به، حين نطمئن منذ الآن إلى أنه سيأخذ المال؟

- لا، يا ليزا، لا يوجد احتقار أبداً. أجاب أليوشا بجزم كأنه كان يتوقع هذا السؤال. لقد فكّرت في هذا السؤال عينه وأنا عائد إلى هنا. فكّري قليلاً: كيف يمكننا أن نحتقره ونحن تماماً مثله، والبشر جميعاً مثله؟ لأننا لسنا أفضل منه، ولو كنا أفضل منه الآن، فإننا، على كل حال، لن نبقى أفضل منه متى وُجدنا في مثل ظروفه... لا أستطيع أن أجزم فيما يتعلق بك أنت يا ليزا، ولكنني أعتقد أنني أنا «مسكين» في بعض الأمور. أما هو فبالعكس ليس «مسكيناً» إنه مرهف الحس جداً... لا يا ليزا، ليس في هذا احتقار له! هل تعرفين ماذا قال مرشدي ذات مرة؟ يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً، وأن تعامل بعض الناس معاملتك مرضى في المستشفى...

- قل لي، يا ألكسي فيودوروفتش، قل يا عزيزي! ما رأيك في أن نهتمّ بالناس كما لو كانوا مرضى في المستشفى!

- أنا موافق يا ليزا، إنني جاهز، يعني إنني لست جاهزاً تماماً. فصبري ينفد أحياناً، وأحياناً أخرى لا أرى شيئاً. أما أنتِ فشأنك شأن آخر.

- لا أصدّق من هذا الكلام شيئاً! ألكسي فيودوروفتش! كم أنا سعيدة!

- ما أجمل أن تقولي هذا يا ليزا!

- ألكسي فيودوروفتش، أنت طيب القلب وهذا مدهش. ولكنك أحياناً تدَّعي المعرفة بعض الشيء... ومع ذلك، فالمرء حين يعرفك يدرك أنك لست مدّعياً أبداً، اقتربْ من الباب بهدوء وتأكد أنّ ماما لا تتنصَّت علينا. وشوشت ليزا بهمس عصبي متعجل.

ذهب أليوشا نحو الباب وفتحه قليلاً ثم عاد ليقول أن لا أحد يستمع إليهما.

- اقترب إلى هنا، ألكسي فيودوروفتش، تابعت ليزا ووجهها يزداد احمراراً. هات يدك، هكذا. يجب أن أبوح لك بسرّ كبير: إن الرسالة التي كتبتها إليك، يوم أمس، لم تكن من أجل المزاح، إنها جدّية...

وخبأت وجهها بيديها. يبدو أنها كانت تشعر بخجل كبير من هذا الاعتراف. وفجأة، أمسكت يده وقبّلتها بسرعة ثلاث مرات متتالية.

- أوه، ليزا! هذا رائع! قال أليوشا فرحاً. أنا، كنت متأكداً أنكِ كتبتها بجدّية.

- لا، كنت مقتنعاً!

وسحبت يدها فجأة، وقد احمر وجهها بشكل رهيب وأطلقت ضحكة خفيفة سعيدة.

- أقبِّل يده فيقول لي «هذا رائع»، لكن لومه كان غير صحيح!

كان أليوشا يشعر باضطراب شديد.

- أريد أن أرضيك دائماً يا ليزا، ولكنني لا أعرف كيف. تمتم بألم ووجهه محمرّ أيضاً.

- أليوشا، عزيزي، أنت بارد ووقح. ليس دائماً، إنما أحياناً: لقد تفضَّل فاختارني زوجة له ثم ها هو ذا غير مبالٍ! كان متأكداً بأنني جدّية في رسالتي، لا مؤاخذة! أليست هذه وقاحة!

- أهو عيب أنني كنت متأكداً؟ سألها أليوشا وانفجر ضاحكاً.

- آه، أليوشا! بالعكس، كان ذلك حسناً جداً. قالت ليزا وهي تنظر إليه نظرة حنوناً وسعيدة.

كان أليوشا لا يزال ممسكاً يدها بيده. وفجأة، انحنى وطبع قبلة على شفتيها الرقيقتين.

- ما هذا؟ ماذا دهاك؟ صاحت ليزا.

كان أليوشا قد فقد السيطرة على نفسه كلياً.

- آه، سامحيني إن كنت قد أسأت... ربما كنت أحمق جداً... لقد قلتِ إنني بارد، لذلك، قبَّلتك... ولكنني أرى أنها كانت حماقة مني...

- ومع هذا الثوب أيضاً؟ وانفجرت ليزا ضاحكة وخبأت وجهها بين يديها. ثم لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول له وهي تضحك وقد اتخذ وجهها هيئة رصينة وقاسية. حسناً، أليوشا، علينا أن ننتظر قليلاً فيما يتعلق بالقبلات. فأنا وأنت لا نعرف حتى الآن كيف نقوم بها. لا بدّ لنا أن ننتظر زمناً طويلاً أيضاً. ختمت كلامها فجأة، ثم تابعت:

- ولكن، قل لي: ما الذي جعلك تختار بلهاء مثلي ومريضة، بينما أنت ذكي جداً ومتعقّل وفطن؟ أوه، أليوشا، أنا سعيدة جداً لأنني لا أستحقك أبداً!

- أجل يا ليزيا، خلال بضعة أيام سوف أترك الدير نهائياً. وعندما أعيش في العالم فسيكون عليّ أن أتزوج. أنا أعرف ذلك. ثم إنه «هو» منْ أمرني بهذا، ومَن ستقبل بي أنا إلّا أنت؟ وأين أجد أفضل منك؟ لقد فكّرت في ذلك ملياً. أولاً، تعرفينني منذ الطفولة. ثانياً، تملكين قدرات كثيرة لا أملكها. أنت صاحبة قلبٍ مرح أكثر من قلبي. وأنت خاصةً أكثر براءة مني. فأنا، أنا قد عرفت أشياء كثيرة... آه! أنت لا تعرفين هذا الأمر! إنني كارامازوف! أيّ أهمية في أن تضحكي وتمزحي وتسخري مني أيضاً. بالعكس، اضحكي فهذا يسعدني... أنت تعتبرين نفسك مثل شهيدة...

- مثل شهيدة؟ ماذا تقصد؟

- نعم يا يا يا ليزا. أنظري في سؤالك الذي طرحته منذ لحظة. إذا ما كان في نفسنا شيء من احتقار لذلك المسكين الذي كنا نشرّح شخصيته - تلك فكرة تخطر ببال شهيدة... لست أعرف كيف أعبّر عما أريد قوله، لكن من يشعر بمثل هذه المسائل قادر على أن يتألم كثيراً... لا شكّ أنك فكرت في أشياء كثيرة وأنت مسمَّرة على كرسيك...

- أليوشا، اعطني يدك. لماذا تسحبها مني. قالت ليزا بصوت أضعفته السعادة. قل لي يا أليوشا: أيّ زيّ سوف ترتدي حين تترك الدير؟ لا تضحك ولا تغضب، إنه أمر يهمني كثيراً، كثيراً.

- لم أفكّر بعد في الزيّ الذي سوف أرتديه يا ليزيا. لكنني سأرتدي الزيَّ الذي تريدين.

- أريد أن ترتدي سترة من مخمل أزرق قاتم وصديرة مضلَّعة بيضاء وقبّعة من جوخٍ رمادي... قل لي: صدَّقتَ يوم أمس أنني لا أحبك عندما تنكرتُ لرسالتي؟

- لا، لم أصدّق ذلك.

- أوه، إنك لا تطاق ولا تُحتمل!

- أرأيتِ، كنت أعرف أنك تحبينني، ولكنني تظاهرت بأنك لا تحبينني وذلك لكي تشعري... أنك أكثر ارتياحاً...

- وهذا أسوأ أيضاً! إنه أسوأ لكنه أفضل. إنني أحبك حباً رهيباً يا أليوشا! تمنيت قبل قليل، وأنا أنتظرك: «سأطلب منه، مرة ثانية، أن يردَّ إليَّ رسالتي. فإذا أخرجها من جيبه وأعادها إليَّ (يمكن توقّع كل شيء منه) فهذا يعني أنه لا يحبّني ولا يستحق حبّي، إنه فتى تافه وفظّ. وأكون أنا هلكت». لكنك تركت الرسالة في غرفتك وهذا ما شجعني. تركتها في غرفتك لأنك كنت تشعر مسبقاً أنني سأطلبها منك بإلحاح، وأنت لا تريد أن تعيدها إليّ، أليس كذلك؟ هو هكذا، لا؟

- أوه ليزا، لا. لأن الرسالة معي الآن، وقد كانت معي من قبل. إنها هنا، في هذه الجيب. أنظري إليها.

وأخرج أليوشا الرسالة من جيبه وهو يضحك، وأظهرها لها من بعيد.

- لكنني لن أردّها إليك. أنظري إليها من بعيد.

- ماذا؟ كذبت عليّ إذن حين طالبتك بها؟ أنت راهب وتكذب!

- أجل لقد كذبت، وضحك أليوشا. ولكي أردّها إليك، كذبت. لأنها عزيزة عليّ. أضاف فجأة بانفعال شديد وقد احمرَّ وجهه مجدداً: سأحتفظ بها إلى الأبد، ولن أعطيها إلى أحد!

- أليوشا! كانت ليزا تتأمله مأخوذة ثم قالت له هامسةً: أنظر هل تتنصّت علينا ماما وراء الباب؟

- طيّب، يا ليزا، سأنظر ما دمت تطلبين ذلك. ولكن أليس من الأفضل ألّا أنظر؟ لماذا تظنين أن أمك ترتكب مثل هذه السماجة؟

- كيف تقول سماجة؟ أيّ سماجة؟ إذا كانت تستمع إلى ما يحدث مع ابنتها، فهذا حقّها، وهذا ليس سماجة. قالت ليزا وقد احمرَّ وجهها. كن على يقين يا ألكسي فيودوروفتش أنني حين أصبح أمّاً وستكون لي ابنة مثلي أنا، فسوف أتنصّت عليها من وراء الباب.

- صحيح يا ليزا؟ هذا، ليس عملاً جيداً.

- آه، يا إلهي، أي سماجة في هذا؟ لو استمعت إلى حديث عادي، إذن، فذلك سماجة مني. أمّا هنا، فالأمر مختلف. هنا ابنتي تختلي بشاب... اسمع يا أليوشا: أحب أن أقول لك

إنني سأراقبك، أنا أيضاً، متى تمَّت خطبتنا، وسأفضّ كل رسائلك وسأقرأها... إنني أبلغك منذ الآن. .

- طيب، حسناً، إذا كان الأمر هكذا... ولكن هذا ليس حسناً. تمتم أليوشا.

- ما هذا الاحتقار! أليوشا، عزيزي، لن نتشاجر منذ أول يوم - أفضّل أن أقول لك كل الحقيقة: أنا أعرف أن التنصّت على الناس معيب جداً. لقد أخطأت أنا وأصبت أنت. ولكنني سأراقبك مع ذلك.

- راقبيني. لن تجدي شيئاً سيّئاً تتهمينني به. قال أليوشا ضاحكاً.

- أليوشا، أنت، هل ستطيعني؟ هذه أيضاً مسألة يجب أن نقررها مسبقاً.

- بكل سرور، يا ليزا، ولكن ليس في الأمور الأساسية. في الأمور الأساسية، حتى وإن لم توافقيني الرأي سأقوم بما يمليه عليّ واجبي.

- طبعاً. ولكن اعلم أنني مستعدة من جهتي أن أطيعك لا في الشؤون الأساسية فحسب بل في كل شيء ومدى الحياة. هتفت ليزا بحرارة؛ وأعاهدك على هذا منذ الآن. وبسعادة، بسعادة! وإني أقسم لك أيضاً إنني لن أراقبك أبداً من وراء الباب، لا ولن أقرأ واحدة من رسائلك، لأنك على حق وأنا على خطأ. أعرف أنّ لديّ رغبةً جامحة في التنصت، أعرف ذلك، ولن أفعل ذلك رغم كل شيء، لأنك تعتبر أن هذا غير لائق. والآن، أنت عنايتي الإلهية... اسمع يا ألكسي فيودوروفتش: لماذا أنت حزين في هذه الفترة الأخيرة، أمس واليوم؟ أنا أعرف أن لديك هموماً، نوعاً من الحزن الخاص، من الحزن السرّي. وربَّما لا؟

- أجل يا ليزا، إنه حزن سرّي. قال أليوشا بحزن. إنني أرى أنك تحبينني حقاً ما دمت قد أدركت ذلك.

- لكن، ما هو هذا الحزن؟ بسبب ماذا؟ هل تستطيع قوله؟ سألته ليزا برجاء خجول.

- سأقول لك فيما بعد، يا ليزا، فيما بعد... أجاب أليوشا بحرج. والآن، أعتقد أنك لن تفهمي، وأنا عاجز عن التكلم عن هذا الشأن.

- أعرف أن موضوع أخويك ووالدك هو الذي يعذبك!

- نعم، هناك أخواي أيضاً! قال أليوشا حالماً.

- أنا لا أحبّ أخاك إيفان فيودوروفتش، يا أليوشا. قالت ليزا فجأة.

استقبل أليوشا هذه الملاحظة بشيء من الدهشة. لكنه تابع كلامه.

- أخواي هما في طريق الضياع، ووالدي أيضاً. وهم يدفعون الآخرين إلى الشقاء. إنها «القوة الخفية التي تحرّك آل كارامازوف»، كما قال الأب باييسي قبل قليل. هي قوة خفيَّة ومجنونة... ولا أعرف إن كانت روح الله تحلّق فوق هذه القوة... أعرف فقط أنني واحد من آل كارامازوف... أنا راهب. هل أنا راهب؟ أنا راهب يا ليزا؟ لقد قلتِ منذ لحظة إنني راهب؟

- نعم، قلت ذلك.

- والله، أنا لا أؤمن بالله.

- أأنت لا تؤمن به؟ ماذا دهاك؟ سألته ليزا بصوت خافت وحذر. لكن أليوشا لم يجب. كان في كلماته غير المتوقعة شيء خفيّ وذاتي وربما مبهم لكنه يعذبه دون أي شك.

- والآن، وفوق ذلك كله، هذا هو يرحل، صديقي يرحل، وهو خير إنسان في هذا العالم. لو كنت تدركين يا ليزا! لو عرفتِ مدى تعلّقي بهذا الإنسان، ومدى ارتباطي روحياً بهذا الإنسان! سوف أبقى وحيداً... سأجيء إليك يا ليزا... من الآن فصاعداً سنكون معاً...

- نعم. معاً، معاً! سنكون معاً مدى الحياة. قبِّلني الآن. أسمح لك الآن بأن تقبلني.

قبَّلها أليوشا.

- حسناً، اذهب الآن، وليكن المسيح معك! (وباركته). إذهب بسرعة إليه طالما «هو» حيّ. الآن أفهم أنني أحتجزك بعنف. سأصلّي اليوم له ولك. سنكون سعيدين يا أليوشا! سنكون سعيدين، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك، يا ليزيا.

لدى خروجه من عند ليزا، لم ير أليوشا أنه من الضروري أن يذهب إلى السيدة خوخلاكوفا، وإنما أراد مغادرة المنزل دون أن يودعها. لكنه ما إن فتح الباب وخطا على السلَّم حتى رأى السيدة خوخلاكوفا أمامه. وعلى الفور، أدرك أليوشا أنها كانت تنتظره.

- ألكسي فيودوروفتش، إنه أمر فظيع! هذه حماقات صبيانية. آمل ألّا تضع في رأسك أحلاماً... هذه حماقات، حماقات، لا شيء سوى حماقات! قالت بعصبية.

- لا تقولي لها هذا الكلام. قال أليوشا. وإلّا اضطربت. وفي هذه اللحظة ستسوء حالها.

- إنني أسمع الجواب العاقل من شاب عاقل. هل أفهم من كلامك هذا أنك وافقتها شفقةً على مرضها حتى لا تثير غضبها بمعارضتك؟

- لا، أبداً. كنت جاداً في حديثي معها. أجاب أليوشا بلهجة قاطعة.

- الجدّ مستحيل في هذه الحال، شيء لا يمكن تصوّره. واعلم، أولاً، أنني لن أستقبلك بعد اليوم أبداً، ثم سأسافر، وسوف أصطحبها معي. هل فهمت؟

- فيمَ تقلقين؟ قال أليوشا. لا يزال هذا الأمر بعيداً جداً. يجب أن ننتظر سنة ونصف السنة.

- أوه، يا ألكسي فيودوروفتش؛ صحيح، بالتأكيد، من الآن حتى سنة ونصف السنة سيكون هناك متسع من الوقت للتشاجر معها والانفصال. لكنني تعيسة، تعيسة جداً! وإن يكن هذا كله حماقات، لكنني صعقت. أنا الآن مثل فاموسوف في آخر مشهد، وأنت مثل تشاتسكي، وهي مثل صوفيا. تصوَّر! لقد أسرعت إلى السلَّم لأنتظرك. وفي تلك المسرحية حدثت جميع المصائب المشؤومة على السلَّم. سمعت كل شيء. وهذا ما يفسّر الأرق الرهيب وكل نوبات الهستيريا ليلة أمس! الحبّ للبنت والموت للأمّ. لقد فُتح قبري. والآن، أجب عن سؤالي الثاني وهو الأهم: ما تلك الرسالة التي كتبتها إليك؟ أرنيها فوراً، فوراً!

- لا، لا يجوز. كيف حال كاترينا إيفانوفنا؟ إنني مصرّة على معرفة ذلك.

- ما زالت تهذي. لم تسترد وعيها بعد. خالتاها معها، وما تنفكان تصرخان عالياً

وتصطنعان الأبّهة معي. وهرزنستوب، عندما وصل، أصيب بخوف مريع، ولست أدري ما أفعل من أجله لكي أنقذه. أردت أن أستدعي له طبيباً. وقد جيء به في عربته. وفوق ذلك كله يبقى أنت وهذه الرسالة! صحيح أن هناك سنة ونصف السنة، لكنني أستحلفك بكل ما هو مقدَّس عندك، أستحلفك براهبك الناسك الذي يحتضر، أرني هذه الرسالة يا ألكسي فيودوروفتش. أرنيها، أنا أمّها. أمسكها بيدك إن شئت سأقرأها وهي بين يديك.

- لا. لن أريكِ إياها. يا كاترينا أوسيبوفنا؛ حتى لو أذنت هي لي بذلك لن أريك إياها. سأعود غداً. إلى اللقاء!

قال أليوشا ذلك وهبط السلَّم مسرعاً إلى الخارج.

II

سمردياكوف والقيثارة

لم يكن لديه الوقت. فقد خطرت في رأسه فكرة عندما كان يستأذن ليزا. فكرة حول الوسيلة الأكثر لباقة التي يستطيع بها أن يدرك أخاه ديمتري الذي كان من الواضح أنه يحاول أن يتحاشاه. كان الوقت متأخراً، حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً. وكان أليوشا يشعر، أنه مدعوّ إلى الدير ليكون بالقرب من الناسك «الكبير» الذي يحتضر. ولكن الحاجة إلى رؤية أخيه ديمتري كانت هي المسيطرة: كان أليوشا يشعر في نفسه، ساعة بساعة، وقوع كارثة رهيبة لا مفرّ منها، ووشيكة الوقوع. فما هي هذه الكارثة وبماذا يريد أن يُعلم أخاه هذه اللحظة المحددة، هو نفسه لم يكن يعرف كيف يحددها. «لا هم إذا مات المحسن إليّ، بدوني، فلن ألوم أنا نفسي مدى الحياة على أنه كان في وسعي أن أنقذه ولم أفعل، وأغفلت واجبي ولم أسرع عائداً إلى الدير؛ وأنا أتصرف على هذا النحو فأنا أطيع أوامر معلمي...».

كانت خطته تكمن في العثور على أخيه ديمتري فجأة، متسلّلاً بالتحديد من خلال السياج للدخول إلى الحديقة والانتظار في الاستراحة. وكان أليوشا يقول لنفسه: «إن لم يكن هناك، فسأختبىء في الجناح دون أن أقول شيئاً، لا لأصحاب المنزل ولا إلى فوما، ثم أنتظر في الاستراحة حتى المساء إذا لزم الأمر. فإذا كان يراقب، كما في السابق، وصول غروشنكا فمن المحتمل جداً أن يأتي إلى الاستراحة...». ولم يفكر أليوشا كثيراً في تفاصيل خطته ولكنه قرر تنفيذها فوراً، ولو تطلّب ذلك أن لا يعود إلى الدير في ذلك المساء...

لقد جرى كل شيء دون عقبة تُذكر: تسلَّق السياج في الموضع نفسه الذي تخطّاه فيه أمس. وتسلل خفيةً إلى الاستراحة. وكان يريد ألّا يلاحظه أحد. فمن الجائز أن تكون صاحبة المنزل وفوما (إذا كان هناك) منحازين إلى جانب أخيه ديمتري، فقد يمنعانه من دخول الحديقة أو يبلغان أخاه بوصوله في الوقت المناسب، وأنه يجري البحث عنه والاستعلام عن مكانه. كانت الاستراحة خالية. جلس أليوشا في المكان الذي شغله يوم أمس وانتظر. تفحَّص الاستراحة. بدت له أكثر تداعياً، في هذه المرة، مما في اليوم السابق. ولكن النهار كان لا يزال مضيئاً. وعلى الطاولة الخضراء تُرى دائرة صغيرة خلفتها بدون شك كأس كونياك. ساورت أليوشا أفكار تافهة لا صلة لها بالمسألة الراهنة، كما يحدث عموماً أثناء انتظار مضجر. فتساءل: لماذا جلس في المكان عينه الذي جلس فيه بالأمس، ولماذا لم يجلس في مكان آخر؟ أخيراً، شعر أنه حزين، حزين جداً لقلَّة التأكد وشدة القلق. وبعد أن بقي هناك ما يقارب ربع ساعة، سمع لحن قيثارة. لا شك أن واحداً، أو اثنين، جاء يجلس هنا قريباً جداً، عل مسافة عشرين خطوة منه في مكان ما في الدغل. وفجأة، تذكر أليوشا أنه عندما ترك أخاه، عشية أمس، وخرج من الاستراحة، لمح، إلى اليسار قرب الحاجز، مقعداً قديماً صغيراً أخضر اللون في وسط الدغل. هنالك، بدون شك، قد جلس الزوّار. من هم إذن؟ وهذا رجل ينطلق، في تلك اللحظة، مغنياً بصوت نشاز مترقق يرافق نغمَ القيثارة:

قوة سحريّة

تربطني بحبيبتي.

فارفق بنا، يا رب.

بها وبي!

بها وبي!

بها وبي!

وتوقَّف الصوت. صوت مغنٍّ مستضعف. تصنُّع أغنية مستضعف. والصوت الآخر، صوت امرأة لطيف وكأنه خجول. يُسمع، مع ذلك، في غنج مفرط.

- لماذا لا تأتي إلينا إلّا نادراً، يا بافل فيودوروفتش؟ هل تكره صحبتنا؟

- لا. لا شيء. أجاب صوت الرجل بتأدّب، بلهجة يدرك المرء فيها شيئاً من الوقار والحزم. كان واضحاً أنه الرجل المسيطر، وأن المرأة تحاول أن تكون معجبة. «أعتقد أن الرجل هو سمردياكوف، هذا صوته على الأقل. قال أليوشا في سرِّه. أما السيدة فأظن أنها ابنة صاحبة المنزل الصغير هنا، التي رجعت من موسكو والتي ترتدي فستاناً طويل الذيل، وتجيء كل يوم إلى مارفا إينياتيفنا لتأخذ حساءها...».

- إنه فظيع، كم أحبّ هذه الأشعار، لاسيّما إذا كانت متناغمة. تابع الصوت الأنثوي. لماذا لا تتابع الغناء؟

واستأنف الصوت:

التاج الملكيّ

لم تجد فيه حبيبتي سوءاً.

فارفق بنا، يا رب.

بها وبي!

بها وبي!

بها وبي!

قال صوت المرأة:

- غنيتها في المرة السابقة أفضل من الآن. لقد غنّيت التاج «فلتنج حبيبتي من أي أذى». كان ذلك أكثر رقة. لقد نسيت اليوم بدون شك.

- ليست الأشعار إلّا حماقات. قاطع سمردياكوف.

- أوه. لا، أنا أحب أبيات الشعر كثيراً.

- بالنسبة إلى أبيات الشعر، فإنها حماقات إجمالاً. أحكم أنت بنفسك. من الذي يتكلم في هذا العالم كلاماً مقفّى؟ ولو تكلم جميع الناس شعراً فلن يكون إلّا بأمر من السلطة ماذا يمكن أن نقول؟ يا ماريا كوندراتيفنا. أبيات الشعر، هي لا شيء.

- كم أنت ذكي، كيف تفعل لكي تكون على هذا الجانب من الثقافة؟ تابع الصوت الأنثوي وقد ازداد أكثر فأكثر لُطفاً.

- كان يمكن أن أدرس أكثر من ذلك وأن أصبح أوسع ثقافة لو أنّ القدر لم يعاكسني منذ طفولتي الأولى. كان من الممكن أن أقتل في مبارزة بالمسدّس ذلك الذي وصفني بالكلب

لأن ليس لي أب ولأنّ أمي نتنة. قال أحدهم هذا الكلام في وجهي، في موسكو، حيث انتشر سرّ مولدي بفضل غريغوري فاسيليفتش. وهو يعيب عليَّ تمرّدي على مولدي. وقد قال: «لقد مزَّقت أنا لها أحشاءها». أنا أعترف بذلك، لكنني كنت أفضّل أن أُقتل في بطنها على أن أجيء إلى هذا العالم. ويقال في السوق - وقد ظنت أمك، لقلة لباقتها، أنّ من واجبها أن تقول لي ذلك - إن أمي كانت مصابة بداء تلبُّد الشعر، وإن طول قامتها 140 سنتم. وإنها تمطّ وهي تكلّمني، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جداً على المرء أن يتكلم كما سائر الناس؟ لأنها كانت تحبّ أن تظهر عاطفتها. لكنّ هذه العاطفة تفوح منها رائحة الفلاح. هل يستطيع الموجيك الروسي أن يشعر بأحاسيس مقارنة برجل مثقف؟ إنه أغبى من أن يشعر بأيّ شيء. عندما أسمع أحرف المدّ تُمطّ أتمنى أن أضرب رأسي بالجدران، وذلك منذ طفولتي. إنني أكره روسيا كلها، يا ماريا كوندراتيفنا.

- لو كنت ملازماً صغيراً أو جندياً في سلاح الخيَّالة لما قلت هذا، بل لجرَّدت سيفك دفاعاً عن روسيا كلها.

- لا أحبّ أن أكون واحداً من سلاح الخيالة، يا ماريا كوندراتيفنا، بل، على العكس، أريد أن ألغي كل الجنود.

- وعندما يهاجمنا العدوّ، فمن الذي يدافع عنّا؟

- لا داعي لذلك كله. في العام 1812، غزا، روسيا كلها، أمبراطور الفرنسيين نابوليون الأول، وهو عمّ الأمبراطور الحالي، فلو قد تمَّ له الاستيلاء عليها لكان ذلك سعادة كبرى. لأنّ أولئك الفرنسيين أمة ذكية تخضع عندئذٍ أمة غبيّة وتلحقها بها. ولكان النظام الذي نعيش فيه مختلفاً، عن نظامنا كلياً.

- لأنَّ نظامهم هم هناك هو أفضل من نظامنا؟ أنا أرفض أن أستبدل شاباً واحداً من شبّاننا مقابل ثلاثة رجال من الإنجليز. تمتمت ماريا كوندراتيفنا، وترافق صوتها في تلك اللحظة مع نظرة تفيض عذوبة.

- المسألة مسألة ذوق!

- ولكن أنت نفسك شبيه بأجنبي، أجنبي نبيل جداً. أقول لك هذا دون خجل.

- هل تريدين معرفة الحقيقة؟ على مستوى الفجور، إنهم جميعاً متشابهون، الذين هناك، والذين هنا؛ كلّهم أوغاد مع فارق واحد هو أنهم، هناك، يتنزّهون بأحذية ملمّعة، ونحن، هنا، أوغادنا قانعون ببؤسهم النتن، لا يجدون فيه سوءاً. إن الشعب الروسي لا يُحكم إلّا بالسوط، كما قال فيودور بافلوفتش، يوم أمس، رغم أنه مجنون، هو وجميع أولاده.

- ولكنك قلتَ لي إنك تحترم إيفان فيودوروفتش.

- وهو قال عني إنني خادم نتن، ويعتبرني واحداً من أولئك المتمردين. ولكنه أخطأ في هذا. لو كان في جيبي قدر كافٍ من المال لسافرت منذ زمن طويل. أما ديمتري فيودوروفتش فهو أسوأ من كل الخدم، سواء بسلوكه وذكائه أو ببؤسه. هو لا يصلح لشيء، والجميع يحترمونه. أنا أعرف أنني لست سوى طبّاخ، ولكن، مع قليل من الحظ، سأفتتح «مقهى - مطعماً» في شارع بتروفكا في موسكو، لأنني أجيد إعداد أطباق خاصة. وما من أحد من زملائي قادر على ذلك إلّا الأجانب. ومن يستطيع في موسكو أن يحضّر أطباقاً خاصة؟ وديمتري فيودوروفتش هذا، ليس إلّا شخصاً حقيراً، ومع ذلك لو طلب إلى المبارزة أنبلَ أبناء أحد الكونتات، ابن كونت، سيقبل المبارزة. فيتم هو أفضل مني؟ إنه غبي إذا ما

قورن بي! وما أكثر ما أتلف من مال في سبيل أسخف الحماقات.

- إن المبارزة عمل جيد. قالت فجأة ماريا كوندراتيفنا.

- ماذا؟

- إنها مخيفة وتحتاج إلى شجاعة، أليس كذلك، سيّما عندما يتواجه الضباط الشبان بمسدسات في اليد من أجل هذه السيدة أو تلك! إنه مشهد رائع! ولو كانوا يسمحون للفتيات بمشاهدة المبارزة؛ فأنا أحب بشكل رهيب أن أشهد مبارزة.

- المبارزة ممتعة عندما يسدّد المرء هو بنفسه، أما عندما يكون الآخر هو الذي يسدّد، فالأمر يصبح عندئذٍ كريهاً، وستهربين يا ماريا كوندراتيفنا.

- هل تهرب أنت في مثل هذه الحالة؟

لكن سمردياكوف لم يتنازل ليجيب عن سؤالها. وبعد لحظة من الصمت، سُمع لحن آخر وصوت مترقّق يغنّي المقطع الأخير:

□سأرحل

□سأبتعد ذات يوم

□لكي أمتّع نفسي

!أريد أن أعيش في موسكو

□لا شيء يهمّني هنا

لن أبالي بأي شيء.

□هذا هو ما أريد

أن لا أبالي بشيء.

وهنا وقع حادث: عطس أليوشا فجأة. فساد الصمت فوراً على المقعد. نهض أليوشا واتجه نحوهما. الرجل هو، بالفعل، سمردياكوف، بثيابه الجميلة وشعره المدهَّن كأنه أجعد، وحذاءيه الملمَّعين. كان قد وضع القيثارة على المقعد، كانت ماريا كوندراتيفنا، ابنة صاحبة المنزل؛ ترتدي ثوباً أزرق فاتحاً له ذيل طويل جداً يبلغ خمس أقدام. كانت الفتاة لا تزال صبيَّة، وليست بشعة لكن وجهها مسرف في الاستدارة، وفيه بقع حمراء مرعبة.

- هل سيأتي أخي ديمتري عما قريب؟ سأل أليوشا بلهجة هادئة جداً.

نهض سمردياكوف على مهل عن مقعده، وكذلك فعلت ماريا كوندراتيفنا.

- لماذا يجب أن أعرف ما يفعله ديمتري فيودوروفتش؛ إنني لم أكلَّف بحراسته فيما أعلم. أجاب سمردياكوف بصوت هادىء دقيق ومهمل.

- لا، إنما سألتك إذا كنت تعلم. قال أليوشا شارحاً.

- أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك، ولا عن إقاماته، ولا أريد أن أعرف شيئاً.

- لكن أخي قال لي إنك، أنت، تطلعه على كل ما يحدث في المنزل، وإنك وعدته بإبلاغه عن مجيء أغرافينا ألكسندروفنا.

نظر سمردياكوف إلى أليوشا ببطء دون أن يضطرب.

- وكيف فعلت حتى استطعت الدخول إلى هنا رغم أن باب المدخل مقفل منذ أكثر من ساعة؟ قال وهو يحدّق إلى أليوشا.

- لقد مررت بالزقاق وتخطيت السياج فوصلت مباشرة إلى الاستراحة.

- أرجو المعذرة عن ذلك. ثم توجَّه مخاطباً ماريا كوندراتيفنا. يجب أن أرى أخي بأقصى سرعة ممكنة.

- وهل يمكن أن نغضب منك؟ أجابت ماريا كوندراتيفنا بصوت ممطوط وقد سرَّها اعتذار أليوشا إليها. إن ديمتري فيودوروفتش هو أيضاً، يسلك غالباً هذا الطريق للوصول إلى الاستراحة؛ نحن لم نسمع شيئاً، وهو، موجود في الاستراحة.

- إنني بحاجة إليه الآن، أريد أن أراه، أو أن أعرف منك أين هو في هذا الوقت. إنني أفتش عنه في كل مكان. صدّقيني: إن المسألة هامّة جداً بالنسبة إليه.

- لا يطلعني السيّد على تنقلاته. تمتمت ماريا كوندراتيفنا.

- إنني أجيء إلى هنا في زيارة تعارف. قال سمردياكوف. فإذا هو أيضاً، ديمتري فيودوروفتش، يلاحقني بأسئلته المتواصلة عن سيدي: كيف الحال، ماذا يفعل، ومَن يزوره ومَن يخرج من منزله. وكل ما يمكنني أن أطلع عليه من أمور أخرى؟ لقد هدَّدني بالقتل مرتين!

- بالقتل؟ لماذا؟ قال أليوشا بدهشة.

- إنه، بما له من طبع خاص، لا يتورع عن شيء. ولقد رأيت ذلك بنفسك أمس. أنذرني بأنه سوف يقتلني إذا أنا تركت لأغرافينا ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضي الليل في المنزل. إنه يخيفني كثيراً. ولولا أنه يثير في نفسي هذا الخوف كله لشكوته إلى السلطات المدنية. الله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله.

- وقد قال له منذ قليل: «سأسحقك بالهاون». أضافت ماريا كوندراتيفنا.

- حسناً، إذا كان بالهاون، فليس الأمر جدّياً. قال أليوشا. ليتني أستطيع أن أراه الآن. ثمة شيء أقوله له...

- إليك ما أستطيع أن أعطيك من معلومات خاصة. قال سمردياكوف وكأنه يفكّر. أنا، أجيء إلى هنا كصديق قديم، ولماذا لا أزور جيراناً؟ من جهة أخرى، فإن السيد إيفان فيودوروفتش قد أرسلني في ساعة مبكرة من هذا الصباح إلى أخيك حيث يسكن في شارع أوزرنايا، وكلَّفني، دون رسالة خطية، أن أعلمه جهاراً أنه يرجوه بإلحاح أن يجيء لتناول الغداء معاً في الساحة العامة. أنا، ذهبت إلى هناك لكنني لم أجد السيد ديمتري فيودوروفتش في منزله. كانت الساعة الثامنة صباحاً. قيل لي إنه «كان هنا، ولكن لا أثر له الآن». هذا ما قالته صاحبتا المنزل. أنا أقسم إنهما متواطئتان معه. من الجائز أن يكون الآن في الكاباريه مع أخيه إيفان، لأن إيفان فيودوروفتش لم يرجع إلى المنزل لتناول الغداء، وأن السيد فيودور بافلوفتش قد تغدَّى منذ ساعة، ولا بدَّ أنه الآن في قيلولة. أتوسّل إليك ألّا تحدّثه عني، وألّا تقول له إنني ذكرت لك هذه المعلومات وإلّا سيقتلني إذا هو عرف ذلك.

- هل طلب أخي إيفان موعداً لديمتري في الكاباريه؟ سأله أليوشا مرة ثانية

وبسرعة.

- تماماً.

- في كاباريه «المدينة الكبرى»، في الساحة العامة؟

- هي بالذات.

- هذا ممكن جداً. قال أليوشا وقد أصابه انفعال عنيف. أشكرك يا سمردياكوف. إنه نبأ هامّ. سأذهب إلى هناك.

- إياك أن تفضحني! قال سمردياكوف.

- لا تقلق. سأتظاهر بأنني دخلت الكاباريه صدفةً. لا تقلق.

- ولكن إلى أين أنت ذاهب؟ سأفتح لك باب الحديقة. صاحت ماريا كوندراتيفنا.

- لا، من هنا أقرب. سأتخطّى السياج.

أقلق هذا النبأ أليوشا. أسرع إلى الكاباريه. ليس من اللائق أن يدخل الكاباريه، وهو في ثوب راهب. لكنه قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة، وأن يستدعيهما إلى السلَّم. وعندما اقترب من مبنى الكاباريه، ناداه إيفان سائلاً:

- أليوشا، هل تستطيع أن تجيئني إلى هنا أم لا؟ ستقدّم لي خدمة ممتازة.

- طبعاً، أستطيع. لكنني محرج بسبب ثوبي.

- ولكن لديَّ غرفة خاصة. اصعد إلى السلَّم. سأستقبلك هناك...

وبعد دقيقة، كان أليوشا يجلس إلى جانب أخيه. كان إيفان وحيداً يتناول غداءه.

III

الإخوة يتعارفون

لم يكن إيفان، مع ذلك، في غرفة خاصة؛ كان ذلك ركناً قرب النافذة، مفصولاً بستار، لكن الذين يجلسون وراء الستار لا يراهم الغرباء. تلك الغرفة، كانت غرفة المدخل، الأولى، وفيها «بوفيه» ملاصق للجدار. لا يتوقف الخدمُ عند الدخول إليها باستمرار ثم يتوارون. لم يكن في الغرفة سوى زبون واحد، وهو ضابط متقاعد عجوز، يحتسي الشاي في زاويته. وبالمقابل، كانت غرف الكاباريه تزخر بحركة الكباريهات، حيث تسمع نداءات وصرخات وفتح زجاجات الجعة وطقطقات الكرات على طاولة البلياردو وأرغن بارباري. كان أليوشا يعرف أن إيفان لا يرتاد الكاباريه أبداً، لم يكن من روّاد الكاباريهات. وإذا كان موجوداً هنا، فلكي يلتقي أخاه ديمتري. وديمتري لم يكن هناك.

- هل تريد أن أطلب لك حساء سمك، أو أيَّ شيء آخر؟ أم إنك لا تشرب سوى الشاي. قال إيفان وقد بدا سعيداً بحضور أليوشا، وكان قد انتهى من تناول الطعام واحتساء الشاي.

- فليكن حساء سمك، وبعده الشاي. فأنا جائع جداً. أجاب أليوشا فرحاً.

- وما رأيك بمربَّى الكرز؟ عندهم هنا مربَّى الكرز. هل تتذكر عندما كنت صغيراً عند بولينوف، كنت تحب مربَّى الكرز.

- ولأنّك تتذكره؟ فليكن المربَّى أيضاً، فأنا أحبّه كما في الماضي.

نادى إيفان النادل وطلب حساء سمك وشاياً ومربَّى.

- إنني أتذكر كلّ شيء، يا أليوشا، أتذكرك وأنت في الحادية عشرة من عمرك. وكنت أنا في الخامسة عشرة. الخامسة عشرة والحادية عشرة. ذلك فارق لا يستطيع الإخوة فيه أن يكونوا رفاقاً. ولست أعرف حتى إن كنت قد أجبتك. وعندما سافرت إلى موسكو، لم تخطر ببالي أبداً خلال السنين الأولى. وبعد ذلك، جئت أنت إلى موسكو. أعتقد أنني لم أرك إلا مرة واحدة، لست أدري أين. وها أنا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر، وحتى الآن لم نتبادل كلمة واحدة. وغداً سأسافر. فتساءلت، ونحن نتناول الطعام: كيف يمكن أن أجده لأودّعه. ثم رأيتك تمرّ.

- هل كنت تحرص على أن تراني إذن؟

- نعم. حرصاً كبيراً. أريد أن أعرفك جيداً، وأن تعرفني أنت أيضاً، ثم نفترق. إن أفضل لحظة للتعارف، في رأيي، هي التي تسبق الوداع. لقد راقبت نظراتك إلي خلال هذه الأشهر الثلاثة، كان في عينيك انتظار دائم، وهذا ما لا أستطيع أن أحتمله، لذلك لم أحاول أن أقترب منك. لكنني تعلّمت أن أحترمك. قلت لنفسي: لا يزال الرجل الصغير ثابتاً على قدميه. كنت أمزح قليلاً، ولكنني أتكلّم الآن جاداً. أنت فتى مستقيم، أليس كذلك؟ وأنا أحب الشباب

الثابتين ولو كانوا صِبية صغاراً مثلك. إن نظرتك التي تعبّر عن الانتظار لا تسيئني إطلاقاً: بالعكس، أصبحت أحبّ نظرة الانتظار هذه... أعتقد أنك تحبُّني، لست أدري لماذا، أليس كذلك يا أليوشا؟

- أحبك يا إيفان. أخونا ديمتري يقول عنك: إيفان، إنه قبر. أما أنا فأقول عنك: إيفان، إنه لغز. وحتى الآن لم أستطع حلّ هذا اللغز. هناك نقطة أعتقد أنني رأيتها واضحة في نفسك، ومنذ هذا الصباح تحديداً.

- ما هي؟ سأله إيفان ضاحكاً.

- ألن تغضب؟ قال أليوشا ضاحكاً هو أيضاً.

- طبعاً لا؟

- إنك شاب شبيه بسائر الشباب الآخرين الذين هم في الثالثة والعشرين عاماً، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم، لكنّك، غرّ، مراهق! هل أزعجتك بقولي هذا؟

- بالعكس، لقد صعقتني بهذا التطابق! هتف إيفان فرحاً وبحماسة. هل تصدِّقني أنني منذ لقائي معها في هذا الصباح، وأنا أفكّر في هذا الجانب من طبيعتي التي تزخر بها سنتي الثالثة والعشرون، فإذا أنت تقع على الحقيقة دفعة واحدة، وبهذا قد بدأت. هل تعلم بماذا كنت أحدث نفسي قبل وصولك؟ مهما تخيّب الحياة ظني، ومهما أفقد ثقتي بالمرأة التي أحبّها، ومهما أقتنع بأن الكون ملعون وربَّما يخضع لمشيئة الشيطان، فلن يغيّر هذا من الأمر شيئاً. قد أهيم في وهاد اليأس البشريّ، ثم أبقى أحب الحياة، مع ذلك ورغم كل شيء. أودّ لو أشرب كأس الحياة حتى الثمالة وقد لا أتركها قبل أن أفرغها! وحين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمي الكأس قبل نفادها، ثم أمضي... لا أعرف إلى أين؟ لكن عندما أبلغ الثلاثين، فسينتصر الشباب على كل شيء - أنا واثق من هذا - سوف ينتصر على تبدد الأحلام وعلى مشاعر الاشمئزاز. لقد تساءلت ألف مرة: هل في هذا يأس يمكن أن يخنق في نفسي هذا الظمأ إلى الحياة، هذا الظمأ المسعور الذي قد لا يكون لائقاً؟ وانتهيت إلى الاعتقاد بأن لا. ولكن حتى الثلاثين من عمري فحسب، ثم أزهد وأعفّ من تلقاء نفسي بعد ذلك. إنّ الواعظين بالأخلاق، المصدورين الحزانى وخاصة الشعراء، يحلو لهم أن يصفوا بالضعة هذا الحبّ الحارّ للحياة. ويجب أن نعترف، على كل حال، أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف إرادة الحياة هذه بأي ثمن. وإنّ هذه الإرادة قائمة فيك أنت أيضاً. لكن لماذا توصف بالدناءة؟ إن القوة الصادرة عن المركز قوة رهيبة لم تنفد في كوكبنا هذا، يا أليوشا. الحياة ممتعة، وإني لأحيا ولو على خلاف كل منطق. حسناً، أنا لا أؤمن بقيمة النظام ولكنني أحبّ وريقات الأشجار النديات حين تنبت في الربيع، وأحبّ السماء الزرقاء، وأحبّ أيضاً دون أن أدري لماذا - هل تصدّق ذلك؟ - أحبّ أيضاً بعض البشر، وتهزّني الحماسة لأعمال البطولة التي انقطعت، مع ذلك، عن الإيمان بها، منذ زمن طويل، ولكنني ما زلت أقدّسها بحكم عادة غالية على نفسي. جاؤوك بحساء السمك. كلْه. أريد أن أسافر إلى أوروبا يا أليوشا. سأسافر إليها من هنا، وأعرف أنني لن أجد هناك إلّا مقبرة، ولكنني شديد الارتباط بذكرى أولئك الموتى الذين يرقدون فيها. إن كلّ حجر يغطيهم يتكلم عن حياة سابقة جامحة من الإيمان بالحياة، وبقيمة العمل، وبالحقيقة، وبالكفاح، وبالعلم أيضاً، أنا أعلم مسبقاً أنني سأرتمي على ركبتي جاثياً أمام هذه الذكريات، وسأبكي على حجارة القبور تلك، وأغمرها بالقبل، مع شعوري في أعماق قلبي بأن ذلك قد مضى ولن يعود. لكنني لن أبكي من يأس بل من سعادة الشعور بانسكاب دموعي. سيسكرني حزني وحناني. إنني أحبّ وريقات الأشجار في الربيع، أحبّ السماء الزرقاء! ليس الأمر أمر عقل ومنطق. إن حبّ الحياة ينبجس من أحشائي، وإن قوى شبابي التي لم تضعف هي التي أحبّ... هل أنت تفهم شيئاً من هذه المعمَّيات يا أليوشا أو

لا؟ قال إيفان ضاحكاً.

فأجابه أليوشا:

- أفهمها جداً، يا إيفان! من عمق الأحشاء ينبع حبّ الحياة. لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة. وإني أبتهج كثيراً لك حين أراك راغباً في الحياة بهذه القوة. قال أليوشا.

- وأعتقد أنّ على كل الناس في هذا العالم أن يتعلّموا حبّ الحياة قبل كل شيء.

- حبّ الحياة أكثر من معنى الحياة؟

- نعم، بالتأكيد، حبّ الحياة قبل المنطق، كما قلت أنت، قبل المنطق بالمطلق، وبهذا وحده سأدرك معنى الحياة. أنا، من جهتي، أفكر في هذا منذ زمن طويل. لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تريد أن تعيش ولم يبق عليك إلّا أن تملك نصفها الآخر حتى تحقق لنفسك الخلاص.

- هل أنت تهتم بخلاصي؟ وأنا، ما كنت أحسب أنني في ضياع. وما هو النصف الثاني في رأيك؟

- هو بعث أمواتك أولئك الذين لم يموتوا أبداً. هيّا، ناولني الشاي. إنني سعيد بحديثنا هذا يا إيفان.

- ألاحظ أنك في حالة من الوحي. ما أشدَّ ما أحبّ «اعترافات الإيمان» هذه التي يقولها... رهبان مبتدئون مثلك! إنك شاب ثابت يا ألكسي. هل صحيح أنك تريد أن تترك الدير؟

- نعم صحيح! أمرني مرشدي العجوز بالذهاب إلى العالم.

- سوف نلتقي أيضاً إذن، في هذا العالم، سوف نلتقي قبل الثلاثين عاماً، قبل أن أرمي أنا الكأس. لا يريد والدنا أن يعدل عن التمتع بالحياة قبل بلوغ السبعين عاماً. وهو يحلم أن يعيش ثمانين عاماً، لقد قال لي ذلك، هو نفسه، وهو جادّ في هذا الأمر وإن يكن مهرّجاً. إنه يتهالك على اللذة ويحسب أنه مقيم عليها كما على صخرة... صحيح أن الإنسان لا يبقى له بعد الثلاثين شيء غير اللذة، ولكن الحياة على هذا الطراز حتى السبعين شيء مقرف، فالأفضل حتى الثلاثين: وبذلك يستطيع المحافظة على «مظهر نبل» كاذباً على نفسه. هل رأيت ديمتري اليوم؟

- لا، لم أره، لكنني رأيت سمردياكوف.

وقصَّ أليوشا على أخيه بسرعة تفاصيل لقائه بسمردياكوف. فكان إيفان يصغي إليه وقد اكتسى وجهه تعبير من الهمّ. فاستوضح أليوشا في نقطتين أو ثلاث.

- ألحَّ سمردياكوف على أن لا أذكر لأخينا ديمتري شيئاً مما قاله لي. أضاف أليوشا. فقطّب إيفان حاجبيه ووجم مفكراً.

- أبسبب سمردياكوف تقطّب حاجبيك؟ سأله أليوشا.

- نعم، بسببه. فليذهب إلى الجحيم. لقد كنت أرغب، حقاً، في أن أرى ديمتري ولكن الآن لا حاجة إلى ذلك.

- وهل صحيح أنك ستسافر بمثل هذه السرعة يا أخي؟

- أجل.

- وديمتري والوالد؟ كيف سينتهي هذا الأمر بينهما؟ قال أليوشا قلقاً.

- إنك تعود دائماً إلى هذا الموضوع! فيمَ يعنيني أنا نزاعهما؟ هل أنا حارس لأخي ديمتري؟ أجاب إيفان بعنف، ولكنه لم يلبث أن ابتسم ابتسامة مرَّة: ذلك جواب قايين لله عن قتله أخاه؟ أليس هذا ما تريد قوله؟ ولكن، إلى الجحيم، على كل حال! صحيح، أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لأحرسهما! لقد أنهيت أعمالي، وسأسافر. أتراك تتخيل أنني أغار من ديمتري، وأنني حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أنتزع منه جميلته كاترينا إيفانوفنا؟ دعك من هذا! كانت لي أنا أعمالي، وقد أنجزتها فسأسافر. أنجزتها منذ قليل، وكنت أنت شاهداً عليها.

- هل تعني ما جرى بينك وبين كاترينا إيفانوفنا؟

- نعم. في منزلها. لقد قطعت صلتي بها دفعة واحدة. ماذا؟ ماذا فعلت لديمتري؟ لا شأن لديمتري بهذا الأمر. وأنت تعرف ذلك بنفسك. لقد تصرَّف ديمتري في هذا الأمر كلّه تصرّف متواطىء معي. أنا لم أطلب منه شيئاً بل هو من تركها لي من تلقاء نفسه، وزاد على ذلك، فباركني. لكنها تمثيلية. ليتك تعلم يا أليوشا مدى شعوري بالتخفف الآن! كنت هنا، أتناول غدائي منذ قليل، اشتهيت أن أطلب بعضاً من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة حريّة عادت إليّ. لقد دام ستة أشهر - وفجأة ها أنا أتحرر دفعة واحدة، حتى يوم أمس، ما كنت أتصوَّر أنني سأستطيع أن أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى أردت!

- أعن حبِّك تتكلّم يا إيفان؟

- عن الحبّ إن شئت، نعم؛ لقد عشقت آنسة، فتاة في مدرسة داخلية، فتألمت معها، وهي التي جعلتني أتألم. وكنت مشدوداً إليها... ثم تبدّد كل شيء في طرفة عين. منذ قليل، كنت أتحدث معها مستهاماً، وعندما خرجت، تفجرتُ ضحكاً - هل تصدّق هذا؟ تلك هي الحقيقة.

- لكنك حتى الآن تتكلم بمرح. قال أليوشا وهو يتفرس في وجه أخيه الذي بدا يشع فرحاً.

- وهل يمكنني أن أحزر أنني لا أحبّها أبداً. ها، ها، كم تعجبني! ولكن حين أجريت معها ذلك الحديث، وحتى الآن، تعجبني كثيراً، هل تصدّق؟ ورغم هذا، فكم هو سهل التخلي عنها.

- لا، لعلَّ ذلك لم يكن حباً؟

- أليوشا! قال إيفان ضاحكاً. لا تطلق آراءً في الحب! فهذا لا يناسب حالتك. إنني أفكّر كيف اندفعت في هذا الصباح! لقد نسيت أن أقبّلك عندئذ... وكم هي عذَّبتني! صحيح أنني كنت على حافة الهستيريا؛ أوه! كانت تعرف أنني أحبّها! وكانت تحبني أنا وليس ديمتري (قال إيفان ذلك مرحاً) ولم يكن ديمتري إلّا ذريعة لها. وكل ما قلته لها هو الحقيقة، لكن المشكلة، وما هو أساسيّ، أنها تحتاج إلى خمسة عشر عاماً أو إلى عشرين عاماً ربّما، لكي تدرك أنها لا تحب ديمتري أبداً، وأنها تحبني أنا، أنا الذي تعذبني. وأعتقد أنها لن تدرك هذه الحقيقة رغم درس هذا الصباح! وهذا أفضل: أنا نهضت وانصرفت إلى الأبد. بالمناسبة، كيف حالها الآن؟ وماذا حدث بعد انصرافي؟

- أطلعه أليوشا على النوبة العصبية التي ألمّت بها، وذكر له أنها لا تزال فاقدة الوعي، على الأرجح، وأنها تهذي.

- هل صحيح ما قالته خوخلاكوفا؟

- أعتقد أن نعمْ.

- يجب الاستطلاع. على كل حال، ما من أحد مات من نوبة عصبية. قد تفيد نوبة الأعصاب، نوبة الأعصاب وهبها الله للنساء لأنه يحبهنّ. لن أذهب إليها! لماذا استئناف الأمر؟

- زعمت منذ قليل أنها لم تحبّك يوماً.

- قلت ذلك عمداً، يا أليوشا! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فنشرب احتفالاً باستعادة حريّتي. ليتك تعلم ما أشعر به من سعادة.

- أخي، الأفضل ألّا تشرب. أجاب أليوشا بحرارة. إنني أشعر بحزن شديد ثم إن...

- أنت حزين منذ زمن طويل، لقد لاحظت أنا هذا.

- إذن، إنك مصرّ على أن تسافر غداً صباحاً؟

- غداً في الصباح؟ أنا لم أقل في الصباح.... لكنني ربَّما أفعل. أنت ترى أنني تناولت غدائي هنا حتى لا أخلو إلى العجوز حول طاولة واحدة، فإلى هذا الحدّ يثير العجوز اشمئزازي، هو وحده. كان يمكن أن أتركه منذ زمن طويل لأتحرَّر من وجوده. ولكن، لماذا يقلقك سفري؟ أنا وأنت، لا يزال أمامنا وقت طويل، لا يزال أمامنا أبدٌ تقريباً!

- إذا سافرت غداً، أيكون أمامنا أبد؟

- أنا وأنت، فيمَ يهمّنا هذا الأمر؟ سيكون لنا متَّسع من الوقت لكي نتحدَّث عمّا يهمّنا، وما هو لنا نحن الاثنين، ولماذا نحن هنا. قال إيفان ضاحكاً، لماذا تنظر إليّ بهذه الدهشة؟ ما هو الأمر بالنسبة إلينا؟ أجب! هل نحن هنا لكي نتحدَّث عن الحبّ، وعن كاترينا إيفانوفنا، والعجوز وديمتري، وعن ظروف الحياة في الخارج، وعن الأحوال المشؤومة في روسيا، وعن الأمبراطور نابليون؟ هل نحن هنا من أجل أن نتحدَّث في هذه الأمور؟

- لا، ليس من أجل هذا.

- إذن، أنت تعرف بنفسك ما يجمعنا هنا. ثمة أناس يتناقشون في أمور هذا العالم، أما نحن، نحن البسطاء، فنريد أن نحلَّ أولاً مشكلات الحياة الميتافيزيقية. ذلك هو همُّنا نحن شباب روسيا. إن كل شباب روسيا يعالجون الآن ألغاز الكون الخالدة. وقد اختاروا للاهتمام بهذه الألغاز الكونية الخالدة اللحظة التي قرر فيها العُجّز أن يدرسوا المسائل العلمية. ما الذي كان يدفعك خلال هذه الأشهر الثلاثة إلى أن تنظر إليَّ نظرة الانتظار هذه؟ كنت تريد أن تعرف إن «كنت أنا ملحداً أم مؤمناً؟» ذلك ما كان في أعماق نظرتك منذ ثلاثة أشهر، يا ألكسي فيودوروفتش؟

- نعم. ربَّما كان ذلك، قال أليوشا مبتسماً. ولكنني أرجو أن لا تكون تسخر منّي يا أخي العزيز؟

- أنا أسخر؟ لا أريد أن أزعج أخي الصغير الذي انتظر مني أشياء كثيرة خلال هذه الأشهر الثلاثة. أليوشا، أنظر إليَّ في عينيّ: ألست أنا فتىً صغيراً مثلك، مع فارق واحد هو

أنني لست راهباً مبتدئاً. كيف يتصرّف اليوم شبابنا الروس؟ البعض منهم أريد أن أقول؟ إنهم يلتقون في خمارة قذرة ويجلسون إلى طاولة في إحدى الزوايا. لقد عاشوا دون أن يتعارفوا حتى الآن، وسينكر بعضهم بعضاً، بعد أربعين عاماً متى خرجوا من الخمارة. فما الذي يتناقشون فيه أثناء هذه اللحظات القصيرة التي توفرها المصادفة في الخمارة؟ يتناقشون في الكون وفي المسائل الكونية حتماً: هل الله موجود وهل ثمة خلود بعد الموت؟ والذين لا يؤمنون بوجود الله، يتناقشون في الاشتراكية والفوضوية، وفي إعادة بناء البشريَّة على أسس جديدة. والفريقان كلاهما سواء. فالمشكلات التي يعالجها هؤلاء، هي المشكلات التي يعالجها أولئك ولكن من الجهة المعارضة. وعددهم لا يُحصى في بلادنا، هؤلاء الشبان الروس الذين يفيضون أصالة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون إلا مناقشة المسائل الأبدية. أليس هذا صحيحاً؟

- نعم، بالنسبة إلى الروس الحقيقيين. إن المسائل المتعلقة بوجود الله وبالخلود، أو، كما تقول، هذه المسائل عينها التي تعالَج من الجهة المعارضة هي ذات خطورة حيوية ومن المفيد أن تكون كذلك. أجاب أليوشا وهو ينظر إلى أخيه بابتسامة هادئة.

- هل تعرف يا أليوشا، معنى أن تكون روسياً، هو أن تلمع بالذكاء، بالرغم من كل شيء، واعلم على كل حال، أن هذه الأمور التي تشغل تفكير الشبان في روسيا هي أغبى ما يمكن أن يتصوره الخيال. لكن بين هؤلاء المراهقين واحداً، اسمه أليوشا، أحبّه كثيراً.

- إنها نتيجة بلغت في استخلاصها غاية اللطف. قال أليوشا ضاحكاً فجأة.

- بماذا تريد أن نبدأ؟ أنا أترك لك الخيار. هل تريد أن نتحدّث عن الله، هل هو موجود أم لا؟

- إبدأ من حيث تريد، ولو بمعالجة تلك المسائل التي وصفتها بأنها تُعالَج من الجهة المعارضة. ألم تؤكد يوم أمس، في منزل والدنا، أنّ الله غير موجود؟ قال أليوشا وهو ينظر إلى أخيه نظرة تساؤل.

- تعمدت أن أقول ذلك يوم أمس، لدى العجوز لكي أغيظك، وقد رأيت لهيباً ينبجس من عينيك. والآن، أشعر بأنني على أتمّ الاستعداد لمناقشة هذا الأمر معك، وسوف أناقشه بجدّية. أريد أن أتفاهم معك، يا أليوشا، لأنني ليس لي أصدقاء. إنني سأحاول الاقتراب منك.

- هل تتصور أنني ربما سلَّمت بوجود الله؟ هذا يفاجئك، أليس كذلك. قال إيفان ضاحكاً.

- نعم، بالتأكيد. إلّا أن تكون الآن مازحاً من جديد.

- مازحاً»؟ لقد أخذوا عليَّ ذلك بالأمس، عند راهبك العجوز؛ إسمع، يا صغيري؛ إنّ» عجوزاً آثماً عاش في القرن الثامن عشر، قال: «إذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه». والحق أن الإنسان قد اخترع الله. وليس أغرب ما في الأمر أنّ الله لا وجود له في الواقع، بل إن هذه الفكرة، فكرة وجود الله بالضرورة، قد أُمكن أن تنبت في دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الإنسان من توحش وشرّ، ذلك أن هذه الفكرة مقدّسة تؤثّر في القلب، وهي في الوقت نفسه حكيمة وتشرّف الإنسان. أما أنا، فقد قررت منذ زمن طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذي خلق الإنسان أم أن الإنسان هو الذي تخيَّل الله؟ سأعفي نفسي من فحص البديهيات التي يستند إليها شبابنا الروس، في هذه الأيام، والتي يستمدونها، في حقيقة الأمر، كما هي من الافتراضات التي يفترضها الناس في البلاد الأوروبية الأخرى. ذلك أنّ ما هو افتراض لا أكثر. في نظر العلماء الأجانب، سرعان ما يصبح بديهية في نظر مراهقينا، بل وفي نظر أساتذتهم

الذين لا يفضّلون المراهقين صدقَ حكمٍ في كثير من الأحيان. سأترك جانباً جميع الافتراضات إذن وأتساءل ما هي غايتنا الآن على وجه الدقّة؟ أما أنا فيهمّني أن أشرح لك طبيعتي، بأقصى سرعة ممكنة، وأن أفهمك أيَّ إنسان أنا، وما هو إيماني، وأين أضع آمالي؟ لذلك، سأقول لك فوراً، إنني أسلِّم بوجود الله دون مناقشة. ولكنني أريد أن تلاحظ ما يلي: إذا كان الله موجوداً، وإذا كان قد خلق الأرض فعلاً، فهو اتبّع في هذا الخلق، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة، قوانين هندسة إقليدس، ولم يهب للعقل البشري إلّا فكرة مكان ذي ثلاثة أبعاد. ومع ذلك، فقد وُجد ولا يزال يوجد حتى اليوم، أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشكّون في أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه عام، مستنداً إلى قوانين هندسة إقليدس وحدها؛ حتى إنهم يقررون أن الخطّين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة إقليدس أنهما لا يمكن أن يتقاطعا على الأرض، يمكن، في الواقع، أن يتقاربا ويتلاقيا في نقطة موجودة في اللانهاية. لقد قلت لنفسي، يا عزيزي: إذا كنت عاجزاً عن فهم هذه الحقيقة، فلن أستطيع أن أعرف أيَّ شيء عن مسألة الله. إنني أعترف بتواضعٍ أنني لا أملك المواهب اللازمة للجزم برأي في مسائل من هذا النوع، لأن عقلي إقليدسيّ قد خُلق للأرض، ومن العبث أن نشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم. وإنك لحسناً تفعل أنت نفسك، يا أليوشا، إذا أنت لم تفكر في هذه الأمور، وإذا أنت لم تتساءل خاصة هل الله موجود أم هو غير موجود! هذه عناصر لا يدركها عقلنا لأنّ عقلنا قد خُلق لمعرفة مكان ليس له إلّا ثلاثة أبعاد. ذلك هو السبب في أنني أسلّم بوجود الله. ولست أسلّم بوجود الله فحسب بل أسلِّم أيضاً بحكمته العليا وبغاياته، رغم أنه من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات. أنا أؤمن بوجود نظام كونيّ شامل يضفي على الحياة معنى، وأؤمن بانسجام أبديّ علينا أن نذوب فيه جميعاً ذات يوم. أؤمن بـ «الكلمة» التي يتجه إليها الكون «الكلمة التي هي الله»، وهلّم جرا إلى غير نهاية. لقد قيل في هذا المجال كلام كثير. ولكنني على طريق الصواب، ألا ترى هذا الرأي؟ فاعلم، إذن، الآن، ختاماً لكل ما قلته، أنني لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله، ولا أستطيع الموافقة على قبوله، رغم معرفتي بوجوده. لست أرفض الله، إفهمني جيداً، وإنما أرفض العالم الذي خلقه ولا أريده. وها أنا أشرح لك ما أريد قوله: إنني أؤمن إيماناً جازماً، مثل إيمان طفل، بأن آلام هذا العالم سوف تخف شيئاً بعد شيء، وسوف تزول في نهاية الأمر، وأن هذه المهزلة الحقيرة، مهزلة التناقضات الإنسانية ستتبدّد كسرابٍ باطل تبدُّدَ شيء تافه اخترعه كائن ضعيف صغير، وأنها ستتبدّد كمثل الذرَّة في ذهن إقليدس. أؤمن بأنّ حقيقة مثلى ستنبثق في خاتمة المطاف من هذه الحياة حين يتأكد الانسجام الأبديّ، فإذا هي تبلغ من السموّ أنها تهدّىء جميع القلوب، وتسكّن جميع أنواع الغضب، وتكفّر عن جميع جرائم البشرية، وتفدي كل الدم الذي سفح على الأرض. ولن تتيح هذه الحقيقة العفو عن جميع الأخطاء البشرية فحسب، مهما كانت تلك الأخطاء، بل سوف تسوِّغها فوق ذلك. لنسلِّم بهذا كلّه. ولكن، حتى في هذه الحالة، فأنا لن أقبل الأمر ولا أريد قبوله! فلتلتقِ الخطوط المستقيمة المتوازية ولأرها، فأعترفَ بأنها التقت، ولكنني لن أقبل ذلك. تلك هي طبيعتي، يا أليوشا، وذلك هو إحساسي بالعالم. لقد حدَّثتك بجدّية في هذه المرة؛ تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبى نحو ممكن، ولكني أوصلته إلى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً وصادقاً، لأن ذلك وحده يهمّك. ليس الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه مني، بل كنتَ تريد أن تسمعني متحدثاً عن نفسي لكي تعرف ما يدور في نفسي كأخٍ تحبّه. وها أنت عرفت ذلك الآن، وقد قلتُه.

ختم إيفان كلامه المطنب فجأة، بفيض من عاطفة كان غير متوقع.

- ولماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا «على أغبى نحوٍ ممكن»؟ سأل أليوشا وهو يلقي عليه نظرة شاردة.

- أولاً، لأنني أردت أن أجاري عادات الناس؛ فإن الأحاديث حول هذا الموضوع في

روسيا غبيّة دائماً. ثانياً، لأن المرء يكون أقرب إلى الحقيقة عندما يكون غبياً. فالأكثر غباء هو الأكثر وضوحاً. إن الغباء يمضي نحو الهدف مباشرة دون لفّ ودوران غامضين. الغباء بساطة وإيجاز، أما الذكاء فمكر وخداع. إن الفكر الذكي فاجر أما الغباء فمستقيم وشريف. شرحت لك يأسي، وعلى قدر ما يكون الشرح غبياً، يكون الأمر أفضل في نظري.

- هل تشرح لي لماذا ترفض «قبول العالم»؟ سأله أليوشا.

- طبعاً أشرح لك ذلك. ليس هذا سرّاً. فأنا أريد الوصول إلى هنا. أنت أخي الصغير، ولا أريد أن أصرفك عن إيمانك وأفقدك توازنك. بالعكس، أنا نفسي من يريد أن يشفى بفضلك. أجاب إيفان مبتسماً فجأة وكأنه مراهق خجول. لم يره أليوشا بعدها يبتسم هذه الابتسامة.

IV

العصيان

ينبغي أن أعترف لك بشيء. بدأ إيفان كلامه: لم أستطع أبداً أن أفهم كيف يمكن أن يحبّ المرء الناس القريبين منه؛ أريد القول: إنّ أقرب الناس إلينا، برأيي، هم الذين يستحيل علينا أن نحبَّهم، ولا يمكن أن نحبَّ إلّا البعيدين عنا. لقد قرأت، لست أذكر متى، ولا أين، عن «يوحنا الرحيم» (قديس) الذي جاءه متشرد جائع، وطلب منه أن يدفئه. فأضجعه على سريره وأحاطه بذراعيه وراح ينفخ في فمه النتن المتقيح المصاب بمرض رهيب. أنا متأكد أنَّ ما قام به كان كذبة هستيرية، وبدافع حبٍ يمليه الواجب، وروح التكفير عن ذنب كان يثقل كاهله. فلكي نستطيع أن نحبّ إنساناً عليه أن يكون مختفياً عن نظرنا، ومتى أظهر وجهه اختفى الحب.

- لطالما ردّد هذه القصة الراهب العجوز زوسيما. قال أليوشا. كان يقول أيضاً إن وجه الإنسان غالباً ما يشكل حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك الذين لا تجربة لديهم في الحب. ولكنّ ثمة الكثير من الحب بين الناس؛ كما أن هناك محبة تكاد تشبه محبّة المسيح، أنا أعرف ذلك يا إيفان...

- أما أنا حتى الآن فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه، ومعي ألوف البشر. إنما السؤال هو معرفة ما إذا كان سبب ذلك هو عيوب الناس أم طبيعة البشر. وبرأيي إنّ محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض. إنّ المسيح إله ونحن لسنا آلهة. لنفرض مثلاً، أنني قادر على أن أتألم بعمق. لكنه من الصعب على شخص آخر أن يعرف عمق الألم الذي أعانيه أنا، وذلك لأنه شخص آخر، من النادر أن يسلّم الواحد بألم غيره (كما لو كان ذلك مرتبة اجتماعية). فلماذا يرفض أن يسلّم بألمي؟ لأن رائحة فمي كريهة، مثلاً، أو لأنّ وجهي غبي، أو لأنني دست قدمه، لست أدري متى! ثم إنه ثمة آلام وآلام: هناك آلام تخفض قيمتنا أو تنقص قدرنا، كالجوع مثلاً. فالناس تريد أن تصدّقنا في ما يتعلق بهذا النوع من الآلام لكي يجعلوا من أنفسهم محسنين إلينا فيما بعد. أما إذا كان الألم أرفع من ذلك درجة أو درجتين، إذا كان ألماً نحتمله في النضال من أجل فكرة مثلاً، فإنّ الناس يرفضون أن يصدِّقوه باستثناء عدد قليل جداً. وهم لا يصدّقونه لأنهم عندما نظروا إلى صاحبه رأوا أن رأسه ليس ذلك الرأس الذي لا بدَّ أن يكون في نظرهم رأسَ من يتألم في سبيل هذه الفكرة أو تلك. وهم، عندئذ، يرفضون التعاطف معه دون أن يكون في موقفهم هذا شيء من روح الشرّ. إن الشحاذين ولاسيّما ذوي النفوس النبيلة، يظلّون مختبئين عن الأنظار، ولا يطلبون الإحسان إلا بإعلانات ينشرونها في الصحف. من الممكن أن يحب الإنسانُ الإنسانَ حباً مجرداً، ويمكن أن يحبه في بعض الأحيان فعلاً، ولكن من بُعد. أما من قُرب فذلك شبه مستحيل. لو كانت الأمور تجري كما على المسرح في «باليه» نرى فيه الشحاذين يظهرون، إذا ظهروا، مرتدين أسمالاً من حرير ومغطّين بتخاريم ممزقة، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة، فقد نعجب بهم عندئذ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبّهم. حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع. لقد كنت أنوي أن أحدّثك عن آلام البشرية عموماً، ولكنني أحسب أنه من الأفضل أن نقتصر على آلام الأطفال وحدهم. ولئن كانت حجَّتي ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها، فإنني أعتقد أنّ هذا أفضل. سوف تكون المناقشة أقلّ مواتاة لي بطبيعة

الحال. لكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبّهم من قُرب مهما تكن قذارتهم ودمامتهم (وإن كنت أعتقد أن وجوه الأطفال لا يمكن أن تكون أبداً دميمةً). ثم إنني لا أحب أن أتكلم عن الكبار ليس لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحبّ فحسب بل لأنهم يتمتعون من جهة أخرى بتعويض: فهم قد أكلوا تفاحة شجرة المعرفة وأصبحوا «شبيهين بالآلهة»، ولا يزالون يأكلون منها. أما الأطفال فإنهم لمّا يذوقوا تلك الثمرة، فبراءتهم لم يمسها سوء. هل تحبّ الأطفال، يا أليوشا؟ أعرف أنك تحبّهم، وسوف تعرف إذن لماذا لن أحدثك إلّا عنهم. إنهم يتألمون ألماً مؤذياً جداً في هذا العالم، وذلك بسبب ذنب آبائهم الذين أكلوا التفاحة - ومن أجل أن يكفّروا عن تلك الخطيئة. لكنّ هذا استنتاجاً من عالم آخر، وسيبقى قلب الإنسان على هذه الأرض عاجزاً عن إدراكه. من الظلم أن يعذَّب أبرياء لذنب اقترفه غيرهم. أنا أيضاً أحب الأطفال يا أليوشا، تخيّل هذا. ولاحظ أن الناس القساة أصحاب الأهواء الجامحة، من أمثال آل كارامازوف، كثيراً ما يعبدون الأطفال. فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً كبيراً ما ظلّوا صغاراً لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم، حتى كأنهم ينتمون إلى نوع آخر، لأنّ طبيعتهم ليست مثل طبيعتنا. إنني أعرف لصّاً في أحد السجون، كان يقتل عائلات بكاملها في المنازل التي يتسلّل إليها ليلاً ليسرقها، ولم يوفّر الأطفال. ولكنه كان يحبهم أثناء وجوده في السجن إلى درجة كان يراقب، من خلال كوّة زنزانته، الصِّبية يلهون ويتسلون في ساحة السجن. واستطاع أخيراً أن يكسب مودّة واحد منهم، كان يأتي ليتحدث معه واقفاً تحت النافذة، وأصبح الصغير صديقه الحميم... لا أعرف لماذا أقول هذا، يا أليوشا؟ لست أدري، لدي صداع قوي، وأشعر بحزن عميق.

- إنك تتكلم بطريقة غريبة. قال أليوشا قلقاً. كأنك في حالة جنون.

- بالمناسبة، تابع إيفان كأنه لم يكن يصغي إلى ما يقوله أخوه، لقد أخبرني مؤخراً رجل بلغاري في موسكو، كيف الأتراك والشراكسة يفرضون الإرهاب في بلغاريا لأنهم كانوا يخشون ثورة الشعوب السلافية - يحرقون القرى وينهبون الأرزاق ويغتصبون النساء والأطفال، ويسمّرون بعض السجناء في آذانهم بالسياج ويتركونهم هكذا حتى الصباح ثم يشنقونهم - إلخ. لا يمكن تصوُّر مثل هذه الأمور. في الواقع عندما يحكى أحياناً عن قساوة الإنسان الحيوانية. فهذا القول إهانة جارحة للحيوانات: فالحيوان لا يستطيع أن يكون بقسوة الإنسان، القسوة بالمعنى الفني، فالنمر يمزق فريسته ويلتهمها، لأنه لا يحسن القيام بغير ذلك، ولا يخطر بباله أن يسمّر أحداً من أذنيه بسياج، ولو استطاع ذلك. وأولئك الأتراك يتسلّون، بصورة خاصة، بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً. ينتزعون بالسيف صغاراً من أحضان أمهاتهم ويرمونهم من النوافذ فيتلقفهم في الفناء، أتراك آخرون بأسنَّة الرماح على مرأى من أمهاتهم اللواتي يُعدّ حضورهنّ أهمَّ عنصر من عناصر هذه المتعة. لقد حفظت ذاكرتي، بصور خاصة، مشهداً وُصف لي: أمّ ترتجف هلعاً وفي يديها طفل صغير؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبة صغيرة. يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلّونه ويضحكونه، والطفل سعيد يمدُّ إليهم ذراعيه. وفي تلك اللحظة يصوِّب إليه أحد الأتراك مسدساً، من مسافة عشرين سنتيمتراً. يتابع الطفل ضحكه بفرح ويمدُّ يديه الصغيرتين ليتناول المسدس فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشّم رأسه... أليس هذا فنّاً؟ يظهر أن الأتراك يحبون الحلوى كثيراً.

- أخي، ماذا تريد أن تقول؟ سأل أليوشا.

- أعتقد أنه إذا لم يكن الشيطان موجوداً، وإذا كان الإنسان قد خلقه، فلا شك في أن الإنسان قد خلقه على صورته هو.

- إذن، كما خلق الله أيضاً؟

غريب كم أنك قادر على قلبَ الألفاظ كما يقول بولونيوس في مسرحية «هملت». - وراح يضحك. إنك توقعني في كلمة، حسناً، يسرّني هذا. إن إلهك جميل إذا كان قد خلق الإنسان على صورته. تسألني إلى أين أريد أن أصل؟ أنا امرؤ هاوٍ يجمع بعض الوقائع، هل تصدقني؟ أسجلها وأجمعها من الصحف أو من أحاديث الناس. جمعت حتى الآن كثيراً من هذه الوقائع. والأتراك يحتلّون في هذه الوقائع مكاناً كبيراً ولكن الأتراك أجانب. ولديَّ كذلك وقائع كثيرة عن حالات قومية روسية صرفة تفوق حتى وقائع الأتراك. في بلادنا، يُعمد خاصة إلى السوط والعصا. هذا اختصاص قومي لنا. نحن لا نسمّر الناس من آذانهم لأننا أوروبيون رغم كل شيء. لكننا في مقابل ذلك نملك السياط والعصيّ، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا. يبدو أنّ الناس في البلدان الأجنبية قد تخلَّت عن الجلد بالسوط. فأصبحت العادات هناك أقرب إلى اللين، والقوانين النافذة هناك أصبحت لا تسمح للإنسان أن يجلد أخاه الإنسان. لكن الإنسان قد وجد هناك ما يعوّض به ما افتقده تعويضاً يتّصف أيضاً بطابع قومي خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً في بلادنا. لكن هنالك علامات تدلّ، والحق يقال، على أن أساليب التعويض هذه قد بدأت تتسرَّب إلى روسيا منذ زمن، لاسيّما بفضل الحركة الدينية التي تنتشر في الآفاق العليا من مجتمعنا. عندي نشرة شائعة مترجمة عن الفرنسيّة تروي قصة إعدام مجرم في مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار في الثالثة والعشرين من عمره، كما أعتقد، أنه ندم على فعلته واعتنق الديانة المسيحية قبل أن يصعد إلى المقصلة. إن الواقعة حديثة قد جرت منذ حوالى خمس سنوات. وريشار هذا لقيط، كان أبواه قد «أهدياه» وهو في السادسة من عمره إلى رعاة جبليين قاموا بتربيته بغية أن يعمل لهم بعد ذلك. شبَّ الصبي كحيوان صغير متوحش. ولم يعلّمه الرعاة الذين تبنّوه شيئاً، وأرسلوه يرعى القطعان منذ بلغ السنة السابعة دون أن يكسوه ودون أن يطعموه تقريباً، وذلك في كل فصول السنة. وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعر ضميرهم بأيّ تأنيب، لأنّ الصبي أهدي إليهم كما يُهدى شيء من الأشياء. لذلك، فهم لا يعتقدون أنّ من واجبهم أن يطعموه كما يجب لقاء ما يقوم به من عمل. وقد روى ريشار هذا، أمام المحكمة، أنه كان خلال كل تلك السنوات (مثل الابن الضالّ الذي يحدّثنا عنه الإنجيل) أن يشتهي أكل ثمار الخرنوب التي كانت تُعلف بها الخنازير المسمَّنة للبيع. ولكن، كان يُمنع عن ذلك، وكان يُضرب إذا سرق بعضها من «المعلف». هكذا، عاش ريشار سنوات طفولته وشبابه إلى الساعة التي شبَّ فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً، فترك الرعاة وراح يسرق. أصبح هذا المتوحش يجني رزقه في جنيف من العمل بأجرٍ يوميّ ولكنه كان ينفق ما يجنيه على السكر ويعيش حياة بشعة مستهجنة. وانتهى به الأمر إلى قتل رجل عجوز من أجل أن يسلبه ما معه. فاعتُقل وحوكم وحُكم عليه بالإعدام. إن الناس ليسوا عاطفيين في البلدان الأجنبية. وسرعان ما وجد نفسه في السجن محاطاً بقسّ بروتستانتي وأعضاء جمعيات دينية مختلفة وسيدات من مؤسسات الأعمال الخيرية، إلخ؛ فإذا هو أثناء فترة اعتقاله يُعلَّم القراءة والكتابة، ويُفسَّر له الإنجيل ويوعظ، ويُردّ إلى الصواب، ويُلام ويؤنَّب ويوبَّخ، وتُشرح له العقيدة ويُلقّن تعاليم المسيحية. فإذا به يعلن جهاراً، ذات يوم، أنه نادم على فعلته وأنه تاب. وقد وجَّه إلى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً؛ وأضاف إلى ذلك قوله إن الرب قد أدركه برحمته فهداه إلى الحق وأنزل عليه نعمته. فاهتزت المدينة كلها لهذا الأمر، وإذا جنيف الفاضلة الحكيمة تغلي وتفور، وإذا جميع الناس في المجتمع الراقي، وجميع «الأخيار» يريدون زيارته في سجنه. حضنوه وعانقوه وقبَّلوه، وقالوا له: «أنت أخونا وقد حلَّت عليك نعمة الله»، فكان ريشار يبكي من الانفعال، ويكرر قوله «نعم لقد حلَّت فيّ نعمة الله. كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على علفها، وها هو الرب يرسل إليّ نعمته الآن. سأموت في محبة الله!» فيجيبه الآخرون: «نعم ما تقوله يا ريشار، ستموت متصالحاً مع الرب. لقد سفحت دماً فيجب أن تموت في الرب. صحيح أنك لم تكن مذنباً إذ كنت تجهل الله أيام كنت تحسد الخنازير على علفها، وأيام كنت تُضرب إذا سرقت بعض العلف من مذودها (وذلك لم يكن عملاً جيداً أبداً لأن السرقة حرام)، ولكنك سفكت دماً

فيجب أن تموت». وجاء اليوم الأخير. كان ريشار قلقاً، يبكي، وما ينفك يردد دون توقف: «هذا أجمل يوم في حياتي فأنا ذاهب إلى الرب!» وكان الكهنة والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يصرخون بعده: «نعم، نعم. هذا أجمل يوم في حياتك لأنك ذاهب إلى الرب». ورافق هذا الجمهور ريشار إلى المقصلة، فبعضهم تبع عربة العار التي تنقل الجاني راكباً والبعض الآخر يتبعها سائراً. ووصل الجميع أمام المقصلة: «متْ أيها الأخ، مت يا أخونا ريشار، متْ في محبة الله لأن نعمة الله قد حلَّت فيك». ودُفع الأخ ريشار إلى المقصلة تغمره قبلات إخوته، واضُجع عليها، وقُطع رأسه قطعاً أخوياً جداً لأن نعمة الله قد حلَّت فيه. هذا عمل يتميز بطابع خاص. لقد تُرجمت هذه النشرة إلى اللغة الروسية، ترجمها محسنون ينتمون إلى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي، وأرسلوا منها أعداداً ضخمة إلى جميع الصحف لتوزّع مجاناً في سبيل تثقيف شعبنا. إن حالة ريشار هذا شائقة بما تحمله من طابع قومي عندنا. فنحن في بلادنا لا نقطع رأس أخينا لأنه أصبح أخانا ولأنّ نعمة الله حلَّت فيه. لكنني أردّد: عندنا شيء لا بأس به هو أيضاً. فعندنا نحن، نضرب ضرباً قاسياً وقد أصبح هذا نوعاً من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية مشروعة. لقد صوَّر نكراسوف، في إحدى قصائده، شقاء حصان كان أحد الفلاحين يضربه بالسوط على عينيه، على «عينيه الوديعتين». من الذي لم يشهد منظراً كهذا المنظر الشائع كثيراً، والروسيّ جداً. إن ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذي كان يجرّ عربة مثقلة بحمولة فوق طاقته قد سقط في الوحل ثم لم يستطع أن يتخلّص منه. فراح الفلاح يضربه، ثم يضربه بجنون، وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه في الهواء وهوى به على الحيوان أن أصبح لا يشعر بما يفعل، فهو في ما هو فيه من سُكر وحشيّ بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً: «وإن أصبحت لا تقوى على جرّ العربة، ولكنك ستجرّها رغم أنفك، سأرغمك على ذلك، أيها الحيوان القذر. مت إن شئت ولكن عليك أن تجرَّ العربة!» وراح الحيوان يتخبط، فما كان من الفلاح، وقد تملّكه غضب أعمى، إلّا أن أخذ يجلده بالسوط على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرحمة، على عينيه «الوديعتين» المليئتين بالدموع. واستطاع الحيوان، بوثبة مستميتة، أن يتخلص من سقطته فيقف على قوائمه ليستأنف سيره مرتجفاً بكل جسمه، وهو لا يستطيع أن يتنفس، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة. إن أشعار نكراسوف هذه تحدث في النفس أثراً رهيباً. والأمر مع ذلك، أمر حصان، ونحن نعرف أن الرب قد وهب لنا الخيل لنضربها، أو هذا، على الأقل، ما تعلمناه من التتار الذين أورثونا السوط هدية تذكرنا بهم. ولكن البشر يُضربون أيضاً. إنني أعرف حالة سيّد مرموق ومثقف جداً، تعاون مع زوجته على ضرب ابنتهما الصغيرة وهي طفلة في السابعة من عمرها. لقد دوِّنت الواقعة بكل تفاصيلها. كان للعصيّ عقد، فسرَّ الأب من ذلك. وقال: «سوف تشعر بالعقوبة شعوراً قوياً». وراح يضرب ابنته. هناك أشخاص، وأنا أعرف ذلك جيداً، يسكرون من الضربات التي يكيلونها، ويبلغون من النشوة بها حدود اللذة الجسدية، ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً. ضُربت الطفلة دقيقة فخمس دقائق فعشراً، ضرباً يزداد قوة وضراوة. والطفلة تصرخ، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها، لاهثة: «بابا، بابا، بابا الحبيب!» وبصدفة شيطانية غير لائقة رُفعت القضية إلى المحكمة. واستعان الأبوان بمحامٍ. إن الشعب يقول منذ زمن طويل: «المحامي ضمير يؤجّر نفسه». وأخذ المحامي يصيح قائلاً أمام المحكمة: «أب أدَّب ابنته. فما هذا إلّا حادث عادي شائع من حوادث الحياة العائلية. ومن عار هذا العصر الذي نعيش فيه أنه ظُنَّ أنّ هذه قضية يجب أن ترفع إلى المحكمة!» وقد تأثر المحلَّفون أشدَّ التأثر بأقوال المحامي فراحوا يتداولون الأمر، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة. فضجَّ الجمهور فرحاً ثملاً من السعادة حين سمع الحكم ببراءة الجلّاد. إنني لم أشهد المحاكمة، وإلّا لاقترحت إنشاء صندوق إعانة تكريماً لهذا الأب الجلّاد!» هذه لوحة جميلة، يا أليوشا، لكنني أملك لوحات أخرى قد تكون أجمل منها، وهي تتعلق بصورة خاصة، بالأطفال الروس. إليك قصة طفلة في الخامسة من عمرها، غضب منها أهلها وهم «أناس محترمون، موظفون مثقفون». أؤكد لك بجزم أن ثمة أناساً يشعرون بميل

خاص إلى تعذيب الأطفال، الأطفال وحدهم دون سواهم. إن هؤلاء الجلادين يبرهنون في تعاملهم مع سائر الناس على كثير من الدماثة والليونة، كما يليق بأوروبيين متعلّمين ومتنوّرين. ولكنهم، في المقابل، يجدون لذة كبيرة في تعذيب الأطفال، مع حبّهم لهم على طريقتهم الخاصة. إن منظر هذه الكائنات الصغيرة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها، ولا تعرف كيف تشتكي ولا إلى أين تلجأ ولا بماذا تعتصم، مع ما تتصف به هذه الكائنات من ثقة ملائكية يملك القدرة على إيقاظ القسوة الغريزيّة في قلوب أولئك الناس. لا شكَّ أن في داخل كل إنسان وحشاً نائماً، وحشاً مفترساً مسعوراً يتلذذ بسماع صراخ ضحيته فينطلق عندئذ بكل شراسته التي ضاعفها الفجور وكل ما يولّده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد، الخ. هذه الطفلة ذات السنوات الخمس، أنزل أبواها المثقفان بها أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال. كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أيّ سبب، حتى أنهك جسم الطفلة المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء. وأخيراً، توصّلا إلى صور من القسوة فيها كثير من التفنّن العلمي. من ذلك، أنهما أثناء الليالي الباردة كانا يحبسان الطفلة في المرحاض بحجة أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجتها في حينها (كأنَّ طفلاً نائماً في الخامسة من العمر يستطيع دائماً أن يستيقظ من نومه العميق الملائكي في الوقت المناسب للذهاب إلى المرحاض)؛ وكانا يلطخان وجهها بغائطها نفسه «لتعليمها» ويرغمانها على أن تبلع غائطها، وكانت أمّها، أمها بالذات، هي التي تجبرها على ذلك. وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام عندما كان يسمع، في الليل صرخات طفلتها السجينة في ذلك المكان الموبوء! هل تستطيع أن تتصوّر، أنت، عندما يقوم كائن صغير لا يزال عاجزاً عن إدراك ما يجري له، بلطم صدره المختنق بيديه الصغيرتين في غياهب العتمة والبرد متضرعاً إلى «الطفل يسوع» بدموع بريئة أن يحميه؟ هل تستطيع أن تفهم هذا الهراء؟ قل لي يا صديقي ويا أخي، لماذا وجد هذا الهراء؟ بدونه، لا يستطيع إنسان على الأرض أن يعيش، لأنه لم يعرف الشر من الخير. لكن، ما هي الفائدة من معرفة خير وشر هذا الشيطان، إذا كان هذا ثمنه. لكن عالم المعرفة بكامله لا يساوي دموع تلك الطفلة التي تتوسل إلى «الطفل يسوع» أن ينجدها. لن أقول شيئاً عن الآلام التي يعانيها الكبار. فالكبار قد أكلوا الثمرة المحرَّمة، فليجنوا جزاء ما فعلوا، وليأخذهم الشيطان جميعاً. إنني أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا. أنت لم تعد كما أنت. سأتوقف عن الكلام إن شئت.

- لا، أنا أيضاً أحبّ أن أتألم. تمتم أليوشا.

- لن أقصّ عليك إلّا قصة واحدة وأخيرة، لأنها شائقة جداً. وتتّسم حقاً بطابع مميز. خاصة أنني قرأتها منذ وقت قصير في مجلة «الأرشيف» أو «الزمن الماضي»، لست أدري على وجه الدقة، لقد نسيت أين قرأتها. وقعت هذه القصة في أحلك عهود الرقّ عند بداية هذا القرن. وعاش محرر الشعب! كان يعيش في ذلك الزمان، جنرال له علاقات رفيعة، طويل الباع، ويملك أراضي واسعة. لكنه واحد من أولئك الرجال (وقد أصبح عددهم قليلاً) الذين يعتقدون عندما يحالون على التقاعد، أنهم قد أصبح لهم على أقنانهم حق الحياة والموت. لقد وجد أمثال هؤلاء الرجال في الماضي. كان ذلك الجنرال يعيش في أراضيه التي يعمرها ألفان من العبيد. وكان يصطنع الأبهة والعظمة وينظر باستعلاء إلى جيرانه المتواضعين، متظاهراً بأنه يعدّهم مهرّجين أو طفيليين. وكان يملك بضع مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مئة خادم يجرون وراءها على خيولهم، لابسين زياً واحداً. وفي ذات يوم، كان قنّ صغير هو صبي في الثامنة من عمره يتسلّى برمي الحجارة. فإذا هو يصيب بأحدها ساق الكلب المفضل لدى الجنرال، سهواً. سأل الجنرال مستطلعاً: «لماذا يعرج الكلب الذي هو خير كلابي؟» فقيل له إنه قد جُرح بحصاة رماها ذلك الصبيّ. قال الجنرال وهو يحدّق إلى الصبيّ: «أنت السبب إذن؟» ثم أضاف: «احبسوه!». انتُزع الصبي من أمه وألقي في زنزانة مظلمة ضيقة بقي فيها طوال الليل. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، تهيأ الجنرال للذهاب إلى الصيد في احتفال عظيم. فامتطى صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه

وكلابه وخدمه الذين يركضون وراء الكلاب يطاردون الفرائس، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعاً. أمر الجنرال بجمع الخدم في الحوش لتلقينهم درساً، وجُعلت أمّ الصبيّ الجاني في أول صف من صفوفهم. وأخرج الصبي من زنزانته. كان ذلك في صباح كالح بارد ملؤه الضباب من صباحات الخريف، صباح يبشر بصيد وافر. وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه، فخلعت حتى أصبح عارياً. كان الصبي يرتجف مصفراً من الخوف ولا يجرؤ أن يفتح فاه... قال الجنرال آمراً: «اجعلوه يركض»، فأخذ المطاردون يدفعون الصبي قائلين له: «أركض، أركض». فأطاع الصبي أمرهم وراح يركض، فصاح الجنرال: «اقبضوا عليه!» دفع كلابه كي تطارده. فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبي أمام عيني أمّه. أعتقد أن الجنرال قد سُجن بعدئذ. أما كان يستحقّ أن يُعدم بالرصاص؟ ألم يكن من الضروري إعدامه تهدئةً للضمير الأخلاقي؟ أجبْ، يا أليوشا!

- نعم، كان يجب رميه بالرصاص! قال أليوشا بصوت خافت وقد رفع عينيه نحو أخيه وارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء متغضّنة.

- برافو! صاح إيفان بحماسة. ما دمت أنت نفسك تقول هذا، فلا بدَّ... آه، يا لهذا الناسك! ذاك هو الشيطان الصغير الموجود في قلبك، يا أليوشا كارامازوف.

- قلت سخافةً ولكن...

- هذه هي المشكلة بالضبط، «لكن»... صاح إيفان. إعلم أيها المبتدىء أنّ هذه السخافات ضرورية لوجود هذا العالم. لا يقوم العالم إلّا على سخافات، بدونها لا يوجد شيء، وقد لا يحدث شيء. نحن نعرف ما نعرف!

- ماذا تعرف؟

- لست أفهم شيئاً، استأنف إيفان كلامه وكأنه في هذيان. لا أريد الآن أن أفهم شيئاً. أريد أن أكتفي بالوقائع. لقد قررت، منذ زمن طويل، ألّا أحاول تأويلها. فلو حاولت أن أفهم إذن لشوَّهت الوقائع فوراً، وأنا حريص على أن أبقى في الواقع...

- لماذا تمتحنني؟ صاح أليوشا بنوع من هستيريا الألم. هلّا قلت لي أخيراً؟

- طبعاً، سأقول لك. ذلك ما كنت أريد الوصول إليه. أنا أعتمد عليك. أنت عزيز عليّ، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك الراهب زوسيما.

سكت إيفان لحظة، وقد أصبح وجهه حزيناً جداً.

- اصغِ إليّ. لقد اخترت لأمثلتي أطفالاً لكي يكون برهاني أكثر إقناعاً. ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع البشرية التي تغذي الأرض، من قشرتها حتى قلبها، إنني أضيّق موضوع مناقشتنا قصداً. لست أنا سوى حشرة صغيرة. وأنا أعترف، ذليلاً، بعجزي عن فهم لماذا هذا التنظيم للعالم. فالخطأ إذن هو خطأ الناس أنفسهم. لقد وُهبت لهم الجنّة، لكنهم آثروا أن ينالوا حريتهم وسرقوا نار السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء، فلا حاجة إذن إلى أن نشفق عليهم. لكن حسب عقلي، عقلي المسكين، عقلي الاقليدسي الأرضي، أنا لا أعرف إلا أمراً واحداً هو أنّ العذاب موجود وليس هناك مذنبون، وأنّ الأمور مترابطة بعضها ببعض، وأنّ كل شيء ينقضي آخر الأمر، ويتوازن. وذلك على الأقل وهمٌ أنشأه عقلي الإقليدسي، أعرف هذا. ولكني لا أقبل أن أعيش هذا الهذيان فيمَ يهمني أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون؟ إنني في حاجة إلى ثأر وإلّا دمرت نفسي. وهذا الثأر الذي أطالب به، لا أريده في «المجهول» لا أعرف أين، والله يعرف متى، وإنما أنا أريد أن

أراه على هذه الأرض وأن أراه بعينيّ. لقد آمنت، وأريد أن أشهد انتصار الحقيقة! فإذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأُبعث حياً! سوف يسيء إليّ كثيراً أن يتحقق هذا المجد للإنسان في غيابي. هل تألمت أنا من أجل أن أمهّد الطريق بجرائمي وعذابي لانسجامٍ مقبل لن ينتفع به الآخرون؟ إنني أريد رؤية الوعلة بعينيّ مستلقية أمام الأسد في هدوء وسلام، وأن أرى الضحية مرتدة إلى الحياة تعانق قاتلها. أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف سرّ هذا العالم للجميع. إنّ هذا الانتظار هو القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان، وأنا إنسان مؤمن. ولكن الأطفال... ما ذنب الأطفال؟ كيف نسوّغ عذاب الأطفال؟ تلك مسألة لا أجد لحلّها سبيلاً. أعود وأقول لك للمرة المئة: إنّ ثمة في هذا العالم مشكلات كثيرة، لكنني اخترت هذه المشكلة، مشكلة الأطفال لأنها تتيح لي أن أعبّر بألمهم للانسجام الكلي، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضاً؟ قل لي، أرجوك. لماذا سُجن الأطفال في هذه الدائرة، لماذا يجب عليهم، هم أيضاً، أن يساهموا في الانسجام بعذابهم؟ ذلك أمر لا سبيل لفهمه إطلاقاً. ماذا فعلوا حتى يكونوا في هذه الزوبعة؟ قد أسلّم عند الاقتضاء بتضامن البشر في الخطيئة وتضامنهم في التكفير عنها، ولكنّ الأطفال لم يشاركوا في الخطيئة، فإن قيل إنهم يحملون في أجسادهم خطايا آبائهم وإنهم متضامنون إذن مع آبائهم في هذه الخطايا، أقول: هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم، على كل حال، ولا يمكن أن يدركها عقل! ربَّ مازحٍ خبيث يعترض بقوله إن الطفل سيشتدّ ساعده وسيقترف الإثم متى حان الوقت، ولكنني أقول إن ذلك الطفل الذي ما يزال في الثامنة من عمره لمّا يشتدّ ساعده بعد وقد مزقته الكلاب! هيهات، يا أليوشا، أن يكون في نيّتي أن أجدّف! إني أتصوَّر كيف سيتهلّل الكون فرحاً حين ستدوّي أصوات السماء والأرض جميعاً منشدة للخالق نشيد الشكر معاً وحين يصيح جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء والدموع في عيونهم، قائلين: «أنت على حق يا رب!» وهنا، بالطبع، سيكون تتويج الخلق. وهذا ما لست قادراً على القبول به. وطالما أنا موجود على الأرض أريد أن تكون لي حدودي. سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذي أمر الكلاب بتمزيق جسد ابنها، وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان «أنت على حق يا رب». ستنجلي عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يومَ تمجيد المعرفة. لكن ذلك بعينه هو العقدة لأنني لا أقبل هذا الحلّ للغز وأنا أسارع إلى اتخاذ إجراءات في هذا العالم. قد يحدث يا أليوشا، عندما أشهد ذلك الانتصار النهائي للحقيقة وعندما أُبعث حياً لأشهد ذلك الانتصار، أن أصبح أنا أيضاً مع الجميع إذ أرى الأمّ والجلّاد والطفل يتعانقون ويتصالحون: «أنت على حق يا رب!» لكنني لا أريد أن أفعل ذلك، وأحرص على أن أحمي نفسي سلفاً من ذلك الاستسلام، ولهذا السبب أقوم بتنازل حاسم عن الانسجام الأعلى. إن هذا الانسجام لا يعدل في رأيي دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذّب الذي كان يلطم صدره بقبضتَي يديه في مكان موبوء ويضرع إلى الطفل يسوع من خلال دموعه التي لا يكفر عنها شيء. نعم ما من انسجام مقبل سيكفّر عن تلك الدموع ولا بدّ من التكفير عنها وإلا فلا يمكن أن يقوم انسجام، ولكن بماذا يمكن التكفير عنها؟ ما الذي يمكن أن يمحوها؟ أهو العقاب الذي سوف ينزل بالجاني؟ فما هي قيمة العقاب؟ فيمَ يهمني هذا العقاب؟ أنا لا أريده! أنا لا أطالب بتعذيب الجلادين في الجحيم، فجهنم لن تغيّر من الأمر شيئاً ولن تنفي أن الطفل قد عُذب. وأين يمكنه أن يكون الانسجام إذا كان ثمة جحيم؟ إنني أحب أن أغفر وأن أصالح. إنني أتمنّى أن لا يبقى في الكون عذاب. فإذا كانت دموع الأطفال أمراً لا بدَّ منه، ولا غنى عنه، لإكمال مقدار الألم الذي سيكون دية للحقيقة، فأنا أعلن بجزم أنّ الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظاً إلى هذا الحدّ. أنا لا أريد أن تصالح الأمّ الجلاد الذي أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها. لا حقَّ لها في أن تغفر له. لها فقط أن تتغاضى عن ألمها هي، عن عذاب الأم العظيم الذي قاسته، لها أن لا تحقد على الجاني إذا شاءت، ولكن ليس لها أن تعفو عن التعذيب الذي نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها. فإذا كان الأمر كذلك، إذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر، فأين الانسجام؟ قل لي: أين الانسجام؟ هل في الكون فرد يستطيع ويحق له أن يغفر؟ إنني لا أريد هذا الانسجام وذلك حباً بالبشرية. إنني أفضّل أن أبقى مع آلام هذا العالم بدون تكفير.

وأنا أفضّل أن يبقى ألمي بدون انتقام وأن يبقى استيائي متأججاً ولو كنت على خطأ. إنّ الثمن المطلوب للانسجام باهظ جداً، وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن، إن بطاقة الدخول غالية جداً. لذلك أسارع فأردّها. إنني أشعر بأنّ عليَّ أن أردَّها بأقصى سرعة لأنني إنسان شريف وذلك ما أفعله. إنني لا أجحد الربَّ، يا أليوشا، بل أعيد إليه بطاقتي بكل الاحترام الذي يعود له.

- هذا عصيان. تمتم أليوشا بصوت خافت ورأسه منحنٍ.

- عصيان؟ قال إيفان بانفعال. لا أريد أن تقول لي هذه الكلمة. من المستحيل على المرء أن يعيش في العصيان، وأنا امرؤ يحرص على أن يعيش. قل لي بصراحة، يا أليوشا، أجبني: لو كنت، أنت نفسك مهندس بناء المصائر البشرية وأردت أن تبني عالماً تجد فيه البشرية السعادة والراحة، أفتشرع في هذا العمل إذا علمت أنه لن يتحقق إلّا إذا كان العذاب ثمنه، ولو لم يكن إلّا عذاب إنسان واحد صغير بريء هو، مثلاً، تلك الطفلة التي كانت تلطم صدرها بقبضتَي يديها؟ لو كان البناء لا يمكن أن يقوم إلّا على تلك الدموع التي لا فدية لها تذرفها تلك الطفلة الصغيرة، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها، ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها، أفتظّل توافق على أن تكون مهندس الكون في تلك الشروط؟ قل لي، ولا تكذب.

- لا، لا أوافق. أجاب أليوشا بهدوء.

- وهل تستطيع أن تسلِّم بالفكرة، أن يقبل البشر الذين تبني لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء طفل بريء عذِّب حتى الموت، وأن يعرفوا السعادة إلى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك؟

- لا، لا أستطيع أن أقبل هذا.

- أخي. أجاب أليوشا وقد سطعت عيناه فجأة. لقد قلت منذ لحظة هل يوجد في الكون كائن في وسعه ومن حقّه أن يغفر؟ إن هذا الكائن موجود، يستطيع أن يغفر كل شيء ولجميع الناس، لأنه وهب هو نفسه دمه البريء لكل شيء ولجميع البشر. «هو»، أنت نسيته، وهو الذي يقوم عليه البناء كله، وهو الذي يقع عليه أن يصرخ «أنت على حقّ يا رب، فلقد أدركت طرقك».

- آه إنه البريء الوحيد. والدم الذي سفحه! لا، أنا ما نسيته، ويدهشني أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشهد به. فأمثالك، عادةً، يطلقون هذه الحجّة منذ بداية المناقشة. اسمع يا أليوشا، ولا تضحك. إنني نظمت قصيدة، في ذات يوم، منذ سنة؛ فإذا وافقت على أن نضيّع عشر دقائق أخرى فسوف أُسمعك هذه القصيدة.

- كتبت قصيدة؟

- لا، لم أكتبها، أجاب إيفان ضاحكاً، ولا كنت قادراً في حياتي كلها على أن أنظم بيتين من الشعر. لكنني نظمت هذه القصيدة وحفظتها في ذاكرتي، لقد نظمتها بحرارة. ستكون أنت أول قرّائي أو أول مستمع إليها. صحيح، لماذا يجب على المؤلف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذي يملك أن يتلو عليه ما كتب؟ أضاف إيفان مبتسماً؛ أأقول القصيدة أم لا؟

- إنني أصغي إليك بمنتهى الاهتمام.

- عنوان القصيدة «المحقق الكبير». إنها قصة خيالية، ولكن يسرّني أن تسمعها.

V

المحقق الكبير

لكن هنا أيضاً، لا غنى عن مقدمة. أريد القول من دون مقدمة أدبية! (وبدأ إيفان يضحك) وأنا، أجلس هنا كمؤلِّف! إنّ عملي هذا، قد جرت أحداثه في القرن السادس عشر. وكان رائجاً في ذلك الزمان - لا بدَّ أنك تعلّمت هذا في المدرسة - إنزال القوى السماوية على الأرض، في الأعمال الشعرية كان مجرد تقليد. هنا لا أتكلَّم عن دانتي. ففي فرنسا، كان موظفو المحاكم والرهبان وفي الأديرة، يقدّمون تمثيليات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون والمسيح والله نفسه. في ذلك العصر، كان كل ذلك بسيطاً كقولك «صباح الخير». وقد وصف فيكتور هوغو في روايته «نوتردام دو باري» وهي تمثيلية تثقيفية، قدِّمت مجاناً للشعب في قاعة «مجلس الشعب»، في عهد لويس السادس عشر احتفالاً بميلاد وليّ العهد، وكان عنوان التمثيلية هو «الحكم السديد للعذراء مريم المقدسة والممتلئة بالنعمة». وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لإصدار «حكمها السديد». وعندنا، في موسكو، قبل عهد بطرس الأكبر، كانت المسرحيات الدراميّة من هذا النوع تقريباً تُمثَّل من حين إلى آخر، وكانت تستوحي من العهد القديم. بالإضافة إلى المسرحيات الدراميّة، انتشرت في العالم بأسره، أعداد كبيرة من الأقاصيص و «الأشعار»، كان الأبطال فيها قدّيسين وملائكة وكل القوى السماوية تبعاً للرغبات. وعندنا، في أديرتنا، كانت تُترجم وتُنسخ أعمال كثيرة، بل كانت تنظم قصائد من هذا النوع، في بعض الأحيان، حتى في عهد الاحتلال التتاري. هناك، مثلاً، قصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعاً) عنوانها: «نزول العذراء إلى الجحيم» مليئة بلوحات تكاد تبلغ في جرأتها لوحات دانتي. ففي تلك القصيدة، تنزل العذراء إلى الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل في جولتها، فترى الخطأة وأساليب تعذيبهم كما يوجد أيضاً، على وجه الخصوص، فئة عجيبة من الخطأة تتخبط في بحيرة مشتعلة، وبعضهم في تلك البحيرة، لا يرجعون بعد ذلك إلى سطحها أبداً. ويقال: «إنّ الله قد نسيهم» - وذلك تعبير زاخر بالقوة والعمق الخارقين. وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية، فسقطت على ركبتيها باكيةً أمام عرش الله تتضرع إليه أن يعفو عن كلّ معذَّبي جهنم، وأن يغفر لهم جميعاً من دون تمييز. إنّ حديثها مع الله ذو أهمية بالغة، فهي تضرع إليه وتلحّ وتأبى أن تنصرف. وإذ أومأ الله إلى قدميْ ويديْ ابنه المثقوبة بالمسامير وسألها: كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين؟ فقادت جميع القديسين والشهداء والملائكة ورؤساء الملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخطأة بدون استثناء. وبفضل صلواتها تمكنت أخيراً أن تحصل على أن يتوقف عذاب جهنم كلّ سنة بين يوم الجمعة العظيمة وعيد الخمسين (الثالوث الأقدس). ويسارع خطأة الجحيم عندئذ، إلى أن ينشدوا نشيد الشكر لله: «أنت على حق يا رب، وعادل هو حكمك».

إذن، إنّ قصيدتي القصيرة أنا، كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أنها ظهرت في ذلك العصر. إن الربّ يظهر في قصيدتي: لكنه لا ينطق بكلمة واحدة. فيظهر ويخرج من المسرح. لقد انقضى خمسة عشر قرناً منذ أن وعد بأن يعود إلى مملكته، ومنذ خمسة عشر قرناً كتب رسوله: «سأعود قريباً»24. أما ذلك اليوم فإنّ الابن نفسه لا يعرفه، وإنما يعرفه أبي الذي في السموات. وكما نطق به، هو نفسه، أثناء مروره على الأرض. ولكن البشرية لا

تزال تنتظره بإيمان واحد وحماسة واحدة بل بإيمان أقوى لأنّ خمسة عشر قرناً قد انقضت منذ أن كفّت السموات عن بذل ضمانات للأرض.

صدِّق صوت قلبك

فلن يأتي ضمان من السماء للأرض[25]

والإيمان فقط في كلمة القلب! صحيح أن المعجزات كانت كثيرة في ذلك العصر. كان ثمة قديسون يبرئون المرضى بمعجزات فوق الطبيعة. وإذا صدق ما يُروى في سير بعض الصالحين، فإنّ العذراء قد زارتها شخصياً. ولكنّ الشيطان يسهر دائماً. وبدأت البشرية تشك في صدق هذه المعجزات. وظهرت عندئذ هرطقة رهيبة في شمال ألمانيا فإذا بكوكب هائل «شبيه بشعلة» (أي الكنيسة) يسقط على نبع المياه فتصبح المياه مرَّة»[26]. لقد كان أولئك المجدّفون الهراطقة ينكرون المعجزات. فازداد إيمان المؤمنين واشتدت حماستهم. وأخذت البشرية ترفع الأعين الدامعة إلى الله منتظرة مجيئه، مُحبّة إياه بقلب حار، مؤمِّلة فيه، عطشى إلى التألم من أجله والموت في سبيله، كما حدث في الماضي... «ألله ظهر»[27]. إن صلوات البشر ترتفع إلى السماوات حارة منذ قرون طويلة مع إيمانها وشعلتها مصلّيةً له: «تعال إلينا يا رب»، لذلك أراد الرب برحمته الواسعة أن يعود إلى أولئك الذين يضرعون إليه. فنزل وزار بعض الصالحين والشهداء وبعض القديسين النساك على الأرض، كما هو مكتوب في سير حياتهم. وعندنا، تغنَّى الشاعر تيوتشيف به في هذه الأبيات، وكان يؤمن إيماناً عميقاً بما يقول:

أجتاز كل السماوات

كل أصقاعك، أيتها الأم

الأرض، ومباركاً ترابك

منحنياً، لمتسول[28]

تحت عبء صليبه

ولكي يحصل هذا الأمر على هذا النحو، قرّر الرب أن يظهر، ولو لدقيقة واحدة، للشعب، لشعبه المعذب المتألم المتعفّن في خطاياه، لكنه يكنّ له حب الأطفال في قصيدتي. تجري الأحداث في قصيدتي، في إسبانيا، في مدينة إشبيلية، في أحلك عهود التفتيش، أيام كانت أكوام الحطب تشتعل لإحراق المتَّهمين كل يوم في جميع أرجاء إسبانيا تمجيداً لله:

كان الهراطقة يُحرقون

في نار رائعة[29]

طبعاً، لم يكن يقصد لحظة عودته إلى الأرض كما وعدنا، في آخر الدهور، بكل مجده السماوي تلك اللحظة التي تظهر فجأة «كبرقٍ يسطع من المشرق إلى المغيب». لا، بالنسبة إلي، إنه يشعر برغبةٍ، ولو للحظة واحدة، أن في زيارة أبنائه في المكان المحدَّد الذي تزفر فيه النيران الموقدة لإحراق الهراطقة. وبالرحمة اللامتناهية التي عرف بها يمرُّ مرة أخرى بين الناس بالصورة البشرية نفسها التي اتخذها ليسير بين الناس، مدة ثلاث سنوات. قبل ذلك بخمسة عشر قرناً. ينزل إلى الأماكن الملتهبة من تلك المدينة الجنوبية التي تمَّ فيها يوم أمس بأمر من الكاردينال المفتش الكبير، إحراق مئة من الهراطقة، في حضور الملك ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسناوات وأمام سائر سكان إشبيلية. وقد ظهر الله بهدوء دون أن يلاحظه أحد، ولكن الأمر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه. وها هنا مادة لأجمل مقاطع قصيدتي: لماذا عرفه الناس جميعاً؟ لقد انجذب إليه الجمهور بقوة لا تُقاوم، وأحاط به، واحتشد حوله، وتابع خطواته. فمشى هو بين الجمهور صامتاً وهو

يبتسم ابتسامة عطف لا نهاية لها. كانت شمس المحبة تتّقد في قلبه، ومن عينيه يشعّ الضياء وتشعّ القوة فينتشران في المؤمنين ويشعلان المحبة فيهم. وهو، يمدّ ذراعيه نحو الشعب ليباركه. إنّ ملامسته، وحتى ملامسة ثيابه تملك القدرة على شفاء المرضى. فهذا عجوز من الجمهور، أعمى منذ طفولته، يصرخ فجأة قائلاً: «ردَّ إليَّ بصري يا رب لكي أستطيع أن أراك»؛ وما هي إلّا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه، فإذا هو يرى الله. فبكى الشعب متأثراً، وأغرق بالقبلات الأرض التي مشى عليها. وراح الأطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين: «أوشعنا». وتعالت الصيحات من كل صوب تقول في حماسة: «إنه هو، إنه هو، لا يمكن إلّا أن يكون هو». ووقف في الساحة أمام كاتدرائية إشبيلية، في اللحظة التي كان فيها يؤتى إلى الهيكل، بين عبرات الحضور، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان طفلة في السابعة من عمرها هي البنت الوحيدة لأحد أعيان سكان المدينة. والطفلة الميتة مغطاة بالأزهار. صاح الجمهور يقول للأم الحزينة: «سيُحيي لك ابنتك». وكان كاهن الكنيسة قد تقدّم نحو التابوت فبدت عليه الحيرة وقطّب حاجبيه. فأجهشت أمّ الطفلة الميتة باكيةً وارتمت على قدمي المسيح، وضرعت إليه وهي تمدّ نحوه ذراعيها: «إذا كنت أنت هو حقاً فأحيي ابنتي»! توقف الموكب، ووُضع التابوت على البلاطات عند قدميه فألقى على جثمان الطفلة نظرة تفيض بالعطف، وتحركت شفتاه في رفقٍ تقولان مرة أخرى: «انهضي أيتها الطفلة!» فما إن نطق بهذه الكلمات حتى خرجت الطفلة من التابوت، وجلست مبتسمةً، ونظرت حولها بعينين مدهوشتين واسعتين. تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وُضعت على جثمانها. اضطرب الجمهور وصرخ وبكى. وفي تلك اللحظة عينها، ظهر الكاردينال كبير المفتشين في الساحة أمام الكاتدرائية. إنه عجوز يناهز التسعين من العمر، طويل الجسم، مستقيم القامة، معروق الوجه، غائر العينين، لكنَّ في عينيه شعلة تسطع. لا يرتدي، الآن، ثوب الكاردينالية الأرجواني الفخم الذي ظهر به أمام الشعب في الليلة البارحة عندما كان يُرمى إلى النيران أعداء الكنيسة الرومانية. يلبس، في هذه المرة، ثوب الكاهن المصنوع من الصوف الخشن. ويتبعه معاونوه العابسون وخدمه و «حرسه المقدس». وقف أمام الجمهور وتأمله من بعيد. رأى كل شيء، رأى التابوت عند قدمَي المسيح، ورأى الطفلة تُبعث حيّة، فاكفهرَّ وجهه، وقطَّب حاجبيه الكثيفين الأبيضين، ولمع بريق شرير في عينيه. وها هو يشير إلى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه. إنّ هذا الرجل الذي عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لكل إرادته يبلغ من القوة أنّ الجمهور أسرع يبتعد أمام الزبانية، فإذا بهؤلاء، وسط صمت الموت الذي خيَّم فجأة، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه. وسجد الجمهور في طرفة عين أمام المفتش الكبير الذي بارك الجمهور صامتاً ثم تابع مسيره. أخذ السجين إلى المبنى القديم الذي فيه تُقام الذبيحة الإلهية، وسُجن في زنزانة معتمة ضيّقة مقبّبة. انقضى النهار وهبط الليل. كانت ليلة من ليالي إشبيلية تلك الثقيلة الحالكة الحارة. «الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون»30. وفجأة، في الظلمة، فُتح الباب فجأة وتقدَّم المفتش العجوز حاملاً بيده شعلة، وقف، لحظة، على عتبة الزنزانة ثم اقترب منه بخطى صامتة، ووضع الشعلة على المنضدة: هذا أنت؟ أنت؟ (وعندما لم يتلقَّ جواباً أضاف): أسكت! لا تجب بشيء! وما عساك تقول لي على كل حال؟ إنني أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لي. وبأيّ حق تريد أن تضيف أيّ شيء إلى ما سبق أن قلته؟ لماذا جئت تزعجنا؟ جئتَ لتبثّ فينا الاضطراب بدون شك، وأنت تعرف ذلك. فهل تعرف ما الذي سيحدث غداً؟ إنني لا أعرف من أنت، ولا أريد أن أعرف. هل أنت هو حقاً أم لست إلّا شبيهه؟ غداً، سأحكم عليك بالإعدام، وسآمر بإحراقك مثلما آمر بإحراق أسوأ الهراطقة. إن هذا الجمهور نفسه الذي كان يقبّل قدميك، منذ بضع ساعات، سيسرع غداً، بإشارة بسيطة مني، فيوري لهيب النار، هل تعلم ذلك؟ أجل، تعرف ذلك. ثم أضاف شارد الفكر نافذ النظرة دون أن يحوّل نظره عن سجينه لحظة واحدة:

- أنا لا أفهم ماذا يعني ذلك يا إيفان؟ قال أليوشا مبتسماً وهو يصغي إلى أخيه صامتاً. أهذه تهاويل مضطربة من خيالك أم أنه لا أدري أي خطأ صدر عن العجوز أو خدعة

مربكة.

- لنسلّم بأن هناك لبْساً ما. قال إيفان ضاحكاً، ما دامت واقعية هذا العصر قد دفعتك أنت أيضاً إلى حدّ لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية غريبة. لنفرض أنّ ثمة لبْساً ما، إذا كنت حريصاً على ذلك.

- صحيح، وعاد إيفان يضحك مرة أخرى، إن هذا العجوز هو في التسعين من عمره، ومن الجائز أنه قد جُنّ، منذ زمن طويل، في عزلته المستعلية. ولعلّ منظر السجين قد أدهشه، ولعلّ هذا كله لم يكن سوى هذيان رجل عجوز في التسعين قد أهاجه إحراق مئة من الهراطقة في الليلة البارحة، أو أصابته هلوسة من تلك التي تسبق الموت أحياناً. وما هو الفرق بالنسبة إلينا، أنا وأنت، أن نعرف أنها تهاويل خيالية أو لبْس. فهذا العجوز سيقول، في هذه المرة، وهو في التسعين من عمره، ما في قلبه، وما فكّر فيه صامتاً طوال التسعين سنة من حياته.

- والسجين، هل سكت؟ وهل نظر إليه دون أن يقول كلمة؟

- لكن على كل حال لا يمكن أن تجري الأمور إلا على هذا النحو. قال إيفان وهو مستمر في الضحك. فقام العجوز نفسه بلفت نظره، إلى أنه ليس من حقّه أن يضيف أي شيء إلى ما قاله في الماضي؟ ففي رأيي، هنا تكمن السمة الأساسية للكاثوليكية الرومانية: لقد وضعت كل شيء بين أيدي البابا. اذهب الآن في سبيلك ولا تعد إلى هنا، تزعجنا، إلا في اليوم المحدد هذا على الأقل ما يقوله ويكتبه اليسوعيون. لقد قرأت هذا بنفسي في كتب لاهوتييهم. «هل يحق لك أن تكشف لنا ولو سرّاً واحداً من أسرار العالم الذي جئت منه؟» سأله العجوز. ثم لم ينتظر جوابه فأضاف على الفور: «لا، ليس من حقك أن تفعل هذا، ليس لك أن تضيف شيئاً إلى ما سبق أن قلت فيما مضى، حتى لا تحرم البشر من تلك الحرية التي كنت تقدّرها حين عشت على الأرض. إن كل كشف جديد قد تأتي به سيسيء إلى حرية الإيمان لأنه سوف يبدو كمعجزة، وأنت قد رأيت منذ خمسة عشر قرناً أن ضمان حرية الإيمان أمر أساسي. ألم تكن تردد على مسامعهم دائماً: «لقد جئتكم بالحرية؟»». وأضاف العجوز يقول بخبث: «لقد رأيتهم بعينيك، هؤلاء البشر الأحرار». إنّ هذه الحرية هي من صنعنا، وقد كلّفتنا جهوداً لا نهاية لها. أضاف العجوز وهو يحدّق إليه بقساوة. ولكننا أنجزنا عملنا أخيراً باسمك. واضطررنا خلال خمسة عشر قرناً أن نتعذب بهذه الحرية، ولكن الأمر انتهى الآن، انتهى تماماً! ألا تعتقد أنه انتهى إلى الأبد؟ إنك تنظر إليَّ بعينين متواضعتين، فلا شك أنك تقدّر أنك أظهرت غضبك؟ لكن، اعلم إذن أن البشر هم في هذا اليوم بعينه أشدّ اقتناعاً منهم في أي وقت مضى، بحريتهم الكاملة. ومع ذلك، فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها عند أقدامنا بذلّ كبير! ذلك هو عملنا. أهذه هي الحرية التي كنت تتمناها لهم؟

- مرة أخرى، أصبحت لا أفهم. قاطعه أليوشا. أهو يسخر؟ هل هو يتهكّم؟

- أبداً، إنه يتباهى لنفسه ولجماعته، بأنهم أوقفوا نموَّ الحرية فاستطاعوا أن يجعلوا الناس بذلك سعداء. ذلك أننا الآن، للمرة الأولى، نستطيع أن نحلم للإنسانية بالسعادة (إنه يتكلم طبعاً عن محاكم التفتيش). لقد وُلد الإنسان متمرداً. هل يمكن للمتمردين أن يكونوا سعداء؟ لقد نبهت إلى هذا ولم تعوزك التحذيرات لكنك لم تشأ أن تحسب حساباً ونبذت الوسيلة الوحيدة التي كان يمكن أن تقود البشر إلى السعادة، ومن حسن الحظ، أنك حين تركت هذه الأرض عهدت إلينا بالمهمّة كلها. أعطيتنا وعدك، وأقمت سلطتنا على كلمتك، ووهبت لنا حق العقد والحل، وطبعاً لم تستطع أن تنتزع منّا هذا الحق بعد الآن. إذن، لماذا جئت تزعجنا؟

- ماذا كان يعني بقوله: لم تعوزه النصائح والتحذيرات؟ سأل أليوشا.

- ذلك هو الأساسيّ الذي كان العجوز يريد أن يعبّر عنه.

إنّ الروح الرهيب والكثير الحكمة، روح تدمير الذات والعدم، تابع العجوز، الروح الرهيب قد خاطبك في الصحراء. وتقول لنا الكتب المقدسة إنه «أغواك»، فهل هذا صحيح؟ هل نستطيع في الواقع أن نتصوَّر حقائق أكبر من تلك التي عرضها لك في أسئلته الثلاثة التي رفضتها أنت، والكتب المقدسة تصفها بأنها «تجارب». ومع ذلك، إذا شهدت على هذه الأرض، في يوم من الأيام، معجزة كبرى، معجزة صادقة، فإن تلك المعجزة قد تحققت في ذلك اليوم نفسه وفي تلك «التجارب» الثلاث. لقد كانت تلك الأسئلة معجزة من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت. لنتصوّر، افتراضاً، أن الأسئلة الثلاثة التي ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً في الكتب المقدسة، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها إلـى النصوص المقدسة؛ ولتحقيق هذا الهدف يجب جمع كل حكماء الأرض - الحكام وكبار الكهنة والعلماء والفلاسفة والشعراء - وتحديد مهمتهم، وقلنا لهم: «أوجدوا لنا، تصوَّروا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب، بل تلخص بالإضافة إلى ذلك، في ثلاث جمل إنسانية بسيطة، كل تاريخ العالم والبشرية». فهل تظن أن كل حكمة الأرض المجتمعة في هؤلاء الرجال يمكنها أن تتخيل، ولو من بعيد، شيئاً يشبه بقوّته وعمقه تلك الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي الحكيم؟ إن تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة، أعني كون الأسئلة قد طرحت، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل بشري عادي، بل أمر فكر خالد مطلق، لأنها تضمّ في ذاتها، كل التاريخ المقبل للبشرية، وتقدّم رموزاً ثلاثة تنحلّ فيها كل تناقضات الطبيعة البشرية التي لا سبيل إلى حلّها. إن تلك الحقائق لم تكن ظاهرة يومئذ بشكل واضح لأنّ التطور الذي أصاب العالم بعدئذ لم يكن معروفاً. أما الآن، بعد انقضاء خمسة عشر قرناً، فإننا نرى أنّ كل شيء قد تضمنته وتنبأت به تلك الأسئلة الثلاثة، وأنّها قد تحققت بشكل أننا لن نستطيع أن نضيف إليها شيئاً أو أن نحذف منها شيئاً بعد اليوم.

فاحكم، إذن، بنفسك، من كان على حق: أأنت أم سائلك؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة، لا نصَّه بل معناه العام: «تريد أن تمضي إلى العالم خالي اليدين تبشر الناس بحريّة لا يستطيعون، بحكم ما فُطروا عليه من بساطة أن يدركوها، عدا أنهم، يخشونها ويخافون منها لأنه ليس هناك، ولم يكن هناك، في يوم من الأيام، حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقان الحريّة. هل ترى هذه الحجارة في الصحراء الوعرة المحرقة؟ حوّلها إلى خبزٍ تسرع إليك البشرية كقطيع جائع، وتصبح شاكرة لك مطيعة إياك، ولكنها ستبقى ترتجف خوفاً من أن تسحب يديك أو تُحرم هي من الخبز». لكنك لم تشأ أن تحرم الإنسان من الحرية فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز. لقد أجبت بقولك: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. لكنك تعرف أنّ روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضي نفسه وأنه سيقاتلك وينتصر عليك، وأنّ الجمهور سيسرع عندئذٍ نحوه قائلاً: «من الذي يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الغبي الذي وهب لنا نار السماء؟» هل تعرف أنه سوف تنقضي قرون، فيأتي يوم تنادي فيه الحكمة البشرية وينادي فيه العلم البشري بأن لا وجود للشر، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها، مؤكدين أنّ هناك جائعين فحسب. «أطعمهم تجعلهم فاضلين!». بهذه الصيحة سيرفعون الراية ضدك وسيهدمون هيكلك، وسيقيمون في مكانه مبنى آخر هو برج بابل مهدّد. صحيح أن البناء لن يتمّ، كما في المرة الأولى، ولكن، كان في وسعك، مع ذلك، أن توفّر على البشرية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة. لأنّ البشر سيتَّجهون إلينا نحن بعد أن يجهدوا في بناء برجهم مدة عشرة قرون! ورغم كل شيء، سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا في الماضي، وسيجدوننا في الأقبية التي نكون قد لجأنا إليها (لأننا سنُضطهد وسنعذَّب

ونستشهد)، سيجيئون شاكين: «أطعمونا، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا». وسننهي عندئذ بناء البرج، لأن الذين سيطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن ينجزوا هذا العمل حتى النهاية. وسوف نطعمهم، سوف نطعمهم نحن، ولا أحد سوانا، وسوف نفعل ذلك باسمك كاذبين عليهم مستمدين سلطتنا منك. ولن يستطيعوا بدوننا أن يأكلوا في هذا العالم! لن يعطيهم العلم خبزاً ما داموا أحراراً، ولكنهم سينتهون إلى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين: «عاملونا كعبيد ولكن أعطونا خبزاً». سيدركون هم أنفسهم أنّ الحرّية لا تتفق وخبز الأرض، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته لأنهم لن يتوصلوا إلى اقتسامه بالعدل في يوم من الأيام. وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحراراً لأنهم ضعفاء فاسدون صغار النفوس سريعون إلى العصيان. لقد وعدتهم بخبز السموات ولكنني أسألك مرة أخرى: هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض في نظر الكثرة التي ستبقى إلى الأبد فاسدة عاقَّةً؟ إذا كانت ألوف من الناس أو عشرات الألوف مستعدة لأن تتبعك في سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي لن تشعر بأنها قادرة على أن تتخلّى عن خبز الأرض في سبيل خبز السماء؟ أتراك لا تعطف إلا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية، وهل يتوجب على ملايين البشر، هل يتوجب على الجموع التي لا نهاية لعددها، كرمل البحر، هل يتوجب على هؤلاء الذين هم ضعفاء ولكنهم يحبونك أيضاً، أن لا يكونوا إلا مادة مسخّرة للكبار والأقوياء؟ نحن، نرى غير هذا الرأي، والضعفاء عزيزون على قلوبنا؛ إنهم شريرون عصاة، ولكنهم أنفسهم هم الذين يصبحون، في نهاية المطاف، أكثر الناس طاعة وخضوعاً. سوف يعجبون بنا ويتخذوننا آلهة لأننا نكون قد وافقنا، حين أصبحنا قادة لهم، أن نحمل عنهم عبء حريتهم وأن نسيطر عليهم، فإلى هذا الحدّ ستكون حريتهم قد أصبحت كريهة في نظرهم في النهاية. وسوف نوهمهم، مع ذلك، بأنهم يطيعونك أنت وبأننا أسيادهم باسمك. سوف نخدعهم لأننا لن نسمح لك أنت بأن تتدخل في شؤوننا.. وسيكون هذا الكذب عذابنا لأننا سنكون مرغمين على الكذب. ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول في الصحراء، ولقد رفضت نداء الروح الجبار باسم الحرية التي جعلتها في أعلى منزلة. مع ذلك، كان ذلك السؤال يخفي أكبر سرّ في هذا العالم. فلو قبلت أن تعطي «الخبز» إذن، لَلَبَّيْتَ ما تنتظره البشرية انتظاراً أبدياً منذ عهود سحيقة، ولهدّأت القلق الذي يعذب الفرد والجماعة كليهما. وهذا هو القلق: «مَن نستطيع؟ فلا همَّ أقوى عذاباً لدى الإنسان الذي أصبح حراً من همّ العثور على سيّد يحكم بأقصى سرعة، وهو الذي نطيعه. لكن الإنسان يتطلع إلى الخضوع لحقيقة مؤكدة، حقيقة يقبلها كل الناس برضى إجماعي. فحاجة هذه المخلوقات البائسة ليست إلى اكتشاف قوة يمكن أن يعطيها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد بل إلى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع، ويمكن أن ينحني لها الجميع. فهذه الحاجة إلى «الاحترام المشترك» هي بعينها العذاب الأساسي الذي يعذب كل فرد ويعذب البشرية بمجملها، منذ أقدم عهود التاريخ. فباسم هذا التطلع إلى العبادة المشتركة أفنت الشعوب بعضها بعضاً. كانت تخلق آلهةً ثم تتشاتم: «اتركوا آلهتكم وانحنوا أمام آلهتنا، وإلّا - فالموت لكم ولآلهتكم!». وسوف يبقى الحال على هذا النحو إلى نهاية العالم؛ وحتى بعد زوال الآلهة، سيظلون يسجدون لمعبودات جديدة. ولقد كنت تعرف هذا السرّ الأساسيّ من أسرار الطبيعة البشرية، فلا يمكن أن تجهل هذا السرّ ولكنك رفضت الراية الوحيدة التي تملك قوة جذبٍ مطلق، والتي قدِّمت لك لكي ينحني جميع البشر أمامك بدون تردد - أعني راية الخبز الأرضي. رفضت هذه الراية باسم الحرية وباسم الخبز السماوي. فانظر الآن ماذا فعلت، ودائماً باسم الحرية؟ أعود فأقول لك أن لا قلق أرسخ في قلب الإنسان من قلب الحاجة إلى العثور على من يستطيع أن يضحي له سريعاً بالحرية التي وُهبت له، هو المخلوق البائس منذ وُلادته. ولكن لا سبيل إلى التصرف في حريّة البشر إلّا بتهدئة ضميرهم. كان في وسعك أن تتخذ الخبز راية «لا تخطىء. أطعم الإنسان يطعْك، فلا شيء في هذا العالم أعزّ على الجحود من الحاجة إلى الأكل. ولكن إذا استولى غيرك على ضمير الشرّ تركوك وتخلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذي يكون قد أخضع ضميرهم. في ذلك كان

رأيك صحيحاً، لأنّ سرَّ الحياة البشرية ليس فقط في إرادة الحياة بل في الحاجة إلى معرفة لماذا يعيش. فالإنسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته، يرفض أن يعيش، لا يقبل أن يؤثر في العالم بل يؤْثِر أن يدمّر نفسه ولو ملك الخبز وافراً. ولكن، ما هي النتيجة؟ بدلاً من أن تسيطر على الحرية البشرية أردت لها مزيداً من النموّ. فهل نسيت إذن أن الإنسان يؤثر هدوء نفسه بل يؤثر الموت على أن تكون له ملكة حريّة الاختيار في معرفة الخير والشرّ؟ لا شيء يخلب العقل أكثر من حريّة الضمير، ولكن لا شيء في الواقع يعذب الإنسان أكثر مما تعذبه حرية الضمير. فبدلاً من أن تحمل للبشرية الأسس الراسخة المتينة الباقية للهدوء النفسي والطمأنينة الروحية، وبدلاً من أن توفر لها الأسس إلى الأبد، عرضت عليها ما في هذا العالم من أمور سريّة غامضة خارقة تفوق طاقة قواها، وكنت في عملك هذا كأنك لا تحب البشر، أنت الذي جئت مع ذلك لتهب لهم الحياة! فبدلاً من أن تسيطر على الحرية الإنسانية وسَّعتها، وبذلك ضاعفت، إلى غير نهاية، الآلام التي تولّدها هذه الحرية في نفوس البشر. أردت من البشر أن يمنحوك حبَّهم أحراراً، وأن يتبعوك بإرادتهم مفتونين بشخصك، ألغيت القانون القديم الذي كان صارماً فأصبح على الإنسان أن يميّز الخير من الشرّ بنفسه مستلهماً حكم قلبه مسترشداً بصورتك. أفلم تتنبأ إذن بأن البشر سينوؤون تحت هذا العبء الرهيب، عبء حرية الإرادة، فإذا هم، آخر الأمر، ينبذون صورتك ويشكّون في تعاليمك؟ سوف ينادون، في النهاية، بأن الحقيقة لم تكن فيك، فمن المستحيل إلقاؤهم إلى اضطراب أشدّ وعذاب أرهب من الاضطراب والعذاب اللذين ألقيتهم إليهما حين تركت لهم كل هذه الأنواع من القلق، وكل هذا العدد من المشكلات التي لا سبيل إلى حلّها. لقد أعطيتهم، أنت بنفسك، الأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك الخاصة، فليس لك أن تتَّهم أحداً بتدميرها. فهل هذا ما عُرض عليك؟ ليس على الأرض إلّا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلّب على ضمير هؤلاء المتمردين الضعفاء وأن تخضعهم في سبيل سعادته نفسها، وهذه القوى هي: المعجزة والسرّ والسلطة. لقد رفضت هذه القوى، الأولى والثانية والثالثة، وعلّمت البشر أن يحتقروها. وعندما نقلك الروح الرهيب (إبليس) إلى سطح الهيكل وقال لك: «إذا أردت أن تتأكد أنك ابن الله فألقِ بنفسك في الفضاء، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتسنده فلا يقع ولا يتحطم. وعندئذ، تعلم أنك ابن الله، وتبرهن على قوة إيمانك بأبيك»، وأنت استمعت، لكنك رفضت هذا العرض، ولم تقع في التجربة ولم تقفز. صحيح أنك تصرّفت في تلك اللحظة كتصرّف إله، ولكن هل تتصور أن البشر، وهم جنس ضعيف متمرد، يملكون من القوة الروحية ما تملكه الآلهة؟ لقد تأكدت في تلك اللحظة أن حركة بسيطة هي أن تهمّ بإلقاء نفسك في الفضاء ستعني إغراء الخالق، فلو قمت بها، لكنت بطلب المعجزة تبرهن على ضعف إيمانك، فإذا حُرمت من الإيمان تهشَّمت صورتك على الأرض التي جئت لتخلّصها وتنقذها، وتهلل الروح المحتال (إبليس) فرحاً. لكنني أكرر: هل أمثالك كثيرون في هذا العالم؟ توهَّمت، لحظة واحدة، أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضاً فوق تجربة من هذا النوع؟ هل وُجدت الطبيعة البشرية لترفض المعجزة في الساعات العصيبة من الحياة، أم أن المشكلات الروحية والأساسية الرهيبة والمؤلمة قادرة على أن تحكم القلب؟ كنت تعرف أن انتصارك سينتقل عبر الكتب المقدسة إلى آخر العصور وآخر حدود الأرض، وكنت تأمل أن يقتدي البشر بك فيقبلوا أن يظلّوا وحيدين مع الله بدون حاجة إلى معجزة. ولكنك لم تعرف أنّ الإنسان متى رفض المعجزة يرفض فوراً الله لأنه يسعى إلى المعجزات لا إلى الله. ولكون الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير المعجزات سيخلق بنفسه معجزات جديدة، فيهوي، ولو كان متمرداً وكافراً وملحداً، إلى خرافات سخيفة، تنطلي عليه أباطيل الساحرات العجائز. إنك لم تنزل عن الصليب عندما دعاك الجمهور إلى ذلك صائحاً من باب السخرية: «إنزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت». لم تنزل لأنك، مرة أخرى، لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة بل أردت أن يأتوا إليك بدافع الإيمان لا بتأثير المعجزات. أردت أن يهبوا لك محبّتهم أحراراً لا أن يطيعوك عبيداً أذهلتهم قوّتك. هنا أيضاً بالغت في تقدير البشر، وأنزلتهم منزلة أرفع من منزلتهم، ذلك أن البشر عبيد رغم أنهم مفطورون على العصيان. انظر فيما حولك واحكم أنت بنفسك! ماذا

أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرناً؟ هيّا، انظر إليهم؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم إلى مستواك؟ أقسم لك إن الإنسان خُلق أضعف وأسوأ مما ظننت! هل يستطيع هو الوضيع، قل لي، أن يحقق ما حققته أنت؟ إنك حين احترمته إلى هذا الحدّ قد تصرَّفت كمن فقد عطفه عليه، لأنك طلبت منه فوق ما يطيق، أنت الذي أحببته أكثر من نفسك! فلو أنك قدَّرته أقلّ مما قدّرته إذن لطلبت منه أقلّ مما طلبت، ولكان موقفك عندئذ أقرب إلى المحبة، لأنّ العبء عليه عندئذ يكون أقلّ ثقلاً. إن الإنسان ضعيف وحقير. وما أهمية أن يكون الآن قد ثار في كل مكان على سلطتنا وأنه يفتخر بأنه متمرد؟

ذلك غرور طفل أو تلميذ مدرسة. إن البشر أولاد صغار ثاروا في صفوفهم وطردوا معلّميهم. لكن فرحة هؤلاء الأولاد لن تدوم وسوف تكلّفهم غالياً. سوف يهدمون الهياكل، ويجرون الدم سيولاً على الأرض. وسوف يدرك عندئذ، هؤلاء الأولاد الأغبياء أنهم إن خُلقوا عصاة فلا يتيح لهم ضعفهم أن يقضوا زمناً طويلاً في العصيان. وسيعترفون وهم يذرفون دموعاً باطلة أن الذي وهب لهم روح التمرد قد غرَّر بهم وسخر منهم. سيقولون هذا بيأس وسيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أكثر شقاءً أيضاً لأن الطبيعة البشرية لا تحتمل التجديف ولا بدَّ أن تثأر لنفسها منه في آخر الأمر. وكذلك القلق والاضطراب والشقاء، ذلك هو المصير الذي كُتب على البشر الآن، بعد أن تألمت أنت من أجل أن تجعلهم أحراراً! إن رسولك الكبير يروي أنه رأى، في رؤيا، جميع المشتركين في القيامة الأولى، فرأى اثني عشر ألفاً من كل سبط. وكانوا، مهما يكثر عددهم، أقرب إلى آلهة منهم إلى بشر: قاسوا صليبك، وتحملوا عشرات السنين في الصحراء الجرداء، وأنهكهم الجوع، وأكلوا الجراد والجذور. وأنت، بالتأكيد، في وسعك أن تعتز بأبناء الحرية هؤلاء الأولاد الذين وهبوا لك محبَّتهم أحراراً، وارتضوا أن يضحّوا في سبيلك بأنفسهم في سورة رائعة. مع ذلك، تذكَّر أن هؤلاء ليسوا إلا بضعة آلاف وأنهم أشبه بآلهة منهم ببشر - والآخرون؟ ما ذنب الآخرين إن هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من مصائب؟ هل تأثم النفس الضعيفة عندما لا تعرف كيف قسموا إلى فضائل مرعبة إلى هذا الحدّ؟ أتراك جئت من أجل هذه النخبة وحدها؟ ألا تفكر أنت إلّا فيها، ولا يخطر ببالك من عداها؟ إذا كان الأمر كذلك، فهو سرّ يفوق ما نملك من قدرة على الادراك. ومن حقنا في هذه الحالة، نحن أيضاً، أن نلجأ إلى السرّ وأن نعلّم الجماهير أنّ الأمر الأساسي ليس هو الحب بل السرّ، ولا هو أن يقرر قلبهم تقريراً حراً، بل هو الخضوع الأعمى لما لا إمكانية لمعرفته، وأن يطيعونا ولو عارضهم في ذلك ضميرهم. أصلحنا خطأك وأقمناه على «المعجزة والسرّ والسلطة». وابتهج الناس إذ رأوا أنفسهم يقادون مجدداً كما يقاد قطيع، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشؤومة التي أعطيتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها. قل لي: هل كنا على حقّ حين فعلنا ذلك وعلَّمناه؟ هل تعتقد أن يؤخذ علينا حقاً أننا لم نحب البشرية حباً كافياً، بينما نحن اعترفنا بضعفها في كثير من الإذعان، وخفَّفنا عنها العبء في كثير من الحب حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعفها الروحي، شرط أن تستأذننا في ذلك كل مرة؟ لماذا، إذن، جئت اليوم تزعجنا؟ لماذا تحدِّق إليَّ هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين دون أن تقول شيئاً؟ إنني لا أريد محبتك، لأنني أنا نفسي لا أحبك. وماذا لديَّ أن أخفيه عنك؟ ولا أعرف مع من أتكلَّم؟ وكلّ ما لديّ لأقوله، أنت عالم به، وأنا أقرأ ذلك في عينيك. أين يمكنني أن أخبىء عنك سرَّنا؟ إن سرّنا لن يخفى عنك، فلعلّ ما تريده إذن هو أن تسمع هذا السرّ في فمي؟ ليكن لك ما تشاء، واعلم أننا لسنا معك بل معه «هو»، وتحيّزنا له «هو». فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مستاءً، أعني الهبة الأخيرة التي عرضها عليك وهو يشير لك إلى ممالك الأرض: لقد أعطانا روما وسيف قيصر. ونحن أصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين وأسياده، رغم أننا لم ننجز إلى الآن عملنا نهائياً. وخطأ منْ هذا؟ إن هذا المشروع لا يزال في بدايته ولكنه بُدىء. ولا بدّ من الانتظار طويلاً قبل أن نصل به إلى هدفه، ولا بد من آلام كثيرة في هذه الحياة الدنيا، لكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح قيصر. وعندئذ، نفكر في سعادة مشتركة تنعم بها البشرية. لقد كان بإمكانك أن تأخذ السيف من

قيصر في الماضي فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التي نصحك بها الروح القوي اذن لكنت حققت كل ما تتمناه البشرية، وهو أن تعرف: من تطيع، وإلى من تعهد بضميرها، وبأيّ أسلحة توحّد جميع البشر في مجتمع كمجتمع النمل، واحد كبير منظم، لأنّ الحاجة إلى الوحدة الشاملة هي ثالث هموم النفس البشرية، وهي، في الوقت نفسه، أقوى هذه الهموم كلّها. لقد حاولت البشرية في كل الأزمنة أن تنظم نفسها على أساس شامل. إنّ ثمة أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد، ولكن شقاءها كان كبيراً على قدر نبلها لأنها شعرت أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة إلى توحيد النوع البشري. فالغزاة الكبار من أمثال تيمورلنك وجنكيزخان الذين مرّوا على الأرض كإعصار مخرب، وعاصفة مدمرة، كانوا يتوقون إلى أن يصبحوا أسياد العالم بأسره، ولكن شوقاً عميقاً واحداً إلى توحيد الشعوب كلها، كان يحرّكهم دون أن يشعروا بذلك. فلو ارتضيت بقانون القياصرة ومقامهم، لكان بإمكانك أن تقيم المملكة الشاملة وتوطد السلام الشامل. ومنْ يحكم البشر إن لم يكن أولئك الذين يحكمون النفوس، منذ الآن، ويملكون الخبز؟ لقد أخذنا، إذن، السيف من قيصر، وإذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه «هو». ستنقضي قرون في فوضى التحلل الفكري والعلم الباطل وأكل لحوم البشر لأنهم ما داموا قد بدأوا بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً إلى أكل لحوم البشر. لكن «الوحش» سيأتي إلينا زاحفاً، وسوف يلعق أقدامنا التي سيبلّلها بدموعه المدمَّاة. وسوف نركب هذا الحيوان ونرفع كأساً حُفرت عليها كلمة واحدة: «السرّ». ويومئذ، ستتوطد مملكة السلام والسعادة للبشرية. إنك فخور بنخبتك المختارة، ولكن النخبة وحدها معك، أما نحن، فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة إلى كل نفس. وحتى بين أبناء هؤلاء المختارين، حتى بين الأقوياء، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون إلى خدمتك، فعبثاً انتظروك، ثم سئموا هذا الانتظار الطويل الذي لا جدوى له، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أرضية بحتة، وانتهى بهم الأمر إلى رفع راية حريتهم عليك! وهذه الراية أنت منْ رفعها. أما نحن الذين نهش على البشر بعصانا، فإن البشر سيكونون سعداء معنا، وسيتخلّون عن التمرد علينا. سوف نعرف كيف نقنعهم بأنهم لن يكونوا أحراراً إلا متى تنازلوا عن استعمال حريتهم، وسنكون قد ألزمناهم بخضوع لا عودة عنه. هل ما نقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب؟ لن يلبثوا أن يدركوا أنه الحقيقة لأنهم سيتذكرون العبودية والآلام التي قادتهم إليها حريتك. إن الحرية، حرية الفكر والعلم، وكل ذلك سيؤدّي بهم إلى طريق مسدود، لأنه سيلقيهم في اضطراب لا مخرج منه مليء بالألفاظ التي لا حلَّ لها، يزخر بالمعجزات المحيّرة وبالأسرار المبهمة. والعصاة العنيفون والمتوحشون منهم سيدمّرون أنفسهم؛ وأما العصاة الضعفاء فسيقتل بعضهم بعضاً؛ والذين سيبقون هم الضعفاء والتعساء، وهم أشقى من أن يتمردوا فسيزحفوا عند أقدامنا قائلين لنا: «أجل، أنتم على حقّ لأنكم وحدكم تملكون سرّه. نحن نعود إليكم فأنقذونا من أنفسنا!» وعندما سيتلقون الخبر من أيدينا سيرون أنهم هم الذين أنتجوه بعملهم، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بدون أي معجزة. سيدركون أننا لم نقلب حجارةً إلى خبز، ولكنهم سيفرحون بأنه طُعموا، وسيفرحون أكثر من ذلك بأنهم طعموا على أيدينا: لن ينسوا أبداً أن الخبز الذي صنعوه كان، بدوننا، يتحول في أيديهم إلى حجارة، حتى إذا رجعوا إلينا تحوَّلت الحجارة خبزاً لهم. وسيعرفون كيف يقدّرون قيمة الخضوع النهائي! لم يكن ممكناً أن تكون حياتهم سوى شقاء، ما ظلّوا يجهلون ذلك. فمن الذي ساهم أكثر من غيره في عدم الفهم الذي أعماهم؟ قل لي: من الذي خرَّب تلاحم القطيع وشتَّته في طرق مجهولة؟ لكن القطيع سيتجمع مجدداً، وسيعود إلى طواعيته إلى الأبد هذه المرة. وسوف نَهَب، عندئذ، إلى هذه المخلوقات الضعيفة سعادةً متواضعة هادئة هي السعادة الوحيدة التي تلائمهم. سنعلّمهم أخيراً ألّا يتبجحوا بأنفسهم لأنك رفعتهم فجعلتهم متكبرين. سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم، وأنهم أطفال مساكين، ولكن سعادة الأطفال هذه هي أعذب سعادة. سوف يصبحون خائفين، وسوف ينظرون إلينا نظرتهم إلى حماة، ويتراصون حولنا كما أفراخ الدجاجة حول أمها. سوف ندهشهم ونرعبهم عندما يرون قوتنا، فخورين بأن لهم سادة أقوياء وأذكياء، سادة عرفوا كيف يسيطرون على

هذا القطيع من العصاة. سوف يرتعدون خوفاً أمام غضبنا، سوف تتخدر عقولهم، وتدمع عيونهم كالنساء والأطفال، لكنهم، بإشارة منا، سوف ينتقلون بمثل هذه السرعة إلى الضحك والمرح والغبطة، ضاحكين بهناءة، مغنّين كالأطفال الصغار. وسوف نرغمهم على العمل طبعاً، ولكننا سنهيئ لهم في ساعات فراغهم حياة أشبه بلعب الأطفال فيها أغانٍ طفولية وجوقات ورقصات بريئة. أوه. وسنسمح لهم أيضاً بأن يأثموا ما داموا ضعفاء وبدون قوة، وسوف يحبوننا مثل الأطفال بسبب منحهم اقتراف الخطايا. سنقول لهم إن كل خطيئة يمكن التكفير عنها إذا هي ارتكبت بموافقتنا. وإذا سمحنا لهم أن يأثموا فلأننا نحبهم، أما القصاص فسنأخذه على عاتقنا. سوف يحبوننا لأننا مخلِّصون لهم، لأننا نقبل أن نكون مسؤولين عن خطاياهم أمام الله. ولن يكتموا عنا أيّ سرّ. سنسمح لهم أو نحظر عليهم، تبعاً لدرجة طاعتهم، أن يعيشوا مع نسائهم أو عشيقاتهم، وأن ينجبوا أولاداً، أو لا ينجبوا، وسيخضعون لتوجيهاتنا بفرح وسرور. سيفضون إلينا بأخفى ما يعانون من آلام، وأخفى ما يضطرم في ضميرهم من أنواع العذاب، وسوف نفصل في جميع الحالات، وسوف يرتضون حلولنا فرحين، لأنها ستحررهم من القلق الذي يعانيه المرء متى توجّب عليه أن يتخذ قراراً حراً. وسيكون جميع الناس سعداء، جميع هؤلاء الملايين من البشر باستثناء بضع مئات من الألوف الذين ستقودهم: سنكون وحدنا أشقياء نحن الذين نملك السرّ. سيكون في هذا العالم مئات الملايين من المخلوقات السعداء، لن يكون فيه إلا مئة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمّل عذاب المعرفة، معرفة الخير والشر. وسوف يموت أولئك موتاً هادئاً ينطفئون باسمك وادعين مسالمين فلا يجدون في المقابر إلا الموت. ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بالسرّ، ومن أجل سعادتهم سنلألىء أمام أعينهم جمال المكافآت السماوية والأبدية. وإن كانت توجد حياة أخرى بعد الموت فلا شك أن هؤلاء الضعفاء ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى. يُقال، وتزعم النبوءات أنك ستعود، ذات يوم، لتحقق نصراً جديداً على الشرّ، وأنك ستظهر محاطاً بمن اصطفيت من ذوي النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم. لكننا سنقول عندئذ، بأن هؤلاء قد أنقذوا أنفسهم وحدها. أما نحن فقد جئنا بالخلاص لكل الناس. يقال إن الزانية الدنيئة التي تركب «الوحش» وتحمل السرّ، سيجلّلها العار، ذات يوم، وإن الضعفاء سيتحررون مرة أخرى فيمزقون رداءها الديني الكاذب ويعرُّون جسدها «النجس». لكنني أنا، سأنهض، عندئذ، وأُريك ألوف الملايين من الأطفال السعداء، الذين عاشوا وهم يجهلون الخطيئة. ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لنحقق سعادتهم، سوف نمثُل أمامك ونقول لك: «احكم علينا إذا كنت تستطيع، إذا كنت تجرؤ!» واعلم أنني لا أخشاك، واعلم أنني عشت أنا أيضاً في الصحراء أقتات بالجراد والجذور، وأبارك الحرية التي كنت تبارك بها البشر. وأنا أيضاً، كنت أتهيأ لأن أكون واحداً من صفوتك المختارة، واحداً من الأقوياء والمقتدرين الذين يتحرقون شوقاً إلى «إكمال العدد». ولكنني فتحت عينيَّ ورفضت أن أخدم الجنون. لقد عدت وانضممت إلى صفوف أولئك الذين أصلحوا ما صنعت. أجل، تركت المتكبرين وانضممت إلى المستضعفين لأحقق سعادتهم. إن ما أقوله لك سيتحقق، وإن مملكتنا سوف تُبنى في هذا العالم. وأكرر لك: سترى قطيعاً مطيعاً يسرع بإشارة مني إلى إضرام ألسنة اللهب التي ستُحرق بها. وسآمر بحرقك لأنك جئت تزعجنا. وإذا وجد واحد يستحق الهلاك في النار أكثر من الآخرين فهو أنت. غداً سأحرقك. انتهى كلامي».

توقَّف إيفان. كان قد تحمس وهو يتكلم. وختم قصته باندفاع. وعندما انتهى من حديثه ظهرت، فجأة، على شفتيه ابتسامة.

وأليوشا الذي أصغى إليه صامتاً، حاول، أخيراً، عدة مرات، أن يقاطع خطاب أخيه. ومع ذلك، كبح جماح نفسه حتى النهاية. وها هو الآن يتكلم، وكأنه مدفوع إلى الكلام؛

- ولكن... هذا سخيف. صاح وقد احمرّ وجهه. إنّ قصيدتك مديح للمسيح، في

الواقع، وليست نقداً كما أردت. من الذي يصدّق ما قلت عن الحرية؟ أهي كذلك أم هكذا يجب أن تُفهم؟ إن الكنيسة الأورثوذكسية لا تتصور الحرية على طريقتك هذه... إنها روما... روما كلّها، أليس ذلك صحيحاً؟ إنه تصوّر أشرار الكاثوليكية، هم المفتشون واليسوعيون... إن صاحبك كبير المفتشين لا صلة له بالواقع بل هو شخصية خيالية غير موجودة. ما هي خطايا البشر التي يدّعي أنه اتخذها على عاتقه؟ أين رأيت حملة السرّ هؤلاء الذين يزعم أنهم ارتضوا، لست أدري أيّ لعنة، من أجل سعادة البشر؟ متى وُجد هؤلاء؟ إننا نعرف اليسوعيين وقد قيل فيهم سوء كثير، ولكن هل هم يشبهون حقاً الصورة التي رسمتها لهم؟ إنهم ليسوا كذلك أبداً... إنهم جيش الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا في المستقبل أمبراطورية الأرض التي سيرأسها حبر روما برتبة أمبراطور... ذلك هو مثلهم الأعلى، وهو لا يشتمل على سرّ ولا على ذلك الحزن النبيل... إنه الرغبة في السيطرة فقط، إنه شهوة الاستئثار بخيرات الأرض الحقيرة، إنه استعباد الناس... إنهم يحلمون بالعودة إلى نوع من نظام الرق يكونون فيه هم المالكين... ذلك هو طموحهم كله! وهم لا يؤمنون حتى بالله. ...ليس صاحبك المفتش ولا عذابه النبيل إلا وهماً فقط

- مهلاً، مهلاً! قال إيفان ضاحكاً. لماذا تتحمّس؟ إنها ثمرة خيالي، تقول لي. أنا لا أعارض في هذا! طبعاً، ذلك كله خيال. ولكن، مهلاً، أرجو أن تسمح لي بهذا السؤال: هل تعتقد حقاً بأن كل الحركة الكاثوليكية، في القرون الأخيرة، لم تكن إلا رغبة في السلطة وفي الخيرات الحقيرة؟ لا شك أن الأب باييسي هو الذي ملأ رأسك بهذا الكلام؟

- لا، لا. بالعكس! قال الأب باييسي ذات يوم كلاماً يشبه كلامك... ولكنه استدرك :فجأة

- .لكنه، طبعاً لم يقل ما قلته أنت بعينه أبداً

- معلومة ثمينة، رغم قولك «ليس ما قلته أبداً». أنا أسألك، بالضبط، لماذا أصحابك اليسوعيون والمفتشون اتحدوا معاً لامتلاك الخيرات المادية الحقيرة؟ لماذا من المستحيل أن نجد بينهم إنساناً واحداً يعذبه ألم نبيل ويستبد به حب البشرية؟ افرض أنه قد وُجد في عداد هؤلاء الناس الباحثين في المباهج المادية والدنيئة، رجل واحد شبيه بصاحبي كبير المفتشين، عاش في الصحراء مثله واقتات بالجراد والجذور، وناضل ضدّ الشيطان مهلكاً جسده ليكون حراً وكاملاً. وقد أحبَّ البشرية طوال حياته، واقتنع فجأة بأن السعادة النفسية التي يقال إن السموّ الروحي يحققها، إنما هي وهم ما دام ملايين البشر الآخرين، وهم مخلوقات الله مثله، لا يزالون غارقين في أقذار الفحش، وأن حريتهم المزعومة ليست إلا سخرية لاذعة مرة، وأن هؤلاء العصاة المساكين لن يكونوا عمالقة قادرين على إكمال بناء البرج وأنهم لن يصلوا أبداً إلى حريتهم، وأن حلم الانسجام المثالي الكبير لم يخلق لهذا النوع من الإوزّ! تصوَّر أنّ هذا الرجل قد أدرك ذلك فعاد إلى صوابه وانضمّ إلى الحكماء... أهذا، في رأيك، لم يحصل أبداً؟

- إلى من انضم، ومن هم هؤلاء الحكماء؟ قال أليوشا غاضباً. لا توجد أيّ حكمة في هذا الشأن، وليس لديهم سرّ ولا ما يشبه السرّ! هؤلاء ملحدون... هذا هو السرّ كله. وصاحبك !المفتش لا يؤمن بالله، وهذا هو سرّه

- لنسلّم بهذا! لقد عرفت أخيراً. صحيح أن السرّ يكمن ها هنا. ولكن أليس هذا عذاباً بالنسبة إلى رجل مثله أفسد مستقبله بحياة التقشف في الصحراء ولم يستطع أن يتحرّر من حبّه البشرية؟ لقد رأى، بوضوح، في أواخر أيامه، أن النصائح التي قدَّمها الروح الرهيب الكبير يمكنها وحدها أن تنظم، بشكل مقبول، حياة العصاة الضعفاء، حياة هذه «المخلوقات الناقصة التي كانت تجربةً للخالق، وظفرت بالحياة سهواً». فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن

من الواجب سلوك الطريق الذي نصح به الروح العميق، الروح الرهيب، روح الموت والعدم. ولأنه منطقي مع نفسه فقد أقرَّ ضرورة الكذب على البشر وتضليلهم وخداعهم لكي يسير بهم إلى الموت وإلى العدم سيراً واعياً ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق لكي لا يكتشفوا إلى أين هم سائرون. فبهذه الطريقة يتمكن العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء. لاحظْ، إنه مضطر إلى هذا الكذب باسم ذلك العجوز الذي آمن به بشغف طوال حياته. أفليس هذا شقاء؟ وإذا وُجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع، على رأس هذا «الجيش المتعطش إلى السيطرة وإلى اللذائذ المادية الرخيصة»، أليس مثل هذا كافياً لأن يخلق مأساة! وأكثر من ذلك: يكفي أن يوجد واحد من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تُنفخ فكرة موجِّهة في فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعييها، فكرة سامية. أقول لك بصراحة، أنا على يقين من أنّ رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا في كل الأزمنة بين قادة الكاثوليكية الرومانية، وربّما وُجد منهم بين الباباوات الرومانيين! ومن يدري، فإن ذلك العجوز اللعين الذي يصرّ على محبة البشرية على طريقته، يمكن أن يوجد في أيامنا هذه، مع عدد من أمثاله، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله نتيجة صدفة، بل ثمرة تفاهم واتفاق، وأن يكون نوعاً من جمعية سرّية أنشئت منذ زمن بعيد للمحافظة على السرّ وإخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء وتأمين سعادتهم بذلك. لا بدّ أن يكون الأمر كذلك حتماً. ويبدو لي، من جهة أخرى، أن الماسونيين لا بدّ أن يكون لهم هم أيضاً سرّ من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم وهذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيون من كره وحقد، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون إلى وحدة الفكرة، بينما يجب ألّا يكون هناك إلا قطيع واحد وراعٍ واحد... ولكنني ألاحظ أنني في دفاعي عن فكرتي أبدو كمؤلِّف عاجز عن احتمال نقدك. كفى هذا.

- تُرى هل أنت نفسك من الماسونيين؟ سأله أليوشا فجأة، ثم أضاف: أنت لا تؤمن بالله! لكنه قال بلهجة فيها حزن عميق في هذه المرة، وقد بدا له أن أخاه ينظر إليه بسخرية.

- وكيف تنتهي قصيدتك؟ سأله وهو ينظر إلى الأرض. أم أنها انتهت؟

- خطر ببالي أن أنهي قصيدتي على هذا النحو: عندما سكت كبير المفتشين انتظر من سجينه رداً. لكن صمت السجين قد ثقل عليه، رأى أسيره يستمع إليه طوال فترة كلامه ويحدِّق إليه بنظرة رقيقة نافذة موجّهة مباشرة إلى عينيه مصمماً على ألّا يدخل معه في مناقشة. كان العجوز يفضّل أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة. ولكن السجين لم يتفوّه بكلمة واحدة. وفجأة اقترب من العجـوز فطبع قبلة على شفتيه الشاحبتين. كان ذلك كلّ جوابه. ارتعش العجوز، واختلج شيء ما في طرفَي شفتيه، ثم اتجه نحو الباب ففتحه وقال: «اذهب الآن... ولا ترجع بعد اليوم أبداً، لا ترجع بعد اليوم أبداً... وتركه يذهب إلى «الأماكن المظلمة من المدينة». وانصرف السجين.

- والعجوز؟

- حرقت القبلة قلبه، لكنه بقي متمسكاً بفكرته.

- التي هي فكرتك أنت أيضاً، أليس كذلك؟ قال أليوشا بألم. وانفجر إيفان ضاحكاً.

- لكن ذلك كلّه سخافات، يا أليوشا. إنها قصيدة سخيفة نظمها طالب لم يكتب طوال حياته بيتين من الشعر. فلماذا تهتمّ بها هذا الاهتمام؟ ولماذا تعطيها هذا الاهتمام كله؟ هل تظنّ أنني ذاهب إلى هناك لأنضمَّ إلى اليسوعيين ولأنخرط في صفوف أولئك الذين يدعون «إصلاح ما قام به المسيح»؟ يا إلهي، ماذا يعنيني هذا كله؟ لقد قلت لك: إن كل ما

يعنيني هو أن أصل إلى الثلاثين من العمر، ثم أحطّم كأسي على الأرض!

- والوريقات الصغيرة الغضّة؟ والقبور العزيزة عليك، والسماء الزرقاء، والمرأة المحبوبة! كيف ستعيش إذن لكي تحبّهم، كيف ستفعل؟ قال أليوشا بألم. إنك بهذه الأفكار الجهنمية في رأسك وفي صدرك لن تستطيع ذلك؟ بلى، صحيح، إنك ذاهب لتنضمّ إليهم... وإلا فستقتل نفسك هناك، لن تصمد!

- في نفسي قوة ستتحمّل كل شيء! قال إيفان متهكماً.

- أيّ قوة؟

- قوة آل كارامازوف... قوة الخسة الكارامازوفية.

- تريد أن تغرق في الفجور، وأن تقتل نفسك في حضيض الجسد؟ أجل، أجل.

- نعم، يمكن القول... لكنني سأعرف كيف أتجنّبه حتى الثلاثين من العمر. وبعدئذ...

- كيف ستتجنَّبه؟ بماذا ستتجنّبه؟ هذا مستحيل مع أفكارك هذه!

- وهنا أيضاً على الطريقة الكارامازوفية.

- هنا أيضاً على الطريقة الكارامازوفية. أيكون ذلك بأن «كلّ شيء مشروع»؟

متى كان كلّ شيء مباحاً؟

قطّب إيفان حاجبيه وشحب لونه فجأة.

- آه! أنت تعيد الفكرة التي أساءت بالأمس إلى ميوسوف... تلك الفكرة التي تلقّفها أخونا ديمتري بشكل ساذج؟ أضاف إيفان وعلى شفتيه ابتسامة متكلّفة... ليكن! هو كذلك! «كل شيء مباح». لأن الجملة قيلت فأنا لا أنكرها. قلت ذلك ولن أنقضه. أما جملة ميتيا فليست سيئة هي الأخرى.

نظر إليه أليوشا دون أن يتفوه بكلمة.

- كنت أحدّث نفسي، يا أخي العزيز، بأنني سأحتفظ عندما أسافر بإنسان واحد يحبني؛ واستأنف إيفان كلامه بانفعال غير منتظر. لكنني ألاحظ الآن أن ليس لي في قلبك مكان يا عزيزي الناسك. أنا لن أنكر فكرتي القائلة بأن «كل شيء مباح». ولكنك أنت ستنكرني بسبب هذه الفكرة، إذا صدق ظني، أليس كذلك؟

نهض أليوشا واقترب منه وطبع على شفتيه قبلة رقيقة دون أن يتكلم.

- هذه سرقة أدبية! صاح إيفان بحماسة. لقد سرقت أنت الفكرة من قصيدتي. شكراً! إنهض يا أليوشا. فلننصرف. يجب أن ننصرف أنا وأنت.

خرجا ولكنهما توقفا أمام درج الكاباريه.

- إسمع يا أليوشا. قال إيفان بصوت جازم. إذا بقي في نفسي من الحياة ما يكفي لأن أحب الوريقات الصغيرة النديّات فسيكون هذا بفضل ذكراك. سيكفيني في ساعات اليأس أن أتذكر أنك ما تزال تعيش في مكان ما حتى أسترجع حبّ الحياة فوراً. هل يرضيك هذا؟ عده تصريح حبٍ إن شئت. والآن، ستتجه أنت يمنةً وأنا يسرةً - كفانا ثرثرة، هل

فهمت، كفى. وحتى وإن لم أسافر غداً (وأنا متأكد أنني سأسافر) والتقينا مرة أخرى، فلا تعد إلى هذه المواضيع التي ناقشناها اليوم، أرجوك. حذار من كلمة واحدة في هذا الموضوع! ولا تكلّمني أيضاً عن أخينا ديمتري في المستقبل، أنا أطلب منك هذا بجزم. ومن المفضّل ألّا تكلمني بعد الآن أبداً. (أضاف قائلاً بعصبية مفاجئة) لقد انتهى الحديث، فكل شيء قد قيل. أليس هذا جيداً؟ وأنا، من جهتي، سأقطع لك هذا الوعد: عندما سأقرر في الثلاثين من عمري أن «أرمي الكأس على الأرض»، فسوف أجيء لأراك للمرة الأخيرة... ولو كنت أعيش في أميركا، سأجيء إليك فنتناقش مرة أخرى... في وسعك أن تعوّل على هذا. سأقوم برحلة خاصة لهذه الغاية. سيشوقني أن أراك عندئذ، وأن أعرف ما صرت إليه. هذا وعد أقطعه على نفسي. قد لا نلتقي قبل انقضاء سبع سنوات أو عشر. حسناً، اذهب الآن إلى صاحبك «الأب سيرافيكوس» لأنه يحتضر. فإذا مات في غيابك ستحقد عليّ لأنني أخَّرتك. إلى اللقاء. قبّلني مرة أخرى، والآن، فاذهب...

تركه إيفان فجأة وسار في طريقه دون أن يلتفت. إن هذا الانصراف المباغت يشبه الطريقة التي ترك بها أخوه ديمتري، أليوشا بالأمس، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض. مسَّ هذا التشابه الغريب فكر أليوشا بشكل خاطف، فشعر فجأة بحزن وإرهاق. انتظر بعض الوقت يتابع بنظره أخاه الذي كان يبتعد. لاحظ دون أن يعرف في تلك اللحظة أن مشية إيفان كانت متمايلة وأن كتفه اليمنى تُرى من الظهر أخفض من الكتف اليسرى. ولم يلاحظ هذا من قبل. أخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً. كان الظلام قد هبط. شعر بخوف غامض يجتاحه. لقد نبت في نفسه إحساس لم يستطع معرفة طبيعته. هبَّت الريح كما في الليلة البارحة. وغمرته أشجار الصنوبر التي تبلغ السنة المئة من عمرها، غمرته بحفيف حزين حين دخل غابة المنسك. كان يركض تقريباً. «الأب سيرافيكوس» - أين تراه وجد هذا الاسم؟ تساءل أليوشا بسرعة خاطفة. إيفان، مسكين إيفان، متى أراك... هذا هو المنسك! يا إلهي! نعم، نعم، سوف ينقذني «الأب سيرافيكوس»... سوف ينقذني منه إلى الأبد.

سوف يتذكر أليوشا، مراراً، أثناء حياته، في دهشة عميقة، كيف استطاع في ذلك اليوم بعد أن ترك إيفان، أن ينسى أخاه ديمتري، مع أنه كان قد صمّم قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلَّف الثمن، ولو اضطر، في سبيل ذلك، أن يعدل عن الذهاب إلى الدير في تلك الليلة.

VI

ليس واضحاً أبداً حتى الآن

أما بالنسبة إلى إيفان فيودوروفتش، وبعد أن ودَّع ألكسي، رجع إلى المنزل، منزل فيودور بافلوفتش. ولكن الأمر الغريب هو أنه شعر فجأة بقلق لا يحتمل، وكان قلقه يزداد كلما اقترب خطوة من المنزل. والغرابة ليست في القلق الذي كان يشعر به هو بل بكونه لا يستطيع أن يحدّد له سبباً. لقد سبق له أن أحسَّ بنوبات قلق، ولا غرابة في أن يكون حزيناً في هذه اللحظة التي يستعد فيها للسفر بعد أن كان قطع صلته بكل ما يربطه بهذه المدينة. والتي سيكون وحيداً هنا أيضاً كما كان من قبل، مع آمال كثيرة، لكن غير واضحة، مع توقعات كثيرة، لكن دون أن يحدد ما هي هذه الأشياء وما هي رغباته. ورغم كل شيء، حتى لو كان القلق من الجديد ومن المجهول حاضراً في نفسه. فإن ما كان يقلقه هو الآخر. وتساءل: أليس هو الاشمئزاز من منزل الوالد؟ يمكن الاعتقاد أن هذا المنزل رغم معرفتي بأنني أجتاز عتبته آخر مرة... ولكن لا، ليس هذا هو السبب. أهو إذن وداع أليوشا والحديث الذي جرى بيني وبينه؟ «لقد سكتُّ سنوات طويلة، أمام كل الناس، ولم أتفوه بكلمة أمام أي إنسان، ثم ها أنا أخرج من كل تلك السخافات دفعةً واحدةً. صحيح أنه من الجائز أن يشعر لقلَّة تجربته وشدة غروره بشيء من الأسف لأنه لم يستطع أن يعبّر عن نفسه أمام إنسان مثل أليوشا ينتظر منه في قرارة نفسه أشياء كثيرة. لا شك أن في نفسه الآن شيئاً من الأسف، ولكن ليس هذا ما يزعجه الآن. هناك شيء آخر؟ «إنّ قلقاً يملأ نفسي حتى ليكاد يثير غثياني ولم أصل إلى معرفة ما أريد... أو أن لا أفكر في هذا الأمر...».

حاول إيفان فيودوروفتش أن «لا يفكّر»، ولكنه لم يفلح. فالقلق الذي يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أنّ مصدره علّة خارجية طارئة. إنه يحسّ ذلك بشكل واضح. إن الأمر يتعلق بشيء أو بشخص - لا يعرف إيفان على وجه الدقة - لا يحتمل وجوده في نظر إيفان. يشعر إيفان بضيق شبيه بالضيق الذي يثيره في النفس أحياناً، أثناء العمل أو أثناء حديث حار، وجود شيء مزعج لم يره المرء بشكل واعٍ، ولكنه يغتاظ منه، يحاصره ويسدّ عليه الأبواب إلى أن يخطر بباله أخيراً أن يزيح سبب هذا الانزعاج الذي غالباً ما يكون سبباً تافهاً: شيئاً ليس في موضعه، منديلاً ساقطاً على الأرض، كتاباً نُسي وضعه في المكتبة، الخ. بلغ إيفان منزل والده أخيراً، معتكر المزاج، مهتاج الأعصاب. وعندما وصل إلى مسافة خمس عشرة خطوة من الباب الحديدي، ألقى نظرة على المدخل فأدرك، فجأة، ما كان يقلقه ويعذبه إلى هذا الحدّ.

كان الخادم سمردياكوف جالساً على مقعد قرب الباب الكبير يتمتع بطراوة المساء، وأدرك إيفان فيودوروفتش أن من أول نظرة إليه كان الخادم سمردياكوف جالساً أيضاً داخل ذاته. وكان هذا الرجل بالضبط الذي لا تستطيع نفسه أن تتحمله. لقد اتضح كل شيء، فعندما كان أليوشا يحدثه، في الكاباريه عن اجتماعه بالخادم، شعر إيفان بانزعاج شديد ونفوذ حادّ لم يلبثا أن تحوَّلا إلى غضب. وتوقف عن التفكير في سمردياكوف أثناء الحديث الذي تلا ذلك، إلا أن حقداً ثقيلاً بقي في قلبه. فعندما ترك إيفان فيودوروفتش، أليوشا، واتجه إلى المنزل، استيقظ فيه ذلك الشعور بالانزعاج دون أن يتمكن من الاهتداء إلى مصدره. «كيف يمكن أن يقلقني هذا الحقير الغبي؟» تساءل إيفان بغضب لا يحتمل.

وبالطبع إن إيفان فيودوروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن بعيد، ولا سيما في الأيام الأخيرة. وقد بدأ يعرف هو نفسه أن ثمة حقداً تجاه هذا الرجل لا ينفك يتزايد. ولعل هذا الحقد قد تفاقم إلى هذا الحد لأنه، في البدء، في الأيام الأولى لقدوم إيفان فيودوروفتش قد شعر تجاهه بشيء مختلف. لقد أظهر إيفان فيودوروفتش في ذلك الوقت شيئاً من الاهتمام بالخادم حتى لقد اعتبره امرأً طريفاً، وشجّعه على أن يتحدث إليه دون أن يفوته ما كان في أحاديث هذا الرجل من بعض التفكك والقلق. وكان إيفان يتساءل: ما الذي يهزّ فكر هذا «المتأمل» على هذا الشكل بقوة وبدون انقطاع؟ لقد تحدثا في مسائل فلسفية، وناقشا مسألة الضياء، من أين جاء في أول يوم من أيام خلق العالم مادامت الشمس والنجوم والقمر لم تخلق إلا في اليوم الرابع؟ كان واضحاً أن ما يشغل باله هو غير هذا تماماً. وشيئاً فشيئاً، ظهرت أنانيته التي لا حدود لها. فهذه الأشياء لم تعجب إيفان فيودوروفتش، وبدأ ينزعج منه. وعندما بدأت المشكلات العائلية المعقدة بظهور غروشنكا ونشوب المنازعات بين ديمتري ووالده، تسنّى لإيفان أن يتحدث عن هذه المصاعب مع سمردياكوف، فكان يستحيل عليه، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائماً باضطراب بالغ، أن يعرف ماذا كان يريد أن يقول. وما الذي يبحث عنه. كان سمردياكوف يستوضح باستمرار ويلقي بعض الأسئلة موارباً، لغايةٍ في نفسه - ولكن دون أن يوضحها، ويسكت فجأة أو ينتقل إلى موضوع آخر في مجرى الحديث. ولكن إيفان فيودوروفتش أصبح حاقداً عليه خاصة أنه أخذ يرفع الكلفة بينهما، فيخاطبه بدون تحرّج ويمعن في ذلك يوماً بعد يوم. لقد ولّد هذا الموقف في نفس إيفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة. ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يسمح لنفسه أن لا يكون مهذباً مع إيفان. بالعكس: كان يصطنع في مخاطبته كثيراً من الاحترام. ومع ذلك، انتهت الأمور بالخادم إلى حيث اعتقد، والله وحده يعلم ذلك، أنه متضامن مع إيفان. فهو يتحدث إليه بطريقة خاصة كأن بين الرجلين تفاهماً سرّياً، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما. وبقي إيفان فيودورفتش مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقي الذي يثير اشمئزازه المتزايد، ثم لم يدركه إلا منذ بضعة أيام. فأراد إيفان، وقد تملّكه الاشمئزاز والغضب، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف، ولكن هذا الأخير نهض عن مقعده فأدرك إيفان على الفور من وضعه أنه يريد أن يحدّثه حديثاً خاصاً. نظر إليه إيفان وتوقف. كان ينوي، منذ لحظات قليلة، أن يمرَّ دون توقف. شعر بغضب! وبدأ ينظر بحقد واشمئزاز إلى هذا الوجه الذي يشبه وجوه الخصيان وإلى هذا الشعر المصفَّف بكثير من العناية على الصدغين وإلى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس. وكانت عين سمردياكوف اليسرى التي تغضّن حاجبها، تغمز بمكر، كأنه أراد أن يقول له: «قف، لن أدعك تمرّ. ألا ترى أن هناك حديثاً يجب أن نتبادله نحن رجال الفكر؟».

- امضِ أيها النذل! ما لي ولصحبتك أيها الأبله؟». فما كان أشدّ دهشته حين رأى» نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة.

- ووالدي أهو نائم أم مستيقظ؟ سأله بصوت عذب ومتواضع. وعلى هذا النحو نفسه الذي لم يكن متوقعاً أيضاً رأى نفسه يجلس على المقعد. وتذكّر فيما بعد أن ذلك كاد يرعبه في اللحظة الأولى. كان سمردياكوف واقفاً أمامه ويداه وراء ظهره، ينظر إليه نظرة فيها ثقة لا بل قسوة.

- إنه ما يزال يرتاح. قال دون تعجّل.

قال إيفان يخاطب نفسه: «أنت من يتكلم وليس أنا».

وأردف سمردياكوف، بعد لحظة صمت، خافضاً عينيه في تصنُّع، ويقدم رجله اليمنى، ويهزّ رأس حذائه الملمَّع.

- هل تعرف أنك تدهشني يا سيدي؟

- ما الذي يدهشك؟ أجاب إيفان فيودوروفتش بلهجة جافَّة وقاسية محاولاً أن يسيطر على نفسه. لكنه شعر، في الوقت نفسه، باشمئزاز وأنَّ في نفسه استطلاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه.

- لماذا لم تسافر يا سيدي إلى تشرماشنيا؟ قال سمردياكوف وهو يرفع عينيه ويبتسم ابتسامة ألفة.

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول: «ما دمت ذكياً إلى هذا الحدّ فيجب أن تفهم سبب ابتسامتي».

- لماذا أذهب إلى تشرماشنيا؟ أجاب إيفان فيودوروفتش متعجباً.

لاحظ سمردياكوف صمتاً جديداً.

- لقد رجاك السيّد نفسه أن تذهب إليها.

تمتم سمردياكوف ببطء كأنه لا يولي جوابه هذا أيّ اهتمام: إنني أجيبك بأي شيء، بأول جواب يخطر ببالي، لا لغاية إلا أن أقول شيئاً ما.

- كنْ أكثر وضوحاً عندما تتكلم؟ ماذا تريد؟ صاح إيفان فيودوروفتش غاضباً منتقلاً من اللطف إلى الغضب.

ردَّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى، ونصب قامته، لكنه استمر في النظر إليه بالهدوء نفسه والابتسامة عينها.

- ليس ثمة أيّ شيء هام. تكلمت بدون غاية.

وساد صمت. سكتا كلاهما ما يقارب الدقيقة. أدرك إيفان فيودوروفتش أنّ عليه أن ينهض وأن يغضب. لكن سمردياكوف وقف أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقول له: «سوف أرى الآن إن كنت تغضب أم لا؟». ذاك ما شعر به إيفان فيودوروفتش على الأقل. وهمَّ، أخيراً، أن ينهض. ففتح، عندئذ، سمردياكوف فمه كأنه قد انتظر هذه اللحظة لكي يتكلم.

- إنني في وضع رهيب يا إيفان فيودوروفتش. ولست أدري كيف يمكنني الخروج من هذا المأزق. تمتم فجأة بصوت جازم وحادّ. ثم تنهد طويلاً. فجلس إيفان فيودوروفتش فوراً.

- كأنهما فقدا كلاهما العقل. استأنف سمردياكوف كلامه. إنهما يتصرفان كما الأطفال الصغار. إنني أتكلم عن والدك وأخيك ديمتري فيودوروفتش. سوف يستيقظ فيودور بافلوفتش ويعذبني بأسئلته، سوف يسألني في كل لحظة: «لماذا جاءت؟ لماذا لم تأتِ؟». وسوف تستمر هذه الأسئلة حتى منتصف الليل وإلى ما بعد منتصف الليل. وإذا لم تأتِ أغرافينا ألكسندرفنا (وفي رأيي أنها لا تنوي أن تأتي أبداً)، فسوف يتابع أسئلته غداً: «لماذا لم تأتِ؟ متى تأتي؟». كأنني أنا المذنب. والقصة هي نفسها في الجانب الآخر. فمتى هبط الليل بل وقبل هبوطه، يأخذ أخوك ديمتري بالاستعداد، في الجوار، والسلاح في يده: «انتبه أيها الوغد، حذار أيها الوغد! فإذا تركتها تدخل دون أن تعلمني فسأقتلك أنت أول من أقتل!». حتى إذا انقضى الليل عاد يعذبني بأسئلته مثل فيودور بافلوفتش: «لماذا لم تأتِ؟ هل ستأتي قريباً؟». كأنه يعتبرني، هو أيضاً، مسؤولاً عن سلوك هذه السيدة. إن الأمور تسير

من سيِّئ إلى أسوأ، وغضبهما كليهما يزداد من ساعة إلى ساعة. ويحاصرني الخوف حتى أنني أفكر في قتل نفسي. إنني لا أتوقع منهما أيّ خير، يا سيدي!

- ولماذا حشرت نفسك في هذا الأمر! قال إيفان فيودوروفتش منزعجاً. لماذا ارتضيت أن تكون مخبراً لديمتري فيودوروفتش؟

- وهل يمكنني أن أبقى بعيداً؟ أنا لم أحشر نفسي في الأمر، إذا أردت أن تعرف ذلك. كنت أسكت ولا أجرؤ أن أردّ، منذ البداية، ولكن أخاك ألحَّ وأجبرني على أن أكون له خادماً في هذه المسألة. وهو، مذ ذاك، ما ينفك يردد على مسمعي قوله: «سأقتلك أيها الوغد، سأقتلك إذا تركتها تمرّ!». أنا متأكد أنني سأصاب غداً بنوبة صرع طويلة.

- أيّ نوبة صرع؟

- نوبة صرع طويلة جداً. ربما استمرت بضع ساعات، وربما يوماً أو يومين. لقد أُصبت، ذات مرة، بنوبة استمرت ثلاثة أيام. سقطت من الشونة وبقيت ثلاثة أيام في الإغماء. يحدث لي هذا فجأة. وفي تلك المرة استدعى فيودور بافلوفتش الطبيب هرزنستوب، طبيب المنطقة، فوصف لي ثلجاً على الجبهة ودواء آخر... وكدت أموت.

- يقال إن نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها، وفي أيّ ساعة تحدث. فكيف تقول إنك ستصاب بها غداً؟ سأله إيفان فيودوروفتش باستطلاع ممزوج بالغضب.

- صحيح... لا يمكن التنبؤ بها. ففي تلك النوبة الطويلة كنت قد سقطت من الشونة.

- أنا أصعد إلى الشونة يومياً، ومن الجائز جداً أن أسقط منها غداً أيضاً. وإذا لم أسقط من الشونة فقد أسقط في القبو، نعم في القبو، لأنني أذهب إلى القبو يومياً للقيام بالخدمة.

نظر إليه إيفان طويلاً.

- يبدو أنك تدبّر شيئاً ما. ما الذي تريد أن تصل إليه؟ قال بصوت خافت مع شيء من التهديد. هل ستتظاهر غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام أو ماذا؟

كان سمردياكوف قد خفض عينيه، وعاد يهز طرف رجله اليمنى. يُرجع قدمه اليسرى ويقدّم اليمنى، ويرفع رأسه، ويقول بعد ضحكة استهزاء.

- هبْني دبَّرت مقلباً من هذا النوع، فثمة أسباب تدفعني إلى ذلك. ما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع إذا كانت لديه تجربة، فسيكون من حقي أن ألجأ إلى هذه الوسيلة لأنقذ حياتي من الموت. فإذا حدث أن قررت أغرافينا ألكسندروفنا أن تأتي إلى والدك فلن يتمكن أخوك ديمتري، السيد ديمتري أن يسأل رجلاً مريضاً: «لماذا لم تبلغني؟» سوف يخجل هو نفسه أن يفعل ذلك. صاح إيفان فيودوروفتش وقد تقبض وجهه غضباً:

- تباً لك! لماذا تخاف دائماً على حياتك؟ ليست تهديدات أخي ديمتري إلّا كلاماً فارغاً ولا شيء آخر. لن يقتلك. ربما يقتل أحداً، ولكنه لن يقتلك أنت!

- سيقتلني كذبابة، وسأكون أول من يقتل! مع ذلك، هناك شيء أخاف منه أكثر من هذا أيضاً: هو أن أُتهم بالتواطؤ معه إذا هو ارتكب عملاً طائشاً في حق والده.

- علام تُتَّهم في هذه الحالة؟

- سيُعتقد أنني شريك لأنني أطلعته على تلك الإشارات السرّية.

- أيّ إشارات، ولمن؟ سحقاً لك! تكلّم بوضوح.

- يجب أن أعترف بصراحة، أجاب سمردياكوف بصوت فاتر ممزوج بالادعاء، أن هناك سرّاً كبيراً جداً بيني وبين فيودور بافلوفتش. فمنذ بضعة أيام، كما تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال)، اعتاد فيودور بافلوفتش أن يقفل الباب بالمفتاح من الداخل مذ يهبط الليل، أو عند المساء. إنك، في الفترة الأخيرة تصعد إلى جناحك في ساعة مبكرة، وأمس مثلاً لم تخرج أبداً، لذلك، فلعلّك لم تلاحظ مدى الجهود التي يبذلها السيد لكي يبقى في غرفته. فهو لا يفتح الباب حتى لغريغوري فاسيليفتش إذا هو لم يتعرف إلى صوته. ولكن غريغوري فاسيليفتش لا يأتي، لذلك فأنا وحدي أخدمه في غرفته. هذا ما قرره منذ اندفع في تلك المغامرة مع أغرافينا ألكسندروفنا. وتنفيذاً لأوامره، فأنا أترك المنزل متى حلَّ الظلام وأقضي الليل في الملحقات مجبراً على السهر حتى منتصف الليل، وأخرج إلى الفناء من حين إلى آخر بغية أن أرى أغرافينا ألكسندروفنا حين تجيء. ذلك أنه بانتظارها منذ بضعة أيام بإلحاح هو الجنون. إنه يفكر على النحو التالي: لا شك أنها تخاف منه، من ديمتري فيودوروفتش، (وهو يسمّيه ميتكا)، لذلك ستفضّل أن تأتي في الليل مجتازة الفناء. وأنا، إذن، مكلف بانتظارها كل مساء حتى منتصف الليل وإلى ما بعد منتصف الليل. قال لي: متى ظهرت عليك أن تسرع إليّ فتطرق بابي أو نافذة الحديقة مرتين اثنتين أولاً، قرعتين غير قويتين جداً، ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً، طق، طق، طق. فأعرف عندئذ أنها جاءت، فأفتح الباب على مهل. ثم شرح لي السيد، بعد ذلك، إشارة أخرى أستعملها عندما يحدث شيء استثنائي: أقرع أول الأمر، قرعتين متقاربتين: طق، طق، وبعد برهة قرعة ثالثة أقوى، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجيء وأنني أريد أن أكلمه، فيفتح لي الباب، فأروي له ما حدث. هذا إذا لم تأتِ أغرافينا ألكسندروفنا وإنما بعثت رسولاً، أو إذا ظهر ديمتري فيودوروفتش بالقرب من المنزل، فبإمكاني إبلاغه الأمر فوراً. إنه يخاف ديمتري فيودوروفتش خوفاً عظيماً وقد أمرني بأنّ عليّ، إذا كانت أغرافينا إيفانوفنا في المنزل مختلية به وظهر ديمتري فيودوروفتش بالقرب من المنزل، أن أُعلمه بذلك على الفور بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات. إذن، علَّمني إشارتين: الأولى تتألف من خمس قرعات ومعناها أن أغرافينا ألكسندروفنا قد جاءت، والثانية تتألف من ثلاث قرعات ومعناها أنني أريد أن أكلّمه فوراً. وقد جرَّب هاتين الإشارتين أمامي مراراً ولا أحد في العالم يعرف هاتين الإشارتين إلا أنا وهو؛ فمتى سمع الإشارة يفتح الباب فوراً بدون تردد وبدون سؤال (يخاف السيد أن يُسمع صوته). والمشكلة الآن هي أنّ ديمتري فيودورفتش أصبح يعرف هاتين الإشارتين.

- من أين عرفهما؟ هل أخبرته عنهما؟ كيف تجرأت أن تفعل؟

- لأنني كنت خائفاً. وهل من سبيل إلى السكوت معه؟ كان ديمتري فيودوروفتش لا ينفكّ يردّد على مسمعي في كل يوم قوله: «أنت تكذب! أنت تخفي عني شيئاً، سأحطم ساقيك!». عندئذ، أطلعته على هاتين الإشارتين السرّيتين ليعرف على الأقل أنني أطيعه وأن ليس عليه بعد الآن أن يتصور أنني أخفي عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بكل ما أعرف.

- إذا كنت تفكّر أنه ينوي أن يستخدم هذه الإشارة لكي يدخل فليس عليك إلّا أن تمنعه من الدخول.

- لكن، إذا كنت في تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيي بسبب نوبة صرع فكيف أستطيع أن أمنعه من الدخول، هذا إذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه في تلك الحالة من عنف.

- تباً لك! كيف تأكدت أنّ نوبة صرع ستصيبك غداً؟ هل تسخر مني؟ تباً لك!

- وهل أجرؤ أن أسخر منك؟ هل تظن أنّ بي رغبةً في السخرية وأنا في مثل هذا الخوف؟ إن الخوف هو الذي سيسبّب لي هذه النوبة.

- إذا كنت أنت نائماً فسيتولّى الحراسة غريغوري، وسوف يمنعه هو من الدخول.

- لكنني ممنوع عليَّ اطلاع غريغوري فاسيليفتش على هذه الإشارات إلا بإذن من السيد. أما عن إمكان أن يسمع غريغوري مجيئه ويمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك إن غريغوري مريض منذ يوم أمس وإن مارفا إينياتيفنا تريد أن تداويه غداً. على هذا اتفقا. وإن لها في مداواة زوجها طريقة غريبة جداً: تعرف مزيجاً من العقاقير تحتفظ به في منزلها لمثل هذه الحالات، وهو سائل قويّ جداً تعرف سرّه، كما يبدو، وتصنعه من أعشاب تغليها في الماء وتداوي بها زوجها ثلاث مرات في السنة، عندما يلحّ عليه ألم القطَن (اللمباغو) ويصبح شبه مشلول. إنها تبلل بهذا السائل قطعة من قماش وتدلك بها ظهره على طوله خلال نصف ساعة إلى أن ينتفخ الجلد ويحمرّ، وعندما تنتهي من ذلك تسقيه ما تبقّى في الزجاجة من هذا السائل بعد أن تتلو صلاة معيَّنة. وتبقي لنفسها من السائل مقداراً قليلاً تشربه مع زوجها انتهازاً للفرصة. ويجب أن أقول لك أيضاً إنهما، بسبب عدم تعوّدهما الشراب، ما يكادان يشربان هذا السائل حتى يسقطا كلاهما حيث يكونان فيناما نوماً عميقاً مدة طويلة.. وإذا استيقظا شعر غريغوري فاسيليفتش، كل مرة، بأنه شفي من مرضه، أما مارفا اينياتيفنا فيصيبها صداع. فإذا نفذا في الغد عزمهما على استعمال هذا الدواء فإنهما لم يسمعا شيئاً ولن يمنعا ديمتري فيودوروفتش من دخول المنزل لأنهما سينامان.

- ما هذا الهذيان! كأنّ كل شيء يحدث في آن واحد فجأة وعمداً - أنت تُصاب بنوبة الصرع وهما يقعان في الكوما. صاح إيفان فيودوروفتش، ثم أضاف مهدداً مقطباً حاجبيه:

- أتراك رتَّبت كل هذه المصادفات؟

- كيف يمكنني أن أرتّب... لا شأن لي في كل ما يحدث! كل شيء مرتبط بديمتري فيودورفتش وحده وبما يقرره... فإذا كان السيّد ينوي أن تقع مصيبة، فالسيّد سيفعل، وإذا لم يكن ينوي فلست أنا من سيجره عمداً ليدفعه إلى ذلك، إلى منزل والده. أليس كذلك؟

- ولماذا سيأتي إلى منزل والده خفية، إذا كانت أغرافينا ألكسندروفنا لا تفكر في المجيء كما قلت هذا بنفسك. أردف إيفان فيودوروفتش وقد اصفرَّ وجهه غضباً. لقد أكدت لي أنت هذا، منذ لحظة، وكنت أنا على يقين، منذ وصلت إلى هذا المنزل، أن العجوز تراوده أوهام، لأنّ هذه المخلوقة لن تأتي إليه في يوم من الأيام. فهل قلت لي ما هي الغاية التي يمكن أن يتسلل ديمتري إلى هنا في سبيلها، والحالة هذه؟ تكلّم! أريد أن أعرف حقيقة ما يدور في رأسك.

- إنك تعرف هذه الغاية جيداً، وليس لما يجول في خاطري شأن فيها أبداً. سوف يقتحم أخوك منزل والده حباً بالشرّ فقط أو من فرط سوء الظن. سوف يتساءل عما يحدث في المنزل وسيحبّ لنفاد صبره أن يفتش جميع الغرف، كما فعل أمس، ليتأكد أنها ليست مختبئة في إحداها. ويعرف السيد ديمتري فيودوروفتش جيداً أن فيودور بافلوفتش قد هيّأ ظرفاً كبيراً يحوي ثلاثة آلاف روبل، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط معقود وكتب عليه بخط يده: «إلى ملاكي غروشنكا، إذا هي رضيت أن تأتي»، وأضاف إلى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام: «إلى حبيبتي الصغيرة». من هنا لديَّ هذا الشك.

- هذا سخف! صرخ إيفان فيودوروفتش وقد خرج عن طوره. لن يأتي ديمتري

ليسرق مالاً ولن يقتل والده أيضاً. كان يمكن أن يقتله أمس، كمجنون مهتاج، بسبب غروشنكا، ولكنه لن يأتي إلى هنا ليسرقه!

- إنه الآن في حاجة ملحة إلى المال، إنه في ضيق شديد، صدّقني يا إيفان فيودوروفتش. أنت تعرف مدى رغبته في الحصول على مال - هكذا شرح سمردياكوف بصوت هادىء ومميّز - إنه يعتبر هذه الآلاف الثلاثة حقاً له، ولقد أكد لي ذلك يوم أمس، قال: «إن والدي قال لي إنه ما يزال مديناً لي بثلاثة آلاف روبل تماماً». ويجب ألّا تنسى يا إيفان فيودوروفتش، لأن هذه هي الحقيقة بعينها، أن أغرافينا ألكسندروفنا تستطيع أن تجبره على زواجها متى شاءت. لقد تسرَّعتُ حين أكدت أنها لن تأتي إلى هنا، مع أنها قادرة جداً على أن تسدّد إلى هدف بعيد وأن تراوغ لكي تصبح سيّدة بحقّ. لقد قال لها صاحبها التاجر سامسونوف، وأنا أعرف ذلك من مصدر موثوق به، قال لها بصراحة تامة إن هذا سيكون لها حلاً ذكياً، وكان يضحك وهو يتكلم. ليست غروشنكا امرأة غبيَّة! لن تصل بها الحماقة إلى أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل ديمتري فيودوروفتش، إذا أصبحت أغرافينا ألكسندروفينا زوجة والده، لن ينال روبلاً واحداً من إرث والده بعد وفاته، لا هو ولا أنت ولا أخوك ألكسي فيودوروفتش، لأنّ أغرافينا ألكسندروفنا لن تقبل هذا الزوج إلا لكي تنقل إلى اسمها كل ثروة والدك وجميع أملاكه العقارية ورؤوس أمواله. أما إذا حدث مكروه لوالدك فمات قبل أن يتم هذا الزواج فإنّ كلاً منكم سينال فوراً أربعين ألف روبل، حتى إن ديمتري سينال هذا المبلغ رغم أن والده يكرهه... لأن فيودور بافلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته... وكل هذه التفاصيل يعرفها ديمتري فيودوروفتش...

تقلص وجه إيفان فيودوروفتش واختلج واحمرّ فجأة.

- قل لي. قال مقاطعاً سمردياكوف. لماذا كنت تريد أن تراني مسافراً إلى تشرماشنيا؟ ماذا كنت تقصد؟ سوف أذهب، وهذا ما سيحدث في هذا المنزل.

- هذا صحيح تماماً. أجاب سمردياكوف بلهجة هادئة متروية وهو يحدّق إلى إيفان فيودوروفتش بنظرة ثاقبة.

- ما معنى صحيح تماماً؟ سأل إيفان فيودوروفتش وهو يبذل جهداً كبيراً ليكظم غيظه وعيناه تلمعان تهديداً.

- قلت هذا الكلام لأنني أشفق عليك. لو كنت مكانك لتخلَّيت عن كل شيء... على أن أقحم نفسي في مسألة من هذا النوع... أجاب سمردياكوف بلهجة طلقة ليس فيها أثر من حرج دون أن يحوّل نظره عن إيفان فيودوروفتش الذي كانت عيناه تقدحان شرراً. وسكت الرجلان.

- أعتقد أنك أبله كبير... أضف إلى ذلك... أنك وغد رهيب. قال إيفان وهو ينهض فجأة عن مقعده.

وأراد أن يجتاز الباب الحديدي لكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف. كان قد حدث شيء رهيب: عضّ إيفان فيودوروفتش على شفته، وقبض يديه، وكأنه يريد أن يهجم على سمردياكوف. فأدرك هذا الأخير ذلك فوراً، فارتجف، وتراجع خطوة إلى الوراء. ومضت ثوانٍ دون أن يصاب سمردياكوف بأذى. واتجه إيفان فيودوروفتش نحو الباب الحديدي.

- سأسافر غداً إلى موسكو، إذا كنت تريد أن تعرف ذلك. هذا كل شيء. قال بغضب بصوت قويّ حادّ مقطّعاً كلماته. وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر في ذلك الوقت بالحاجة إلى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر.

- هذه فكرة عظيمة. أجاب سمردياكوف وكأنه كان يتوقع أن يفضي إليه إيفان بهذا السرّ. ولكنك ستبقى معرَّضاً للاستدعاء من موسكو بواسطة برقية إذا حدث هنا شيء من هذا النوع.

فتوقف إيفان فيودوروفتش مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف، فإذا بوضع سمردياكوف يتغيَّر فجأة. وتبدّدت الألفة التي كان يصطنعها والإهمال الذي أظهره، كما يتبدد السحر. وعبَّر وجهه عن انتباه شديد وانتظار ذليل وكأنَّ عينيه اللتين تحدّقان إلى إيفان فيودوروفتش بإلحاح غريب تسألانه: «ألن تقول شيئاً آخر؟ ألن تضيف كلمة واحدة؟».

- إذا حدث شيء من هذا القبيل فيمكن أن أستدعى من تشرماشنيا أيضاً؟ صاح فجأة إيفان فيودوروفتش دون أن يعرف هو نفسه لماذا؛ وارتفع صوته بشكل رهيب.

تمتم سمردياكوف بما يشبه الهمس، وكأنه شارد الفكر، لكنه لم ينقطع عن التحديق مباشرة في عينيّ إيفان فيودوروفتش.

- من تشرماشنيا أيضاً... أليس كذلك... فسوف تستدعى...

- الفرق الوحيد هو أنّ موسكو بعيدة أما تشرماشنيا فهي قريبة من هنا. هل تقلقك النفقات التي لا داعي إليها أم أنك تريد أن توفّر عليَّ رحلة طويلة؟

- هو هذا تماماً. تمتم سمردياكوف بصوت مرتعش، في هذه المرة، مع ابتسامة خبيثة وكان مستعداً للتراجع إلى الوراء. فدُهش عندما رأى إيفان فيودوروفتش ينفجر ضاحكاً ويتّجه بسرعة نحو الباب الحديدي وهو ما يزال يضحك. ولو رأى أيّ امرىء وجهه لاستنتج، بدون شك، أنه لم يضحك لأن هناك ما يفرحه. ثم إنه هو نفسه، ما كان ليستطيع أن يفسِّر هذا الضحك في تلك اللحظة. فتقدَّم ومشى كأنه مصاب باختلاج.

VII

يلذّ للمرء أحياناً

التحدث مع رجل ذكي

وكان يتكلم على هذا النحو. ما إن دخل المنزل حتى رأى فيودور بافلوفتش في صالة الاستقبال فصاح من بعيد وهو يلوِّح بذراعيه: «أنا صاعد إلى غرفتي وليس إلى غرفتك، إلى اللقاء». ومرَّ بسرعة أمامه محاولاً أن لا ينظر إلى والده. لعلَّ منظر العجوز كان في نظره، إذ ذاك، لا يطاق، ولكن إظهاره هذه الكراهية بدون حرج قد أدهش حتى فيودور بافلوفتش عينه. والحال أن العجوز أسرع ما يمكن خرج لاستقباله في صالة الاستقبال. ولكن بعد الكلمات التي سمعها من ابنه توقّف حيث كان دون أن يقول كلمة واحدة، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلّم ويغيب عن نظره.

- ماذا أصابه؟ سأل العجوز بتأثر عميق سمردياكوف الذي دخل مباشرة بعد إيفان فيودوروفتش.

- إنه غاضب. من يدري؟ تمتم سمردياكوف متهرباً.

- إلى الجحيم! فليغضب ما يشاء. هيّئ السماور وانصرف، أسرع! هل من جديد حتى الآن؟

وهنا بدأت أسئلة مثل التي كان سمردياكوف قد اشتكى منها لإيفان فيودوروفتش منذ قليل. أي عن الزائرة التي ينتظرها، ولا داعي لتكرار هذه الأسئلة هنا. وبعد نصف ساعة، كان المنزل قد أُحكم إقفاله بالمفتاح، وخلا العجوز الصغير إلى جنونه، فراح يسير في غرفته طولاً وعرضاً منتظراً أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها، وهو ينظر من خلال النوافذ من حين إلى آخر، فلا يرى في الخارج إلا الليل.

كان الوقت متأخراً، ولكن إيفان فيودوروفتش لم ينم بعد. محاولاً أن يفكّر. لقد ذهب إلى فراشه متأخراً تلك الليلة إلا حوالى الساعة الثانية صباحاً. نحن لن نحلل مجرى الخواطر التي دارت في رأسه لأن قراءة ما كان يختلج في نفسه لم يحن وقتها وسيأتي دورها لاحقاً. ثم إنّ وصف ما كان يجيش في أعماق قلبه ليس بالأمر السهل لأنّ خواطره كانت مبهمة ومسرفة في الاضطراب بوجه خاص. وكان يشعر هو نفسه بأنه فقدَ السيطرة على فكره. وكانت رغبات غريبة تغذّيه في بعض اللحظات. وعند منتصف الليل شعر فجأة برغبة قوية في أن ينزل ويخرج ويذهب إلى الملحقات لكي يضرب سمردياكوف بعنف. لماذا؟ لو سألته هذا السؤال لما عرف بماذا يجيب، على وجه الدقة، ولكنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديداً، كما لو أنه قد ناله بأفدح الأذى. وخلال تلك الليلة، انتابته نوبات خوف وذل لا تفسير لها، بلغ من إدخال الاضطراب إلى نفسه أنه أحسَّ بشلل مفاجىء في قواه الجسدية. وكان رأسه يلتهب ويدور. وسيطر عليه حقد غامض في أعماق نفسه، كما استولت عليه حاجة إلى الانتقام. فهو يشعر بعداوة حتى تجاه أليوشا، حين يتذكر الحديث الذي جرى بينهما خلال النهار. وكان يبدو له في أحايين أخرى أنه يكره ذاته نفسها. أما كاترينا

إيفانوفنا فكأنه نسيها، فلم تخطر على باله في تلك الليلة. وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد، لاسيّما وأنه كان في الصباح، عندما أعلن للمرأة الشابة صاخباً أنه مسافر في الغد إلى موسكو، قد سمع صوتاً يتمتم في أعماق نفسه (إنه يتذكر تلك الليلة بشكل واضح) لقد ظلّ يتذكر بوضوح كيف نهض عن كنبته مراراً ففتح الباب بدون ضجة كأنه يخشى أن يُسمع، وخرج إلى فسحة السلَّم، وأصاخ بسمعه يتجسس على حركات فيودور بافلوفتش الذي كان يتمشّى في غرف الطابق الأرضي. كان يتنصّت على حركاته بفضول غريب منحبس الأنفاس ولا يدري لأيّ سبب يصيخ بسمعه إليه مدة خمس دقائق. بقي طوال حياته، بعد ذلك، يصف سلوكه ذاك في تلك الليلة بأنه «سلوك حقير» معتقداً في أعماق نفسه أن ذلك الفضول الغريب الذي كان يحركه حينذاك هو أكبر دناءة انحدر إليها في حياته. كان لا يشعر في تلك اللحظات بأيّ عداوة شخصية تجاه فيودور بافلوفتش نفسه. كان يريد أن يعرف ما يفعله فقط، محاولاً أن يتصور بفضول قويّ، كيف يمشي والده في غرفته محموماً من نفاد الصبر وكيف يقترب من النوافذ المعتمة لينظر إلى الخارج، وكيف يتوقف بعد ذلك في وسط الغرفة منتظراً على أحرّ من الجمر أن يسمع الإشارة المتفق عليها. لقد خرج إيفان فيودوروفتش إلى فسحة السلَّم على هذا النحو مرتين. وعندما عاد الهدوء يخيّم على كل شيء، فأوى فيودور بافلوفتش إلى فراشه، حوالى الساعة الثانية صباحاً، قرّر أن ينام هو أيضاً عازماً على أن ينام بأقصى سرعة كونه كان يشعر بأنه منهار القوى. وسرعان ما غرق فعلاً في نوم عميق لم تتخلله أحلام لكنه استيقظ في الصباح مبكراً، حوالى الساعة السابعة وكان النهار قد طلع. فما إن فتح عينيه حتى أحسَّ في نفسه بسيلٍ خارق من القوة فأدهشه ذلك كثيراً. وما هي إلا لحظة حتى نهض عن سريره بوثبة واحدة وارتدى ملابسه وأخرج حقيبته، وراح يجمع أمتعته دون أن يضيّع لحظة واحدة. وكانت الغسَّالة قد جاءته بغسيله يوم أمس. ابتسم إيفان فيودوروفتش راضياً عندما رأى أن كل شيء يسير على ما يرام، وأن سفره المفاجيء لا يصطدم بأي عقبة غير متوقعة. كان هذا السفر مفاجئاً حقاً. فرغم أنه قد أعلنه يوم أمس لكاترينا إيفانوفنا ولأليوشا وسمردياكوف، فإنه لم يفكر فيه أبداً حين نام على سريره، وهو يتذكر ذلك الآن، ولم يكن يتنبأ بأنّ أول حركة سيقوم بها عندما يستيقظ في الصباح هي أن يجمع أمتعته استعداداً للسفر. وسرعان ما امتلأت حقيبته وامتلأ كيس السفر. وعندما أزفت الساعة التاسعة، جاءته مارفا إينياتيفنا تلقي عليه سؤالها اليومي: «أين يريد السيد أن يتناول الشاي، أهنا أم تحت؟» فنزل إيفان فيودوروفتش إلى الطابق الأرضي. كان يبدو عليه أنه يكاد يكون مسروراً رغم أن شيئاً من الاستعجـال العصبي كان ظاهراً في حركاته وفي كلامه. وبعد أن صافح والده متودداً، حتى لقد سأله عن صحته خاصة، أعلن، قبل أن يجيبه والده عن سؤاله، أنه مسافر إلى موسكو بعد ساعة، ورجـا أن يُعطى الأمر بتهيئة الخيل. سمع العجوز هذا الخبر دون أن يفاجأ متناسياً بشكل غير لائق أن يظهر بمظهر الحزين على سفر ابنه: بل بالعكس، لم يفته أن ينتفض فجأة ويتذكر أحد أموره الخاصة، التي كانت معلقة.

- أنت، لا! كان يجب أن تبلغني يوم أمس... لا بأس، سنحلّ هذه المسألة. أرجو أن تقدم لي هذه الخدمة يا بنيّ: توقّف في تشر ماشينا عابراً. لن يكون عليك، حين وصولك إلى محطة فولوفيا، إلا أن تذهب شمالاً مسافة اثني عشر فرسخاً، في أكثر تقدير، فإذا أنت في تشرماشنيا.

- لكنني لا أستطيع. إن المسافة من هنا إلى محطة القطار ثمانون فرسخاً؛ وينطلق القطار إلى موسكو في الساعة السابعة مساءً - فلا يكاد يتسع الوقت للوصول.

- سنصل غداً أو بعد غد. أما اليوم فاذهب إلى تشرماشنيا. ماذا يكلفك أن تقدّم خدمة لوالدك! لو لم أكن مضطراً للقيام بأمر ما، لأن القصة، هناك، هي أمر طارئ. أترى، لدي هذه الغابة، هناك، قطعتان من الأرض، في بيغيتشيفو ودياتشكينو. والتاجران ماسلوف

العجوز وابنه يعرضان عليَّ ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدَّة للقطع، بينما هناك مشترٍ آخر كان مستعداً في العام الماضي أن يدفع لي اثني عشر ألف روبل بكل سرور. لم يكن ذلك المشتري من هذه المنطقة، وهذا هو تفسير الأمر، فما من سبيل إلى العثور على مشترٍ من أهل المنطقة: لأن آل ماسلوف - الأب والابن - اللذين يملكان مئات ألوف الروبلات يسيطران على المقاطعة ويفرضان عليها قانونهما. وهما يحددان الأسعار، وما من أحد يجرؤ أن يقف في وجههما. لكن الكاهن إيلنسكي كتب لي يوم الخميس الفائت يقول إن رجلاً اسمه غورستكين قد جاء يعرض شراء الأشجار. والرجل هو تاجر أيضاً، وأنا أعرفه. إنه من مدينة بوغريبونو، وهو لا يخشى آل ماسلوف لأنه ليس من سكان المنطقة. إنه يعرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار المعدَّة للقطع. هل فهمت؟ وقد ذكر لي الكاهن أنه الآن في تشرماشنيا إلى حين، وأنه سيغادرها بعد أسبوع. عليك أن تذهب إليه لتناقش الأمر معه...

- إذن، أكتب إلى الكاهن وهو سيوافق.

- لكنه غير قادر وهنا المشكلة هذا الكاهن لا يفهم الأمور كما هي. إنه شخص طيب، وأنا مستعد أن أعطيه فوراً عشرين ألف روبل بدون إيصال. ولكنه قصير النظر حتى قد يخدعه اللصوص. إنه ليس رجلاً. وهو مع ذلك عالم كبير، هل تتصور هذا؟ إن هيئة غورستكين هذا، هي هيئة فلاح، وهو يرتدي قميصاً أزرق، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعاً: إنه يكذب. هو المشكلة. حتى إنه يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لغايةٍ إلا لذة الكذب! لقد روى منذ سنتين أن زوجته ماتت، وأنه تزوج أخرى. تصوَّر أنه كان يكذب: لم تمت زوجته، وهي لا تزال حيَّة ولا تزال تضربه مرة كل ثلاثة أيام. يجب أن تعرف أولاً، هل كان صادقاً أم كاذباً حين عرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار.

- ولكن، أنا أيضاً لا أفهم في هذه الأمور شيئاً.

- لحظة، انتظر. يمكنك أن تقوم بالعمل لأنني سأطلعك على كل الإشارات الضرورية. إنني أعرف غورستكين منذ زمن بعيد. يجب أن تنظر إلى لحيته: له لحية صغيرة صهباء مبعثرة. فإذا ما ارتعشت هذه اللحية وإذا تكلم وهو غاضب فاعلم أنه يقول الحقيقة ويجب أن ننجز الصفقة. أما إذا رأيته يداعب لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم فاعلم أنه يراوغ ويحاول أن يغشّنا. لا تنظر في عينيه، فهما لا تقولان شيئاً. إنه وغد وما عيناه إلا ماء عكر - يجب أن تنظر إلى لحيته - سوف أعطيك رسالة وما عليك إلا أن تسلّمه إيّاها. وليس اسمه الحقيقي غورستكين وإنما هو في الواقع لياغافي. إنه كلب التربص، ولكن إياك أن تخاطبه باسم لياغافي وإلا سوف يغضب، ومتى تمَّ الاتفاق معه ورأيت الأمور تجري بشكل جيد، فأبلغني فوراً. يكفي أن تكتب إليّ: «لا بأس، إنه لا يكذب». حاول أن تصرّ على الثمن الذي ذكرته لك وهو أحد عشر ألف روبل، ويمكنك أن تتنازل عن ألف روبل إذا لزم الأمر، ولكن لا تتنازل عن أكثر. من أحد عشر إلى ثمانية يعني بفارق ثلاثة آلاف روبل، وهذه الآلاف الثلاثة هي بمثابة كنز، لأن المشترين نادرون. وأنا في حاجة ماسة إلى هذا المبلغ - إنك لا تستطيع أن تتصور مدى حاجتي الماسّة إليه، فمتى أبلغتني أنّ الأمر جدٌّ، وثبتُ إلى هناك لأنجز الصفقة أنا بنفسي. سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعاً من الوقت. فماذا يفيدني أن أذهب إلى هناك إذا كان الكاهن قد استرسل مع خياله. حسناً. اتفقنا؟ هل تذهب أم لا؟

- لا يتسع وقتي فلا تحرجني!

- أرجوك، قم بهذه الخدمة لوالدك! سأذكرها لك مدى الحياة! أأنتم إذن جميعاً بدون قلب! ما قيمة يوم أو يومين؟ إلى أين تنوي أن تسافر الآن؟ إلى البندقية؟ إن البندقية لن تغرق في البحر خلال هذين اليومين! كان بالإمكان أن أرسل أليوشكا، ولكن أليوشكا لا يفهم في هذه الأمور شيئاً؟ ولئن توجهت اليك فلأنك ذكي، أنا أعرف ذلك، أنت لا تتاجر بالغابات

ولكنك ترى الأمور بوضوح، المطلوب هو أن تعرف هل هذا الرجل جادّ؟ أكرر لك أن تنظر إلى لحيته: فإذا ارتعشت كان يقول صدقاً.

- لماذا تدفعني إلى الذهاب إلى تشرماشنيا هذه الملعونة. صاح إيفان فيودوروفتش وهو يضحك بغضب.

لم يلاحظ فيودور بافلوفتش الغضب، أو لم يرد أن يلاحظه ولكنه تشبَّث بالصيحة.

- إذن ستذهب، ستذهب إلى تشرماشنيا. سأكتب لك الرسالة فوراً.

- لست أدري إن كنت سأذهب إليها. سأقرر ذلك أثناء الطريق.

- لماذا أثناء الطريق؟ قرّر حالاً! إذا سوِّي الأمر وتمَّت الصفقة، تكتب إليّ سطرين تودعهما الكاهن فيبادر إلى إرسالهما إليّ بدون إبطاء. ولك بعد ذلك أن تسافر إلى البندقية فلن أمنعك. وسوف يعيدك الكاهن إلى محطة فولوفيا بوسائله الخاصة...

تحمّس العجوز وأسرع يكتب الرسالة القصيرة. ثم أمر بتجهيز العربة. وقدموا للرجلين وجبة طعام خفيفة باردة، وكأساً من الكو، تبدو عليه بوادر السعادة. كان يبدو، في هذه المرة، أنه يحاول السيطرة على نفسه. وقد تجنَّب أيضاً أن يأتي على ذكر ديمتري فيودوروفتش. ولم يكن يبدو عليه أنه متأثر لفراق ابنه، وكان صامتاً كأنه لا يجد ما يقوله. فوجىء إيفان بذلك، وقال في نفسه: «لا شك أن وجودي يزعجه منذ زمن». ومع ذلك، فإن العجوز عندما ودَّع ابنه أمام الباب بدا متأثراً، وتظاهر بأنه يريد أن يقبّله. لكن إيفان فيودوروفتش أسرع بمدّ يده إليه راغباً في تجنّب القبلات بشكل لا يخفى على الناظر. أدرك العجوز ذلك فوراً ولم يقبّله.

- حسناً. فليكن الله برعايتك، فليكن الله برعايتك. ردَّد من على درجات السلَّم. سوف تأتي لرؤيتي في يوم من الأيام، أليس كذلك؟ أهلاً بك في منزلي دائماً. إذهب وليكن المسيح معك!

- في أمان الله يا إيفان. لا تؤاخذ والدك! صاح والده مرة أخيرة.

خرج جميع الخدم للوداع: سمردياكوف ومارفا وغريغوري. أعطى إيفان فيودوروفتش كلاً منهم عشرة روبلات. وعندما استقر في العربة أسرع سمردياكوف يرتّب الأغطية.

- أرأيت.. ها أنذا ذاهب إلى تشرماشنيا. قال له إيفان فيودوروفتش وهو يضحك. وكما حدث بالأمس، لقد سافر وحده مع ضحكة قصيرة عصبية. وظلّ يتذكر هذا الأمر فترة طويلة.

- صحيح إذن، كما يقال، إنه يلذّ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي. قال سمردياكوف بصوت جازم وهو ينظر إلى إيفان فيودوروفتش نظرة نافذة.

وانطلقت العربة بسرعة. كان المسافر في البداية في حالة نفسية مضطربة وكان ينظر إلى ما حوله بشراهة متأملاً الحقول والهضاب والأشجار وسرباً من الإوزّ البري مرَّ فوقه محلّقاً في السماء الصافية، وفجأة شعر بالسعادة، فحاول أن يخاطب الحوذي واهتمّ بجوابه ومع ذلك رأى بعد لحظات أن الضجة قد حالت بينه وبين سماع كلامه، وأنه لم يدرك ما أراد هذا الفلاح أن يقول له. فلزم الصمت. كان الهواء نقياً رطباً والسماء صافية. وخطر بباله أليوشا وكاترينا إيفانوفنا. لكنه ابتسم ابتسامة رقيقة، وتنهَّد على الطيفين العزيزين اللذين

غابا وقال في نفسه: «سوف يأتي وقتهما». ولم يلبث أن وصل إلى المحطة. فأُبدلت خيوله واستأنف طريقه إلى فولوفيا. وسأل إيفان فيودوروفتش نفسه فجأة: «لماذا قال لي إنه يلذّ للمرء أحياناً التحدث مع رجل ذكي؟ ماذا كان يعني بذلك؟». (واستغرق هذا السؤال فكره بشكل كامل). «ثم ما كانت حاجتي إلى إبلاغه أنني ذاهب إلى تشرماشنيا؟». ووصلت العربة أخيراً إلى فولوفيا. فنزل إيفان فيودوروفتش من العربة. فأسرع إليه أصحاب العربات فساومهم وانتهى إلى تحديد أجر إيصاله بخيول ممتازة إلى تشرماشنيا التي تبعد مسافة اثني عشر فرسخاً في طريق ضيق. أمر بأن تُربط الخيول. ثم دخل إلى المحطة وألقى نظرة على القاعة، وفجأة خرج يقف على درجات الباب:

- لن أذهب إلى تشرماشنيا. قولوا لي يا شباب، لست متأخراً، هل يمكنني أن أدرك قطار الساعة السابعة؟

- سوف تدركه. هل نربط الخيل؟

- فوراً. هل سيذهب أحد منكم إلى المدينة غداً؟

- طبعاً. متري سيذهب إليها.

- هل تستطيع أن تقدّم إليّ خدمة يا متري؟ إذهب إلى والدي فيودور بافلوفتش كارامازوف وقل له إنني لم أذهب إلى تشرماشنيا. هل يمكنك أن تقوم بذلك؟

- لم لا أستطيع؟ إنني أعرف فيودور بافلوفتش منذ زمن طويل.

- خذ هذه المكافأة. لأنه لن يعطيك شيئاً. قال إيفان فيودوروفتش ذلك وهو يضحك مسروراً.

- صحيح أن السيد لن يعطيني شيئاً. أجابه متري ضاحكاً بدوره. شكراً يا سيدي. سأذهب إليه حتماً.

في الساعة السابعة مساءً استقرَّ إيفان فيودوروفتش في حافلة القطار وانطلق بسرعة إلى موسكو. «فليبتعد عني الماضي! لقد قطعت صلتي نهائياً بالعالم الذي عشت فيه، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره! فليختفِ هذا الماضي في نفسي! فلينقطع عن الوصول إلى مسمعي أيّ نداء من الحياة التي أبارحها! إنني أسافر لا ألوي على شيء ولا ألتفت إلى الوراء! هيا إلى عالم جديد، إلى أمكنة جديدة، وبدون عودة!». بهذا كان إيفان فيودوروفتش يحدث نفسه. لكنه بدل أن يشعر بالحماسة أحسَّ بمضضٍ شديد يقبض صدره، وامتلأ قلبه بحزن مؤلم لم يشعر بمثله من قبل. بقي طوال الليل يفكر وسط قرقعة حافلة القطار الذي كان ينطلق بسرعة قصوى، وعند الفجر، بينما كان القطار يقترب من موسكو، استعاد وعيه فجأة:

- أنا إنسان تعيس! تمتم في سرّه.

أما فيودور بافلوفتش، بعد أن واكب ابنه، شعر بفرح كبير، وبقي خلال ساعتين في حالة من الغبطة، يفرغ في جوفه الكونياك. غير أن حادثاً مؤلماً وقع في المنزل فبدّل الحالة النفسيَّة التي كان عليها العجوز وأغرقه في اضطراب شديد: كان قد ذهب سمردياكوف إلى القبو، والله يعلم لماذا، وسقط من على الدرجة الأولى. ومن حسن الحظ أن مارفا إينياتيفنا كانت في الفناء حينذاك وعرفت في الوقت المناسب. إنها لم تر السقوط لكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التي تعرفها منذ زمن بعيد: صرخة المريض بالصرع الذي تعرّض لنوبة. تعرَّض سمردياكوف لتلك النوبة في اللحظة التي نزل فيها السلَّم ما أدى إلى أن

يتدحرج إلى آخر الدرجات لأنه أغمي عليه، أم بسبب السقوط والارتجاج وهذا ما لا يمكن معرفته. المهم، على كل حال، أن سمردياكوف وُجد في قاع القبو تهزّه تشنجات قوية ويخرج الزبد من فمه، وقد ظُنَّ في بادىء الأمر، أنه قد جُرح حين سقط، وأن ساقه أو ذراعه قد كُسرت ولكن تبيَّن أنّ «الله قد سلَّمه»، كما قالت مارفا إينياتيفنا، ومع ذلك كان نقله من القبو إلى الهواء الطلق صعباً. وأُمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذين أسرعوا للمساعدة. وحضر فيودور بافلوفتش مهمة النقل بل ساعد في حمل المريض وهو يشعر بقلق شديد. وبقي المريض فاقداً وعيه. وكانت التشنجات تنقطع أحياناً ولكنها لا تلبث أن تعود بعد قليل. وأجمع الرأي على أنّ الأمور ستجري، في هذه المرة، كما في السنة الماضية عندما سقط من طابق الشونة. وتذكروا أن الطبيب هرزنستوب قد وصف له حينذاك ثلجاً يوضع على جبينه وعلى قمة رأسه. وكان لا يزال في القبو بعض الثلج فتولّت مارفا إينياتيفنا أمر العناية بالمريض. حتى إذا حلَّ المساء استدعى فيودور بافلوفتش الطبيب هرزنستوب فوصل على الفور، وبعد أن فحص المريض بدقّة (وكان أكثر أطباء المنطقة دقةً وأشدهم عناية كما كان من أحقّ الناس بالاحترام وقد طعن في السنّ كثيراً)، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن «تعرّض الحياة للخطر»، وأضاف هرزنستوب أنه لم يفهم الحالة جيداً بعد، ولكنه سيرجع في الغد ويصف دواءً جديداً إذا تبيَّن أن الإجراءات السابقة لم تجدِ المريض نفعاً. وأُرقد المريض في الملحق في غرفة صغيرة متاخمة لغرفة غريغوري ومارفا إينياتيفنا. وفي أثناء ذلك النهار، عرف فيودور بافلوفتش سلسلة متواصلة غير منقطعة من المكدرات، أولها وجبة الطعام التي أعدَّتها مارفا إينياتيفنا، والتي كان حساؤها، إذا ما قيس بحساء سمردياكوف، لا يفضل كثيراً «ماء الغسيل»، أما لحم طيورها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه. وعندما لام ربّ المنزل مارفا إينياتيفنا على ذلك، أجابت المرأة بأن الدجاجة عجوز. كما أنها هي، مارفا لم تأخذ دروساً في الطبخ، وفي المساء، حلَّ بفيودور بافلوفتش همّ جديد: أُبلغ أن غريغوري، وهو مريض منذ يومين، قد لزم سريره وأنّ مرض اللمباغو الذي يعاني منه قد جمَّده تماماً. وأسرع فيودور بافلوفتش يحتسي شايه، وسجن نفسه في المنزل وحيداً وكان في حالة ترقّب مهموم. فهو يعتقد أن غروشنكا ستأتي في هذا المساء نفسه، وهو يكاد يكون متيقناً من ذلك، لأن سمردياكوف قد أكد له في ساعة مبكرة من الصباح «أن السيدة وعدت بالمجيء بدون شك في هذه المرة». وكان قلب العجوز الفاسق يخفق قلقاً وهو يمشي بدون توقف في غرفه الفارغة مصيخاً بسمعه، ذلك أن عليه أن يكون يقظاً: لأنّ من الجائز أن يرقب ديمتري فيودوروفتش مرور المرأة الشابة. فمتى قرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكد لفيودور بافلوفتش، منذ يومين، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تقرع) كان عليه أن يفتح الأبواب بأقصى سرعة ممكنة ولا يجعلها تنتظر في الرواق لأنها تخاف من الظلام فتهرب، لا سمح الله! كان فيودور بافلوفتش قلقاً جداً ولكن قلبه لم يهدهده، في يوم من الأيام، أمل أعذب من هذا الأمل: يمكن القول، والتأكيد تقريباً، أنها ستأتي في هذه المرة...

الكتاب السادس

ناسك روسي

I

المرشد العجوز زوسّيما وزائروه

عندما دخل أليوشا غرفة الناسك العجوز والقلق والألم يملآن قلبه، توقف أمام الغرفة مندهشاً: فبدل أن يرى مريضاً يحتضر أو غاب في الكوما كما كان يخشى أن يراه، رآه جالساً في المقعد، وجهه مرهق من التعب ولكنه يقظ وفرح، محاطاً بزائرين كان يحادثهم هادئاً فرحاً. والحقيقة أنه لم ينهض من فراشه إلا قبل وصول أليوشا بربع ساعة. أما الزائرون فكانوا قد تجمعوا في الغرفة قبل ذلك منتظرين نهوضه من النوم، لأن الأب باييسي كان قد أكّد لهم أن «المعلم سينهض، بدون شك، لكي يتحدث آخر مرة إلى أعزاء مقربين إلى قلبه، كما كان قد أعلن ووعد هو نفسه في الصباح». كان الأب باييسي يؤمن بهذا الوعد بإصرار، بلغ من قوة إيمانه أنه لو رآه هامداً لا يتحرك ولا يتنفّس لما صدّق أنه مات، ما دام قد وعده بأنه سوف ينهض مرة أخرى ليودّعه، أو لتوقَّع أن المحتضر سيستعيد وعيه برًّا بوعده، وقد صرَّح له أنه سينهض في الصباح قبل أن ينام «إنه لن يموت إلا بعد أن يُسعد بالتحدث مرة أخرى، إلى أعزائه وبعد أن يرى تلك الوجوه التي أحبَّها ويفتح قلبه لهؤلاء جميعاً آخر مرة». والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذي يُعتقد أنه آخر حديث، إنما كانوا أقدم أصدقاء الناسك العجوز وأشدَّهم إخلاصاً له. كانوا أربعة: الراهبان الناسكان يوسيف وبايیسي والناسك الأب ميخائيل مدبّر المنسك، وهو رجل ما يزال شاباً، متواضع الأصل، ليس على جانب كبير من العلم، ولكنه صلب النفس قويّ الإيمان وبسيط. ولئن كان قاسي المظهر فإنّ في قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياءً. وكان الزائر الرابع راهباً قصير القامة، طاعناً في السنّ متواضعاً، وقد خرج من عائلة فلاحية مدقعة في الفقر، هو الأخ أنفيم، بالكاد يعرف القراءة والكتابة، صموت هادىء، نادراً ما يكلم أحداً. وهو متواضع بين المتواضعين، وكأنّ عظمة الوجود الرهيبة التي لا يمكن لفكره أن يرقى إليها قد روَّعته إلى الأبد. وكان الناسك العجوز زوسيما يحبه حباً جماً، وقد أظهر له، خلال حياته كلها، احتراماً غير عادي رغم أنه لا يوجد في هذا العالم إلا القليل من الناس كان من الممكن أن يخاطبهم أقلّ مما يخاطب هذا الراهب المتواضع. لقد عاش في صحبته سنين كثيرة لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة. حدث ذلك منذ زمن بعيد، منذ ما يقرب من أربعين عاماً، أيام كان الناسك العجوز زوسيما بدأ حياة الرهبنة في دير معتم غير معروف في مقاطعة كوستروما. وبعد أن دخل ذلك الدير بزمن طويل، كُلِّف بأن يرافق الأخ أنفيم في جولاته لجمع الهبات لهذا الدير الصغير المفلس في كوستروما.

كان جميعهم، سيّد الدار والزائرون جالسين في الغرفة الثانية حيث يوجد سرير الناسك العجوز، وهي غرفة كما أشرنا ضيقة جداً، بحيث أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدىء بورفير الذي بقي واقفاً) لم يكادوا يجدون فيها متسعاً لكراسيّهم التي جاؤوا بها من الغرفة الأخرى. كان النهار قد أشرف على نهايته. وكانت تضيء الغرفة مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الإيقونة. فلما رأى الناسك العجوز أليوشا الذي بقي واقفاً عند عتبة الباب ابتسم له ابتسامة فرحة ومدَّ إليه يده.

- مساء الخير يا بنيّ الطيب، مساء الخير يا عزيزي الوديع. جئت إذن؟ كنت أعرف أنك ستأتي!

فاقترب أليوشا منه، وانحنى له حتى كاد يلامس الأرض وانهمرت دموعه. كان شيء ما يتمزق في أعماق قلبه وهو منقبض النفس. فهو يتمنى أن ينفجر باكياً.

- ما بك؟ لم يحن وقت البكاء عليَّ بعد. قال الناسك العجوز مبتسماً وهو يضع يده اليمنى على رأسه. ها أنت تراني أتحدَّث في هدوء. ربما أعيش عشرين سنة أخرى كما تمنّت لي ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التي جاءت من فيشيغوريا وكانت تحمل بين ذراعيها طفلتها ليزافيتا. أسأل الله أن يحرس الأم والطفلة! (ورسم الناسك العجوز إشارة الصليب). هل حملت هبتها يا بورفير إلى حيث قلت لك؟

تذكَّر الناسك العجوز الستّين كوبيكاً التي تصدَّقت بها زائرته بفرح، من أجل أن يهبها «لمن هو أفقر منها». إنّ مثل هذه الصدقات إنما يتصدَّق بها أصحابها، عادةً، على أثر نذر، لسبب أو لآخر، وهو مال يكسبونه من عملهم الشخصي. وأمر الناسك العجوز نفسه، في ذلك المساء بأن يأخذ بورفير هذا المبلغ إلى امرأة فقيرة تسكن مدينتنا، وهي أرملة مع أولادها، قد احترق منزلها فأصبحت تستعطي لتعيش. وأسرع بورفير يقول إنه نفذ الأمر فأعطى المبلغ قائلاً إنه من «محسنة لم تشأ ذكر اسمها».

- إنهض يا عزيزي لأراك قليلاً. تابع الناسك العجوز زوسيما. هل ذهبت إلى ذويك، وهل رأيت أخاك؟

دُهش أليوشا من سؤال الناسك العجوز عن أحد أخويه بمثل هذا الإلحاح. ولكن أيّ الأخوين يقصد: هل يُستنتج من ذلك أنه بسبب هذا الأخ أرسله إلى العالم أمس واليوم؟

- رأيت أحد أخويّ. أجاب أليوشا.

- أقصد أخاك الذي جاء بالأمس، أخاك الرهيب المخيف الذي سجدت له حتى لامست الأرض.

- ذاك لم أره إلا أمس، ولم أتمكن من رؤيته اليوم أبداً. قال أليوشا.

- حاول أن تهتدي إليه بسرعة. عد إلى المدينة من الغد لرؤيته. دع كل شيء وأسرع. ربما هناك متّسع من الوقت لتجنّب مصيبة. لقد انحنيت يوم أمس للآلام الكبرى التي تنتظره.

وسكت الناسك العجوز فجأة وشرد فكره كأنه في حلم. لقد كانت كلماته غريبة. وهذا هو الأب يوسيف الذي شهد بالأمس انحناءة الناسك العجوز له وتبادل نظرة مع الأب بايسي. ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه:

- أبي ومعلّمي، قال وقد استولى عليه انفعال غير عادي. إن ما قلته يبدو غامضاً جداً... ما هو العذاب الذي ينتظره؟

- لا تكن فضولياً. لقد شعرت، يوم أمس، أن أمراً رهيباً. سيحدث. كما لو أن نظرته، بالأمس، كانت تعبر عن مصيره. لقد كان ينظر بطريقة جعلتني أخشى مما يحضر هذا الرجل نفسه. سبق لي، مرة أو مرتين في حياتي أن لاحظت مثل هذا التعبير على وجه بعض الناس، كما لو أنه كان انعكاساً لمصيرهم المقبل، وتحقق ذاك المصير، مع الأسف! لقد أرسلتك إليه يا ألكسي آملاً أن تستطيع بكلمة أخوية أن تساعده بعض الشيء. ولكن مصيرنا جميعاً هو بين يدي الرب، وكل شيء يصدر عنه. «إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إذا ماتت تأتي بثمار كثيرة». تذكّر دائماً هذه الحقيقة. أما أنت يا ألكسي، فقد باركتك كثيراً في فكري بسبب تعبير وجهك (أضاف الناسك العجوز مع ابتسامة وديعة). هذا

هو رأيي فيك: سوف تترك هذه الجدران وستعيش في العالم كناسك. سيكون لك أعداء كثيرون، ولكن أعداءك سيحبونك هم أيضاً. إن الحياة تخبئ لك آلاماً كثيرة، ولكنك بهذه الآلام ستسعد وستبارك الوجود وستحمل الآخرين على أن يباركوه، وذلك هو الشيء الأهمّ.

- يا آبائي ومعلميّ، ثم التفت الناسك العجوز إلى زائريه يخاطبهم وهو يبتسم بمحبة، إنني لم أقل حتى الآن، لهذا الفتى لماذا تستعذب نفسي وجهه. سأقول ذلك لكم الآن: كنت أرى في قسمات وجهه ذكرى الماضي ونبوءة. ففي فجر حياتي، حين كنت لا أزال طفلاً، كان لي أخ أكبر مات أمام عينيّ في ريعان شبابه ولم يكمل السنة السابعة عشرة من عمره.

ولقد رسخ في اعتقادي خلال حياتي، شيئاً بعد شيء، أن هذا الأخ قد كان له في تحديد مصيري دور حاسم، وكان لي نذيراً وإشارة من الملأ الأعلى. ويقيني أنني لولاه لما سلكت طريق التنسك ولا اخترت هذا الدرب الثمين. إن هذا التجلي الأول قد حدث في فجر أيامي وها إنني أراه يتكرر في خاتمة المطاف. إنه معجزة، يا آبائي ومعلميّ، إن ألكسي الذي ليس شبيهاً بأخي ذاك بوجهه كثيراً - فليس له منه سوى بعض السمات الخارجية - قد بدا لي شبيهاً به من الناحية الروحية وطالما اعتبرته ذلك الأخ المراهق عينه الذي كان لي في الماضي وقد رجع إليّ الآن في أواخر أيامي ذكرى من الماضي ونداءً إلى التأمل، حتى لقد أُصبت بالدهشة أنا نفسي، أحياناً، من غرابة هذا الحلم. هل تسمعني يا بورفير؟ (قال مخاطباً الراهب المبتدئ المكلَّف بخدمته). كم من مرة لاحظت في وجهك تعبيراً عن الحزن لأنني أحب ألكسي أكثر مما أحبك. وأنت تعرف سبب ذلك الآن. ولكن اعلم أنني أحبك جداً أنت أيضاً وطالما أحزنني حزنك. يا زائريّ الأعزاء، اسمحوا لي أن أحدثكم عن أخي الفتى ذاك، لأنني لم أعرف في حياتي شخصاً أعز منه، ولا أشدّ تأثيراً في نفسي ولا أصدق نبوءة. إن قلبي ممتلىء به لأنني أتأمل حياتي في هذه اللحظة، كأنني أعيشها بكاملها...

هنا يجب أن ألفت إلى أنّ هذا النقاش الأخير الذي أجراه الناسك العجوز مع زائريه في آخر يوم من حياته قد حُفظ بعضه مكتوباً؛ قد سجَّله ألكسي فيودوروفتش كارامازوف بعد موت الناسك العجوز بقليل. لكن، هل كان ذلك حقاً نص النقاش الأخير للناسك أم أن ألكسي قد أضاف من مفكرته بعض الأمور التي استمدها من أحاديث سابقة مع معلّمه. لا أستطيع أن أقول شيئاً حول ذلك. خاصة وأن خطاب الناسك كله جاء في المفكرة وكأنه خطاب متصل يروي قصة حياته متوجهاً إلى زائريه، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت، في الواقع، بشكل مختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف في ذلك المساء. فالحديث قد كان عاماً، ورغم أن أصدقاءه لم يقاطعوه كثيراً، فقد تدخلوا في الحديث يضيفون كلمة شخصية وملاحظات شخصية وربما مسارات عن حياتهم هم، ثم إنه لم يكن ممكناً أن يتكلم الناسك العجوز بدون توقف لأن أنفاسه كانت تتقطع باستمرار، ولأن صوته كان يضعف فجأة، واضطر مراراً أن يذهب إلى سريره ليستريح عليه مفتوح العينين بينما زائروه في أماكنهم لم يبارحوها. وقد تخللت الحديث، مرة أو مرتين، قراءة من الإنجيل قام بها الأب بايييسي. ويجب أن أذكر أيضاً أن أحداً من الحضور لم يتنبأ بأنه سوف يموت في تلك الليلة عينها ولاسيّما أنه قد بدا عليه، في ذلك المساء الأخير، أنه قد استعاد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار؛ وهذه القوى التي استرجعها على هذا النحو قد شدَّت أزره، وقوت عزيمته طوال الحديث الذي أجراه مع أصدقائه. كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه ولكن لفترة وجيزة جداً، لأن روحه فاضت دفعةً واحدة فجأة... وعن هذا سوف أتحدث فيما بعد على كل حال. أما الآن، فحسبي أن أقول إنني آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث وأن أقتصر على ما رواه الناسك العجوز، معتمداً على المخطوطة التي خلَّفها ألكسي فيودوروفتش كارامازوف. فذلك أقرب إلى الإيجاز وأقل إرهاقاً حتى وإن كان أليوشا، كما سبق وقلت، قد ضمَّن ما دوَّنه أشياء كثيرة استمدَّها من أحاديث سابقة له معه.

II

مقتطفات من حياة الناسك

المرشد العجوز زوسّيما

الذي توفّاه الله، دوَّنها من أحاديثه

ألكسي فيودوروفتش كارامازوف

لمحة عن سيرته

أ - من الشاب أخ الناسك العجوز زوسّيما

آبائي ومعلميَّ الأحباء! ولدت في مقاطعة نائية في الشمال في مدينة ف. من أبٍ نبيل، ولكن من صغار النبلاء، ليس لديه رتبة عالية في سلَّم الدولة. توفي ولم أتجاوز السنة الثانية من عمري، وليس في ذهني أيّ ذكرى عنه. ترك لأمي منزلاً من خشب ورأس مال متواضعاً ولكنه كافٍ لأن تعيش مع أولادها في منجى من الحاجة. كنّا ولدين عند أمي: أخي الأكبر ماركل وأنا زينوفي. كان أخي أكبر مني بثمانية أعوام. وكان ذا طبع جامح شديد النزق، لكنه ليس ساخراً أبداً، كثير الصمت إلى حدٍ غريب لاسيَّما مع عائلته، أي معي ومع أمي ومع خدم المنزل. وكان في المدرسة مجتهداً لكنه لا يألف رفاقه كثيراً كما لا يشاجرهم أيضاً. تلك هي، على الأقل، الذكريات التي حفظتها أمي عنه. وقبل وفاته بستة أشهر وهو في السابعة عشرة من عمره توثقت الصلة بينه وبين رجل كان يعيش في مدينتنا حياة اعتزال، رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً أُجبر على مغادرة موسكو بأمر سامٍ بسبب آرائه الليبرالية. كان هذا المنفي عالماً كبيراً وفيلسوفاً معروفاً في الجامعة. ولست أدري لماذا شعر بالصداقة نحو أخي ماركل فكان يستقبله كثيراً في منزله. كان أخي الشاب يقضي عنده سهرات طويلة على مدى فصل الشتاء كلّه إلى أن استدعي المنفيّ إلى سان بطرسبرغ بطلب منه، ليعهد إليه بمنصب في الدولة لأنه كان ذا صلات عالية. كان هذا في بداية الصوم الكبير، وقد رفض ماركل أن يصوم محتجاً متهكماً، حتى لقد قال: «هذه كلها سخافات فالله غير موجود». دهشت أمي والخدم وأنا، أيضاً، الذي لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمري، أصابني الخوف لدى سماعي كلامه. وكان جميع خدمنا، وهم أربعة أشخاص، أقناناً اشتريناهم من رجل من الملّاكين كنا على صلة به. ما زلت أتذكر اليوم الذي باعت فيه أمي إحدى خادماتنا، وهي الطبّاخة العجوز العرجاء أوفيميا، بستين روبلاً ورقاً، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليس من الأقنان. وها هو أخي يصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصوم الكبير، وكان ضعيف البنية يُصاب بالمرض باستمرار، مستعداً للإصابة بالسلّ. إنه قصير القامة نحيل هزيل الجسم ولكنه وسيم المحيا جميل الوجه، تُرى هل أصابه برد؟ المهمّ أن الطبيب الذي كان يعالجه قد أسرَّ إلى أمي خفيةً أن ماركل مصاب بسلٍ يتفاقم سريعاً ولن يعيش إلى الربيع. فراحت أمي تبكي وطلبت من أخي محاذِرة (حتى لا تروّعه) أن يصوم ويتناول القربان المقدس في عيد الفصح، لأنه في ذلك الوقت كان لا يزال يمشي. فأجابها

غاضباً وشتم هيكل الرب ثم أطرق يفكر: لقد عرف خطورة مرضه حين رأى إلحاح أمي عليه أن يذهب إلى الكنيسة ليتناول القربان المقدس ويصوم. كان يعرف منذ زمن بعيد أنه مريض، حتى لقد قال لنا، منذ ما يقرب من عام، بينما كنا إلى المائدة أنا وهو وأمي: «لن أعيش زمناً طويلاً معكم وقد لا أكون معكم بعد سنة». وكان ذلك يشبه النبوءة. انقضت ثلاثة أيام ودخلنا الأسبوع المقدس. وبدأ أخي يصوم منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمي: «إنني أذهب إلى الكنيسة من أجلك أنت يا أمي لكي تطمئني بالاً وتهدئي». فبكت أمي فرحاً في أول الأمر وحزناً أيضاً. وقالت في نفسها: «لا شك أن نهايته اقتربت ما دام قد حدث هذا التحوّل فيه فجأة». ولم يتسنَّ له أن يُكثر من الذهاب إلى الكنيسة لأنه اضطر إلى أن يلازم الفراش فصار يعترف ويتناول في المنزل. وجاء الفصح متأخراً في تلك السنة، فكانت الأيام صافية مضيئة ومعطَّرة. أذكر أنه كان يسعل في كل الليالي، قلّما ينام. ومتى انبلج الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على كنبة مريحة. وفي هذه الصورة أراه الآن: جالساً، متواضعاً، مبتسماً ومريضاً كما هو، لكن وجهه مرح وفرح. فقد تبدَّل روحياً فبدا لي هذا التبدل خارقاً! قالت له الخادمة العجوز التي دخلت غرفته: «إسمح لي يا بنيّ العزيز أن أضيء شمعة أمام الإيقونة». لم يكن يرضى بهذا من قبل، وربما نفخ على الشمعة فأطفأها. فقال للخادمة: «أشعلي، يا عزيزتي، أشعلي شمعة! لقد كنت شاذاً عندما كنت أمنعك من ذلك. أنت تصلّين أمام الإيقونة عندما تشعلين الشمعة، وأنا أيضاً أصلّي لله حين أتأملك، ونحن كلانا نصلّي إذن للإله نفسه». بدت لنا أقواله غريبة، وكانت أمي لا تنفك تبكي خفيةً وتجفف دموعها قبل أن تقترب منه محاولةً أن تصطنع هيئة فرحة. فيقول لها في بعض الأحيان: «لا تبكي يا أمي، يا ملاكي الصغير، سوف أعيش زمناً طويلاً بعد وسوف أبتهج معكم، فالحياة جميلة، جميلة هي الحياة، ومليئة بالفرح. وكانت أمي تقول له محتجةً: أين السعادة وأنت تصاب بالحمّى في كل ليلة، وتسعل حتى يكاد صدرك ينفجر؟ فيجيب: «لا تبكي يا أمي. فالحياة جنّة نحن فيها جميعاً، لكننا لا نريد أن نعترف بذلك، فلو ارتضينا أن نسلّم به لأصبحت الحياة جنّة منذ اليوم». أدهشتنا هذه الأقوال، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقول بشكل غريب: كنا نتأثر من هذا الكلام ونبكي. وكان يزورنا بعض الأصدقاء، فيقول لهم: «يا أعزائي، يا أصدقائي الطيبين، ماذا فعلت لكي أستحق حبكم؟ كيف يمكنكم أن تحبوا شاباً مثلي؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدّرها؟». ويكرر للخدم الذين يدخلون دائماً: «لماذا تخدمونني يا أصدقائي الأعزاء الطيبين؟ ما الذي يجعلني أستحق خدمتكم؟ إذا تكرّم الله عليّ فأبقاني حياً، سوف أخدمكم أنا، لأنّ علينا أن يخدم بعضنا بعضاً». فتهزّ أمي رأسها عندما تسمعه يتكلم، فتقول: «إن المرض هو الذي يوحي إليك بهذه الأفكار يا بنيّ»؛ فيجيبها: «أمي، يا فرحي الكبير! أنا أعرف أن العالم لا يمكن أن يوجد إن لم يكن هناك سادة وخدم ولكنني أتمنى أن أكون خادم خدمي، وأن أخدمهم كما يخدمونني، وأودّ أن تعلمي أيضاً أن كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسؤول عن جميع آلامهم. وأنا المذنب الأكبر من بين سائر الناس!». لم تستطع أمي أن تتمالك نفسها من الضحك حين قال لها هذا الكلام. وكانت تبكي وتضحك في آن. سألته: «كيف تكون أكبر ذنباً من جميع الناس؟ إن العالم مليء باللصوص والقتلة، أما أنت فلم يتّسع لك الوقت حتى لارتكاب ذنب واقتراف إثم»! قال أخي: «أمي، أيتها الغالية عليّ، (كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر ببال أحد)، يا فرحي الكبير، يا حبيبتي اللطيفة! أؤكد لك أن كل إنسان في هذه الحياة يرتكب جميع الذنوب في حق كل الناس! لست أدري كيف أشرح لك هذا الأمر، ولكنني أحسّه إلى حد العذاب. كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بلا انقطاع لا نفهم من الحياة شيئاً؟». وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه حناناً وطفحت نفسه حباً. وكان الطبيب العجوز الألماني أيزنشميدت يعوده أحياناً. فسأله أخي ذات يوم مازحاً: «يا دكتور! هل أعيش هذا النهار في هذا العالم؟» فأجابه الطبيب: «ستعيش لا إلى الغد فحسب بل أياماً وأشهراً وسنوات؟» إن يوماً واحداً يكفي لكي يعرف الإنسان كل السعادة. يا أحبائي! لماذا نحن نتشاجر ويحقد بعضنا على بعض لإساءة أصيب بها: فلنخرج إلى الحديقة نتنزّه

ونفرح ويحب بعضنا بعضاً! فليعتنِ كل منا بفضائل أخيه، فلنتعانق ونبارك الحياة»! قال الطبيب لأمي حين ودَّعته إلى درج الباب: «لن يعيش ابنك طويلاً. لقد اختلَّ عقله من المرض». وكانت نوافذ غرفته تطل على الحديقة، حديقتنا المليئة بالأشجار العتيقة التي نبتت على فروعها براعم الربيع. وكانت أوائل طيور الربيع التي وصلت منذ زمن قصير تغرد تحت نافذته، فيتأملها طويلاً ويُعجب بها كثيراً، حتى أخذ، ذات يوم، يستغفرها هي أيضاً قائلاً: «أيتها العصافير الصغيرة التي خلقها الله، يا طيور الفرح الصغيرة، سامحيني أنت أيضاً لأنني أخطأت في حقك!» وبدا لنا هذا أمراً يتعذر علينا إدراكه - وكان هو، يبكي من الفرح. وقد قال شارحاً: «أجل، لقد كانت عظمة الله أمامي: الطيور والأشجار والحقول والسماوات، إلا أنا فقد كنت وحدي أعيش في الخزي والعار لأنني لم أكن أرى جمال الحياة وسناءها». كانت أمي تقول له باكية: «إنك تتهم نفسك بخطايا كثيرة»، فيجيبها: «يا أمي، يا فرح نفسي، إنني أبكي من الفرح لا من الحزن. أنا أتمنى أن أكون مذنباً أمامهم، لا أستطيع أن أشرح لك هذا، لأنني لا أعرف حتى كيف أحبهم يؤسفني أن أكون مخطئاً أمام الجميع، «فكلهم يغفرون لي وتلك هي الجنّة. ألست الآن في الجنَّة؟.

لقد قال أشياء كثيرة أخرى، نسيتها ولا أتذكرها. أتذكّر أنني دخلت، ذات يوم، إلى غرفته وكان وحده. كان ذلك في ساعة متأخرة، والجوّ مضيء، والشمس الغاربة تملأ الغرفة بأشعتها المائلة. ومذ رآني أشار إليَّ أن أقترب، ثم وضع يديه الاثنتين على كتفي وتأملني طويلاً محدّقاً في عينيّ وقد بدا الحب على وجهه. ومرَّت على ذلك دقيقة دون أن يتكلم، ثم قال لي: «هيّا العب الآن وابتهج! أريد أن تعيش عنّي»! خرجت ورحت ألعب؛ ولكنني كثيراً ما فكَّرت، أثناء حياتي، والدموع في عينيَّ، في هذا الأمر الذي أصدره إليّ وهو أن أحلّ محلّه في هذا العالم. وفي مرات كثيرة بعد ذلك، عبّر عن مشاعر رائعة لم نكن نفهمها في ذلك الوقت. ومات في الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح وهو في كامل وعيه؛ رغم أنه أصبح لا يتكلم في آخر أيامه، فقد ظلَّ على ما كان عليه حتى النهاية، ينظر إلينا سعيداً فرحاً ومبتسماً، ويبحث عنا وينادينا بعينيه. وقد تكلّم الناس كثيراً عن موته في مدينتنا. وأثّر هذا الحادث في نفسي ولكن بدون إفراط، وإن أكن قد بكيت كثيراً يوم الدفن. كنت صغيراً جداً، كنت طفلاً، ولكن ذكرى هذا الأخ ستبقى في أعماق قلبي. هكذا جرت الأمور فعلاً.

ب - أثر الكتاب المقدس في حياة الأب زوسيما

بقينا إذن وحدنا، أنا وأمي. ولم يلبث أصدقاء أعزاء أن قالوا لها: لم يبق لك إلا ابن واحد. وأنتِ لست فقيرة ولديك رأس مال، لماذا لا ترسلين ابنك إلى بطرسبرغ للدراسة كما تفعل أُسر نبيلة أخرى، فإذا بقي هنا تحرمينه من العلم فيتعرض للحرمان من مستقبل زاهر. وأقنعوا أمي، أخيراً، بأن تسجّلني في مدرسة الأحداث في بطرسبرغ لأصبح في المستقبل ضابطاً في الحرس الأمبراطوري. ترددت أمي كثيراً: كيف تنفصل بهذه السهولة عن ابنها الأخير، ولكنها اتخذت قرارها، رغم كل شيء، وهي تبكي، معتقدة أنها بذلك تؤمّن سعادتي. وقادتني إلى بطرسبرغ فألحقتني بمدرسة الاعداد العسكري. ثم لم أرها منذ ذلك الوقت، لأنها ماتت هي أيضاً بعد ثلاث سنوات. وأثناء السنوات الثلاث لم تتوقف عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد، ولا انقطعت عن الخوف قلقاً بشأن مصير ابنها الباقي. وقد احتفظ خيالي بذكريات غالية عن المنزل الذي أقمت فيه مع أمي، لأنّ أجمل الذكريات لدى الإنسان هي التي يكون قد أحسَّها في عمر الطفولة في منزل أهله. والأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق مسيطرين على حياة العائلة. ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون سعيدة حتى في العائلات الممزقة أيضاً متى كانت النفس قادرة على أن تجني من عناصر الوجود ما هو نبيل وطيّب. ولقد ارتبط التاريخ المقدس بذكريات طفولتي لأنني كنت أهتمّ به في المنزل اهتماماً كبيراً. كان كتاباً يحوي صوراً جميلة عنوانه: «مئة وأربع قصص مستمدة من العهد القديم والعهد الجديد». وفي هذا الكتاب تعلّمت القراءة. ولا يزال عندي حتى الآن. إنه هناك على الرفّ.

أحافظ عليه كذكرى ثمينة. وأتذكّر أن الانفعال الروحي الأول الذي شعرت به كان قبل أن تعلمت القراءة ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري. لقد قادتني أمي وحدي إلى الكنيسة لحضور الذبيحة الإلهية في أسبوع الآلام (لا أتذكر الآن أين كان أخي حينذاك)، وكان ذلك في يوم اثنين الآلام، والنهار صحو، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة، وكأن الأمر قد حدث بالأمس، مازلت أرى دخان البخور يتصاعد من المباخر ببطء نحو القبَّة؛ وفي قبَّة الكنيسة كانت الأشعة الإلهية تدخل من نافذة ضيقة هابطةً نحونا فكان دخان البخور كأنه يندفع لاستقبالها أمواجاً متّسقة ثم تذوب في الضياء الذهبي. كنت أتأمل هذا المشهد بعجب، للمرة الأولى في حياتي، وأحسست أن بذرة الكلمة الإلهية تُغرس في نفسي. وتقدّم شاب إلى وسط الكنيسة يحمل كتاباً كبيراً يبلغ من الثقل أن الشاب كان ينوء بحمله ووضعه على منضدة الترتيل، وبدأ يقرأ. فهمت في ذلك اليوم، لأول مرة في حياتي، ما يُقرأ في هيكل الرب، كان يعيش في بلاد عوص رجل تقيّ صالح يملك ثروات ضخمة ونوقاً لا عدَّ لها، وقطعان خرافٍ وحمير. وكان أولاده فرحين وهو يحبّهم كثيراً ويصلّي من أجلهم لله؛ هل ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما في فرحهم؟ ذلك أن الشيطان وقف أمام الله وقال له أن يطوف الأرض كلها وما تحت الأرض. فسأله الله: «هل رأيت خادمي أيوب؟». وتباهى الله أمام الشيطان بقداسة خادمه القديس. لكن الشيطان ضحك من كلام الله وأجاب: «مكّني منه فترى خادمك يعصيك ويلعن اسمك». فمكّن الربُّ الشيطان من خادمه الصالح الذي كان يحبّه كثيراً. فضرب الشيطان أولاده وقطعانه ودمَّر ثروته وأرسل إليه كل المصائب دفعة واحدة كأن صاعقة قد ضربت منزله. فمزَّق أيوب ثيابه وارتمى على الأرض صائحاً بأعلى صوته: «لقد خرجت من بطن أمي عارياً، وعارياً سأعود إلى الأرض»، والله أعطى والله أخذ. فليتبارك اسم الرب الآن وإلى أبد الآبدين». يا آبائي ومعلميَّ! سامحوا دموعي التي أذرفها اليوم. إن كل طفولتي تنبثق اليوم أمامي، إنني أتنفَّس الآن كما كنت في طفولتي بذلك الصدر الصغير، صدر الطفل الذي لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره، إن ذلك الانفعال عينه الذي أحسست به يومذاك يجتاحني في هذه اللحظة دهشة واضطراباً وفرحاً. لقد أحدثت تلك النوق تأثيراً قوياً في خيالي وقصة الشيطان الذي كلَّم الله، والله الذي تخلّى عن خادمه وصراخ الخادم مخاطباً ربّه: «تبارك اسمك رغم أنك تعاقبني». ثم تصاعدت في الهيكل ترنيمة رقيقة جداً: «فلتتحقق صلاتي». وارتفع دخان البخور، من مبخرة الكاهن، وركع المصلّون! ومنذ ذلك اليوم، أصبحت غير قادر على قراءة تلك القصة المقدسة - وقد حدث لي هذا أمس أيضاً - إلا وتنهمر دموعي. أجل، ما أروع العظمة والسرَّ الخارقين اللذين يفيضان من هذا النص! لقد سمعت فيما بعد نقداً ساخراً ومتكبراً لهذا النص. قالوا: «كيف يمكّن الربُّ الشيطان من قديسه الأحب بين قدّيسيه ويتركه لعبة بيد الشيطان فيخطف أولاده ويرسل إليه الأمراض ويغطي جسمه بالقروح حتى صار يزاح القيح عن قروحه بقطعةٍ من فخار، ولأيّ هدف؟ من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً: «أنظر ماذا يستطيع أن يتحمله قديس من أجلي!» ولكن هنا تكمن العظمة كما السرّ!» إن المظاهر العرضية للحياة الأرضية تلامس في هذه القصة الحقيقة الأبدية التي لا ندركها. فمن خلال ما يبدو لنا على أنه واقع الأرض يتجلّى فعل قوة أبدية تفوق هذا الواقع. إن الخالق يتصرف كما تصرَّف في الأيام الأولى من الخلق عندما قال «إنه أبدع في ما صنع». إنه ينظر إلى أيوب فيبهجه أنه خلقه. وأيوب الذي يمجد الله لا يخدم الله وحده بل الخليقة أيضاً من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل، فذلك هو ما يُسِّر له. ربّاه ما أروعه سفراً وما أروعها تعاليم! ما أعظم الكتاب المقدس وتلك القوة المعجزة التي توقظها في الإنسان! كأنها صورة العالم والبشرية، وكل شيء قد قيل فيها وأُعلن لقرون وقرون، ما أعظم الأسرار التي تكشف عنها وتحلّها: إن الرب أعاد السعادة إلى أيوب، وأعاد له ثروته؛ وتمرُّ أعوام جديدة فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضاً - ربَّاه! «كيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأُول إلى غير رجعة؟ هل يمكن أن يشعر بالسعادة حقاً بين أولاده الجدد، كما في السابق، مهما يكونوا أحبّةً في قلبه إذا تذكر الذين غابوا إلى الأبد؟». الحق أنه كان يمكن أن يشعر بالسعادة لأنّ الآلام

القديمة تهدأ بمرور الزمن، بواسطة سرّ الطبيعة البشرية الكبير وتتحول إلى فرح هادىء وساذج، إن الدم الذي يغلي في عمر الشباب يفسح في المجال لشيخوخة هادئة ومشعَّة: إنني أبارك شروق الشمس اليومي ويفرح قلبي بشروقها كما كان يفرح به في الماضي، ولكنني أفضّل اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعّته الطويلة المائلة التي توقظ في نفسي الذكريات العذبة المتواضعة والهادئة، وتحيي صور الماضي الحبيبة من حياتي الطويلة المباركة. ففوق هذه الذكريات تحلّق الحقيقة الإلهية التي تهدىء وتسامح وتبرىء كل شيء! سوف تنتهي حياتي، أعرف ذلك وأحسّه، ولكنني أحسّ، في كل يوم، بأن حياتي لا تزال توهب لي، وأن حياتي الأرضية تندفع نحو حياة جديدة لا نهاية لها، ومجهولة، هي منذ الآن قريبة يملأ الإحساس بها نفسي فرحاً، وتجعل قلبي يبكي فرحاً... يا أصدقائي ومعلميَّ! لقد سمعت من يقول، أكثر من مرة، والآن أكثر من أيّ وقت مضى، إن كهنة الله كلهم، ولا سيّما كهنة الأرياف يشكون والدموع في عيونهم من أنّ راتبهم غير كافٍ، ومن أنّ منزلتهم الاجتماعية وضيعة مؤكدين - قرأت ذلك بنفسي - أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الكتاب المقدس للشعب بسبب قلّة رزقهم. إذا جاء لوتريون أو هراطقة فأضلّوا رعايانا وشتّتوا القطيع، فليفعلوا ذلك، لأننا لا نجني من الرزق ما يكفينا، أيها الرب. وأقول في نفسي، إنني أسأل الرب أن يضاعف راتبهم الذي يحرصون عليه (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكنني أقول ذلك مخلصاً: من المسؤول عن هذا الوضع إن لم نكن نحن المسؤولين عنه إلى حدّ ما! إنني أسلّم بأنّ الكاهن في الريف مثقل بأعباء العمل، وليس في وقته من الفراغ ما يمكنه من الاهتمام بالشعب. وأرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه إلى الحدّ الذي يعجز فيه عن أن يقدّم للرب ولو ساعة من وقته في الأسبوع. ثم إنه لا يعمل طوال السنة. فليجمع الكاهن في داره، مرة في الأسبوع، والأفضل أن يكون ذلك في المساء، فليجمع الأطفال، في بادىء الأمر، فيسمع الآباء، ويبدأ الآباء أيضاً بالمجيء، ولا حاجة إلى أن تكون هناك قصور يُعقد فيها هذا الاجتماع. ليس على الكاهن إلا أن يجمع الناس في منزله المتواضع نفسه. وليس له أن يخاف فلن يفسدوا مسكنه خلال ساعة في الأسبوع؛ فليفتح الكتاب المقدس ويقرأ لهم فيه بدون فصاحة مصطنعة أو كلام بليغ! فليقرأ بصوت هادىء ومتواضع، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه، ممتلئاً بحبّ النص المقدس. وبإمكانه أن يتوقف عن القراءة من حين إلى آخر ليشرح معنى كلمة لا يعرف أبناء الشعب معناها. وليكن متأكداً أنهم سيفهمون بسرعة لأن القلب المسيحي يعرف كل شيء! إقرأ لهم حياة إبراهيم وسارة، وإسحق وربيكا، ويعقوب الذي ذهب إلى لابان وقال بعد أن اصطرع مع الله في الحلم: «هذا مكان رهيب»؛ ستدخل هذه القصص قدماً إلى القلب النقيّ، قلب الإنسان البسيط. إقرأ لهم، وإلى الأطفال خاصة، قصة الإخوة الذين باعوا أخاهم كعبد، يوسف الحبيب الفتى، مفسِّر الأحلام، والنبيّ الكبير. ثم زعموا لأبيهم أن ذئباً التهم ابنه. وأظهروا أباهم على ثيابه المدماة. واقرأ لهم كيف سافر إخوته، بعد ذلك، إلى مصر التماساً للقمح، وكان يوسف قد أصبح فيها رجلاً عظيماً، ولكنهم لم يعرفوه، فاضطهدهم واتّهمهم، وسجن أخاهم بنيامين الفتى رغم ما يكنّه لهم من حب: «إنني أحبكم، وإنني لأعذبكم وأنا أحبكم». ذلك أنه لم يستطع أن ينسى، طوال حياته، كيف باعه إخوته لأناس من تجار العبيد، في صحراء مقفرة، قرب بئر، بينما كان يتوسل إليهم باكياً ألّا يبيعوه كعبد في أرض غريبة. فعندما رآهم، بعد سنوات طويلة، أحسَّ بحبّه لهم ينبعث في قلبه، ولكنه عذّبهم، وابتعد عنهم، أخيراً، وانصرف لأنه لم يعد قادراً على أن يحتمل العذاب في قلبه هو نفسه. وارتمى على سريره يبكي. ثم مسح دموعه وعاد إليهم هادئاً مشرقاً، وقال لهم: «يا إخوتي، أنا يوسف أخوكم!». وليقرأ الكاهن للناس تتمة القصة: كيف تملّك يعقوب عندما عرف أن ابنه الحبيب ما زال حياً، وكيف سافر إلى مصر هاجراً الأرض التي ولد فيها، ومات على تراب غريب، تاركاً في وصيَّته أكبر وعد سيتحقق للبشرية على مدى العصور، كاشفاً عن السرّ الذي كتمه طوال حياته في قلبه المتواضع، ألَا وهو الوعد الذي يبشر البشرية بأنه سيولدفي يوم من الأيام إنسان هو أمل العالم، وهو للبشرية مُخلِّص ووفادٍ. يا آبائي ومعلميَّ! اغفروا لي، ولا تغضبوا، إنني أذكركم، كولد صغير، بأشياء تعرفونها

منذ زمن بعيد، وبوسعكم أن تعلّمونيها أنتم بأنفسكم، بأفضل مما أفعل فنّاً وعلماً بألف مرة! إنها الحماسة وحدها التي تجعلني أقول هذا، واغفروا لي دموعي لأنني أحبّ هذا السفر! وإذا استطاع الكاهن أن يبكي هو أيضاً أثناء القراءة فسوف يرى مدى أثر ذلك في قلوب سامعيه. إن بذرة صغيرة تكفي مهما تكن يسيرة، إذا بُذرت في قلب الإنسان البسيط لا تموت بل تعيش في نفسه طوال حياته نبعاً من ضياء ومن ذكرى كبيرة. لا حاجة إلى شروح مسهبة واستطرادات كثيرة يضيع في شعابها فكر الإنسان. إن أبناء الشعب يدركون الأمور ببساطة كبيرة. أتعتقدون أنهم عاجزون عن ذلك؟ قوموا إذن بهذه التجربة واقرأوا لهم تلك القصة المؤثرة، قصة إستير الجميلة، وفاستي المتكبرة، أو اقرأوا لهم تلك المغامرة المعجزة، مغامرة النبي يونان في جوف الحوت. ولا تنسوا كذلك رموز الرب ولاسيّما رموز إنجيل القديس لوقا (ذلك ما كنت أفعله)، واقرأوا لهم في أعمال الرسل حياة شاوول، وحياة القديس ألكسي رجل الله، وكذلك حياة كبرى الشهيدات حاملة المسيح مريم المصرية. سوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطة في قلوبهم، وتكفي ساعة في الأسبوع رغم قلّة الراتب، ساعة واحدة. فإذا ارتضى الكاهن بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لتعبنا نفساً كريمة تعترف بالجميل. سوف يتذكر نشاط الكاهن وقراءاته المؤثرة، فإذا هو يهبّ من تلقاء نفسه إلى مساعدته في أعماله في الحقل أو المنزل. سوف يقدّم له احتراماً متزايداً. وهذه المزايا، تساوي زيادة في الدخل، ذلك حلّ يبلغ من السهولة في الواقع أن المرء يخجل أحياناً أن يقترحه مخافة أن يُضحك عليه. ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. إن من لا يؤمن بالله لا يستطيع أن يؤمن بشعبه، لكن الذي يؤمن بشعبه لن يلبث أن تتجلّى له قداسة روح الشعب ولو لم تخطر على باله يوماً قبل ذلك. إن مثقفينا الملحدين، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التي أنجبتهم، لن ينقذهم ولن يردّهم إلى طريق الرشاد إلا شعبنا الذي ستتأكد قوته الروحية في يوم من الأيام. ما قيمة أقوال المسيح بدون قوة القدوة؟ فالشعب يهلك إن لم تنجده الكلمة الإلهية لأن نفسه عطشى إلى حقيقة دينية وإلى مثل أعلى. في فترة شبابي، منذ أكثر من أربعين عاماً، طفت أرجاء روسيا برفقة الأب أنفيم، نجمع التبرعات لديرنا. ففي ذات يوم، قضينا الليل على شاطىء نهر كبير من تلك الشواطئ الصالحة للملاحة بين الصيادين، فجلس إلى جانبنا فتى مليح الوجه هو فلاح في الثامنة عشرة من عمره كان مستعجلاً للالتحاق بعمله في الغد لأنه قد استؤجر لجرّ سفينة تجارية. كان الفتى ينظر أمامه نظرة صافية حنوناً. والليل ساجٍ وحارّ في شهر تموز. ومن النهر العريض يتصاعد بخار يحمل إلينا طراوة منعشة، وتنبجس سمكة إلى سطح المياه من حين إلى آخر، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفاً. سكتت العصافير، وكل شيء في سلام، كل شيء يعيش في الجمال، كل شيء يصلّي لله. ونحن وحدنا لم ننم، أنا وهذا الفتى، ورحنا نتحدث عن جمال خلق الله وعن سرّه الكبير: عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل المذهَّب، عن جميع هذه المخلوقات التي تعرف طريقها جميعاً في هذا العالم، دون أن يكون لها ذكاء، تشهد بعظمة صنع الخالق، وتساهم، في كل لحظة، بعملها المتواضع في تحقيق الغايات العليا. فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحبّب قد تأثر بقوة، وأسرَّ إليّ بأنه يحب الغابات وطيور الغابات، لأنه كان هو نفسه يربّي الطيور ويعرف تغريد كل أنواعها، ويعرف وسائل اجتذابها. قال لي: «لا شيء أروع من الغابة وكل شيء في الطبيعة جميل». فأجبته: «هذا صحيح. وكل شيء في خلق الله رائع لأن كل شيء حق. أنظر إلى الحصان مثلاً، هذا الحيوان الرائع المتعلق بالإنسان، أو انظر إلى الثور الذي يطعمه ويعمل من أجله. ما أجمل هذه الحيوانات الأليفة، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيراً ما يضربونها بدون شفقة، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تظهران على وجوهها. إنه شيء مؤثّر في النفس أن نعرف أنّ هذه الحيوانات هي بلا خطيئة، لأن كل ما في الكون كامل إلا الإنسان. كان المسيح مع الحيوانات قبل أن يأتي ليخلّصنا». فسألني الفتى: «هل تعتقد حقاً أن المسيح معها أيضاً؟» فأجبته: وكيف لا يكون الأمر كذلك ما دامت الكلمة للجميع، وأن كل مخلوق، حتى أصغر ورقة من أوراق الأشجار، يشهد بعظمة الخالق ويسبّح بحمده. كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح ويناديه بدون شعور لأنه يملك

هذه الفضيلة السرّية وهي أنه بدون خطيئة. أنظر في الغابة إلى الدبّ المخيف المفترس دون أن يكون مسؤولاً عن ذلك!... قلت له هذا وقصصت عليه أنّ دباً اقترب، ذات يوم، من قديس عظيم كان يعيش معتزلاً في غرفة وسط الغابة. فأشفق الناسك على الوحش الجائع، فهبَّ إلى لقائه بدون خوف، وأعطاه قطعة من الخبز، قائلاً له: «كلْ في سلام، وليكن المسيح معك»، فابتعد الوحش المفترس طائعاً دون أن يلحق بالقديس أيّ أذى. تأثر الفتى كثيراً من أن الدبّ انصرف دون أن يلحق أي أذى بالقديس ومن أن المسيح كان معه. وهتف يقول لي: «ما أروع هذا! ما أروع كل ما يأتي من الله!». هادئاً وعذباً. عرفت أنه فهمني. ثم نام بالقرب مني نوماً خفيفاً وبدون خطيئة. فليبارك الرب الشبيبة! صلّيت من أجله قبل أن أنام أنا أيضاً. !ابعث، يا رب السلام والنور إلى جميع مخلوقاتك

ج - ذكريات الناسك الراهب زوسيما

عن عمر الصبا والشباب التي عاشها في العالم

المبارزة

بقيت في بطرسبرغ في مدرسة الأحداث مدة طويلة، ما يقرب من ثماني سنوات، ومع تربيتي الجديدة كبتت كثيراً عن مشاعر الطفولة مع إنني لم أنسَ شيئاً. وفي المقابل، اكتسبت عادات وأفكاراً جديدة حولتني إلى إنسان متوحش، إنسان قاسٍ وعبثي. وبتعلُّمي اللغة الفرنسية تحلّيت بآداب المجتمع وبطلاء من حضارة، بينما الجنود الذين كانوا يخدموننا، فكنّا جميعاً، وأنا أيضاً، نعتبرهم بهائم. ولعلّني كنت أنا أكثر من الآخرين في ذلك، لأنني كنت في كل الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من رفاقي كلّهم. وعندما تخرّجنا ضباطاً، كنا مستعدين لأن نبذل دمنا إذا تلطخ شرف كتيبتنا. لكن أحداً منا لم يكن يعرف ما هو الشرف الحقيقي. وما من أحد منا يملك أيّ فكرة عنه، فلو عرفت ذلك لكنت أول من سخر من ذلك. وكنا نعتزّ بما ننهمك فيه من سكر ومجون ووقاحة ولا أقول إننا كنا أشراراً: كان كل أولئك الشباب أناساً طيبين ولكنهم يتصرفون بشكل سيِّئ وكنت أنا أسوأ من الآخرين. ولسوء الحظ إنني تسلّمت ثروتي فغصت في حياة الملذات على ما تشاء لي نزواتي مندفعاً اندفاع الشباب بدون أيّ تحفظ. لقد أبحرت ناشراً كل أشرعتي. لكن الشيء الغريب هو أنني كنت أقرأ كتباً في كثير من الأحيان وأجد في ذلك لذة كبرى. ومع ذلك، لم أفتح التوراة يوماً، لكنني لم أفارقها وإنما احتفظت بهذا الكتاب قريباً مني من دون أن أقرأه «في اليوم والساعة والشهر والسنة». وبعد أربع سنوات من الخدمة، وجدت نفسي في مدينة ك.، التي كانت كتيبتنا تعسكر فيها. وكان المجتمع في هذه المدينة كبير العدد ومتنوعاً. وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطفاء يعيشون حياة فرحٍ وبهجة، وقد أحسنوا استقبالي لأنني مرح بطبيعتي. بالإضافة إلى ذلك، كانوا يعتبرونني ثرياً وذلك أمر يقدّره المجتمع. وهنا وقع لي حادث كان له أثر حاسم في مصيري. فقد أحببت فتاة رائعة الجمال، ذكية، ونبيلة الخلق، يتمتع أهلها باحترام كبير، وكانوا من الأثرياء، ولهم نفوذ وعلاقات عالية، وقد أحسنوا وفادتي وصداقتي. وأحسست أن الفتاة ليست غير مكترثة لوجودي، فالتهب قلبي من تلك الفكرة. وأدركت فيما بعد أنني لم أكن أحبها فعلاً بل كنت مفتتناً بذكائها وسموّ طبعها، وهذا ما أثّر في نفسي، ومنعتني أنانيتي من خطبتها إذ كان صعباً عليّ أن أتنازل في مثل ذلك العمر من ريعان الشباب عما في حياة العازب الحرة المتحللة من إغراءات. لذلك اقتصرت على بعض التلميحات وأرجأت الخطوة الحاسمة إلى ما بعد. وتلقّيت أمراً عسكرياً بالسفر مدة شهرين إلى مقاطعة أخرى فلما رجعت بعد شهرين، عرفت فجأة أن الفتاة تزوجت رجلاً غنياً من الملّاكين في المقاطعة، وهو يكبرني سناً ولكنه لا يزال شاباً، كما أن له صلات في العاصمة وفي المجتمع الراقي، وذلك ما لا أتمتع به أنا؛ وهورجل لطيف محبَّب جداً ومثقَّف جداً، بينما ثقافتي أنا ناقصة كلياً. وبلغت من الاضطراب لهذا الحادث غير المتوقع ما جعلني أتصوّر

أنني فاقد صوابي بسببه. وقد آلمني أنني علمت أن الرجل الملّاك خطيب الفتاة منذ زمن طويل، وحدث لي أن التقيته فعلاً في منزل أهلها مراراً كثيرة دون أن ألاحظ شيئاً من شدّة ما أعماني غروري. فأغاظني هذا الأمر: كيف، أيعلم ذلك جميع الناس تقريباً إلا أنا؟ وأحسست بغضب شديد. شعرت بالدم يصعد إلى جبهتي عندما تذكرت تصريحات الحب التي كدت أبوح بها مرات عديدة. وهي لم توقفني بل تركتني أتكلّم دون أن تخبرني بأنها مخطوبة، فاستنتجت بالتالي أنها كانت تهزأ مني. وقد عرفت، فيما بعد طبعاً، أن الأمر لم يكن كذلك، وتذكرت أنها، خلافاً لما توهمت، كانت تقاطعني في كل مرة مازحة، وتغيّر موضوع الحديث، لكنني عجزت في ذلك الوقت عن أن أحكم في الأمر بشكل سليم، فكنت أحترق إلى الانتقام. وأنا أتذكّر الآن بدهشة أن ذلك الانتقام والغضب اللذين أحسست بهما كانا شاقّين على نفسي لأن خفَّة طبعي كانت لا تتيح لي أن أبقى حاقداً على الناس فترة طويلة. فصرت أحرِّض حنقي تحريضاً مصطنعاً إلى أن أصبحت متوحشاً وعبثياً. ارتقبت فرصةً أنتقم فيها لنفسي، وتمكنت في ذات مساء، بينما كنا في مجتمع غفير، أن أهين خصمي في أمر لا علاقة له ظاهرياً بشخصي، فسخرت من رأيه في موضوع حدثٍ هام كان قد وقع في ذلك الوقت - حدث ذلك في العام 1826 - وكانت سخرياتي، في رأي الحضور، محكمة وحاذقة وفكهة. ثم طلبت منه أن يصفّي حسابه معي في مبارزة؛ وبلغتُ من الفظاظة، أثناء ذلك، أنه لم يستطع إلا أن يقبل التحدي رغم كل ما بيني وبينه من فروق. فأنا كنت أصغر منه سنّاً وضابطاً برتبة صغيرة. وقد عرفت فيما بعد أن شيئاً من الغيرة قد دفعه إلى قبول التحدي. وكان هو، في ذلك الوقت، أثناء خطبته قد ساءته ملازمتي لخطيبته، وهو أيضاً يخاف الآن إذا عرفت زوجته بأنه تحمَّل إهاناتي، دون أن يبارزني، أن تحتقره بدون إرادة منها، وأن يتزعزع حبّها له. ولم ألبث أن عثرت على شاهد لي بدون عناء، وهو أحد رفاقي، كان ملازماً في كتيبتنا. وكانت المبارزات رائجة جداً في ذلك العصر رغم أنها محظورة، وهذا يدل على مدى ترسّخ الأحكام الاجتماعية الباطلة في النفس البشرية. كنا في أواخر شهر حزيران/ يونيو وحُدد الموعد في الغد، في الساعة السابعة صباحاً، على أرض مهجورة خارج المدينة - وفي الحقيقة، وقع لي في ذلك المساء حادث مشؤوم. عندما عدت مساءً إلى مسكني مهتاجاً غاضباً، ثرت على الجندي الذي يخدمني، واسمه أفاناسي، وصفعته على وجهه بكل قوتي مرتين، حتى سال الدم من وجهه. وكان يخدمني منذ زمن غير طويل، وسبق لي أن ضربته من قبل، ولكنني لم أضربه بوحشية بهيمية كهذه المرة. صدّقوني يا أصدقائي الأعزاء، إذا قلت لكم إنني ما زلت حتى اليوم، بعد أكثر من أربعين عاماً، لا أستطيع أن أتذكر سلوكي حينذاك إلا وأشعر بعار وألم. وقد تمدَّدت فنمت زهاء ساعتين أو ثلاث. فلما استيقظت كان الصباح قد تنفَّس. فأسرعت أرتدي ملابسي لأنني لا أريد أن أنام، واقتربت من النافذة ففتحتها، وكانت تشرف على الحديقة. ماذا رأيت؟ لقد بدأت الشمس تطلع، والطقس جميل رائع، وراحت العصافير الصغيرة تغرد. فسألت نفسي: لماذا هذا الاحساس الغريب بالخزي والعار؟ هل لأنني سأسفح دماً؟ لا. يبدو أن هذا ليس هو السبب. هل أكون إذن خائفاً من الموت وأخشى أن أُقتل؟ لا. ليس هو السبب، ليس هو السبب أبداً... وفجأة، أدركت سبب ذلك الضيق الذي كنت أشعر به: كنت أشعر بعذاب في ضميري لأنني ضربت أفاناسي في الليلة البارحة! تراءى لي المشهد بكل تفاصيله، فجأة، وكأنه يستعاد: كان هو واقفاً أمامي، منتصب القامة، مرفوع الرأس، واضعاً يديه على درزة سرواله، وأنا أهوي على وجهه بالصفعة تلو الأخرى بكل ما أوتيت من قوة. وهو يحدّق أمامه كأنه في استعراض عسكري ولا يجرؤ على رفع ذراعه ليحمي وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة. انظروا إلى أية حالة يمكن أن يصل الكائن البشري! كيف يستطيع إنسان أن يضرب أخاه الإنسان! يا لها من جريمة! أحسست بأن إبرة تنفذ في روحي من جهة إلى أخرى. كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً وكانت أشعة الشمس تتلألأ فوق أوراق الأشجار، وعصافير صغيرة، تغرد، تمجّد الرب... خبأت وجهي بيديّ الاثنتين وارتميت على سريري باكياً. وتذكرت، في تلك اللحظة، أخي ماركل وما قاله قبل موته إلى الخدم: «يا أصدقائي الأعزاء، يا أحبائي، ماذا فعلت كيف

أستحق أن تخدموني؟ ما الذي يجعلني أهلاً بعاطفتكم؟». وقلت لنفسي: «ما الذي يجعلني أنا أيضاً جديراً بأن يخدمني قريني الإنسان؟». وحاصرت هذه الفكرة عقلي فجأة. فرحت أتساءل: «لماذا ينبغي لإنسان شبيه بي، إنسان خُلق مثلي على صورة الله أن يخدمني؟ ما الذي جعلني جديراً بذلك؟». طرحت على نفسي هذا السؤال لأول مرة في حياتي وكأنه اخترق روحي. «يا أمي، أيتها الغالية، إن كل إنسان مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس وهم لا يعرفون هذا. فلو عرفوه لأصبحت الأرض جنة منذ الآن! وتساءلت في نفسي من خلال دموعي: «أيجوز حقاً يا إلهي أن أكون مرتكباً جميع الذنوب وأن أكون أكبر الناس إثماً؟ وأنا أسوأ من جميع الناس». وتراءت لي الحقيقة فجأة في ضياء باهر: ما الذي كنت أريد أن أفعله؟ أن أقتل إنساناً طيباً ذكياً شريفاً لم يلحق بي أذى، وأن أحرم زوجته من السعادة إلى الأبد فأسلّمها للعذاب وأدمّر روحها! وكنت أثناء استسلامي لهذه التأملات مستلقياً على سريري، دافناً وجهي في الوسادة، لا أشعر أن الوقت كان يمرّ. وها هو رفيقي الملازم أول يظهر في غرفتي فجأة حاملاً إليّ المسدسات. قال لي: حسناً، لقد نهضت من نومك، آن الأوان، هيّا بنا! وهنا اضطربت وخفت لكنني تبعته. وخرجنا لنستقلّ العربة. عدلت عن الركوب فجأة وقلت لرفيقي: انتظرني لحظة، سأعود إلى المنزل لأجيء بمحفظة نقودي التي تركتها فيه. وأسرعت إلى الغرفة الصغيرة التي يسكنها خادمي أفاناسي. وقلت له: «أفاناسي! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس. سامحني». ارتعد عندما سمع كلامي كأنه خاف. وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافياً، ليس كافياً، وأن بادرتي لا تتناسب والأذى الذي ألحقته به، فإذا بي أخضع فجأة لاندفاعة مفاجئة فأرتمي على قدميه بملابسي الأنيقة حتى كادت تلامس جبهتي الأرض، وقلت له صائحاً: «سامحني» بدا أفاناسي مصعوقاً، وقال: «يا صاحب النبالة، يا معلمي، كيف يمكن أن... أنا لست جديراً بهذا...». وفجأة، راح يبكي هو نفسه كما بكيت أنا منذ قليل وخبأ وجهه بيديه ثم استدار نحو النافذة مرتجفاً من رأسه حتى قدميه غارقاً في دموعه. وأسرعت إلى رفيقي وقفزت إلى العربة، وصحت بالحوذّي: سرْ! وأضفت إلى رفيقي: «هل تريد أن ترى الغالب؟ إنه أمامك!» وكنت أشعر بحماسة شديدة - بقيت أضحك أثناء الطريق وأتكلم بدون توقف، ولست أدري ماذا قلت! كان رفيقي ينظر إليّ بارتياح، فقال لي: «أرى أنك شجاع! سوف تشرّف بزّتنا العسكرية». ووصلنا إلى أرض المبارزة حيث كانوا ينتظروننا، ووُضعنا أنا وخصمي على مسافة اثنتي عشرة قدماً. كان عليه هو أن يطلق النار أولاً. فقابلته فرحاً وأنا أنظر إلى عينيه فأشعر أن قلبي يفيض حباً له. لم تطرف عيني. كنت على ثقة بما سأفعله. أطلق النار. خدشت الرصاصة خدّي خدشاً خفيفاً ولامست أذني قليلاً. فقلت له: «الحمد لله! لأنك لم تقتل أحداً». وتناولت مسدسي فرميته ورائي في اتجاه الغابة. وقلت: «هذا ما أفعله بالمسدس». ثم التفت نحو خصمي وقلت: «سيدي، سامحني لأنني أسأت إليك بدون سبب، لطيشي وخفّتي، ثم أجبرتك أن تطلق النار عليَّ. إنني أسوأ منك عشر مرات وربما أكثر؛ قل هذا عن لساني للإنسان الذي تقدّره أكثر من أيّ إنسان آخر في هذا العالم. فما إن تفوهت بهذه الكلمات حتى راح الثلاثة يصرخون. قال خصمي (وكان في حالة غضب): «إذا لم تكن تنوي أن تقاتل، فلماذا أزعجتني؟» فأجبته بمرح: «كنت حتى الأمس أحمق، ولكنني اليوم أصبحت عاقلاً». فقال: «أما أنك كنت بالأمس أحمق فهذا أمر أسلّم به، وأما أنك أصبحت عاقلاً فهذا ما لا يبدو صحيحاً بالنظر إلى سلوكك». قلت وأنا أصفّق بيدي: «وعلى هذا أيضاً أوافقك على ما تقول. لقد استحققت أن أسمع هذا الكلام!». قال ملحّاً: «هل أنت عازم على أن تطلق النار يا سيدي أم لا؟» فأجبته: «لن أفعل. ولك أن تطلق مرة ثانية إذا كنت تريد ذلك، ولكنك تحسن صنعاً إن أنت لم تطلق». صاح الشاهدان ولا سيما صاحبي: «أنت تلطخ شرف كتيبتنا بالعار؟ أتطلب الصفح وأنت على أرض المبارزة. ليتني تنبأت بهذا!» استدرت نحوهم، في هذه المرة بدون ضحك: «أيها السادة! قلت لهم، أعجيب إلى هذا الحدّ أن يوجد في أيامنا هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها وأن يعترف بها علناً؟ فصاح صاحبي: «ولكن ليس على أرض القتال». أجبتهم: «أهذا ما يدهشكم إذن؟ كان يجب علي، في الواقع، أن أعتذر إليه

منذ وصولي، قبل أن يطلق عليَّ النار لأجنّبه ارتكاب خطيئة مميتة. لكن من المؤسف أننا قد نظَّمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل عليّ أن أفعل ذلك، فإنني ما كنت أستطيع أن أتكلم إلا بعد أن أطلق عليّ النار من على مسافة اثنتي عشرة قدماً؛ وإلا لكان يمكن أن تعتبروني جباناً غير أهلٍ بأن يُسمع كلامي إذا أنا اعتذرت إليه منذ وصولي قبل أن يطلق النار. (وصحت من أعماق قلبي): «أيها السادة: تأملوا خلق الله من حولكم: السماء الصافية، والهواء النقيّ، والعشب الطري، والعصافير الصغيرة! إن الطبيعة رائعة بدون خطيئة. نحن وحدنا، معشر الأغبياء، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنّة، يكفي أن نريد معرفة ذلك حتى يبدو لنا العالم فوراً بكل جماله. لنتعانق ونبكِ...» كنت أريد أن أتابع ولكنني توقفت عن الكلام وقد انقطعت أنفاسي وشعرت بانفعال شديد، وكان قلبي يفيض بسعادة لم أعرف مثلها في حياتي كلها. فقال لي خصمي: «كلامك فيه تقوى وشرف، لا شك أنك إنسان طريف جداً». فأجبته ضاحكاً: «إضحك، (وأنا سأضحك أيضاً) ولكنك ستطريني بعد ذلك». قال: «بل أنا مستعد بأن أمدحك منذ الآن. إسمح لي أن أمدَّ إليك يدي لأنك، فيما يبدو لي رجل صادق». قلت: «لا... لا تمدَّ لي يدك الآن، بل تمدّها لي فيما بعد، بعدما أُصلح نفسي وأستحق تقديرك، يومئذ سوف تصافحني وتكون على حق». وعدنا إلى المنزل وشاهدي لا ينفك يوبّخني وأنا أقبّله. وفوراً عرف الرفاق جميعاً بما جرى فاجتمعوا ليحكموا عليَّ في اليوم نفسه. قال أحدهم: «لقد لطخ شرف بزَّتنا العسكرية بالعار، فعليه أن يستقيل». ودافع بعضهم عني: «لكنه صمد أمام إطلاق النار عليه دون أن يختلج». فقال الآخرون: «لكنه جبُن وخاف استئناف إطلاق الرصاص فاعتذر على ساحة المبارزة». فأجاب المدافعون عني: «لو أنه خاف لأطلق النار أولاً قبل أن يعتذر، أما وأنه رمى مسدسه في الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل على أن الأمر ليس كذلك بل شيء آخر غير عادي». كنت أصغي إليهم فأشعر أنني مبتهج لرؤيتهم، ثم قلت لهم: «اسمعوا، يا أصدقائي ورفاقي، لا يقلقكم أمر استقالتي، لقد فات الأوان، قدَّمت استقالتي اليوم في المكتب، ومتى قُبلت، سأدخل إلى الدير. ولهذا السبب استقلت». فما إن قلت هذا الكلام حتى انفجروا بالضحك. «كان ينبغي أن تقول هذا من قبل. الآن اتضح كل شيء. لا يحاكم راهب». كانوا يضحكون ولكن بغير سخرية، ولا يستطيعون التوقف، يضحكون وهم يشعرون نحوي بشيء من العطف. ومنذ تلك اللحظة، أصبحوا جميعاً يظهرون لي المودة، حتى أقساهم حكماً عليّ. واحتفلوا بي في الكتيبة كبطل طوال الشهر الذي انقضى بين تقديمي الاستقالة وإحالتي على التقاعد. وكانوا يقولون: «أيَّ راهب». وصار كل واحد منهم يكلمني بأقوال لطيفة محاولاً أن يصرفني عما صمّمت عليه بل ومشفقاً عليّ. «لماذا تفسد حياتك»؟ و «لا بل إنه شجاع. لقد جابه طلقة الرصاص وكان في وسعه أن يردّ ولكن لا شك أنه رأى حلماً أثناء الليلة التي سبقت المبارزة فقرر أن يصبح راهباً. وكذلك كان الأمر في مجتمع المدينة أيضاً. كان الناس فيما مضى يحسنون استقبالي فقط. وبعد الحادث أصبحوا يهتمون بي جميعاً ويدعونني إلى ولائم يقيمونها لأجلي. صحيح أنهم يسخرون قليلاً مني ولكنهم يحبونني. ولاحظت أن السلطات أغمضت عينيها عن حادث المبارزة رغم أنها أصبحت مدار حديث الناس جميعاً لأنّ خصمي هو أحد أقارب جنرالنا، ولأنَّ ما من دمٍ قد سفح، واعتبرت المبارزة أشبه بمزاح. وتجرأت فقررت أن أعبّر عن آرائي بدون حرج رغم سخريات أبناء المجتمع الراقي التي لم تكن خبيثة، والحق يقال، إنها كانت سخريات بريئة. وكانت تلك الأحاديث تجري في المساء بحضور السيدات لأن اهتمام النساء بي كان أكبر من اهتمام الرجال، فكان يحلو لهن أن يصغين إلى كلامي وكنَّ يجبرن رجالهنّ على أن يصغوا إليَّ كما يصغين هنَّ. وكنت أسأل بلهجة ساخرة: «كيف يمكن أن أكون مرتكباً جميع الذنوب في حق جميع الناس؟ هل أنا الذي أقترف أخطاءك مثلاً؟ كيف تستطيعون أن تعرفوا ذلك، كنت أجيبهم، بينما العالم كله قد سار منذ زمن طويل في طريق خطأ فرفع إلى مصاف الحقائق ضلالات مشؤومة، وطلب من أعضائه تبنّي هذه الأحكام. أنا مثلاً؛ أردت مرة في حياتي أن أتصرف بصدق فإذا بي أصبح في نظركم نوعاً من ساذج القرية. ومهما تحبوني، قلت لهم، فإنكم تسخرون مني. «كيف يمكن أن لا نحبك؟» قالت سيدة المنزل

ضاحكة. وفجأة، ماذا رأيت؟ تلك المرأة الشابة بسببها دعوت إلى تلك المبارزة التي كنت لا أزال أعتقد، حتى فترة قريبة أنها ستكون خطيبتي. فيما لم ألاحظ حتى وجودها. وها هي تنهض وتقترب مني وتمدّ إليّ يدها، وتقول لي: «اسمح لي أن أؤكد لك أنني، أنا أول من لا يمكن أن أسخر منك، بالعكس، أنا أعرب لك عن شكري دامعة العينين وأعبّر لك عن كامل تقديري لسلوكك». وجاء إليّ زوجها أيضاً، وتبعه سائر المدعوين وكادوا يقبّلونني جميعاً. اجتاحني الفرح. ولاحظت، بصورة خاصة، بين الأشخاص الذين أظهروا لي عاطفتهم، سيداً طاعناً في السنّ، اقترب هو أيضاً مني، وكنت أعرف اسمه لكنني لم ألتقه أبداً، وقبل ذلك المساء لم أتبادل وإياه كلمة واحدة.

د - الزائر الخفيّ

كان موظفاً في مدينتنا يشغل وظيفة جيدة، ويحترمه الجميع. كان غنياً اشتهر بأعمال الخير، وقدّم مساعدة لمأوى الأيتام. وكما كان، يساعد الفقراء سرّاً، ولم يُعرف ذلك إلا بعد موته. كان في الخمسين من العمر، قليل الكلام، قاسي المظهر؛ متزوجاً منذ عشر سنوات، وما تزال امرأته شابة وله منها ثلاثة أولاد صغار. مساء ذلك اليوم الذي جرى فيه الحديث، كنت في منزلي فإذا بالباب يُفتح فجأة لأرى الرجل يدخل عليّ.

تذكرت أنني قد غيَّرت مسكني الأول. واستأجرت غرفة في منزل امرأة عجوز، أرملة أحد الموظفين، كانت خادمتها تقوم بخدمتي. تركت منزلي القديم يوم المبارزة بالذات، وما إن عدت في الصباح، حتى صرفت أفاناسي وأرسلته إلى الثكنة لأنني أصبحت أشعر بالخجل وأنا أنظر إليه بعد الذي حدث بيننا. إن هذا الرجل يمكن أن يحمرَّ خجلاً حتى من أنبل الأفعال وأجدرها احتراماً.

قال لي الرجل الذي دخل الآن: «أنا أستمع إليك منذ عدة أيام في منازل عديدة، باهتمام بالغ، وإنني أودّ أن أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل. فهل تتكرّم عليّ، يا سيدي العزيز، بهذه الخدمة الكبيرة؟» طبعاً. أجبته. «ذلك يسرني كثيراً وأعتبره شرفاً كبيراً لي». قلت له ذلك وشعرت بشيء من الخوف. لقد أوحى إليّ هذا الرجل خوفاً شديداً. صحيح أنني كنت قد اعتدت أن يكون لي مستمعون كثيرون، وأن هؤلاء المستمعين كانوا، في غالب الأحيان، يستمعون إلى كلامي باهتمام، ولكن ما من أحد منهم واجهني، حتى ذلك الوقت، بهيئة من الجدّ. أضف إلى ذلك، أن الرجل قد جاء إلى منزلي بنفسه. وجلس. قال لي: «لقد تبيّنت فيك قوة خلقية كبيرة لأنك لم تخشَ أن تخدم الحقيقة في ظروف تعرّضك لاحتقار الجميع». فأجبته: «ربّما تقدرني فوق قدري في هذه المسألة». فأجاب: «لا. إن القيام بعمل كهذا أصعب مما تظن». وتابع يقول: «وهذا ما أثَّر في نفسي تأثيراً قوياً، ودفعني إلى زيارتك. أودّ أن أسألك أن تصف لي - إن لم تر ذلك فضولاً مني - ما شعرت به لحظة قررت أن تعتذر إليه على أرض المبارزة إذا كنت تتذكر مشاعرك. أرجو ألّا تعتبر سؤالي هذا طيشاً مني، فهناك أسباب خفية تدفعني إلى طرح هذا السؤال عليك، وسوف أشرح لك الأسباب، إذا أراد الله أن يقرب بيننا.

كنت وهو يتكلم، أنظر إليه مباشرة في أعماق عينيه، بانتباه شديد، فأحسست فجأة باطمئنان إليه وثقة به مطلقة؛ ربما لأنني شعرت أن في حياته سراً.

قبل أن أصف شعوري أثناء اعتذاري إلى خصمي، أعتقد سأروي لك كيف تسلسلت - الأحداث منذ البداية، وهذا ما لم أخبره لأحد. وأخبرته كيف ركعت أمام أفاناسي، وقلت: «بإمكانك أن تعرف بعد هذا سهولة موقفي في لحظة المبارزة، لأن الإحساس بالحقيقة وأنا في منزلي، دفعني إلى أن أتابع هذا الطريق. وسلوكي بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلفني أيّ عناء فحسب، بل كان مصحوباً بإحساس من السعادة والفرح». أصغى الرجل إلى كلامي

بمودة كبيرة وحب كبير. قال:

- «هذا الأمر شائق جداً. وسنتحدث مجدداً بهذا الموضوع».

ومنذ ذلك الوقت، أصبح يأتي إليّ كل مساء تقريباً. لكن الصداقة بيننا لم تتوثق لأنه لم يُفضِ إليَّ بشيء عن حياته بل كان يسألني فقط عن حياتي أنا. ومع ذلك، أحببته جداً، وفتحت له قلبي، قائلاً لنفسي إنني لست في حاجة أبداً إلى معرفة سرّه، وحسبي أن أعلم أنه رجل صادق. وأرضاني أن أرى رجلاً أكبر مني سناً، لا يحتقر شاباً مثلي، بل يأتي إليه في منزله... وتعلّمت منه أشياء مفيدة كثيرة، لأنه كان رجلاً يتمتع بكثير من الذكاء.

- «أما أنّ الحياة جنّة فذاك ما أفكّر فيه منذ زمن طويل». قال لي فجأة ذات يوم. وأضاف: «أنا لا أفكر إلا في هذا الأمر». ونظر إليَّ وابتسم. «حتى إنني أكثر اقتناعاً منك بذلك لأسباب سوف تعرفها فيما بعد». وقدَّرت وأنا أستمع إليه أنه ربما كان يريد أن يفضي إليَّ ببعض أسراره. واستأنف كلامه: «كلّ منا يحمل في نفسه جنّة مدفونة، وهذه الجنة قائمة في نفسي وإن تكن مخفية. حسبي أن أريد حتى أجعلها تنبجس منذ الغد فأحتفظ بها طوال حياتي». نظرت إليه. كان يتكلم بحماسة، وفي نظرته إليَّ ما يشبه أن يكون سؤالاً عجيباً. ثم تابع يقول: «صحيح أن كل إنسان يرتكب كل الذنوب في حق كل الناس، هذا عدا خطاياه الشخصية؛ تلك حقيقة عبَّرت عنها، ولا يسعني إلا أن أندهش أنك استطعت أن تكشفها كاملة، ودفعة واحدة. ومن المحقق أن ملكوت السماوات سيكون واقعاً لا حلماً فحسب في اليوم الذي يُدرك الناس هذه الحقيقة». فقلت بمرارة: «متى سيحدث هذا؟ هل سيأتي ذلك اليوم حقاً؟ أليس ذلك حلماً؟ أنت لا تؤمن بهذا إذن؟ أتبشّر بالحقيقة ولا تؤمن بها؟ إعلم أن ما تسمّيه أملاً سوف يتحقق بدون شك. كن واثقاً. لكن هذا لن يتحقق اليوم لأن لكل فعل توقيته في الزمن بحكم قوانينه. لا بدَّ أن تتغير البشرية نفسياً وأخلاقياً. لن يكون ممكناً أن يتغيَّر العالم ما لم يكتسب البشر روحاً جديدة ويتجهوا في طريق جديد. لن يكون في العالم أخوَّة ما لم يشعر البشر بأنهم إخوة حقاً. لن يستطيع البشر، في يوم من الأيام، أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل إذا لم يستوحوا إلا مصالحهم. سيجد كل واحد منهم نصيبه أصغر مما يستحق. وسوف يسود الحسد والحقد فيدفعان البشر إلى أن يفني بعضهم بعضاً. تسألني متى يتحقق ملكوت السماوات على الأرض، أعرف أنه ذات يوم، ولكن ليس قبل انتهاء «عهد العزلة»».

- عن أيّ عزلة تتكلم؟ سألته.

- العزلة التي نراها في جميع الميادين، لا سيما في عصرنا هذا، فعهدها لم ينته بعد، ولم يصل إلى ذروته لأن كل إنسان يجهد لكي يتذوق الحياة كاملةً، ساعياً إلى السعادة الفردية. ولكن هذه الجهود لن تؤدي إلى تذوق الحياة كاملة، ولا إلى فناء النفس بشكل كامل، ولا تؤدي إلا إلى نوع من الانتحار الروحي بعزلة خانقة. لقد أصبح المجتمع أفراداً يعيش كل منهم في جحره كوحش ويهرب بعضهم من بعض، لكي يخبئوا ثرواتهم بعضهم بعضاً. وهذا يؤدي إلى أن يكره بعضهم بعضاً، وإلى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضاً. فالإنسان يكدس الخيرات في العزلة، ويعتقد أن القوة تضمن الحياة. إنه لا يرى، لحماقته، أنه كلما أوغل في التكديس كان يغوص في عجز مميت. ذلك أنه يعتاد ألّا يعتمد إلا على نفسه، ويفقد إيمانه بالتعاون وينسى في عزلته القوانين التي تحكم البشرية فعلاً، وينتهي إلى أن يرتعد كل يوم خشيةً على ماله الذي أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء. لقد غاب عن البشر كلياً، في أيامنا هذه، أن الأمن الحقيقي في الحياة لا يتحقق بالعزلة بل باتحاد الجهود وتناسق الأعمال الفردية. سينتهي حتماً عهد العزلة الرهيب في يوم من الأيام، وسيدرك البشر، فجأة، مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية وسوف تهبّ على البشرية نفحة جديدة فتتساءل مدهوشة يومئذ كيف تمكنت أن تعيش طوال هذه المدة في الظلمات لا ترى النور؟ عندئذ

سوف تظهر إشارة ابن الإنسان في السماوات[31]... إنما المهمّ أن نحافظ على شعلته إلى أن يأتي ذلك الحين، وأن نحاول، ولو بالقدوة الفردية، أن نخلّص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية دون الخوف من اتهامنا بالغباء، لكي لا ندع هذا الأمل العظيم يموت...».

هكذا كنا نقضي مساءاتنا، في أحاديث حماسية من هذا النوع. وأهملتُ العلاقات الاجتماعية ولم أعد ألبّي الدعوات إلا نادراً. وبدأت الحماسة لنفسي تتراجع. لقد بطلت موضتي، والموضة تلعب في المجتمع دوراً كبيراً. أما زائري العجيب فقد أصبحت أكنّ له، مع مرور الزمن، إعجاباً حقيقياً، وكنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية، وأشعر أنه يحضّر مشروعاً سرّياً أو يتهيأ لعمل روحي كبير. ولعلَّه قدَّر فيَّ أنني لا أتدخل فيما لا يعنيني فضولاً في سرّه، فإنني لم أحاول، لا بشكل مباشر أو غير مباشر، أن أستدرجه إلى حيث يبوح إليَّ بشيء من أمره. ولكنني لاحظت أخيراً أن سرَّه يثقل صدره، ويحترق شوقاً إلى أن يفتح لي قلبه، أو ذلك ما شعرت به بوضوح بعد شهر. وقد سألني، ذات يوم، بعد بدء زيارته: «هل تعرف أن الناس في المدينة كلها يثرثرون كثيراً عنا ويدهشون لزياراتي المتكررة لك؟ لا بأس. سيتضح كل شيء عما قريب». وكان يتفق له أحياناً أن ينتابه فجأة اضطراب شديد، وكان في مثل تلك الحالات ينهض غالباً لينصرف. وفي مناسبات أخرى يطيل التحديق إليَّ ويلقي عليّ نظرات نافذة، فأقول لنفسي عندئذ: «سيقول لي شيئاً ما». لكنه يغيّر الحديث فجأة ويتطرق إلى مواضيع بدون قيمة أو يقول أشياء معادة. وكان قد بدأ يشكو من صداع غالب الأحيان. وذات يوم، بعد أن تكلم بكثير من الحماسة رأيته يصفرّ، فجأة، ويتقلّص وجهه، وينظر إليّ متفرساً. قلت له قلقاً:

- ماذا بك؟ هل أنت مريض؟ لأنه كان قد شكا من صداع. فقال؟

- أنا... هل تعلم... لقد قتلت إنساناً.

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة، لكن وجهه كان قد اصطبغ بزرقة تميل إلى سواد. «لماذا يبتسم؟». لمع هذا السؤال في ذهني ونفذ إلى قلبي قبل أن يتسع وقتي لأجيب. ولكن وجهي أيضاً شحب لونه.

- ماذا تعني؟ سألته.

- ها أنت ترى كم كلّفني هذا الاعتراف الأول من عناء! أجابني وهو يتبسم ابتسامة ذابلة. لقد تمَّ الاعتراف الآن وستكون متابعته أسهل... أريد أن أتابع...

بقيت مدة طويلة لا أصدق ما كان يقوله لي. ولم أستطع أن أصدق إلا شيئاً قليلاً، بعد أن رجع إليّ ثلاثة أيام متتالية، وروى لي القصة بجميع تفاصيلها، ظننته، في أول الأمر مجنوناً ثم عرفت الحقيقة أخيراً بألم ودهشة كبيرة. لقد ارتكب، بالفعل، جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاماً: قتل امرأة شابة غنية وجميلة جداً، أرملة رجل من الملّاكين العقاريين. وكانت تملك في مدينتنا قصراً خاصاً تقيم فيه. افتتن بها افتتاناً شديداً، وصارحها، ذات يوم، بحبّه وطلب خطبتها. لكنها كانت تحب رجلاً آخر، ضابطاً في الجيش ذا رتبة عالية، واسع الشهرة، كان يومذاك في الريف وعليها أن تلحق به قريباً. لذلك رفضت هذا العرض ورجت ألّا يزورها بعد ذلك اليوم. وعندما صرفته بهذه الخشونة، وأصبح متعذراً أن يزورها، تسلل ذات ليلة إلى منزلها الذي كان يعرف ترتيبه، ماراً بالحديقة والسطح بجرأة مدهشة، معرضاً نفسه لأن يُكتشف، كما يحدث غالباً في الجرائم الجريئة، فدخل إلى منزلها من كوة في الشونة ونزل السلّم الذي يؤدي من الشونة إلى شقة السيدة. كان يعرف أن الباب الذي يوجد في أسفل السلَّم يبقى غير مقفل، غالب الأحيان، بسبب الإهمال. وعلى هذا كان يعوّل، وكان الباب مفتوحاً. دخل إلى الشقة واتجه في العتمة إلى غرفة النوم التي كان يشتعل فيها

سراج. وشاءت الصدفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا في ذلك المساء دون أن تستأذناها لحضور حفلة صغيرة تقيمها صديقة لهما بمناسبة عيد ميلادها وتسكن بالقرب من المنزل. أما الخدم والخادمات فقد كانوا ينامون في الملحقات في الحديقة أو في المطبخ في الطابق الأسفل. وعندما رأى المرأة الشابة نائمة استعر حبّه، فإذا بغيرة حانقة عطشى إلى الانتقام تشبّ في قلبه فاقترب من السيدة كالسكران، وأغمد في قلبها خنجراً وهو لا يدرك ماذا يفعل؛ ولم يتسع لها الوقت لإطلاق صرخة. ثم رتّب أموره بدهاء إجرامي لكي تقع كل الشبهات على الخدم: لم يأخذ المحفظة، بل فتح أدراج صندوقها مستعيناً بمفاتيح وجدها تحت وسادتها. فاختار من محتويات الأدراج أشياء هي ما يمكن أن يسرقه خادم غبي. لم يمدّ يده إلى السندات والأوراق التي لها قيمة كبيرة بل سرق المال والحلى الذهبية كبيرة الحجم، متخلياً عن التحف التي يفوق ثمنها ثمن الحلى الذهبية عشر مرات. وسرق كذلك بعض الأشياء التذكارية التي سنتحدث عنها فيما بعد. ولما أنجز جريمته على هذا الشكل، خرج من المنزل كما دخل. ولم يخطر ببال أحد إطلاقاً، لا في الغد حين اكتشفت الجريمة ولا في أيّ لحظة من حياته أن يكون هو المجرم. لم يكن أحد على علم بحبّه لأنه كان سكوتاً وقليل الكلام ولم يكن له صديق يفتح له قلبه. كان الناس يعتبرونه صديقاً للضحية، حتى أنهم لا يعتبرونه صديقاً حميماً لأنهم لم يروه في منزلها خلال الأسابيع الأخيرة. وانصبّت الشبهات على خادم قنّ اسمه بيوتر وكانت جميع الدلائل تشير إليه وتتّهمه لأن هذا الخادم يعرف أن مولاته - التي لم تكن تخفي ما عقدت نيتها عليه - تريد أن تضعه في قائمة الفلاحين الذين ستقدّمهم للجيش، أولاً لأنه عازب وثانياً لأنه ذو سلوك سيِّئ. وقد سمعه الناس في إحدى الخمارات وهو سكران من الغضب، يهددها بالقتل. وقبل موتها بيومين هرب وعاش مختبئاً في المدينة، ووُجد على الطريق خارج المدينة فاقد الوعي من فرط السكر وفي جيبه سكين وراحة يده اليمنى ملطخة بالدم. وقد أكد بأنه نزف من أنفه، ولكن أحداً لم يصدقه. واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً، واعترفتا بأنهما تركتا باب المدخل مفتوحاً عن سهو. وجاءت دلائل أخرى تؤيد قرائن الاتهام هذه، فاعتُقل الخادم البريء، وأودع السجن. لكن إصابته بحمى حارة، أعفته من المثول أمام القضاء لأنه مات في المستشفى قبل أن يستعيد وعيه. وأُغلق التحقيق ولم يبق إلا تسليم الأمر لله. وظلّ جميع الناس - القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع في المدينة - مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحد غير الخادم المتوفى. وعندئذ بدأ العقاب.

وقد أسرَّ إليّ زائري الخفيّ بعد أن أصبح صديقي، أنه لم يعرف عذاب الضمير في الفترة الأولى. لكنه تألم زمناً طويلاً، وكان ألمه حسرة على أنه قتل المرأة التي يحبها. وكانت نار الحب لا تزال تستعر في دمه. أما أنه سفح دماً وقتل إنساناً فذلك أمر لم يزعجه كثيراً. كان إذا تصوّر أن تلك المرأة يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصوّر. ولهذا السبب كان متأكداً أنه يستحيل عليه أن يتصرف بشكل آخر. وقد هزّه اعتقال الخادم في أول الأمر، ولكن مرض المتّهم ووفاته لم يلبثا أن ردّا إليه هدوءه وطمأنينته، إذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب صدمة نفسية بل مات بسبب المرض الذي أصابه أثناء هروبه، عندما قضى نهاراً كاملاً على الأرض الرطبة فاقد الوعي من السكر. أما المال والأشياء المسروقة فلم يأبه لها أبداً لأنه (هذا ما كان يقوله لنفسه أيضاً) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً للشكوك. ثم إن قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جداً، وسرعان ما تبرع لمأوى الفقراء الذي أنشىء في المدينة في الفترة الأخيرة بمبلغ يساوي قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً، وقد فعل ذلك ليهدىء ضميره في موضوع السرقة. ومن الغريب أنه تمكن أن يهدئه بالفعل خلال مدة طويلة من الزمن كما قال لي هو ذلك. وراح يزاول نشاط مهنته باندفاع قوي فغرق في هذا النشاط واستطاع أن يحصل على أن يُعهد إليه بمهمة صعبة ومتعبة شغلته مدة سنتين. ولما كان رجلاً نشيطاً فقد تمكّن أن ينسى ما حدث بشكل شبه كامل. وإذا راودته ذكراها يبادر إلى طرد هذه الذكرى. وانصرف أيضاً إلى أعمال الإحسان فدعم وأنشأ أعمالاً خيرية في مدينتنا وذاعت شهرته في

العواصم فانتخب عضواً في الجمعيات الخيرية في موسكو وسان بطرسبرغ. ولكن، رغم كل شيء، بدأ يتساءل بألم لا يحتمل. وتعرَّف في تلك الفترة إلى امرأة شابة جميلة وذكية فتزوجها آملاً أن يستطيع بزواجه أن يطرد كآبته ويبدد قلقه. وكان يقول لنفسه إنه إذا دخل حياة جديدة وقام بنشاط بواجباته نحو زوجته وأولاده الذين سوف ينجبهم منها، فإنه سيتمكن من التخلّص من شبح الماضي الذي يحاصره. لكن ما كان يتوقعه لم يتحقق بل تحقق نقيضه. فمنذ الشهر الأول على زواجه شعر بهذه الفكرة تعذّبه وتقضّ مضجعه: «صحيح أن زوجتي تحبني، ولكن، ماذا لو عرفت الحقيقة؟». وعندما أسرّت إليه، للمرة الأولى، أنها ستصبح أمّاً اضطرب وقال لنفسه: «أأهب الحياة أنا الذي قتلت؟». ثم لما كبر أولاده، صارت تلازمه أسئلة أخرى: «كيف أجرؤ أن أحبّهم وأربيهم وأنشئهم وكيف يمكنني أن أكلمهم عن الفضيلة وأنا ارتكبت جريمة قتل؟». كان أولاده رائعين فإذا اشتهى أن يقبّلهم يقول لنفسه: «أنا لا أستطيع أن أتأمل وجوههم المضيئة البريئة. أنا لست جديراً بذلك». وأخيراً ظهر أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها، ظهر وعيداً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب به إلى الانتقام! وأصبحت توافيه في الليل أحلام ثقيلة وكوابيس مرهقة. واستطاع بفضل قوة طبعه أن يحتمل هذا العذاب مدة طويلة قائلاً لنفسه إنه «سيكفّر بآلامه الخفية عن خطيئته». لكن أمله هذا ذهب سدى. فالقلق الداخلي استمر يتفاقم. والناس في المجتمع يحترمونه تقديراً لأعماله الخيرية، مع تهيبهم قسوة طبعه وانكماش نفسه. لكنه كان يزداد شعوراً بالإرهاق كلما ازداد شعوراً باحترام الناس له. واعترف لي بأنه فكَّر في الانتحار. لكن قراراً آخر بدأ ينضج في نفسه. بدا في أول الأمر حلماً ولكنه ما زال يستولي على وجدانه ويترسخ في ضميره حتى أصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره. كان يحلم بأنه: «يجب أن يسلّم نفسه للقضاء ويعترف بجريمته، يجب أن يتَّهم نفسه أمام جميع الناس بأنه قاتل». وبقي ثلاث سنوات يحمل في خياله هذا الحلم، هذه الرؤيا التي تعاوده في أشكال مختلفة. وانتهى إلى الاقتناع بأنه سيشفي روحه ويسترد أمنه الداخلي إلى الأبد إذا هو اعترف بجريمته. لكن ما إن تأصَّل هذا الاقتناع لديه حتى اجتاح الرعب قلبه، فصار يقول لنفسه: «كيف أفعل مثل هذا؟» وفي ذلك الوقت وقعت المبارزة. «عندما نظرت إليك وجدت في نفسي القوة على أن أتخذ قراري. نظرت إليه.

وصحت وأنا أرفع ذراعيَّ إلى السماء: «هل يمكن أن يكون حادث بسيط كهذا الحادث قد ولَّد في نفسك مثل هذا القرار؟».

فأجابني: «إن قراري قد نضج في رأسي خلال ثلاث سنوات، ساعدت مبارزتك على إخراجه إلى النور. فقد خجلت من ضعفي وحسدتك. قال بلهجة شبه قاسية. فقلت:

- لكن أحداً لن يصدّقك بعد أربعة عشر عاماً.

- لديَّ براهين، براهين رهيبة.

هنا بكيت وعانقته.

- إشرح لي سؤالاً، سؤالاً واحداً! قال لي. (وكأن كل شيء يتعلق بي أنا). ما الذي سيحدث لزوجتي وأولادي! قد تموت زوجتي من الحزن، وأولادي لن تسقط عنهم نبالتهم ولن يحرموا من أموالهم، ولكنهم سيظلون أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة. وأيّ ذكرى، أيّ ذكرى سأتركها في قلوبهم!

سكت.

- أن أنفصل عنهم وأن أتركهم إلى الأبد!

لم أجب بشيء، وكنت أتلو صلاة خرساء، وأخيراً، نهضت وقد اجتاحني الخوف.

- ماذا؟ قال وهو ينظر إليّ.

قلت.

- إذهب وبلّغ جميع الناس! كل شيء سيزول وتبقى الحقيقة وحدها. وسيعرف أولادك عندما يكبرون مدى ما احتجت إليه من شجاعة في سبيل اتخاذ قرارك.

تركني في ذلك اليوم وكأنه قرر أن يعترف حقاً. ولكن بقي خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك، يأتي إليّ كل مساء تقريباً، ويستعد دائماً لتحقيق قراره، ومتى أقبل الغد جبُن في آخر لحظة عن تحقيق عزمه. وكان، أحياناً، يجيئني ثابت العزيمة، ويقول لي بحنان:

- أنا أعرف أنني سأدرك الجنة متى اعترفت بجريمتي. لقد عشت أربعة عشر عاماً في الجحيم. أريد أن أتألم. سأقبل المحنة وأستأنف العيش. فالكذب لا يؤدي إلا إلى الظلمات وهو يسدّ الطريق نحو النور إلى الأبد. أنا الآن لا أجرؤ أن أحب حتى أولادي فكيف بالآخرين، سيفهم أولادي، يا إلهي! سيفهمون ما عانيت من عذاب ولن يدينوني. وليس الرب في القوة بل في العدل.

- سيفهم الجميع القرار الذي اتخذته. قلت له. سوف يستحسنونه جميعاً، إن لم يكن في الحال ففي المستقبل حتماً. إنك بهذا العمل تخدم العدالة، التي هي أسمى من الواقع الأرضيّ...

انصرف وقد رضيت نفسه. لكنني رأيته في الغد عائداً إليَّ فجأة، غاضباً، مصفرّ الوجه وقال لي بسخرية:

- كلما دخلت عليك أحسست أنك تحدِّق إلي كمن يقول لنفسه: «لم يقرر بعد». صبرك ولا تتسرّع في احتقاري. إن الأمر أصعب مما تعتقد. ومن يدري؟ فقد أتخلى عنه أخيراً! أعتقد أنك لن تشي بي!

وأنا لم أكن أحدق إليه مستطلعاً بفضولية، فكنت لا أكاد أجرؤ أن أنظر إليه. كانت هذه المأساة تضنيني، وكانت نفسي حزينة حتى إنني لم أنم الليل أبداً.

قال ذات يوم عندما وصل إليَّ:

- جئت من عند زوجتي. هل تعرف ما معنى زوجة؟ لقد صاح أولادي يقولون لي حين خرجت من المنزل: «وداعاً، عد بسرعة يا بابا لنقرأ معاً في كتاب الأطفال». لا. لا تستطيع أن تفهم هذا! إن شقاء الآخرين لا يعلّم.

وسطعت عيناه وارتجفت شفتاه ثم ضرب الطاولة فجأة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأشياء التي كانت عليها كادت تقع. للمرة الأولى يحدث له هذا الأمر هو الرجل الوديع.

- هل هذا ضروري فعلاً؟ قال. هل هو ضروري؟ لِمَ هذا الاعتراف ولم يُحكم على أحد بسبب جريمتي، ولم يرسل بريء إلى السجن بدلاً مني، وقد مات ذلك الخادم. أما الدم الذي سفحته فأنا أكفّر عنه بآلامي. ثم إنهم لن يصدّقوني، ولن يصدّقوا الأدلة التي يمكن أن أقدمها. هل يجب أن أصرّح بذلك؟ إنني مستعد لأن أتألم طوال حياتي من ذلك الدم المسفوح، لكن لن أجرّ زوجتي وأولادي معي إلى الشقاء. هل من العدل أن أضيعهم معي؟ ألا

ترى أننا قد ضللنا الطريق الصحيح؟ أين الحقيقة؟ هل هؤلاء الناس جميعاً يعرفون الحقيقة ويقدرونها كما ينبغي أن تُقدّر؟

قلت في نفسي: «يا إلهي! إنه مهتمّ بالناس في مثل هذه اللحظة!» وشعرت، إذ ذاك، بشفقة شديدة عليه جعلتني مستعداً لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف من عذابه. لقد تغيَّرت هيئته بشكل رهيب. وما كان أشدَّ دهشتي عندما أدركت، ليس بعقلي في هذه المرة، بل بروحي وقلبي، ما كلَّفه مثل هذا القرار.

- قرّرْ مصيري. صاح بي مجدداً.

- سلّم نفسك للقضاء! أجبته بهمس. وكان صوتي خفيفاً لكنني كنت حازماً. ثم تناولت الإنجيل - في ترجمته الروسية - وأشرت إلى هذه الفقرة من إنجيل يوحنا، الإصحاح 12، الآية 24:

«الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إن لم تقع حبّة القمح في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت فتأتي بثمار كثيرة». وكنت قد قرأت هذه الآية قبل زيارته.

قرأها:

- هذه هي الحقيقة، قال لي، ولكن مع ابتسامة مرة ثم أضاف بعد لحظة صمت: «رهيب ما يجد المرء في هذه الكتب! ما أسهل أن يوضع تحت أنفك مثل هذا الكلام! من الذي كتب هذا كلّه؟ هل يمكن أن يكونوا بشراً؟

- نعم. كتبوه بوحي من الروح القدس. قلت له.

- من السهل عليك أن تتكلم. قال لي هذه المرة فيما يشبه الحقد. فتناولت الكتاب وفتحته على موضع آخر، وأريته الآية 31 من الاصحاح 10 «رسالة إلى العبرانيين». فقرأ: «مخيف هو الوقوع بين يديْ الله الحيّ».»

قرأ، ثم رمى الكتاب. وبدأ جسمه كله يرتجف.

- هذه آية رهيبة. قال لي. أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها. ونهض عن كرسيّه.

- حسناً، الوداع، ربما لن أعود أبداً... سنلتقي في الجنة. إذن، «وقعت بين يديّ الرب الحيّ» مدة أربعة عشر عاماً. يبدو أن عليّ أن أسمّي هذه الأربعة عشر عاماً هكذا. غداً سأتوسل إلى تينك اليدين أن تحرراني...

اجتاحتني رغبة في تقبيله، ولكنني لم أجرؤ - كان وجهه منقبضاً ونظرته ثقيلة. وتساءلت: «يا إلهي، أين يذهب الآن!» وارتميت راكعاً أمام الإيقونة. صلّيت باكياً لأمّ الله التي تسرع إلى الحماية. انقضى نصف ساعة دون أن أتوقف عن الصلاة والبكاء. أوشك الليل أن ينتصف، وإذ باب الغرفة يُفتح، فجأة، وهذا صاحبي يدخل من جديد. أذهلتني رؤيته.

- من أين جئت؟ سألته.

- أنا... قال لي. أظن أنني نسيت عندك شيئاً... هو منديل في أغلب الظنّ... وإن لم أنسَ شيئاً، ناولني كرسياً...

جلس وبقيت أنا واقفاً بالقرب منه.

- اجلس أنت أيضاً. قال لي. جلست وبقينا على هذه الحال دقيقتين. كان يحدّق إليّ، وفجأة ضحك ضحكة قصيرة، أتذكّر ذلك جيداً، ثم نهض وضمّني بين ذراعيه بقوة وقبّلني...

- تذكّر أنني جئت إليك للمرة الثانية. قال لي. هل تسمعني، هل تذكر ذلك!

للمرة الأولى يخاطبني بصيغة «المفرد» ثم خرج. قلت لنفسي: «غداً». هذا ما حدث. كنت أجهل في ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده. أنا لا أخرج منذ فترة إلا نادراً فلم يذكر لي أحد ذلك. كان يقيم في كل سنة حفلة كبيرة في منزله يدعو إليها كل أبناء المجتمع الراقي من أهل المدينة، وفي هذه المرة أيضاً. وبعد العشاء، تقدَّم إلى وسط الصالة ممسكاً بيده ورقة - كتب عليها تصريحاً رسمياً موجهاً إلى رؤسائه. كان رؤساؤه حاضرين. قرأ تصريحه بصوت عال ذاكراً كل تفاصيل جريمته. وختم قراءته قائلاً:

- وكمثل وحشٍ قررت أن أسلخ نفسي من المجتمع. لقد زارني الله. أريد أن أتألم. ثم وضع على المنضدة كل الأدلة المتعلقة بجريمته التي احتفظ بها خلال أربعة عشر عاماً: الحلى الذهبيّة التي سرقها تمويهاً للشبهات، والصليب والميدالية التي تضم صورة خطيبها، ودفتراً ورسالتين: رسالة من خطيبها يبلغ فيها خطيبته أنه آتٍ عما قريب، والثانية، رسالة هي جواب لم تتمّ كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله إلى البريد في الغد، لماذا أخذ هاتين الرسالتين؟ ماذا كان الدافع الذي جعله يحتفظ بهما خلال أربعة عشر عاماً بهذه الأدلّة التي تتّهمه وتعرّضه للخطر بدلاً من أن يتلفها؟ إليكم ما حدث: ذُهل الحاضرون من اعترافاته، واعتراهم ذعر، ولكنهم رفضوا أن يصدّقوا هذه الاعترافات. صحيح أنهم استمعوا إليه بكثير من الانتباه والاستطلاع، ولكنهم كانوا كمن يستمع إلى إنسان مريض، وبعد بضعة أيام، أجمعت المدينة كلها على أن المسكين أصبح مجنوناً. ولم يكن في وسع رؤسائه ورجال السلطة ألّا يتابعوا الأمر، فقد رأوا أن لا مجال لتحريك القضاء. ذلك أن الرسالتين والأشياء التي قدمها إن كانت تبعث على التفكير فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام حتى ولو ثبت أنها للضحية. فمن المحتمل أن تكون الضحية قد عهدت إليه بها كصديق. وعرفت فيما بعد، أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرّفوا على هذه الأشياء فلم يبق حول ذلك شك. لكن القضية لم تُحرّك رغم هذا، فقد عُلم بعد خمسة أيام أن المسكين قد أصيب بمرض وأن حياته في خطر. لا أستطيع أن أشرح ماذا كان مرضه. وتحدَّث الناس عن اضطرابات في القلب. ومهما يكن من أمر، فقد عاين الأطباء حالته العقلية أيضاً وذلك بطلب من زوجته، فانتهوا إلى أنه مصاب ببداية جنون. ولم أكشف أنا عن اعترافاته لي طبعاً، رغم أن الجميع قد حاصروني بالأسئلة. وعندما أردت أن أزوره منعوني وخاصة زوجته. قالت لي: «أنت الذي أدخلت الاضطراب والاختلال إلى عقله! كان دائماً قاتم المزاج. وأصبح اضطرابه النفسي وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ سنة، وجئت أنت فأجهزت على عقله! أنت الذي ملأت رأسه بهذه الأفكار! لا يكاد يخرج من عندك منذ شهر كامل».

ولم يكن هذا شأن زوجته وحدها، بل المدينة كلها هاجمتني، وقالوا: «حدث كل هذا بسببك».

وكنت أسكت فلا أجيب، وكنت سعيداً في أعماق نفسي. ذاك أنني أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذي دان نفسه وأراد أن ينال جزاءه. إلا أنني ما كنت أصدّق جنونه. وسمحوا لي أخيراً أن أراه لأنه طلب هو ذلك لكي يودّعني. وحينما دخلت عليه أدركت، منذ اللحظة الأولى، أن ساعاته لا أيامه فقط أصبحت معدودة. كان منهكاً، أصفر الوجه، مرتجف اليدين، يتنفَّس بصعوبة، لكن نظرته تعبّر عن الفرح والهدوء.

- انتصرت الحقيقة! إنني بانتظارك منذ مدة طويلة، لماذا تأخرت في المجيء؟

أخفيت عنه أنني مُنعت من رؤيته.

- لقد أشفق الله عليّ فناداني إليه. أنا أعرف أنني سأموت لكنني عرفت السعادة والسلام منذ سنين طويلة، ولأول مرة. لقد وجدت الجنّة في نفسي فجأة منذ ما أنجزت ما يتوجب. والآن لا أخاف أن أحبّ أولادي وأقبّلهم. إنهم لا يصدقونني. ما من أحد صدّقني، حتى ولا زوجتي ولا قضاتي. وأولادي لا يصدّقون هذا هم أيضاً. أرى في هذا رحمة إلهية لأولادي. سوف أموت، ولكن اسمي لن يكون مدنساً بالنسبة إليهم. إنني أشعر بالله الآن وقلبي مبتهج كأنني في الجنة... لقد أنجزت واجبي...

لم يستطع أن يتابع حديثه فقد انتابه ضيق في التنفس، فشدَّ على يدي بحرارة ونظر إليّ وعيناه تلتهبان. لم نتكلم طويلاً لأن زوجته كانت تطل باستمرار إلى الغرفة. واتسع وقته، مع ذلك، لأن يتمتم:

- هل تتذكر عندما جئت لأراك في ذلك المساء للمرة الثانية، عند منتصف الليل؟ لقد طلبت عندئذ بأن تتذكر ذلك. فهل تعلم لماذا رجعت إليك؟ كان هدفي أن أقتلك!

ارتعشت.

- بعد أن تركتك في تلك الليلة، طفت في الشوارع أصارع نفسي فإذا بي أشعر فجأة بكرهٍ لك بلغ من القوة أنني أحسست أن قلبي يكاد ينفجر. قلت لنفسي: «بسببه وحده أنا مضطر إلى الاعتراف الآن. لقد أصبح قاضيّ. ولن أستطيع أن أتخلّص من العقاب غداً لأنه يعرف كل شيء». ليس معنى هذا أنني كنت أخاف أن تشي بي (لم أفكر في هذا أبداً)، ولكنني كنت أقول لنفسي: «كيف أستطيع أن أنظر إليه بعد ذلك إذا أنا لم أسلّم نفسي للسلطات». وسيّان أن تكون في هذه المدينة أو في أقصى الأرض. أصبحت لا أستطيع أن أتصوَّر أنك تعيش في مكان ما عالماً بأمري حاكماً عليّ مديناً إياي، فأخذت أكرهك كما لو كنت سبب كل شيء. ورجعت إليك في تلك الليلة متذكراً أن عندك على مكتبك خنجراً. وجلست. وطلبت منك أن تجلس، وفكّرت دقيقة بكاملها. بديهي أن حياتي كانت ستتحطم على أيّ حال لو قتلتك، وأنني كنت سأنتهي نهاية شقية سواء اعترفت بالجريمة الأخرى أم لا. لكن ذلك لم يخطر ببالي في تلك اللحظة. كنت أكرهك وأريد أن أنتقم منك بكل قواي، لكل ما كنت قد قاسيت. وانتصر الله على الشيطان في قلبي. أعلم أن الموت لم يقترب منك في يوم من الأيام كما اقترب منك في تلك الليلة.

ومات بعد أسبوع. وشيَّعته المدينة كلها إلى القبر، وألقى الكاهن كلمات مؤثرة. وبكى الناس المرض الذي أماته. وقفت المدينة كلها ضدي، وما عادوا يستقبلونني في منازلهم. لكن عدداً منهم، وقد كانوا قلة في بادىء الأمر، ثم تكاثروا بسرعة بعد ذلك، قد اقتنعوا بصدق اعترافاته، فبدأوا يأتون إليّ يزعجونني بأسئلتهم عنه، ويسألون عنه بفضول وفرح، لأن الإنسان يحب أن يرى رجلاً صالحاً يتلطخ شرفه. لكنني رفضت أن أتكلَّم بعد ذلك، ثم لم ألبث أن غادرت تلك المدينة نهائياً. وبعد خمسة أشهر أنعم عليَّ الله فوجَّهني في طريق اليقين والنور. بوركت اليد الخفية التي قادتني إلى الدرب الصحيح. أما صاحبي ذاك، ميخائيل، خادم الله، فما زلت أذكره بصلاتي حتى اليوم.

III

مقتطفات من تعاليم الناسك الراهب

زوسيما وأحاديثه

هـ - الراهب الروسيّ ودوره الممكن

يا آبائي ومعلميَّ، من هو الراهب؟ في الأوساط المثقفة ينطق بعض الناس بهذه الكلمة ساخرين، فيما البعض الآخر يعتبرها شتيمة. وكلما مرَّ الوقت ازداد هـذا الانطباع رسوخـاً. إن بين الرهبان - يجب أن أعترف بهذه الحقيقة - كسالى وفاجرين وفاسقين. والمثقفون من أبناء المجتمع يقولونه لهم: «أنتم كسالى لا نفع منكم تعيشون على حساب الآخرين كمتسولين لا شرف لهم». لكن ما أكثر الرهبان المتواضعين الوادعين بيننا الذين لا همّ لهم إلا الصلاة لربهم في عزلتهم الصامتة. والناس لا يكترثون لهم حتى إنهم لا يتكلمون عنهم أبداً. ويتعجب المشتّعون هؤلاء عندما يتصورون أن روسيا المقدسة سينقذها، هؤلاء الرهبان المتواضعون المتعطشون إلى العزلة والصلاة! والذين يستعدون بالصمت «لمواجهة اليوم والساعة والشهر والسنة». وحتى حلول ذلك، يحافظون في عزلتهم على صورة المسيح الجميلة، لا المشوَّهة، في نقاوة الحقيقة الإلهية، المنقولة إليهم من آباء الكنيسة أظهروها أمام حقيقة هذا العالم المترنح. إن هذه الفكرة عظيمة. وهذه النجمة سوف تسطع ذات يوم في الشرق.

هذا هو رأيي في الراهب. فهل هذه فكرة كاذبة أو متكبرة وهذا العالم الذي يرتفع فوق شعب الرب، ألم يشوه صورة وعدالة الله. يملكون العلم، ولكن العلم يخضع إلى ما تدركه الحواس. أما العالم الروحي، العنصر الأسمى في الكائن البشري، فقد رفضوه كلياً ونبذوه شاعرين بنوع من الانتصار بل بنوع من البغض. أعلن العالم الحرية، لاسيما في أيامنا هذه، ولكن ما الذي تؤدي إليه هذه الحرية وما الذي نراه يتأكد باسمها: لا شيء إلا العبودية والانتحار! يقول الناس: «إن لك حاجات فاسعَ إلى إرضائها لأنَّ لك حقوقاً لا تقلّ عن حقوق الأغنياء والكبار. لا تخش رغباتك بل أكثر عددها». تلك هي العقيدة الحالية لهذا العالم. وفي هذا يتصور الناس الحرية. فما الذي يؤدي إليه هذا الحق المزعوم في مضاعفة المرء لرغباته؟ يؤدي لدى الأغنياء إلى العزلة والانتحار النفسي، ولدى الفقراء إلى الحسد والقتل. ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقاً ولكنهم لم يُعلَّموا بعد وسائل تحقيق اكتسابها ووسائل إرضاء حاجاتهم. يقول البعض إن التطور الطبيعي يقود البشرية نحو مزيد من الاتحاد؛ فإلغاء المسافات بالاكتشافات الحديثة وانتشار الفكر ينمِّيان الاحساس بالأخوّة. لا تدعوا هذه الأوهام تخدعكم! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع. إذا تصوّرنا الحرية على أنها قدرة الفرد على زيادة حاجاته وإرضائها بسرعة، فإننا نشوّه طبيعة الإنسان ونثير فيه حاجات لا سبيل إلى تحقيقها، ونخلق له عادات حمقاء تافهة وأحلاماً مجنونة. لا يعيش الناس اليوم إلا في الحسد إشباعاً لشهواتهم أو إرضاءً لغرورهم. فإقامة الحفلات والخروج في النزهات، والتمتع بالمآدب، واقتناء العربات الفخمة، والظهور بالمظاهر الخلابة وامتلاك الخدم والأقنان، كل ذلك يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها، وحاجة يضحون في سبيلها بحياتهم وشرفهم حتى ليؤثروا الانتحار على أن يتنازلوا عنها. وهذا ينطبق أيضاً على

من ليسوا أغنياء. أما الفقراء فيخنقونها بالإدمان. لكن سيأتي يوم وهو قريب، يشربون فيه دماً لا خمراً. فإلى هذا يُدفعون. إني أطرح عليكم هذا السؤال: «هل مثل هذا الرجل حرّ؟ لقد عرفت في الماضي مثقفاً كان «يناضل في سبيل فكرة». وقد أخبرني هو نفسه، ذات يوم، أنه عندما منع من التدخين في السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون «فكرته» في سبيل التدخين. وكان هذا الرجل يقول، «سوف أناضل من أجل البشرية». هل نصدّق أن رجلاً مثل هذا يمكن أن يذهب بعيداً في بذل الجهد؟ إنه عاجز إلا عن اندفاعات موقتة وعمل مباشر أما الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما. فهل غريب بعد هذا أن البشر بعد أن يجدوا الحرية يقعون في العبودية، وبدلاًمن أن يخدموا الأخوَّة واتحاد البشرية يقعون في «العزلة» وفي الوحدة، كما قال لي في شبابي زائري الخفيّ وصديقي. لهذا نرى العالم اليوم في سبيل أن يفقد حسّ الاخلاص للبشرية وحسّ الوحدة البشرية والأخوّة البشرية، ويبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير إلا السخرية. كيف يمكن للإنسان أن يتخلى عن عاداته، وماذا يمكن أن يصير إليه هذا الأسير الذي استعبدته حاجاته إذا كنا قد علّمناه أن يرضي الحاجات التي اخترعها هو نفسه؟ وهل تعنيه الجماعة في هذه الحالة؟ ذلك ما وصل إليه البشر: كلما تكدّست الثروات كلما زال الفرح. وليس كذلك هو طريق الرهبنة. كثيراً ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة بينما هي في الواقع السبيل الوحيد إلى بلوغ الحرية الحقيقية والصحيحة. إنني عندما أتخلّى عن حاجاتي الزائدة وغير المفيدة وعندما أسيطر بالطاعة على إرادتي المزهوة والمتكبرة أرتفع، بعون الله، إلى الحرية الروحية التي توفِّر لي الفرح الروحي! من هو الأجدر بأن يحمل هذه «الفكرة» العظيمة ويخدمها - الغنيّ الذي يعيش في عزلته أم هذا الإنسان الذي «تحرر» من استبداد العادات والحاجات المادية؟ إن بعض الناس يأخذون على الراهب عزلته. فهم يقولون له: «لقد اعتزلت لكي تضمن خلاصك وراء جدران الدير ونسيت الخدمة الأخوية البشرية». سوف نرى من الذي سيخدم أكثر قضية الأخوّة. إلا أنهم هم الذين يعيشون في العزلة لا نحن، ولكنهم لا يدركون ذلك. ومن صفوفنا خرج، منذ زمن بعيد، أولئك المصلحون، فلماذا لا يكون الأمر على هذا النحو اليوم؟ سوف يُرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الهادئون الذين يلتزمون الصيام والصمت، كيف يهبّون للقيام بأعمالهم العظيمة. من الشعب سيأتي خلاص روسيا. والدير الروسيّ كان إلى جانب الشعب في كل زمان. إذا كان الشعب منعزلاً فنحن أيضاً معزولون. فالشعب يؤمن كما نؤمن نحن. والمصلح الملحد عندنا في روسيا لن يعمل شيئاً أبداً، حتى ولو كان صادقاً في قلبه وكان عبقرياً. تذكروا هذا. يكتشف الملحدين ويقاتلهم. ولن يبقى عندئذ إلا روسيا متحدة وأورثوذكسية. فاحفظوا هذا الشعب إذن، وصونوا قلبه. ربُّوه في الصمت. هذه هي رسالتكم الرهبانية لأن هذا الشعب يحمل الله في نفسه.

و - عن الأسياد والخدم

هل يمكن أن يصبح الأسياد والخدم

إخوة في الروح؟

يا إلهي! من يقول العكس، فالخطيئة موجودة أيضاً عند الشعب. وشعلة الانحلال تتوسع حتى بشكل ملحوظ ساعة بعد ساعة ومصدرها الطبقات العليا. فإذا بالصغار والفقراء يقعون في العزلة هم أيضاً. إننا نشهد ظهور المحتكرين والمستغلين. فالتاجر يسعى، أكثر فأكثر، إلى مظاهر المجد، ويرغب أن يُعتبر مثقفاً مع أنه لا يملك أيّ ثقافة في الواقع، فيحتقر من أجل ذلك عاداته القديمة وصولاً إلى الخجل من إيمان آبائه. يعاشر الأمراء بينما هو ليس إلا فلاحاً فاسقاً. لقد أهلك إدمان الخمر الشعب الذي لا يستطيع التحرر منه. ما أشدّ

قسوة حياة المرأة وحتى حياة الأطفال في العائلات الفقيرة! إن الإسراف في شرب الخمرة هو سبب ذلك. رأيت أطفالاً يعملون في المصانع وهم في العاشرة من عمرهم: هزيلون، ضعفاء، مقوّسو الظهور، قد فسدت أخلاقهم. القاعات الخانقة الموبوء هواؤها، ضجة الآلات، العمل طوال النهار، الأحاديث البذيئة التي يسمعها الطفل، الكحول، أهذا ما يجب أن يعيشه طفل صغير؟ إنه في حاجة إلى الشمس واللعب والقدوة الحسنة وحدّ أدنى من الحب! يجب أن تنتهي هذه الحالة أيها الرهبان، وأن يتخلّص الأطفال من العذاب! اذهبوا إلى الناس وبشّروهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة. ولكن الله سوف ينقذ روسيا. لأن ابن الشعب إذا تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة فإنه يعرف، على الأقل، أن سوء سلوكه هذا يلعنه الله، وأنه يخطىء إذ ينقاد للشر. إن شعبنا لم يفقد إيمانه بالخير. إنه يؤمن بالعدالة وبالله، وهو يبكي ندماً على خطاياه. وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقي. فهؤلاء يريدون إقامة العدالة بواسطة العلم، مستلهمين العلم، مستغنين عن المسيح. حتى لقد أعلنوا، منذ الآن، بأن لا وجود للجريمة ولا للخطيئة أيضاً. إنهم من وجهة نظرهم على حق: فإذا لم يكن هنالك إله، فماذا تكون إذن الجريمة؟ في أوروبا، يثور الشعب على الأغنياء، في هذه الأيام، ويريد مواجهتهم بالقوة؛ ويقوده قادته، في كل مكان، إلى إراقة الدماء قائلين له إن غضبه عدل. لكن «غضبه ملعون لأنه قاسٍ». سوف ينقذ الله روسيا كما أنقذها مراراً في الماضي. ومن الشعب سوف يأتي الخلاص، من إيمانه وتواضعه. فيا آبائي ومعلميَّ، صونوا روح الشعب، وهذا ليس حلماً: طالما دُهشت، أثناء حياتي كلها، مما يتمتع به شعبنا العظيم من كرامة صادقة ونبل عظيم. رأيت هذا بنفسي، وأستطيع أن أشهد عليه، لقد رأيت ودُهشت، رغم الخطايا الكثيرة والبؤس الشديد الذي يعيشه الشعب. والشعب ليس عبداً في بلادنا، بعد مئتي عام من العبودية. إنه حرّ دون أيّ شعور بالإهانة. وهو ليس حسوداً ولا حقوداً: «أنت غنيّ وأنت في مرتبة عالية وأنت ذكي وأنت صاحب موهبة - نعمَّ ذلك، فالله يباركك! إنني أحترمك، وإذا احترمتك دون أن أحسدك فإنني أؤكد أمامك كرامتي الإنسانية». لئن كان لا يقول هذا الكلام صراحة (لأنه لا يجيد التعبير في القول) فإن هذا الموقف النفسي يتجلّى في سلوكه. رأيت ذلك بنفسي وعانيته من خلال التجربة. صدقوني: كلما كان الإنسان الروسيّ فقيراً وصغيراً كلما رأينا فيه الحقيقة الرائعة. لأنّ الذين اغتنوا قد أصبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم منذ الآن، وهذا أمر نُسأل عنه نحن أنفسنا بسبب إهمالنا وضعف نشاطنا. ولكن الله سينقذ شعبه، لأن روسيا عظيمة بتواضعها. إنني أحلم بمستقبلنا فيبدو لي أحياناً أنني أراه: سيأتي يوم يشعر فيه أفسد أغنيائنا بالخجل من ثرواته أمام الفقير، وسيبرهن الفقير يومذاك، بعد أن يرى ندم الغنيّ ومذلّته، على حسن الفهم هو أيضاً، فيترك له خيراته فرحاً مستجيباً بالحب لهذا الخجل. صدّقوني إن هذا ما سيكون: لأن هذا ما يقودنا إليه التطور. لن تكون ثمة مساواة إلا في الشعور بكرامة الإنسان الروحية، وهذا لا نراه إلا في بلادنا. سوف تسود الأخوَّة متى أصبح البشر إخوة، لأنه لا أخوّة من دون قسمة عادلة. فلنحتفظ بصورة المسيح حتى تسطع على العالم بأسره درةً تشع ضياء... آمين، آمين.

يا آبائي ومعلميّ، عانيت ذات يوم تجربة مؤثرة. عندما كنت أجوب البلاد، التقيت في مدينة كه، خادمي الجندي أفاناسي الذي لم أكن قد رأيته بعد أن طردته منذ ثماني سنوات.. رآني صدفةً في السوق فعرفني فهرع إليّ وقد كان مسروراً. أهذا أنت يا سيدي، هذا أنت؟ هل يمكن حقاً أن تكون أنت؟ واصطحبني إلى منزله. كان يعيش مع زوجته من تجارة صغيرة على بسطةٍ في السوق. إن مسكنه ضيق فقير ولكنه نظيف وملؤه الفرح. فلما أجلسني، حضَّر السماور واستدعى زوجته كأن زيارتي عيد له، وقدَّم إليّ ولديه قائلاً: «باركهما يا أبتي». فأجبته: «أأنا من يباركهما؟ أنا راهب متواضع وبسيط. سأصلّي إلى الله من أجلهما، ومن أجلك أنت يا أفاناسي بافلوفتش، فإني ما توقفت عن الصلاة لك، منذ ذلك الحادث الذي وقع بيننا، لأن كل شيء قد بدأ يومذاك». وشرحت له ما هو الإنسان: لم يستطع أن يصدق أن سيّده القديم، الضابط، موجود الآن أمامه في مثل هذه الحالة وفي

هذا الثوب. فأخذ يبكي. فسألته: «لماذا تبكي يا من لم أنسه أبداً؟ الأفضل أن تفرح لأن الطريق الذي اخترته لنفسي طريق جميل ومضيء».

لم يتكلم بل تنهَّد وهزّ رأسه وهو ينظر إليَّ بعطف. وسألني: «أين هي ثروتك؟» فأجبته: «وهبتها للدير الذي نعيش فيه حياة مشتركة».

بعد أن شربنا الشاي، أردت الانصراف، فإذا به يعطيني نصف روبل هبة للدير ويدسّ في يدي خلسةً نصف روبل آخر، ويقول لي: «هذا لك أنت، لأنك تجوب البلاد فقد ينفعك في الطريق، يا أبتي».

قبلت نصف الروبل وحييته هو وزوجته وانصرفت فرحاً، أحدّث نفسي وأنا في الطريق: «إنه مثلي، بدون شك، في هذه اللحظة، يتنهد تارة ويبتسم تارة أخرى، هازاً رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا مجدداً». ولم أره منذ ذلك اليوم. كنت سيّده وكان خادمي، ولكننا عندما تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان روحيّ أعدنا إقامة اتحاد إنسانيّ كبير فيما بيننا: «لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة عينها في يوم ما متى آن الأوان؟» أعتقد أن هذا الاتحاد سوف يتمّ وأن تحقيقه لقريب.

وإني أضيف ما يلي في موضوع الخدم: كنت في السابق، وأنا شاب، أغضب على الخدم: «سكبت الطباخة الحساء ساخناً، لم ينظف الخادم ثيابي». وقد تأثرت فجأة من فكرة أخي الحبيب، التي سمعتها في طفولتي: «هل أستحق بأن يخدمني إنسان؟ وهل يحق لي أن أعتبره أدنى مني لأنه فقير وجاهل؟». وقد أدهشني ألا تعرض الأفكار البسيطة جداً والواضحة لعقولنا إلا ببطء. إن الحياة، مستحيلة من دون سادة وخدم. وأقلّ ما علينا هو أن نشعر خدمنا بأن خدمتهم إيانا لا تنقص حرّيتهم. لماذا لا أخدم خادمي؟ ولماذا أتكبر عليه؟ لماذا لا يستطيع خادمي أن يكون قريباً لي، ولا أستقبله في عائلتي وأن أكون سعيداً بذلك؟ يمكن اتخاذ هذا الموقف منذ الآن، ويمكن أن يكون قاعدة للاتحاد العظيم الذي سوف يتحقق بين الناس في المستقبل، يوم يشعر الإنسان أنه ليس في حاجة إلى خدم ويحاول أن لا يصبح أقرانه البشر خدماً كما يفعل اليوم، بل بالعكس، يجهد بكل قواه إلى أن يكون خادماً لجميع الناس وفقاً للإنجيل. إنه ليس حلماً أن نرى الإنسان أخيراً ينشد لذته في السموّ وممارسة المحبة وليس في الملذات المتوحشة كما هي الحالة اليوم - في النهم والفجور وحبّ الظهور والتكبر وفي ذلك الظمأ الحاسد إلى الارتفاع فوق الآخر؟ وأنَّ هذا الزمن أصبح وشيكاً. يسخرون ويسألون: «متى يأتي إذن هذا الزمن، وهل ثمة شيء يحمل على الاعتقاد بأنه سوف يأتي؟». إنني أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم مع المسيح. ما أكثر الأفكار التي بدت في تاريخ الناس مستحيلة التحقيق، والتي اعتُبرت قبل عشر سنوات أفكاراً حمقاء، ثم انتصرت، فجأة، على الأرض كلها؟ لأنّ ساعة تحقُّقها قد دقّت وكانت خافية! ذلك ما سيحصل في بلادنا، وسيشرق نور شعبنا على العالم كله، وسيهتف جميع البشر قائلين: «إن الحجر الذي رماه البناؤون قد أصبح حجر الزاوية». أما الذين يسخرون، فإننا نستطيع أن نسألهم: «إذا كانت جميع أشواقنا حلماً فهل قلتم لنا متى تشيدون بناءكم وتنظمون أنفسكم على العدل بواسطة فكركم وحده وبدون المسيح؟» قد يؤكدون أنهم هم الذين سوف يقيمون الوحدة، ولكن السذَّج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام حتى ليمكن أن يُدهش المرء من سذاجتهم. في الحقيقة، إن تصوُّر حلمهم هو أقوى من تصوّرنا. هم يفكرون في إقامة العدل، لكنهم، وقد رفضوا المسيح، سوف ينتهي الأمر بهم إلى إغراق العالم في الدم، لأنّ الدم يستدعي الدم، ومن شهر السيف بالسيف يُهلك. إذا لم نؤمن بوعد المسيح سيبيد البشر بعضهم بعضاً إلى آخر إنسان ولا يبقى إلا اثنان على الأرض. وحتى هذان الاثنان الأخيران سيكونان عاجزين من غطرستهما عن ضبط نفسيهما، فإذا بالأخير يقتل قبل الأخير،

ثم يقتل نفسه. ذلك ما سيحدث بدون وعد المسيح بوقف المذبحة باسم بالمتواضعين والأنقياء. عندما كنت ضابطاً، وبعد المبارزة، تحدثت في المجتمع كثيراً عن الخدم، فكانوا يُدهشون من كلامي كما أذكر: «ماذا يتوجب علينا أن نفعل؟ أن ندعو الخدم إلى الجلوس على أريكة، ونقدم إليهم الشاي؟» وقد أجبت: «ولمَ لا، ولو من حين إلى آخر».

سخر الجميع مني. كان سؤالهم يدل على الخفّة. ولم يكن جوابي واضحاً جداً، ولكنني أعتقد أنه كان على جانب كبير من الحقيقة.

ز - عن الصلاة والحب

والاتصال بالعوالم الأخرى

أيها الشاب، لا تنسَ صلواتك. في كل مرة، في صلاتك، شرط أن تكون صادقة، سينبثق شعور جديد يحمل معه فكرة جديدة لم تكن تعرفها وستمنحك القوة مجدداً. عندئذ، ستدرك أن الصلاة مدرسة. تذكّر أيضاً: أن تردد في نفسك، كل يوم، وكلما استطعت: «أشفق يا رب على كل الذين يَمْثُلون أمامك». فالألوف من البشر يغادرون الأرض في كل ساعة، في كل لحظة، وتمْثُل أرواحهم أمام الرب. وما أكثر الذين قضوا منهم نحبهم في العزلة، دون معرفة أحد، في الحزن وفي القلق، ودون أن يكون هناك من يأسف على رحيلهم، ولا يعلم غداً حتى أنهم قد عاشوا أم لا؛ فإذا بصلاتك تصعد فجأة إلى الرب من الطرف الأقصى من العالم تدعو لراحتهم رغم أنك لم تعرفهم أبداً ولا هم يعرفونك أيضاً. سوف تتأثر هذه الروح بقوة عندما تمثل، في الخوف، أمام الرب. سوف تعرف أن أحداً يصلّي من أجلها وأنّ على الأرض إنساناً واحداً، على الأقل، يحبّها. سوف ينظر الرب إليك بمزيد من الرأفة لأنك قد أشفقت عليها، وسيكون الرب أكثر رحمة بها لأنّ حبّه أكبر من حبك وأكثر رحمة وأكثر حباً منك. سيغفر لها حباً بك.

يا إخوتي، لا تخافوا من خطيئة البشر، أحبّوا الإنسان حتى في خطيئته، فبذلك تعرفون الحب الإلهي ومجد الحب على الأرض. أحبّوا كل خلق الله، وكل ذرة في الرمل. أحبّوا كل ورقة شجرة وكل شعاع ضوء من الله! أحبّوا الحيوانات، أحبّوا النباتات، أحبّوا كل شيء. سوف تحبون كل شيء وستشعرون بسرّ الله في الأشياء، ثم ما تنفكّون تكبرون في كل يوم، فيملأ حبّكم العالم بأسره ويصبح كاملاً وشاملاً. أحبّوا البهائم: لأنّ الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع في قلبها فرحاً بريئاً. لا تعكروا هناءها، ولا تعذبوها ولا تحرموها من الفرح؛ لا تخالفوا فكرة الله. أيها الإنسان، لا تتعالَ على الحيوانات: إنها بدون خطيئة، أما أنت فإنك مع عظمتك تدنّس الأرض بوجودك وتترك أثراً نجساً حيث تمرّ - ذلك شأننا جميعاً، مع الأسف! أحبّوا الأطفال بصورة خاصة لأنهم بدون خطيئة، لأنهم أشبه بالملائكة، إنهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا كقدوة مضيئة إلى جانبنا. ويل لمن يؤذي طفلاً! لقد علّمني الأب أنفيم أن أحبّ الأولاد: كان هذا الراهب المتواضع، اللطيف والصموت، يشتري بالكوبيكات التي توهب لنا أثناء طوافنا، حلوى وسكاكر يوزعها على الأطفال: كان لا يستطيع أن يمرَّ أمام الأولاد دون أن تهتز نفسه. كذلك كان هذا الإنسان.

نتوقف مشدوهين أمام بعض الأفكار لاسيّما حين نرى خطيئة الناس، فنتساءل: «أيجب محاسبتهم أم نتوجّه إليهم بالحب المتواضع»؟ أجب دائماً: «سأردّ بالحب المتواضع». وعند هذا الجواب يمكنك أن تسيطر على العالم بأسره. إن الحبّ المتواضع قوة مرعبة، أقوى من كل القوى. راقب سلوكك، في كل يوم، وفي كل ساعة وفي كل لحظة، واحرص على أن تكون صورتك جميلة. قد تمرّ مثلاً أمام طفل وقد اجتاحك الغضب فتنطلق من لسانك كلمة مسيئة: ربما لم تلاحظ وجود الطفل، ولكن الطفل رآك، والصورة الخبيثة

البخسة التي خلَّفتها له ستبقى في عمق ذهنه البريء. أنت لم يخطر ببالك شيء، ولكنك قد زرعت بذرة الشرّ فيه، وهذه البذرة السيئة ستنمو يوماً فتجلب له الشقاء، لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل، ولأنك توانيت في الحب اليقظ الفعال في نفسك. يا إخوتي، الحب مدرسة تُكتسب بجهد كبير وبعمل دؤوب، ذلك أن المقصود ليس أن تحب موقتاً بل أن تحب حباً مستمراً. إن كل إنسان، حتى المجرم، يمكن أن يحب بالصدفة. كان أخي الشاب يستغفر العصافير: قد يبدو هذا سخيفاً من أول نظرة، ومع ذلك، كان أخي على حق لأن كل شيء أشبه بمحيط تختلط فيه الأمواج وتتمازج - ويترجَّع الصدى إلى الطرف الآخر من العالم. هل من الحماقة أن نستغفر العصافير؟ لو كنتَ أفضل مما أنت عليه الآن لشعر العصفور بمزيد من الطمأنينة، وكذلك الأولاد، وأيّ حيوان، إذا توافرت في قلبك ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة. كل شيء يشبه المحيط، أقول لك؛ فمتى عرفت هذه الحقيقة استغفرتَ العصافير أنت أيضاً. إذا عرفت هذه الحقيقة تملكك حب يملأ قلبك وجداً، فإذا أنت تسأل العصافير أن تغفر لك خطيئتك. فتعهَّد هذا الوجد دون أن تخشى أن تعتبر مجنوناً في نظر الناس.

يا أصدقائي، اسألوا الله أن يعطيكم الفرح. كونوا فرحين كالأطفال، كعصافير السماء. لا تدعوا خطيئة البشر تعكر نشاطكم، ولا أن تصرفكم خطيئة البشر عن جهودكم؛ ولا تخافوا من ضلالاتهم أن تمحو عملكم وتمنعه من الاكتمال. لا تقولوا: «إن الخطيئة قوية، والعار قوي، وقوية البيئة المنحرفة، بينما نحن معزولون لا قوة لنا، وبدون قوة، ستدمرنا القوة المنحرفة قبل أن نتمكن من القيام بعمل صالح». لا تدعوا هذا اليأس يستولي عليكم! ليس هناك إلا خلاص واحد: اعتبر نفسك مسؤولاً عن كل الخطايا. يا صديقي، تلك هي الحقيقة. فمتى اعترفت بأنك مسؤول عن كل شيء تجاه جميع الناس أدركت أن الأمر هو كذلك حقاً، وأن ذنبك ليس وهماً صوَّره لك الخيال. أما إذا ألقيت على عاتق غيرك ما هو في الواقع نتيجة كسلك وعجزك وضعفك، انتهيت إلى السقوط في تكبرّ شيطاني، وأخذت تثرثر على الله. سأقول لك رأيي في هذا التكبّر: من الصعب علينا أن ننفذ إلى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية ونحن لهذا ميّالون بطبيعتنا إلى الوقوع في الخطأ، فإذا نحن نتكبَّر معتقدين أننا ننجز عملاً رائعاً.

إن المعنى الحقيقي لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلبنا، يفوتنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال. فلا تستسلم للتجربة ولا تظن أن الجهل يمكن أن يكون لك مسوِّغاً لأن القاضي الأبدي سيحاسبك عما كان في وسعك أن تعرف لا عمّا يفوق عقلك، وسوف تعرف هذا في حينه، وسوف تكفّ عن المناقشة بحضور الحقيقة التي ستعرفها.

لقد كُتب علينا أن نهيم في الأرض، وبدون صورة المسيح الغالية نصب أعيننا، سنهلك جميعاً كما هلك النوع البشري أثناء الطوفان. ثمة أشياء كثيرة لا نعرفها في هذا العالم، ولكننا، في مقابل ذلك، قد أُوتينا الحسّ السرّي والخفيّ لصلتنا الحية التي تربطنا بعالم آخر أعلى وأسمى. والجذور العميقة لأفكارنا وعواطفنا تمتد في العوالم الأخرى وليس هنا في الأرض. لذلك يعلّم الفلاسفة أن جوهر الأشياء لا يمكن إدراكه في هذه الحياة على الأرض. لقد أخذ الرب بذوراً من العوالم الأخرى فنثرها على الأرض ليزرع حديقته، فنبت كل ما هو ممكن أن ينبت، ولكن الموجودات التي نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية إلا بحسّ الصلة التي تربطها بالعوالم الأخرى السرّية. حتى إذا ضعُف هذا الحس أو زال، مات عندئذ ما يكون قد نبت فيها، فلا تكترث بعد ذلك للحياة أو هي تكره الحياة. هذا هو رأيي.

ح - هل يمكن للمرء أن يكون حكَماً على أقرانه؟

من الإيمان حتى النهاية

تذكّر خاصة أنك لا تستطيع أن تكون حكماً على أحد. لأنه ما من قاضٍ يستطيع أن يحكم على مجرم قبل أن يدرك هذا القاضي بالذات، أنه مجرم يشبه المجرم الماثل أمامه، وأنه ربّما كان هو المسؤول الأول عن الجرم الذي ارتكبه هذا المذنب. وعندما يدرك ذلك يستطيع أن يكون قاضياً. مهما بدا هذا الأمر جنونياً، هذه هي الحقيقة. فلو استطعت أنا أن أكون عادلاً لكان من الجائز أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته. فإذا استطعت أن تلقي على عاتقك جريمة المجرم الماثل أمامك، وأن تجعل حكمك في قلبك، فافعل ذلك بغير تردد واقبل أن تتألم نيابة عنه. دعه ينصرف دون أن توجِّه إليه لوماً. استلهم هذه القاعدة في السلوك ما استطعت ولو جعلك القانون قاضياً له، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه إدانة أقسى من إدانتك إياه. وإذا ظهر لك أنه يبتعد عن رفقك به، وإذا ردَّ عليك بالسخرية فلا تغضب من موقفه. ويدل هذا الموقف على أن وقته لم يحن بعد، وأنه سيأتي في المستقبل. وهبْ أن ساعته لن تأتي أبداً فلا تهتمّ بذلك، لأن شخصاً آخر سيعترف ذات يوم بذنبه وسيتألم منه، وسيدركه، وسيدين نفسه بنفسه، فإذا بالعدالة تتحقق رغم كل شيء. صدِّق ذلك، صدِّقه بدون شك، لأنّ هذا هو الأساس الذي يقوم عليه الأمل وكل إيمان القديسين.

اعمل بدون كلل. فإذا تذكّرت، أثناء الليل، بعد أن رقدت في سريرك لتنام، أنك «لم تنجز ما كان يجب أن تنجزه»، فانهض فوراً وأنجزه. وإذا رأيت نفسك محاطاً بأناسٍ حاقدين ولا يحسّون، ويرفضون أن يسمعوا لك، فارتمِ على ركبتَيك أمامهم واستغفرهم، لأنك، في الحقيقة، أنت الذي تحمل ذنب عنادهم. وإذا لم تستطع أن تخاطب هؤلاء الناس بالحسنى، فاخدمهم بالصمت دون أن تفقد الأمل. وإذا هجرك جميع الناس وطردوك بالقوة فاركع على الأرض عندما تصبح وحيداً وقبِّلها واسقها بدموعك، فتحمل الأرض ثمرة دموعك، ولو لم يرك أو يسمعك أحد في عزلتك. حافظ على إيمانك حتى النهاية ولو كان عليك أن تكون الإنسان الوحيد الذي يحافظ عليه. إذا تنكّر كل الناس لعقيدتهم فاستمر أنت في المضيّ في طريق التضحية واستمرّ في تمجيد الله، أنت المؤمن الأخير، فقد يلقاك مؤمن آخر فتصبحان اثنين، وهذا كافٍ ليعود العالم حياً بالحب: سوف تتعانقان عندئذ وقد امتلأت نفساكما عاطفة، وسوف تسبّحان الرب، فإذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما إلا اثنين.

إذا أنت ارتكبت خطيئة، وشعرت فجأة بالحزن حتى الموت على ارتكابك الخطيئة أو الخطايا، فليبهجك أن تتذكر أن هناك إنساناً صالحاً لم يرتكب إثماً، وقل لنفسك مسروراً سعيداً: لئن وقعت أنا في الشر فإنّ ثمة إنساناً غيري قد بقي بدون خطيئة.

وإذا ملأك خبث الناس استياءً وحزناً عميقاً حتى أصبحت تتمنّى الثأر من الأشرار، ابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسؤول عن خبث هؤلاء الناس. اقبل هذه الآلام وتحمّلها، فيهدأ قلبك، وسوف تعرف أنك آثم فعلاً لأنك كنت تستطيع أن تهدّىء هؤلاء الناس بالقدوة، ولو كان عليك أن تبقى الوحيد الذي يعيش بدون خطيئة ثم لم تفعل. فلو أنك اتبعت طريق النور هذا في حياتك، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك، واستطاع الإنسان الذي تتّهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفاً وطاهراً. قد يحدث مع ذلك، أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذي يأتيهم من نورك، فلا يهتز إيمانك حينذاك، ولا يراودك شك في أن الحقيقة السماوية منتصرة لا محالة. واعلم أن البشر سوف ينقَذون غداً إن لم يكن إنقاذهم اليوم. وإذا لم ينقذوا أثناء حياتهم فسوف يُنقذ أولادهم من بعدهم، لأن نورك لن يزول وسيبقى بعد مغادرتك هذا العالم. قد يزول الإنسان الصالح ولكن نوره يبقى ولا يزول. ثم إن الناس لا يقبلون الخلاص إلا أن يموت الذي أراد أن يخلّصهم. لا يعترف البشر بأنبيائهم بل يقتلونهم، ولكن البشر، في مقابل ذلك، يحبّون شهداءهم ويقدّسون الذين استشهدوا بأيديهم. ففي المستقبل، وفي البشرية كلها إنما يجب أن تفكّر حين تبذل من جهودك ولا تنتظر ثواباً على الخير الذي تفعل، لأن نصيبك في هذا العالم كبير:

سوف تعرف نفسُك الفرحَ الحقيقي الذي لا يُعطى إلا للصالحين. لا تخفْ من الأقوياء والعظماء. كن حكيماً كريماً على نفسك في كل مناسبة، والتزم القصد والاعتدال. اعلم أن ثمة آجالاً تفرض نفسها على تشوقنا إلى العمل وتقيّد بها. قم بالصلاة في العزلة. تعلَّم كيف تقبِّل الأرض. قبِّل الأرض بدون كلل. وأحبَّها حباً دائماً. أنشر حبك على كل ما هو موجود. اندفع في الحب واسعَ إلى حماسة القلب. اسقِ الأرض بدموع فرحك، وأحبّ هذه الدموع التي تذرفها. لا تخجل من وجدك. قدِّر هذا الوجد لأنه هبة من الله، هبة عظيمة لا تُعطى إلى عدد كبير بل إلى المختارين.

ط - عن الجحيم ونار الجحيم

تأمل صوفيّ

يا آبائي ومعلميّ، أتساءل: «ما هو الجحيم». وإليكم ما أقول لنفسي: «إنها العذاب من أن يصبح المرء لا يستطيع أن يحب». في الوجود اللانهائي، الذي لا يمكن قياسه في المكان ولا الزمان، مُنح كائن روحي بظهوره على الأرض إمكانية أن يقول لنفسه: «أنا موجود وأنا أحبّ». مرة واحدة، مرة واحدة فقط مُنح هذا الكائن لحظة حب نشيط، حي، ولهذه الغاية وُهبت له الحياة على الأرض ومعها الزمان والآجال. رفض هذا الكائن هذه النعمة التي لا تقدر بثمن، ولم يقدّرها حق قدرها، بل استخفّ بها وآثر أن يبقى بدون إحساس. وهذا الكائن رأى ابراهيم بعد أن غادر الأرض، ويتحدث معه، كما ورد في قصة الرجل الغنيّ ولازار. يتأمل الجنّة ويمكنه أن يسمو نحو الرب؛ لكن عذابه يكمن في أنه سيمثُل أمام الرب دون أن يحبَّ، فمن احتقر الحب سيلتقي الذين سيحبون. فهو، الآن، يراهم بوضوح فيقول لنفسه: «أنا الآن أعلم، ورغم أنني متعطش إلى الحب، فلن يكون لحبّي قيمة روحية ولا تضحية، لأنّ حياتي الأرضية تكون قد انتهت، ولن يأتي إبراهيم فيهدّىء بقطرة من ماء الحياة (أي بإعطائي حياة أرضية جديدة فعالة شبيهة بالسابقة) ظمأى إلى الحب الروحي الذي يحرقني الآن بعد أن احتقرته على الأرض: لن تكون بعد اليوم حياة، لن يكون بعد اليوم زمن! سأكون سعيداً بأن أبذل حياتي في سبيل الآخرين، ولكن فات الأوان، لأن الحياة التي كان ممكناً أن أضحّي بها قد انقضت إلى غير رجعة، والهوَّة الآن تفصل بيني وبينها إلى الأبد». يتكلم الناس عن نار الجحيم المادية: أنا لا أريد أن أبحث في هذا السرّ ولكنني أقول لو أن هذه النار المادية موجودة لابتهج بها المعذبون لأن الألم الجسدي يتيح لهم أن ينسوا، ولو لحظةً قصيرة، العذاب الروحي الرهيب. ثم إن تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل، لأنه عذاب داخليّ فيهم وليس خارجياً. وافترض أننا استطعنا أن نجردهم من هذا العذاب، فسوف يزداد شقاؤهم، كما أتصوَّر. وإذا غفر لهم العادلون في السماء حين تأملوا آلامهم، ونادوهم بحبّ لا نهائي، فسيضاعفون بذلك آلامهم لأنهم سوف يوقظون فيهم مزيداً من العطش الحار إلى الحبّ المتبادل الفعال النبيل، وهذا الآن مستحيل؛ إنني أتخيل في خشوع قلبي أن إحساسهم بهذا العجز سيخفف عنهم، في نهاية المطاف؛ وإليكم كيف يكون ذلك: عندما يقبلون حبّ الصالحين دون أن يكونوا قادرين على أن يردُّوه بمثله، سيجدون في التسليم بهذا التفاوت بينهم، وفي الوضع الذي سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم، سيجدون في ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذي احتقروه على الأرض، وسيصبحون قادرين، عندئذ، على فعل يذكِّر بفعل النفس المحبَّة... يؤسفني، يا إخوتي وأصدقائي، أن لا أستطيع التعبير عن ذلك بوضوح أكثر. ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم، وويل للمنتحرين! أعتقد أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاءً! يقال لنا إنه خطيئة أن نصلّي لله لمن قتل نفسه بإرادته، وواضح أن الكنيسة تطرد الذي قتل نفسه بإرادته. لكنني أشعر مع ذلك، في أعماق نفسي، أنه يجوز أن نصلّي لهم، لأنّ المسيح لن يسوءه إفراط في الحب. لقد صلّيت طوال حياتي لهؤلاء الناس، أعترف لكم بهذا

الآن، يا آبائي ومعلميّ، وما زلت أصلّي لهم كل يوم.

لا شك أن في الجحيم أيضاً أناساً أصرُّوا على كبريائهم وشراستهم، واستمروا لا يتأثرون بالعدالة رغم أنهم يعرفونها ويرونها بوضوح. إن بينهم أناساً رهيبين قد اتحدوا كلياً بالشيطان، وانضموا إلى عصيانه. إنهم يقبلون الجحيم بفرح. أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا. هم لعنوا أنفسهم بأنفسهم إذ لعنوا الله والحياة. إنهم يقتاتون بحقدهم المتكبر مثل جائع يمتصّ دمه من عروق جسده. لكن الذين لن يكتفوا لن يشفى غليلهم أبداً، يرفضون حتى المغفرة، يلعنون الله الذي يناديهم. لا يستطيعون أن ينظروا إليه إلا بعين حقد، ويصرّون على عدم وجود الله الحي القيُّوم وعلى أنه هو الذي يجب أن يغنى مع كل خلقه. وسوف يظلون يحترقون إلى الأبد بنار حقدهم طالبين الموت والعدم. ولكن لن يحصلوا أبداً على الموت...

هنا تنتهي مخطوطة ألكسي فيودوروفتش كارامازوف. وأكرر: هي عمل غير مكتمل، ومجتزأ. فالمعلومات التي تتصل بحياة الناسك مثلاً، لا تتناول إلا المرحلة الأولى من شبابه. فتعاليمه وآراؤه التي أطلقها في عهود مختلفة ومناسبات عدة، قد تمَّ جمعها هنا، وصُهرت، في عمل واحد. والأقوال التي نطق بها، في ساعاته الأخيرة من حياته لم تحدد بدقة ولم يعرض منها سوى فكرة عن طابع وروح ذلك الحديث خاصة إذا ما قورنت بالمخطوطة التي عرضها ألكسي فيودوروفتش عن تعاليم مرشده السابقة. وقد وافت المنيّة الناسك الراهب على نحوٍ لم يكن في الحسبان حقاً. لأن جميع الذين تحلَّقوا حوله، في ذلك المساء، أدركوا أن وفاته وشيكة، ولم يتنبأ أحد منهم بأنها ستوافيه على هذا الشكل المفاجىء. وبالعكس، فإن أصدقاءه اعتقدوا، كما سبق وذكرت، حين رأوا ما رأوه من شجاعته وحبّه للكلام، طوال تلك الليلة، أن صحته ستتحسَّن بشكل ملحوظ وإن يكن موقتاً. ولا شيء كان يسمح لأحد، إلى ما قبل وفاته بخمس دقائق، كما رويَ هذا بدهشةٍ فيما بعد، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة. ولكن بدا عليه فجأة أنه يشعر بألم شديد في صدره، واصفرّ وجهه، وشدَّ يديه بقوة على قلبه. نهض جميع الحاضرين وأسرعوا إليه، واستمرّ هو رغم الألم ينظر إليهم مبتسماً. وترك نفسه ينزلق برفقٍ عن كرسيّه، ثم ركع، وسجد جاعلاً وجهه على الأرض، وبسط ذراعيه وكأنه في حالة وجد وفرح، وقبَّل الأرض، ولفظ روحه (كما أورد هو نفسه في تعاليمه) معيداً بفرح وعذوبة روحه إلى الله. انتشر نبأ وفاته فوراً في المنسك ووصل إلى الدير. وقام أقرباؤه والأشخاص المختصون بغسل جثته حسب الطقوس القديمة، ثم اجتمع كل أعضاء الرهبنة في الكنيسة. وقد عُرف موت الراهب الناسك في المدينة قبل طلوع الفجر. وانتشر نبأ موته، في كل مكان، منذ الساعات الأولى من الصباح، وتدفَّق إلى الدير جمع غفير من المواطنين. سنعود إلى الكلام على هذا الموضوع في الكتاب التالي، وحسبنا أن نكتفي الآن بأن نضيف مسبقاً أنه وقع، قبل مرور نهار على موت الناسك، حادث لم يكن يتوقعه أحد، ونظراً إلى الأثر الذي تركه في الدير، بدا من الغرابة والقلق والضياع بحيث أنه لا تزال ذكراه حية في مدينتنا حتى الآن، بعد كل هذه السنين، ذلك اليوم المضطرب...

القسم الثالث

الكتاب السابع

إيليوشا

I

رائحة التحلُّل

تمَّ تحضير جثمان الأب زوسّيما، الراهب الذي لا يحق له الخروج من الدير، للتكفين وفقاً للطقس المتبع. وكما تعلمون، لا يُغسل رفات الرهبان والنساك الموتى؛ «عندما يمثل الراهب أمام الرب (كما جاء في كتاب الطقوس)، فعلى الراهب المكلَّف أن يمسح جسمه بماء فاتر بعد أن يرسم إشارة الصليب بإسفنجة على جبين المتوفَّى وصدره ويديه وقدميه وركبتيه، لا أكثر». لقد قام الأب بايسي بنفسه بتنفيذ كل ذلك على المتوفى. فلما انتهى من كل ذلك ألبسه ثوب الرهبنة وكفَّنه جبّة بعد أن شقَّها قليلاً، كما هي العادة. ثم وضع على رأسه طاقية الرهبنة التي ينتمي إليها المتوفى، وهي صليب ذو فروع ثمانية. ترك الطاقية مفتوحة عن الوجه، مغطياً وجه المتوفَّى ببرقع أسود؛ ووضع إيقونة المخلّص بين يديّ المتوفَّى. وسُجّي عند الصباح، في تابوته (تابوت محضَّر منذ مدة طويلة). أما التابوت، فقد كان ثمة نية أن يُترك، طوال النهار، في الغرفة (الغرفة الكبيرة نفسها التي اعتاد الراهب المرشد المتوفَّى أن يستقبل فيها الرهبان والزائرين العلمانيين). وبما أن المتوفَّى كان ناسكاً، فقد كان على رهبان السلك وعلى الشمامسة أن يقرأوا قرب سريره الإنجيل لا المزامير. فشرع الأب يوسّيف في القراءة فوراً بعد جنازة الموتى. أما الأب بايسي الذي حلَّ محلّه، بإصرار منه، خلال كل النهار وكل الليل، فقد انشغل جداً (مثلما كان الأب رئيس المنسك)، بالاضطراب الشديد، المشوب بنوع من انتظار محموم، الذي سيطر على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التي هرعت من المدينة ومن الفنادق المجاورة للدير، والذي كان يزداد قوة وبروزاً، ما اضطره مع الأب الرئيس إلى بذل كل جهودهما لكي يهدّئا الناس المهتاجين ما أمكنهما. وعندما طلع النهار، بدأ يفد من المدينة أناس يصطحبون ذويهم المرضى، وبصورة خاصة الأطفال، آملين أن يشهدوا في تلك اللحظة ظهور معجزة الشفاء التي لا بدَّ، في اعتقادهم، من أن تصدر عن جثمانه. فبرز، في تلك اللحظة مدى تعدُّد الناس على اعتبار الراهب المرشد، حتى أثناء حياته، قديساً صادقاً. ولم يكن جميع المؤمنين القادمين من المدينة ينتمون إلى الأوساط الشعبية. وتبين للأب بايسي أن توقّع المؤمنين الذي يتجلى بهذا القدْر الالحاح فيه ونفاد الصبر وكأنه طلب ملحّ، شيء من التجربة؛ رغم أنه قد تنبأ منذ زمن طويل. لكن القوة التي تجلى بها الآن قد تخطت كل تصوراته. فتوجه إلى الرهبان المتدافعين قائلاً: «إن انتظار معجزة كبيرة مباشرة هي عواطف طائشة تصدر عن علمانيين ولا تليق بنا نحن». إلا أنه لاحظ بقلق أنهم لا يصغون إليه. ومع هذا، كان الأب بايسي هو نفسه (تلك حقيقة يجب الاعتراف بها إذا توخينا الصدق)، رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هذه كان هو نفسه يشعر في قرارة نفسه، بهذا الانتظار عينه ولا بدّ أن يكون قد اعترف بذلك في قرارة نفسه. لكن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته جداً لأن حضورهم قد أيقظ في نفسه ريبة عميقة لم تنشأ، إلّا من إحساس غامض؛ فشعر بنفور داخلي شديد، سرعان ما لام نفسه عليه، عندما رأى بين الجمهور المحتشد في غرفة الراهب المرشد، راكيتين وراهب أوبدورسك الذي طالت إقامته في الدير. وكان هذان الرجلان مشتبهاً فيهما في نظر الأب بايسي، رغم أن ثمة أشخاصاً آخرين كانوا يشبهونهم أيضاً. وكان راهب أوبدورسك يتميز بكثرة ذهابه وإيابه. كان يُرى في كل مكان يستطلع سائلاً أو مصغياً أو متمتماً بشكل سرّي. وكان وجهه يعبّر عن نفاد صبره ويكاد أن يتحول أحياناً إلى اهتياج

وغضب، لأنّ الحادث الذي يتوقّع الناس في كثيرمن الحماسة والاندفاع أن يحدث قد تأخّر. وقد عُلم فيما بعد، أن راكيتين إن جاء إلى المنسك في ساعة مبكرة فلأنّ السيدة خوخلاكوفا هي التي طلبت منه ذلك صراحة. وقد أحسّت هذه المرأة اللطيفة التي تفتقد إلى قوة الطبع، بفضول قوي حين وصلها النبأ عند استيقاظها من النوم، وبلغت من الفضول أنها لمعرفتها بأن مجيئها إلى المنسك لن يكون مقبولاً قد أسرعت ترسل راكيتين موصية إياه بأن يراقب كل شيء ويعلمها به فوراً في تقارير خطية يرسلها إليها كل نصف ساعة «بكل ما يحدث». وكانت تعتبر راكيتين شاباً شديد التّقى راسخ الإيمان - إلى هذا الحدّ كان راكيتين بارعاً في الخطوة؛ برضى الناس حاذقاً في اتخاذ المظاهر التي تنسجم مع رغباتهم متى وجد في ذلك مصلحة له. وكان النهار مضيئاً ومشعاً، وازدحم الحجاج الذين وصلوا إلى الدير حول مقابر المنسك، ولكن بعضاً منهم قد تفرقوا في جوار الدير. وعندما جال الأب بايسي في المناسك، تذكر فجأة إيليوشا، وتذكّر أنه لم يره منذ زمن طويل، منذ الليلة الماضية تقريباً. فما إن تذكّره حتى لمحه في زاوية بعيدة عن المنسك، قرب السياج، يجلس على حجر قبر راهب مات منذ مدة طويلة وعُرف أثناء حياته بتأمله الروحي. كان يدير ظهره للمنسك وكأنه يختبىء وراء المقبرة. وعندما اقترب الأب بايسي، رآه قد وضع وجهه بين يديه وراح يبكي بكاءً مراً وإن يكن صامتاً. بقي الأب بايسي واقفاً قربه بضع لحظات:

- هدّىء روعك يا صغيري. ما بك؟ قال له متأثراً. افرح بدل أن تبكي. فإن هذا اليوم هو أعظم من كل أيامه؟ أين هو في هذه اللحظة!

رفع إيليوشا عينيه باتجاهه، كان وجهه محتقناً بالدموع مثل طفل، ثم دون أن يتفوّه بكلمة، استدار وأخفى وجهه بين راحتَي يديه مجدداً.

- ربما تكون على حق مع ذلك. قال الأب بايسي مفكراً. إبكِ إذا شئت لأن المسيح هو الذي يرسل إليك هذه الدموع. فدموعك المؤثرة ليست سوى تهدئة روحية ستحيي البهجة قوية في قلبك. أضاف هذه المرة كأنه يخاطب نفسه.

وابتعد عن إيليوشا وهو ينظر إليه بحب. ثم انصرف بسرعة لأنه أحس أنه يوشك هو نفسه أن يغرق في دموعه وهو ينظر إليه. مرَّ الوقت. وقداديس الموتى في الدير تتعاقب وفقاً لنظام الرهبنة. وأخذ الأب بايسي محلَّ الأب يوسّيف قرب التابوت، وبدأ بقراءة الإنجيل. وفي تمام الساعة الثالثة بعد الظهر وقع الحادث الذي أشرت إليه في خاتمة الكتاب السابق. وجاء هذا الحادث مخالفاً لتوقعات الناس وآمالهم، ما أدى إلى أن تبقى ذكراه وذكرى التفاصيل التافهة التي رافقته حية في مدينتنا وفي المنطقة المجاورة إلى أيامنا هذه. وأودّ أن أضيف هنا، في هذه المرة، ملاحظة خاصة بي: يشقّ عليّ أن أتذكر هذا الحادث المقلق الذي لا بدّ أن يحرك النفوس رغم أنه في الواقع أمر طبيعي ويمكن فهمه جيداً. كان في وسعي أن أسكت عنه حتماً لولا أنه قد أحدث تأثيراً قوياً جداً - في اتجاه محدد بوضوح - في قلب البطل الرئيسي وفي نفسه - وإن يكن البطل المقبل - الذي تدور عليه أحداث هذه الرواية، أعني به إيليوشا الذي أحدث في نفسه اضطراباً رهيباً لأن عقله الذي أوشك أن يهزه الحادث، قد خرج من الأزمة منتصراً متجهاً نحو الهدف المنشود.

إذن، إلى الوقائع: كُفِّن جثمان الراهب المرشد ووُضع في تابوت قبيل الفجر، ثم سجي في الغرفة الأولى وهي غرفة الاستقبال، سأل أحد الأشخاص الحاضرين: أليس من الأفضل فتح نوافذ الغرفة؟ بقي هذا السؤال العابر بدون جواب ولم يكد يلاحظه أحد. والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تحلّل من جثمانٍ ميت هي سخيفة ولا تستحق، أكثر من هزة كتف (أو ابتسامة ساخرة) تجاه قلة إيمان من يمكن أن تخطر له مثل هذه الفكرة، لأن ما كان يُنتظر هو نقيض هذا تماماً. ولكن الذي حدث هو أن الذين دخلوا الغرفة أخذوا يلاحظون أشياء كتموها، في بادىء الأمر، عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم خشية

أن ينقلوا إلى الآخرين شعوراً لا يكادون يصدقونه؛ بيد أن الظاهرة التي أُدركت، بشكل غامض، في البداية، قد تأكدت في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبح يستحيل الشك فيها. فإذا الخبر ينتشر في المنسك على الفور بين الحجاج والزائرين، ويصل إلى الدير فوراً، فيعتري الرهبان دهشة كبيرة تصل إلى المدينة وتحدث اضطراباً في الناس المؤمنين منهم وغير المؤمنين. ابتهج الملحدون. وأما المؤمنون، فمنهم من كان فرحه أشدَّ من فرح غير المؤمنين، لأن الناس «يودون أن يروا سقوط الرجل الصالح وتلطُّخه بالعار»، كما قال الراهب المرشد المتوفَّى في أحد أحاديثه. وما حدث هو رائحة تحلُّل صدرت عن التابوت، شيئاً فشيئاً في أول الأمر، ثم اشتدت أكثر فأكثر. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أصبحت واضحة ثم اشتدت بعد ذلك. عبثاً حاولوا أن يجدوا في تاريخ ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذي استولى حتى على الرهبان منذ أن عُرف الحادث. وبعد سنين عديدة ظلَّ حتى بعض رهباننا المتنورين يشعرون بدهشة رهيبة حين يتذكرون أقل التفاصيل. وغالباً ما حدث في الماضي أن رهباناً عُرفوا باستقامة الحياة وطهارتها، أنّ رجالاً يحترمهم جميع الناس ويخافون الله، قد ماتوا أتقياء ثم لوحظت مع ذلك حول نعوشهم المتواضعة بعض الافرازات ورائحة التحلّل كما يحدث لجميع الموتى لأيّ جثة. ولكن الحدث لم يصدم أحداً بل ولم يدهش أحداً. صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا أيضاً بذكرى رهبان متوفَّين منذ زمن بعيد، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أيّ علامة من علامات التحلل، ما أحدث أثراً بالغاً في نفوس الرهبان فكانوا يتحدثون عنه معجبين، ويحرصون على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التي تشهد بالقداسة. وكانوا يقدّرون أن مجداً عظيماً سوف يتحقق في المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين في الساعة التي يشاء فيها الله ذلك. ومن بينهم كان شأن القديس أيوب مثلاً الذي عاش مئة وخمس سنوات، وكان ناسكاً شهيراً عُرف بالصمت والصيام. وقد مات منذ زمن بعيد، في السنين الأولى من هذا القرن وأصبح قبره الآن مكان تعظيم خاص وغير عاديّ. فسكان الدير يقودون الحجاج إلى زيارته مشيرين بكلام يحمل معاني السرّ والإعجاب إلى الآمال الكبيرة المعقودة على قبره - على ذلك القبر، وجد الأب بابيسي في الصباح إيليوشا -. وعدا ذلك الراهب الذي مات منذ سنين عديدة، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد، وترك في الدير ذكرى مثل هذه الذكرى. إنه العجوز الكبير فارسونوف الذي خلفه الراهب زوسّيما، والذي كان يعتبره الحجاج إلى الدير كساذج من القرية. وتقول الرواية عن كل من هذين الراهبين إن الناظر إليهما في تابوتهما لا يشعر إلّا بأنّهما نائمان، وقد دُفنا دون أن يفسد جثمانهما، بل وإن نوراً كان يشع من وجهيهما، وتفوح من جثتهما رائحة عطرة. ومع ذلك، رغم هذه الذكريات المؤثرة فمن الصعب على المرء أن يعرف السبب الذي دفع الرهبان، في ذلك اليوم، إلى أن يقفوا بهذه الخفَّة والسخف والحماقة إزاء تابوت الراهب المرشد زوسّيما. أما أنا شخصياً فأعتقد أن الأسباب كثيرة ولكنها تعمل في اتجاه واحد. ومن المفيد أن نذكر، من بين هذه الأسباب، المعاداة الشديدة لمؤسسة الرهبان النسَّاك التي كانت تُعدّ بدعة مشؤومة مخفية في الدير، ترسخت عميقة في نفوس عدد كبير من النساك. وهناك سبب آخر هو الحسد الذي كان يثيره رسوخ قداسة المتوفَّى التي كان ممنوعاً الشك فيها. فلئن أيقظ الراهب المرشد المتوفَّى تعلقاً عميقاً به، عرف كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقّة روحه لا بمعجزاته، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له فقد خلق من حوله، رغم ذلك، حسَّاداً كثيرين أصبحوا أعداء ألدّاء، يخفي بعضهم هذه العداوة وبعضهم يعلنها. كان له أعداء كثيرون من العلمانيين أكثر مما بين رهبان الدير. فهو لم يسئ يوماً إلى أحد، وكان الناس يتساءلون: «لماذا يُعتبر قديساً؟». وكان هذا السؤال كافياً بتردده المستمر كي يخلق من حوله ضغينة كبرى. ذلك، في رأيي، هو السبب الذي جعل عدداً كبيراً من الناس يبتهجون عندما عرفوا أن جسمه يصدر رائحة تفسُّخ، وأن هذه الرائحة قد بدأت تصدر بسرعة عن الجسم - لأنه لم ينقضِ على موته يوم واحد - أما الرهبان المخلصون للراهب المرشد الذين ظلوا يحترمونه إلى ذلك الوقت، فقد أحسّوا برائحة التفسخ هذه نوعاً من إساءة نالتهم هم أنفسهم. وقد جرت الأمور على النحو التالي: ما إن

بدأت تظهر أولى إشارات التحلل حتى صار من السهل على المرء أن يعرف من وجوه الرهبان الذين كانوا يدخلون غرفة المتوفَّى ولماذا. كانوا يدخلون فيمكثون بضع لحظات ثم يخرجون ليؤكدوا النبأ للآخرين الذين كانوا يزدحمون خارج الباب؛ فبعض هؤلاء يهزون رؤوسهم بحزن، وبعضهم لا يكلفون أنفسهم حتى عناء إخفاء الفرح الذي يسطع في نظراتهم الحاقدة. ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم، ولم يرتفع صوت واحد مدافعاً، وذلك أمر مثير للدهشة، في الواقع، لأن المخلصين للراهب المرشد كانوا الأكثرية. ولكن يبدو أن الرب قد قرر في هذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار على الأغلبية إلى حين. ولم يلبث أن توافد إلى الغرفة بعض العلمانيين المنتمين إلى الأوساط المثقفة. أما أبناء الشعب فقد ابتعدوا، رغم أن عدداً كبيراً منهم قد تدافع على باب المنسك. ومهما يكن من أمر، فإن سيل الزائرين العلمانيين قد ازداد بشكل هائل بعد الساعة الثالثة بعد الظهر على أثر شيوع النبأ الفاضح. وهناك أشخاص لم يكن يتوقع حضورهم في ذلك اليوم أسرعوا إلى الدير مع ذلك ولا هدف لهم إلّا التحقق من النبأ، ومن بينهم موظفون كبار في الدولة. يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المستطلعين الفضوليين لم يعكّر جوَّ الاحترام صراحة حتى ذلك الوقت، فما زال الأب باييسي يستطيع أن يقرأ في الإنجيل جهراً بلهجة ثابتة ووجه قاسٍ دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئاً، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئاً غير عادي قد حدث. ولكن ها هي الوشوشات بدأت تصل إلى مسمعه. إن أصحابها يبدونها خجولة بادئ الأمر، فيهمسون بها همساً، غير أنها لا تنفك تلحّ، فإذا هو يسمع هذه الملاحظة بوضوح: «يجب الاعتقاد بأن حكم الله لا يؤيد حكم البشر!». إن الذي جازف فقال هذه الكلمات هو رجل علماني متقدم في السنّ، موظف في المدينة، يُعتبر على جانب كبير من التقوى. لكنه كرر جهراً ما كان الرهبان يسرّ به بعضهم إلى بعض همساً منذ مدة طويلة. ولم ينتظر هؤلاء، طويلاً لكي يجاهروا بهذه الفكرة اليائسة، والأنكى من ذلك، كانوا يتناولون هذه الفكرة وقد بدت على وجوههم أمارات النصر في كل لحظة. وسرعان ما زالت مراعاة اللباقة فكأن الجميع أصبحوا يشعرون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً. «كيف أُمكن أن يحدث شيء كهذا؟» كان يقول بعض الرهبان وهم يصطنعون في بادىء الأمر هيئة الأسف، ويسارع آخرون إلى الجواب فيقولون: «كان جسمه جافاً، هزيلاً ومعروقاً، جلداً على عظم، فمن أين يمكن أن تصدر هذه الرائحة» - «إذن، أراد الله أن يبرهن عن شيء ما». وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بدون نقاش لأنه إذا كانت هذه الرائحة ظاهرة طبيعية تحدث دائماً بعد وفاة خاطىء، فإنها لا تحدث، عادةً، إلّا بعد يومٍ على الأقل، وهنا فقد «تخطّت الطبيعة»، إذن هذا ما يريده الله، إنها إشارة من الله. وذلك برهان كان مفحماً. حاول الناسك الأب يوسّيف اللطيف، أمين المكتبة، المحبوب من المتوفَّى، أن يسوق بعض الحجج على تلك الأقوال المسيئة، قال: «لا يؤخذ بهذه الآراء على هذا النحو، وإن ما يقال من أنّ أجساد الصالحين لا تتفسَّخ ليس من صلب الكنيسة الأورثوذكسية بل هو مجرد رأي. ففي البلدان الأورثوذكسية الصافية مثل جبل آثوس لا يعتمدون على التحلل أو عدمه لإثبات مجد القديس إنما على لون العظام بعد أن تثوي الأجساد سنوات طويلة في الأرض وبعد أن تتفسخ في التراب، فإذا أصبحت العظام، مع مرور الزمن، صفراء مثل الشمع كان ذلك دليلاً أساسياً على أن الله قد مجَّد المتوفَّى، أما إذا أصبحت سوداء فذلك يعني أنه لا يستحق ذلك المجد. هذا ما يحصل في جبل آثوس، وهو مكان مقدس حافظت فيه الأورثوذكسية، في كل الأزمان، على نقائها». بذلك ختم الأب يوسّيف كلامه. لكن أقوال الأب المتواضع بقيت دون أيّ تأثير وأثارت ملاحظات ساخرة. فقال بعض الرهبان: «تلك بدع أصحاب العلم والتحديث لا فائدة من الاستماع إليها». وأضاف آخرون: «سوف نبقى كما في الزمن الماضي، والابداعات كثيرة في أيامنا هذه إذا أردنا أن نقلّدها كلها». وقال بعض آخر: «نحن عندنا قديسون أكثر مما عندهم. وهم خاضعون للسيطرة التركية وقد نسوا كل شيء. وفسدت الأورثوذكسية عندهم منذ زمن بعيد، ولا يوجد عندهم حتى الأجراس». وابتعد الأب يوسّيف حزيناً، ولم يعبّر عن رأيه بكثير من الحزم، بل كان متردداً كأنه ليس مقتنعاً به هو نفسه. لكنه أدرك بقلق بأن شيئاً بشعاً قد بدأ يحصل وأن

رفض الخضوع بذاته يرفع الرأس. وبعد كلام الأب يوسّيف، سكتت جميع الأصوات الرزينة. ولم يعرف أحد كيف أن الذين كانوا قد أحبوا الراهب المرشد زوسّيما المتوفّى، وقبلوا بكل طاعة إقامة هذه المؤسسة الرهبانية، ذُعروا فجأة، وأصبحوا لا يجرؤون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى. أما خصوم هذه المؤسسة الذين يصفونه بدعة فقد رفعوا رؤوسهم متباهين بفخر: «عند موت الناسك فارسونوف لم تلاحظ علامات تحلّل فقط بل كانت جثته تفوح منها روائح عطرة. لكنه لم يستحق نعَمه كناسك بل لأنه كان رجلاً صالحاً». وبعد ذلك، انطلقت الألسن تنتقد الراهب العجوز المتوفّى بل وتتّهمه أيضاً: «كانت تعاليمه خاطئة. كان يعلّم أن الحياة فرح عظيم وليس ينبوع دموع». كان يقول بعض الأغبياء. ويقول آخرون بمزيد من الغباء: «كان رجلاً عصرياً، لا يؤمن بنار الجحيم المادية». ويضيف آخرون: «لم يكن يمارس الصوم بشكل دقيق. وكان يسمح لنفسه بأكل الحلوى، ويتناول مع الشاي مربّى الكرز، وهل يليق بناسك أن يشرب شاياً؟». وهؤلاء أسوأ الرهبان قصداً يقولون حانقين: «كان متكبراً، يعتبر نفسه قديساً، وكان الناس يركعون أمامه وهو يرضى هذا كواجب». ويقولون بصوت خفيض حاقد: «كان يمتهن سرّ الاعتراف». إن أكثر هؤلاء الأعداء الألدّاء لنظام الرهبان العجائز، بين الرهبان، أكبرهم سناً وأشدّهم تقشفاً وأكثرهم تقيداً بكفارات الصوم والصمت. لقد لزموا الصمت أثناء حياة الراهب المرشد ولكنهم، الآن، يطلقون لأحقادهم العنان مما يثير كثيراً من القلق لأنّ لآرائهم تأثيراً قوياً في الرهبان الشباب والمترددين. كان زائر أوبدورسك، راهب سان سيلفستر قصير القامة، يستمع بانتباه إلى كل ذلك متنهداً بعمق، خافضاً رأسه، قائلاً لنفسه: «حقاً، إن الأب فيرابونت كان على حق يوم أمس». وفي هذه اللحظة ظهر الأب فيرابونت فجأة كأنما ليزيد من وقع الصدمة.

سبق أن قلت إنه نادراً ما كان يغادر غرفته الصغيرة الخشبية الواقعة وراء قفير النحل وكان باستطاعته ألا يظهر في الكنيسة لفترات طويلة، وكانوا يسمحون له بذلك ولا يلزمونه باتباع القواعد المشتركة. وفي الحقيقة، ما كانوا يعتبرون ذلك ضرورياً لأنه من غير المفيد أن يطلب من ناسك كبير وصائم ملتزم، يصلي ليلاً نهاراً وينام وهو راكع، أن يحترم النظام العام، إذا هو لم يرغب في ذلك. فلو أراد أحد أن يزعجه لقال الرهبان: «إنه أكثر قداسةً من الجميع وهو يفرض على نفسه كفارات أقوى كثيراً مما نلزم به أنفسنا فإذا لم يأتِ إلى الكنيسة فلا شك أن هناك أسباباً تدفعه إلى ذلك. إن له فرائضه الخاصة». لذلك كان يُترك هذا المعتزل العجوز وشأنه تجنباً لاحتجاجات الرهبان وثرثرتهم. وكان جميع الناس يعرفون أن الأب فيرابونت يحقد على الراهب العجوز زوسّيما. ولم تلبث الشائعة التي تقول: «إن حكم الله ليس هو حكم البشر»، دائماً وإنه قد «سبق الطبيعة» في تحلّل الجثة، وسرعان ما وصلت هذه الشائعة إلى غرفته النائية، وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذي زاره عشية البارحة وخرج من عنده مذعوراً كان من أوائل الذين حملوا إليه النبأ. وقد قلت أيضاً إن الأب باييسي الذي استمرّ يتابع قراءة الإنجيل أمام التابوت، ثابت الجنان بغير اضطراب والذي كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه ما يحدث خارج الغرفة، قد عرف مع ذلك في قرارة نفسه، الشيء الأساسي مما كان يجري لأنه يعرف تماماً الروح المسيطرة على محيطه. وما من شيء يجعله يضطرب، فانتظر ما سيحدث دون خوف، متنبئاً بعواقب هذه الحركة بما له من بصيرة نافذة وفكر سديد، إلّا أن ضجة غير عادية آتية من الممرّ، قد لفتت انتباهه فجأة، وهي ضجة لا يخفى غير لائقة إطلاقاً. انفتح الباب على مصراعيه ووقف الأب فيرابونت عند العتبة. كان عدد كبير من الرهبان، بينهم بعض العلمانيين، يسيرون وراءه ولكنهم آثروا أن يتوقفوا في أسفل درجات المدخل وهم يُرون من داخل الغرفة بوضوح. قرروا ألّا يدخلوا الغرفة وفضّلوا أن يشهدوا من بعد ما سيقوله الأب فيرابونت وما سيفعله. ذلك أنهم كانوا يشعرون بأنه لم يأتِ عبثاً وأنهم يشعرون بشيء من الخوف رغم جرأتهم. توقف الأب فيرابونت في العتبة ورفع ذراعيه نحو السماء فظهرت من تحت ذراعه اليمنى العينان الحادتان المستطلعتان، لزائر أوبدورسك الذي لم يستطع مقاومة الإغراء، فاندفع على درجات المدخل وراء الأب فيرابونت ليروي فضوله الجامح، بينما تراجع

الآخرون قليلاً عندما انفتح الباب مقرقعاً. فرفع الأب فيرابونت ذراعيه إلى السماء وراح يصرخ:

- اخرجوا من هنا أيها الشياطين! وأخذ يرسم إشارات الصليب على جدران الغرفة الأربعة، الواحد بعد الآخر، وأمام كل زاوية من زوايا الغرفة الأربع. فعرف الذين تبعوا الأب فيرابونت دلالة هذه الحركة؛ لأنهم كانوا يعرفون أنه يقوم بهذا العمل دائماً في أيّ مكان يذهب إليه ولا يقبل أن يقول كلمة أو أن يجلس قبل أن يطرد الشيطان.

- ابتعد أيها الشيطان! أخرج من هنا يا شيطان! كان يردد كلما رسم إشارة الصليب. أخرجوا من هنا يا شياطين! هكذا كان يصرخ. وكان يرتدي ثوباً خشناً يزنّره حبل وصدره الرمادي الشعر يظهر من شقّ قميصه المصنوع من الخيش. وقدماه فكانتا حافيتين. وعندما يحرِّك ذراعيه يسمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التي تطوق جسمه. توقف الأب بايسي عن القراءة وتقدم خطوة إلى الأمام ووقف أمامه ينتظر:

- لماذا أتيت إلى هنا، أيها الأب المحترم؟ لماذا لا تحترم الطقس؟ لماذا جئت تزرع البلبلة في نفوس الرعيَّة المتواضعة؟ تمتم وهو ينظر إليه بصرامة.

- لماذا جئت؟ تريد أن تعرف لماذا؟ أين إيمانك؟ صاح الأب فيرابونت يمثل دور الساذج. جئت أطرد زائري هذا المكان، الشياطين الملعونة! أنظر كم يصبح عددهم عندما أدير ظهري. سأطردهم جميعاً بسوطي.

- إنك تطرد الشيطان مع أنك كنت تخدمه. قال الأب بايسي بدون وجل. من الذي يستطيع أن يقول عن نفسه «إنه قديس؟» أنت أيها الأب!

- أنا رجل دنس وليس قديساً! لا أجلس على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أجعل الناس تعبدني كصنم. قال الأب فيرابونت مرعداً. إن بين الناس مَن يقتلون الإيمان المقدس. إن المتوفَّى، قديسكم. وأضاف ملتفتاً نحو الرهبان المتجمهرين عند المدخل مشيراً بإصبعه إلى تابوت الراهب المرشد؛ كان لا يؤمن بوجود الشياطين. كان يصف لمن مسَّتهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء. فهل من عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم كما العنكبوت في الزوايا؟ والآن قديسك يتحلل، وتلك في نظرنا إشارة من الرب.

لقد وقعت في حياة الأب زوسّيما حادثة من هذا النوع. قال أحد الرهبان إنه رأى الشيطان في الحلم وراحت هذه الرؤى تحاصره في اليقظة أيضاً. وعندما أصابه خوف عظيم فاتح الراهب المرشد بذلك، فنصحه هذا الأخير بأن يستمر في الصلاة والصيام بشكل متواصل. فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواءً دون أن ينقطع عن الصلاة والصيام. وقد أُصيب عدد كبير من الرهبان بالدهشة وراحوا يتحدثون فيما بينهم مستائين، وبصورة خاصة الأب فيرابونت. فأسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الراهب المرشد من أمر يُعدّ «خارقاً» في حالة من هذا النوع.

- أخرج من هنا أيها الأب! قال الأب بايسي بلهجة صارمة. ليس الإنسان هو الحكَم بل الله. وإن «الإشارة» يمكن أن يكون لها معنى لا يدركه عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أنا ولا أحد هنا أن يجازف فيؤولها. أخرج أيها الأب ولا تزعج الرعية! كرر القول بإلحاح.

- لم يكن يحترم فرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته. ذلك هو معنى «الإشارة»، هذا واضح، ومن الإثم إنكاره. استأنف الراهب المتحمس يقول وقد فقدَ السيطرة على نفسه. كان يتلذذ بالحلوى التي كانت تمتلىء بها جيوب السيدات اللواتي يزرنه. كان يتلذذ بالشاي. وكانت الكبرياء تملأ روحه... لذلك استحق هذا العار...

- أقوالك طائشة، أيها الأب! أجاب الأب باييسي بصوت صارخ هو أيضاً. أنا معجب بصيامك وصلاتك، لكن كلماتك طائشة تطلقها بدون رويّة كشاب علماني يفتقر إلى النضج والقوة. أخرج من هنا، أيها الأب، إني آمرك بذلك. ختم الأب باييسي بصوت مرعد مهدِّد.

- أنا، أخرج! قال الأب فيرابونت مرتبكاً بعض الشيء ولكن دون أن يتخلى عن غضبه. أنتم العلماء! أنتم بعقلكم هذا المتكبر ترتفعون فوق بساطتي. لقد جئت إلى هنا أميّاً. وهنا، نسيت كل ما كنت أعرفه في ما مضى. إن الله نفسه يصونني أنا الضعيف من علمكم...

بقي الأب باييسي هادئاً ينتظر بثبات.

سكت الأب فيرابونت لحظة ثم، فجأة، انقبض وجهه حزناً، فوضع يده اليمنى على خدّه، وقال بصوت ضعيف وهو يحدق إلى تابوت الراهب المرشد المتوفَّى:

- غداً ينشدون له النشيد النبيل «ربنا هَبّ لنا عوناً واحمِنا». أما عندما سأموت أنا فسوف يقولون: «عاش حياة وادعة». تابع بصوت آسفٍ تخالطه الدموع. ثم صاح كالمجنون يقول والدموع في عينيه: ضيَّعتكم الكبرياء! فليتحوّل هذا المكان إلى قفر! واستدار ونزل درج المدخل بسرعة. ظهر التردد على الجمهور الذي كان ينتظره تحت، ثم تبعه بعضهم فوراً، وتوقف آخرون عندما رأوا أن باب الغرفة لا يزال مفتوحاً، وأن الأب باييسي الذي يسير وراء الأب فيرابونت إلى درجات المدخل، كان ينظر إليهم بصمت مطبق. لكن العجوز المندفع لم يكن قد أفرغ كل ما في جعبته، فتوقف بعد أن سار عشرين خطوة، والتفت نحو الشمس الغاربة رافعاً يديه إلى السماء - كأن أحداً قد حصده - ثم تهاوى على الأرض صارخاً بقوة: انتصر ربي! انتصر المسيح عند غياب الشمس! صاح بصوت مسعور وهو يرفع ذراعيه باتجاه الشمس، معفّراً وجهه بالأرض، وبدأ يبكي بكاء طفل مهتزّ الجسم، باسطاً ذراعيه على الأرض. أسرع الجميع إليه وسُمع صراخ وبكاء عطفٍ فكأن حميَّاه قد انتقلت إلى الجمهور، وسيطر على كل واحد نوع من الجنون:

- هذا هو القديس الحقيقي. هذا هو الصالح!

وأضاف آخرون بدون خوف: هذا هو الذي يجب أن يكون مرشداً.

- لا يريد أن يكون مرشداً... سيرفض... لن يرضى الالتحاق بهذه البدعة الملعونة. لن يقلد هذه السخافات. بادرت أصوات أخرى تقول على الفور. لا يدري أحد كيف كان يمكن أن ينتهي هذا كله لو أن الجرس لم تدوِّ أصواته في تلك اللحظة، منادية الرهبان إلى الذبيحة الإلهية. رسم الجميع إشارة الصليب ثم وقف الأب فيرابونت ورسم إشارة الصليب هو أيضاً ليحمي نفسه من الشرّ الخفيّ، واتجه نحو غرفته دون أن يلتفت وهو يطلق صرخات مضطربة. لحق به بعض الرهبان ولكن أكثرهم تفرقوا مسرعين إلى القداس. وعهد الأب باييسي إلى الأب يوسّيف بإتمام القراءة، ونزل إلى درج المدخل. لم تستطع الصرخات المحمومة التي أطلقها المتعصبون أن تنال منه، لكنه أحسَّ بكآبة تملأ قلبه فجأة فدُهش ووقف متسائلاً: «من أين جاء هذا الحزن الذي يرهقني». واستغرب عندما عرف فوراً أن سبب ذلك الحزن هو حادث يبدو في الظاهر تافهاً لا قيمة له: فبين صفوف الجمهور المجتمع أمام درج المدخل، لاحظ الأب باييسي بين الرهبان وجود إيليوشا الذي بدا مضطرباً جداً، فشعر بما يشبه الألم في قلبه. تساءل الأب باييسي مدهوشاً فجأة: «هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشاب قد سيطر على كل هذا المكان في نفسي؟». وبينما هو يتساءل، مرَّ إيليوشا من أمامه مسرعاً متّجهاً نحو الكنيسة. التقت نظراتهما فأشاح إيليوشا عينيه بسرعة وخفضهما نحو الأرض، فأدرك الراهب العجوز من النظر إلى هيئة الفتى ما كان يحصل في تلك اللحظة في نفسه من تبدُّل.

- أنت أيضاً جعلت نفسك تقع في التجربة، أنت أيضاً؟ قال فجأة الأب باييسي سائلاً. أنت أيضاً انضممت إلى صف الذين هم ضعيفو الإيمان؟ أضاف بألم.

توقف إيليوشا، وألقى على الأب باييسي نظرة تحمل بعضاً من التردد ثم فوراً أشاح عينيه بسرعة، ونظر إلى الأرض. وقف مواربا ليتجنَّب نظرة محدّثه. وكان الأب باييسي يراقبه بانتباه.

- إلى أين أنت ذاهب؟ دقت ساعة القداس. سأل مجدداً. ولكن إيليوشا لم يجب.

- ألعلّك تترك المنسك؟ وبدون أن تعلمنا، وبدون أن تتلقى البركة؟

أجاب إيليوشا فجأة بضحكة قصيرة غريبة متصنّعة، وشخص بنظره إلى الأب الذي كان يسأله، إلى الذي عهد به إليه وهو يحتضر، مديره السابق، معلّم قلبه وروحه، مرشده المحبوب. وفجأة، دون أن يجيب، قام بإشارة تعبّر عن أنه أصبح لا يهتم كثيراً بالاحترام. وبخطى واثقة اتجه نحو بوابة المنسك الخارجية.

تمتم الأب باييسي وهو ينظر إليه يبتعد مدهوشاً دهشة مؤلمة:

سوف تعود مجدداً! همس الأب باييسي، وهو ينظر إليه باستغراب مؤلم.

II

دقيقة كهذه

لم يخطىء الأب باييسي طبعاً عندما استنتج أن «ابنه العزيز» سيعود؛ حتى ربما قد فهم (وإن لم يكن بوضوح) الحالة النفسيّة التي كان عليها إيليوشا. ورغم ذلك، أعترف بأنني أجد صعوبة في شرح معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من حياة بطل روايتي الذي أحبّه كثيراً والذي لا يزال شاباً ورداً على السؤال المؤلم الذي طرحه عليه الأب باييسي «هل أصبحت أنت أيضاً مع الذين هم قليلو الإيمان؟»، أجيب، طبعاً: «لا، ليس مع الذين هم قليلو الإيمان». وأكثر من ذلك، على نقيض هذا تماماً: فإن هو أحسَّ بقلق فذلك لأن إيمانه كان كبيراً. فالقلق يكمن هنا، وبلغ قلقه من الإيلام أنه بقي بعد سنين طويلة يعتبر ذلك اليوم المشؤوم أزخر أيام حياته بالألم. ولو سئلت مباشرة: «هل يمكنه بالفعل أن يشعر بكل ذلك الغمّ والقلق لا لشيء إلّا لأن جثمان الراهب المرشد قد تحلَّل قبل الأوان بدلاً من أن تقوم معجزات شفاء؟»، لأجبت بدون تردد: «نعم، ذلك بعينه هو السبب». لكنني أتمنّى على القارىء، مع ذلك، أن لا يتسرّع كثيراً فيستهزىء بنقاء قلب هذا الشاب. أنا من جهتي، لست أميل إلى أن ألتمس له سماحة القارىء أو أن أنتحل لإيمانه الساذج عذراً من شبابه أو نقص دراسته أو قلة ما حصَّل من تقدّم في الدروس الخ... بل أقف الموقف المضاد بدون تردد، وأؤكد: إنني أشعر تجاه بساطته باحترام كبير. وبدون شك، إن شاباً غيره أكثر حذراً في اندفاعاته ولديه مثل هذا الحب الحار بدون هوى، ومتعقل بالنسبة إلى عمره (وهو تبعاً لذلك سهل) إن شاباً مثله كان يمكن أن يتجنب الاضطراب الذي وقع فيه شابّي أنا. لكن، أن ينساق المرء أحياناً مع اندفاع قد يكون طائشاً ولكنه مستلهم من حب كبير، فذلك في رأيي أنبل وأكرم من أن يكون عاجزاًعن الشعور بمثل هذه العواطف. وهذا ما يصدق خاصة على الشباب، لأن الشباب الذي يفرط في التروي ليس جديراً بالثقة ولا قيمة له. ذلك هو رأيي أنا! لكن ربَّ أناس رصينين يعترضون قائلين: إلى أين المصير إذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء؟ وليس صاحبك بمن تضرب به مثلاً للآخرين. وإني لأجيب هؤلاء بالقول: «نعم، كان إيليوشا يؤمن بحماسة إيماناً مقدساً لا يتزعزع، ولكن ليس يخطر ببالي أن ألتمس له بسبب ذلك أعذاراً».

على الرغم من ذلك، لقد أعلنت سابقاً (وربما بشكل متسرع جداً) أنني لن أحاول أن أبرر سلوك بطلي أو أن ألتمس له الأعذار لكنني مضطر، رغم كل شيء، إلى أن أقدّم بعض الإيضاحات تسهيلاً لفهم روايتي. لذلك أقول: لم يكن ذلك مسألة معجزات، ولا مسألة نفاد صبر طائش في انتظار المعجزات. لم يكن إيليوشا في حاجة إلى ذلك لإثبات إيمانه الراسخ (لا هذا إطلاقاً) ولا ليتاح لفكرة من الماضي أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأي يعارضها: إن ما كان يعنيه في هذا الأمر، قبل كل شيء آخر، بل ودون كل شيء آخر، هو الوجه الذي كان أمامه والوجه فقط - وجه الراهب المرشد الذي كان يحبّه جداً، وجه الرجل الصالح الذي كان يحترمه حتى العبادة. فالمشكلة تكمن هنا: إن ما في قلبه الفتيّ والنقيّ من قدرة على الحبّ، وإن ما يحس به إزاء «كل الأشياء وكل الناس»، قد تركز في تلك الفترة، أعني أثناء السنة السابقة، على إنسان واحد هو مرشده المحبوب الذي مات. لقد أصبح هذا الإنسان المثل الأعلى الذي يجتذب أعمق عواطفه. صحيح أنه استمرّ يجسّد في نظره أرفع مثل

أعلى خلال مدة طويلة وأن قوى طبيعته لا بدَّ أن تتجه إلى هذا المثل الأعلى، حتى لتنسيه، في بعض الأحيان، «كل الأشياء وكل الناس» (سوف يتذكر إيليوشا، فيما بعد، أنه في ذلك اليوم الحزين قد نسي، بشكل تام، أخاه ديمتري الذي كان يرغب عشية أمس في رؤيته بقلق وغمّ)، نسي أن يردَّ المائتي روبل إلى والد إيليوشا الصغير. لكنني أكرر فأقول: ليست المعجزات هي ما كان في حاجة إليه بل هو في حاجة إلى «عدالة سامية» وهذه قد أُصيبت بأذى بالغ حسب معتقداته. هذا هو ما كان يؤلم قلبه بشكل قاسٍ وغير متوقع. ليس بالأمر المهمّ أن تكون هذه «العدالة» قد ترجمت في انتظارات إيليوشا بتأثير مجرى الأحداث واتخذت شكل معجزات متوقعة فوراً من رماد جثمان هذا القائد القديم الذي كان يحترمه حتى العبادة. وكان جميع الذين في الدير يفكرون وينتظرون الشيء نفسه، وفي طليعتهم أولئك الذين كان إيليوشا يعترف بتفوقهم العقلي عليه، كالأب بابيسي مثلاً. لذلك لم يتردد إيليوشا في أن يعبّر عن أمله كما كانوا يعبّرون، دون أن يقع في بلبلة من الشك والتأملات. وقد نضج هذا التوقع في نفسه منذ مدة طويلة، خلال سنة كاملة عاشها في الدير حتى أصبحت طبيعية وكأنها عادة. ولكن ظمأه كان إلى العدالة التي ينتظرها، وليس إلى معجزات! وهذا هو الإنسان الذي كان في عاطفته فوق كل البشر في العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط في الخزي بدلاً من أن يحظى بالمجد الذي يستحقه! لماذا؟ من هو القاضي الذي اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم؟ من الذي يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقاً؟ تلك هي الأسئلة التي داهمت نفسه البريئة التي تعوزها الخبرة وراحت تسومها سوء العذاب. كان لا يطيق، دون أن يشعر بالمذلة ودون أن يغضب، أن يرى أفضل الصالحين فريسة سخرية شريرة وتهكّم خبيث يصبّه عليه جمهور طائش هو دونه بكثير. كان بالإمكان أن يقبل عدم حدوث هذه المعجزة ولا أيّ شيء خارق للطبيعة كما يتوقع جميع الناس. ولكن لماذا يجلَّل بالعار، لماذا هذا التحلل المتسرع الذي «يسبق الطبيعة»، كما كان يقول الرهبان الحاقدون؟ لماذا هذه «الإشارة» التي كانوا يتفاخرون بها بشكل انتصاري مع الأب فيرابونت؟ ولماذا يمكنهم أن يعتقدوا بأنهم حصلوا على الحق بأن يستخرجوا هذه النتائج؟ أين هي إذن العناية الإلهية ويدها اليمنى؟ لماذا امتنعت عن التدخل «في اللحظة التي كان فيها تدخّلها ضرورياً» (كان يقول في سرّه)، ولماذا أرادت هي نفسها أن تستسلم أمام قوى الطبيعة العمياء الخرساء التي لا ترحم؟

لهذا السبب، كان قلب إيليوشا يبكي دماً. طبعاً، كما سبق أن قلت، لا يفكّر إلّا في ذلك الوجه الذي هو أحب وجه إلى قلبه في العالم والذي مُرِّغ بالعار الآن، و «أهين»! أنا آسف إذا كان ما قاله الشاب طائشاً وغير عقلاني، ولكنني أعود فأقول للمرة الثالثة (ولتتهموني بخفّة العقل أيضاً إذا أردتم): يسعدني أن إيليوشا قد اتصف بالاعتدال في تلك اللحظة من حياته، لأن ساعة العقل تأتي دائماً لدى الإنسان غير الغبي، فإذا لم يكن قلب الفتى ملئ بالحب في مثل هذه اللحظة، فمتى عساه يأتي هذا العقل؟ لا أستطيع السكوت عن عاطفة أخرى غامضة ومضطربة قد مسَّت نفس إيليوشا في تلك الدقيقة المؤلمة من حياته. ربما كلمة «عاطفة» ليست الكلمة المناسبة. هو «شيء» كان يندبه، هو شعور مرتبط بذكرى الحديث الذي جرى أمس بينه وبين أخيه إيڤان، والذي يعاود فكره في هذه اللحظة الحرجة. لست أعني أن عناصر إيمانه الحقيقية الأساسية، قد أصابها أيّ تزعزع... لا. إنه يحب إلهه الآن كما من قبل ولايزال يؤمن به وإن كان يبدي تذمراً في بعض اللحظات. لكن ذلك الإحساس المقلق الذي شعر به بعد ذلك الحديث فوراً قد استيقظ الآن في نفسه مجدداً، وراح يحاول الخروج إلى سطح شعوره بقوة تتزايد باستمرار. وهبط المساء أثناء ذلك، وخيَّم الظلام، وهذا راكيتين الذي كان يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من المنسك إلى الدير، يرى إيليوشا، فجأة، مستلقياً تحت شجرة، وقد وضع وجهه على الأرض، ساكناً لا يتحرك وكأنه نائم. اقترب منه وناداه:

- أنت هنا يا ألكسي؟ أيمكن أن... قال راكيتين مدهوشاً ولكنه توقف فجأة عن

الكلام قبل أن يكمل جملته. كان يريد أن يقول: «أيعقل أن يصل بك الأمر إلى هذا الحدّ»؟

لم يرفع إيليوشا عينيه نحوه، لكن راكيتين أدرك من حركة صغيرة أن إيليوشا قد سمعه وفهمه.

استأنف يقول وقد تحولت الدهشة في وجهه إلى ابتسامة ساخرة شيئاً فشيئاً: «ماذا أصابك؟ اسمع، إنني أفتش عنك منذ ساعتين. ماذا تفعل هنا؟ ما هي هذه الحماقات المقدسة؟ أنظر إليّ على الأقل عندما أتكلم.

رفع إيليوشا رأسه، وجلس مسنداً ظهره إلى جذع شجرة. لم يكن يبكي ولكن كان الألم يظهر على تقاطيع وجهه، وفي عينيه غضب. لم يكن ينظر إلى راكيتين بل يحدّق إلى شيء في جانبه.

قال راكيتين:

- هل تعلم أن وجهك قد تغيّر كلياً؟ لم يبق فيه أثر من ذلك الألم الذي كنت فيه، هل أنت غاضب من أحد؟ هل أساء إليك أحد؟

تمتم إيليوشا فجأة دون أن ينظر إليه وذلك بإشارة تعبّر عن التململ:

- إليك عني!

- أوه. أهكذا أصبحنا الآن إذن؟ نصرخ مثل كل الناس! عجيب! هل يصدَّق أن يصدر مثل هذا الصراخ عن ملاك؟ حسناً، يا إيليوشا، في وسعك أن تفخر بأنك أدهشتني. أقول لك هذا بكل صدق. لقد أصبحت منذ زمن طويل لا أُدهش من شيء هنا. أنا من كنت أظنك إنساناً مثقفاً...

أخيراً، رفع إيليوشا إليه عينيه لكن بذهول كأنه لم يفهم جيداً ما قاله.

- لن تجعلني أعتقد أن صاحبك المرشد العجوز قد مات؟ هل كنت تعتقد حقاً أنه كان سيحقق لك معجزات؟ قال راكيتين مشدوهاً.

- كنت أظن، وما زلت أظن وأريد أن أظن وسأظل! ماذا تريد بعد؟ صرخ إيليوشا بصوت حانق.

- أنا لا أريد شيئاً يا عزيزي! أمر عجيب! إن تلميذاً في الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور. كما تريد، على كل حال. ها أنت إذن غاضب من الله! مثل موظف مستاء من أنه نُسي أن يرقِّي أو حُرم من وسام في احتفاله؟ أنت إذن!

نظر إيليوشا إلى راكيتين طويلاً وهو مغمض العينين نصف إغماضة وبشكل غريب، وومض في عينيه شيء ما... ولكن ليس غيظاً من راكيتين.

- لست ثائراً على إلهي ولكنني «أرفض قبول عالمه». ذلك كل شيء. قال وهو يجهد على الابتسام.

- ماذا تعني بأنك ترفض عالمه. قال راكيتين بعد أن فكَّر قليلاً. ما هذا الكلام الملتبس؟

لم يجب إيليوشا.

- حسناً. كفانا حماقات. لننتقل الآن إلى الأمور الأساسية: هل أكلت اليوم؟

- لا أعرف... يبدو أنني أكلت. نعم.

- يجب أن تستردّ قواك، هذا ما يبدو على وجهك. إن منظرك يثير الشفقة. قيل لي إنك لم تنم طوال الليل. يظهر أنكم قد عقدتم اجتماعاً هناك. ثم حدث ذلك الهرج وتلك الطقوس... إن في جيبي بعض النقانق، حملته احتياطاً عندما جئت إلى هنا. ولكن، أعتقد أنك لا تأكل النقانق، أليس كذلك؟

- هات النقانق.

- هيه، هذا أمر جديد، هذه ثورة بمتاريس! ليس هذا قليلاً. هيا نذهب إلى منزلي... أنا أيضاً في حاجة إلى قليل من الفودكا. إنني مرهق حتى الموت. أراهن أنك لن تتجرأ على تناول الفودكا... أو نعم.

- سأشرب الفودكا.

- هذا كثير يا صاحبي! قال راكيتين وهو ينظر إليه بدهشة. حسناً، هل تريد فودكا أم نقانق؟ هذه مغامرة. يجب ألّا تضيِّع الفرصة. اتبعني!

نهض إيليوشا عن الأرض دون أن يتفوه بكلمة، وتبع راكيتين.

- لو علم أخوك فانتشكا بهذا لتملكته الدهشة. بالمناسبة: لقد سافر أخوك، إيڤأن فيودوروفتش إلى موسكو هذا الصباح. هل كنت على علم بذلك؟

- كنت أعرف ذلك. أجاب إيليوشا بدون اكتراث. وظهرت صورة أخيه ديمتري فجأة في خياله ولكنها لم تلبث فيه سوى لحظة قصيرة. لقد أحسّ، بشكل غامض، بوجود أمر مستعجل، هو إلزام أخلاقي، هو واجب يجب أن يقوم به، ولكن هذه الذكرى لم تخرجه من خدره، لم تبلغ قلبه ثم سرعان ما بارحت ذاكرته. ومع ذلك، فإن هذه الذكرى ستعاود ذاكرة إيليوشا كثيراً فيما بعد.

- لقد نعتني أخوك فانتشكا اللطيف، ذات يوم، بأنني «تافه ليبرالي». أما أنت فقد أسمعتني، في يوم من الأيام، أنني بدون «استقامة». حسناً. سنرى عما قريب ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أنتم (أضاف راكيتين هامساً كأنه يحدّث نفسه) ثم أضاف بصوت عالٍ: لنتجنّب المرور بالدير ولنتّجه مباشرة إلى المدينة بواسطة الدرب الضيق... همْ! سأمرّ لحظةً قصيرة إلى منزل السيدة خوخلاكوفا. هل تتصوّر: لقد رويت لها بالتفصيل كل ما جرى هنا. فإذا هي تجيبني، منذ قليل، في بطاقة كتبت عليها بالقلم (هذه السيدة تعشق كتابة البطاقات) «أنها ما كان لها أن تتوقع من مرشد عجوز محترم كالأب زوسّيما، أن يصدر عنه مثل هذا السلوك»! هذا ما كتبته: «السلوك»! هي أيضاً حاقدة عليه شخصياً بسبب ما حدث.
- هذا أنتم! قال راكيتين ثم صاح فجأة وقد توقّف عن السير وأمسك إيليوشا من كتفه، وحدَّق إليه بعينين متفرستين: «هل تعلم يا أليوشكا». واستبدت براكيتين في تلك اللحظة فكرة جديدة برزت في ذهنه. وكان واضحاً رغم سحنته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبّر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدّق ما كان عليه إيليوشا من حالة نفسيّة هي في نظر راكيتين خارقة وغير متوقعة. وأخيراً قال بصوت خجول غير مطمئن:

- إيليوشا، عزيزي! هل تعرف إلى أين يتوجب علينا أن نذهب أولاً؟

- إلى حيث تشاء.

- لنذهب إلى غروشنكا! هل توافق؟ قال راكيتين وهو يرتعش لهفة.

- هيا نذهب إلى غروشنكا إذا أردت! أجاب إيليوشا بهدوء وبدون تردد. كاد راكيتين أن يقع إلى الوراء من فرط ما بدت له هذه الموافقة السريعة مستغربة. فقال مذهولاً:

- هكذا؟ عظيم!

لكنه ما لبث أن ثاب إلى نفسه، فأمسك إيليوشا من ذراعه، وأسرع يدفع الشاب نحو الدرب الضيق خشية أن يتراجع عن رأيه.

وسارا صامتين، لأن راكيتين يتجنّب الآن أن يفتح فمه، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلاً:

- كم ستكون مسرورة، كم ستكون سعيدة... لكنه سرعان ما لزم الصمت. ولم يحاول راكيتين أن يصحب إيليوشا إلى منزل غروشنكا ليسرّها. فراكيتين رجل جاد، لا يحاول أمراً من الأمور دون أن يرى فيه فائدة له. وكان في تلك اللحظة يخضع لباعثين اثنين: الأول، هو لكي ينتقم: يريد أن يشهد «تدنّس الرجل الصالح» و «سقوط» إيليوشا من «القداسة إلى الإثم». وذلك أمر كان يتلذذ به منذ الآن. وأما الهدف الثاني فهو مادي سيحقق له كسباً كبيراً. وسنأتي على ذكره لاحقاً.

قال راكيتين في سرّه وهو يشعر بفرح وحقد في آن: «إذن، إنه أمر من هذا النوع، وهم يغضون الطرف عنه، في هذه اللحظة، لأن ذلك هو حقاً خبر مبارك».

III

البصلة الصغيرة

تسكن غروشنكا في المكان الأشد صخباً في المدينة بالقرب من ساحة الكاتدرائية، في منزل أرملة التاجر موروزوف، التي استأجرت عندها جناحاً صغيراً مبنياً من خشب في فناء منزلها. ومنزل موروزوفا من حجر، وهو واسع له طابق فوق الطابق الأرضي، لكنه متسخ وقديم، وصاحبته تعيش فيه وحيدة مع عجوز وابنتَي شقيقتها المسنتين العانستين. ولم تكن في حاجة لتؤجر جناح الفناء لكي تعيش. لكن الناس جميعاً في المدينة يعرفون أنها لم تقبل أن تقيم غروشنكا في منزلها (منذ أربع سنوات) إلّا لكي ترضي قريبها التاجر سامسونوف الذي يميل إلى غروشنكا ويحميها. ويؤكد الناس في المدينة أن العجوز الغيور فكر في أول الأمر حين أسكن «محظيته» في منزل موروزوفا أن يجعلها تحت إشراف العجوز اليقظة لكي تراقب سلوكها. ولكن سرعان ما ظهر أن هذه العجوز آخر الأمر لم تكن تلتقي غروشنكا إلّا نادراً ولم تكن تزعجها بأي مراقبة؛ وانقضت، الآن، أربع سنوات على اليوم الذي جاء فيه العجوز إلى هذا المنزل بالفتاة الخجول التي لا يزيد عمرها على الثمانية عشر ربيعاً، والتي وجدها في مركز الإقليم، وقد كانت نحيلة الجسم هزيلة البنية حزينة واجمة. ومنذ ذلك الوقت فإن مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور. وكان الناس، في مدينتنا، كما قيل، لا يعرفون إلّا أشياء قليلة وغامضة عن حياة الفتاة الماضية، وكان ما يتداولونه من أخبار عنها بحاجة إلى الدقة والوضوح. ولم تزدد هذه المعلومات بعد ذلك كثيراً، حتى في المرحلة التي أصبح فيها أمر «الجميلة بين الجميلات»، أغرافينا ألكسندروفنا، يهمّ عدداً كبيراً من الناس عندنا خلال أربع سنوات، كان يقال إن ضابطاً مجهولاً أغواها ثم هجرها وسافر وتزوج بأخرى، فتُركت غروشنكا للعار والشقاء. وكان يزعم أيضاً أن غروشنكا، رغم أن التاجر العجوز يعيلها، تنتمي إلى عائلة محترمة من رجال الدين، وأنها ابنة كاهن كان محالاً على الاستيداع، وكانت تقال أمور كثيرة من هذا النوع. المهمّ أن اليتيمة المذلَّة قد استحالت خلال أربع سنوات، إلى حسناء روسية بضة الجسم زاهية اللون، نشيطة، امرأة جريئة لا تخلو من الوقاحة، حاذقة في شؤون الأعمال، نهمة إلى المال، امرأة بخيلة وحذرة في آن. وكان يقال أيضاً إنها تمكنت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مال صغيراً بوسائل شريفة أو غير شريفة، لكنها أمينة دائماً. ولم يقتنع الناس إلّا بشيء واحد: هو أن غروشنكا امرأة يستحيل نيلها، فما من رجل باستثناء العجوز حاميها، استطاع أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء خلال تلك السنوات الأربع. والأمر صحيح لا شك فيه، لأن رجالاً كثراً قد سعوا إلى الحظوة بنعمها، ولا سيما في السنتين الأخيرتين، فلم ينل أحد منهم شيئاً، وفشلت كل محاولاتهم، حتى إن بعضاً منهم قد اضطر إلى الانسحاب وهو موضع هزء وسخرية بسبب ما تتصف به السيدة الشابة من عزيمة صلبة وروح ساخرة. وقد عُرف أيضاً أن هذه السيدة الشابة أصبحت تهتم بالأعمال ولاسيّما منذ سنة، وأنها تبذل فيها مقدرات ضخمة وتبرهن على كفاءات غير عادية، حتى إن كثيراً من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم «يهودية». ليس معنى هذا أنها كانت تقرض المال بالربا ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشتري بالاشتراك مع فيودور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بسعر بخس، بعِشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك إلى تحصيل قيمتها كاملة أي تتقاضى مبالغ تساوي عشرة أضعاف ما دفعت، والعجوز سامسونوف الذي تورمت ساقاه فأصبحتا عاجزتين عن الحركة منذ سنة، كان رجلاً أرمل

يضطهد أولاده، لكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات. ومع ما هو معروف به من بخل وقسوة فقد وقع تحت تأثير الفتاة التي كان لا يعطيها في بادىء الأمر إلّا بما «يسدّ الرمق»، على حد تعبير الساخرين. لكن غروشنكا استطاعت أن تتحرر بفضل ما أوحته إليه من ثقة كبيرة بإخلاصها له. إن هذا العجوز، وهو واحد من كبار رجال الأعمال، (توفي منذ زمن طويل) كان ذا طبع خاص من أهمّ صفاته البخل والقسوة العنيفة. ورغم ما كان لغروشنكا من تأثير كبير فيه - حتى أصبح لا يستطيع العيش بدونها - فإنه لم يترك لها مالاً كثيراً حتى ولو هددته غروشنكا بالهجرة لما كان يتزحزح عن موقفه في هذا المجال. لكنه أعطاها أثناء حياته مبلغاً غير كبير من المال، فلما عرف الناس في المدينة بذلك أصيبوا بالدهشة جميعاً. قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل: «أنت امرأة ذكية سوف تعرفين كيف تستثمرين هذا المبلغ. ولكن اعلمي أنني، عدا ما أنفقه عليك لإعالتك التي سوف أستمر في تأمينها، لن أعطيك شيئاً أثناء حياتي، ولن أوصي لك بشيء بعد مماتي». وقد تمسك بقوله: مات تاركاً كل ثروته لأولاده الذين عاملهم أثناء حياته، هم وزوجاتهم وأولادهم، معاملة الخدم. أما غروشنكا فقد رفض حتى أن يأتي على ذكرها في وصيته. لقد عُرفت كل هذه التفاصيل فيما بعد. لكن الرجل قد ساعد غروشنكا في مقابل ذلك بنصائحه في استثمار «رأس مالها الشخصي»، ودلَّها مراراً على «أعمال» مكسبة جداً. وعندما تولّه فيودور بافلوفتش كارامازوف بحب غروشنكا التي تعرَّف إليها بمناسبة صفقة طارئة، ولما انتهى به الأمر على نحوٍ لم يكن في حسبانه هو نفسه، إلى الهيام بها بشكل أفقده عقله تقريباً، فإن العجوز سامسونوف الذي كان مريضاً جداً ويشارف نهايته، فلم يزد أن ضحك من ذلك. ومن الأمور البارزة أن غروشنكا كانت صريحة مع العجوز طوال فترة العلاقة بينهما. ويبدو أن العجوز كان الإنسان الوحيد الذي عاملته غروشنكا بصراحة تامة. لكن عندما تولّه ديمتري فيودوروفتش هو أيضاً بها توقَّف حاميها العجوز عن الضحك. بل اعتقد أن من واجبه أن يحذّر المرأة الشابة ناصحاً: فقال لغروشنكا بلهجة جادَّة وحاسمة: «إذا كان عليك أن تختاري بين الاثنين، الأب وابنه، فاختاري الأب، ولكن على شرط أن يتعهد الوغد بزواجك وأن يحدد لك مبلغاً مناسباً منذ البداية. أما الكابتن، فدعيه وشأنه، لن يفيدك بشيء. «هكذا تكلم العجوز المحب للملذات غروشنكا بينما كان يشعر بدنوّ أجَله، ولقد مات، فعلاً، بعد ذلك بخمسة أشهر. ولنذكر، مروراً، أن أحداً من الناس، عندنا في المدينة، لم يكن يعرف بدقة ماذا كان موقف غروشنكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن، رغم أن أناساً كثيرين كانوا في ذلك الوقت على علمٍ بالمنافسة الشديدة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة. أما خادمتا غروشنكا فقد شهدتا في الدعوى (بعد الكارثة التي سأتحدث عنها فيما بعد) أن أغرافينا ألكسندروفنا لم تكن تستقبل ديمتري فيودوروفتش إلّا خوفاً منه، لأنه «هدَّد بقتلها». ولغروشنكا خادمتان: الأولى طباخة عجوز كانت فيما مضى تخدم أسرتها وهي الآن مريضة، وتكاد تكون صمَّاء، والثانية فتاة لطيفة كانت بمثابة وصيفة لها وهي حفيدة الطباخة العجوز. وكانت غروشنكا تعيش حياة بائسة في مسكن بسيط متواضع جداً. إنها تشغل في الجناح ثلاث غرف، أثاثها من خشب الأكاجو، استأجرته غروشنكا من مالكة المنزل وهو من طراز أثاث 1820. وحين وصل راكيتين وإيليوشا إلى مسكن غروشنكا كان الظلام قد خيَّم ولكن الغرف لم تُشعل الأضواء فيها بعد. كانت غروشنكا في غرفة الاستقبال مستلقية على كنبة طويلة وغير مريحة وقاسية لها مسند من خشب الأكاجو، قد غُطّيت بجلد صلب، مهترئة منذ مدة طويلة ومثقوبة. كانت تسند رأسها إلى وسادتين بيضاوين أخذتهما من سريرها وكانت مستلقية على ظهرها، ساكنة واضعة يديها وراء رأسها، ترتدي ثوباً من حرير أسود - كأنها تنتظر زيارة أحد - ملفّعة شعرها بقبعة رائعة من تخريم ملائمة كثيراً لها، ألقت على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضاً قد ثبتته بدبوس كبير من ذهب. أجل، إنها كانت تنتظر أحداً لأن وضعها كان يدل على نفاد الصبر والقلق. وكان وجهها شاحباً وعيناها حمراوين وشفتاها أيضاً، فيما كان طرف قدمها يلطم ذراع الكنبة. فما إن دخل إيليوشا وراكيتين حتى تملكهما اضطراب مريع: سمعاها وهما في الممشى تثب بسرعة عن كنبتها وتصرخ فجأة

بصوت مذعور:

- من هنا؟

لكن الزائرينِ استقبلتهما الخادمة الشابة التي أجابت سيدتها على الفور قائلة:

- ليس السيد. إنهما شخصان آخران.

- ماذا يجري؟ تمتم راكيتين وهو يمسك إيليوشا من ذراعيه ليقوده إلى غرفة الاستقبال، كانت غروشنكا تقف قرب الكنبة وهي ما تزال مذعورة. وقد خرجت ضفيرة طويلة من شعرها الكستنائي الداكن من تحت قبعتها وتهدَّلت على كتفها اليمنى ولكنها لم تنتبه إليها ولم ترفعها إلّا بعد أن حدَّقت إلى الزائرين وعرفتهما.

- أهذا أنت يا راكيتكا؟ لقد أخفتني! ومن هذا الذي تصحبه؟ يا إلهي! يا لها من مفاجأة، صاحت غروشنكا عندما عرفت إيليوشا.

قال راكيتين مصطنعاً هيئة منطلقة حرة، هيئة رجل يشعر أن بينه وبينها صداقة حميمة ما يسمح له أن يصدر الأوامر نيابة عنها، هلّا أشعلت الشموع!

- الشموع... طبعاً، الشموع... فينيا إئته بشمعة... لقد اخترت الوقت المناسب لتجيئني به! صاحت غروشنكا مرة أخرى وهي تومىء برأسها إلى إيليوشا. ثم التفتت نحو المرآة فتناولت بسرعة الضفيرة المتهدلة بكلتا يديها، وكان يبدو عليها أنها غير راضية.

- لعلني جئت في غير الوقت المناسب؟ سأل راكيتين مستاءً.

- لكنك أخفتِني يا راكيتكا، هذا كل شيء. واستدارت نحو إيليوشا وقالت مبتسمة. لا تخف مني يا عزيزي الطيب إيليوشا. ليتك تعرف كم أنا سعيدة بلقائك، أنا التي لم أكن أتوقع زيارتك. أما أنت يا راكيتكا فقد أرعبتني. لأنني ظننت أن ميتيا هو الذي كان يريد أن يقتحم بابي. لقد خدعته في ذلك اليوم وأجبرته على أن يقسم بأنه يصدّقني، بينما كنت أكذب عليه. زعمت له أنني سأقضي السهرة كلها عند كوزما كوزميتش العجوز أساعده في الحسابات المالية حتى ساعة متأخرة من الليل، إنني أذهب، مرة كل أسبوع لتنظيم حساباته. نغلق باب الغرفة، فيأخذ هو بإجراء عمليات الجمع بواسطة عدّاد، وأقوم أنا بتسجيل ما يمليه عليَّ من أرقام لأنني الشخص الوحيد الذي يثق به. يعتقد ميتيا بأنني الآن عند العجوز بينما أنا مستلقية هنا أنتظر رسالة. كيف سمحت لكما فينيا بالدخول! فينيا، فينيا! أسرعي إلى الباب الكبير وافتحيه وألقي نظرة على الخارج وتأكدي هل يحوم الكابتن حول المنزل؟ من المحتمل أن يكون قد اختبأ في مكان ما ليتجسس عليّ. إنني أخاف منه خوفاً قاتلاً!

- لا يوجد أحد يا أغرافينا ألكسندروفنا، فلقد راقبت كل ما حول المنزل منذ لحظة، وأنا أنظر من شق الباب طوال الوقت لأنني أرتعد خوفاً أنا أيضاً.

- هل درفات النوافذ مغلقة يا فينيا؟ يجب إسدال الستارة (وأسدلت الستارة السميكة) حتى لا يدخل النور منها، إنني خائفة من ميتيا أخيك في هذا اليوم يا إيليوشا. كانت غروشنكا تتكلم بصوت عال رغم قلقها وفيها شيء من حماسة.

- لماذا تخافين ميتينكا إلى هذا الحدّ اليوم؟ سألها راكيتين. كنت أعتقد أنك لا تخافين منه بل تسيّرينه بعصاك.

- قلت لك إنني أنتظر رسالة، رسالة، فيجب ألّا يأتي ميتينكا الآن، ثم إنه لم يصدقني

حين قلت له إنني ذاهبة إلى كوزما كوزميتش، لقد أحسست بذلك. أراهن أنه اختبأ في مكان ما وراء حديقة فيودور بافلوفتش ليراقبني. هذا أفضل! فهو في هذه الحالة لن يأتي إلى هنا. أما كوزما كوزميتش، فقد ذهبت إليه فعلاً، ورافقني ميتيا حتى باب منزله، وزعمت له أنني سأبقى هناك حتى منتصف الليل ورجوته بإلحاح أن يأتي ليصحبني في العودة إلى منزلي. عندئذ تركني، فبقيت عند العجوز عشر دقائق ثم رجعت، آه. ما أشدّ ما كنت أخشى أن ألقاه في الطريق!

- لماذا تزيّنت كل هذه الزينة؟ وما هذه القبعة الرائعة التي أرى؟

- غريب أمرك يا راكيتكا! قلت لك إنني أنتظر رسالة، فمتى وصلت الرسالة أسرعت للخروج من هنا. لهذا السبب ارتديت ملابسي لأكون جاهزة.

- إلى أين تذهبين؟

- تحب أن تعرف؟ الإكثار من العلم ضرر يا عزيزي!

- إذن! أنت مسرورة جداً. ما رأيتك على هذه الحال في يوم من الأيام. لقد ارتدت ملابسها وكأنها ذاهبة إلى حفلة راقصة! قال راكيتين وهو يتفحصها بنظره.

- ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص؟

- وأنت؟ هل تعرفين عنها أكثر مني؟

- أنا حضرت حفلة راقصة مرة واحدة. حدث ذلك منذ سنتين عندما زوَّج كوزما كوزميتش ابنه. كنت أشاهدها وأنا على الشرفة. لماذا أضيع وقتي في الحديث معك يا راكيتكا بينما عندي أمير بحقّ يزورني! يا إيليوشا، يا ملاكي الصغير، أنا لا أصدق عينيّ! كيف أمكن أن تأتي إلى منزلي؟ في الحقيقة إنني لم أتوقع ولو كنت أحلم أن أراك تجيء إلى منزلي! لم أصدق في يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئني، أعترف لك بذلك! إنك لم تختر الوقت المناسب ومع ذلك فأنا مسرورة جداً برؤيتك! اجلس على هذه الكنبة هنا، يا عزيزي الجميل! إنني مدهوشة، ليتك يا راكيتكا قد جئتني به يوم أمس، أو أمس الأول!... لا بأس، هكذا أفضل. أنا سعيدة رغم كل شيء. بل ربما مجيئه اليوم، في مثل هذا الوقت، خير من المجيء قبل أمس...

جلست غروشنكا على الكنبة قرب إيليوشا بحيوية وراحت تنظر إليه في نشوة وحماسة. كانت تشعر، بالفعل، بسعادة لرؤيته، ولم تكذب عندما أكدت له ذلك. كانت عيناها تسطعان بريقاً وشفتاها تضحكان بمرح فيه كثير من اللطف والبساطة. لم يتوقع إيليوشا أن يرى في وجهها مثل هذا التعبير عن هذا اللطف... إنه لم يرَ غروشنكا، حتى الآن، إلّا نادراً، قبل نهار البارحة، وكان رأيها فيه ممتازاً. وبالأمس، كانت ثورتها المؤذية على كاترينا إيڤانوفنا قد قلبت نفسه رأساً على عقب، لذلك أدهشه أن يرى فيها إنساناً مختلفاً كلياً. كانت حركاتها قد تغيَّرت عما كانت عليه بالأمس، وتحسنت بشكل ملحوظ: لم يعد في صوتها الآن تلك النبرات الرخوة التي أصبحت الآن سريعة واضحة ومباشرة، وهي الآن تنطلق على سجيتها واثقة رغم ما كانت عليه من اضطراب.

- يا إلهي! يا للمغامرات التي تحققت اليوم! قالت مدمدمة. لماذا يا إيليوشا أنا سعيدة برؤيتك، أتساءل في نفسي؟ أؤكد لك أنني أجهل أنا نفسي سبب هذه السعادة!

- أأنت تجهلين إلى هذا الحد مما أنت سعيدة؟ قال راكيتين متبسماً. لا شك في أنك لم تلحّي طوال هذه المدة في طلب المجيء به دون باعث يدفعك إلى ذلك. لقد ثقبت أذنيّ

من كثرة ما سألتني: جئني به، جئني به؛ فلا بدَّ أن يكون لك في ذلك هدف.

- في الماضي، كان لي هدف آخر ولكن الآن لم يبقَ لي أيّ هدف. فات الأوان. والآن ماذا أقدّم إليكما؟ أصبحت الآن لطيفة يا راكيتكا؟ هلّا جلست يا راكيتكا. لماذا تبقى واقفاً؟ هلَّا جلست إذن؟ لا خوف على راكيتوشكا أراهن أنه لن ينسى نفسه! أنظر! ها هو يتخذ له مكاناً قبالتنا يا إيليوشا، وهو مستاء من أنني لم أدعه إلى الجلوس قبل أن دعوتك. إنه سريع التأذي، عزيزي راكيتكا، (قالت غروشنكا ضاحكة). لا تغضب يا راكيتكا! أنا اليوم لطيفة. وأنت يا صغيري إيليوشا، لماذا تبدو حزيناً هكذا؟ هل تخاف مني؟ قالت له ذلك ونظرت مباشرة في عينيه وهي تبتسم بسخرية.

- إنه كئيب لأنه رفض في الترقيات. قال راكيتين بصوت خفيض.

- أي ترقيات؟

- فاحت من جسد راهبه المرشد رائحة تحلُّل.

- رائحة تحلل؟ ما هذه الحماقات التي تقولها؟ لا شك أنك تريد أن تغمز منه. أنا أعرفك! أسكت أيها الأبله!

- هل تسمح لي يا إيليوشا بأن أجلس على ركبتيك... هكذا؟

قالت ذلك وجلست على ركبتيه بوثبة واحدة، وهي تضحك، وتلامسه برقَّة مثل قطة صغيرة. ثم أحاطت عنقه بذراعها اليمنى بحنان. وأردفت قائلة: سوف أعرف كيف أدخل البهجة إلى قلبك يا فتاي الصغير التقيّ. هل تسمح لي بأن أبقى على ركبتيك؟ ألا تغضب؟ إذا شئت سأنهض!

بقي إيليوشا صامتاً. لم يجرؤ على القيام بأيّ حركة. لقد سمع كلماتها: «إذا شئتَ قمتُ»، لكنه لم يجب، فكأنه مشلول. ولكن ما كان يربكه، هو غير ما كان يمكن أن يتوقعه أو يمكن أن يتصوره، مثلاً راكيتين الذي كان يتأمله بتلهف من مكانه. إن الألم العميق الذي يملأ روحه قد جمَّد أحاسيسه كلها، ولو كان بإمكانه أن يرى ما بنفسه بوضوح لأدرك أنه كان في تلك اللحظة محصّناً بقوة من جميع التجارب أو الإغراءات. رغم ذلك، رغم ذهوله عن حاله والألم الذي كان يرهق جسده، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت في قلبه: وهو أن هذه المرأة، هذه المرأة «الرهيبة» لم تعد تخيفه الآن كما في السابق، ولا تبعث في نفسه ذلك الخوف الذي كان يشعر به حتى ذلك الحين عندما خطرت بباله المرأة في المناسبات النادرة التي كان يمكن أن تخطر المرأة بباله. بل إن ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماماً: إن هذه المرأة الشابة التي كان يخشاها أكثر من سائر النساء، والتي تطوقه بذراعيها جالسة على ركبتيه، توقظ في داخله شعوراً مختلفاً، شعوراً فريداً غير متوقع، شعوراً هو استطلاع قويّ يحسن إلى حالته الروحية حقاً. فهو لا يشعر بأي خوف، لا يشعر بأي أثر من آثار خوفه السابق، وهذا ما كان يدهشه بالرغم منه.

- توقفي عن هذه الحماقات. صاح راكيتين. من الأفضل أن تسقينا شيئاً من الشمبانيا. لقد وعدتني، هل تتذكرين؟

- صحيح. وعدتك بذلك. قطعت له على نفسي عهداً يا إيليوشا بأن أقدّم له شمبانيا يوم يجيئني بك. هيّا بنا. سأشرب أنا أيضاً الشمبانيا. فينيا، فينيا، اجلبي لنا زجاجة الشمبانيا التي تركها ميتيا، أسرعي! سوف أسقيكما شمبانيا مهما أكن بخيلة! ليس من أجلك يا راكيتكا، فأنت لست سوى خيارة فاسدة، بل من أجله هو، إنه أميري! سأشرب معكما. أريد أن

أقصف.

- ماذا حدث لك في هذه اللحظة؟ ما هذه «الرسالة» التي تنتظرينها؟ هل هي سرّ؟ سألها راكيتين بفضولية وهو يبذل جهداً كبيراً لكي لا يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التي تنهال عليه.

- ليس الأمر سراً، إنك على علم به. قالت غروشنكا بقلق. وأدارت وجهها نحو راكيتين، وابتعدت قليلاً عن إيليوشا مع بقائها جالسة على ركبتيه وهي تحيط عنقه بذراعها وقالت: سيصل الضابط يا راكيتين، ضابطي الجميل!

- أعرف أنه سيصل، وهل هو قريب من هنا؟

- إنه الآن في موكرويه. وسيبعث إليّ رسولاً. ذكر لي ذلك في رسالة تسلمتها أمس. وأنا هنا أنتظر رسوله.

- غريب! لماذا في موكرويه؟

- شرح هذا الأمر يطول. يكفيك الآن ما سمعت.

- إنني أتصوَّر ميتيكا الآن. هل هو على علم بالأمر؟

- إنه لا يعرف طبعاً. أبداً. لو علم سيقتلني. لكنني لم أعد أخشاه الآن. ولا أخاف من سكينه. أسكت يا راكيتكا. لا تحدثني بعد الآن عن ديمتري فيودوروفتش. لقد أساء إليّ كثيراً. لا أحب أن أفكر في شيء الآن. أريد أن أفكر في عزيزي، في إيليوشا. إنني أتأمل عزيزي إيليوشا... هلّا ابتسمت قليلاً يا ملاكي. كن أكثر فرحاً، شاركني سعادتي، اهزأ بسخافاتي... آه، لقد ابتسم لي. لقد ابتسم! ما أروع نظرته الوديعة. هل تعلم يا إيليوشا؟ كنت أخاف أن تغضب مني بسبب تلك القصة التي حدثت في ذلك اليوم عند الآنسة. لقد تصرَّفت معها بخبث... هذا صحيح لكنني سعيدة رغم كل ما جرى. كان ذلك سيئاً من جهة وحسناً من جهة ثانية. أضافت ضاحكة ثم عبست فجأة وطاف بابتسامتها شيء من القسوة. قال لي ميتيا كيف صرخت بعد انصرافي قائلة: «هذه البنت تستحق الجلد!» لقد أرادت أن تعرفني آملةً في أن تسيطر عليّ... كانت تعتقد أنها ستحطمني وستفتنني بفنجان من الشوكولا... لقد أحسنتُ صنعاً إذ تصرفت على هذا النحو، قالت مع ابتسامتها نفسها. كل ما أخشاه هو أن تكون قد غضبت مني...

- صحيح، ما همّ! قال فجأة راكيتين بدهشة كبيرة. إنها تخشى رأيك حقاً يا إيليوشا! تخاف منك، من دجاجة مثلك...

- هو في نظرك دجاجة لأنك... بدون حياء. أما أنا فأحبه بكل جوارحي، هل تصدّق؟ هل تصدقني يا إيليوشا إذا قلت لك إنني أحبك من كل قلبي.

- إنها لم تنزعج! هذا تصريح بحبٍ يا ألكسي!

- أجل أنا أحبّه.

- والضابط؟ والرسالة القادمة من موكرويه؟

- هذان أمران مختلفان.

- ذلك ما تقوله النساء في مثل هذه الحالة.

- لا تغضبني يا راكيتكا. أجابت غروشنكا بحدة. هذان أمران مختلفان. أنا أحب إيليوشا حباً آخر. صحيح أنني قد وضعت خطة شريرة ضدك يا إيليوشا فيما مضى، لأنني منحطة، لأنني قاسية. ولكن في لحظات أخرى أعتبرك بمثابة ضمير لي، وطالما حدَّثت نفسي قائلة: «لا بدّ أنه يحتقرني بسبب سلوكي». وقلت لتفسير هذا الكلام أمس الأول عندما عدت من منزل الآنسة. لقد لاحظتك من زمن بعيد يا إيليوشا، وميتيا يعرف هذا. لقد قلته له. وهو يفهمني. هل تصدق يا إيليوشا أنني، أحياناً، حين أنظر إليك أشعر بالخجل فجأة، بالخجل من نفسي... كيف تمكنت أن تدخل إلى قلبي على هذا المنوال؟ ومنذ متى، لا أدري، لا أتذكر أبداً...

دخلت فينيا ووضعت على الطاولة صينية عليها زجاجة مفتوحة وثلاث كؤوس ملأى.

- وصلت الشمبانيا! صاح راكيتين. أنت مهتاجة جداً يا أغرافينا ألكسندروفنا حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك. ومتى شربت كأساً واحدة سوف ترقصين. لكنني أرى أن الشمبانيا لم تقدَّم وفقاً للأصول. الشمبانيا فاترة، والسدادة منزوعة، والخادمة ملأت الكؤوس في المطبخ. لا بأس... سنشربها على كل حال.

واقترب من الطاولة فتناول كأساً وأفرغها في فمه دفعة واحدة ثم ملأها مرة ثانية.

- لا يتمتع المرء بالشمبانيا في كل يوم. تمتم وهو يمرّر لسانه على شفتيه. جاء دورك يا إيليوشا. فلنرَ مقدرتك! نخب مَن نشرب؟ نخب أبواب الجنة؟ تناولي كأساً يا غروشنكا أنت أيضاً واشربي معنا نخب أبواب الجنة!

- أبواب الجنة؟

وتناولت كأساً. وكذلك إيليوشا، فشرب جرعة ووضع الكأس.

- أفضّل أن لا أشرب! قال بابتسامة عذبة.

- ولماذا كنت تتباهى إذن؟ صاح راكيتين.

- أنا إذن، لن أشرب. قالت غروشنكا. هذا لا يعني لي شيئاً. بإمكانك أن تشرب الزجاجة بمفردك يا راكيتكا. أما إذا قرر إيليوشا أن يشرب فسأشرب أنا أيضاً.

- يا للعواطف الرقيقة! قال راكيتين ساخراً. إنها تركع. هو له عذره على الأقل، أما أنت فأيّ عذر لك؟ لقد تمرَّد على الله، وأراد أن يأكل نقانق...

- كيف حصل هذا؟

- مات مرشده الراهب اليوم... الراهب زوسّيما القديس.

- مات الراهب زوسّيما؟ صاحت غروشنكا. يا إلهي! لم أكن أعرف ذلك! ورسمت إشارة الصليب بتقى. يا إلهي! وتابعت منفعلة فجأة كالمذعورة، وقفزت عن ركبتيه. ومضت تجلس على الكنبة. نظر إليها إيليوشا نظرة طويلة دهِشة، وانفرجت أسارير وجهه. وقال مخاطباً راكيتين بصوت حاد وحازم.

- لا تحاول أن تزعجني يا راكيتين، بموضوع ثورتي المزعومة على الله. لا أريد أن أغضب منك أنت أيضاً، ومن أجل هذا، كن أقلّ أذية. لقد فقدتُ كنزاً لم تملكه أنت طوال

حياتك لذلك لن تستطيع أن تفهمني. من الأفضل لك أن تقتدي بها. هل رأيت كم تجنبتني؟ لقد جئت إلى هنا لأقابل مخلوقة شريرة، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسي، لأنني كنت في تلك اللحظة سخيفاً شريراً. فوجدت أختاً صادقة، كنزاً، نفساً محبّة... عنك أتكلم يا أغرافينا ألكسندروفنا. لقد منحتني الشجاعة لكي أعيش.

وارتعشت شفتا إيليوشا، وسكت مختنقاً، فتوقّف.

- لكنها أنقذتك. قال راكيتين وهو يقهقه بسخرية. كانت تنوي أن تبتلعك، هل تعرف ذلك؟

- كفى يا راكيتين! قالت غروشنكا مندفعة فجأة. واسكتا كلاكما. أسكت يا إيليوشا! لأنّ كلماتك تشعرني بالعار. لأنني سيئة ولست طيبة، هكذا أنا... أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك كذاب. جائز أنني نويت في السابق تلك النيّة الجبانة وهي أن أبلعه، ولكنك الآن تكذب، لأن هذا قد مضى الآن... ولا أريد أن أسمع كلمة واحدة منك يا راكيتا! قالت غروشنكا مضطربة بشكل غير عادي.

- لقد فقدا كلاهما العقل. قال راكيتين وهو ينظر إليهما مدهوشاً. كأنهما مجنونان. هل أنا في مستشفى للمجانين؟ أصبحا عاطفيين، وسيبدآن بالبكاء!

- نعم، سوف أبكي، نعم سوف أبكي. رددت غروشنكا. لقد دعاني «أخته» لن أنسى هذا أبداً! اعلم يا راكيتا أنني مهما أكن شريرة، وبالرغم من كل شيء، فقد وهبته بصلتي الصغيرة.

- بصلتك الصغيرة؟ حقاً لقد فقدا العقل.

استغرب راكيتين اندفاعاتهما الحماسية، وكان يشعر بالإهانة رغم أنه كان بالإمكان أن يدرك أن الظروف قد جمعت هذين الإنسانين بشكل من شأنه أن يبثّ في نفسيهما الاضطراب. لكن راكيتين، السريع جداً إلى إدراك كل ما يمسّه، يجد عناءً في فهم مشاعر الآخرين وأحاسيسهم، أولاً لأنه عديم الخبرة بحكم شبابه، وثانياً لأنه مسرف في أنانيته.

- لقد رأيت يا إيليوشا أنني تباهيت أمام راكيتا بأنني قدّمت بصلة صغيرة. قالت غروشنكا متوجهة إلى إيليوشا وهي تضحك بعصبيّة. ولكنني سأتكلم معك بغير تبجّح. الأمر يتعلق بأسطورة: إنها قصة جميلة حفظتها على ظهر قلب، روتها لي في طفولتي ماترينا التي تعمل اليوم طباخة عندي. تقول القصة: «كانت، فيما مضى، امرأة عجوز شريرة جداً. وعندما ماتت وهي لا تملك أيّ فضيلة يمكن أن تشفع لها في يوم الحساب، أمسكتها الشياطين ورمتها في بحيرة من نار، عندئذ، أخذ ملاكها الحارس يفكّر: «ماذا يمكنني أن أكتشف لها فضيلة قامت بها أذكرها عنها للرب؟» فإذا هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة في حياتها، فقال للرب: «لقد انتزعت من حديقتها بصلة صغيرة، ذات يوم، وأعطتها لمتسوِّلة». فقال الله للملاك الحارس: «خذ هذه البصلة ومدَّها إلى هذه المرأة في بحيرة النار، وقل لها أن تتمسك بها ثم شدَّها لتخرجها من اللهب. فإذا استطعت أن تخرجها ذهبت إلى الجنة، أما إذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث هي». أسرع الملاك الحارس إلى المرأة ومدَّ إليها البصلة، وقال لها: «تمسكي بهذه البصلة فأخرجك من النار». وراح يشدّ بكل قواه، وكاد يخرج المرأة من بحيرة النار حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل إنقاذها، فتمسكوا بها لكي يخرجوا من البحيرة معها. لكن العجوز كانت شريرة جداً فركلتهم بقدميها وهي تصيح: «إنه يريد إنقاذي أنا لا إنقاذكم أنتم. هذه البصلة بصلتي أنا لا بصلتكم أنتم». فما إن نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة فسقطت العجوز في البحيرة مجدداً. وما تزال تحترق في النار حتى الآن. أما الملاك فانصرف باكياً[32]. إنني أحفظ هذه الأسطورة على ظهر قلب.

احتفظت بها لأن هذه المرأة العجوز الشريرة هي أنا. وقد تبجّحت أمام راكيتا بأنني أعطيت بصلة. أما لك أنت فأقول بتواضع إنني إن كنت قد أعطيت بصلة مرة في حياتي فذلك كل ما فعلته ولا تتجاوز طيبتي هذه الحدود. إذن، لا تمدحني يا إيليوشا ولا تعتقد أنني طيبة. أنا شريرة، شريرة جداً، وأشعر بالعار عندما تمدحني. وها أنا أعترف لك بكل شيء يا إيليوشا: لقد بلغت من فرط الرغبة في أن أراك عندي أنني كنت لا أعرف ماذا أفعل لأحضّ راكيتين على أن يجيئني بك. وأخيراً، وعدته بأن سأعطيه خمسة وعشرين روبلاً إذا هو جاء بك إلى منزلي. لحظةً يا راكيتا! وأسرعت غروشنكا تقترب من المنضدة، ثم فتحت درجاً وتناولت محفظة نقودها، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً.

- ما هذه السخافات، ما هذه السخافات! صاح راكيتين مرتبكاً.

- اقبض أجرك يا راكيتا! أراهن أنك لن ترفضه! لقد ألحت عليّ لكي أعطيك هذا المبلغ. ورمت إليه الورقة.

- وهل يمكنني أن أرفض؟ قال راكيتين بصوت أجش محاولاً أن يخفي اضطرابه وخجله. لقد وجد الأغبياء في هذا العالم لمصلحة الناس الأذكياء.

- والآن، اسكت يا راكيتكا! قالت غروشنكا. إن ما سأقوله الآن غير صالح لك. اجلس هناك في الزاوية واسكت، ولا تقل شيئاً. أنت لا تحبنا فما عليك إلّا أن تسكت.

- ولماذا أحبكما؟ قال راكيتين دون أن يخفي غضبه الشرير. ودسَّ ورقة الخمسة والعشرين روبلاً في جيبه. ولكن تملكه الخجل أمام إيليوشا. كان يعتقد أنه سيتقاضى مكافأته فيما بعد، على غير علمٍ منه، فإذا بالعار الذي يشعر به الآن يجعله شرساً. كان قد رأى أن من الحذق أن لا يستفز غروشنكا، ولكنه بدأ يغضب الآن:

- لا يحبّ المرء بدون باعث على الحب، فما الذي يجعلكما تستحقان أنتما حبي؟

- إذن، أحبَّ أنت بدون سبب مثل إيليوشا!

- من قال لك إن إيليوشا يحبك؟ ماذا فعل من أجلك لكي تصبحي مجنونة؟

كانت غروشنكا في وسط الغرفة، تتكلم متحمسة، وكانت تُسمع عبر صوتها نبرات هستيرية خفيفة.

- اسكت يا راكيتكا! أنت لا تفهم في هذه الأمور شيئاً. ولا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بيني وبينك وتخاطبني بصيغة «المفرد». لا أسمح لك أن تفعل هذا لاحقاً. من أين جاءتك هذه الجرأة؟ ابقَ في زاويتك واسكت لأنني أعتبرك بمثابة خادم لي. والآن يا إيليوشا، سأقول لك الحقيقة كاملة لكي تعرف أنني مخلوقة شريرة. إنني أعترف لك وليس لراكيتا! لقد أردت ضياعك يا إيليوشا، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها! لقد صممت على هذا الأمر وكنت حريصة عليه أنني حرَّضت راكيتا بالمال على أن يجيئني بك. وما الذي دفعني إلى أن أضيّعك؟ إنك لم تلاحظ شيئاً يا إيليوشا، ولم يخطر ببالك شيء، وكنت تشيح بوجهك عني. كنت تغض طرفك. أما أنا فقد نظرت إليك أكثر من مئة مرة، وسألت كل أصدقائي عنك. انطبعت ملامح وجهك في قلبي. كنت أقول لنفسي: «إنه يحتقرني». إنه يرفض أن ينظر إليّ، وشعرت بغضب إلى درجة أنني دُهشت أنا نفسي. فقلت: «لماذا أخاف من هذا الشاب؟ سوف أبلعه لقمة واحدة، وبعد ذلك أضحك ملء فمي». واضطرم في نفسي نوع من الغضب. هل تصدق؟ لا يستطيع أحد أن يأخذ عليّ شيئاً في هذه المدينة، لن يجرؤ أحد أن يشتبه في أغرافينا ألكسندروفنا ويسيء فيها الظن إن هي استقبلت رجلاً في منزلها.

لا يوجد في حياتي إلّا ذلك العجوز الذي ارتبطت به وبعته نفسي. لقد جمع الشيطان بيننا. ذلك العجوز وحده من حظِيَ بي. ومع ذلك، كنت مستعدة لأن أكون شاذة عن هذه القاعدة من أجلك. كنت أتحضَّر لكي أبلعك لكي أستطيع أن أضحك ما شئت بعد ذلك. فانظر إلى مدى ما أنا عليه من دهاء وشرّ، أنا التي دعوتني «أختك»! وهذا صاحبي الذي أغواني يبلغني أنه قادم وأنا بانتظار أخبار منه. هل تعلم ماذا كان هذا الرجل في حياتي؟ لقد جاء بي كوزما إلى هنا منذ خمس سنوات. كنت، في بادىء الأمر، أعيش هاربةً من الناس أخاف أن يراني أحد أويسمعني أحد. كنت ضعيفة، غبيّة، ولا أكفّ عن البكاء ليلاً نهاراً. كنت أبقى مؤرقة لياليَ بكاملها، أحدّث نفسي قائلة: «أين هو في هذه الساعة الرجل الذي أغواني؟ لا شك أنه يضحك عليّ ويسخر مني مع امرأة أخرى. آه... لو أستطيع أن ألقاه يوماً! سوف يدفع ثمن ما جنت يداه!». وكنت أبكي على وسادتي في الظلمة وأحلم بالثأر. كنت أستثير ألمي عمداً لأملأ نفسي حقداً. كنت أخرج في الليل قائلة: «سوف يرى! سوف يرى! سوف يندم على ما فعل بي!». ثم أدركت فجأة عجزي. وأصبحت إذا تخيَّلت أنه يسخر مني أو أنه قد نسيني تماماً - وهذا أنكى - أسقط عن سريري على الأرض وأتدحرج باكية مرتجفة بكل جسدي حتى انبلاج الفجر. ومتى أشرق الصباح نهضت وأنا أشدّ شراسة من كلب، نهضت وأنا مستعدة لأن أؤذي أول إنسان ألتقيه. وانقضت السنون، ورحت أجمع المال، وأصبحت بدون شفقة، وسمنت. ماذا تعتقد؟ هل تعتقد أنني أصبحت بذلك أهدأ بالاً وأكثر تعقلاً؟ لا، ما من أحد يرى ما أقاسي، ما من أحد في العالم كله يتصوّر ما أقاسي: مايزال يحدث لي حتى اليوم كما كان يحدث لي منذ خمس سنوات حين كنت صبيَّة، أن أشدّ على أسناني في سريري ليلاً وأستمر في البكاء حتى الصباح، مرددة: «سوف يدفع ثمن ما جنت يداه!». هل تسمعني؟ فاحكم الآن عليّ: لقد وصلتني منذ شهر رسالة أولى يبلغني فيها أنه أصبح أرمل ويريد أن يراني ويأمل أن يصل عما قريب. صُعقت في الوهلة الأولى وحطّمني الانفعال. ثم قلت لنفسي: «سوف يعود ولن يكون عليه إلّا أن يصفّر حتى أركض إليه مثل كلب، مجلّلة بالعار، مطعونة القلب، طالبة الغفران!». وعندئذ، تساءلت: «هل أكون وضيعة إلى هذا الحدّ؟ هل أرضى أن أذلّ نفسي إلى هذا الحدّ؟». واستبدّ بي الغضب على نفسي طوال هذا الشهر، وكان أسوأ مما حصل معي منذ خمس سنوات. هل أدركت يا إيليوشا ما تتصف به نفسي من سوء وشرّ وعنف؟ إنني أقول لك الحقيقة كاملة. لقد اتخذت ديمتري سلوى لنفسي حتى لا أركض إلى لقاء الآخر. أسكت يا راكيتا! ليس أنت الذي يحكم عليّ! ولست أنت من أتحدث إليه! كنت قبل قدومك يا إيليوشا مستلقية على الكنبة أتحضَّر لمواجهة قدَري، ولن تعرف أبداً ما كان يجري في قلبي. قلْ لآنستك يا إيليوشا أن لا تحقد عليّ بسبب ما حدث أمس الأول!... ما من أحد يستطيع أن يتخيَّل ما أشعر به الآن، لا أحد باستطاعته أن يعرف... لذلك، هل أحمل سكيناً معي في هذا المساء لأذهب إلى الموعد، لم أقرر بعد...

بعد أن قالت غروشنكا هذا الكلام الذي «يرثى له» لم تستطع أن تتمالك نفسها، فتوقفت عن الكلام، وغطت وجهها بيديها وتهالكت على الكنبة تنتحب على الوسادة مثل طفل صغير. فنهض إيليوشا من مكانه واقترب من راكيتين:

- هوِّن عليك يا ميشا. قال. لقد أهانتك ولكن لا تغضب منها. هل سمعت ما قالته؟ على المرء أن يعامل الطبيعة البشرية بالتسامح وأن يشارك الناس آلامهم...

قال إيليوشا هذا الكلام بانفعال من قلبه لا يقاوم. كان يشعر بحاجة إلى إطلاق انفعاله. ولئن خاطب راكيتين بهذا الكلام فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيداً لو لم يكن راكيتين هناك. لكن هذا الأخير نظر إليه بسخرية فتوقف إيليوشا عن الكلام فجأة.

- إن راهبك المرشد هو من ملأ رأسك بهذه الأفكار وتريد أنت أن تقدّمها إليّ الآن يا إيليوشا، يا رجل الله الطيب. ردد راكيتين بابتسامة حاقدة.

- لا تستهزىء يا راكيتين، لا تسخر ولا تقل شيئاً عن الراهب العجوز الراحل: إنه أرقى من جميع الذين عاشوا على هذه الأرض!

صاح إيليوشا والدموع في صوته. فأنا لا أتكلم معك كقاضٍ دائماً، أنا بالذات كآخر من يحاكم. فمن أنا أمام هذه المرأة؟ اذهب إلى منزلها بهدف الضياع، قائلاً لنفسي «لا بأس... لا بأس...»، وذلك بسبب جبني، وهي بعد خمس سنوات من العذاب، تغفر كل شيء، وتنسى كل شيء، وتبكي، إذا ما قيل لها كلمة صادقة من أي رجل مجهول! إن الرجل الذي أساء إليها وألحق بها كل ذلك الأذى قد عاد وأومأ إليها، فإذا بها تغفر له فوراً فرحة سعيدة. أما السكين فكن على ثقة أنها لن تحمله! لا، لن تحمله. لست أدري يا ميشا هل أنت مثلها طيب ونبيل! هذا درس تعلمته اليوم... هذه المرأة أعظم منا بالحب... هل كنت تعرف ما روته لنا الآن؟ لم تكن تعرفه حتماً، وإلّا لعرفت كل شيء منذ زمن بعيد... وتلك الأخرى التي أساءت إليها أمس الأول، يجب أن تغفر لها هي أيضاً! سوف تغفر لها متى عرفت... وستعلم... أن هذه النفس لم تستردّ هدوءها بعد. لعلَّ في هذه النفس كنوزاً...

سكت إيليوشا لأنه كان منقطع الأنفاس. وكان راكيتين يحدق إليه مدهوشاً رغم غضبه. لم يكن يتوقع مثل هذا الكلام من إيليوشا الهادىء.

- يا لك من محامٍ بارع! أتراك وقعت في حبها؟ أغرافينا ألكسندروفنا، لقد تولَّه صديقنا الصائم بحبك، هنيئاً لك بالنصر! صاح راكيتين ضاحكاً بوقاحة.

رفعت غروشنكا رأسها عن الوسادة، وألقت على إيليوشا نظرة حنوناً أشرقت وجهها المحتقن بالدمع.

- لا تأبه له يا إيليوشا، يا ملاكي. أنت ترى من هو، فلا داعي إلى مناقشته. كنت أنوي يا ميشيل أوسيبوفيتش أن أعتذر إليك عن الكلام الجارح الذي قلته لك، ولكنني أعدل الآن عن ذلك. وعادت تكلم إيليوشا قائلة له وملء وجهها الفرح: إيليوشا، اجلس هنا، تعال إلى جانبي، هكذا، قريباً مني. قل لي يا إيليوشا (أمسكت يده ونظرت إلى عينيه مبتسمة)، قل لي: أما زلت أحب الآخر؟ أم أنني لا أحبّه؟ أقصد الرجل الذي أغواني. أحبّه أم لا، أجب؟ كنت قبل قدومك أتساءل في الليل أحاول أن أقرأ في أعماق قلبي: أما زلت أحبه؟ أضئ طريقي يا إيليوشا. هذه ساعة اتخاذ القرار. أنا أَكِل أمري إليك. هل يتوجب عليَّ أن أسامحه؟

- لقد سامحته وانتهى الأمر! أجاب إيليوشا مبتسماً.

- صحيح، لقد سامحته. قالت غروشنكا مفكرة. ما أجبن قلبي. ثم صاحت: إنني أشرب نخب هذا الجبان الكبير، قلبي. وتناولت من الطاولة كأس شمبانيا، وأفرغتها في فمها دفعة واحدة ثم رمتها على الأرض. تحطمت الكأس محدثة ضجة قوية. ومرة أخرى، ظهر في طرفي فمها شيء من القسوة. ثم قالت بصوت أجش مثقلاً بتهديد غامض، وهي تخفض ناظريها كأنها تخاطب نفسها:

- ربّما لم أسامحه بعد. إن قلبي يستعد للتسامح وسأحاول أن أقاومه. آه يا إيليوشا! ما كان أجمل تلذذي بالدموع التي ذرفتها طوال السنوات الخمس. إن عذابي هو ما أُحِبّ. إنني أحب ألمي، ولا أحبه هو!

- لا أتمنَّى أن أكون هو! قال راكيتين بتهكم.

- لن تكون إياه أبداً يا راكيتكا، أبداً... اعلم هذا. أنت سوف تنظف حذائي. ذلك ما

تصلح له في أكثر تقدير. فالنساء اللواتي هنّ من صنفي لم يخلقن لك أنت، ولا له أيضاً، على كل حال...

- ولا له أيضاً؟ ولمن تزينت إذن؟

- لا تأخذ عليّ ملابسي يا راكيتا! فأنت لا تعرف كل ما في قلبي! سأمزق ثوبي وأنزع زينتي إذا فكَّرتُ في هذا. سأرميهما على الفور، هل تفهمني؟ صرخت بصوت حادّ. أنت لا تعرف يا راكيتكا الهدف الذي تزينت من أجله، من يدري؟ ربما ذهبت إليه فقلت له:

- أنظر! انظر، هل رأيتني هكذا، نعم أم لا؟ لقد تركتني هنا وأنا في السابعة عشرة من العمر نحيلة منتحبة. سأجلس بقربه وأغويه وأضرم نار الحب في قلبه. «أرأيت كيف أصبحتُ اليوم؟ أأنت تعجب بي الآن؟ اكتفِ إذن بالإعجاب يا عزيزي، كل شيء يبقى على شاربيك ولا شيء في فمك!». لعل هذا هو السبب في أنني تزينت يا راكيتا؛ بهذا أنهت غروشنكا حديثها لراكيتين وهي تضحك بخبث. أنا عنيفة يا إيليوشا، أنا شريرة. سأخلع ثوبي وأشوّه نفسي وأحرق وجهي وأجرحه بضربات سكّين لأشوّه جمالي ثم أذهب أتسوّل. لا يتوقف الأمر إلّا عليَّ أنا، أن أبقى هنا في هذا المساء، فلا أذهب لا إلى هذا ولا إلى ذاك. وإذا أردت أرجعت منذ الغد إلى كوزما كوزميتش كل الهدايا التي قدَّمها لي، وكل المال الذي أعطانيه، ثم أمضي أعمل طوال حياتي خادمة لأكسب عيشي... هل تعتقد أنني لن أفعل شيئاً من هذا يا راكيتكا؟ هل تعتقد أنني لن أجرؤ على ذلك؟ سأفعله، سأفعله، لا تثرني وإلّا فعلته فوراً... أما الآخر، فسوف أطرده وأستهزىء به وأنسلّ من بين أصابعه!

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب هستيري ثم لم تتمالك نفسها فإذا بها تخبىء وجهها بين يديها وترتمي على الوسادة باكية ترتعش بكل جسدها. فنهض راكيتين فجأة وقال:

- آن الوقت للانصراف! لقد تأخرنا. سوف يمنعوننا من دخول الدير.

فانتفضت غروشنكا من مكانها قائلة:

- لن تذهب الآن يا إيليوشا! هل تعبث أنت بي؟ لقد أثرت الاضطراب في نفسي ثم تتركني وحيدة، كما كنت من قبل، في هذا الليل!

- لن يقضي الليل عندك على كل حال قال راكيتين ساخراً. إلّا إذا كان راغباً في ذلك. سأعرف كيف أرجع وحدي.

- أسكت أنت أيها النفس الشريرة! صرخت غروشنكا. لم تعرف أبداً كيف تكلمني كما فعل هو اليوم.

- ماذا قال لك؟ سألها راكيتين غاضباً.

- لا أعرف، لا أتذكر كلامه، ولكن كلماته دخلت إلى رأسي وهزَّت قلبي بقوة... لقد أخذته بي شفقة، فكأنه أول إنسان يرثي لحالي، كان الإنسان الوحيد الذي رثى لحالي! لماذا لم تأتِ من قبل يا ملاكي؟ سألت إيليوشا وهي تركع أمامه فيما يشبه الوجد. لقد انتظرتك طوال حياتي. كنت أعرف، كنت أشعر أنني سألتقي ذات يوم إنساناً مثلك يعرف كيف يسامحني. كنت واثقةً أن أحداً سيحبني لغاية أخرى غير عاري...

- ماذا فعلت لكي أستحق هذا كله؟ سألها إيليوشا مبتسماً بحنان، ومال عليها وأمسك يدها. أنا، قدمت إليك بصلة، بصلة صغيرة، هذا كل شيء!...

توقف إيليوشا عن الكلام وراح يبكي. وفي تلك اللحظة سُمعت ضجة في المدخل. لقد دخل أحدهم إلى المنزل. نهضت غروشنكا مذعورة. وأسرعت فينيا إلى الغرفة تصرخ فرحاً:

- آنستي، عزيزتي، آنستي الطيبة، وصل الرسول! لقد أُرسلت من موكرويه عربة تستقلينها، وراح الحوذي تيموفي يبدِّل الخيول. توجد رسالة لك يا آنستي، رسالة، رسالة... هذه هي الرسالة!

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوّح بها وهي تتكلم. انتزعت غروشنكا الرسالة منها وأدنتها من الشمعة. كانت بطاقة قصيرة للغاية تحوي بضعة أسطر قرأتها غروشنكا بلمحة بصر، ثم صاحت وقد شحب وجهها بشدة وتقبّض بابتسامة مؤلمة:

- لقد صفّر لي. لقد صفّر لي. إزحف يا كلبي الصغير!

بقيت مترددة برهة قصيرة، ثم ازدحم الدم في وجنتيها فاحمرتا، وصاحت:

- سأذهب! انتهت تلك السنوات الخمس من حياتي. وداعاً، وداعاً، وداعاً لك أنت أيضاً يا إيليوشا. ها قد تقرر مصيري... اذهبوا، انصرفوا الآن جميعكم، واغربوا عن عينيّ إلى الأبد... ستبدأ غروشنكا حياة جديدة. وأنت يا راكيتا لا تحقد عليّ. من يدري؟ ربما أكون ذاهبة إلى الموت! أشعر أنني سكرى!

تركتهما وركضت إلى غرفة نومها.

- لقد طردتنا. غمغم راكيتين. فلننصرف. ضقت ذرعاً بهذا الصراخ تطلقه امرأة هستيرية. فلنذهب قبل أن يعود الصراخ... والدموع...

انقاد إيليوشا بشكل آلي. كانت العربة في فناء المنزل. خيول تُحلُّ وأناس منهمكون على ضوء قنديل. وأمام الباب خيول ثلاثة جديدة. وما إن نزل كلّ من إيليوشا وراكيتين درجات المدخل حتى فُتحت نافذة غرفة النوم وصاحت غروشنكا بصوت رنان:

- عزيزي إيليوشا، أبلغ أخاك ميتينكا سلامي، وقل له أن لا يحقد على هذه الوغدة التي هي أنا. كرر على مسمعه ما سأقول: «وهبتْ غروشنكا نفسها لرجل بائس وليس لك أنت النبيل». قل له أيضاً إنني أحببته ساعة، ساعة واحدة، وليتذكر تلك الساعة مدى الحياة، إن غروشنكا هي التي تطلب منه...

أنهت كلامها شبه باكية وأسرعت تغلق النافذة.

- إنها تغمد سكيناً في قلب أخيك ميتيا ثم تريد أن يتذكرها مدى الحياة. يا لَلسّاديّة!

لم يجب إيليوشا بشيء. كأنه لم يسمع. إنه يسير إلى جانب راكيتين بخطىً حثيثة. كان في الواقع مذهولاً يسير كآلة. شعر راكيتين بألم عميق كأن أحداً قد غرز إصبعهُ في جرح له لم يلتئم بعد. ليست هذه هي الخاتمة التي كان يأملها للقاء بين إيليوشا وغروشنكا. لقد حدث كل شيء على غير ما كان يتوقع. قال وهو يحاول أن يسيطر على مزاجه:

- إنه بولندي، صاحبها الضابط. لكنه الآن ليس ضابطاً. لقد عمل في إدارة الجمارك في سيبيريا على الحدود الصينية. إنه طرحٌ حقير. قيل إنه طُرد من وظيفته. والأرجح أنه عرف أن غروشنكا قد جمعت بعض المال، فها هو يعود، وهذه هي المعجزة بكاملها!

ما يزال إيليوشا صامتاً. ولم يطق راكيتين صبراً. فقال وهو يضحك بسخرية وخبث:

- إيه! هلّا أوضحت لها الحقيقة، هذه الخاطئة؟ هل رددتَ المرأة المومس إلى طريق الصواب؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها؟ هذه هي المعجزة التي طالما انتظرها الناس منذ هذا الصباح.

- اسكت يا راكيتين! أجاب إيليوشا متألماً.

- أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين تحتقرني الآن؟ لقد بعت صديقاً لي؟ لكن لست أنت المسيح، فيما أعلم، وأنا يهوذا.

- أؤكد لك أنني لم أكن أفكر في هذا الأمر. أنت الذي تذكّرني به الآن.

قال إيليوشا، فغضب راكيتين بشدة وصاح قائلاً:

- فليأخذكم الشيطان جمعاً وفرادى! ولم، يا إلهي، ارتبطت بك! لا أريد أن أعرفك بعد الآن! اذهب في سبيلك وحدك، فهناك ستكون الأفضل!

وسار فجأة في شارع آخر تاركاً إيليوشا وحده في الليل. فخرج هذا الأخير من المدينة وعاد إلى الدير عبر الحقول.

IV

قانا الجليل

كان الوقت متأخراً عندما وصل إيليوشا إلى المنسك بالنسبة إلى الأنظمة المتَّبعة في الدير. ولأنه وصل بعد الوقت المسموح به، سمح له البواب بالدخول من ممرّ جانبي. كانت قد دقت الساعة التاسعة، ساعة الاستراحة العامة والنوم بعد نهار مضطرب بالنسبة إلى الجميع. فتح إيليوشا الباب بوجل ودخل إلى الغرفة التي سُجّي فيها تابوت الراهب العجوز. ما كان يوجد فيها سوى الأب باييسي الذي كان يقرأ الإنجيل أمام نعش المتوفّى، والراهب المبتدىء بروفير الذي أنهكه حديث الليلة السابقة وأتعبته انفعالات النهار، والذي كان ينام على الأرض في الغرفة المجاورة نوماً عميقاً يتيحه له شبابه. ولم يُدر الأب باييسي رأسه رغم أنه سمع دخول إيليوشا. اتجه هذا الأخير إلى الزاوية التي على يمين الباب، وركع وشرع يصلّي. طافحةً كانت نفسه لكن بشكل مضطرب ولم يصدر عنه أي إحساس من خلال التعبير عن نفسه بقوة بل على العكس، كان يطرد أحدها الآخر في نوع من الدوار الهادئ والمطمئن. لكن إيليوشا قد أحسَّ بعذوبة في قلبه. والعجيب أنه لم يستغرب ذلك. كان يرى أمامه مجدداً هذا التابوت الذي يحوي جثمان الراحل المحبوب، لكنه لم يعد يشعر في نفسه بتلك الشفقة النحيبية المتأوهة والمعذبة التي كان يشعر بها في الصباح. عندما وصل ركع أمام التابوت ركوعه أمام هيكل مقدس لكن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه. كانت إحدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، وكان الهواء لطيفاً وبارداً بعض الشيء. قال إيليوشا يحدث نفسه: «لا بدَّ أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة». لكن فكرة رائحة التحلُّل التي أثارت في نفسه، عند الصباح، ذلك الاضطراب والتمرد، أصبحت الآن لا تشعره بشيء من الحرج، راح إيليوشا يصلّي بصمت، وقد لاحظ بعد لحظة أنه يردد صلاة بشكل آليّ. إن نتفاً متناثرة من أفكار تلامس ذهنه وتومض في خياله كشرارات ثم لا تلبث أن تنطفىء ليحلّ غيرها محلها. وقد راح، في بعض اللحظات، يصلّي بحرارة وحماسة شاعراً بحاجة جامحة إلى أن يشكر وأن يحبّ... ولا يلبث فكره أن ينتقل إلى شيء آخر، فإذا به يغوص في أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة والتأمل الذي قطع الصلاة. أصاخ بسمعه في لحظة من اللحظات إلى قراءة الأب باييسي، ثم تملكه التعب، فإذا به ينحدر شيئاً فشيئاً إلى وسنٍ هادىء...

وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل، وكانت أم يسوع هناك مدعوة إلى» العرس مع تلامذته«.

العرس... ؟ ما هو العرس... ؟ وثارت في فكر إيليوشا عاصفة من الخواطر... هي أيضاً سعيدة... ذهبت إلى احتفال... لم تحمل السكّين... لم يكن ذلك منها إلّا كلاماً طائشاً... حسناً... يجب أن تغفر الأقوال الطائشة لأنها تهدّىء النفس... وبدونها يصبح الألم أشدّ على القلب من أن يحتمل. غاب راكيتين في شارع صغير... سوف يغيب في الشارع الصغير... طالما يفكر في الإهانات التي تلحق به... والطريق... إنها عريضة مستقيمة مشرقة مشعة... نقية كالبلور، والشمس تسطع في نهايتها... ماذا يقرأ؟».

«...ولما فرغت الخمرة قالت أم يسوع له: ليس لديهم خمرة».

صحيح، لم أتابع القراءة، مع أنني كنت لا أودّ أن تفوتني هذه الفقرة، إنني أحبها» كثيراً: عرس قانا الجليل، المعجزة الأولى... تلك المعجزة، المعجزة، ما أروع هذه المعجزة! لم يأتِ يسوع للحزن بل للفرح... أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الأولى... «الذي يحبّ البشر يحب فرحهم أيضاً...». ذلك ما ردَّده الراهب المرشد المتوفَّى بدون انقطاع... لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون فرح، كذلك يقول ميتيا... نعم يا ميتيا... كل ما هو صحيح وعظيم وجميل يشيع منه التسامح الشامل - هو الذي كان يقول هذا أيضاً...«.

قال يسوع ...»:

قال لها يسوع: ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعد. قالت أمه للخدم: إفعلوا ما يقوله لكم«.

افرحوا... فرح الفقراء، فرح أي كان، فرح الفقراء جداً جداً... لا شك أنهم كانوا» فقراء جداً ما دامت الخمرة قد أعوزتهم حتى لعرس... يكتب المؤرخون أن الناس الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبريا، وفي المناطق المجاورة لها كانوا أفقر الناس الذين يمكن أن نتخيلهم في هذا العالم... هذه امرأة عظيمة كانت في العرس، هي أمّه، تشعر في قلبها بأنه لم ينزل إلى الأرض إلّا لهدف وحيد هو أن يقوم بمهمّته الهائلة، وأن نفسه قادرة على أن تشارك في الفرح البسيط الساذج الذي يشعر به هؤلاء المتواضعون المبرأون من المكر، الذين دَعَوه بمحبة إلى حضور عرسهم الذي لا تألق فيه. قال لها يسوع وهو يبتسم بعذوبة: «لم تأتِ ساعتي بعد» (لا شك أنه ابتسم في تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لعذوبتها)... هل صحيح أنه جاء إلى الأرض ليزيد الخمرة في أعراس الفقراء؟ ومع ذلك لم يتردد، وقال نعم، ولبَّى طلبها... وعاد ليقرأ«.

قال لهم يسوع املأوا الأجران ماءً، فملأوها إلى فوق».

ثم قال لهم استقوا الآن وقدّموا إلى رئيس السقاة، فقدّموا.

فلما ذاق رئيس السقاة الماء الذي تحوّل خمرة ولم يكن يعرف من أين هي، بينما الخدم الذين كانوا قد استقوا الماء عرفوا، دعا العريس.

وقال له: كل امرىء يضع الخمرة الجيدة أولاً فمتى سكروا وضع الرديئة، أما أنت فقد أبقيت الخمرة الجيدة إلى الآن«.

ولكن ما هذا؟ ما معنى هذا؟ لماذا تتسع الغرفة... صحيح... هو الزواج... العرس... طبعاً. هؤلاء هم المدعوون، وهذان هما العريسان، والجمهور المبتهج و... أين هو ذلك الساقي الحكيم جداً؟ ومن هذا؟ نعم؟ ها هي الغرفة تتسع مجدداً... من ذاك الذي ينهض عند الطاولة الكبيرة هناك؟ كيف؟ هو أيضاً هنا؟ لكنه في التابوت... إنه هنا هو ذاته في الوقت نفسه... وقف ورآني... ها هو يجيء إليّ... أيها الرب!«.

نعم، اقترب منه، اقترب منه، لقد وصل العجوز نحيل الجسم بتجاعيد وجهه الدقيقة، فرحاً ضاحكاً بعذوبة. لقد اختفى التابوت. وهو يرتدي الملابس التي كان يرتديها يوم أمس خلال ذلك الحديث الأخير مع زائريه؛ وجهه مشرق وعيناه براقتان. «كيف أمكن أن يكون هنا في هذه الحفلة؟ هل دُعي إذن إلى عرس قانا الجليل...» كذلك تساءل إيليوشا.

نعم يا عزيزي، لقد دُعيت أنا أيضاً، دعيت ونوديت. قال الصوت الناعم له من - فوقه. لماذا تختبىء هنا؟ تعال، وكن منا...

هو صوته، صوت الراهب المرشد زوسّيما... لا شك أنه هو، ما دام يناديه. ومدَّ

الراهب المرشد يده إلى إيليوشا فنهض إيليوشا.

- فلنفرح! تابع العجوز الصغير. فلنشرب الخمرة الجديدة، إنها خمرة الفرح الجديد، الفرح العظيم... هل ترى كل هؤلاء المدعوين؟ هذا هو الخطيب، وهذه هي الخطيبة، وهذا هو الساقي الحكيم جداً يتذوق الخمرة الجديدة. لماذا تنظر إليّ مدهوشاً؟ لقد وهبت بصلة فقُبلت في هذه الحفلة، وها أنا هنا. كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا بصلة، بصلة صغيرة وحيدة... كيف الأحوال عندنا؟ أنت أيضاً يا ولدي اللطيف لا بدَّ أنك أعطيت بصلة، في هذا اليوم، لجائعة مسكينة. ابدأ مهمتك، واجه عملك، يا صغيري اللطيف... هل ترى شمسنا؟ هو، هل تراه هو؟

- أنا خائف لا أجرؤ أن أنظر. تمتم إيليوشا.

- لا تخف منه. إنه رهيب بعظمته التي ترفعه فوقنا، هو مخيف بسموه ولكن رحمته لا نهاية لها. لقد جعل نفسه شبيهاً بنا، وارتضى بالمحبة أن يشاركنا في فرحنا، وحوَّل الماء خمراً حتى لا يتوقف فرح الضيوف، وهو ينتظر مدعوّين آخرين، وما ينفك يدعو منهم المزيد إلى أبد الآبدين. أنظر، ها هم يأتون بالخمرة الجديدة، ها هم يحملون الجرار...

شيء ما كان يحترق في قلب إيليوشا، شيء ملأه فرحاً شديداً حتى الألم، وانبجست دموع حماسة من روحه... ومدَّ ذراعيه، وأطلق صرخة، واستيقظ...

لا يزال التابوت في مكانه، والنافذة مفتوحة، وقراءة الإنجيل الرصينة الوقورة. ولكن إيليوشا لم يصغِ إلى ما كان يُقرأ. كان قد رقد وهو راكع. والغريب أنه الآن واقف على قدميه. وها هو يتقدم فجأة، بخطى سريعة وثابتة ويصبح قرب التابوت، لقد لامس كتف الأب باييسي دون أن يلحظ ذلك. رفع هذا الأخير عينيه عن كتابه وألقى على إيليوشا نظرة سريعة، لكنه سرعان ما تابع قراءته إذ أدرك أن الفتى كان في حالة غريبة. نظر إيليوشا إلى التابوت نصف دقيقة: تأمل التابوت، تأمل المتوفَّى الساكن الذي غُطي وجهه ببرقع، ووُضِعت على صدره إيقونة، ولُفّع رأسه بقبعة يزيّنها صليب ذو ثمانية فروع. لقد سمع إيليوشا صوته قبل بضع لحظات، وما يزال هذا الصوت يتردّد في أذنيه. إنه ينتظر ويصغي... وفجأة استدار وخرج من الغرفة.

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها بسرعة. كانت نفسه التي تطفح حماسة في حاجة إلى فضاء وحرية. القبَّة السماوية تعلوه في جميع الجهات إلى ما لا نهاية، ملأى بنجوم تسطع أشعتها بهدوء. إن المَجَرَّة، التي لا تكاد تُرى بعد، تمتد من السمت إلى الأفق. ويبدو أن ليلة هادئة صامتة ساجية تلفّ الأرض بأكملها. وتشع الأبراج البيضاء والقبب المذهَّبة من الكنيسة في سماء لازوردية. وأزهار الخريف الرائعة تبدو نائمة حتى الفجر في أحواضها المحيطة بالمنزل. إن سكينة الأرض تتحد بسكينة السماء. وإن سرّ الحياة والنجوم... تأمل إيليوشا هذا المنظر، فإذا هو يتهالك فجأة على الأرض كمن خارت قواه.

لم يعرف إيليوشا لماذا قبَّل الأرض، ولماذا أحسّ بمثل هذه الحاجة إلى أن يغمرها بالقبل. كان يقبّلها باكياً فيرويها بدموعه الحرّى وهو يقسم بكثير من الحماسة أن يحبّها على الدوام، إلى دهر الداهرين. «اسقِ الأرض دموع فرحك وأحبَّ دموعك...» سمع هذا الصوت في أعماق نفسه. لماذا يبكي؟ كان يبكي من الحماسة، وكان يبكي لهذه النجوم التي تتأمله من عمق اللانهاية، ولم «يكن يشعر بخجلٍ من هذا الوجد». فالصلات الخفية التي تشده إلى هذه العوالم البعيدة كانت تهتز في قلبه، وكان يحلّق فرحاً من شعوره بنشوء «هذا الاتصال بينه وبين العوالم الأخرى» في نفسه. كان يريد أن يغفر كل شيء لكل الناس، وأن يستغفر أيضاً لا لنفسه وحدها بل لكل الناس وعن كل شيء. وسمع، مجدداً، صوتاً في أعماق نفسه:

«إن آخرين سيطلبون لي اللطف». وشعر في الوقت نفسه بإحساس واضح جداً، إحساس يشبه أن يكون جسدياً، أن نفحة قوية خالدة كانت تهبط من القبة السماوية وتجتاح كيانه كلّه شيئاً فشيئاً، كفكرة تبزغ في روحه لتحكمها إلى دهر الداهرين. كان قد سقط على الأرض كشاب مسكين، ولكنه نهض طوال حياته كمناضل حاسم وهو يعي ذلك جيداً، وشعر بذلك فوراً وفي لحظة جيدة بالذات. ولم يستطع إيليوشا أبداً أن ينسى فيما بعد وطوال حياته، تلك اللحظة. وظلّ يؤكد بعد ذلك، بقناعة عميقة «أنّ أحداً قد دخل نفسه في تلك اللحظة».

بعد ثلاثة أيام، غادر الدير وفقاً لوصية الراهب المرشد المتوفَّى الذي أمره «أن يبقى في العالم».

الإخوة كارامازوف

دوستويفسكي

الإخوة كارامازوف

الجزء الثاني

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

الكتاب: الإخوة كارامازوف - الجزء الثاني

المؤلف: فيودور دوستويفسكي

الترجمة: فارس غصوب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

(ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01

ص.ب: **3181/11** - الرمز البريدي: **2130 1107**

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

لطبعة الأولى: حزيران **2016**

المحتويات

الكتاب الثامن

ميتيا

I

كوزما سامسونوف

أما بالنسبة لديمتري فيودوروفتش الذي «طلبت» إليه غروشنكا، وهي تتجه نحو حياة جديدة، بأن يُبلِّغ سلامها الأخير، مع المطالبة بأن يحفظ إلى الأبد ذكرى الساعة القصيرة من الحب الذي وهبته له، فقد كان يجتاز هو أيضاً، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة، فترة عصيبة من الاضطراب الشديد والقلق. ففي اليومين الأخيرين، كان يبدو في حالة نفسية يصعب تصورها، حتى ليكاد، في الحقيقة، أن يصاب باحتقان في الدماغ كما عبر عنه ذلك فيما بعد. لم يستطع إيليوشا أن يعثر عليه، عندما بحث عنه طوال الليل؛ كما لم يتمكن أخوه إيفان، أن ينظم لقاء معه في اليوم نفسه في الكاباريه. فقد أزال أصحاب الدار التي كان يقيم فيها، كل أثر له، نزولاً على إرادته. وظل هو خلال هذين اليومين يتجول على غير هدى «مواجهاً قدَره ساعياً إلى خلاصه»، كما صرَّح بذلك فيما بعد. حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل، رغم أنه خاف من الابتعاد في مثل هذه اللحظة وترك غروشنكا بلا رقابة حتى لدقيقة واحدة. سوف تُذكر هذه الظروف المختلفة بتفاصيلها بعد قليل، وحسبي الآن أن أسرد أهم وقائع هذين اليومين الرهيبين، اللذين سبقا سقوط الكارثة الرهيبة على مصيره فجأة.

في الحقيقة إن غروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمن بشكل صادق وحقيقي ولكنها في مقابل ذلك قد عذبته بقسوة ومن دون شفقة. الأساسي في الأمر أنه لم يستطع أن يفهم نياتها ولا عواطفها. ولم تكن له أي وسيلة في أن يكتشف هذه العواطف على كل حال، كان يعلم أنه إذا حاول ذلك لكانت عاندته وتخلت عنه وهي غاضبة. فقد كانت تجتاز، في تلك الساعة، أزمة عصيبة تتخبط في حيرة شديدة، وفي كل مرة تحاول فيها أن تحزم أمرها كانت تتردد في آخر لحظة. لقد تولد لديه شعور (وهو على حق) أنها كانت في بعض الأحيان تكرهه وتكره ولعه بها. لعله لم يكن مخطئاً في هذا، لم يدرك السبب الحقيقي للقلق الذي تعانيه غروشنكا. وكانت المسألة التي تعذبه إنما ترتد في الواقع إلى هذا الاختيار بين شخصين: «إما هو ميتيا، وإما فيودور بافلوفتش». وهنا يحسن أن أوضح النقطة التفصيلية التالية: كان مقتنعاً بشكل مطلقٍ بأن فيودور بافلوفتش مستعد لأن يتزوج غروشنكا (ربما عرض عليها ذلك)، وكان لا يتخيل في لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل إلى تحقيق أغراضه دون أن يضحِّي بشيء إلّا ثلاثة آلاف روبل. هكذا استنتج ميتيا على أساس أنه يعرف غروشنكا وطبعها. لذلك كان من الممكن أن يقدّر أن ما تعانيه غروشنكا من تردد إنما يعود إلى أنها لا تعرف من تختار منهما، وأيهما أنفع لها. أما بشأن عودة «الضابط»، ذلك الرجل المشؤوم الذي احتل هذا المكان في حياة غروشنكا والذي كانت تنتظر وصوله بذلك القدْر كله من شدة الخوف، صحيح أن غروشنكا أصبحت منذ زمن بعيد لا تكلمه في هذا الأمر، ولكن ديمتري كان يعرف أن صاحبها القديم قد كتب إليها، لأنها أطلعته على الرسالة التي تلقتها منه منذ شهر، وكان يعرف ما تضمنته هذه الرسالة.

لقد أطلعته غروشنكا على الرسالة بنية شريرة، لكنها دهشت كثيراً حين اكتشفت أنه لم يعط الرسالة أي اهتمام. ولعل سبب ذلك يرجع، إلى أنه سئم من وطأة تنافسه مع أبيه هذه المرأة لأنه لم يستطع أن يتخيل مصيبة أكبر وشقاءً أعظم من ذلك، في تلك الفترة على

الأقل. وكانٍ لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيبٌ بعد غياب خمس سنوات، وخاصةً أن يعود قريباً، أضف إلى أن رسالة «الضابط» الأولى لم تتضمن إشارة إلى مجيئه إلّا بكلمات غامضة: لقد كانت الرسالة تحتوي أموراً عامة. يجب أن نذكر أن غروشنكا قد أخفت عنه في ذلك المساء الأسطر الأخيرة التي يشير فيها إلى عودته القريبة بشيء من الوضوح. وكان ميتينكا يتذكر عدا هذا أنه لاحظ أن غروشنكا، حين أطلعته على الرسالة، قد أظهرت على غير إرادة منها احتقارها للرجل الذي كتب إليها الرسالة من سيبريا. ولم تفضِ غروشنكا إليه بعد ذلك بأي شيء عن الاتصالات التي تمَّت بينها وبين غريمه الجديد. إلى أن نسي وجود هذا الضابط نهائياً.. فكان لا يشغله إلّا اعتقاده بأن الصراع الحاسم بينه وبين فيودور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر، فلا بد أن تُحلَّ هذه المسألة على أي حال قبل كل شيء. وكان ينتظر قلِقاً، أن تتخذ غروشنكا قرارها من دقيقة إلى أخرى، وكان يعتقد أنها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحي فتقول فجأة: «خذني، أنا لك إلى الأبد»، وينتهي كل شيء، فيسيطر عندئذ عليها، ويمضي بها إلى آخر العالم. سيأخذها عندئذ فوراً إلى أبعد مكان ممكن، يأخذها إلى أقصى روسيا إن لم يأخذها إلى أقصى العالم؛ وسوف يتزوجان ويستقران مجهولَيِن لا يعرفهما أحد، ولا يمكن أن يهتم بهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك ولا في أي مكان. ولسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة كلياً! هكذا كان يحلم متحمساً بالحياة الجديدة، الحياة «الفاضلة» - الفاضلة خاصة ـ لقد كان متعطشاً جداً إلى هذا التجديد، لأنه كان يتألم من الحمأة الحقيرة التي تردّى فيها وغاص بإرادته، ككثير من هذا النوع من الرجال في مثل هذه الحالة، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير هذا الوسط: فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش في هذا الوسط بعد الآن. كان يتصور أنه متى هجر هذا المحيط الملعون تغيّر كل شيء. ذلك كان أمله، وهذا ما كان يؤلمه.

إن هذا الحل لا يمكن أن يحصل إلّا بالنسبة للحل الأول، الحل «السعيد» للمسألة. وثمَّة قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه، لكن نتيجته مخيفة، هو أن تقول له فجأة: «أغرب عني، فلقد اتفقت مع فيودور بافلوفتش اتفاقاً نهائياً وقررت أن أتزوجه، فلا حاجة بي إليك بعد اليوم.» وهذه الحالة... في هذه الحالة... لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث، ولقد ظل لا يعرف ذلك إلى آخر لحظة. علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئةً له. إنه لم يعقد نيته على شيء، ولم يفكر في ارتكاب أي جريمة. كان لا يزيد على أن يراقب ويترصد ويتجسس ويتعذب بدون انقطاع، ولكنه لا يتصور إلّا الحل الأول، ولا يتنبأ إلّا بالنهاية السعيدة، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى. على أن هناك صعوبة أخرى كانت تنبجس عندئذ وتجعله قلقاً مهموماً؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة في طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد، عقبةً خارجية طبعاً، ولكنها عقبة رهيبة ولا حلَّ لها.

وإذا قالت له: «أنا لك، خذني»، كيف يمكنه أن يأخذها؟ أين يجد الوسائل والمال؟ فالأموال التي كانت تأتيه من حسنات فيودور بافلوفتش الصغيرة قد نفدت منذ سنين طويلة. صحيح أن غروشنكا تملك مالاً، ولكن ميتيا اكتشف فجأة كبرياء شديدة تستيقظ في نفسه: كان حريصاً على أن يتحمل هو نفقات الرحيل، وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله الخاص، ويرفض أن يعيش عالةً عليها. كان لا يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً، وكان إذا تصوَّر ذلك يبلغ من شدة الألم أن يشمئز من نفسه. لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية ولا أن أحللها، وحسبي أن أقرر أن هذه كانت عاطفته، جائز جداً أن يكون هذا الموقف قد أملاه عليه، دون أن يشعر، ما قاساه ضميره من عذاب خفيٍّ منذ أن استولى على المبلغ الذي ائتمنته عليه كاترينا إيڤانوفنا. لقد كان يقول لنفسه كما اعترف فيما بعد: «أنا وغد حقير في نظر الأولى، وسأصبح وغداً حقيراً في نظر الثانية. إذا علمت غروشنكا بالأمر، فلن ترضى بنذل مثلي». ولكن أين عساه يجد المال الضروري والحالة هذه؟ أين عساه يجد المال الذي يحتاج إليه، والذي بدونه سيتعرض كل شيء للخطر، وبدونه لن يمكن أن يتحقق أي هدف؟ «أكلُّ هذا بسبب مسألة مالية حقيرة؟ يا للعار!».

أود أن أشير مسبقاً إلى أنه ربما كان يعلم أين يمكنه أن يأخذ هذا المال، وربما كان يعرف أين هو مخبَّأ. سأكتفي بهذا القدر لأن كل شيء سيتضح فيما بعد. لكن، أين تكمن مصيبته الكبرى، سأقول ذلك ولو بشكل غامض: حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبَّأ في مكان ما، حتى يكون «من حقه» أن يأخذ هذا المبلغ، كان عليه أولاً أن يردَّ الثلاثة آلاف روبل التي يدين بها لكاترينا إيڤانوفنا. «وإلّا لست إلّا سارقاً صغيراً، إلّا لصاً، ولن أبدأ حياتي الجديدة كلصٍّ حقير». كذلك كان يقول ميتيا لنفسه، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب إذا لزم الأمر، من أجل أن يستطيع ردَّ الثلاثة آلاف روبل إلى كاترينا إيڤانوفنا وهذا قبل كل شيء. وقد اختمر هذا القرار في نفسه في الأيام الأخيرة، أثناء الساعات التي أعقبت لقاءه مع إيليوشا في الطريق، بعد أن علم من أخيه بأمر الإهانة التي ألحقتها غروشنكا بكاترينا إيڤانوفنا، فصاح يقول: قل هذا عن لساني لكاترينا إيڤانوفنا «إذا كان ذلك يمكن أن يهدِّىء روعها». ولقد شعر أثناء تلك الليلة، وهو في اضطراب شديد، «بأنه يحسن صنعاً إذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه في سبيل أن يرد إلى كاتيا مالها». قال يخاطب عندئذ نفسه: «ألا فلأصبح قاتلاً ولصاً في نظر ضحيتي وفي نظر جميع الناس، ألا فلأُرسَل إلى سجون الأشغال الشاقة في سيبريا، في سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول عني إنني لم أخنها فحسب، وإنما سرقتها أيضاً وسطوت على مالها لأهرب مع غروشنكا وأبدأ بذلك حياة جديدة محترمة. لا أستطيع أن تقول عني كاتيا هذا الكلام!». ذلك ما كان يحدِّث به ميتيا نفسه وهو «يكزّ» على أسنانه، وكان من حقه فعلاً أن يخشى أن يصاب باحتقان في دماغه. ولكنه كان، حتى تلك اللحظة على الأقل، ما يزال يكافح...

أمر غريب: كان من الممكن أن نعتقد أنه مع هذا القرار لم يبق له سوى شيء واحد ألا وهو اليأس، لأنه أين يمكنه، فجأة، الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير بينما هو يتخبط في فقر مدقع؟ ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية، واثقاً أنه سيعثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه من السماء عند الحاجة. فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين لم يعرفوا في حياتهم إلّا تبديد ما ورثوا، مثل ديمتري فيودوروفتش، والذين يجهلون كل شيء عن طريقة جني الرزق وكسب المال. إن مشاريع خيالية عجيبة تغلي في ذهنه منذ أن ترك إيليوشا قبل يومين، وقدا اختلطت في عقله أبسط المعاني واضطربت كل الأفكار. فبدأ بمشروع هو أسخف ما يمكن أن يتخيله. لقد قرر فجأة أن يذهب إلى التاجر سامسونوف، حامي غروشنكا، ليعرض عليه «مشروعاً» ويحصل منه على كل المبلغ الذي يريده. وكان لا يساوره شك في قيمة مشروعه من الناحية التجارية، وإنما كان يتساءل كيف يمكن أن يستقبله العجوز. وكان يعرف العجوز وجهاً، ولكنه لم يكلمه يوماً حتى ذلك الحين. وكان مقتنعاً منذ زمن طويل، بأن هذا العجوز الفاسق، لن يعارض أن تبني غروشنكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل «يستحق الثقة». كان يقول لنفسه: «أغلب الظن أن العجوز لن يرى أي سوء في هذا، بل لعله يتمناه ويساعد على تحقيقه إذا سنحت الفرصة.». وكان يعتقد أيضاً، على أساس شائعات غامضة وأقوال أفلتت من غروشنكا، أن سامسونوف يؤثره على فيودور بافلوفتش زوجاً لغروشنكا. ربما كان بعض قرائي يرون أن حساباً كهذا من جانب ديمتري، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدي حاميها إن صح التعبير، يدلان على أن ديمتري فيودوروفتش يفتقر إلى رقة الشعور. ولكنني أجيب عن هذا بقولي إن ميتيا كان يرى أن ماضي غروشنكا قد دُفن نهائياً. لقد كان شقاؤه وسقوطه يوقظان في نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها. لقد دفعته حرارة الهوى إلى الاعتقاد بأن غروشنكا ستُبعث من جديد وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه، فيكون في وسعهما كليهما أن يبدأا حياة بريئة من كل إثم، حياةً كلُّها فضائل: لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطاءه، ويبدأان حياة جديدة. أمّا كوزما سامسونوف فكان ديمتري يرى أنه قد لعب في حياة غروشنكا إبان صباها دوراً مشؤوماً، وأنه لم يحبها على كل حال، كان يرى أيضاً أن كوزما - وهذا هو الأمر الأساسي - قد «انقضى» هو أيضاً، فلا يُحسب بعد الآن. أضف إلى ذلك أن ميتيا لم يكن يستطيع كثيراً في اللحظة الراهنة أن يرى

فيه رجلاً، فلقد كان معلوماً في المدينة أن كوزما ليس اليوم إلّا خرقة بالية، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبقِ له غروشنكا إلّا علاقاتٍ أبوية إن صح التعبير، وذلك منذ زمن غير قصير، منذ ما يقرب من عام. صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة، ولكنه كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه. وكان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذي يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم كان يحسُّ بندامة صادقة على ماضيه مع غروشنكا؛ وأن ليس لها في هذا العالم الآن صديق أشد إخلاصاً من هذا العجوز الذي أصبح الآن لا يُخشى منه أذًى.

في اليوم الذي تلى حديثه مع إيليوشا في الحقل، والذي لم يستطع بعده ميتيا أن يغمض له جفن طوال الليل، ذهب إلى منزل سامسونوف في الساعة العاشرة من الصباح، وأعلن نفسه. المنزل قديم، حزين المظهر، عظيم الاتساع، له طابق فوق الطابق الأرضي، وله ملحقات كثيرة وجناح في الفناء. إن الطابق الأرضي يسكنه ابنا سامسونوف مع عائلتيهما، وأخته العجوز، وابنته التي لم تتزوج بعد. أما الجناح الذي في الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه، أحدهما أيضاً ذو عائلة كبيرة العدد. إن أولاده ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم، بينما الطابق الأعلى وقفٌ على العجوز وحده، الذي كان يرفض حتى أن تشاركه فيه ابنته التي تعتني به، وكان عليها، في ساعة محددة، وكلما ناداها، كي تذهب إليه أن تصعد السلَّم رغم داء الربو الذي يرهقها منذ زمن طويل. إن الطابق «الأعلى» الذي يسكنه العجوز يتألف من غرفٍ واسعة متتابعة، مؤثثة على الطراز الذي كان يحبه التجار في الماضي، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد متشابهة ثقيلة من خشب الأكاجو، وعُلِّقت في سقوفها ثريات من الكرستال مجلَّلة بأغطية، ووُضعت في زواياها مرايا قاتمة بين النوافذ. كل هذه الغرف خالية وغير مأهولة الآن، لأن العجوز المريض أصبح لا يغادر غرفة نومه الصغيرة التي تقع في عمق المنزل والتي تخدمه فيها خادمة عجوز تعصب رأسها دائماً بمنديل، و «صبي» ينام على مقعد في المدخل. ولا يستطيع العجوز المشي بسبب ساقيه المتورمتين، فهو يكتفي بأن ينهض عن كرسيه بمساعدة الخادمة العجوز من حين إلى آخر ليمشي بضع خطوات في الغرفة. وكان قاسي الطبع لا يتكلم إلّا قليلاً حتى مع هذه العجوز.

ولما أُبلغ زيارة «الكابتن»، رفض أن يستقبله في بادئ الأمر؛ ولكن ميتيا ألحَّ على أن يراه. فسأل كوزما كوزمتش الصبيَّ هل يبدو على الزائر أنه عنيف وأنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى إلى فضيحة. فكان الجواب:

- لا... إن العجوز يرفض أن يفتح الباب.

ولكن ميتيا لم يفقد سيطرته على نفسه، لأنه كان قد توقَّع ذلك، وتزوَّد سلفاً بقلم وورقة. وبدأ يكتب على الورقة «أن القضية مستعجلة وتتعلق بأغرافينا ألكسندروفنا من كثب»، وأرسل الورقة إلى العجوز. فكَّر العجوز بضع لحظات، ثم أمر الصبيَّ بإدخال الزائر إلى الصالة، وأرسل الخادمة العجوز في الوقت نفسه إلى ابنه الأصغر آمراً إياه أن يصعد إليه فوراً، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة. إنه رجل طويل القامة يبلغ المترين عريض الجسم قوي البنية، حليق اللحية يرتدي الزيَّ الألماني (أما سامسونوف نفسه فكان يرتدي قفطاناً وكانت له لحية). إن جميع أفراد الأسرة يرتعدون خوفاً أمام الأب. ولقد استدعى العجوز ابنه القوي هذا لا خوفاً من الكابتن، فإنه لا تنقصه الشجاعة، ولكن لكي يكون هنالك شاهد. وها هو ذا يستند إلى ابنه وإلى الصبي فيظهر أخيراً في عتبة الصالة كتلةً مائجة. وربما كان يجب أن نسلِّم بأنه كان يشعر بكثير من الفضول.

إن الصالة التي كان ميتيا ينتظر فيها غرفة واسعة معتِمة، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصدر ويُشعر النفس بالحزن، وهي مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجلَّلة بأغطية، وسماط من اللوحات تصطف في القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلَّد المرمر. كان

ميتيا جالساً على كرسي صغير قرب الباب ينتظر أن يتقرر مصيره، وهو في حالة عصبية شديدة فلما ظهر العجوز في المدخل المقابل له على مسافة عشرين متراً من كرسي ميتيا نهض هذا الأخير فجأة وتقدم نحوه بخطًى حازمة عسكرية. كان ميتيا حسن الهندام، يرتدي ردنغوتاً مزرّراً، ويحمل بيديه قبعةً مدوَّرة، ويلبس قُفازين أسودين، تماماً كما كان قبل ثلاثة أيام في الدير عند الراهب المرشد أثناء لقائه فيودور بافلوفتش وأخويه. انتظره العجوز واقفاً، رصين المظهر وقوراً، وشعر ميتيا حين اقترب منه أنه كان يتفرس فيه ويتفحصه بانتباه. وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزمتش من تورُّم شديد منذ زمن. إن شفته السفلى، وهي شفة سميكة، تتدلى الآن تدلياً. حيَّا هذا الأخير ضيفه بصمت ورصانة، ودعاه إلى الجلوس على مقعدٍ أمام كنبة، كما حاول هو بتهالك بطيء مستنداً إلى ذراع ابنه مطلقاً من صدره بعض الأنين أن يجلس مقابل ميتيا بحيث أن ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التي يبذلها العجوز، شعر فوراً بعذاب ضمير وبخجل مزعج لتفاهته الحالية وإزعاجه لشخصية بهذه الأهمية.

سأل العجوز بلهجة حازمة ولكن مهذبة بعد أن استقر على الكنبة:

- بم أستطيع أن أخدمك يا سيدي؟

ارتعش ميتيا، وأراد أن يقف، ولكنه عاد فجلس، ثم بدأ متكلماً بسرعة كبيرة وعصبية شديدة، مكثراً من الحركات والاشارات، لأنه كان في حالة اهتياج عظيم. فمن رآه أحسَّ أنه أمام رجل اندفع إلى آخر مدى يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقي نفسه في الماء إذا أخفق. ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة، ولكن وجهه ظل بارداً هادئاً كأنه وجه طوطم.

لا شك أن كوزما كوزمتش المحترم جداً قد سمع عن خلافاتي مع أبي فيودور بافلوفتش كارامازوف الذي سلبني كل ميراثي من أمي... إن المدينة كلها تلغط في هذا الأمر... لأن الناس هنا قد تعودوا هذه العادة البشعة وهي أن يهتموا بما لا يعنيهم... ولا شك أنك علمت من غروشنكا... معذرة: أغرافينا ألكسندورفنا... التي أحترمها وأبجِّلها إلى غير حدّ...

بدأ ميتيا حديثه بهذه الكلمات وتوقف عند أول كلمة. لكنني لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمة، وحسبي أن ألخص مضمونها الأساسي. إليكم ما قاله ديمتري: لقد ذكر أنه استشار منذ ثلاثة أشهر محاميَ المنطقة (كان ميتيا يتعمد أن يستعمل في شروحه تعابير رائجة في البيئة التي ينتمي إليها سامسونوف). قال: «ذهبت مع المحامي الشهير، إلى بافل بافلوفتش كورنيبلودوف الشهير الذي ربما تعرفه يا كوزما كوزمتش؟ إنه عريض الجبهة، وله ذكاء رجل دولة... وهو يعرفك أيضاً... وقد أثنى عليه ثناءً عظيماً...».

هنا توقف ميتيا مرة جديدة. ولكنه كان يعود إلى نفسه في كل مرة، منتقلاً إلى فكرة جديدة بدون تدرُّج. إذن، إن كورنيبلودوف الرائع هذا، بعد أن استمع إلى شروح ميتيا، ونظر في الأوراق التي وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة، وإنما هو مرَّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً) رأى، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا، وهي القرية التي كان يجب أن تؤول إليه مع أنني لم أستطع أن آخذ من فيودور بافلوفتش إلّا ستة آلاف أو سبعة آلاف، وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز في مأزق صعب... «لأن جميع الأبواب ليست مسدودة، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التي توصل إلى الهدف»؛ أي أنّ من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيودور بافلوفتش على مبلغ يصل إلى ستة آلاف روبل أو سبعة من قبيل التعويض، لأن تشرماشنيا تساوي في الواقع خمسة وعشرين ألف روبل، وحتى ثمانية وعشرين ألف روبل حتماً. - ثلاثون ألفاً، ثلاثون ألفاً يا

كوزما كوزمتش، مع أنني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي إلّا سبعة عشر ألف روبل، تصوَّر...! ولكنني آثرت ألّا أرفع دعوى، لأنني لا أفهم في شؤون المخاصمات شيئاً... فلما وصلتُ إلى هذه المدينة رأيتني ألاحَق وأطارَد. هنا اضطرب ميتيا أيضاً وأسرع يقفز إلى موضوع آخر هل تقبل، في هذه الشروط، يا كوزما كوزمتش المحترم، أن أتنازل لك عن جميع حقوقي عند هذا الشيطان الرجيم، على أن تدفع لي في مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل... إنك لا تجازف بشيء، وأقسم لك عليه بشرفي، بالعكس: لسوف تُرَدُّ إليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعة... لكن المهم أن تتم هذه الصفقة كلها «اليوم». أنا على استعداد لأن أوقِّع عقداً مسجَّلاً لدى الكاتب العدل، أو شيئاً من هذا القبيل... أي أنني مستعد لكل شيء. أعطيك الأوراق التي ستحتاج إليها، وأتنازل لك عن جميع الحقوق... تُبرِم العقد فوراً، إن أمكن، إذا كنت تستطيع ذلك اليوم، صباحاً... ثم تعطيني الثلاثة آلاف روبل... أنت الذي تعدُّ كرأسمالي في هذه المدينة القذرة وبذلك تنقذني.. وتهَب لي فرصة تحقيق مشروع سامٍ جداً نبيلٍ جداً في الواقع... فإنني أضمر عواطف نبيلة لإنسانة تعرفها أنت وترعاها مثل أب... وما كان لي أن أجيء إليك لولا علمي بأنك قد أصبحت لها بمثابة الأب حقاً. وبشكل أدق وجب أن نقول إن رجالاً ثلاثة يتصادمون هنا، لأن القدَر قوة رهيبة يا كوزما كوزمتش!. فلنكن واقعيين يا كوزما كوزمتش، لنكن واقعيين! وإذ إنك أصبحت منذ زمن طويل لا تُحسب في عداد المتصادمين، فلم يبقَ هنا لك إلّا خصمان يتنازعان. إنني أعبِّر عما يجيش في نفسي تعبيراً أخرق، ولكنني لست بأديب. المهم أنه لم يبقَ هنالك إلّا أنا من جهة، وذلك الوحش من جهة أخرى. فاختر: أنا أم ذلك الوحش؟ كل شيء متوقف عليك منذ الآن - مصائر ثلاثة أشخاص وقدَران... اعذرني أنا مرتبك، إنك تدرك ذلك... إنني أرى في نظرات عينيك المحترمتين أنك فهمتني... فإن لم تكن قد فهمتني سوف ألقي نفسي في الماء، هذا هو الأمر!».

قطع ميتيا حديثه الغريب المدهش فجأة بعد أن نطق بجملته السخيفة تلك: «هذا هو الأمر»، ونهض عن مكانه ينتظر الردَّ على عرضه السخيف. لقد شعر فجأة وهو يختم تلك الجملة، أن كل شيء قد ذهب سدىً، وأنه قد ارتكب حماقاتٍ رهيبة. «غريب! كنت حين وصولي أحسُّ أن الفكرة رائعة، فإذا هي لا تسفر في النهاية إلّا عن غباء» وكان العجوز أثناء تدفُّق ميتيا في الكلام، يحافظ على هدوء وضعه، ويراقب محدِّثه وقد ظهر في عينيه تعبير بارد كالثلج. فلما أنهى كلامه، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة، ثم قال له بلهجة حازمة وغير مشجِّعة:

- متأسف يا سيدي! إنني لا أتعاطى أعمالاً من هذا النوع.

أحسَّ ميتيا بساقيه تنثنيان!

- ولكن يا كوزما كوزمتش، ما عسى أصير إليه في مثل هذه الحالة؟ تمتم وهو يبتسم ابتسامة شاحبة؟ لقد هلكتُ الآن، ألا تصدِّق ذلك؟

- آسف...

بقي ميتيا جامداً ينظر إليه بدقة، ولكنه لاحظ عندئذ شيئاً من الانفراج في عضلات وجه العجوز، فارتعش.

- أنا يا سيدي لم أتعود تعاطي أعمال كهذه. قال العجوز بهدوء، فهناك دعاوى ومحامون ومصيبة! ومع ذلك في وسعي أن أدلّك، إذا شئت، على شخص يمكنك أن تتجه إليه...

- يا إلهي! من هو إذن!... تمتم ميتيا! إنك تردُّ إليَّ الحياة يا كوزما كوزمتش!

- هذا الرجل، ليس من هنا، ولا يقيم الآن هنا. إنه فلاح يتعاطى تجارة الخشب. اسمه «لياغافي». وهو يتفاوض منذ سنة مع فيودور بافلوفتش على ثمن الأشجار، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كما تعلم ذلك. وقد جاء إلى المنطقة من جديد، وهو يسكن الآن عند الكاهن ايلنسكي ايلنسكي في قريته التي تبعد اثني عشر فرسخاً عن محطة فولوفيا! وقد كتب إليَّ في موضوع الأشجار هذه مستنصحاً. وأحسب من جهة أخرى أن فيودور بافلوفتش يعتزم الذهاب إليه شخصياً. فإذا أنذرت فيودور بافلوفتش وعرضت على «لياغافي» ما عرضته عليَّ الآن، فمن الجائز أن...

فكرة عبقرية! قاطعه ميتيا بحماسة: ذلك هو الرجل الذي أنا في حاجة إليه؛ هذه الصفقة صفقته! إنه يساوم على السعر، ويُطلب منه مبلغ باهظ ثمناً لأشجار يقطعها، فإذا هو يجد بين يديه أوراقاً تجعله مالكاً للمنطقة بأسرها! هاهاها! انفجر ميتيا يضحك ضحكةً آلية غير متوقعة، استأنف ميتيا كلامه قائلاً وهو يغلي: كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزمتش؟ فلم يملك سامسونوف إلّا أن ارتعش قليلاً.

- لا داعي إلى الشكر. قال سامسونوف وهو يحني رأسه.

- إنك لا تعرف أنك أنقذتني... قلبي هو الذي جاء بي إليك... والآن، فلنذهب إلى ذلك الكاهن!

- لا داعي إلى الشكر.

- سأركض سأطير. لقد أسرفت في الاستفادة من لطفك، بينما أنت مريض. لن أنسى جميلك مدى الحياة. إن روسياً هو الذي يعدك بذلك كوزما كوزفتش، رووووسيّاً!

- حسناً.

أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها، ولكنه لاحظ بريقاً خبيثاً في عيني العجوز في تلك اللحظة، فأرخى ميتيا يده، لكنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه، وقال لنفسه: «لا بد أن يكون متعباً...»

- من أجلها، هذا من أجلها، يا كوزما كوزمتش. وصاح يقول بصوت مدوٍ: هل تعلم أنه من أجلها.

حيَّا العجوزَ بانحناء، واستدار، واتجه نحو الباب بخطًى واسعة وسريعة دون أن يلتفت وراءه. كان يرقص من الفرح. قال لنفسه: «كل شيء قد ضاع. وفجأة ملاكي الحارس أنقذني. فحين يدلني رجل أعمال على هذه الطريق... العجوز الأنبل وما أعظم مهابته! فمعنى ذلك أنني ربحت القضية. سأذهب إلى هناك حالاً. ثم أعود قبل حلول الليل، نعم قبل الليل، لقد ربحت العملية! ذلك أن العجوز لا يمكن أن يكون قد سخر مني على كل حال!». بذلك كان ميتيا يحدِّث نفسه وهو يتجه إلى منزله بخطًى سريعة. ولم يكن يمكنه في الواقع أن يتصور شيئاً آخر. فإما أن المسألة مسألة حلٍّ مضمون يوصى به «رجل أعمال كهذا الذي كان على علم بالموقف وكان يعرف لياغافي هذا (يا له من اسم غريب!) وإما أن العجوز قد سخر منه! ومع الأسف؛ إن هذا الافتراض الثاني كان هو الصحيح. لقد استمرَّ العجوز زمناً طويلاً بعد وقوع الكارثة يضحك كلما تذكر أنه دبَّر مكيدة لهذا «الكابتن». كان رجلاً سيِّئ الطوية قاسي القلب ساخر النفس، كثيراً ما يخالط الكرهَ في نفسه مرض. ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة وحميًا عظيمة واعتقاد ساذج بأنه، هو سامسونوف، يمكن أن تنطلي عليه هذه العروض الخادعة تصدر عن رأس محموم و «سلة مثقوبة» من هذا النوع، أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على غروشنكا التي جاء

هذا «الولد الفاجر» يسأله المال باسمها من أجل «مشروع» سخيف مضحك؟ لست أدري أي الدافعين فعل في نفس العجوز حين كان ميتيا يقف أمامه شاعراً بارتخاء ساقيه هاتفاً في غباء أنه هلك! المهم أن العجوز ألقى عليه في تلك اللحظة نظرات خبيثة وقرر أن يسخر منه. وما إن انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش إلى ابنه، وقد اصفرَّ لونه من شدة الغضب، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا الشاب الرثّ أن يدخل منزله مرةً أخرى في المستقبل وأن لا يُسمح له بدخول الفناء، وإلّا...

ولم يكمل جملة تهديده، ولكن ابنه ارتعد خوفاً، رغم أنه سبق أن رآه غاضباً مرات عديدة. وظل العجوز بعد ذلك ساعةً كاملة فريسةَ غضب شديدٍ يرتعش منه جسمه كله. وعند المساء وقع مريضاً فأرسل في طلب الطبيب.

II

لياغافي

إذن، يجب «الإسراع». لكن المال لاستئجار الخيول ليس متوفراً. ولا يملك سوى بضعة كوبيكات، وهذا كل ما بقي له من سنوات البحبوحة التي عاشها! لكنه تذكّر أن لديه في منزله ساعةً قديمة من فضة، متعطلة منذ زمن طويل. فأسرع لجلبها وأخذها إلى تاجر ساعات يهوديّ، لديه دكان قرب السوق، فاشتراها منه بستة روبلات. هتف ميتيا يقول لنفسه متحمساً: «لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله!»، وعاد إلى مسكنه مسرعاً، فرحاً، يحمل المبلغ معه، واقترض ثلاثة روبلات من أصحاب المنزل الذي يقيم فيه. ولقد وافق أصحاب المنزل بطيبة خاطر على أن يقرضوه المبلغ، رغم أنه كان هذا كل ما تبقى لديهم، وذلك لأنهم يحبونه كثيراً. وأبلغهم ميتيا، وهو فرحٌ، أن مصيره على المحك وهو سيتقرر الآن، وشرح لهم، ببضع كلمات سريعة جداً، «الخطة» التي عرضها على سامسونوف والقرار الذي اتخذه هذا الأخير، والآمال التي أشرقت في نفسه، الخ. وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسراره، وهذا هو السبب في أنهم كانوا يعتبرونه واحداً منهم، فهو «سيد» لا يتكبر. فلما أن جمع ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو، أمر بخيول للسفر إلى فولوفيا. ولكن هذا ألّف واقعة ثابتةً ستُذكر فيما بعد: «في عشية الحادثة، لم يكن ميتيا يملك كوبيكاً واحداً، حتى لقد اضطر، من أجل الحصول على شيء من المال، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة روبلات من أصحاب المنزل، وذلك كله بوجود شهود.».

أذكر هذه الواقعة مسبقاً وباقي القصة سيبين الأسباب.

كان ميتيا، أثناء انطلاق الخيول به إلى فولوفيا بسرعة، مشرق الآمال يتملكه شعور بأن «جميع هذه الشؤون» ستسوَّى أخيراً. إلا أنه كان يرتعش من الخوف حين يتساءل ماذا سيحصل لغروشنكا أثناء غيابه؟ ماذا إذا قررت في ذلك المساء أن تذهب إلى فيودور بافلوفتش؟ لهذا السبب قرر أن لا يخبرها بأمر سفره، كما أنه أمر أصحاب منزله أن لا يكشفوا لأحد عن المكان الذي سافر إليه إذا هم سئلوا عن ذلك. «يجب أن أعود قبل هبوط الليل، مهما كلف الأمر، مهما كلف الأمر». هكذا كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به إلى فولوفيا مسرعة وتهزه بقوة. وكان يحدِّث نفسه أثناء تعجُّله المحموم هذا قائلاً: «أما لياغافي هذا، فسوف أعود به معي، لإبرام العقد». ولكن حلمه لن يتحقق على ما رسم له من «خطط» مع الأسف!

فهو أولاً قد وصل متأخراً، لأنه سلك طريقاً قروياً بعد محطة فولوفيا، واكتشف أنه اجتاز ثمانية عشر فرسخاً وليس اثني عشر فقط. ثم إن الكاهن ايلنسكي لم يكن في منزله لأنه كان قد ذهب إلى قرية مجاورة. فلما عثر عليه ميتيا أخيراً في تلك القرية التي تابع طريقه إليها بخيوله المنهوكة القوى، كان الليل قد أوشك أن يهبط. وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن، وهو رجل لطيف وخجول المظهر، أن لياغافي قد نزل عنده فعلاً في أول الأمر، ولكنه يقيم الآن في سوخوي بوزيولوك، وأنه سيبيت هذه الليلة في عربة حرّاس الغابات لأن له أعمالاً يجب أن ينجزها هناك. فتوسل إليه ميتيا أن يصحبه فوراً إلى لياغافي وأن «ينقذه» بذلك، فتردد الكاهن في أول الأمر، لكنه وافق أخيراً على أن يرافقه حتى سوخوي

بوزيولوك، وكان واضحاً أن الفضول هو الذي دفعه إلى هذه الموافقة. ومن سوء الحظ أنه نصح بقطع الطريق سيراًعلى الأقدام، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو «أكثر قليلاً». وكان طبيعياً أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح، فأخذ يسير بخطًى مديدة على عادته في السير، فكان الكاهن العاثر الحظ مضطراً إلى أن يماشيه راكضاً أو شبه راكض. إن هذا الكاهن رجل ما يزال غضَّ الاهاب، وهو في أحاديثه شديد التروّي والحذر. وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه، عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح المتعلقة بلياغافي، بإلحاح عصبيّ، وظل يتكلم على هذا النحو طوال الطريق. فكان الكاهن يصغي إلى كلامه بانتباه، ولكنه كان ضنيناً بالأجوبة، يقتصر على أن يكرر في الجواب عن أسئلة ميتيا الملحَّة: «لا أعلم، مع الأسف، أنَّى لي أن أعلم!». ولما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه في موضوع الميراث، ذُعر الكاهن، لأنه كان مرتبطاً بفيودور بافلوفتش من بعض النواحي؛ ومع ذلك سأل ميتيا عن سبب إطلاقه اسم لياغافي على هذا الفلاح غورسكين، فأخبره أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم أنه اسمه فعلاً، لأنه يستاء جداً من مناداته بهذا الاسم، وأنه لا غنى عن مخاطبته باسم غورسكين «وإلّا فلن تفلح معه في شيء، بل ولن يستمع إليك». بهذه العبارة ختم الكاهن كلامه، فدُهش ميتيا قليلاً، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذي ذكره له سامسونوف نفسه. فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغيِّر الحديث. ولعله كان يحسن صنعاً لو أفصح لميتيا عن الشك الذي راوده والشبهة التي خطرت بباله: لئن أرسله سامسونوف إلى هذا الفلاح مطلقاً عليه اسم لياغافي، فمن الجائز جداً أن يكون قد فعل ذلك سخرية به؛ ولا بد أن يكون في الأمر شيء «يعرج». ولكن ميتيا لم يكن في وقته متسع للتلبُّث على «مثل هذه التفاهات». فهو يسرع في السير ويمشي بخطًى مديدة، ولم يدرك أن المسافة التي قطعها ليست فرسخاً ولا فرسخاً ونصف فرسخ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل، لم يدرك ذلك إلّا حين وصل إلى سوخوي بوزيولوك. ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر عليه. ودخل الرجلان العزبة التي كان حارس الغابات، وهو رجل يعرفه الكاهن، يشغل نصفها، بينما كان نصفها الثاني الذي يفضل الأول عنايةً وصيانةً والذي يفصله عن النصف الأول دهليز، موضوعاً تحت تصرف غورسكين؛ واتجه الرجلان إلى غورسكين فوراً بعد أن أشعلا شمعةً. كانت الغرفة مدفَّأة تدفئة شديدة، وعلى طاولة من خشب السنديان يُرى سماور منطفىء وصينية وفناجين وزجاجة «روم» فارغة وإبريق ما يزال فيه بقايا خمر، وكسرات خبز. فكان الضيف مستلقياً على مقعد، وقد لفَّ سترته واتخذها وسادة، وكان يشخر شخيراً ثقيلاً. نظر إليه مذهولاً وقال: يجب إيقاظه طبعاً! إن القضية التي جئت من أجلها مهمة جداً، وأنا في عجلة من أمري، لأن عليَّ أن أعود في هذا اليوم بالذات. صمت الكاهن والحارس ولم يبديا رأيهما. واقترب ميتيا من النائم وراح يحاول إيقاظه، فكان يهزه بقوة، ولكنه لم يظفر بشيء؛ ولاحظ بعد برهة أن الرجل سكران، فقال: هو سكران، فماذا عساي أصنع؟ يا إلهي!

وفجأة، فقد صبره وشدَّ الشاخر من ذراعيه، ثم من ساقيه، ثم رفع رأسه، وأجلسه على البنك، فلم يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة إلّا بضع تمتمات تتخللها شتائم مقذعة رغم اضطرابها.

- خير لك أن تنتظر، فليس هو في حالة تمكِّنه من المناقشة. قال الكاهن:

- لقد ظل يشرب طوال النهار. قال الحارس.

- يا إلهي! لو علمتما مدى حاجتي إليه، وفي أي ظرف أنا!

- لا حيلة في الأمر، لا بد من الانتظار إلى صباح غد. ردد الكاهن.

- إلى يوم غد؟ إنك لا تفكر في الأمر! هذا مستحيل! واشتد به اليأس فأراد أن يهز السكران من جديد، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك، لأنه أدرك أن جهوده لا فائدة منها. وقد

.سكت الكاهن؛ أما الحارس فكان شديد النعاس فسكت متجهم الوجه عابس الهيئة

تهيئ الحياة للإنسان في بعض الأحيان مهازل فاجعة من هذا النوع! قال ميتيا - :وقد بلغ ذروة الحيرة والاضطراب

وكانت قطرات من العرق تسيل على جبينه، وانتهز الكاهن الفرصة فأوضح كيف أن إيقاظ النائم لن ينفع في شيء، لأنه لن يكون قادراً على المناقشة وهو في حالة سكر شديد. وختم كلامه قائلاً: وما دام الأمر الذي جئت من أجله هاماً، فالأفضل أن ترجئه إلى الصباح. .فوافق ميتيا على هذا الاقتراح وهو يحرك ذراعيه معبِّراً عن العجز

سأبقى هنا يا أبتي مع الشمعة أرقب اللحظة المواتية، فمتى استيقظ كلّمته... - وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس: - وسأدفع لك ثمن الشمعة، وسأدفع لك أيضاً أجر قضاء الليلة هنا. سوف تتذكر ديمتري كارامازوف. ثم عاد يخاطب الكاهن فسأله: ولكن أين تنام أنت يا أبتي؟

:الأمر بسيط. أعود إلى بيتي. أجابه الكاهن. وأضاف مومئاً إلى الحارس -

.سأستعير فرسه وأعود. والآن نعمت مساءً. أرجو لك التوفيق كله -

وذلك ما كان. عاد الكاهن إلى بيته على الفرس، سعيداً بخلاصه من ميتيا. وكان في أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض الشيء، متسائلاً ألا يحسن به أن يبلغ فيودور بافلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد، قائلاً لنفسه: «إنه إذا علم بالأمر لسوء الحظ، فقد يغضب مني فيمنع عني خيراته.». أما الحارس فقد حكَّ رأسه وعاد إلى غرفته دون أن ينطق بكلمة. وجلس ميتيا على البنك مترقباً اللحظة المواتية كما قال، وقد هبط عليه حزن عميق شمله كضباب كثيف. وأراد أن يفكر وهو على ما هو عليه من إرهاق وقلق، ولكن أفكاره كانت تتهرب. إن الشمعة تذوب ببطء؛ وهذا جدجد يغنّي في مكانٍ ما؛ وقد أصبح الهواء خانقاً في الغرفة المدفَّأة تدفئة زائدة. وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه، والممر الذي يقع خلف الحديقة، وتراءى له باب يُفتح خلسةً في المنزل، وتراءت له غروشنكا تتسلل من الداخل... !فإذا هو يثب عن البنك واقفاً

يا لَلمأساة! تمتم وهو يصرُّ بأسنانه: ثم اقترب من النائم بخطوات آلية، وراح - يتفرس في وجهه. إنه فلاح نحيل ما يزال شاباً، شديد استطالة الوجه، مضفور الشعر، لذقنه لحية طويلة رقيقة، يرتدي قميصاً هندياً وصِداراً أسود تتدلّى من جيبه سلسلة ساعة من فضة. تأمَّل ميتيا وجهه، فشعر بكره شديد لهذا الرجل، وأغضبته ضفائره خصوصاً، لا يدري لماذا! وبدا له أنه أمر لا يطاق، أمر مذلٌّ أن يكون عليه، هو ميتيا الذي جاء لأمر مستعجل هامّ ضحى في سبيله بكل شيء، أن ينتظر هنا منفطر القلب هماً، بينما هذا الكسول «الذي يتوقف عليه مصيري في هذه الساعة يغط في النوم كأن شيئاً لم يكن، وكأنه على كوكب :آخر»، يا لَسخرية القدَر! صاح ميتيا

وفجأة فقد صوابه وانقضّ على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه. إنه الآن حاقد عليه فها هو يهزه بكل ما أوتي من قوة، وها هو يصدمه، بل يضربه. ولكن جميع جهوده ذهبت سدًى! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أن لا سبيل إلى إيقاظه، :عاد إلى مكانه وجلس شاعراً باضطراب عاجز وهو يكرر قوله

يا للسُّخف! يا لَلسُّخف! قال ميتيا... ثم إذا هو يضيف إلى ذلك فجأة دون أن - يعرف لماذا: يا لَلذل أيضاً! يا لَلعار! وأخذ يشعر بصداع رهيب في رأسه. وتساءل لحظة: «هل أعدِل؟ هل أرجع؟» ولكنه أجاب يقول: «بل سأنتظر حتى الصباح. سأبقى خصيصاً،

خصيصاً! سيستحق الأمر أن أكون قد جئت إلى هنا ثم ما عساي أفعل لأرحل بغير خيل؟ ما أسخف هذا كله!».

وكان صُداع رأسه يتزايد أثناء ذلك. وبقي ساكناً دون أن يلاحظ النعاس الذي كان يسيطر عليه شيئاً فشيئاً، ونام آخر الأمر جالساً. لا بد أنه نام على هذه الحال ساعة أو ساعتين، فلما استيقظ كان يشعر بألم فظيع في الرأس، ألم لا يطاق، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ. كان صدغاه يطنَّان، وكان يحس بوجع في القذال. فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه، وانقضت برهة قبل أن يدرك ما به، ثم أدرك فجأة أن الغرفة المدفَّأة تدفئة زائدة تمتلىء برائحة قوية هي رائحة فحم محترق، وأنه كاد يموت اختناقاً. وكان السكران مايزال يغطُّ في نومه على البنك. وكانت الشمعة قد انصهرت توشك أن تنطفىء. صرخ ميتيا وأسرع إلى غرفة الحارس مترنِّح الخطى. فسرعان ما استيقظ هذا الأخير، ولكن لم يبدُ عليه أنه انفعل كثيراً حين عرف بما حدث، وإنما راح يتخذ الإجراءات اللازمة ببرودة وقلّة اكتراث، فدُهش ميتيا من ذلك حتى كاد ينفجر غضباً.

- لكنه مات، مات... وهنا... ماذا؟ صاح يقول مضطرباً اضطراباً شديداً:

فتُح الباب، وفتحت نافذة، ودخل الهواء إلى الغرفة، ونُظِّفت مدخنة المدفأة المسدودة. وأسرع ميتيا فجاء بدلو ماء فأغطس فيه رأسه، ثم تناول خرقة فبلَّلها بالماء ووضعها على جبين لياغافي. فكان الحارس ينظر إليه أثناء ذلك هادئاً فيه نوع من احتقار وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتفى بفتح نافذة: «هل هذا كافٍ». ثم رجع إلى غرفته ينام، تاركاً لميتيا سراجاً مشتعلاً. ظل ميتيا يتحرك قرابة نصف ساعة إلى جانب السكران الذي يوشك أن يكون مختنقاً، واستمر يجدِّد له الكمادات المبتلّة مرة بعد مرة، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح. ولكنه جلس ليستريح لحظة قصيرة، وفوراً أغمض عينيه، واستلقى على البنك دون أن يلاحظ ذلك، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً.

استيقظ متأخراً. لقد دقّت الساعة التاسعة، والشمس تسطع من خلال نافذتي الغرفة الصغيرتين؛ وقد ارتدى الفلاح المضفور الشعر ثيابه كاملة، وجلس إلى الطاولة التي كان عليها سماور جديد وإبريق خمر جديد قد أُفرغ نصفه منذ الآن - كان الإبريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة ـ فنهض ميتيا بوثبة واحدة، وأدرك منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر مجدداً، وأن سكره سيكون في هذه المرة عميقاً لا علاج له. ظل ميتيا يحدِّق إلى الفلاح دقيقةً محملِق العينين. أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً، بشيء من الخبث والمكر، إلى هدوء مُهين، فيما بدا لميتيا. قال له ميتيا:

- المعذرة... أعتقد... لا بد أن الحارس قد أخبرك بدون شك. أنا الليوتنان ديمتري كارامازوف، ابن العجوز كارامازوف الذي تفاوضه في أمر شراء أشجار الغابة...

- أنت تكذب! أجابه الفلاح بصوت هادىء وثقة.

- كيف؟ أنا أكذب؟ أنت تعرف فيودور بافلوفتش جيداً!

- أنا أجهل من هو فيودور بافلوفتش! قال الفلاح رخوَ الفم.

- لقد ساومتَه على ثمن أشجار الغابة التي ستقطع. هلّا استيقظت أخيراً؟ هل استعدت رشدك! إن الأب بافل إيلنسكي هو الذي جاء بي إلى هنا... تذكَّر: ولقد كتبت أنت إلى سامسونوف، فأرسلني هو إليك... قال ميتيا لاهثاً.

- كذّاب قال لياغافي

فأحس ميتيا بساقيه ترتخيان.

- رجاءً! ليس الأمر مزاحاً. لعلك سكران قليلاً. حاول أن تتكلم... أو... أو... أصبحت لا أفهم شيئاً!

- أنت الصبَّاغ!

- رجاءً، أنا كارامازوف، ديمتري كارامازوف، وقد جئت أعرض عليك صفقة... صفقة رابحة... رابحة جداً لك... تتعلق بهذه الأشجار التي ستُقطع.

أخذ الفلاح يلاعب لحيته بوقار:

- هذا كذب! لا شك أنك قد تواطأت على عقد. أنت نذْل، أنت نذْل.

- أؤكد لك أنك مخطىء! قال ميتيا محتجاً وهو يعقف ذراعيه يأساً:

عندئذ أغمض الفلاح عينيه نصف إغماضة وهو يمسِّد لحيته.

- لا إني أفضّل أن تقول لي ما هو القانون الذي يجيز للناس أن يقترفوا النذالات. هل تسمعني يا نذل؟ هل تفهم؟

رجع ميتيا متجهماً وفجأة انتفض، «كما لو أن شيئاً ضربه على جبينه»، كما روى هو ذلك فيما بعد. وقد تبين في الحال. «أن ذلك كان إلهاماً مباغتاً، فأدركت كل شيء». تساءل ميتيا، مذهولاً، كيف أمكن أن يُساق، هو الرجل الذكي رغم كل شيء ، كيف أمكن أن يُساق إلى وضع سخيف إلى هذا الحدّ، وكيف أمكن أن يندفع في مغامرة كهذه، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة، وأن يشغل نفسه بلياغافي هذا واضعاً على صدغيه كِمادات مبلّلة... «إنه سكران، سكران سكراً فظيعاً، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله، فعلامَ أنتظر؟ وماذا إذا كان سامسونوف قد سخر مني بإرسالي إلى هنا؟ وماذا إذا هي... يا إلهي! ماذا فعلت بنفسي!...».

كان الفلاح الجالس على البنك ينظر إليه ضاحكاً. فلو كان ميتيا في غير هذا الوضع لانقضَّ على هذا الأبله حانقاً وصرعه، ولكنه كان يشعر في تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل. توجه نحو البنك بخطًى بطيئة، تناول معطفه، تلفع به وخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة. ولم يجد حارس الغابات في الغرفة الأخرى، فتناول من جيبه خمسين كوبيكاً فوضعها على المنضدة ثمناً للشمعة وأجراً للمبيت وتعويضاً عن الإزعاج. وخرج من العزبة، فوجد نفسه في عمق الغابة دون أن يكون هناك شيء يمكن أن يستهديه في معرفة طريقه؛ فسار على غير هدًى، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التي جاء منها، فلم يعرف هل يتجه يَمنةً أم يَسرة حين يخرج من منزل الحارس. لم يلاحظ الطريق في الليلة البارحة من شدة استعجاله. وهو الآن لا يشعر بأية رغبة في الانتقام، حتى ولا من سامسونوف. إنه يسير في ممر الغابة الضيق، خاوي الرأس زائغ النظر، كأنه يبحث عن «فكرة ضائعة»، ولا يهمه أن يعرف إلى أين كان ذاهباً! إن بإمكان طفل صغير أن يسقطه على الأرض في تلك اللحظة بسهولة، من فرط ما كان يعاني من إرهاق جسديّ ونفسيّ في آن. ومع ذلك خرج من الغابة بهذا الشكل أو ذاك، فوجد نفسه فجأة أمام حقول محصودة عارية تنبسط على مدى النظر. قال في نفسه وهو ما يزال يسير قدُماً بشكل مستقيم: «كأن اليأس والموت قد مرَّا بهذا المكان!».

وأنقذته عربة: كانت تنقل تاجراً عجوزاً وتسير على طول الطريق. فلما بلغته العربة سأل حوذيَّها عن الدرب، وتبيَّن أن الحوذي ذاهب إلى فولوفيا هو أيضاً. وبعد النقاش تم

الاتفاق بينه وبين الحوذيّ، على أن يكون ميتيا رفيقاً للسفر. وبعد ثلاث ساعات وصلت العربة إلى محطة فولوفيا، فلاحظ ميتيا فجأة، بعد أن أمر بخيل تقلُّه إلى المدينة، أنه يكاد يموت جوعاً؛ فبينما كانت الخيل تُقرن، طلب طبقاً من عجَّـة التهمه مع قطعة كبيرة من الخبز، ثم انقض على سجق وجده جاهزاً، وشرب ثلاثة أقداح صغيرة من الفودكا. حتى إذا استردّ قواه، شعر بتجدد شجاعته، واستعاد صحو ذهنه. وكانت الخيل تجري، وميتيا يحضّ الحوذيّ على مزيد من السرعة، ويهيىء في الوقت نفسه «خطة» جديدة، خطة «لا تخطىء» في هذه المرة، من أجل الحصول على «هذا المبلغ اللعين» قبل نهاية ذلك اليوم. صاح يقول مشمئزاً: «كيف يمكن أن يهوي مصير إنسان بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل الحقيرة؟. سوف أجدها في هذا اليوم نفسه!». وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيداً، لولا أن التفكير في غروشنكا كان يحاصره. «ما الذي صارت إليه؟ ماذا حدث لها؟». كانت هذه الفكرة تطعنه في كل لحظة كسكّين مسنونة. ووصلت العربة أخيراً، فأسرع ميتيا إلى غروشنكا على الفور.

III

مناجم الذهب

كانت زيارة ميتيا هذه التي تحدثت غروشنكا عنها إلى راكيتين مذعورة. في تلك اللحظة، كانت تنتظر «الرسالة» وكانت مسرورة لأن ميتيا لم يظهر لا اليوم ولا بالأمس، كانت تتمنى ألا يستطيع أن يظهر قبل رحيلها. ولكنه ظهر فجأة. ونعرف التتمة: لكي تتخلص منه، أقنعته فوراً بأن يرافقها إلى بيت كوزما سامسونوف حيث كانت مضطرة للذهاب، «لإجراء بعض الحسابات»، وما إن أوصلها ميتيا، جعلته يتعهد، وهو يودعها أمام بيت العجوز، بأن يعود في منتصف الليل لاصطحابها إلى منزلها. فقد كان مسروراً بهذا الوضع: «سوف تبقى اذن عند كوزما، ولن تذهب إلى منزل فيودور بافلوفتش...»، أضاف: «اللهم إلّا إذا كانت تكذب.» ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة. إنه ينتمي إلى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور «خيانتها» لهم أثناء غيابهم. ولكن ميتيا كان متى التقى غروشنكا مرة أخرى مضطرباً قلقاً معذب النفس من يقينه بأنها خانته، لا يلبث أن يسترد شجاعته عندما يرى وجهها الضاحك اللطيف، فإذا هو يطرد من رأسه كل شيء، ويشعر بالخجل من غيرته، ويلوم نفسه على ضعف الثقة. وبعد أن قام ميتيا بمرافقة غروشنكا إلى منزل سامسونوف أسرع عائداً إلى منزله. ثمَّة مسائل كثيرة بقي عليه أن يحلها قبل الغد! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح الآن عن صدره. لكنه لم يلبث أن قال لنفسه: «يجب أن أسأل سمردياكوف، بأقصى سرعة ممكنة، هل حدث شيء في الليلة البارحة، هل ذهبت غروشنكا إلى فيودور بافلوفتش أمس؟». هكذا التهبت الغيرة في قلبه المعذَّب من جديد، قبل أن يتسع وقته للعودة إلى بيته.

الغيرة! «عطيل ليس غيوراً، إنه واثق بنفسه»، يقول بوشكين، وهذه الملاحظة البسيطة تشهد وحدها على عبقرية شاعرنا الكبير الفريدة. فعطيل نفسه محطمة وقد اضطرب عالمه بكامله لأن مثله الأعلى قد مات. ولكن عطيل لم يختبئ ولم يتجسس أو يتلصص: إنه واثق بنفسه. بالعكس: كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصوُّر الخيانة. ولا كذلك الغيور الحقيقي. لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوي إليه الغيور من درك الدناءة دون أن يشعر بأي خجل من ذلك. وليس معنى هذا أن الغيورين أناس يتصفون بحقارة النفس حتماً. لا، ربَّ رجل نبيل القلب نقيِّ الحب مخلص العاطفة، يرتضي مع ذلك أن يختبئ تحت الطاولات، وأن يرشو أناساً قذرين، وأن يستخدم أقذر أنواع التجسس! وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة - أقول يذعن للخيانة ولا أقول يسامحها - رغم أن له نفساً بريئة كنفس طفل. ولا كذلك الغيور الحقيقي! ما من شيء إلّا ويمكن أن يذعن له الغيور وما من شيء إلّا ويمكن أن يغفره عند الحاجة. إن الغيورين أسرع الناس إلى الغفران، والنساء يعرفن هذا! هم قادرون مثلاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البداية طبعاً)، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم، شريطة أن يستطيعوا القول لأنفسهم إن «هذه هي آخر مرة» وإن الغريم سيغيب وإنه سيرحل إلى بلد في آخر العالم، أو أنهم سيمضون هم أنفسهم بحبيبتهم إلى منطقة نائية لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوماً. ثم لا تدوم المصالحة أكثر

من ساعة طبعاً، ذلك أنهم، ولو اختفى الخصم، لا يلبثون أن يكتشفوا خصماً جديداً منذ الغد، فإذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هذه «الخيانة» الجديدة. ربَّ متسائل: ما هي في نظرهم قيمة حبٍ يتطلَّب هذه الاحتياطات كلَّها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة، وهل تستحق منهم المرأة التي يتصورون خيانتها هذا الحب كله. ألا إن هذا السؤال بعينه هو ما لا يلقيه الغيورون الحقيقيون على أنفسهم، مع أن بينهم أناساً لهم نفوس سامية. وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضاً: إن ذوي العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورين يستطيعون، وهم مختبئون في أحد الأركان للتجسس والمفاجأة، يمكنهم أن يفهموا جيداً، «لنبل قلوبهم»، أنهم ينحدرون إلى الخزي والعار، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير، ما داموا مختبئين في أوكارهم على الأقل.

ما إن رأى ميتيا صاحبته غروشنكا حتى شعر بغيرته تزول، وحتى أصبح واثقاً كريماً سمحاً خلال بضع لحظات، بل لقد مضى في هذا إلى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التي ساورته وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيراً مما كان يعتقد هو نفسه، وأن الشهوانية والتعلق الجسدي اللذين حدَّث عنهما أخاه إيليوشا، ليسا جوهر ذلك الحب. ولكن ما إن غابت غروشنكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها، دون أن يشعر أثناء ذلك بأي ندم أو عذاب ضمير.

إذن بدأت الغيرة تغلي في داخله. وكان عليه أن يسرع دائماً. وقبل كل شيء أن يجد قليلاً من المال لسدِّ حاجاته المباشرة: إن الروبلات التسعة التي جمعها في الليلة البارحة كانت قد نفدت في تلك الرحلة؛ ولا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً حين لا يكون في جيبه كوبيك واحد كما يعرف ذلك جميع الناس. ولقد فكَّر ميتيا، أثناء وضعه خطته الجديدة في العربة، فكَّر في الوسيلة التي تمكِّنه من الحصول بسرعة على بضعة روبلات. إنه يملك مسدسين رائعين من المسدسات التي تستعمل في المبارزات، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن، لأنه يحرص عليهما حرصاً شديداً. وكان قد تعرف منذ زمن، في كاباريه «العاصمة الكبرى»، بموظف عازب غنيّ كان فيما يقال يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها، يشتري مسدساتٍ وبندقياتٍ وخناجر يعلِّقها في جدران غرفته، ويدعو ضيوفه إلى مشاهدتها والإعجاب بها، معتزاً بأن يشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص، وطريقة التصويب به، الخ. ذهب ميتيا إلى هذا الموظف الشاب دون تفكير، وعرض عليه أن يستودعه مسدسيه رهناً على قرضٍ قدْره عشرة روبلات، فسُرَّ الموظف سروراً عظيماً، وحاول إقناع ميتيا بأن يبيعه هذين السلاحين، ولكن ميتيا رفض التخلي عنهما، فدفع له الموظف عندئذ عشرة روبلات قائلاً إنه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحال من الأحوال. وافترق الرجلان صديقين. وأسرع ميتيا إلى جناحه الذي يقع خلف منزل فيودور بافلوفتش بغية أن يلقى سمردياكوف. ولكن، هنا أيضاً - هكذا حصل الأمر - «قبل حصول مغامرة سأتكلم عنها لاحقاً، بثلاث ساعات أو أربع لم يكن في جيب ميتيا كوبيك واحد، فقرر أن يرهن في سبيل الحصول على عشرة روبلات مسدسين كان يحرص عليهما جداً، ثم إذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات...» ولكنني أسبق بهذا تتمة القصة.

في منزل ماريا كوندراتيفنا (جارة فيودور بافلوفتش) كان ينتظره مرض سمردياكوف فاضطرب اضطراباً شديداً. أصغى إلى قصة سقوطه في القبو، ونوبة الصرع، ووصول الطبيب، ومخاوف فيودور بافلوفتش. كما علم أيضاً بنبأ سفر إيفان فيودوروفتش إلى موسكو في الصباح، فبدا عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية. قال يحدِّث نفسه: «لا بد أن ايفان قد مرَّ بفولوفيا قبلي». لكن مرض سمردياكوف قد أحدث في نفسه قلقاً كبيراً ومخاوف خطيرة. فأخذ يسائل المرأتين قائلاً: «فما العمل الآن؟ من عساي أكلِّف بمراقبة المنزل واطلاعي على ما يجري؟ ألم تلاحظ شيئاً في مساء أمس؟». وأدركت المرأتان فوراً ما الذي يحاول أن يعرفه فطمأنتاه. قالتا له مؤكدتين: «لم يأتِ أحد. وقد

أمضى إيڤان فيودوروفتش الليلة كما اعتاد، وجرى كل شيء على ما يرام». وجم ميتيا مفكراً. لا بد من حراسة في هذه الليلة أيضاً. الأمر واضح. ولكن أين يرابط؟ هل يرابط هنا في الحديقة، أم أمام منزل سامسونوف؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين معاً، وفقاً لما تتطلّبه الظروف، ولكن المهم قبل كل شيء، قبل كل شيء، هو أن... وقد آن فعلاً أوان تنفيذ «الخطة» الجديدة، الجدِّية في هذه المرة، التي رسمها في العربة. لا يمكن تأجيل هذا المشروع. فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن وقال يحدِّث نفسه: «بعد ساعة واحدة أكون قد سوَّيت كل شيء، ثم أذهب إلى منزل سامسونوف أسأل أماتزال غروشنكا عنده، ثم أعود إلى هنا فوراً لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة، وبعد ذلك أذهب إلى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها إلى بيتها». على هذا النحو حلَّ ميتيا الصعوبة.

وأسرع إلى منزله فاغتسل ونظف ثيابه بالفرشاة، وارتدى ملابسه وذهب إلى السيدة خوخلاكوفا. فهناك كانت «تلك الخطة»، مع الأسف! لقد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة. خاصة وقد راوده فجأة يقين عجيب بأنها لن ترفض. ربَّ متسائل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت إلى هذه المرأة التي تنتمي إلى بيئته على الأقل، ولماذا آثر أن يتجه إلى سامسونوف الذي يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأي لغة يخاطبه! يجدر أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد إلى منزل هذه السيدة التي كان لا يعرفها جيداً على كل حال. وكان يعرف عدا ذلك أنه لا يروق لها لأنها قد ناصبته العِداء منذ البداية في الواقع، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترينا إيڤانوفنا. لقد كانت تتمنى أن تقطع كاترينا صلتها به لتتزوج إيڤان فيودوروفتش «الشاب المثقف، اللطيف، المحبب، الذي يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية»، بينما آداب ميتيا كريهة. ثم إن ميتيا قد سخر منها مراراً وقال عنها «إنها كثيرة الحركة والحماسة والكلام بمقدار ما هي قليلة الثقافة». ولكن فكرة قد لمعت في رأسه كوميض البرق في الصباح، فقال لنفسه: «ما دامت تكره أن أتزوج كاترينا إيڤانوفنا وما دام هذا الزواج يثير غضبها إلى هذا الحدّ (كان لا يجهل أن استياء السيدة خوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حدّ الهستيريا)، فلا يمكن أن ترفض إقراضي هذه الثلاثة آلاف روبل التي ستتيح لي أن أقطع علاقتي بكاتيا، وأن أرحل من هنا إلى الأبد؟». وكان ميتيا يقول لنفسه أيضاً: «إن نساء المجتمع هؤلاء، وهن صاحبات نزوات دلَّلتهن الأقدار، لا يرفضن بذل جميع التضحيات المالية في سبيل هوًى غريبٍ من أهوائهن العجيبة!». إن «الخطة» التي وضعها لاقتراض هذا المبلغ من السيدة خوخلاكوفا لا تختلف عن خطة البارحة: سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه في قرية تشرماشنيا، ولكنه لا ينوي في هذه المرة أن يعرض الأمر على أنه صفقة تجارية، ولا يهدف إلى إغراء هذه السيدة، كما حاول إغراء سامسونوف، بأنها ستكسب ستة آلاف أو سبعة آلاف روبل؛ وإنما يكون التنازل عن الحقوق، في هذه الخطة الجديدة، بمثابة ضمانة سخية للقرض الذي سيُتفق عليه. وكان كلما ازداد تفكيراً في هذا المشروع ازداد حماسةً له، وذلك ما يحدث له دائماً عندما يتخذ قراراً جديداً. يتحمس في البداية لكل مشروع من مشاريعه. ومع ذلك شعر، وهو يصعد درجات الباب من منزل آل خوخلاكوف، بقشعريرة في ظهره، واجتاحت نفسه عندئذ عاطفة قلق رهيب: لقد أدرك في تلك اللحظة، بيقين رياضي، أن هذا هو أمله الأخير، وأنه لم يبقَ له شيء في هذه الدنيا، فإذا لم تنجح هذه المحاولة، فلا أمل بعد ذلك، «إلّا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاثة آلاف روبل، وبدون ذلك فلا مخرج لي...». وكانت الساعة هي السابعة والنصف حين شدَّ الجرس.

بدا كل شيء يجري على ما يشتهي في أول الأمر: فما إن أُبلغت السيدة خوخلاكوفا وصوله حتى أمرت بإدخاله بسرعة فائقة. فدُهش ميتيا من سرعة استقباله، وقال لنفسه: «لكأنها كانت تنتظرني». وما كاد يدخل غرفة الاستقبال حتى أسرعت إليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره.

- كنت أنتظرك، كنت أنتظرك! لا شيء كان يسمح لي بأن أتوقع زيارتك، أعتقد أنك تقدِّر ذلك بسهولة. ومع هذا كنت أنتظرك. فاعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا ديمتري فيودوروفتش، لأنني كنت على ثقة، منذ هذا الصباح، بأنك ستزورني.

- حقاً إن هذا يثير الدهشة قال ميتيا، يثير أكبر الدهشة... ولكنني جئت من أجل قضية خطيرة، خطيرة بصورة رهيبة... بالنسبة إليَّ، طبعاً... يا سيدتي، بالنسبة إليَّ وحدي، لذلك أسارع فـ...

- أعرف أن السبب الذي دفعك إلى المجيء سبب خطير يا ديمتري فيودوروفتش. وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات، لأنني أكره ذلك الإيمان الرجعي بما هو فوق الطبيعة (لعلك على علمٍ بمغامرة الراهب المرشد زوسّيما؟) وإنما الأمر حساب رياضي: كان لا بد أن تجيء إليَّ حتماً بعد كل ما جرى مع كاترينا إيڤانوفنا، لم يكن في وسعك ألّا تأتيَ. هذه رياضيات.

- أو فلنقل هذه واقعية يا سيدتي. لنكن واقعيين. اسمحي لي أن أبسط لك بإيجاز...

- الواقعية، قلتها يا ديمتري فيودوروفتش! أنا من أنصار الواقعية بعد اليوم! لقد شُفيت من مرض الإيمان بالمعجزات، صدقني! أنت تعرف طبعاً أن الراهب المرشد زوسّيما قد مات؟

- لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك. قال ميتيا بشيء من الدهشة وطافت في خياله صورة إيليوشا.

- مات هذه الليلة، تصوَّر أن...

- سيدتي، قاطعها ميتيا: أنا لا أعرف إلّا شيئاً واحداً: هو أنني في وضع يائس وأن كل شيء سينهار إذا أنت لم تساعديني، وسأكون أنا أول من ينهار. سامحي خشونة لغتي، ولكنني في قلق محموم؛ إن بي حمَّى حقاً...

- أعرف ذلك، أعرف أن بك حمَّى. أنا مطَّلعة عل كل شيء، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هي اليوم. كل ما قد تقوله لي الآن، أنا أعرفه سلفاً. إنني أفكر في مصيرك منذ زمن طويل يا ديمتري فيودوروفتش. كنت ألاحظ حياتك، وأدرسها... أوه! أنا طبيبة نفوس، خبيرةٌ جداً، صدّقني يا ديمتري فيودوروفتش!

عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهداً من أجل أن يبدو محبّباً:

- سيدتي، لا شك عندي في أنك طبيبة خبيرة، ولكنني أنا أيضاً مريض خبير. إنني مقتنع بأنك ستساعدينني على اتقاء هلاك كبير، ما دمتِ قد اهتممت بمصيري. فاسمحي لي لهذا أن أشرح لك أخيراً الخطة التي تجرأت أن أجيء لأبسطها لك... وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها إنني آمل منك... لقد جئت يا سيدتي من أجل أن...

- لا تشرح لي شيئاً، هذا أمر ثانوي! لن تكون أول شخص أقدم له المساعدة يا ديمتري فيودوروفتش! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمي بلمسوفا. كان زوجها الذي تدمرت حالته المالية قد انهار على حد التعبير الصادق الذي استعملته أنت منذ هنيهة. فنصحتها بتعاطي تربية الخيول، فأصبحت حالتها اليوم مزدهرة ازدهاراً عظيماً. هل تفهم في شؤون تربية الخيول يا ديمتري فيودوروفتش؟

- لا يا سيدتي، أبداً... صاح ميتيا يقول نافد الصبر ثائر الأعصاب، حتى لقد همَّ أن

ينهض: لا أفهم في هذا المجال شيئاً! أتوسل إليك يا سيدتي أن تصغي إليَّ لحظة. دعيني أتكلم دقيقتين فحسب، لأعرض لك مشروعي. ثم إنني لا أملك إلّا وقتاً قصيراً جداً، أنا مستعجل... (كذلك صاح ميتيا يقول بصوت هستيري، إذ عرف أنها ستقاطعه، وأمَّل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته). لقد جئت إليك لأنني قد بلغت قمة اليأس، رجوتُ أن تسلفيني ثلاثة آلاف روبل، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتي، بشروط موثوقة تماماً. ...وهاأنذا أشرح لك الموضوع

تشرح هذا فيما بعد، فيما بعد. قالت السيدة خوخلاكوفا وهي تحرِّك ذراعيها كأنما - تطرد الشروح التي همَّ بها ميتيا: ستقول لي هذا كله فيما بعد. ثم إنني أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لي، سبق أن قلت لك هذا. أنت في حاجة إلى مال، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل، ولكنني سأعطيك أكثر من ذلك، أكثر كثيراً، لأنني أريد أن أنقذك يا ديمتري فيودوروفتش. !ولكنني أطالبك في مقابل ذلك بأن تطيعني

وثب ميتيا من مقعده مجدداً، قائلاً بانفعال شديد: - آه! سيدتي! هل يمكن أن تكوني طيبة إلى هذا الحدّ؟ لقد أنقذتني يا إلهي! لقد انتزعتِ إنساناً من ميتة عنيفة يا ...سيدتي، من ميتة بطلقة مسدس... لسوف أظل شاكراً لك إلى الأبد

عادت السيدة خوخلاكوفا تقول، وهي تنظر بابتسامة مشرقة إلى وجه ميتيا :المتحمس

سأعطيك أكثر بكثير من ثلاثة آلاف روبل؟ -

أكثر بكثير؟ لست في حاجة إلى كل هذا. لست بحاجة إلّا إلى هذه الثلاثة آلاف - الشقية! وأريد من جهتي أن أعطيك ضمانة لهذا القرض، وأن أعبِّر لك عن شكر لا حدود له. ...إن المشروع الذي أحب أن أشرحه لك هو

:فقاطعته السيدة خوخلاكوفا التي كان وجهها يشرق بفرح الإحسان المتواضع

كفى! أنا لا أنكث عهداً. لقد وعدتك بأن أنقذك، وسأفعل. سأخرجك من مأزقك كما - أخرجت بلمسوفا. ما رأيك في مناجم الذهب يا ديمتري فيودوروفتش؟

.مناجم الذهب يا سيدتي؟ لم أفكر في هذا الأمر أبداً -

أما أنا فقد فكرت فيه من أجلك! لقد درست جميع جوانب المسألة. إنني أراقبك - منذ شهر لهذا الغرض. ظللت أفحصك أكثر من مئة مرة عابراً، فكنت أقول لنفسي في كل مرة: «هذا رجل نشيط يمكن أن ينجح في مناجم الذهب»، حتى لقد أنعمت النظر في .مشيتك، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة

:لم يستطع ميتيا إلّا أن يسأل السيدة خوخلاكوفا مبتسماً

استنتجت ذلك من مِشيتي يا سيدتي؟ -

:فأجابت السيدة خوخلاكوفا

نعم، من مشيتك أيضاً. هل تستطيع أن تنكر يا ديمتري فيودوروفتش أن في - الإمكان معرفة طبع الشخص من مِشيته؟ إن العلوم الطبيعية تعلِّمنا هذا. ما أكثر ما أصبحت واقعية الآن! فمنذ ذلك اليوم، منذ تلك القصة التي حدثت في الدير والتي هزتنا بقوة، أصبحت لا أؤمن إلّا بالواقعية، بالوا..قعية، وأصبحت أريد أن أقف حياتي على نشاط عملي.

لقد شُفيت من الغيبية إلى الأبد. «كفى!»، كما قال تورغنيف.

- ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التي تفضلت فوعدتني بها سخيّة!

قاطعته السيدة خوخلاكوفا قائلة:

- ستحصل عليها، ديمتري فيودوروفتش، تستطيع أن تعتبرها في جيبك منذ الآن. لا ثلاثة آلاف، بل ثلاثة ملايين، وخلال فترة وجيزة! إليك المشروع الذي أقترحه عليك: تكتشف مناجم ذهب فتثرى ثراءً عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين؛ ثم تعود إلينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل، تصبح رجلاً محرِّكاً لغيرك من الناس، تنقذنا من خدرنا وكسلنا، وتقودنا نحو الخير. هل يجب أن نترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود؟ ستبني عمارات، وستخلق صناعات، وستساعد الفقراء، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالبركات. إننا نعيش في عصر السكك الحديد يا ديمتري فيودوروفتش. وستعلم وزارة الخزانة، التي تتخبط في مصاعب ضخمة، ستعلم بوجودك فتناديك وتعتمد عليك. إن سقوط عملتنا الورقية قد حرمني من النوم! ذلك جانب من طبيعتي لا يعرفه الناس كثيراً...

- سيدتي! سيدتي! قاطعها ميتيا وهو يوجس قلقاً شديداً: من الممكن جداً أن أتبع نصيحتك، وهي نصيحة سديدة جداً في الواقع. سأتبع هذه النصيحة حتماً فيما بعد... سأذهب إلى مناجم الذهب هذه... وسأعود مرة أخرى لنتحدث في صددها... أما الآن... فلنتكلم في تلك الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت فـ... آه! إن هذا المبلغ سيخرجني من جميع المصاعب! ليتني أستطيع الحصول عليه في هذا اليوم... ذلك أنني، كما ترين، لا أملك وقتاً أضيِّعه، لا يوماً، ولا ساعة...

- كفى، كفى! قاطعته السيدة خوخلاكوفا تأمره بلهجة قاطعة: أجبني: هل تذهب إلى مناجم الذهب أم لا؟ هل عزمت أمرك؟ أريد جواباً واضحاً!

- سأذهب يا سيدتي فيما بعد. سأذهب إلى حيث تريدين يا سيدتي... أما الآن...

- انتظر! صاحت السيدة خوخلاكوفا.

وأسرعت نحو مكتبها الأنيق ذي الأدراج الكثيرة، فأخذت تفتحها درجاً درجاً بسرعة، باحثة فيها عن شيء ما.

قال ميتيا محدثاً نفسه وقد كاد ينفطر قلبه: «الثلاثة آلاف! وبدون ضمانة، بدون رهن، بدون وصل، ما أنبلها امرأةً! ولكن ليتها كانت أقل ثرثرة...».

- هاك! هتفت السيدة خوخلاكوفا عائدة إليه: هاك ما كنت أبحث عنه!! هو إيقونة صغيرة جداً من فضة، ذات حبل، كالإيقونات التي تحمل أحياناً تحت القميص مع الصليب.

وشرحت السيدة خوخلاكوفا قائلة برصانة:

- هذه إيقونة صغيرة من كييف. لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة بارب، الشهيدة العظيمة. فاسمح لي أن أعلِّقها لك بنفسي، لتباركك في حياتك الجديدة، ومشاريعك المقبلة.

قالت له ذلك، ووضعت الإيقونة حول عنقه، وجهدت أن تعدلها. حنى ميتيا رأسه متحيراً، وأخذ يساعدها، ونجح أخيراً في أن يدس الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره.

- والآن هلمّ إلى مناجم الذهب. قالت السيدة خوخلاكوفا بلهجة ملؤها الأبّهة:

ثم جلست.

قال ميتيا:

- سيدتي! أنا متأثر جداً... لست أدري كيف أشكر لك هذه العواطف الكريمة... وهذه المشاعر النبيلة... ولكن ليتك تعلمين مدى استعجالي!... إن ذلك المبلغ الذي أنتظره من كرمك وأنا ممتلىء القلب بالأمل يا سيدتي... آه ما أطيبك، ما أعظم عطفك عليَّ! (بهذا قال ميتيا في سورة صادقة)... اسمحي لي أن أعترف لك.. بأمرٍ تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال... إنني أحب امرأة في هذه المدينة... لقد خنت كاتيا... أقصد كاترينا إيڤانوفنا. مع الأسف! كان سلوكي معها خالياً من الخلُق والشرف... تولّهت هنا بامرأة أخرى... امرأة لعلك تحتقرينها، فأنت على علم بالأمر، أعرف ذلك... ولكن يستحيل عليَّ أن أتركها، يستحيل! لذلك كانت هذه الثلاثة آلاف روبل...

- دعك من هذا يا ديمتري فيودوروفتش. قالت خوخلاكوفا بلهجة قاطعة دع النساء خصوصاً! مناجم الذهب، ذلك هو هدفك بعد اليوم، ولا شأن للنساء هناك! فيما بعد، حين تعود غنياً مجللاً بالمجـد، تختار حليلةً من أرقى بنات مجتمع: فتاةً عصرية، مثقفة، متحررة. وفي ذلك الوقت ستكون مشكلة المرأة، هذه المشكلة التي يتحدث الناس عنها كثيراً في هذه الأيام، ستكون قد حُلَّت، وستظهر امرأة جديدة...

- ولكن ليس هذا، ليس هذا ما... قال ميتيا وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى متوسِّلاً:

- بل هو هذا، هو هذا يا ديمتري فيودوروفتش! هو هذا ولا شيء سواه! هنالك السعادة التي تَنشدها دون أن تعرف أنت نفسك ذلك. إنني على اطلاع واسع على مشكلة المرأة. إن تحرر المرأة، وحتى وصولها إلى الحياة السياسية، هو مثلي الأعلى. إن لي ابنةً يا ديمتري فيودوروفتش، والناس لا يعرفونني كثيراً في هذا المجال. لقد كتبت في هذا إلى شتيدرين. إن هذا الكاتب قد كشف لي أموراً كثيرة، كثيرة جداً، أموراً لا تخطر على البال، عن رسالة المرأة، فوجهت إليه في العام الماضي كتاباً لم أذكر فيه اسمي، كتاباً من سطرين: «أقبِّلك بحرارة، يا عزيزي المفكر الكبير، باسم المرأة العصرية. استمر!» وذيَّلت الكتاب بهذا التوقيع: «أمّ». خطر ببالي أن أوقِّع: «أمّ عصرية»، ولكنني اكتفيت، بعد تردد، بكلمة الأمّ، لأن فيها جمالاً روحياً أعظم يا ديمتري فيودوروفتش؛ هذا عدا أن كلمة «عصرية» كان يمكن أن تذكّره بمجلته «المعاصر»، وأن توقظ في نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التي تسود الآن... ولكن ماذا بك؟ ماذا جرى لك؟

- سيدتي! كان ميتيا قد وثب عن مقعده. وها هو ذا يضم يديه إحداهما إلى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة طائشة: لسوف تبكينني إذا تأخرتِ عن تنفيذ ما تكرمت فوعدتني به...

- ابكِ يا ديمتري فيودوروفتش، إبكِ! إن هذه العواطف نبيلة... ما يزال طريقك طويلاً! ستحسن الدموع إليك. سوف تعود يوماً وسوف تكون سعيداً. ستجيئني من أعماق سيبيريا خصيصاً لأشاركك في فرحتك...

- اسمحي لي أخيراً أن أقول كلمة. صاح ميتيا في هذه المرة. أرجو مرةً أخيرة أن تجيبيني: هل بوسعي أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم؟ وإلّا ففي أي يوم تأمرين أن أجيء لأخذه؟

- على أي مبلغ تتكلم يا ديمتري فيودوروفتش؟

- على الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت فوعدتني بها... منذ قليل...

- ثلاثة آلاف روبل؟ آه، لا، أنا لا أملك هذا المبلغ. قالت السيدة خوخلاكوفا بدهشة هادئة. وبقي ميتيا مدهوشاً.

- كيف هذا؟ لقد وعدتني منذ برهة... منذ هنيهة قصيرة... حتى لقد قلت إنني أستطيع أن أعتبر هذا المبلغ موجوداً في جيبي.

- آه، لا، لا شك أنك أسأت فهمي يا ديمتري فيودوروفتش. لا، لا، إنك لم تفهمني. لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب... صحيح أنني وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل، تذكرت هذا الآن، ولكنني كنت لا أفكر عندئذ إلّا في مناجم الذهب.

- والمبلغ؟ والثلاثة آلاف؟ صاح ديمتري فيودوروفتش.

- إذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال، فيجب أن أذكر لك أنني لا أملك مالاً. إنني الآن خالية الوفاض تماماً يا ديمتري فيودوروفتش. حتى إنني في شجار مع وكيلي، وقد اضطررت أن أقترض خمسمئة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام. لا، لا، لا أستطيع أن أعطيك شيئاً. واعلم عدا ذلك يا ديمتري فيودوروفتش أنني لو كنت أملك مالاً لما أسلفتك أيضاً، أولاً لأنني لا أقرض أحداً أبداً، فالدين خصام دائماً؛ وإذا أقرضت غيرك، فلا أقرضك أنت، لأنني أريد لك الخير، وأريد أن أنقذك، ولست أنت في حاجة إلّا إلى شيء واحد: المناجم، المناجم، المناجم!

- فليأخذها الشيطان!... صاح ميتيا فجأة.

وضرب بقبضة يده على المنضدة بكل ما أوتي من قوة.

- آي! صاحت خوخلاكوفا مرتعبةً وهي تهرب إلى عمق غرفة الاستقبال.

بصق ميتيا من فرط غضبه، وبخطًى سريعة، اجتاز الغرفة؛ وخرج من المنزل، وأوغل في الشارع المظلم. كان يسير كالمجنون، ويلطم صدره بقبضة يده، على ذلك الموضع نفسه الذي لطمه منذ يومين بحضور إيليوشا حين صادفه في الشارع عند المساء. لماذا يلطم صدره، «على هذا الموضع نفسه»، وماذا كان معنى هذه الحركة؟ ذلك أمر لم يفصح عنه لأحد، حتى ولا لإيليوشا. هذا سرُّه في تلك الساعة، ولكنه كان يعلم أنه، لأسباب يكتمها، إنما يسير إلى هاوية العار، إلى انهيار حياته، إلى الانتحار. ذلك ما سيحدث حتماً إذا هو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليدفع إلى كاترينا إيڤانوفنا مالها، ولينزع عن صدره، «عن هذا الموضع بعينه من صدره»، العار الذي يخنقه، الحمل الذي يرهقه، ويرهق ضميره. إن هذا كله سيتضح فيما بعد. والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوي البنية، فإنه ما إن ابتعد بضع خطوات عن منزل السيدة خوخلاكوفا، حتى انفجر يبكي فجأة كطفل صغير. وها هو يمسح دموعه بقبضتي يديه وهو فيما هو فيه من اضطراب. وعلى هذه الحال وصل إلى الميدان، حيث أحسّ فجأةً أنه قد صدم شيئاً ما، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن امرأة عجوز كاد يقلبها.

- يا يسوع! كاد يقتلني! هلّا نظرت أين تسير أيها الوغد!

- كيف؟ أهذا أنت؟ صاح ميتيا وهو يتفرس في وجه المرأة العجوز في الظلام؟

لقد عرف ميتيا في هذه المرأة العجوز، خادمةَ كوزما كوزمتش الطاعنة في السنّ التي رآها في منزله الليلة البارحة.

- ومن أنت يا بنّي؟ سألته العجوز بصوت أصبح لطيفاً فجـأة.

- أنتِ في خدمة كوزما كوزمتش، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا بنّي، وأنا ذاهبة الآن إلى بروخورتش... لا أستطيع أن أراك في هذا الظلام!

- قولي لي يا أمّاه: هل أغرافينا ألكسندروفنا عندكم الآن. لقد أوصلتها إلى منزلكم منذ قليل. قال ميتيا وهو يرتجف قلقاً وخوفاً.

- لقد جاءت يا بنّي فمكثت لحظة ثم انصرفت.

- انصرفت؟ صرخ ميتيا. كيف هذا؟ إلى أين ذهبت؟

- لم تمكث عندنا إلّا دقيقة، قصَّت خلالها على كوزما كوزمتش قصة مضحكة ثم انصرفت.

- أنت تكذبين أيتها المشعوذة اللعينة. زأر ميتيا:

فصاحت المرأة تقول مذعورة:

- آي! آي!

ولكن ميتيا كان قد غاب؛ أسرع ميتيا يركض بخطًى كبيرة نحو منزل آل موروسوف. كانت غروشنكا قد سافرت منذ ربع ساعة إلى موكرويه، وكانت فينيا في المطبخ مع جدتها ماتريونا الطباخة، حين ظهر «الكابتن» فجأة في المنزل. فلما رأته أطلقت صرخات رعب.

- تصرخين؟ صاح ميتيا يسألها؟ أين هي؟ ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا، التي اصفرّ لونها من الذعر، لأن تنطق بكلمة واحدة، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها:

- فينيا، قولي لي، باسم ربنا يسوع المسيح، إلى أين ذهبت؟

- لست أدري يا سيدي، لست على علم بشيء أيها العزيز ديمتري فيودوروفتش. ولو قتلتني لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا. ثم إنك قد خرجت معها منذ قليل...

أكدت فينيا متدفقة في كلامها.

- ولكنها عادت... قال ميتيا.

- لا، لا، يا عزيزي ديمتري فيودوروفتش، لم تعد، أقسم لك بالله أنها لم تعد!

- تكذبين! صرخ ميتيا. وإني أعرف من ذعرك وحده إلى أين ذهبت!...

وأسرع يركض في الشارع من جديد. فما كان أسعد فينيا بأنها تخلصت منه بمثل هذه السهولة! فلقد أدركت أنه كان سيسومها سوء العذاب خلال ربع ساعة، لولا استعجاله الشديد. على أنه قد فاجأ فينيا ماتريونا العجوز، حين انصرافه، بحركة لم تكن في الحسبان:

كان هناك على الطاولة هاون ومدقّ من نحاس، ولكن المدق ليس كبيراً. فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضاً ليخرج، مد يده الأخرى فتناول المدق اختطافاً ودسَّه في جيب سترته.

- يا إلهي! سيقتل أحداً! صرخت فينيا وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى.

IV

في العتمة

إلى أين كان يركض؟ نعرف ذلك جيداً: «أين يمكن أن تكون إن لم تكن عند فيودور بافلوفتش؟ لا شك أنها ذهبت إليه مباشرة بعد أن غادرت منزل سامسونوف. كل شيء أصبح واضحاً الآن، الكذب والخداع!».. كانت هذه الأفكار مثل العاصفة في رأس ميتيا. تجنَّب ميتيا أن يمر بحديقة ماريا كوندراتيفنا. «يجب أن لا تراني بحال من الأحوال!... يجب أن لا أنبهها... وإلّا وشت بي فوراً... لسوف تخونني حتماً. يبدو أنها متواطئة معهم. وكذلك سمردياكوف. لقد اشترُوا الجميع!». تكون لديه نية أخرى: لذلك سلك طريقاً آخر، دار دورة طويلة، فمرَّ بالشارع الصغير الذي يقع خلف منزل فيودور بافلوفتش، واجتاز شارع دمتريفسكا، وعبر الجسر الضيق الصغير، فوصل إلى شارع صغير خالٍ يقع وراء الفناء. يحدّه سياج بستان مجاور من جهة، ويحدّه من الجهة الأخرى سور حديقة فيودور بافلوفتش. واختار ميتيا لاجتياز ذلك السور الموضع الذي يُروى أن أليزابث سمردياشتايا قد تخطت السور منه في الماضي. قال ميتيا لنفسه: «إذا استطاعت تلك أن تتخطاه - لا يدري إلّا الله لماذا - فكيف لا أفلح أنا في تخطِّيه؟». واستطاع فعلاً من أول وثبة، أن يتشبث بقِمّة السور بيده، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعة قوية، فإذا هو يصبح في أعلى السور، فيركب عليه ركوبه على حصان. إن حمامات المنزل قريبة جداً من ذلك المكان، ومنه تُرى نوافذ الدار المضاءة. قال ميتيا يحدّث نفسه: «طبعاً!... إن في غرفة نوم العجوز نوراً. معنى هذا أنها عنده!». وقفز بعد ذلك إلى الحديقة. ورغم علمه بأن غريغوري مريض، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضاً، وأن أحداً من المنزل لا يمكن إذن أن يسمعه في هذه اللحظة، فقد اختبأ متجمعاً على نفسه بدافع الغريزة، وجمد لا يتحرك، وأصاخ بسمعه. إن صمتاً كصمت الموت يخيِّم على المكان وما حوله. لا نأمة، ولا نسمة... هدوء مطلق، كأنما عن قصد...

الصمت وحده يهمهم». خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا «آمل أن لا يكون قد» سمعني أحد لحظةَ قفزت! أعتقد أنني لم أُسمع». وبعد أن بقي دقيقة لا يتحرك، تسلل بخطًى وئيدة عبر الحديقة، سائراً على العشب متجنباً الأشجار والأدغال. وتقدم بطيئاً، لا يضع قدمه إلّا محاذراً، ويصيخ بسمعه إلى أدقّ صوت. فلم يصل إلى النافذة المضاءة إلّا بعد خمس دقائق. وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباطاً كثيفة تمتد أغصانها، إلى علو كافٍ. وكان الباب الذي يفضي من الحديقة إلى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً، فانتبه ميتيا إلى ذلك وسجَّله في ذهنه عند مروره. ووصل أخيراً إلى الشجيرات فاختبأ وراءها حابساً أنفاسه: «يجب أن أبقى هنا بضع لحظات، فلعلهم قد سمعوا صوت وقع خطواتي، فأخذوا يُصيخون إليه للتأكد... أرجو ألّا أسعل أو أعطس...».

وانتظر دقيقتين وثلاثاً، لكن قلبه كان يخفق بسرعة، حتى لتكاد تنقطع أنفاسه. ثم قال لنفسه: «لا، سوف يستمر قلبي في الخفقان هكذا، فلا يمكنني أن أنتظر أكثر». كان ميتيا مختبئاً في ظل مجموعة الأشجار التي ينير الضوء الآتي من النافذة جانبها الخلفي. وراح يتمتم دون أن يعرف لماذا: «ما أشد الاحمرار في أثمار أشجار الرباط هذه!». اقترب من النافذة بخطًى محسوبة، صامتاً وانتصب واقفاً على رؤوس أصابعه، بدت له غرفة نوم فيودور بافلوفتش كلها. إنها غرفة صغيرة، تنقسم قسمين بحاجزين أحمرين، كان فيودور

بافلوفتش يسميهما «الصينيين». قال ميتيا لنفسه: «الحاجزان الصينيان... لا شك أن غروشنكا تختبىء وراءهما». وراح ميتيا يمعن النظر في أبيه. كان الأب يرتدي ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط لم يره عليه ميتيا من قبل، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهي بعقد؛ وتحت ياقة الثوب يُرى قميص أنيق نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب؛ وكان فيودور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذي سبق أن رآه إيليوشا. قال ميتيا لنفسه: «لقد تجمَّل وتزيَّن». وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد الذهن. وها هو يرفع رأسه فجأة مصيخاً بسمعه كأنما لينصت؛ فلما لم يسمع شيئاً اقترب من الطاولة فصبَّ نصف كأس من الكونياك وأفرغه في فمه، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه. وفكَّر بضع لحظات، ثم اتجه نحو المرآة بخطى ذاهلة، فأزاح بيده اليمنى المنديل الذي يخفي جبينه، وأخذ ينعم النظر في الندوب والبقع الزرق التي لم تختفِ بعد. قال ميتيا لنفسه: «أغلب الظن أنه وحيد ليس عنده أحد». وفي تلك اللحظة ابتعد فيودور بافلوفتش عن المرآة، والتفت فجأة نحو النافذة، راح ينظر إلى الخارج. فما كان من ميتيا إلّا أن ارتمى في العتمة بقفزة واحدة.

ربما هي مختبئة وراء الحاجزين، وربما كانت نائمة... (لقد اخترقت هذه الفكرة» قلبه). وابتعد فيودور بافلوفتش عن النافذة، «لا شك أنه يترقبها هي إذ ينظر من النافذة إلى الخارج. فليست إذن عنده! وإلّا لماذا ينظر في العتمة! واضح أن نفاد الصبر يحرقه حرقاً». وعاد ميتيا يقترب، وأخذ يرصد أباه. كان العجوز قد جلس إلى الطاولة، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس. ووضع كوعيه أخيراً على الطاولة، وأسند خده إلى راحة يده اليمنى. فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم!

وحيد! إنه وحيد! فلو كانت معه، لكان مظهره مختلفاً». والغريب أنه أحسَّ فجأة» حين عرف أن غروشنكا ليست هناك، بنوع من الغيظ العبثي الذي راح يغلي في قلبه لا يُفهم! فقال يشرح لنفسه: «المشكلة ليست في أنها غير موجودة هنا وإنما في أنه لا يمكنني أن أعرف إذا كانت هنا أم لا». وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره في تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصفاء، فلا تفوته شاردة ولا واردة، حتى ليدرك أدق تفاصيل الموقف. ولكن القلق كان يجتاح نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء، لأنه ليس من أمره على يقين، حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع.

تساءل: «هل هي هنا أم لا؟». واشتعل غضبه. وها هو يحسم أمره فجأة، فيمد ذراعه، وينقر على الزجاج نقرات الإشارة المتفق عليها مع سمردياكوف وهي: نقرتان متباعدتان، فثلاث نقرات متقاربة، دلالةً على أن «غروشنكا قد وصلت». فانتفض العجوز، ورفع رأسه، وقفز من مكانه، واندفع نحو النافذة. فارتمى ميتيا في العتمة.

- أهذا أنت يا غروشنكا؟ أنت؟ تمتم فيودور بافلوفتش بصوت مرتجف: أين أنت يا ملاكي؟ أين أنت يا حبِّي؟ أين أنت؟

وكان يختنق من فرط الانفعال.

قال ميتيا لنفسه: «إنه وحيد».

- أين أنت إذن؟ صاح العجوز مجدداً.

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين وهو ينظر إلى جميع الجهات. وها هو يضيف:

- تعالَي! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة. تعالي فأريك المفاجأة...

قال ميتيا في سرِّه: «هو الظرف الذي يضم الثلاثة آلاف روبل».

- ولكن أين أنت إذن؟ لعلك قرب الباب؟ سأفتح لك الباب...

وكاد العجوز يسقط من النافذة من شدة ميله نحو اليمين من جهة باب الحديقة ليرى المرأة الشابة في الظلام. وبعد ثانية من ذلك أسرع إلى الباب يفتحه دون أن ينتظر جواب غروشنكا. كان ميتيا يرقبه من عمق مخبأه بغير حركة. كان يراه من جانب. فكان وجهه الكريه، وكانت جوزة عنقه، وكان أنفه الأقنى، وكانت شفتاه اللتان تبتسمان بانتظارٍ شبق، كان ذلك كله يبرز في ضوء ساطعٍ يسقط عليه موارباً من المصباح الموجود في الجهة اليسرى من الغرفة. فإذا بكره عنيف يشتعل في قلب ميتيا فجأة، فيقول في نفسه: «هذا هو، هذا هو غريمي، هذا هو خصمي، هذا هو جلّادي، هذا هو عدوُّ حياتي!». إنها سورة الغضب المباغت الحاقد الظامىء إلى الانتقام، الذي تحدث عنه إلى إيليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما في الجناح قبل أربعة أيام جواباً عن سؤال إيليوشا له: «كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك؟». لقد أجابه يومئذ قائلاً: «لست أدري، أصبحت لست أدري. قد لا أقتل، ولكن من الممكن أن أقتل. أخشى أن يصبح في نظري كريهاً فجأة بوجهه المقيت في تلك اللحظة. إنني أكره جوزة عنقه، وأنفه، وعينيه، وضحكته القصيرة المستهترة. إنه يثير فيَّ تقززاً جسمياً. ذلك هو ما أخشاه خصوصاً. قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسي».

وكان التقزز الشخصي الذي يحسُّ به ميتيا لا حدود له. فإذا هو، دون أن يدرك ماذا يفعل، يُخرج من جيبه مِدقَّ الهاون فجأة...

إن الله كما قال ميتيا فيما بعد كان يحرسه في تلك اللحظة. ففي تلك اللحظة نفسها استيقظ غريغوري فاسيلفتش في سرير ألمه. كان غريغوري قد لجأ في المساء إلى استعمال الدواء الذي ذكره سمردياكوف في حديثه مع إيڤان فيودوروفتش، أي دلَّك جسمه بالفودكا ممزوجة مع مشروب قوي ثم شرب ما تبقى وهو يتلو «صلاة» أسرّتها له زوجته واستسلم للنوم. لقد ذاقت مارفا إينياتيفنا هي أيضاً، ولكنها لم تلبث أن نامت إلى جانب زوجها نوماً عميقاً، لأنها لم تألف شرب الكحول. أما غريغوري فقد استيقظ من نومه في وسط الليل على غير توقُّع، وفكَّر لحظة، ثم إذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحس بألم شديد في المنطقة الحقوية. فلما فكر من جديد، نهض وأسرع يرتدي ثيابه. من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقي المنزل بدون حارس «في فترة خطرة إلى هذا الحد». وكان سمردياكوف الذي صرعته النوبة، نائماً بلا حراك في الغرفة الصغيرة المجاورة. ولم تتحرك مارفا اينياتيفنا، فقال غريغوري لنفسه وهو يلقي نظرةً عليها: «إنها لم تتحمل الدواء» ثم خرج إلى درجات الباب وهو يئن. كان لا يستهدف إلّا أن يلقي نظرة على الخارج، لأنه كان لا يحس أنه قادر على المشي، بسبب الألم الشديد الذي كان يشعر به في الكليتين والساق اليمنى. ولكنه تذكر في تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة الحديدي في المساء. إن غريغوري رجل دقيق المواعيد منظم السلوك، لا ينحرف أبداً عن القواعد التي فرضها على نفسه إلى الأبد ولا عن العادات التي أخذ نفسه بها خلال سنين. وها هو يهبط درجات الباب متلوياً من الألم، ويتجه إلى الحديقة. وكان باب الحديقة الحديدي مفتوحاً حقاً. أتُراه لاحظ شيئاً يثير الانتباه أو سمع صوتاً غير متوقَّع؟ فلما أدار رأسه فجأة نحو اليسار، رأى النافذة في غرفة نوم سيده مفتوحة، ولم يرَ أحداً عليها؛ فتساءل: «كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا في فصل الصيف؟»، ولمح في تلك اللحظة عينها ظلاً يتحرك في الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه. كان هناك رجل يهرب في الظلام. صاح غريغوري يقول: «رباه!»، ثم نسي فجأة ألمه، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار، فسلك أقصر طريق، لأنه يعرف الحديقة كما يبدو أكثر مما يعرفها الرجل الهارب. لقد اتجه هذا الأخير نحو الحمامات، فركض وراءها، ثم اندفع باتجاه الحائط... وكان غريغوري يلاحقه بنظره كي لا يغيب عنه

ويركض بأقصى سرعة، فوصل إلى السور في اللحظة التي كان فيها الهارب يتسلق السور؛ ففقد غريغوري أعصابه وراح يصرخ ثم انقض عليه، وأمسك إحدى ساقيه بكلتا يديه.

لم يخطئه حدسه؛ عرف الرجل: إنه ذلك الشيطان القاتل «قاتل أبيه».

- يا قاتل أبيه! صاح غريغوري بصوت انتشر في كل النواحي.

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك: وهوى على الأرض كأنه أصيب بصاعقة. فقفز ميتيا إلى الحديقة مجدداً ومال على الخادم الذي ضربه. وكان ميتيا يمسك المدق النحاسيّ بيده، فرماه على العشب ذاهلاً. سقط المدق على مسافة خطوتين من غريغوري، لكن ليس بين الأعشاب، بل في الممر الذي يراه الجميع. بقي ميتيا بضع لحظات يتفحص جسم الرجل الممدود أمامه، كان رأسه مضرجاً بالدم. ومدَّ يده يجسّ الرأس. لقد تذكر ميتيا فيما بعد، تذكراً واضحاً، أنه شعر في تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم، إلى «التأكد تأكداً كاملاً»: هل كسرت جمجمة غريغوري أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أُغمي عليه بسبب الضربة التي أصابت صدغه. ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة. وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به حين ذهب إلى السيدة خوخلاكوفا، فوضعه على وجه غريغوري، محاولاً بغباء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه. فسرعان ما ابتل المنديل بالدم خلال بضع ثوانٍ. فأسرع ميتيا يتساءل فجأة وقد عاد إلى رشده: «لمَ بقائي هنا؟» ثم أضاف يقول يائساً: «وكيف يمكنني أن أعرف الآن هل كُسرت الجمجمة أم لا؟ وما جدوى هذا على كل حال؟ ما حدث فقد حدث. ولقد كان العجوز متهوراً فنال جزاءه!». بهذا ختم ميتيا كلامه بصوت عالٍ، ثم انطلق نحو السور، فتسلقه، وقفز إلى الشارع الضيق، وانصرف راكضاً. وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى منديله المبلل بالدم، فدسَّه في جيب سترته دون أن يخفف من سرعة ركضه. كان يعدو عدواً سريعاً يوشك أن يقطع أنفاسه؛ ولسوف يتذكر عدد من المارَّة صادفوه في الشوارع أنهم رأوا في تلك الليلة رجلاً يهرب في الظلام طائش العقل. واتجـه مجدداً إلى منزل آل موروسوف. كانت فينيا قد أسرعت، بعد انصرافه، إلى بيت البواب نازار إيڤانوفتش فتوسلت إليه «باسم المخلص يسوع أن لا يدع «الكابتن» يدخل المنزل مرة أخرى، لا في هذا المساء ولا في الغد»، فوعدها نازار إيڤانوفتش بأن يلبي رجاءها، ولكنه إذ اضطر أن يذهب إلى مالكة المنزل في الطابق الأعلى، عهد بمراقبة الفناء إلى ابن أخيه، وهو شاب في العشرين من عمره كان قد وصل من الريف مؤخراً، ونسي أن يكلمه عن الكابتن، اقترب ديمتري من الباب وراح يطرقه. عرفه الشاب على الفور، لأن ميتيا كان قد أعطاه «بقاشيش» مرات كثيرة، وتركه يدخل، وأسرع يبلغه، وهو يبتسم ابتسامة تودُّد، أن «إغرافينا ألكسندروفنا ليست في منزلها». فسأله ميتيا وقد توقف في مكانه:

- فأين هي يا بروخور؟

- سافرت إلى موكرويه منذ أكثر من ساعتين، مع تيموفي. قال الشاب.

- ماذا ذهبت تصنع هناك؟ صاح ميتيا.

- لست أدري يا سيدي! لكي تلتقي ضابطاً أو شخصاً استدعاها وأرسل إليها عربة تقلُّها.

تركه ميتيا وأسرع يدخل البيت كالمجنون باحثاً عن فينيا.

V

القرار المفاجىء

كانت هذه الأخيرة في المطبخ مع جدَّتها، وكانتا تستعدان للنوم. وثقة منهما بنازار إيڤانوفتش، لم تقفلا الباب بالمفتاح. اقتحم ميتيا الغرفة، وهجم على فينيا، فقبض على عنقها، بكل قواه:

- قولي لي حالاً، مع من هي في موكرويه الآن؟ وصرخ يسألها خارجاً عن طوره.

فأطلقت المرأتان صرخة حادّة. وراحت فينيا تقول بسرعة وقد استحوذ عليها هلع رهيب:

- سأقول كل شيء يا ديمتري فيودوروفتش العزيز، سأتكلم، لن أخفي شيئاً. لقد ذهبت غروشنكا إلى لقاء ضابطها في موكرويه.

- أي ضابط؟ صرخ ميتيا:

- الضابط الذي عرفته في الماضي، منذ خمس سنوات، الضابط الذي تركها وسافر. أسرعت فينيا تجيبه.

رفع ديمتري فيودورفتش يديه عن عنق فينيا. وقف أمامها لحظة لا ينطق بكلمة، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت، وعبَّرت نظرته عن أنه عرف الحقيقة الآن فجأة، وأنه فهم كل شيء وحزر كل شيء دفعة واحدة. ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل عرف الحقيقة فعلاً أم لا. لقد ظلت جالسةً على صندوق كما كانت حين وصول ميتيا، ولبثت ترتعش جامدةً على ذلك الوضع نفسه مادَّةً ذراعيها كأنما لتحمي نفسها. وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الخوف تحدقان إلى ميتيا الذي كانت يداه حمراوين من الدم، وكان ميتيا أثناء الطريق قد اضطر أن يمسح بيديه العرق الذي كان يتصبب من وجهه، فكانت بقع الدم تُرى كذلك على جبينه وعلى خده الأيمن. وشعرت فينيا أنها توشك أن تصاب بنوبة عصبية. وكانت العجوز الطباخة التي قفزت من مكانها تنظر إلى المشهد مذعورة النظرات، نصف مجنونة من شدة الهلع. وبعد دقيقة من الصمت تهالك ميتيا على كرسي قرب فينيا.

كان ميتيا موجوداً هناك لكنه لا يفكر، كان خائفاً مذهولاً. كان كل شيء قد اتضح: إنه ذلك الضابط، وهو على علم بوجوده. وعرف أنه كتب إلى غروشنكا منذ شهر، فقد أخبرته بذلك هي نفسها. فخلال شهر إذن، خلال شهر كامل، ظلت هذه المؤامرة تدبَّر من وراء ظهره، إلى أن وصل الخصم الجديد، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو اكترث له أو قلق منه. كيف أمكنه ألَّا يفكر في هذا الضابط يوماً، ولماذا نسيه تماماً بعد أن رأى رسالته؟ كان هذا السؤال يعذّب ميتيا كأمر غريب، ويبعث في نفسه رعباً.

لكن بدأ ميتيا يخاطب فينيا فجأة برقّة ولطف، كطفل طيب ولطيف، كأنه نسي

كيف هاجمها وقسا عليها منذ لحظات. راح يطرح عليها أسئلة واضحة ودقيقة يُستغرب صدورها عن رجل في مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال بلطف عظيم وبشاشة كبيرة، رغم أنها لم تستطع أن تحوِّل بصرها المذعور عن يديه الداميتين، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن لا تكتمه شيئاً وأن لا تخفي عنه شيئاً. ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد لذةً في أن تكشف له عن جميع التفاصيل، لا بقصد إيلامه، بل عن رغبة صادقة منها في أن تكون مفيدة له. قصّت عليه أحداث النهار تفصيلاً، وذكرت له زيارة راكيتين وإيليوشا، روت له كيف أنها كُلِّفت بالترقب والترصد، وأخبرته سفر غروشنكا، وردَّدت على مسامعه التحيات التي حرصت المرأة الشابة على أن تكلِّف إيليوشا من النافذة بأن ينقلها إليه، بغية «أن يتذكر على مدى حياته الساعة التي أحبته فيها». فلما وصلت فينيا إلى هذه النقطة من حديثها ابتسم ديمتري، واحمرّ خداه الشاحبان بضع ثوان. وتجرأت فينيا عندئذ فسألته دون خوف في هذه المرة:

- لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا ديمتري فيودوروفتش؟

- آ، نعم، صحيح. أجابها ميتيا ذاهلاً: وألقى على يديه نظرة ذاهلة.

ولكنه سرعان ما نسي السؤال الذي أُلقي عليه، وغرق في الصمت. لقد انقضى نصف ساعة على وجوده هنا. إن الرعب الذي اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن، وبدا على ميتيا أن قراراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلَّ محل ذلك الرعب. وها هو ينهض فجأة ويبتسم حالم النظرة شارد الفكر.

- ماذا حدث لك يا سيدي؟ سألته فينيا وهي تشير إلى يديه.

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقة، كأن ميتيا ليس له أحد أقرب منها إليه في لحظة الشقاء هذه.

نظر ميتيا مرة أخرى إلى يديه. أجابها وهو ينظر إليها نظرة غريبة:

- إنه دمٌ يا فينيا، دم بشري... الله وحده يعلم لماذا سُفح هذا الدم... ولكن اعلمي يا فينيا أنّ هنالك سوراً عالياً (نظر إليها في تلك اللحظة نظرة من يلقي عليها «لغزاً»)، سوراً رهيباً... وغداً، عند الفجر، عندما تبدأ الشمس مسيرتها، سيقفز ميتيا عن ذلك السور... إنك لا تفهمين أي سور أعني... لا بأس! ستعرفين ذلك غداً، وستفهمين عندئذ كل شيء... أما الآن، فوداعاً! لن أكون عقبةً في طريق سعادتها، سأعرف كيف أمحى... عيشي واسعدي يا فرحي، يا ضيائي... لقد أحببتني ساعة، ولسوف تتذكرين ميتنكا كارامازوف طوال حياتك... تعلمين أنها كانت تناديني ميتنكا!

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج فجأة من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أرعبها أكثر مما أرعبها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها.

وبعد عشر دقائق تماماً كان ديمتري فيودوروفتش يمثُل أمام بيوتر إيلتش برخوتين، الموظف الشاب الذي استودعه المسدسين رهناً. كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف، وكان بيوتر إيلتش قد احتسى الشاي، وارتدى ردنغوته ليمضي يلعب البلياردو قليلاً في كاباريه «العاصمة الكبرى». وصل إليه ميتيا في اللحظة التي كان يهم فيها أن يخرج. فما إن رأى الشاب يديه الداميتين حتى صرخ بدهشة.

- سيدي! ماذا حدث لك؟

- لا شيء! جئت أردُّ إليك مالك وأسترد المسدسين. لقد قدّمت لي خدمة كبيرة أنا

مستعجل جداً يا بيوتر إيلتش، أرجوك أن تسرع.

كانت دهشة بيوتر إيلتش ما تنفك تزداد: ذلك أنه رأى في يدي ميتيا كدسة أوراق نقدية، وأغرب ما في الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد: كان قابضاً عليها بيده اليمنى التي يقدمها إلى أمام كأنما ليعرضها. وقد صرَّح الخادم الشاب الذي يعمل في منزل الموظف، فيما بعد أن ديمتري فيودوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال، وأن أغلب الظن إذن أنه كان في الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية (وهي أوراق من فئة المئة روبل) بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة.

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية بأصابعه المدمَّاة. وقد قال بيوتر إيلتش للذين سألوه فيما بعد عن حجم المبلغ، إنه من الصعب تقديره بالنظر فمن الجائز أن يتجاوز ألفي روبل وربما ثلاثة آلاف، غير أن الكمية كانت كبيرة على كل حال، كانت سميكة جداً. أما ديمتري فيودوروفتش فلقد كان، كما ورد في الشهادة التي أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد، «في حالة غير طبيعية، ولكنه لم يكن ثملاً، وإنما كان شديد الاندفاع، رغم أن منظره يُشعر في الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله، فهو يبدو مفكراً يبحث عن حل لا يستطيع الوصول إليه. وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً، وكان يجيب بأجوبة مفاجئة، وجمل قصيرة، غريبة. وكان يمكن أن يُظن في بعض اللحظات أنه مسرور وليس حزيناً».

- ولكن ماذا بك؟ صاح بيوتر إيلتش يسأل من جديد وهو يتفرس في زائره مذهولاً: ماذا فعلت حتى تلطخت بالدم؟ هل سقطت على الأرض؟ أنظر إلى نفسك في المرآة.

قال له ذلك وأمسكه من كوعه ودفعه نحو مرآة. فلما رأى ميتيا وجهه دامياً ارتعش وقطَّب حاجبيه. وتمتم يقول حانقاً:

- هه! لم يكن ينقص إلّا هذا!

وأسرع ينقل الأوراق المالية من يده اليمنى إلى يده اليسرى، وأخرج منديله من جيبه بحركة متشنجة. كان هذا المنديل (الذي استعمله ميتيا في مسح وجه غريغوري) ملطخاً بالدم، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يتمكن ميتيا من فضّها، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بيوتر إيلتش:

- أليس عندك خرقة... أمسح بها؟

- تمسح؟ هل أنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب؟ ألست جريحاً إذن؟ إذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل. سأعطيك طشت ماء.

- شكراً... ولكن أين أضع هذا؟

قال ذلك وهو يشير إلى حزمة الأوراق المالية، سائلاً بيوتر إيلتش بنظراته كأن هذا الأخير هو الذي يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتيا بماله. قال بيوتر إيلتش:

- ضع المال في جيبك. أو ضعه على الطاولة هنا. فلن يأخذه أحد.

- في جيبي؟ طبعاً في جيبي. حسناً...

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله:

- هذا كله سخيف! لا، يجب أن نسوِّي تلك المسألة أولاً. هات المسدسين. إليك

المال... إنني في حاجة ماسَّة إلى المسدسين... وأنا مستعجل جداً... ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها...

قال ذلك ومدَّ إلى الموظف ورقة بمئة روبل كانت أولى أوراق الحزمة. فقال له بيوتر إيلتش:

- لا أستطيع أن أبدِّلها لك. أليس معك نقود صغيرة؟

- لا... أجابه ميتيا.

ولكنه جسَّ ورقتين أخريين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه، ثم أضاف:

- لا... ليس عندي أوراق صغيرة... هي جميعاً واحدة.

قال ذلك ونظر إلى بيوتر إيلتش مرتبكاً.

- من أين جاءتك هذه الثروة كلها؟ سأله الموظف الشاب.

ثم أضاف:

- انتظر! سأرسل الصبي إلى مخزن آل بلوتنيكوف. إنهم يغلقون متجرهم في ساعة متأخرة، وسيبدلون لنا هذه الورقة. هيه، ميشا!

كذلك نادى الصبيَّ وهو يفتح الباب.

صاح ميتيا فيما يشبه الإلهام المفاجئ:

- مخزن آل بلوتنيكوف - إنها فكرة رائعة!

ثم قال يخاطب الصبي الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة، كأنه تذكر أمراً ما:

- ميشا؟ أركض إلى متجر آل بلوتنيكوف، وقل لهم إن ديمتري فيودوروفتش يبلغكم تحياته، وإنه سيجيء إليكم بنفسه بعد قليل... وقل لهم أيضاً هذا: أن يحضِّروا شمبانيا بانتظار وصولي إليهم. نعم، ثلاث دستات شمبانيا. وليحزموها كما فعلوا في المرة الأخيرة عندما سافرت إلى موكرويه... لقد طلبت يومذاك أربع دستات (أضاف يقول فجأة وهو يلتفت إلى بيوتر إيلتش). وهم يعلمون على كل حال، يا ميشا. لا تهتم بشيء (هكذا استأنف كلامه مخاطباً الصبي). ها نعم! قل لهم أيضاً أن يضيفوا جبناً، وفطائر من ستراسبورغ، وأسماكاً مدخَّنة، وشرائح من فخذ الخنزير، وكافيار، أي شيء من كل ما عندهم في مخزنهم، بحيث يكون ثمن المجموع مئة أو مئة وعشرين روبلاً كما في المرة السابقة... وقل لهم كذلك أن لا ينسَوا الملبس والسكاكر الذوَّابة والكُمثري، وبطيختين أو ثلاثاً، لا بل تكفي بطيخة واحدة... ولكن لا بد في مقابل ذلك من شوكولاته وسكر شعير، وفاكهة وكارامل لين، تماماً كالمرة الماضية؛ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمئة روبل... تماماً كالمرة السابقة. هل تتذكر يا ميشا؟ أليس اسمه ميشا؟ (وجَّه هذا السؤال إلى بيوتر إيلتش).

قاطعه بيوتر إيلتش الذي كان يصغي إليه بقلق:

- لحظة! أليس الأفضل أن تأمرهم أنت بإعداد الأشياء؟ لا شك أن الصبي سيخطىء.

سيخطىء، سيرتبك! أوه، ميشا! كنت أريد أن أقبّلك الآن، شكراً لك... اسمع: إذا لم تخطىء في تنفيذ المهمة، فلك مني عشرة روبلات. هيّا أسرع... لا تنس الشمبانيا خصوصاً، يجب أن يحضِّروا كثيراً من الشمبانيا... وكذلك من الكونياك... أبيض وأحمر... تماماً كالمرة السابقة. هم يعرفون ما طلبته في المرة السابقة.

قاطعه بيوتر إيلتش قائلاً وقد نفد صبره:

- هلّا تركتني أتكلم؟ أعود فأقول لك: حسبُ الصبيّ أن يجيئنا بالنقود، وأن يوصيهم بألّا يغلقوا متجرهم قبل وصولك. وستذهب إليهم فوراً، فتعمل ما يجب بنفسك. أعطني هذه الورقة. والآن هيَّا يا ميشا، وأسرع... فهمت؟

يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع في صرف ميشا الذي كان ينظر محملق العينين إلى الزائر الذي تلطخت يداه ووجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية. كان الفتى واقفاً أمام ميتيا فاغر الفم، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له.

فلما انصرف الفتى قال بيوتر إيلتش بلهجة جافّة:

- والآن تعال اغتسل. ضع المال على الطاولة أو ضعه في جيبك... هكذا، اقترب، اخلع عنك هذا الردنغوت!

وساعده في خلع الردنغوت، فإذا هو يصيح فجأة من جديد قائلاً:

- أنظر... الردنغوت أيضاً ملوَّث بالدم.

- ليس هو... ليس هو الردنغوت... الكمُّ وحده اتسخ قليلاً في هذا الموضع. وهنا أيضاً. ذلك لأنني هنا إنما دسست المنديل، فنضح الدم، ولا بد أنني جلست عليه عند فينيا، فرشح الدم من الجيب.

وراح ميتيا يشرح الأمر في سورة من ثقة عجيبة. فقطب بيوتر إيلتش حاجبيه. وقال متذمراً:

- ها أنت دبرت أمرك! أتراك اقتتلت مع أحد؟

وابتدأ التنظيف. تناول بيوتر إيلتش جرةً وأخذ يسكب الماء. فكان ميتيا من فرط تعجله لا يحسن «صوبنة» يديه (كانت يداه ترتجفان؛ تذكر بيوتر إيلتش ذلك فيما بعد)، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فصَوْبن يديه من جديد. كان الموظف في تلك اللحظة يسيطر على ميتيا، وكان سلطانه عليه يقوى شيئاً بعد شيء. يحسن أن نشير هنا إلى أن هذا الشاب لم يكن خجول الطبع.

- أنظر: لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظفار. وادلُك وجهك الآن. أكثر من هذا! هنا على الصدغين، وقرب الأذن أيضاً. هل تنوي أن تنصرف مرتدياً هذا القميص؟ وإلى أين تريد أن تذهب؟ ألا ترى أن الكمَّ الأيمن مملوء بالدم؟

- حقاً! إنه ملطّخ. قال ميتيا وهو يفحص الكمّ:

- بدِّل إذن ملابسك الداخلية.

- لا وقت لدي. سأدبر هذا الأمر: أثني طرف الكمّ نحو الداخل، فلا يُرى الدم... هكذا!

أجاب ميتيا بتلك الثقة نفسها، وهو يجفف وجهه ويديه ويرتدي ردنغوته.

- قل لي الآن ماذا حدث لك؟ هل تشاجرت مع أحد؟ مع من؟ أفي الكاباريه، كما حدث من قبل؟ أتراك تشاجرت مرة أخرى مع ذلك الكابتن نفسه الذي جررته إلى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرِّحاً؟ (ذكر بيوتر إيلتش ذلك المشهد بلهجة لائمة). من ذا ضربت اليوم... أم تُراك قتلت أحداً؟

- سخافات! تمتم ميتيا.

- سخافات؟ ماذا تعني؟

- دعك من هذا الأمر. قال ميتيا:

ثم استدرك يقول مبتسماً وقد ثاب إلى نفسه: دست امرأة عجوزاً في الميدان.

- دست امرأة عجوزاً؟

- بل رجلاً عجوزاً! صحَّح ميتيا إجابته ضاحكاً، وصارخاً كأنه يكلم رجلاً أطرش. وكان يسدد نظراته إلى عيني بيوتر إيلتش.

- رجل عجوز... امرأة عجوز!... أصبحت لا أفهم!... أتراك قتلت أحداً أم ماذا؟

- لا بل تصالحنا. تضاربنا في أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك. حدث ذلك هناك. وافترقنا صديقين. ثم إنه غبيٌّ أبله..! لقد سامحني وعفا عني... لا بد أن يكون قد صفح عني في هذه الساعة... ولو قد نهض، لما أمكن أن يغفر لي... فليذهب الأبله إلى الجحيم! هل تسمعني يا بيوتر إيلتش؟ فليذهب إلى الجحيم! لا أريد أن أهتم به بعد الآن، لا أريد أن يخطر ببالي في هذه اللحظة!

صاح ميتيا بلهجة قاطعة. قال بيوتر إيلتش:

- لا أحب أن أكون كثير الفضول. ولكن أية لذة تجد في التشاجر مع أول قادم؟ وفي سبيل سخافات، كما حدث مع ذلك الكابتن؟ تقتتل ثم تذهب لتلهو وتقصف، ذلك طبعك حقاً! ثلاث دستات شمبانيا! أين تستطيع أن تشرب هذا كله؟

- الآن أعطني المسدسين بسرعة. أنا مستعجل جداً، أقسم لك! كنت أود لو أثرثر معك يا عزيزي، ولكن ليس في وقتي متسع. ثم لماذا الثرثرة؟ لقد فات أوان الكلام الآن. آه!... ولكن! أموالي، أين أين وضعتها؟

صاح وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر.

- أموالك وضعتها على الطاولة... هناك... وضعتها على الطاولة بنفسك. هل نسيت؟ لكأن المال ليس له أي شأن عندك حقاً! أما مسدساك فهاكهما. إني لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشرة روبلات عند العصر، ثم إذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف. كم معك على وجه الدقة؟ ألفان، ربما ثلاثة آلاف؟ أنا أراهن على ذلك؟

- ثلاثة آلاف. أجاب ميتيا ضاحكاً ودسّ الحزمة في جيب سرواله.

- سوف تضيعها هكذا؟ أتُراك اكتشفت منجم ذهب؟

- مناجم، مناجم ذهب! صاح ميتيا بصوت قوي وهو ينفجر بقهقهة صاخبة. هل تهمك المناجم يا عزيزي الشهم برخوتين؟ إنني أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل فوراً إذا أنت مضيت باحثاً عن المناجم. لقد أعطتني أنا ثلاثة آلاف روبل، فإلى هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم! هل تعرف السيدة خوخلاكوفا؟

- كلا! لقد سمعت عنها، أعرفها بالنظر فقط. أهي التي أعطتك الثلاثة آلاف روبل؟

سأله بيوتر إيلتش وقد بدا في وجهه أنه لم يصدق زعم صاحبه.

- إذا كنت لا تصدِّق ما أقول فاذهب إليها غداً منذ الفجر، ساعة يرتقي فيبوس قبة السماء مسبحاً الرب ممجداً عظمته بشبابه الخالد. اذهب إليها فاسألها ألم تعطني ثلاثة آلاف روبل، وسوف تعرف.

- لا أتدخل في علاقاتك. وما دمت تؤكد ذلك جازماً فلا بد أن يكون صحيحاً... ولكنك ما إن تسلَّمت المبلغ حتى أخذت تلهو وتقصف وتبدد، بدلاً من أن تذهب إلى سيبيريا!... إلى أين تنوي الذهاب في هذه الساعة؟

- إلى موكرويه.

- إلى موكرويه؟ ليلاً؟

- كان العالم ملك يميني. قال ميتيا فجأة، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً!

- كيف لا تملك شيئاً؟ وهذه الثلاثة آلاف روبل؟

- لا قيمة لها عندي! ألا فلتذهب الآلاف إلى الشيطان. أنا أتكلم على طبع النساء...

قلب النساء سريع التصديق

وقلبهن كثير التقلُّب فاسد!...

أنا أؤيد قول أوليس هذا، وأنا أوافقه في الرأي بشكل كامل.

- لا أفهمك.

- أظن أنك تعتبرني ثملاً؟

- لا ، لست ثملاً، ولكن ربما أسوأ من ذلك.

- أنا ثمل بالمعنى المجازي يا بيوتر إيلتش، لأن روحي هي السكرى. ولكن كفى هذا الآن...

- نعم ألقمه.

فتح ميتيا علبة المسدسين، وسكب باروداً في خرطوشة، ثم دسّها في المسدس؛ وقبل أن يضع الرصاصة في السبطانة، أمسكها بين إصبعين وأخذ يمعن النظر إليها في ضوء الشمعة.

- لماذا تنظر إلى الرصاصة؟ سأله بيوتر إيلتش الذي كان يراقبه بفضول قلق.

- هي نزوة لا أكثر... لو كنت تنوي أن تُسكن هذه الرصاصة في دماغك، أفما كنت تنظر إليها حين تُلقم المسدس؟

- لماذا تنظر إليها؟ لماذا؟

- ما دامت ستنفذ في جمجمتي أنا، فإنه يهمني أن أرى هيئتها قليلاً! هذه سخافات أقولها على كل حال، لست أدري ماذا أصابني.

ثم أضاف بحرارة وهو يُدخل الرصاصة ويرسِّخها بالمشاقة:

- انتهى! ليس هذا كله إلّا سخافات يا عزيزي بيوتر إيلتش، سخافات لا أكثر.. ليتك تعرف مدى ما في هذا كله من غباء. أعطني ورقة بسرعة!

- هذه ورقة.

- لا، بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه. هذا يصلح على كل حال.

وتناول ميتيا ريشةً من على المنضدة، فكتب على الورقة سطرين بسرعة، وطوى الورقة أربعة أرباع، ودسَّها في أحد جيوب صِداره. وبعد ذلك أعاد المسدسين إلى العلبة، وأقفلها بالمفتاح واحتفظ بها في يده. ثم راح ينظر إلى بيوتر إيلتش ملياً، وهو يبتسم ابتسامة حالمة. وقال:

- والآن أمضي؟

- إلى أين؟ قف! ألعلك تفكر فعلاً في إرسال هذه الرصاصة إلى رأسك؟ سأله بيوتر إيلتش متدخلاً، وقد اشتد قلقه.

- هذه الرصاصة؟ يا للسخافة! ألا فاعلم أنني أريد أن أعيش، لأنني أحب الحياة! إنني أعظم حباً لفيبوس وضفائره الذهبية وحرارته من أن يخطر ببالي الانتحار... قل لي يا عزيزي بيوتر إيلتش: هل تستطيع أنت أن تمَّحي؟

- أن أمَّحي؟ ماذا تعني؟

- أن تزول من الدرب. أن تخلي الساحة للإنسان الذي تحبه والإنسان الذي تكرهه؛ وأن تحب حتى ذلك الذي كان عليك أن تكرهه، أن تبتعد عن طريقهما قائلاً: «هيَّا اسعدا، وليحرسكما الله، أما أنا فسوف...».

- سوف.. ماذا؟

- لا شيء! فلأمض.

- أعتقد أنني سأبلِّغ أقرباءك ليمنعوك من السفر. ماذا عساك فاعلاً في موكرويه؟

قال بيوتر إيلتش وهو يتفرس في ميتيا. فأجابه ميتيا:

- في موكرويه امرأة، امرأة... هاأنت عرفت الآن ما فيه الكفاية يا بيوتر إيلتش! حسبك هذا!

- اسمع: أنت إنسان متوحش، ولكنك كنت دائماً محبباً إلى قلبي. فأنا الآن شديد القلق عليك!

- شكراً يا أخي! أتقول إنني متوحش؟ هذا صحيح! ذلك ما كنت أدَّعيه دائماً: متوحشون، متوحشون، هذا ميشا قد عاد. كنت قد نسيته.

وصل ميشا لاهثاً يحمل النقود. فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «بدأوا فوراً يتحركون ويعملون»، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك ويجلبون الشاي، وأن كل شيء سيكون قد تم إعداده بعد بضع دقائق. تناول ميتيا ورقة مالية بعشرة روبلات، فمدَّها إلى بيوتر إيلتش، ورمى للصبي ورقة أخرى بتلك القيمة نفسها.

- مستحيل! لا أسمح لك بأن تعطيه «بقاشيش» في منزلي. فإن ذلك سيفسده. أعد هذا المال إلى جيبك ولا تبدده. قد تحتاج إليه في القريب. إنني لأتنبأ بأن تعود إليَّ منذ الغد لتستدين عشرة روبلات. ولكن لا، لا تدسَّ جميع هذه الأوراق في جيب السروال، وإلّا ضاعت منك!

- هيه يا صديقي! ليتنا نذهب إلى موكرويه معاً، ما رأيك؟

- ما ذهابي أنا إلى هناك؟

- اسمع! سنفتح إحدى الزجاجات لنشرب تمجيداً للحياة. إنني في حاجة إلى شرب شيء من الشمبانيا. فلنشرب معاً! أظن أننا لم نشرب معاً في يوم من الأيام! وأنا أحرص على هذا وأصرُّ عليه!

- لك ما تشاء! فلنذهب إذن إلى الكاباريه. لقد كنت أنوي أن أذهب إلى هناك.

- ليس إلى الكاباريه! ليس في وقتي متسع. سنشرب عند آل بلوتنيكوف، في الغرفة التي وراء الدكان. سألقي عليك «فزورة»، هل توافق؟

- ألقها.

أخرج ميتيا من جيب صِداره الورقة التي كان قد طواها ووضعها فيها، ففضّ الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب. فقرأ هذه الجملة التالية التي كتبها عليها ميتيا بأحرف كبيرة: «غنّني أعاقب نفسي مكفِّراً عن حياتي كلِّها، وأقبل هذا العقاب».

- أحسب حقاً أن عليَّ أن أبلغ أقاربك! سأقوم بهذا! قال بيوتر إيلتش بعد أن قرأ الجملة.

- لن يتسع وقتك يا عزيزي! هلمَّ نشرب! ذلك أفضل!

يقع متجر آل بلوتنيكوف في ناصية الشارع قريباً جداً من منزل بيوتر إيلتش. إنه أكبر «محل للبقول» في المدينة، وهو مشروع تجاري مزدهر يحسن أصحابه إدارته؛ ويوجد في هذا المتجر ما يباع في المخازن الكبرى في العاصمة: خمور من «أقبية الإخوة ألسييف»، فاكهة، سيجار، شاي، سكّر، بنّ، الخ. وفيه يعمل ثلاثة مستخدمين مقيمين، وصبيَّان متجولان يحملان السلع إلى منازل الزبائن. لقد أصيب إقليمنا بفقر شديد، وغادره الأثرياء المالكون، وبارت التجارة فيه، ولكن مخازن البقول استمرت مزدهرة، حتى ليمكن القول إنها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة: إن السلع التي من هذا النوع لا تعدم من يشتريها في كل زمان. كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتيا إلى مخزنهم نافدي الصبر، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة، إذ ابتاع، دفعةً واحدة، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عدّاً ونقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدَّين)؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده، كما في هذه المرة، حزمة أوراق مالية ضخمة، وكان

يرميها لهم دون أن يساوم ودون أن يفكر في فائدة تلك السلع الكثيرة التي اشتراها. وقد رُوي بعد ذلك في المدينة كلها أنه «حين ذهب إلى موكرويه بصحبة غروشنكا، قد أنفق في ليلة واحدة وفي النهار الذي أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله، ثم عاد من ذلك القصف بدون كوبيك واحد في جيبه، كما ولدته أمه تماماً». ذلك أنه قد استأجر فرقة من الغجر (كانوا يعسكرون آنذاك على مقربة من بلدتنا)، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات، ومن أجل أن يفتحوا أعداداً كبيرة من الزجاجات، مستغلين سكره. وقد روى الناس أيضاً، في معرض السخرية من ميتيا، أنه قدم شمبانيا لفلاحي موكرويه، وأنه أشبع بنات الحي فطائر ستراسبورغية وأنواعاً من الحلوى. وكان الناس يسخرون منه أيضاً، ولا سيما في الكاباريه (ولكن ليس بحضور ميتيا، لأن ذلك خطر)، كانوا يتندرون بتلك المغامرة التي ذكرها هو علناً، وهي هروبه مع غروشنكا وما حظي به منها، «لم يحظ إلا على إذن بتقبيل قدميها».

عندما اقترب ميتيا وبيوتر إيلتش من البقالية وجدا على بابها مركبة ترويكا مجهزةً تماماً، مزيَّنة بأجراس ومفارش، وعربةً مزوَّدةً بغطاء مريح. وكان الحوذي أندره ينتظر ميتيا متربعاً على مقعده وكان في الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبي كبير قد ملىء تقريباً بالسلع التي أمر بها ميتيا، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون إلّا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعه في العربة.

- من أين جاءت مركبة الترويكا هذه؟ دهش بيوتر إيلتش، فسأل ميتيا:

فأجابه هذا الأخير:

- لقد التقيت أندره عندما كنت آتياً إليك، فأمرته بأن ينتظرني مع الخيول أمام البقالية. فلقد كان عليّ أن لا أضيِّع وقتاً. إن تيمودي هو الذي قادني في المرة السابقة، ولكنه سافر في هذا المساء مع ساحرة، دون أن يأبه لي. هل نتأخر كثيراً يا أندره؟

أسرع أندره يجيب:

- لن يسبقونا إلّا ساعة واحدة في أكثر تقدير، بل أقلّ من ذلك!... ساعة قصيرة! لقد قرنت خيول تيمودي بنفسي، وأنا أعرف سرعتها. سأقودك بسرعة غير تلك السرعة يا ديمتري فيودوروفتش! هل تظن أنهم يمكن أن يقاسوا بنا؟ لن يصلوا قبلنا بساعة كاملة.

كذلك قال أندره مؤكداً بحرارة. وهو رجل ما يزال شاباً، أحمر الشعر، جاف الجلد، يرتدي قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه.

- لك مني خمسون روبلاً «بقشيشاً» إذا لم تتأخر أكثر من ساعة!

- اعتمد عليّ يا ديمتري فيودوروفتش. ساعة؟ سيكون من حقهم أن يعتزوا ويفتخروا إذا هم سبقونا بنصف ساعة؟

أخذ ميتيا يتحرك في المتجر في فوضى مضطربة، متنقلاً من طلب إلى طلب آخر قبل إنهاء الطلب الأول. فرأى بيوتر إيلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحدَّ من جنونه.

قال ميتيا آمراً:

- أريد أن يكون الثمن أربعمئة روبل على الأقل، تماماً كالمرة السابقة. أربع دستات شمبانيا، هل تسمعون؟ لا أريد أن تنقص زجاجة واحدة!

- صرخ بيوتر إيلتش:

- قف! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيا؟ ماذا يحتوي هذا الصندوق الخشبي؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوي ثمنه أربعمئة روبل.

أسرع المستخدمون يشرحون له، بلهجة متلطفة، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوي إلّا ست زجاجات من الشمبانيا، وأنه يحتوي كذلك «الأشياء الضرورية جداً» كالمقبّلات، والملبّس، والحلوى. أما «الغلات» الأساسية فستحزم على حدة، ثم ترسل كالمرة السابقة «على ترويكا أخرى تصل بعد «ديمتري فيودوروفتش بأقل من ساعة».

قال ميتيا ملحاً:

- بعد ساعة واحدة، لا أكثر من ذلك. وستضعون فيها أكبر قدْر ممكن من الحلوى والكارامل. إن البنات هناك يعشقن الحلوى والكارامل.

كذلك أضاف بحرارة:

- أوافق على الكارامل! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دستات من زجاجات الشمبانيا؟ تكفيك دستة واحدة وتزيد!

وراح بيوتر إيلتش يساوم، وطلب أن يرى الفاتورة، وتحرك كثيراً، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقد إلّا مئة روبل، فتقرر أن لا يزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمئة روبل.

ثم صاح بيوتر إيلتش يقول وقد نفد صبره:

- فليأخذكم الشيطان! ما أغباني. لماذا أتدخل في هذه الأمور؟ بدِّد مالك كما تشاء، ما دمت قد كسبته بغير جهد!

فقال له ميتيا وهو يجره إلى الغرفة التي تقع خلف الصالة:

- هدِّىء روعك يا معلمي! سيأتوننا الآن بزجاجة ترطِّب حلقينا! قل لي يا بيوتر إيلتش: لماذا لا تسافر معي؟ أنت شاب شهم، وأنا أحبّ أمثالك من الرجال.

جلس ميتيا على مقعد أمام طاولة مغطاة بمفرش غير نظيف. وجلس بيوتر إيلتش قبالته، وجيء بالشمبانيا. واقترحت عليهما محارات «من نوع فاخر وصلت مؤخراً»، فقال بيوتر إيلتش رافضاً الاقتراح في غضب:

- دعوني من محاراتكم، فأنا لا أحب المحار.

- لا يتسع وقتنا لأكل المحار؛ قال ميتيا، ثم إنني لا أرغب أن آكل الآن محاراً.

ثم التفت يقول لبيوتر إيلتش وقد تحمس فجأة؛

- اسمع يا صديقي، إنني أكره كل هذه الفوضى ومن الذي لا يشمئز منها؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا، ولمن؟ لفلاحين؟ أجد أن هذا يثير التقزز ويبعث الغثيان!

- ليس هذا ما أعنيه. أنا أقصد النظام الأعلى! لقد أعوزني دائماً ذلك النظام... فعلام الأسف؟ فات الأوان! لا بأس!... حياتي كلها كانت فوضى، وقد آن لي أن أدخل عليها شيئاً من النظام. كلام بكلام؟

- بل قل إنك تخرف!...

قال ميتيا:

المجد لله في الكون

المجد لله في أعماق نفسي!...

لقد نظمت هذا البيت من الشعر في الماضي، انبجس مني في ذات يوم انبجاس دمعة... أوه! لم يكن هو اليوم الذي جررت فيه الكابتن من لحيته...

- لماذا تتكلم عليه؟

- لماذا؟ لماذا؟ ما كل شيء إلّا دخان! كل شيء يتبدد! كل شيء يزول آخر الأمر!

- اسمع! إن مسدسيك يقلقاني.

- ما المسدسان إلّا دخان! اشرب، وكفَّ عن قول هذه السخافات! إنني أحب الحياة... لقد بالغت في حبها، حتى لأخجل من ذلك! كفى! فلنشرب يا عزيزي، فلنشرب نخب الحياة، نخب الحياة! لماذا أنا معجب بنفسي! إنني شرير، ولكنني راضٍ عن نفسي! ومع ذلك يعذبني أن أحب نفسي هذا الحب رغم دناءتي! إنني أبارك الخليقة، وإنني مستعد لأن أسبِّح بحمد الخالق، وأن أتغنى بعظمته، ولكن... يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم حياة الآخرين... هيه يا أخي! فلنشرب نخب الحياة! أي شيء أفضل من الحياة؟ لا شيء أفضل من الحياة، لا شيء! المجد للحياة، والمجد لملكتي، ملكة الملكات!

- لك ما تشاء! فلنشرب نخب الحياة، ولنشرب نخب ملكة قلبك.

وأفرغ كل من الرجلين كأساً. كان ميتيا، الحذر المهذار في آن، يبدو حزيناً، كأن هماً ثقيلاً يجثم على صدره ولا يستطيع طرده.

- ميشا... ها هو ميشا، ها هو فتاك ميشا قد دخل! تعال إلى هنا أيها الصبي الطيب! اشرب كأساً معنا، تمجيداً لفيبوس وضفائره الشقراء، تمجيداً للشمس التي ستشرق غداً...

- هل أنت مجنون؟ أتسقيه هو شمبانيا؟ صاح بيوتر إيلتش محتجاً حانقاً.

- أسمح له بأن يشرب مرةً واحدة! سوف يسرني هذا. فقال ميتيا.

- ولكن... الخلاصة... ما دمت تصرُّ!

أفرغ ميشا كأساً، وسلَّم ثم انصرف.

- هكذا سيتذكرني مدة أطول على الأقل قال ميتيا... إنني أحب المرأة، أحب المرأة! ما المرأة؟ هي ملكة الأرض.. أوه! إنني أحس بحزن يا بيوتر إيلتش، أحس بحزن رهيب. هل تتذكر ذلك المقطع من مسرحية هملت. «أشعر بحزن رهيب. يا هوراسيو، أشعر بحزن شديد... واأسفاه! مسكين يوريك ذاك!». لعلني أنا يوريك! إنني في هذه اللحظة بعينها يوريك. وبعد ذلك سأكون الجمجمة.

كان بيوتر إيلتش يصغي إليه صامتاً. وسكت ميتيا أيضاً.

ثم اتجه بالكلام فجأة إلى المستخدم يسأله شارد الفكر وقد رأى في الزاوية كلباً

صغيراً طويل الشعر متدلي الأذنين أسود العينين:

- لمن هذا الكلب؟

أجاب المستخدم:

- هو لفارفارا ألكسييفنا، صاحبة المتجر. نسيته هنا منذ قليل. سأرسله لها.

- رأيت في الماضي كلباً يشبهه... قال ميتيا حالماً في الكتيبة... كانت ساقه مكسورة... بالمناسبة يا بيوتر إيلتش، قل لي: هل سرقت شيئاً في حياتك؟

- ما هذا السؤال؟

- افهمني! أقصد السرقة الحقيقية... أن تأخذ مالاً من جيب شخص آخر، لا من الدولة، فجميع الناس يسرقون الدولة... هذا شيء معروف، وأنت أيضاً تسرق الدولة، لا شك عندي في ذلك...

- سحقاً لك...

- هل سرقت مع ذلك؟ من جيب، أو من محفظة؟...

- سرقت في طفولتي قطعة نقدية بعشرين كوبيكاً من أمي. كان عمري تسع سنوات. أخذت القطعة النقدية من على الطاولة، دون أن يراني أحد، وأخفيتها في قبضة يدي.

- وبعد ذلك؟

- لا شيء... احتفظت بها ثلاثة أيام، ثم شعرت بالخجل، فرددتها معترفاً بالسرقة.

- ثم؟

- جُلدت كما أستحق. ولكن لماذا هذه الأسئلة؟ هل سرقت؟

- سرقت قال ميتيا وهو يغمز غمزة ماكرة.

- ماذا سرقت؟ سأله بيوتر إيلتش قلقاً:

- سرقت عشرين كوبيكاً من أبي. كان عمري تسع سنوات. ثم رددتها.

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة.

- آن أوان السفر يا ديمتري فيودوروفتش. صاح الحوذي أندره من باب المتجر.

- هل كل شيء جاهز؟ هيّا بنا!

قال ميتيا ذلك، وراح يدور في الغرفة. وأضاف:

- بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة! كأساً من الخمرة لأندره! بسرعة! وأعطوه أيضاً كأس كونياك!... أما العلبة (علبة المسدسات)، فضعوها تحت المخدات. استودعك الله يا بيوتر إيلتش، ما ينبغي لك أن تؤاخذني.

- ولكن هل ستعود غداً؟

- نعم، سأعود.

- هل ننهي الحساب الآن؟ آ، نعم، الحساب! طبعاً!

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية، سحب منها ثلاث ورقات من فئة المئة روبل، ورماها على البسطة بإهمال، ثم اتجه مسرعاً نحو الباب، فرافقه جميع مستخدمي المتجر، وشيعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون له انحناءً كبيراً. ثم شرب أندره كأساً من الكونياك، وصعد إلى مكانه في العربة. ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر في العربة، انبجست فينيا راكضة لاهثة، فضمت يديها إحداهما إلى الأخرى، وجثت على ركبتيها أمامه، وهتفت تتوسل إليه قائلة:

- سيدي العزيز ديمتري فيودوروفتش، يا ملاكي، لا تقتل سيدتي! أنا من أخبرك كل شيء! فلا تسئ إليه هو أيضاً، القديم... لأنه عرفها قبلك. وهو ينوي أن يتزوج أغرافينا ألكسندروفنا، لقد جاء من سيبيريا لهذا الغرض... سيدي العزيز ديمتري فيودوروفتش، لا تدمر حياتهما!

قال بيوتر إيلتش يخاطب نفسه: «آ، آ، آ، هكذا إذن! ستحدث مشاجرة هناك. اتضح الآن كل شيء. أصبح كل شيء واضحاً.». ثم قال بصوت عالٍ:

- ديمتري فيودوروفتش! أعد إليَّ هذين المسدسين في الحال إذا كنت رجلاً. هل تسمح يا ديمتري؟

- المسدسين؟ لحظة يا عزيزي أجابه ميتيا سأرميهما أثناء الطريق في النهر. وانهضي أنت يا فينيا. لا تركعي أمامي. إن ميتيا لن يقتل، هذا الصبي الغبي، لن يحطم حياة أحد بعد الآن.

ثم أردف يقول اسمعي يا فينيا، لقد أهنتك منذ قليل، فأرجو أن تسامحيني. اغفري لهذا الشقي البائس. يمكنك أن تغفري وأن لا تغفري... لم يبقَ لهذا قيمة... هيَّا يا أندره، ولتجر المركبة بأقصى سرعة!

رفع أَندره سوطه، فجلجلت الأجراس.

- استودعك الله يا بيوتر إيلتش، لك مني آخر دمعة!...

قال بيوتر إيلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكا التي أخذت تبتعد: «ليس بسكران، ولكن ما أشد الاضطراب في أقواله». وقد أراد بيوتر إيلتش أن يبقى في المتجر ليراقب شحن الخمور والمؤونات على عربة أخرى، لأنه كان يحسُّ أنهم سيغشُّون ميتيا. ولكن شعر بحنق على نفسه فجأةً، لاهتمامه بهذه التفاصيل، وبصق من شدة غضبه، واتجه نحو الكاباريه ليلعب البلياردو قليلاً كما كان ينوي.

وقال في نفسه أثناء الطريق: «إنه رجل أبله، ولكنه طيب...». ذلك الضابط، صاحب غروشنكا «القديم»، فقد سبق أن سمعت عنه... هل عاد إذن؟... ولكن المسدسين... المسدسين. فليحلَّ الرجلان نزاعهما، ولن يحدث شيء على كل حال. سيصرخان كثيراً، وسيسكران، وسيقتتلان، ثم يتصالحان. إنهما غير جادّين... كلمات جوفاء! «سوف أتنحى عن طريقهما...» «إنني أعاقب نفسي...» دعنا من هذا! لن يفعل من ذلك شيئاً. لقد ردَّد أقوالاً من هذا النوع مئة مرة في الكاباريه عندما كان ثملاً. وهو في هذه المرة لم يشرب «نفسي

سكرى»؛ إن جميع أمثاله من القاصفين يحبّون العبارات الرنانة. أأنا مربية أخيراً؟ لقد تشاجر على عادته، فدمّى وجهه. ولكن من الذي تشاجر معه؟ سأعرف هذا في الكاباريه حتماً. وذلك المنديل المدمَّى؟ لقد تركه في غرفتي... ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال! ما لي ولهذا كله!».

وصل إلى الكاباريه معتكر المزاج جداً، وبدأ يلعب فوراً. وانبسطت أساريره، وتابع اللعب، وأخذ يقص على أحد ملاعبيه أن ديمتري كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى، وأنه رأى في يديه بأمّ عينه ثلاثة آلاف روبل. وأضاف أن ميتيا قد سافر في هذه المرة أيضاً إلى موكرويه ليقصف فيها مع غروشنكا. أصغى السامعون إلى هذه الأنباء بفضول شديد، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة، دون مزاح، ويتكلمون بلهجة فيها جدٌّ عجيب. حتى لقد توقَّف لعب البلياردو.

- ثلاثة آلاف؟ من أين جاء بها؟

وتتالت الأسئلة. لم يصدّقوا حكاية مناجم الذهب التي اقترحتها السيدة خوخلاكوفا.

- أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز؟

- ثلاثة آلاف! هذا أمر يثير الاشتباه!

- لقد تباهى في هذا المكان نفسه بأنه سيقتل والده، وسمعه جميع الناس، حتى لقد تحدث في تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل...

كان بيوتر إيلتش يصغي، وأصبحت أجوبته مقتضبة وجافة. ولم ينبس بكلمة واحدة عن الدم الذي رآه على وجه ميتيا ويديه، رغم أنه كان ينوي أن يتحدث عن ذلك حين ذهب إلى الكاباريه. وبدىء لعب البلياردو مرة ثالثة، أعلن بيوتر إيلتش أنه لا يحب أن يلعب أكثر. ثم وضع عصا البلياردو، وخرج حتى دون أن يتناول العشاء. خلافاً لما كان ينوي. فلما وصل إلى الساحة توقف لحظة، وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب إلى منزل فيودور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء. «يا للحماقة! سأوقظ جميع الناس، وأحدث فضيحة، مع أن هذا كله ليس إلّا تخيلاً! وما شأني أنا؟ هل أنا خادمهم؟».

وعاد إلى منزله غاضباً. وفجأة خطرت بباله فينيا. قال لنفسه في حسرة: «ما أغباني! إن فينيا هي الشخص الذي كان يجب أن أسأله، ولو فعلتُ، لقالت لي كل شيء!». وشعر عندئذ برغبة قوية في أن يكلّمها، وبلغت هذه الرغبة من القوة أنه انعطف فجأة، وهو في منتصف الطريق إلى منزله، فاتجه نحو منزل آل موروسوف الذي تقيم فيه غروشنكا. فلما وصل إلى الباب طرقه، فإذا بالطرقات التي تردّد صداها في صمت الليل ترده فجأة إلى الواقع، وإذا بغضبه يشتد لأنه يقوم بمسعى غير لائق. قال في نفسه وهو يشعر بحرج يوشك أن يكون أليماً: «سوف أحدث فضيحة». ولكنه بدل أن ينصرف، راح يطرق الباب، بكل ما أوتي من قوة. دوَّت طرقات الباب في الشارع كله. فردَّد يقول: «لا بأس! لسوف أجبرهم على أن يفتحوا!»، وكان سخطه على نفسه يزداد لدى كل طرقة جديدة وهو يستأنف الطرق بمزيد من القوة.

VI

سأصل، أنا!

كان ديمتري فيودوروفتش يسير في الطريق بسرعة فائقة. فالمسافة تزيد قليلاً على عشرين فرسخاً حتى موكرويه. لكن خيول أندره، قطعت هذه المسافة بساعة وربع الساعة. ويبدو أن سرعة الجري قد أنعشت ميتيا. كان الهواء ندياً، قليل البرودة، ونجوم كبيرة تتلألأ في سماء بلا سحب. في تلك الليلة، وربما في تلك الساعة، تهالك إيليوشا على الأرض، «وقد أقسم بحرارة أنه سيحبها إلى الأبد». كان ميتيا يشعر بضيق شديد، ولكن نفسه، رغم الهموم الثقيلة التي تعذبها، كانت لا تفكر في تلك اللحظة إلّا في المرأة الحبيبة، ملكته التي تعجَّل لقاءها ليتأملها مرةً أخيرة. حسبي أن أقرر ما يلي: كان لا يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة. وسواء أصدّقتم كلامي أم كذبتموه، فإن الحقيقة تجبرني أن أقول إن هذا الغيور لم يكن يشعر بأية عاطفة من عواطف العداوة نحو القادم الجديد، نحو ذلك الخصم الذي لم يكن في حسبانه، نحو هذا «الضابط» الذي داهم حياته بهذه القسوة الشديدة. لو حاول أي إنسان آخر أن يحل محل ميتيا لدى غروشنكا، لأسرع ميتيا يردُّ بغضب غيور مسعور، ولتلطخت يداه بالدم من جديد. أما تجاه هذا الإنسان الذي هو «أول رجل» في حياة غروشنكا فإن ميتيا كان لا يشعر بأي غيرة، ولا بأي عداوة، أثناء ما كانت مركبة الترويكا تقلُّه إلى موكرويه. ولم يكن قد رأى ذلك الرجل بعد. «الأمر واضح. إنها على حق. هو أول حب في حياتها، هو الرجل الذي لم تستطع أن تنساه يوماً خلال خمس سنوات. معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة. أما أنا، فماذا جئت أعمل في حياتها؟ من أنا عندها؟ ابتعد يا ميتيا! تنحَّ عن طريقها! ثم ما قيمة هذا كله اليوم، ما دام مصيري قد تقرر، ما دام كل شيء سينتهي بالنسبة إليّ، حتى ولو يكون هو هناك، حتى ولو لم يجيء ذلك الضابط؟...».

بهذه العبارات تقريباً كان يمكن أن يعبِّر ميتيا عن المشاعر التي كانت تجيش في نفسه، لو كان قادراً على التفكير في تلك الآونة. ولكن ميتيا لم يكن يستطيع أن يفكر. إن القرار الذي اتخذه إنما جاءه فجأة، دون أي تفكير، فإذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتائج التي تترتب عليه، أثناء انفعاله ذاك الذي أيقظه في نفسه ما كشفت له عنه فينيا من أمور. ومع ذلك لا يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق، ولا يزال يشعر باضطراب أليم: إن قراره لم يردَّ السكينة والطمأنينة والسلام إلى نفسه. وتربطه أشياء كثيرة بذلك الماضي. كان يقول لنفسه في بعض اللحظات: «ما أغرب هذا!» كان قد نطق بحكم نهائيّ على مصيره، وكتب على ورقةٍ قوله: «إنني أعاقب نفسي، وأنا أقبل هذا العقاب»، وإن هذه الورقة الآن في جيبه، جاهزة للاستعمال؛ وأن مسدسه محشو، وهو يعرف ما الذي سيفعله في صباح الغد، حتى يطلع «فيبوس ذو الضفائر الذهبية» فيدفئ الأرض مجدداً بأول أشعته. ومع ذلك... لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ذكرياته التي تلازمه وتعذِّبه. فكان يقول متألماً: لا سبيل إلى النسيان؛ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملأه يأساً. ولقد أوشك في لحظة من اللحظات، أثناء هذه الرحلة، أن يأمر أندره بالتوقف، وأن يفرغ من الأمر كله؛ يخرج من العربة، ويطلق على نفسه رصاصة دون أن ينتظر الغد. ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت، كما تنطفىء شرارة طائرة. وكانت مركبة الترويكا «تنهب به الأرض نهباً»، فكلما اقتربت به من غايته،

كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه بقوة طاغية مستبدة مستأثرة، طاردةً جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه. «أوه! أريد أن ألمحها مرة أخيرة، ولو من بعيد، عابرةً؛ إنها في هذه الساعة معه، وسأراهما كليهما، هي وحبيبها الأول، وسأتأملهما، ذلك هو كل ما أتمناه الآن!» لم يشعر نحو هذه المرأة يوماً بمثل الحب الذي يشعر به الآن من عاطفة رقيقة لا حدود لها، من عاطفة غير متوقعة حتى منه، تدفعه إلى الرغبة بلا اختفاء، «سأتنحّى من طريقهما». هتف فجأة بنوع من الحماسة الهذيانية.

العربة تسرع منذ قرابة ساعة. ميتيا صامت. وأندره، وهو فلاح ثرثار في العادة، لا يتكلم أيضاً، كأنه يخاف من أن يقطع الصمت. فهو لا يزيد على أن يحرِّض بسوطه خيوله النحاف على عصبية. وفجأة صاح ميتيا بقلق شديد:

- أندره! ماذا لو وجدناهم نائمين؟

في تلك اللحظة خطر بباله هذا الاحتمال الذي لم يكن قد ساوره قبل ذلك.

- جائز جداً أن يكونوا في هذه الساعة نائمين يا ديمتري فيودوروفتش.

قطب ميتيا حاجبيه بغضب. ماذا؟ أيجيء حاملاً هذه العواطف... ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً... هي أيضاً... ربما إلى جانبه! واستعر الغضب في قلب ميتيا.

صرخ يقول خارجاً عن طوره:

- اجلد يا أندره! مزيداً من الإسراع، قال أندره بعد صمت:

- لا أعتقد أنهم ناموا. لقد أسرَّ لي تيموفي أن جمعاً غفيراً قد تجمَّع هذا المساء في موكرويه؟

- في محطة العربات؟

- لا، بل عند آل بلاستونوف، وهو محطة عربات أيضاً.

- أعرف. أتقول إنهم جمع غفير؟ كيف هذا؟ من أين جاؤوا؟ قال ميتيا يسأل الحوذي وقد أدهشه هذا النبأ غير المتوقع.

- يبدو أنهم جميعاً أناس محترمون كما قال تيموفي: اثنان منهم جاءا من المدينة ولست أدري من هما، فإن تيموفي لم يذكر لي ذلك؛ واثنان من هنا، ثم اثنان آخران هما مسافران عابران فيما يبدو، ثم شخص آخر أيضاً إذا صحَّ ظنّي. وهم يلعبون بالورق، حسب ما يقول تيموفي.

- بالورق؟

- نعم. وما داموا قد بدأوا يلعبون بالورق، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا. إن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن.

- أسرع، أسرع يا أندره.

واستأنف أندره كلامه بعد صمت فقال:

- قل لي يا سيدي. هناك أمر أحب أن أسألك عنه، ولكني أخشى أن أغضبك.

- ما هو هذا الأمر؟

- إن فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة إليك ألّا تلحق أذًى بسيدتها وبشخص آخر... فيا سيدي، ما دمت أنا أقودك إلى هناك، فإن ضميري... لا تؤاخذني يا سيدي... إذا كنت غبياً فيما أقول.

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسي شديد:

- أنت حوذي، أليس كذلك؟ أنت حوذيّ.

- نعم، حوذي...

- أنت تعلم إذن أنه عليك أن تتنحى عن الطريق. ثمة حوذيون لا يتنحون لأحد، ادهس من تريد، تابع. كلا أيها الحوذي، لا تدهس أحداً، ليس لحوذي أن يدوس المارَّة... لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً، لا يحق لأحد أن يحطم حياة غيره. ومن يدمِّر حياة شخص آخر، فلا يبقى عليه إلّا أن يعاقب نفسه بنفسه بعد ذلك... إذا هو دمَّر حياة أحد، فليمضِ... فلينل العقاب!

تكلم ميتيا جيَّاش النفس، شديد الاندفاع، ورغم أن أندره دُهش من أقواله، فإنه لم يقطع الحديث قال:

- صحيح جداً ما تقوله يا سيدي ديمتري فيودوروفتش. أنت على حق، لا يجوز لأحد أن يدوس البشر، ولا أن يعذبهم؛ ولا ينبغي له أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات الله التي تتنفس! أنظر إلى الخيول مثلاً: إن من الناس من يضربونها بغير طائل، ويستحثونها أكثر مما يجب. إن بعض الحوذيين في بلادنا لا يعرفون الاعتدال، وهم بذلك يسيرون كالمسعورين لست أدري إلى أين وكيف؟

- لعلهم يفعلون هذا ليصلوا إلى جهنم بسرعة أكثر وهو يضحك ضحكته القصيرة الجافة. قل لي يا أندره: إنك إنسان طيب القلب بسيط القلب (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن ديمتري فيودوروفتش كارامازوف سيذهب إلى جهنم؟

- لست أدري يا سيدي الطيب، ذلك متوقف عليك أنت... اسمع يا سيدي: حين مات ابن الله على الصليب، نزل مباشرة إلى جهنم فخلَّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب النار. وقد تشكى الجحيم عندئذ، مخافة أن لا يستقبل خاطئين بعد ذلك. فقال الرب للجحيم: «اطمئني يا جهنم، فإنك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة: ستستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء، وستمتلئين من جديد كما كنت ممتلئة في الماضي، إلى اليوم الذي أرجع فيه إلى هذا العالم». إن هذا الكلام هو الحقيقة، هكذا...

- هذه أسطورة شعبية رائعة. اضرب الحصان الأيسر يا أندره!

استأنف أندره كلامه وهو يصفِّق بسوطه فوق الحصان الأيسر؛ قال: أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم. أما أنت يا سيدي فنحن نعتبرك طفلاً... ذلك هو رأينا نحن... مهما تكن عنيفاً غضوباً... وإنك لعنيف غضوب لا شك في ذلك. سيغفر الرب لك لأنك ذو قلب طيب.

- وأنت يا أندره، هل تسامحني؟

- ليس هناك ما أسامحه يا سيدي، فإنك لم تسئ إليَّ.

- إنني أسألك هل تستطيع أن تسامحني نيابةً عن الجميع، أن تسامحني أنت، في هذه اللحظة، على هذا الطريق؟ هل تغفر لي باسم الجميع؟ أجبني يا ابن الشعب!

- سيدي! لقد بدأت أخاف. إنك تتكلم كلاماً غريباً جداً.

كان ميتيا قد أصبح لا يصغي إليه، فهو الآن يصلي صلاة حارة، مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة:

- يا رب! اقبلني رغم سفالتي، ولكن لا تحكم عليَّ. اللهم اسمح لي أن أجيء إليك دون أن أمثُل أمام محكمتك... لا تحكم عليَّ، ما دمت قد حكمت على نفسي بنفسي. لا تحكم عليَّ، لأنني أحبك يا رب! أللهم إني خبيث دنيء، ولكني أحبك. وحتى في الجحيم، إذا أنت أرسلتني إلى الجحيم، سأظل أحبك، وسأظل أهتف لك بحبي إلى أبد الآبدين ولكن دع لي أن أحب حبي الأرضي حتى النهاية... اسمح لي أن أبقى أحب، في هذه الحياة الدنيا، خمس ساعات أخرى، إلى أن تشرق شمسك الدافئة... إنني أحب ملكة قلبي، ولا أستطيع أن أمتنع عن حبها أللهم إنك تراني كلّي في هذه اللحظة. سوف أسرع إليها، فأرتمي عند قدميها، وأقول لها: لقد كنت على حق حين نبذتني، وداعاً... انسي ضحيتك، ولا تدعي لذكراي أن تعذبك يوماً!».

- موكرويه! صاح أندره وهو يومىء إلى القرية بسوطه الممدود في آخر ذراعه:

فمن خلال ظلمات الليل الشاحبة، كانت تُرى، كتلةٌ مظلمة ومتينة من منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة. إن سكان قرية موكرويه يبلغ عددهم ألفي نسمة. ولكن كل شيء كان غارقاً في النوم. ولا يرى الناظر إلّا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك.

- أسرع، أسرع يا أندره. صرخ ميتيا محموماً.

فقال أندره وهو يشير بسوطه إلى نُزُل آل بلاستونوف الذي يقع عند مدخل القرية والذي كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة إضاءة قوية:

- لم يناموا بعد.

فكرر ميتيا كلام الحوذي فرحاً:

- لم يناموا بعد! أجرِ العربة جرياً سريعاً يا أندره، حتى ترن جلاجلها فيكون لدخولي جلبة. ألا فليعلم الجيمع من القادم! هو أنا... هأنذا وصلت! كذلك صرخ ميتيا وقد بلغ ذروة الاهتياج.

استحث أندره جواديه المكدودين، فوصلت العربة إلى باب النُّزل مقرقعة بقوة، وهنالك استوقف الحوذيّ الحصانين الهزيلين وقد أوشكا أن يموتا تعباً. قفز ميتيا من العربة في اللحظة التي كان فيها صاحب النزل يهم أن ينام في فراشه فلما سمع قرقعة العربة ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من القادم في مثل هذه الساعة بمثل هذه السرعة. صاح ميتيا يسأله:

- أهذا أنت يا تريفون بوريستش؟

مال صاحب النزل إلى أمام ليستطيع أن يميز في الظلام ملامح وجه القادم، ثم نزل درجات المدخل راكضاً، وأسرع إلى الزائر بحماسة مجاملة، وهو يقول:

- ماذا؟ أهذا أنت يا عزيزي ديمتري فيودوروفتش! ما أعظم فرحي برؤيتك من جديد!

كان تريفون بوريستش هذا فلاحاً قوي البنية مربوع الجسم متوسط القامة ضخم الوجه، تعبر قسماته في العادة عن قسوة وغيظ، لاسيما مع فلاحي موكرويه، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحنته فوراً، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آنس منفعة. يرتدي ثياباً على الزيّ الروسي، فقميصه مقلوب الياقة، وصِداره مطرَّزة. ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال، فلقد كان لا يعيش إلّا لجمع المزيد من الثراء، وتحقيق المزيد من الارتفاع. إن أكثر من نصف فلاحي موكرويه مدينون له، واقعون في شباكه، خاضعون لتسلطه. كان يستأجر الأراضي من ملاكي المنطقة، ويشتري البعض الآخر أيضاً، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يستطيعون التخلص منها أبداً. وهو أرمل له أربع بنات مسنَّات، إحداهن مات عنها زوجها فهي تعيش عند أبيها مع طفلين صغيرين، ويعاملها أبوها معاملة خادمة؛ والثانية زوجة أحد الموظفين، فالداخل إلى المنزل يستطيع أن يرى على جدار احدى غرفه صورة فوتوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمي الذي تزدان كتفاه بشارات القصب. أما الابنتان الأخريان، فهما في أيام أعياد المنطقة أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء ذات أذيال طويلة على آخر «موضة»، ولكنهما تنهضان في الغداة منذ الفجر كسائر الأيام، لتكنسا الغرف وتصبّا الماء أو تنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها. وكان تريفون بوريستش، رغم المال المخبأ الكثير الذي جمعه، كان يبتهج كثيراً لكل فرصة تمكّنه من استلاب أموال مبذِّر من المبذرين. وهو يتذكر أنه ربح ديمتري فيودوروفتش، منذ أقل من شهر، مئتي روبل إن لم يكن ثلاثمئة روبل، في يوم واحد، بفضل ديمتري فيودوروفتش، في يوم عيده مع غروشنكا. لذلك استقبله هذه المرة بفرح فائض، مدركاً من طريقة وصول المركبة إلى الباب على هذا النحو الصاخب، أن الفريسة ستكون سهلة.

- عزيزي ديمتري فيودوروفتش، ها أنت عندنا من جديد!

- لحظة يا تريفون بوريستش قاطعه ميتيا. قل لي الأمر الأساسي أولاً: أهي هنا؟

فسأله صاحب المنزل الذي فهم ما يعنيه ميتيا وكان يحدِّق إليه بنظرة نافذة:

- أغرافينا ألكسندروفنا؟ هي هنا... أيضاً!

- مع من؟ مع من؟

- مع نزلاء عابرين... موظف لا شك أنه من أصل بولندي. يظهر هذا من لهجته. إنه هو الذي أرسل خيلاً لتجيء بها إلى هنا. وشخص آخر هو صاحب البولندي، أو رفيق رحلته فحسب، لست أدري. وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية...

- هل يقصفون؟ هل يملكون مالاً؟

- يقصفون؟ دعك من هذا الكلام! هم أناس متواضعون.

- متواضعون؟ والآخرون؟

- هناك سيدان من المدينة... كانا عائدين من تشرنايا، فبقيا هنا لقضاء الليل. أحدهما شاب هو قريب ميوسوف فيما يبدو، ولكنني نسيت اسمه... أما الثاني فأعتقد أنك تعرفه أيضاً: إنه الملّاك ماكسيموف الذي ذهب يحج إلى دير كنيستكم فيما يدّعي، وهو الآن يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف في الطريق...

- أهذا كل شيء؟

- اسكت يا تريفون بوريستش. شيء واحد يهمني: ماذا تفعل هي الآن؟

- وصلت تواً، وهي الآن معهم.

- أهي مرحة؟ أهي تضحك؟

- لا، إنها لا تضحك كثيراً كما لاحظت... حتى لقد بدا لي أنها حزينة. وكانت تمسّد شعر الشاب.

- شعر الضابط، ذلك البولندي؟

- دعك من هذا الكلام! ليس البولندي شاباً ولا هو ضابط. أنا لم أقصد البولندي، بل الشاب... قريب ميوسوف؟ ما لي نسيت اسمه...

- لعل اسمه كالغانوف.

- تماماً، كالغانوف.

- حسناً، سوف أرى. قلت إنهم يلعبون بالورق، أليس كذلك؟

- توقفوا عن اللعب. لقد تناولوا الشاي، وأمر الضابط بخمور.

- لحظة يا تريفون بوريستش! هذه كلها أمور ثانوية، وسأحكم على الموقف بنفسي. أجبني الآن عن الشيء الأساسي: هل في القرية غجر؟

- لم يبقَ غجر يا ديمتري فيودوروفتش! لقد طردتهم السلطات. غير أن عندنا في مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان. هم الآن في رودجستفنسكا، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتماً.

- استدعهم حالاً. ويجب كذلك إيقاظ البنات، كما في المرة السابقة، ولاسيما ماريا تلك، ثم ستيبانيد وإيرين. سأدفع للجوقة مئتي روبل!

- بهذا المبلغ أجمع لك جميع أهل القرية، ولو كانوا نائمين. ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهؤلاء البنات أن يُدفع لهم مبلغ ضخم كهذا المبلغ؟ هؤلاء رعاع لا يستحقون هذه الملاطفات؟ لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدّمت لهم سيجاراً. هؤلاء أناس نتنون. أما النساء فهن جميعاً قذرات. إني أفضِّل أن أرسل إليك بناتي، ولو مجاناً، على أن أدعك تبعثر هذا المال كله. إن بناتي نائمات الآن، ولكني سأوقظهن، سأوقظهن ركلاً بقدمي إذا اقتضى الأمر، وسأجبرهن على أن يغنين لك. لا أستطيع أن أتصور كيف قدّمت شمبانيا لأولئك الفلاحين! ذلك أمر يبعث على الشفقة!

- تريفون بوريستش! ألا تتذكر أنني أنفقت هنا أكثر من ألف روبل في المرة الماضية؟

- كيف لا أتذكر؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفي العزيز.

- إذن فاعلم أنني أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه. أنظر!

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل. ثم

أضاف قوله:

- اسمع الآن وحاول أن تفهم: بعد ساعة سيصل خمر ومقبّلات وفطائر وسكاكر. فاحمل هذا كله فوراً إلى فوق. أما ذلك الصندوق الخشبي الموجود تحت مقعد أندره فيجب أن تنقله إلى هناك أيضاً، فتفتحه وتقدم الشمبانيا حالاً. ولكن لا تنسَ أن الأمر الأساسي هو البنات، البنات! وأريد حتماً أن تجيء ماريا تلك...!

واتجه ميتيا إلى العربة فأخرج من تحت المخدات علبة المسدسين.

- سأدفع لك دينك عليَّ يا أندره. إليك خمسة عشر روبلاً، أجرَ العربة، وإليك خمسين أخرى «بقشيشاً»... مكافأة لك على إخلاصك، وتقديراً لصداقتك... تذكّر السيد كارامازوف!

- لا أجرؤ يا سيدي قال أندره بلهجة مترددة... إنني أقبل خمسة روبلات مكافأة، لا أكثر من ذلك. مستحيل. هذا تريفون بوريستش شاهد عليَّ... سامحني على حماقتي...

- ممَّ تخاف! سأله ميتيا وهو يقيسه بنظره، ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقي إليه خمسة روبلات: أنت وشأنك! اذهب إلى الشيطان! والآن يا تريفون بوريستش خذني على مهل إلى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعاً دون أن يروني. أين هم الآن؟ أظن أنهم في الغرفة الزرقاء، أليس كذلك؟

ألقى تريفون بوريستش على ميتيا نظرة قلقة، ولكنه أطاعه صاغراً فقاده في حذر عبر الممرّ، ودخل هو الغرفة الكبيرة المتاخمة للغرفة التي كان فيها النزلاء، فأبعد الشمعة التي كانت تضيء تلك الغرفة؛ ثم أدخل ميتيا إلى الغرفة المعتمة بغير ضجة، وأجلسه في زاوية معتمة جداً يسهل عليه منها أن يتفحص المتحادثين دون أن يُرى. غير أن ميتيا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم: فما إن رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره، وحتى اضطرب نظره فلا يكاد يرى. كانت جالسة على مقعد قرب الطاولة، وكان الشاب كالغانوف يجلس قريباً منها على الكنبة، وهو فتى جميل الهيئة وسيم الطلعة. كانت غروشنكا ممسكةً يده وكأنها تضحك، بينما كان هو يناقش ماكسيموف ممتعض الوجه، وكان ماكسيموف هذا يجلس إلى الطرف الآخر من الطاولة قبالة غروشنكا أما «هو» فقد كان جالساً على الكنبة نصف نائم يدخِّن غليوناً. وفي جانب، على كرسي مستند إلى الجدار، لاحظ ميتيا رجلاً آخر لا يعرفه. إن الشخص المسترخي على الكنبة يبدو رجلاً بدين الجسم عريض الوجه، قصير القامة، أما الثاني فهو طويل جداً. لكن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك. لقد انقطعت أنفاسه، ولم يستطع أن يمكث هنا حتى دقيقة واحدة، فوضع العلبة على المنضدة، واتجه مباشرة، منقبض القلب نحو الغرفة الزرقاء التي كان يجلس فيها المتحادثون.

- آه! صاحت مذعورة غروشنكا التي رأته قبل الآخرين.

VII

الأول الذي لا نقاش فيه

وصل ميتيا إلى الطاولة مباشرة بخطاه الطويلة والنشطة. وبدأ كلامه بصوت قوي جداً، بصوت يكاد يكون صراخاً، ولكنه يتلعثم عند كل كلمة...

- يا سادة، أنا... أخيراً... لا شيء... لا تخافوا، أنا لا أريد شيئاً... واستدار نحو غروشنكا التي مالت على كالغانوف مذعورة وتشبثت بذراعه... لا شيء. أنا أيضاً سأنصرف... سأمكث حتى الصباح فقط. يا سادتي، هل تأذنون لمسافر ضلَّ طريقه في هذا المكان... أن يجالسكم، حتى الصباح فحسب، ولآخر مرة في هذه الغرفة نفسها؟

وجَّه ميتيا هذا السؤال إلى الرجل القصير السمين الذي كان يدخِّن على الكنبة. فما كان من هذا إلّا أن أقصى الغليون عن شفتيه بوقار، وأجاب بصوت قاسٍ:

- يا سيد»، نحن هنا في اجتماع خاص. وهناك غرف أخرى.

- أهذا أنت يا ديمتري فيودوروفتش؟ فلماذا هذه الكلفة كلها؟ تدخل كالغانوف فجأة. اجلس معنا. أهلاً بك! مساء الخير!

- مساء الخير أيها الصديق العزيز...، أيها الصديق الذي لا نظير له. لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام... أجابه ميتيا مسرعاً فرحاً.

ومدَّ إليه يده من فوق الطاولة.

- أوه! يا لها من قبضة قوية! لقد حطمت أصابعي. قال كالغانوف ضاحكاً

فقالت غروشنكا مرحةً وهي تبتسم خجلى!

هذه هي طريقته في المصافحة دائماً!

لقد أدركت غروشنكا من النظر إلى هيئته أنه لن يعمد إلى شيء من العنف. وكانت تتفحصه باستطلاع قوي تداخله بقية من قلق. إن شيئاً ما في تعبير وجه ميتيا قد خطف عينيها وأسر انتباهها، لا سيما وأن دخوله على هذا النحو قد بدا لها غريباً جداً.

وانبرى الملّاك ماكسيموف بدوره، فقال بصوته «المتعاذب»: - يومك سعيد يا ديمتري فيودوروفتش!

وبدا على ميتيا أنه سعيد بمصافحته أيضاً. قال له متدفقاً في كلامه:

- أهذا أنت؟ ما أسعدني برؤيتك! أيها السادة! أيها السادة! أنا... (وتوجه بكلامه من جديد إلى السيد الذي يدخن الغليون، معتبراً إياه الشخص الأساسي في الغرفة)... أنا قد أسرعت... إلى هنا، لأقضي ليلتي الأخيرة، لأقضي ساعاتي الأخيرة في هذه الغرفة، في هذه

الغرفة بالذات... التي أتيح لي فيها، أنا أيضاً، أن أعبد... ملكتي!... (ثم هتف بحماسة) سامحني يا سيدي. لقد آليت حين جئت إلى هنا... أوه! لا تخشَ شيئاً، لأن هذه الليلة هي ليلتي الأخيرة! فلنشرب أيها السيد، فلنشرب نخب صداقتنا! سوف يجيئوننا بخمر. ولقد حملت معي هذا (قال ذلك وهو يُخرج من جيبه كدسة الأوراق المالية، لا يدري أحد لماذا!)... اسمح لي أيها السيد... إنني أريد موسيقى، أريد صخباً، أريد حركة، تماماً كالمرة الماضية. إن دودة الأرض، إن دودة الأرض التي لا نفع لها ولا فائدة منها ستكف قريباً عن الزحف على الأرض... لسوف تختفي وتزول... أريد أن أستحضر في ليلتي الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتي!...

كان ميتيا يختنق. أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن ذاته إلّا بصيحات غريبة. بقي البولندي جامداً لا يتحرك، منقّلاً نظره بين ميتيا وكدسة الأوراق وغروشنكا، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة. قال:

- إذا وافقت ملكتي...

- ما أسخفكما بهذه الطريقة في الكلام! هل أنا ملكة؟ قالت غروشنكا مقاطعة. إنكما لتضحكاني! اجلس هنا يا ميتيا. ماذا كنت تعني حين قلت إن هذه الليلة هي آخر لياليك؟ لا تروِّعني، أرجو ألّا تروِّعني، أليس كذلك؟ إذا كففت عن تخويفي فسوف أكون سعيدة بمجيئك...

- أنا؟ أنا أروِّعك؟ هتف ميتيا رافعاً ذراعيه في الهواء أوه... اعبري... اعبري... لن أكون عقبةً في طريقك...

وما إن قال ذلك حتى ارتمى فجأة على الكرسي وأجهش يبكي، محوِّلاً رأسه، شاداً بيديه ظهر الكرسي كأنه يعانقه. ذلك ما فعله ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد، ولا كان يتوقعه هو نفسه.

- ما هذا؟ ما هذا؟ ماذا تفعل؟ سألته غروشنكا بلهجة العتب: ذلك هو سلوكه حين يأتي إليّ - يقول أشياء لا تُفهم فجأة، حتى لقد انفجر منتحباً في ذات مرة... وها هو يعيد الآن الكرَّة. ألا تخجل؟ لماذا البكاء؟ ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة، وهي تشدد كلماتها بشيء من الغضب: وهل ما يدعو إلى البكاء؟

- أنا... أنا لا أبكي... قال ميتيا! مساؤكم سعيد جميعاً! واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً. ليست ضحكته الآن تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة، ضحكة عصبية، ممتدة، مشدودة، متوترة، كانت تهز جسمه بكامله.

- أيضاً؟ هلّا كنت أكثر مرحاً، أكثر مرحاً! قالت غروشنكا ملحّة. إنني سعيدة جداً بمجيئك يا ميتيا، سعيدة جداً جداً، هل تسمعني! ثم قالت بلهجة آمرة وهي تتوجه بكلامها إلى جميع الحضور في ظاهر الأمر، وإن كان كلامها منصرفاً إلى الشخص المستلقي على الكنبة في الواقع. أريد أن يبقى معنا! أريد ذلك، أريد ذلك! فإذا كان عليه أن ينصرف، انصرفت أنا أيضاً.

أضافت غروشنكا هذه العبارة الأخيرة وسطعت عيناها شرراً.

قال السيد وهو يقبّل يد غروشنكا بلطف:

رغبات ملكتي هي عندي قوانين.

ثم التفت إلى ميتيا متحبباً متودداً وقال:

- تفضل فاجلس معنا يا سيدي!

وهمَّ ميتيا أن يقفز من مكانه ليلقي خطاباً جديداً كما ظهر ذلك في هيئته، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا، واكتفى بأن قال:

- لنشرب أيها السيد! وأخذ الجميع يضحكون.

- يا رب! ما كان أضلَّني حين تصورت أنه سيتابع الكلام. قالت غروشنكا بعصبية. ثم أضافت تخاطب ميتيا بإلحاح: اسمع يا ميتيا، توقف عن الوثوب عن كرسيك، لكنك أحسنت إذ جئتنا بالشمبانيا. سيحلو لي أن أشرب شمبانيا، لأنني أكره الخمور الأخرى. ويهمني خاصةً أنك قد خطر ببالك أن تأتي، فلقد كنا هنا في ضجر رهيب... أرى أنك تنوي أن تقصف وأن تبدد؟ خبىء أوراقك المالية هذه في جيبك. من أين جئت بكل هذا المال؟

وها هو ميتيا الذي كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية المجعدة التي لاحظها الجميع ولاسيما «السيدين» البولنديين، دسَّها في جيبه وهو مربك. وظهر عندئذ صاحب النزل حاملاً على صينية زجاجةَ شمبانيا مفتوحة وكؤوساً. فأمسك ميتيا الزجاجة، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها، فهبَّ كالغانوف إلى نجدته، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الكؤوس.

- هات زجاجةً أخرى! صاح ميتيا يأمر صاحب النزل ونسي أن يقرع كأسه بكأس «السيد» بعد أن دعاه إلى شرب الكأس نخبَ الصداقة، فها هو يفرغ كأسه في فمه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كؤوسهم. وتغير تعبير وجهه. فالهيئة المأسوية الفخمة التي كانت له عند دخوله قد استحالت الآن ابتسامةً تشبه ابتسامة طفل. فهو ينظر إلى الحضور بفرح خجول تتخلله في كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكِّر بالكلب الصغير المذنب الذي يحس بفرح وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد. لكأنه نسي كل شيء عن الماضي، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد، بنوع من الحماسة، ويبتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً. أما غروشنكا فكان يتفرس فيها بدون انقطاع ضاحكاً، حتى لقد قرَّب كرسيَّه من مقعدها. وشيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً، فأما «السيد» الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين، ولهجته البولندية،وغليونه خصوصاً. قال ميتيا لنفسه: «هل من سوءٍ في أن يدخن؟ إن من حقه تماماً أن يحب الغليون!». ولم يصدمه في أول الأمر ما لاحظه في وجه هذا «السيد» الذي يقارب عمره الأربعين، من غضون وأخاديد، ولا أزعجه أنفه الصغير الذي يمتد تحته شاربان رقيقان نحيلان مشمَّعان يضفيان على وجهه لا أدري أي نوع من الاستخفاف والوقاحة؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة في سيبريا والممشوطة مشطاً غبياً من خلف إلى أمام على الصدغين. قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة: «باروكة؟ لِمَ لا؟». وأما البولندي الآخر الذي جلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من «السيد» ذي الغليون، فقد كان ينظر إلى الجمع بوقاحة مستفِزَّة، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفسه بصمت فيه ازدراء واحتقار. إن الشيء الوحيد الذي خطف بصرَ ميتيا فيه هو فرط طوله الذي يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً. قال ميتيا لنفسه: «لو نهض لكان طوله يقارب المترين!». وقد اعتقد ميتيا أيضاً أن «السيّد» الطويل لا بد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيده، فالقصير هو الذي يأمر العملاق في أغلب الظن. وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً. لم يبقَ في قلبه الصغير أثر من خصومة أو تنافس. ولم يكن قد أدرك بعدُ المعنى الحقيقي لموقف غروشنكا، وللهجة الملغزة التي كانت تقول بها بعض عباراتها. فكل ما عرفه متأثراً في قرارة قلبه أشد التأثر، هو أنها لطيفة معه وأنها «عفت» عنه وأنها أذنت له أن يجلس إلى جانبها. وقد أعجب بها حتى الجنون وهي

تشرب جرعات الشمبانيا. لكن الصمت الذي خيَّم على النزلاء لفت انتباهه فجأة، وراح يُجيل على الحضور نظرة انتظار، وكأنه يتساءل: «لماذا نحن جامدون هكذا؟ ما الذي يمنعنا من أن نلهو؟».

- انظروا إلى هذا! إنه لا يني يكذب، وقد أضحكنا كثيراً. قال كالغانوف في تلك اللحظة، وكأنه قد عرف ما جال في خاطره، مشيراً إلى ماكسيموف:

فحدَّق ميتيا إلى الرجلين واحداً بعد آخر. وسأل وهو يضحك ضحكته الصغيرة، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً: إنه يكذب؟ ها ها!

- نعم. تصور أنه يدّعي أن جميع ضباطنا في سلاح الفرسان قد تزوجوا نساءً بولنديات بين عامي 1820 و1830؛ هذا سخف، أليس كذلك؟

- بولنديات؟ قال ميتيا بالغاً أوج السرور:

كان كالغانوف يعرف نوع العلاقات القائمة بين ميتيا وغروشنكا، وكان يعرف أيضاً دور «السيد» البولندي، ولكنه لم يكن مهتماً بذلك كثيراً، وربما لم يكن مهتماً آنذاك، فماكسيموف هو الذي كان يشغله. لقد قادته المصادفة إلى لقاء ماكسيموف في هذا النُّزُل الذي التقى فيه الرجلين البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن. أما غروشنكا فقد سبق أن رآها بل لقد ذهب إلى منزلها في ذات يوم مع أحد أصدقائه، ولم تعجبه حينذاك ولكنها تنظر إليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً. وقد ظل لا يبالي بها في بادئ الأمر رغم أنها قد بدأت تلاطفه قبل وصول ميتيا. إنه فتى في العشرين من عمره على أكثر تقدير، شديد الأناقة، جميل الوجه، شاحب اللون، له شعر أشقر رائع، وعينان زرقاوان جذّابتان تعبّران عن ذكاء وتعبران في بعض اللحظات عن عمق، فلا يتفق ذلك مع سنّه الغضة، لا سيما وأن مظهره وحركاته وحتى أقواله تُشعر في كثير من الأحيان بأنه طفل. على أن هذا لم يكن يضايقه أبداً، رغم شعوره القوي به. كان يبدو على وجه العموم إنساناً متفرداً، وربما بدا في بعض الأحوال صاحب نزوات، ولكن ذلك لا يخرجه أبداً عن لطفه وعذوبته. وكان تعبير وجهه يتجمد في بعض الأحيان فيكتسي شيئاً يشبه العناد: فهو عندئذ ينظر إلى محدثه ويصغي إليه، ولكنه يكون غارقاً في أفكاره هو، يتابعها في إصرار. وهو تارة متوانٍ، وهو تارة أخرى حادّ مندفع إلى أقصى الحدود، يضطرب لأبسط الأمور ويهتاج لأتفه الأسباب.

- تصور أنني أطوِّف هذا الرجل معي منذ أربعة أيام، تابع يقول، منذ اللحظة التي دفعه فيها أخوك إلى خارج العربة فسقط، كما تتذكر ذلك حتماً. لقد اهتممت بأمره عندئذ، وأخذته معي إلى الريف. ولكنه لا ينقطع عن الكذب. إنه يكذب بدون توقف، حتى أخذ كذبه يضايقني. وإني أنوي أن أعيده إلى منزله...

قال البولندي ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف باللغة البولندية: - إن هذا الرجل لم يعرف في حياته نساءً بولنديات، وهو يروي أشياء كاذبة.

كان البولندي ذو الغليون يجيد اللغة الروسية، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه. ولكنه يصرُّ على أن ينطق بها نطقاً رديئاً، فهو يشوِّه الألفاظ، ويدس في جمله كلمات بولندية.

- ولكنني تزوجت أنا نفسي امرأة بولندية. أجاب ماكسيموف ساخراً.

- فسرعان ما تدخَّل كالغانوف: ليست هذه هي المسألة. هل خدمت في سلاح الفرسان؟ ذلك أنك تتكلم على سلاح الفرسان! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان؟

- هذا هو الأمر! هذا هو الأمر! يا لَلفارس الجميل الذي كان يمكن أن يُرى في سلاح الفرسان!... صاح ميتيا مرحاً، وكان يصغي إلى الحديث بشغف.

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتنقلان بين المتحادثين واحداً بعد آخر، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدري إلّا الله ما هي!

- لا... لقد أسأت فهمي قال ماكسيموف وهو يلتفت إلى ميتيا: أنا أقصد أولئك الفتيات البولنديات.. وهنَّ جميلات في الواقع... ولكنهن يفقدن صوابهن متى رقصن رقصة مازوركا مع أحد فرساننا الرمَّاحين... يكفي أن ترقص إحداهن مع الفارس رقصة مازوركا، حتى تقفز بعد ذلك فوراً على ركبتيه، كقطة صغيرة بيضاء... ويكون السيد أبوها والسيدة أمها حاضرين، فلا يجدان في ذلك بأساً ولا يحتجان... بل هما يأذنان ويستحسنان... وفي الغد يمضي الفارس يطلب يد الفتاة... هل فهمتم؟ يمضي يخطب الحسناء... أليس هذا صحيحاً؟ ها ها... كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً.

- سيد مسكين! تمتم البولندي الطويل، الجالس على كرسي قرب الحائط، وأنزل إحدى ساقيه المتصالبتين عن الأخرى، ليصالبهما في الاتجاه المعاكس من جديد.

لاحظ ميتيا عندئذ جزمته الضخمة المشمَّعة التي كان نعلها السميك وسخاً جداً. يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً، ولم تكن ثيابهما نظيفة.

- لماذا يكون مسكيناً؟ أنا لا أحب الاهانات! تدخلت غروشنكا بلهجة غاضبة.

فقال البولندي ذو الغليون وهو يلتفت نحو غروشنكا:

- سيدتي أغريبينا! لا بد أن هذا السيد قد عاشر في بولندا بناتٍ وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة!

فأمَّن الرجل العملاق على كلامها قائلاً:

- تستطيعين أن تكوني من ذلك على يقين.

قالت غروشنكا متجهمة الأسارير:

- كفى! دعوه يتكلم! بماذا أساء إليكم؟ إن المرء يتسلّى مع أمثاله على الأقل!

- لست أمنعه من الكلام يا سيدتي. فأجاب «السيد» البولندي ذو الباروكة، بوقار.

وألقى نظرة طويلة على غروشنكا، ثم سكت، ونشق نفساً من غليونه برصانة.

قال كالغانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً:

- معذرة! أعتقد أن «السيد» على حق. ما دام ماكسيموف لم يعش في بولندا فبأي حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد؟ إنك لم تتزوج في بولندا مع ذلك، أليس كذلك؟

- لا... وإنما تزوجت في إقليم سمولنسك. إن أحد الفرسان هو الذي جاء إلى ذلك الإقليم بزوجتي... أعني بمن أصبحت زوجتي فيما بعد... جاء بها إلى ذلك الإقليم تصحبها السيدة أمها، وخالة من خالاتها، وقريبة أخرى لها ابن كبير. لقد جاءت هؤلاء السيدات من بولندا، فهنَّ بولنديات حقاً... وقد تنازل لي الفارس عنها. كان هذا الفارس فتًى أخاذاً... كان

في نيته أن يتزوجها هو نفسه في أول الأمر، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء...

- كيف؟ تزوجت عرجاء؟ هتف كالغانوف يسأله.

- نعم، كانت تعرج. وقد تآمرا كلاهما على خداعي. كنت أنا أظن أنها تتواثب تواثباً جميلاً، وكنت أعزو ذلك إلى فرحها...

- إلى فرحها بتزوجك؟ سأله كالغانوف بصوت رنان طفولي.

- نعم، إلى فرحها بتزوجي. ولكن اتضح لي أن الأمر لم يكن كذلك أبداً. فبعد زواجنا، بل في مساء الحفلة نفسه، اعترفت لي بالحقيقة، واعتذرت اعتذاراً مؤثراً: يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير، فانكسرت عندئذ ساقها! ها ها!

انطلق كالغانوف عندئذ في ضحك كضحك الأطفال تماماً، وكاد ينقلب على الكنبة. وضحكت غروشنكا أيضاً. أما ميتيا فقد شعر أنه في ذروة الغبطة والسعادة.

- هل تعرف أنه ذكر الآن الحقيقة؟ صاح كالغانوف مخاطباً ميتيا: إنه لم يكذب في هذه المرة! اعلموا أنه تزوج مرتين... وهو عن زوجته الأولى تحدث الآن، أما الثانية فقد هربت... هل تعلمون هذا؟ وهي ما تزال حية. أكنتم تجهلون ذلك؟

- غير معقول! قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة إلى ماكسيموف.

فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع:

- لقد هربت فعلاً. نعم... حدث لي هذا المكروه! سافرت مع رجل فرنسي. وأسوأ ما في الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمه قريتنا والأراضي التي تتبعها. قالت لي: «أنت رجل مثقف، وسوف تستطيع تدبير أمرك وحدك». على هذا النحو تركتني. وقد نبهني أسقف محترم جداً في ذات يوم إلى أن إحدى زوجتيَّ كانت ساقها عرجاء، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة... ها ها!...

- هل تسمعون؟ هل تسمعون؟ صاح كالغانوف في حماسة. إذا كان يكذب - وهو غالباً ما يكذب - فهو يقوم بذلك لتسليتنا. فهذه إذن ليست سفالة، ليس فيه شيء من السفالة! إنني أحبه أحياناً، هل تعلمون؟ هو دنيء جداً، ولكن دناءته طبيعية، أليس كذلك؟ ما رأيكم؟ غيره ينحطون طمعاً في منفعة، أما هو فيفعل ذلك مجاناً، يفعل ذلك مدفوعاً إليه بطبيعته المنزهة عن الغرض. تصوروا مثلاً أنه يدّعي أن غوغول وصفه هو في كتابه «النفوس الميتة». لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق. إنكم تذكرون أن كتاب غوغول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف، جلده رجل اسمه نوزدريف، فحوكم هذا الرجل «بتهمة توجيه إساءة شخصية بالسياط، في حالة سكر، إلى الملّاك ماكسيموف». إن صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذي جلد بالسياط ذلك الجلد الذي يحدثنا عنه كتاب غوغول، فهل هذا ممكن؟ فكروا قليلاً! إن تشتشيكوف قد سافر سنة 1820، فالتاريخ إذن غير مطابق أبداً. إنه يستحيل أن يكون ماكسيموفُنا نحن قد جُلد منذ زمن بعيد. يستحيل، أليس كذلك؟

لقد تحمس كالغانوف بصدق، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولي هذه المسألة كل هذا الاهتمام، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن! وتحيز له ميتيا باقتناع تام، ثم صاح وهو يضحك ضحكاً مدوياً:

- ولكن ما دام يعترف بأنه جُلد...

فقاطعه ماكسيموف مصححاً: الحق أن ما وقع لي لم يكن هو الجلد تماماً، بل كان شيئاً من هذا القبيل.

- كيف هذا؟ شيء من هذا القبيل؟ إما أنك جُلدت وإما أنك لم تُجلد، ولا وسط بين الأمرين!

سأل «السيد» البولندي ذو الغليون، صاحبه البولندي الطويل، متململاً متذمراً:

- كم الساعة الآن؟

فرفع البولندي الطويل كتفيه. لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة.

- هل أضجركم هذا الحديث؟ تدخلت غروشنكا بلهجة هجومية. دعوا الآخرين يتكلمون! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا؟

كان يبدو على غروشنكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة، فدُهش ميتيا من هذا لأول مرة. أجاب «السيد» البولندي بشيء من العصبية، أجاب باللغة البولندية:

- سيدتي! أنا لم أقل شيئاً، ولا أنوي أن أزعج أحداً.

- حسناً. قصَّ الآن. قالت غروشنكا متوجهة بالكلام إلى ماكسيموف. ما لي أراكم تسكتون جميعاً فجأة!

- ليس هناك ما أقصه! استأنف ماكسيموف كلامه وقد سرَّه الاهتمام به، وأخذ يصطنع اللطف: هذا كله هراء! ثم إن غوغول قد موّه أكثر الأسماء في هذه القصة، واستبدلها بتسميات رمزية. من ذلك أن نوزدريف قد كان اسمه الحقيقي نوسوف، كما أن كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقي شكفورنيف، والاسمان مختلفان كل الاختلاف. أما فيناردي فكان اسمه فعلاً فيناردي، ولكنه كان روسياً لا إيطالياً: فيناردي بتروف. وكانت الآنسة فيناردي فتاة جذابة... ليتكم رأيتموها! ليتكم رأيتم ساقيها المغمَّدتين في سروالها الضيق تحت تنورتها القصيرة ذات الأسلاك المشدودة!... وما كان أروع دورانها!... ولكنها لم تدر إلّا خلال أربع دقائق، لا خلال أربع ساعات. فتنتنا جميعاً يومئذ...

- ولكن لماذا جلدوك؟ صاح كالغانوف يسأله: هلّا قلت لنا لماذا جلدوك؟ ذلك هو الأمر الذي يعنينا!

- جلدوني بسبب بيرون. أجاب ماكسيموف.

- أي بيرون؟ سأله ميتيا.

- الكاتب الفرنسي الشهير بيرون. كنا جماعةً كبيرة في كاباريه وكنا قد شربنا قدْراً لا بأس به من الخمر. حدث ذلك في أثناء تلك السوق نفسها. دعوني، فما لبثت أن كِلْت لهم أبياتاً شعرية لاذعة. قالوا لي: «أهذا أنت... الشاعر بوالو؟ يا للزي الغريب المضحك!» فأجابهم بوالو بأنه ذاهب إلى حفلة تنكُّرية، وكان بوالو يقصد بذلك الحمّامات... ها ها!... ولكنهم اعتبروا هذا تعريضاً بهم. وعندئذ أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة في الأوساط المثقفة، وكانت في الحق كاوية:

أنت سافو وأنا فاوون - هذا واضح

مع ذلك، يا للمصير المرِّ

أنت لا تعرفين طريق البحر.

فازداد استياؤهم وأخذوا يهينونني إهانات ليست لائقة. فأردت عندئذ، لسوء حظي، أن أصلح ما بدر مني من خرافة؛ ومن أجل أن أسوِّي الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التي لا يعرفها إلّا المثقفون جداً. فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر، حين لم يُنتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، أراد أن ينتقم لنفسه، فنظم بيتين لشاهدة قبره، فقال:

هنا يرقد بيرون، الذي لم يكن شيئاً ذا بال

حتى ولا عضواً في الأكاديمية.

وهكذا هجموا عليَّ وجلدوني.

- عجيب! لماذا؟ لأي سبب؟

- بسبب ثقافتي.

- ما أكثر الأسباب التي يُجلد من أجلها إنسان! استنتج ماكسيموف بتواضع.

- كفى! قاطعته غروشنكا لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضجرة! لا أريد أن أسمعها بعد الآن. لقد توقعت شيئاً أقرب إلى البهجة! فاضطرب ميتيا فجأة وكفَّ عن الضحك. ووقف «السيد» البولندي الطويل، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره، وقد بدا عليه التعالي، كرجل أوقعته المقادير في صحبة أناس يحتقرهم فهو يشعر بملل.

- ما أبلد مشيته هذه! قالت غروشنكا وهي تنظر إليه باحتقار.

فازداد انفعال ميتيا، لا سيما وأن «السيد» الجالس على الكنبة كان يتفرس فيه بغير لطف فيما خيل إليه. فصاح ميتيا:

- فلنشرب أيها السيد. (ثم التفت إلى البولندي الآخر وتابع كلامه). وأنت أيضاً... فلنشرب، فلنشرب أيها السادة!

وتناول ثلاث كؤوس وملأها شمبانيا. وصاح:

- فلنشرب نخب بولندا! فلنشرب نخب بلادكم بولندا! فلنشرب نخب الأرض البولندية!

فأجابه «السيد» ذو الغليون قائلاً بوقار متلطف وهو يرفع كأسه:

- بكل سرور يا سيدي! فلنشرب!

فقال ميتيا مهتماً:

- والسيد الآخر أيضاً. هلّا قلتم لي اسمه! خذ كأساً يا سيدي.

- اسمه السيد فروبلفسكي. قال السيد ذو الغليون.

واقترب السيد فروبلفسكي من الطاولة متمايلاً، وتناول كأساً، ولكنه ظل واقفاً.

- فلنشرب نخب بولندا يا سادتي! صاح ميتيا وهو يرفع كأسه.

وقرع الثلاثة كؤوسهم بعضها ببعض. ولم يلبث ميتيا أن تناول الزجاجة فملأ الكؤوس الثلاث من جديد. وقال:

- والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة! علينا أن نتآخى!

- املأ لي أنا أيضاً كأساً. قالت غروشنكا. أريد أن أشرب كأس روسيا.

- وأنا كذلك! قال كالغانوف:

- وأنا أيضاً! زاد ماكسيموف إنني أحرص على أن أشرب نخب جدتنا العجوز روسيا.

- فلنشرب جميعاً! صاح ميتيا: فلنشرب جميعاً! هات زجاجات أخرى يا سيدي!

جيء بالزجاجات الثلاث الباقية. وملأ ميتيا الكؤوس. وصاح من جديد:

- نخب روسيا!

فشرب الجميع إلّا البولنديين. أفرغت غروشنكا كأسها دفعةً واحدة. أما البولنديان فلم يمسّا كأسيهما.

- ماذا؟ أهكذا أنتما؟ قال ميتيا في دهشة.

فتناول «السيد» فروبلفسكي كأسه، ورفعه، وقال بصوت أخفّ:

- إنني أشرب نخب روسيا بحدودها السابقة سنة 1772!

فهتف «السيد» الآخر قائلاً باللغة البولندية:

- عظيم!

وأفرغ الاثنان كأسيهما. فلم يملك ميتيا إلّا أن يقول:

- ما أغباكما!

فانتصب «السيدان» أمام ميتيا كديكين، وقالا له بلهجة التهديد:

- أيها... السيد!

وكان يبدو على فروبلفسكي أنه خارج عن طوره؛ وها هو يصرخ قائلاً في استياء (باللغة البولندية):

- هل محظور على المرء أن يحب بلاده؟

وهنا انفجرت غروشنكا تقول بصوت صارم وهي تضرب الأرض بقدمها:

- سكوت! كفاكم شجاراً! لا أريد هذه المناقشات! قالت ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها. كانت الشمبانيا قد فعلت فعلها. خاف ميتيا. وأسرع يقول:

- معذرة أيها السيدان! أنا المذنب. لن أكرر. يا فروبلفسكي، يا سيد فروبلفسكي، سأجلس هادئاً بعد الآن.

- ليتك تسكت أنت على الأقل؟ أبله! قاطعته غروشنكا بانزعاج.

جلس جميع الحضور، وخيَّم الصمت، وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض في حرج.

لم يدرك ميتيا شيئاً عن اندفاع غروشنكا، فاستأنف يقول:

- أنا سبب هذا كله أيها السادة! يجب ألّا نبقى عاطلين هكذا.. ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً... فنسترد مرحنا وانطلاقنا؟...

قال كالغانوف بإهمال ودون اكتراث:

- حقاً إن المرء يضجر هنا ضجراً رهيباً.

فقال ماكسيموف مقترحاً:

- ما رأيكم في لعبة الورق كما فعلنا منذ قليل؟

- لعبة الورق؟ فكرة عظيمة! قال ميتيا مستحسناً هذا إذا وافق هذان السيدان...

فقال السيد ذو الغليون بلهجة تنم عن مزاج معتكر، باللغة البولندية:

- بوزنو (الوقت متأخر).

- هو على حق. قال فروبلفسكي مؤمناً.

- بوزنو؟ ما معنى هذه الكلمة؟ سألت غروشنكا.

- معناها: الوقت متأخر. أجابها السيد الجالس على الكنبة.

- الوقت دائماً متأخر في نظر هذين السيدين. قالت غروشنكا بصوت حاد وقد نفد صبرها، وكل شيء مستحيل في نظر هذين السيدين. إنهما لا يجيدان إلّا الضجر، ويريدان أن يحرما الآخرين من البهجة. إنهما، إلى أن جئت يا ميتيا، لم يفعلا طوال الوقت شيئاً غير الصمت، متخذين هيئة التعالي تجاهي.

فهتف «السيد» الجالس على الكنبة يقول باللغة البولندية:

- إلهتي! ما قلته صحيح تماماً. لقد أصبحت حزيناً منذ لاحظت أنك مستاءة وغير راضية.

وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل:

- أنا مستعد.

- افتح اللعب يا سيدي. أجابه ميتيا.

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلَّ منها ورقتين بمئتي روبل ووضعهما على الطاولة. وقال:

- أريد يا سيدي أن أخسر مالاً كثيراً معك. خذ الورق، وكن أنت الخازن.

- يجب أن نلعب بورق صاحب النُّزل. قال «السيد» القصير بلهجة جادّة مشدداً

كلماته.

- ذلك أفضل حقاً! قال السيد فروبلفسكي موافقاً.

- تفضّلون ورق صاحب النُّزل؟ قال ميتيا وقد أدرك ريبتهما. حسناً أيها السادة! أنتم على حق. سنأخذ ورق صاحب النُّزل.

وقال يأمر صاحب النُّزل:

- هات ورقاً.

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة، وأعلن لميتيا أن البنات قد تجمَّعن، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون بعد لحظة، ولكن العربة التي تحمل المؤن قد تأخرت. فنهض ميتيا فجأة، وأسرع إلى الغرفة المجاورة ليتخذ الاجراءات اللازمة. لم يكن في الغرفة إلّا ثلاث بنات. ولم تكن ماريا قد ظهرت بعد. وكان ميتيا لا يعرف في الواقع ما هي الإجراءات التي كان عليه أن يتخذها، حتى لقد تساءل ماذا جاء يعمل في هذه الغرفة. ومن أجل أن يخرج من ارتباكه أمر بأن يؤتى بالصندوق الذي يحتوي السكاكر، وأن يوزَّع على البنات كارامل. وأضاف يقول مستعجلاً: «وقدِّموا فودكا لأندره لأنني جرحت شعوره منذ قليل». وشعر ميتيا في تلك اللحظة بأن أحداً يضع يده على كتفه، فالتفت فرأى ماكسيموف الذي كان قد تبعه إلى الغرفة.

- هل تستطيع أن تسلفني خمسة روبلات؟ همس الملّاك يقول له إنني أحب أن ألعب أيضاً! هيء هيء!

- رائع! عظيم! خذ هذه الروبلات العشرة! إليك عشرة روبلات!

وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى، فتناول منها ورقة بعشرة روبلات، وقال له:

- وما عليك إذا خسرتها إلّا أن تطلب المزيد. سأعطيك غيرها أيضاً...

- هذا يدبر أمري! همس ماكسيموف فرحاً.

وأسرع يعود إلى القاعة الأخرى.

ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به، واعتذر للجمع عن تغيُّبه. وكان البولندیان، الجالسان الآن إلى الطاولة، قد فضّا الورق قبل وصوله. وقد أصبح وجهاهما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليمكن أن يوصفا باللطف. وها هو «السيد» القصير، الذي أشعل غليوناً جديداً، يستعد لخلط الورق بوقار. صاح فروبلفسكي يقول:

- مكانكم يا سادتي!

فقال كالغانوف:

- أنا لن ألعب. فقد سبق أن خسرت معهما خمسين روبلاً.

- إن سيدي لم يحالفه الحظ في المرة السابقة قال السيد ذو الغليون. ولكن قد يتدارك الآن ما فاته...

- كم الخزنة؟ سأل ميتيا متحمساً.

- يمكن أن تكون مئة روبل، ويمكن أن تكون مئتين، فذلك متوقف على المبلغ الذي تضعه.

- مليون! قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً:

- لا شك أن الكابتن يعرف قصة السيد بودفيزوكي؟

- أي بودفيزوكي؟

- حدث في ذات مساء في فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال الموضوعة عند الخازن. فأقبل بودفيزوكي، فرأى ألوف القطع الذهبية، فوضع مبلغاً. سأله الخازن عندئذ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف. فقال بودفيزوكي: «بل اعتماداً على عهد الشرف»، فقال الخازن «حسناً»، وقطع، فلمَّ بودفيزوكي القطع الذهبية. فإذا بالخازن يقول له: «لحظة أيها السيد». وفتح الدرج وناول بودفيزوكي مليوناً وهو يقول له: «خذ. هذا ما ربحته. لقد كانت الخزنة مليوناً. قال بودفيزوكي متردداً: «كنت أجهل هذا»، فقال له الخازن: «يا سيد بودفيزوكي، أنت لعبت بالاعتماد على عهد الشرف. وأنا كذلك، فأخذ بودفيزوكي المليون ودسَّه في جيبه.

- هذا غير صحيح! هتف كالغانوف.

فقال السيد ذو الغليون، يخاطبه باللغة البولندية:

- يا سيد كالغانوف، ما هكذا يتكلم المرء في صحبة أناس محترمين!

- لا تحاول أن تقنعنا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو! صاح ميتيا. ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب إلى نفسه فاستدرك يقول:

- معذرة يا سيدي! أنا أخطىء من جديد! إن البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة، تنفيذاً لعهد الشرف، صوناً للشرف البولندي! أنا أسلم بهذا! أرى أنني سأتكلم أنا أيضاً باللغة البولندية آخر الأمر! ها ها ها! أضع عشرة روبلات على الأعرج (الفاليه).

فقال ماكسيموف وهو يقدم ورقة البنت (الدام):

- وأنا أقامر بروبل صغير على البنت، البنت الجميلة، البنت البستونية، على «الست»، ها. ها.

قال ماكسيموف ذلك واقترب من الطاولة اقتراباً شديداً، كأنه يريد أن يخفي ما سيفعله، ورسم تحت الطاولة إشارة الصليب.

ربح ميتيا، وربح الروبل الصغير أيضاً.

- أضاعف. صاح ميتيا.

- وأنا ألعب مرة أخرى بروبل، روبل فقط، روبل طيب، روبل شهم صغير! تمتم ماكسيموف بسعادة كبيرة وقد طار لبه فرحاً بربحه الروبل.

- خسرت! أضاعف حطتي على السبعة. صرخ ميتيا.

وخسرت السبعة أيضاً.

- كفوا عن اللعب. قال كالغانوف فجأة.

- أضاعف قال ميتيا دون أن يضطرب.

وظل ميتيا يضاعف، وظل يخسر في كل مرة، ولكن الروبلات الصغيرة التي كان يضعها ماكسيموف استمرت تربح.

- أضاعف أيضاً. صرخ ميتيا حانقاً.

- فقال له «السيد» ذو الغليون:

- خسرت حتى الآن مئتي روبل. فهل تريد أن تقامر بمئتي روبل دفعةً واحدة؟

- كيف؟ مئتي روبل؟ لا بأس! أضاعف مع ذلك! ألعب بمئتي روبل دفعةً واحدة!

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمئتي روبل، وهمَّ أن يلقيهما على البنت (الدام)، فإذا بكالغانوف يضع يده عليها فيغطيها. قال كالغانوف صائحاً بصوت رنان:

- يكفي هذا!

- ماذا بك؟ سأله ميتيا وهو ينظر إليه مندهشاً.

- يكفي هذا. لن أدعك تستمر.

- لماذا؟

- هكذا! دعهما وامض. هذا أفضل. صدقني. سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب.

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم.

وتدخلت غروشنكا قائلة بنبرة غريبة في صوتها:

- اترك اللعب يا ميتيا. ربما كان على حق. ثم إنك قد خسرت ما فيه الكفاية.

قلق «السيد» القصير فقال يخاطب كالغانوف بالبولندية وهو يحدِّق إليه بقساوة.

- أتراك تمزح؟

- كيف تجرؤ أن... صرخ «السيد» الطويل يقول لكالغانوف بصوت راعد!

- لا أسمح بالصراخ هنا. صاحت غروشنكا. لكأنكم ديكة حانقة!

كان ميتيا ينقل بصره عليهم واحداً بعد آخر. وفجأة لفت انتباهه في هيئة غروشنكا تعبير غريب. وفي تلك اللحظة نفسها ومضت في ذهنه فكرة عجيبة.

بدأ «السيد» القصير يتكلم فقال وقد احمرَّ وجهه غضباً:

- سيدتي... أغريبينا.

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه. فاقترب منه، ووضع يده على كتفه وقال له:

- كلمتين أيها السيد النبيل!

فسأله هذا بالبولندية:

- ماذا تريد؟

- تعال معي إلى الغرفة المجاورة. أجابه ميتيا. أريد أن أكلمك على انفراد، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً. سترى أن ما سأقوله لك يرضيك.

بدت الدهشة على «السيد» القصير، ونظر إلى ميتيا في خشية. ومع ذلك رضي أن يتبعه، ولكنه اشترط أن يصحبه «السيد» فروبلفسكي.

- حارسك؟ فليأتِ هو أيضاً... هتف ميتيا ثم إن حضوره ضروري. هيا بنا أيها السيدان!

- إلى أين تذهبون؟ سألته غروشنكا قلقة.

- سنعود بعد لحظة أجابها ميتيا، بثقة غير متوقعة، وبجرأة وحزم لم يعتدهما.

إن تعبير وجهه الآن يختلف عن تعبير وجهه ساعة وصوله. قاد ميتيا الرجلين البولنديين إلى غرفة تقع على اليمين، ليست هي الغرفة التي كانت تتجمع فيها جوقة البنات وتُهيَّأ فيها الطاولة للقاصفين، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحقائب والصناديق، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد. وكان في الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة. جلس «السيد» ذو الغليون وميتيا متقابلين، ووقف «السيد» العملاق فروبلفسكي في جانب، واضعاً يديه وراء ظهره. إن الرجلين البولنديين يرقبان ميتيا عابسين، ولكن كان واضحاً أنهما يشعران برغبة قوية في معرفة ما يريد أن يقوله.

تمتم «السيد» ذو الغليون يقول بالبولندية:

- ما الخدمة التي يمكنني أن أقدمها لك؟

- اسمع أيها السيد. لن أراوغ. خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية)، خذ المال. هل تريد ثلاثة آلاف روبل؟ خذها وانصرف!

حدَّق «السيد» إلى ميتيا بنظرة فاحصة، مغرقاً عينيه في عينيه. وسأله بالبولندية:

- ثلاثة آلاف روبل أيها السيد؟

وتبادل وصاحبه فروبلفسكي نظرة خاطفة.

- نعم، ثلاثة آلاف! قال له ميتيا اسمع أيها السيد: إنني ألاحظ أنك رجل عاقل. خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا، ولكن لا تنسَ أن تصطحب صاحبك فروبلفسكي، هل فهمت؟ لكنني أشترط أن تذهب فوراً، في هذه الدقيقة نفسها، وإلى الأبد، إلى الأبد، فهمت؟ تخرج من هذا الباب، هل ترى؟ ماذا تركت في الغرفة الأخرى؟ معطفاً؟ فراءً؟ سأجيئك به. وسآمر بإعداد عربة ترويكا لك فوراً. وأتمنى لك سفراً سعيداً أيها السيد. ما رأيك؟

كان ميتيا ينتظر الجواب بثقة. كان لا يراوده شك في أن الرجل سيقبل هذا العرض. واتخذ وجه «السيد» ذي الغليون هيئة تنم عن العزم والتصميم. وقال يسأل ميتيا:

- أين المال يا سيدي؟

- إليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال: أدفع لك الآن خمسمئة روبل سلفةً ونفقات سفر. أما الباقي، وهو ألفان وخمسمئة، فسأدفعه لك غداً في المدينة، أقسم لك بشرفي. سأجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض إذا لزم ذلك! (هكذا صاح ميتيا).

تبادل البولندیان النظر. وأصبح وجه «السيد» ذي الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل. قال ميتيا:

- بل أعطيك سبعمئة، سبعمئة روبل، لا خمسمئة، كدفعة أولى. أعطيكها حالاً، في هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذي لاحظ أن الأمور أخذت تجري بشكل لا يبعث على الأمل). ما بك أيها السيد؟ ألا تصدِّقني؟ لا أستطيع أن أنقدك ثلاثة آلاف دفعةً واحدة على كل حال. ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود إليها غداً... ثم إنني لا أحمل الآن هذا المبلغ، وإنما هو مخبأ في منزلي بالمدينة. تمتم يقول إيليوشا الذي كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة، والذي أصبح يرتجف منذ ذلك الحين خوفاً من الاخفاق، أقسم لك أن هذا المال في منزلي، مخبأ...

وفي لحظة قصيرة، اجتاح وجهَ «السيد» ذي الغليون تعبيرٌ عن أنفة خارقة، فسأل ميتيا في سخرية (باللغة البولندية):

- أهذا كل ما تريده؟

ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة.

وبصق فروبلفسكي أيضاً.

قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه، وأدرك أن كل شيء قد ضاع، قال:

- أنت تبصق أيها السيد لأنك تأمل أن تسلب غروشنكا مبلغاً أكبر! إنكما كلاكما لمضحكان!

فقال «السيد» ذو الغليون، وقد احمر وجهه (قال باللغة البولندية أيضاً):

- إنك تهينني إلى أقصى حدود الإهانة. ثم أسرع يتجه نحو الباب، في هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام. وسار فروبلفسكي وراءه متمايلاً. وتبعهما ميتيا مضطرباً حائراً وقد أسقط في يده. كان يخشى غضب غروشنكا، لأنه أوجس أن البولندي سيفضح الأمر. وذلك ما حدث فعلاً. فقد دخل «السيد» ذو الغليون القاعة، فوقف أمام غروشنكا وقفة مسرحية، وصاح قائلاً لها باللغة البولندية:

- لقد أُهنت إلى أقصى حدود الإهانة.

فإذا بغروشنكا تصيح في وجهه غاضبة مسعورة باللغة الروسية: تكلم باللغة الروسية! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولندية واحدة! لقد كنت تعرف الروسية في الماضي، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها في خمس سنوات!

وكانت غروشنكا محمرَّة الوجه غضباً.

- سيدتي أغريبينا...

- اسمي أغرافينا... أنا غروشنكا... تكلم بالروسية إذا كنت تريد أن أسمع لك!

جُرحت كبرياء «السيد»، فاحمر وجهه، وأسرع يقول في تنفخ متعمداً تشويه الكلمات:

- أيتها السيدة أغرافينا! لقد جئت وأنا أنوي أن أنسى الماضي وأن أسامح، جئت وأنا أنوي محو ما حدث حتى هذا اليوم...

- جئت لماذا؟ لتسامح؟ أتريد أن تغفر لي أنا؟ قاطعته غروشنكا وهي تقفز من مكانها.

- نعم يا سيدتي، كنت أريد أن أغفر لك. إن لي نفساً رحبة وقلباً سمحاً. ولكن سلوك أصدقائك قد أدهشني. فمنذ هنيهة، في الغرفة المجاورة، أراد «السيد» ميتيا أن يعطيني ثلاثة آلاف روبل لأسافر. فبصقت في وجهه.

- ماذا؟ صرخت غروشنكا تسأله بصوت حاد هل تجرأ أن يقدم لك مالاً من أجلي؟ أصحيح هذا يا ميتيا؟ كيف تجرأت؟ هل أنا امرأة تباع؟

قال ميتيا في أنين:

- أيها السيد، أيها السيد، إنها طاهرة كملاك، ولم أكن خليلها في يوم من الأيام. لقد كذبت في هذا الأمر...

- كيف تجرؤ أن تدافع عني أمامه؟ زأرت غروشنكا لئن حافظتُ على طهارتي، فإنني لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة، بل ليكون من حقي أن أصرخ في وجه هذا الرجل حين ألقاه: أنت شقي! هل يمكن حقاً أن يكون قد رفض المال الذي عرضته عليه؟

فصاح ميتيا يقول:

- رفض؟ إنه لم يرفض. لقد رضي. ولكنه أراد أن أنقده الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو سبعمئة روبل.

- اتضح الآن كل شيء. قالت غروشنكا: لقد علم أنني أملك مالاً، فأراد أن يتزوجني!

صرخ «السيد» يقول:

- يا سيدة أغريبينا، أنا فارس، أنا بولندي نبيل، ولست شقياً. لقد كنت أريد أن أتخذك حليلةً لي، ولكنني أرى الآن أمامي امرأة تختلف كلياً عن المرأة التي عرفتها، أرى أمامي الآن امرأة راكبةً رأسها...

- اذهب! صرخت غروشنكا وقد خرجت عن طورها: عد من حيث جئت! سآمر بطردك، ورميك خارجاً! ما كان أشد بلاهتي حين عذبت نفسي خلال هذه السنوات الخمس بسببه!، إنني لم أعذب نفسي هذا التعذيب بسببه، وإنما عذبت نفسي غضباً! ليس هذا هو الرجل الذي أحببته! أوه! إنه لم يكن هكذا! ليس هذا الرجل هو من أحببت! أغلب الظن أنه أبوه! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضحكة؟ لقد كان ذاك صقراً، أما هذا فدجاجة مبتلة! كان ذاك يضحكني وينشدني الأغاني... ما كان أغباني إذ بقيت أبكي طوال خمس سنوات، وما كان أحطني، وما كان أجبنني!

وتهالكت على مقعدها من جديد، وغطت وجهها بيديها. وفي تلك اللحظة، ترجعت

في الغرفة التي تقع على الشمال أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتي اجتمع شملهن أخيراً. لقد أخذن يغنين رقصة شيطانية.

- هذا محل دعارة! صاح فروبلفسكي فجأة: يا سيّد، اطرد هؤلاء النساء الخليعات!

كان صاحب النُّزُل يلقي على القاعة نظرات استطلاع من حين إلى آخر، فلما سمع الصراخ أدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون فأسرع إليهم. وقال يسأل فروبلفسكي بلهجة فظة:

- أنت! ما لك تصرخ هذا الصراخ بحلقك العريض كله؟

فزأر «السيد» فروبلفسكي يقول له:

- أنت وغد!

- وغد؟ أنا وغد؟ هلّا قلت لي بأي ورق لعبت منذ قليل؟ لقد جئتك بحزمة مختومة، فأخفيتها، ولعبت بورق مغشوش! هل تعلم أنني أستطيع أن أرسلك إلى سيبيريا بسبب هذا الغش؟ إن اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة... اقترب صاحب النُّزُل من الكنبة، وأدخل يده بين الوسادة والظهر، فسحب حزمة الورق المختومة، وقال:

- هذا ورقي، لم يمسَّ!

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهرها لجميع الحضور، وهو يقول:

- لقد رأيته من زاويتي لحظة دسَّ هذه الحزمة في الشق، وأحل محلها ورقاً من عنده! أنت غشاش يا «سيد»...

- وأنا فاجأت «السيد» يغش مرتين. قال عندئذ كالغانوف.

صاحت غروشنكا تقول وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

- يا للعار! آه... يا للعار!... رباه! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل إلى هذا الحد؟

وكانت غروشنكا قد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل.

قال ميتيا:

- لقد اشتبهت في أنهما يغشان!

فما إن نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت «السيد» فروبلفسكي إلى غروشنكا مغتاظاً، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها:

- مومس!

ولكن ميتيا انقضّ عليه في تلك اللحظة نفسها، فأمسك بجسمه كله، ورفعه، ونقله بلمحة بصر إلى الغرفة التي تقع إلى اليمين، الغرفة التي قادهما إليها منذ لحظات. وسرعان ما عاد إلى القاعة لاهثاً من الجهد والانفعال، فقال:

- رميته على الأرض! المسكين يتخبط، ولكنه لن يسارع إلى الرجوع.

وأغلق ميتيا أحد مصراعي الباب، وترك المصراع الثاني مفتوحاً، واتجه إلى «السيد» ذي الغليون يسأله:

- هل تتنازل، أيها السيد النبيل، فتلحق بصاحبك؟ (معذرة!).

فهتف تريفون بوريستش يقول:

- ولكن يا ديمتري فيودوروفتش، استرجع منه المال الذي خسرته في اللعب، على الأقل... لقد سرقاك!

- أنا أترك لهما روبلاتي الخمسين! قال كالغانوف.

فصاح ميتيا:

- وأنا أتنازل عن روبلاتي المئتين! صاح ميتيا لن أستردها بحال من الأحوال فليحتفظا بها عزاءً لهما!

- مرحى ميتيا برافو.

صاحت غروشنكا بصوت فيه شيء من الشر.

فاتجه «السيد» ذو الغليون نحو الباب، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصانته. ومع ذلك فإنه قبل أن يخرج من القاعة، التفت نحو غروشنكا وقال لها (بالبولندية):

- سيدتي، إذا كنت تريدين أن تتبعيني، فتعالي! وإلّا فوداعاً!

ثم اجتاز الباب عابس الوجه مختنق الصدر غضباً.

ذلك إنسان لا يهزه شيء. فإنه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه «السيدة»، لأنه يقدِّر نفسه قدراً عظيماً.

أغلقت غروشنكا الباب عليهما.

- أَقفلي الباب عليهما بالمفتاح. قال لها كالغانوف ناصحاً.

ولكن القفل صرَّ من داخل الغرفة. لقد سارعا إلى إقفال الباب من الداخل.

عظيم! ذلك كلَّ ما كانا يستحقانه! صاحت غروشنكا بلهجة حاقدة.

VII

الهذيان

وبعد ذلك، حصل ما يشبه حفلة مجون واحتفال بالعودة إلى الحياة وكانت غروشنكا أول المطالبين بالخمر: «أريد أن أشرب، أريد أن أسكر كالمرة السابقة، هل تتذكر يا ميتيا، هل تتذكر كيف تعارفنا»؟ وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان، لأنه كان يستشعر «سعادته». وكانت غروشنكا، مع ذلك، تشجعه باستمرار، قائلةً له: «اذهب إليهم، سرٍّ عن نفسك، مُرْهم بأن يرقصوا، ليمرح الجميع. أريد قصفاً حاراً، كالمرة السابقة، كالمرة السابقة تماماً». كانت في حالة هياج رهيبة. وكان ميتيا يسرع لاتخاذ الاجراءات الضرورية. تجمع أفراد الجوقة في الغرفة المجاورة. إن هذه الغرفة التي تجمعوا فيها صغيرة جداً، تقسمها إلى قسمين ستارةٌ من نسيج هندي تخفي وراءها سريراً ضخماً مغطى بلحاف كبير فوقه كدسة من وسائد. وإن في سائر الغرف الأربع الأخرى «النظيفة» أسرّة على كل حال. استقرت غروشنكا أمام الباب، حيث أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه. ذلك هو المكان الذي شغلته «في ذلك اليوم»، أثناء احتفالها الأول في الليل، تتأمل منه الرقصات وتسمع الغناء. إن البنات اللواتي اشتركن في ذلك الاحتفال قد جئن اليوم هن أنفسهن. ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان. وأُعلن أخيراً أن عربة الترويكا التي طال انتظارها قد وصلت هي أيضاً تحمل المؤن.

كان ميتيا مضطرباً. وكان بعض الغرباء يدخلون القاعة ليروا الفلاحات والفلاحين الذين استيقظوا من نومهم متوقعين وليمة ما، كالمرة السابقة. كان ميتيا يحيي ويعانق الذين يعرفهم والذين عادوا، ويفتح الزجاجات، ويقدم الشراب لكل قادم. والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك، ويفضلون «البنش» خصوصاً. أصدر ميتيا أوامره بإعداد شوكولاتة للبنات، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلي ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاي والبنش. يجب أن يكون هنالك شراب للجميع. يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه. الخلاصة: قامت الدنيا وقعدت، وأخذ الناس يشربون في فوضى لا يلجمهم شيء. ولكن ميتيا كان يشعر في هذا السديم المضطرب بارتياح، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف في هذه السهرة. فلو خطر ببال أول فلاح قادم أن يطلب منه مالاً في تلك اللحظة، إذن لأخرج الحزمة من جيبه ووزَّع الأوراق المالية على حلقة الراقصين دون عدّ. ولعل هذا هو السبب الذي جعل صاحب النزل لا يكف عن الدوران حوله لحمايته في أغلب الظن. وقد قرَّر تريفون بوريستش أن لا ينام في هذه الليلة، لذلك لم يشرب هو نفسه إلّا قليلاً جداً (اكتفى بكأس بنش واحد)، ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بكثير من الانتباه، ولو على طريقته الخاصة؛ فهو يتدخل متى لزم الأمر، بلهجة «متعاذبة»، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدِّم للفلاحين الجفاة سيجاراً وملبساً «كما فعل في المرة الماضية»، أو أن يوزع عليهم شيئاً من المال خصوصاً، لا سمح الله! كان يسوؤه أن يرى البنات يشربن خموراً ويقضمن ملبَّساً، فيقول: «وسخات! وسخات! لأطردهن ركلاً بالقدمين، ولأحملهن على أن يشكرن لي هذا الشرف. ذلك ما هن به جديرات!». وتذكر ميتيا الحوذي أندره مجدداً، فأرسل إليه شيئاً من البنش. وكان يردد بصوت ضعيف دامع: «لقد أسأت إليه منذ قليل». ورفض كالغانوف في

أول الأمر أن يشرب، ولم ترضه جوقة البنات. ولكن مرحه اشتد بشكل جنوني بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا، فكان يسير في الغرفة ضاحكاً مُطرياً كل شيء، الأغاني والموسيقى. وكان ماكسيموف الذي بلغ أوج السكر والغبطة، لا يتركه لحظة واحدة. وكانت غروشنكا، التي ثملت قليلاً هي أيضاً، ما تنفك تقول لميتيا وهي تومىء إلى كالغانوف «ما ألطفه فتى! ما أعذبه!»، فكان ميتيا يسرع عندئذ إلى كالغانوف فيعانقه بحماسة؛ وكان يقبِّل ماكسيموف في هذه المناسبة. آه... ما كان أعظم السعادة التي يوجس ميتيا أنه سينالها! صحيح أن غروشنكا لم تكن قد وعدته بشيء بعد، وأنها كانت تبدو راغبة في تجنب أي تفسير الآن، ولكنها كانت تنظر إليه خلسةً من حين إلى آخر وقد فاضت عيناها حناناً. وها هي تمسك يده فجأة، فتجذبه إليها بقوة، وتقول له وهي جالسة على مقعد أمام الباب كما كانت في أول الاحتفال:

- كان مظهرك غريباً حين دخلت علينا منذ قليل! أوه! لقد خفت عندئذ خوفاً شديداً. كيف خطر ببالك أن تتنازل عني لذلك الرجل؟ هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً؟

- لم أشأ أن أفسد سعادتك. تمتم ميتيا وقد طاش عقله من فرط السعادة.

ولكن غروشنكا لم تصغِ إلى جوابه. وصرفته عنها مجدداً قائلة له:

- اذهب، اذهب، سرِّ عن نفسك لاهياً معهم. ولا تبكِ، فسأناديك بعد قليل.

انصرف، واستأنفت غروشنكا تأمُّل الرقصات والإصغاء إلى الأغنيات. فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فأسرع إليها. قالت: - اجلس إلى جانبي الآن، وقصَّ عليَّ كيف عرفت أمس أنني هنا، مَنْ أولُ من قال لك ذلك؟

بدأ ميتيا يقص عليها بحرارة، ولكن بفوضى، فليس في سرده تسلسل. والشيء الغريب أنه كان في بعض الأحيان يتوقف عن الكلام ويقطب حاجبيه.

- ما بك؟ قالت له غروشنكا.

فأجابها:

- لا شيء. لقد تركت في المدينة مريضاً. أرجو أن يشفى. إني أعطي من عمري عشرة أعوام في سبيل أن يشفى!

- لا تفكر بعد الآن في ذلك المريض. قل لي: هل صحيح أنك كنت تريد أن تنتحر أيها الأحمق؟ لماذا؟ ثم تمتمت تقول له بلغة منتفخة قليلاً.

- أحب أمثالك، المجانين قليلاً. هل أنت مستعد لأن تجازف بكل شيء في سبيلي؟ هل كان في نيتك أن تنتحر من أجلي غداً يا عزيزي الطيب الأبله؟ ألا فاعلم أن من الأفضل لك أن تنتظر. قد أقول لك في الغد كلمة صغيرة... لا اليوم! لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم؟ لا، لا أريد أن أقولها اليوم... اذهب، اذهب الآن، وامرح.

ولكنها نادته في لحظة من اللحظات مندهشة قلقة، وسألته:

- هل أنت حزين؟ إنني ألاحظ أنك حزين...

وسدَّدت إليه نظرة نافذة، وأردفت تقول: نعم، ألاحظ ذلك واضحاً. مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين، فإنني أعرف أن هناك شيئاً يعذبك، كن فرحاً! أريد ذلك! أنا فرحة،

فعليك أن تفرح أنت أيضاً... تصور أنني أحب أحداً هنا... أوه! انظر إليه! لقد غفا فتاي الصغير، إنه ثمل، عزيزي!

كانت تعني كالغانوف. لقد غفا كالغانوف بضع لحظات على الكنبة بتأثير الكحول. على أن الخمر وحدها لم تكن لتكفي أن تغرقه في النوم. وإنما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل في وسط هذا الاحتفال، دون سبب معيَّن، وذلك ما عبَّر عنه بقوله إنه «ضجر». وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء، وكذلك كان شأن الرقصات: لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تتنكرا كدُبَّيْن، وأخذت ستيبانيد، وهي امرأة قوية الجسم خلية البال، «تعرضهما» وفي يدها هراوة، قائلةً في صراخ:

- بعنف يا ماري، وإلّا هويت عليك بالهراوة! وأخذ الدبان يتدحرجان أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً من الحشمة، فكان جمهور الفلاحين والفلاحات الذي يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل!

قالت غروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة الغبطة: دعوهم يلهون على هواهم، ذلك من حقهم مرة. إن هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً، فلينتهزوها!

وكان كالغانوف ينظر إلى المشهد شاعراً بأنه اتسخ؛ وابتعد وهو يقول: ما أكثر الابتذال في هذا الفرح الشعبي! أهكذا يتسلَّى هؤلاء الذين يعيشون في قلب الطبيعة؟

وكانت قد آذته أغنية «جديدة» ايذاءً خاصاً. هي أغنية تتردد فيها لازمة تُمثَّل بإيماء وتُرقص على إيقاع جريء؛ وهي تروي قصة السيد روسي مسافر يسبي قلوب البنات.

سأل البنات.

هل تحببنني نعم أم لا؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً.

سيضربني السيّد.

ولن أحبه.

واتفق أن مرّ عندئذ غجري:

سأل الغجري البنات:

هل تحببنني أيتها البنات؟

ولكنه لم يعجب البنات أكثر من السيد الروسي:

سيكون الغجري لصاً

أما أنا فسأبكي.

ومرَّ رجال آخرون كثيرون، حتى لقد مرَّ جندي:

سأل الجندي البنات:

أتحببنني أيتها البنات أم لا؟

ولكن البنات نبذنه باحتقار:

...أما أنا فسوف

وكان البيت الثاني بذيئاً جداً، وكانت البنات تغنيه دون أن تحمر خجلاً، فتثير في الجمهور حماسة عظيمة. وتقدم أخيراً تاجر:

سأل التاجر البنات:

أتحببنني، أيتها البنات أم لا؟

وهنا تبين أن البنات أحببنه، لأن:

التاجر سيجني ثروة كبيرة

ويجعلنا أميرات.

غضب كالغانوف فصاح بصوت عالٍ:

- هذه أغنية حديثة جداً. تُرى من مؤلفها؟ ليس ينقصها في الواقع إلّا متعهدو سكك حديد ويهود. فلو وجدوا لأحرزوا النصر!

وكان كالغانوف كمن أُهين تقريباً، وقال فجأة إنه ضجر، استلقى على الكنبة وسرعان ما غفا. وهذا وجهه الصغير الجميل، الشاحب قليلاً، ينزلق على الوسادة قليلاً.

- أنظر ما ألطفه! قالت غروشنكا وهي تجذب ميتيا إليها. كنت منذ قليل أسلِّي نفسي بمداعبة شعره. إن شعره غزير، وهو أشبه بخيوط الحرير نعومة...

ومالت غروشنكا على كالغانوف في حنان، وقبلت جبينه. ففتح كالغانوف عينيه فجأة، ونظر إليها، ثم نهض نصف نهوض، وسألها وقد بدا عليه انشغال البال:

- أين ماكسيموف؟

- انظروا عمَّن يسأل! قالت غروشنكا ضاحكة: ماكسيموف هو الذي يعوزه! هلَّا بقيت معي بضع لحظات! يا ميتيا، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به.

كان ماكسيموف لا يترك البنات، ولا يبتعد عنهن من حين إلى آخر إلّا ليملأ كأساً من الخمر. وقد شرب أيضاً فنجانين من الشوكولاتة. وتلوَّن خداه، واصطبغ أنفه بحمرة قانية، بينما عيناه المخضلتان الرطبتان تنظران حوله في عاطفة وحنان. وسرعان ما أخذ ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «صانعة القباقيب» على «لحنٍ موسيقي معروف». وقال شارحاً:

- لقد علموني في طفولتي هذه الرقصات الراقية الرفيعة...

فهتف كالغانوف، مبعداً الفرصة التي عرضتها له غروشنكا وهي أن ينفرد بها:

- سأمضي أنا أيضاً. إنني أريد أن أراه عن كثب حتماً.

وتبعوا ماكسيموف. وعرض هذا الأخير رقصته، فلم تثر حماسة أحد إلّا ميتيا. هي رقصة قوامها قفزات وتلوِّيات، ورفع السيقان إلى فوق وجعل النعال عاليةً في الهواء، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل مرة.

مطَّ كالغانوف شفتيه استياءً، ولكن ميتيا أغرقه بالقبلات.

- شكراً لك يا صاحبي. لقد تعبت. هل تريد السكاكر؟ أتريد واحدة؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً؟

- بل سيجارة صغيرة.

- ألا تريد أن تشرب شيئاً؟

- شربت خموراً... أليس عندكم سكاكر بالشوكولاته؟

- ما أكثر ما عندنا منها على المائدة. اختر ما يحلو لك يا عزيزي!

- لا هذه، أريدها سكاكر بالونيلة... أريد سكاكر العجائز تلك! هئ هئ...!

- ليس عندنا منها يا أخي...!

ومال العجوز قصير القامة فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً:

- قل لي: أما من سبيل... أليس هناك وسيلة... أنظر إلى هذه البُنيَّة، إلى ماري اللطيفة هذه، هئ هئ، كم أود لو أتعرف إليها... إذا كنت ترى، بما لك من شهامة، أن الأمر ممكن...

- أوه! أوه! أرجو أن تكون مازحاً لا جاداً!

- لا أريد بها شراً...

قال ماكسيموف مفحَماً. فأجابه ميتيا:

- حسناً، حسناً، هنا يا أخي غناء ورقص، ذلك هو كل شيء. على كل حال... إذا كنت تحرص هذا الحرص كله... عجيب! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح. ألعلك في حاجة إلى مال؟

- ربما أحتاج إلى شيء من المال. أجابه ماكسيموف مبتسماً:

- حسناً، حسناً...

أحسَّ ميتيا كأن رأسه ينفجر. خرج إلى المدخل وصعد إلى الرواق الذي يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء. فأنعشه الهواء الندي. توقف في ركن مظلم، وحيداً، وضع رأسه بين يديه فجأة. إن خواطره المتبعثرة، وإحساساته الغامضة المبهمة، قد تركزت الآن وتوضحت، فخرج منها فجأة ضياء رهيب! تساءل: «إذا كنت أريد أن أطلق رصاصة في رأسي، فلماذا لا أفعل ذلك حالاً؟ أمضي فأجيء بمسدسي وأنهي الأمر في هذا المكان نفسه، في هذا الركن المظلم القذر ذاته؟» وبقي متردداً دقيقة طويلة. إنه منذ ساعات قليلة، حين كانت عربة الترويكا تقلُّه إلى موكرويه، كان قد خلَّف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم... ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيد الممكن حينذاك! كان اتخاذ هذا القرار أسهل منه الآن، أسهل كثيراً! كل شيء كان يبدو عندئذ ضائعاً: كان قد فقد تلك المرأة، قد تنازل عنها... أصبحت لا وجود لها. وكان تنفيذ الحكم الذي أصدره على نفسه يسيراً. لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدَر لا مردَّ له، لقضاء أعلى لا اعتراض عليه. ما كان بحاجة إلى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع؟ لم يكن قد بقي شيء يشده إلى هذا العالم. أما الآن فقد اختلفت

الحال. إن احدى حلقات القَر، إن أحد أشباح الخوف، قد تبدد الآن دخاناً! إن صديقها القديم الذي لا يمكن جحوده أو التنكر له، قد اختفى دون أن يخلِّف أثراً! إن ذلك الشبح المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكاً. لقد طُرد من الغرفة كطفل، وأقفل عليه الباب بالمفتاح! إنها تشعر بالعار من هذا الرجل؛ وقد تمكَّن ميتيا أن يقرأ في عينيها من الذي تحب في الواقع. الآن يمكن أن تكون الحياة جميلة، جميلة جداً... ولكن الحياة مستحيلة بعد ما حدث، مستحيلة! يا لها من لعنة! «اللهم ردَّ الحياة إلى ذلك الذي صرعتُه قرب السور! اللهم اجعل الكارثة تمر قربي دون أن تمسّني! اللهم إنك قد صنعت معجزات لأناس غيري كانوا مذنبين مثلي، فهب لي من عندك معجزة من تلك المعجزات! ولكن ماذا إذا كان العجوز لم يمت! سأمحو عندئذ عار الإثم الآخر، فأرد المال المسروق، أعيده إلى صاحبه، ولو اضطررت أن أمضي باحثاً عن المال تحت الأرض... لن يبقى عندئذ أثر من آثار ذلك العار إلّا في قرارة نفسي حيث سيعيش إلى الأبد. لا، لا، هذا مستحيل. هذه أحلام جبان، أحلام مستحيلة! يا للعنة!».

ومع ذلك ساوره بريق من أمل بعد هذه الأفكار، بريق ضعيف في ظلام الليل. انتزع نفسه من تأمُّله القاتم، وأسرع ينزل إلى غرف الطابق الأرضي، أسرع إليها من جديد، إلى تلك التي تحكم قلبه إلى الأبد. تساءل: «ألا تساوي ساعة واحدة من حبها، ألا تساوي دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها، ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً.» استولت هذه الفكرة على قلب ميتيا، قال يحدث نفسه: «انضم إليها، أراها هي وحدها، أسمعها، ولا أفكر في شيء آخر، أنسى كل شيء، ولو لليلة واحدة، لدقيقة واحدة، للحظة!». وفي اللحظة التي اجتاز فيها ممر المدخل، وهو لا يزال في الصالة، اصطدم بتريفون بوريستش. بدا له هذا الأخير حزيناً ومشغول البال، ويبدو أنه كان يبحث عنه.

- هل تبحث عني أنا يا بوريستش؟

- لا، ليس أنت. أجاب صاحب النُّزل. ثم لِمَ أبحث عنك؟ ولكن... أين كنت؟

- ما لي أراك متجهّم الوجه؟ أتراك غاضباً؟ اصبر علينا قليلاً، وسندعك تنام هادىء البال. كم الساعة الآن؟

- هي الثالثة أو أكثر.

- سننصرف.

- لا، لا... في وسعكم أن تبقَوا ما شئتم...

تساءل ميتيا وهو يسرع إلى الغرفة التي كانت ترقص فيها البنات: «ماذا حدث له؟». ولكن غروشنكا لم تكن هناك. لا، ولا كانت في الغرفة الزرقاء. وكان كالغانوف ينام على الكنبة نوماً هادئاً. ألقى ميتيا عندئذ نظرة خلف الستائر، فإذا هو يجدها هناك. كانت جالسةً في زاوية، على صندوق، مسندةً رأسها ويديها إلى حافة السرير، تبكي بكاءً مراً، محاولة أن تخنق نشيجها، جاهدةً أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه إليها. لمحت ميتيا، فأومأت إليه أن يقترب، وأمسكت يده، فضغطتها بيدها بقوة. وقالت هامسة:

- ميتيا، ميتيا، لقد أحببت هذا الرجل! أحببته كثيراً خلال هذه السنين الخمس! ترى هل أحببته أم كنت أحب حقدي؟ لا بل أحببته هو! نعم، هو، هو! أكذب إذا زعمت أنني ما أحببت إلّا حقدي! أواه يا ميتيا! لم يكن عمري حينذاك إلّا سبعة عشر عاماً، وكان يظهر لي كثيراً من اللطف والوداعة، وكان يغني لي أغنيات... أم تراه لم يظهر لي فاتناً إلى ذلك الحد إلّا لأنني كنت غبية، لا لأنني كنت طفلة؟... أما اليوم، رباه! إنه ليس هو، إنه ليس ذلك الرجل نفسه! لقد تغير وجهه أيضاً، فهو لا يشبهه أبداً. لم أعرفه حين رأيته أول وهلة. لقد كنت

أتساءل طوال الطريق، وأنا قادمة إلى هنا مع تيموفي: «كيف أتصرف حين ألتقي به؟ ماذا أقول له؟ كيف ينظر كل منا إلى الآخر؟... وانهارت نفسي. لقد صب على رأسي دلواً من قاذورات. تكلم كما يتكلم معلم مدرسة. اتخذ أوضاع التعليم، واصطنع هيئة الوقار، وحدَّق إليّ فخرست! كيف حصل أنني لم أستطع أن أقول كلمة واحدة؟ هل تدري، أن زوجته هي التي حطمته، تلك التي من أجلها تركني عندما تزوجـها... لقد بدلته تبديلاً كاملاً... يا للعار يا ميتيا! إني لأشعر الآن بالعار مدى حياتي كلها! ملعونة هي تلك السنوات الخمس، ملعونة! وتدفقت دموعها من جديد، لكنها لم تترك يد ميتيا، بل ضغطت عليها بقوة.

- ميتيا، عزيزي، لا تذهب، انتظر لحظة (ثم تمتمت وهي ترفع إليه نظرها) سأقول لك كلمة صغيرة. اسمع. قل لي أنت: من هو الرجل الذي أحبه؟ إنني أحب رجلاً هنا. فمن هو ذلك الرجل؟ قل لي هذا أنت! وأضاءت ابتسامةٌ في وجهها المحتقن من الدموع والتمعت عيناها في الظلام. وتابعت تقول: منذ قليل دخل صقر، فتوقف قلبي عن الخفقان. وقال لي قلبي: «أيتها الغبية، هذا هو، هذا هو الرجل الذي تحبين!» لقد دخلت أنت فاتضح لي كل شيء فجأة. تساءلت: «ولكن ممَّ هو خائف؟». إنك كنت خائفاً، ولشدة خوفك لم تستطع أن تتكلّم. قلت في سري: «ليس خائفاً منهم مع ذلك». أنت لا يمكن أن ترتعد أمام شخص آخر، إنني أعرف ذلك تماماً. وقلت لنفسي عندئذ: «إنه خائف مني، مني أنا وحدي»؛ إذ لا شك أن فينيا قد روت لك - أليس كذلك أيها الأحمق؟ - كيف أنني هتفت أقول لإيليوشا، من النافذة، إنني قد أحببت ميتيا مدة ساعة، وإنني ذاهبة الآن... لأحب رجلاً آخر! أوه! ميتيا، ميتيا، كيف أمكنني أن أصدق أنني أستطيع أن أحب رجلاً آخر بعدك؟ ما كان أغباني! سامحني يا ميتيا؟ هل تسامحني؟ هل تحبني؟ هل تحبني؟

نهضت ووضعت يديها على كتفيه. أصبح ميتيا أخرس من فرط السعادة، فكان لا يزيد على أن ينظر إلى عينيها، ووجهها، وابتسامتها ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات.

- هل تسامحني لأنني عذبتك؟ لقد عذبتكم جميعاً، من شدّة غضبي وحسرتي! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبي... هل تتذكر كيف حطمت في منزلي كأساً، في ذات يوم، بعد أن شربت؟ لقد تعلمت أنا هذه الحركة، فحطمت اليوم كأسي وأنا أشرب «نخب قلبي الجبان!». ميتيا، صقري، لماذا لا تقبِّلني؟ لقد قبلتني مرةً ثم توقفت. إنك تنظر إليَّ... ما قيمة الاصغاء إليَّ؟ قبلني، بمزيد من القوة، بمزيد من القوة، هكذا، ما دمت تحبني!... سأكون بعد اليوم عبدة لك، مدى الحياة! ما أحلى أن أكون عبدة... قبلني أيضاً! اضربني! عذبني! افعل بي ما شئت... لأنني أستحق أن تعذبني... لا... انتظر! نؤجل هذا! لا أريد الآن. قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة. وأردفت تقول: اذهب يا ميتيا، سأشرب الآن خمراً، أريد أن أسكر، وسأرقص بعد ذلك، أريد هذا، أريد هذا!

وتخلصت منه وغابت وراء الستائر. تبعها ميتيا. كان كالسكران. «ما قيمة ما سيحدث فيما بعد، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد؟ لدقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله». بهذا حدَّث ميتيا نفسه. شربت غروشنكا كأساً أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت إلى رأسها. جلست على المقعد، في مكانها السابق، وهي تبتسم ابتسامة غبطة وسعادة. احمرَّ خداها، التهبت شفتاها، زاغ نظرها. وفي عينيها الساطعتين، كان يُقرأ نداء محموم. كالغانوف نفسه اضطرب من ذلك، كأن شيئاً قد لسع قلبه، فاقترب منها.

- هل أحسست بالقبلة التي وهبتها لك حين كنت نائماً. أوه! أحس أنني سكرى... وأنت؟ ألم تسكر؟ لماذا لا يشرب ميتيا؟ ميتيا، يجب أن تشرب! أنا شربت وأنت لا تشرب...

- أنا سكران! سكران بك... ولكنني أريد أن أسكر بالخمر أيضاً.

وأفرغ ميتيا في فمه كأساً أخرى، فإذا بهذه الكأس الأخيرة تفجِّر السكر فيه دفعةً واحدة، بينما الكؤوس السابقة لم تُحدث أثراً. شيء غريب! بدأ كل شيء يدور في رأسه منذ تلك اللحظة، فكأنه في حالة هذيان. إنه الآن يمشي، ويضحك، ويكلم كل من يلقاه. وفي بعض اللحظات كانت تستيقظ في قلبه عاطفة حارة «تحرقه كجمرة» كما قال فيما بعد. وكان يقترب من غروشنكا، ويجلس إلى جانبها، وينظر إليها، ويستمع لكلامها... أما غروشنكا فقد أصبحت تتدفق في هذرها تدفقاً رهيباً؛ وهي تنادي الناس إليها، وتستدعي بنتاً من بنات الجوقة، حتى إذا اقتربت البنت منها أخذت تقبلها ورسمت عليها إشارة الصليب، حتى لتوشك أن تجهش باكية. وكان يفرحها ويضحكها «العجوز الصغير» على الأخصّ (هكذا كانت تسمي ماكسيموف) إنه يسرع إليها في كل لحظة ليقبِّل يدها، لاثماً كل إصبع من أصابعها. وأخيراً، رقص رقصة أخرى على لحن قديم دندنه بصوته. رقص بحيوية خاصة على اللازمة التي كانت تتكرر:

الخنزير الصغير، كريو - كريو

العجل الصغير، مو - مو

البطة الصغيرة، قوا - قوا

الإوزة الصغيرة، غا - غا غا غا.

والدجاجة الصغيرة تركن في الغرفة

منادية صغارها: تيوريو - ريو - ريو

- هلَّا أعطيته شيئاً يا ميتيا! قالت غروشنكا: قدم له هدية لأنه فقير. أوه! رباه! يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً، يا لهؤلاء المذلِّين جميعاً؟... هل تعلم يا ميتيا؟ أريد أن أدخل الدير! كلا، أقسم لك، أنني سأدخل الدير ذات يوم. لقد قال لي اليوم إيليوشا كلاماً لن أنساه ما حييت. أما الآن فلنرقص! غداً الدير، أما اليوم فلنرقص! أود أن أقوم بأعمال جنونية! ولسوف يغفر لي الرب. أي ضير في أن نمرح أيها الناس الطيبون؟ لو كنت أنا الله، لغفرت لجميع الناس، ولقلت لهم: «يا أعزائي الخاطئين، قد عفوت عنكم اليوم.». ولسوف أمضي أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم: «أيها الناس الطيبون، اغفروا لامرأة مسكينة غبية!». ذلك ما سأقوله لهم. أنا وحش مفترس نعم. ولكنني أريد أن أصلِّي. لقد وهبت بصلة أنا أيضاً. إنني، أنا الشقية، أريد أن أصلِّي! دعهم يرقصون يا ميتيا، لا تعكر سعادتهم! جميع الناس طيبون، جميعهم بغير استثناء! آه! ما أجمل أن يعيش المرء في هذا العالم! نحن شريرون، ولكن الحياة جميلة جداً... فينا الخير والشر، الخير والشر في آن... قولوا لي أنتم جميعاً! يجب أن أسألكم هذا السؤال! اقتربوا وقولوا لي: لماذا أنا طيبة إلى هذه الدرجة؟ إنني طيبة فعلاً، فقولوا لي، اشرحوا لي: لماذا أنا طيبة إلى هذه الدرجة؟ بهذا الكلام كانت غروشنكا تتمتم، مغرقة في الهذر المضطرب شيئاً بعد شيء، إلى أن أعلنت أخيراً أنها تريد أن ترقص هي نفسها، ونهضت عن كرسيها مترنحة: ميتيا، امنعني من أن أشرب أكثر مما شربت. الخمر لا يؤدي إلى الهدوء. كل شيء يدور الآن أمامي، الغرفة والمدفأة! أريد أن أرقص... فلينظر الجميع، كيف أرقص. كم رقصي جميل، كم أشعر بالارتياح عندما أرقص.

كان قرارها جدياً: أخرجت منديلاً أبيض من نسيج ناعم رقيق، وأمسكته من أحد أطرافه بيدها اليمنى لتلوِّح به أثناء الرقص. تحرّك ميتيا هنا وهناك. سكتت البنات، وتهيأن لأن يصدحن بلحنٍ يرافق الرقص جوقةً واحدة عند أول إشارة. وحين علم ماكسيموف بأن غروشنكا سترقص، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسته، وأخذ يتواثب أمامها، وطفق يدندن:

ساقاها دقيقتان ووركاها مدوران

ولكن ذيلها كالبوق.

أبعدته غروشنكا عنها بحركة من منديلها، قائلة:

- اسكت! لماذا لا يجيئون يا ميتيا؟ ليُسرعوا جميعاً... لرؤيتي. ناد الآخرين، ناد المحبوسين... لماذا حبستهما؟ قل لهما إنني أريد أن أرقص. فليجيئا هما أيضاً...

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح، مترنح الخطى من السكر، وراح يطرق الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين.

- هيه! أنتما... اخرجا! إنها سترقص وهي تناديكما.

فصاح أحد «السيدين» البولنديين يجيبه بالبولندية:

- (شقي)!

فأجابه ميتيا:

- وما أنت إلّا «شقي» حقير صغير! ذلك هو أنت!

قال كالغانوف وقد ثمل هو أيضاً، بلهجة تتكلف الوقار:

- هلا كففتم عن إهانة بولندا؟

- اسكت أيها الولد الصغير! إنني إذ وصفته بأنه شقي، لم أهن بولندا كلها، ليس أبناء بولندا كلهم تافهين مختالين. صمتاً أيها الطفل اللطيف، لسوف أعطيك حبَّة ملبَّس.

- يا للأشرار! أليس فيهم شيء من إنسانية؟ قالت غروشنكا بدهشة وهي تتقدم إلى أمام لترقص: لماذا يرفضون أن يتصالحوا؟

أنشدت الجوقة لحناً شعبياً. رفعت غروشنكا رأسها، وفتحت شفتيها، وابتسمت، ولوَّحت بمنديلها، ثم توقفت فجأة وهي تتمايل في وسط الغرفة، وتشعر بارتباك شديد. تأوّهت وهي تقول بصوت أليم:

- أحسُّ بوهن. معذرة. إنني تعبة منهكة... لا أستطيع... أوه.... هي غلطتي.

وحيَّت الجوقة، ثم حيَّت جميع الحضور وهي تلتفت إلى جهات الغرفة الأربع جهة بعد جهة، وتردد قولها:

- لا تؤاخذوني... لا تؤاخذوني!

- أسرفت في الشراب، السيدة الشابة! قالت بعض الأصوات في الجمهور.. هي ثملة، السيدة اللطيفة...

- السيدة ثملة قليلاً. قال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً:

- ميتيا، خذني من هنا... تمتمت غروشنكا بصوت منطفىء: انقلني من هنا.

فأسرع ميتيا إليها، وتناولها بذراعيه، وأسرع يركض بحمله الثمين إلى ما وراء الستائر. قال كالغانوف لنفسه: «في هذه المرة، آن أوان الانصراف»، وغادر الغرفة الزرقاء مغلقاً الباب وراءه. وتتابع الاحتفال بصخب شديد. وضع ميتيا صاحبته غروشنكا على

السرير، وقبلها قبلة محمومة على الفم. دمدمت تقول بصوت ضارع: لا تلمسني، لا تلمسني، أنا لست لك بعد... قلتُ إنني سأكون لك، ولكن لا تلمسني... إرأف بي، أشفق عليَّ... لا تفعل شيئاً الآن، بينما هم لا يزالون هنا. لا يجوز هذا... إنه هناك، على بعد خطوتين! هذا فظيع هنا...

- إنني أطيعك! قال ميتيا متعثراً في كلامه. لم يخطر ببالي هذا... أنا أمامك في نشوة. نعم، هذا فظيع هنا. يا للمكان الموبوء! ودون أن يدع عناقها، تهالك على ركبتيه، قرب السرير.

- أنا واثقة بك. أعرف أنك متوحش، ولكن نفسك نبيلة. قالت غروشنكا بصوت رخو: يجب أن يجري كل شيء بشرف بعد الآن... أريد أن يكون كل شيء شريفاً... وأن نكون شرفاء أيضاً، لا بهائم، بل بشراً طيبين طاهرين... خذني إلى مكان بعيد، بعيد جداً من هنا، هل تسمع؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا... أريد أن أسافر إلى مكان بعيد... بعيد جداً.

- نعم، سنسافر، سآخذك، سأطير بك!... قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها إلى صدره: إنني مستعد لأن أهب حياتي كلها في سبيل سنة واحدة من سعادة، شرط أن أعرف ماذا جرى لذلك الدم!

- أيّ دم؟ سألته غروشنكا مندهشة.

- لا شيء. أجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه: إنك تريدين يا غروشنكا أن نكون شرفاء، ولكنني أنا لص. لقد سرقت مال كاتكا!... يا للعار! يا للعار!

- كاتكا؟ الآنسة؟ لا لم تسرق شيئاً! أرجع إليها مالها. خذ مالي أنا... ما بك؟ إن كل ما أملكه أنا هو الآن لك. ما حاجتنا إلى المال؟ سوف نبدده على كل حال في القصف واللهو. لا يعرف أمثالنا أن يحتفظوا بالمال. إنني أفضِّل أن نحرث الأرض معاً. أريد أن أعمل في الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما. إن من واجبنا أن نعمل، هل تسمع؟ إيليوشا هو الذي شرح لي ذلك. لن أكون خليلتك، بل حليلتك، زوجتك الوفية، عبدتك المخلصة. سأتعب وأجهد في سبيلك. سوف نذهب إلى الآنسة، فننحني لها بتحية عظيمة حتى تسامحنا قبل رحيلنا. وإذا لم تسامح، فسنرحل مع ذلك. أما المال فسترده إليها. عليك أن تحبني أنا... لا أريد أن تحبها هي! أنا أمنعك من أن تحبها وإلّا فأخنقها... أفقأ عينيها بالإبر....

- أنت من أحب، أنت وحدك، وسأظل أحبك من آخر سيبيريا...

- لماذا تتكلم على سيبيريا؟ لا بأس! سنسافر إلى سيبيريا إذا كنت ترغب في ذلك... إن في وسعنا أن نعمل هناك كما في أي مكان آخر. إن في تلك البلاد ثلجاً كثيراً... وأنا أعشق الثلج...، وأعشق الزلاجات التي تنزلق عليه سريعة مجلجلةً أجراسُها... هل تسمع؟ لكأن جرساً يرن في مكان ما... من أين يأتي رنين هذا الجرس لا شك أن بعض المسافرين قد وصلوا... انقطع الصوت الآن.

وأغمضت عينيها، منهكة القوى إلى أقصى الحدود، وغفت بضع لحظات. كان جرس قد رنَّ فعلاً في البعيد ثم صمت. مال ميتيا برأسه على صدرها. لم يكن قد انتبه إلى صوت الجرس وإلى انقطاع رنينه فجأة؛ ولم يلاحظ أن الأغاني قد توقفت وأن الصخب الذي كان يملأ النُّزل حتى ذلك الحين قد حلَّ محلَّه فجأة صمت كصمت الموت. وفتحت غروشنكا عينيها بعد دقيقة.

- ماذا يجري؟ نمت؟ نعم... ذلك الجرس... لقد نمت وحلمت بأنني محمولة على

زلاجة فوق الثلج. كان الجرس يرنّ، وكنت أنا نائمة. كنت راكبة عربة ترويكا، مع رجل عزيز في قلبي، معك أنت. وكنا ذاهبين إلى مكان بعيد، بعيد جداً. وكنت أقبلك، وأشد جسمي إلى جسمك، وكان الثلج يسطعُ. ما كان أجمله من إحساس! كأنه لم يكن على الأرض... واستيقظت، فإذا أنا أراك، يا حبيبي، قريباً مني ما أجمل هذا!

- نعم، قريباً منك ردَّد ميتيا كلامها وهو يلثم ثوبها وصدرها ويديها. وأحس فجأة بإحساس غريب: خيِّل إليه أنها تنظر إلى أمام، ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحا على وجهه، تتطلعان إلى ما وراء رأسه، في جمود عجيب. عبرَّت قسمات وجهها عن الدهشة أولاً، ثم عن الخوف.

- ميتيا! من الذي يرقبنا من هناك؟ تمتمت فجأة؟

التفت ميتيا فإذا هو يلمح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستارة؛ حتى لقد أحسَّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك. فنهض من مكانه بسرعة، واتجه نحو ذلك الشخص. فإذا هو يسمع صوتاً يقول:

- هل تتفضل فتجيء إلى هنا يا سيد.

كان المنادي المجهول يتكلم بصوت خفيض ولكنه جازم وقاطع.

خرج ميتيا من وراء الستارة، وتجمد في مكانه. كانت القاعة ملأى بالناس، ولكن ليس الذين كانوا يلهون منذ قليل. لا، بأشخاص جدد. شعر ميتيا بارتعاشة تسري في ظهره، إنه يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً، وها هو يتعرفهم الآن دفعة واحدة. إن الرجل العجوز السمين طويل القامة الذي يرتدي معطفاً ويعتمر قبعة ذات ترس وشارات، هو رئيس الشرطة ميخائيل ماكاروفتش. وهذا الشاب الذي يوحي مظهره بأنه مصدور والذي يتأنق في ملبسه ويلتمع حذاؤه دائماً هو وكيل النيابة. «إنه يملك ساعةً من ذهب قيمتها أربعمئة روبل. لقد أرانيها في ذات يوم لأعجب بها». أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة الذي يضع نظارتين... فلم يتذكر ميتيا اسمه، ولكنه يعرفه أيضاً وقد سبق أن رآه: إنه قاضي التحقيق الذي تخرج في «مدرسة الحقوق» منذ مدة غير طويلة. وهذا موظف الشرطة موريسماكريفتش الذي يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد. ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذي يحملون على صدورهم صفائح معدنية؟ وهذان الفلاحان؟... وبعد هؤلاء جميعاً، لمح ميتيا، عند فرجة باب المدخل، كالغانوف وتريفون بوريستش...

- ماذا أيها السادة؟ ماذا جرى؟ قال ميتيا.

ولكنه لم يلبث أن هتف فجأة بملء صوته، كأنما تدفعه إلى ذلك قوة لا سبيل إلى مقاومتها:

- فـ .... بهمت!

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة:

- كنا نريد... الخلاصة، أرجو منك أن تجلس هنا، على الكنبة... علينا أن نلقي عليك بعض الأسئلة.

- العجوز! صاح ميتيا خارجاً عن طوره. والدم المسفوح!... فـ ... بهمت!

وكأنما انهارت قواه فجأة، فتهالك على كرسيٍ كان هناك.

آ... فهمت؟ فهمت؟ وإذا برئيس الشرطة العجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا: - يا قاتل أبيه! أيها الوحش! إن دم أبيك يتهمك!

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب، وكان جسمه كله يرتجف.

فصاح الشاب قصير القامة:

- ولكن هذا مستحيل! يا ميخائيل ماكاروفتش ميخائيل ماكاروفتش! يجب أن أكون أنا أول المتكلمين... لم أكن أتوقع منك سلوكاً كهذا.

- هذا هذيان، أيها السادة. هذا هذيان! استأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً: انظروا إليه: تضرج بدم أبيه ثم هو يقضي السهرة ماجناً في صحبة واحدة من بنات الهوى. هذا هذيان، هذا هذيان!

- أرجو منك وألحُّ في الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزي ميخائيل ماكاروفتش. أسرع وكيل النيابة يهمس في أذن رجل الشرطة العجوز: وإلّا اضطررت أن أتخذ إجراءات من أجل أن...

ولكن قاضي التحقيق الصغير لم يتركه يتم جملته، فها هو يتجه إلى ميتيا، ويعلن له بوقار، وبصوت عال صارم:

- أيها الليوتنان المتقاعد كارامازوف، من واجبي أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيودور بافلوفتش كارامازوف، الذي قُتل في هذه الليلة...

كان يريد أن يقول شيئاً آخر أيضاً. وكيل النيابة أيضاً، كان يريد أن يضيف شيئاً من عنده. لكن ميتيا بذل جهداً كي يصغي، فلم يعد يفهم شيئاً. كان يتفرس في وجوههم بنظرة مجنونة...

الكتاب التاسع

التحقيق التمهيدي

I

بداية عمل الموظف برخوتين

إن بيوتر إيلتش برخوتين الذي تركناه يطرق بكل قواه، الباب السميك المغلق في منزل التاجرة موروزوفا، قد توصل طبعاً إلى أن يحملهم على أن يفتحوا له. وحين سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول، وكانت لم تفق بعد من الذعر الذي أصابها قبل ساعتين، ولا حزمت أمرها على أن تنام، من شدة اضطرابها، استبد بها هلع هستيري: لقد ظنت أن ديمتري فيودوروفتش هو الذي كان يطرق (رغم أنها رأته يسافر). لأنه لا يستطيع أي إنسان غيره أن يطرق الباب بمثل هذا العنف؟... وأسرعت إلى البواب الذي أيقظته الضجة وهمَّ أن يفتح الباب، فتوسلت إليه ألّا يسمح لأحد بالدخول. ومع ذلك سأل البواب الطارق عن اسمه من خلال الباب، فلما عرف صفته، وعرف أنه يريد أن يكلم فيدوسيا ماركوفنا في أمر هام جداً، قرر أن يفتح له. مضى بيوتر إيلتش مباشرة إلى المطبخ ليرى فينيا التي أصرَّت، من باب الحفاظ على الشكل، أن يحضر البواب المقابلة. أخذ الموظف يلقي الأسئلة على المرأة، فسرعان ما وقع على أمرٍ أساسي: هو أن ديمتري فيودوروفتش حين ذهب يسعى إلى غروشنكا قد أخذ مدقَّ الهاون، ورجع بعد ذلك ملطَّخ اليدين بالدم ولم يكن المدقُّ معه. كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض. قالت فينيا التي اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلي الرهيب دون أن تشعر. وكان بيوتر إيلتش قد رأى الدم في يدي ميتيا بنفسه، وإن لم يكن يسيل، وقد ساعده على غسل يديه. ولم يكن يهمُّ بيوتر إيلتش أن يتساءل على كل حال: أجفَّ الدم بسرعة أم لا، وإنما كان يهمه أن يعرف: ماذا فعل ديمتري فيودوروفتش بمدق الهاون هذا، وإلى عند من ذهب؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك أنه ذهب إلى منزل أبيه، وإلى أي شيء يستند هذا الاستدلال؟ لذلك ألحَّ بيوتر إيلتش على هذه النقطة بصورة خاصة؛ ثم انتهى إلى الاقتناع التام، رغم أن فينيا لم تقدم إليه أيّ قرينة واضحة، بأن ديمتري فيودوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب إلّا إلى منزل أبيه وأن «شيئاً ما» لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً. وأضافت فينيا متأثرةً: حين رجع، قصصت عليه كل شيء، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين، فأجاب بأن هذا دم بشري، وبأنه قد قتل إنساناً منذ حين. اعترف لي بذلك في هذا المكان نفسه، في هذا المطبخ، ثم ولّى هارباً كمجنون؟ ورحت أفكر بعد انصرافه: «إلى أين يركض؟ لا شك أنه ينوي أن يسافر إلى موكرويه ليقتل مولاتي»، فاندفعت ألاحقه، لأتوسل إليه ألّا يسيء إلى الآنسة المسكينة؛ وكنت آمل أن أجده في منزله، ولكنني لمحته أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهم أن يسافر، وكانت يداه عندئذ نظيفتين (لقد لاحظت فينيا هذا الأمر التفصيلي وحفظته). وقد أكدت جدَّة فينيا العجوز، بقدر الإمكان، أقوال حفيدتها. وبعد أن ألقى بيوتر إيلتش أيضاً بضعة أسئلة خرج من المنزل بتشوش وقلق أقوى من اللذين كانا يستبدان به عندما جاء.

لقد ساد اعتقاد أن الأمر الأكثر مباشرة والأكثر بساطة الذي يجب أن يقوم به هو أن يذهب إلى منزل فيودور بافلوفتش ليعرف إذا ما كان قد حدث شيء هناك، وإذا كان قد حصل شيء، ما هو هذا الشيء؟ وبعد التأكد من المعلومات يبلغ رئيس الشرطة. وهذا ما خطر ببال بيوتر إيلتش في أول الأمر فعلاً. ولكن الليل كان حالك الظلام، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة، فسيكون عليه إذن أن يطرق من جديد، وأن يحدث ضجة

وصخباً، وهو لا يعرف فيودور بافلوفتش إلّا قليلاً جداً. فما عسى يحدث إذا قيل له، بعد أن يفتح له الباب، إن شيئاً لم يقع؟ إن فيودور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروي للمدينة كلها في الغد، من باب التندر، أن الموظف برخوتين، الذي ليس بينه وبينه صلة ولا معرفة، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد. سيكون هذا فضيحة! وبيوتر إيلتش لا يخشى شيئاً في هذا العالم كما يخشى الفضيحة! لكن العاطفة التي كانت تدفعه إلى العمل والحركة قد بلغت من القوة أنه بعد أن ضرب الأرض بقدمه غاضباً وشتم نفسه، أسرع يتخذ قراراً جديداً: هو أن يذهب لا إلى منزل فيودور بافلوفتش بل إلى السيدة خوخلاكوفا. سوف يسألها هل صحيح أنها أعطت ديمتري فيودوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات، فإذا أجابته بالنفي ذهب إلى رئيس الشرطة لا يلوي على شيء ولا يمر بمنزل فيودور بافلوفتش؛ وإلّا أرجأ مساعيه إلى الغد ورجع إلى منزله. واضح أن بيوتر إيلتش عندما يذهب في الساعة الحادية عشرة ليلاً إلى إحدى سيدات المجتمع التي لا يعرفها، وقد يحملها على النهوض من سريرها ليلقي عليها سؤالاً قد يبدو في مثل هذه الظروف سخيفاً مضحكاً إنما يتعرض لإحداث فضيحة أكبر من فضيحة ذهابه إلى فيودور بافلوفتش. غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها، في ظروف كهذا الظرف، أشخاص هم أكثر الناس برودة نفس وروية تفكير. فما بالك وقد فقد بيوتر إيلتش في تلك اللحظة كل برودته وكل رويته! سوف يظل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل إلى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شيء، ثم استحال أخيراً إلى عذاب حادّ دفعه في تلك الليلة إلى أن يتحرك ويتدخل، على غير إرادة منه تقريباً. والحق أنه قد استاء وغضب أثناء الطريق، وقرَّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة، ولكنه أقسم «ليسيرنَّ إلى آخر الشوط، مهما كلف الأمر»، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه. وقد برَّ بيمينه، فمضى إلى آخر الشوط فعلاً. وكانت الساعة الحادية عشرة تماماً عندما دخل منزل السيدة خوخلاكوفا. لقد فُتح له الباب بدون جهد، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين هل نامت السيدة أم لا، واكتفى بأن ذكر له أنها تنام عادةً في مثل هذه الساعة. وأضاف يقول له: اصعد إلى فوق، وأعلن عن نفسك، فإذا شاءت استقبلتك، فكل شيء رهن بإرادتها.

صعد بيوتر إيلتش إلى الطابق الأول. وهنالك بدأت الأمور تتعقد. رفض الخادم أن يبلغ السيدة خوخلاكوفا وصوله، ونادى الخادمة. فرجاها بيوتر إيلتش، بأدب ولكن بإلحاح، أن تبلغ السيدة خوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً، وأنه ما كان له أن يزعجها لولا أن الأمر الذي يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقاً!

- انقلي إليها هذه الكلمات نقلاً دقيقاً!

انتظر بيوتر إيلتش في القبو. وكانت السيدة خوخلاكوفا في غرفة نومها، ولكنها لم تكن قد نامت بعد. لقد هزتها زيارة ميتيا، وهي تتنبأ بأنها لن تنجو في هذه الليلة من الصداع الشديد الذي ينتابها عادة عقب انفعالات من هذا النوع. فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دُهشت، ومع ذلك أمرت خادمتها، بلهجة غضب، أن تصرف هذا الزائر الذي يجيء في غير أوان الزيارة، أمرت خادمتها بذلك رغم أن مجيء «الموظف برخوتين» إليها في مثل هذه الساعة، على غير توقُّع، قد أثار فيها فضولاً قوياً. ولكن بيوتر إيلتش كان عنيداً في هذه المرة عناد بغل. فلما عرف أن السيدة خوخلاكوفا ترفض استقباله، طفق يلحُّ من جديد إلحاحاً شديداً على أن تنقل الخادمة إلى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً: وهي أنه جاء «لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم إذا هي لم تستقبله.». وقد روى فيما بعد أنه أحسَّ في تلك الدقيقة أنه «يسقط في هاوية». تفرست فيه الخادمة مدهوشة، وأسرعت تقوم بالواجب الذي عهد إليها به. ذهلت السيدة خوخلاكوفا، وفكرت بضع لحظات، وسألت عن مظهر الزائر، فقيل لها إنه «حسن الهندام، شاب، مهذب جداً». يجب أن نذكر هنا عابرين أن بيوتر إيلتش فتى جميل جداً، وهو يعرف ذلك. قررت السيدة خوخلاكوفا أن تستمع إليه.

وإذ كانت بثوب المنزل والخفين، فقد ألقت على كتفيها شالاً أسود. أُدخل الموظف إلى غرفة الاستقبال، حيث استُقبل ديمتري فيودوروفتش قبل بضع ساعات. تقدمت ربة المنزل نحو الزائر بوجه قاسٍ ومتسائل، وسألته دون أن تدعوه إلى الجلوس:

- ماذا تريد أيها السيد؟

- بدأ برخوتين كلامه:

- لقد جازفت وجئت أزعجك في أمر يتعلق بصديقنا المشترَك ديمتري فيودوروفتش كارامازوف، ولكن ما إن لفظ هذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة خوخلاكوفا غضب شديد، فهمَّت أن تصرخ، ولكنها توقَّفت، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة:

- إلى متى، إلى متى أظل أُعذَّب بسبب هذا الإنسان المخيف؟ كيف تجرأت أيها السيد، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها، أن تجيء تزعجها في منزلها، في مثل هذه الساعة... متحدثاً إليها عن شخص أراد منذ ثلاث ساعات، في هذا الصالون نفسه، في هذا المكان نفسه، أن يقتلها... ضرب الأرض بقدمه، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد أن يسمح لنفسه بمثلها في منزل محترم! اعلم أيها السيد أنني سأشكوك إلى رؤسائك. إنني لن أسكت لك عن هذه الوقاحة! وأرجو أن تخرج من مسكني فوراً... أنا أم... وأنا... أنا...

- أراد أن يقتلك؟ هل أراد أن يقتلك أنت أيضاً؟

- هل قتل أحداً؟ سألت السيدة خوخلاكوفا بحرارة. فأجابها برخوتين بصلابة:

- إذا وافقت على أن تسمعي، ولو لنصف دقيقة، يا سيدتي، شرحت لك كل شيء في بضع كلمات. في هذا اليوم، في الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم، جاء إليَّ السيد كارامازوف ورجا رجاء الصديق أن أقرضه عشرة روبلات. وأنا أعرف جيداً أنه كان في تلك اللحظة مفلساً؛ وفي هذا اليوم نفسه، في الساعة التاسعة، رجع إليَّ ممسكاً بيديه حزمةً من أوراق مالية تقدَّر بألفي روبل أو بثلاثة آلاف. وكانت يداه ملطختين بالدماء وكذلك وجهه، وكان يتصرف كمجنون. فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله، أجابني إجابةً واضحة دقيقة بأنه قد تسلَّمه منك قبل لحظات، وبأنك قد أعطيته ثلاثة آلاف روبل لكي يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم...

ظهرت على وجه السيدة خوخلاكوفا علامات انفعال عنيف أليم. وصاحت وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى: إلهي! لقد قتل أباه العجوز! أنا لم أعطه مالاً أبداً، لم أعطه مالاً أبداً. آه، اركض، اركض بسرعة، لا تقل كلمة واحدة أخرى، لا تضيع الوقت! أنقذ أباه، أسرع إلى نجدته، أسرع!

- سامحي إلحاحي يا سيدتي. أنت تؤكدين أنك لم تعطه مالاً، فهل ذكرياتك واضحة في هذه النقطة؟

- لم أعطه شيئاً، لم أعطه كوبيكاً واحداً. رفضت أن أقرضه، لأنه لم يقدر نياتي. وانصرف كمجنون مسعور ضارباً الأرض بقدمه. وقد هجم عليَّ، فلم يكد يتسع وقتي للاحتماء منه، وإني لأسرُّ إليك أيضاً، لأنني قررت أن لا أكتمك شيئاً بعد الآن، أنه قد بصق عليَّ، هل تستطيع أن تتخيل هذا؟ اجلس... رجاءً... معذرة... أنا... لا بل اركض، اركض بسرعة. واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة رهيبة.

- ولكن ما دام قد قتله!

- آه، يا إلهي! هذا صحيح! فماذا نفعل الآن؟ هل في ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله؟

ومع ذلك أجلست بيوتر إيلتش وهي أمامه. شرح لها بيوتر إيلتش، بإيجاز ولكن بوضوح، لبَّ القضية، في حدود ما شهده بنفسه في ذلك اليوم على الأقل. وروى لها أيضاً أنه زار فينيا، وما ذكرته له عن مدقّ الهاون. فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزَّت السيدة الطيبة بعنف فلم تستطع أن تحبس، أثناء هذه القصة، صرخات الخوف حتى أنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات...

- هل تتصوّر أنني كنت أتوقع كل ذلك. أنا موهوبة بقدرة التوقع. وما أتنبأ به يتحقق لا محالة. كم من مرة قلت لنفسي وأنا أنظر إلى هذا الرجل الكريه: «سيقتلني هذا الرجل أخيراً ذات يوم.» وذلك ما حدث... أقصد أنه إذا كان لم يقتلني فقد قتل أباه، فإنما يعود الفضل في ذلك إلى تدخُّل العناية الإلهية. لا شك أن الله قد حماني في ذلك الحين. أضف إلى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلني لأنني كنت قد علقت في عنقه، هنا في هذا المكان نفسه، الإيقونة المقدسة لشهيدة عظيمة... ولم يكن يخطر ببالي عندئذ أنني ألامس الموت ملامسة قريبة في تلك اللحظة. اقتربت منه، ومسسته تقريباً، فمدَّ لي عنقه... يجب أن أقول لك يا بيوتر إيلتش (معذرة، أليس اسمك بيوتر إيلتش؟)، يجب أن أقول لك إنني كنت لا أؤمن بالمعجزات حتى الآن، ولكنني أشعر باضطراب شديد حين أتذكرأن تلك الإيقونة التي علقتها في عنقه قد أنقذتني بمعجزة من ميتة فظيعة! آه، يا إلهي! إنني أحس بأنني جاهزة للإيمان من جديد بكل شيء. لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسّيما تلك، أليس كذلك؟ أراني أتيه، فلا أعرف ماذا أقول... تصور أنه، رغم تلك الإيقونة، قد بصق عليَّ... بصق فحسب، صحيح هذا، ولم يقتلني... أهذا إذن ما مضى يفعله بعد ذلك؟ ماذا يجب أن نقرر الآن، ما الذي يجب أن نفعل، قل لي؟

نهض بيوتر إيلتش معلناً أنه سيذهب حالاً إلى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله.

- تذهب إلى ميخائيل ماكاروفتش؟ إنه رجل ممتاز، ممتاز، أنا أعرفه. إنني أثق بسداد رأيه. ميخائيل ماكاروفتش: ذلك هو بعينه الرجل الذي يجب إبلاغه الأمر. فكرتك رائعة، وما كان لها أن تخطر ببالي أنا، لو كنت في مكانك.

قال بيوتر إيلتش، وهو ما يزال واقفاً، محاولاً أن يضع حداً لثرثرات هذه المرأة المهذار التي لا تدع له فرصة التفوُّه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف، قال:

- لا سيما وأنني أعرفه أنا أيضاً معرفة شخصية.

تابعت السيدة خوخلاكوفا تقول دون أن تيأس:

- اسمع، اسمع، يجب أن تأتي إليَّ لكي تعلمني بكل ما علمته... على الوقائع التي أمكن أن تعرف... وكذلك على العقوبة التي سيُحكم بها. أظن أن الحكم بالاعدام لا وجود له عندنا، أليس كذلك؟ تعال إليَّ حتماً، ولو في الساعة الثالثة صباحاً، أو في الساعة الرابعة، أو حتى في الساعة الرابعة والنصف... اطلب إيقاظي، وليجرّوني من السرير عند الحاجة، إذا أنا أصررت على النوم... إنني أقول سخافات على كل حال. كيف أستطيع النوم بعد كل هذا؟ تراودني فكرة: ما رأيك في أن أرافقك؟

- لا، لا داعي إلى هذا. ولكن إذا وافقت، في مقابل ذلك، أن تكتبي لي، بخط يدك، تصريحاً في ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطِ ديمتري فيودوروفتش مالاً قط، فأعتقد

أن هذا يمكن أن يفيدنا... عند الحاجة.

- طبعاً! صاحت السيدة خوخلاكوفا تقول قافزةً عن مكانها بحماسة، متجهة إلى مكتبها الصغير: هل تعلم أنك تدهشني بسداد رأيك، صدِّقني إذا قلت لك إنني معجبة بما تبرهن عليه في هذا المجال من مهارة! هل أنت تعمل موظفاً في إدارة مدينتنا؟ ما أسعدني إذ أعرف أن لدى سلطاتنا معاونين أفذاذاً لهم مثل قيمتك...

وفيما كانت تتكلم، كتبت بسرعة، على ورقة، الأسطر التالية، بأحرف كبيرة:

«لم أقرض ديمتري فيودوروفتش، العاثر الحظ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقي عاثر الحظ)، ولا أي مبلغ آخر، أبداً أبداً. أقسم على هذا بكل ما هو عندي مقدس في هذا العالم».

خوخلاكوفا.

- إليك تصريحي ثم التفتت نحو بيوتر إيلتش وقالت له: أسرع الآن. يجب إنقاذ هذا الرجل. هذا عمل نبيل تقوم به.

ورسمت عليه إشارة الصليب ثلاث مرات، ثم شيعته إلى الممشى.

- ما أعظم شكري لك! لا تستطيع أن تصدق مدى امتناني لك لأنك جئت إليَّ أولاً! خسارة أنني لم أعرفك قبل الآن! لسوف يسعدني في المستقبل أن أستقبلك في منزلي. إنه لممّا يعزِّي النفس ويشد الأزر أن تملك مدينتنا في شخصك موظفاً له مثل كفايتك وقيمتك، موظف دقيق، حصيف خصوصاً... أنا على يقين أن رؤساءك يقدرونك بحق. صدِّقني إذا قلت لك إنهم سيفهمونك آخر الأمر... واعلم على كل حال أني مستعدة لأن أقول كلمة طيبة في حقك كلما لزم ذلك...! إنني أحب الشباب! إنني مغرمة بالشباب حقاً! الشبيبة في أيامنا هذه هم قوة بلدنا العظيمة الشقية روسيا! أنتم أملنا... هيَّا أسرع! هيَّا!...

ولكن بيوتر إيلتش كان قد نزل إلى الشارع، وإلّا لحبسته زمناً آخر. يجب أن نقول من جهة أخرى إن السيدة خوخلاكوفا قد أحدثت في نفسه أثراً ممتعاً خفَّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله في قضية مزعجة. إنكم تعلمون أن الأذواق في هذا العالم مختلفة متنوعة. قال بيوتر إيلتش لنفسه مسروراً: «ليست متقدمة في السن كثيراً. كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها».

أما السيدة خوخلاكوفا فقد افتتنت به «ما أروع هذا الحذق وهذه الدقة في شاب، ذلك عدا آدابه ومظهره اللطيف! تلك مزايا نادرة في هذه الأيام! يدعون أن شبابنا اليوم لا قيمة له. فهذا مثال يبرهن على نقيض ما يدعون». وقد انتهت السيدة خوخلاكوفا من ذلك إلى نسيان «الحادث الفظيع»، ولم تتذكر إلّا على سريرها أنها «لامست الموت ملامسة قريبة». فتمتمت تقول: «شيء رهيب، شيء رهيب!»، لكنها لم تلبث أن نامت نوماً عميقاً. ما كنت لأسهب في ذكر هذه التفاصيل الثانوية والمضحكة، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذي وصفته للتو بين رجل شاب والأرملة التي كانت لا تزال نضرة، لم يستخدم فيما بعد نقطة انطلاق في حياة هذا الموظف الدقيق والمنظم، الأمر الذي مازال الناس في مدينتنا حتى يومنا هذا يتكلمون عنه مندهشين، والذي ربما سنحت لي فرصة لأقول كلمة صغيرة في نهاية هذه القصة الطويلة التي نكتبها عن الإخوة كارامازوف.

II

الإنذار

كان رئيس شرطتنا ميخائيل ماكاروفتش ماكاروف، وهو ليوتنان كولونيل متقاعد أعيد تعيينه مستشاراً في السلك الامبريالي المدني بالرتبة نفسها، رجلاً أرمل يتمتع بأخلاق طيبة. جاء إلى مدينتنا منذ ثلاث سنوات فقط، لكنه استطاع أن يكسب مودة جميع الناس خاصة أنه عرف كيف يوحد أبناء المدينة. كان منزله يغص دائماً بالزوار، حتى ليبدو أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوماً واحداً دون أن يستقبلهم. كان لا يخلو منزله يوماً من ضيف على مائدته، ولو كان الضيف شخصاً أو شخصين؛ وهو لم يتناول الطعام يوماً بدون مدعوين. وفوق ذلك كله، كان يقيم ولائم رسمية، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة، حجج قد لا تخطر بالبال. ولئن لم تكن أصناف الطعام فاخرة فقد كانت وافرة. ومع ذلك كان لفطائر السمك التي تقدَّم في منزله شهرة ذائعة. وقد لا تكون أنواع الخمور أجود الأنواع، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال. فالغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعةً للعب البلياردو، وأُثثت بأناقة، وازدانت جدرانها بصور خيول سباق إنكليزية، وتلك هي كما تعلمون الزينة المألوفة التي تزيِّن كلَّ قاعة بلياردو في منزل رجل أرمل. وكان يُلعب بالورق كلَّ مساء في منزل ميخائيل ماكاروفتش، وإن يكن عدد اللاعبين محدوداً في كثير من الأحيان، لكن الاستقبالات التي تحضرها نخبة المجتمع من مدينتنا في منزله كانت كثيرة، وكانت الأمهات يصطحبن إليها بناتهن، لكي يرقصن فيها. وكان ميخائيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل، في صحبة ابنته التي ترملت هي أيضاً منذ مدة طويلة، وفي صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنهتا تحصيلهما. لم تكن الفتاتان دميمتين أبداً، وكانتا بما تنعمان به من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب مدينتنا، رغم أنه كان معروفاً أنهما لا تملكان مهراً. ولم يكن ميخائيل ماكاروفتش لامع الذكاء، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر. وفي الحقيقة يجب أن نذكر أنه كان غير محظوظ، غير مثقف، قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التي تقف عندها صلاحياته الادارية. كان معنى بعض الإصلاحات التي تحققت في النظام الجديد يغيب عنه، وكثيراً ما كان يفسر هذه الاصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة، لا لعجز منه بل لقلة اكتراث، فإنه لم يكن يجد في وقته متسعاً لدراستها بعمق. وكان يحب أن يقول عن نفسه: «إن لي روح رجل عسكري لا رجل مدني». ورغم أنه كان من ملّاكي الأراضي، فإن ما علق بذهنه من معلومات تتعلق بالإصلاح الزراعي قد ظلت غامضة، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة، بدون إرادة منه إن صح التعبير، فإنما هي تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية. كان بيوتر إيلتش يعرف أنه سيلتقي عند رئيس الشرطة في ذلك المساء ضيوفاً، ولكنّه كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء الضيوف. ومن المصادفات أن ميخائيل ماكاروفتش كان في ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفنسكي الذي وصل من سان بطرسبورغ مؤخراً وكان من أوائل متخرجي مدرسة الطب). فأما النائب العام هيبوليت كيريلوفتش - وكان يسمى نائباً من قبيل المجاملة، لأنه لم يكن في الواقع إلّا وكيل نيابة - فهو رجل على حدة، ما يزال شاباً، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، فيه استعداد للإصابة بمرض السل، متزوج بامرأةٍ سمينة عاقر. وهو شديد الشعور بكرامته وكبريائه، سريع الغضب، ولكنه يملك مزايا واضحة من حسن الذكاء ونبل القلب. يبدو أن آفة طبعه

الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ في تقدير قيمته، فهذا التباين بين كفاياته الواقعية ورأيه في نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر. وكانت له مطامح كبيرة، بل ومطامح فنية، وكان يعتز خصوصاً بمقدرته في علم النفس، فهو يعتقد أنه أوتي مواهب خاصةً في النفاذ إلى أسرار النفس الإنسانية، وفي اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين. لذلك كان يعتقد بأن الناس لم يقدروه حق قدره، أو أن هناك أعداءً في الدوائر العليا يكيدون له ويعرقلون تقدمه في وظيفته. وفي ساعات يأسه كان يهدد بترك وظيفته ليصبح محامياً أمام المحاكم الجنائية. وقد استثارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت همته، فحدَّث نفسه قائلاً: «إن قضية كهذه ستحدث ضجة كبيرة غداً في روسيا كلها.». ولكني أستبق بهذا تتمة القصة.

وفي الغرفة المجاورة كان قاضي التحقيق الشاب نيقولا بارفينوفتش نليودوف، الذي وصل إلى مدينتنا منذ شهرين، يثرثر مع الفتاتين. لقد دُهش الناس بمدينتنا، فيما بعد، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين في مساء وقوع «الجريمة» نفسه، في منزل أحد ممثلي السلطة التنفيذية. مع أن المسألة كانت بسيطة جداً والمصادفة طبيعية: إن زوجة هيبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة في الأسنان؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر إلّا في الهروب من المنزل حتى لا يسمع أنينها. فإلى أين يمكنه أن يذهب إذا هو لم يذهب إلى ميخائيل ماكاروفتش؟ أما الطبيب فإنه، بحكم مهنته، كان لا يستطيع أن يقضي سهراته إلّا في لعب الورق، لذلك كان وجوده في منزل رئيس الشرطة أمراً لا بد منه. وأما نيقولا بارفينوفتش نليودوف، فقد كان ينوي منذ ثلاثة أيام أن يزور ميخائيل ماكاروفتش في ذلك المساء، وأن يجيء إليه «بما يشبه المصادفة»، بغية أن يفاجىء بعد ذلك كبرى الفتاتين، أولغا ميخائيلوفنا، بأنه عالم بسرِّها: وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها، وأنها أرادت أن تخفي الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفلة رقصٍ في منزلها. كان نيقولا بارفينوفتش يتخيَّل مزحات كثيرة سيقوم بها في تلك المناسبة، ويتلذذ سلفاً بهذه المزحات: كالإشارة إلى أنها تخشى أن تعلن عمرها، وكالتهديد بإذاعة الأمر في المدينة كلها غداً، الخ. إن هذا الشاب الفتان «عفريت» كبير، حتى إن سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب، وكان هذا يملأه رضًى وارتياحاً فيما يبدو. وكان ينتمي من جهة أخرى إلى أسرة رفيعة المستوى، وكان جمَّ الكياسة رفيع المشاعر. ورغم أنه كان بطبيعته محباً للأفراح مقبلاً على الملذات، فقد كان كذلك على براءة وكان لا يخلُّ بالمواضعات المقررة ولا يسيء إلى الآداب الاجتماعية. وهو قصير القامة، ضعيف البنية، رقيق مرهف، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة. وكان في قيامه بأعمال وظيفته رصيناً، قوي الشعور بخطورة الواجبات الملقاة على عاتقه. وكان يمتاز خصوصاً بمهارته في أن يحيِّر القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته، وكثيراً ما كان يثير فيهم من الدهشة إن لم يثر فيهم الاحترام.

صُعِق بيوتر إيلتش عندما وصل إلى منزل رئيس الشرطة إذ اكتشف فجأة أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر. توقف اللاعبون عن اللعب، وأخذ سائر الضيوف يتناقشون في الحادث بحرارة. حتى نيقولا بارفينوفتش قد غادر النساء وانضم إلى الآخرين عابس الوجه يوشك أن يكون مستعداً للهجوم. وما كان أشدَّ ذهول بيوتر إيلتش حين علم بالنبأ الرهيب: وهو أن العجوز فيودور بافلوفتش قد قتل في منزله فعلاً هذا المساء قُتل وسُرق. وقد عرفت الجريمة في الظروف التالية.

أما مارفا إينياتيفنا، زوجة غريغوري، التي كانت نائمة نوماً عميقاً في فراشها، وكان يمكن أن تستمر في نومها حتى الصباح. تستيقظ فجأة، بسبب الصرخة الرهيبة التي أطلقها سمردياكوف الذي كان ممدداً في الغرفة الضيقة المجاورة مغشياً عليه. إنها تعرف هذه الصرخة التي سبق وأرعبتها طوال حياتها، وخلَّفت في نفسها أثراً مرَضياً، ولم تستطع أن تعتادها في يوم من الأيام. نهضت مارفا من نومها منتفضة وأسرعت إلى الغرفة التي ينام

فيها سمردياكوف، بدون شعور منها. كان الظلام حالكاً، ويُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذي يتخبط بعنف. أخذت مارفا إينياتيفنا تصرخ هي أيضاً، منادية زوجها، ولكنها أدركت فجأة أن زوجها لم يكن إلى جانبها في السرير حين استيقظت من نومها، فأسرعت إلى السرير وأخذت تجس الغطاء، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد. تساءلت إلى أين ذهب؟ هل خرج؟ ولماذا خرج؟ وأسرعت إلى درجات المدخل وأخذت تناديه في الظلام، ولكنها لم تتلق جواباً. وفجأة خيِّل إليها أنها تسمع في عتمة الليل أناتٍ مخنوقة كأنها آتية من الحديقة. فأصاخت بسمعها، فتكررت الأنات. تمتمت مضطربة «يا إلهي! يشبه هذا ما حدث في الماضي يومَ موت أليزابث سمردياستشايا!». ونزلت الدرجات مذعورة، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح، فقالت في سرّها: «لا شك أن زوجي الطيب هناك»، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت في هذه المرة زوجها غريغوري نفسه يناديها بصوت ضعيف محتضر: «مارفا، مارفا!». فقالت مارفا متلعثمة: «نجِّنا من الشر يا رب!» واندفعت في الاتجاه الذي كان يصدر عنه النداء. وهكذا اكتشفت غريغوري. ومع ذلك لم تجده قرب السور، في المكان الذي صُرع فيه، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان. وقد عُرف فيما بعد أن غريغوري، حين أفاق من إغمائه، زحف على الأرض فترة طويلة، فأغمي عليه أثناء ذلك عدة مرات، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه. وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان مضرجاً بدمائه، فأخذت تصرخ. وكان غريغوري يتمتم بصوت واهن عبارات مضطربة لا تسلسل فيها، قائلاً: «قتل... قتل أباه... لماذا تصرخين يا امرأة؟ هلمي! أركضي! نادي!». ولكن مارفا اينياتيفنا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن إطلاق صرخاتها الوحشية. فلما رأت فجأة أن نافذة غرفة سيدها مفتوحة ومضاءة، أسرعت إلى هناك تنادي فيودور بافلوفتش. وإذ لم تسمع جواباً نظرت من النافذة، فرأت عندئذ مشهداً فظيعاً: رأت فيودور بافلوفتش منطرحاً على الأرض جثةً هامدة. أصيبت مارفا اينياتيفنا بهلع شديد، فاندفعت عندئذ إلى خارج الحديقة. ففتحت الباب الكبير، وأسرعت إلى منزل جارتها ماريا كوندراتيفنا. كانت المرأتان، الأم وابنتها، نائمتين حينذاك، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة على مصراعي الباب، ولشدة الصرخات الحادّة التي كانت تطلقها مارفا إينياتيفنا، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة. فقصت عليهما العجوز المسكينة ما حلَّ بمنزلهم من شقاء، قصت عليهما ذلك بأقوال مضطربة تقطعها أنّات. ومن المصادفات أن توماس الذي يسكن مستأجراً في منزلهما، والذي يتنقل عادة في البراري، كان يبيت في المنزل في تلك الليلة. فسرعان ما أوقظ من نومه، وأسرع الجميع إلى مكان الجريمة. وتذكرت ماريا كوندراتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت في نحو الساعة التاسعة من المساء، عويلاً صادراً من الحديقة أرعبها. كان ذلك هو الصرخة التي أطلقها غريغوري لحظةَ أمسك بيديه إحدى ساقي ميتيا الراكب السور، قائلاً: «يا قاتل أبيه». قالت ماريا كوندراتيفنا شارحةً: «إن أحداً قد صرخ عندئذصراخاً قوياً جداً ثم سكت فجأة». ووصل الثلاثة إلى قرب غريغوري، فأنهضته المرأتان بمعاونة توماس، ونقلوه إلى الملحقات. وأشعلوا شمعة. وحين مروا أمام الغرفة التي ينام فيها سمردياكوف لاحظوا أنه ما يزال يتخبط في تشنجاته وقد جحظت عيناه وخرج الزبد من فمه. غسلوا رأس غريغوري بماء ممزوج بخل، فجعله ذلك يصحو تماماً، فسرعان ما ألقى عليهم هذا السؤال: «أقُتل سيده أم لا؟». وأرادت الجارتان عندئذ أن تصحبا توماس إلى غرفة فيودور بافلوفتش. فلما اجتازتا الحديقة لاحظتا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة، وإنما كان باب المسكن مفتوحاً أيضاً، مع أن فيودور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم إقفال الباب بالمفتاح كل ليلة، ولا يسمح حتى لغريغوري بأن يدخل عليه لأي سبب من الأسباب، وبأي عذر. فلما رأت المرأتان وفوما هذا الباب مفتوحاً ترددوا في الدخول إلى غرفة الجريمة «خشية المضاعفات». فطلب غريغوري إبلاغ رئيس الشرطة شخصياً بالحادث. هنا ركضت ماريا كوندراتيفنا وشوشت جميع الموجودين. لقد وصلت قبل وصول بيوتر إيلتش بخمس دقائق لا أكثر، لاسيما وأن هذا الأخير ليس فقط كان يريد أن يقدم شكوكه واستدلالاته، بل كشاهد عيان، أكد بروايته الاستنتاج العام حول هوية المجرم (الأمر الذي حتى اللحظة الأخيرة،

(رفض دائماً، في أعماق نفسه، أن يصدقه).

قرروا مباشرة العمل بقوة. وأبلغ مفوض الشرطة مساعده ليجند فوراً أربعة شهود، وفقاً للأصول القضائية التي لا داعي إلى وصفها هنا، وقاموا بالتحريات الأولى في مكان الجريمة بمنزل فيودور بافلوفتش. وقد أصر طبيب زمستفو، وهو طبيب مبتدىء ممتلىء همةً وحماسة ونشاطاً، أصرَّ على أن يرافق رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضي التحقيق. سوف ألخص ما شاهدوه: لقد صُرع فيودور بافلوفتش، وكسرت جمجمته، ولكن ما هو السلاح الذي استعمل في قتله؟ على الأرجح السلاح نفسه الذي استعمله القاتل بعد ذلك في ضرب غريغوري. واكتشف أداة الجريمة أخيراً بفضل ما استطاع غريغوري أن يذكره لهم على نحو متسق، ولو بصوت واهن، بعد أن أُسعف الاسعافات الطبية التي تتطلبها حالته. استكشف رجال الشرطة الأرضَ التي تجاور السور مستعينين بمصباح، فلم يلقوا عناءً في العثور على مدقّ الهاون النحاسي. وجدوه ملقًى وسط الممر الذي يشق الحديقة، في موضع يلفت الأنظار على الفور. ولم تكن الغرفة التي ينام فيها فيودور بافلوفتش في فوضى، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفاً ملقًى قرب السرير. وكان ظرفاً كبيراً مصنوعاً من ورق سميك، وقد كتب عليه ما يلي: «هدية صغيرة من ثلاثة آلاف روبل أهديها إلى ملاكي غروشنكا إذا هي رضيت أن تجيء» وفي أسفل الظرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيودور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه: «إلى حبيبتي». وكان الظرف الذي ختم بالشمع الأحمر ثلاثة أختام كبيرة قد فُضَّ وأفرغ مما فيه: لقد سُرق المال الذي كان فيه. واكتشفوا كذلك على أرض الغرفة الشريط الوردي اللون الذي كان يلف الظرف. وقد أحدثت أقوال بيوتر إيلتش أثراً عميقاً في وكيل النيابة وقاضي التحقيق وهزّتهما بقوة، لاسيما بسبب ما ذكره لهما من أن ديمتري فيودوروفتش كان يبدو عازماً بشكل مطلق على أن ينتحر قبل طلوع الفجر؛ وأن ديمتري فيودوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه، حين لقَّم أحد المسدسين بالرصاص أمامه، وحين كتب بطاقة صغيرة يشرح فيها السبب الذي يدعوه إلى الانتحار ودسَّها في جيبه، الخ، حتى إذا قال له بيوتر إيلتش الذي لم يشأ أن يصدق قراره إنه سيبلغ أقرباءه ما عزم عليه حتى يمنعوه من إنقاذه، أجابه ميتيا بلهجة ساخرة: «لن يتسع وقتك لهذا يا عزيزي». معنى هذا كله أن من الواجب الاسراع في العمل، والوصول إلى موكرويه بسرعة، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفذ ما عقد النية عليه.

كان وكيل النيابة يردد قوله مضطرباً بشدة:

- القضية واضحة وضوح ماء الصخر. ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون في الجريمة. غداً أنتحر، أما الليلة فألهو وأتسلى. وازداد اهتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث في المتجر حين اشترى ميتيا الشمبانيا وأنواع الحلوى. هل تتذكرون، أيها السادة، ذلك الشاب الذي قتل التاجر أولسوفيف ليسلبه ماله؟ إنه بعد أن استولى على ألف وخمسمئة روبل كانت مع ضحيته، فكَّر قبل كل شيء في أن يصفف شعره متموجاً عند حلاق، ثم أسرع إلى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء إخفاء المال، فكان يمسكه بيديه تقريباً، مثل هذا القاتل الجديد تماماً. لكن التحقيق وتفتيش منزل فيودور بافلوفتش والإجراءات القانونية الشكلية، كل ذلك قد استغرق وقتاً، لذلك تقرر أن يرسل إلى موكرويه، على جناح السرعة، موظف الشرطة موريس مافريكيفتش شمرستوف الذي جاء إلى المدينة في الليلة البارحة لقبض مرتبه. أصدرت إليه تعليمات بأن يذهب إلى موكرويه، منتحلاً عذراً من الأعذار، بحيث لا يلفت الانتباه، وأن يراقب المجرم في الخفاء دون أن يغيب عن نظره، إلى حين وصول السلطات. وكان على موظف الشرطة هذا أن يكون في عداد الخفراء الذين سيقتادون المتهم. نفَّذ موريس مافريكيفتش الأوامر التي تلقاها، ولزم التخفي، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوريستش الذي يعرفه منذ زمن بعيد بعض الإيضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه. وفي ذلك الوقت التقى ميتيا صاحب

النزل في أسفل السلّم الموصل إلى الشرفة، فلاحظ تغيراً غريباً في تعبير وجهه وطريقة كلامه. وهكذا، لم يستطع أحد، لا ميتيا ولا سائر الضيوف، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون. أما علبة المسدس فقد أسرع تريفون بوريستش يخفيها في مكان آمن على الفور. وصل إلى موكرويه في الساعة الخامسة، عند طلوع الفجر. كل من وكيل النيابة، ورئيس الشرطة، وقاضي التحقيق، وحاشيتهم، في عربتي ترويكا. بقي الطبيب في منزل فيودور بافلوفتش، ليباشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح. ولكنه كان مهتماً بصورة خاصة بحالة سمردياكوف. إن نوبات الصرع التي تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل هذه المدة مستمرةً يومين، هي حالات نادرة جداً، يهتم بها العلم كثيراً.

هذا ما قاله الطبيب بحماسة لمرافقيه حين سافروا إلى موكرويه؛ وقد هنأوه على ما أوتي من فرصة وحظ نادرين. وقد تذكر وكيل النيابة وقاضي التحقيق فيما بعد، بوضوح، أن الطبيب قال لهم بلهجة حازمة أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر.

الآن، وبعد شرح مسهب، ولكن أعتقد أنه لا بد منه، ها قد عدنا إلى اللحظة المحددة من روايتنا، حيث توقفنا في الكتاب السابق.

III

محن النفس المحنة الأولى

وهكذا تصفَّح ميتيا وجوه محدثيه بنظر مجنون، ولم يفهم ما يقال له. ثم نهض فجأة، رفع ذراعيه إلى السماء وصرخ بصوت مدوٍّ:

- أنا بريء! أنا بريء من هذا الدم! بريء من دم أبي... كنت أريد أن أقتله، ولكنني بريء. لست أنا القاتل!

فما إن قال ميتيا هذه الكلمات حتى اندفعت غروشنكا من وراء الستائر وسقطت عند قدمي رئيس الشرطة، وصاحت بصوت ممزَّق:

- أنا المذنبة، أنا الملعونة. بسببي إنما قتل! أنا التي عذبته ودفعته إلى ذلك. ولقد عذبت العجوز المسكين الراحل أيضاً، لقد عذبته بغضبي، أنظر إلى ما دفعته... أنا المذنبة، أنا وحدي. أنا المذنبة الرئيسية.

- نعم أنت القاتلة! أنت المجرمة الرئيسية، أنت ضالة فاسقة! أنت المسؤولة الرئيسية عن هذه الجريمة.

صاح رئيس الشرطة وهو يلوِّح بقبضة يده مهدداً. ولكن سرعان ما سكت، حتى إن وكيل النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم فيه، قائلاً له بصوت عال وهو يكاد يختنق غيظاً:

- لقد أحدثت فوضى يا ميخائيل ماكاروفتش، هذا لا يجوز! إنك تشوش التحقيق وتفسد كل شيء.

وقال نيقولا بارفينوفتش مضطرباً بدوره:

- يجب اتخاذ بعض التدابير الضرورية فوراً... يجب اتخاذ اجراءات.

واستأنفت غروشنكا كلامها فقالت بحماسة وهي ما تزال جاثية على ركبتيها:

- احكموا علينا معاً، أعدمونا معاً، أنا مستعدة لأن أشاركه في العقوبة القصوى!

فصاح ميتيا وهو يرتمي على الأرض فيجثو إلى جانب غروشنكا ويعانقها:

- غروشا، حياتي، دمي، قديستي! لا تصدقوا ما تقوله، إنها ليست مذنبة في شيء، إنها لا تشارك إطلاقاً في المسؤولية عن هذا الدم المسفوح، إنها لم تفعل شيئاً!

- تذكر ميتيا فيما بعد أن عدداً من الرجال قد أبعدوه بالقوة عن غروشنكا التي أقصيت عن الغرفة، وأنه في اللحظة التي استعاد فيها وعيه، وجد نفسه جالساً أمام الطاولة. وكان يقف وراءه رجال يضعون على صدورهم صفائح من معدن. وفي الجهة الأخرى من الطاولة، كان قاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش الذي جلس على الكنبة، يلح عليه أن يشرب

قليلاً من الماء مشيراً إلى الكأس الموضوعة على الطاولة، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً:

- اشرب، الماء ينعشك ويهدئك. لا تخشَ شيئاً.

خطفت انتباهَ ميتيا فجأة، الخواتمُ الكبيرة التي كانت في أصابع قاضي التحقيق. إن أحد هذه الخواتم يزدان بالجمشت، والثاني يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوي السطوع. سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم في نفسه من افتتان حتى إنه طوال الساعات الرهيبة التي استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحوّل نظره عنها، ولم ينقطع عن النظر إليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه. وإلى يسار ميتيا، في المكان الذي كان يشغله ماكسيموف في بداية السهرة، كان يجلس وكيل النيابة؛ وإلى يمين ميتيا، في المكان الذي جلست فيه غروشنكا بضع ساعات قبل ذلك، كان يجلس شاب زاهي اللون، يرتدي سترة عتيقة جداً مما يلبسه الصيادون، وأمامه دواة وورقة. ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضي التحقيق. أما رئيس الشرطة فقد كان واقفاً قرب النافذة، في الطرف الآخر من الغرفة، على مقربة من كالغانوف الذي كان جالساً على كرسي.

- اشرب ماءً. كرر قاضي التحقيق بلطف ورقة للمرة العاشرة:

فصاح ميتيا، وهو يثبت على قاضي التحقيق نظرته الجامدة بشكل رهيب في عينيه الجاحظتين:

- شربت يا سادتي شربت... والآن اسحقوني، أعدموني، قرروا مصيري!

سأله القاضي بصوت لطيف رقيق ولكنه ملحّ:

- هل تصرُّ إذن، على أنك بريء من مقتل أبيك؟

- أنا بريء! أنا مذنب بقتل شخص آخر، سفحت دم العجوز الآخر، ولكنني لم أسفح دم أبي. آه... لشد ما يؤسفني أن فعلت. لقد قتلت ذلك العجوز المسكين، صرعته. غير أنه يشق عليَّ أن أصبح بسبب هذه الجناية مسؤولاً عن جريمة أخرى، جريمة فظيعة لم أرتكبها... ذلك اتهام رهيب يسقط عليَّ سقوط الصاعقة! ولكن من الذي قتل أبي؟ من هو القاتل؟ من عسى يكون القاتل إذا لم أكن أنا؟ هذا جنون...

بدأ قاضي التحقيق يقول:

- أتسأل من هو القاتل؟ سأقول لك ذلك!

ولكن وكيل النيابة هيبوليت كيريلوفتش سارع يسكته بنظرة منه، ثم قال مخاطباً ميتيا:

- تخطىء إذا قلقت على مصير الخادم العجوز غريغوري فاسيليفتش، فهو لم يمت، وقد أفاق من إغمائه واسترد وعيه. حتى إن الطبيب يرى أنه ليس في خطر رغم الضربة القوية التي تلقاها واعترفت أنت بأنك أصبته بها.

صاح ميتيا فجأة وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى (وقد أشرق وجهه فرحاً):

- أهو حيّ؟ اللهم إني أشكرك على هذه المعجزة العظيمة التي تهبها لي، لي أنا الخاطىء المجرم؛ اللهم إني أشكرك على أنك استجبت لصلاتي... ذلك أن صلاتي هي التي

قُبلت... لقد لبثت أدعو طوال الليل أن لا يموت. ورسم ميتيا إشارة الصليب ثلاث مرات وهو يختنق انفعالاً.

استأنف وكيل النيابة كلامه قال:

- مِن غريغوري هذا نفسه حصلنا على معلومات خطيرة جداً في شأنك...

ولكن ميتيا قاطعه وقفز عن كرسيه قائلاً:

- دقيقة واحدة أيها السادة! اسمحوا لي بدقيقة واحدة، دقيقة واحدة، أناشدكم الله... أريد أن أكلمها هي...

فصرخ نيقولا بارفينوفتش يقول له بصوت حاد، ناهضاً عن مقعده فجأة هو أيضاً:

- آسف! في هذه الدقيقة، ذلك مستحيل.

لكن الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدنية، أمسكوا ميتيا، ثم عاد يجلس دون احتجاج، وقال: هذا يؤسفني أسفاً عميقاً يا سادتي، لأنني لم أكن أريد أن أراها إلّا لحظة قصيرة. لأبلغها أن ذلك الدم قد امّحى من حياتي، ذلك الدم الذي عذبني طوال هذه الليلة، وأنني لست قاتلاً! إنها خطيبتي أيها السادة، هل تعرفون هذا؟ (هكذا صاح فجأة وهو ينقل نظره على محدثيه جازماً). أوه! شكراً لكم أيها السادة! لقد أرجعتموني إلى الحياة بهذه الكلمة وحدها: حي! كان ذلك العجوز يحملني بذراعيه أيها السادة، وكان يغسلني في جرن حين كنت في السنة الثالثة من عمري وتركني الجميع. كان لي بمثابة أب!

همَّ القاضي أن يتكلم قائلاً:

- وهكذا، فأنت...

ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على الطاولة ويغطي وجهه بيديه:

- عذراً أيها السادة، عذراً دقيقة واحدة. دعوني أتنفس لحظة، وأحاول أن أرى بوضوح. إن هذا الأمر قد هزني بقوة وقلب نفسي رأساً على عقب، هذا فظيع، فظيع ليس يُقرع إنسان كما يقرع طبل أيها السادة!

- عليك أن تشرب جرعة أخرى من الماء. دمدم نيقولا بارفينوفتش قائلاً له.

رفع ميتيا يديه عن وجهه وأخذ يضحك. كانت نظرته حادة، وبدا كأنه تغير، كما تغيرت لهجته أيضاً. وشعر أنه عاد نداً لهؤلاء الرجال الذين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم. نشير هنا إلى أن ميتيا كان قد استُقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس الشرطة، في بداية إقامته بمدينتنا، ولكنه انقطع عن التردد إلى هذا المنزل بعد ذلك، ولا سيما خلال الشهر الأخير. وأصبح رئيس الشرطة، منذ مدة، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا في الشارع، ولا يردّ على تحيته إلّا من باب الأدب، وقد لاحظ ميتيا هذا. أما وكيل النيابة فقد كانت معرفة ميتيا به أقل من ذلك أيضاً، رغم أن ميتيا قد زار زوجته، وهي امرأة عصبية ذات هواجس، عدة زيارات شكلية تماماً؛ كان يذهب إليها دون أن يعرف لماذا، وكانت تستقبله حتى في هذه الأسابيع الأخيرة بكثير من البشاشة والمودة، بل كانت تبدي شيئاً من الاهتمام به. وأما قاضي التحقيق، فلم تكن بينه وبين ميتيا علاقات اجتماعية، واقتصر كل شيء بينهما على حديث أو حديثين تبادلا خلالهما كلاماً غامضاً عن جنس النساء.

أرى أنك خبير حقيقي يا نيقولا بارفينوفتش كقاضي تحقيق. قال ميتيا وهو - يضحك بسرور. ولكن عليَّ أن أساعدك الآن. أوه! لقد تنفست أيها السادة... لا تؤاخذوني إذا أنا كلمتكم بدون كلفة. ثم إنني ثمل قليلاً، أعترف لكم بذلك صراحة. أظن يا نيقولا بارفينوفتش أنني قد سبق لي أن سُررت وتشرَّفت بلقائك، عند ميوسوف، قريبي... معذرة أيها السادة! لست أدّعي المساواة بكم الآن، فأنا أعرف موقفي أمامكم. هناك تهمة رهيبة تجثم عليَّ... طبعاً إذا كان غريغوري قد شهد عليَّ فلا بد أن تكون القرائن قوية في الظاهر. أنا موضع شبهة خطيرة! فظيع! فظيع! إنني أفهم هذا جيداً، ثقوا بذلك! ولكن فلنصل إلى الوقائع أيها السادة! إنني مستعد وسنوضح الأمور في بضع دقائق يا سادتي، أليس هذا صحيحاً؟ ما دمت بريئاً أصغوا إليَّ، أصغوا إليَّ! ما دمت أعلم أنني لم أرتكب هذه الجريمة، فسوف نبدد سوء التفاهم في طرفةعين، أليس كذلك أيها السادة؟

كان ميتيا يتكلم بسرعة متدفقاً بشكل عصبي، وبنوع من الإصرار العنيد كأنه يعتبر محدثيه خير أصدقائه...

سنسجل الآن إذن أنك تنكر بشكل قاطع التهمة الموجهة إليك. قال نيقولا - بارفينوفتش بلهجة رصينة.

ثم التفت نحو الكاتب، وأملى عليه بصوت خفيض خلاصة إنكارات ميتيا.

أتريدون أن تدونوا ذلك؟ حسناً. دونوا إذا شئتم. أنا موافق... موافق كلياً... ولكن - لحظة من فضلكم! أريد أن تكتبوا كما يلي: «مذنب باستخدام العنف، وبتوجيه ضربات مميتة إلى عجوز مسكين، أنا مذنب» ثم إنني في أعماق قلبي، في قرارة ضميري، ولكن لا داعي إلى كتابة هذا - هكذا قال ملتفتاً إلى الكاتب - تلك حياتي الخاصة التي لا شأن لكم بها أيها السادة، هذه أعماق قلبي... أما قتل أبي فأنا بريء منه! هذه تهمة حمقاء!... سأبرهن لكم على هذا، فتقتنعون اقتناعاً تاماً. سوف تضحكون أيها السادة، سوف تضحكون أنتم أنفسكم من الشكوك التي راودتكم، سوف تنفجرون ضاحكين!...

تدخل قاضي التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو مثلاً لميتيا المندفع المضطرب:

هدىء من روعك يا ديمتري فيودوروفتش! قبل أن تتابع الاستجواب، أود أن تقبل - أن تجيبني، لأسمع من فمك تأكيد واقع - أنك لم تكن تحب فيودور بافلوفتش كثيراً، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما. لقد صرحت أنت نفسك، منذ ربع ساعة، في هذا المكان نفسه، إذا لم يخطىء ظني، أنك كنت تنوي أن تقتله: «كنت أريد أن أقتله ولكنني لم أفعل.».

أأنا قلتُ هذا؟ أوه! نعم، هذا ممكن، مع الأسف! لقد أردت أن أقتله، وراودتني - الفكرة مراراً... مع الأسف، مع الأسف!

كنت تنوي إذن أن تقتله. فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الحقد الذي كنت - تحمله لأبيك؟

ماذا تريدون أن أشرح أيها السادة! قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو يرفع كتفيه - ويخفض رأسه. أنا لم أخفِ عواطفي يوماً، والمدينة كلها تعرفها، ويتحدثون عنها حتى في الكاباريه. ومنذ بضعة أيام، عبّرت عن ذلك، في غرفة الراهب المرشد زوسّيما... وفي مساء ذلك اليوم ضربت أبي حتى كدت أقتله، وأقسمت أمام شهود بأنني سأعود. أوه! في وسعكم أن تجدوا ألف شاهد عليَّ، خلال هذا الشهر... الناس جميعاً يشهدون... الوقائع متوافرة... الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها، بل هي تصرخ... أما عواطفي أيها السادة فأمر آخر! وهنا

قطب ميتيا حاجبيه، ليس من حقكم أن تسألوني عن عواطفي. أنا أعرف وأفهم أنكم تقومون بواجبكم، ولكن عواطفي هي من شأني أنا؛ هي تتصل بحياتي النفسية، الحميمة... على كل حال، ما دمت لم أكتمها حتى الآن... لم أكتمها في الكاباريه مثلاً، وكنت أكاشف بها أول قادم، فليكن ما تريدون! فلن أخفيها عنكم أنتم أيضاً. أيها السادة، إنني أعرف أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية: فلقد أعلنت لجميع الناس أنني سأقتله، وها هو ذا يُقتل. فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه؟ هاها! إنني أعذركم أيها السادة، أعذركم. أنا نفسي مذهول من هذا الحادث: من ترى يقتله إذا لم أكن أنا؟ إذا لم أقتله أنا فمن يقتله؟ من؟ من؟ ثم صاح فجأة: أريد أن أعرف منكم أيها السادة، لا بل أطالبكم بأن تقولوا لي الحقيقة: أين قُتل؟ وكيف قُتل، بأي سلاح وكيف؟ قولوا لي! ردَّد بقوة، وهو ينظر إلى وكيل النيابة وقاضي التحقيق واحداً بعد آخر.

- وجدناه نائماً على ظهره فوق أرض الغرفة، مكسور الجمجمة. أجابه وكيل النيابة.

- هذا فظيع أيها السادة!

قال نيقولا بارفينوفتش وأخفى وجهه بيديه:

- لنتابع الاستجواب. لماذا كنت تكره أباك؟ لقد صرحت على رؤوس الأشهاد، فيما أظن إنني أعلم، أن الغيرة هي التي كانت تؤلّبك عليه، فهل هذا صحيح؟

- هي الغيرة إن شئتم. ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفي منه.

- هل ثمة خلاف على مال؟

- نعم، نعم، مسائل مالية.

- كان الخلاف يدور، إذا لم يخطىء ظني، على ثلاثة آلاف روبل هي من حقك في الميراث ولم يدفعها لك.

- ثلاثة آلاف روبل؟ بل أكثر كثيراً، أكثر بكثير قال ميتيا مستاءً، ستة آلاف روبل، وربما بأكثر من عشرة آلاف. قلت هذا لجميع الناس، صرحت به في كل مكان! ولكنني كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تساهلاً، لأنني كنت في حاجة مستعجلة رهيبة إلى هذا المبلغ. فكان ذلك الظرف الذي يضم ثلاثة آلاف روبل والذي يوجد تحت وسادته - أنا أعلم ذلك - والذي أعدّه، هو لغروشنكا، كان في نظري مالاً سُرق مني. هل تفهمون أيها السادة؟ كنت أعتبر ذلك المبلغ حقاً من حقوقي، وملكاً لي.

نظر وكيل النيابة إلى قاضي التحقيق الذي قال:

- سنعود إلى هذه المسألة. واسمح لي أن ألاحظ وأسجل هذه النقطة. وهي أن ذلك المبلغ المودع في الظرف كان في رأيك ملكاً لك.

- اكتبوا أيها السادة! إنني أدرك أن هذا هو قرينة جديدة ضدي، ولكنني لا أخاف شيئاً، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى. سوف أتكلم أنا ضد نفسي، هل تسمعونني؟ أرى أيها السادة أنكم ترون فيَّ رجلاً مختلفاً عمَّا أنا في الواقع - يقف أمامكم أيها السادة إنسان صادق مستقيم لا يعرف الالتواء ولا المخاتلة، أمامكم إنسان - لا يغب هذا عن بالكم - إن يكن قد ارتكب حقارات كثيرة، فإنه ظل دائماً في قرارة نفسه، أعني في أعماق قلبه، طاهراً... الخلاصة... إنني لا أحسن الإفصاح عما بنفسي... لقد تألمت طوال حياتي بسبب اندفاعات روحي إلى ما هو خير، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الإنسانية على ضوء مصباح، مثل

مصباح ديوجين... وعلى الرغم من ذلك اقترفت دناءات في كل خطوة من خطواتي، كما نقترف جميعاً هذه الدناءات أيها السادة... أقصد...لا... لا كما نقترفها جميعاً، بل كما أقترفها أنا وحدي، لقد أسأت التعبير يا سادتي... نعم، كما أقترفها أنا وحدي... إن بي صداعاً أيها السادة - قال فجأة وقد تقبضت قسمات وجهه على ألم... نعم يا سادتي... كنت أكره مظهره؛ كان في جسمه شيء يوحي بالدنس، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم ومقدس، كان فيه سخرية وكفر! أوه! كان هذا دنيئاً، دنيئاً جداً! ولكنني أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود.

- غير هذا التفكير؟

- لا غير هذا التفكير، ولكنني آسف لأنني كرهته كثيراً.

- هل أنت نادم؟

- لا، هذا لا يعني أنني نادم، لا تكتبوا هذا! أنا نفسي مليء بالعيوب أيها السادة! أنا لست مثالاً لجمال النفس، فلم يكن من حقي إذن أن أنفر منه... هذا ما تستطيعون أن تكتبوه.

ظهرت على ميتيا، فجأة علامات الحزن. وكان وجهه يزداد اكفهراراً مع استمرار الاستجواب. وفجأة في تلك اللحظة حصل ما لم يكن متوقعاً. كانت غروشنكا قد أبعدت من الغرفة، ولكن ليس إلى مكان بعيد، أودعوها الغرفة الثالثة، وهي غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التي يجلس فيها ميتيا والقاضي إلّا القاعة التي أقيمت فيها الحفلة الراقصة. هي غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها غروشنكا برفقة ماكسيموف الذي روَّعته الأحداث فكان يتشبث بغروشنكا تشبث الغريق بلوح النجاة. وعلى باب تلك الغرفة كان يرابط فلاح على صدره صفيحة من معدن. كانت غروشنكا تبكي، وها هي تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها، فإذا هي تنهض وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، وتصرخ قائلة: «يا للشقاء! الشقاء»، ثم تندفع إلى خارج الغرفة، متجهة إليه، إلى عزيزها ميتيا؛ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المفاجأة أن أحداً لم يتسع وقته لمنعها. وقد سمع ميتيا صرختها، فارتعد، وقفز عن كرسيه، وأطلق من صدره نوعاً من العويل، واندفع نحوها طائش العقل، كأنه نسي الوضع الذي هو فيه. لم يسمح لهما أن يتعانقا، وإن تكن نظراتهما قد التقت. أمسكوا ميتيا بقوة؛ أخذ يصارع، فتعاون ثلاثة رجال للسيطرة عليه. وقبضوا عليها هي أيضاً، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد إليه ذراعيها بينما كانوا يقتادونها. حتى إذا ما انتهى المشهد استعاد ميتيا رشده فوجد نفسه في ذلك المكان نفسه، أمام الطاولة، قبالة القاضي، فتوجه إليه سائلاً:

- ماذا فعلت لكم؟ لماذا تعذبونها؟ إنها بريئة، بريئة!...

فحاول وكيل النيابة وقاضي التحقيق أن يهدئاه. وانقضت على هذه الحال عشر دقائق. وأخيراً عاد إلى الغرفة ميخائيل ماكاروفتش الذي كان قد غاب؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت قوي واضطراب شديد:

- أبعدناها من هنا. هي الآن تحت. هل تأذنون لي أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الإنسان العاثر الحظ، كلمتين لا أكثر؟ بحضوركم أيها السادة، بحضوركم!

- أرجوك يا ميخائيل ماكاروفتش. أجابه القاضي، نحن نرى الأمر طبيعياً، في هذه الحالة الخاصة.

- ديمتري فيودوروفتش، أصغ إليَّ. توجه ميخائيل ماكاروفتش مخاطباً ميتيا وهو محمرُّ الوجه من الانفعال، يعبِّر عن شفقة على المسكين تشبه شفقة الأب. لقد أنزلت بنفسي أغرافينا ألكسندروفنا إلى الطابق الأرضي، وعهدت بها إلى بنات صاحب النزل؛ كما أن العجوز الصغير ماكسيموف لا يتركها. وقد كلمتها، وطمأنتها، هل تسمعني؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك، أن تبرىء نفسك، فما ينبغي لها أن تمنعك من ذلك بتشويشك، وإلّا فقد تدلي من شدة اضطرابك بأقوال خاطئة تشهد عليك، هل تفهمني؟ الخلاصة، أقنعتها، فقالت إني على حق. إنها ذكية وطيبة جداً! كانت تريد أن تقبِّل يديَّ لأنني عجوز، وتضرعت إليَّ من أجلك؛ وطالبتني ملحةً بأن أجيء إليك لأطلب منك أن تكون مطمئن البال إليها. يجب أن تطمئن يا عزيزي، وأريد أن أعود إليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنك لا تخشى عليها من شيء. هدىء نفسك يا عزيزي، ذلك واجبك. أنا أشعر بأنني مذنب في حقها. إن لها روحاً مسيحية؛ نعم يا سادتي: هي طفلة وديعة. هل أستطيع أن أبلغها يا ديمتري فيودوروفتش أنك ستهدأ الآن؟

كان الرجل الطيب يخبط في كلامه. إن ألم غروشنكا، هذا الألم الإنساني، قد نفذ إلى قلبه مباشرة، فكانت في عينيه دموع. نهض ميتيا واندفع نحوه، وصاح:

- بإذنكم يا سادتي، اسمحوا لي. روحك يا ميخائيل ماكاروفتش هي روح ملاك. شكراً لك. نعم، نعم، أنا هادىء. قل لها هذا وسأكون مرحاً. قل لها، بما لك من طيبة، إنني مرح، مرح جداً، سوف أبدأ بالضحك لأنها في حماية ملاك حارس مثلك. سأنهي هذا الالتباس بسرعة، حتى إذا انتهيت، أسرعت إليها. فلتعتمد عليَّ ولتنتظرني واثقة. أيها السادة - قال يخاطب قاضي التحقيق ووكيل النيابة - سوف أفتح لكم نفسي كلها، سوف أسرُّ إليكم بكل شيء، فننتهي من هذا الحادث بسرعة وننتهي منه مرحين، لأننا سنضحك جميعاً في النهاية، أليس كذلك يا سادتي؟ إن هذه المرأة هي ملكة قلبي! أوه! اسمحوا لي أن أقول لكم إنني أشعر بالحاجة إلى أن أفضي إليكم بما في قلبي... لأنني أرى أن أمامي أناساً لهم نفوس نبيلة. إنها ضيائي وحياتي أيها السادة! ليتكم تعلمون! هل سمعتم كيف صرخت تقول: «سأشاركك في العقوبة القصوى!»؟ فماذا أعطيتها أنا الذي لا أملك شيئاً، حتى أستحق منها مثل هذا الحب؟ لست جديراً بهذا الحب، أنا الإنسان السيِّئ، بوجهي المنفِّر، وسلوكي الأخرق، ومظهري الثقيل. هل أنا جدير بمثل هذا الحب؟ ماذا فعلت في سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تتبعني إلى سجون الأشغال الشاقة؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة من أجلي، هي التي لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه. فكيف لا أعبدها، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة؟ سامحوني أيها السادة! ولكنني قد تعزيت الآن!

وتهالك على الكرسي، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكي منتحباً. ولكن دموعه في هذه المرة كانت دموع السعادة. كان يشعر أنه استعاد ذاته ورجع إلى نفسه. وأشرق وجه رئيس الشرطة، وظهر الرضى والارتياح على رجلي القضاء أيضاً: لقد أحسا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة. ورجع ميتيا إليهما بعد أن ودَّع رئيس الشرطة، عاد هادىء النفس وقال:

- والآن أيها السادة، أضع نفسي تحت تصرفكم. ولكن إذا تجاوزتم تلك التفاصيل، نتفاهم عندئذ بسرعة كبيرة. تقتلني التفاصيل. أنا مستعد أيها السادة، لكني أرجوكم، نحن بحاجة إلى الثقة المتبادلة لا بد منها في مثل هذه الحالة. وإلّا فلن نصل أبداً إلى النهاية. أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم. استندوا إلى الوقائع! وكفُّوا خصوصاً عن التفتيش في نفسي، ولا تعذبوني في سبيل أمور تافهة؛ اطرحوا أسئلةً تتعلق فقط بالقضية. فتشوا عن وقائع، فقط وقائع، وسأجيبكم بما يرضيكم فوراً. دعونا من التفاصيل!

وهكذا استؤنف الاستجواب.

IV

المحنة الثانية

- لا تستطيع أن تصدق إذا قلت لك إلى أي مدى تشجعنا بإرادتك الطيبة هذه يا ديمتري فيودوروفتش. قال نيقولا بارفينوفتش... بتلك الحماسة والرضى الواضحين في عينيه الرماديتين الحسيرتين المصابتين بقصر النظر. إنك محق في ما قلته عن موضوع الثقة المتبادلة التي يجب أن تعود بيننا والتي بدونها يستحيل أحياناً القيام بأي شيء في أمور بمثل هذه الخطورة، لاسيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرىء نفسه وحين يستطيع أن يبرىء نفسه. نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق بنا، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأية روح نجري هذا الاستجواب... أنت توافقني على هذا يا هيبوليت كيريلوفتش؟ قال مخاطباً وكيل النيابة فجأة.

- بدون شك. أجاب وكيل النيابة مؤيداً، ولكن بلهجة جافة، تتعارض مع ما أظهره قاضي التحقيق من اندفاع حار.

سأقولها للمرة الأخيرة إن نيقولا بارفينوفتش الذي وصل إلى مدينتنا منذ فترة قصيرة والذي هو في بداية مهنته، قد شعر تجاه وكيل النيابة عندنا هيبوليت كيريلوفتش باحترام عظيم لشخص، فانعقدت بين الرجلين صداقة قوية. وكان هو الإنسان الوحيد المؤمن حقاً بالمواهب السيكولوجية والخطابية الفذة التي يتمتع بها هيبوليت كيريلوفتش «الذي لم يقدر حق قدره». وكان يعتقد هو أيضاً، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذي سمع عنه في سان بطرسبورغ قبل أن يجيء إلى مدينتنا. وكان نيقولا بارفينوفتش، الشاب، هو الإنسان الوحيد الذي شعر نحو صاحبنا «المجهول القدر» بعاطفة صادقة. وقد اتسع وقتهما في طريقهما إلى موكرويه، لأن تتفق آراؤهما في هذه القضية، ولأن يُجمعا على الموقف الواجب اتخاذه، والطريقة الواجب تبنِّيها، بحيث إن الفكر المرهف الذي ينعم به نيقولا بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنيات التي تجول في ذهن زميله الأكبر منه سناً، ويشرحها بنصف كلمة، بإشارة خاطفة، بحركة من عضلات وجهه، بغمزة من عينيه.

- دعوني أيها السادة، أروي لكم بنفسي، دون أن تقاطعوني بتفاصيل تافهة؛ سأشرح لكم كل شيء برفة عين. قال ميتيا متحمساً:

- ممتاز. شكراً لك. لكنني قبل أن أسمع ما تريد أن تقوله لنا أحب أن أستوضح واقعة صغيرة وهامة جداً بنظرنا ألا وهي مسألة تلك الروبلات العشرة التي اقترضتها أمس مساءً، في نحو الساعة الخامسة، من صديقك بيوتر إيلتش برخوتين، وأودعته مسدسيك رهناً.

- صحيح أيها السادة، نعم... رهنتهما! أي شيء خارق في هذا؟ إنني ما إن رجعت إلى المدينة بعد تلك الرحلة، حتى رهنت المسدسين. الأمر بسيط جداً.

- بعد تلك الرحلة؟ هل غادرت المدينة؟

- نعم! سافرت إلى خارج المدينة، على مسافة أربعين فرسخاً من هنا. هل كنتم تجهلون ذلك؟ تبادل وكيل النيابة ونيقولاي بارفينوفتش النظرات.

- لعلك تحسن صنعاً إذا أنت بدأت شرحك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة توزع وقتك بالأمس منذ الصباح. إسمح لي أن أسألك مثلاً، ماذا كان الهدف من تغيُّبك، ومتى سافرت، وفي أي ساعة رجعت... إن جميع هذه الوقائع...

- كان يجب أن تسألني عن ذلك منذ البداية. قاطعه ميتيا وهو يبتسم: بل إنني أعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول، من صباح أمس الأول، وستفهمون عندئذ لماذا قمت بتلك الرحلة، وماذا كان هدفي منها، وما هي الظروف التي أحاطت بها. في صباح أمس الأول، أيها السادة، ذهبت إلى التاجر سامسونوف على نية أن أقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماماً. ذلك أنني احتجت إلى هذا المبلغ احتياجاً مستعجلاً فجأة، احتياجاً مستعجلاً جداً أيها السادة...

- اسمح لي أن أسألك لماذا احتجت فجأة إلى المال. قاطعه وكيل النيابة، ولأي غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً؟

- ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة؟ لماذا ومتى وكيف وأين؟ ما فائدة هذا كله في الواقع؟ لأن أحتاج إلى ثلاثة آلاف روبل أو إلى أي مبلغ آخر... لن ننتهي من الأمر أبداً إذا نحن تهنا في هذه التفاصيل الدقيقة! لسوف نحتاج عندئذ إلى ثلاثة مجلدات على الأقل، عدا المقدمة!...

قال ميتيا ذلك بلهجة حميمة وودية، لكن بتململ إنسان يريد أن يقول الحقيقة كاملة وتحركه أطيب النيات. واستأنف كلامه فجأة يقول:

- اعذروني أيها السادة على هذه الخشونة. اطلب إليكم أن تثقوا أنني أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم عليَّ، وأنني مدرك موقفي تماماً. وهأنذا أكرر ما سبق أن قلته: لا تظنوا أنني سكران. فقد صحوت من سكري. ولكن حتى لو كنت ثملاً، فذلك لن يغير من الأمر شيئاً، ولن يكون له أي تأثير فيما سأوضحه لكم. أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

أنا إن صحوت أصبح غبياً

وإن سكرت غدوت عبقرياً!

ها ها! لاحظوا، أنا أرى أيها السادة، أنه لا يزال من غير اللائق الآن أن أنكِّت أمامكم، طالما أننا لم نوضح بعد هذا الالتباس القائم بيننا. فاسمحوا لي إذن أن أحافظ على وقاري الشخصي. أنا أدرك الاختلاف الحالي: هنا أقف أمامكم كمجرم، إذن لست مثلكم. إن مهمتكم هي أن تراقبوني: سوف لن تقبّلوني من أجل غريغوري. فليس من الممكن أن نكسر رؤوساً بغير ذنب اقترفوه، ومع ذلك ستطالبون بأن يُحكم عليَّ بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة، معاقبةً لي على هذا الفعل الذي اقترفته، ولكن دون سقوط مدني. أنا لست معرَّضاً للحرمان من حقوقي المدنية، أليس كذلك يا وكيل النيابة؟ قلت أيها السادة إنني أدرك الفرق بين موقفي وموقفكم... ومع ذلك أرجو أن تعترفوا من جهتكم بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة من هذا النوع: كم خطوة مشيت، فبأي لحظة رفعت قدمك اليسرى، في أي لحظة أنزلت قدمك اليمنى، على أي شيء مشيت؟ إذا أخذتم تطرحون عليَّ مثل هذه الأسئلة، فسأرتبك أخيراً، وستسجلون الخطأ الذي سأقع فيه، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل إلى أي نتيجة. وما دمت قد بدأت ببعض الكذب، فلا بأس أن أستمر في الكذب، وستغفرون لي

كذبي، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية. أحب في الختام أرجو منكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب القديمة في الاستجواب، أعني البدء بإلقاء أسئلة تافهة: كيف نهضت من نومك هذا الصباح؟ ماذا أكلت؟ أين بصقت؟ ثم المبادرة، بعد «تنويم يقظة المجرم» على هذا النحو، إلى مباغتته فجأة بهذا السؤال: «أين قتلت القتيل وسلبته ماله؟». ها ها! ذلك هو روتينكم، ذلك هو علمكم كله، تلك هي الحيلة الكبرى في أسلوبكم! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من الخداع، ولكن ذلك لا ينطلي عليَّ أنا! أنا نفسي خبير في هذه الشؤون، لقد عملت أنا أيضاً في هذا المجال. ها ها! لا تغضبوا يا سادة، هل تغفرون لي هذه الوقاحة؟ صاح وهو ينظر إليهما ببراءة مستغربة - ميتكا كارامازوف هو الذي تكلم في الحال بهذه الطريقة، يمكن أن نسامحه، لأنه يمكن عدم مسامحة رجل ذكي، أما ميتكا فيمكن مسامحته! ها، ها!

كان نيقولا بارفينوفتش يضحك أيضاً وهو يصغي إلى ميتيا، ولكنه كان يراقبه بإلحاح، ولا يحول عنه نظره النافذ، ويحاول أن يسجل كل كلمة من كلماته بل أقلَّ حركة من حركاته، وحتى أخف الاختلاجات في عضلات وجهه.

- يجب أن تنصفنا على الأقل، فتعترف بأنَّا لم نستعمل معك هذا الأسلوب. قال القاضي وهو ما يزال يبتسم. إننا لم نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من نومك في الصباح وماذا أكلت، وإنما واجهنا الأمر الأساسي دفعةً واحدة، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضاً.

- إنني أفهم، وفهمت وأقدر ذلك. وأقدر كذلك ما أظهرتموه نحوي من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم. إننا جميعاً، نحن الثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشاعر. فليجر كل شيء بيننا كما يتوجب أن تجري الأمور بين أصحاب يثق بعضهم ببعض، وتربطهم روابط النبالة والشرف! اسمحوا لي على كل حال أن أعتبركم أصدقاء في هذه الدقيقة من حياتي، في هذه الساعة التي يذل فيها شرفي أكبر الاذلال! أرجو ألَّا يسوؤكم هذا يا سادتي! أليس كذلك؟

- بالعكس! لقد عبَّرت أفضل تعبير، وانتقيت أنسب الكلمات!

- أما التفاصيل، أما تلك التفاصيل السخيفة كلها، فلندعها وشأنها صاح ميتيا بحماسة، وإلّا لا نعرف إلى أين يمكن أن ينتهي هذا كله، أليس ذلك صحيحاً يا سادتي؟

- أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة، قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا: ولكنني لن أستطيع مع ذلك أن أعدل عن سؤالي، فهو على جانب فظيع من الخطورة في نظرنا أن نعلم لماذا احتجت إلى هذا المبلغ، أعني إلى الثلاثة آلاف روبل.

- لماذا احتجت إلى ذلك المبلغ؟ احتجت إليه لأسباب عدة... الخلاصة: لأدفع ديناً عليَّ.

- لمن بالتحديد؟

- هذا ما أرفض أن أقوله لكم، أيها السادة، ليس لأنني لا أستطيع أن أقوله، أو عن خوف، بل لأن الأمر في الواقع هو تفاهات لا قيمة لها. ولئن سكت عنه مع ذلك، فلأن القضية قضية مبدأ: إنه يتعلق بحياتي الخاصة، ولن أسمح لكم بالتدخل في حياتي الخاصة. هنا لا تسامح ولا تنازل! إن ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتي الخاصة! لقد أردت أن أردَّ ديناً هو دين شرف، ولكنني لن أذكر لكم اسم الشخص الذي كنت أريد أن أردَّ له هذا الدين.

- اسمح لنا بتسجيل تصريحك. قال وكيل النيابة:

- سجلوا ما شئتم! اكتبوا أنني لن أجيب عن هذا السؤال أبداً. اكتبوا أن في الإجابة عن هذا السؤال إخلالاً بشرفي! ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو!

استأنف وكيل النيابة كلامه بصوت أصبح قاسياً رصيناً:

من واجبي أن أنبهك أيها السيد، إذا كنت تجهل ذلك، أن من حقك طبعاً ألّا تجيب عن الأسئلة التي تلقى عليك، وأننا لا نستطيع أن نجبرك على الإجابة إذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفي هذه النقطة أو تلك من النقاط. ولكن من واجبنا أيضاً أن نلفت نظرك إلى الأذى الذي يمكن أن تلحقه بنفسك إذا أنت رفضت الإدلاء بالمعلومات المطلوبة.

- ولكنني يا سادتي لم أغضب... أنا... تمتم ميتيا يقول وقد اضطرب من اللهجة الرصينة التي خاطبه بها وكيل النيابة: إن سامسونوف ذاك الذي ذهبت إليه حينذاك يا سادتي...

لن نعيد سلسلة الوقائع التي يعرفها القارىء. لقد أراد الراوي أن يقدم عرضاً كاملاً ومفصلاً، وبأسرع ما يمكن. لذلك كانت تصريحاته تسجَّل شيئاً فشيئاً، مما يضطرنا إلى إيقافه عند الضرورة. كان يزعجه أن يتوقف عن الكلام لكنه كان ينصاع بطيبته وبساطته. كان يصيح قائلاً في بعض الأحيان: «أيها السادة، لو كان الله نفسه في مكاني لضاق صدره في هذه الظروف!» أو «لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابي على هذا النحو!»، ولكن دون أن يفسد من ذلك مزاجه الذي كان عندئذ منطلقاً. روى كيف أن سامسونوف قد «خدعه» قبل يومين (بدأ يدرك الآن أن سامسونوف ضلَّله وخدعه). وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر، وتلك حادثة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضي التحقيق، وقد لفتت انتباههما وظهر عليهما أنهما اهتما بها جيداً. فكان من شأن إلحاحهما على هذه النقطة أن أخرجا ميتيا عن طوره، لأنهما رأيا أن من الضروري تسجيل هذه الواقعة، دليلاً جديداً على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك كوبيكاً واحداً. ومنذ تلك اللحظة أخذ وجه ميتيا يتجهَّم شيئاً بعد شيء. وبعد أن روى قصة سفره سعياً إلى لياغافي، وقضائه ليلةً في الكوخ الذي يملأه الدخان، وصف عودته إلى المدينة، وأخذ يصوِّر، من تلقاء نفسه في هذه المرة، دون أن يُطلب منه ذلك، جميع تباريح غيرته على غروشنكا. فكان القاضيان يصغيان إليه بانتباه صامتين. وقد سجلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ زمَن طويل، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيودور بافلوفتش في حديقة ماريا كوندارتيفنا، وأنه كان يترصد غروشنكا من هناك، وأن سمردياكوف كان ينقل إليه أخباراً ويطلعه على ما يجري في منزل أبيه. هذه الظروف كلها قد سُجِّلت بكثير من العناية. وتكلم ميتيا عن غيرته بإسهاب وانفعال. فإنه رغم الحرج النفسي الذي شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه بصورة تسيء إلى شرفه أمام الناس، قد حاول أن يتغلب على هذه المقاومات وأن يذلل هذه الصعوبات حرصاً منه على أن يقول الحقيقة صادقاً. غير أن النظرات القاسية الباردة التي كان يصبها عليه كل من قاضي التحقيق ووكيل النيابة محدِّقين إليه أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه في آخر الأمر. قال في سرِّه حزيناً: «إن هذا الصبي الغر نيقولا بارفينوفتش الذي بادلته منذ مدة أحاديث تافهة عن النساء، وإن وكيل النيابة هذا المريض النفس. لا يستحقان أن يسمعا ما أفضي إليهما به من اعترافات نفسي. يا للعار!». ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذي يقول: «قلبي اعتصمْ بالصبر والإذعان». وتابع يروي قصته. فلما وصل إلى الكلام على زيارته للسيدة خوخلاكوفا انبسطت أساريره من جديد، وأوشك أن يروي نكتة عن هذه السيدة كانت تتناقل في صالونات المدينة، ولكنها لا تناسب الظروف كثيراً. لذلك استوقفه القاضي عن الكلام بلطف، راجياً منه أن ينتقل إلى وقائع أهم. وحين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الذي اجتاح نفسه في الشارع، لم يسقط من حديثه

تلك الواقعة، وهي أنه قد خطر بباله وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب «أنه لم يبقَ له إلّا أن يذبح أحداً ويسلبه ماله بأقصى سرعة للحصول على ذلك المبلغ». عندئذ طلب منه القاضيان أن يكرر أنه «قد خطر بباله أن يذبح أحداً»، وأسرعا يسجلان ذلك. وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج. ولما وصل أخيراً إلى اللحظة التي علم فيها فجأة أن غروشنكا قد خدعته وأنها تركت منزل سامسونوف فوراً بعد أن نقلها إليه، خاصة وأنها قالت أنها ستبقى عند العجوز حتى منتصف الليل، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً: «إنني لم أقتل فينيا في تلك اللحظة، لأنه قد أعوزني الوقت». سُجِّلت هذه الأقوال كذلك بعناية. فكان ميتيا ينتظر، عابسَ الوجه، وأراد أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع إلى حديقة أبيه، عندما قاطعه فجأة قاضي التحقيق، وفتح محفظة أوراقه الموضوعة على الكنبة قربه، وأخرج منها مدق الهاون النحاسي.

- هل تعرف هذه الأداة؟ سأله القاضي.

فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة شاحبة:

- نعم! طبعاً أعرفها! أرنيها... بل لا داعي لأن أراها!

- نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا. قال القاضي.

- إلى الجحيم! كان ينبغي أن أذكر هذه الواقعة، فلولا هذا المدق لما وقع شيء، ولكن الأمر كان قد خرج من رأسي.

- هلّا ذكرت لنا الظروف التي تسلحت فيها بهذا المدق!

- بكل سرور يا سادتي.

وروى ميتيا كيف أخذ مدقّ الهاون وتابع طريقه.

- ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح؟

- هدفي؟ لم يكن لي هدف، وإنما أخذته وتابعت الركض.

- لماذا إذن، إذا لم يكن لك هدف؟

غضب ميتيا وراح يتفرس في «الفتى» مبتسماً ابتسامة عداء وغضب. ذلك أنه كان يشعر بالعار، شيئاً بعد شيء، من أنه ارتضى أن يصف «لأناس مثلهم»، بمثل هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفي، مشاعرَ الغيرة التي كانت تعذبه.

- ما لنا ولهذا المدق اللعين؟

- ولكن...

- حسناً من أجل الكلاب في الظلام... احتياطاً للمفاجأة.

- هل اعتدت، من قبل، حين تخرج ليلاً، أن تتسلح خوفاً من العتمة؟

- آه! حقاً يستحيل الحديث معكم أيها السادة! صاح ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق. ثم التفت نحو الكاتب، فقال له بصوت حاد، وقد احمر وجهه غضباً: اكتب... اكتب فوراً «إنني أخذت المدقّ على نية الذهاب فوراً إلى أبي... فيودور بافلوفتش... لتحطيم

جمجمته».

ثم قال مخاطباً قاضي التحقيق ووكيل النيابة، وهو يرشقهما بنظرة متحدية: هل أنتما راضيان الآن أيها السيدان؟ هل ارتاحت نفساكما؟

- نرى أنك قد أعطيت هذا التصريح بسبب غضبك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التي تظن أنها تافهة. أجابه وكيل النيابة بلهجة جافة. ولكننا مضطرون إلى طرح هذه الأسئلة عليك لأنها في الواقع هامة جداً.

- أيها السادة! أخذت هذا المدقّ...! يشعر المرء أحياناً بالحاجة إلى أن يكون في يده شيء. الحق أنني أجهل لماذا أخذته. لقد أخذته راكضاً، هذا كل شيء. ألا تخجلون أيها السادة؟ دعونا من هذا، وإلّا فأقسم أنني لن أقول شيئاً بعد الآن!

وضع كوعيه على الطاولة، وجعل رأسه بين يديه. كان جالساً إلى جانب الرجلين، ينظر إلى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه. وكان يغريه فعلاً أن ينهض ويصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة «ولو سيق إلى الموت».

- أتعرفون أيها السادة؟ قال متمالكاً نفسه كي لا ينفجر: إنني، وأنا أصغي إليكم، أشعر بإحساس غريب... هناك حلم يعاودني في كثير من الأحيان أثناء النوم... أحلم أن أحداً يطاردني في الليل، في الظلام، أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً. إنه يبحث عني، وأحاول أن أختبىء منه، أن أغيب عن نظره. فأختبىء جباناً وراء باب أو وراء خزانة، فأختبىء هناك جامداً لا أتحرك. ويعرف الرجل الآخر أين أنا، يعرف مخبأي، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطيل عذابي وليتمتع بخوفي... ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم في هذه اللحظة أيها السادة! ذلك هو بعينه تماماً!

- أتراودك إذن أحلام فيها خوف وقلق؟

- نعم تراودني أحلام... ألا تريدون أن تسجلوا هذا أيضاً؟

- لا، لن نسجله. ولكنه إشارة هامة في الواقع. الحق أنك ترى أحلاماً غريبة.

- غير أن ما أراه الآن ليس حلماً! إنه واقع أيها السادة، هو واقع الحياة الرهيب! أنا ذئب وأنتم الصيادون. فهلموا وراء الذئب!

- تخطىء في هذا التشبيه؟ قاطعه قاضي التحقيق قائلاً له برقة ولطف.

- لا، لست مخطئاً أيها السادة! تابع ميتيا غاضباً ولكن مرتاحاً ثم عاد تدريجاً إلى هدوئه ولطفه.

يمكنكم ألا تصدقوا مجرماً أو متهماً تعذبونه بأسئلتكم، أما إنسان نبيل أيها السادة، إنسان مستسلم لأصدق اندفاعات روحه (ولا أخشى من قول ذلك)، لا يمكنكم ألا تصدقوا كلامه. حتى لا يحق لكم ذلك... ولكن.

عليك بالصمت قلبي ...

تحمَّل، اصبر ولا تقل شيئاً!

- هل أتابع قصتي؟ سألهم وقد تجهَّم وجهه.

- طبعاً! أرجو أن تفعل. أجابه نيقولا بارفينوفتش.

V

المحنة الثالثة

عبثاً حاول ميتيا أن يسرد قصته بصوت قاسٍ، دون أن يُسقط أي واقعة من الوقائع التفصيلية. وصف حادثة قفزه فوق سور حديقة أبيه، واقترابه من النافذة، وما حصل معه هناك وبشكل واضح ودقيق، مشدداً على كل كلمة، تحدث عن المشاعر التي هزته خلال تلك اللحظات في الحديقة، عندما اجتاحته رغبةٌ رهيبة في معرفة إذا ما كانت غروشنكا موجودة أم لا، عند أبيه. ولكن الغريب هو أن وكيل النيابة وقاضي التحقيق كانا يصغيان إليه هذه المرة بنوع من الانتباه الرهيب، بحيث ينظران إليه بقسوة ولا يطرحان عليه إلا القليل من الأسئلة. كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه. قال في نفسه: «لا شك أنهما غاضبان مستاءان؛ فليكن ما يكون!». حتى إذا وصل من حديثه إلى «الإشارة» التي قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن غروشنكا وصلت فيفتح النافذة، لاحظ أن قاضي التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أي انتباه، فكأنهما لا يدركان خطورته ولا يفهمان ما هي تلك «الإشارة» التي يتحدث عنها، فاستغرب ميتيا ذلك. فلما وصل أخيراً إلى اللحظة التي رأى فيها أباه يميل من على النافذة، فشعر بتأجج غضبه وأخرج مدق الهاون من جيبه. توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعمد ذلك، وراح ينظر إلى الجدار، ولكنه أحس أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد.

- حسناً، قال وكيل النيابة: أخرجت السلاح من جيبك... ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك؟ قتلته... ضربته على قِمّة رأسه وكسرت جمجمته... أليس هذا ما حدث، أليس كذلك؟ صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شرراً. لقد تأجج الغضب في نفسه من جديد، بعنف متزايد.

- ذلك في زعمنا نحن. كرر نيقولا بارفينوفتش: حسناً. فماذا في زعمك أنت؟

خفض ميتيا عينيه. وبقي صامتاً لفترة طويلة.

- حسب رأيي أنا، إليكم ما حدث أيها السادة، تابع ميتيا كلامه بصوت هادىء: لست أدري. ابتهلت أمي إلى الله في تلك اللحظة، هل انسكبت دموع طاهرة لإبعاد الشر، أم أمسكني من يدي ملاك لا يُرى؟ المهم أن الشيطان قد هُزم. ابتعدت عن النافذة، وركضت متجهاً نحو السور... ذعر أبي، وعرفني فجأة، وأطلق صرخته، وغاب عن النافذة - أتذكر هذا بوضوح. اجتزت الحديقة، وأسرعت إلى السور، وفي تلك اللحظة ظهر غريغوري الذي أدركني حين كنت قد جلست على السور...

هنا، قرر أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدثيه. فلاح له أنهما كانا ينظران إليه بغير اكتراث. فألمّت به رعشة من غضب.

- ألاحظ يا سادتي أنكم تسخرون مني! قال لهما:

- ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك؟ سأله نيقولا بارفينوفتش.

- إنكم لا تصدِّقون كلمة واحدة مما أقول، أنا أدرك هذا. فهمت: لقد وصلت إلى النقطة الرئيسية. العجوز، إنه هناك الآن، رأسه محطم، وأنا، بعد أن وصفت لكم وصفاً فاجعاً كيف أردت أن أقتله، وكيف أخرجت مدقَّ الهاون من جيبي لهذا الغرض، أصرِّح لكم فجأة بأنني لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة!... هذه قصيدة حقاً، أليس كذلك؟ كان ينبغي أن يقال هذا الكلام كله شعراً! كيف يمكن أن يُصدَّق رجل مثلي؟ إنكم تعرفون كيف تسخرون دون أن يظهر عليكم ذلك.

واستدار ثقيلاً على كرسيه فقرقع الكرسي تحت ثقل جسمه.

قال وكيل النيابة عندئذ دون أن يبدو عليه الاكتراث باضطراب ميتيا:

- هل لاحظت عندما ابتعدت عن النافذة أكان الباب المؤدي إلى الحديقة في الطرف الآخر من المبنى مفتوحاً أم مغلقاً؟

- لم يكن مفتوحاً.

- ألم يكن مفتوحاً؟

- كان ذلك الباب مغلقاً. لم يكن أحد يستطيع فتحه. هذا الباب... لحظة! (صاح ميتيا مرتعشاً، كأن فكرةً قد لمعت في ذهنه فجأة). لأنكم وجدتم ذلك الباب مفتوحاً؟

- مفتوحاً.

- فمن يستطيع فتحه إن لم تفتحوه أنتم أيها السادة؟ قال ميتيا مندهشاً.

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء، مقطّعاً كلماته:

- كان الباب مفتوحاً، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك؛ وبعد أن نفذ جريمته خرج من ذلك الباب نفسه. تلك نقطة نعتبرها مفروغاً منها. فمما لا شك فيه أن القاتل قد ارتكب جريمته في الغرفة لا من خلال النافذة. إن هذه النتيجة يدل عليها جميع ما شاهدناه، يدل عليها وضع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى. لم يبقَ أي شك من هذه الناحية.

عبَّر وجه ميتيا عن دهشة عميقة.

- ولكن هذا مستحيل أيها السادة. صاح وقد ارتبك عقله. أنا... أنا لم أدخل... أؤكد لكم جازماً أن الباب بقي مغلقاً أثناء وجودي في الحديقة، وأنه كان مغلقاً أيضاً حين هربت. إنني لم أتحرك من مخبأي؛ ومن النافذة وحدها رأيت... من النافذة وحدها... إنني أتذكر جميع التفاصيل. وإن لا أتذكرها، فإنني متأكد من أن الباب كان مغلقاً، لأن أحداً لم يكن يعرف «الاشارات» إلّا أنا وسمردياكوف، والمتوفّى طبعاً؛ وبدون الإشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب.

- الإشارات؟ أي إشارات؟ سأله وكيل النيابة بفضول شره أفقده وضع الرصانة والوقار في لحظة. كان في نبرة سؤاله شيء من مذلة، ذلك أنه قد أحس أن هناك واقعة هامة كان ما يزال يجهلها، وهو يخشى أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها.

- لأنك أنت لا تعلم؟ أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ماكرة؟ فما رأيك

إذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن أمر تلك الإشارات؟ من يمكنه أن يطلعك على ذلك في هذه الحالة؟ لأن هذه الاشارات لا يعرفها أحد إلّا أنا وسمردياكوف والمتوفَّى. إن أحداً لم يُطْلَع على السر، فليس يعرفه، عدانا، إلّا الله. ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر؛ وهو أمر هام إلى أبعد الحدود، لا يعرف إلّا الشيطان جميع النتائج التي يسمح بالوصول إليها. ها ها ها، مخاوفكم حمقاء! إنكم لا تعرفون الإنسان الذي تخاطبونه. إن أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التي تشهد عليه! نعم يا سادتي! ذلك أنني أنا فارس شرف، ولكنني لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أنتم. - لا!

تجاوز وكيل النيابة هذه الأقوال الجارحة، لأنه كان يحترق رغبةً في معرفة الواقعة الجديدة. عرض ميتيا بدقة وتفصيل كل ما يتعلق بالإشارات التي اخترعها خيال فيودور بافلوفتش لاستعمال سمردياكوف، وأوضح معنى كل طريقته من تلك الطرق المختلفة في قرع النافذة، ومثّلها هو نفسه بالضرب على الطاولة. فسأله نيقولا بارفينوفتش عندئذ هل قرع النافذة بالإشارة المتفق عليها لينبىء فيودور بافلوفتش بأن «غروشنكا وصلت»، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات المتفق عليها لإعلان وصول السيدة الشابة. وختم ميتيا كلامه قائلاً:

- الآن وقد اطلعتم على الأمر. هلموا اجمعوا القرائن، وتابعوا استدلالاتكم واستخرجوا نتائجكم. ثم حوَّل وجهه عن الرجلين باحتقار.

سأله نيقولا بارفينوفتش مرة أخرى:

- أنت تؤكد إذن أنه لم يكن أحد غيركم، أنت وأبوك والخادم سمردياكوف، يعرف هذه الاشارات، أليس كذلك؟ ألم يطلع عليها أحد غيركم؟

- كلّا، أنا وسمردياكوف والسماء. أرجو أن تسجلوا السماء أيضاً. قد يكون العون الإلهي ضرورياً لكم أنتم أيضاً في هذه القضية.

راحوا يسجلون بسرعة جميع هذه التفاصيل. ولكن بينما كان الكاتب يكتب، قال وكيل النيابة كأن افتراضاً جديداً قد ومض في ذهنه فجأة:

- ولكن إذا كان سمردياكوف يعرف هذه الإشارات هو أيضاً، وإذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك، أفلا يمكن أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الإشارة المتفق عليها، فاستدرج أباك إلى فتح الباب، ثم ارتكب الجريمة؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وحقد رهيب في آن؛ وظل يحدِّق إليه مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة، حتى أن عيني وكيل النيابة أخذتا تطرفان.

- هل تريد أن تقبض على الثعلب؟ تمتم أخيراً ميتيا بهذا السؤال المغري؟ ولكن الثعلب قد هرب... ها ها! لقد أدركت لعبتك يا وكيل النيابة! خيِّل إليك أنني سأهجم على هذا الطُّعم، الذي تمده إليَّ، وأنني سأتبنى هذا التعليل الجميل الذي توحي به، أليس كذلك؟ لا شك أنك كنت تتوقع أن أصيح ملء حنجرتي قائلاً: «نعم إنه سمردياكوف؛ إنه هو القاتل؟» اعترف «بأن هذه هي فكرتك الخفية، اعترف بذلك، فأتابع قصتي».

ولكن وكيل النيابة لم يعترف، بل بقي منتظراً صامتاً. قال ميتيا:

- خطأ! لن أتهم سمردياكوف.

- ولا يساورك أي شك فيه؟

- وأنت هل يساورك هذا الشك؟ هل تشتبه فيه؟

- لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضاً.

ركز ميتيا نظره إلى الأرض. ثم قال:

- كفى مزاحاً. وإليكم ما أريد أن أقوله لكم. إنني منذ البداية، وفي اللحظة التي أزحت فيها الستائر متقدماً نحوكم، في تلك اللحظة تقريباً، ومضت في ذهني هذه الفكرة «أيكون هو سمردياكوف!». ثم، حين جلست أمامكم، وبينما كنت أصيح قائلاً إنني لم أسفح دم أبي، كنت أقدِّر في قرارة نفسي أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل، ولم يبارح هذا الافتراض ذهني بعد ذلك. وفي هذه الدقيقة نفسها، بينما كنتَ تلقي عليَّ هذا السؤال، قلت لنفسي مرة أخرى: «إنه سمردياكوف!»، ولكنني سرعان ما انتهيت إلى هذه النتيجة قائلاً في سري: «لا، ليس هو سمردياكوف!». ليست هذه الجريمة من صنعه، أيها السادة!

- هل تشتبه إذن في شخص آخر؟ سأل نيقولا بارفينوفتش محاذراً.

- لست أدري من عسى أن يكون القاتل. فقال ميتيا جازماً: اللهم إلّا أن يكون الله أو أن يكون الشيطان هو الذي تدخّل في الأمر... ولكن ليس سمردياكوف.

- ما الذي يدفعك إلى أن تؤكد جازماً وملحاً هذا الإلحاح، أن القاتل ليس هو؟

- لدي إحساس داخلي وقناعة بذلك، لأنه إنسان ذو طبيعة حقيرة جداً، ولأنه جبان. ليس سمردياكوف رجلاً جباناً بل هو جميع أنواع الجبن في هذا العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى؛ إن هذا الإنسان هو الخوف نفسه قد تجسَّد أيها السادة. لقد ولد هذا الرجل في خُمّ! كان، كلما كلمته، يرتجف خوفاً من أن أقتله، مع أنني لم أكن أرفع يدي عليه. كان يرتمي على قدميَّ باكياً ويقبل حذاءيَّ ضارعاً إليَّ أن لا «أخيفه». هل تسمعون؟ «أن لا أخيفه!» ماذا تعني هذه الكلمة؟ ومع ذلك كنت لطيفاً معه دائماً، وكنت أقدم إليه الهدايا. هذا فرخ ممروض مصاب بالصرع متخلّف العقل يستطيع أن يضربه طفل في الثامنة من عمره. أهذا رجل؟ لا يا سادتي، ليس لسمردياكوف ضلع في هذا الأمر. ثم إنه لا يحب المال، ولقد كان يرفض المكافآت التي كنت أريد أن أهبها له. وما عسى أن يكون الباعث له على قتل العجوز؟ ربما كان سمردياكوف ابن العجوز، ابنه غير الشرعي، هل تعرفون هذا؟

- نعرف هذه الشائعة. ولكنك أنت أيضاً ابن فيودور بافلوفتش، ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن في كل مكان أنك تريد قتله.

- حجر في حديقتي! وحجر ذليل وتافه! هيَّا أيها السادة، ولكن ألَا ترون أنه من المعيب أن تقولوا هذا في وجهي معيب لأنني أسررت به إليكم أنا نفسي؟ أنا لم أشأ أن أقتله فحسب، بل كان في وسعي أن أفعل، وقد اتهمت نفسي أمامكم بأنني أوشكت أن أصرعه ذات يوم. لكنني لم أقتله، فإن ملاكي الحارس قد حماني من ارتكاب هذه الجريمة. ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزناً لهذا الكلام. ذلك هو الشر في موقفكم، ذلك هو في موقفكم ما يستحق الاحتقار! إنني لم أقتله، إنني لم أقتله! لا، لم أقتله. هل تسمع يا وكيل النيابة. أنا لم أقتله!

كان على وشك الاختناق. إنه لم يضطرب هذا الاضطراب الشديد كله في أي لحظة أثناء الاستجواب. وسأل بعد صمت:

- فما الذي قاله لكم صاحبنا سمردياكوف؟ هل يجوز لي أن أسألكم عن هذا؟

- تستطيع أن تطرح علينا ما تشاء من أسئلة. أجابه وكيل النيابة بلهجة قاسية وجافة: إنني أسمع كل الأسئلة التي تتصل بالظروف المادية للقضية. أعود فأقول لك إن من واجبنا أن نطلعك على جميع النقاط التي قد تثيرها. لقد وجدنا هذا الخادم سمردياكوف الذي سألت عنه الآن نائماً على سريره مغشياً عليه يعاني نوبة صرع شديدة، هي النوبة العاشرة فيما أظن، لأن النوبات تتلاحق بدون انقطاع، حتى لقد صرَّح الطبيب الذي رافقنا، بعد أن عاينه، أن أغلب الظن أنه لن يعيش حتى الصباح.

- في هذه الحالة، فالشيطان هو الذي قتل أبي إذن! قال ميتيا، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة: «أهو سمردياكوف أم لا؟».

- سنعود إلى هذه المسألة فيما بعد. قال نيقولا بارفينوفتش حاسماً المناقشة: هل يمكنني رجاءً استئناف سرد الوقائع؟

وافق وكيل النيابة على طلب ميتيا بأن يستريح بضع لحظات. وبعد انقطاع قصير تابع ميتيا كلامه وقد بدا عليه التعب، فقد أرهقه الاستجواب، وأصبح مستاء. ثم إن وكيل النيابة كان يبدو أنه يتعمد الآن أن يثير أعصابه بتحطيمه في كل لحظة بأسئلة تتناول أموراً تافهة لا قيمة لها. من ذلك مثلاً أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جلس على السور وكيف ضرب بمدقّ الهاون الخادم غريغوري الذي تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يقفز إلى الحديقة بعد ذلك ويميل على الضحية، حتى استوقفه وكيل النيابة يرجوه أن يوضح طريقة جلوسه على السور. فدهش ميتيا من هذا الإلحاح، فأجابه:

- جلست... هكذا، راكباً، كركوبي على حصان، في كل جهة ساق...

- ومدق الهاون؟

- مدق الهاون؟ كان بيدي.

- ليس في جيبك؟ هل تتذكر هذا تذكراً تاماً؟ هل اندفعت بقوة لتضربه؟

- لا بد من ذلك، ما دمت قد ضربت ضربة قوية. لماذا هذا السؤال؟

- ليتك تجلس على هذا الكرسي بالطريقة التي جلست بها على السور، وتمثل الحركة التي قمت بها، والاندفاعة التي اندفعتها بذراعك، والجهة التي سدّدت إليها الضربة، زيادةً في الايضاح؟

- أتُراك تسخر مني؟ سأل ميتيا محدِّثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة.

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه. فاستدار ميتيا فوق كرسيه بحركة عصبية، وجلس عليه راكباً ركوبه على حصان، ورفع ذراعه، وقال:

- انظروا كيف ضربته! انظروا كيف قتلته! هل أنتم راضون الآن؟ ماذا تريدون أيضاً؟

- شكراً، هلّا شرحت لنا الآن لماذا قفزت بعد ذلك إلى الحديقة، وماذا كان هدفك من هذا؟ ما هو الدافع الذي خضعت له حين قفزت على ضحيتك؟

- عجيب... هل أعرف لماذا؟ قفزت عليه، لست أعرف السبب الذي دفعني إلى ذلك.

- لقد قفلتَ راجعاً إلى الحديقة مع أنك كنت تعاني انفعالاً شديداً وكنت تريد

الهروب. فهلّا شرحت لنا هذا؟

- نعم، كنت منفعلاً وكنت أريد أن أهرب.

- فهل كان في نيتك أن تسعفه؟

- لا... على كل حال، لست أدري. لعلني أشفقت عليه، لا أتذكر الآن.

- لا تعرف؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل؟

- بلى، كنت في كامل وعيي، ولا أزال أتذكر أصغر التفاصيل. دعونا من ذلك الكلام! لقد أردت أن أرى الحالة التي كان عليها، وأن أمسح جرحه بمنديلي.

- عثرنا على المنديل. هل كنت تأمل إنقاذ حياة الضحية التي صرعتها؟

- لست أدري. لقد أردت، بكل بساطة، أن أعرف أهو ما يزال حياً أم لا؟

- إذن؟ أردت أن تعرف أهو ما يزال حياً أم لا؟ فماذا وجدت عندئذ؟

- لم أستطع التأكد، لأنني لست طبيباً. ثم هربت معتقداً أنني قتلته. وها هو صحا من إغمائه.

- عظيم. قال وكيل النيابة أخيراً شكراً. ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه. هلّا تفضلت فتابعت؟

- مع الأسف غاب عن بال ميتيا - رغم أنه كان يتذكر ذلك جيداً - أن يذكر أنه قفز إلى الحديقة بدافع الشفقة، وأنه حين مال على العجوز غريغوري قد نطق بكل ما يُعبِّر عن الشفقة على ذلك العجوز الذي آلمه أن يراه قتيلاً في هذا المكان. إن كل ما حفظه وكيل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه قفز عن السور «في لحظة كتلك اللحظة، رغم الاضطراب الشديد الذي كان يعانيه»، دون أن يكون له هدف إلّا أن يعرف هل الشاهد «الوحيد» على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات. وحدَّث وكيل النيابة نفسه قائلاً: «إن هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل»، ثم أضاف: «وأخيراً! لقد استطعت أن أنهك قواه بهذه التفاهات، فإذا هو يفضح نفسه».

وتابع ميتيا سرد قصته في عناء. ولكن نيقولا بارفينوفتش استوقفه عن الكلام فوراً. وسأله:

- كيف ذهبت إلى الخادمة فيدوسا ماركوفنا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك، كما ثبت ذلك فيما بعد؟

- لم ألاحظ أبداً عندئذ أنني كنت ملطخاً بالدم. أجاب ميتيا.

قال وكيل النيابة وهو ينظر إلى قاضي التحقيق.

- إنه يقول الحقيقة الآن، فذلك ما يحدث في مثل هذه الحالة.

- لم ألاحظ ذلك عندئذ، نحن الآن متفقان تماماً يا سيادة وكيل النيابة! قال ميتيا مؤيداً كلامه بحرارة.

ثم برزت فجأة قصة القرار الصعب بأن «يتنحى»، «يخلي الدرب للحبيبين

السعيدين». ولكنه أحس أنه لا يملك الآن، كما في بداية الاستجواب، القدرة على أن يفتح قلبه، وأن يتحدث عن «ملكة قلبه» حديثاً طلقاً حراً. إن شعوراً بالاشمئزاز أمام هذين الإنسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما، بل يغرسانها في لحمه غرساً كحشرات تمص دمه، أقول إن شعوراً بالاشمئزاز كان يصده عن الانطلاق في الكلام. فاقتصر على بضعة أجوبة مقتضبة وعنيفة، عن أسئلة مكررة ألقيت عليه حول هذه النقطة.

- حسناً، قررت أن أنتحر. فلماذا عليّ أن أبقى على قيد الحياة؟ إن هذا الحل يفرض نفسه بنفسه. إن صديقها القديم الشرعي الذي هجرها في الماضي قد عاد إليها بعد خمس سنين ممتلىء القلب حباً، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسده، ويزيل عنها الأذى الذي ألحقه بها. أدركت عندئذ أن كل شيء قد ضاع... وعدا هذا كان ذلك العار يلاحقني، وكان ورائي دم غريغوري هذا... ففيمَ الحياة بعد ذلك كله؟ هكذا ذهبت إلى ذلك الموظف لأسترد منه المسدسين، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق في رأسي رصاصة عند الفجر...

- وبانتظار ذلك، قررتَ أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال الليل؟

- نعم، قررت ذلك! دعونا ننهي هذه المسألة! لقد قررت أن أنتحر هناك، في أقصى هذه القرية، وكان ينبغي أن أنفذ عزمي هذا في الساعة الخامسة من الصباح وراء السياج. وقد هيأت كلمة أشرح فيها السبب، كلمة كنتم ستجدونها في جيبي. لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسي. إليكم الورقة التي كتبت عليها تلك الكلمة، اقرأوها إن شئتم. وأضاف يقول باحتقار: ولست أروي هذا كله من أجلكم أنتم. ثم سحب من جيبه ورقة ورماها على الطاولة. قرأ وكيل النيابة وقاضي التحقيق الورقة باستطلاع شديد، وضمَّاها إلى الملف.

- ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب إلى السيد برخوتين؟ ألم تكن تخشى من الشكوك؟

- وماذا يهمني من كل هذا؟ كنت سأجيء إلى هذا المكان لأطلق على رأسي رصاصة في الساعة الخامسة من الصباح ولن يستطيع أحد أن يشك. وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذ لتدخلكم. فلولا المصيبة التي حلت بأبي، لما عرفتم شيئاً ولما وُجدتم الآن هنا. ذلك من صنع الشيطان، هل تعلمون؟ إن الشيطان هو الذي قتل أبي وتولى مهمة إبلاغكم بهذه السرعة! ماذا فعلتم حتى تمكنتم من الوصول إلى هنا بعد وقوع الجريمة بهذه السرعة؟ إنها معجزة! ذلك أمر لا يصدَّق!

- ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيدك... بيديك الداميتين... أوراقاً مالية... مبلغاً ضخماً... حزمة من الأوراق المالية من فئة المئة روبل؛ ويظهر أن خادمه الصغير قد رأى هذه الأوراق المالية أيضاً.

- نعم أيها السادة؛ إنني أتذكر هذا. صحيح.

- هنا يبرز سؤال صغير. ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك هذا المال، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى للمرور بمنزلك؟ بدأ نيقولا بارفينوفتش كلامه بصوت رقيق جداً.

انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقى دفعةً واحدة بهذه الطريقة المفاجئة، ولكنه لم يقاطع قاضي التحقيق.

- لم أمرَّ بمنزلي فعلاً! أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر، ولكن مطرقاً إلى الأرض.

- فاسمح لي إذن أن أكرر سؤالي تابع نيقولا بارفينوفتش يقول برفق وجل غامز: من أين جئت بهذا المبلغ ما دام ينتج من تصريحاتك نفسها أنك في الساعة الخامسة بعد الظهر كنت...

- كنت في حاجة ملحّة إلى عشرة روبلات، فرهنت مسدسيَّ عند برخوتين، ثم ذهبت إلى السيدة خوخلاكوفا لأقترض منها ثلاثة آلاف روبل، فرفضت أن تقرضني، الخ، قاطعه ميتيا. أعرف القصة. كنت لا أملك كوبيكاً واحداً، أليس كذلك أيها السادة، ثم إذا بي أملك ألوف الروبلات فجأة. أعتقد أيها السادة أنكم ترتجفون خوفاً من أن أرفض أن أذكر لكم مصدر هذا المال، أليس كذلك؟ حسناً. أنا أرفض، نعم أرفض أن أشير لكم إلى مصدر المال. لقد حزرتم. لن أتكلم، ولن تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة. هكذا حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة.

وساد صمت.

واستأنف نيقولا بارفينوفتش حديثه بلهجة فيها رفق وحسم:

- اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال.

- أعرف ذلك، ولكنني مع هذا لن أقول لكم شيئاً.

وتدخل وكيل النيابة بدوره، فذكَّر ميتيا مرةً أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه إذا هو اعتبر أن الصمت أجدى له، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثل هذه الأهمية...

- وهلمَّ جراً أيها السادة، وهلمَّ جراً! كفى! لقد سبق أن سمعت هذه الأقوال المكررة! قاطعه ميتيا بفظاظة: ثم إنني أعرف أنا نفسي خطورة هذا السؤال الذي تطرحونه عليَّ، وأعرف أنه النقطة الرئيسية في القضية، ولكنني مع ذلك لن أتكلم.

- نحن لا مصلحة لنا على كل حال، القضية قضيتك! لك أن تفاقم حالتك ما دمت حريصاً على ذلك! قال نيقولا بارفينوفتش بعصبية:

- لندع المزح جانباً أيها السادة. سأكون صريحاً. رفع ميتيا عينيه، ونظر إليهما بصلابة قائلاً: لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة. ولكن حين بدأت قصتي هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لي في مكان بعيد غائم، كأنه غارق في الضباب، حتى لقد بلغت من السذاجة في تلك اللحظة أنني اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على أرض الثقة المتبادلة. وإني أدرك الآن أن هذه الثقة كانت مستحيلة، لأننا كنا سنصطدم بهذا الجدار عاجلاً أم آجلاً! وها نحن نصطدم به. فمن المستحيل أن نستمر. هذا كل شيء. ولست ألومكم على كل حال، فأنا أعرف أن ليس في وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف.

- ألا يمكنك، دون أن تخرق قرارك بالسكوت عن النقطة الأساسية، ألا تستطيع أن تذكر لنا ولو بإشارة صغيرة البواعث القوية التي أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا في ساعة خطيرة وخطرة إلى هذا الحد بالنسبة إليك؟

- أنا أكثر لطفاً مما تتصورون أيها السادة. سأقول لكم لماذا، سأذكر لكم ما تطلبونه، رغم أنكم لا تستحقون ذلك! إنني أرفض أن أتكلم لأنني أخشى العار. إن الجواب عن السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة إليَّ على دناءة إذا قيست بها جريمة قتل أبي

وسلبه المال بدت أمراً يسيراً، حتى ولو كنت أنا المجرم. ذلك هو سبب اضطراري إلى الصمت. إن الشعور بالعار يخنقني. ماذا تفعلون أيها السادة؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً؟

- نعم سنسجلها. تمتم نيقولا بارفينوفتش.

- لا يجوز لكم أن تسجلوا ما قلته عن «الدناءة». لقد فتحت لكم قلبي من قبيل المجاراة. كان يمكنني أن أمنع عنكم هذا الايضاح. لقد قدمت إليكم هذا الإيضاح بغير داع إلى ذلك، فهل تسارعون إلى تسجيله أيضاً؟ ليكن أيها السادة! اكتبوا ما شئتم. أنا لا أخشاكم... ولن أطأطىء رأسي أمامكم. بهذا ختم ميتيا كلامه مشمئزاً.

- ألا يمكنك أن تقول لنا ما هو نوع هذه الدناءة؟ تمتم نيقولا بارفينوفتش يسأله:

- أنصحكم ألا تلحوا! لست مضطراً لأن أدنس نفسي أكثر؟ كفى أيها السادة، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة.

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً؛ فاعتقد نيقولا بارفينوفتش أنه لا جدوى من الإلحاح، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة هيبوليت كيريلوفتش أن هذا لم ييأس بعد.

- قل لنا على الأقل مقدار المال الذي كان بيديك حين وصلت إلى السيد برخوتين. أي كم روبلاً بالتحديد؟

- لا، لا أستطيع أن أقول.

- ألم تتحدث إلى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك اقترضتها من السيدة خوخلاكوفا؟

- ربما ذكرت له شيئاً من هذا القبيل. كفى أيها السادة، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة.

- أوضح لنا إذن كيف وصلت إلى هنا، وماذا فعلت منذ وصولك إلى موكرويه!

- ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا. على كل حال، لا أرى بأساً في أن أروي لكم هذا.

أعاد عرض قصة تلك الليلة مرة جديدة. وكان يتكلم هذه المرة في جفاف، مقتصراً على إشارات مقتضبة، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة. ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب «ظروف جديدة». ولم يتحدث عن حالاته النفسية، بل اقتصر على الوقائع المادية فقط. ولم يزعجه أحد بالأسئلة أثناء ذلك، فلقد كان واضحاً في نظر وكيل النيابة وقاضي التحقيق أن الأمر الأساسي ليس هنا.

- سنتحقق مما تقول، وسنعود إليها حين نسمع أقوال الشهود، بحضورك طبعاً قال نيقولا بارفينوفتش ليختم الاستجواب: أحب رجاءً الآن أن تضع على هذه الطاولة جميع الأشياء التي معك، ولا سيما الأموال، جميع المبالغ التي هي في حوزتك الآن.

- المال أيها السادة؟ أنا أفهم أن هذا لا بد منه، بل إنني لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن. وما كان لي أن أتهرب طبعاً، ما دمتم تراقبونني. إليكم المال. عدُّوه. خذوا. أعتقد أن هذا كل شيء.

أفرغ ميتيا جيوبه، وأخرج حتى النقود الصغيرة، ومنها قطعتان نقديتان من فئة

العشرة كوبيكات، أخرجها من جيب صِداره. وجُمعت الأموال، فبلغت ثمانمئة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبيكاً.

- أهذا كل شيء؟ سأله القاضي.

- هذا كل شيء.

- لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل، أثناء سرد الوقائع، أن ثمن ما اشتريته من متجر آل بولتنيكوف قد بلغ ثلاثمئة روبل، فإذا أضفنا إليها العشرة روبلات التي رددتها إلى برخوتين، والعشرين روبلاً التي أعطيتها الحوذي، والمائتي روبل التي خسرتها في اللعب بالورق أثناء الليل، ثم...

أجرى نيقولا بارفينوفتش الجمع تفصيلاً، وكان ميتيا يساعده راضياً، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات، وحسب نيقولا بارفينوفتش الحاصل، فقال:

- فإذا حسبنا الثمانمئة روبل التي بقيت لك، كان معنى هذا أنك كنت تملك ألف وخمسمئة روبل؟

- ممكن. قال ميتيا.

- فكيف يُجمع الشهود إذن على أن المبلغ أكبر من ذلك.

- لهم أن يقولوا ما يشاؤون.

- لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا.

- ربما أكدت ذلك.

- سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين. أما المال فلا تخش عليه. سنحتفظ به في مكان آمن، وسيُردُ إليك في نهاية... هذا التحقيق... إذا ظهر عندئذ أو قل إذا ثبت عندئذ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بدون شك. حسناً، والآن...

قال نيقولا بارفينوفتش هذا، ونهض، وأعلن لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه «مضطراً» إلى أن «يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً»...

- افعلوا أيها السادة. سأقلب جيوبي إذا أردتم.

وأخذ يقلب كلَّ جيوبه.

- لا بد من أن تخلع ملابسك.

- ماذا؟ أخلع ثيابي؟ عجباً! ألا يكون تفتيش جيوبي أسهل من ذلك؟

- مستحيل! لا بد من خلع ثيابك يا ديمتري فيودوروفتش. يجب أن تخلع ثيابك.

- كما تشاؤون. قال ميتيا عابساً. ولكن ليس هنا، بل وراء الستارة. من سيتولّى التفتيش؟

- طبعاً وراء الستارة. قال نيقولا بارفينوفتش وهو يحني رأسه موافقاً. وظهر على وجهه اللطيف تجهمٌ بالغ الخصوصية.

VI

وكيل النيابة يوقع ميتيا

لقد حدث لميتيا ما هو مدهش وغير متوقع. ما كان بإمكانه أن يتخيل، حتى قبل دقيقة واحدة، أن أحداً يمكن أن يعامله هكذا، هو، ديمتري كارامازوف! خاصة وأنه بدا إذلالاً له، «وازدراءً متعالياً» من قبلهم! فهم لم يطلبوا منه أن يخلع سترته فحسب! إنما أن يخلع ملابسه كلها. والأمر ليس أنهم طلبوا منه، لكنهم في الواقع أمروه بذلك. وهو قد فهم ذلك جيداً، لذلك خضع للأمر دون تذمر، كبرياءً واشمئزازاً! عدا نيقولا بارفينوفتش وقاضي التحقيق، كان يوجد وراء الستارة عدد من الفلاحين أيضاً، فقال ميتيا يحدث نفسه: «لقد دخل هؤلاء للمساعدة في إجباري على خلع ملابسي، وربما لشيء آخر كذلك».

- هل أخلع قميصي أيضاً؟ سأل ميتيا بعنف، لكن نيقولا بارفينوفتش لم يجب. لقد كان غارقاً مع وكيل النيابة بتفتيش السترة والسروال والصِدار والقبعة، وكان يبدو عليهما أن هذا التفتيش يهمهما إلى أقصى حد. قال ميتيا في نفسه: «أصبحا لا يتحرجان من شيء، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب!» وقال يسألهما بلهجة عنيفة: أسألكم مرة أخرى: أيجب أن أخلع القميص أم لا؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش قائلاً بلهجة جافة آمرة (هذا كان إحساس ميتيا على الأقل): لا تقلق، سنقول لك ذلك في حينه.

كان وكيل النيابة وقاضي التحقيق يتبادلان الرأي بصوت خافت. إن هناك بقع دم، غير متخثرة، تظهر على السترة، ولا سيما في الظهر وفي الحافة اليسرى، وأن هناك بقع دم أخرى تُرى في السروال أيضاً. وعدا ذلك أخذ نيقولا بارفينوفتش، بحضور الفلاحين المكلفين، يجس الياقة وطيات الأكمام، ويجسّ كذلك مختلف خياطات الثياب، كأنه يفتش ليكتشف فيها شيئاً - هو المال طبعاً. وخصوصاً أن الرجلين كانا يدلان بذلك، بحضور ميتيا، على أنهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق في بطانات الثياب. فجمجم ميتيا يقول: «يعاملونني الآن معاملة لص، لا معاملة ضابط». وكانا يتبادلان وجهات النظر بصوت عالٍ وصراحة تامة دون اكتراث لوجوده. من ذلك مثلاً أن الكاتب، الذي كان كثير الحركة هو أيضاً، قد لفت انتباه نيقولا بارفينوفتش إلى القبعة التي أخذ يجسُّها أيضاً، قائلاً له: تذكروا المستخدم غريدنكا. لقد أوفد في هذا الصيف لقبض رواتب جميع موظفي الدائرة، فلما عاد صرَّح بأنه فقد المال وهو في حالة سكر. فأين وجدوا المال بعد ذلك؟ وجدوه في شريط قبعته! لقد صنع من أوراق المئة روبل لفاتٍ صغيرة استطاع أن يدسَّها تحت الشريط، ثم خاط الشريط. لم يكن وكيل النيابة وقاضي التحقيق قد نسيا قضية غريدنكا، فوضعا قبعة ميتيا في جانب وفي نيّتهما أن يفتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد من التدقيق أيضاً.

- هل تسمح؟ صاح نيقولا بارفينوفتش عندما رأى قبضة الكمّ اليمنى من قميص ميتيا ملطخة بالدم ومقلوبة، هذا دم أيضاً إن لم يخطىء ظني.

- نعم، هو دم. أجاب ميتيا بصوت قاطع.

- دم؟ ولماذا قلبت الكم؟

فذكر ميتيا أنه لطخ طرف كمِّه أثناء اهتمامه بغريغوري، ثم أعاد ترتيبه فيما بعد عند برخوتين الذي غسل يديه عنده أيضاً.

- يجب أن تنزع قميصك أيضاً قال نيقولا بارفينوفتش، يجب أن نأخذها... لاستكمال المشاهدات المادية. فاحمر وجه ميتيا وقال غاضباً:

- أأصبح عارياً الآن؟

- اطمئن... سنرتب هذا. وبانتظار ذلك، إنزع جوربيك من فضلك.

- هل أنتم تمزحون؟ أهذا ضروري حقاً؟ سأل ميتيا وقد سطع في عينيه الغضب:

- لسنا هنا للمزاح. أجابه القاضي بلهجة قاسية.

- ما دام هذا ضرورياً... أنا... تمتم ميتيا وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه:

كان يشعر بعار لا يطاق. كل الحاضرين، ما عداه، يرتدون ثيابهم، شيء غريب، حين خلع ثيابه شعر فجأة بأنه مذنب أمامهم. خاصة وأنه سلَّم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمةً فجأة، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه. قال يحدث نفسه: «حين يكون الجميع عراة فلا عار، أما حين أكون وحدي عارياً فذلك هو العار! لكأنني في حلم! لقد سبق أن عانيت في الحلم انحطاطات من هذا النوع». وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه: إنهما وسخان، كسائر ملابسه الداخلية أيضاً، ففي وسع الجميع أن يلاحظوا هذا الآن. ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعتبر أصابعهما بشعة، ولا سيما أصابع قدمه اليمنى التي كان أحد أظفارها مسطحاً تاماً فلا ينحني إلّا في نهايته. سوف يراه الجميع الآن. اجتاحه الشعور بالعار، ففارت نفسه، وأصبح فظاً عن قصد. قال:

- ألا تودُّون أن تلاحقوا تحرياتكم إلى أبعد من هذا إذا كان الحياء لا يصدكم؟

- لا، لا داعي إلى ذلك الآن.

- وهل عليَّ أن أنتظر عارياً؟ سأل بلهجة فيها غضب.

- لا بد من ذلك الآن. تفضل واجلس هنا. في إمكانك أن تتدثر بشرشف السرير... وسأحاول أن أتدبر الأمر.

عرضت الثياب على الشهود. ووضعوا محضراً بذلك، ثم خرج أخيراً نقولا بارفينوفتش، وأُخذت الملابس، وانصرف وكيل النيابة أيضاً. لم يبق مع ميتيا سوى الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحوِّلون عنه أبصارهم. تدثر ميتيا بالغطاء، لأنه كان يحس ببرد شديد، ولكنه لم يستطع أن يحمي قدميه العاريتين على أي نحو تلفف. وتأخر نيقولا بارفينوفتش عن العودة، كأنه يريد «إطالة تعذيبه». فجمجم ميتيا يقول وهو يصرف أسنانه: - يحسبني صبيّاً! وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك، احتقاراً في أغلب الظن، واشمئزازاً من رؤية رجل عار. وكان ميتيا يعتقد مع ذلك أنهم سيُرجعون إليه ثيابه بعد تثبت جديد. فما كان أشد استياءه حين رأى نيقولا بارفينوفتش يعود إليه ووراءه فلاح يحمل

ثياباً أخرى غير ثيابه.

- إليك هذه الثياب التي حصلنا لك عليها أخيراً. قال له بلهجة ودود: وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التي وصلت إليه مساعيه. وتابع كلامه يقول: - إن السيد كالغانوف هو الذي تفضل، في هذا الظرف الغريب، فقدم إليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً قد أتى بهما في حقيبته من حسن الحظ. أما ملابسك الداخلية وجورباك ففي إمكانك أن تحتفظ بها.

انفجر ميتيا فزأر بصوت مهدِّد:

- لا أريد هذا الرداء الذي ليس لي. ردوا إليَّ ملابسي.

- مستحيل.

- أعيدوا إليّ حوائجي. ليأخذ الشيطان كالغانوف وثيابه!

كان من الصعب عليهم إقناعه، ولكنه ما لبث أن هدأ. لقد أقنعوه بضرورة «ضمِّ الثياب إلى وثائق الإثبات» ما دامت ملطخة بالدم. وقد حرص قاضي التحقيق على أن يقول له «إنه لم يكن من حقه أن يدع له ملابسه الخاصة، فليس يدري أحد ما هو المنحى الذي قد تجري فيه القضية». اقتنع ميتيا أخيراً بهذه الحجج، وبدأ يرتدي الثياب الجديدة، وهو محافظ على سكوت عابس. واكتفى بأن قال وهو يرتدي سترة كالغانوف إن هذه السترة أغلى ثمناً من قميصه، وإنه يكره أن «يستفيد» منه؛ وأضاف يقول: ثم إنه ضيِّق عليَّ فهو يجعلني مضحكاً. هل عليَّ أن أظهر للناس مضحكاً... لتتسلّوا أنتم؟

وحاولوا أن يقنعوه مجدداً بأنه يبالغ، وبأن قامة السيد كالغانوف كقامته هو، وإن يكن السيد كالغانوف أطول منه قليلاً، وبأن السروال وحده سيكون طويلاً عليه بعض الشيء. ولكن اتضح أن السترة مشدودة جداً عند الكتفين، فجمجم ميتيا قائلاً من جديد:

- من المستحيل عقد أزرارها. أرجو أن تبلغوا السيد كالغانوف أنني لست أنا الذي رغبت في ارتداء ثيابه، وأنني أكرهت على ارتدائها كمهرِّج!

- هو يفهم هذا، وهو يأسف... دمدم قاضي التحقيق: لا يأسف على حرمانه من ثيابه بل يأسف على ما وقع لك.

- لا حاجة بي إلى أسفه! أين يجب أن أذهب الآن؟ أم أنا مضطر إلى البقاء هنا؟

- طلبوا منه العودة إلى «الغرفة الأولى» من جديد. فدخل ميتيا منقبضَ الوجه غضباً، محاولاً ألّا ينظر إلى أحد. كما كان يشعر وهو في ثيابه المستعارة أنه مذلّ حتى في نظر الفلاحين، وفي نظر تريفون بوريستش الذي لاح وجهه خلسةً من خلال باب شقه ثم أسرع يغلقه. قال ميتيا في نفسه: «أراد أن يتأملني وأنا في هذا الزي الهزلي». وجلس على الكرسي الذي كان يشغله منذ قليل. كان يبدو لي أنه يعيش حلماً ثقيلاً، يعيش كابوساً، وكان يتساءل ألم يصبح مجنوناً؟

- جيد، والآن، هل تأمرون بجلدي؟ لم يبق لكم إلّا هذا! التفت ميتيا نحو وكيل النيابة منقبض الفكين.

لم يشأ أن يلتفت نحو نيقولا بارفينوفتش، لأنه يرفض أن يوجه إليه أي كلمة. وقال يحدث نفسه: «لقد تلذذ بتأمل جوربيَّ زمناً طويلاً جداً، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً - يا للشقي! - لكي يُظهر الجميع على أن ملابسي الداخلية قذرة جداً!».

- حسناً. سنبدأ الآن استجواب الشهود. قال نيقولا بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله:

- نعم نعم. قال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضي.

يبدو على وكيل النيابة أنه كان يفكر في أمرٍ ما. وتابع القاضي كلامه فقال:

- لقد بذلنا قصارى جهدنا يا ديمتري فيودوروفتش من أجل مصلحتك. ولكن بعد أن رفضت رفضاً فظّاً أن تلبي طلبنا فتقدم لنا بعض الإيضاحات عن مصدر المبلغ الذي في حوزتك، فإننا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن..

- من أيّ نوع صُنع هذا الخاتم؟ قاطعه ميتيا.

كان ميتيا يتكلم كمن هو في حلم، مشيراً إلى أحد الخواتم الثلاثة التي تزين يد القاضي الصغيرة.

- خاتمي أنا؟ سأل نيقولا بارفينوفتش في دهشة.

- نعم، هذا الخاتم.. ذلك الذي يزين الإصبع الوسطى. ما هذا الحجر الكريم؟ قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها الكثر من نفاد الصبر، كطفل عنيد ذي نزوات.

- هو زمرُّد أدكن! فأجابه نيقولا بارفينوفتش مبتسماً: هل تريد أن تراه؟ سوف أنزعه فـ...

- لا، لا... لا تنزعه.. صاح ميتيا بعنف مستعيداً رشده، وساخطاً على نفسه! لا تنزعه... الأمر لا يستحق العناء... آه... لقد دنستم نفسي أيها السادة! هل تظنون أنني كان يمكن أن أخفي عليكم لو أنني قتلت أبي فعلاً، هل تظنون أنني كان يمكن أن أنكر وأكذب وأختفي؟ إنكم لا تعرفون ديمتري فيودوروفتش! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة! أقسم أنه لو كان مجرماً لما انتظر أن تصلوا إلى موكرويه، ولما بقي حياً إلى الفجر كما كان ينوي، وإنما كان قتل نفسه فوراً! لقد تعلمت في هذه الليلة الواحدة المشؤومة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى عشرين عاماً من الحياة! هل كان يمكن أن أتصرف كما تصرفت هذه الليلة، هل كان يمكنني في هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن، أكنت أجد هذه اللهجة، أكنت أقوم بهذه الإشارات، أكنت أستطيع أن أنظرإليكم وجهاً لوجه، أنتم والعالم بأسره، لو كنت قاتل أبي حقاً؟ إن مجرد تصوُّري أنني ارتكبت جريمة قتل غريغوري عرَضاً قد ظل يعذبني طوال الليل، لا خوفاً، ولا خشية من عقابكم! يا للعار! ثم تريدون بعد ذلك، أيها العابثون، تريدون أن أفضي إلى أناس مثلكم، أناسٍ لا يصدقون شيئاً ولا يرون شيئاً، أيها المناجذ العميان، دناءةً أخرى ارتكبتها، حتى يزداد عاري؟ لن أفعل ذلك ولو أدى إلى تبرئتي من اتهاماتكم. أفضّل على هذا سجون الأشغال الشاقة! إن من فتح باب أبي ودخل من ذلك الباب. هو من قتله وهو من سرق ماله! من هو ذلك الشخص؟ إنني أتيه، وأعذب نفسي لمعرفته. ولكن ليس هو ديمتري كارامازوف على كل حال، فاعلموا هذا. ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم. فلا تلحّوا... أرسلوني إلى سيبيريا، أو نفذوا فيَّ الحكم بالاعدام، ولكن توقفوا عن اللعب بأعصابي. ها أنا أسكت. استدعوا شهودكم!

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا على وجهه أنه عازم بثبات على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة. وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه، منتظراً أن ينهي كلامه. فما إن ختم ميتيا قوله حتى قال له بهدوء بارد، كأن الأمر أمر مشاهدة طبيعية جداً.

- في موضوع ذلك الباب المفتوح الذي جئت على ذكره الآن، يبدو أننا نستطيع أن

نطلعك - وهذا هو الوقت المناسب لذلك - على واحدة من أغرب الشهادات وأكثرها أهمية، بالنسبة إليك وبالنسبة إلينا معاً، وهي شهادة العجوز غريغوري فاسيليف الذي جرحته. لقد صرَّح هذا العجوز، بعد أن أفاق من إغمائه واستعاد وعيه، قال لنا بوضوح وإلحاح في الإجابة عن أسئلة ألقيناها عليه، إنه حين خرج من باب منزله فسمع ضجة مشتبهاً فيها، قرر أن يدخل الحديقة ماراً ببابها الحديدي الذي كان مفتوحاً؛ ولكنه قبل أن يراك في الحديقة أثناء هروبك في الظلام مبتعداً عن النافذة التي رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل، قد لاحظ أيضاً، من مكان أقرب إليه كثيراً، ذلك الباب الذي تزعم أنه ظل مغلقاً طوال مدة وجودك في الحديقة، فرأى أنه كان مفتوحاً على مصراعيه خلافاً لما تدَّعي. ولا أستطيع أن أكتمك أن فاسيليف يستنتج من ذلك ويؤكد جازماً أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب، رغم أنه لم ير هروبك بعينيه وإنما لمحك حين كنت قد أصبحت قريباً من الباب، وسط الحديقة، راكضاً نحو السور...

قفز ميتيا عن كرسيه دون أن يدع لوكيل النيابة أن يكمل كلامه، وصاح خارجاً عن طوره:

- هذا كذب دنيء! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحاً، لأن الباب كان مغلقاً في تلك اللحظة... إنه يكذب!

- من واجبي أن ألفت انتباهك إلى أن أقواله واضحة جداً في هذه النقطة، وأن شهادته لم تختلف ولم تتناقض، بل ظل مصراً عليها بإلحاح، لأننا سألناه عن هذا الأمر مراراً.

- أنا نفسي استجوبته. قال نيقولا بارفينوفتش مؤكداً كلام زميله بشيء من الحماسة.

فاستأنف ميتيا كلامه صارخاً:

- هذا كذب! هذا كذب! لا يمكن أن يكون هذا إلّا وشاية تستهدف الإيقاع بي، أو أن يكون أوهام رجل يهذي. لا بد أن العجوز قد رأى حلماً أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه... فقصَّ عليكم ما رآه في الحلم حين صحا من إغمائه... وأغلب الظن أنه ما يزال يهذي.

- أتمنى لو أصدِّق ما تقول، ولكن العجوز لم يرَ الباب مفتوحاً بعد أن أفاق من إغمائه، وإنما رآه قبل أن يُجرح، لحظة دخوله الحديقة.

- غير صحيح، غير صحيح. لا يمكن أن يكون! إن الكره هو الذي يدفعه إلى اتهامي... لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب... أنا لم أهرب من الباب! صاح ميتيا لاهثاً.

فالتفت وكيل النيابة إلى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة، أرِه الظرف.

فإذا بالقاضي يضع على الطاولة ظرفاً كبيراً من ورق متين، تُرى عليه ثلاثة أختام من شمع لم تمسَّ، وقد أُفرغ الظرف بتمزيقه من أحد أطرافه؛

- هل تعرف هذا؟ قال القاضي يسأل ميتيا.

- لا شك، قال ميتيا، أنه الظرف الذي كان عند أبي والذي كان يحوي ثلاثة آلاف روبل، إذا كان عليه كتابة. هل تسمح لي بأن أرى؟ نعم، هذه هي الكتابة: «إلى حبيبتي»، وهنا: «ثلاثة آلاف روبل... وصاح ميتيا: ثلاثة آلاف روبل... أرأيتم»؟

- طبعاً رأينا. ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ. كان الظرف ممزقاً مرمياً على الأرض

قرب السرير وراء الحاجز.

بقي ميتيا بضع ثوان كالمصعوق. ثم صاح فجأة بكل قواه:

- إنه سمردياكوف، أيها السادة! هو الذي سرق وقتل. إنه الإنسان الوحيد الذي كان يعرف الموضع الذي خبأ فيه العجوز الظرف... إنه هو، كل شيء واضح الآن!

- ولكنك كنت أنت أيضاً على علم بوجود هذا الظرف، وتعرف أنه موضوع تحت الوسادة.

- بل كنت أجهل ذلك تماماً: لم أرَ هذا الظرف حتى الآن، ولم أكن أعلم بوجوده إلّا من مسارات سمردياكوف... كان سمردياكوف وحده يعرف... أين خبأ العجوز الظرف. أما أنا فكنت لا أعرف. كذلك قال ميتيا متقطع الأنفاس.

- لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان موجوداً تحت وسادة المتوفَّى أبيك. لقد حدَّدت بنفسك أنه كان مخبأً تحت الوسادة. معنى هذا أنك كنت تعرف!

- لقد سُجِّلت تصريحاتك في محضر الاستجواب، قال نيقولا بارفينوفتش.

- إن يكن، هذه حماقة! لم أكن أعرف إطلاقاً أنه تحت الوسادة... وعلى كل حال، لم يكن تحت الوسادة إطلاقاً... لقد ذكرت الوسادة مصادفة... ماذا قال لكم سمردياكوف؟ هل سألتموه أين كان الظرف؟ هذا هو المهم!... أنا كذبت عمداً... كذبت وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة. وأنتم، فوراً... كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة. لقد كان سمردياكوف وحده عارفاً بالأمر، ولم يكن يعرفه أحد سواه!... رفض أن يكشف لي عن المخبأ، حتى أنا رفض أن يكشف لي عن المخبأ. إنه هو، هو القاتل! هو القاتل لا محالة، لقد اتضح الأمر الآن. هكذا صاح ميتيا مضطرباً، وقد أصبحت عباراته مفككةً غير متماسكة من فرط الانفعال. - افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن تضيعوا لحظة واحدة!... لقد أصبح واضحاً أنه قتل أبي بينما كنت أنا أهرب وكان غريغوري ينام في الحديقة بلا حراك. أصبح كل شيء واضحاً... قرع الباب بالإشارة المتفق عليها، ففتح له أبي الباب... لأنه الشخص الوحيد الذي كان على علمٍ بالإشارات التي ما كان لأبي أن يفتح الباب بدون سماعها...

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بتلك اللهجة الموزونة نفسها على شيء من التعبير عن الانتصار في نبرة صوته:

- يظهر أنك تنسى من جديد أن الإشارات تصبح زائدة لا داعي إليها، مادام الباب كان مفتوحاً من قبل، بينما كنت أنت ما تزال في المكان، أعني في الحديقة...

- الباب... الباب! قال ميتيا متلعثماً.

وسكت، وحدَّق إلى وكيل النيابة بنظرة متجهمة. ثم تهالك على الكرسي كالمنهار. وساد صمت. ثم هتف يقول فاقد القوى:

- نعم، الباب!... كان هذا شبحاً! الله ضدي!

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة:

- أرأيت؟ احكم الآن بنفسك يا ديمتري فيودوروفتش. هناك من جهة أولى هذه الشهادة الدامغة، في نظرك وفي نظرنا، أعني الشهادة بأن الباب كان مفتوحاً وأنك هربت

منه. وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذي لا يُفهم، هذا الصمت الذي تلوذ به عن مصدر المال الذي أصبح في حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات، فيما صرحت به أنت نفسك، مضطراً إلى رهن مسدسيك للحصول ولو على عشرة روبلات. فماذا نصدّق وإلى أي شيء نستند؟ هلّا قلت لي؟ فلا تأخذ علينا، ظلماً وعدواناً، أننا أناس «مستهزئون باردون مستهترون»، عاجزون عن فهم ما في نفسك من اندفاعات نبيلة... بل ضع نفسك في مكاننا...

كان ميتيا مضطرباً، وقد شحب لونه، ثم هتف يقول:

- حسناً! سأكشف لكم عن سرّي، سأطلعكم على مصدر المال... سأكشف عن عاري، حتى لا ألوم نفسي ولا ألومكم في المستقبل...

قال نيقولا بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان.

- ثق يا ديمتري فيودوروفتش أن اعترافاً صادقاً كاملاً منك الآن قد يخفف عنك كثيراً في المستقبل، حتى لقد...

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزةً خفيفة من تحت الطاولة فسكت القاضي في الوقت المناسب. وكان ميتيا لا يصغي إليه على كل حال.

VII

سرُّ ميتيا الكبير. الخيبة

- أيها السادة، بدأ ميتيا كلامه منفعلاً. أريد أن أعترف بالحقيقة كلها... هذا المال كان لي أنا.

فتح وكيل النيابة وقاضي التحقيق فمهما. ليس هذا ما كانا يتوقعانه أبداً.

- المال لك أنت، كيف يعقل هذا؟ أنت تقول في اعترافك إنك في الساعة الخامسة بعد الظهر... تمتم نيقولا بارفينوفتش.

- سحقاً للساعة الخامسة بعد الظهر ولاعترافي! ليس هذا هو الموضوع الآن! لقد كان ذلك المال لي أنا... أقصد أنني استوليت عليه، سرقته... نعم سرقته سرقته. هو مبلغ ألف وخمسمئة روبل وكنت أحملها دائماً معي، معي...

- من أين أخذتها؟

- من عنقي أيها السادة، من هذا العنق الذي ترون هنا... كنت أخبئها هنا، معلقةً بعنقي، مخيطة في خرقة. هكذا كنت أحمل عاري منذ زمن طويل، منذ أكثر من شهر!

- ولكن لمن كان هذا المال الذي... استوليت عليه؟

- تريدون أن تقولوا من عند من «سرقته»؟ سمُّوا الأشياء بأسمائها! أنا أعتقد فعلاً أنني سرقت هذا المال، أنني «استوليت» عليه إذا كنتم تؤثرون هذا التعبير. وأنا أرى أنه سرقة. وأمس مساءً، اكتملت السرقة.

- ولكنك قلت إنك حصلت عليه... منذ شهر.

- نعم، ولكن لم أسرقه من أبي، ليس منه، اطمئنوا! لم أسرقه من عند أبي، بل من عندها. دعوني أروي لكم الوقائع دون أن تقاطعوني. إنه لأمر قاس على نفسي أن أتكلم، هل تفهمون؟ منذ شهر، نعم منذ شهر استدعتني كاترينا إيڤانوفنا فرخوفنريفا - خطيبتي السابقة - ... هل تعرفونها؟

- طبعاً نعرفها؟

- أعلم أنكم تعرفونها. هذه إنسانة ذات نفس نبيلة، لا يجاريها في نبلها أحد ولكنها كانت تكرهني منذ زمن طويل... طويل جداً... وكان من حقها أن تكرهني على كل حال!

- كاترينا إيڤانوفنا؟ سأله القاضي مندهشاً.

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً.

قال ميتيا:

- أوه! لا تذكروا اسمها بغير داعٍ! كنت وغداً حين ذكرت اسمها. نعم، كنت أعلم أنها تكرهني منذ زمن طويل... منذ اليوم الأول، في مسكنها هناك... ولكن كفى! كفى حديثاً في هذا الأمر! إنكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء، ولا داعي إلى ذكر هذه الأشياء على كل حال... يكفيكم أن تعرفوا أنها استدعتني منذ شهر وأعطتني ثلاثة آلاف روبل كلفتني بأن أرسلها إلى أختها وإلى قريبة أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها؟) وأنا... كانت تلك الساعة هي بعينها الساعة المشؤومة في حياتي، كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي... الخلاصة... هي اللحظة التي كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى منذ قليل، هي اللحظة التي كنت فيها قد أحببتها «هي».. امرأة هذا اليوم... تعلمون تلك التي أودعت تحت، غروشنكا... فجئت بها إلى هنا، إلى موكرويه، فأنفقت خلال يومين من الاحتفال والقصف، نصف ذلك المبلغ اللعين، أعني ألفاً وخمسمئة روبل، واحتفظت بالنصف الآخر. فهذه الألف وخمسمئة روبل الباقية هي ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلَّقاً بعنقي مَخيطاً في كيس. وقد فتحت الكيس أمس، فأنفقت هذا المال في القصف هنا. وإن الثمانمئة روبل الموجودة لديك يا نيقولا بارفينوفتش هي كل ما بقي لي من الألف وخمسمئة روبل تلك.

- دعني أذكرك، أن مسألة تبذيرك ثلاثة آلاف روبل لا ألف وخمسمئة أمر يعرفه جميع الناس.

- من يعرفه؟ من الذي حسب نفقاتي؟ لمن أعطيته ليعدَّه؟

- أنا من أخبر الجميع أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل.

- صحيح، قلت هذا، وللمدينة كلها، والناس يتحدثون عنه في كل مكان، وما من أحد إلّا ويعتقد اعتقاداً جازماً بأنني أنفقت ثلاثة آلاف روبل. وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضاً. ولكنني، مع ذلك، لم أنفق في الواقع إلّا ألفاً وخمسمئة روبل، ثم خطت باقي المبلغ في كيس. هذه هي الحقيقة أيها السادة، ذلك هو مصدر المال الكثير الذي كان في حوزتي أمس...

- يشبه هذا أن يكون معجزة... دمدم نيقولا بارفينوفتش.

وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا:

- اسمح لي أن أسألك هل أفضيت بهذا السر إلى أحد قبل هذا اليوم... أعني: هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمئة روبل هذا؟

- لم أقل لأحد.

- غريب. لم تذكره لأحد، أبداً.

لكن لماذا هذا السكوت؟ ما الذي دفعك إلى الاحتفاظ به سراً؟ سأشرح لك بشكل أدق. لقد كشفت لنا أخيراً عن سرِّك الذي تراه «مخزياً» إلى هذا الحد في نظرك، رغم أن هذا الفعل ليس في الواقع - إذا قيس بغيره طبعاً - إلّا هفوة صغيرة. أريد أن أتحدث عن استيلائك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التي لم تكن لك، إنما تملكتها موقتاً بالطبع - أن هذا العمل يُعد طيشاً، ينبغي أن يُعد خطأً مرده إلى الخفة، ولكنه ليس بهذا القدر من الخزي، ولا سيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى طبعك... فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له، وأنا أسلّم بذلك... ولكنه ليس دناءة أو حقارة أو ما أشبه ذلك... واعلم على كل حال أن كثيراً من الناس، في هذه المدينة، قد عرفوا، أثناء هذا الشهر، أنك بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتك عليها الآنسة فرخوفتزيفا. لقد اشتبهوا فيك واعتقدوا أنك بددت المال، رغم أنه لا

أدلة على ذلك، حتى لقد وصلت هذه الشائعة إلى أسماعنا، وعلم بها ميخائيل ماكاروفتش أيضاً، فليس الأمر سراً إذن، وإنما هو كلام يتردد في كل مكان... ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات مرة، أثناء حديث خاص، إذا لم يخطىء ظني، بأن ذلك المبلغ مصدره الآنسة فرخوفتزيفا... لذلك أستغرب كثيراً عندما أرى حتى هذه الدقيقة أنك تولي هذه الألف وخمسمئة روبل، فيما تدعي، اهتماماً خارقاً وتضفي عليها خطورة عظيمة، ولا أفهم أبداً أن تجعلها سراً لا تتكلم عليه، سراً مصحوباً بنوع من الهلع الأخلاقي. ليس من المعقول أن يسبب لك سرٌّ من هذا النوع عذاباً كهذا، وأن يبدو لك الاعتراف به صعباً إلى هذا الحد... ألم تعلن منذ قليل أنك تؤثر السجن على مجرد الاعتراف بالحقيقة...

سكت وكيل النيابة. وكان قد تحمس أثناء الكلام، والتهب فيه استياء متزايد يشبه الغضب، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة، ودون كثير من التسلسل أيضاً، وكان يدع لأفكاره أن تنفجر في جمل متقطّعة ومبهمة...

- ليس العار في الاستيلاء على هذه الثلاثة آلاف روبل، بل العار في أنني ادّخرت نصف هذا المبلغ، أي ألفاً وخمسمئة روبل! قال ميتيا بصوت جازم.

فقال وكيل النيابة وهو يضحك باغتياظ:

- حقاً؟ هلّا قلت لي أين العار في أن تحتفظ بنصف مبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاءً غير لائق، أو مخزياً إن كنت تؤْثر أن تصفه بهذه الصفة؟ إن الأمر الهام هنا هو أنك حصلت على هذا المبلغ بطريقة ليس فيها كثير من الأمانة، وليس أنك تصرفت في المال على هذا النحو أو ذاك! بالمناسبة: هل تستطيع أن تقول لي لماذا قسمت المبلغ نصفين، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين؟

- أيها السادة، ذلك هو الدراما كلها! صاح ميتيا. لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة، أي عن حساب. ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة في مثل هذه الحالة... وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على شهر بأسره!

- أنا لا أفهم.

- أستغرب هذا منكم. اصغوا إليّ جيداً. صحيح أن كلامي غير مفهوم للوهلة الأولى. هل تتابعون ما أقول: لقد استوليت على ثلاثة آلاف روبل اؤتمنت عليها، فأنفقتها في المرح إلى آخر كوبيك منها. أذهب إلى آنستي في الغد وأقول لها: «كاتيا، سامحيني، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتني عليها». ليس هذا خيراً بطبيعة الحال، وإنما هو سوء أمانة، وضعف خلق؛ هو سلوك إنسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته. ولكنني في هذه الحالة لن أكون سارقاً، لن أكون لصاً. لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة. هل توافقونني على هذا؟ لقد بددت المال الذي اؤتمنت عليه، ولكنني لم أسرقه. فلنفرض الآن فرضاً ثانياً، فرضاً أفضل من الأول أيضاً. تابعوا ما أقول، وإلّا فقد أرتبك مجدداً. إن رأسي يدور قليلاً. إليكم الفرض الثاني: لنفرض أنني أنفقت في القصف نصف المبلغ فقط، أي ألفاً وخمسمئة روبل، ولنفرض أنني ذهبت إليها في الغد حاملاً ما بقي من مال، وقلت لها: «استردي مني المال يا كاتيا لأنني لست إلّا إنساناً شقياً محموم الرأس. استردي نصف المبلغ الذي ائتمنتني عليه، وإلّا فقد أبدده كما بددت نصفه الأول. إنني لا أريد أن أتعرض لهذه الغواية!». فماذا أكون عندئذ؟ أكون ما شئتم، أكون شيطاناً وأكون شقياً، ولكنني لن أكون لصاً، لن أكون قد أصبحت لصاً حقيقياً. لأنني لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمئة روبل الباقية، وإنما كنت احتفظت بها لنفسي. كانت ستدرك هي عندئذ أنني ما دمت أرد إليها نصف المبلغ، فسأرد إليها النصف الثاني آخر الأمر، في يوم من الأيام وأنني قد أظل أعمل عند الضرورة طوال

حياتي مدخراً لأجمع المال الذي أنفقته في القصف فأعيده إليها. إذن، بهذا الشكل أنا وغد، ولكنني لست لصاً؛ أكون ما شئتم، ولكنني لا أكون سارقاً!

- لنسلِّم بأن هناك فرقاً ما. قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة: مع ذلك، إنه غريب أن تروا هذا الفرق الحاسم!

- أجل. أنا أرى فرقاً حاسماً. إن أي إنسان يمكن أن يكون وغداً، ولا شك أننا جميعاً جبناء بدرجات متفاوتة. ولكن ليس كل إنسان يمكنه أن يكون لصاً. لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء لصاً. أعتقد أنني لا أجيد التعبير لأنني تعوزني... ولكن اللص أحقر وأدنأ الأوغاد. تلك هي قناعتي العميقة! أصغوا إليَّ. لقد حملت هذا المال في عنقي مدة أربعة أسابيع، وكنت أستطيع في كل لحظة أن أذهب فأرد إليها هذا المال، فلو فعلت لما كنت وغداً حقيراً، أما وأنني لم أستطع أن أتخذ هذا القرار، فذلك هو الأمر الخطير! كنت كلَّ يوم أفكر فأقول لنفسي: «قرر أيها الشقي، يجب أن ترد المال». ولكن القرار لم يأتِ، وطالت القضية شهراً بأكمله. فما رأيكم؟ ألعلكم ترون هذا جميلاً؟

- لنعترف أن ذلك ليس جيداً، أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم. أنا أفهم هذا جيداً، ولا يخطر ببالي أن أجحده. ولكنني أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام على هذه الفروق، وأن تدع هذه الرهافة في التمييز بين الأمور، وأن تعود إلى جوهر القضية. لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا، في الإجابة عن سؤالي، السبب الذي دفعك إلى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتنفق النصف الأول منه في القصف وتحتفظ بالنصف الثاني معك. ماذا كان هدفك من ذلك، وعلى أي غرض وقفت هذه الألف وخمسمئة روبل التي احتفظت بها؟ إنني أصرُّ على هذا السؤال يا ديمتري فيودوروفتش!

- لكن هذا صحيح! صاح ميتيا وهو يضرب جبينه! المعذرة، إنني أعذبكم بهذه المناقشات بدلاً من أن أشرح لكم جوهر الأمر. لقد نسيت أن أفعل! سأقول لكم الآن الأساسي. ذلك أن العار كله يكمن هنا. اسمعوا: لقد كان العجوز، المتوفَّى، يلاحق أغرافينا ألكسندروفنا بإلحاحه ولحاجته، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة. وكنت أتخيل في ذلك الحين أنها مترددة بيني وبينه لا تعرف أتختارني أم تختاره، فكنت أتساءل كل يوم: «ما عسى يحدث إذا هي حزمت أمرها فجأة وكفّت أخيراً عن تعذيبي وصارحتني قائلة: أنت الذي أحبه لا هو، فلنسافر... خذني إلى آخر الدنيا». كنت أتساءل ماذا سيحدث عندئذ وأنا لا أملك في جيبي إلّا بضعة كوبيكات! أين لنا المال الذي نسافر به؟ ماذا أفعل حينذاك؟ كان ذلك هو الهوة، هو اليأس! لاحظوا أنني لم أكن قد عرفتها جيداً في ذلك الأوان. كنت أعتقد أنها لا تستغني عن المال، وأنها لا تسامح فقري. ذلك هوالسبب الذي من أجله قررت، جباناً، أن أحتفظ بنصف الثلاثة آلاف روبل، وأن أخيط المبلغ في كيس. وذلك ما فعلته ببرودة، بحساب، من قبل أن أسكر! وبعد ذلك، بعد أن طويت الكيس وخطته، سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمئة روبل الأخرى. لا، لا. ذلك حقارة. هل فهمتم الآن؟

انفجر وكيل النيابة وقاضي التحقيق في ضحك صاخب. وقال نيقولا بارفينوفتش ساخراً:

- في رأيي أن قرارك كان عقلانياً وأخلاقياً، على عكس ما تقول، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعةً واحدة. أين في هذا ما يثير السخط؟

- تكمن المسألة في أنني سرقت هذه القذارة. إن عجزكم عن الفهم يروِّعني! كنت أثناء حملي هذه الألف وخمسمئة روبل في عنقي، أردد كل يوم وكل ساعة: «أنت لص، أنت لص!». وبسبب هذا العار الذي يرهقني، بسبب هذا الشعور بأنني سارق، إنما كنت شرساً

عنيفاً خلال هذا الشهر الأخير. ذلك هو السبب في أنني تشاجرت واقتتلت في الكاباريه، وأنني ضربت أبي. وحتى إيليوشا أخي لم أجرؤ أن أعترف له بالحقيقة في موضوع الألف وخمسمئة روبل، فإلى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة! ولاحظوا أيضاً أنني طوال مدة احتفاظي بالمال المودع في الكيس سليماً لا أمسه، كنت أستطيع أن أقول لنفسي كل يوم وكل ساعة: «لا يا ديمتري فيودوروفتش، ربما لم تكن لصاً!». لماذا؟ لأنني كنت أستطيع في كل لحظة أن أذهب إلى كاتيا فأرد إليها هذا المال. وأمس فقط، بعد أن تركت فينيا، وفي طريقي إلى منزل برخوتين، قررت أن أفضَّ الكيس. أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمري. ولكنني منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل، لصاً لا يمكن إنكار أنه لص؛ أصبحت رجلاً بدون شرف إلى آخر الحياة. لأنني حين مزقت الكيس قد مزقت في الوقت نفسه أملي في أن أذهب إلى كاتيا وأن أقول لها: «أنا جبان ولكنني لست لصاً». هل تفهمونني الآن!

- فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس مساءً؟

- لماذا؟ إنها مسألة مضحكة! اتخذت قراري لأنني حكمت على نفسي بالموت هنا، في هذا المكان، عند الفجر. قلت لنفسي: «ما قيمة أن أموت شريفاً أو وغداً بعد الآن؟». ولكنني أدركت أن الأمرين لا يستويان.. صدقوني أيها السادة! إن العذاب الأكبر الذي عانيته في هذه الليلة الرهيبة لم يكن شعوري بأنني قتلت الخادم العجوز، ولا تصوُّري أنني سأُحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة. لا، صحيح أنه أمر رهيب أن أرحل إلى السجن في اللحظة التي أخذ فيها حبي ينتصر، في اللحظة التي انفتحت فيها سماوات السعادة أمامي! ولكن ذلك لم يكن عذابي الأكبر. ولا كان يساوي، على الأقل، عذابي من تصور أنني فتحت ذلك الكيس اللعين، وأتلفت ذلك المبلغ المنحوس، وأصبحت بهذا لصاً إلى الأبد! أيها السادة، إنني وقد تهدمت إلى أعمق أعماق كياني، أعود فأقول لكم: لقد تعلمت أشياء كثيرة في هذه الليلة. لقد تعلمت ليس فقط أنه يستحيل على المرء أن يعيش وغداً وإنما أيضاً أن يموت وغداً... لا، يا سادة، لا يمكن أن يموت المرء إلّا في الشرف...

كان ميتيا شاحب اللون، مشدود العضلات، وكان وجهه المنقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام.

- بدأت أفهمك يا ديمتري فيودوروفتش. قال وكيل النيابة بلهجة ملطَّفة فيها شيء من التعاطف ولكنني أعتقد أنك تبالغ قليلاً، وأن أعصابك، أعصابك المريضة، هي السبب الحقيقي لعذابك... فمثلاً: لماذا لم يخطر ببالك، حتى تتخلص من الآلام النفسية التي قاسيتها خلال شهر بأكمله، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب إلى تلك الإنسانة التي ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد إليها الألف وخمسمئة روبل؟ ألا يكون أبسط من هذا كله، بعد أن تشرح لها الخطيئة التي ارتكبتها في لحظة ضلال، أن تعمد إلى حلٍ يخطر على البال من تلقاء نفسه، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذي كنت فيه كما تقول؟ لقد كان في وسعك، بعد أن تعترف لها اعترافاً كلُّه نبلٌ، كان في وسعك أن تطلب إليها أن تقرضك المبلغ الذي كنت في حاجة إليه؛ وإني لعلى يقين، لمعرفتي بسمو نفسها، أنها ما كان لها أن ترفض إقراضك ذلك المبلغ، لا سيما وقد وقعت لها سنداً أو، أخيراً الضمانات التي عرضتها على التاجر سامسونوف، أو على السيدة خوخلاكوفا أيضاً! مع ذلك، ما زلت تعتبر أن تلك الضمانة لها قيمة كبيرة.

احمرَّ وجه ميتيا. ثم صاح مستاءً وهو يحدِّق إلى عيني وكيل النيابة تحديق من يشك في أن يكون وكيل النيابة قد تفوه بذلك:

- أحقاً تتصوروني وغداً إلى هذه الدرجة؟ لا يمكن أن تكون جاداً!

فدهش وكيل النيابة وقال:

- أؤكد لك أنني جادّ جداً... لماذا تشك في ذلك؟

- عجيب! أي وغد كنت! هل تعلمون أيها السادة أنكم تعذبونني. سأقول لكم كل شيء، إذا أردتم سأعترف لكم بكل دونيتي، لكن لكي تشعروا بالخجل، وتستغربوا إلى أي حدٍ من الجبن يمكن أن ينحدر ضمير إنسان. إن هذا الحل الذي ذكرته الآن يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالي. نعم يا سادتي! لقد فكرت في هذا الحل أيضاً خلال هذا الشهر الملعون، وكنت على وشك أن أذهب إلى كاتيا من فرط نذالتي، أذهب إليها فأعترف لها بخيانتي، ثم أطلب إليها بعد ذلك الاعتراف، أن تقرضني مالاً لأنفذ هذه الخيانة، لأسدد النفقات التي كانت ستقتضيها هذه الخيانة. أطلب مالاً منها هي، كاتيا، أطلب، أتضرع، هل تسمعون؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى، مع غريمتها، مع امرأة تكرهها، امرأة أساءت إليها وأهانتها. إنك لمجنون يا سيادة وكيل النيابة!

- أكنت مجنوناً أم لا؛ لكنني أثناء احتدام النقاش لم يخطر ببالي عنصر الغيرة النسوية هذا إذا افترضنا أن من الممكن أن يكون ثَمَّة غيرة في هذه الحالة كما تقول... نعم، والحق أن من واجب المرء ألّا يغفل عن عاطفة من هذا النوع... ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة.

صاح ميتيا وهو يضرب بقبضة يده الطاولة بقوة.

- إن عملاً كهذا فيه من النذالة والدناءة، ويبلغ من شدة ما يبعثه في النفس من اشمئزاز، ما جعلني أتراجع عنه أنا نفسي! هل تعلمون أنه كان يمكن أن تعطيني ذلك المال؟ أنا متأكد من أنها كانت ستعطيني ذلك المال، بدافع الانتقام، لتتلذذ بالثأر، لتظهر لي احتقارها، لأنها هي أيضاً نفس جهنمية عنيفة غضبى! وكنت سآخذ منها المال، هذا أكيد، فأبقى طوال حياتي... أوه... يا إلهي! معذرة يا سادتي! لئن صرخت الآن، فلأن هذه الفكرة الكريهة قد ساورتني، ساورتني أمس الأول، بينما كنت أتخبط ليلاً قرب لياغافي. وعاودتني أمس مرة أخرى، نعم أمس، إنني أتذكر هذا وحاصرتني طوال النهار إلى حين وقوع ذلك الحادث...

- أي حادث؟ تدخل نيقولا بارفينوفتش يسأله مستطلعاً، ولكن ميتيا لم يأبه لسؤاله. وختم ميتيا كلامه يقول:

- لقد اعترفت لكم بكل شيء، ثم لا تقدروا ذلك، أيها السادة، ولا يكفي أن تقدّروه حق قدره فحسب، وإنما ينبغي لكم أن تعترفوا بقيمته وإلّا إذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم، فيجب أن نسلّم عندئذ بأنكم لا تضمرون لي أي احترام، إنكم تحتقرونني؛ سأموت عندئذ من شعوري بالعار لأنني فتحت قلبي لأناس مثلكم. سأطلق عندئذ رصاصةً في رأسي! ولكنني أرى أنكم لا تصدقونني، أرى ذلك! ماذا؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً؟ صاح ميتيا مروّعاً. فأجاب نيقولا بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتيا:

- لن نسجل إلّا التصريح الذي أدليت به الآن... سنسجل أنك كنت تنوي، حتى الدقيقة الأخيرة، أن تذهب إلى الآنسة فرخوفتزيفا لتقترض منها هذا المبلغ... تلك واقعة هامة جداً بالنسبة إلينا يا ديمتري فيودوروفتش صدقني هذه التفاصيل كلها هامة... ولا سيما بالنسبة إليك، إليك أنت.

هتف ميتيا وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى متوسلاً:

- أتوسل إليكم يا سادتي! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن، اعدلوا عنه من باب الحياء على الأقل! لقد فتحت لكم نفسي، فإذا أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتنبشوا آلامي... يا إلهي!

وأخفى وجهه بيديه يأساً.

- لا تخف يا ديمتري فيودوروفتش. قال وكيل النيابة. سنقرأ عليك كل ما نسجله، وسنعدِّل عندئذ الفقرات التي لا توافق عليها متقيدين بما تذكره. ولكن يجب عليَّ الآن، مرةً ثالثة، أن ألقي عليك سؤالاً صغيراً: هل يُعقل فعلاً ألّا يكون أحد، ألّا يكون أحد على الإطلاق، قد علم بوجود ألف وخمسمئة روبل مخيطة في الكيس؟ أعترف لك بأن هذا يبدو لي غير معقول كثيراً.

- قلت إن أحداً لم يعلم بهذا الأمر. لم أرو هذا الأمر لأحد. إذن لم تفهموا شيئاً أبداً! دعوني وشأني.

- أرجوكم. سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة، ولكن ما يزال لدينا وقت كثير. لكنني أرجو أن تفكر في ما يلي: إن عندنا عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروي أنت نفسك، حتى لتكاد تصيح بذلك من فوق سطوح البيوت، أنك قد أنفقت في القصف في المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل، لا ألف وخمسمئة وحتى في هذه المرة، قلتَ لعدد من الأشخاص بصدد المال الذي أصبح في حوزتك فجأة، أنه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً...

- الشهود؟ ستجدون من الشهود مئاتٍ لا عشرات! سيأتي مئتا شخص يؤكدون ذلك، وربما جاء ألف شخص! صاح ميتيا.

- هاأنت ترى إذن. لقد سمعك جميع الناس تقول هذا الكلام. وهم جميعاً يؤكدونه اليوم. هل تفهم ماذا تعني كلمة «جـميع الناس» هذه؟

- لا تعني شيئاً! أنا كذبت وكرر الناس كذبتي.

- فلماذا «كذبت»؟ على حد ما تقول؟

لا يعلم ذلك إلّا الشيطان! لعلني كذبت افتخاراً... أو ربما هكذا... أو لأجل المبلغ الذي بذّرْته أو لأنسى ذلك المال الذي خيطته في الكيس... نعم، ذلك هو، ذلك هو الباعث الحقيقي الذي دفعني إلى الكذب... أنا أحس هذا!... على كل حال! كم مرة سبق وطرحتم عليّ هذا السؤال؟ لقد كذبت وكفى! هل يعلم أحد ما الذي يمكن أن يدفع الإنسان إلى الكذب، في بعض الأحيان؟

قال وكيل النيابة بصوت رزين:

- حقاً إن من الصعب أن يعرف المرء يا ديمتري فيودوروفتش، ما قد يدفع الإنسان إلى الكذب. ولكن قل لي: ماذا كانت أبعاد الكيس الذي كنت تحمله معلقاً برقبتك؟ هل كان كبيراً؟

- لا، لم يكن كبيراً.

- ماذا كانت أبعاده تقريباً؟

- بشكل ورقة المئة روبل حين تطوى إلى نصفين.

- هل تستطيع أن ترينا تلك القطع الصغيرة؟

- إنني لا أدري ما الذي صارت إليه.

- أين ومتى نزعت الكيس عن عنقك؟ لقد صرَّحت أنت نفسك بأنك لم ترجع إلى منزله.

- بعد أن تركت فينيا لأذهب إلى برخوتين. نزعته من عنقي وأخرجت منه المال.

- في المساء؟

- لماذا؟ هل كان عليَّ أن أشعل شمعة؟ لقد توصلت إليه باللمس في مثل لمح البصر.

- في الشارع؟ بدون مقص؟

- نعم. حصل ذلك في الشارع. ما الداعي إلى مقصٍ حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها.

- ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ؟

- رميتها.

- أين بالتحديد!

- عجيب! في الساحة! أنَّى لي أن أتذكر المكان الذي رميت فيه الخرقة على وجه التحديد؟ لماذا هذه الأسئلة؟

- ذلك هام جداً يا ديمتري فيودوروفتش: إن هذه الخرقة يمكن أن تكون وثيقة إثبات لمصلحتك؟ من ساعدك في خياطة الكيس على المال، منذ شهر؟

- لم يساعدني أحد. قمت بذلك وحدي.

- أنت تعرف أن تخيط؟

- لا بد أن يعرف الجندي كيف يخيط. ثم إن هذا لا يحتاج إلى أي براعة.

- أين وجدت القماش، أعني تلك الخرقة التي خطتها على المال؟

- هل تسخرون مني؟

- أبداً. ثق أننا لا نرغب في الضحك يا ديمتري فيودوروفتش!

- لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقة. لا بد أنني لممتها من مكان ما.

- كيف يمكن أن تنسى ذلك؟

- أقسم لكم أنني لا أعرف. لعلني قد مزقت أحد الملابس.

- هذا شيء هام جداً. قد نعثر غداً في منزلك على ذلك اللباس الممزق الذي انتزعت

منه قطعة، وربما كان قميصاً من قمصانك. ما نوع نسيج تلك الخرقة؟ هل كانت من كتان أم من قطن؟

- الشيطان يعلم! لحظة... لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس.. كانت الخرقة من قماش خاص... أظن أنني خطت المال في طاقية لصاحبة المنزل الذي أقيم فيه.

- لصاحبة المنزل الذي تقيم فيه.

- نعم، اختلست هذه الطاقية من عندها؟

- اختلستها؟

- أظن أنني أتذكر فعلاً أنني في ذات يوم أخذت طاقية من عندها. كنت في حاجة إلى خرقة، ربما لأمسح قلمي، فأخذت تلك الخرقة دون أن أقول لأحد، لأنها طاقية لا قيمة لها، طاقية بالية من قماش قطني غُسل وأعيد غسله مئة مرة... وبقيت الطاقية مرمية في غرفتي منذ ذلك الحين فلما أردت أن أخبىء تلك الألف وخمسمئة روبل، تناولت الطاقية وخطتها على المال...

- هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً؟

- لا أدري هل هذه الذكرى واضحة جداً. يخيَّل إليَّ أنها الطاقية. ولكن ما قيمة هذا!

- في هذه الحالة قد تستطيع صاحبة المنزل أن تذكر أنها افتقدت طاقية، أليس كذلك؟

- لا، أبداً. إنها لم تلاحظ غياب الطاقية. تلك خرقة عتيقة غير ذات فائدة.

- والإبرة؟ من أين أخذت الإبرة؟ والخيط؟

- أتوقف عن الكلام. أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة. كفى! حسم ميتيا المناقشة وقد نفد صبره.

- إنه لغريب حقاً أن تنسى في أي مكان على وجه الدقة رميت ذلك الكيس في الساحة!

- لكن كنسوا الساحة في الغد، فربما عثرتم عليه. أجاب ميتيا ساخراً. ثم أردف يقول بصوت منهك: هذا يكفي أيها السادة، إنني أرى بوضوح أنكم لا تصدّقونني! إنكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول. وذلك خطأي أنا لا خطأكم أنتم: كان عليَّ أن أسكت بدلاً من أن أفضي بذات نفسي أمامكم في غباء. لماذا، لماذا أسففت فكشفت لكم عن سرِّي؟ وهذا يضحككم! أنا أقرأ هذا في نظراتكم. أنت الذي دفعتني إلى الكلام يا وكيل النيابة. أنتم الآن منتصرون أيها الجلادون الملعونون!

حنى رأسه وأخفى وجهه في يديه. وصمت وكيل النيابة وقاضي التحقيق. وبعد دقيقة، رفع ميتيا رأسه ونظر إليهما دون أن يفكر. إن قسمات وجهه تعبر في هذه المرة عن يأس كامل لا برء منه؛ وبقي جامداً على كرسيه لا ينطق بكلمة كأنه غائب عن نفسه. وكان الوقت أثناء ذلك ينقضي، فلا بد من الانتهاء، ولا يمكن تأخير سماع الشهود. لقد دقت الساعة الثامنة صباحاً، وذابت الشموع منذ زمن طويل. وهذا ميخائيل ماكاروفتش وكالغانوف اللذان غابا عن الغرفة مراراً أثناء الاستجواب، يخرجان الآن من جديد. وإن وكيل النيابة

وقاضي التحقيق يبدوان متعبينِ هما أيضاً إلى أقصى الحدود. والصباح مكفهر، والسماء تغطيها الغيوم، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة. وميتيا ينظر من خلال النوافذ دون أن يفكر.

- هل أستطيع أن ألقي نظرة من النافذة؟ قال ميتيا يسأل نيقولا بارفينوفتش.

- أنظر ما شئت. أجابه هذا الأخير.

فنهض ميتيا واقترب من النافذة. كان المطر ينهمر على الزجاج بقوة. وأمام المنزل يُرى طريق قذر؛ وبعد الطريق، في الضباب الماطر، تُلمح الكتل السوداء، كتل الأكواخ التي تبدو في المطر ملفّعة بمزيد من البؤس والحزن. فكر ميتيا فجأة في «فيبوس ذي الضفائر الذهبية»، وفي ما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر. فقال في نفسه وهو يبتسم ابتسامة مُرة: «هذا صباح كان يناسب مشروعي جداً» ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده، والتفت إلى جلاديه وصاح:

- أيها السادة، أرى أنني خسرت. ولكن ماذا عنها هي؟ قولوا لي، أتوسل إليكم، أسيكون عليها أن تهلك معي. إنها بريئة. وفي لحظة من ضلال اتهمت نفسها أمس بأنها «مسؤولة عن كل شيء». هي لم ترتكب أي خطيئة، هي غريبة عن هذه الدراما كلياً. لقد تألمتُ طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبونني... ألا تستطيعون أن تقولوا لي ما هو المصير الذي ينتظرها؟

بادر وكيل النيابة يجيبه:

- اطمئن إليها يا ديمتري فيودوروفتش. ليس هناك حتى الآن أي سبب يدعونا إلى إقلاق الإنسانة التي تهتم بها، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق خارج القضية نهائياً... وسنعمل من جهتنا كل ما في وسعنا في سبيلها. فلا تخش عليها شيئاً!

- أشكركم يا سادتي. كنت أعرف جيداً أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء. لقد أزحتم عن صدري عبئاً ثقيلاً... ماذا أنتم صانعون بي الآن؟ إنني مستعد.

- نعم. يجب أن نبادر إلى سماع الشهود حالاً، وهذا لا يكون إلّا بحضورك. لذلك...

- ألا يكون من الأفضل أن نحتسي فنجاناً من الشاي أولاً. قاطع نيقولا بارفينوفتش. أعتقد أننا نستحق فنجاناً من الشاي!

فقرروا احتساء الشاي الساخن إذا وجدوا منه في البار (وهذا مرجَّح، وإلّا فهل كان يتغيب ميخائيل ماكاروفتش إلّا لطلب الشاي؟). وبعد الشاي يُستأنف الاستجواب حتى نهايته. أما الإفطار بمعنى كلمة الافطار فيؤجل. واتضح أن هناك شاياً مهياً بالفعل، فجيء به إلى الغرفة. رفض ميتيا في أول الأمر أن يتناول الكأس التي قدمها إليه نيقولا بارفينوفتش، ولكنه غيَّر رأيه بعد لحظة فتناول الكأس واحتسى الشاي بشراهة. كان يبدو مرهقاً بشكل غريب. ما كان لليلة قصف، ولو حفلت بانفعالات عنيفة. لكن ميتيا كان لا يكاد يحافظ على توازنه على كرسيه، وكانت الأشياء الموجودة في الغرفة تدور أمام عينيه من وقت إلى آخر. قال يحدث نفسه: «لحظات وأبدأ بالهذيان».

VIII

أقوال الشهود. الصبيّ

بدأ استجواب الشهود. ولكننا لن نتابع سردنا للتفاصيل، كما سبق وفعلنا حتى الآن. لهذا السبب سوف لن نصف كيف أوضح نيقولا بارفينوفتش لكل شاهد يُستجوب أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملةً، وأنه سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بقسم اليمين؛ ولن نصف الشكليات الإجرائية، كتذييل الشهود لمحضر استجوابهم بتوقيعهم. وحسبنا أن نشير إلى أن الأسئلة التي ألقيت على مختلف الأشخاص إنما دارت في الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل: لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق ديمتري فيودوروفتش، في موكرويه، أثناء سهرة القصف السابقة، في الشهر الماضي، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمئة فحسب، وهل كان معه في الليلة البارحة، في أول سهرة القصف الثانية هذه، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمئة. مع الأسف! لقد شهدوا جميعاً ضد ميتيا، ولم يشهد أحد له. حتى أن عدداً منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعاواه. وكان تريفون بوريستش أول من سُمعت شهاداته. تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أي خجل، فهيئته هيئة رجل مستاء جداً من سلوك المتهم، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعاً قوياً من الصدق، وأتاح له أن يصطنع أوضاعاً فيها كثير من الكرامة والمهابة. وكان موجزاً في كلامه، متحفظاً في أقواله، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يستبقها، ولكنه أجاب عن كل سؤال بكثير من الدقة والروية. وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذي أُنفق في الشهر الماضي لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل، وأن جميع فلاحي المنطقة يمكنهم أن يؤكدوا ذلك والجميع. قد سمع «ديمتري فيودوروفتش» يتحدث بنفسه عن ثلاثة آلاف روبل: يكفي المبلغ الذي صرفه على نساء الزيغان. وحدهن أخذن أكثر من ألفين روبل. وختم صاحب النُّزل كلامه بقوله:

- لم أكد أعطيهم خمسمئة روبل. علّق ميتيا على ذلك وهو مكفهر الوجه: من المؤسف أنني لم أحسب، لأنني كنت ثملاً.

كان ميتيا جالساً في هذه المرة إلى جانب، جاعلاً ظهره إلى الستائر، وكان يبدو كالح الوجه حزين النفس متعباً، يستمع إلى أقوال الشهود مستسلماً بدون انفعال، فكأنه يقول لهم: «هيَّا... قولوا ما شئتم. يستوي عندي كل شيء بعد الآن!».

لقد بذرت أكثر من ألف روبل يا ديمتري فيودوروفتش. ردَّ عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة. كنت ترمي إليهم المال بدون حساب، وكانوا يلتقطونه عن الأرض. إن هؤلاء الناس أوغاد. ذلك معروف.. هم لصوص خيل. وقد طُردوا من المنطقة، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك في تلك الليلة. لقد رأيت بعيني الحزمة التي كنت تمسكها بيديك. ولئن لم أعدَّ الأوراق المالية التي كانت تضمها الحزمة، لأنك لم تتح لي ذلك، فإنني أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيراً من ألف وخمسمئة روبل... إذا صدق النظر... أتظن أننا لم نر مبالغ ضخمة في حياتنا... إننا نستطيع نحن أيضاً أن نقدّر ما تضمه حزم الأوراق المالية...

أما عن المبلغ الذي جاء به ميتيا في الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريستش بلهجة قاطعة بأن ميتيا ما إن نزل من عربة الترويكا حتى قال له إن معه ثلاثة آلاف روبل.

- ما هذا يا تريفون بوريستش؟ حاول ميتيا أن يحتج قائلاً: أأنا زعمت بمثل هذا الجزم أن معي ثلاثة آلاف روبل؟

- أنت قلت ذلك يا ديمتري فيودوروفتش! وقد قلته بحضور أندره. هو مايزال هنا لم ينصرف، فاسألوه. وبعد ذلك بقليل صحت تقول في القاعة، وأنت تغدق على أفراد الجوقة، إنك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات، جاعلاً الثلاثة الآلاف الأولى في حسابك طبعاً. ولقد سمع كلامك ستيفان وسيمون، وسمعه فومتش الذي كان إلى جانبك، فلعله يتذكره هو أيضاً...

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالستة آلاف روبل اهتماماً شديداً. إن هذه المعادلة الجديدة تخلب عقولهم: ثلاثة آلاف في المرة الأولى زائد ثلاثة آلاف في هذه المرة يعني ستة آلاف فعلاً.

واستُجوب كل الذين ذكرهم تريفون بوريستش، وهم ستيفان وسيمون، والحوذي أندره، وكذلك بيوتر فومتش كالغانوف. فأما الفلاحان والحوذي فقد أيَّدا تصريحات صاحب النزل بلا تردد. وقد سُجِّلت، بوجه خاص، التفاصيل التي أوردها أندره عن الحديث الذي جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله ميتيا: «أسيذهب، ديمتري فيودوروفتش، إلى جهنم أم إلى الجنة، وهل يُغفر له في العالم الآخر، أم لا». وقد تذكر هيبوليت كيريلوفتش في هذه المناسبة مواهبه الرفيعة في «النفاذ السيكولوجي»، فاستقبل ما رواه أندره بابتسامة ناعمة، وأمر بضم هذا التصريح إلى الملفّ.

بناء على استدعاء المحقق كالغانوف، دخل كالغانوف مشمئزاً القاعة رغماً عنه، وتحدث مع وكيل النيابة وقاضي التحقيق كأنه يراهما لأول مرة، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل، والتقاهما مراراً في المجتمع. وقد بدأ كلامه بقوله «إنه يجهل كل شيء عن هذه القضية، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها». ولكنه اضطر على الموافقة أنه سمع صيحة ميتيا في موضوع الستة آلاف روبل، وأنه كان إلى جانبه في تلك اللحظة. فلما سئل كم كان مع ميتيا من المال قال: «لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً». وأكَّد في مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشَّا أثناء اللعب بالورق. وذكر كذلك، بعد إلحاح القضاة عليه إلحاحاً متكرراً، أن ميتيا قد حظي، بعد طرد البولنديين، برضى أغرافينا ألكسندروفنا، وأن هذه الأخيرة قد أكدت أنها تحبه. وقد تكلم كالغانوف عن أغرافينا ألكسندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام، ولم يسمح لنفسه مرةً واحدة بأن يسميها «غروشنكا». ورغم الانزعاج الواضح الذي كان يشعر به هذا الشاب من اضطراره إلى الإدلاء بشهادته، فإن هيبوليت كيريلوفتش استمر يستجوبه مدة طويلة، حتى عرف منه جميع التفاصيل التي تألفت منها خلال الليل «رواية» ميتيا. وقد ترك ميتيا للشاب كالغانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه، وصُرف الشاب أخيراً، فابتعد دون أن يخفي استياءه.

ثم تم استجواب البولنديين أيضاً. كانا نائمين في الغرفة التي حُبسا فيها، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل، وأسرعا يرتديان ثيابهما عندما سمعا وصول القضاة، لأنهما كانا يعتقدان أنهما سيستدعيان للإدلاء بشهادتيهما. تقدما نحو القضاة بوقار، ولكن بشيء من الخوف. وعُرف عندئذ أن «السيد» الصغير الذي كان يبدو أنه هو الشخصية الأكثر أهمية من الشخصيتين، موظف متقاعد من الدرجة الثانية عشرة، قد خدم في سيبيريا طبيباً بيطرياً. وأن اسمه موزيالوفكتش. أما «السيد» فروبلفسكي فقد صرح بأنه «طبيب أسنان حر»، وهذا اصطلاح يعني في الروسية أنه «خالع أسنان». إثر دخول البولنديين الغرفة التفتا نحو

ميخائيل ماكاروفتش ليجيبا عن الأسئلة التي كان يلقيها عليهما نيقولا بارفينوفتش. كان واضحاً أنهما يتصوران أن رئيس الشرطة، المنتحي قليلاً، هو أرفع الشخصيات الموجودة في الغرفة رتبةً، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما: «سيادة الكولونيل». ولم يعزما على الاتجاه بحديثهما إلى نيقولا بارفينوفتش إلّا بعد احتجاجات كثيرة من ميخائيل ماكاروفتش، مصحوبة بإيضاحات وتعليمات. وقد تبيَّن أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية بشكل ممتاز، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق. عرض «السيد» موزيالوفكتش علاقاته الحاضرة والماضية بغروشنكا، متكلماً بلهجة مسرحية، مظهراً كثيراً من الحرارة والكبرياء، فكان من شأن ذلك أن أغضب ميتيا وأفقده السيطرة على نفسه فصاح يقول إنه لا يحتمل أن يتحدث إنسان «حقير» على هذا النحو أمامه. فسرعان ما ألحَّ «السيد» موزيالوفكتش على أن يُسجَّل في المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير». بدا ميتيا يغلي من الغضب.

- حقير، نعم، حقير! سجلوا هذا الكلام، وسجلوا أيضاً إنني لا أعبأ بالمحضر. ولن يمنعني المحضر من أن أصرخ في وجهك مرة أخرى قائلاً: أنت حقير!

طلب نيقولا بارفينوفتش تسجيل الإهانة، ولكنه عرف بعد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة. فبعد افتقاده ميتيا بقساوة إلى التزام الهدوء بلهجة قاسية، توقف فوراً عن إلقاء أسئلة جديدة تتناول الجانب الروائي من القضية. وعلى وجه الاجمال، كان في أقوال «السيدين» البولنديين نقطة لفتت انتباه القاضيين بصورة خاصة، وأثارت فيهما اهتماماً شديداً، ألا وهي محاولة ميتيا أن يتخلص من «السيد» موزيالوفكتش بأن يعطيه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن غروشنكا، منها سبعمئة روبل ينقده إياها فوراً، والباقي وهو ألفان وثلاثمئة روبل، يدفعه له «صباح الغد في المدينة». وقد ذكر «السيد» البولندي أن ميتيا أقسم له أنه لا يملك المبلغ كاملاً في موكرويه، ولكنه يملكه مخبأً في المدينة. احتدّ ميتيا حين سمع هذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده بإكمال المبلغ صباحاً في المدينة. غير أن «السيد» فروبلفسكي أيد أقوال رفيقه. ففكَّر ميتيا قليلاً، ثم وافق، مقطباً، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذي يذكره «السيدان» البولنديان، وقال إنه كان مهتاجاً جداً أثناء ذلك الحديث، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام. وهكذا بدا ثابتاً الآن (وذلك ما لم يُفتهم الاستناد إليه فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التي صارت إلى يدي ميتيا إنما هو مخبأ في المدينة، وربما في موكرويه نفسها. بذلك تبدد ذلك الظرف الذي كان يعرقل الاتهام، أعني كون ميتيا لا يحمل إلّا ثمانمئة روبل، وهذا أمر كان إلى ذلك الحين العنصر الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في دعم صدق أقواله، وإن تكن دلالة هذا العنصر ضعيفة. هكذا انهارت المشاهدة الوحيدة التي كان يمكن أن تدافع عن ميتيا. فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يأخذ ما ينقصه، وهو ألفان وثلاثمئة روبل، لكي يدفع «للسيد» البولندي، مادام كل ما يملكه هو ألف وخمسمئة، وما دام قد وعد بإكمال المبلغ في الغد، أجاب ميتيا بصوت جازم بأن ما كان ينوي أن يعطي البولندي غداً، لم يكن مالاً سائلاً، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه في أراضي تشرماشنيا، وهي الحقوق نفسها التي سبق أن عرضها على التاجر سامسونوف وعلى السيدة خوخلاكوفا. فابتسم وكيل النيابة من «سذاجة هذا التملص».

- هل تعتقد أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلاً عن ألفين وثلاثمئة روبل عداً ونقداً؟

- طبعاً كان سيقبل. أجاب ميتيا بثقة. ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفي روبل. إن في وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل، وربما قبض ستة آلاف. كان سيسرع إلى توكيل بعض المحامين، اليهود أو البولنديين، فيرغم العجوز على التخلي لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا!

من البديهي أن تكون أقوال «السيد» موزيالوفكتش قد أضيفت، بجميع تفاصيلها إلى المحضر. وعلى ذلك صُرف البولنديان. ولم يتطرق أحد إلى موضوع الغش في اللعب بالورق. لقد كان نيقولا بارفينوفتش شاكراً لهما تصريحاتهما فلم يشأ أن يصدِّعهما بتفاهات، لا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون خلافاً في اللعب بين سكارى. ألم تكن الليلة كلها حافلة بفضائح وحوادث شتى؟ هكذا بقيت المئتا روبل ملكاً حلالاً «للسيدين» البولنديين.

ثم تم استدعاء العجوز ماكسيموف. فظهر وهو يرتجف، واقترب من القضاة بخطًى صغيرة، حزيناً جداً ويرتدي ثياباً رثة. لقد كان طوال الوقت في صحبة غروشنكا، صامتاً لا يقول شيئاً. يمسح عينيه بمنديل أزرق ذي مربعات، كما روى ذلك ميخائيل ماكاروفتش فيما بعد. وقد بلغ من فرط اليأس أن اضطرت المرأة الشابة إلى تهدئته ومؤاساته عدة مرات. اعترف العجوز دفعةً واحدة، والدموع في عينيه، أنه يعتبر نفسه مذنباً لأنه اقترض من ديمتري فيودوروفتش عشرة روبلات «بسبب شدة فقره»، وأنه مستعد لردِّها... فلما سأله نيقولا بارفينوفتش هل يعلم كم كان في يدي ميتيا من مال، لأنه استطاع أكثر من أي شخص آخر أن ينعم النظر في الحزمة حين تناول العشرة روبلات، أجاب على الفور باقتناع: «كان في الحزمة نحو عشرين ألفاً».

- هل أتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل؟ سأله نيقولا بارفينوفتش مبتسماً.

- هل رأيت؟ طبعاً رأيت، ولكنني لم أرَ عشرين ألفاً بل رأيت سبعة آلاف، وذلك حين رهنت زوجتي قريتنا الصغيرة. لقد تباهت أمامي بالمبلغ الذي أُعطيته، وأذنت لي أن أنظر إلى الحزمة، ولكن من بعيد. كانت حزمةً كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التي كانت مع ديمتري فيودوروفتش.

أطلقوا سراحه بسرعة. وجاء أخيراً دور غروشنكا. كان القضاة يخشون ردة فعل ميتيا حين يراها، حتى لقد اعتقد نيقولا بارفينوفتش أن من الضروري أن يقول له بضع كلمات من باب النصح. ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلاً، كأنه يريد أن يقول: «لن يحدث اضطراب!».

إن ميخائيل ماكاروفتش هو الذي أدخل غروشنكا. وقد دخلت عابسةً متجهمة الوجه، ولكن على هدوء ظاهر، وجلست بدون ضجة على كرسي أشار لها إليه نيقولا بارفينوفتش أمامه. وكانت شاحبة الوجه جداً، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد، وكانت تتلفع بشالها الأسود الرائع. والحق أنها كانت تشعر برعشات حمى هي بداية ذلك المرض الطويل الذي أصيبت به منذ تلك الليلة. وكان من شأن قسماتها الرضية ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادىء أن أحدثت في نفوس الجميع أثراً بالغاً. حتى لقد «فتن» بها نيقولا بارفينوفتش بعض الشيء. فقد روى فيما بعد، حين وصف مشاعره في إحدى ندوات المجتمع، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك. وقال إنه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين إلّا «غانية ريفية». وقد صاح يقول ذات مرة في مجتمع نسوي: «إن لها آداباً عظيمة»، فأحدثت هذه الصيحة استياءً شديداً في نفوس سامعاته، فسرعان ما وصفنه بأنه «فاسق»، فسُرَّ هو بهذا الوصف سروراً عظيماً. وحين دخلت غروشنكا الغرفة ألقت على ميتيا نظرة خاطفة، فتأملها قلقاً، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه. بعد التحذيرات الشكلية والأسئلة الأولى التي لا بد منها، سألها نيقولا بارفينوفتش متردداً بعض الشيء، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب، «ما هي علاقاتك بالملازم المتقاعد ديمتري فيودوروفتش كارامازوف؟» فأجابته غروشنكا بصوت حازم وعذب:

- كنا على علاقة بحيث استقبلته في منزلي أثناء هذا الشهر الأخير.

وأُلقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقاً محرجاً، فكانت تجيب في كل مرة بصراحة تامة. وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها «في بعض الساعات» ولا شك، غير أنها لم تكن تحبه، لكنها أرادت أن تغويه «بدافع الخبث المنحط وحده»، كما كانت تلعب «بالعجوز» من جهة أخرى؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جداً من فيودور بافلوفتش، ومن رجال آخرين أيضاً، ولكن ذلك لم يكن عندها إلّا موضوعاً جديداً للتسلية. أما فيودور بافلوفتش فإنها لم تزره في يوم من الأيام، لأنها كانت تسخر منه طوال الوقت. وأضافت تقول:

- كانت لي خلال هذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك. كنت لا أفكر فيهما، لأنني كنت أنتظر وصول رجل اعتبره آثماً في حقي.. ومهما يكن من أمر، فأنا أعتبر أنه ليس لكم أن تتدخلوا في هذا الشأن، وليس عليَّ أن أروي هذه التفاصيل، لأن هذا من شؤوني الخاصة.

فخضع نيقولا بارفينوفتش بسرعة أمام هذه الحجة، فكف عن سؤال غروشنكا عن العناصر الروائية في القضية، وبادر يواجه النقطة الأساسية مباشرة، أعني مسألة الثلاثة آلاف روبل. فأيدت غروشنكا أن المال الذي أُنفق في موكرويه في الشهر الماضي يصل إلى ثلاثة آلاف روبل. فلئن لم تعدَّ المال، لكنها سمعت ديمتري فيودوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم.

- هل أسرَّ إليك بهذا الرقم على انفراد أم بحضور أشخاص آخرين؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يُذكر لآخرين؟ سألها وكيل النيابة.

فأوضحت غروشنكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين، ولكنه حدثها عنه أيضاً، على انفراد وبحضور آخرين.

- هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات؟ سألها وكيل النيابة مرة أخرى.

فأجابت: بل عدة مرات.

رضي هيبوليت كيريلوفتش عن هذه التصريحات رضًى تاماً. وقد أتاحت تتمة الاستجواب أن يُعرف، عدا ذلك، أن غروشنكا كانت على علم بمصدر هذا المبلغ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترينا إيڤانوفنا.

- ألم تسمعي أبداً أن المبلغ الذي أُنفق في القصف في الشهر الماضي لم يكن ثلاثة آلاف روبل، بل دون ذلك كثيراً، وأن ديمتري فيودوروفتش قد احتفظ بنصف المال لنفسه؟

- لا، أبداً. لم أسمع هذا في يوم من الأيام. قالت غروشنكا.

وإذ طلبوا إلى غروشنكا أن تزيد هذه النقطة وضوحاً إلى أن تصرح بأن ميتيا، خلافاً لذلك، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبقَ معه كوبيك واحد. وختمت غروشنكا كلامها قائلة:

- وكان يأمل دائماً أن يأخذ مالاً من أبيه.

- هل اتفق له أن قال بحضورك... أو ذكر عرضاً أو صاح وهو في سورة من غضب أنه ينوي أن يقتل أباه؟ هنا تدخل نيقولا بارفينوفتش فسألها:

- قال ذلك مع الأسف! أجابت غروشنكا متنهدة.

- أقاله مرةً واحدة أم مراراً؟

- مراراً، ولكن في لحظات الغضب دائماً.

- هل صدّقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه؟

- لا، لم أصدق هذا في يوم من الأيام، لأنني كنت على ثقة بنبل أخلاقه. قالت غروشنكا بلهجة حازمة.

فصاح ميتيا فجأة:

- اسمحوا لي أيها السادة! هل أستطيع أن أقول كلمة، كلمة واحدة، بحضوركم، لأغرافينا ألكسندروفنا؟

- قلْ! قال نيقولا بارفينوفتش:

- أغرافينا الكسندروفنا. قال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه: صدقيني، فإن الله على ما أقول شاهد: أنا لم أسفح دم أبي!

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه. فنهضت غروشنكا، ورسمت إشارة الصليب وهي تتجه إلى إيقونة، وقالت بصوت حار مؤثر: الحمد لله!

ثم أضافت مخاطبةً نيقولا بارفينوفتش بينما كانت تعود لتجلس: إن ما قاله هو الحقيقة، وعليكم أن تصدِّقوه. أنا أعرفه. قد يمزح لعباً أو عناداً، ولكنه لن يكذب في يوم من الأيام مخالفاً ضميره. سيقول الحق دائماً في الأحوال الخطيرة. كونوا من هذا على يقين!

- شكراً أغرافينا ألكسندروفنا! قال ميتيا بصوت مرتجف: إن أقوالك قد واست قلبي.

وحول الأسئلة عن المال الذي كان مع ميتيا البارحة، أجابت غروشنكا بأنها لم تكن تعرف مقداره، ولكنها سمعت ميتيا يقول عدة مرات ولعدة أشخاص أنه يحمل ثلاثة آلاف روبل. وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت غروشنكا إن ميتيا اعترف لها، لها وحدها، بأنه «سرقه» من كاترينا إيڤانوفنا، وأنها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة، وأن عليه أن يرد إليها المال في الغد. فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذي يدعي ميتيا أنه سرقه من كاترينا إيڤانوفنا - أهو الثلاثة آلاف روبل التي كانت معه البارحة، أم هو الثلاثة آلاف روبل التي بدَّدها بموكرويه في الشهر الماضي - أجابت بأن ميتيا قد تكلم على الثلاثة آلاف روبل التي أنفقت في الشهر الماضي، وأن هذا ما فهمته هي من كلامه.

تم أخيراً تحرير غروشنكا. وأسرع نيقولا بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع العودة إلى المدينة. وإذا كان في وسعه أن يعمل شيئاً من أجلها، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيىء لها خفراً، فإنه سوف يسعده أن...

- أشكر لك لطفك. أجابته غروشنكا وهي تنحني انحناءة توديع يسيرة: سأعود بصحبة هذا العجوز المسكين، هذا الملّاك الذي أرغب في أن أوصله إلى منزله. وبانتظار ذلك أوثر أن أبقى تحت، إذا أذنتم بذلك، ريثما تقرروا مصير ديمتري فيودوروفتش.

كان ميتيا هادئاً بعد خروج غروشنكا، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة الجأش

وطمأنينة البال، ولكن ذلك لم يدم إلّا لحظة قصيرة. إن وهناً جسمياً شديداً كان يغزوه شيئاً بعد شيء، وإن عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب؛ ولم يكن قد بقي شهود يُستمع إليهم. وقد بدأت كتابة المحضر في صورتها الأخيرة. فها هو ميتيا ينهض عن كرسيه، ويتجه إلى زاوية الغرفة قرب الستارة، حيث تتمدد حقيبة كبيرة مغطاة بسجادة، فسرعان ما ينام، ويرى في منامه حلماً غريباً لا يتناسب مع هذه الظروف في شيء من الأشياء - رأى نفسه في عربة تجتاز سهوباً في المنطقة التي كان قد خدم فيها ضابطاً، والعربة يقودها خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوذياً. كان ميتيا يشعر ببرد. هذا مطلع شهر تشرين الأول/أكتوبر. الثلج يتساقط قطعاً كبيرة رطبة ما إن تلامس الأرض حتى تذوب. الفلاح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع ملوِّحاً بسوطه. له لحية حمراء طويلة جداً. ما هو بالعجوز. قد يكون في الخمسين من عمره. إنه فلاح بسيط يرتدي قفطاناً فقيراً أشهب. وهذه قرية صغيرة تتراءى في مكان قريب. يرى الناظر أكواخها السوداء الكئيبة وقد احترق نصفها ولم يبقَ منها إلّا هياكل محترقة. وعند مخرج القرية تصطف نساء، كثرة من النساء. إنهن هزيلات بشكل رهيب. وجوههن بلون التراب. بينهن واحدة تلفت النظر خاصة، قد وقفت على حافة الطريق. هي امرأة بارزة العظام طويلة القامة، تبدو في الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين. وجهها مستطيل جاف. وعلى ذراعيها طفل يبكي، وثدياها قد نضبا، فلم يبق فيهما قطرة من حليب. والطفل يبكي، وما ينفك يبكي بلا انقطاع، ماداً ذراعيه الصغيرتين، العاريتين البائستين اللتين ازرقت قبضتاهما من شدة البرد.

- لماذا يبكون؟ سأل ميتيا حين مرت العربة أمامهم مسرعة.

- الصبي هو الذي يبكي. أجابه الحوذي.

فوجىء ميتيا من قول الفلاح: «الصبيّ»، بدلاً من أن يقول: «الطفل». أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية. إن في كلمة «الصبي» من العطف ما ليس في كلمة «الطفل».

ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغباوة سؤاله:

- ولكن لماذا يبكي؟ لماذا ذراعاه عاريتان؟ لماذا لا يغطون ذراعيه؟ أجاب الفلاح:

- الصبي قد تخدر من البرد؛ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه.

- ولكن لماذا؟ لماذا؟ عَنَدَ ميتيا فظل يسأل في غباء.

- هؤلاء نساء فقيرات. احترقت منازلهن، ولم يبقَ معهن خبز، فهن يستجدين.

قال ميتيا وكأنه لم يفهم:

- لا، لا: لماذا هن هنا، أولئك الأمهات اللواتي احترقت منازلهن، لماذا هن فقيرات إلى هذه الدرجة، لماذا هذا الصبي يبكي، ولماذا هذه السهوب عارية؟ نعم، لماذا لا يتعانقن جميعاً، لماذا لا يرتمي بعضهن في أذرع بعض منشدات أغنية فرح؟ لماذا أصبحت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس، لماذا لا يطعمن الطفل؟

وأحس ميتيا في نفسه أن هذه الأسئلة سخيفة، ولكنه يشعر بحاجة قوية إلى إلقائها، ويعرف أنها يجب أن تلقى. وهو يشعر كذلك بشفقة كبيرة تلهب قلبه، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل، وهو يريد أن يبكي، ويتمنى أن يفعل شيئاً ليساعدهن جميعاً، حتى يكف الصبي عن الأنين، وحتى تنقطع دموع أمه ذات الوجه الهزيل المغبر، وحتى لا يبكي أحد في هذا العالم بعد اليوم. يريد أن يعمل شيئاً على الفور، بغير انتظار، وبدون أن يحسب حساب

أي شيء، مندفعاً اندفاعاً جامحاً يتميز به آل كارامازوف.

- سأكون معك أنا أيضاً، لن أتركك بعد الآن، سأبقى إلى جانبك مدى الحياة.

قال على مقربة منه صوت غروشنكا الرقيق الحنون.

التهب قلبه مندفعاً نحو ضياء بعيد. يريد أن يعيش، أن يعيش، أن يمشي، أن يمشي بلا توقف نحو ذلك الضياء الذي يناديه، أن يسافر فوراً، بمزيد من السرعة، على الفور!

- أين؟ كيف؟ قال فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الحقيبة، كأنه يصحو من غيبوبة.

وأضاءت بسمة مشرقة وجهه. كان نيقولا بارفينوفتش واقفاً أمامه يطلب منه أن يسمع قراءة المحضر وأن يوقعه. أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر. ولم ينتبه إلى كلام نيقولا بارفينوفتش، لأنه لاحظ أن وسادةً كانت موضوعة تحت رأسه، مع أنه لم يكن ثمَّة وسادة حين استلقى على الحقيبة منهار القوى. فسأل وهو يشعر بامتنان متحمس، وفي عينيه دموع، كأنه قد مُنَّ عليه بفضل عظيم:

- من وضع وسادة تحت رأسي؟ من هو هذا النبيل الذي أشفق عليّ؟

غير أن الرجل الذي قام بالمبادرة بقي مجهولاً. لعل أحد الشهود المطلوبين أو لعل كاتب نيقولا بارفينوفتش هو الذي فكر في إحضار الوسادة، لكن نفسه كانت ترتعد من كثرة الدموع. اقترب من الطاولة، وأعلن أنه سيوقع على كل ما يشاؤون أن يضع توقيعه عليه.

- رأيت حلماً جميلاً يا سادتي، قال بصوت غريب، بنوع من الوجوه الجديدة جداً، كأنه يشع فرحاً.

IX

اقتادوا ميتيا

عندما تمَّ توقيع المحضر نظر نيقولا بارفينوفتش إلى المتهم بأبهة، وقرأ عليه نص «قرار» ينص على أنه في يوم كذا، سنة كذا، وفي مكان كذا، وبعد أن استجوب قاضي تحقيق المحكمة الفلانية في الحي الفلاني، فلاناً (أي ميتيا)؛ بصفته متهماً بهذه أو تلك من الجرائم (كل أخطائه حددت بدقة)، رغم إنكاره التهمة المنسوبة إليه، لم يكن قادراً على أن يبرز أي وثيقة كي يبرىء نفسه؛ ونظراً إلى التهم المنسوبة إليه من الشهود (وثُليت قائمة بأسماء الشهود)، ونظراً إلى ظروف القضية، قد قرر قاضي التحقيق، بالاستناد إلى مواد القانون (وتُليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن.. حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة، وأن تبلَّغ صورة من هذا الحكم إلى وكيل النيابة، الخ. الخلاصة: أُعلم ميتيا أنه معتقل، وأنه سينقل إلى المدينة ليسجن في مكان ليست الإقامة فيه بالممتعة. وقد أصغى ميتيا إلى قراءة هذه الورقة بانتباه، ولكنه رفع كتفيه قائلاً:

- ليكن ما تشاؤون يا سادتي... لست أؤاخذكم، أنا مستعد... إنني أعرف أنكم ما كان بإمكانكم أن تفعلوا غير ما فعلتم.

فشرح له نيقولا بارفينوفتش، بهدوء، أن موريس مافريكيفتش الذي كان مصادفة في المكان، هو الذي سيقتاده.

- لحظة يا سادة! صاح موجهاً كلامه إلى جميع الحضور في القاعة: نحن جميعاً قساة، نحن جميعاً وحوش، نحن سبب الدموع التي تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفال الرضَّع، ولكنني أنا - لنحسم هذا الآن - أنا هو الوغد، الأفعى الأكثر سفالة. إنني أعترف بهذا. وما مرَّ يوم في حياتي إلّا وأقسمت فيه، وأنا ألطم صدري، على أنني سأصلح أمري لأقوّم اعوجاجي، ولكنني كنت أهوي إلى أخطائي في الغد. إنني أدرك اليوم أن رجالاً مثلي محتاجون إلى أن يضربهم القدر، محتاجون إلى أن يضربهم القدر ضربة تدمِّر كيانهم وتوقظ في أنفسهم قوى الحقيقة العليا. ما كان لي أبداً، أبداً، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسي! ولكن الصاعقة قد نزلت عليَّ. أرضى ألم هذا الاتهام الذي وجِّه إليّ والعار الذي تلطخ به شرفي أمام الناس. أريد أن أتألم، وأن أتطهر بالألم. لأنني سأفدي نفسي بالألم، أليس هذا صحيحاً أيها السادة؟ ولكنني أؤكد لكم آخر مرة: أنني لم أسفح دم أبي! إنني أقبل العقاب لا على قتله، بل على أنني أردت أن أقتله، وربما كنت سأقتله في النهاية... ولكنني سأكافح لدفع التهمة عن نفسي، فاعلموا هذا! سأدافع عن نفسي حتى النهاية، وسيقرر الله مصيري! إلى اللقاء أيها السادة. وسامحوني على ما ظهر مني من غضب أثناء الاستجواب. آه، ما كان أغباني عندئذ! بعد بضع ثوان لن أكون إلّا سجيناً؛ ولآخر مرة يمد ديمتري فيودوروفتش كارامازوف يده إليكم مصافحاً كرجلٍ حر طليق. وإني إذ أودعكم أودِّع العالم..

بدأ صوته يرتجف، وقدم يده، لكن نيقولا بارفينوفتش الذي كان أقرب الحضور إليه، سحب يده فجأة بحركة متشنجة. فلاحظ ميتيا ذلك فارتعش وسقطت يده.

- لم ينته التحقيق بعد. دمدم نيقولا بارفينوفتش محرجاً: وسنستأنفه في المدينة. وأنا من جهتي أتمنى لك النجاح فيما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك. لقد كنت أميل دائماً يا ديمتري فيودوروفتش إلى أن أعتبرك إنساناً سيئ الحظ إن صح التعبير، لا إنساناً مجرماً... ونحن جميعاً مستعدون - إذا جاز لي أن أنطق بلسان الآخرين أيضاً - لأن نرى فيك شاباً نبيل الخلق في قرارة نفسه، لكنه، مع الأسف، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعاً ربما كان فيه إفراط. وحين نطق القاضي بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضئيل وضع مهابة قصوى ووقار. وأحس ميتيا فجأة أن هذا «الولد الصغير» سيمسكه من ذراعه فينتحي به جانباً ويستأنف معه حديثه الأخير عن «البنات الصغيرات». هل يتصور أحد أية خواطر غريبة شاذة يمكن في ظروف كظروف هذه اللحظة أن تسطع في ذهن الإنسان، ولو كان هذا الإنسان مجرماً يُساق إلى التعذيب؟

- أنتم أناس طيبون وإنسانيون. فهل بإمكاني أن أراها مرة أخيرة لأودعها؟ سأل ميتيا.

- طبعاً... ولكن، بالنظر إلى... باختصار.. لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود.

- لا مانع لدي.

ذهب بعضهم يُحضر غروشنكا. ولكن الوداع كان موجزاً، وهذا ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش. انحنت غروشنكا تحيي ميتيا تحية عميقة. وقالت له:

- قلتُ إنني سأكون لك إلى الأبد. سأصحبك حيثما تذهب، مهما يكن مصيرك. أستودعك الله، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنباً. واختلجت شفتاها، وانهمرت الدموع من عينيها.

- سامحيني يا غروشنكا، اغفري لي أنني أحببتك. وفقدتك بسبب الحب.

أراد ميتيا أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه توقف عن الكلام. وسرعان ما وجد نفسه محاطاً برجال لم يغب عن أنظارهم. وتحت، أمام درجات الباب الذي وصل إليه الليلة البارحة على عربة أندره محدثاً ضجة كبيرة، كانت تنتظره عربتان. إن موريس مافريكيفتش، وهو رجل سمين قصير القامة مغضَّن الوجه، يبدو سيء المزاج قد أحنقه طارىء ما، فهو يغضب ويصيح. وها هو يدعو ميتيا إلى ركوب العربة بلهجة اعتبرها ميتيا مسرفة في الخشونة. قال ميتيا يحدّث نفسه: «حين كنت أسقيه خمراً في الكاباريه، كان يتصرّف غير ما يتصرّف الآن.». وظهر تريفون بوريستش في أسفل درجات الباب أيضاً. واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تحدق إلى ميتيا.

- سامحوني! هتف ميتيا لهم من مكانه.

- سامحنا أنت أيضاً.

- أنت أيضاً سامح يا تريفون بوريستش!

ولكن صاحب النزل لم ينظر إليه. لعله كان مشغولاً جداً، هو أيضاً كان يصرخ ويتحرك منهمكاً: والحق أن العربة الثانية التي يجب أن يركبها خفيران من رجال موريس مافريكيفتش لم تكن بعد مستعدة للسفر. كان الفلاح قصير القامة الذي كلِّف سوق العربة يصرُّ على أن يزعم، بينما هو يرتدي قفطانه، أن الدور دور آكيم، لا دوره هو، في القيام بهذه المهمة. ولكن أين آكيم؟ إن أحداً لم يستطع العثور عليه. لقد بحثوا عنه في كل مكان.

والفلاح قصير القامة مايزال يصرُّ ويتوسل أن ينتظروه.

يقول:

- لكن هؤلاء الناس هم وقحون يا موريس مافريكيفتش، هتف تريفون بوريستش! لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبيكاً، فشربت بها خمراً ورحت تصرخ. يدهشني يا موريس مافريكيفتش لطافتك تجاه هؤلاء الفلاحين الأوغاد. ذلك كل ما أستطيع أن أقوله.

- لماذا هذه العربة الثانية؟ قال ميتيا. تكفينا عربة واحدة، ألا تظن ذلك يا موريس مافريكيفتش؟ إنني لن أتمرد ولن أزعجك في شيء! لا حاجة إلى خفر من أجلي!

- أرجوك يا سيد، أن تكلمني كما يجب إذا كنت لم تتعلم بعد. أنا لست رفيقك، وإنني أمنعك من مخاطبتي بصيغة المفرد. مفهوم؟ أما نصائحك ففي وسعك أن تمتنع عن إسدائها إليَّ في المستقبل.

كان واضحاً أنه يسعده أن يفرِّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه.

سكت ميتيا. وكان قد احمر بشدّة. وها هو بعد لحظة يشعر ببرد. لقد توقَّف المطر عن الهطل، ولكن السماء الشهباء ملبدة بالسحب، وأن ريحاً جافة جداً تسفع وجهه. تساءل ميتيا بينه وبين نفسه وهو يضم كتفيه في تشنج: «أهذه ارتعاشة حمًى؟». وركب موريس مافريكيفتش العربة أخيراً. جلس في مكانه ثقيلاً، واسترخى على راحته دافعاً ميتيا إلى زاوية المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك. الحق أنه كان معتكر المزاج جداً، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه المهمة التي عهد إليه بها.

- استودعك الله يا تريفون بوريستش! صاح ميتيا مرة أخرى، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب صاحب النزل في هذه المرة بروح المودة، وشعر بأن الغضب هو الذي انتزع منه هذه الصيحة انتزاعاً بغير إرادته.

بقي تريفون بوريستش ساكناً لا يتحرك، واضعاً يديه وراء ظهره. وحدَّق إلى ميتيا دون أن يجيب، ناظراً إليه نظرة مثقلة بالكبرياء زاخرةً بالاستنكار.

ودوَّى صوت كالغانوف يقول فجأة وقد انبجس لا أحد يعرف من أين:

- الوداع يا ديمتري فيودوروفتش، الوداع!

كان كالغانوف يركض نحو العربة عاري الرأس، ماداً يده إلى ميتيا، فاتسع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه، قائلاً له:

- وداعاً أيها الصديق الشهم. لن أنسى كرمك ما حييت! ولكن العربة تحركت، فانفصلت يداهما، ورنّت الجلاجل. اقتيد ميتيا.

انسحب كالغانوف إلى المدخل، فجلس في زاوية، واضعاً رأسه بين يديه، وأخذ يبكي. بقي هكذا زمناً طويلاً، كصبي صغير، لا كشاب في العشرين من عمره. لقد كان شبه مقتنع، بأن ميتيا قد قتل أباه. فكان يهتف بغير انقطاع، وهو يشعر بحسرة مرة ولوعة شديدة: «ما هي نوعية هؤلاء البشر؟ فهم قادرون على القيام بأي شيء سيئ». ما عاد يشعر في تلك اللحظة بلذة الحياة، فراح يتساءل: «لِمَ الحياة؟ هل تستحق العناء؟».

القسم الرابع

الكتاب العاشر

الصّبيان

I

كوليا كراسوتكين

بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر. درجة البرودة أقل من إحدى عشرة، وظهر رقاق الجليد. وقد هطل على الأرض المتجلدة في الليل ثلج ناشف، والريح الجافة الحادة ترفعه وتكنسه من الشوارع الكالحة من مدينتنا الصغيرة، خاصة في ساحة «السوق». الصباح ضبابي، ولكن الثلج توقف عن الهطل. يمكن أن نرى، غير بعيد من الساحة، قرب متجر آل بلوتنيكوف، منزلاً صغيراً، نظيفاً في الداخل والخارج على السواء، هو منزل أرملة الموظف كراسوتكين. إن الموظف كراسوتكين الذي كان سكرتيراً حكومياً قد مات منذ زمن طويل. فقريباً يكون انقضى على موته أربع عشرة سنة؛ ولكن أرملته، وهي امرأة جميلة الوجه باشة الهيئة، في نحو الثلاثين من عمرها، ما تزال تعيش من إيراداتها، في منزلها النظيف. وهي تعيش في هذا المنزل حياة شريفة محتشمة، لأن لها طبعاً متواضعاً حنوناً، وإن تكن على شيء من المرح. لم يكن عمرها قد تجاوز الثامنة عشرة حين مات عنها زوجها، وهي لم تعش معه إلّا سنة واحدة، أي الفترة التي كانت لازمةً لإنجاب ابنها. ومنذ ذلك الحين، منذ اليوم الذي ترملت فيه، وقفت حياتها كلها على ابنها الغالي كوليا وحده. حتى إذا أحبت ابنها، خلال هذه الأعوام الأربعة عشر، حباً جنوناً لا حدود له، يمكن أن نتصور ما عانته من العذاب، أكثر كثيراً مما ذاقت من الفرح، فهي كل يوم ترتعد خوفاً وهلعاً متى تصورت أن ابنها يمكن أن يصيبه برد، أو أن يمرض، أو أن يرتكب تهوراً أثناء لعبه، فيتسلق كرسياً فيسقط، الخ. وحين دخل كوليا المدرسة الابتدائية، ثم حين قُبل بعد ذلك في المدرسة الثانوية في مدينتنا، أسرعت أمه تدرس معه جميع العلوم لتساعده وتعاونه في مذاكرة دروسه. وأسرعت تتعرف كذلك بمدرِّسيه، بل وبنسائهم أيضاً، وتعلقت برفاق صفه، فهي تدلِّلهم وتتفانى في بذل جميع الملاطفات لهم، حتى لا يُلحقوا بابنها أية إساءة، حتى لا يسخروا منه أو يضربوه. وقد بلغت من ذلك أن الصِّبية انتهوا حقاً إلى أن يسخروا منه بسببها، فأخذوا يناكدونه، مطلقين عليه اسم «حبيب أمه». ولكن الفتى عرف كيف يدافع عن نفسه. إنه صبي شجاع، «ذو قوة هائلة»، لم تلبث شهرة قوته هذه أن ذاعت بين رفاقه ورسخت في نفوسهم. وكان بارعاً، قوي الطبع صلب الإرادة جريئاً. وكان إلى ذلك تلميذاً ناجحاً متفوقاً حتى لقد كان التلاميذ يؤكدون أنه استطاع أن يتفوق في الرياضيات وفي التاريخ العام على الأستاذ داردينالوف نفسه. ولكنه رغم أنه ينظر إلى الآخرين من علٍ، يعرف كيف يحافظ في وضعه، على أن يكون بسيطاً وأن يكون نعم الرفيق. ولئن كان يقبل احترام رفاقه له على أنه حق من حقوقه، فلقد كان هذا لا يصرفه عن حسن التصرف معهم وعن التزام اللطف في معاملتهم. وكان يعرف خصوصاً كيف يحافظ على الاعتدال، كان قادراً على ضبط نفسه عند اللزوم، فهو لا يتجاوز، في علاقاته برؤسائه، حدوداً معينة لا يمكن احتمال تجاوزها، ولا يُعدُّ تخطيها إلّا تمرداً في الفوضوية وخروجاً على المشروعية. لكنه كان يحب كثيراً أن يتحرر بعض الشيء، ولا يعدم أبداً فرصة تحقيق هذه الرغبة، فينطلق في أفعال مرحة طائشة، كسائر الصبية الصغار، لا بدافع «الشيطنة» والحق يقال، بل طلباً للذة ابتكار شيء ما، وإحداث أثر في النفوس، وجذب الأنظار إليه، وتأكيد ذاته بجرأة، والقيام بدور من الأدوار. وكان الفتى على جانب عظيم من الشعور بنفسه والتمسك بكبريائه، وقد سيطر على أمّه سيطرة تامة، وأن يكون له عليها سلطان كبير يشبه أن يكون استبداداً. وقد خضعت الأم منذ زمن طويل،

وإنما كان يؤلمها أن تتصور أن فتاها «لا يحبها كثيراً»، وكانت لا تتحمل هذه الفكرة. كان يتراءى لها دائماً أن كوليا «فاتر العاطفة» تجاهها، وكانت تبكي بكاءً هستيرياً، بسبب هذا الفتور؛ وكان الفتى يكره هذه «المشاهد»، فكلما طالبته أمه بمزيد من العاطفة، ثبت هو مزيداً من الثبات على جمود إحساسه وبرود عاطفته. والواقع أنه لم يكن يقوم بذلك عن قصد بل على غير إرادة منه، فتلك كانت طبيعته: كان يحب أمه كثيراً، ولكنه كان يكره هذا الإفراط السخيف في إظهار المشاعر، كان يكره تلك «العواطف التي تشبه عواطف العجول»، كما كان يقول بلغته، لغة التلميذ. وكان أبوه قد خلَّف مكتبة خاصة. وكان كوليا يحب القراءة، فقرأ عدداً من الكتب المودَعة في المكتبة الزجاجية. لم يُقلق هذا أمَّه، لكنها كانت تستغرب أن يعكف ابنها ساعات طويلة على قراءة كتاب بدلاً من أن ينصرف إلى اللعب. هكذا قرأ كوليا كتباً ما كان يمكن أن توضع بين يديه في سنّه هذه. على أن الفتى الذي كان لا يحب أن يتجاوز بعض الحدود في حيله، قد أخذ منذ زمن يثرثر بشكل يرعب أمه. لم يكن في سلوكه شيء يتنافى مع الأخلاق، ولكنه أصبح يتلذذ بالقيام بمغامرات طائشة. من ذلك أن الأم قد ذهبت مع ابنها في هذا الصيف نفسه، أثناء عطلة تموز/يوليو إلى قريبة من قريباتها تسكن في مقاطعة أخرى على مسافة سبعين فرسخاً من مدينتنا، لقضاء أسبوع عندها. إن زوج هذه المرأة موظف في السكة الحديد، فهو يعمل في محطة القطار بالمنطقة (وهي تلك اللحظة نفسها التي سافر فيها إيڤان فيودوروفتش كارامازوف إلى موسكو منذ شهر). قضى كوليا الأيام الأخيرة يدرس تجهيزات السكة الحديد بكثير من العناية والاهتمام، لأنه رأى أن هذه المعلومات الجديدة ستتيح له أن يتفوّق على رفاقه في المدرسة عند عودته. وسرعان ما توثقت الصلة بينه وبين صبية آخرين في المنطقة كان بعضهم يسكن حول المحطة مباشرة والبعض الآخر يسكن في منازل تبعد قليلاً عن المحطة. هكذا تألفت منهم عصبةٌ عدد أفرادها ستة أولاد أو سبعة، تراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، وبينهم اثنان من مدينتنا. وقد نظم هؤلاء الفتيان ألعاباً، واخترعوا أنواعاً من العبث والهزل، ثم إذا بهذه العصبة المرحة تخترع في اليوم الرابع أو الخامس رهاناً بروبلين على مغامرة عجيبة. إن كوليا، وهو أصغر أفراد العصبة، وكان الكبار يستخفون به لهذا السبب، قد اقترح في ذات يوم، من قبيل حب الظهور أو إبراز الجسارة، أن ينام في إحدى الليالي بين خطَّي السكة الحديد، وأن يظل جامداً على هذا الوضع أثناء مرور القطار بسرعة عند الساعة الحادية عشرة. لا شك أن كوليا كان قد درس صعوبات هذه المغامرة سلفاً واستنتج أن في وسعه أن ينام بين خطي السكة الحديد، وأن يبقى نائماً هنالك تحت عربات القطار دون أن تلامسه. ولكن ما أشد ما تحتاج إليه هذه المغامرة من هدوء أعصاب ورباطة جأش! وكان كوليا يزعم أنه قادر على ذلك، فهزىء منه الفتيان في أول الأمر، ونعتوه بأنه كذاب ومتبجح، فما زاده ذلك إلّا حنقاً وعناداً؛ وكان يغضبه خاصة أن ينظر إليه هؤلاء الفتيان الذين هم في الخامسة عشرة من أعمارهم نظرة متعالية، وأن يرفضوا اعتباره نداً لهم، وأن يصفوه بأنه «صغير»، وتلك في نظره إهانة لا تحتمل! قرر الفتيان أن يذهبوا عند هبوط الليل إلى مكان يبعد عن المحطة مسافة فرسخ، ليقوموا بهذه التجربة هنالك، حيث يكون القطار بعد تحرُّكه من المدينة قد أخذ يجري سريعاً. تواعد الفتيان أن يلتقوا في ذلك المكان. كانت الليلة بدون قمر، وكان الظلام دامساً. وفي الساعة المتفق عليها نام كوليا بين خطَّي السكة الحديد. واختبأ المتراهنون الخمسة الآخرون بين الأشجار في أسفل المنحدر قرب الطريق، وهم يشعرون بشيء من الانفعال في أول الأمر، ثم تملَّكهم الخوف والندامة بعد ذلك. وسُمعت أخيراً همهمة القطار الذي غادر المحطة. وسطع ضوءان أحمران في الليل، وأقبل القطار العملاق يجري مسرعاً بضجة كدوي الرعد. صاح الصبيان وقد شلَّهم الذعر في مخبأهم، يقولون لكوليا: «أركض، أركض، أهرب»، ولكن كان قد فات الأوان. ووصل القطار ومرَّ فوق كوليا. ظل كوليا متمدداً بلا حراك. وأسرع إليه الصبيان يحاولون إنهاضه. فإذا هو ينتصب واقفاً على قدميه فجأة، ثم يمضي يهبط المنحدر دون أن ينطق بكلمة. حتى إذا وصل إلى قرب الطريق أعلن لرفاقه أنه تظاهر بالإغماء ليرعبهم. ولكن الحقيقة هي أنه قد أغمي عليه

فعلاً، كما اعترف لأمه بذلك بعد مدة طويلة. ومنذ ذلك الحين اشتهر كوليا باسم «الجَسور». وقد عاد الصبي إلى المنزل في تلك الليلة أصفر الوجه، وانتابته في الغد حمّى خفيفة. ولكنه كان يشعر بالسعادة، ويضحك ويمزح. ولم يذع أمر هذا الحادث فوراً، وإنما ذاع بعد عودة كوليا إلى مدينتنا، فاهتزت سلطات المدرسة اهتزازاً قوياً؛ وتدخلت أم كوليا لدى الادارة متوسلة إليها أن تصفح عن الولد وأن تعامله بالحسنى، وبقيت تبذل مساعيها، إلى أن تولى المعلم داردينالوف، وهو رجل محترم مسموع الكلمة، أمر الدفاع عن الفتى، فأهملت القضية كأن شيئاً لم يحدث. إن داردينالوف هذا، وهو رجل عازب ما يزال شاباً، كان قد أُخذ بالسيدة كراسوتكينا منذ زمن طويل، وعرض عليها الزواج في السنة الماضية بكثير من الاحترام وهو يرتجف خوفاً. ولكنها رفضت عرضه رفضاً قاطعاً، لأنها رأت أن زواجها خيانة لابنها. ومع ذلك ظل داردينالوف يعتقد، على أساس بعض الدلالات الخفية، أن عليه أن لا يفقد الأمل، وأن الأرملة الشابة الفتانة، ولكن المبالغة في عفتها ووسواسها، لا تخلو من الميل إليه والإعجاب به. وكان من شأن تلك المغامرة المجنونة التي قام بها كوليا أن حطمت الجليد بين المعلم والأرملة، وقد أُفهم داردينالوف، حين شكر له توسطه في الأمر، أنه ليس محظوراً عليه أن يراودها أي أمل. صحيح أن ذلك قد قيل إلماعاً بعيداً غامضاً، ولكن داردينالوف، الرجل الطاهر الذيل المرهف الشعور هو أيضاً، كان لا يطلب أكثر من ذلك حتى يشعر بسعادة كاملة. وكان يحب كوليا، ولكنه رأى أنه لا يليق بكرامته أن يتزلف إليه، لذلك كان يعامله أثناء الدروس معاملة قاسية متشددة. ولسنا نبتعد عن الإنصاف إذا قلنا إن كوليا نفسه كان يجافيه. كان كوليا يحضِّر واجباته المدرسية بكثير من العناية، وكان ثاني التلاميذ ترتيباً في صفه، ويجيب بلهجة جافة جداً عن جميع الأسئلة التي يلقيها عليه المعلم. وكان جميع رفاقه، من جهة أخرى، مقتنعين بأنه يستطيع في مادة التاريخ العام أن ينافس أستاذه. وقد حدث فعلاً أن سأل كوليا أستاذه في ذات يوم: «من بنى مدينة طروادة؟»، فاقتصر داردينالوف في الإجابة عن هذا السؤال على ذكر أمور عامة عن الشعوب والتحركات والتنقل وعن عمق الأزمنة والأساطير، ولكن على سؤال من بنى مدينة طروادة، من هم الأشخاص بالضبط لم يستطع أن يجيب، واعتبر هذا السؤال تافهاً لا داعي إليه. لكن التلاميذ بقوا مقتنعين بأن داردينالوف يجهل اسم باني طروادة. وكان كوليا قد وجد من هم مؤسسو مدينة طروادة من كتاب سماراغدوف الذي كان أحد كتب المكتبة الموروثة عن أبيه. في النهاية، جميع التلاميذ كانوا يريدون أن يعرفوا من بنى طروادة، ولكن كراسوتكين لم يكشف عن سرِّه، وظل يتمتع بهالةٍ من الاحترام.

وقد حدث تغير في العلاقة بين كوليا وأمه بعد حادث السكة الحديد. عندما علمت السيدة آنا فيدوروفنا (أرملة كراسوتكين) بالانجاز الذي حققه ابنها أوشكت أن تُجن من الهلع، وأصابتها نوبات عصبية عنيفة تتابعت أياماً ثم عادت تصيبها بعد هدنة قصيرة الأمر الذي أرعب كوليا بشكل جدي. فقطع لها على نفسه عهد الشرف بأن يتخلى كلياً في المستقبل عن هذه الأعمال الصبيانية. أقسم على ذلك أمام الإيقونة، وأقسم على ذلك أيضاً بذكرى أبيه، كما طلبت أمه. وقد انفجر كوليا «الجسور» عندئذ باكياً كطفل في السادسة من عمره، واستسلم لنوبة من «العاطفية»، وظل الابن وأمه طوال النهار يتعانقان باكيين. ومع ذلك عاد كوليا منذ الصباح «فاتر الشعور»، «بارد العاطفة»، ولكنه أصبح منذ ذلك الوقت أشد صمتاً، وأكثر تواضعاً، وأكبر قوة، وأطول روية. ولكن ما إن انقضت ستة أسابيع حتى اندفع كوليا في مغامرة جديدة، فوصل اسمه حتى إلى أسماع قاضي الصلح. لكن القضية في هذه المرة لم تكن أكثر من «شيطنة» مضحكة ليست خطرة، ولم يكن هو نفسه الفاعل فيها، وإنما جرفه إليها غيره. وسنشير ربما إليها فيما بعد على كل حال. وعاشت أمه مرة أخرى في مخاوف مستمرة، وأحس داردينالوف بازدياد آماله على قدر ازدياد مخاوف المرأة المسكينة. يجب أن نلاحظ هنا أن كوليا كان يعرف الأحلام الخفية التي تراود أستاذه، فكان يحتقره احتقاراً عميقاً لهذه «العواطف الكاذبة السخيفة»؛ حتى لقد اتفق له في الماضي أن أعرب عن احتقاره هنا بحضور أمه دون أية مداراة، وأنه يعرف الهدف الذي يريد أن ينتهي

إليه داردينالوف. لكنه بعد حادث السكة الحديد تغيَّر موقفه في هذه الناحية أيضاً. فأصبح لا يسمح لنفسه بشيء من الغمز، وبدأ يتكلم عن داردينالوف أمام أمه بمزيد من الاحترام؛ وإذ أدركت أمه، بإحساس قلبها، الأسباب التي تدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف الجديد، فقد شعرت بكثير من الشكر. ولكنها كانت تحمر خجلاً ويصبح خداها كالورد لوناً كلما ذكر زائر غريب اسمَ داردينالوف بحضور كوليا. وكان كوليا في تلك اللحظات ينظر من النافذة متجهم الوجه، أو يتظاهر بأنه ينعم النظر إلى حذائه فاحصاً حالته، أو ينادي كلبه «برزفونه» غاضباً، وهو كلب طويل الشعر ضخم الجسم ولكن منظره يثير الشفقة ويبعث على الرثاء، وكان كوليا قد تبناه منذ شهر، لكنه يخفيه في غرفته عن رفاقه ولا يدري أحد لماذا! كان كوليا يسوم الكلب سوء العذاب كي يعلمه أنواعاً شتى من الحيل، إلى حد جعله يعوي أثناء غيابه في المدرسة، ويطير فرحاً وحماسة كلما عاد كوليا إلى المنزل، ويقفز ويتواثب طرباً، يتقرب منه ويتحبب إليه، وينام على الأرض متظاهراً بالموت، أي يقوم بالحركات التي علَّمه إياها، وينفذها هذه المرة دون أن يطلب منه، لكن فقط على آثار تهيج أعصابه وقلبه الممتن.

بالمناسبة: لقد نسيت أن أذكر أن كوليا كراسوتكين هو ذلك الفتى نفسه الذي طعنه بموسى في وركه الصبيُّ إيليوشا الذي يعرفه القارىء (هو ابن الكابتن المتقاعد سنيغيريف) وذلك دفاعاً عن أبيه ضدَّ تلاميذ المدرسة الذين كانوا يعاملونه باحتقار.

II

جماعة الأطفال

هكذا إذن، لقد كان كوليا كراسوتكين في منزله في ذلك الصباح الجليدي القارس من شهر تشرين الثاني/نوفمبر. إنه يوم الأحد، فلا مدرسة. لكن الساعة الحادية عشرة قد دقت، وكوليا يريد أن يخرج من المنزل بأي ثمن «لأمر هامٍ جداً». ولكنه مازال في البيت وحيداً، وقد عُهد إليه بحراسته لأن جميع الكبار اضطروا إلى الغياب عن المنزل لظروف طارئة. إن منزل الأرملة كراسوتكينا يضم شقة أخرى من غرفتين، يفصلها عن الشقة التي تشغلها صاحبة المنزلِ مدخل وتلك الشقة قد استأجرتها زوجة طبيب، فهي تعيش فيها مع ابنين لها صغيرين جداً. وقد توثقت بين زوجة الطبيب وآنا فيودوروفنا، عرى صداقة قوية. أما الطبيب فكان قد سافر إلى أورنبورغ منذ أكثر من سنة، ثم سافر من هناك إلى طشقند، ثم انقطعت أخباره منذ ستة أشهر، فلولا الصداقة التي قامت بين الزوجة والسيدة كراسوتكينا التي خففت حزنها، لقضت نحبها هذه الزوجة المهجورة بسبب بكائها على حظها. ومن أجل أن تبلغ زوجة الطبيب، كاترينا، غاية سوء الحظ، ألم يكن من الضروري أن تبلغها خادمتها الوحيدة، فجأة، ليلة الأحد، أنها تتأهب لأن تضع مولوداً؟ ذلك ما حدث. أما أن أحداً لم يلاحظ قبل تلك اللحظة حالتها، فذلك أمر يوشك أن يكون معجزة. اضطربت زوجة الطبيب للحادث، وقررت أن تنقلِ كاترينا، ما دام في الوقت متسع، إلى قابلة في مدينتنا كانت تستقبل في منزلها سكاناً يبيتون ويطعمون. ولأنها كانت شديدة الحرص على الخادمة، أسرعت تضع قرارها هذا موضع التنفيذ، فاصطحبتها إلى القابلة ومكثت قربها. وفي الصباح كان لا بد من الاستعانة بالسيدة كراسوتكينا التي تستطيع الاستفادة من بعض العلاقات لتأمين شيء من الحماية للخادمة التي على وشك أن تلد. هكذا غابت السيدتان عن المنزل. ومن جهة أخرى، كانت أغافيا، خادمة السيدة كراسوتكينا، قد ذهبت إلى السوق. فبذلك وجد كوليا نفسه مكلفاً، إلى حين، حراسة المنزل ومراقبة طفلي زوجة الطبيب، الصبي والبنت، اللذين بقيا وحدهما معه في المنزل. لم يكن دور الحارس يرعب كوليا، لا سيما وأن الكلب «برزفونه» إلى جانبه. ولقد أمر الكلب بأن يبقى نائماً تحت دكة في المدخل، وأن يبقى «ساكناً» لا يتحرك. وكان كوليا يروح ويجيء بين الغرف، فكلما خرج إلى المدخل، انتفض الحيوان الشهم، وأدار وجهه إلى جهة سيده، وضرب الأرض بذيله ضربتين فرحتين؛ ولكن كوليا لا يصفر له منادياً مع الأسف، ويقتصر على أن يرشق الكلب المسكين بنظرة قاسية، فيسرع الكلب إلى التجمد على سكونه المطلوب. والواقع أن كوليا لم يكن مهتماً إلّا بالطفلين. صحيح أن حادث كاترينا قد أيقظ في نفسه احتقاراً عميقاً، ولكنه كان يحب الصغيرين المسكينين المحرومين من أبيهما حباً شديداً، وكان قد جاءهما بكتاب مسلٍّ. إن ناستيا، وهي الكبرى، تبلغ من عمرها ثماني سنوات، وتجيد القراءة. وإن أخاها، وهو أصغر منها بسنة، يجد لذة كبيرة في الاستماع إلى القصص التي تقرأها له. واضح أن في وسع كوليا أن يجد لهما تسلية أدعى إلى الضحك، كأن يضعهما في صف ويلعب معهما لعبة الجنود، أو لعبة «الغميضة»، وذلك ما سبق أن فعله مراراً دون أن يشعر منه بغضاضة، حتى لقد شاع في المدرسة أن كوليا كان يتسلى مع الصغيرين بتمثيل دور الحصان، فهو يدع لهما أن يقرناه مطأطئاً رأسه، ولكن كوليا قد فنَّد هذه التهم، وقال إن لعبة الحصان تخلُّ بالكرامة حقاً «في هذا العصر» إذا هو لعبها مع رفاق مثله في الثالثة عشرة من أعمارهم، ولكنه يلعبها من أجل

الطفلين لأنه يحبهما جداً، ولا يحق لأحد أن يتدخل في مشاعره. لذلك كان هذان الطفلان يحبانه جداً. لكنه لم يكن في هذه المرة منشرح القلب للعب. لقد كان عليه أن يعنى يومئذ بقضية شخصية هامة جداً، بل وسرية بعض الشيء. والزمن يمضي. وأغافيا التي كان يمكن أن يكل إليها أمر الطفلين لم تعد من السوق بعد. لقد قطع كوليا المدخل عدة مرات، ففتح باب شقة زوجة الطبيب، وألقى نظرة قلقة على الطفلين المنهمكين في القراءة تنفيذاً لأمره. فكان الطفلان يبتسمان بصمت كلما ظهر لهما، متوقعين أن يفاجئهما بشيء مسلٍّ مضحك. ولكن هموم كوليا في ذلك النهار كانت أخطر وأكثر من أن يفكر في تسليتهما وإضحاكهما. فلما دقت الساعة الحادية عشرة أخيراً عزم بحزم على أن يخرج دون أن ينتظر أغافيا «الملعونة»، إذا هي لم تعد خلال عشر دقائق، وذلك طبعاً بعد أن يستقطع الطفلين عهداً بأن يبقيا أثناء غيابه هادئين، وألّا يخافا ولا يبكيا. وعلى هذا، ارتدى معطفه الشتوي الصغير المبطن بقطن والمزدان بياقة من تقليد فراء الثعلب، ووضع كيسه المدرسي على كتفه. ورغم التوصيات الملحة التي أسدتها إليه أمه بأن لا يخرج في «مثل هذا البرد» دون أن ينتعل خفَّي المطّاط، فإنه حين اجتاز المدخل رمى الخفين بنظرة ازدراء. فلما رآه الكلب مرتدياً ثيابه للخروج، ضرب الأرض بذيله ضربتين، واضطرب وتحرك، وتدحرج، حتى لقد أصدر أنيناً شاكياً. لكن كوليا رأى أن هذا الإفراط في الحماسة ونفاد الصبر عند كلبه يدل على قلة الانضباط، لذلك تركه ينتظر تحت الدكّة دقيقة أخرى طويلة، ولم يصفر له منادياً إلّا حين فتح الباب، فقفز الحيوان الشهم وقد جُنَّ فرحاً، وبدأ يقفز أمام كوليا. اجتاز الفتى المدخل، ودخل غرفة الطفلين. إنهما ما يزالان جالسين أمام طاولة صغيرة كما كانا من قبل، ولكنهما كفَّا عن القراءة، وكأنهما منهمكان في مناقشة حامية جداً. غالباً ما كانا يناقشان كل أنواع المواضيع الشائكة المتعلقة بالحياة اليومية، وكانت ناستيا هي التي تنتصر دائماً، من حيث إنها الكبرى. فإذا لم يكن كوستيا متفقاً معها، يحتكم إلى كوليا كراسوتكين، وما يحسمه هذا الأخير يكون هوالحكم الأخير في نظر المتخاصمين كليهما. في هذه المرة أثار الموضوع الذي يدور عليه النقاش بين «الصغيرين» فضول كوليا، فوقف في عتبة الباب يصغي إليهما. لاحظ الولدان أنه يصغي إلى ما يقولان فاستعادا نقاشهما بحمية أقوى.

- لم أصدِّق أبداً، قالت ناستيا مزقزقة، أن القابلات يجدن الصغار في حقول الخضار تحت الكرنب؛ الآن شتاء، فلا تنبت خضار، فكيف يمكن أن تحمل القابلة بنتاً إلى كاترينا؟

- عجيب!! قال كوليا.

- الأمر هكذا، تأخذ القابلات هؤلاء الأطفال من مكانٍ ما، ويعطيهن فقط إلى النساء المتزوجات.

كان كوستيا يحدق إلى أخته، ويصغي بانتباه، ويبدو عليه التأمل والتفكير.

- لست إلّا غبية يا ناستيا! قال أخيراً بصوت جازم على هدوء: كيف يمكن أن يكون لكاترينا طفل وهي غير متزوجة؟

فقالت ناستيا وقد نفد صبرها:

- أنت لا تفهم في هذه الأمور شيئاً! لعل لها زوجاً ولكنه في السجن. ولذلك كان لها طفل.

- هل أنت واثقة بأن زوجها في السجن؟ سألها كوستيا بهدوء:

فقاطعته ناستيا وقد نسيت افتراضها الأول:

- أنا أعرف كيف حدث هذا. ليس لها زوج. أنت على حق. ولكنها كانت ترغب في أن تتزوج، فأخذت تفكر في زواجها المقبل، ففكرت ثم فكرت، ومن كثرة ما فكرت حصلت على زوج بل على طفل!

- إذا كان الأمر كذلك، فهذا مختلف تماماً. قال كوستيا وقد اقتنع. ولكن كان يجب أن تذكريه لي من قبل، فإنني ما كنت لأستطيع أن أحزره.

- هيه يا أولاد! تدخل كوليا قائلاً: إنكم أخطر مما كنت أتصور!

- هه! هل «برزفونه» معكم. صاح كوستيا. ثم ناداه وهو يصفق له بأصابعه.

بدأ كوليا يقول وقد بدا على وجهه الاهتمام الشديد:

- اسمعوا يا أولاد! لدي شغلة ويجب أن تساعدوني. إن أغافيا قد كُسرت ساقها، لأنها لم تعد حتى الآن. ذلك هو التعليل الوحيد لتأخرها. ويجب عليَّ حتماً أن أخرج. فهل تأذنان لي بالانصراف؟

تبادل الصغيران نظرة قلقة، وتجهم وجهاهما بعد أن كانا باسمين. وبدا عليهما من جهة أخرى أنهما لم يفهما ما يُنتظر منهما.

- ألن ترتكبا حماقات أثناء غيابي؟ ألن تتسلقا الخزانة فتكسرا أرجلكما؟ ألن تبكيا ذعراً من الوحدة؟.

ارتسم على قسمات الطفلين كدر عميق.

- إذا وعدتماني بأن تبقيا عاقلين، فسوف أريكما شيئاً، سوف أريكما مدفعاً صغيراً من البرونز يُحشى ببارود حقيقي.

فسرعان ما اطمأن وجها الطفلين. وصاح كوستيا مشرق المحيّا:

- أرنا هذا المدفع الصغير!

دسَّ كراسوتكين يده في كيس المدرسة وسلَّ منه مدفعاً صغيراً من البرونز ووضعه على الطاولة.

- هذا يهمكما! أنظرا: إنه محمول على عجلات! قال ذلك وهو يدحرج المدفع على الطاولة. وأضاف:

- ويمكن إطلاق النار منه. يُحشى خردقاً، فتخرج الطلقة.

- هل يقتل فعلاً أيضاً؟

- طبعاً! بهذا المدفع يمكن قتل أي إنسان، إذا أُحسن التصويب إليه طبعاً.

أراهما كراسوتكين أين يجب وضع البارود، وكيف يمكن إدخال الخردق. أراهما فتحة صغيرة في البرونز تسمى الضوء، ولم ينس أن يذكر لهما أن المدفع يندفع إلى وراء عند الإطلاق. أصغى إليه الصغيران بفضول شديد، وأثار خيالهما خصوصاً ذلك الاندفاعُ إلى وراء.

- هل عندك بارود أيضاً؟ سألته ناستيا.

- عندي بارود.

- أرنا البارود أيضاً. قالت وهي تبتسم متوسلة وتجر كلماتها ببطء.

دسَّ كراسوتكين يده في كيسه مرةً أخرى، فأخرج منه قارورة فيها قليل من البارود الحقيقي، وورقة لُفَّ بها بعض الخردق. حتى لقد مضى في الملاطفة إلى حد فتح القارورة وسكب شيء من البارود في راحة يده.

- أنظرا! ولكن يجب ألّا يكون هنا نار، وإلّا حدث انفجـار يدمرنا جميعاً.

قال كراسوتكين ذلك ليثير خيال الصغيرين أكثر.

وأخذ الطفلان يتفحصان البارود في خوف شديد. ولكن اهتمام كوستيا كان منصرفاً إلى الخردق بشكل خاص. قال يسأل:

- ألا يحترق الخردق؟

- لا، لا يمكن أن يشتعل الخردق.

- أعطني بضع حبات من الخردق. قال كوستيا متوسلاً.

- سأعطيك. هاك هذه الحبات. خذها. ولكن لا تُرها لـ «ماما» ما لم أعد أنا؛ وإلّا ظنتها باروداً، فماتت هلعاً، وضربتكما كليكما.

- ماما لا تضربنا أبداً! قالت ناستيا مصححة.

- أعرف. ولكنني قلت هذا لتصبح الصورة جميلة. يجب ألّا تكذبوا أبداً على أمّكم، إلّا هذه المرة، بانتظار عودتي. والآن، يا أولاد، هل أستطيع أن أنصرف؟ ألن تبكوا خوفاً أثناء غيابي؟

- سـ... نـ... ـبكي!... قال كوستيا بصوت شحيح، وهو يوشك أن ينفجر باكياً منذ الآن.

- طبعاً سنبكي. قالت ناستيا بسرعة خائفة.

- ما أخطركم في هذه السن يا أولاد! يا عصافيري الصغيرة! سيكون عليَّ أن أبقى معكم لست أدري إلى متى؛ والوقت يمر ملحاً رهيباً مع الأسف!

- أصدر أمرك إلى «برزفونه» بالتظاهر بالموت. قال كوستيا:

- لا مناص. لا بد من اللجوء إلى «برزفونه»! برزفونه: تعال إلى هنا! أصدر كوليا أوامره إلى الكلب، وهذا الأخير ينفذ الحركات التي تعلمها. إن برزفونه كلب كثيف الشعر ضخم الجثّة لا تستطيع أن تحدد لونه، فهو أشهب أغبر معاً، وهو أعور، مصلوم الأذن اليسرى، لا يدري أحد لماذا. أخذ الكلب يصوّت ويقفز فرحاً، ويتبختر، ويمشي على قائمتيه الخلفيتين، ثم يستلقي على ظهره ويتظاهر بالموت. فيما يقوم بهذه اللعبة الأخيرة إذا بالباب يُفتح وإذا بأغافيا، الخادمة الضخمة التي تعمل عند السيدة كراسوتكينا، وهي امرأة مجدورة الوجه، في نحو الأربعين من العمر، إذا بها تظهر في العتبة حاملةً بيدها شبكة المؤن التي اشترتها من السوق. وقفت أغافيا ونظرت إلى الكلب معجبة بينما الشبكة تتدلى من طرف ذراعها اليسرى. ورغم أن كوليا كان ينتظر وصولها نافد الصبر، فإنه لم يتوقف عن التمثيل

حين رآها، وترك الكلب جامداً على وضعه الساكن مدة من الوقت ثم صفر له، فما إن سمع الكلب الصفير حتى قفز واقفاً على قوائمه، وراح يقفز كالمجنون من شدة فرحه بأنه قام بواجبه.

- هذا كلب حقاً! قالت أغافيا منتشية.

- لماذا تأخرت يا مخلوقة نسوية؟ سألها كوليا بقسوة.

- أنا مخلوقة نسوية؟ انظروا إلى هذا الولد المخاطيّ؟

- مخاطيّ؟

- طبعاً مخاطيّ! ليس شأنك أنت أن أتأخر أنا أو أن لا أتأخر. ما دمت قد تأخرت فلا بد أن ذلك كان ضرورياً...

قالت أغافيا متذمرة وهي تنهمك بما حول الموقد. لكنها لم تتكلم بصوت حانق أو مغتاظ. بالعكس: كان يبدو أنها تجد لذة في مشاجرة سيدها الفتى المرح.

قال كوليا وهو ينهض عن الكنبة:

- إسمعي يا من عقلك كعقل العصافير. هل تقسمين لي بأقدس ما عندك في هذا العالم، وبشيء آخر أيضاً، على أنك ستهتمين بالأولاد أثناء غيابي وستراقبينهم بلا غفلة عنهم؟ إن عليَّ أن أخرج.

- وعلام أُقسم؟ لسوف أهتم بهما دون يمين. قالت أغافيا مندهشة ضاحكة.

- بل يجب أن تقسمي على ذلك بخلاص روحك! وإلّا لن أخرج.

- إذن لا تخرج. هل يضيرني أن لا تخرج؟ ثم إن الأفضل أن تمكث في المنزل، فالبرد في الخارج شديد يجمِّد المياه.

- اسمعوا يا أولاد! قال كوليا يخاطب الطفلين: ستبقى هذه المرأة معكما إلى أن أعود، أو إلى أن تعود أمكما التي كان يجب أن تعود منذ مدّة طويلة. وسوف تهيىء لكما فطوركما. ستطعمينهما، أليس كذلك يا أغافيا؟

- جائز.

- إلى اللقاء يا عصافيري الصغيرة. إنني أنصرف الآن مرتاح البال مطمئن الضمير.

ثم أضاف يقول لأغافيا بصوت خفيض وهيئة رزينة وهو يمر أمامها:

- وداعاً أيها الصيصان، أنا ذاهب مطمئن القلب، قال بصوت خافت. وأنت أيتها الجدة، آمل ألا تخبريهم قصص النساء الطيبات التقليدية عن كاترينا، انتبهي إلى طفولتهم. تعال إلى هنا يا برزفونه!

- اذهب إلى الشيطان! أنت أيضاً، قالت أغافيا غاضبة حقاً هذه المرة. إنه يضحكني! أنت تستحق أن تُجلد بسبب هذه الكلمات التي تقولها لي!

III

التلميذ

لكن كوليا ما كان يصغي. ها هو يستطيع الخروج أخيراً. وبعد أن اجتاز باب المدخل، التفت حوله، وشد كتفيه، وبعد أن قال: «ما أشد هذا البرد!»، سار قُدُماً على طول الشارع؛ ثم انحرف يميناً إلى زقاق يؤدي إلى ساحة السوق، ووقف أخيراً أمام المنزل الذي يقع قبل الساحة، فأخرج من جيبه صفارة، وصفر بها بكل قواه، كما لو أنه يقوم بإشارة متفق عليها. ولم يضطر أن ينتظر أكثر من دقيقة واحدة، فها هو صبي أحمر اللون في الحادية عشرة من عمره، يسرع نحوه. كان هذا الصبي يرتدي هو أيضاً معطفاً سميكاً، نظيفاً جداً، بل وأنيقاً. إنه الفتى سموروف، تلميذ الصف التحضيري (كان كوليا يسبقه صفين)، وهو ابن موظف ثري كان أهله قد حظروا عليه معاشرة كراسوتكين الذي اشتهر بأنه صبي متهور مستعد للقيام بأجرأ المغامرات الخطرة. واضح أن سموروف قد تسلل إلى الشارع على غير علمٍ من أهله. إن سموروف هذا - ولعل القارئ يتذكر ذلك - كان أحد عصبة الصبيان الذين رشقوا إيليوشا بالحجارة من فوق القناة منذ شهرين. وهو الذي كلّم ألكسي كارامازوف عن إيليوشا في تلك المناسبة.

- أنا بانتظارك منذ ساعة يا كراسكوتين. قال سموروف وقد لاح على وجهه العزم. واتجه الفتيان نحو ساحة السوق.

- تأخرت حقاً، قال كوليا، والذنب في تأخري بعض الظروف. قل لي: ألن تُجلد لأنك جئت معي؟

- لكن تمهلوا، هل تجلدونني؟ هل «برزفونه» معك؟

- نعم.

- هل تنوي اصطحابه أيضاً؟

- طبعاً.

- آه... لو كان هناك «يوتشكا»!

- هذا مستحيل. «يوتشكا» لم يبقَ له وجود. لقد اختفى دون أن يترك أثراً.

- حبذا لو كان ذلك ممكناً قال سموروف. ما دام ايليوشا يزعم أن «يوتشكا» أيضاً كان كلباً طويل الشعر، مثل «برزفونه» هذا، وكان أشهب اللون أيضاً، أفلا نستطيع أن نقول له إن هذا «يوتشكا»؟ لعله يصدِّق.

- اعلم أيها التلميذ أنه لا يجوز للمرء أن يكذب، ولو في سبيل الخير. هذه واحدة. أما الثانية فهي أنني أرجو خصوصاً ألّا تكون قد تكلمت هناك على زيارتي.

- أبداً. ما هذا الكلام؟ قال سموروف هل أنا غبي إلى هذه الدرجة؟ ثم أضاف يقول متنهداً: ولكن «برزفونه» لن يعزِّيه. إن أباه، الكابتن، هذه الخرقة الرثة، قد قال لنا إنه سيجلب له كلباً أسود البوز من أهمّ كلاب الحراسة جنساً، وهو يعتقد أن إيليوشا سيتعزى بهذا الكلب. ولكنني أشك في ذلك.

- وكيف هو إيليوشا؟

- آه، سيئ جداً. أظن أنه مصاب بالسل. إنه لم يفقد وعيه، ولكن تنفسه صعب! يجد عناء في التنفس! طلب منذ مدة أن يخرج في نزهة، فألبسوه ثيابه وحذاءه، فما إن سار بضع خطوات حتى تهالك. فقال لأبيه: «قلت لك مراراً يا بابا إن هذا الحذاء غير صالح. لقد كنت أجد مشقة في المشي بهما حتى في الماضي». اعتقد أنه سقط بسبب الحذاء، مع أنه سقط بسبب ضعفه. لن يعيش أكثر من أسبوع. إن الدكتور هرتسنشتوبه يعانيه من حين إلى آخر. لقد أصبحوا أغنياء من جديد. إن معهم مالاً كثيراً.

- أوغاد!

- من هم الأوغاد؟

- الأطباء، هم وطبابتهم على وجه العموم، ولكنني أخصص أيضاً. أنا لا أؤمن بالطب. الطب لا حاجة إليه. لكنني أريد أن أدرس هذه المشكلة بدقة. قل لي بانتظار ذلك: لماذا أنتم حاذقون جميعاً في العواطف المزعومة؟ يظهر أن تلاميذ الصف جميعاً يذهبون إليه، أليس كذلك؟

- لا، ليس جميع تلاميذ الصف. نحن عشرة تلاميذ فقط نزوره كل يوم. ليس لهذا كبير شأن.

إن ألكسي كارامازوف هو الذي يدهشني أمره خصوصاً في هذه القصة. سيُحكم على أخيه خلال أيام لجريمة رهيبة، ثم هو يجد من وقته متسعاً للاشتراك مع عدد من التلاميذ في اصطناع العواطف!

- ليس هذا عواطف مزعومة. أنت نفسك تذهب الآن إلى ايليوشا، تذهب إليه لتصالحه؟

- لأصالحه؟ تضحكني هذه الكلمة! ثم إنني لا أسمح لأحد بأن يحلِّل أفعالي.

- ما أعظم سعادة ايليوشا حين سيراك! إنه لا يتوقع زيارتك أبداً. لماذا رفضت أن تجيء إليه طوال هذه المدة؟ قال سموروف بحرارة.

- يا عزيزي الفتى الطيب، هذا شأني أنا لا شأنك. أنا أذهب إليه بإرادتي، لأن ذلك يحلو لي. أما أنتم فتذهبون إليه مدفوعين من ألكسي كارامازوف. ذلك هو الفرق. ثم من قال لك إن في نيتي أن أصالحه؟ أنا لا أحب هذه الكلمة.

- كلا. ليس بسبب كارامازوف! كلهم ما عداه. لقد ذهب التلاميذ بصحبة كارامازوف في أول الأمر فذلك أمر طبيعي. ليس في سلوكنا أي حماقة ذهبنا الواحد تلو الآخر، وهكذا دواليك. وما كان أعظم ابتهاج أبيه برؤيتنا! لسوف يُجنُّ أبو ايليوشا إذا مات ايليوشا. هو يدرك أن ابنه لن يعيش. وقد سعد كثيراً بتصالحنا معه. سألنا ايليوشا عن أحوالك، ولكنه لم يضف إلى ذلك شيئاً. سألنا عنك ثم سكت. أما أبوه فسوف يفقد عقله أو سوف يشنق نفسه. ثم إن سلوكه كان دائماً سلوك إنسان مختل العقل. ولكنه رجل نبيل جداً، ولقد أخطأنا في

الحكم عليه. إن الذنب في ذلك هو ذنب الرجل الذي ضربه ذات يوم، أقصد ذلك الرجل الذي قتل بعد ذلك أباه.

- مهما يكن من أمر فإن كارامازوف هذا يبقى لغزاً في نظري. كان بإمكاني أن أتعرف إليه منذ زمن طويل، لكنني أحب في بعض الحالات أن أظهر كبريائي. على كل حال، لقد كوّنت لنفسي رأياً فيه، وما زلت في حاجة إلى التثبت من هذا الرأي وإلى إكماله.

صمت كوليا متجهماً. وسموروف صمت أيضاً. واضح أنه كان يشعر نحو كوليا كراسوتكين بإعجاب شديد، وما كان يفكر أن يتعامل معه الند للند. وهو الآن يشعر بفضول قوي، لأن كوليا قد ذكر أنه يقوم بهذه الزيارة «بإرادته»، فلا بد أن يكون في الأمر سر. لماذا اتخذ كوليا هذا القرار فجأة؟ ولماذا يذهب إلى ايليوشا في هذا اليوم بالتحديد؟ كان الفتيان يجتازان عندئذ ساحة السوق حيث تزدحم في هذه الساعة عربات البائعين والدواجن المعروضة للبيع. هؤلاء نساء يقفن تحت أفاريز حوانيتهنَّ عارضاتٍ خبزاً صغيراً وبسكويتاً وخيوطاً. ويطلق الناس في مدينتنا، بسذاجة، اسم «المعارض» على أسواق الأحد هذه التي تقام بضع مرات في السنة. وكان «كاريون» يركض في جميع الجهات، ويسرح ويمرح، راكضاً إلى اليسار تارة، وإلى اليمين تارة أخرى، متجهاً إلى كل موضع فيه شيء يشمّه. فإذا لقي كلاباً أخرى بادلها، بسرور، حركات التودد المألوفة، بوزاً إلى بوز، على ما تقتضيه قواعد الآداب عند الكلاب...

- أحب أن أرصد مشاهد الحياة الواقعية يا سموروف. قال كوليا. هل لاحظت كيف تتعارف الكلاب بشم بعضها بعضاً؟ لا شك في أنها إذ تفعل ذلك تخضع لقانون من قوانين الطبيعة.

- نعم، إنه قانون مضحك جداً في رأيي.

- كلا، هذا ليس مضحكاً، أنت مخطىء، ليس في الطبيعة ما يضحك، رغم كل ما قد يظنه الإنسان لامتلاء عقله بأوهام حمقاء! لو كان في وسع الكلاب أن تفكر وأن تعبِّر لوجدت حتماً في السلوك الاجتماعي لدى البشر، سادتهم، لوجدت في هذا السلوك من الأمور المضحكة في نظرها مثل ما نجد نحن في سلوكها، وربما وجدت أكثر من ذلك أيضاً! أكرر: لسوف تجد لدينا من المضحكات أكثر مما نجد لديها، لأنني مقتنع بأننا نرتكب من الحماقات أكثر مما ترتكب هي. تلك فكرة من راكيتين، وهي فكرة ممتازة. أنا اشتراكي يا سموروف.

- ماذا يعني اشتراكي؟ سأله سموروف.

- الاشتراكي عندما يصبح جميع البشر متساوين، وأن تصبح آراؤهم واحدة في كل شيء، وأن يلغى الزواج، أما الدين كما يحب كل فرد، إنك لم تبلغ من النضج في سنّك هذه ما يؤهلك لأن تفهم هذه الأمور. ما أشد البرد مع ذلك!

- صحيح. البرودة اثنتا عشرة درجة اليوم تحت الصفر. لقد نظر أبي إلى الترمومتر منذ قليل.

- هل لاحظت يا سموروف أن المرء، حين تهبط الحرارة في وسط فصل الشتاء إلى خمس عشرة درجة تحت الصفر أو حتى إلى ثماني عشرة درجة، لا ينزعج من البرد مثلما يتألم منه في نهاية الخريف حين تتجمد المياه ولا تهبط الحرارة إلى أكثر من اثنتي عشرة درجة تحت الصفر، ولا يكون هنالك إلّا ثلج قليل، كما هي الحال اليوم؟ ذلك أن الناس لا يكونون قد اعتادوا البرد. كل شيء في البشرية عادة، والأمر كذلك في مجال الحياة الاجتماعية والسياسية. إن العادة هي المحرِّك الكبير للحياة الإنسانية. انظر إلى هذا الفلاح

كم هو مضحك؟

وأومأ كوليا إلى فلاح طويل القامة يرتدي معطفاً من فراء الخروف وتبدو عليه السذاجة. كان الفلاح مدثر اليدين بقفازين قصيرين، وهو يضرب يديه إحداهما بالأخرى طلباً للدفء، وقد غطَّت حبيبات الجليد لحيته الطويلة الكستنائية.

- تجلدت لحية الفلاح. قال كوليا بصوت مستفزٍ وهو يمر قرب الفلاح.

- لست الوحيد الذي تجلدت لحيته. أجابه الفلاح بلهجة هادئة وقورة.

- لا تسع إلى مشاكسته ومشاجرته. قال سموروف قلقاً.

- ليس في هذا بأس. لن يزعل. هو رجل طيب شهم. إلى اللقاء يا متا!

- وداعاً!

- لأن اسمك متا فعلاً؟

- طبعاً. لماذا؟ هل كنت تجهل ذلك؟

- لم أكن أعرف ذلك. وإنما سميتك بهذا الاسم مصادفة.

- غريب. هل أنت تلميذ في المدرسة؟

- نعم.

- وهل يجلدونك في المدرسة؟

- كلا، لا أستطيع أن أقول، ليس كثيراً.

- هل الجلد مؤلم؟

- تقريباً.

- كذلك هي الحياة.

بهذا أنهى الفلاح الحوار متنهداً.

- وداعاً يا متا!

- استودعك الله. أنت فتى أطيب!

وتابع الفتيان طريقهما.

- هذا الفلاح لطيف محبب. قال كوليا. إنني أحب الحديث مع أفراد الشعب، ويحلو لي أن أنصفهم.

- لماذا كذبت عليه فزعمت له أننا نُجلد في المدرسة؟

- كان لا بد من مواساته قليلاً.

- مواساته؟ لم أفهم.

- اسمع يا سموروف. أنا لا أحب كثيراً أن أُسأل حين لا يُفهم عني فوراً. هناك أمور من الصعب شرحها. فهذا الفلاح يتصور أن التلاميذ يُجلدون في المدرسة، وأن الأمور يجب أن تكون كذلك. لا يُجلد تلميذ! فلو قلت له بفظاظة إننا لا نُجلد في المدرسة لما فهم شيئاً ولأحزنه ذلك. لكنك لا تفهم هؤلاء الناس. يجب أن تتعلم كيف تتحدث مع الشعب.

- ولكنني أتوسل إليك أن لا تناكدهم، وإلّا فقد تقع لنا قصة كالتي وقعت لنا في ذلك اليوم، مع ذلك الغبي!

- هل يخيفك هذا؟

- لا تمزح يا كوليا. هناك أسباب تدفعني إلى الخوف. سوف يغضب أبي غضباً شديداً. لقد منعوني من الخروج معك.

- اطمئن. لن يقع شيء هذه المرة. صباح الخير يا ناتاشا!

صاح كوليا يحيي بائعة كانت تقف تحت إفريز حانوتها. فأجابت المرأة التي تبدو شابة بصوت حاد:

- ناتاشا؟ أتريد أن تمزح؟ أنا اسمي ماريا.

- ماريا؟ هذا أجمل. أستودعك الله.

قال كوليا وهو يحرك يده بإشارة عريضة كأن المرأة هي التي تزعجه:

- طيب طيب... ستقصّين عليَّ هذا يوم الأحد القادم. أنا الآن مشغول!

- ليس عندي ما أقصه عليك يا متبجِّح! انظروا إلى هذا الولد: أنت الذي ناديتني متحرشاً بي، بينما لم أكن أهتم بك يا وقح! إن السوط هو ما تستحقه أيها الولد! نحن نعرفك.

صرخت ماريا تقول غاضبة. فانفجرت ضحكاً كل البائعات اللواتي كانت بسطاتهن قريبة من بسطتها. وفجأة، برز من رواق المخازن في الساحة رجل غاضب. كانت هيئته تدل على أنه مستخدم في محل تجاري، حتى إنه ليس من مدينتنا، وإنما هو مارّ بها صدفةً. هو شاب يرتدي قفطاناً أزرق طويلاً، وعلى رأسه قبعة ذات حافة تخرج من تحتها خصل شعر كستنائي، ووجهه شاحب مجدور، يبدو مضطرباً اضطراباً أهوج غبياً، وها هو ذا يتجه مباشرة نحو كوليا ويهدده بقبضه يده.

- أنا أعرفك، أنا أعرفك منذ زمن. قال له صارخاً.

نظر إليه كوليا متفرساً فيه، فلم يفلح في أن يتذكر متى وأين احتكّ بهذا الرجل. إن مصادماته في الشارع مع الناس أكثر من أن يستطيع تذكُّرها جميعاً.

- تعرفني؟ سأله كوليا بلهجة ساخرة.

- أعرفك! أعرفك! ردّد الرجل في غباء.

- هذا خير لك. أنا مستعجل الآن. أستودعك الله.

- تعود إلى وقاحاتك. صاح المستخدم؟ تعود؟ أنا أعرفك يا وقح! أتعود إلى

وقاحاتك؟.

- ليس يهمك أنت أن أكون أنا وقحاً أو لا أكون. ليس هذا من شأنك! قال كوليا وهو يتوقف عن السير ويتفرس في الرجل.

- كيف؟ ليس من شأني؟

- ليس من شأنك أنت على كل حال!

- من شأن مَنْ إذن؟ ألا قلت لي!

- هو الآن من شأن تريفون نيكيتتش.

- أي تريفون نيكيتتش تعني؟

سأل الرجل الساذج وقد بدت في وجهه علامات دهشة بلهاء، ولكن صوته ما يزال غاضباً. نظر إليه كوليا بوقار، ثم سأله فجأة بقسوة:

- هل ذهبت إلى «كنيسة الصعود»؟

- أية كنيسة؟ ولماذا يجب عليَّ أن أذهب إليها؟

- هل تعرف سابانايف؟ سأل المستخدم مرتبكاً. فاستأنف كوليا استجوابه بلهجة أشد قسوة أيضاً:

- أي سابانايف؟ كلا. لا أعرفه.

- فليأخذك الشيطان إذن! قال كوليا يحسم الحوار.

ثم مال فجأة إلى يمين، وانصرف بخطًى سريعة، كأنه يرفض أن ينزل إلى حيث يكلم رجلاً غبياً لا يعرف حتى سابانايف.

صاح المستخدم يسأله وهو ثاب إلى نفسه واضطرب من جديد:

- انتظر، اسمع، أي سابانايف تعني؟

ثم التفت فجأة إلى البائعات فسألهن وهو يتفرس فيهن بغباء:

- لماذا كلمني عن سابانايف؟

فانفجرت النساء ضاحكات.

- هذا الولد ماكر. قالت إحداهن.

فكرر المستخدم يسأل بإلحاح وهو يحرك يده اليمنى بإشارات عريضة.

- أي سابانايف؟ من هذا؟

قالت إحدى البائعات وكأنما قد خطرت ببالها فكرة مفاجئة.

- أغلب الظن أنه سابانايف الذي كان مستخدماً عند آل كوزمتشيف. لا يمكن إلّا أن

يكون هو.

حدَّق إليها المستخدم منقلب الهيئة زائغ النظرة.

وعادت امرأة ثانية تقول:

- عند آل كو... ز... متشيف؟ ولكن ذاك لم يكن اسمه تريفون! كان اسمه كوزما وليس تريفون. والتلميذ إنما ذكر اسم تريفون نيكيتتش. فليس المقصود إذن ساباناييف ذاك نفسه.

فانبرت امرأة ثالثة تتدخل في المناقشة فتقول بعد أن كانت طوال الوقت صامتة تصغي بانتباه شديد.

- أنت مخطئة. لم يكن اسمه تريفون ولا ساباناييف، بل كان اسمه تشيبيوف، ألكسي إيڤانوفتش، أتذكر ذلك جيداً: ألكسي إيڤانوفتش تشيبيوف.

قالت بائعة رابعة تؤيد كلام الثالثة بلهجة جازمة:

- هذا صحيح. المقصود هو تشيبيوف فعلاً.

كان المستخدم ينقل نظره بينهن واحدةً واحدة، وقد بدت في وجهه علامات الحيرة والذهول. قال الشاب مهموماً:

- ولكن لماذا، لماذا ألقى عليَّ هذا السؤال: «هل تعرف ساباناييف؟»؛ هلّا قلتنَّ لي لماذا ألقى عليَّ هذا السؤال أيتها النساء الطيبات! لا يعلم إلّا الشيطان ما الذي كان يدور في رأسه حين كلمني عن ساباناييف!

- لست سوى أحمق! ألم تقل لك إن المقصود ليس ساباناييف بل تشيبيوف، ألكسي إيڤانوفتش تشيبيوف؟ أجابته إحداهن بصوت صارم.

- تشيبيوف؟ أي تشيبيوف؟ قولي لي ما دمت تعرفين!

- هو رجل طويل القامة طويل الشعر، كانت له دكّته في السوق هذا الصيف.

- ما شأني أنا بصاحبك تشيبيوف هذا؟ قلن لي أيتها النساء الطيبات!

- هل عليَّ أنا أن أعرف ما شأنك به؟

- وقالت امرأة أخرى:

- هل نعرف نحن؟ يجب أن تعرف أنت ما الذي يريده منك، ما دمت تصرخ هذا الصراخ! لقد كلمك أنت ولم يكلمنا نحن، يا أهبل! أم تُراك لا تعرف الرجل؟

- أي رجل؟

- تشيبيوف طبعاً!

- الشيطان يأخذه، ويأخذك أنت أيضاً معه! سوف أضربه، ذلك كل ما أقوله لكُنَّ، لأنه سخر مني.

- هل أنت تضرب تشيبوف؟

- لا، لا، ليس تشيبوف من سأضربه، يا امرأة شريرة تزرع الشقاق، وإنما سأضرب الصبي. آتني به إلى هنا، آتني به حالاً، حالاً!

ضحكت النساء. أما كوليا فكان قد ابتعد، وهو يسير الآن متبختراً كالمنتصر؛ وأما سموروف الذي يسير إلى جانبه فإنه يلتفت من حين إلى آخر نحو مجموعة البائعات اللواتي كن يلوّحن بأيديهن صائحات. إن سموروف مبتهج هو أيضاً ابتهاجاً كبيراً، ولكنه يخشى أن يجره كوليا إلى قصة لا تحمد عقباها.

- عن أي سابانايف كلمته؟ سأله سموروف وهو يتنبأ بالجواب.

- وهل أنا أعرف؟ سوف يظلون يتشاجرون في هذا الأمر حتى المساء. لشد ما أحب أن أحيِّر وأن أريك الأغبياء من جميع طبقات المجتمع. أنظر! هذا بليد آخر هناك، ذلك الفلاح، هل تراه؟ كثيراً ما يقال: «أغبى الأغبياء غبي فرنسي». أما أنا فأرى أن وجوه الروس تكشف أحياناً عن غباوة يُحسدون عليها. أليس مكتوباً على جبين هذا الرجل مثلاً أنه بليد؟ إنني أقصد ذلك الفلاح نفسه. ما رأيك؟

- دعه وشأنه يا كوليا. امضِ بنا!

- لن أدعه وشأنه بحال من الأحوال! إنني أشعر باندفاع لا يُقاوم. أنت... هناك! صباح الخير أيها الفلاح الطيب!

ها هو الرجل المنادي، وهو فلاح قوي البنية يزدان وجهه المدوَّر الخالي من المكر بلحية متناثرة، ها هو يرفع رأسه ببطء وينظر إلى الفتى.

- طيب، ليكن، صباح الخير، إذا كنت لا تعبث!

- وإذا كنت أعبث؟

- لك ما تشاء عندئذ، اعبث قليلاً أيها الفتى. مباح للمرء أن يتسلى في هذا العالم. لا يسيء ذلك إلى أحد.

- معذرة أيها الطيب، لقد أردت أن أمزح.

- سيسامحك الله.

- وهل تسامحني أنت؟

- من كل قلبي امضِ في سبيلك!

- يبدو لي أنك فلاح ذكي.

- أذكى منك على كل حال.

قال الرجل على غير توقُّع، ولكن دون أن يتخلى عن هدوئه ورصانته.

فأجابه مرتبكاً:

- أشك في ذلك.

- بلى بلى! أنا أذكى منك.

- قد يكون هذا صحيحاً.

- أرأيت؟

- استودعك الله أيها الفلاح.

- وداعاً.

- الفلاحون أنواع. قال كوليا مخاطباً سموروف بعد بضع لحظات من الصمت. كيف يمكن أتوقع بأني سأقع على فلاح ذكي. أنا مستعد لأن أعترف بذكاء أبناء الشعب.

وفي البعيد، دقّت ساعة الكاتدرائية الحادية عشرة والنصف. فأسرع الفتيان الخطى، وقطعا بسرعة، دون كلام تقريباً، المسافة الطويلة التي كانت ماتزال تفصلهما عن منزل الكابتن سنيغيريف. حتى إذا صارا على بعد عشرين خطوة منه، توقف كوليا وأمر سموروف أن يدخل قبله ليستدعي كارامازوف. وقال لسموروف شارحاً:

- أريد أولاً أن أتعرف إليه وإلى جو المكان.

اعترض سموروف قائلاً:

- لكن لماذا نستدعيه، ادخل مباشرة، وسوف يستقبلونك جميعهم. فلم تتعرف إلى الرجل على قارعة الطريق في هذا البرد الشديد!

هذا الأمر يعنيني وحدي، أريده هنا في هذا الجو الجليدي: قال كوليا بلهجة استبدادية (كان كوليا يحب هذا النوع من التصرف تجاه من هم أصغر منه مكانة)، فركض سموروف لينفذ الأمر.

IV

يوتشكا

كان كوليا مصطنعاً هيئة الوقار، يدير ظهره إلى السياج، منتظراً وصول إيليوشا. نعم، كان يتمنى منذ زمن طويل أن يتعرف إليه. لطالما سَمع التلاميذ يتكلمون عنه، ولكنه كان حتى الآن، حين يُذكر اسم إيليوشا، يتظاهر بقلة الاكترات وبشيء من الازدراء، حتى إنه لم يفته، في بعض المناسبات، أن «ينتقد» سلوك إيليوشا. والواقع أنه كان في قرارة نفسه يرغب في أن يلقاه: إن شيئاً ما، في التفاصيل التي تُنقل إليه دائماً عن إيليوشا، كان يحببه به ويجذبه إليه. لذلك كانت اللحظة الراهنة خطيرة؛ فقد كان عليه قبل كل شيء أن يحافظ على كرامته بتأكيد استقلاله. فهو يقول لنفسه: «وإلّا فقد يعتبرني صبياً في الثالثة عشرة، ويتعامل معي كما سائر هؤلاء الصّبية الصغار. لماذا يعاشر هؤلاء الصبية؟ سوف اسأله عندما أصبح أقرب إليه. ما الضير إذا كنت قصير القامة. فتوزيكوف أصغر مني سناً وأطول قامةً بقليل. ولكن وجهي ينم عن ذكاء. أعرف أنني لست فتى جميلاً، لا بل أنا دميم. ووجهي ليس وسيماً، ولكنه يعبِّر عن ذكاء. ينبغي لي، من جهة أخرى، أن أحرص على أن لا أسرف في الإفصاح عن نفسي والإعراب عن مشاعري. لو وثبت إلى عنقه، فمن عسى يظنني؟ يا للقذارة!...».

هكذا، كان كوليا مضطرباً، يحاول أن يبدو مستقلاً. خصوصاً وأن قصر قامته هو الذي يقلقه أكثر مما يقلقه وجهه «المحروم من الوسامة». نعم، قصر قامته. لقد رسم منذ العام الماضي، على الجدار، في بيته، خطاً بقلم الرصاص، يشير إلى طول قامته؛ وهو منذ ذلك الحين، يقف تحت هذا الخط كل شهرين، بانفعال شديد ليعرف هل زاد طوله أم لا. ولكنه من المؤسف أن طوله كان لا يزداد إلّا ببطء. وذلك ما كان يملأ نفسه في بعض اللحظات يأساً. والحق أن قسمات وجهه لم تكن «محرومة من الوسامة»، بل كانت لطيفة محببة. إن وجهه أبيض شاحب، فيه بقع احمرار. وإن عينيه الشهباوين صغيرتان ولكنهما تفيضان حياة ونشاطاً، وتنظران نظرات جريئة، ويلتمع فيهما لهيب من العاطفة في بعض الأحيان. وإن وجنتيه عريضتان، وشفتيه صغيرتان دقيقتان، ولكنهما في مقابل ذلك حمراوان جداً. أما أنفه فقد كان دقيقاً كذلك، وكان أقنى. فكان كوليا إذا نظر إلى وجهه في المرآة، أشاح عن صورته مشمئزاً وهو يدمدم: «أنف أفطس، أفطس تماماً». وكان يتساءل في بعض الأحيان، وقد راوده الشك حتى في هذا: «هل لي حقاً وجه ذكي؟». يجب أن لا نظن مع ذلك أن همَّ قامته ووجهه كان يستغرق كل فكره. فإن الأمر لم يكن كذلك أبداً. فمهما تكن اللحظات التي كان يقضيها أمام المرآة قاسية، فقد كان ينساها بسرعة، وحتى لفترة طويلة «ينشغل كلياً عنها بالأفكار والحياة الواقعية»، على حد التعبير الذي كان يحلو له أن يعرِّف به نشاطه وعمله.

ظهر إيليوشا بسرعة، واقترب من كوليا. فلاحظ كوليا، من بعد، أنه مشرق الوجه منبسط الأسارير. تساءل مغتبطاً: «هل بسببي هو مسرور إلى هذه الدرجة؟». لا بد أن نقول هنا إن إيليوشا كان قد تغير كثيراً عما كان عليه في اللحظة التي تركناه فيها: هو لا يرتدي الآن ثوب الدير، بل بدلة أنيقة، ويضع على رأسه لبادة رمادية، وقد قصَّ شعره قصيراً، وكان هذا الزيّ يناسبه كثيراً، وقد أصبح شاباً وسيماً حقاً. وما يزال وجهه البهيج يشع فرحاً، غير

أن هذا الفرح قد أصبح الآن هادئاً. وكأنه متجمع على نفسه. وقد دُهش كوليا حين رأى إيليوشا يخرج إلى الشارع بدون معطف، ولا شك أن إيليوشا قد نسي من تعجّله أن يرتدي معطفه. مدَّ إيليوشا يده إلى كوليا بغير تكلف.

- ها إنك قد عدت أخيراً! لقد انتظرنا جميعاً أن نراك.

- سأشرح لك أسباب ذلك فيما بعد. على كل حال، يسعدني أن أتعرف إليك. لطالما تمنيت أن تتاح لي هذه الفرصة، لأنني سمعت عنك كثيراً. قال كوليا بصوت مضطرب، لأن الانفعال قد قطَّع أنفاسه.

- كنا سنتعارف على كل حال. أنا أيضاً سمعت عنك كثيراً. ولكنك أسرفت في التأخر عن المجيء إلى هنا، أسرفت كثيراً.

- قل لي: كيف الحال هنا؟

- حالة إيليوشا سيئة جداً. سيموت.

- حقاً؟ هلّا اعترفت أن الطب كريه مقيت يا كارامازوف! هتف كوليا بحرارة.

- هل تعلم أن إيليوشا قد نطق باسمك مراراً؟ حتى لقد كان في بعض الأحيان يتكلم عليك في أحلامه، وفي لحظات هذيانه أيضاً. واضح جداً أنه كان متعلقاً بك بشدة في السابق قبل ذلك الحادث... حادث الموسى. يبدو أن لهذا سبباً آخر... قل لي: أهذا كلبك؟

- نعم، هو «برزفونه».

- أليس هو «يوتشكا» إذن؟ فهل فُقد «يوتشكا» إلى الأبد؟

كذلك قال إيليوشا وهو ينظر إلى عيني إيليوشا حزيناً.

فقال إيليوشا وهو يبتسم ابتسامة ملغزة:

- أعرف أنكم جميعاً هنا تفكرون في «يوتشكا» وتحلمون به. إني مطلع على هذا الأمر. اسمع يا كارامازوف، سأشرح لك كل شيء، من أجل هذا قد جئتُ إلى هنا، واستدعيتك، لأشرح لك الموقف مقدماً قبل أن ندخل البيت.

في هذا الربيع يا كارامازوف دخل إيليوشا الصف التحضيري. وأنت تعلم ما هو الصف التحضيري: صبية، أولاد صغار. فسرعان ما أخذوا يعاكسون ايليوشا. وأنا أتقدمه بصفين، كنت أرقب ذلك، من بُعد طبعاً. رأيت صبياً صغيراً، هزيلاً، ولكنه لا يخضع، حتى قد يصل إلى حد الضرب بالأيدي. لقد كان ذا أنفة وكبرياء، وكانت عيناه تقدحان شرراً. إنني أحب الصبيان الذين هم على هذه الشاكلة. وكان الآخرون يشاكسونه بسبب هذه الكبرياء: وكانت ثيابه بخاصة هي التي تحتمل الاستهزاء به حينذاك: سروال مشمور، حذاء متثائب. كان الصبية يندفعون إلى التهكم عليه فرحين، ويحاولون إذلاله. بدأ ذلك يسوؤني، فسرعان ما تدخلت وأدبتهم. إنني أضربهم متى وجب أن أضربهم، وهم مع ذلك يعبدونني، هل تعرف ذلك يا كارامازوف؟ (أضاف كوليا متفاخراً). وأنا أعبد الأطفال على كل حال. وأعلم أن عندي في البيت، في هذه اللحظة نفسها، طفلين أُعنى بهما، وهما اللذان أخَّراني. هكذا كفَّ الصبيان عن اضطهاد ايليوشا، وأصبحت أحميه. كان الولد شديد الكبرياء، صدِّقني، شديد الكبرياء جداً، ولكنه أذعن لي أخيراً وكأنه عبد، فهو ينفذ أوامري، ويصغي إليَّ إصغاءه إلى إله، ويحاول أن يقلدني في كل شيء. كان في أثناء فترات الاستراحة بين الدروس يسرع إليَّ،

فنذهب نتروّض معاً. وكذلك في أيام الآحاد. والتلاميذ في مدرستنا يتهكمون عادةً حين يرون كبيراً يرتبط بهذا الشكل بولد صغير، ولكن تلك آراء سخيفة. لقد كانت معاشرته تسرني، أفليس هذا سبباً كافياً؟ وحاولت أن أعلّمه، لأنمّي ثقافته، ولماذا لا أحاول تثقيفه ما دام محبباً إلى نفسي! أنت نفسك يا كارامازوف قد ارتبطت بجميع هؤلاء الصبية الصغار. فأنت تريد إذن أن تحدث أثراً في الجيل الجديد، أن تغيّره، أن تكون مفيداً له. إنني أعترف لك بأن هذه الصفة من صفات طبعك التي عرفتها مما يرويه الرفاق عنك هي التي شاقتني فيك أكثر من أي شيء آخر. ولكن فلنعد إلى الوقائع: لقد عرفت أن الصبي أخذ يفرط في الحساسية، في العاطفية. وأنا أكره جداً هذه «العواطف التي تشبه عواطف العجول»، أكرهها وأمقتها منذ ولدت، فاعلم هذا! وقد لاحظت عدا ذلك شيئاً من التناقض في وضعه: فهو من جهة أولى شديد الأنفة والكبرياء، وهو من جهة ثانية مخلص لي إخلاص عبد. كان يطيعني في كل أمر خاضعاً، ثم إذا بعينيه تقدحان فجأة شرراً، فلا يريد أن يوافقني، بل هو يناقش ويغضب. كان يتفق لي أن أعرض له بعض الآراء. لن أقول إنه كان يعارض عندئذ هذه الآراء، فلقد كنت أرى بوضوح أن معارضته كانت تستهدفني أنا شخصياً، وأنه كان يتمرد ويعصي لأنني كنت أرد على اندفاعات عاطفته ببرود. عندئذ قررت، كي أعطيه درساً، أن أظهر له مزيداً من البرود وأن أقوّي تحفُّظي تجاهه على قدر ازدياد تعلقه بي. كان ذلك من جانبي موقفاً مقصوداً، يتناسب ومبادئي. لقد أردت أن أنشىء طبعه، أن أقوي عزيمته، أن أصلّب إرادته، أن أصنع منه رجلاً. الخلاصة: لا شك أنك تفهمني بنصف كلمة. وفي ذات يوم، لاحظت فيه اضطراباً غريباً. كان يبدو منهاراً مصعوقاً. وبقي على هذه الحال أياماً. أدركت أن هذا التبدل لا يمكن أن يكون مردُّه إلى ضعف عاطفتي وحدها، وأن له أسباباً أخرى أقوى وأرفع. تساءلت ما عسى أن تكون الدراما التي تجري في نفسه. ولاحقته بالأسئلة، فإذا أنا أعرف الحقيقة: لقد تعرَّف، لست أدري كيف، إلى سمردياكوف خادم المرحوم أبيك الذي كان ما يزال حياً في تلك الفترة. فعمد سمردياكوف إلى تعليم هذا الأحمق الصغير مزحة سخيفة غبية، بل مزحةً وحشية حقيرة هي أن يأخذ لب الخبز فيدس فيه دبوساً ثم يلقيه طعاماً إلى كلب تائه، إلى واحد من تلك الحيوانات الساغبة التي تبلع، دون مضغ، كل ما يقع تحت أنيابها. وذلك ليرى ما عسى أن يحدث بعد ذلك. هكذا أعدَّا لقمة من خبز، وألقياها إلى «يوتشكا» ذاك الكلب الضخم طويل الشعر الذي كثيراً ما جرى الحديث عنه منذ ذلك الحين. هو كلب من تلك الكلاب التي ينسى الناس أن يطعموها، والتي تقضي النهار كله نابحةً على الهواء (هل تحب ذلك النباح الغبي يا كارامازوف؟ أما أنا فلا أستطيع احتماله). انقض الكلب المسكين على لقمة الخبز، فبلعها، وسرعان ما أخذ يعوي متلوياً من الألم، ثم انصرف على الفور راكضاً لا يلوي على شيء، وهو يئنّ متوجعاً. هكذا اختفى ذلك الكلب، على حسب الرواية التي رواها لي إيليوشا نفسه. لقد اعترف لي إيليوشا بفعلته وهو يبكي، فهو ينتحب بقوة ويعانقني متشنجاً، وما ينفك يكرر قوله: «كان الكلب يعدو ويعوي، يعدو ويعوي»، فإلى هذا الحد كان تأثره من ذلك المنظر! لاحظت أن عذاب الضمير ينهكه، وأن الندم يهده. أخذت الأمر مأخذ الجد. كنت حريصاً خاصةً على أن أعاقبه على سلوكه السابق، فعمدت إلى الحيلة. أعترف لك بذلك. تظاهرت باستياء شديد من فعلته، استياءٍ أشد كثيراً من استيائي في الواقع. قلت له: «لقد ارتكبت عملاً حقيراً، عملاً جباناً. أنت نذل! لن أشي بك طبعاً، ولكنني أنهي الآن علاقات الصداقة بيننا. وسأفكر في الأمر، ثم أبلغك بواسطة سموروف «هو الصبي الذي صحبني إلى هنا، وكان مخلصاً لي على الدوام» هل قررت أن أعيد العلاقة بيني وبينك، أم قررت أن أتخلّى عنك إلى الأبد فتى نذلاً لا يستحق الاهتمام». أحدثت هذه الأقوال في نفسه أثراً رهيباً. وسرعان ما أحسست - أعترف لك بذلك - أنني أقسو عليه قسوة قد يكون فيها غلو. ولكن ما العمل؟ لقد كنت أعمل بوحي من قناعتي. وفي الغد، أرسلت إليه سموروف لأبلغه أنني «لن أكلمه بعد اليوم أبداً». تلك هي الاصطلاحات التي نستعملها في المدرسة للتعبير عن انقطاع كل اتصال بين رفيقين. والحقيقة أنني كنت أريد أن أهجره بضعة أيام فقط، ثم أمد إليه يدي عندما أرى ندامته. تلك كانت نيتي الجازمة على

كل حال. ولكن ماذا تظن أنه حدث؟ أصغى إلى الرسالة التي بلغه إياها سموروف ثم صاح يقول له وقد قدحت عيناه شرراً: «أبلغ كراسوتكين أنني سألقي بعد الآن لقم خبزٍ فيها دبابيس إلى جميع الكلاب، إلى جميع الكلاب!». قلت لنفسي عندئذ: «ها. لقد استيقظت فيه روح التمرد، فيجب أن تُقمع وتُقهر». وأظهرت له منذ ذلك الحين احتقاراً، معرضاً عنه كلما لقيته أو مبتسماً بسخرية. وفي تلك الآونة إنما وقعت لأبيه تلك الحادثة، حكاية الليفة كما تعلم. إنك تقدّر الآن أن الصغير قد أصبح منذ ذلك الحين مهيأً لنوبات عنف. وإذ رأى التلاميذ أنني هجرته فقد هاجموه من جديد، صائحين له من أجل إغاظته وإخراجه عن طوره: «الليفة، الليفة». كان ذلك بداية مشاجرات آسف لها، ذلك أنني أعتقد أنه قد كيلت له الضربات ذات مرة. وفي يوم من الأيام هجم عند الخروج من المدرسة على العصبة كلها. وشاءت المصادفة أن أكون على بعد عشر خطوات منه ألاحظه وأرقبه. أقسم لك أنني لم أكن قد سخرت منه. بالعكس: لقد أيقظ في نفسي عندئذ شفقةً كبيرة، شفقة كبيرة جداً. وكنت أوشك أن أهب إلى نجدته. ولكن نظرتينا تلاقتا فجأة. ولست أدري ما الذي ظن ما يقرأه في عينيَّ، ولكنه استل سكينه فجأة، وهجم عليَّ، فأغمد السكين في وركي، هنا، فوق الساق اليمنى قليلاً. لم أتحرّك. أعترف لك يا كارامازوف أنني أبرهن في بعض الظروف على شجاعة. نظرت إليه باحتقار، وكانت نظرتي تقول بوضوح: «أهذا كل شيء؟ ألا تريد أن تضربني أيضاً، عرفاناً منك بالصداقة التي حملتها لك؟ هيَّا، افعل بي ما تشاء!». ولكنه أخفى سكينه، وفقد شجاعته فجأة، وخاف، ثم لم يملك زمام نفسه، فإذا هو يتفجر باكياً، ثم ولَّى هارباً. لم أشِ به طبعاً. حتى لقد أمرت جميع التلاميذ بأن يكتموا ما وقع بغية ألّا يصل الأمر إلى مسمع الادارة. ولم أقل لأمي شيئاً كذلك، ولم أقصّ عليها الواقعة إلّا بعد أن التأم الجرح التئاماً تاماً. وكان الجرح خدشاً بسيطاً على كل حال. وقد علمت بعدئذ أنه في ذلك اليوم نفسه، رمى رفاقه بالحجارة، وعض إحدى أصابعك أنت. لكنك تدرك في أي حالة نفسية كان حينذاك. لكن ما العمل؟ لقد تصرفت بشكل أحمق. فحين مرض لم أزره لأسامحه. أقصد لأتصالح معه. وأنا الآن نادم على ذلك. ولكن ينبغي لي أن أقول مع ذلك كانت لدي أسبابي الخاصة، هذه هي القصة بكاملها... لكنني أعتقد أنني كنت غبياً...

- آه! يا لها من خسارة. إنني لم أعرف قصة علاقاتكما. صاح إيليوشا بانفعال شديد. وإلّا لجئتك منذ زمن طويل راجياً أن تصحبني إليه. تصور أنه كان يتكلم عليك أثناء مرضه وهذيانه. كنت أجهل أنك عزيز على نفسه إلى ذلك الحد. هل يمكن فعلاً ألّا تكون قد عثرت على «يوتشكا»؟ ألم تجده حقاً؟ إن أبا إيليوشا ورفاقه قد بحثوا عن الكلب في المدينة كلها. هل تتصور أن ايليوشا قد قال لأبيه ثلاث مرات بحضوري، قال له باكياً وهو مريض: «لئن كنت أتألم يا بابا، فلأنني قتلت يوتشكا. إن الله يعاقبني». لا سبيل إلى إخراج هذه الفكرة من رأسه! لو استطعنا على الأقل أن نجد يوتشكا وأن نريه إياه حتى يعرف أن الكلب لم يمت، إذن لبُعث حياً من شدة الفرح. ولقد كنا جميعاً نعوِّل عليك في هذا.

- لماذا اعتمدتم عليّ كي أعثر على «يوتشكا»؟ لماذا عليَّ أنا وليس على أحد غيري؟ سأل كوليا بفضول شديد.

- سرت إشاعة أنك تبحث عن الكلب وأنك ستعيده إلى ايليوشا متى وجدته. سمعنا من سموروف شيئاً من هذا القبيل. ونحن جميعاً نحاول أن نقنع ايليوشا بأن «يوتشكا» حيّ، بأنه رُئي في مكان ما. وقد جاءه رفاقه بأرنب لست أدري من أين حملوه، فنظر ايليوشا إلى الحيوان الصغير مبتسماً ابتسامةً ضعيفة، وطلب أن تُردّ إلى الأرنب حريته. فعلنا ذلك. وفي تلك اللحظة نفسها عاد أبوه مصطحباً كلباً صغيراً غير مفطوم من كلاب الحراسة. كان الأب يعتقد أن هذا سيواسي ابنه. ولكنني أخشى أن تكون حالة الابن قد ازدادت سوءاً بسبب ذلك...

- قل لي يا كارامازوف: إلى أي نوع من الرجال ينتمي أبوه؟ إنني لا أعرفه إلّا بالنظر. فما هو رأيك؟ أهو مهرِّج؟

- لا! إن هناك أناساً لديهم حساسية عميقة، ولكنهم مسحوقون. وما تهريجهم عندئذ إلّا نوع من الانتقام المرِّ الساخر إزاء أولئك الذين لا يجرؤون على أن يواجهوهم، من فرط ما اعتادوا الخضوع الذليل، ولا على أن يصارحوهم بالحقيقة وجهاً لوجه. ثق يا كوليا أن هذا التهريج يمكن أن يكون له، في بعض الحالات، أساس مأسوي جداً. إن أفكاره كلها وحياته كلها قد تركزت الآن على ايليوشا. يكفي أن يموت ايليوشا حتى يُجنَّ من الحزن أو ينتحر. إنني ما نظرت إليه مرة إلا وتأكدت من ذلك.

- أفهمك يا كارامازوف قال كوليا بلهجة قاطعة. ألاحظ الآن أنك خبير في معرفة النفس الإنسانية.

- لقد اعتقدت عندما رأيتك منذ قليل مع هذا الكلب أنك تجيء بيوتشكا.

- مهلاً يا كارامازوف. قد نعثر على ذلك الكلب. أما هذا فهو «برزفون». سأدخل إلى غرفة ايليوشا، وأغلب الظن أنه سيتسلى به أكثر مما يتسلى بكلب الحراسة الصغير ذاك الذي أتاه به أبوه. اسمع يا كارامازوف. سأذكر لك بعض الأمور. ماذا أفعل؟ هكذا صاح كوليا قلقاً مهموماً. أؤخرك في هذا البرد الشديد وأنت من دون معطف! إنك ترى مدى أنانيتي. نحن جميعاً أنانيون، مع الأسف!

- لا تقلق. صحيح أن الجو بارد. ولكنني لا أصاب بالزكام بسهولة. لكننا نحسن صنعاً إذا نحن دخلنا المنزل. بالمناسبة: ما اسمك؟ أنا أعرف أنهم ينادونك كوليا، ولكن كوليا ماذا؟

- اسمي نيقولا، نيقولا إيڤانوف كراسوتكين، أو نيقولا إيڤانوف بن كراسوتكين، إذا أردنا أن نستعمل لغة الدواوين.

قال كوليا وهو يضحك ضحكة صغيرة غريبة. ثم أسرع يضيف:

- لعلك تقدِّر أنني أكره اسم نيقولا هذا الذي أحمله؟

- لماذا؟

- لأنه مبتذل، تافه...

- أأنت في السنة الثالثة عشرة من عمرك؟

- بل في الرابعة عشرة. سأتم الرابعة عشرة بعد أسبوعين. وسأعترف لك بضعفي يا كارامازوف حتى تعرف طبيعتي منذ البداية: إنني أكره أن أُسأل عن عمري، بل أمقت ذلك... ثم... يجب أن أقول لك... ثمة نميمة في حقي تجري الآن وتشيع. إنهم يدعون أنني لعبت في الأسبوع الماضي مع تلاميذ الصف التحضيري لعبة اللصوص. صحيح أنني لعبت هذه اللعبة. لست أنكر ذلك. أما أن يُقال إنني لعبتها لنفسي، لمسرتي أنا، فذلك تشنيع قبيح. هناك أسباب تدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه الشائعة قد بلغت مسمعك. فاعلم إذن أنني لم ألعب هذه اللعبة بدافع ميل شخصي، وإنما لعبتها ليفرح الأطفال الذين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً بدوني. إن الناس في هذه المدينة يحبون الأقاويل. وهذه المدينة لا تعيش إلّا على الثرثرات، أؤكد لك ذلك.

- فما المشكلة إذا لعبت لعبتك الخاصة؟

- من أجلي؟ لن تلعب لعبة الحصان مثلاً؟

- في المسرح تُمثِّل التمثيليات للكبار، ومع ذلك نرى فيها مغامرات أبطال، ومعارك وحروباً، وقطاّع الطرق في بعض الأحيان. أليس اللعب نفسه في حقيقة الأمر، وقد اكتسى صورة أخرى؟ ولعبة الحرب بالنسبة إلى الصبيان الصغار، أو لعبة اللصوص، أثناء فترات الاستراحة بين الدروس، أليس فيها نوع من العمل الفني أيضاً على طريقتهم الخاصة. هذا فن ناشئ، هذه تطلعات فنية تتجلى في نفوس الصغار. وإن هذه الألعاب لتكون في بعض الأحيان أجمل من تمثيليات المسرح. الفرق الوحيد هو أن الناس يجيئون إلى المسرح ليروا الممثلين، بينما الأطفال في ألعابهم هم ممثلون ومشاهدون في آن. هذه سلوى مشروعة تماماً.

- أتعتقد بذلك حقاً؟ سأل كوليا وهو ينظر إلى إيليوشا بانتباه شديد: أهذه قناعتك؟ إنك تعبِّر عن فكرة شائقة جداً، هل تعلم ذلك؟ سأفكر فيها ملياً وسأجترُّها حين أعود إلى منزلي بعد قليل. لقد كنت أتوقع أن أتعلم منك أموراً شائقة، أعترف لك بذلك. إنني أودّ أن أتعلم منك يا كارامازوف. بهذا أنهى كوليا كلامه متحدثاً بلهجة نافذة حارة. فأجابه إيليوشا وهو يبتسم له ويصافحه:

- وأنا أيضا أريد أن أتعلم منك.

كان كوليا مفتوناً بإيليوشا. ولقد أرضاه خاصة أن يعامله إيليوشا معاملة الند للند، «كما يعامل «شخص كبير.

- سأريك حيلة يا كارامازوف، هي نوع من التمثيل المسرحي. قال كوليا وهو يضحك ضحكةً عصبية. لهذه الغاية جئت إلى هنا.

- لندخل أولاً إلى أصحاب المنزل، في اليمين. لقد خلع جميع رفاقك معاطفهم، لأن جو الغرفة خانق، والمكان ضيق.

- لكني سأمكث لحظة فقط، سأدخل وأحتفظ بمعطفي. وسيبقى «برزفون» هنا، ويتظاهر بالموت. تعال يا «برزفونه». نم ومت. أترى، قد مات. أنا، سأدخل أولاً، أتفحص الجو، ثم أصفر في اللحظة المناسبة: تعال يا «برزفون». وسوف ترى كيف يدخل الكلب كالسهم. ولكن يجب أن لا ينسى سموروف أن يفتح الباب في اللحظة المناسبة. أنا سأتدبر أمري وسترى اللعبة...

V

قرب سرير إيليوشا

الغرفة التي سبق أن رأيناها والتي تستخدم مسكناً لأسرة الكابتن المتقاعد سينغريف، صديقنا القديم، كانت في تلك اللحظة، مليئة بالزوار وجوها خانقاً. كان يوجد هذه المرة عدة صبيان عند إيليوشا. ورغم أنهم كانوا جميعاً مستعدين، أن ينكروا، مثل سموروف، أن يكون ايليوشا هو من صالحهم، فلقد كان الأمر كذلك في الواقع. فالبراعة في هذا كانت تكمن في حبهم لإيليوشا واحداً بعد آخر، من دون اندفاعات عاطفية، وإظهار الأمر كأنه محض صدفة. لقد شعر إيليوشا بارتياح هائل من آلامه. وأثرت في نفسه هذه الصداقة القوية وهذا الاهتمام الكبير من قبل هؤلاء الصبية، أعدائه القدامى. ليس ينقصه الآن إلّا كراسوتكين. إن غياب هذا الأخير يثقل على صدره كثيراً. فسوء التفاهم الذي نشب بينه وبين كراسوتكين، صديقه الوحيد وحاميه، وهو بين ذكرياته المرة. ذلك ما أدركه سموروف (وهو فتى ذكي جداً كان أول من جاء يصالح إيليوشا). ولكنه حين أبلغ كراسوتكين، بكلمات مغطاة، أن إيليوشا يودّ أن يراه «لأمر من الأمور»، فإن كوليا قد أسرع يقطع حديثه معه، وكلفه بخشونة أن يقول لكارامازوف إنه يعرف بنفسه ما الذي يجب عليه أن يفعله وإنه ليس في حاجة إلى نصائح أحد. وأضاف إلى ذلك أنه إذا قرر أن يزور المريض فسيفعل ذلك في الوقت الذي يراه مناسباً، لأن له «آراءه الخاصة» بهذا الصدد. حدث ذلك قبل يوم الأحد هذا بخمسة عشر يوماً. وذلك هو السبب في أن إيليوشا لم يزره كما كان ينوي. وبانتظار فرصة مواتية أرسل سموروف إلى كراسوتكين مرتين، ولكن كوليا أجاب في المرتين كلتيهما بخشونة وتذمُّر، وأبلغ إيليوشا أنه سوف يعدل عن زيارة ايليوشا إلى الأبد إذا ارتأى إيليوشا أن يجيء إليه؛ وطلب أن يُترك وشأنه بعد الآن. وكان سموروف نفسه يجهل إلى آخر يوم أن كوليا قد قرر المجيء إلى ايليوشا في هذا الصباح. وفي عشية ذلك الأحد، حين ودَّع كوليا صاحبه سموروف، أمره بأن يكون بانتظاره صباح اليوم التالي لينطلقا سوية إلى عائلة سنيغيريف. وقد ألحَّ عليه بألّا يخبر أحداً بأمر هذه الزيارة، لأنه يريد أن يحضر على غير توقُّع أو انتظار. وأطاعه سموروف. كان سموروف يرجو في سرِّه أن يجيء كوليا بالكلب «يوتشكا»، لأن كراسوتكين قد أفلتت منه ذات مرة، بحضور سموروف، كلمات مفادها «أنهم جميعاً حمير، لأنهم لم يستطيعوا بعد أن يعثروا على الكلب، إذا كان الكلب مايزال حياً». ومع ذلك، حين سمح سموروف لنفسه ذات يوم، لاعتقاده بأن الفرصة مواتية، بأن يشير بشكل غامض إلى موضوع الكلب أثناء حديث له مع كراسوتكين، فإن هذا الأخير غضب وصرخ يقول: «أأنا حمار حتى أضيِّع وقتي في التفتيش في أرجاء المدينة عن كلاب الآخرين، بينما أنا أملك كلبي «برزفون»؟ هل يمكن أن نأمل بأن كلباً بلع دبوساً يمكن أن يبقى حياً؟ دعونا من عاطفيات العجول هذه!».

مع ذلك أصبح ايليوشا منذ خمسة عشر يوماً تقريباً، غير قادر على النهوض من سريره الموضوع في زاوية الغرفة تحت الأيقونات. وهو لم تطأ رجلاه المدرسة منذ اليوم الذي التقى إيليوشا وعضَّ له إصبعه. لقد صادف أنه مرض في ذلك المساء نفسه، حتى وإن بقي أثناء الشهر الأول من مرضه غير قادر على النهوض إلا في بعض الأحيان ليسير بضع خطوات في الغرفة أو المدخل. غير أنه ضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يستطيع أن يتحرك

بدون مساعدة أبيه. وكان الأب يرتعد خوفاً على حياة ابنه، حتى لقد توقف عن الشراب، وكانت خشيته من أن يشهد موت ابنه تجعله شبه مجنون. وكثيراً ما كان يتفق له، بعد أن يروِّض صغيره في الغرفة ممسكاً به من ذراعه، وبعد أن يساعده على النوم ثانيةً في سريره، أن يهرب إلى زاوية مظلمة من المدخل، فيضع جبينه على الجدار ويبكي متشنجاً، وهو يخنق أصوات نشيجه حتى لا يسمعها ايليوشا.

عندما عاد إلى الغرفة حاول أن يسلِّي عزيزه الصغير وأن يفرحه، قاصاً عليه حكايات هزلية أو روايات غريبة أو مقلداً أمامه كل أنواع الأشخاص الهزليين الذين صدف أن التقاهم، أو مقلداً له أصوات حيوانات مختلفة. لكن ايليوشا لم يكن يحب أن يقوم أبوه بهذا التمثيل وخاصة بدور المهرِّج أمامه. كان يحاول أن يخفي الضيق الذي يحسه، ولكنه كان يدرك في قرارة قلبه المحطم، أن أباه قد أذلَّه المجتمع، وأن ذكرى ذلك اليوم الرهيب في الكاباريه تحاصره ولا تبارحه لحظة. وكانت نينا الكسيحة، أخت ايليوشا، الوديعة، تكره هي أيضاً أن ترى ما يقوم به أبوها من حركات مضحكة (أما فرفارا نيقولايفنا فقد سافرت إلى سان بطرسبورغ منذ زمن طويل لتتابع دراستها)، على عكس الأم البلهاء، التي كانت تجد في ذلك لذة كبيرة، وكانت تضحك من كل قلبها متى أخذ زوجها يقوم بحركاته الهزلية. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسرها وأن يسرِّي عنها. وهي في كل ما عدا ذلك من وقت، لا تكف عن الشكوى والبكاء، قائلةً إن الجميع قد نسَوها، وإن أحداً لا يحترمها، وإن الإساءات والإهانات تنصب عليها، الخ. غير أن تبدلاً لم يكن في الحسبان قد حدث لها منذ بضعة أيام. أصبح يتفق في كثير من الأحيان أن تنظر صامتةً إلى ايليوشا في زاوية، فإذا هي تطرق وتغوص في التفكير. لقد أصبحت أقرب إلى الصمت، وبدا عليها شيء من الهدوء، فإذا بكت حاولت ألّا يسمع أحد بكاءها. وقد لاحظ الكابتن هذا التبدل فشعر بدهشة أليمة. ولقد كانت زيارات رفاق الابن تضايق الأم الخرفة في أول الأمر، تثير غضبها. ولكن صرخاتهم الفرحة وحكاياتهم المسلية أخذت بعدئذ تسرِّي عنها، ثم أصبحت الأم تحب هؤلاء الأولاد، حتى أصبح وجودهم ضرورة لا مناص منها، فإذا غابوا هوت إلى حزن مرهق. كانت إذا قصَّ التلاميذ حكايات أو بدأوا يلعبون، تضحك أو تصفق بيديها، وتناديهم إليها في بعض الأحيان فتقبلهم. وكان الفتى سموروف يحظى بإيثارها إياه على غيره. أما الكابتن فكان مجيء التلاميذ يملأه فرحاً عظيماً في كل مرة، وكان يأمل في تلك اللحظات أن يسرِّي وجودهم عن ايليوشا، فيشفى بسرعة متى كف عن الحزن. كان لا يشك لحظة، رغم جميع المخاوف التي توقظها في نفسه حالة ابنه، في أن ابنه سيسترد عافيته، وكان هذا الاقتناع هو الذي شد أزره حتى في هذه الأيام الأخيرة. إنه يستقبل هؤلاء الزوّار الصغار باحترام وتأثر، وينهمك حولهم، ويضع نفسه في خدمتهم، ويقترح عليهم أن يحملهم فوق ظهره، ولا شك أنه كان سيفعل ذلك لولا أن ايليوشا قد أظهر شيئاً من عدم الرضى عن وضع أبيه هذا. لذلك توقفوا أخيراً عن هذه الألعاب. لكن الأب قد عوَّض الأولاد عن هذا، فأصبح يشتري لهم سكاكر وفطائر وجوزاً، ويحضّر لهم شاياً وحلوى بالفاكهة. والجدير بالذكر هنا أن المال أصبح لا يعوزه في هذه الفترة. فقد قبل أن يأخذ المئتي روبل التي أرسلتها إليه كاترينا إيفانوفنا بعد رفضه الأول، قبلها في هذه المرة بغير عناء، كما أن ما تنبأ به إيليوشا في هذا الصدد قد ثبت صدقه، فقد جاءت إليهم كاترينا إيفانوفنا بنفسها لتتعرف إليهم، واستطاعت أن تفتن حتى الأم البلهاء، واستمرت منذ ذلك الحين في مساعدتهم، ونسي الكابتن كبرياءه القديمة وارتضى أن يتلقى هذه المعونات خوفاً من أن يفقد ابنه. وقد أصبح الدكتور هرتسنشتوبه يزور المريض كل يومين بطلب من كاترينا إيفانوفنا، ولكن تدخله لم يسفر عن نتائج طيبة كثيرة رغم الأدوية الكثيرة التي حشا بها المريض. غير أنهم ينتظرون طبيباً جديداً جاء من موسكو، ويتمتع بشهرة واسعة. لقد طلبته كاترينا إيفانوفنا خصيصاً، لقاء أجور باهظة. صحيح أنها لم تستدعه من أجل أن يعالج ايليوشا، وإنما هي استدعته لغرض آخر سنتحدث عنه فيما بعد، ولكنها انتهزت فرصة وجوده في مدينتنا، فطلبت إليه أن يزور المريض الصغير أيضاً، وأبلغت الكابتن ذلك في الوقت المناسب. ولكن الكابتن، في مقابل ذلك، لم يكن

يتوقع زيارة كوليا كراسوتكين، رغم أنه تمنى منذ زمن طويل أن يجيء هذا الفتى الذي تكلم عليه ايليوشا بكثير من الحنين، وكان أمره يعذبه بشدة. حين فتح كراسوتكين باب الغرفة، كان الكابتن والأولاد يحيطون بسرير المريض الصغير، ويتأملون كلب الحراسة الرضيع الذي وُلد يوم أمس. كان والد ايليوشا قد أوصى باحتجاز هذا الكلب له منذ أسبوع، آملاً أن يسرِّي به عن ابنه الذي لم يستطع أن ينسى اختفاء «سكارابه». وكان ايليوشا الذي يعرف منذ ثلاثة أيام أنه سيؤتى بكلب صغير، كلب أصيل، كلب من أهمّ أنواع كلاب الحراسة (وذلك أمر هام للغاية) كان يتظاهر، لباقةً، بأنه أشد ما يكون ابتهاجاً بهذه الهدية. ومع ذلك كان جميع الحضور، الأب والأولاد، قد أدركوا أن هذا الكلب الجديد أذكى في قلب المريض تلك الذكرى الأليمة، ذكرى الآلام التي سببَّها للكلب المسكين «يوتشكا». كان الكلب الصغير مُقعياً قرب ايليوشا يتحرك، وكان هذا الأخير بابتسامة ممزوجة بالألم، يداعبه بيده الشاحبة الناحلة. كان واضحاً أنه معجب بالحيوان الصغير. ولكن يوتشكا لم يكن موجوداً والحيوان الصغير ليس «يوتشكا»!... ولو أن يوتشكا وهذا الكلب الصغير وجدا معاً، لاكتملت السعادة!

- كراسوتكين! صاح أحد الفتية وقد لمح كوليا. حدث اضطراب خلال لحظة، وتباعد الأولاد فاصطفوا على جانبي السرير كاشفين بذلك عن ايليوشا، وهُرع الكابتن يستقبل كوليا:

- أرجوك، تفضل... أيها الضيف العزيز! يا صغيري ايليوشا، هذا السيد كراسوتكين قد جاء لزيارتك...

لكن كراسوتكين سارع يمد يده إليه، مظهراً بذلك معرفته بقواعد الآداب الاجتماعية. والتفت أولاً نحو زوجة الكابتن، الجالسة على مقعد (وكانت في تلك اللحظة مستاءة جداً، فهي تعبّر عن غضبها من أن الأولاد قد حجبوا عنها سرير ايليوشا فحالوا بذلك بينها وبين رؤية الكلب الصغير)، فانحنى يحيّيها بكثير من الاحترام، ثم التفت نحو نينا فحيَّاها كما تُحيَّا سيدة بكثير من الأبهة؛ فكان لبادرة التهذيب والأدب هذه أثر جيد جداً في نفس البلهاء. فانبرت تقول بصوت عال وهي تباعد ذراعيها:

- يُعرف المرء فوراً أنه رجل مهذب. شتان بينه وبين زوارنا الآخرين الذين يركب بعضهم فوق بعض!

- كيف هذا يا عزيزتي؟ يركب بعضهم فوق بعض؟ ماذا تقصدين؟ تمتم الكابتن بحنان يخالطه قلق بشأن حالة زوجته.

- طبعاً، هكذا يصلون جميعاً. في المدخل يركب بعضهم على أكتاف البعض الآخر، ويتواقحون فيدخلون راكبين إلى غرفة أسرة مرموقة كأسرتنا. أهؤلاء زوار محترمون!

- ولكن من دخل على هذا النحو يا عزيزتي، من؟

- هذا الولد ركب على ذاك، اليوم. وهذا ركب على الآخر أيضاً...

كان كوليا أثناء ذلك واقفاً بالقرب من سرير ايليوشا. كان المريض شاحب الوجه، استقام من سريره وحدَّق إلى كوليا. إن هذا الأخير لم يره منذ شهرين فوقف أمامه مذهولاً من منظر رفيقه القديم الصغير: كان لا يتوقع أن يراه بوجهٍ نحيل أصفر اللون وسطعت فيه عينان محمرتان قد اتسعتا. وخطف بصره هزال يديه أيضاً. إنه يتأمله الآن في دهشة أليمة، بينما ايليوشا، المتيبس الشفتين، يتنفس تنفساً شاقاً سريعاً. تقدم كوليا خطوة نحوه، وقال له بصوت متلجلج وهو يمد إليه يده:

- كيف حالك يا عزيزي؟ ...

واختنق صوته، واضطرب اضطراباً شديداً. تقبضت قسمات وجهه، واختلجت أطراف شفتيه. وكان ايليوشا، الذي ما يزال عاجزاً عن أن ينطق بكلمة، يبتسم له ابتسامة ضعيفة. رفع كوليا يده، ومررها في شعر ايليوشا دون أن يدري لماذا.

- لا بأس، تمتم بصوت ناعم، يشجعه. صمتا كلاهما لحظة.

- أرى أن عندك كلباً صغيراً آخر؟ سأل كوليا بصوت كابٍ.

- نـ... عـ... م. أجاب ايليوشا بهمهمة طويلة لاهثة.

قال كوليا برصانة، كأن للملاحظة التي يقولها خطورة خاصة:

- إن بوزه أسود، وهذا يدل على أنه سيكون كلباً شرساً.

والحق أن كوليا كان عاجزاً عن السيطرة على انفعاله، رغم جميع الجهود التي يبذلها، وهو يخشى أن ينفجر باكياً مثل «طفل».

- سيكون من المؤكد ربطه بسلسلة حين يكبر. أنا أعرف هذا. قال أحد الفتيان:

- سيكون ضخماً.

فقالت أصوات أخرى:

- حتماً... ما دام من أفضل أنواع كلاب الحراسة. سيكون حجمه كحجم عجل.

- ضخامة عجل، نعم، ضخامة عجل حقاً، ردد الكابتن بهدوء. لقد اخترت هذا الكلب خصيصاً: إنه من نوع شرس جداً... أبواه أيضاً ضخمان شرسان. يصل طولهما إلى هنا... اجلس، تفضل اجلس... اجلس على سرير ايليوشا، أو اجلس هنا على هذه الدكة. أهلاً بك يا ضيفنا العزيز الذي انتظرناه مدة طويلة... هل جئت بصحبة ألكسي فيودوروفتش؟

جلس كوليا على السرير قرب ايليوشا. لا شك أنه قد أعدَّ أثناء الطريق كل ما كان ينوي أن يقوله حتى يكون وضعه منطلقاً منذ بداية الحديث، ولكنه فقد تسلسل الكلام... فها هو يجيب عن سؤال الكابتن قائلاً:

- كلا... مع «برزفون»... عندي الآن كلب يسمى هكذا... هو اسم سلافي تماماً. إنه ينتظر هناك... فمتى صفرت له أسرع يأتي. والتفت نحو ايليوشا فجأة وقال له:

- أنا أيضاً عندي كلب.

- هل تتذكر «يوتشكا» يا عزيزي؟ سأله ايليوشا.

فما إن سمع ايليوشا هذا السؤال حتى تقبّض وجهه بألم ظاهر، وألقى على كوليا نظرة مليئة بالمرارة، وكان إيليوشا واقفاً قرب الباب، فقطب حاجبيه وأومأ من بعيد ليهيب بكوليا كيلا يأتي على ذكر «يوتشكا»، ولكن كوليا لم يلاحظ شيئاً أو تظاهر بأنه لا يرى شيئاً.

- أين هو «يوتشكا...»؟ سأل ايليوشا بصوت محطَّم.

- دعك من «يوتشكا» يا عزيزي... «يوتشكا» لا يساوي شيئاً... يوتشكا ضاع...

صمت ايليوشا وحدَّق إلى كوليا مجدداً. وتمكّن إيليوشا أن يجذب انتباه كراسوتكين

فأومأ له بإلحاح، مهيباً به ألّا يستمر، ولكن كوليا أشاح عنه متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً.

- اختفى «يوتشكا» ولم يترك أثراً. وهل كان يمكنه أن يعيش بعد أن بلع فطيرة بالفاكهة كتلك الفطيرة؟

تابع كوليا كلامه دون رحمة، بصوت أصبح لاهثاً لا يدري أحد لماذا. ثم أردف:

- ولكنني اصطحبت «برزفونه»... هذا اسم جميل... لقد جئت بهذا الكلب.

- لا أريده! قال ايليوشا.

- بلى بلى. أحب أن تراه، يجب أن تراه. سوف يسلّيك. لقد جئت به خصيصاً... إن له شعراً طويلاً كالآخر... هل تأذنين لي يا سيدتي بإدخال كلبي؟

- لا، لا أريد. صاح ايليوشا بصوت محطم من الألم.

وكانت عيناه الساطعتان تعبران عن عتب.

عندئذ تدخَّل الكابتن الذي كان جالساً على سحارة قرب الجدار.

- ربما كان الأفضل... ربما كان الأفضل أن نختار وقتاً آخر...

ولكن كوليا أصرَّ، والتفت إلى سموروف وقال يأمره:

- افتح الباب!

فما إن نفذ سموروف الأمر حتى صفَّر كوليا، فإذا «برزفونه» يسرع فيصير في الغرفة.

صرخ كوليا يقول وقد وثب عن مكانه:

- اقفز يا «برزفونه»، تبختر!

فإذا الكلب ينتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، قرب سرير ايليوشا. فحدث عندئذ شيء لم يكن في الحسبان: ارتعش المريض الصغير، ونهض بكثير من الجهد، ومال على «برزفونه» يتفحصه وقد اصفر من شدة الانفعال، ولكن هذا «يوتشكا»! هتف بصوت مرتعش من الألم والفرح معاً.

- فماذا كنت تظن إذن؟ صرخ كراسوتكين هو أيضاً بصوتٍ مجلجل سعيد وانحنى على الكلب، فأحاطه بذراعيه، وقرَّبه من وجه ايليوشا، وهو يقول له:

- أنظر يا عزيزي، انظر. إنه أعور ومصلوم الأذن. تلك هي بعينها العلامات التي ذكرتها حين وصفت لي «يوتشكا». وبفضل هذه العلامات استطعت أن أجده. ولم أحتج من أجل ذلك إلى زمن طويل. كان كلباً لا صاحب له، لا صاحب له! أضاف يقول شارحاً وهو ينقل نظره بسرعة من ايليوشا إلى الكابتن فإلى زوجة الكابتن، فإلى إيليوشا، ثم يعود إلى ايليوشا. كان هذا الكلب يعيش في الحوش خلف منزل آل فيدوتوف، ويظن أنه قد وجد لنفسه هنالك مأوى، ولكنهم كانوا لا يقدمون له الأكل، فكان يتيه في البرية على غير هدى. ووجدته آخر الأمر... أرأيت يا صاحبي؟ إن هذا الكلب لم يبلع لقمتك وإلّا لمات من ذلك حتماً. لقد لفظها دون أن يبلعها، لذلك ما يزال حياً. أنت لم تلاحظ أنه لم يبلع الدبوس. لقد

لفظه. ولكن الدبوس قد وخز لسانه. ولهذا السبب أخذ يعوي، فتخيلت أنت أنه بلع اللقمة. ولا بد أنه بقي يعوي فترة طويلة، لأن للكلاب في فمها أغشية حساسة جداً... أشدَّ حساسية من أغشية أفواه البشر... أشد كثيراً. صاح كوليا وقد احمر وجهه وأشرقت حماسته.

أما ايليوشا فكان لا يستطيع حتى أن يتكلم، كان ينظر إلى كوليا محملق العينين فاغر الفم أصفر اللون. لو أن كراسوتكين الذي لم يدر في خلده شيء، قد استطاع أن يتصور مدى المشقة التي يمكن أن يعانيها ايليوشا في هذه الدقيقة، ومدى الضرر الذي يمكن أن تلحقه هذه المفاجأة بصحة المريض، لما قرر أن يدبر هذا الفصل المسرحي. ولعل إيليوشا كان بين جميع الحضور الشخص الوحيد الذي ربما خطر بباله ما قد ينتج من هذا من أثر. أما الكابتن فقد كان يتصرف كطفل صغير. فهو يهتف بصوت فرح سعيد:

- يوتشكا! هذا يوتشكا إذن! ايليوشا، عزيزي ايليوشا، إنه هنا، صاحبك يوتشكا! ماما! هذا يوتشكا!

وكان الكابتن كمن يبكي.

- ما أغباني حين لم يخطر ببالي شيء قال سموروف بمرارة! ألم أقل لكم إن كراسوتكين سيجد «يوتشكا»؟ فها هو قد وجده.

- وجده! قال صوت آخر فرح.

- مرحى كراسوتكين! ارتفع صوت طفل ثالث يقول.

وانطلقت أصوات جميع الأطفال يهتفون وهم يصفقون بأيديهم:

برافو! برافو!

لحظة، لحظة. قال كوليا محاولاً أن يسيطر على الجلبة بصراخ أقوى من صراخهم، أصغوا إليّ. سأروي لكم كيف حصل ذلك. اللعبة أنها كيف حصل ذلك فحسب. لقد عثرت عليه، فأخذته إلى بيتي، وخبأته في غرفتي، دون أن أُظهره على أحد حتى هذا اليوم. سموروف وحده علم منذ أسبوعين أن عندي كلباً، ولكنني أوهمته أن الكلب هو «برزفون» فصدَّق ما قلته له. وفي أثناء هذا الوقت علَّمت «يوتشكا» أنواعاً من الحيل. سوف ترون كيف أصبح «يوتشكا» عالماً. لقد روَّضته من أجل أن آتيك به مهذباً يا عزيزي! سوف ترى كيف أصبح صاحبك «يوتشكا». هل عندكم قطعة لحم؟ سوف يريكم شيئاً يميت من فرط الضحك. قليلاً من اللحم، أليس عندكم قليل من اللحم؟

أسرع الكابتن إلى المدخل، وذهب إلى شقة أصحاب المنزل حيث كان يُهيأ للأسرة عشاؤها. ومن أجل أن لا يضيع وقت ثمين، أسرع كوليا يأمر «برزفونه» قائلاً له: «مت». فإذا بالكلب يدور ويدور، ثم يستلقي على ظهره، ويسكن سكوناً تاماً، رافعاً قوائمه الأربع في الهواء. أخذ الأولاد يضحكون. واستمر ايليوشا ينظر إلى الكلب بابتسامة أليمة. ولكن الأم خصوصاً هي التي كان يبدو أنها تجد فرحاً كبيراً في رؤية «برزفونه» متظاهراً بالموت، فهي تضحك بصخب، وتنادي الكلب صافقةً بأصابعها: «برزفونه، برزفونه!».

- لن ينهضه شيء في الدنيا كلها! صاح كوليا باعتزاز. مهما تنادوه جميعاً، فلن يتحرك. ولكن يكفي أن آمره أنا حتى ينهض فوراً. تعال يا «برزفونه»!

فما إن سمع الكلب نداء كوليا حتى أخذ يقفز فرحاً. وأسرع الكابتن في تلك اللحظة حاملاً قطعة من لحم مسلوق.

- أليس اللحم ساخناً جداً؟ قال كوليا بوقار.

ثم تناول قطعة اللحم بأصابعه، وأضاف:

- لا، ليس ساخناً جداً، وإلّا... الكلاب لا تحب السخونة. انظروا الآن جميعاً! أنظر يا ايليوشا. هلّا نظرت! لماذا لا تنظر؟ أأجيئك به، ثم ترفض حتى أن تهتم؟

إن المشهد الجديد هو أن توضع قطعة اللحم في طرف بوزه الممدود، على أن يبقى الكلب ساكناً. إن على الحيوان المسكين أن يظل على هذا الوضع، واللحم في متناول فمه، طالما سيده يطلب منه ذلك، فلا يجوز له أن يقوم بأية حركة ولو خلال نصف ساعة. غير أن الكلب لم يُحمل على الانتظار إلّا دقيقة قصيرة.

- هيَّا! صاحٍ كوليا.

فإذا بقطعة اللحم المسلوق تدخل فم «برزفونه» بسرعة البرق. وأعرب الحضور عن دهشتهم وحماستهم طبعاً.

- هل يُعقل أن تكون قد تأخرت عن المجيء لا لهدف غير ترويض الكلب؟ قال إيليوشا متعجباً بلهجة فيها عتب على غير ارادة منه.

- طبعاً. هذا هو الهدف الوحيد. أردت أن أعرضه بكل روعته.

هكذا أجاب كوليا بسذاجة.

- برزفونه، برزفونه!». قال ايليوشا ينادي الكلب وهو يصفق بأصابعه النحيلة» ليلفت انتباهه إليه.

- لا حاجة بك إلى أن تناديه. قال كوليا سوف يقفز إلى سريرك من تلقاء نفسه.

ثم أمر الكلب قائلاً له، وهو يضرب السرير بيده:

- هنا يا برزفونه!

فإذا بالكلب يثب إلى قرب ايليوشا.

أحاط ايليوشا رأس الحيوان بيديه، فلعق الحيوان وجهه عرفاناً بالجميل. وشد ايليوشا نفسه إلى الكلب، وتمدد على سريره، وأخفى وجهه في جزائز شعره الكثيفة.

عاد كوليا يجلس على سرير ايليوشا، وقال له:

- ايليوشا! ثم شيء أستطيع أن أريك إياه. لقد جئتك بمدفع صغير. سبق أن حدثتك عنه، هل تتذكر؟ لقد قلت لي عندئذ: «أحب أن أراه!». ها أنا جئتك به اليوم.

قال ايليوشا ذلك، وسلَّ المدفع البرونزي الصغير من كيسه بسرعة. كان كوليا يُسرع، لأنه كان يحس هو نفسه بالسعادة. ولولا ذلك لانتظر أن يزول أثر المفاجأة الأولى، الذي أحدثه ظهور «برزفون». ولكنه كان في هذه المرة يتعجل إظهارهم على اللعبة غير عابىء بأي رزانة، ولسان حاله يقول: «ها أنتم أولاد سعداء، سأوفر لكم مزيداً من السعادة!». كان كوليا يشعر بافتنان قوي.

- لقد لاحظت هذه اللعبة عند الموظف موروزوف منذ زمن طويل. فتمنيت الحصول

عليها، ولكن من أجلك أنت يا عزيزي، من أجلك أنت. لقد أخذها من أخيه، وهو لا يستعملها. ولقد استطعت أن أحصل منه عليها مقابل كتاب من مكتبة بابا عنوانه «ابن عم محمد أو الجنون الشافي». إنه كتاب فاسق ظهر في موسكو منذ مئة عام، أيام لم تكن هنالك رقابة على المطبوعات بعد. وموروزوف من عشاق هذه الأمور، حتى لقد شكر لي هذه المقايضة...

كان كوليا يمسك المدفع بيده إمساكاً يتيح للجميع أن يروه وأن يُعجَبوا به. ونهض ايليوشا، وأخذ يتأمل اللعبة مسروراً مع استمراره في معانقة «كاريون» بيده اليمنى. وبلغ التأثير ذروته حين أعلن كوليا أن معه كذلك باروداً، وأن في وسعهم أن يطلقوا النار من المدفع، «هذا إذا كانت السيدات لا يرين في ذلك بأساً». فسارعت «ماما» تطلب أن تنعم النظر في اللعبة من قرب، فلُبِّي طلبها فوراً. أعجبها المدفع البرونزي الصغير المركب على عجلات إعجاباً شديداً، وأخذت تدحرجه فوق ركبتيها. ولم تتردد في أن تأذن بإطلاق النار من المدفع، دون أن تفهم الموضوع جيداً في الواقع. وأخرج كوليا البارود والخردق فأظهرهما على الحضور. وتولى الكابتن، بصفته عسكرياً قديماً، حشو المدفع، فسكب بنفسه قليلاً من البارود على ضوء المصباح. أما الخردق فرجا أن لا يُستعمل هذه المرة. تمَّ تركيز المدفع على أرض الغرفة، ووُجِّهت فوهته نحو فضاء خالٍ، وأشعل البارود بعود ثقاب. فانطلقت النار. ارتجفت «ماما» في اللحظة الأولى، ثم أخذت تضحك مسرورة. وكان الصبيان ينظرون إلى اللعبة بإعجاب صامت. غير أن الكابتن كان أسعدهم جميعاً، وكان لا يحوّلُ نظره عن ايليوشا. وتناول كوليا المدفع، فأهداه فوراً إلى ايليوشا، كما أهدى إليه البارود والخردق.

- هذا لك، قال له بفرح، هذا لك، أعددته منذ مدة طويلة لأهديه إليك.

- كلا، هذا لي، أعطنيه أنا. قالت البلهاء ضارعة بصوت كصوت طفل.

كان وجهها يعبر عن المرارة، وعن الخوف من أن يُرفض طلبها. فاضطرب كوليا؛ واهتز الكابتن، فصاح يقول لزوجته وهو يدنو منها:

- عزيزتي، عزيزتي، هذا المدفع لك، لك أنت. فليحتفظ به ايليوشا إلى حين، ما دام قد أهدي إليه، ولكنه لك أنت طبعاً. سيسمح لك ايليوشا بأن تلعبي به كلما أردت ذلك. هو لكما كلاكما، لكما كلاكما...

- لا، لا أريد أن يكون لنا كلينا. أريد أن يكون لي وحدي، وليس لإيليوشا. قالت الأم وهي توشك أن تبكي.

- ماما، خذيه، إنني أهديه إليك. صاح ايليوشا.

وكأنما خشي أن يسيء إلى كوليا إذا هو تنازل عن هديته لشخص آخر، فسأله متوسلاً:

- هل أستطيع أن أهديه إلى ماما يا كراسوتكين؟

- لمَ لا؟ قال كوليا موافقاً.

وتناول المدفع من بين يدي ايليوشا، فقدّمه بنفسه إلى الأم وهو يحيّيها أرق تحية. ولقد بكت الأم من شدة التأثر.

- ايليوشا، بنيَّ الصغير، أنت تحبني حقاً، أنت على الأقل. صاحت الأم بانفعال.

ثم عادت تدحرج المدفع الصغير على ركبتيها.

- عزيزتي، هلّا أذنت لي أن أقبِّل يدك؟ قال زوجها وقد أدرك رغبتها فوراً.

استأنفت الأم كلامها شاكرة وهي تومىء إلى كراسوتكين.

- هذا ألطف جميع هؤلاء الصبيان.

وقال كوليا:

- أما البارود يا ايليوشا، فسأجيئك منه بالقدْر الذي تشاء. إننا نصنعه بأنفسنا. لقد تعلّم بوروفيكوف الطريقة: أربعة وعشرون جزءاً من النطرون، وعشرة أجزاء من الكبريت، وستة من فحم الحطب. يطحن هذا كله معاً، ثم يُصب عليه ماء ليصبح عجينةً تُحَكُّ بعد ذلك على جلد حمار. هكذا يتم الحصول على البارود.

- حدثني سموروف عن بارودك. قال إيليوشا. ولكن بابا يقول إن هذا ليس هو البارود الحقيقي.

- ليس هو البارود الحقيقي؟ قال كوليا محتجاً وقد احمر وجهه كيف ذلك؟ على كل حال، لست أدري...

- لا، لا... أنا لم أقل شيئاً. أسرع الكابتن يصحح مُحرجاً. ربما أكون قد ذكرت أن البارود الحقيقي يُصنع بطريقة أخرى، ولكن ليس لهذا أي قيمة... إن من الممكن أن يُحصل على البارود بهذه الطريقة أيضاً.

- أنت أعلم منا على كل حال. لقد أشعلنا بارودنا في وعاء، فاحترق احتراقاً كاملاً ولم يخلِّف إلّا قليلاً من السناج. وكان من جهة أخرى عجينة لا ينقصها إلّا إمرارها من خلال جلد... ومهما يكن من أمر، فأنت أعلم بهذه الأمور مني... بالمناسبة: لقد ضُرب بولكين بسبب بارودنا، ضربه أبوه، هل بلغك هذا؟

هكذا سأل كوليا ملتفتاً نحو ايليوشا. فأجابه ايليوشا.

- بلغني هذا الأمر.

وكان ايليوشا يصغي إلى كوليا باهتمام شديد وبلذة فائقة.

- كنا قد حضَّرنا زجاجة من بارود، فخبأها بولكين تحت سريره. واكتشفها أبوه فقال: «قد تحدث انفجاراً» وجلد ابنه بحزامه على الفور. حتى لقد كان في نيته أن يشكوني إلى إدارة المدرسة. وحظر على ابنه منذ ذلك الحين أن يراني. أصبحوا لا يسمحون لأحد بمعاشرتي. حتى سموروف مُنع من ذلك. لقد اتّسخت سمعتي، فقالوا إنني «متهور» - قال كوليا ذلك وهو يبتسم بازدراء. ويعود هذا إلى زمان قصة السكة الحديد.

- لقد سمعنا بمأثرة السكة الحديد هذه. صاح الكابتن، كيف تمكنت من الصمود بين القضيبين؟ هل يمكن حقاً أن لا تكون قد أُصبت بالرعب عندما مر القطار من فوقك؟

كان الكابتن يتفنن في تملُّق كوليا.

أجاب هذا الأخير بلهجة فيها إهمال:

- شعرت بالخوف؟ لا. لم أخف كثيراً. ولكن تلك الإوزة اللعينة هي التي جاءتني بسمعة التهور هذه.

أضاف كوليا ذلك وهو يلتفت نحو ايليوشا مجدداً.

كان كوليا يحاول أن يصطنع في كلامه هيئة عدم المبالاة، ولكنه رغم ما كان يبذله من جهود في هذا السبيل، لم يتمكن من العودة إلى السيطرة على نفسه، وأصبح لا يجد اللهجة المناسبة.

- سمعت أيضاً بقصة الإوزة هذه! قال ايليوشا مشرق الأسارير حكَوها لي. ولكن هناك نقطة لم أفهمها جيداً. هل صحيح أنهم أخذوك إلى القاضي؟

- تلك مهزلة سخيفة تافهة أثيرت حولها ضجة كبيرة في هذه المدينة على عادة الناس هنا. قال كوليا يشرح منطلقاً: كنت أجتاز «السوق» حين كان يؤتى إليه بالإوزّ، فوقفت أنظر إلى الإوز. فإذا بفتى من هنا، اسمه فشيناكوف يعمل الآن أجيراً ساعياً في متجر آل بلوتنيكوف، أخذ يحدّق إليّ ويسألني: «مالك تنظر إلى الإوز هكذا؟». رفعت بصري نحوه. إنه شاب في نحو العشرين من العمر، له وجه مدوَّر غبي. إنني لا أحتقر الشعب أبداً، اعلموا هذا. إنني أحب البسطاء من الناس... نحن متخلفون كثيراً عن الشعب، تلك بديهية أؤمن بها... يُخيَّل إليَّ أنك تضحك يا كارامازوف، أليس كذلك؟

- أبداً! بالعكس: أنا أصغي إليك بكثير من الانتباه.

هكذا أجابه إيليوشا بلهجة طيبة ساذجة، فسرعان ما استرد كوليا شجاعته، وراح يكمل كلامه بفرح فقال:

- نظريتي واضحة يا كارامازوف. إنني أؤمن بالشعب، وأشعر بالسعادة عندما أنصفه، ولكن ليس لأتملقه طبعاً، هذا شرط لا بد منه. ها... نعم... كنت أتكلم على تلك الإوزة. ثم التفت نحو ذلك الأبله وأجبته: «أنا أقول ما أفكر فيه، فبمَ تفكر هي الإوزة؟» فحملق في بغباء، ثم استأنف يسألني: «وما الذي تفكر فيه هذه الإوزة، في رأيك؟» قلت: «هل ترى تلك العربة المحمَّلة شوفاناً؟ إن الشوفان يتساقط من الكيس، وقد مدت الإوزة رقبتها لتنقر الشوفان، واقفةً تحت العجلة تماماً، هل لاحظت ذلك؟»، قال: «طبعاً لاحظته!» قلت: «فإذا دفعنا العربة الآن قليلاً، قطعت العجلة رقبة الإوزة، أصحيح أم لا؟». قال: «طبعاً ستقطع العجلة رقبة الإوزة!» قال ذلك فاتحاً فمه من الفرح، فإلى هذا الحد أفرحته تلك الفكرة. قلت: «فهيَّا بنا أيها الشجاع!» فردَّد يقول: «هيَّا بنا!». ولم يطل الأمر. وقف هو قرب اللجام دون أن يراه أحد، ورابطت أنا جانباً لأوجِّه الإوزة. أما صاحب العربة فلم ينتبه إلينا، لأنه كان يتحدث مع أحد الناس. ولم أحتج إلى التدخل من أجل أن أوجه الإوزة، فقد مدت عنقها تحت العجلة من تلقاء نفسها لتبلغ حبات الشوفان، وأومأتُ إلى الفتى، فشد اللجام، فما هي إلّا لحظة حتى كانت رقبة الإوزة قد قُطعت. وشاءت المصادفة أن يرانا في تلك اللحظة جميع الفلاحين المتجمعين في الساحة، فأخذوا يصيحون بصوت واحد قائلين له: «فعلت هذا عمداً»، فقال لهم: «لا، لم أفعله عمداً»، فقالوا: «بل فعلته عمداً»؛ وازداد صراخهم، وقالوا: «قودوه إلى قاضي الصلح!». واقتادوني أنا أيضاً قائلين: «كنت أنت حاضراً، فأنت الذي حرّضته، إن جميع الناس يعرفونك في السوق». والواقع أنني معروف جداً في السوق، لا أدري لماذا (أضاف كوليا قائلاً باعتزاز). وذهبنا إلى قاضي الصلح. فجيء بالإوزة أيضاً. خاف صاحبي الفتى وأخذ ينتحب. حقاً، كان يبكي كامرأة. أما صاحب العربة فكان يصرخ قائلاً: «على هذا يمكنكم أن تقتلوا ما شئتم من إوز.». وكان ثمَّة شهود كثيرون. وفصل قاضي الصلح في القضية بسرعة: حكم بتعويض قدْره روبل لصاحب الإوزة، وقضى بأن

يحتفظ الشاب بالإوزة، وختم قاضي الصلح كلامه قائلاً: «فلا مزاح من هذا النوع في المستقبل!» ولكن الشاب كان يبكي ويتشكى قائلاً وهو يشير إليّ: «لست أنا. هو الذي علَّمني»، فأجبت، دون أن أفقد هدوء أعصابي، بأنني لم أعلِّمه شيئاً أبداً، وإنما عبَّرت عن فكرة هذه المزحة بشكل عام، كمشروع لا أكثر. فابتسم قاضي الصلح نيفيدوف، ثم ندم لأنه تبسم، وقال لي: «سأرسل تقريراً عنك إلى إدارة المدرسة فوراً، حتى لا تندفع بعد الآن في مشاريع من هذا النوع بدلاً من الانكباب على التحصيل وتحضير دروسك». والواقع أنه لم يشِ بي إلى إدارة المدرسة، وإنما كان ذلك منه تهديداً. غير أن القضية ذاعت في المدينة حتى وصلت إلى آذان السلطات المدرسية. إنكم تعلمون أن للمسؤولين في المدرسة آذاناً طويلة! استاء الأستاذ كولباسنيكوف استياءً شديداً، ولكن داردانيلوف دافع عني من جديد. وكولباسنيكوف راح يزيد من الغضب. إنك تعلم يا ايليوشا أنه قد تزوج وأخذ من آل ميخائيلوف ألف روبل مهراً، لكن خطيبته هي مصيبة كبيرة من الدرجة الأولى. فنظم تلاميذ الصف الثالث قصيدة في هذه المناسبة.

بلوعة وأسف شديد

بلغ الخبر تلامذة الصف الثالث

أن الأستاذ كولباسنيكوف

أخطأه التوفيق فتزوج.

حسناً وهلم جرا. هي قصيدة فكهة، سآتيك بها فيما بعد. الآن لن أقول شيئاً عن داردانيلوف: إنه رجل واسع المعرفة، ومعارفه جدية. إنني أحترم أمثاله من الناس، ولكن ليس لأنه دافع عني.

- ومع ذلك تغلّبت عليه أنت في السؤال عن إنشاء مدينة طروادة. هنا انبرى سموروف الذي كان يشعر عندئذ باعتزاز بكراسوتكين.

- كانت حكاية الإوزة قد فتنت سموروف.

- غلبته حقاً؟ قال الكابتن بلهجة المديح والتملُّق؟ كان ذلك في موضوع إنشاء مدينة طروادة، أليس كذلك؟ لقد قيل لنا فعلاً إنك كنت أقوى منه في هذه النقطة. حدثني ايليوشا عن هذا في ذلك اليوم نفسه.

قال ايليوشا:

- إنه يعرف كل شيء يا بابا، إنه يعرف أكثر منا جميعاً! هو يتواضع، لكنه أول التلاميذ في جميع المواد...

كان ايليوشا ينظر إلى كوليا بسعادة لا نهاية لها.

أجاب كوليا باعتزاز متواضع:

- أما حكاية طروادة هذه فهي في الواقع مسألة تافهة لا قيمة لها.

لقد توصل كوليا أخيراً إلى إيجاد اللهجة المناسبة، ومع ذلك كان مايزال قلقاً جداً: كان يشعر أنه مهتاج قليلاً، وأنه قد روى حادث الإوزة بحرارة مفرطة. لقد كان إيليوشا صامتاً أثناء رواية هذه القصة، لم يخرج عن رزانته لحظة واحدة. فها هو كوليا الحساس

الأذيّ يتعذب الآن إذ يتساءل: «أتراه قد سكت احتقاراً لي، لاعتقاده بأنني أستجدي المديح والاطراء؟ إن كان قد سمح لنفسه بأن يظن ذلك، فسوف أعرف كيف...».

- في رأيي إن ذلك السؤال ليس له قيمة حقيقية. قال مرة ثانية بتكبّر.

- أنا أعرف من أنشأ طروادة! قال، على حين غرة وبشكل غير متوقع، فتى لم يكن قد فتح فمه بكلمة حتى ذلك الحين صبي صموت خجول، جميل الوجه جداً، في نحو الحادية عشرة من عمره، اسمه كارتاشوف. كان جالساً قرب الباب. دُهش كوليا، وتفرس في الطفل مصطنعاً هيئة الوقار. الواقع أن ذلك السؤال هو: «من أنشأ مدينة طروادة؟»، كان قد أصبح سراً، وكان لا بد لمعرفة ذلك من الرجوع إلى كتاب سماراغدوف. وكان كوليا هو التلميذ الوحيد الذي يملك ذلك الكتاب. ولكن الفتى كارتاشوف قد انتهز في ذات يوم لحظة غفلة من كوليا، فأسرع يفتح كتاب سماراغدوف الذي كان ملقًى بين كتب كوليا المدرسية، فوقع عرضاً على الصفحة التي يتكلم فيها الكتاب على إنشاء مدينة طروادة. وحدث ذلك منذ مدة طويلة، ولكن الفتى كان شديد الخجل، فلم يجرؤ حتى الآن أن يؤكد على مسمع من الناس أنه يعرف هو أيضاً أسماء بناة طروادة. كان يخشى أن يترتب على ذلك وقوع حادث مزعج، وأن يربكه كوليا. لكنه لم يستطع في هذه المرة أن يكبح جماح نفسه، فانطلق يتكلم، مرضياً بذلك حاجةً في نفسه تعذبه منذ أسابيع.

- قل لنا من أنشأ مدينة طروادة! قال كوليا متعالياً وهو يلتفت نحو الفتى الوقح.

لقد عرف كوليا، من تعبير وجه الفتى، أنه يعرف السرَّ، فسرعان ما تهيأ لمواجهة جميع النتائج. وحدث شيء من الكدر في مزاج الحضور.

- بنى مدينة طروادة: توسر، وداردانوس، وإيليوس، وتروس. قال الفتى بسرعة.

واحمر وجهه فوراً؛ وأصبح منظره يثير الشفقة. حدَّق إليه الفتيان الآخرون، وتفرسوا فيه دقيقة طويلة، ثم التفتوا بأبصارهم نحو كوليا بحركة واحدة. بقي كوليا ينظر إلى المنافس الجريء باحتقار دون أن يفقد هدوءه، ثم تنازل فقال له:

- قل لنا كيف بنوها؟ قل لنا ماذا يعني على وجه العموم بناء مدينة أو دولة؟ هل وضع كل منهم آجُرَّةً مثلاً؟

ضحك الجميع. واصطبغ لون الصبي المذنب بلون كلون القرمز في هذه المرة. وصمت، وأوشك أن يبكي. وتركه كوليا جالساً على كرسي الاتهام دقيقة أخرى. ثم قال له بقسوة، كأنما هو يريد أن يلقن الفتى المتهور درساً:

- يجب ألا يسمح لنفسه بمناقشة أحداث تاريخية من هذا النوع، إلّا إذا كان يفهم أولاً معنى ما يقال. لكنني من جهتي لا أقيم وزناً كبيراً لأساطير العجائز هذه.

وأضاف يقول بإهمال، مخاطباً جميع الحضور:

- ثم إنني لا أقدر التاريخ العام كثيراً.

- لا تقدر التاريخ العام؟ سأله الكابتن بنوع من الذعر.

- نعم، لا أقدر التاريخ العام. إنه دراسة الحماقات البشرية، لا أكثر.

وبدأ يشرح بلهجة رصينة وهو ينظر خلسةً إلى إيليوشا، لأن هذا الأخير هو بين

سائر الحضور الشخص الوحيد الذي يتهيب كوليا رأيه.

- أنا لا أحترم إلّا الرياضيات والعلوم الطبيعية.

بقي إيليوشا صامتاً محافظاً على رصانته. فلو أبدى رأياً في تلك اللحظة لاختُتمت المناقشة. غير أنه لم يفتح فمه، ومن الجائز «أن يكون صمته احتقاراً»، لذلك اغتاظ كوليا بشدة، وأردف يقول: وكذلك أرى أن تعليم اللغات المندثرة جنون محض. ألاحظ يا كارامازوف أنك تخالفني في الرأي مجدداً، أليس كذلك؟

قال إيليوشا بهدوء وهو يبتسم بتحفظ:

- حقاً، لست أوافقك على رأيك.

قال كوليا وقد عاد يلهث:

- إذا شئت أن تعرف رأيي، فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو في نظري إجراء بوليسي للقمع والاضطهاد. تلك هي الغاية الوحيدة التي استهدفت من تعليم اللغات القديمة. إنهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة مضجرة تخبِّل العقل. كانت الحياة حزينة، فأرادوا لها مزيداً من البلادة والغباء. كان السخف يحكم العالم، فرأوا أن يفاقموا ذلك قدر الإمكان. هذا هو السبب في أنهم فرضوا تعليم اللغات المندثرة على المناهج المدرسية. ذلك رأيي أنا على كل حال، وإني لآمل ألّا أغيِّره وألّا أحيد عنه في يوم من الأيام. بهذا ختم كوليا كلامه جازماً.

- هذه هي الحقيقة. قال الفتى سموروف بصوت مجلجل مؤيد، وكان قد أصغى إلى كلام رفيقه بانتباه.

فصاح أحد الصبيان:

- هو مع ذلك أول التلاميذ في اللغة اللاتينية!

- نعم يا بابا قال ايليوشا مؤيداً: إنه يقول هذا الكلام مع أنه أفضل تلاميذ الصف في اللغة اللاتينية.

اعتقد كوليا أن عليه أن يسوِّغ ذلك، رغم أنه سُرَّ كثيراً بهذا المديح، فقال:

- لا يبرهن هذا على شيء! إنني أبلع اللاتينية لأنه لا بد من ذلك، ولأنني وعدت أمي بأن أتم دراستي. وأنا أرى أن على المرء أن يتقن كل ما يشرع فيه. ولكن ذلك لا يمنعني من أن أحتقر، في قرارة نفسي، كل الكلاسيكيين، وكل هذه الدناءة... ألست موافقاً أيضاً يا كارامازوف؟

أجاب إيليوشا وهو يبتسم من جديد:

- ولكن أين الدناءة التي تتحدث عنها؟

- أين؟ ألا تفهم؟ لقد تُرجمت مؤلفات الكلاسيكيين إلى جميع اللغات. فليس الغرض من تعليمنا اللغة اللاتينية إذن هو أن نستطيع قراءة تلك المؤلفات، وإنما هنالك أسباب بوليسية، والهدف هو تخبيل عقولنا. أفليس هذا دناءة؟

- ولكن من الذي حشا في رأسك هذه الأفكار؟ صاح إيليوشا يسأله مدهوشاً.

- أولاً، أنا أستطيع أن أفهم هذه الأشياء بنفسي دون أن يدسها أحد في رأسي؛ ثانياً، أعرف جيداً أن الأستاذ كولباسنيكوف هو الذي شرح بصوتٍ عالٍ أمام جميع تلاميذ الصف الثالث ما قلته الآن.

- وصل الطبيب!

صاحت نينوشكا، ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمة.

إن مركبةً خاصة تملكها السيدة خوخلاكوفا قد وقفت فعلاً أمام المنزل. أسرع الكابتن إلى لقاء الطبيب بعد أن انتظر وصوله طوال فترة الصباح. وأصلحت ماما زينتها واصطنعت وضع الوقار. واقترب إيليوشا من سرير ايليوشا وأخذ يرتِّب وسادة المريض، فكانت نينوشكا تنظر إليه من مقعدها قلقة. أما الفتيان فقد أسرعوا يودِّعون، ووعد بعضهم بأن يرجع في المساء. ونادى كوليا «برزفونه»، فسرعان ما وثب الكلب فصار في أسفل السرير. وقال كوليا لايليوشا مسرعاً:

- لكنني لن أنصرف. سأنتظر في المدخل ثم أعود متى رحل الطبيب. سأعود مع «برزفون».

وكان الدكتور قد دخل الغرفة. إنه شخص مهيب المظهر، يرتدي معطفاً من فراء، وعلى عارضيه لحيتان قاتمتان، وحليق الذقن بكثير من العناية. فبعد أن اجتاز عتبة الغرفة توقف فجأة متردداً: لقد أحسَّ أنه أخطأ المنزل.

- ما هذا؟ أين أنا؟ دمدم يقول دون أن يخلع معطفه، محتفظاً على رأسه بقبعته المصنوعة من فراء ثعلب الماء، والمزودة بحافة ذات فراء أيضاً. إن هؤلاء الناس، وهذا المسكن الفقير، وهذا الغسيل المنشور على حبل في زاوية الغرفة، إن ذلك كله قد حيَّره.

انحنى الكابتن أمامه انحناءة طويلة، وتمتم يقول مفرطاً في الترحيب.

- أنت هنا يا سيدي، هنا، عندي، أنت آتٍ إليَّ...

- هل أنت سنيغيريف؟ إذن أنت السيد سنيغيريف؟ قال الطبيب بصوت عالٍ أجش.

- نعم، أنا...

- آ!...

ألقى الطبيب على الغرفة نظرة ازدراء أخرى، وخلع المعطف عن كتفيه. فظهر في عنقه وشم هام خطف جميع الأنظار. تناول الكابتن المعطف، بينما كان الطبيب يخلع قبعته.

- أين هو المريض؟ سأل بصوت مجلجل فيه شيء من تذمر.

VI

تطور مبكر

- ماذا تعتقد سيقول له الطبيب؟ تمتم كوليا متعجلاً. يا له من وجه كريه! لا بأس، أليس كذلك؟ أنا لا أتحمل الطب.

- ايليوشا سيموت. فأجابه إيليوشا بحزن. أعتقد أن لا شك في هذا.

- يا للسفلة! الطب سفالة! أنا سعيد بأنني تعرفت إليك يا كارامازوف. لقد تمنيت هذا منذ زمن طويل. ولكن يؤسفني أن لقاءنا قد تم في ظروف حزينة كهذه...

ودَّ كوليا لو يقول شيئاً أكثر حرارة وعاطفة، ولكنه شعر بشيء يزعجه. لاحظ إيليوشا ذلك فشد على يده مبتسماً.

- لقد تعلمت منذ مدة طويلة أن أحترم فيك إنساناً نادراً. تمتم ايليوشا من جديد متلعثماً من التأثر: قيل لي إنك صوفي وإنك عشت في الدير. أعرف أنك صوفي، ولكن... هذا لا يصدمني ولم يمنعني من أن أشعر نحوك بعاطفة ومودة. إن الاتصال بوقائع الحياة سوف يشفيك... ذلك ما يحدث دائماً في الطبائع التي تشبه طبيعتك.

- ماذا تعني بقولك «صوفي»؟ من أي شيء تريد أن تشفيني؟ سأله إيليوشا بشيء من الدهشة.

- جيد، من الله، وهلم جرّا...

- كيف؟ ألأنك لا تؤمن بالله؟

- بالعكس، لا اعتراض لي على الله. بالطبع. الله ليس إلّا فرضية... ولكنني أعترف بأننا بحاجة إليه، للمحافظة على النظام... نظام العالم، وهلم جرا... وأضاف كوليا يقول وقد احمر وجهه فجأة: إذا كان الله غير موجود، فيجب أن نخترعه.

ذلك أن كوليا قد خطر بباله أن إيليوشا ربما اعتقد أنه يحب أن يُظهره على معلوماته، وأن يبرهن له على أنه يستطيع أن يناقش «كشخص كبير». فقال كوليا لنفسه متضايقاً: «أنا لا أحب أبداً أن أعرض معلوماتي أمامه». وشعر بحسرة شديدة. وقال يحسم الأمر:

- أعترف لك بأنني أكره المناقشات في هذا الموضوع. ألا يمكن أن يحب المرء البشرية دون أن يؤمن بالله؟ ما رأيك؟ لقد كان فولتير مثلاً، لا يؤمن بالله، ومع ذلك كان يحب البشرية. (وقال لنفسه باستياء: «أيضاً، أيضاً!»).

قال إيليوشا في رفق، بصوت هادىء، كما لو كان يحادث رفيقاً من عمره، أو شخصاً أكبر منه سناً:

- لقد كان فولتير يؤمن بالله، ولكن أعتقد، ليس كثيراً، وكان كذلك لا يحب البشرية كثيراً. دُهش كوليا من تردد إيليوشا في الافصاح عن رأيه في فولتير، ومن هذه الطريقة في مخاطبته متكلاً على رأيه هو الصغير كوليا.

سأله إيليوشا.

- بالمناسبة، هل قرأت فولتير؟

- لا، ليس هذا ما قرأته.. قرأت «كانديد» في ترجمة روسية... ترجمة قديمة، كريهة، فظيعة («أيضاً! أيضاً!»).

- وهل فهمته؟

- طبعاً. فهمت كل شيء... أقصد... لماذا تعتقد أنني قد أكون ما فهمته؟ هناك فقرات صعبة طبعاً... أنا قادر على أن أفهم أن هذه رواية فلسفية تهدف إلى البرهان على فكرة.قال: أنا اشتراكي يا كارامازوف، أنا اشتراكي عنيد.

- اشتراكي؟ قال إيليوشا ضاحكاً. متى اتسع وقتك لأن تصبح اشتراكياً؟ أظن أنك لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرك، أليس كذلك؟

شعر كوليا بامتعاض شديد، وقال محتجاً بقوة:

- أولاً: عمري ليس ثلاث عشرة سنة بل أربع عشرة. ثانياً: لست أفهم ما شأن عمري هنا. الأمر الآن أمر آرائي لا عدد سنوات عمري، أليس كذلك؟

- حين تتقدم في السن قليلاً ستدرك بنفسك أثر العمر في آرائنا. ثم إنني أحس أنك تردد آراءً سمعتها. قال إيليوشا بلهجة معتدلة هادئة، ولكن كوليا قاطعه بحمية.

- من فضلك! إنك من أنصار الخضوع والصوفية!. ألا فاعترف أن الديانة المسيحية لم تنفع إلّا الأغنياء والأقوياء، إذا سمحت لهم بإبقاء الطبقات الاجتماعية على حالة العبودية. أليس هذا صحيحاً؟

- لحظة! أنا أعرف أين قرأت هذه الجملة. أجابه إيليوشا لا شك أن أحداً قد حشا رأسك بهذا. دعك من هذا الكلام! لماذا تتصور أن أكون قد قرأت هذا الكلام في موضع ما؟ ثم إن أحداً لم يدخلني في عقيدة. أنا قادر على أن أفكر بنفسي... واعلم من جهة أخرى أنني لا آخذ على المسيح شيئاً. إن المسيح إنسان له آراء واسعة محترمة، ولو عاش في عصرنا لانضم إلى الحركة الثورية، ولربما قام فيها بدور مرموق... بل هذا مؤكد.

- من أين جئت بهذه الفكرة؟ من هو ذلك الغبي الذي ارتبطت به؟ صاح إيليوشا.

- الحقيقة لا تخفى. أعترف لك بأنني كثيراً ما أتحدث مع السيد راكيتين في قضية من القضايا، ولكن يقال إن بيلنسكي العجوز كان يؤمن بهذه الأفكار نفسها.

- بيلنسكي؟ لا أتذكر ذلك. وهو على كل حال لم ينشرها.

- إذا لم يكن قد كتبها، فقد عبَّر عنها في أحاديثه، على ما يقال. سمعت ذلك من... ولكن ما قيمة أن أذكر اسم الشخص الذي...

- هل قرأت بيلنسكي؟

- الحقيقة... لا... لم أقرأه كله... قرأت كلامه عن تاتيانا وكيف رفضت أن تسافر مع أونيجين.

- لماذا رفضت أن تسافر مع أونيجين؟ هل تعرف... وهل هذا...

- كأنك تظن أنني صبي صغير من نوع سموروف. قال كوليا محتجاً وهو يبتسم بغضب. لا تظن، على كل حال، أنني ثوري. إنني كثيراً ما أختلف في الرأي مع راكيتين. وإذا ذكرتُ تاتيانا، فلا تظن أنني من أنصار تحرر المرأة. إنني أعترف بأن المرأة مرؤوسة وأن وظيفتها الطاعة. «النساء للحياكة»، كما قال نابوليون. أضاف كوليا مبتسماً بلا سبب ظاهر: ففي هذه النقطة على الأقل، أشاطر ذلك الرجل الزائف العظمة رأيه كاملاً. وأنا أيضاً، من جهتي، أعتبر أن الهجرة إلى أميركا هروباً من الوطن خسة ودناءة، بل هي أكثر من ذلك أيضاً: هي حماقة! علام نذهب إلى أميركا في حين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نفهمها في بلادنا لنخدم البشرية في عصرنا هذا خصوصاً؟ ليس يعوزنا العمل. هنالك عمل خصب يجب القيام به. ذلك ما أجبت به.

- كيف، ما أجبت به؟ على ماذا؟ هل عرض عليك أحد أن تسافر إلى أميركا؟

- أعترف بأنهم حاولوا، ولكنني رفضت. هذا سر بيننا بطبيعة الحال. لا تقل عنه كلمة لأحد. مفهوم يا كارامازوف؟ إنني لا أفضي بهذا السر إلى أحد غيرك. لست أريد أن أقع بين أقدام أفراد «الشعبة الثالثة»، وأن أتلقى دروساً في «جسر السلاسل»:

لن تنسى ذلك المبنى

قرب جسر السلاسل

هل تتذكر؟ إنه رائع. لماذا تضحك؟ هل تظن أنني كذبت عليك؟ (قال كوليا ذلك، وهو يسائل نفسه بسرعة ولكن بقلق: «ماذا لو علم أنني لم أقرأ إلّا هذا العدد من مجلة «الناقوس»، الذي وجدته في مكتبة أبي، وأنني لا أعرف شيئاً آخر غيره في ميدان الأدب «الثوري؟»).

- لا، لا، أنا لا أضحك، ولم يخطر ببالي إطلاقاً أنك كذبت عليّ. المصيبة هي أنك لا تكذب. قل لي الآن: هل قرأت بوشكين؟ هل قرأت قصة «أونيجين» أريد أن أقول... أنت الذي تحدثت عن تاتيانا منذ لحظة؟

- لا، لم أقرأه بعد، ولكنني أريد أن أقرأه. واعلم يا كارامازوف أنني لا أحمل أفكاراً سابقة، وأنني أريد أن أسمع الطرف الآخر أيضاً. لماذا هذا السؤال؟

- لا لشيء!

- قل لي يا كارامازوف: أنت تحتقرني كثيراً! هتف كوليا فجأة بصوت قاطع، وانتصب واقفاً أمام إيليوشا كأنه يتخذ وضع التأهب. هيّا اعترف بذلك دون لف ولا دوران!

- إذا كنت أحتقرك؟ نظر إليه إيليوشا بدهشة: لماذا أحتقرك؟ كل ما هنالك أنه يحزنني أن تفسد بمثل هذه السخافات طبيعةٌ جميلة كطبيعتك في فجر حياتها.

قاطعه كوليا بنوع من الارتياح لهذا الثناء على طبيعته.

دعك من طبيعتي الآن. الواقع أنني سريع التأذي، أنا أعرف هذا. إنني سريع التأذي بغباوة، بابتذال. لقد ابتسمت أنت منذ لحظة، فتخيلت أنا أن...

- ابتسمت لأسباب أخرى. سأشرح لك الأمر. لقد قرأت في الفترة الأخيرة انطباعات رجل أجنبي، ألماني، عاش في روسيا وعبَّر عن رأيه في شبيبة مدارسنا على النحو التالي: «لو أطلعت تلميذاً روسياً على خريطة للسماء ذات النجوم، خريطة لم يسبق له أن رآها من قبل، لأعادها إليك غداً مصحَّحة»: نقص كبير في المعرفة وغرور شديد لا حدَّ له، هؤلاء هم تلاميذ مدارسنا في رأي هذا الألماني.

- ولكن هذا صحيح كل الصحة: صاح كوليا وهو يضحك مقهقهاً! هذه هي الحقيقة صافية. مرحى للألماني! ولكن هذا الرأس المربَّع لم يستطع مع ذلك أن يرى مزايانا. إنني أسلِّم بأن فينا غروراً؛ ولكن هذه آفة من آفات سنِّ الشباب يُصلحها الزمن بمقدار ما يجب أن يصلحها. ونحن نملك في مقابل ذلك ميزة تتأكد فينا منذ الطفولة تقريباً، هي ميزة استقلال الفكر. نحن نملك جرأة التصور والاقتناع، بينما هم، لا يعرفون تجاه أي سلطة إلّا عبودية كعبودية البقالين... ورغم كل شيء، فإن ذلك الألماني قد رأى صواباً. مرحى للألماني! رغم أن جميع الألمان يجب أن يُشنقوا. ربما هم أقوياء في العلوم لكن يجب أن يشنقوا مع ذلك...

- لماذا؟ سأل إيليوشا مبتسماً.

- لعلني قلت حماقة، أعترف لك بذلك. إنه يحدث لي في بعض الأحيان أن أكون طفلاً على نحو فظيع، وحين أبتهج أفقد سيطرتي على نفسي، فأقول أنواعاً من السخافات. ولكنني ألاحظ أننا نثرثر هنا في تفاهات بينما يبدو أن الطبيب تأخر هناك. ربما انتهز الفرصة ليعاين الأم في الوقت نفسه، وكذلك نينا الكسيحة. لقد أعجبتني نينا هذه كثيراً، هل تعلم حين خرجتُ دمدمت تقول لي بصوت خافت جداً: «لماذا لم تجئ قبل الآن؟». قالت ذلك بلهجة تزخر عتباً. يخيَّل إليّ أنها طيبة جداً، وأنها كذلك شقية جداً جداً.

- نعم، سوف ترى حين تعود أي إنسانة هي. قال إيليوشا بكثير من الحرارة: إنه ليفيدك كثيراً أن تتردد إلى أناس مثلهم، فتتعرف على أشياء كثيرة ما زلت تجهلها في هذه الحياة، أشياء ستظهر لك وتنجلي لبصيرتك من صحبة هؤلاء الناس. تلك أفضل وسيلة من أجل أن تتبدل.

- آه، كم أنا آسف لأنني لم أجئ قبل هذا الوقت! قال كوليا بحرارة. إنني ألوم نفسي على ذلك.

- شيء مؤسف حقاً. لا بد أنك لاحظت كم هو فرح هذا الصغير المسكين بزيارتك. لقد عذبه انتظارك سدى!

- لا تذكرني بهذا. فهو يعذّبني جداً. هذا خطأي على كل حال. لقد تأخرت عن المجيء بدافع حب الذات، بدافع الأنانية، وكذلك بدافع روح الاستبداد هذه التي لا أستطيع التخلص منها، رغم كل الجهود التي بذلتها طوال حياتي. إنني أعرف الآن يا كارامازوف أنني تافه في شؤون كثيرة.

- بالعكس: طبيعتك رائعة. قال إيليوشا بصوت يفيض عاطفة وحباً: وإن يكن قد أصابها شيء من الزيف. إنني أفهم الآن كيف استطعت أن تؤثر هذا التأثير الكبير في ذلك الصغير المسكين الذي يملك روحاً نبيلة وحساسية مرضية.

- وتقول هذا لي أنا؟ هتف كوليا قائلاً، تصور أنني ظننت غير مرة، منذ جئت إلى هنا، أنك تحتقرني! ليتك تعلم مدى اهتمامي برأيك وحرصي عليه!

- لكنك حقاً مفرط الحساسية سريع التأذي إلى هذه الدرجة؟ أفي مثل سنك؟ لقد

تصورت فيك هذا. منذ قليل، في الغرفة، حين كنت أصغي إلى الحكايات التي قصصتها، قلت لنفسي: لا بد أن يكون هذا الفتى مفرط الحساسية سريع التأذي.

- أنت فكرت في ذلك؟ إنني معجب بك. لقد كانت يدي في النار حين قصصت أنا حكاية الإوزة. لقد أحسستُ في تلك اللحظة أنك احتقرتني لتفاخري بالمكر. وقد أخذت أكرهك عندئذ، وأخذت أطيل في الحديث عمداً. وبعد ذلك - ونحن في هذا المكان - أحسست بعد أن قلت عبارتي: «إذا لم يكن الله موجوداً فيجب أن نخترعه»، أحسست أنني تسرعت كثيراً في عرض معرفتي وإظهار علمي، لاسيما وأنني كنت قد قرأت هذه العبارة في كتاب. ولكنني أقسم لك على أنني إن سارعت إلى إظهار معرفتي فما كان ذلك مني حباً بالظهور، وإنما صدر هكذا عفواً، لست أدري لماذا، ولعله صدر عن فرح، بل إنه قد صدر عن فرح حتماً... لكنني أعلم أن من الغباء جداً ومن العار جداً أن يرتمي المرء على عنق الآخرين هكذا عن فرح. ولكنني مقتنع الآن بأنك لا تحتقرني، وأن الأمر كله كان من تصور خيالي وحده. آه، لو تعلم مدى شقائي يا كارامازوف! إنني أتخيل أحياناً، لا يدري إلّا الله لماذا، أن جميع الناس يسخرون مني، وأني أشعر في مثل تلك اللحظات بأنني مستعد لتحطيم كل ما هو موجود.

- وأنت تعذب الذين يحيطون بك طبعاً. قال إيليوشا مبتسماً.

- نعم، ولا سيما أمي. قل يا كارامازوف: هل تجدني مضحكاً جداً؟ في هذه اللحظة!

- لكن لا تفكر في كل هذا، لا تفكر! صاح إيليوشا: الله يعرف جميع المناسبات حيث يمكن أن يبدو الإنسان مضحكاً! إن الأفراد الذين يملكون مواهب عالية، في هذا العصر، يخشون أن يعتبرهم الناس مضحكين، وهم أشقياء لهذا السبب ولكن ما يدهشني هو أنك عانيت هذا الشعور في هذه السن المبكّرة، وإن كنت قد أتيح لي أن ألاحظ هذه الأشياء نفسها لدى أشخاص آخرين. فالأطفال أنفسهم قد أخذوا في أيامنا هذه يقاسون هذا الخوف الغبي. يوشك ذلك أن يكون جنوناً. إن في هذا إفراطاً في حب الذات، ولا شك أن الشيطان قد استقر فيه... نعم، هو الشيطان... أضاف إيليوشا دون أي مزاح، كما توهم كوليا الذي كان ينظر إليه محدقاً. أنت تشبه الآخرين في هذه النقطة. في حين يجب ألا تكون كالآخرين. صدقني مع ذلك: ينبغي ألّا يشبه الإنسان جمهرة الناس.

- حتى ولو كان كل الناس هكذا؟

- نعم. حتى ولو كان الجميع هكذا، حتى ولو صرت وحيداً. الواقع أنك لا تشبه الآخرين: فإنك لم تخجل منذ قليل أن تعترف بجوانبك السيئة وحتى بعيوبك المضحكة. فأي الناس يملك هذه الجرأة اليوم؟ لا أحد يملكها ولا أحد يشعر بالحاجة إلى أن يحكم على نفسه حكماً موضوعياً. فلا تتردد في أن تتميز عن جمهرة الناس. لا تكن كسائر أولئك الملأ، ولو أمسيت وحيداً في نوعك.

- ما أروع هذا الكلام! إن ظني فيك لم يخطىء. آه يا كارامازوف، طالما انتظرت التعرف إليك. لقد ترقبت فرصة لقائك زمناً طويلاً. هل صحيح أنك أردت أن تتعرف إليَّ أيضاً؟ لقد قلتَ منذ قليل إنك فكَّرتَ فيَّ.

- نعم، سمعت عنك وفكَّرت فيك أنا أيضاً... افترض حبَّ الذات هو الذي أوحى إليك بذلك السؤال، فأي سوء في هذا؟

قال كوليا بصوت أضعفه الانفعال والخجل.

- هل تعلم يا كارامازوف أن حديثنا هذا يشبه مصارحة غرام. أليس هذا مضحكاً، مضحكاً جداً؟

- ليس مضحكاً أبداً! وهبه مضحكاً. أجاب إيليوشا وعلى محياه ابتسامة مشرقة فأي بأس في ذلك، ما دام الحديث على هذا النحو ممتعاً؟

- أعترف يا كارامازوف أنك أنت أيضاً تشعر الآن ببعض الخجل من وجودك معي... إنني أقرأ هذا في عينيك.

- ممَّ عساي أخجل؟ قال كوليا بابتسامة ماكرة مع نوع من السعادة.

- إذن لماذا احمر وجهك؟

- أنت من جعل وجهي يحمر. صاح إيليوشا ضاحكاً.

واصطبغ وجهه فعلاً بحمرة شديدة. ثم تمتم شبه مضطرب:

- حسناً... أشعر ببعض الخجل، لا يعرف إلّا الله لماذا. أنا نفسي لا أعرف السبب.

قال كوليا بحماسة، وقد اشتعل خداه وسطعت عيناه:

- ما أعظم حبي واحترامي لك في هذه اللحظة، لأنك تشعر بخجل معي! ذلك أنك تشبهني...

- اصغ إليَّ يا كوليا: لا شك أنك ستشقى كثيراً في هذه الحياة. قال إيليوشا دون أن يدري لماذا.

- أعرف ذلك. ما أصدق تنبؤك بالمستقبل! قال كوليا مؤيداً كلامه.

- مع ذلك سوف تحب الحياة.

- صحيح، صحيح! مرحى! إنك نبيّ! نحن متفاهمان يا كارامازوف. وما يعجبني خاصةً فيك هو أنك تخاطبني مخاطبة الند للند، مع أننا لسنا ندين متكافئين، لا، لا، فأنت أرفع مني! ولكننا سنتفاهم. طوال الشهر الماضي، ظللت أقول لنفسي: «إما أننا سنصبح صديقين منذ اللحظة الأولى وإلى الأبد، وإما سنصبح عدوين منذ الكلمات الأولى وحتى الممات!».

- منذ قلت لنفسك هذا الكلام، كنت تحبني، هذا أكيد. قال إيليوشا وهو يضحك ضحكة فرحة.

- كنت أحبك، كنت أحبك حباً رهيباً، وكنت أحلم بك! كيف تعرف كل ذلك مسبقاً؟ هذا هو الطبيب! يا إلهي، ما الذي سيقوله لنا؟ انظر إلى هذا الوجه، وجهه؟

VII

إيليوشا

خرج الطبيب من العزبة مرتدياً فراءه معتمراً قبعته. كان وجهه يعبر عن الغضب والقرف، كأنه كان يخشى أن يتسخ من ملامسة ما لا نعرف من. ألقى على المدخل نظرة خاطفة، ثم ألقى في الوقت عينه، نظرة قاسية على إيليوشا وكوليا. أعطى إيليوشا إشارة للحوذي، فاقتربت العربة التي أقلت الطبيب من مدخل البيت. فأسرع الكابتن ليدرك الطبيب، فانحنى له انحناءة كبيرة، واستوقفه ليطرح عليه بعض الأسئلة. فبدا وجه المسكين محطماً ونظرته خائفة.

- ...يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة... أهذا ممكن؟

ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه، واكتفى بأن عقف يديه عاجزاً حتى ولو كانت الأقوال التي سيتفوه بها الطبيب يمكن أن تبدل الموت المحتوم لابنه المسكين.

- لا حيلة لي في الأمر! أنا لست الله. أجاب الطبيب في إهمال، بصوتٍ تخالطه لهجة التسلط والاستبداد المعهودة فيه.

- دكتور... صاحب السعادة... هل هذا وشيك، هل هو وشيك؟

- كونوا مستعدين لكل شيء. أجاب الطبيب مشدداً على كل كلمة، وهو متأهب للصعود إلى السيارة.

- صاحب السعادة، تابع الكابتن، ناشدتك بالمسيح! هل يمكن حقاً أن لا يكون هناك أي شيء، أن لا يكون هناك أي شيء يستطيع إنقاذه بعد الآن؟

- هذا لا يتوقف عليَّ الآن. أجاب الطبيب نافدَ الصبر.

ثم توقف فجأة وقال متمتماً: ومع ذلك، إذا كنتم تستطيعون مثلاً أن ترسلوا مريضكم، فوراً، دون إضاعة أي يوم (كلمات «فوراً، دون اضاعة أي يوم» قالها الطبيب بصوت لا يقال إنه قاسٍ، ولكن شبه غاضب بحيث أن الكابتن بدأ يرتجف)، إلى سيراكوز... فمن الجائز أن تستطيع الظروف المناخية الملائمة أن تحدث بعض التغيير، ولكن...

- إلى سيراكوز؟ هتف الكابتن وقد بدا عليه أنه لم يفهم.

فتدخل كوليا يقول بصوت رنان يشرح الأمر:

- سيراكوز هي في جزيرة صقلية.

- في جزيرة صقلية؟ صاح الكابتن وهو يلطم خديه.

ثم أضاف وهو يحرك يديه بحركة دائرية ليشير إلى فقر مسكنه:

- أما رأيت إذن؟ وامرأتي، وأسرتي؟ ما الذي يصيرون إليه؟

- لا، لا، لن يكون على الأسرة أن تذهب إلى صقلية. أرسل أسرتك إلى القفقاس في بداية الربيع... يجب أن تقيم ابنتك زمناً في منطقة القفقاس... أما زوجتك فلن تعالج هنالك إلّا مدة قصيرة في مركز من مراكز المياه الحارة لتشفى من أوجاع الروماتزم... ثم عليك بعد ذلك أن ترسلها فوراً إلى باريس، عيادة الدكتور لابولوتييه للأمراض العقلية. وفي إمكاني أن أزودك كلمة إليه... إن من الجائز أن تتحسن حالتها بعض التحسن في هذه الحالة.

- دكتور، دكتور، رأيت بعينيك! عاد الكابتن فجأة يقول وهو يلوِّح بذراعيه عاجزاً، ويشير إلى ألواح الخشب التي تتألف منها جدران مسكنه.

- آه، لم يعد هذا شأني أنا. قال الطبيب. أنا لم أزد على أن ذكرت لك، في الاجابة عن سؤالك، ما يستطيع العلم أن ينصح بالقيام به محاولةً أخيرة بعد اليأس... أما فيما عدا ذلك... فأنا آسف... ولكن...

- لا تخف أيها «المداوي» لن يعضك كلبي. قال كوليا بصوت جهوري وقد لاحظ النظرة القلقة التي ألقاها الطبيب على «برزفونه» المرابط أمام العتبة. كان صوت كوليا يرتعش غضباً، وقد تعمد أن يسميه باسم «المداوي» بدلاً من اسم «الطبيب»، إهانةً له، كما شرح ذلك فيما بعد.

- عفواً؟ قال الطبيب وهو يرفع رأسه ويحدّق إلى إيليوشا مدهوشاً. ثم أضاف يسأل إيليوشا، كأنه يعتبره مسؤولاً.

- أنا صاحب «برزفون». قال كوليا من جديد، مشدِّداً على كلماته. لا تهتم بشخصي أيها المداوي.

- برزفونه»؟ قال الطبيب الذي لم يفهم ما معنى برزفونه».

- إلى اللقاء أيها المداوي، سوف نلتقي مرة أخرى في سيراكوز.

- من هذا الـ... من هذا.. الوقح؟ قال الطبيب غاضباً.

- هو تلميذ من هنا يا دكتور. قال إيليوشا بسرعة وهو يقطّب حاجبيه. إنه هازل، فلا تلق إليه بالاً. وصاح إيليوشا يخاطب كوليا قائلاً: اسكت يا كوليا. ثم عاد يخاطب الطبيب بشيء من نفاد الصبر في هذه المرة: لا تأبه له يا دكتور.

- إنه يستحق السوط، السوط، السوط، يجب تأديبه!

- هل تعلم أيها المداوي أن كلبي «برزفونه» يستطيع أن يعض؟ اصفر وجه كوليا، وقدحت عيناه شرراً، وقال للطبيب بصوت مرتعش. هنا يا «برزفونه»!

- إذا قلت كلمة واحدة، وقع فراق بيني وبينك!

- اعلم أيها المداوي أن هناك شخصاً واحداً في هذا العالم يمكنه أن يأمر نيقولا كراسوتكين. هو هذا الرجل. قال كوليا ذلك وهو يومىء إلى إيليوشا. ثم اتجه فجأة نحو الباب ودخل الغرفة. واندفع «برزفونه» وراءه.

بقي الدكتور جامداً بضع ثوانٍ، كأنما قد استبد به ذهول، وهو ما يزال شاخصاً إلى إيليوشا. ثم بصق على الأرض، وتقدم إلى جهة العربة بخطًى سريعة وهو يردد بصوت عال:

عجيب، عجيب، عجيب! لا أعرف ما هو هذا؟ أسرع الكابتن يساعده في ركوب العربة. أما إيليوشا فقد تبع كوليا ودخل الغرفة. كان كوليا قد وصل إلى سرير ايليوشا ووقف عنده، فتناول ايليوشا يده، ونادى أباه، فما هي إلّا دقيقة حتى عاد الأب.

- بابا، بابا، تعال إلى هنا... نحن... تمتم ايليوشا في اضطراب شديد. ثم لم يقوَ على إتمام كلامه، فدفع ذراعيه الناحلتين إلى أمام، وطوق بهما أباه وكوليا معاً في حركة متشنجة، وضم أحدهما إلى الآخر بعناق واحد، شاداً جسمه إليهما بقوة. فأخذ الكابتن عندئذ ينشج بصمت. أما كوليا فأخذت شفتاه وذقنه ترتعش.

- بابا، بابا، ما أشد ألمي عليك! قال إيليوشا بمرارة.

- بنيَّ ايليوشا... صغيري... قال الكابتن متمتماً قال الطبيب إنك... ستشفى... وسنسعد جميعاً...

- بابا، أنا أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عني! صاح ايليوشا... فهمته من النظر إليه! وشدَّ إليه أباه وكوليا من جديد، بكل قواه، مسنداً وجهه إلى كتف الكابتن.

- بابا، بابا، لا تبكِ... حين سأموت ستأخذ صبياً آخر، صبياً طيباً صغيراً تختاره من بين أحسن من ستعرف من صبيان، وتسميه باسم ايليوشا مثلي، وتحبه كما تحبني...

صرخ كراسوتكين يقول له بصوت ملؤه اللوعة:

- لا تقل سخافات يا عزيزي! وتابع ايليوشا كلامه فقال:

- أما أنا يا بابا، فلا تنسني أبداً، تعال إلى قبري زائراً. اسمع يا بابا: أريد أن تدفنني قرب تلك الصخرة الكبيرة التي كنا نتجه إليها أثناء نزهاتنا. وزرني هنالك مساءً في صحبة كراسوتكين... ومع «برزفونه» أيضاً... سأنتظركم هنالك... بابا، بابا!

اختنق صوت ايليوشا. بقي الثلاثة متعانقين صامتين. وفي مقعدها، كانت نينوشكا تبكي بكاءً رفيقاً. وإذ لاحظت الأم أن الجميع يذرفون الدموع، انفجرت تبكي هي أيضاً، وصاحت تنادي:

- صغيري ايليوشا، صغيري ايليوشا!

انسلَّ كراسوتكين من عناق ايليوشا، وقال يشرح بسرعة:

- إلى اللقاء يا عزيزي. أمي تنتظرني على الغداء. من المؤسف أنني لم أنبئها. لسوف تقلق الآن... لكنني سأجيء إليك بعد الغداء، وسأمكث معك طوال النهار، وطوال المساء أيضاً. سأقص عليك حكايات كثيرة. سأرجع مع «برزفونه». أما الآن فسأصطحبه، وإلّا أخذ ينبح فيزعجك. إلى اللقاء!

وخرج راكضاً. كان يبذل جهداً من أجل أن لا يبكي. ولكن دموعه تفجرت في المدخل. وعلى هذه الحال وجده إيليوشا. قال له ملحاً:

- كوليا، عليك أن تفي بعهدك، وأن تعود كما وعدته، وإلّا حزن حزناً شديداً.

- بالتأكيد. آه... كم يحزنني أنني لم أجئ قبل الآن. تمتم يقول كوليا باكياً، دون أن يشعر بخجل من البكاء في هذه المرة. وفي تلك اللحظة خرج الكابتن من الغرفة كالمجنون، وأغلق الباب وراءه بسرعة. كان في وجهه تعبير غريب، وكانت شفتاه تختلجان. وقف أمام

الشابين، ورفع ذراعيه في الهواء، ودمدم يقول زائغ النظرة تائه الهيئة صارفاً على أسنانه:

- لا أريد صبياً صغيراً طيباً! لا أريد صبياً آخر! ألا فليُعقل لساني إذا نسيتك يا أورشليم... وتوقف عن الكلام كأنما قد خنقه الانفعال، وتهاوى على الأرض راكعاً، وأمسك رأسه بيديه المقبوضتين وأخذ يبكي مطلقاً أنات مشوَّشة ولكن محاولاً أن يخنقها حتى لا يسمعه أحد في الغرفة.

- إلى اللقاء يا كارامازوف! هل تأتي أنت أيضاً؟ هرع كوليا إلى الشارع. وصاح لإيليوشا بصوت جاف قاس.

- سأجيء هذا المساء حتماً.

- ماذا قال عن أورشليم... ما معنى هذا؟

- هذا قول من التوراة «إذا نسيتك يا أورشليم»، معنى هذا: إذا نسيت ما هو عندي أعز شيء وأغلى شيء، إذا خنت من ذكرياتي أقدسها، فلتنزل عليَّ عندئذ...

- كفى! لقد فهمت! أنت، تعالى!. هنا يا «برزفونه»! صاح كوليا ينادي الكلب بصوت حانق، واتجه نحو بيته بخطًى واسعة ومتينة.

الكتاب الحادي عشر

الأخ إيفان فيودوروفتش

I

عند غروشنكا

اتجه إيليوشا نحو ساحة الكاتدرائية باتجاه منزل التاجرة موروزوفا عند غروشنكا. لقد أرسلت إليه هذه الأخيرة، في الصباح الباكر، فينيا، تتوسَّل إليه بإلحاح أن يجيء إليها. وقد علم إيليوشا أن عشيقته تعاني منذ البارحة قلقاً عميقاً وخاصاً. وكان إيليوشا، خلال هذين الشهرين اللذين أعقبا اعتقال ميتيا، قد زارها مراراً، تارةً بمهمة قام بها بطلب من ديمتري، إذ كانت غروشنكا قد مرضت مرضاً شديداً بعد سجن ميتيا بثلاثة أيام، وظلت تعاني منه خمسة أسابيع، أمضت الأسبوع الأول فاقدةً وعيها. فتبدلت ملامح وجهها كثيراً، فاصفرت ونحلت، حتى بعد أن أصبحت قادرة على الخروج منذ ما يقرب من أسبوعين. لكن ذلك الوجه في نظر إيليوشا أصبح أكثر جاذبية وهو الذي كان يحب كثيراً أن يلتقي نظرتها حين يجيء إليها. إن شيئاً ما في تعبير عينيها قد أصبح أقوى ثباتاً وأكثر تروياً وتأملاً. نوع من التبدُّل الروحي، حيث تظهر عزيمة راسخة، متواضعة، لكن جيدة وثابتة. إن غضناً قصيراً عمودياً ارتسم على جبينها بين الحاجبين فأصبح يسبغ على وجهها معنى التأمل العميق، ويضفي عليه تعبيراً يشبه أن يكون قسوةً في الوهلة الأولى. لم يبقَ هنالك، في الظاهر، أثرٌ لما كان يُرى فيها من خفة. ومع ذلك كان يُدهش إيليوشا أنها لم تفقد مرحها الفتي رغم المصيبة التي ضربتها، رغم اعتقال الرجل الذي تحبه، رغم حبس هذا الرجل في اللحظة التي أوشكت أن تصبح فيها خطيبته، رغم اتهامه بجريمة خطيرة، وكذلك رغم مرضها الذي تلا ذلك، ورغم قرب محاكمة الرجل. وإن عينيها اللتين كان فيهما كثير من الكبرياء في الماضي، يلوح فيهما الآن استسلام وادع وخضوع هادىء، وإن كان يتفق من حين إلى آخر أن يسطع في نظرتها لهيب مقلق، ولا سيما في اللحظات التي يراودها فيها ذلك العذاب القديم الذي لم يهدأ في قلبها أثناء تلك الفترة، بل كان يشتد باستمرار. ما يزال موضوع القلق المؤلم هو نفسه: إنه كاترينا إيڤانوفنا التي طالما ذكرت غروشنكا اسمها في هذيانها أثناء المرض. كان إيليوشا يدرك أن غروشنكا تغار من هذه المرأة على ميتيا غيرة رهيبة، رغم أن كاترينا إيڤانوفنا لم تزر ميتيا في السجن مرة واحدة، كما كان في وسعها أن تفعل ذلك بغير عناء في كل آن. وكان ذلك كله قد تحول إلى نوع من المسألة المعقدة لأنه الوحيد الذي كانت أمام إيليوشا، غروشنكا لا تفضي بآلامها إلّا إليه، وما تنفك تسأله النصح، وهو في بعض الحالات كان عاجزاً عن أن يقول لها أي شيء.

لذلك كان إيليوشا مهموماً حين دخل منزلها. كانت غروشنكا، قد رجعت من السجن منذ نصف ساعة. وعرف إيليوشا، من الحركة السريعة التي قامت بها لتنهض عن مقعدها وتهب إلى لقائه، أنها كانت تنتظره نافدة الصبر. وكان هنالك على الطاولة ورق لعب أُعدَّ لشخصين. إن كنبة الجلد التي كانت في الجهة الأخرى من الطاولة قد حوّلت الآن إلى سرير، وها هو العجوز ماكسيموف، المريض، ولكن على تبسم متكلف ومتصنع، ينام على هذا السرير نصف رقاد، مرتدياً ثوب المنزل، واضعاً على رأسه طاقية. إن هذا العجوز الذي ليس له مأوى لم يترك غروشنكا منذ عودتها من موكرويه قبل شهرين، وهو يعيش في منزلها منذ ذلك الوقت. لقد رجعا من موكرويه معاً في المطر والوحل، فلما وصلا إلى مسكنها كان البرد قد تسلَّل في جسمه حتى العظام، وكان يعاني خوفاً شديداً، فما إن دخلا المنزل حتى جلس

على الديوان وأخذ يحدِّق إلى المرأة الشابة صامتاً، وهو يبتسم ابتسامة ذليلة متوسلة. وكانت غروشنكا عندئذ مصعوقة من المصيبة التي حلَّت بها، وكانت ترتجف من الحمّى منذ تلك اللحظة، فنسيت وجود ماكسيموف خلال نصف الساعة الأولى، مهتمة بإصدار أوامرها إلى خدمها. ثم ألقت عليه نظرها مدهوشة، فضحك العجوز ضحكة قصيرة تثير الشفقة، ونظر إلى عينيها دون أن ينطق بكلمة. فنادت عندئذ فينيا، وأمرتها أن تقدم للعجوز طعاماً. وأمضى العجوز طوال ذلك النهار في مكانه، ويمكن القول إنه لم يتحرك، حتى إذا هبط الليل، وأغلقت النوافذ، سألت فينيا سيّدتها:

- هل سيبيت الليلة هنا هذا السيد؟

- نعم، أعدّي الكنبة سريراً له. أجابتها غروشنكا.

وبعد أن تحرت غروشنكا عن وضعه بالتفصيل، علمت أنه أصبح لا يعرف الآن إلى أين يأوي، لأن السيد كالغانوف، المحسن إليه، قد أعلن له جازماً أنه لن يستقبله بعد الآن في منزله، وأعطاه خمسة روبلات زاداً.. فقالت له بحزن وهي تبتسم شفقة: «إذن فابقَ هنا». فارتعش المسكين لهذه الابتسامة من شدة الانفعال، واختلجت شفتاه في نشيج مخنوق اعترافاً بالجميل. ولم يتركها بعد تلك اللحظة حتى أثناء مرضها. لقد وجد الطفيلي التائه مأوًى. ولم تطرده فينيا وجدَّتُها طباخةُ غروشنكا، بل ظلتا تطعمانه وترتبان له سريره على الكنبة. حتى أن غروشنكا ألفت وجوده بعد ذلك فكانت إذا رجعت من زيارة لميتيا (وقد أخذت تزور ميتيا منذ بداية نقاهتها قبل أن تشفى من مرضها تماماً)، جلست إلى جانب «ماكسيموشكا»، وبدأت بالثرثرة معه، تقصّ تفاهات سخيفة، حتى تطرد حزنها وحتى لا تفكر في شقائها. وقد اتفق أن كان العجوز يتقن قصَّ الحكايات المضحكة في المناسبات، فإذا هو يصبح حاجة لا غنى لها عنها. وكانت غروشنكا لا تكاد تستقبل أحداً عدا إيليوشا الذي كان مع ذلك لا يزورها كل يوم، ولا يمكث عندها إلّا قليلاً. أما صاحبها التاجر العجوز فقد كان في تلك الفترة مريضاً مرضاً شديداً وهو طريح الفراش. كان «بسبيل أن يرحل»، كما يقول سكان المدينة، وقد مات فعلاً بعد محاكمة ميتيا بثمانية أيام. وإذ أحسَّ بقرب نهايته، فقد أمر قبل موته بثلاثة أسابيع أن يصعد إليه أبناؤه وزوجـاتهم وأولادهم وأن لا يبتعدوا عن سريره؛ وفي الوقت نفسه أصدر أوامره إلى خدمه بأن لا يستقبلوا غروشنكا في بيته، وفي حال عادت أن يبلغوها ما يلي: «إن سيدنا يتمنى لك حياة مديدة وسعيدة وأن تنسيه كلياً». ومع ذلك كانت غروشنكا ترسل، كل يوم تقريباً، من يتسقط أخباره.

عندما دخل إيليوشا على غروشنكا، رمت ورق اللعب، ومدت إليه يدها فرحةً وهي تصيح:

- ها أنت أخيراً! إن «ماكسيموشكا» المسكين كان يتسلى بتخويفي زاعماً أنك لن تجيء. ليتك تعرف مدى حاجتي إليك! اجلس إلى الطاولة. ماذا تريد؟ قهوة؟

- لمَ لا. بدأت أشعر بجوع شديد. أجاب إيليوشا وهو يجلس قرب الطاولة.

- فينيا، هاتي قهوة بسرعة! إن الماء يغلي منذ مدة طويلة ينتظرك، هاتي فطائر باللحم أيضاً، ولتكن ساخنة جداً. هل تعلم يا إيليوشا أن قصة رهيبة قد وقعت لي اليوم مع هذه الفطائر؟ حملتها له إلى السجن، فردَّها إليَّ بخشونة، ورفض أن يمسَّها، هل تصدق؟ حتى لقد رمى إحداها على الأرض ثم داسها بقدمه. قلت له: «سأتركها عند الحارس، فإذا لم تأكلها حتى هذا المساء، كان معنى ذلك أنك تؤجج في نفسك الشر والغضب»، قلت له ذلك وانصرفت. فها أنت ترى أننا تشاجرنا مرة أخرى. وفي كل زيارة يكون لنا شجار.

كانت غروشنكا تتكلم متعجلة وهي فريسة انفعال شديد. وسرعان ما فقد

ماكسيموف طمأنينته وابتسم غاضاً نظره.

- ولأي سبب تشاجرتما اليوم؟ سألها إيليوشا.

- لكنني لم أتوقع ذلك أبداً. تصور أنه أصبح يغار من «القديم». لقد سألني: «لماذا تعطينه مالاً؟ أبدأت تعيلينه؟»، هي الغيرة، الغيرة دائماً. إنه يغار حين يأكل، حين ينام. حتى لقد أقام الدنيا وأقعدها في الأسبوع الماضي، بصدد العجوز كوزما.

- ولكنه كان يعلم بوجود «القديم»!

- طبعاً كان يعلم بوجوده. افهم إذا كنت تستطيع ذلك! كان على معرفة بهذه العلاقة منذ البداية، وها هو يهينني اليوم لهذا السبب. إنني أخجل أن أردد على مسمعك ما قاله لي صارخاً. يا له من أحمق! وقد جاء راكيتين يزوره حين انصرفت. من يدري؟ لعل راكيتين هذا هو الذي يثيره عليّ، ثم أضافت تقول بذهول: ما رأيك؟

- رأيي أنه يحبك، يحبك كثيراً. ولكن أعصابه ثائرة الآن.

- أدرك أن تكون أعصابه ثائرة، ما دام سيُحكم عليه غداً. وذلك هو السبب الذي من أجله أردت أن أزوره اليوم، لأحدِّثه عن يوم الغد هذا. تقول لي إنه ثائر الأعصاب. أفليس من حقي أن أكون ثائرة الأعصاب أنا أيضاً؟ ثم هو يحدثني عن ذلك البولندي... يا له من أحمق! إنه يغار من ماكسيموشكا أيضاً!

- كانت زوجتي تغار عليّ كثيراً. تدخّل ماكسيموف قائلاً.

- عليك أنت؟ دعك من هذا الكلام! أجابته غروشنكا ضاحكة رغم إرادتها ممن يمكن أن تغار عليك؟

- من الخادمات.

- اسكت يا ماكسيموف، لست اليوم في مزاج يمكنني من الضحك. إن غضباً شديداً قد استحوذ عليّ. أما الفطائر، فلن يفيدك النظر إليها هكذا. لن تصيب منها شيئاً. إن أكلتها آذتك. ولن أعطيك خمراً كذلك. فأنا مضطرة إلى العناية بهذا الرجل أيضاً. ألا يمكن أن يقال إن منزلي أصبح ملجأ خيرياً للإحسان؟ قالت غروشنكا ضاحكة.

- أنا لست أهلاً لإحسانك. أنا إنسان تافه لا قيمة لي. قال ماكسيموف بصوت متباك. الأَولى أن تغدقي مساعداتك على من قد يكونون أحوج إليها مني.

- كل إنسان هو مفيد في هذا العالم يا ماكسيموف. هل يعلم المرء في الواقع إلى من يحتاج أو لا. إن ذلك البولندي يقع الآن على عاتقي كذلك يا إيليوشا. تصور أنه مرض اليوم هو أيضاً. وقد زرته. نعم، سأرسل إليه الفطائر عامدةً، عامدةً. لم يكن يخطر ببالي أن أفعل ذلك. ولكن ميتيا اتهمني بأنني أرسلت إليه فطائر. لذلك سأرسل إليه منها اليوم قصداً، قصداً! هذه فينيا تجيء برسالة. هي رسالة من البولندي. لا شك أنه يطلب مالاً من جديد!

إن «السيد» موزيالوفكتش يرسل إليها رسالةً طويلة ومتصنعة، وفيها يرجو أن تقرضه ثلاثة روبلات. كانت الرسالة مرفقة بسندٍ بالمبلغ يتعهد فيه بردِّ المال في غضون ثلاثة أشهر، مذيلاً السند بتوقيعه وتوقيع «السيد» فروبلفسكي أيضاً. وكانت غروشنكا قد تلقت قبل ذلك من صديقها «القديم» عدداً كبيراً من مثل هذه الرسائل مع مثل هذه السندات. بدأ ذلك عند شفائها منذ أسبوعين، ولكن غروشنكا علمت أن «السيدين» قد جاءا

يسألان عن صحتها مراراً. كانت الرسالة الأولى التي أرسلها البولندي طويلة، كتبها على ورقة كبيرة وختمها بخاتم كبير يحمل شعار نسب عائلته. وكان مضمون الرسالة غامضاً جداً وفيه تكلّف كثير، فلم تستطع غروشنكا أن تقرأ إلّا نصفها ثم رمتها دون أن تفهم منها شيئاً. ثم إنها كانت في تلك الآونة لا تهتم كثيراً بما قد يُكتب إليها! وفي الغد أُتبعت تلك الرسالة برسالة أخرى يرجو فيها «السيد» موزيالوفكتش بأن تسلفه ألفي روبل، متعهداً بدفعها بعد فترة وجيزة. ولم تردَّ غروشنكا لا على الرسالة الأولى ولا على الثانية. ثم تتالت رسائله كل يوم، يكتبها دائماً بلهجة فيها كثير من الجد والاحتفالية، ولكن المبلغ الذي يلتمس أن تقرضه إياه ينخفض شيئاً بعد شيء، فيهبط إلى مئة روبل، ثم يهبط إلى خمسة وعشرين روبلاً، ثم إلى عشرة روبلات. وأخيراً تلقت غروشنكا رسالةً جديدة يرجو فيها «السيدان» أن تسلفهما روبلاً واحداً، وقد ضمَّا إلى الرسالة سنداً وقَّعاه كلاهما. عندئذ شعرت غروشنكا بشيء من الشفقة. وذهبت تزور «السيد» عند الغسق، وجدت البولنديين في عوز يشبه أن يكون تاماً، فلا طعام، ولا تدفئة، ولا سجائر، وهما فوق ذلك مدينان لصاحبة المنزل التي يسكنان عندها. إن المئتي روبل التي كسباها في موكرويه من اللعب بالورق مع ميتيا قد تبخرت بسرعة. وما كان أشد دهشة غروشنكا حين رأت «السيدين» يستقبلانها استقبالاً فيه كثير من التعاظم والادعاء، مهتمين بقواعد الكياسة الاجتماعية، مسترسلين في كلام متفخم. ضحكت غروشنكا من تكلفهما، ثم أعطت صاحبها «القديم» عشرة روبلات. وقد قصت هذا المشهد على ميتيا في ذلك اليوم نفسه ضاحكة، فلم يخطر ببال ميتيا أن يستاء أو أن يمتعض. غير أن «السيدين» قد تشبثا منذ ذلك اليوم بغروشنكا، وأصبحا يمطرانها كل يوم برسائل يتوسلان فيها إليها أن تمدهم بالمال، وهي كانت ترسل إليهم في كل مرة مبلغاً ضئيلاً. وها هو ميتيا في ذلك اليوم، يضع في رأسه أحداث أزمة غيرة قاسية.

قالت غروشنكا مضطربة:

- أنا أيضاً غبية، ذهبت لأزوره اليوم، لبضع دقائق، قبل أن أذهب إلى ميتيا، لأنه مرض هو أيضاً، وقد حكت ذلك لميتيا ضاحكة. قلت له: «تصور أن صاحبي البولندي قد أخذ يغنّي لي أغانيه القديمة عازفاً على القيثارة، آملاً أن يؤثر في نفسي وأن يردَّني إليه». فإذا بميتيا يغضب فجأة، يرشقني بإهانات فظيعة. أقسم لأرسلن للبولنديين فطائر! يا فينيا، أظن أنهما بعثا بتلك الصبية من جديد، أليس كذلك؟ فأعطيها ثلاثة روبلات لهما، وحمّليها كذلك عشر فطائر ملفوفة بورق. أما أنت يا إيليوشا، فأريد حتماً أن تروي لميتيا أنني أرسلت إليهما فطائر.

- لا، لن أروي له ذلك أبداً. قال إيليوشا مبتسماً.

- أتتخيل أنه يهتم بأمري ويتعذب من أجلي، بينما هو يتظاهر بالغيرة لا أكثر؟ قالت غروشنكا بمرارة.

- يتظاهر؟ قال إيليوشا.

- أنت غبي يا صغيري إيليوشا! إنك لا تفهم في هذه الأمور شيئاً رغم ذكائك. إن ما يجرحني، ليس أنه يغار عليّ، أنا كما أنا. إن ما يؤلمني هو عدم غيرته. هكذا أنا. لن آخذ عليه يوماً أن يكون غيوراً، فأنا نفسي قاسية القلب شديدة الغيرة. ولكنني شقية لأنه لا يحبني، وإنما هو يتظاهر اليوم بالغيرة عليّ. ذلك كل شيء. لست بالعمياء. إنني أرى كل شيء بوضوح. لقد أخذ يكلمني عن الأخرى، عن كاتيا تلك، ممتدحاً ما صنعته في سبيله، مثنياً على ما قامت به من أجله. قال لي: «لقد استقدمت طبيباً من موسكو ليشترك في المناقشات أمام المحكمة إنقاذاً لي. واستقدمت من العاصمة أيضاً محامياً هو أشهر المحامين وأبرعهم، وأعلمهم في الوقت نفسه». هو إذن يحبها ولا يحبني، يحبها هي، ولا يحبني أنا، ما دام

يتغنى بمدائحها أمامي ناظراً إليَّ بعينيه الوقحتين! فهو المذنب في حقي والذي تعلق بي إلى هذا الحد، ليلقي الذنب على عاتقي، على عاتقي وحدي: «لقد كنت على صلةٍ بذلك البولندي قبلي، فمن حقي إذن أن أهجرك في سبيل كاتيا»، هذا هو الموضوع. إنه يريد أن يلقي الذنب كله عليّ وحدي. ويتعمد أن يشاجرني، يتعمد ذلك تعمداً، ولكنني أقول لك...

لم تكمل غروشنكا كلامها لتشرح ما تنوي أن تقوم به. وإنما أخفت عينيها بمنديل، وأخذت تبكي في نشيج يثير الشفقة.

- إنه لا يحب كاترينا إيڤانوفنا. قال إيليوشا بصوت جازم.

- سوف أعرف بنفسي أهو يحبها أم لا. أجابت غروشنكا بصوت يشوبه شيء من التهديد وهي تزيح المنديل عن عينيها. لقد تقبضت قسمات وجهها من الغضب. ولاحظ إيليوشا، على حزن وحسرة، أن ما كان يشيع في وجهها قبل ذلك من رقة هادئة وفرح قد حل محلَّه الآن عنف وشر.

- كفى سخافات! قالت. إنني لم أستدعك لأتحدث معك في هذا، يا إيليوشا، يا عزيزي! قل لي: ما الذي سيحدث غداً، ما الذي سيحدث غداً؟ ذلك ما يقلقني. أنا وحدي أفكر في هذا وأقاسي منه. إنني أنظر إلى الآخرين فلا أجد أحداً يقلق أو يكترث. هل فكرت في الأمر أنت على الأقل؟ غداً سيُحكم عليه مع ذلك! قل لي كيف ستجري الأمور أمام المحكمة! إن الخادم هو الذي قتل، إن الخادم هو الذي قتل! هل يُعقل أن يحكموا عليه بدلاً من أن يحكموا على الخادم، دون أن يتدخل أحد لإنصافه؟ إنهم لم يعمدوا حتى إلى إزعاج هذا الخادم بشيء، أليس كذلك؟

- استجوبوه استجواباً محكماً. قال إيليوشا مفكراً. ولكنهم خلصوا جميعاً إلى أنه ليس مجرماً. وهو الآن فريسة مرض شديد. إنه منذ وقوع ذاك الحادث يُصاب بنوبات صرع لا تنقطع.

وأضاف إيليوشا يقول: إنه مريض جداً.

- يا إلهي! ليتك تستطيع أن تقابل ذلك المحامي، وأن تشرح له القضية بنفسك. يقال إنه استقدم من بطرسبورغ لقاء أجر قدره ثلاثة آلاف روبل.

- دفعنا المبلغ نحن الثلاثة: كاترينا إيڤانوفنا وأخي إيڤان، وأنا. وضع كل منا ألفاً. أما الطبيب فإن كاترينا إيڤانوفنا هي التي دفعت ألفي روبل لاستقدامه من موسكو. والمحامي فيتوكوفتش يتقاضى في العادة أكثر من هذا المبلغ، ولكن القضية قد ذاع صيتها في روسيا كلها، ونشرتها جميع الصحف، لذلك عزم أمره على الدفاع عن ميتيا آخر الأمر، لا طمعاً في المال، بل سعياً إلى المجد. ستبقى هذه القضية شهيرة، وسيبقى اسمه مقترناً بها. ولقد كلمته أمس.

- كلمته؟ فماذا قال لك؟ سألته غروشنكا متعجلة.

- أصغى إلى كلامي، ولكنه امتنع عن إبداء أي ملاحظة. قال إنه قد كوَّن رأياً شخصياً في الموضوع، ووعدني مع ذلك بأن يحسب حساب ما قدمت له من شروح.

- يحسب حساب ما قدمت له من شروح؟ ما معنى هذا الكلام؟ إنهم جميعاً سواسية! هؤلاء المحامون كلهم أوغاد! سوف يضيعونه في النهاية. والطبيب، لماذا استقدموا الطبيب؟

- استقدموه خبيراً. أجاب إيليوشا وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة يريدون أن يقرروا أن أخي مجنون، وأنه قد ارتكب جريمة القتل في نوبة جنون لا يدري ماذا يفعل. ولكن أخي لن يوافق على ذلك أبداً.

- سيكون هذا صحيحاً إذا كان قد قتل.. قالت غروشنكا لا شك في أنه كان فاقداً وعيه، فاقداً عقله تماماً، ولا شك أنني مسؤولة عن ذلك أنا المسكينة. ولكنه لم يقتل، لم يقتل! هم جميعاً يؤكدون أن ميتيا هو القاتل. المدينة كلها تعتقد ذلك. وفينيا نفسها أدلت بشهادة لا يمكن أن يُستخرج منها إلّا أنه قاتل. وجميع الأشخاص الذين كانوا في المتجر، وذلك الموظف أيضاً! وهناك زبائن الكاباريه الذين ينقلون كل كلمة من كلماته، إنهم جميعاً ضده، ويتبارَون في إغراقه بالصراخ.

- نعم، تكاثرت الشهادات بشكل يدعو إلى القلق. قال إيليوشا بلهجة فيها يأس.

- ثم غريغوري، غريغوري فاسيلتش الذي يصر على أن الباب كان مفتوحاً. إنه لم يتزحزح عن هذه الشهادة. هو يدعي أنه رأى الباب بعينه مفتوحاً. يستحيل أن يتزعزع يقينه من ذلك. لقد ذهبت إليه وتكلمت معه. كاد يشتمني.

- لشهادته شأن كبير، وهو أخطر الشهود على أخي. قال إيليوشا.

- أما عن جنون ميتيا، فيخيَّل إليَّ أنه في هذه الساعة، لا يملك كل عقله، قالت غروشنكا بلهجة غريبة وقلقة. هل تعلم أنني أردت أن أكلمك في هذا الأمر منذ مدة طويلة يا إيليوشا؟ إنني أذهب إليه كل يوم، فما ينفك يزداد عجبي من سلوكه. قل لي رأيك: ما معنى هذه الأحاديث الغريبة التي يحدثني بها بدون انقطاع؟ إنه يتكلم، ويتكلم، فلا أتوصل إلى إدراك ما يقوله لي. قدَّرت في البداية أن الأمر أمر مسائل تحتاج إلى ذكاء نافذ، لا أستطيع أن أدركها. ولكنه أخذ يحدثني عن صبي، عن ولد صغير لا أعرفه. سألني: «لماذا يجب أن يتألم الصبي؟ إنني أرتضي أن أذهب إلى سيبيريا بسبب هذا الصبي. صحيح أنني لم أقتل، ولكن يجب أن أذهب إلى سيبيريا». أي صبي يعني؟ إنني لا أفهم من هذا الكلام شيئاً. ومع ذلك طفقت أبكي وأنا أسمع له، لأنه أجاد الكلام إجادة رائعة. كانت في عينيه دموع، فانفجرت أنا منتحبة. عندئذ قبلني، ورسم عليَّ إشارة الصليب. ما معنى هذا كله يا إيليوشا؟ قل لي. أيَّ ولد أنت؟

- إني أتساءل أليس في هذا مكيدة يدبرها راكيتين؟ أجاب إيليوشا مبتسماً. لقد أخذ يتردد إليه في السجن. ولكن لا... ليس هذا من راكيتين. أنا لم أزر ميتيا أمس، ولكنني سأذهب إليه اليوم.

- لا، ليس هو راكيتكا! قالت غروشنكا وقد اضطربت. إن أخاه إيڤان فيودوروفتش هو الذي يبلبل عقله. إنه هو الذي يزوره في السجن.

حدَّق إليها إيليوشا كالمذهول وقال:

- ماذا تقولين؟ إيڤان يزوره؟ لقد أكد لي ميتيا أن إيڤان لم يزره إلّا مرةً واحدة.

سكتت غروشنكا مضطربة وقد احمرّ وجهها بشدة.

- انظروا كيف أنا، لقد أسرفت في الكلام! لحظة... اسكت يا إيليوشا! مادمت قد زلَّ لساني ببعض الحقيقة، فسأقول لك الحقيقة كلها: لقد زاره مرتين. مرةً منذ وصل، لأنه أسرع يعود من موسكو حين بلغه نبأ الحادث، ولم أكن قد مرضت بعد. ومرةً منذ أسبوع. وقد طلب من ميتيا ألّا يقول لأحد شيئاً عن هاتين الزيارتين. حظّر عليه أن يذيع أمرهما لأي

مخلوق. لقد زاره سراً.

كان إيليوشا يفكر تفكيراً عميقاً. إن شيئاً ما يشغل باله الآن. لقد صعقه هذا النبأ.

- إن أخي إيڤان لم يحدثني أبداً في قضية ميتيا خلال هذين الشهرين. قال ببطء. وكان يبدو ممتعضاً من زيارتي كلما زرته. لذلك لم أره منذ ثلاثة أسابيع. هِمْ... إذا كان قد زار ميتيا منذ أسبوع، فذلك غريب حقاً... لقد حدث في ميتيا تغير خلال هذه الأيام الثمانية الأخيرة.

- لقد تغير، لقد تغير؟ أسرعت غروشنكا تقول. حدث فيه تغير، هذا صحيح. إن بينهما سراً. قال لي ميتيا نفسه ذلك، قال إن الأمر سر. وهو سر يعذبه كثيراً، هل تعلم؟ إن ميتيا ما يزال مرحاً في بعض اللحظات: ولكن حين يهز رأسه، ويسير في زنزانته، ويحك شعر صدغه بإبهامه اليمنى، أدرك أن هناك شيئاً في قلبه. أنا أعرف هذا. كان قبل ذلك مرحاً جداً. وما يزال مرحاً حتى الآن في الواقع، ولكن...

- ولكنك قلت لي إنه ثائر الأعصاب جداً.

- نعم، هو مرح وثائر الأعصاب في آن. تثور أعصابه فجأة، ثم يصفو مزاجه بعد دقيقة واحدة، ثم يهتاج مجدداً. إنه يدهشني يوماً بعد يوم يا إيليوشا. إن ما ينتظره رهيب، ومع ذلك يضحك أحياناً لترهات كأنه طفل.

- هل صحيح أنه أراد ألّا تكلميني على إيڤان؟ هل قال لك: «لا تحدثيه في هذا الأمر»؟

- ذلك بعينه هو ما قاله لي: «لا تحدثيه في هذا الأمر!» هو خائف منك أنت بخاصة. ذلك أن هناك سراً. وهو نفسه يعترف بذلك. هناك سر يا إيليوشا، يا عزيزي، فامضِ إليه، وحاول أن تعرف الحقيقة: ما هو ذلك السر الذي بينهما؟

وأضافت غروشنكا تقول متوسّلة:

- ثم عد إليّ وأخبرني. خلصني من قلقي وهمي، أنا المخلوقة التي تستحق الرثاء، فعسى أن أعرف مصيري الملعون! من أجل هذا استدعيتك.

- هل تعتقدين أن هذا السر يتعلق بك؟ لو كان كذلك، لما كلمك فيه أبداً.

- هل أدري؟ لعله أراد أن يحدثني في الأمر، ولكنه لم يجرؤ، فاكتفى بالتنبيه. لقد أسمعني أن هناك سراً ولكنه لم يوضح.

- ما هو افتراضك؟

- ماذا أفترض؟ أفترض أن الأمر أمر ضياعي أنا. لقد اتفقوا هم الثلاثة على تضييعي، لأن كاتيا وراء هذه المؤامرة. إن كاتيا هي التي دبَّرت كل شيء. لقد أطرى مزايا هذه المرأة، قال: «هي كذا وكذا». معنى ذلك أنني لست مثلها. إنه يمهد. إنه يحذرني. ذلك أنه قرر أن يتركني. هذا هو السر كله. لقد تآمروا هم الثلاثة: ميتيا وكاتيا وإيڤان فيودوروفتش. اسمع يا إيليوشا: ثمة سؤال أريد أن أطرحه عليك منذ مدة طويلة: لقد أعلن لي فجأة في الأسبوع الماضي أن إيڤان يحب كاترينا إيڤانوفنا. فهل هذا صحيح؟ أجبني بصدق وإخلاص، دون مراعاة.

- لا أكذب عليك. إن إيڤان لا يحب كاترينا إيڤانوفنا. ذلك رأيي أنا على الأقل.

- هذا ما قدَّرته أنا أيضاً. لقد كذب عليَّ. يا له من وقح! واضح أنه كذب عليَّ! وهو يتظاهر الآن بالغيرة، ليتمكن بعد ذلك من أن يلقي الذنب كله عليَّ. إنه لغبي. إنه لا يجيد حتى التمثيل. إنه بطبيعته صريح مسرف في الصراحة... ولكنني سألقنه درساً، سألقنه درساً! لقد صرخ يقول لي: «أنت تؤمنين بأنني قاتل». صرخ يقول هذا الكلام لي أنا. إنه يأخذ هذا عليَّ أنا. حسناً. أما كاتيا تلك، فويل لها. سأعرف كيف «أدبرها» أمام المحكمة. سوف أروي لهم قصة صغيرة... سوف أقول كل ما أعرف!

وأخذت غروشنكا تبكي بكاءً مراً.

- إليك ما أريد أن أقوله لك على وجه اليقين. قال إيليوشا وهو ينهض. أولاً: هو يحبك، يحبك أكثر من أي شيء في هذا العالم، ولا يحب أحداً غيرك على الإطلاق، تستطيعين أن تصدقيني. أنا أعرف هذا. أنا على يقين من هذا. ثانياً: أحب أن تعرفي أنني لن أحاول أن أستخرج منه سرَّه. وإذا أفضى إليّ به اليوم من تلقاء نفسه، فسوف أنبِّهه فوراً إلى أنني قد وعدتك بإبلاغك هذا السر. وسوف أعود إليك في هذا اليوم نفسه، فأقول لك كل ما أكون قد علمته. على أنني... يخيل إليّ أنه لم يعد الأمر يتعلق بكاترينا إيڤانوفنا، فهذا السر يتعلق بشيء آخر غير هذا تماماً. وأعتقد أنني على حق. لا يبدو الأمر أمر كاترينا إيڤانوفنا. هذا هو تقديري. أما الآن فإلى اللقاء!

صافحها إيليوشا. بكت غروشنكا مجدداً. أدرك أنها لم تصدِّق تعزياته إلا قليلاً جداً. ولكن الذي كان جيداً هنا، هو أنها استطاعت أن تخفف من حزنها، وأن تتكلم، لقد أسف لاضطراره إلى تركها في هذه الحالة. ولكنه كان على عجلة من أمره. لأن هناك أموراً كثيرة عليه أن يقوم بها في ذلك اليوم.

II

القدم الصغيرة المريضة

كان أول الأمور لديه الذهاب إلى بيت السيدة خوخلاكوفا، فأسرع الخطى كيلا يصل متأخراً إلى ميتيا. كانت السيدة خوخلاكوفا مريضة منذ ثلاثة أسابيع: لقد تورمت إحدى قدميها لسبب مجهول، فهي تقضي أيامها في مقصورتها متمددةً على كنبة، مرتديةً غلالةً جذابة لكنها محتشمة، لأنها لم تضطر إلى ملازمة فراشها. كان إيليوشا قد لاحظ، في يوم من الأيام، بابتسامة مسلية، أن السيدة خوخلاكوفا، رغم مرضها، قد أخذت تتغندر منذ زمن وتتزين. وقد شوهد في عنقها عقد جميل وأشرطة وقمصان مطرزة. وتساءل إيليوشا عن سبب عنايتها هذه بملابسها، ولكنه كان يطرد هذه الخواطر من ذهنه، ويعتبرها عبثاً لا طائل فيه. والواقع أن السيدة خوخلاكوفا قد أخذت، منذ شهرين، تستقبل بين من تستقبل من معارف وأصحاب، ذلك الموظف الشاب برخوتين. وحين وصل إيليوشا الذي لم يزر السيدة خوخلاكوفا منذ أربعة أيام، إلى منزلها الآن، أسرع يتجه إلى غرفة ليزا كونها هي التي كانت معنية بهذا الأمر الهام الذي أشرنا إليه، ولأنها هي من أوفدت إليه خادمتها بالأمس ترجو أن يجيء إليها بأقصى سرعةً ممكنة، «لأمر خطير جداً»، وذلك ما عزز رغبة أليوشا في المجيء. ولكن حين ذهبت الخادمة إلى ليزا لتبلغها وصول إيليوشا، علمت السيدة خوخلاكوفا بحضوره مصادفةً، فأرسلت تطلب إليه فوراً أن يجيء إليها «دقيقة واحدة». فرأى إيليوشا أن من الأفضل أن يلبي رغبة الأم أولاً، وإلّا فمن الممكن أن ترسل إليه من يستدعيه من عند ليزا أثناء انصرافه إلى الحديث مع ليزا. كانت السيدة خوخلاكوفا بحضوره مصادفةً، فأرسلت تطلب إليه فوراً أن يجيء إليها «دقيقة واحدة». فرأى إيليوشا أن من الأفضل أن يلبي رغبة الأم أولاً، وإلّا فمن الممكن أن ترسل إليه من يستدعيه من عند ليزا أثناء انصرافه إلى الحديث مع ليزا. كانت السيدة خوخلاكوفا متمددة على كنبتها، مهتمةً بحسن ملبسها، وكان واضحاً أنها مضطربة. فلما دخل عليها إيليوشا استقبلته بصيحات الحماسة.

منذ قرون، حقاً منذ قرون لم أرك! أسبوع كامل، كيف يمكن هذا؟ مع أنك جئت - منذ أربعة أيام، يوم الأربعاء. هل أنت ذاهب إلى ليزا؟ لا شك أنك كنت تريد أن تذهب إليها سائراً على رؤوس الأصابع حتى لا أسمعك. يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جداً ألكسي فيودوروفتش، ليتك تعلم مدى القلق الذي تسبِّبه لي حالة ابنتي! ولكنني سأكلمك على هذا الأمر فيما بعد. إن تلك المسألة تشغل بالي أكثر من كل المسائل، ولكن فيما بعد، فيما بعد! عزيزي ألكسي فيودوروفتش، إنني أعهد إليك بابنتي ليزا. إنني منذ موت الراهب المرشد زوسّيما، رحمه الله (وهنا رسمت السيدة إشارة الصليب)، أعتبرك ناسكاً، رغم أنك ترتدي ثوبك الجديد. أين عثرت على خياط بارع؟ ولكن لندع هذا الآن، ليس هذا أهم شيء، سنتحدث عنه فيما بعد. سامحني إذا ناديتك أحياناً باسم إيليوشا فقط. أنا امرأة عجوز، فكل شيء جائز لي، قالت المرأة العجوز وهي تبتسم في دلال. ولكن لندع هذا الآن. سنتحدث عنه فيما بعد. إن الشيء الأساسي هو أن لا أنسى المسألة الهامة. ذكرني بذلك عند الضرورة، فإذا ثرثرتُ وخرجت عن الموضوع، فعليك أن تقاطعني سائلاً: «والأمر الأساسي؟». ولكن كيف لي أن أعرف الآن ما هو الأمر الأساسي! منذ نقضت ليزا العهد الذي

قطعته لك - ولم يكن ذلك إلّا لغو طفلة يا ألكسي فيودوروفتش، أعني عهدها بأن تتزوجك في يوم من الأيام - فلا شك أنك أدركت أن ذلك كله لم يكن إلّا ثمرة خيال مضطرب عند بنت صغيرة مريضة طال سكونها وجمودها على كرسيها. الحمد لله أنها أصبحت قادرة على أن تمشي الآن! إن ذلك الطبيب الجديد الذي استقدمته كاتيا من موسكو لأخيك المسكين الذي سوف يحاكم غداً!... ولكن فيمَ الكلام على الغد! إنني متى تصورت هذا الغد أوشك أن أموت خوفاً. ذلك من الفضول خاصة. المهم أن هذا الطبيب قد جاء إلينا أمس وعاين ليزا... ودفعت له أجراً قدره خمسون روبلاً. ولكن لا، إنني أبتعد عن المسألة مرة أخرى... لقد فقدت تسلسل أفكاري تماماً كما ترى. ذلك أنني متعجلة. لماذا أتعجل؟ لست أدري. مخيف كم أصبحت لا أعرف شيئاً الآن. لقد اختلط كل شيء في ذهني أخيراً، حتى صار أشبه بغيوم. إنني أخشى أن تفر من لحظة إلى أخرى ضجراً مما أقول، مع أنني لم أكد أراك. آه يا إلهي! ولكن ماذا نفعل هنا، في البدء يجب أن نشرب القهوة. يا يوليا، يا غرافيرا، هاتوا القهوة.

أسرع إيليوشا يشكرها قائلاً إنه قد شرب قهوة منذ قليل.

- عند من؟

- عند أغرافينا ألكسندروفنا.

- عند... عند تلك المرأة؟ ولكنها سبب هلاكهم جميعاً. لست أدري على كل حال. يقال إنها أصبحت أشبه بقديسة، وإن جاء هذا متأخراً في رأيي. كان ينبغي أن يخطر ببالها ذلك من قبل، يوم كان ذلك ضرورياً. أما الآن، فما فائدة قداستها؟ اسكت، اسكت يا ألكسي فيودوروفتش، ثمة أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك، أشياء تبلغ من الكثرة أنني أخشى أن أفقد تسلسل أفكاري. وتلك المحاكمة أيضاً... سوف أحضرها مهما كلف الأمر. إنني أستعد لحضورها، سوف يأخذونني إلى المحكمة على كرسي. ثم إنني أستطيع أن أبقى جالسة. وسيكون بقربي أناس يسندونني. لا شك أنك تعلم أنني استدعيت إلى الشهادة. ماذا أقول لهم، ماذا أقول لهم؟ إنني لا أعرف أبداً ما أستطيع قوله. سوف يكون عليَّ أن أقسم، أليس كذلك؟ قل لي؟

- نعم، ولكنني أعتقد أنك في حالة لا تمكنك من المثول أمام المحكمة.

- أستطيع أن أبقى جالسة. آه، ولكنك تُفقدني تسلسل أفكاري. تلك المحاكمة، تلك الجريمة البشعة، ثم ذلك الرحيل إلى سيبيريا التي سيذهبون إليها جميعاً. سيتزوج أناس آخرون أثناء ذلك! ما أسرع ما تمضي الحياة! كل شيء يجري، كل شيء يتغير، ثم لا يبقى أخيراً شيء، لا يبقى إلّا عجائز يتربص بهن الموت. ليكن، ليكن. إنني أشعر بإعياء. إن كاتيا هذه - هذه الإنسانة الفتانة - قد حطمت جميع آمالي: إنها تنوي الآن أن تلحق بأحد أخويك إلى سيبيريا. وسيلحق بها الثاني إلى هناك، فيعيش في مدينة مجاورة. وبذلك يضرب بعضهم بعضاً. وهذا يفقدني صوابي، أؤكد لك. ولا سيما بسبب ما نشرته الصحف عن هذه القضية. إن جرائد سان بطرسبورغ وموسكو حافلة بأخبارها منذ أسابيع. تخيل أنهم كتبوا في هذه الصحف عني أنا أيضاً، زاعمين أنني كنت «الصديقة العزيزة جداً» لأخيك! إنني أشمئز من استعمال الألفاظ النابية. هل تستطيع أن تتخيل أمراً كهذا، قل لي، هل تستطيع أن تتصوره؟

- مستحيل. أين قرأت هذا الكلام؟

- سأريك فوراً. لقد نشر في جريدة «الشائعات» التي تصدر في سان بطرسبورغ، وقد وصلتني الجريدة أمس، فأسرعت أقرأها. إن هذه الجريدة بدأت صدورها في هذا السنة وأنا أحب الأقاويل كثيراً، لذلك اشتركت في الجريدة. هل كان في وسعي أن

أتنبأ أن الشائعات ستتناولني أنا؟ إقرأ، إقرأ الكلام هنا، في هذا العمود.

قالت السيدة خوخلاكوفا ذلك وناولت إيليوشا ورقة جريدة كانت قد خبأتها تحت وسادتها.

كانت السيدة خوخلاكوفا في حالة إحباط شديد، وكانت محطمة كلياً، وربما أصبح كل شيء مدعوكاً في رأسها كطابة من ورق. إن الشائعة التي نشرت في الجريدة المذكورة كانت تعريفية ولا بد أن تترك في نفسها أثراً أليماً. ومن حسن حظها، مع ذلك، أنها كانت في تلك اللحظة عاجزةً عن تركيز فكرها على موضوع واحد. لذلك كانت تستطيع أن تنسى تلك الجريدة بعد دقيقة، وأن تنتقل إلى موضوعات أخرى. ولا شك أن إيليوشا كان لا يجهل أن كلاماً كثيراً قد نُشر في صحف روسيا كلها عن هذه القضية الفظيعة ولا شك أنه قد قرأ خلال هذين الشهرين كثيراً من الأنباء التي تفتق عنها خيال بعضهم والتي لا تمتّ إلى الواقع بصلة، إلى جانب المعلومات الصحيحة، عن أخيه، وعن آل كارامازوف جملةً، وعنه هو أيضاً. من ذلك مثلاً ما نشرته إحدى الصحف من أن إيليوشا قد بلغ من الذعر عقب الجريمة الرهيبة التي اقترفها أخوه أنه اعتصم بأحد الأديرة، ليعيش حياة الرهبان. وقد أكدت جريدة أخرى هذا النبأ، ولكنها أضافت إليه أنه قد سرق صندوق الدير متعاوناً مع راهبه المرشد زوسّيما، ثم لاذ الاثنان بالفرار معاً. أما الشائعة التي نشرت في جريدة «الشائعات» فقد كان عنوانها ما يلي: «مراسلنا في سكوتوبريجيو نيفسك يكتب إلينا عن قضية كارامازوف» (ذلك هو فعلاً اسم مدينتنا الصغيرة التي لم أجرؤ أن أسميها حتى الآن). إن المقالة قصيرة، ولم تُذكر فيها السيدة خوخلاكوفا اسماً. ولم يذكر على وجه العموم جميع أسماء الأشخاص، واقتصر على الإشارة إلى أن المجرم الذي أحدثت جريمته ضجة كبرى، والذي سيحاكم عما قريب، هو ضابط محال متقاعد برتبة كابتن، متغطرس كسول عنيف رجعي التفكير، هذا إلى أنه زير نساء مستهتر، كان له بعض التأثير في «نساء عديدات أضجرتهن الوحدة»، فمن هؤلاء السيدات «أرملة» متصابية وتحاول أن تبدو شابة مع أن لها ابنة راشدة، وقد بلغت من الافتتان بهذا الرجل الدنيء أنها عرضت عليه قبل حدوث الجريمة بساعتين في أكثر تقدير، أن تعطيه ثلاثة آلاف روبل، ليوافق على اختطافها والسفر معها إلى مناجم الذهب فوراً. ولكن الشقي آثر أن يقتل أباه ليسلبه ثلاثة آلاف روبل، أملاً بألّا تُكشف جريمته، بدلاً من أن يرحل إلى سيبيريا في صحبة السيدة التي تنعم بمفاتن سن الأربعين. واختُتمت المقالة على نحو ما يجب أن تختتم بأشد استنكار لعدم أخلاقية الجريمة والعبودية القديمة. قرأ إيليوشا المقالة باهتمام واستطلاع، ثم طوى ورقة الجريدة وردّها إلى السيدة خوخلاكوفا.

- هذا عني أنا، عنّي أنا، أليس كذلك؟ تمتمت تقول من جديد. لا شك أبداً في أنه عني أنا. لقد نصحته فعلاً، قبل وقوع الجريمة بساعة، أن يذهب إلى مناجم الذهب. فانظر ماذا خرج من ذلك: «مفاتن سن الأربعين»! هل كان ذلك هدفي؟ هل خطر ببالي هذا؟ أسأل الله أن يسامحه على هذه التخرصات مثلما أسامحه أنا. ذلك أن كاتب هذه المقالة هو... لا بد أنك تعرف من هو... إنه صديقك راكيتين.

- هذا جائز جداً. قال إيليوشا. ولكنني كنت أجهل ذلك.

- إنه هو، إنه هو، ليس هذا جائزاً بل هو أكيد والسبب أنني طردته من منزلي... أظن أنك علمت بهذا الحادث.

- أعرف أنك طلبت منه ألّا يتردد إلى منزلك. أما السبب الذي دفعك إلى هذا القرار، فأعترف أنني لم أعلم به. لم أعلم به منك على الأقل.

- إذن علمت به منه هو. أهو حاقد عليّ كثيراً، أهو غاضب عليّ جداً؟

- نعم، هو غاضب، ولكن غضبه يشمل جميع الناس. أما السبب الذي من أجله أغلقت بابك دونه، فإنه لم يذكره لي. وأنا على وجه العموم لا أراه إلّا نادراً. ليس هو صديقي.

- حسناً. سأقول لك الحقيقة كلها. لا بأس. ثم إنني نادمة على شيء في هذه المسألة، أن هناك عنصراً صغيراً أنا مسؤولة عنه. هو أمر بسيط، بسيط جداً، حتى إن وجد، فهو غير موجود. اسمع يا بني العزيز (هنا بشَّ وجه السيدة خوخلاكوفا وارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة وإن تكن لا تفهم كأنها لغز)... اسمع... إنني أشتبه في أنه... سامحني يا إيليوشا، فأنا أخاطبك كما تخاطب أمّ ابنها... أقصد... لا... إن عكس هذا هو ما أردت أن أقوله... إنني أخاطبك كما يخاطَب كاهن... إذ لا مجال للحديث هنا عن أم... لا قيمة لهذا على كل حال... المهم أنني أكلمك كما كنت أكلم الراهب زوسّيما عندما أعترف. ذلك هو أفضل تشبيه هنا. ألم أصفك منذ قليل بأنك راهب ناسك؟... فاسمع إذن: إن هذا الشاب الشقي، صاحبك راكيتين... أوه... يا إلهي! إنني لا أستطيع أن أغضب عليه حقاً! أنا مستاءة كثيراً بل وغاضبة جداً... ولكن على ضعف... الخلاصة: إن هذا الشاب الطائش قد أولع بي... تصور! أنا لم ألاحظ ذلك إلّا فيما بعد. في البداية، أي منذ شهر، أصبح يكثر من زيارتي، وأصبح يجيء إليَّ كل يوم، رغم أننا متعارفان منذ زمن طويل. لم أشتبه في شيء. لم يخطر ببالي شيء. ولكني بدأت ألاحظ قبساً من نور، أنتبه إلى بعض الأشياء مدهوشة. أنت تعرف أنني أصبحت منذ شهرين أستقبل في كثير من الأحيان ذلك الشاب الطيب الرائع، بيوتر إيلتش برخوتين، الموظف في مدينتنا. لقد التقيته أنت عندي مراراً على كل حال. إنه شاب جاد، لائق، ألا ترى ذلك؟ إنه يجيء إلى بيتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، أقصد أنني لا أراه في جميع الأيام، ولست أجد أي سوء في أن يأتي يومياً على كل حال. هو دائماً حسن الهيئة جيد الهندام. وأنت لا تجهل يا إيليوشا أنني أحب الشباب. أنا أحب الشباب المتواضعين الذين يتمتعون بمواهب عظيمة، من أمثالك أنت يا إيليوشا. إن لهذا الشاب ذكاءً يجعله مساوياً لرجل دولة. وما أجمل حديثه! سوف أتوسط له لدى الأوساط العليا. نعم، نعم، سوف أتوسط له حتماً. سيكون في المستقبل دبلوماسياً من الطراز الأول. وقد أنقذ حياتي تقريباً في ذلك اليوم الرهيب. أنقذني من موتٍ محقق حين جاء إليَّ في الليل. أما صديقك راكيتين، فإنه يجيء دائماً بحذائه الضخم يجرّه على السجاد جراً. الخلاصة: أخذ راكيتين يسمعني تلميحات مستخفية في أول الأمر، وفي ذات يوم شدّ على يدي بقوة حين انصرف. فما إن شدَّ على يدي حتى شعرت بألم في ساقي. وقد التقى عندي بيوتر إيلتش، ولكنه ما انفك يسفهه ويعيبه وينتقده دون سبب. واقتصرت أنا على مراقبتهما إذ كان يسليني أن يوجدا معاً. ذات مرة وجدت وحيدة فجأة، أي كنت نائمة، وحدي هنا، إذن أنا وحدي نائمة هنا، إذا بميشيل إيفانوفتش يجيئني حاملاً قصيدة صغيرة أوحت إليه بها ساقي المريضة. انتظر. سأنشدك الأبيات:

هذه الساق الصغيرة، آه، هذه الساق الصغيرة

قيل لي إنها مريضة!

أو كيف؟ يصعب عليَّ أن أتذكر الأبيات. لا بأس على كل حال. لقد خبأت القصيدة في مكان قريب جداً. سوف أطلعك عليها فيما بعد. ولكنها أشعار رائعة، حقاً. هي لا تتحدث عن قدمي فحسب، بل تتحدث عن أكثر من ذلك، لأنها تتضمن فكرة أخلاقية هامة جداً. يؤسفني أنني لا أتذكر الآن تلك الفكرة. أستطيع أن أجمل رأيي فأقول إن هذه القصيدة تستحق أن تحفظ في ألبوم. وقد شكرته طبعاً، فسُرَّ بذلك كثيراً. وفي تلك اللحظة عينها دخل بيوتر إيلتش، فسرعان ما تجهم وجه ميشيل يافانوفتش. أدركت أن وصول بيوتر إيلتش قد أفسد عليه مشاريعه. ذلك أنه كان ينوي، ولا شك، أن يقول لي شيئاً بعد قراءة القصيدة. لقد أحسست أنا بذلك، ولكن ها هو بيوتر إيلتش يدخل في تلك اللحظة نفسها. أطلعت بيوتر إيلتش على القصيدة طبعاً، ولكن دون أن أقول له من الذي نظمها. لكنني على

ثقة، أنه سرعان ما عرف الحقيقة، وإن كان ينكر ذلك حتى الآن. هو يدعي أنه لم يحزر شيئاً. ولكنه يزعم ذلك عمداً. انفجر بيوتر إيلتش ضاحكاً حين قرأ القصيدة، ثم نقدها نقداً لاذعاً، فقال: «هي أشعار تافهة، جديرة بطالب من طلاب اللاهوت في أكثر تقدير». لقد ثار على رداءة القصيدة القصيرة. وهذا صاحبك يستبد به غضب شديد، بدلاً من أن يضحك. قلت لنفسي: «آه... يا إلهي! لسوف يتضاربان!». قال راكيتين: «أنا من نظم القصيدة. لقد كتبت هذه الأبيات من باب المزاح، لأنني أرى أنه لا يليق برجل أن يضيِّع وقته في النظم. ولكن قصائدي جميلة مع ذلك. إن في النية إقامة نصب تذكاري لبوشكين الذي تغنى بجمال أقدام النساء. وإن لقصائدي أنا اتجاهاً أخلاقياً. أما أنت (قال ذلك مخاطباً بيوتر إيلتش)، فما أنت إلّا رجل رجعي عاجز عن فهم الصبوات العميقة للإنسانية. لقد بقيت غريباً عن المشاعر النبيلة التي تهز قلوب أبناء الجيل الراهن. لقد مرَّ التقدم بقربك دون أن يلامسك، لأنك لست إلّا موظفاً مرتشياً!» أخذت أصرخ أنا أيضاً، متوسلة إليهما أن يسكتا ويهدأا. وليس بيوتر إيلتش هذا بالرجل الهيَّاب، هل تعلم ذلك؟ ولكنه سرعان ما اصطنع لهجة رصينة وقورة، فبعد أن أصغى إلى راكيتين ساخر الهيئة أخذ يعتذر له قائلاً: «كنت أجهل أنك أنت من نظم هذه الأبيات، ولو عرفت ذلك لما قلت هذا الكلام، بل لأطريت الأبيات. يقال إن الشعراء شديدو الانفعال سريعو التأذي...». الخلاصة أنه استهزأ به وسخر منه، ولكن بلهجة يدل ظاهرها على غاية اللباقة. لقد شرح لي هو نفسه فيما بعد أن ذلك كان تهكماً، لأنني كنت ظننت في أول الأمر أنه تكلم جاداً لا هازلاً. ولقد كنت أثناء تلك المناقشة مضطجعة مثلي الآن أمامك، وكنت أتساءل هل يليق بي أو لا يليق أن أطرد ميشيل إيڤانوفتش لأنه أجاز لنفسه أن يصرخ في منزلي وأن يهين ضيفي. فهل تصدّق ما سأقوله لك؟ كنت مستلقية وقد أغمضت عيني وأخذت أفكر: «أمن اللياقة أن أطرده أم لا؟ هل أصرخ طالبةً إليه الانصراف أم لا؟». كان هناك صوت يهيب بي: «اصرخي!»، وكان هناك صوت آخر ينصحني بألّا أصرخ. فما إن سمعت هذا الصوت الثاني الذي ينصحني بألّا أصرخ حتى أخذت أصرخ، وسقطت مغشياً عليَّ. وعمّت الفوضى البيت. ونهضت بعد لحظات فقلت لميشيل إيڤانوفتش: «يؤسفني أن أقول لك إنني لا أحب أن أراك بعد اليوم في منزلي.». هكذا طردته من منزلي. آه يا ألكسي فيودوروفتش، إني أعرف أنني أسأت التصرف. ولقد كذبت من جهة أخرى، لأنني لم أكن غاضبة منه في الحقيقة. ولكنني أحسست أن تدخُّلي هذا سيكون فيه كثير من الرفعة والتميز، فاستسلمت لإغراء ما في ذلك المشهد من جمال. لكن وضعي كان طبيعياً، فقد بدأت أبكي، وظللت أبكي عدة أيام. ومع ذلك كنت قد نسيت بعد الغداء كل شيء. وقد انقطع راكيتين عن زيارتي منذ أسبوعين، فكنت أتساءل: «هل يُعقل حقاً ألّا يأتي بعد الآن أبداً؟». هذا ما قلته يوم أمس، حين جاؤوني عند المساء بجريدة «الشائعات» هذه. قرأت المقالة وأوشكت أن أنقلب على ظهري. من يا ترى قد كتب هذه المقالة هو من كتبها، لقد عاد إلى مسكنه وكتب هذا، ثم أرسلها إلى الجريدة التي سارعت تنشرها. لأن هذا قد حدث منذ أسبوعين تماماً. ولكن يا إيليوشا، ما أقوله هو مخيف، وأنا لا أقول دائماً ما يجب أن أقول. أليس كذلك؟ آه، الأمور تعبر عن نفسها.

- أنا اليوم مستعجل جداً لأصل إلى عند أخي في الساعة المحددة. قال أليوشا.

- صحيح، صحيح. لقد ذكّرتني بالأمر. قل لي: ما هو المسّ؟

- أي مسّ؟ سألها إيليوشا مدهوشاً.

- المسّ القضائي. المسّ الذي من أجله يسامح كل شيء. فمهما يقترف المرء من جرم، يسامح على الفور.

- لكن عمّ تتكلمين؟

- إليك الأمر: إن كاتيا هذه... آه، ما أروعها من إنسانة! ما أجملها، ولكنني لم أتمكن من معرفة أيهما تحب. لقد كانت عندي منذ مدة، وعبثاً حاولت أن أفهم منها شيئاً. جهد ضائع، وعناء لا جدوى منه لا سيما وأنها اتخذت مني وضعاً سخيفاً جداً. إنها لا تكلمني إلّا عن صحتي، ولا شيء غير ذلك. لقد اصطنعت في مخاطبتي لهجة بلغت من التقيد بالرسميات أنني قلت لنفسي: «لا بأس، لا بأس، أسأل الله أن يحفظك يا عزيزتي!...» آه، نعم... كنت أسألك عن المس. وذلك بمناسبة وصول الطبيب. هل تعلم أن في مدينتنا الآن طبيباً جديداً؟ لا بد أنك تعرف ذلك، فهو واحد من أطباء الأمراض العقلية، وأنت الذي استقدمته... أقصد... لا أنت، بل كاتيا... كاتيا أيضاً! إليك المسألة: هذا رجل ليس مجنوناً، ولكنه يُصاب فجأة بمسّ. لقد احتفظ بوعيه، وهو يعلم ماذا يفعل، ولكنه ممسوس. لعل هذا ما جرى في حالة ديمتري فيودوروفتش... لا بد أن مساً قد ألم به. هذه نظرية حديثة اكتُشفت منذ إعادة تنظيم محاكمنا. إن إعادة تنظيم القضاء هذه قد أحسنت إلينا جميعاً، ولولاها لم نعرف المسّ. لقد زارني الطبيب الجديد، وسألني عما حدث في تلك الأمسية، أقصد مسألة مناجم الذهب تلك: كان يريد أن أصف له الحالة التي كان عليها أخوك. حقاً لقد كان أخوك في حالة مس واضحة. جاء إليَّ صارخاً: «أريد مالاً، أريد مالاً، أنا في حاجة إلى ثلاثة آلاف روبل، فأعطني ثلاثة آلاف روبل»؛ ثم ذهب، وأصبح قاتلاً. كان يقول: «لا أريد أن أقتل، لا أريد أن أقتل». ولكنه قتل. فلهذا السبب سوف يسامحونه، لأنه قاوم المسّ، ثم قتل بعد ذلك.

قاطعها إيليوشا بلهجة فيها شيء من الازعاج ولكنه لم يقتل.

وأحسّ بتبرُّم وقلق يستوليان عليه شيئاً فشيئاً.

- أعرف أنه لم يقتل. إن العجوز غريغوري هو الذي قتل. قالت السيدة خوخلاكوفا.

- كيف؟ صاح إيليوشا.

- نعم، نعم، هو غريغوري. فبعد أن صرعه ديمتري فيودوروفتش، بقي مُغمى عليه فترة من الوقت، ثم وقف فرأى الباب مفتوحاً، فأسرع ليقتل فيودور بافلوفتش.

- ولكن لماذا، لماذا؟

- انتابه مسٌّ. لقد ضربه ديمتري فيودوروفتش على رأسه، فلما أفاق من غيبوبته، كان المسُّ قد استحوذ على عقله، فقتل. ولئن كان ينكر أنه القاتل، فإن ذلك لا يبرهن على شيء، لأن من الجائز جداً أنه لم يعد يتذكر. ولكن صدقني إذا قلت لك إن من الأفضل، من الأفضل كثيراً أن يكون ديمتري فيودوروفتش هو الذي ارتكب الجريمة. إن القاتل هو ديمتري فيودوروفتش في الواقع، رغم أنني أؤكد أنه غريغوري، وذلك أفضل، أفضل كثيراً. لا تسئ فهمي. أنا لا أدّعي أن من الأفضل أن يكون الأب قد قتله ابنه. لست أثني على قتل الابن أباه. هيهات أن أفعل ذلك. بالعكس: أنا أؤمن بأن على الأبناء أن يحترموا آباءهم. ولكن من الأفضل أن يكون هو القاتل. ولن تكون في حاجة إلى أن تشكو وتستنكر، ما دام قد قتل بغير وعي. أقصد أنه كان واعياً، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل. لا، لا، يجب أن يسامحوه. أنا أؤيد براءته. لسوف تكون تبرئته مثلاً إنسانياً جميلاً، ولسوف تتيح لنا أن نفهم حسنات إعادة تنظيم القضاء. كنت أجهل مزايا هذا النظام الجديد الذي يقال إنه وجد منذ زمن. فما إن علمت بهذا الأمر أمس حتى أحسست بأنني أردت استدعاءك فوراً. وفي المستقبل، متى بُرِّىء أخوك، سيجب عليه حتماً أن يأتي إلى الغداء في منزلي فور خروجه من المحكمة. سأدعو جميع معارفي وأصحابي، وسنشرب نخب إعادة تنظيم القضاء. لا أعتقد أن أخاك خطر. ثم إنني سأدبر الأمر بحيث يكون عدد المدعوين كبيراً، فإذا حدث شيء كان في

الامكان إخراجه من المنزل. وبعد ذلك يمكنه أن يستقر في مدينة أخرى قاضيَ صلح، أو أن يُعيَّن لوظائف من هذا القبيل، لأن الذين عانوا الشقاء بأنفسهم يكونون من أفضل القضاة. وأي إنسان يستطيع من جهة أخرى أن يزعم أنه مبرأ من المسّ. إننا جميعاً مصابون بالمس، أنت وأنا وسائر الناس. ليست تعوزنا الأمثلة على ذلك: هذا رجل يبدو في الظاهر هادئاً ويغني أغنية عاطفية. وفيما هو كذلك إذا بشيء من الأشياء لا يرضيه، فيُخرج مسدساً ويقتل أول قادم ثم يشفى. لقد قرأت في الآونة الأخيرة قصة من هذا النوع، وقد أكد جميع الأطباء هذه الظاهرة. إن الأطباء في أيامنا هذه يؤكدون دائماً. لكن تصور أن ابنتي ليزا مصابة بمسّ. أمس اضطرتني إلى البكاء، وأمس الأول أيضاً. واليوم إنما اكتشفت الحقيقة، وهي أنها تحت تأثير المس. آه... ليتك تعلم كم تسبب لي ليزا من عناء! أعتقد أنها تفقد عقلها؟ تُرى لماذا استدعتك؟ أهي التي استدعتك أم أنت جئت من تلقاء نفسك؟

- بلى هي استدعتني، وأنا ذاهب إليها، قال إيليوشا وهو ينهض.

- ولكن يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جداً ألكسي فيودوروفتش، الآن وصلنا إلى الأمر الأساسي. صاحت السيدة خوخلاكوفا وهي تبكي شهد الله أنني صادقة في إيكال ليزا إليك. أن تستدعيك ليزا على غير علم أمها، فليس هذا بالأمر الخطير جداً. وما كان لي أن أكل ابنتي بمثل هذه الطمأنينة إلى أخيك إيڤان فيودوروفتش، سامحني إذا قلت هذا، رغم أنني أعتبره، حتى اليوم، شاباً من ذوي الفروسية. هل تتصور مع ذلك أنه زار ليزا، من دون علمي أنا؟

- ماذا؟ كيف؟ متى زارها؟ قال إيليوشا مدهوشاً.

ومع ذلك لم يجلس، بل استمع إلى شروح السيدة خوخلاكوفا واقفاً.

- سأقص عليك كل شيء. ومن أجل هذا استدعيتك فيما أظن. لأنني أصبحت لا أعرف أنا نفسي لماذا استدعيتك. إليك الأمر: لقد زارني إيڤان فيودوروفتش مرتين منذ عودته من موسكو. في المرة الأولى، جاء من قبيل اللباقة بصفته صديقاً لا أكثر. وأما في المرة الثانية، وهي ليست حديثة، كانت كاتيا عندي، فعلم بذلك، فجاء هو لأنه علم أنها عندي. لست أطمع طبعاً في أن يشرفني بالمجيء إلى منزلي كثيراً، لأنني أعرف مدى انشغاله في هذه الآونة... بسبب ميتة أبيك تلك الفظيعة... ولكنني أعلم أنه عاد إلى منزلي لا ليزورني أنا، بل ليزور ليزا. حدث ذلك منذ ستة أيام. حضر إليها، ومكث خمس دقائق، ثم انصرف. لم أعرف بهذا إلّا بعد ثلاثة أيام. علمت من غرافيرا، فدهشت. أسرعتُ أنادي ليزا، ولكنها ضحكت. وقالت تشرح لي: «كان يظن يا ماما أنك نائمة، فجاء إليّ يسأل عن صحتك». والأرجح أن هذا صحيح. ومع ذلك ليتك تعلم مدى ما تسببه لي ليزا من قلق! آه... يا إلهي! تصوّر أنها ذات ليلة - حدث هذا منذ أربعة أيام، عقب زيارتك الأخيرة - قد انتابتها نوبة عصبية: فكانت تصرخ وتئن كأنها مصابة بهستيريا. لماذا لا أُصاب أنا بنوبات عصبية؟ بإمكاني أنا أيضاً أن أنعم بهذا الترف. وتكرر ذلك في الغد، وفي اليوم الذي تلاه؛ وأمس حدث فصل جديد، ومساءً بدأت تظهر عليها أعراض المس. صرخت تقول لي: «أنا أمقت إيڤان فيودوروفتش. يجب ألّا تستقبليه يا ماما، يجب أن تمنعيه من دخول بيتنا!». ذُهلت، وأجبتها بأن من المستحيل أن نعامل بهذه الطريقة شاباً مثله كريم النفس رفيع الثقافة، وشقيٌّ فوق ذلك. لأن هذه القصص كلها هي شقاء لا سعادة، ألا ترى هذا الرأي؟ فلم يكن من ابنتي إلّا أن أجابت على كلامي بقهقهة مجلجلة أحسست أن فيها إهانة جارحة لي. ومع ذلك قلت لنفسي: «لا بأس، ما دمت قد استطعت أن أفرحها، فلعل نوباتها العصبية ستزول الآن». وكنت أنوي أنا نفسي، من جهة أخرى، أن أطرد إيڤان فيودوروفتش بسبب زياراته الغريبة هذه لابنتي بدون إذني. حتى لقد كنت أودّ أن يعطيني تفسيراً لذلك. ولكن ها هي ليزا تثور على يوليا بشكل عنيف في هذا الصباح منذ استيقظت، حتى لقد صفعتها، هل تتصور هذا؟

أليس هذا شذوذاً غريباً؟ لاحظ أنني أنا لا أنادي خدمي أبداً بصيغة المفرد. وما انقضت على ذلك ساعة حتى كانت ليزا تعانق يوليا وتقبّل قدميها. وفي مقابل ذلك أرسلت تبلغني أنها لن تأتي إلى منزلي، لن تجيء إليَّ أبداً، هل تستطيع أن تتصور مثل هذا؟ فلما جررت نفسي إلى غرفتها يائسة، ارتمت عليَّ وغمرتني بقبلاتها وهي تبكي؛ وفيما هي تقبلني دفعتني إلى خارج الغرفة دون أن تقول كلمة واحدة، فلم أعرف في نهاية الأمر شيئاً. إنني أضع الآن جميع آمالي فيك، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش، ولا شك أنك تدرك أنك تمسك بيديك مصيري وحياتي. أتوسل إليك أن تذهب إلى ليزا، وأن تكلمها كما لا يستطيع غيرك أن يكلمها. ثم عُدْ إليَّ لتشرح لي ما يحدث في نفسها، ولتقص عليَّ كل شيء، أنا أمها. ذلك أنني سأموت، نعم سأموت إذا استمرت تجري الأمور على هذه الحال زمناً طويلاً أيضاً، وإلّا فسأهرب من هذا المنزل تاركةً كل شيء. لقد نفدت قدرتي على الاحتمال، وخارت قوتي. صحيح أن صبري واسع، ولكن لهذا الصبر حدوداً، يمكن أن تقع أمور فظيعة. آه، يا إلهي، بيوتر إيلتش. صاحت السيدة خوخلاكوفا، عندما لمحت الموظف برخوتين داخلاً إلى الغرفة:

- هذا بيوتر إيلتش يصل أخيراً! لقد تأخرت عن المجيء. هيه! اجلس، تكلم، قرر مصيري. ماذا قال المحامي؟ إلى أين تذهب يا ألكسي فيودوروفتش؟

- إلى ليزا.

- نعم، صحيح! لن تنسى أن تفعل ما طلبته منك، أليس كذلك؟ إنها مسألة مصير، نعم مصير!

- بالطبع لن أنسى، هذا إذا استطعت أن... دمدم إيليوشا وهو يستعجل الخروج.

- لا، لا، عليك أن تعود إليَّ حتماً. وليس إذا استطعت... وإلّا مت! صاحت السيدة خوخلاكوفا، ولكن إيليوشا كان قد خرج.

III

الشيطان الصغير

عندما دخل إلى غرفة ليزا وجدها مستلقية على الكرسي القديم الذي كانوا ينقلونها عليه حين لم تكن تستطيع أن تمشي. لم تقم بأيّ بحركة لتنهض إلى لقائه، وإنما حدقت إليه بنظرة ثاقبة حادة. كان نظرها ملتهباً قليلاً، وكان وجهها الشاحب يبدو مصفراً. دُهش إيليوشا من التغير الذي طرأ على مظهرها خلال ثلاثة أيام. ولاحظ أنها نحلت بعض الشيء. لم يمدَّ إليها يده، بل اقتصر على ملامسة أصابعها الطويلة التي كانت جامدةً على ثوبها. ثم جلس إلى جانبها دون أن يقول كلمة.

- أعرف أنك تستعجل الذهاب إلى السجن. قالت ليزا بصوت جاف. لقد احتجزتك ماما ساعتين، تكلمك عني وعن يوليا.

- كيف عرفت هذا؟ سألها إيليوشا.

- تنصت على الباب. أجابته. لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ أريد أن أتجسس، سأتجسس، لست أرى في هذا أي بأس، ولن أعتذر.

- ثمة ما يعكر مزاجك؟

- بالعكس، إنني مسرورة جداً. لقد قلت لنفسي، للمرة الثلاثين، إنني قد أُلهمت حقاً حين تراجعت عن وعدي ورفضت أن أصبح زوجتك. أنت زوج لا يطاق. افترض تزوجتك، ثم كلفتك أن تحمل رسالة إلى عشيقي: لسوف تقوم بهذه المهمة، ولن تقتصر على حمل الرسالة إليه بل ستجيئني بالرد أيضاً. وحين تبلغ الأربعين من العمر ستظل تحمل رسائل من هذا النوع متى كلفتك ذلك.

وأخذت ليزا تضحك.

- إن فيك شيئاً شريراً وبسيطاً في آن. قال إيليوشا مبتسماً.

- ما هو بسيط هو أني لا أخجل منك. لا بل، ليس فقط لا أخجل منك، لكن لا أريد أن أخجل منك أنت بالذات. قل لي يا إيليوشا: لماذا أنا لا أحترمك؟ إنني أحبك كثيراً، ولكنني لا أحترمك. وإلّا لما استطعت أن أقول لك هذا في وجهك دون أن أخجل، أليس كذلك؟

- صحيح.

- هل تعتقد أنني لا أشعر بالخجل أمامك؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

ضحكت ليزا ضحكة عصبية مرة أخرى. كانت تتكلم بسرعة، بلهجة سريعة.

- أرسلت سكاكر إلى أخيك ديمتري فيودوروفتش في سجنه. إيليوشا، ليتك تعلم كم أنت لطيف! سوف أحبك كثيراً لأنني أبحت لنفسي أن أكف عن حبك بمثل هذه السرعة.

- لماذا استدعيتني اليوم يا ليزا؟

- أردت أن أنقل إليك رغبة. إنني أتمنى أن أعذَّب. أتمنى أن يتزوجني أحد، وأن يعذب روحي بعد ذلك: يخونني ويهجرني ويسافر. لا أريد أن أكون سعيدة.

- أتحبين الفوضى الآن؟

- نعم، أحب الفوضى. أحلم دائماً بإحراق المنزل. أتخيل كيف سأقترب من المبنى، وأشعل فيه النار دون أن يراني أحد. يجب أن يتم هذا بالسر حتماً. ويهب الآخرون هنا وهناك محاولين إطفاء النيران، ولكن اللهب ما ينفك يشتد. وأكون هناك، أراقب كل شيء، ولا أنطق بكلمة. هوه! تلك سخافات! إنني ضجرة بشكل رهيب!

قالت ليزا ذلك وحركت يدها الصغيرة بإشارة اشمئزاز.

- إنك تعيشين في الثراء. قال إيليوشا في رفق.

- أيكون من الأفضل أن أعيش في الفقر؟

- نعم، ذلك أفضل.

- إن صاحبك الراهب المتوفَّى هو الذي دسَّ في رأسك هذه الأفكار. ذلك خطأ. فلبيق الآخرون فقراء؛ أما أنا فأريد أن أكون غنية. آكل سكاكر، وأشرب قشدة، ولا أعطي من ذلك شيئاً لأحد. لا، لا، لا تقل لي شيئاً. قالت ليزا ذلك وهي تحرك يدها بإيماءة تمنع إيليوشا عن الكلام، مع أنه لم يفتح فمه. لقد سبق أن قصصت عليَّ تلك الحكايات. إنها مضجرة. لو كنت فقيرة لقتلت أحداً. ولو كنت غنية لقتلت أيضاً. لماذا أعيش دون أن أعمل شيئاً؟ أريد أن أحصد، هل تعلم! أريد أن أجني محصول القمح. سوف أتزوجك، وسوف تصبح أنت فلاحاً، لا فلاحاً حقيقياً، وسيكون عندنا مُهر، مهر صغير جميل، هل تريد هذا؟ بالمناسبة: هل تعرف كالغانوف؟

- أعرفه.

- إنه يحلم طوال الوقت. يقول: «لماذا أحيا؟ الأَوْلى أن أحلم». إن الإنسان يستطيع أن يحلم بأشياء مسلية، أما الحياة فهي مضجرة دائماً... لكنه سيتزوج قريباً. لقد صارحني بحبه، هل تتصور؟ صارحني أنا أيضاً. هل تعرف كيف تدوِّم خذروفاً؟

- أعرف.

- هو شبيه بخذروف: يكفي أن ترميه ثم تجعله يدور ويدور بضربات سوط. الخذروف يُضرب بسوط صغير، فإذا هو يدور، ثم يدور. ذلك ما سأفعله. سأتزوجه ثم أظل أدوّمه طوال حياته كخذروف. ألا تشعر بخجل من الثرثرة معي!

- لا.

- لا بد أنك حانق جداً، لأنني لا أحدثك عنه أشياء مقدسة. أنا لا أحب أن أكون

قديسة، هل تعلم؟ ما هو العقاب الذي سأناله في الحياة الآخرة على الخطيئة العظيمة؟ لا بد أن تكون عالماً بدقة بهذه الأمور.

- سوف يحكم الله عليك. قال إيليوشا وهو يتأمل وجه الفتاة بانتباه.

- سوف يُحكم عليَّ. ذلك بعينه ما أتمناه. أمثل أمام المحكمة، فيحكم عليّ، فأنفجر ضاحكةً وأنا أحدق إلى أعين الجميع. ما أعظم شوقي إلى إحراق المنزل، إلى إحراق منزلنا يا إيليوشا! أنت لا تصدق، أليس كذلك؟

- لم لا؟ ثمة أطفال في الثانية عشرة من أعمارهم يتمنون إحراق شيء ما، ثم يفعلون ذلك. هذا نوع من المرض.

- خطأ، خطأ! أعرف أن هناك أطفالاً، ولكنني أتكلم عن شيء آخر.

- أنت تعتبرين الشر خيراً. هذه نوبة طارئة لن تدوم، ولا شك أنها من بقايا مرضك القديم.

- لا بد أنك تحتقرني كثيراً كي تقول هذا الكلام. الحقيقة أبسط من ذلك. أنا لا أحب عمل الخير، بل أفضّل الشر. ذلك كل ما في الأمر، وليس في هذا أي مرض.

- لماذا تحبين عمل الشر؟

- لأدمر كل شيء. آه، ما أجمل أن أفتح عيني، فأرى أن كل شيء قد زال! اعلم يا إيليوشا أنني أحلم دائماً بأن أقترف سيئات كثيرة فظيعة. أظل أعمل زمناً طويلاً في الظلام والسر، ثم يكتشفون الحقيقة فجأة. سيهبُّون عندئذ جميعاً ضدي، وسيشيرون إليَّ بالأصابع. فأتأملهم بهدوء. ما أمتع هذا! لماذا يكون هذا ممتعاً يا إيليوشا؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا؟

- لست أدري، ولكنني أعرف أن الأمر كذلك. هذه هي الحاجة إلى تحطيم شيء ما، أو إلى إشعال النار في المنزل كما قلت أنت منذ هنيهة. هذه المشاعر توجد في نفوسنا أحياناً.

- أنا لم أقل كلاماً عابثاً، سوف أنفّذ ما قلت.

- أصدِّقك.

- آه، كم أحبك لأنك قلت إنك تصدقني. أنت لا تكذب أبداً، أبداً، أليس كذلك؟ أم لعلك ظننت أنني قلت ذلك عمداً لأغيظك؟

- لا، لا أظن ذلك، وإن كان من الممكن أن يكون فيك إلى جانب هذا شيء من حب الإغاظة.

- صحيح. هنالك قليل من الإغاظة في هذا. أعترف لك بذلك.

ثم صاحت وقد قدحت في نظرتها شرارة:

- لن أكذب أمامك أبداً.

دُهش إيليوشا مما كان في الفتاة من جدٍّ. لم يكن في وجهها أثر لسخرية أو

«شيطنة»، بينما كان المرح والابتسام العنيد لا يفارقانها قبل ذلك أبداً حتى في «أخطر» اللحظات.

- ثمة لحظات يحب فيها البشر الجريمة. قال إيليوشا مفكراً.

- صحيح صحيح. هذا هو تماماً. لقد عبّرت عن تفكيري نفسه. البشر يحبون الجريمة. جميع البشر يحبون الجريمة. يحبونها دائماً، لا في بعض «اللحظات» فحسب. وكأن هناك اتفاقاً عاماً بين الناس على الكذب في هذا الأمر. ما من أحد يحب أن يكون صادقاً مخلصاً في هذه النقطة. جميعهم يؤكدون أنهم يكرهون الشر، مع أنهم يحبونه في سريرة أنفسهم.

- أما تزالين تقرأين كتباً سيئة؟

- نعم، أمي تقرأها، وتخفيها تحت وسادتها. ومن هناك أسرقها.

- ألا تخجلين أن تدمِّري نفسك هكذا؟

- أحب أن أدمر نفسي، في هذه المدينة فتى نام تحت خطَّي السكة الحديد ومرَّ القطار فوقه. إنني أغبط هذا الفتى وأحسده على سعادته. أنظر مثلاً: سيحكمون غداً على أخيك لأنه قتل أباه، والناس جميعاً يستحسنون أنه قتله.

- الناس جميعاً يستحسنون أنه قتل أباه؟

- هم يحبون ذلك، يحبونه! صحيح أنهم يصيحون قائلين إن ذلك فظيع، ولكنهم في قرارة أنفسهم مفتونون. وأنا نفسي مفتونة، أنا أول المفتونين.

- هناك جانب من حق فيما ذكرته عن مشاعر الناس وعواطفهم. قال إيليوشا بهدوء.

صاحت ليزا بصوت فيه كثير من الحماسة:

- ما هذه الأفكار التي تحملها؟ من الذي يصدق أن راهباً هو الذي يقول هذا الكلام؟ لا تستطيع أن تتصور يا إيليوشا مدى ما أكنه لك من احترام لأنك لا تكذب أبداً. اسمع: يجب أن أروي لك حلماً مضحكاً أراه في بعض الأحيان. إنني أرى في الحلم شياطين. أكون في الليل وحدي مع شمعة في الغرفة، وفجأةً تبرز الشياطين من جميع الزوايا. إنهم في كل مكان، حتى تحت الطاولة. ها هم يفتحون الباب، وها أنا ذا أرى أن في الخارج منهم مجموعة كبيرة أيضاً. إنهم يريدون أن يدخلوا ليقبضوا عليَّ. لقد اقتربوا ومدُّوا مخالبهم. وأرسم إشارة الصليب فإذا هم يتراجعون جميعاً وقد استولى عليهم الخوف. ولكنهم لا ينصرفون، بل يختبئون قرب الأبواب وفي زوايا الغرفة، كأنهم ينتظرون. وأشعر عندئذ برغبة قوية في أن أشتم الله بصوت عالٍ. وأبدأ بشتمه، فإذا بالشياطين يقتربون مني، فرحين، يقبضون عليَّ. وأنا أعيد رسم إشارة الصليب مرة أخرى، فيتراجعون مذعورين. ذلك أمر أبلغ من الضحك له أن أنفاسي تنقطع في بعض الأحيان.

- أنا أيضاً أرى هذا الحلم أحياناً. قال إيليوشا.

- صحيح؟ صاحت ليزا بدهشة. لا تمزح يا إيليوشا، رجاءً، لأن ما أقوله جدّ لا مزاح. هل يمكن أن يرى شخصان اثنان حلماً واحداً بعينه؟

- يمكن جداً، نعم!

- إيليوشا، أعيد القول: هذا أمر هام جداً. تابعت ليزا. ليس الحلم نفسه هو الذي يدهشني، وإنما يدهشني أن ترى أنت في الحلم ما أرى أنا. أنت لا تكذب عليَّ أبداً، فقل لي الحقيقة هذه المرة أيضاً: أصحيح ما قلته الآن؟ ألم تكن مازحاً؟

- إيليوشا، زرني كثيراً، زرني أكثر مما تزورني الآن. قالت ليزا بتوسُّل.

- سأزورك دائماً، سأزورك طوال حياتي. قال إيليوشا بلهجة جازمة.

عادت ليزا تقول:

- أنت الإنسان الوحيد الذي أفتح له قلبي هكذا. أنا لا أتكلم بصدق إلّا معك. أنت الإنسان الوحيد الذي لي ثقة به في هذا العالم. أحب أن أتحدث إليك أكثر مما أن أتحدث إلى نفسي أيضاً. زد على ذلك أنني لا أخجل منك إطلاقاً يا إيليوشا. لماذا لا أخجل أبداً؟ هل صحيح يا إيليوشا أن اليهود يسرقون الأطفال ليذبحوهم في عيد الشكر؟

- لست أدري.

- عندي كتاب يصف محاكمة يهودي يقال إنه قطع أصابع يدي طفل صغير في الرابعة من عمره، ثم صلبه على جدار، ودق مسامير في يديه. وقد أكد أمام المحكمة أن الصبي الصغير مات بسرعة، بعد أربع ساعات. هذا سريع حقاً! ويقال إن الصبي استمر يئن بدون توقف، وكان اليهودي ينظر إليه متمتعاً بالمشهد. ما أجمل هذا!

- أهذا جميل؟

- نعم، جميل. أقول لنفسي في بعض الأحيان إنني أنا التي صلبت هذا الطفل. أراه معلقاً يئن، وأرى نفسي جالسةً أمامه آكل الأناناس بالسكر. أنا أحب الأناناس كثيراً. وأنت؟

كان إيليوشا ينظر إليها صامتاً. وهذا وجه ليزا الشاحب الأصفر ينقبض فجأة، وهذا لهب يطوف بعينيها.

- عندما قرأت تلك القصة عن اليهودي، رحت أبكي طوال الليل، هل تعلم؟ كنت أتخيل صرخات الطفل وأنّاته (إن طفلاً في الرابعة من عمره يدرك كل ما يحدث له)، ثم لا أزيد أنا على أن أحلم بالأناناس. فلما انبلج الصبح بعثت برسالة إلى أحدهم أطلب إليه أن يجيئني حتماً. جاء. قصصت عليه حكاية الطفل والأناناس. قلت له كل شيء، كل شيء، وأضفت: «هل هذا جميل». فانفجر في قهقهة صاخبة، وأعلن أن هذا جميل جداً في الواقع، ثم نهض وانصرف. لم يمكث عندي إلّا خمس دقائق. احتقرني، هه؟ قل لي يا إيليوشا: هل هو احتقرني أم لا؟

هكذا صاحت ليزا وهي تنتصب على كرسيها المتحرك، وقد لمعت عيناها ببريق ساطع.

- قولي: هل أنت التي استدعيته؟ قاطعها إيليوشا يسألها وقد اضطرب بشدة.

- أنا التي استدعيته.

- برسالة؟

- نعم، برسالة.

- ألكي تسأليه عن أمر ذلك الطفل؟

- لا، ليس من أجل هذا، ليس من أجل هذا أبداً. ولكن حين دخل غرفتي أسرعت أطرح عليه سؤالاً عن موضوع الطفل. فأجابني ضاحكاً، ثم نهض وخرج.

- لقد أحسن التصرف معك. قال إيليوشا في رفق.

- ولكنه احتقرني، أليس كذلك؟ لقد سخر مني؟

- لا، لأن من الجائز جداً أن يكون هو نفسه مقتنعاً بمزايا الأناناس. إنه مريض جداً يا ليزا، هو أيضاً.

- نعم، هو مقتنع بذلك. قالت ليزا وقد التمعت عيناها.

وتابع إيليوشا كلامه:

- إنه لا يحتقر أحداً، ولكنه لا يؤمن بأحد أيضاً. ومتى لم يؤمن بأحد فلا بد أن يحتقر في آخر الأمر حتماً.

- وأن يحتقرني أنا إذن أيضاً؟ أيحتقرني أنا أيضاً؟

- أنت أيضاً.

- حسناً. قالت ليزا وهي تصرف على أسنانها. عندما خرج من منزلي ضاحكاً أحسست أن من الممتع للمرء أن يحسّ بأنه محتقر. إن الطفل المقطوع الأصابع شيء رائع؛ وجميل جداً أن يُحتقر المرء...

وانطلقت ليزا تضحك ضحكاً مجلجلاً وهي تحدِّق إلى إيليوشا في عينيه، وصاحت وهي تنتصب على كرسيها وتطوّقه بذراعيها بقوة:

- هل تعلم يا إيليوشا؟ هل تعلم؟ أود لو... أنقذني يا إيليوشا!

ثم كررت بصوت شبيه بالأنين:

- أنقذني يا إيليوشا. من الذي كان يمكنني أن أفضي إليه بما قلته لك اليوم؟ وما اعترفت لك به كان هو الحقيقة، كان هو الحقيقة صافية. أوه! سوف أقتل نفسي، لأنني أشمئز من كل شيء. أصبحت لا أريد أن أعيش، لأني سئمت كل شيء. لقد سئمت. لقد ضجرت. كل شيء يثير في نفسي الكره. إيليوشا، لماذا لا تحبني؟ أنت لا تحبني.

بهذا أنهت ليزا كلامها جائشة النفس. فقال إيليوشا محتجاً بحرارة.

- بل أنا أحبك.

- أفسوف تبكي عليَّ؟

- نعم.

- لا أريد أن تبكي عليَّ لأنني رفضت أن أتزوجك، ولكنني أريد أن تبكي عليَّ لغير سبب، هكذا، هل تفهم؟

- نعم.

- شكراً. أنا ظمأى إلى أقوالك. أما الآخرون فليحكموا عليَّ، وليدينوني، ليسحقوني جميعاً، جميعاً، دون استثناء أحد. لأنني لا أحبّ أحداً. هل سمعت؟ لا أحب أحداً، لا أحب أحداً أبداً. إنني أكرههم كلهم. ثم أضافت وهي تتركه فجأة: واذهب الآن يا إيليوشا. لقد آن أن تذهب إلى أخيك.

- كيف أتركك وأنت في هذه الحالة؟ أجاب إيليوشا مذعوراً.

- اذهب إلى أخيك. سوف يغلقون السجن بعد قليل. أسرع. إليك قبعتك. قبِّل ميتيا. انصرف. انصرف الآن.

قالت ليزا ذلك ودفعته إلى خارج الغرفة دفعاً يشبه أن يكون إخراجاً بالقوة. فكان إيليوشا ينظر إليها بدهشة وبألم، ثم إذا هو يشعر فجأة بأن ورقة مطوية توضع في يده اليمنى. إنها رسالة مغلقة صغيرة. ألقى نظرة على العنوان فقرأ: «إلى إيڤان فيودوروفتش كارامازوف». فشخص بنظره إلى ليزا بقوة، ولكن وجه الفتاة كان يعبر عندئذ عن معنى يكاد يكون تهديداً. وأمرته بصوت مندفع، وهي ترتجف من رأسها إلى قدمها:

- أعطه هذه الرسالة، أعطِهِ إياها حتماً، أعطه إياها اليوم، فوراً. وإلّا شربتُ سماً. من أجل هذا استدعيتك.

وأغلقت الباب بسرعة. وسُمع صوت المزلاج. وضع إيليوشا الرسالة في جيبه، وهبط السلّم دون أن يمر بالسيدة خوخلاكوفا التي كان قد نسي أنها موجودة. فما إن ابتعد حتى سحبت ليزا المزلاج مجدداً، وشقت الباب قليلاً، فأدخلت إصبعها في الشق، ثم عادت تغلق الباب بحركة مفاجئة. انقضت عشر ثوان أخرجت ليزا بعدها إصبعها واتجهت تجلس على أحد المقاعد بخطى بطيئة. جلست على المقعد منتصبة القامة تماماً، وأخذت تتفرس في إصبعها التي اسودت وفي الدم الذي تفجر تحت ظفرها. كانت شفتاها تختلجان، وتمتمت تقول مراراً بسرعة:

- شريرة، شريرة، شريرة، شريرة!

IV

النشيد والسرّ

كان الوقت متأخراً (نهارات تشرين الأول طويلة؟) عندما طرق إيليوشا باب السجن. كان قد بدأ الليل بالهبوط. ولكن إيليوشا كان يعرف أنهم لن يضعوا عقبات في سبيل دخوله عند ميتيا. كان كل شيء، في مدينتنا الصغيرة، يجري كما تجري الأمور في أي مكان آخر. فبعد الآونة الأولى التي أعقبت الاعتقال، وبعد التحقيق التمهيدي، كان الوصول إلى السجن صعباً، وكان على الأهل أو الأصدقاء الذين يرغبون في رؤية السجين أن يقوموا ببعض الإجراءات الرسمية. ولئن لم تهمَل هذه الأنظمة بعد ذلك، فقد استُثنى منها عدد من الأشخاص. حتى لقد أصبح يُسمح لميتيا في بعض الأحيان أن يكلم زواره في غرفة المقابلات دون رقيب. على أن يكون عدد هؤلاء المستثنين محدوداً. إنهم: غروشنكا، وإيليوشا، وراكيتين. لكن غروشنكا كانت تحظى من رئيس الشرطة ميشيل ماكاروفتش بعطف خاص. كان هذا العجوز يريد إصلاح خطأه الذي اقترفه حين شتمها في موكرويه. وحين عرف حقيقة الأمر فيما بعد، غيَّر رأيه فيها. ومن غريب الأمور أنه على بقائه مقتنعاً بجزم بارتكاب ميتيا الجريمة، قد رقَّ لميتيا شيئاً فشيئاً منذ اعتقاله، وكان يقول لنفسه: «إنه رجل طيب تفيض نفسه خيراً، ولكن السكر والاضطراب النفسي قد أوصلاه إلى الهلاك!». إن نوعاً من الشفقة قد حلَّ في نفس رئيس الشرطة محل الكراهية التي أحس بها في بادئ الأمر. وأما إيليوشا، الذي يعرفه رئيس الشرطة منذ مدة طويلة فقد كان يحبه كثيراً. وأما راكيتين الذي أخذ يزور ميتيا في سجنه كثيراً منذ زمن، فقد كان على علاقات طيبة متصلة «بآنسات رئيس الشرطة»، كما كان يسميهن، وكان يتواجد في منزل رئيس الشرطة كل يوم تقريباً. بالإضافة إلى أنه كان يعطي دروساً لأولاد مفتش السجن، وهو عجوز لطيف، ولكنه متشدد في القيام بواجبه لا تلين له قناة. وكان إيليوشا، هو أيضاً، على صلة وثيقة بهذا المفتش، فهو يعرفه منذ مدة طويلة، وكان المفتش يحب أن يتحدث معه في «شؤون مقدسة». أما إيڤان فيودوروفتش فكان المفتش يحترمه بل ويخشاه، ويهاب قوة فكره خاصة، رغم أنه كان يعتبر نفسه فيلسوفاً، ويتباهى بأنه «يفكر تفكيراً حراً». وفي مقابل ذلك، كان المفتش يشعر نحو إيليوشا بمحبة لا تقاوم. لقد بدأ أثناء هذه السنة الأخيرة بدراسة الأناجيل المزيفة، فكان ما ينفك يطلع صديقه الشاب على ما يجول في ذهنه من أفكار. حتى لقد كان في الماضي يسعى إليه في الدير، يناقش الرهبان ساعات. جملة القول إنه لم يكن على إيليوشا حين يصل إلى السجن متأخراً إلّا أن يذهب إلى مفتش السجن، فإذا بكل شيء يجري على ما يرام. أضف إلى ذلك أن جميع موظفي السجن حتى أصغر حارس، كانوا قد ألفوا إيليوشا. والموظف لا يضع العقبات متى كانت السلطات تغمض أعينها. وكان ميتيا يخرج من زنزانته متى نودي، وينزل إلى القاعة التي تتخذ مكاناً للمقابلة. فلما دخل إيليوشا هذه الغرفة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام راكيتين الذي يتهيأ للانصراف. كان راكيتين يتحدث بصوت عالٍ إلى ميتيا الذي يشيِّعه ضاحكاً بينما راكيتين يتذمر. إن راكيتين قد أصبح، في الأيام الأخيرة، يمتعض من لقاء إيليوشا، ويتجنب أن يكلمه، ولا يحييه إلّا على مضض، فلما رأى إيليوشا في هذه المرة، قطب حاجبيه وأشاح عينيه، متظاهراً بانهماكه في عقد أزرار معطفه الشتوي ذي الياقة الفرائية، ثم ينهمك بعد ذلك في البحث عن مظلته.

- أرجو ألّا أنسى شيئاً يخصني. ودمدم كي يقول شيئاً ما.

- إياك أن تنسى خصوصاً أمور غيرك! أجابه ميتيا مازحاً.

وأسرع يضحك من كلمته هو.

- أسدِ هذه النصيحة إلى ذويك آل كارامازوف، لا إلى راكيتين، أيها المستغلون! صاح فجأة بغضب.

- ماذا دهاك؟ أنا كنت مازحاً. أجابه ميتيا: لعن الله الشيطان. ثم أضاف يخاطب إيليوشا، مشيراً برأسه إلى راكيتين الذي كان يبتعد مسرعاً: هم جميعاً كذلك. لقد كان هنا مرحاً صافي المزاج، فإذا هو يغضب الآن فجأة. لقد رفض أن يحيّيك حتى بإيماءة. هل أنتما متخاصمان؟ لقد تأخرت اليوم، وأنا أنتظرك نافدَ الصبر منذ الصباح. لا بأس، سنتدارك ما فات.

- لماذا يزورك هذا كثيراً؟ هل توثقت الصداقة بينك وبينه؟ سأله إيليوشا وهو يشير بعينه إلى الجهة التي خرج منها راكيتين:

- وهل يمكن أن تتوثق الصداقة بيني وبين ميشيل؟ لا... هذا وغد حقير. هو يظن أنني شقي مسكين. ثم إنه لا يفهم المزاح، ذلك ما يغيظني منه أكثر. فهو لا يملك روح الفكاهة. نفسه واحدة حزينة كجدران هذا السجن كما رأيتُها حين وصلتُ إلى هنا. ولكنه في مقابل ذلك رجل ذكي. هيه يا ألكسي، ها أنا ذا قد تعبت الآن!

قال ميتيا ذلك ثم جلس على دكة وأجلس إيليوشا إلى جانبه. قال إيليوشا خجلاً:

- نعم، سيُحكم عليك غداً. ولكن ألم يبقَ لك أي أمل فعلاً يا أخي؟

- ماذا تقصد؟ قال ميتيا وهو يلقي على أخيه نظرة غامضة. فهمت... تقصد تلك المحاكمة! ولكن هذه القصة لا تعنيني. إننا لم نتحدث حتى الآن إلّا في تفاهات، كهذه المحاكمة التي تبدأ غداً، وقد سكتُّ أمامك عن المسائل الأساسية حتى الآن. صحيح أنني سيُحكم عليَّ غداً، ولكن ليس هذا ما جعلني أقول إنني هلكت. ليس رأسي هو الذي يتهدده الخطر حتى الآن، بل ما في داخل رأسي. لماذا تنظر إليَّ نظرة استياء؟

- إنني لا أفهم قصدك يا ميتيا.

- أقصد أفكاري، أقصد «الإيطيقا». ماذا تعني هذه الكلمة: «الإيطيقا»؟ سأله إيليوشا بدهشة:

- نعم. ذلك نوع من العلم فيما يبدو.

- نعم، هناك علم يسمى بهذا الاسم... ولكن... أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أشرح لك ما هو هذا العلم.

- أما راكيتين فيعرف ما هو هذا العلم. إن راكيتين هذا يعرف أشياء كثيرة. لعنه الله. إنه لن يصبح راهباً. فهو يفكر في الذهاب إلى سان بطرسبورغ، ويأمل أن يمارس هنالك عمل النقد، ولكن في اتجاه أخلاقي رفيع. على كل حال، قد يكون مفيداً في هذا المجال، وقد يصبح شخصاً مرموقاً في الوقت نفسه. إنه رجل ماكر يعرف كيف يدبر أموره. هل تعلم أنني هلكت يا ألكسي، يا رجلاً تقياً من رجال الله! إنني أحبك أكثر مما أحب سائر الناس. إن

قلبي يتألم حين أفكر فيك. من ذلك العالم الذي يسمى كارل برنار؟

- كارل برنار؟ سأله إيليوشا مدهوشاً.

- لا، ليس كارل، لقد أخطأت. لحظة. أقصد كلود برنار. من كلود برنار هذا؟ لعله كيميائي؟

- هو عالم من العلماء. أجاب إيليوشا. ولكن أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أقول أشياء كثيرة عنه. لقد سمعت أنه عالم، ولكن لا أعرف في أي ميدان من ميادين العلم.

- طيب، لعنه الله. استأنف ميتيا كلامه قائلاً: أنا أيضاً لست أدري. لعله واحد من أولئك الأشقياء الذين كثر عددهم في أيامنا هذه. أما راكيتين فسيعرف كيف يشق طريقه وينجح. إنه يحسن التسلل إلى كل مكان. هو في نوعه برنار آخر. أوه! ما أكثر الذين يمكن أن يسموا برنار في هذا العالم الآن!

- هلّا قلت لي ماذا دهاك؟ سأله إيليوشا ملحاً.

- إنه ينوي أن يكتب مقالاً عني، عن قضيتي، فيكون ذلك بداية نشاطه الأدبي. ولهذا الغرض يزورني. لقد شرح لي هو نفسه ذلك. إنه يرجو أن يكتب مقالةً يتناول فيها بعض الآراء الأخلاقية، كأن يقول، إذا صدق فهمي: «ما كان يمكنه إلّا أن يقتل، لأن بيئته قد أفسدته». وسيعبر عن معان أخرى من هذا القبيل، وسيصبغ ذلك كله بلون اشتراكي فيما يقول. شيطان يأخذه. وليقل ما يشاء، وليصبغ ما يقوله بما يحب أن يصبغه به. فذلك كله لا يعنيني في شيء. إنه لا يحب أخانا إيفان بل يكرهه. وليست عاطفته نحوك خيراً من عاطفته نحو إيفان. أما أنا فأحتمل زياراته لأنه رجل ذكي. ولكنه مع ذلك مغرور. قلت له منذ لحظات: ليس آل كارامازوف أشقياء، بل هم فلاسفة، لأن جميع الروس الحقيقيين فلاسفة. أما أنت فإنك لم تصبح فيلسوفاً رغم جميع دراساتك، لأنك لست إلّا فلاحاً. وقد ضحك بخبثٍ حين سمعني أقول هذا الكلام. فأضفت عندئذ: «لا جدال في الآراء» نكتة حلوة، هه؟ أنا أيضاً أستطيع أن أكون كلاسيكياً إذا أردت.

بهذا ختم ميتيا كلامه وهو ينفجر ضاحكاً.

- لماذا تقدِّر أنك هالك؟ لماذا قلت هذا الكلام منذ هنيهة؟ قاطعه إيليوشا سائلاً.

- لماذا أنا هالك؟ الواقع... إذا أردت أن أقول الحقيقة، إنني آسف على الله! هذا هو الأمر!

- آسف على الله؟ كيف؟

- تصوّر: أن هناك أعصاباً في موضع من الرأس. أقصد في الدماغ. هذه الأعصاب. والأعصاب ألياف، فحين تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز، أقصد يكفي أن أنظر إلى شيء من الأشياء بعيني حتى تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز حالاً... ومتى اهتزت الألياف تكونت صورة، لا على الفور، بل بعد لحظة... تنقضي دقيقة فتحدث لحظة، ليس لحظة. الشيطان يأخذ اللحظة! أقصد تحدث صورة، أي يحدث شيء أو فعل... الشيطان يأخذهما! فذلك هو السبب في أنني أدرك ثم أفكر. ليس السبب أن لي نفساً، وأنني خلقت على صورة الله. سخافات هذه الأفكار كلها! لقد شرح لي ميخائيل كل شيء أمس، فشعرت بما يشبه الحرق في قلبي. العلم شيء رائع يا إيليوشا! هي إنسانية جديدة ستولد. إنني أدرك الآن هذا إدراكاً تاماً. ولكنني مع ذلك آسف على الله.

- أنت آسف على الأقل. هذا وحده شيء ذو بال. قال إيليوشا.

- أن أكون آسفاً على الله؟ هي الكيمياء يا أخي، الكيمياء! لا حيلة لك يا محترم، الكيمياء تتقدم، تنحَّوا، إفسحوا المكان، إفسحوا المكان! أما راكيتين هذا فإنه لا يحب الله! هو لا يحبه. ذلك ضعفهم جميعاً على كل حال. ولكنهم يكتمونه. إنهم يكذبون. إنهم يمثلون. سألته: «استعرض هذه الأفكار في مقالات نقدية؟» فأجابني ضاحكاً: «لن يُسمح لي بذلك، هذا مؤكد»، فسألته بعد ذلك: «ولكن كيف سيحيا الإنسان، بغير الله، وبغير حياة آخرة؟ هل نستنتج من هذا أن كل شيء سيكون مباحاً بعد الآن، وأن في وسع الإنسان أن يفعل ما يشاء؟»، فأجابني ضاحكاً مجدداً: «هل كنت لا تعرف هذا إذن؟» ثم أضاف قائلاً: «إن الإنسان الذكي يمكنه أن يسمح لنفسه بكل شيء، لأنه سيتمكن دائماً أن يدبر أمره ويخرج من مأزقه، أما أنت فقد قتلت ثم سمحت لهم بأن يلقوا القبض عليك. ولذلك تتعفن الآن في زنزانة». ذلك ما قاله لي، لي أنا. هذا خنزير قذر حقاً! هؤلاء الأوغاد، كنت فيما مضى أطردهم. أما الآن، فأنا أصغي إليه، أسمع له. إن في ما يقوله كثيراً من الأشياء المنطقية. وهو عدا هذا يجيد الكتابة. في الأسبوع الماضي، بدأ يقرأ عليَّ إحدى مقالاته. فسجلت ثلاثة أسطر منها عمداً. لحظة. إليك ما سجلته.

وأسرع ميتيا فسحب من جيب صِداره ورقة وقرأ:

«من أجل أن يكون المرء قادراً على أن يحل هذه المشكلة، يجب عليه أولاً أن يضع شخصه في تعارض مع واقع حياته.». هل تفهم معنى هذا؟

- لا، لا أفهم. قال إيليوشا الذي كان يتأمل ميتيا بدهشة.

- وأنا أيضاً لا أفهم. إن هذه الجملة مبهمة جداً، ولكنها تبدو لي عميقة. وقد أسرَّ إليَّ «أن جميع الناس يكتبون اليوم بهذه الطريقة. فالبيئة هي التي تفرضها... إنهم يخافون البيئة.». وهو ينظم قصائد، هذا الوغد. لقد تغنى بقدم خوخلاكوفا، هاهاها.

- أعرف ذلك. قال إيليوشا.

- ذكر لك هذا؟ هل قُرئت لك تلك الأبيات؟

- لا.

- هي عندي. سأقرأها لك. أنت لا تعرف ذلك، لم أخبرك به. هذه حكاية طويلة، سأقصها عليك. يا للوغد! منذ ثلاثة أسابيع فكَّر في أن يغيظني. قال لي: «ما أغباك! أنت ضيعت نفسك في سبيل ثلاثة آلاف روبل فقط. أما أنا فسأجني مئة وخمسين ألف روبل، سوف أتزوج أرملة غنية. وبعد ذلك أشتري منزلاً جميلاً من حجر، في سان بطرسبورغ.». وأسرَّ إليَّ عندئذ أنه يغازل السيدة خوخلاكوفا، التي لم تكن ذكية حتى في ريعان صباها، ثم لم يبقَ لها شيء من فطنة حين بلغت الأربعين من عمرها. وأضاف قوله: «وهي فوق ذلك حساسة عاطفية، ومن هنا سآتيها. سوف أتزوجها، وآخذها إلى سان بطرسبورغ، فأنشىء هنالك جريدة.». وكانت تطوف على شفتيه ابتسامة شبقة وهو يقول لي هذا الكلام، ولكن لا بسبب خوخلاكوفا طبعاً، لأن خيال المئة وخمسين ألف روبل هو الذي كان يُسيل لعابه. ومنذ ذلك الحين أصبح يسرُّ إليَّ كل يوم بأشياء جديدة، قائلاً: «إن الأمور تسير بصورة جيدة!»، ويشرق وجهه فرحاً أثناء ذلك. ولكن ها هو يُطرد فجأةً من منزل السيدة خوخلاكوفا. لقد غلبه بيوتر إيلتش وانتصر عليه. مرحى! وددت لو أقبل تلك الحمقاء لأنها استطاعت طرده من منزلها. في فترة حماسته إنما نظم تلك القصيدة. وقد اعترف لي قائلاً: «تلك أول مرة أغض فيها من قيمتي فأرضى أن أنظم شعراً. لقد ارتضيت ذلك لأغوي امرأة

حمقاء غبية في سبيل عمل عظيم أريد إنجازه. فمتى استوليت على أموال هذه البقرة العجوز، استطعت أن أكون بعد ذلك مفيداً للمجتمع». إن هؤلاء الناس يجدون في جميع الأحيان عذراً يسوِّغون به حقاراتهم ودناءتهم، هو عذر المنفعة الاجتماعية. وقد قال لي: «ومع ذلك صنعت خيراً مما صنع صاحبكم بوشكين، لأنني استطعت أن أودع حزناً وطنياً عظيماً في بضعة أبيات شعرية صغيرة هي في ظاهرها سارة مرحة». على أن ما يقوله عن بوشكين يبدو لي معقولاً. فما دام ذلك الشاعر يملك موهبة عظيمة حقاً، فإنه ما كان له أن يقتصر على التغني بأقدام صغيرة جميلة! وما كان أشد اعتزاز راكيتين بتلك الأشعار التي نظمها! هؤلاء الشعراء جميعاً! إن العنوان الذي تخيله هذا «الفيلسوف الوضيع» لقصيدته هو التالي: «لشفاء قدم المحبوب الصغيرة».

هذه القدم، آه من هذه القدم

قيل لنا إنها مريضة

الأطباء حولها منهمكون

ليضمدوها بحب وحنان

أكيد، هذه القدم تقلقني

لكن بوشكين هو الشاعر.

لكنني أشكو من الرأس

شعرنا بوجود بادرة.

حين تمردت القدم فأوقفتها!

فلتشفَ القدم

كي يعود الرأس إلى طبيعته.

إنه وغد، وغد حقاً، ولكن أشعاره مرحة. ثم إن فيها «فكرة وطنية»، كما يقول. لقد غضب حين طُرد. كان يصرف بأسنانه من شدة الغضب!

قال إيليوشا: لقد انتقم منذ الآن. نشر مقالة عن السيدة خوخلاكوفا.

وروى إيليوشا على ميتيا بسرعة، قصة المقالة التي نشرت في جريدة «الشائعات». فقال ميتيا مؤيداً وهو يقطب حاجبيه:

- إنه هو، إنه هو! هو كاتب المقالة. ليس في ذلك شك! آه من تلك الأقاويل! أنا على علم... ما أكثر ما نشروا من تفاهات حقيرة حتى الآن، عن غروشنكا مثلاً! وعن الأخرى أيضاً، عن كاتيا... هِمْ!

وأخذ يمشي في الغرفة مهموم البال.

- لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة هذا المساء يا أخي. تابع إيليوشا بعد صمت: إن غداً ليوم رهيب بالنسبة إليك: غداً تتم إرادة الله... يدهشني مع ذلك أنك في عشية ذلك الغد تضيع وقتك في الكلام على تفاهات...

- لا يدهشنك هذا. قاطعه ميتيا بحرارة. أتُراك تؤثر أن أتكلم على ذلك الشقي العفن النتن، على القاتل؟ لقد سبق أن تكلمنا عليه، وأسرفنا في الكلام. لا أريد أن أسمع بعد الآن شيئاً عن سمردياكوف، النتن ابن المومس، لسوف يعاقبه الله، سوف ترى.

واقترب من إيليوشا وقد تملكه اضطراب شديد، وقبّله. كانت عيناه تسطعان. وأخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج عن طوره:

- لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا، أما أنت فسوف تفهمه. ومن أجل ذلك كنت أنتظر أن أراك. هل تعلم أنني، منذ زمن طويل، أريد أن أكلمك في أشياء كثيرة، هنا، بين هذه الجدران المتقشرة، ولكنني لم أعالج النقطة الأساسية حتى الآن؟ يبدو أنه لم يكن قد آن لي أن أبوح إليك بكل ما في نفسي بعد. لقد انتظرت، انتظرت إلى آخر لحظة، لأفتح لك قلبي. أخي، أخي، إنني في أثناء هذين الشهرين الأخيرين، أصبحت إنساناً آخر. لقد وُلد فيَّ كائن جديد. الحق أنه كان موجوداً فيَّ منذ الأزل، ولكن ما كان له أن يظهر لولا تلك الكارثة. شيء رهيب! إنني لا أخشى أن أعمل في المناجم عشرين عاماً. ذلك لا يهمني. هناك شيء آخر هو الذي أخشاه الآن. إنني أخشى أن يزول، من جديد، الإنسانُ الذي بُعث حياً في نفسي. يستطيع الإنسان أن يجد حتى في سجون الأشغال الشاقة، وفي جحيم المناجم، سجيناً آخر يخفق فيه قلب إنساني وإن يكن رجلاً قاتلاً. يستطيع المرء أن يصادقه، لأنه مباح للمرء هنالك أيضاً أن يعيش وأن يحب وأن يتألم! يستطيع المرء أن ينذر نفسه لذلك السجين، ليضرم في قلبه مرةً أخرى شعلة الحب التي أطفأها الظلم، يستطيع أن يحيطه بالعناية والحب والعطف خلال سنين، إلى أن تظهر أخيراً من ظلمات وجوده نفسٌ أحياها الألم وطهَّرها ونقَّاها وأسبغ عليها حلة النبل والكرم، فإذا هي تندفع بعد ذلك نحو النور والضياء. إن في وسعنا أن نحيي الملاك في الشيطان، وأن نبعث البطل في الجبان. إنهم كُثُر هنالك، أولئك الذين سقطوا؛ إنهم مئات ومئات، ونحن جميعاً مسؤولون عن مصيرهم. لماذا رأيت في حلمي «الطفل»، وأنا أجتاز من حياتي مرحلة تبلغ هذا المبلغ من ألم الفاجعة وعذاب المأساة؟ «لماذا يجب أن يتألم الطفل»؟ تلك إشارة من السماء نزلت عليَّ في ساعة المحنة القاسية. سأمضي إلى سجن الأشغال الشاقة من أجل ذلك الطفل. إن جميع البشر متضامنون في أخطائهم، وكل إنسان مسؤول عن آثام سائر الناس. «الطفل الصغير» يتعذب في سبيل الآخرين، لأن في هذا العالم أطفالاً منهم الصغار ومنهم الكبار. «الطفل الصغير» موجود في كل مكان. سأمضي في سبيل الآخرين، لأنه لا بد أن يكفر أحد عن الآخرين وأن يفتديهم. أنا لم أقتل أبي، ولكن من واجبي أن أضحي بنفسي. إنني أرضى ما كُتب عليَّ! هنا، في هذا السجن، أدركت هذه الأشياء كلها... هنا، بين هذه الجدران المتقشرة. إنهم كثيرون هناك، تحت الأرض، يحفرون في المنجم. صحيح أننا سنكون مكبلين بالأغلال، وصحيح أنهم سيحطمون إرادتنا. ولكن، هناك، في ذلك الألم الفظيع، سنبعث إلى الفرح، إلى الفرح الذي لا يمكن بدونه أن يحيا الإنسان، إلى الفرح الذي بدونه لا يوجد الله، لأن الله هو ينبوع الفرح، فتلك هي الخاصة التي ينفرد بها الله. رباه! ألا فليفنِ الإنسان نفسه في الصلاة! كيف يمكنني أن أعيش تحت الأرض بدون الله؟ إن راكيتين يكذب! وحين يطرد الله البشر من على سطح الأرض، سنهتدي إليه نحن في باطن الأرض، ونعود إليه. إن السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة لا يستطيع أن يحيا بدون الله، وهو أعجز عن ذلك من الإنسان الحر! وفي هذه اللحظة، نحن الذين نعيش تحت الأرض، سنغنّي من عمق أحشاء الأرض نشيداً حزيناً يمجد الخالق ينبوعَ السعادة والضياء. تبارك الرب، وتبارك فرحه! إنني أحبه!

كان ميتيا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات. كان قد اصفر وجهه، وتقبضت شفتاه بعصبية، وانهمرت من عينيه دموع. واستأنف كلامه يقول:

- لا، إن الحياة غنية، وهي موجودة تحت الأرض أيضاً. لا تستطيع أن تصدق يا

إيليوشا إلى أي حد أحب الآن أن أعيش، ولا تستطيع أن تتصور رغبتي القوية في أن أوجد وأن أعرف، لا تستطيع أن تتصور هذه الرغبة التي سيطرت علي وأنا بين هذه الجدران المتقشرة! لن يفهم راكيتين هذا في يوم من الأيام، لأنه لا يفكر إلّا في جمع المال، وبناء منزل كبير يؤجره ويتقاضى أجوره بانتظام. لذلك انتظرتك نافد الصبر. لا يهمني الألم. لن أخشى الألم بعد الآن مهما يكن عظيماً. كنت أخافه في الماضي، ولكنني أصبحت لا أخافه. هل تعلم أن من الجائز أن أرفض الإجابة أمام المحكمة؟ يخيَّل إليَّ في بعض الأحيان أن بي من القوة ما سوف يمكنني من تذليل جميع الصعوبات، والانتصار على كل المحن، لا لشيء إلّا أن أقول لنفسي في كل لحظة سعيداً: «أنا كائن، أنا موجود». لسوف أردد وأنا في العذاب الذي لا نهاية له: «أنا موجود». سأصرخ حين يتشنجني الألم: «أنا كائن». سأشعر إذا رُبطت بالعمود وشددت إليه، بأنني ما زلت أحيا، وسوف أرى الشمس. وإن لم أرها، فسوف أعرف على الأقل أن الشمس تشرق على العالم. أن تعرف أن الشمس تتلألأ فذلك هو الحياة كلها. إيليوشا، صغيري الحبيب، إن أفكارهم الفلسفية تقتلني، تعساً لهم! إن أخانا إيڤان...

- ما له، إيڤان؟ قاطعه إيليوشا:

ولكن ميتيا لم يسمع.

- كنت في الماضي أجهل جميع هذه الشكوك، ولكنها كانت موجودة في نفسي من دون علم مني. ولعلني لم أندفع في الشراب، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف إلّا لأن تلك المعاني كانت تلتهب في داخلي. ولكي أخنقها وأسحقها كنت أتخبط ذلك التخبط. إن أخانا إيڤان ليس مثل راكيتين. إنه يخفي في نفسه فكرة يكتمها سراً. إن أخانا إيڤان يشبه أبا الهول. إنه يصمت، يصمت دائماً. أما أنا فإن فكرة الله تعذبني، وهي عذابي الوحيد الحق. ما عسى أن يحدث إن لم يكن الله موجوداً؟ لنفرض أن راكيتين على حق، لنفرض أن الدين من صنع خيال الإنسان. إذا لم يوجد الله كان الإنسان هو سيد الأرض، ورئيس الكون! عظيم! ولكن كيف يكون هذا الإنسان صالحاً بدون الله؟ ذلك هو السؤال، وأنا لا أنفك ألقي على نفسي هذا السؤال. من الذي سيحبه الإنسان إذا لم يوجد الله؟ قل لي: إلى من سيندفع الإنسان بشكران روحه، ولمن سنغني أنشودة فرح؟ إن راكيتين يسخر من هذا كله. هو يرى أن الإنسان يمكنه أن يحب البشرية مستغنياً عن الله. لا يستطيع إلّا سخيف مثله أن يصدق هذا الكلام. أما أنا فلن أفهمه في يوم من الأيام. تبدو الحياة سهلةً لراكيتين. قال لي اليوم: «الأَوْلى بك أن تهتم الآن بازدياد الحرية في العالم، موسِّعاً حرية المواطن السياسية. فإذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد الجزارون أسعار اللحم. فبذلك تخدم الإنسانية خدمةً أصدق وأجدى مما تخدمها بهذه الفلسفات كلها.». أجبته قائلاً: «إنك إذا أنكرت الله، تنتهي إلى زيادة سعر اللحم أنت نفسك، فتربح بالكوبيك روبلاً». عندئذ غضب راكيتين. ما هي الفضيلة؟ اشرح لي الفضيلة يا ألكسي. أنا في ذهني فكرة عن الخير، ولكن الصيني في ذهنه فكرة أخرى مختلفة عن فكرتي أنا. فالخير فكرة نسبية، أليس كذلك؟ أليس الخير فكرة نسبية؟ هذه مشكلة مقلقة. لن تسخر مني، أنت على الأقل، إذا قلت لك إن هذه المشكلة قد أرّقتني ليلتين، فلم أستطع النوم. إنني أتساءل اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا في هذه المشكلة. إن إيڤان لا يؤمن بالله. إنه لا يؤمن إلّا بالأفكار. ذلك يفوق مستواي. ولكنه يصمت. أعتقد أنه ماسوني. سألته فلم أظفر منه بجواب. ملت إليه ميلي إلى نبع حقيقة لأروي ظمأي، ولكنه لم يجبني، مرةً واحدة، قال لي كلمة صغيرة فقط.

- ماذا قال؟ سأل إيليوشا مستعجلاً.

- سألته: «أكلُ شيء مباح إذن؟»، فقطب حاجبيه وقال: «كان أبونا فيودور باڤلوفتش رجلاً متهتكاً، ولكنه كان يفكر تفكيراً سليماً». ذلك كل ما قاله لي. لم يقل شيئاً آخر. على الأقل، هذا أوضح من ثرثرات راكيتين.

- حقاً؟ متى جاء إليك؟ قال إيليوشا بمرارة.

- سأحدثك عن هذه في مرة أخرى. أما الآن، فما حان الوقت بعد. أنا لم أكد أكلمك عن إيقان حتى هذه الساعة. أرجأت الحديث عنه إلى النهاية. فمتى انتهت القضية وصدر الحكم، سأقص عليك شيئاً. سأقول لك عندئذ كل شيء. هناك حكاية رهيبة. ستكون حكماً عليَّ في هذه المسألة. أما الآن فلا أريد أن تعالج هذا الموضوع. أعرف كيف تصمت بانتظار ذلك. كنت تكلمني منذ برهة على يوم الغد، على المحاكمة، فهل تصدِّق أنني لا أعرف شيئاً؟

- هل تكلمت مع ذلك المحامي؟

- المحامي؟ دعك من هذا! لقد أخبرته بكل شيء. إنه وغد لطيف من أوغاد العاصمة، إنه برنار! إلا أنه لا يصدِّق كلمة واحدة مما أقوله له. تصور أنه مقتنع بأنني أنا القاتل! أرى ذلك في نظرته إليَّ. سألته: «فلماذا توليت إذن مهمة الدفاع عني؟». إنني أسخر من هؤلاء الناس جميعاً. وقد استدعوا كذلك طبيباً، بهدف أن يزعموا للمحكمة أنني مجنون! أنا لا أحتمل ذلك، ولن أقبله! إن كاترينا إيڤانوفنا هي التي تعتقد أنها بذلك تقوم «بواجبها» حتى النهاية. لكنها ترغم ذاتها على ذلك، وتحمل نفسها عليه حملاً (قال ميتيا هذا وهو يبتسم بمرارة). إنها قطة، قاسية القلب! وهي تعرف ما قلت عنها من كلام في موكرويه، وتعرف أنني وصفتها بأنها امرأة «ذات غضب شديد». لقد نُقل إليها هذا الكلام. نعم، لقد تكاثرت الشهادات عليَّ حتى أصبحت لا تُعد ولا تُحصى. ما يزال غريغوري يتهمني. هو رجل شريف، لكنه غبي. ما أكثرالشرفاء عن غباوة! هذه فكرة عبَّر عنها راكيتين. لقد أصبح غريغوري عدوي اللدود. أصبح عدوِّي. وهناك أناس يؤثر المرء أن يكونوا أعداءه على أن يكونوا أصدقاءه. أقول هذا وأنا أقصد كاترينا إيڤانوفنا. أخشى، بصورة خاصة، أن تقصَّ على المحكمة حكاية تلك التحية الساجدة بعد دفع مبلغ الأربعة آلاف وخمسمئة روبل. إنها لن تعفيني من قصِّ هذه الحكاية، معتقدةً أنها بذلك تبرىء ذمتها تجاهي! آه... لسوف تمضي إلى نهاية الشوط... أنا أعرفها. ولكنني لا أريد تضحيتها هذه! سوف أشعر من ذلك بالعار أمام قضاتي. كيف يكون في إمكاني أن أحتمل هذا؟ اذهب إليها يا إيليوشا لتطلب إليها ألّا تروي هذه الحكاية على الناس. أتظن أن هذا مستحيل؟ لا بأس إذن. سيان عندي أن ترويها أو لا. سأرتضي مذعناً. أما هي فلا أشفق عليها ولا أرثي لحالها. هي التي أرادت ذلك. لن تنال إلّا ما تستحقه. وأما أنا يا ألكسي، فسوف أقول ما يجب أن يقال. اعرف هذا. (قال ميتيا ذلك وهو يبتسم ابتسامةً بمرارة مجدداً). ولكن... ولكن هناك غروشا، غروشا يا إلهي!... لماذا ينبغي لها أن تلقى عذاباً كهذا؟ صاح ميتيا والدموع في عينيه. إن غروشا تقتلني، يقتلني التفكير فيها، تقتلني! هذا يقتلني! لقد جاءت منذ فترة.

- حكت لي كل شيء. لقد أهنتها إهانةً شديدة.

- أعرف هذا. تباً لطبعي ما أرداه! لقد عذبتها بالغيرة. وحين ودَّعتها ندمت وقبّلتها ولكنني لم أستغفرها.

- لماذا لم تستغفرها؟ سأل إيليوشا.

- حماك الله يا فتاي الصغير من استغفار امرأة تحبها، على خطيئة ارتكبتَها فعلاً، لا سيما المرأة التي تحبها، التي تحبها، مهما تكن أخطاؤك في حقها، لأن النساء مخلوقات لا يعرف إلّا الشيطان ما في أنفسهنّ. أنا خبير في هذا على الأقل. حاول مرةً أن تعترف لها بأنك أخطأت في حقها، وأن تقول لها: «أنا مذنب، فسامحيني، سامحيني... لتسمعنَّ منها عندئذ سيلاً من ملامات. لن ترضى أبداً أن تسامحك ببساطة، بل سوف تذلّك وتخفضك إلى الأرض، معدِّدة جميع أخطائك، حتى تلك التي لم تقترفها. لن تنسى شيئاً، وستضخم كل

شيء، وستختلق أخطاءً جديدة عند الحاجة، وبعد ذلك فقط سترضى أن تسامحك. وخير النساء هنَّ اللواتي يسامحن على هذا الشكل. ولكنها ستفرغ أولاً أعماق أدراج أحقادها وتلقيها على رأسك. تلك هي قسوتهن المفترسة. هن جميعاً كذلك. اعلم هذا. كذلك خُلقن، من أولاهن إلى آخرهن، هؤلاء الملائكة اللواتي لا تستطيع أن تحيا بدونهن. سأطلعك بدون تكلُّف على حقيقة كبرى يا صغيري الطيب: إن كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت حذاء امرأة. ذلك هو اقتناعي العميق. بل هو أكثر من اقتناع: هو شعور عميق وعاطفة حميمة. إن على الرجل أن يكون كريماً، وهذا لن يحطَّ من قيمته أبداً، ولو كان قيصر. أما أن يستغفر، فكلّا ثم كلّا! يجب على الرجل ألّا يستغفر امرأة بحال من الأحوال. تذكر دائماً هذه القاعدة التي علمك إياها اليوم أخوك ميتيا، أخوك ميتيا الذي أوردته النساء موارد الهلاك. لا، لا، إنني أؤثر أن أصلح أخطائي في حق غروشنكا بطريقة أخرى، دون أن أطلب المغفرة. إنني أعظمها حقاً يا ألكسي، إنني أشعر نحوها بإعجاب لا حدود له. وهي تعرف ذلك مع الأسف، ثم ترى أنني لا أمحضها حباً كافياً. هي تعذبني بحبها. لم يكن هذا أمراً ذا بال في الماضي. كنت في الماضي لا أحبها إلّا بسبب منحنيات وخطوط جسمها الجهنمية. أما الآن فإن روحها هي التي نفذت في نفسي فصرنا روحاً واحدة. بها أصبحت كائناً بشرياً. هل يزوجوننا في السجن؟ إن لم يزوجونا فسأموت غيرةً. إنني كل يوم أحلم بأمور رهيبة... ماذا قالت لك عني؟

ردَّد له إيليوشا أقوال غروشنكا. أصغى ميتيا بانتباه شديد، وألقى على أخيه أسئلة كثيرة، وبقي راضياً فرحاً، وقال:

- هي إذن لا تحقد عليَّ لأنني غيور. تلك امرأة حقاً. قالت لك: «أنا قلبي قاسٍ»، أليس كذلك؟ إنني أحبهن، هؤلاء النساء القاسيات، رغم أنني لا أحتمل أن يعذبنني بالغيرة. إنني لا أحتمل هذا. سيكون بيننا شجار كثير، أنا وهي، ولكنني سأحبها حباً لا نهاية له. هل سيزوجوننا؟ هل يزوجون السجناء؟ تلك هي المسألة كلها. سوف يستحيل عليَّ أن أحيا بدونها...

سار ميتيا في الغرفة بضع خطوات مقطباً حاجبيه. وكان الظلام قد خيَّم أثناء ذلك. وفجأةً ظهر على ميتيا القلق، كأن فكرة ثقيلة قد هاجمته.

- قلت لك إن هذا سر بيننا؟ قالت إننا نحن الثلاثة قد دبرنا مؤامرة عليها بتحريض من «كاتكا»؟ لا يا عزيزتي غروشنكا! لقد أخطأت الظن. أخطأت الظن كما لا يجيد أن يخطئه إلّا النساء الحمقاوات! لا بأس يا إيليوشا، يا عزيزي الصغير، سأكشف لك عن سرّنا.

نظر ميتيا حواليه، ثم اقترب من إيليوشا حتى لامسه وأخذ يهمس في أذنه وقد بدت في وجهه معاني السر، رغم أن أحداً لا يستطيع في الواقع أن يسمعهما: فالعجوز غافٍ على دكة في إحدى زوايا الغرفة، والخفراء أبعد من أن يستطيعوا مباغتتهما أثناء الحديث.

- سأكشف لك عن سرنا. همس ميتيا. كنت أنوي أن أطلعك على هذا السر فيما بعد، لأنه كيف يمكنني اتخاذ قراري بدونك؟ أنت كل شيء في نظري. ومهما أقل إن إيفان يفوقنا، فأنت في نظري ملاك، ولقرارك وحده قيمة حقيقية. من يدري؟ لعلك أنت المتفوق لا إيفان. اسمع: إن المسألة مسألة ضمير، مسألة ضمير أخلاقي. هذا سرٌّ خطير جداً، وخطورته أنني لا أستطيع أن أحمله وحدي، ولا أن أنفرد باتخاذ قرار فيه. فأنا أعتمد عليك. على أن اتخاذ القرار لم يحن وقته بعد. وإنما يجب انتظار صدور الحكم. فمتى أصدرت المحكمة حكمها، كان عليك أن تقطع برأي في الأمر فتقرر مصيري. أما الآن فلا تقل شيئاً. سأشرح لك الموضوع، فتصغي إلى ما سأقوله لك دون أن تفصح عن رأي. عليك أن تصمت ولا تتحرك. لن أقول لك كل شيء اليوم. سأكشف لك عن مجمل الفكرة دون التفاصيل. عليك ألّا تقول

شيئاً، ألّا تنطق بكلمة: لا سؤال، ولا حركة! اتفقنا؟ ولكنني نسيت: هناك عيناك، فما أصنع بعينيك اللتين سأقرأ فيهما جوابك؟ آه من عينيك! إنني أخشى أن تقولا لي رأيك ولو سكت. اسمع يا إيليوشا: لقد اقترح عليَّ إيڤان «أن أهرب». لن أقصَّ عليك التفاصيل: لقد تصورنا كل شيء، وسيُدبِّر كل شيء. أسكت، لا تنطق بكلمة. سأسافر إلى أميركا مع غروشنكا. هل أستطيع أن أعيش بدونها؟ إنهم لن يستطيعوا منعها من اللحاق بي. هل يزوِّجون السجناء؟ إيڤان يؤكد أنهم لا يفعلون. فما عساي أن أفعل بدون غروشنكا، تحت الأرض، في المناجم، مع المطرقة؟ ولكن من جهة أخرى هناك الضمير. سأكون قد هربت من الألم. لقد تلقيت إشارة من السماء، فإذا هربت كنت أتجاهل هذه الاشارة، وأعرض عن طريق التطهر الذي فُتح أمامي. إيڤان يؤكد أنني سأستطيع أن أصبح في أميركا بالارادة الطيبة والعزيمة الصادقة أنفع مني في المناجم تحت الأرض. حسناً! ولكن أين يصبح النشيد الذي سننشده من تحت الأرض، إذا أنا سافرت إلى أميركا؟ إن أميركا هي العودة إلى هذا العالم الباطل. لا بد أن أميركا ملأى بأنواع الدناءة. أعتقد أن الأمر هنالك كذلك. هل أهرب من التكفير عن ذنوبي؟ هل أهرب من درب الصليب؟ إنني أفضي إليك بما في نفسي يا ألكسي، لأنك الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يفهمني. أما الآخرون فإن ما قلته لك في هذه اللحظة ليس في نظرهم إلّا حماقة وسخفاً. سيقولون إنني مجنون، أو إنني أبله. إن إيڤان يدرك، هو على الأقل، ماذا يعني ذلك النشيد، ولكنه لا يجيبني، بل يلزم الصمت. إنه لا يؤمن بالنشيد. لا تقل شيئاً! اسكت! اسكت! إنني أرى كيف تنظر إلي: لقد حسمت أمرك. لا تعلن هذا القرار، ارحمني، لأني لا أستطيع أن أعيش بدون غروشنكا. انتظر صدور الحكم!

أنهى ميتيا كلامه منقلبَ السحنة. كان يمسك إيليوشا من كتفه بقوة، ويوجّه إلى عيني أخيه نظرة ملتهبة مثقلةً.

- هل يزوِّجون السجناء؟ ردد للمرة الثالثة بصوت مستعطف.

أصغى إليه إيليوشا بدهشة عميقة، وأحس باضطراب شديد. وسأله:

- قل لي: هل يلح إيڤان على مشروع الهرب هذا؟ ومن الذي فكَّر في هذا المشروع أولاً؟

- هو الذي فكَّر فيه. وهومن يلح. لم يكن قد زارني قبل ذلك. ثم إذا به يجيء إليّ فجأة منذ أسبوع، فيتحدث معي عن مشروع الهرب هذا. إنه يلحُّ. هو لا يتوسل إليَّ، بل يأمرني. ولا يشك في أنني سأطيعه، رغم أنني فتحت له قلبي كما فتحته لك الآن، وحدثته عن النشيد. عرض لي خطته بالتفاصيل. لقد حصل على جميع المعلومات اللازمة. سأبسط لك هذا فيما بعد. إنه يلح. وهو يعرض عليَّ المال: عشرة آلاف روبل للهرب، وعشرين ألفاً للاستقرار في أميركا. يقول إننا نستطيع بالعشرة آلاف روبل أن ننظم أمر الهرب مطمئنين إلى النجاح.

- وهل طلب منك ألّا تحدثني في هذا الأمر؟ سأله إيليوشا.

- أمرني بألّا أقول كلمة واحدة لأي إنسان، وخصوصاً لك أنت، خاصةً لك أنت، بأية حال من الأحوال! وأظنّ أنه يخشى أن تعارض هذا المشروع باسم الوجدان الأخلاقي. لا تذكر له أنني أفضيت إليك بهذا السر. لا تقل له أي كلمة في هذا الشأن، أتوسل إليك!

- أنت على حق، قال إيليوشا. لا يمكن اتخاذ قرار من هذا النوع قبل صدور الحكم. فمتى أصدرت المحكمة حكمها، عرفتَ أنت نفسك ما الذي يجب أن تقوم به. سيكون قد وُلد فيك إنسان جديد، وهذا الأخير هو الذي سيقرر.

- إنسان جديد أو برنارٌ يقرر كما يمكن أن يقرر برنار! لعلني أنا نفسي واحد من أمثال برنار. بهذا ختم ميتيا كلامه وهو يبتسم بمرارة.

- لكن يا أخي، هل يمكن حقاً ألّا يكون لك أي أمل في تبرئتك؟ قال إيليوشا يسأل أخاه:

فرفع ميتيا كتفيه بحركة متشنجة، وهزَّ رأسه، وقال متعجلاً:

- إيليوشا، ملاكي، آن لك أن تنصرف. لقد سمعت الآن صوت المفتش في الفناء، وسيكون هنا بين لحظة وأخرى. تأخرنا كثيراً، وهذا يخالف النظام. قبِّلني بسرعة، وارسم عليَّ إشارة الصليب يا ملاكي. ارسم عليَّ إشارة الصليب لنازلة الغد...

تعانق الأخوان وقبَّل كل منهما الآخر.

- إن إيڤان، تمتم ميتيا يقترح عليَّ الهرب، ولكنه مقتنع بأنني القاتل.

ظهرت على شفتيه ابتسامة حزينة.

- لقد سألته، هل يعتقد أنك القاتل؟ سأله إيليوشا.

- لا، لم أسأله عن هذا. أردت أن أسأله، ولكنني لم أتجرأ. لكن لا داعي إلى سؤاله، لأنني أقرأ رأيه في عينيه. والآن أستودعك الله!

تعانق الأخوان وقبَّل كل منهما الآخر مرةً ثانية. وأسرع إيليوشا ينصرف. ولكن ميتيا ناداه، لحظةَ همَّ أن يخرج من الغرفة، وقال له وهو يمسكه من كتفيه:

- إيليوشا، أنظر جيداً إلى وجهي، هكذا!...

كان وجهه قد بلغ من الاصفرار أن منظره يبدو مخيفاً في الظلام. وتقبضت شفتاه، وغارت نظرته في عيني إيليوشا:

- إيليوشا، قل لي الحقيقة كاملةً كأن الله يسمع كلامك في هذه اللحظة. هل تعتقد أنني قتلت؟ هل تعتقد أنت، نعم أنت، أنني قتلت؟ أريد أن أعرف الحقيقة، لا تكذب، لا تكذب. صاح ميتيا خارجاً عن طوره.

- ما هذا الكلام؟ ما هذا الكلام؟ ماذا أصابك؟... تمتم إيليوشا زائغ النظر.

- قل الحقيقة، أريد الحقيقة، لا تكذب. ردّد ميتيا مجدداً.

فقال إيليوشا بصوت متهدج مرتجف:

- أنا لم يخطر على بالي لحظةً أنك قاتل.

كان الانفعال يخنقه، ورفع يده اليمنى كمن يريد أن يقسم. فأشرق في وجه ميتيا عندئذ تعبير عن سعادة. وقال ببطء كأنه يعود إلى ذاته بعد إغماء:

- شكراً. لقد رددت إليَّ الحياة. تصور أنني كنت أخاف حتى الآن أن أطرح عليك هذا السؤال. كنت أخاف أن أسألك، أن أسألك أنت، أنت خصوصاً! اذهب الآن. إنك قد أمددتني بقوى ليوم الغد، باركك الله! انصرف الآن. حان أن تنصرف.

- وأضاف. أحِبَّ إيڤان!

خرج إيليوشا والدموع تنهمر من عينيه. إن هذا المستوى من الشك لدى ميتيا، وهذه الدرجة من إساءة الظن فيه هو إيليوشا، قد بينت لإيليوشا هوّة يأس وألم سحيقة في نفس أخيه الشقي، هوة لم يسبق أن فكر فيها. وشعر إيليوشا مجدداً بذلك الألم الحاد الذي يكاد يكون جسدياً «أحبَّ إيڤان» تلك هي الكلمات التي قالها ميتيا، والتي تذكرها فجأة. وكان إيليوشا ذاهباً إلى إيڤان على كل حال، فلقد كان يحتاج إلى أن يراه منذ هذا الصباح. لم يكن إيڤان يعذبه التفكير في ميتيا. والآن، بعد زيارته لأخيه، أصبحت أقوى منها في أي وقت مضى.

V

ليس أنت، ليس أنت!

وهو ذاهب إلى إيڤان كان عليه أن يمر أمام المنزل الذي تسكنه كاترينا إيڤانوفنا. كانت النوافذ مضاءة. توقف فجأة وقرّر الدخول. إنه لم ير كاترينا إيڤانوفنا منذ أكثر من أسبوع، وخطر على باله أن إيڤان يمكن أن يكون عندها الآن، ولا سيما عشية يوم كهذا. قرع الجرس، وصعد السلّم الذي يضيئه مصباح صيني بنور ضعيف، فلمح رجلاً يهبط السلّم، فما إن وصل هذا الرجل إليه حتى عرف أنه أخوه. إذن كان إيڤان يخرج من عند كاترينا إيڤانوفنا.

- آ، أهذا أنت؟ قال إيڤان فيودوروفتش بلهجة جافة. طاب يومك، وإلى اللقاء. أنت ذاهب إليها؟

- نعم.

- لا أنصحك بذلك، لأنها «مضطربة جداً»، وزيارتك سوف تفاقم اضطرابها.

لا، لا. صاح صوت يقول من أعلى، من خلال بابٍ قد فُتح:

- بل اصعد، اصعد. هل أنت آت من عنده يا ألكسي فيودوروفتش؟

- نعم، رأيته منذ لحظة.

- هل بعث معك رسالةً إليَّ؟ ادخل يا إيليوشا. وأنت أيضاً يا إيڤان، ارجع، من كل بد. هل سمعت!

كان صوت كاترينا إيڤانوفنا يبلغ في تلك اللحظة من الصرامة أن إيڤان فيودوروفتش قرر بعد بضع لحظات من تردد، أن يصعد ثانيةً في صحبة إيليوشا.

- كانت تصغي من الباب! تمتم يقول بينه وبين نفسه بغضب، لكن إيليوشا سمعه.

- اسمحي لي ألّا أخلع معطفي. قال إيڤان فيودوروفتش وهو يدخل الصالة ثم إنني لن أجلس، لأنني لا أنوي أن أبقى أكثر من دقيقة واحدة.

- اجلس يا ألكسي فيودوروفتش. قالت كاترينا إيڤانوفنا. وبقيت هي نفسها واقفة.

إنها لم تتغير كثيراً منذ شهرين، ولكن وميضاً قاسياً يسطع الآن في عينيها السوداوين. سوف يتذكر إيليوشا فيما بعد أنها بدت له في تلك اللحظة جميلة جمالاً خاصاً.

- ما الذي كلفك بأن تقوله لي؟

- كلفني بأن أقول لك شيئاً واحداً. قال إيليوشا وهو يحدِّق إلى عينيها. إنه يرجو أن

تهتمي بنفسك، وألّا تذكري أمام المحكمة - وهنا اضطرب قليلاً ـ... ألّا تذكري أمام المحكمة... ما جرى بينكما أثناء أول لقاء... في تلك المدينة...

- آ... يقصد تلك التحية وذلك المال؟ قاطعته كاترينا إيڤانوفنا وهي تضحك بمرارة: أهو خائف على نفسه أم عليَّ؟ قل لي! من أراعي في هذا الأمر؟ هل أراعي نفسي أم أراعيه هو؟ تكلم يا ألكسي فيودوروفتش:

كان إيليوشا يحدق إليها بانتباه ويحاول أن يفهمها.

قال بصوت لطيف:

- هو يرجو أن تراعي نفسك وأن تراعيه أيضاً.

قالت بلهجة مسعورة وقد احمر وجهها فجأة:

- هكذا إذن إنك لا تعرفني بعد يا ألكسي فيودوروفتش! وربما كنت لا أعرف نفسي أنا أيضاً. من يدري؟ قد تتمنى أن تسحقني في الغد بعد إدلائي بشهادتي أمام المحكمة.

- أدلي بشهادة شريفة. قال إيليوشا. لا حاجة إلى أكثر من ذلك.

- المرأة هي غالباً شريفة. أجابت بقسوة. منذ أقل من ساعة كنت لا أخشى إلا من الكلام على هذا المسخ، على هذا الشخص الكريه... ولكن لا! إنه ما يزال في نظري إنساناً. ثم هتفت تسأل بصوت تمازجه هستيريا وهي تلتفت نحو إيڤان فيودوروفتش: هل هو من قتل؟ هل هو بذاته؟

أدرك إيليوشا في تلك اللحظة أنها سبق أن ألقت هذا السؤال على إيڤان منذ دقائق قليلة قبل وصوله، وأن المناقشة التي دارت حول هذه النقطة، للمرة المئة في أغلب الظن، قد انتهت بمشاجرة.

- لقد ذهبتُ إلى سمردياكوف... أنت أوهمتني أن ميتيا قتل أباه! بسببك صدقت أنا ذلك. تابعت مخاطبةً إيڤان أيضاً بصيغة المفرد. فضحك إيڤان ضحكةً حمل نفسه عليها. وقد ارتعش إيليوشا حين سمع هذه المخاطبة بصيغة المفرد. لقد كان لا يتصور أن العلاقة بينهما حميمة إلى هذا الحد.

- حسناً، لا بأس. قال إيڤان بجفاف وخشونة. أنا ذاهب. سأرجع غداً. ودار على عقبيه، وخرج من المنزل. فأسرعت كاترينا إيڤانوفنا تمسك يدي إيليوشا وتقول له بحركة آمرة ودمدمة متعجلة:

- اتبعه! لا تتركه وحده لحظةً واحدة. إنه مجنون. ألا تعرف أنه فقد عقله؟ لقد أصيب بحمى حارة، صدّقني! طبيبي هو الذي قال لي ذلك. هيَّا، أسرع! أركض لندركه...

قفز إيليوشا من مكانه واندفع في أثر إيڤان فيودوروفتش. لم يكن إيڤان قد ابتعد أكثر من خمسين خطوة.

- ماذا تريد؟ صاح إيڤان ملتفتاً إلى الوراء فلمح أن أخاه يريد اللحاق به. أمرتك بأن تتبعني لأنني مجنون، أليس كذلك؟ لقد حفظتُ هذه القصة على ظهر القلب.

- واضح أنها مخطئة في هذا. ولكنها على حق عندما تقول إنك مريض. لقد تفرستُ في وجهك منذ قليل، فلاحظت أنك مريض، مريض جداً، يا إيڤان!

كان إيڤان يسير دون أن يتوقف، وكان إيليوشا يتبعه.

سأله هذا الأخير بصوت هادئ.

- لأنك تعرف يا ألكسي فيودوروفتش ماذا يحدث عندما يصبح المرء مجنوناً؟

- لا، لا أعرف. أجابه إيليوشا. ولكن يخيَّل إليَّ أن الجنون أشكال شتى.

- هل بوسع المرء أن يعرف هو نفسه أنه قد جُنَّ؟

- أعتقد أن المرء لا يستطيع في مثل هذه الحالة أن يلاحظ نفسه. أجاب إيليوشا مدهوشاً.

- إذا كنت تحب أن تكلمني فأرجو أن تغيّر موضوع الحديث.

- صحيح. قال إيليوشا في خجل. كدت أنسى. معي رسالة لك.

وأخرج من جيبه رسالة ليزا وناولها إلى أخيه. كانا في تلك اللحظة قريبين من أحد مصابيح الشارع، فسرعان ما عرف إيڤان خط صاحبة الرسالة.

- نعم... رسالة من تلك الشيطانة الصغيرة. قال وهو يضحك بخبث. ثم مزّق الرسالة قطعاً ورماها في الهواء دون أن يفض الظرف، فتناثرت أجزاؤها. وقال بلهجة احتقار وهو يتابع سيره:

- كيف ذلك هي تعرض نفسها.

- كأية امرأة فاسقة.

- غير صحيح؟ قال إيليوشا يحتج في ألم: إنها طفلة! أنت تهين طفلة. هي مريضة، مريضة جداً. لعلها جُنَّت هي أيضاً... ما كان يمكنني أن أرفض نقل رسالتها إليك... وكنت أحب أن أعرف صحة الأمر منك أنت... حتى يمكن إنقاذها.

- لن تسمع مني شيئاً. إذا كانت هي طفلة فلست أنا حاضنتها. أسكت يا ألكسي. كفى! إنني لا أفكر فيها، حتى ولا تخطر على بالي.

وصمتا كلاهما بضع لحظات. ثم تابع إيڤان:

- سوف تصلّي الليل كله وتبتهل إلى السيدة العذراء أن تلهمها الصواب وأن تلهمها ما يجب أن تقوله غداً في المحكمة.

- يعني... كاترينا إيڤانوفنا؟

- نعم. إذا كانت تتساءل هل يجب عليها أن تنقذ ميتيا أو أن تضيعه. سوف تصلّي من أجل أن تهتدي إلى الرأي الصحيح. إنها لا تعرف هي نفسها حتى الآن ما الذي ستقوله، لأن وقتها لم يتسع بعد لأن تتحضَّر للأمر. فهي تعتبرني حاضنةً لها، وتريد أن أهدهدها!

- كاترينا إيڤانوفنا تحبك يا أخي. قال إيليوشا بحزن.

- جائز. ولكن هذا لا يعنيني.

- إنها تتألم. لماذا قلت لها إذن... في بعض المرات... كلاماً يمكن أن يحيي في نفسها أملاً؟ أنا أعرف فعلاً أنك قد أتحت لها أن تأمل.

- سامحني إذا قلت لك هذا الكلام! قال إيليوشا بصوت فيه شيء من لوم خجول.

- لا أستطيع أن أتصرف كما ينبغي، أقول لها الحقيقة بقسوة، وأقطع صلتي بها قال إيڤان بمرارة. يجب انتظار صدور الحكم على القاتل أولاً. لو تركتها الآن لضيعت ذلك المسكين مدفوعة بروح الانتقام. ذلك أنها تكرهه، وهي تعلم أنها تكرهه. كل شيء هنا كذب. ليس بها أي صدق! هي الآن، وإلى أن أقطع صلتي بها، ستظل تأمل، وستمتنع لهذا السبب عن تضييع ذلك الشيطان، لعلمها بأنني أحاول أن أخرجه من المأزق. فمتى يصدر ذلك الحكم اللعين؟

كان لكلمتي «القاتل» و «الشيطان» في قلب إيليوشا صدى أليم موجع.

وسأل إيليوشا أخاه مفكراً محاولاً أن ينفذ إلى معنى أقوال إيڤان:

- ماذا يمكن أن تقول كي تضيِّع أخانا؟ ما هي الأشياء التي يمكن أن تقولها في شهادتها فتنزل بديمتري كارثة؟

- أنت تجهل هذا حتى الآن. إنها تملك ورقة مكتوبة بخط ديمتري نفسه، ورقة تثبت إثباتاً قاطعاً أنه قاتل فيودور بافلوفتش.

- مستحيل! صاح إيليوشا.

- لماذا؟ لقد قرأت الورقة بنفسي.

أجاب إيليوشا بقوة:

- لا يمكن أن يكون هناك وثيقة من هذا النوع. ذلك مستحيل إطلاقاً، لأن ديمتري لم يقتل. ليس هو قاتل أبينا، ليس هو قاتله!

توقف إيڤان فيودوروفتش عن المشي. وسأل أخاه بلهجة فيها شيء من الاستعلاء:

- فمن عسى أن يكون القاتل في رأيك؟

- أنت تعرفه. قال إيليوشا بصوت خافت نافذ:

- من؟ أيظل يُتصور ذلك الاتهام الغبي لرجل أبله مصاب بالصرع؟ أتقصد سمردياكوف؟

شعر إيليوشا برعدة تهز جسمه كله. وقال:

- أنت تعلم حق العلم أنه هو القاتل.

أفلتت منه هذه الكلمات كأنما على غير إرادة، وكان يلهث.

فقال إيڤان يصرخ في هذه المرة وقد ألمَّ به ما يشبه أن يكون غضباً مسعوراً:

- لكن من هو؟ من؟ تكلم! قال إيڤان وقد فقد كل سيطرة له على نفسه.

عاد إيليوشا يقول بهمس مختنق:

- أنا لا أعرف إلّا شيئاً واحداً هو أن قاتل أبينا ليس أنت. ليس أنت، ليس أنت!

- «ليس أنت»؟ ماذا تريد أن تقول؟ سأله إيڤان مذهولاً.

فكرر إيليوشا قوله:

- ليس أنت قاتل أبينا، ليس أنت!

وخيم الصمت لحظة. ثم قال إيڤان وهو يبتسم ابتسامة ليس فيها إلّا انفراج الشفتين:

- أعلمُ أن القاتل ليس أنا طبعاً.

وغرز نظراته في عيني إيليوشا. وكان الأخوان قد وصلا إلى أحد مصابيح الشارع من جديد.

- اسمع يا إيڤان: لقد اتهمت نفسك بنفسك غير مرة، اتهمت نفسك بأنك أنت القاتل.

- متى قلت أنا هذا؟ متى؟ تمتم إيڤان زائغ النظرة تائهاً لقد كنت بموسكو في تلك الفترة. متى قلت أنا هذا الكلام؟

- قلته لنفسك مراراً في الساعات التي خلوت فيها إلى ضميرك أثناء الشهرين الرهيبين. قال إيليوشا متابعاً كلامه بصوت خافت، ولكنه كان ينطق كل كلمة من كلماته واضحة. كان يتكلم كمن تدفعه إلى الكلام قوة لا تغالب، قوة غريبة عن إرادته. اتهمت نفسك مراراً كثيرة قائلاً إن القاتل الحقيقي هو أنت. ولكنك لست القاتل يا إيڤان. أنت على خطأ. لست أنت القاتل. هل تسمعني؟ ليس أنت، ليس أنت! الله قد أرسلني لأقول لك هذا.

سكت الأخوان. وساد صمت ثقيل خلال دقيقة طويلة. إن كلاً منهما يحدِّق إلى عيني أخيه منكفىء اللون شاحب الوجه. وفجأةً أخذت أعضاء إيڤان كلها ترتجف، وأمسك إيليوشا من كتفه، ودمدم يقول كازاً أسنانه:

- جئت إلى منزلي إذن في السر، في الخفاء. جئت ليلاً بينما كان هو عندي، هو... هيَّا اعترف! رأيتَه، رأيته، أليس كذلك؟

- من تعني... ميتيا؟ سأله إيليوشا مذهولاً.

- لا، ليس ميتيا. صاح إيڤان خارجاً عن طوره. ليأخذ الشيطان ميتيا. قل: من أين عرفت «أنه» جاء إليَّ؟ كيف عرفت ذلك؟ تكلم!

- من تقصد؟ قال إيليوشا مذعوراً. من الذي تعنيه بقولك إنه جاء إليك؟ من هو هذا؟ إنني لا أعرف من الذي تشير إليه بهذا الكلام.

- بل تعرف، تعرف. ولولا ذلك ما استطعت أن... يستحيل أن لا تكون عارفاً بالأمر.

وسكت إيڤان في وسط الجملة، وتوقف عن الكلام. بدا أنه يفكر في شيء ما. وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة.

- أخي، أنا قلت لك ما قلت لأنك تصدّقني دائماً. قال إيليوشا بصوت مختلج. قلت

لك ما قلت لتتذكر قولي إلى الأبد: لست أنت القاتل. تذكر هذا طوال حياتك، هل تسمع؟ لقد أمرني الله بأن أقول لك هذا الكلام، ولو جعلك ذلك تكرهني بعد اليوم..

- ولكن إيڤان فيودوروفتش كان قد استرد سيطرته على نفسه وتحكمه في سلوكه.

- أنا لا أطيق يا ألكسي فيودوروفتش، الأنبياء ولا المرضى بداء الصرع. بدأ يقول بسخرية باردة. أما الذين يرسلهم الله فأنا أكرههم كرهاً خاصاً وأمقتهم بشدّة أنت تعلم ذلك. إنني أقطع منذ الآن كل علاقة لي بك، أقطع كل علاقة لي بك إلى الأبد فيما يخيَّل إليَّ. أرجو أن تتركني فوراً، عند هذا المفترق. وليس لك على كل حال إلّا أن تسير في هذا الشارع الصغير الذي يفضي بك إلى مسكنك. وحاذر أن تجيء إليَّ اليوم. هل سمعت؟

أدار ظهره، وابتعد بخطًى ثابتة دون أن ينظر إلى الوراء.

- أخي، صاح إيليوشا إذا حدث لك أمر ما في النهار، فاذكرني أنا قبل كل شيء!...

لم يجب إيڤان. وانتظر إيليوشا، عند مفترق الطرق، قرب المصباح، غياب شبح أخيه في الظلام. وعندئذ ابتعد هو أيضاً متجهاً إلى مسكنه بخطًى بطيئة. كان الأخوان يسكنان منفصلين في منزلين مختلفين. لم يشأ أحد منهما أن يقيم في المنزل المهجور الذي خلفه فيودور بافلوفتش. كان إيليوشا يسكن في غرفة مؤثثة عند عائلة من صغار سكان المدينة. وكان إيڤان يقطن في شقة واسعة بعيدة عن مسكن أخيه استأجرها من منزل امرأة ثرية هي أرملة أحد الموظفين. لم يكن يخدمه هنالك إلّا عجوز صغيرة صماء مصابة بالروماتزم تنام كل يوم في الساعة السادسة مساءً، وتنهض من نومها كل يوم في الساعة السادسة صباحاً. ولكن إيڤان كان قد أصبح قليل المطالب في شؤون الخدمة أثناء هذين الشهرين الأخيرين، وأصبح يميل إلى الوحدة والاعتزال في مسكنه، ويحلو له أن يتولى بنفسه ترتيب الغرفة التي ينام فيها، ولا يدخل سائر غرف شقته إلّا نادراً. فلما وصل إلى باب منزله وضع يده على الجرس ولكنه أمسك عن قرعه فجأة. كان ما يزال يشعر بغضب شديد يُرعش جسمه كله. فما هي إلّا لحظة حتى أرخى الجرس وبصق على الأرض اشمئزازاً، واستدار على عقبيه، واتجه بخطى سريعة نحو الطرف الآخر من المدينة، على بعد فرسخين من منزل صغير من خشب، تسكنه ماريا كوندراتيفنا، جارة فيودور بافلوفتش القديمة، التي كانت تأتي لتطلب الحساء من مطبخه، كان سمردياكوف ينشدها أغانيه عازفاً على القيثارة. لقد باعت هذه المرأة منزلها الصغير، وهي تسكن الآن مع أمها في كوخ حقير، بينما سمردياكوف المصاب بمرض مميت، استقر عندها منذ موت فيودور بافلوفتش. فإلى عند سمردياكوف كان إيڤان فيودوروفتش متجهاً الآن، تدفعه فكرة مفاجئة وصعبة.

VI

أول لقاء مع سمردياكوف

هذه المرة الثالثة التي يزور فيها إيڤان فيودوروفتش سمردياكوف، منذ عودته من موسكو. كان قد التقاه للمرة الأولى بعد وقوع الكارثة، وتحدث معه يوم عودته بالذات. ثم زاره مرة ثانية بعد ذلك بأسبوعين؛ لكنه قطع زياراته له بعد تلك المقابلة الثانية، بحيث أنه لم يره منذ أكثر من شهر وحتى لم يسمع عنه شيئاً. إن إيڤان فيودوروفتش لم يرجع من موسكو إلّا بعد موت أبيه بأربعة أيام، وكان أبوه قد دُفن عشية رجوعه. ويعود سبب هذا التأخر إلى أن إيليوشا كان لا يعرف عنوان أخيه في موسكو فطلب إلى كاترينا إيڤانوفنا أن تتولى إبلاغه نبأ الوفاة ببرقية؛ وكانت تجهل هي أيضاً أين كان عنوان إيڤان على وجه الدقة، فأبرقت إلى عمتها وإلى أختها وفي تقديرها أن إيڤان فيودوروفتش سيزورهما إثر وصوله. إلا أن إيڤان لم يزرهما إلّا في اليوم الرابع، فلما قرأ البرقية أسرع عائداً إلى مدينتنا. وكان إيليوشا أول شخص التقاه إيڤان. لكن بعد أن حدثه عن الفاجعة، ذهل إذ رأى أخاه إيليوشا يرفض أن يشتبه بديمتري، يتهم سمردياكوف مباشرة بأنه هو القاتل، على عكس كل الآراء الأخرى في مدينتنا. فلما تحدث إيڤان بعد ذلك مع رئيس الشرطة ووكيل النيابة واطلع على تفاصيل الاتهام والتحقيق، ازدادت دهشته من موقف إيليوشا، فنسب هذا الموقف إلى عاطفة الإخوة القوية، وإلى العطف والشفقة على شقيّ مسكين، ذلك أن إيڤان كان يعرف في الواقع أن إيليوشا يحب ديمتري كثيراً. ولنقل في هذه المناسبة بضع كلمات عن عواطف إيڤان نحو أخيه ديمتري فيودوروفتش: كان إيڤان يكره أخاه ديمتري بقوة ولا يشعر نحوه بنوع من شفقة إلّا نادراً، وهي شفقة مرتبطة باحتقار عميق يبلغ حد الاشمئزاز. لقد شعر إيڤان دائماً بنفور من ميتيا، وكان ينفر حتى من شكله، ويسوؤه ما تكنه كاترينا إيڤانوفنا لهذا الشاب من حب. وقد زار ميتيا في السجن يوم وصوله، فلم تضعف هذه الزيارة اقتناعه بأن ميتيا هو القاتل، بل عزّزته. لقد وجد أخاه فريسة اضطراب شديد وجيشان مرضي. كان ميتيا يتكلم كثيراً، مع بقائه ذاهلاً مشوشاً، وكان يعبّر عما في نفسه بجمل مفككة وعبارات مقطعة. كان يتهم سمردياكوف، وما ينفك يخبط في كلامه، عائداً فجأة إلى مسألة الثلاثة آلاف روبل التي «سرقها» منه المتوفّى، قائلاً من حين إلى آخر: «كان هذا المال مالي أنا، هبْني سرقته فلا جناح عليّ». أما القرائن التي تشهد عليه وتعزز اتهامه فهو لا يكاد يدحضها، حتى إذا عرض الوقائع التي كان يرى أنها دليل على براءته، اضطرب كلامه واختلطت الأمور في حديثه بكثير من الخراقة، وكأنه كان يحب أن لا يبرىء نفسه في نظر أخيه أو في نظر أي امرئ آخر؛ فهو يغضب ويثور، ويحتقر الاتهامات مستعلياً، ويرد عليها بشتائم، ويتهكم باحتقار على شهادة غريغوري بشأن الباب المفتوح، مؤكداً أن «الشيطان هو الذي فتح الباب»، دون أن يحاول البحث عن أي تعليل ممكن لهذه الواقعة. حتى لقد وجد السبيل، أثناء هذا الاجتماع الأول بأخيه إيڤان فيودوروفتش، إلى أن يهينه ويجرح شعوره، مردداً في جفاء أن الذين يدعون «أن كل شيء مباح» ليس من حقهم أن يشتبهوا فيه وأن يستجوبوه. وجملة القول أنه لم يظهر لإيڤان شيئاً من مودة، بل خاشنه وأغلظ له القول. وبعد هذا الاجتماع فوراً ذهب إيڤان فيودوروفتش إلى سمردياكوف.

كان إيڤان، حين غادر موسكو، قد فكر في سمردياكوف طويلاً في القطار، وفكَّر في

الحديث الذي جرى بينهما عشية رحيله. إن عدداً كبيراً من التفاصيل كان يوقظ فيه الشبهات ويقلقه بشدة. ولكن إيڤان، أثناء الشهادة التي أدلى بها أمام قاضي التحقيق، قد آثر أن يسكت موقتاً عن ذلك الحديث الذي كان قد جرى بينه وبين سمردياكوف. كان إيڤان يريد أن يتحدث بنفسه أولاً مع سمردياكوف. وكان هذا الأخير يومئذ في مستشفى المدينة. وقد صرَّح الدكتور هرتسنشتوبه لإيڤان، وكذلك الطبيب فارفنسكي الذي التقاه إيڤان في المستشفى، جازمين أن نوبة الصرع التي أصيب بها سمردياكوف كانت واقعية تماماً، حتى لقد استغربا هذا السؤال: «ألا يمكن أن يكون سمردياكوف قد تظاهر بالمرض يوم وقوع حادثة القتل؟». وقد أفهما إيڤان أن نوبة الصرع التي ألمت بسمردياكوف في هذه المرة كانت خطيرة، لأنها دامت عدة أيام، وتكررت مراراً عديدة، حتى كادت تودي بحياته؛ وبفضل الاسعافات التي استطاعا أن يقدماها والاجراءات التي عمدا إلى اتخاذها أصبح من الممكن أن يقال الآن إن المريض لن يموت من هذه النوبة الأليمة. وأضاف الدكتور هرتسنشتوبه قوله: «على أن قواه العقلية ستبقى مضطربة مدى الحياة أو زمناً طويلاً على الأقل». وإذ كان إيڤان يسأل بشيء من نفاد الصبر «هل يجب أن يعتبر الخادم مجنوناً»، فقد أجيب بأنه ليس مجنوناً تماماً، وإنما لديه أنواع من الشذوذ. فقرر إيڤان أن يتحقق بنفسه بدقة من طبيعة هذه الاضطرابات. وقد سمحوا له بأن يقترب من المريض دون عراقيل. وكان سمردياكوف ينام على سريره في غرفة ذات سريرين. أما السرير الثاني فكان يشغله رجل من سكان المدينة كان مصاباً بمرض الاستسقاء، وكان قد بلغ درجة قصوى من الضعف، فلن يعيش أكثر من يوم أو يومين، فلا يمكن أن يكون وجوده في الغرفة حائلاً دون الحديث. فابتسم سمردياكوف ابتسامة حذرة حين رأى إيڤان فيودوروفتش حتى لقد ظهر عليه في أول الأمر شيء من الوجل؛ أو هذا ما شعر به إيڤان على الأقل. ولكن ذلك الوجل سرعان ما زال، حتى لقد دُهش إيڤان من هدوء سمردياكوف بعد ذلك. واستطاع إيڤان مع هذا أن يقتنع من أول نظرة ألقاها على المريض أن حالته خطيرة حقاً. لقد كان سمردياكوف ضعيفاً، ويتكلم ببطء كأنه يجد عناءً في تحريك لسانه، وكان قد هزل جسمه كثيراً، واصفر لونه. ولم ينقطع سمردياكوف خلال الدقائق العشرين التي استغرقتها الزيارة عن الشكوى من آلام في رأسه وأوجاع في جميع أعضاء جسمه. وكان وجهه الجاف الذي يشبه وجوه الخصيان يبدو أنه قد صغر، وكان الشعر على صدغيه مبعثراً، ولم يبق من ذؤابته إلّا خصلة متناثرة في قمة الرأس. ولكن عينه اليسرى ذات الجفن المتغضِّن قليلاً، والتي تغمز من حين إلى آخر لتوحي بمعان ماكرة، خانت سمردياكوف القديم. وتذكر إيڤان جملته التي سبق أن قالها له ذات يوم: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع إنسان ذكي». وجلس إيڤان على اسكملة من جهة قدمي المريض. فاستدار سمردياكوف على فراشه متألماً، ولكنه لم يكن أول من يتكلم، بقي صامتاً. وحتى نظره لم يبدُ أنه متحمساً للفضول.

- هل تستطيع أن تتحدث معي؟ سأله إيڤان. ألا يتعبك ذلك؟

- طبعاً أستطيع أن أتكلم. تمتم سمردياكوف بصوت واهن.

ثم أضاف يسأله متلطفاً كأنما ليشجع زائره المرتبك:

- هل وصلت منذ مدة طويلة؟

- وصلت اليوم... جئت لأوضح الموقف.

تنهد سمردياكوف. فأسرع إيڤان يسأله:

- لماذا تتنهد وقد كنت على علم بالأمر.

صمت سمردياكوف لحظة دون أن يدع لنفسه أن يهتز أو يتأثر. ثم قال:

- كيف كان يمكن ألّا أعلم؟ كان سهلاً معرفة ما سيحدث. ولكنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ كيف سينتهي الأمر.

- أي أمر؟ لا تتهرب من الكلام باللف والدوران. ألم تتنبأ بأنك ستصاب بنوبة صرع حين ستنزل إلى القبو؟ لقد حرصت على أن تحدد أن ذلك سيقع لك أثناء نزولك إلى القبو!

سأله سمردياكوف بهدوء:

- هل ذكرت هذا في الشهادة التي أدليت بها؟

- كلا، بعد، ولكنني سأذكره حتماً. غضب إيڤان فيودوروفتش وأجابه بقوله: هناك نقاط كثيرة عليك أن توضِّحها لي، واعلم أنني لن أسمح لك بأن تمثل دور الماكر المخاتل معي!

- لماذا ألعب الدور الذي تطلبه ما دام أملي كله معقوداً عليك، وعلى الله! قال سمردياكوف بذلك الهدوء نفسه، مكتفياً بإغماض عينيه لحظة.

- في البدء، قال إيڤان، أنا أعلم أن من المستحيل التنبؤ بنوبة صرع. لقد سألت عن هذا الأمر، فعلمت أن ذلك مستحيل، لذلك أنصحك بألّا تراوغ. يستحيل على المرء أن يتنبأ باليوم والساعة التي يُصاب بها بنوبة من هذا النوع. فكيف أمكنك أن تحدِّد لي سلفاً الساعة واليوم اللذين ستوافيك فيهما هذه النوبة، وكيف استطعت أن تحدد المكان الذي ستصاب فيه بهذه النوبة فتقول إنه القبو؟ كيف كان يمكنك أن تتنبأ بأن نوبة الصرع ستلم بك في القبو، إذا لم تكن قد اصطنعتها وتظاهرت بها؟

- على كل حال، كان عليَّ أن أنزل إلى القبو، أجاب سمردياكوف ببطء، جاراً كلماته. بل كان عليَّ أن أنزل إليه عدة مرات في اليوم. وفي ظروف كهذه سقطت من الشونة في العام الماضي. صحيح أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ باليوم والساعة التي توافيه فيها نوبة صرع، ولكنه يستطيع أن يحس ذلك وأن يوجسه.

- ولكنك أنت تنبأت باليوم والساعة!

- فيما يتعلق بمرضي، من الأفضل أن تسأل أطباء هذا المستشفى. سلهم عن نوبة الصرع هل كانت مصطنعة أم لا! أما أنا فلا أرى أن عليَّ أن أزيد على ما قلت شيئاً.

- والقبو؟ كيف علمت أن هذا سيقع لك في القبو؟

- هذا القبو يقلقك! المسألة بسيطة: حين كنت نازلاً إلى القبو ألمَّ بي خوف وقلق، أصابني ذعر خصوصاً، لأنك كنت غائباً فلم يبقَ لي أحد يحميني. نزلت إلى ذلك القبو وأنا أقول لنفسي: «الآن ستجيئني النوبة، الآن! أسأقع؟ أسأقع؟» وبسبب ذلك القلق الذي شعرت به عندئذ أحسست بذلك التشنج اللعين في حلقي... ثم تدحرجت! هذه التفاصيل كلها، وذلك الحديث الذي جرى بيني وبينك قبل الحادث بيوم أمام المنزل، حين أخبرتك عن مخاوفي بشأن القبو، ذلك كله رويته بأمانة للدكتور هرتسنشتوبه، ولقاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش، فسجّلا جميع تصريحاتي في المحضر. أما الدكتور فارفنسكي فقد ألحَّ عندئذ على أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت على هذا النحو، وعلى أن نوبة الصرع التي أصابتني كان سببها حتماً خوفي منها، وتوقُّعي لها: «سأسقط أم لا؟»، فإذا بالنوبة توافيني في تلك اللحظة بعينها. ذلك ما سجَّلوه في المحضر، وأضافوا إليه أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت على هذا النحو نتيجةً للخوف.

قدّم سمردياكوف هذه الايضاحات ثم تنفس بعمق، كأنه يحس بأنه محطم من فرط التعب.

- هل ذكرت أنت هذه التفاصيل في شهادتك؟ سأله إيڤان فيودوروفتش مبلبلاً.

ذلك أن إيڤان كان ينوي أن يخيف الخادم بتهديده بإفشاء أمر الحديث الذي جرى بينهما عشية الجريمة، فإذا هو يعرف الآن أن الرجل قد سبقه من تلقاء نفسه إلى ذكر كل التفاصيل.

قال سمردياكوف بصوت ثابت.

- ماذا كنت أخشى؟ إنني أحرص على أن تُسجَّل الحقيقة كلها في المحضر.

- هل ذكرت الحديث الذي جرى بيننا كلمة كلمة؟

- لا، لم أذكره كلمة كلمة.

- هل قلت لهم أيضاً إنك تجيد التظاهر بنوبات الصرع كما تباهيت بذلك أمامي؟

- لا، لم أقل لهم ذلك.

- قل لي الآن لماذا كنت حريصاً على أن أسافر إلى تشرماشنيا؟

- كنت أخشى أن تسافر إلى موسكو. إن تشرماشنيا أقل بعداً من موسكو على كل حال.

- كاذب! كنت تريد أن أبتعد عن هنا. «سافر، أهرب من الاثم». ذلك ما كنت تقوله لي.

- لئن قدَّمت لك هذه النصيحة، فإنما فعلت ذلك من باب الصداقة، والاخلاص لشخصك، لأنني كنت أتوقع المصيبة التي كانت ستحل بهذا المنزل، فكنت أشفق عليك وأرثي لك. غير أن اهتمامي بسلامتي غلب عليَّ، فقلت لك «اهرب من الاثم»، وذلك لكي تعرف أن شراً يتربص بالمنزل، فأحملك على البقاء هنا لتحمي أباك.

- كان عليك أن تقول لي ذلك ببساطة دون لف ودوران! صاح إيڤان غاضباً.

- كيف كان يمكنني أن أكلمك مباشرة أكثر مما فعلت؟ كان الخوف قد شلَّني، وكنت أخشى فوق ذلك أن أُغضبك. صحيح أن هناك ما كان يجعلني أخاف أن يرتكب ديمتري فيودوروفتش حماقة ما، وأن يستولي على ذلك المبلغ لأنه كان يعتبره ملكاً له، ولكن كيف كان بإمكاني أن أتنبأ بأن الأمر سينتهي إلى جريمة قتل؟ كنت أعتقد أنه سيكتفي بأخذ الثلاثة آلاف روبل التي كان سيدي يخبئها في ظرف تحت الفراش. ولكنه قتل أباه بدلاً من ذلك. هل كان في وسعك أنت مثلاً أن تتنبأ بما وقع؟

- إذا كنت تقول أنت نفسك إن التنبؤ بذلك كان مستحيلاً، فكيف كان يمكنني أن أتنبأ أنا به، فأبقى هنا؟ إنك تخلط الأمور وتتخبط في الكلام. قال إيڤان فيودوروفتش وقد أصبح واجماً يفكر.

- كان يمكنك أن تتنبأ بالأمر لأنني كنت أَلِحُّ عليك كي تسافر إلى تشرماشنيا لا إلى موسكو.

- كيف كان يمكنني أن أتنبأ؟ ما هذا الكلام الذي تقوله؟

بدا على سمردياكوف تعب شديد، فسكت بضع لحظات من جديد، ثم قال:

- كان يمكن أن تتنبأ بذلك، نظراً إلى كوني كنت أوجهك في تشرماشنيا لا في موسكو. فإذا عرف ديمتري فيودوروفتش أنك قريب من هنا، فلعله كان سيتردد؛ وكان في وسعك إذا كنت في تشرماشنيا أن تسارع فتجيء لتحميني عند الحاجة لأنني قد حدثتك عن مرض غريغوري فاسيلتش وعن توجسي نوبة الصرع التي ستوافيني. وقد أطلعتك، عدا ذلك، على الإشارات التي يمكن بواسطتها حمل أبيك على فتح الباب. وحين أسررت اليك أن ديمتري فيودوروفتش كان يعرف هذه الاشارات لأنني أطلعته عليها، كنت أقدِّر أنك ستدرك ما يتربص بالمنزل من شر، وأنك ستعدل حتى عن السفر إلى تشرماشنيا، وأنك ستبقى هنا.

«إنه يحسن صياغة جمل متماسكة. فأين هي إذن تلك الاضطرابات العقلية التي تكلم عليها الدكتور هرتسنشتوبه؟». قال إيڤان لنفسه.

- أتحاول أن تخدعني؟ يا لك من قاطع طريق! هتف إيڤان غاضباً.

- وأنا أعترف لك بأنني كنت قد أيقنت أنك فهمتني أثناء ذلك الحديث. أجابه سمردياكوف وقد لاح في وجهه أقصى البراءة.

- لو قد فهمت لبقيت. صاح إيڤان غاضباً مجدداً.

- وأنا اعتقدت أنك فهمت كل شيء، وعرفت كل شيء، وأنك أسرعت تسافر لكي تبتعد عن الاثم، والنأي عما يتهيأ هنا من شر، بالهرب إلى مكان بعيد، من قبيل الخوف.

- هل تعتقد أن جميع الناس جبناء مثلك؟

- معذرة يا سيدي. كنت أظن أنك مثلي!

- لنسلِّم أنه كان في إمكاني أن أحزر قال إيڤان مضطرباً.. لقد كنت أقدِّر حقاً أنك تهيىء شراً ما.

ولكن إيڤان صاح وقد تذكّر نقطة معينة من الحديث الذي جرى بينهما قبل رحيله:

- لكنك تكذب! تكذب! هل تتذكر أنك اقتربتَ من عربتي لحظةَ رحيلي لتقول لي: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي»؟. إذن لقد سرَّك أن تراني راحلاً ما دمت قد أخذت تكيل لي المديح!

تنهد سمردياكوف وهو يبذل جهداً واضحاً لكي يسترد أنفاسه:

- لئن سُررت، فإن سروري لم يكن له من سبب إلّا أنني رأيتك لا تسافر إلى موسكو بل إلى تشرماشنيا التي هي أقرب من موسكو على الأقل. أما ما اعتبرته مديحاً، فإنه في الحقيقة تأنيب.

- تأنيب؟ لومي على ماذا؟

- على أنك رغم توجُّسك الشر، تترك أباك وتعدل عن البقاء هنا لحمايتنا. ذلك أنني كنت أنا أيضاً معرَّضاً لأن أُقحم في القضية بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل التي كان يمكن أن يُظن أنني سرقتها.

- ليأخذك الشيطان! قال إيڤان غاضباً... هل حدثت قاضي التحقيق ووكيل النيابة عن تلك الإشارات، عن تلك الضربات على النافذة؟

- حدثتهما عنها. قلت لهما كل شيء.

دُهش إيڤان فيودوروفتش بينه وبين نفسه مجدداً. ثم استأنف كلامه:

إذا كنتُ قد ارتبت في شيء أثناء ذلك الحديث، فقد كان دار ارتيابي بأن ترتكب أنت حقارةً ما. صحيح أن ديمتري كان يمكن أن يقتل، أما أن يسرق فذلك ما لم أسلِّم به حينذاك. ولا كذلك أنت، فإنني كنت أتوقع منك كل شيء. ألم تسرَّ إليَّ أنت نفسك أن في وسعك أن تصطنع نوبة صرع؟

- قلته عن بساطة. إنني لم أتظاهر بنوبة صرع في يوم من الأيام. وإنما أردت أن أتباهى أمامك. وهذا غباء مني. كنت أحبك كثيراً، وأحدثك بسذاجة تامة وبراءة كاملة.

- إن أخي يتهمك اتهاماً قاطعاً بأنك قتلت وسرقت.

- ماذا بقي له أن يقول؟ أجابه سمردياكوف بابتسامة مرة. الذي سيصدقه اليوم بعد أن تجمعت عليه كل تلك الأدلة؟ الباب الذي رآه غريغوري فاسيلتش مفتوحاً على سبيل المثال... كيف يمكنه أن يتهمني بعد هذا؟ سامحه الله! إنه يحاول إنقاذ نفسه بأية طريقة!...

سكت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر، ثم أردف:

- هو الأمر نفسه. إنه يريد أن يلقي الجرم على عاتقي مدعياً أنني أنا الذي قمت بالضربة. أعرف القصة. ولكن فكِّر قليلاً: لقد ذكرت لك مازحاً أنني أحسن التظاهر بنوبة الصرع. أفكان يمكن أن أقول لك إنني قادر على ذلك التظاهر لو كنت أنوي قتل أبيك؟ هل يتخيل أحد أن إنساناً يبيِّت جريمة يمكن أن يبلغ به الغباء حدَّ فضح نفسه سلفاً، وتقديم دليل يثبت ارتكابه الجريمة، بالتحدث في هذا الأمر إلى ابن الضحية نفسه؟ ذلك شيء لا يمكن تصديقه إطلاقاً. ما من أحد يسمعنا في هذه اللحظة، ما من أحد يسمعنا إلّا الله. ولكنك، حتى لو كشفت عن هذه الواقعة لوكيل النيابة وقاضي التحقيق، فسوف تخدمني: هل يمكن أن يكون المرء مجرماً بهذه السذاجة؟ ذلك ما سيقوله جميع الناس.

دهش إيڤان فيودوروفتش من هذه الملاحظة الأخيرة:

- اسمع، إنني لا أشتبه أبداً في أنك ارتكبت هذه الجريمة، بل إنني أرى أن اتهامك بها أمر سخيف مضحك.

- وإني شاكر لك أنك طمأنتني في هذا الموضوع، قال إيڤان وهو ينهض. إنني أتركك الآن، ولكنني سأزورك مرة أخرى. إلى اللقاء. أتمنى لك شفاء سريعاً. هل أنت في حاجة إلى شيء؟

- شكراً يا سيدي! شكراً لك على كل شيء. إن مارفا إينياتيفنا تهتم بأمري، وتجعلني في غير حاجة إلى شيء، على عادتها في الشهامة. لا شيء يعوزني. هناك أناس طيبون يزورونني كل يوم.

- إلى اللقاء. أنا لن أكشف شيئاً مما ذكرته لي عن حذقك في اصطناع الصرع والتظاهر به. وأنصحك بأن لا تتحدث عن هذا في شهادتك أنت أيضاً. أضاف إيڤان دون أن يعرف لماذا.

- أفهمك جيداً. ما دمتَ لن تتحدث عن هذا الأمر أنت، فسأسكت أنا أيضاً عن تفاصيل ذلك الحديث الذي جرى بيننا حينذاك أمام المنزل.

خرج إيڤان فيودوروفتش من غرفة المريض مسرعاً، ولم يدرك ما قد تشتمل عليه الكلمات الأخيرة التي قالها سمردياكوف من إهانة له، إلّا بعد أن قطع نحو عشر خطوات في الممشى، فأوشك عندئذ أن يقفل راجعاً إلى المريض، ولكن هذه النية التي هجست في نفسه نصف ثانية، لم تلبث أن تبددت، واكتفى بأن دمدم قائلاً: «هذه سخافات!»، ثم أسرع يغادر المستشفى. كان الأمر الأساسي في نظره هو أنه تأكد أن القاتل هو أخوه ميتيا لا سمردياكوف، رغم أنه كان يتوقع عكس ذلك. لماذا انقلبت تنبؤاته إلى هذا الحدّ؟ كان إيڤان لا يريد أن يعرف لماذا انقلبت تنبؤاته، حتى لقد ينفر من تحليل نفسه في هذه النقطة. كان يحاول، فيما يبدو، أن ينسى شيئاً ما. وقد اقتنع أثناء الأيام التالية بأن ميتيا هو الجاني، ولا سيما بعد أن عرف جملة القرائن والأدلة التي تجمعت على أخيه. وكان عدد من الشهادات يدينه إدانة خاصة، رغم صدور هذه الشهادات عن أشخاص غرباء عن المأساة وضيعي الظروف الاجتماعية، من ذلك شهادة فينيا وجدّتها. أما تصريحات برخوتين وروّاد الكباريه ومستخدمي متجر بلوتنيكوف وأهل موكرويه، فقد كانت خطورتها واضحة تماماً. وكانت التفاصيل تدعو إلى القلق. إن المعلومات التي تتعلق بالاشارات السرية قد أثرت في قاضي التحقيق ووكيل النيابة تأثيراً قوياً يعادل تأثير شهادة غريغوري عن الباب المفتوح إن لم يكن أكثر. وقد أجابت زوجة غريغوري، مارفا إينياتيفنا، عن سؤال ألقاه عليها إيڤان فيودوروفتش فقالت إن سمردياكوف قد قضى الليلة كلها وراء الحاجز نائماً على حصيرة «تبعد ثلاث خطوات عن سريرنا نفسه»، وأنها رغم أنها نامت نوماً عميقاً، قد استيقظت مراراً عديدة لدى سماعها أنّات المريض. وأضافت تقول: «إنه لم ينقطع عن الأنين، لم ينقطع عن الأنين». وأما الدكتور هرتسنشتوبه الذي أطلعه إيڤان على انطباعاته عن سمردياكوف، قائلاً إنه لا يصدق أبداً أن سمردياكوف مجنون، فقد أجاب يقول بابتسامة رقيقة: «هل تعرف ما الذي يشغله الآن؟ تصور أنه يقضي وقته في حفظ كلمات فرنسية على ظهر القلب. إنه يخفي تحت وسادته دفتراً سجّل له عليه أحدهم كلمات فرنسية بأحرف روسية. هئ هئ!». هكذا عدل إيڤان أخيراً عن شكوكه، وأصبح لا يفكر في أخيه ديمتري إلّا ويشعر باشمئزاز. ومع ذلك بقي هنالك شيء يبدو له غريباً: إن إيليوشا مايزال يدّعي، في إصرار، أن الجريمة لم يرتكبها ديمتري، وأن «أغلب الظن» أن سمردياكوف هو الجاني. ولقد كان إيڤان يحترم دائماً، في قرارة نفسه، آراء إيليوشا، لذلك كان موقف إيليوشا في هذه القضية يدهشه كثيراً. ومن الغريب أيضاً أن إيليوشا لم يسع يوماً إلى انتهاز فرصة يتحدث فيها إليه عن ميتيا، لا ولا كان البادىء في الكلام عن هذا الموضوع أبداً، وكان يقتصر على الاجابة عن الأسئلة التي يلقيها عليه أخوه. ذلك أمر أدهش إيڤان. جدير أن نلاحظ على كل حال أن إيڤان كان في تلك الفترة منهمكاً في مشاغل غريبة عن دعوى أخيه. فمنذ عودته من موسكو قد عاوده هيامه العنيف العارم بكاترينا إيڤانوفنا. ليس هنا مجال الكلام على هذا الحب الجديد الذي استبد بإيڤان فيودوروفتش والذي سيؤثر في مجرى مصيره. فذلك يمكن أن يكون موضوع قصة أخرى، موضوع رواية أخرى لست أدري بعد هل أكتبها في يوم من الأيام. ولكنني لا أستطيع مع ذلك أن أسكت عن تسجيله هذه الملاحظة الآن: وهي أن إيڤان حين رجع من منزل كاترينا إيڤانوفنا ليلاً بصحبة إيليوشا، قال لأخيه بأن هذه لا تهمه ولا يعنيه أمرها، إنما كان يكذب بلا حياء. فالحق أنه كان يحبها بجنون، رغم أنه صدق حين قال إنه يكرهها في بعض اللحظات كرهاً يبلغ من القوة أنه قادر على أن ينوي قتلها. ولهذا أسباب كثيرة: منها أن كاترينا إيڤانوفنا التي هزتها المأساة وهزها اعتقال ميتيا بقوة قد استقبلت إيڤان فيودوروفتش لدى عودته من موسكو استقبالها لمنقذ. كانت تشعر بأن الأحداث التي جرت قد أهانتها وأذلت عواطفها وجرحت كبرياءها، وها هو رجل كانت تحبه منذ زمن طويل - آ... نعم، هي تعرف أنها تحبه منذ زمن طويل - رجل كانت تحترم ذكاءه وقلبه على كل حال، ها هو يعود إليها. ولكن هذه الفتاة المتكبرة لم تستسلم كلياً رغم ما يتصف به هيام صديقها من

عنف مضطرب - وهو واحد من آل كارامازوف في هذه الناحية - ورغم ما تشعر به نحوه من عبادة. وكانت في الوقت نفسه تحس بعذاب الضمير يلاحقها ويطاردها باستمرار، لأنها خانت ميتيا، وكانت في اللحظات العاصفة من مشاجراتها مع إيڤان (وهي مشاجرات كانت تتكرر كثيراً في ذلك الأوان)، لا تتردد عن أن تصرخ في وجهه غاضبةً بشدة. وبسبب هذا الموقف الذي كانت تتخذه اتهمها إيڤان، في حديثه مع إيليوشا، بأنها تتلذذ بالكذب ويحلو لها أن تسترسل فيه. والحق أن سلوكها كان يشتمل على كثير من الكذب اللاشعوري، وذلك ما كان يغضب إيڤان فيودوروفتش بصورة خاصة... ولكننا سنعود إلى هذا فيما بعد. وحسبنا أن نقول الآن إن إيڤان كاد ينسى وجود سمردياكوف خلال بعض الوقت. غير أن الخواطر الغريبة التي سبق أن عذبته لم تلبث أن عاودته بعد أسبوعين من زيارته الأولى لسمردياكوف. ويكفي أن نقول إنه راح يتساءل بدون انقطاع، لماذا في هذه اللحظة بالذات، وفي ليلته الأخيرة، في منزل أبيه، وقبل سفره تماماً، نزل خفية، كالسارق، على السلم، ليتنصت على ما كان يفعل والده. لماذا شعر بعد ذلك باشمئزاز من تذكر هذا الأمر، ولماذا اجتاحت نفسه فجأة عند وصوله إلى موسكو كآبة عميقة، حتى قال في نفسه: «أنا وغد!»؟ وقد تبادر إلى ذهنه، ذات يوم، بسبب هذه الأفكار المعذبة التي ترهقه أن بإمكانه أن ينسى حتى كاترينا إيڤانوفنا بسبب عظم القوة التي كانت تستبد به. وفيما هو يجيل هذا الخاطر في رأسه في تلك اللحظة، التقى إيليوشا في الشارع، فاستوقفه ثم سأله:

- هل تذكر أنني في عصر اليوم الذي اقتحم فيه ديمتري منزل أبينا بعد الغداء، وضربه، قد قلت لك بعد ذلك إنني أحتفظ لنفسي «بحق الرغبة والتمني»؟ هل قدَّرت في ذلك اليوم أنني كنت أتمنى موت أبينا؟ أجب!

- نعم قدَّرت ذلك. قال إيليوشا بصوت خافت.

- كان ذلك هو الحقيقة على كل حال، ولا حاجة بالمرء إلى كبير مكرٍ حتى يدرك هذه الحقيقة. ولكن ألم تشعر في ذلك اليوم أنني كنت أتمنى فعلاً أن أرى «السراطين يلتهم بعضها بعضاً»، أي أن يقتل ديمتري أبانا، وأن يقتله بأقصى سرعة ممكنة... وأنني ما كان يسوؤني أن أساهم من جهتي في هذا الحادث؟ قل!...

اصفر لون إيليوشا قليلاً وحدَّق إلى عيني أخيه صامتاً.

صاح إيڤان يقول:

- هلّا تكلمت أخيراً؟ أريد أن أعرف، بأي ثمن، ما فكرت فيه يومذاك. أريد أن أعرف الحقيقة، الحقيقة، هل سمعت؟

وتنفس إيڤان تنفساً شاقاً، ونظر إلى أخيه إيليوشا بنوع من غضب مستبق.

- سامحني. تمتم إيليوشا. لقد قدَّرت ذلك أيضاً.

ولكن إيليوشا لم يلبث أن سكت دون أن يضيف ذكر أي «ظرف مخفف».

- شكراً. قال له إيڤان بجفاف، تاركاً إيليوشا ومتابعاً طريقه.

ومنذ ذلك اليوم أحسَّ إيليوشا أن أخاه يحاول أن يتجنبه، بل وأنه يشعر نحوه بشيء من الكره، بحيث أنه كفَّ هو نفسه عن زيارته. ولكن، في تلك اللحظة، مباشرة بعد لقائهما، ذهب إيڤان فيودوروفتش فجأة إلى سمردياكوف.

VII

الزيارة الثانية إلى سمردياكوف

في هذه اللحظة، كان سمردياكوف قد خرج من المستشفى. وكان إيڤان فيودوروفتش يعرف عنوانه الجديد: في ذلك البيت الخشبي الصغير الذي تداعى جزء منه، والذي يتألف من غرفتين اثنتين يفصل بينهما ممر مشترك. كانت إحدى الغرفتين تؤوي ماريا كوندراتيفنا وأمها، والغرفة الأخرى سمردياكوف. والله وحده يعلم على أي أساس سكن عندهما: أبصفته صديقاً أم مستأجراً؟ وقد افتُرِض، فيما بعد، أنه اتخذ مقره هناك بصفته خطيباً لماريا كوندراتيفنا، وبالتالي كان لا يدفع أجراً. والأم وابنتها كانتا تحترمانه كثيراً وتعتبرانه رجلاً متفوقاً. وبعد أن قرع إيڤان فيودوروفيتش الباب طويلاً، دخل الممر المشترك؛ ورافقته ماريا كوندراتيفنا إلى «الغرفة الجميلة» التي يسكنها سمردياكوف، فاتجه إليه قدماً لا يلوي على شيء مباشرة إلى اليسار. الغرفة مدفأة تدفئة شديدة بموقد من خزف. والجدران مغطاة بورق أزرق ممزق في مواضع عديدة، حيث تعيش حشراتٌ أصوات حركاتها لا تنقطع. والأثاث بائس: دكتان على طول الجدارين، وكرسيان قرب طاولة من خشب، بسيطة جداً، لكنها مغطاة بشرشف مشجَّر وردي اللون. وتزدان كل من النافذتين الضيقتين بأصص أزهار. وفي إحدى الزوايا تُرى إيقونات. وعلى الطاولة سماور من نحاس، صغير الحجم، كثير التقعّر، مع صينية وفنجانين. كان سمردياكوف قد انتهى من شرب الشاي، فالسماور قد أطفىء... وسمردياكوف جالس الآن على دكة قد دفعها نحو الطاولة، عاكف على كتابة شيء في دفتر. هذه محبرة صغيرة موضوعة في متناول يده، وتلك شمعة في شمعدان من البرونز تلقي ضوءاً ضعيفاً على طاولته. أدرك إيڤان فيودوروفتش من أول نظرة ألقاها على سمردياكوف أنه قد شُفي من مرضه. أصبح لونه أكثر نضارة، وخداه أقل خسوفاً، واسترد ذؤابة رأسه، وعاد يدهن شعره من جديد. يرتدي الآن معطفاً منزلياً زاهي الألوان مبطناً بقطن، لكنه «مهترىء» جداً. وعلى عينيه نظارتان لم يسبق لإيڤان أن رآهما من قبل، فكان من شأن ذلك الأمر التافه أن أغضب إيڤان. قال إيڤان لنفسه: «أهذا المخلوق يجرؤ أن يضع على عينيه نظارتين». ورفع سمردياكوف رأسه ببطء، وشخص بنظره إلى الزائر من خلال النظارتين محدّقاً. ثم خلعهما على مهل، ونهض متكاسلاً، بحركة تبدو فيها قلة الاحترام، كأنه يقوم بواجب تمليه اللباقة التي لا يملك أن يستغني عنها. سرعان ما أدرك إيڤان معنى هذا الوضع، وقد لاحظ نظرة سمردياكوف التي كانت تعبِّر عن الاستياء وعداوة وقحة، فكأنه يقول له: «ما الذي يحملك على إزعاجي هنا وقد سبق أن تكلمنا على كل شيء؟». كبح إيڤان جماح نفسه حتى لا ينفجر غيظاً. وقال له واقفاً وهو يحل أزرار معطفه:

- الحَرُّ شديد في غرفتك.

- اخلع معطفك إذن. أجابه سمردياكوف متلطفاً.

خلع إيڤان معطفه ورماه على الدكة، ثم تناول كرسياً بيد ترتجف غضباً، فأدناه من الطاولة بحركة عنيفة وجلس عليه. وكان سمردياكوف قد جلس قبله.

- قبل أن نبدأ: هل نحن وحدنا هنا؟ سأله إيڤان بلهجة قاسية ألا يسمعنا أحد في

الجهة الأخرى؟

- لا أحد يسمع شيئاً في الممر!

- اسمع يا صديقي: الكذبة التي قلتها لي في المرة الماضية عندما تركتك في المستشفى بأنك لن تخبر القاضي بكل ما جرى بيننا أمام المنزل إذا أنا لم أتكلم على حذقك في اصطناع نوبات الصرع والتظاهر بها؟ ما هي تلك «التفاصيل» التي أردت أن تشير إليها؟ إلى ماذا أردت أن تلمح؟ أردت أن تهددني؟ هل تريد أن تزعم أنني كنت متواطئاً معك وأنني اليوم خائف منك؟

كان إيڤان يتكلم بغيظ وغضب مكبوح، وكأنه كان يريد أن يبرهن بإلقاء هذه الأسئلة مباشرةً على أنه يكره المراوغة والدوران، وأنه يحب أن يلعب بالورق مكشوفاً على الطاولة. لمع التماعٌ خبيث في نظرة سمردياكوف، وبدأت عينه اليسرى تطرف، وأسرع يجيب قائلاً: لما عُهد فيه من تحفظ واعتدال، وكانت هيئته تشبه أن تقول: «أتريد الحقيقة؟ إذن سأقولها لك».

- ما أردت أن أقوله؟ إن ما أردت أن أقوله هو التالي تماماً: إنك تركت أباك بغير حماية، مع علمك سلفاً بمشروع قتله. لقد وعدتك بأن أسكت عن هذه النقطة، وأن لا أقول للسلطات شيئاً، حتى لا تستخرج منها نتائج سيئة في موضوع مشاعر الحقد التي كانت تجيش في نفسك، وربما في موضوع أمر آخر أيضاً.

قال سمرديياكوف هذه الكلمات على مهل، مسيطراً على نفسه تماماً فيما يبدو، ولكن لهجته كانت قد تغيرت، كما أن صوته أصبح فيه شيء من ثبات وإصرار، وشيء من شر وتحدٍّ في الوقت عينه. وحدَّق بوقاحة إلى إيڤان فيودوروفتش الذي أفقدته هذه الجرأة سيطرته على نفسه في الوهلة الأولى. قال إيڤان صائحاً:

- ماذا؟ كيف؟ هل أنت مجنون أو ماذا؟

- ثق أنني أملك عقلي كاملاً.

- ولكن لم يكن بإمكاني أن أتنبأ بجريمة القتل. قال إيڤان فيودوروفتش وهو يضرب الطاولة بقبضة يده ضربة عنيفة: وماذا تعني بهذه الكلمات: «وربما في موضوع أمرٍ آخر أيضاً»؟ تكلّم أيها الوغد؟

كان سمرديياكوف صامتاً، مصراً على النظر إلى إيڤان فيودوروفتش بنظرة وقحة.

- تكلم أيها الوغد العفن! صاح إيڤان فيودوروفتش: ما الذي تعنيه بالأمر «الآخر»؟

- الأمر الآخر الذي أردت قوله هو أنك كنت أنت نفسك تتمنى موت أبيك حينذاك.

قفز إيڤان فيودوروفتش من مكانه، ووجَّه إلى كتف الخادم لكمة عنيفة، فترنح هذا حتى اصطدم بالجدار، وغرق وجهه بالدموع، وتمتم قائلاً: ألا تخجل يا سيدي أن تضرب إنساناً لا يملك دفاعاً عن نفسه. ثم غطى عينيه بمنديل قذر ذي مربعات زرقاء، وراح يبكي بكاء صامتاً. وانقضت على ذلك دقيقة.

- كفى! كفَّ عن البكاء الآن. قال له إيڤان فيودوروفتش أخيراً بلهجة آمرة وهو يعود إلى الجلوس: إياك أن تُفقدني صبري! أزاح سمرديياكوف المنديل عن عينيه. كانت جميع قسمات وجهه الرث تعبِّر عن الإهانة التي أُلحقت به.

- أتخيلتَ إذن أيها الشقي أنني كنت أتمنى موت أبي، متفقاً مع ديمتري؟

- لم يكن في وسعي أن أعرف أفكارك حينذاك، أجاب سمردياكوف بلهجة جريحة. لذلك استوقفتك أمام المنزل لأمتحنك في هذه النقطة بعينها.

- ماذا تعني؟

- أردت أن أعرف هل أنت تتمنى أن يُقتل أبوك بأقصى سرعة أم لا؟

كانت هذه اللهجة الوقحة العنيدة التي يصر هذا الخادم على ألّا يتخلى عنها تثير غضب إيڤان فيودوروفتش.

- أنت الذي قتلته! صاح يقول له فجأة.

فضحك سمردياكوف ضحكة احتقار صغيرة، وقال:

- أنت تعلم جيداً أنني لست القاتل، قال سمردياكوف باحتكار. كنت أظن أن رجلاً ذكياً مثلك لا بد أن يوفر على نفسه مزيداً من إكثار الكلام في هذا الموضوع.

- ولكن لماذا، لماذا قامت في ذهنك شبهة كتلك الشبهة عني؟ قل لي: لماذا؟ تساءل إيڤان.

- كما تعرف جيداً. هو الخوف وحده. كنت في وضع يحملني الخوف فيه على الاشتباه في كل إنسان. لذلك قررت أن أسبرك أنت أيضاً، قائلاً لنفسي: إذا صدق أن إيڤان فيودوروفتش يتمنى ما يتمناه أخوه، فقد سوِّي الأمر، وسأهلك أنا في هذه المغامرة كذبابة لا تملك عن نفسها دفاعاً.

- اسمع: إنك لم تكن تتكلم على هذا النحو منذ أسبوعين.

- في المستشفى أردت أن أُفهمك هذا كله أثناء الحديث الذي دار بيننا، ولكنني افترضت أنك تفهم بلا أقوال زائدة، وأنك ما كنت تريد نقاشاً مباشراً.

- عجيب. ولكن أجبني، أجبني، إنني أصرُّ: كيف أمكن أن تنبت في نفسك الدنيئة تلك الشبهة الحقيرة؟ على ماذا أقمت ذلك الاشتباه ضدي؟

- بالنسبة إلى القتل، لم تكن تريد أن تقتل أباك بنفسك. وأما أن يتولى قتله عنك شخص آخر فلقد كنت تتمنى ذلك!

- ويقول هذا الكلام بهدوء، بهدوء! لأي غرض كان يمكنني أن أتمنى ذلك؟ ما الذي كنت أرجوه من مقتل أبي؟

أجاب سمردياكوف بلهجة انتقامية:

- لأي غرض؟ ما هذا السؤال؟ هو الميراث طبعاً. كان كل واحد منكم، أنتم الثلاثة، سيرث عن أبيه عند موته أربعين ألف روبل في أقل تقدير، وربما أكثر من ذلك. ولكن لو تزوج فيودور بافلوفتش تلك المرأة، أقصد أغرافينا ألكسندروفنا، لوضعت يدها على الثروة كلها بعد الزواج، ولما نلتم منها أنتم الإخوة الثلاثة حتى ولا ألفي روبل. معنى ذلك لو تمَّ هذا الزواج لشنقكم من أنوفكم. لقد كان هذا الزواج أمراً يسيراً: كان يكفي أن ترفع تلك المرأة إصبعها الصغيرة حتى يأخذها أبوكم إلى الكنيسة صاغراً طائعاً.

استطاع إيڤان فيودوروفتش أن يكظم غيظه بكثير من العناء. وقال له أخيراً:

- جيّد. أنت ترى أنني لم أثب من مكاني لأضربك، وأنني لم أقتلك بسبب أقوالك هذه. أتمم كلامك: أنت تتصور إذن أنني تركت لأخي ديمتري مهمة ارتكاب الجريمة، وأنني في قرارة نفسي قد عوَّلت عليه، أليس كذلك؟

- وكيف لا تعوِّل عليه؟ المسألة واضحة: حين يقتل أخوك أباه، فإنه يفقد امتيازات النبالة، ويفقد رتبته وثروته ويُنفى إلى سيبيريا. وبذلك تعود إليك وإلى أخيك ألكسي فيودوروفتش حصّته من ميراث أبيه، ويقسَّم بينكما، فلا يكون حظ كل واحد منكما أربعين ألفاً بل ستين ألفاً. لا شك أبداً في أنك عوَّلت على ديمتري فيودوروفتش لتحقيق هذه الغاية والوصول إلى هذه النتيجة!

- عجيب أنني أحتمل أقوالك! اعلم أيها الشقي أنني لو عوَّلت على أحد لعوَّلت عليك أنت لا على ديمتري! وأقسم أنني أحسست فعلاً أثناء ذلك الحديث بأنك مقبل على ارتكاب حقارة ما... إنني أتذكر ذلك الاحساس الذي هجس في قلبي بوضوح تام!

- أنا أيضاً أحسست أثناء ذلك الحديث أنك تعوِّل عليَّ. أجاب سمردياكوف ساخراً: لقد خطر هذا على بالي لحظة عابرة، ولكن ما كان لهذا الأمر إلّا أن يزيدني اقتناعاً برغبتك في وقوع الجريمة. فما دمت قد قدَّرت أنني أبيِّت جريمة، فلقد كان سفرك رغم ذلك لا يعني إلّا أنك تقول لي: «اقتل أبي إن شئت، فلست أعارض في هذا».

- أنت وغد حقير! أهكذا فهمت سلوكي إذن؟

- السبب هو ذلك السفر إلى تشرماشنيا يا سيدي. فكِّر قليلاً: كنتَ قد قررت أن تسافر إلى موسكو، ورفضت رغم إلحاح أبيك أن تذهب إلى تشرماشنيا؛ ثم إذا بك توافق فجأة على أن تذهب إلى تشرماشنيا استجابةً لبضع كلمات سخيفة قلتها أنا، فلماذا ارتضيت السفر إلى تشرماشنيا لا إلى موسكو؟ ما دمت قد غيَّرت قرارك بدون سبب إلّا ما أوحيت به أنا إليك، فلا معنى لهذا غير أنك كنت تنتظر شيئاً مني أنا.

- لا، لا، أقسم لك. صاح إيڤان «كازاً» على أسنانه.

- كيف لا؟ لقد كان من واجبك، خلافاً لما حدث، أن تستدعي الشرطة وتطلب منها اعتقالي فوراً لأنني قلت تلك الأقوال لك أنت، ابن فيودور بافلوفتش! كان من واجبك على الأقل أن تقتلني في مكاني! ولكنك بدلاً من ذلك، ودون أن تغضب، غيَّرت قرارك حالاً واتبعت النصيحة الغبية التي أسديتها إليك. ثم إن ذلك السفر إلى تشرماشنيا كان سخيفاً، كان عليك أن تبقى هنا قرب أبيك لتحميه... فكيف لا أستخرج من سلوكك ذاك بعض النتائج؟

بقي إيڤان جالساً، متجهّم الوجه، قابضاً كفيه على ركبتيه.

- كان عليَّ أن أضربك حينذاك. قال وهو يبتسم بمرارة: أما أن تعتقلك الشرطة فقد كان ذلك مستحيلاً: لم يكن في إمكاني أن أتهمك بأي شيء محدد، ولو اتهمتك لما صدقوني. ولكن كان يجب عليَّ أن أضربك، نعم كان يجب عليَّ أن أضربك. وكان في وسعي أن أحطم وجهك مسروراً، رغم أن ذلك محظور.

كان سمردياكوف يتأمله وقد لاح في وجهه ما يشبه الافتتان.

وقال سمردياكوف بتلك اللهجة البلاغية التي كان يصطنعها في الماضي أثناء مناقشاته عن الإيمان مع غريغوري فاسيلتش عندما كان يحاول أن يشاكسه في خلافات

لاهوتية وهو يقف قرب طاولة فيودور بافلوفتش:

- صحيح أن استخدام القوة أمر يحظره القانون، وأن الناس قد عدلوا عن هذا في أيامنا هذه. ذلك في الأحوال العادية. أما في الأحوال الاستثنائية فالناس ما يزالون يضربون أقرانهم البشر، تماماً كما كانوا يفعلون في عهد آدم وحواء. وهذا لا يجري في بلادنا وحدها، بل في العالم بأسره، وحتى في أجمل الجمهوريات، كالجمهورية الفرنسية، وسيظل الأمر كذلك. وأنت لم تجـرؤ أن تضربني في تلك الحالة الاستثنائية التي نحن بصددها.

- لماذا تتعلم كلمات فرنسية؟ سأله إيڤان وهو يومىء إلى الدفتر الموضوع على الطاولة.

- ولماذا لا أتعلم أنا الفرنسية؟ أريد إتمام تحصيلي، فربما قادتني الظروف إلى أن أعيش ذات يوم، أنا أيضاً، في تلك البلاد السعيدة، بلاد أوروبا.

- اسمع أيها المسخ! صاح إيڤان وقد سطعت عيناه وارتعد غضباً. أنا لا أخشى اتهاماتك، وبإمكانك أن تشهد عليَّ كما تشاء. ولئن لم أضربك حتى الموت في هذه اللحظة نفسها، فإن السبب الوحيد الذي يجعلني أغيِّر رأيي هو أنني أشتبه في أن تكون أنت الجاني، ولا أريد أن أنقذك من العدالة. سأعرف كيف أنزع عنك القناع، صدقني!

- أنا أرى أنه من الأفضل أن تسكت فلا تقول شيئاً. ما الذي يمكنك أن تستند إليه لاتهام بريء، ومن الذي يمكن أن يحمل كلامك على محمل الجد؟ أحذرك منذ الآن: إذا أنت تصرفت هذا التصرف، فلأقولنَّ من جهتي كل شيء، إذ لا بد لي من أن أدافع عن نفسي.

- أتظن أنني أخاف منك؟

- افترض أن المحكمة لم تقم أي وزن لأقوالي ولم تهتم بأيّ شيء مما قلته لك في هذه اللحظة: سيصدق الناس كلامي، فيُطعن من هذا شرفك، وتُلطخ بالسوء سمعتك.

- هو الأمر نفسه دائماً: يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي. أهذا ما تعنيه بتلك العبارة إذن؟ سأله إيڤان وهو يصرف بأسنانه:

- هو بعينه. ستتصرف كرجل ذكي.

نهض إيڤان فيودوروفتش وهو يرتجف استياءً، وارتدى معطفه، وأسرع يخرج دون أن يكلف نفسه عناء الردِّ على سمردياكوف، وحتى دون أن ينظر إلى الوراء. وقد أحسن إليه الهواء الطري الذي يشيع في جو المساء. كان القمر يضيء السماء. وكان إيڤان يشعر باختناق من ذلك الازدحام الرهيب للخواطر المبعثرة والاحساسات المضطربة التي تجيش في نفسه: «هل أمضي أشي بسمردياكوف فوراً؟ ولكن ما الذي أستطيع أن أقوله ضدَّه؟ ليس هو القاتل على كل حال. بالعكس: هو الآن يتهمني أنا... حقاً، لماذا سافرت إلى تشرماشنيا؟ لأي غرض، لأي هدف؟ نعم نعم... هذا صحيح، هذا واضح، لقد كنت أتوقع شيئاً... إن ذلك الوغد على حق فيما قال...». بهذا كان إيڤان يحدث نفسه. وتذكّر، ربما للمرة المئة، أنه تجسس على حركات أبيه، متسللاً على السلّم أثناء الليلة الأخيرة التي قضاها عنده، ولكن هذه الذكرى بلغت من إيلامه أنه تجمد في مكانه كأن طعنةً نفذت في قلبه، وقال يخاطب نفسه: «هذا صحيح، لقد تمنيت ذلك. لقد توقعته... صحيح! نعم، كنت أتمنى وقوع جريمة القتل هذه، كنت أريد وقوعها! هل كنت أتمنى وقوع هذه الجريمة فعلاً، هل كنت أتمناها حقاً أم لا؟... يجب قتل سمردياكوف... إذا لم تسعفني الشجاعة اليوم لقتل سمردياكوف، فإن الحياة لن تستحق مني أن أعيشها». لم يعد إيڤان إلى منزله، بل ذهب مباشرة إلى منزل كاترينا

إيڤانوفنا التي روَّعها ظهوره: كان زائغ النظرة تائهاً، فإذا رآه أحد أحس أنه قد جُن. قصَّ على كاترينا إيڤانوفنا جميع تفاصيل اجتماعه بسمردياكوف، لم يُسقط منها كلمة واحدة، ولم يفلح في تهدئة نفسه رغم نصائحها، وكان لا ينفك يروح ويجيء في الغرفة قائلاً كلمات غريبة مضطربة. ومع ذلك جلس آخر الأمر، واضعاً كوعيه على الطاولة، جاعلاً رأسه بين يديه، وقال هذه الحكمة الغريبة:

- إذا لم يكن ديمتري هو القاتل بل سمردياكوف فإنني أكون عندئذ شريكه في هذه الجريمة، لأنني أنا الذي حرضته على القتل. الواقع أنني لا أعرف أنا نفسي بعدُ هل دفعته إلى الجريمة أم لا. ولكن إذا كان هو الذي قتل، لا ديمتري، فعندئذ أكون أنا القاتل.

عند سماع هذه الكلمات، نهضت كاترينا إيڤانوفنا دون أن تقول شيئاً، فاقتربت من مكتبها، ففتحت درجاً صغيراً أخرجت منه ورقة وضعتها أمام إيڤان. هي الوثيقة عينها التي سيقول إيڤان فيودوروفتش لأخيه إيليوشا فيما بعد إنها تثبت بيقين رياضي أن ديمتري هو الذي ارتكب جريمة قتل أبيهما. إنها رسالة كتبها ميتيا إلى كاترينا إيڤانوفنا وهو في حالة سكر، مساءَ التقائه إيليوشا في الحقول حين كان إيليوشا راجعاً إلى الدير بعد المشهد الذي أهانت فيه غروشنكا غريمتها كاترينا إيڤانوفنا. فإن ميتيا، بعد أن ترك إيليوشا في ذلك اليوم، أسرع إلى غروشنكا. لا ندري هل وجدها في منزلها. ولكنه شوهد تلك الليلة في كاباريه «العاصمة الكبرى» يفرط في الشراب، حتى إذا أخذ منه السكر مأخذه، أمر أن يُؤتى بريشة وورقة، فكتب وثيقة تشهد عليه وتدينه. هي رسالة ملتهبة، هي سلسلة من جمل مضطربة تليق بسكير حقاً، تذكِّرُقليلاً بالخطب التي يلقيها السكارى حين يرجعون إلى منازلهم فيقصون على زوجاتهم بحرارة وحماسة شديدة أنهم قد أهينوا إهانات خطيرة، وأن الذي أهانهم إنسان حقير، أما هم فرجال عظماء سيعرفون كيف يؤدبون الوقح الذي اعتدى عليهم. كتب ميتيا هذه الرسالة مفيضاً، وهو في حالة هياج شديد، فكان يرصف جملاً لا ترابط بينها، ويضرب على الطاولة بقبضة يده من حين إلى آخر، ويبلل الورقة بدموع من بلغ به السكر أشده. وكانت الورقة التي أُعطيت له في الكاباريه رديئة وسخة قد خربش أحدهم على ظهرها بعض الحسابات، ومن أجل أن تتسع الورقة للكتابة، ملأ ميتيا هوامشها، حتى إن العبارات الأخيرة التي انطلقت تعبر عن عواطفه في إطناب السكارى قد خُطَّت عرضاً لا طولاً. وإليكم مضمون تلك الرسالة: «كاتيا المقدّرة! سوف أجد المال غداً، وسوف أرد إليك الثلاثة آلاف روبل حتى أستطيع أن أتركك، يا امرأة شديدة الغضب! لننته من هذا الأمر! سأحاول غداً أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أوفق، فلك عليَّ عهد الشرف أن أذهب إلى أبي فأهشّم جمجمته، وأستولي على المال الذي يخبئه تحت وسادته... شريطة أن يكون إيڤان غائباً! إنني أرتضي أن يُحكم عليَّ بالسجن مع الأشغال الشاقة، ولكنني سأرد إليك الثلاثة آلاف روبل. أما أنت، فوداعاً! إنني أنحني أمامك حتى الأرض، لأن الذي يحييك إنسان شقي! سامحيني. لا... لا تسامحيني! ذلك أسهل، عليَّ وعليك! إنني أفضّل السجن على حبك، لأنني أحب امرأة أخرى، وأنت استطعت أن تعرفيها اليوم، فكيف يمكنك أن تسامحيني بعد هذا؟ سأقتل الرجل الذي سرقني! سأبتعد عنكم جميعاً، إلى المشرق حيث لا أعود أعرف أحداً، حتى هي، لأنك لست الإنسانة الوحيدة التي تعذبني، هي أيضاً، العذاب نفسه. وداعاً!.

حاشية: إنني ألعنك، وفي الوقت نفسه أعبدك! أشعر بقلبي يخفق في صدري! ما يزال هنالك وتر يهتز لك. أفضّل أن يتحطم هذا القلب. سأقتل نفسي، ولكنني سأقتل ذلك الكلب أولاً. سأنتزع منه الثلاثة آلاف روبل، وأرميها إليك. ربما أكون وغداً أمامك، لكني لست سارقاً! ستحصلين على الثلاثة آلاف روبل. المبلغ مخبأ عند ذلك الكلب تحت الوسادة، يلفه شريط وردي اللون. أنا لست لصاً، لكنني سأقتل اللص. لا تحتقريني يا كاتيا: ليس ديمتري لصاً بل هو قاتل. قتل أباه وضيَّع نفسه حتى يستطيع أن يقف أمامك منتصب القامة، وحتى

لا يكون عليه أن يواجه كبرياءك، وأن يكف عن حبك.

حاشية: أقبِّل قدميك. وداعاً.

حاشية: كاتيا! صلِّي إلى الله أن يقرضوني المال، فما أضطر إلى أن أسفح دماً. أما إذا لم يقرضوني فسوف يجري الدم! اقتليني!

خادمك وعدوّك د. كارامازوف

قرأ إيڤان «الوثيقة» واتضح له الآن أن القاتل هو أخوه وليس سمردياكوف. وما دام الخادم بريئاً، فليس عليه هو إيڤان، أن يتهم نفسه بشيء. ومنذ تلك اللحظة أصبح يحمِّل هذه الرسالة دلالة رياضية، وأصبح لا يساوره أي شك في أن ميتيا هو القاتل. يجدر بالذكر هنا أنه لم يخطر ببال إيڤان في أيّ لحظة أن يفترض أن جريمة القتل التي ارتكبها ميتيا قد تمَّت بالتواطؤ مع سمردياكوف. ثم إن مثل هذا الافتراض لا ينسجم مع الوقائع. خلاصة القول إن هذه الرسالة قد حملت إلى إيڤان طمأنينة تامة، فلما أصبح في الغداة وتذكر سمردياكوف وسخرياته لم يشعر إلّا باحتقار، حتى إنه بعد بضعة أيام استغرب أن يكون قد شعر بذلك الألم من الغمزات المهينة التي وجهها إليه سمردياكوف. وقرر أن يتجاهله في المستقبل وأن ينساه. ثم لم يسأل عن سمردياكوف أحداً ممن يعرفونه بعد ذلك، ولكنه سمع مرةً أو مرتين أن سمردياكوف مريض جداً وأنه فقد عقله؛ وقال عنه الطبيب الشاب فارفنسكي، وفي ذات يوم، إنه «سيهوي إلى الجنون»، فحفظ إيڤان هذه العبارة. وخلال الأسبوع الأخير من هذا الشهر بدأ إيڤان يشعر هو نفسه بأنه مريض، فقرر أن يستشير الطبيب الذي استقدمته كاترينا إيڤانوفنا من موسكو. وفي تلك الفترة بعينها كانت علاقاته بها قد توترت جداً، فهما يتعاملان كعدوَّين يحب كل منهما الآخر. كانت رجعات كاترينا إيڤانوفنا إلى الهيام الشديد بميتيا، وهي رجعات طارئة لكنها عنيفة تُخرج إيڤان عن طوره وتغضبه. شيء غريب: إن إيڤان، إلى أن وقع ذلك المشهد الأخير الذي وصفناه والذي جرى في منزل كاترينا إيڤانوفنا حين زارها إيليوشا بعد زيارته ميتيا، لم يسمع كاترينا إيڤانوفنا مرةً واحدة طوال الشهر، تعبِّر عن أي شك في أن ميتيا هو القاتل، رغم «رجعاتها» إلى هيامها به من حين إلى آخر، وهي رجعات كانت ثقيلة الوطأةعلى نفس إيڤان. ومن الأمور البارزة أن إيڤان، رغم إحساسه بتزايد كرهه لميتيا يوماً بعد يوم، كان يدرك تماماً أن كرهه لأخيه لم يكن سببه «رجعات كاتيا» هذه إلى التوله بها، بل كان سببه أن «أخاه قد قتل الأب». كان إيڤان يعي ذلك تماماً، ومع ذلك ذهب يزور ميتيا في السجن قبل بدء المحاكمة بعشرة أيام، عارضاً عليه خطةً للهرب، وهي خطة كان واضحاً أنه أعدها منذ مدة طويلة. وإنما قرر إيڤان أن يقوم بهذا المسعى بسبب الغضب الشديد الذي أثاره في نفسه قول سمردياكوف، غامزاً، إنه، هو إيڤان، جنى نفعاً من اتهام أخيه ديمتري بالقتل، لأن نصيبه ونصيب إيليوشا من الميراث سيرتفعان عندئذ من أربعين ألفاً إلى ستين ألفاً. إن الجرح الصغير الذي أصاب قلبه من هذا الكلام الذي قاله سمردياكوف لم يندمل. لذلك قرر أن يضحي وحده بثلاثين ألف روبل ليدبر هرب ميتيا. وعندما رجع إيڤان من السجن بعد أن عرض هذا المشروع على أخيه، أحسَّ بحزن شديد واضطراب يستوليان عليه: لقد تراءى له فجأة أنه يتمنى هرب أخيه من السجن لا ليتاح له أن يضحي بثلاثين ألف روبل وأن يشفي جرح قلبه، لا لهذا فحسب، بل لسبب آخر أيضاً. لقد تساءل: «تُرى ألست أتمنى ذلك لأنني في قرارة نفسي قاتل «كأخي سواء بسواء؟»». وهذا ألم غامض بعيد، ولكنه لاذع، يستيقظ في قلبه. وكانت كبرياؤه خصوصاً هي التي قاست كثيراً خلال هذا الشهر، لكننا سنعود إلى ذلك فيما بعد... حين أمسك إيڤان جرسَ بيته بعد أن ترك إيليوشا، قرر فجأة أن يرجع بسرعة ليذهب إلى سمردياكوف. وعندما قرر ذلك إنما خضع لغضب مفاجيء مردُّه إلى سبب خاص. ذلك أنه تذكر في تلك اللحظة أن كاترينا إيڤانوفنا قد صرخت تقول له أمام إيليوشا منذ

دقائق إنه هو وحده الذي حاول أن يقنعها بأن ميتيا هو القاتل. فحين تذكر إيڤان هذا الكلام أصيب بذهول شديد: لم يحاول أن يقنعها في يوم من الأيام بأن القاتل هو ميتيا. بالعكس: لقد اتهم نفسه أمامها بعد زيارته لسمردياكوف. إنها هي، هي التي وضعت أمام عينيه الوثيقة وبرهنت له أن القاتل هو ميتيا. وها هي تصرح له فجأة أنها ذهبت هي نفسها إلى سمردياكوف! متى ذهبت إلى سمردياكوف إذن؟ إن إيڤان لا يعرف عن ذلك شيئاً. لم تكن واثقة كثيراً بأن ميتيا هو القاتل؟ ما الذي يمكن أن يكون سمردياكوف قد قال لها؟ ما الذي قاله لها على وجه الدقة؟ استولى الغضب على إيڤان، واستغرب كيف سمح قبل نصف ساعة، لتلك الكلمات أن تمر، ولم ينفجر حينذاك؟ أرخى جرس منزله، وأسرع إلى سمردياكوف. وهو يردد أثناء الطريق: «ربما أقتله في هذه المرة!».

VIII

اللقاء الثالث والأخيرمع سمردياكوف

كان في منتصف الطريق عندما هبَّت ريح جافة وقارصة تشبه الريح التي هبت في الصباح. وأخذ ينهمر ثلج جاف كثيف يغطي الأرض. كان الثلج يسقط على الأرض دون أن يلتصق بها، فتكنسه الريح ثم تهب بسرعة عاصفة قوية. إن الحيَّ الذي يقيم فيه سمردياكوف من المدينة لا يوجد فيه مصابيح. فكان إيڤان يمشي بخطى طويلة في الظلام غير عابىء بزوبعة الثلج، متبعاً طريقه على هدي غريزته. كان في رأسه صداع، والدم يطرف في صدغيه بشكل مؤلم، ويداه تتشنجان. وعلى مسافة قصيرة من بيت ماريا كوندراتيفنا التقى إيڤان فيودوروفتش فلاحاً صغيراً سكران، يلبس معطفاً مرقعاً، ويسير مترنحاً، ومتوعداً، ويقطع سبابه من حين إلى آخر فيأخذ في الغناء بصوت أجش من أصوات السكارى:

سافر فانكا إلى بطرسبورغ

ولست أنا من ينتظره!

ولكنه كان يتوقف عن الغناء كلما وصل إلى البيت الثاني من الأغنية، فيستأنف شتم أحد الناس، ثم يعود إلى لازمته. كان إيڤان قد سمع أصواته منذ برهة، فشعر نحوه بحقد عنيف لا شعوري حتى قبل أن يراه. ولم يلبث أن أدرك سبب حقده، فودَّ لو يقتل الرجل بضربة يهوي بها على رأسه. وبينما هو كذلك إذ أصبح الاثنان جنباً إلى جنب، وكان الفلاح الصغير يترنح في مشيته فصدم إيڤان صدمة قوية، فما كان من هذا الأخير إلّا أن دفعه غاضباً، فسقط السكران على الأرض المتجلدة بعد أن أطلق أنةً أليمة ثم لبث صامتاً. مال إيڤان على الرجل، فرآه نائماً على ظهره مغشياً عليه. فقال في نفسه: «سيتجمد من البرد»، ثم تابع طريقه باتجاه سمردياكوف.

وفي مدخل منزل سمردياكوف، همست له ماريا كوندراتيفنا التي أسرعت تستقبله حاملةً بيدها شمعداناً، أن بافل فيودوروفتش (أي سمردياكوف) مريض جداً، وأنه إن لم يلزم فراشه حتماً، فإنه لا يبدو مالكاً عقله، حتى لقد رفض شرب الشاي الذي قُدِّم إليه.

- لماذا، أهو عنيف أو ماذا؟ سألها إيڤان بلهجة فظة.

- بالعكس: إنه هادىء جداً، ولكنك تحسن صنعاً إذا لم تُطل حديثك معه حتى لا تتعبه... قالت ماريا كوندراتيفنا.

فتح إيڤان فيودوروفتش الباب، ودخل غرفة الخادم.

كانت الغرفة مدفأة كما في الزيارة الأخيرة، غير أن هناك تغيرات طرأت على ترتيب الأثاث: أُبعدت إحدى الدكتين ووُضعت في مكانها كنبة عتيقة عريضة من جلد، لها مسند من خشب يشبه خشب الأكاجو؛ وجُعلت هذه الكنبة سريراً عليه وسائد نظيفة. كان سمردياكوف

جالساً على تلك الكنبة مرتدياً معطف المنزل ذاك الذي كان يرتديه أثناء الزيارتين السابقتين. وقد دُفعت الطاولة نحو الكنبة، فأصبح المكان في الغرفة ضيقاً. وكان على الطاولة كتاب سميك ذو غلاف أصفر، لكن سمردياكوف لم يكن يقرأ، وكان يبدو غير عاكف على القيام بأي عمل أبداً. استقبل إيڤان بنظرة طويلة صامتة، ولم يظهر عليه أي استغراب لهذه الزيارة. وكانت قسمات وجهه قد انقلبت كلياً أثناء تلك الفترة. كان وجهه ناحلاً أصفر اللون، وكانت عيناه غائرتين، وجفناه السفليان مزرقّين. قال إيڤان فيودوروفتش للخادم وهو يقف أمامه:

- إنك تبدو مريضاً حقاً! لن أمكث مدة طويلة، ولن أخلع معطفي. هل من كرسي لي؟

ودار حول الطاولة، وتناول كرسياً فدفعه نحو الكنبة وجلس.

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟ قال إيڤان لقد جئت لألقي عليك سؤالاً واحداً في هذه المرة. ولكنني أقسم لك أنني لن أنصرف قبل أن تجيبني. هل جاءت إليك كاترينا إيڤانوفنا؟

صمت سمردياكوف برهة طويلة وهو ما يزال يحدِّق إلى إيڤان بهدوء. ثم حرك يده بإشارة تململٍ، وأشاح وجهه.

- ما بك؟ سأله إيڤان.

- لا شيء!

- كيف لا شيء؟

- لقد جاءت! حسناً؟ دعني وشأني يا سيدي!

- لا، لن أدعك. متى جاءت؟

- لم أعد أفكر في ذلك. ثم التفت نحو إيڤان، وألقى عليه نظرة مثقلة بحقد هو ذلك الحقد الشديد نفسه الذي سبق لإيڤان أن رآه في عينيه خلال اجتماعه السابق به منذ شهر.

- يبدو أنك مريض. قال سمردياكوف. عجيب! إن خديك خاسفان، وإن قسمات وجهك منقلبة.

- دعك من صحتي وأجب عن سؤالي.

- ولماذا اصفرت عيناك؟ لقد اصفر بياض عينيك يا سيدي. لعل ذلك يرجع إلى أنك تتألم كثيراً.

قال سمردياكوف ذلك وهو يطلق ضحكة احتقار من جديد، ثم راح يقهقه صراحةً.

- اسمع: لن أنصرف من عندك قبل أن تجيبني. صاح إيڤان وقد بلغ ذروة الغضب.

- لماذا تعذبني؟ ماذا تريد مني؟ قال سمردياكوف بلهجة أليمة.

- ليأخذك الشيطان. أنا لا أهتم بك أنت. أجبني فأنصرف حالاً.

- لن أجيبك! قال سمردياكوف وهو يغض طرفه من جديد.

- سأعرف كيف أرغمك على أن تجيبني. صدّقني!

سأله سمردياكوف وهو يحدِّق إليه، معبراً في هذه المرة لا عن احتقار فحسب، بل عن شعور يشبه الاشمئزاز والتقزز أيضاً:

- لماذا أنت مضطرب؟ أبسبب تلك المحاكمة التي تبدأ غداً؟ ولكن لا خوف عليك أنت، اطمئن أخيراً. ارجع إلى منزلك، ونم هادىء البال، ونم مرتاحاً لا يساورك أي خوف!

- لا أفهمك... ما الذي يمكن أن أخشاه أنا من الغد؟ قال إيڤان بدهشة، ثم لم يلبث أن شعر بخوف غريب يجتاح نفسه ويبث برداً في ظهره. ألقى عليه سمردياكوف نظرة فاحصة من أخمص قدميه إلى قمة رأسه، ثم قال له بلهجة بطيئة ملؤها العتب:

- آه.. لا... تفـ... هم؟ أية لذة يجد الرجل الذكي في تمثيل مهزلة كهذه؟

نظر إليه إيڤان صامتاً. إن هذه اللهجة غير المتوقعة، المليئة بتعال غير معهود، التي كلمه بها خادمه القديم، كانت وحدها كفيلة بأن تدهشه، لأن سمردياكوف لم يسمح لنفسه حتى الآن، حتى أثناء اجتماعيهما السابقين، أن يصطنع هذا الوضع.

- أكرر أن لا خوف عليك، فلا تخشَ شيئاً؛ لن أشهد ضدَّك، وليس هناك أي برهان يمكن الاستناد إليه لاتهامك أنت. ما هذا؟ لماذا ترتجف يداك؟ لماذا ترتجف أصابعك هكذا؟ عد إلى منزلك. لست أنت القاتل!

ارتعش إيڤان متذكراً كلمات إيليوشا.

- أعرف هذا. لست أنا... تمتم يقول.

- تعرف هذا؟ كرر سمردياكوف.

فوثب إيڤان وأمسكه من كتفه.

- تكلم، قل الحقيقة أيها الثعبان! قل كل ما تعرفه!

لم يظهر على سمردياكوف أنه خاف أبداً، واكتفى بأن ألقى على إيڤان نظرة مثقلةً بحقد شديد. ثم انطلق قائلاً بصوت مسموم:

- حسناً؟ اعلم إذن أنك أنت الذي قتلته.

فتهالك إيڤان على كرسيه، وبدا عليه الغوص في أفكاره.

ثم ابتسم بغضب.

- أتقول هذا بصدد تلك القصة نفسها؟ تلك الاستنتاجات الغبية التي حدثتني فيها المرة الماضية؟

- تماماً. ثم إنك قد فهمتني في المرة الماضية جيداً، وأنت تفهمني اليوم أيضاً.

- أفهم فقط أنك مجنون.

- ألم تكتفِ بعد؟ نحن هنا وحيدان، وليس ثَمَّة شهود. فلماذا يخادع أحدنا الآخر؟ اللهم إلّا أن تكون ما تزال تنوي أن تلقي التبعة كلها عليَّ، عليَّ وحدي! ألا تشعر بخجل مني؟ إنك أنت القاتل، القاتل الحقيقي، أما أنا فلم أكن إلّا مساعدك، لم أكن إلّا خادمك الأمين. لقد قمت بما قمت به مستلهماً أقوالك.

- أأنت الذي قتلته إذن؟ سأله إيڤان وهو يشعر بأنه قد تجمد.

أحسَّ إيڤان بصدمة في رأسه، وسرت في جسمه ارتعاشات باردة. فنظر إليه سمردياكوف عندئذ بدهشة. كان صدق الخوف الذي أصاب إيڤان قد خطف بصره أخيراً.

- هل يُعقل حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً؟ تمتم سمردياكوف وهو مايزال ينظر إليه نظرة مواربة ويحبس ضحكة ساخرة.

ظل إيڤان يتفرس في الخادم، وكأنه أصبح أبكم لا يستطيع الكلام. وترجَّعت في رأسه هذه اللازمة:

سافر فاتنكا إلى بطرسبورغ

لكنني لن أنتظره!

ثم قال أخيراً:

- إني أتساءل. أخشى أن أكون في حلم؟ ألا يمكن أن تكون شبحاً ظهر لي؟

- لا شبح هنا. لا أحد إلّا نحن الاثنين، وثالثاً أيضاً. وهو الآن هنا ذلك الثالث، هو حاضر بيننا حتماً في هذه اللحظة.

- من «هو»؟ من؟ «من هنا»؟ عن أي «ثالث» تتكلم؟ سأله إيڤان فيودوروفتش مذعوراً، وهو ينظر حوله، ويبحث بعينيه القلقتين عن أحدٍ في الزوايا.

- الثالث هو الله. أليس كذلك؟ قال سمردياكوف. إن الله حاضر بيننا الآن. ولكن لا تبحث عنه، لأنك لن تراه.

انفجر إيڤان وصاح:

- كذبتَ حين زعمت أنك أنت الذي قتلته. أمران لا ثالث لهما: فإما أنك مجنون، وإما أنك تسخر مني كما فعلت في المرة السابقة!

بقي سمردياكوف هادئاً. ولم يحفل بغضب إيڤان، وإنما كان يتفرس فيه بانتباه. لم يستطع أن يتغلب على شكه، لأنه كان يتصور، حتى في هذه اللحظة، أن إيڤان «يعرف كل شيء»، وأنه يتظاهر بالجهل، «بغية أن يلقي التبعة كلها عليه، هو سمردياكوف، وأن يجبره على قبول هذا الوضع».

- انتظر قليلاً. قال بصوت ضعيف. وسحب ساقه اليسرى من تحت الطاولة، وأخذ يشمر بنطاله.

ظهرت قدمه في حذاء المنزل، ثم ظهر جورب طويل أبيض. وبدون تعجل، حلَّ حمّالة الجورب، وغطس يده إلى القاع. كان إيڤان فيودوروفتش ينظر إليه وهو يفعل ذلك، فإذا هو يأخذ بالارتعاش، وإذا بذعر متشنج يستولي عليه.

- لقد جُنَّ! صاح قائلاً.

ثم قفز عن مكانه. وتراجع إلى الوراء بحركة قوية جعلته يصدم الجدار بظهره، ثم لبث لاصقاً بالجدار، متصلباً كعصا.

كان يتأمل سمردياكوف بهلع لا حدود له. لم يضطرب سمردياكوف من ذعر إيڤان، واستمر يفتش في قاع جوربيه، محاولاً أن يقبض بأصابعه على شيء مخبأ هناك. ووجد هذا الشيء أخيراً، فأخرجه. رأى إيڤان أن هذا الشيء هو أوراق أو حزمة من أوراق. ووضع سمردياكوف الحزمة على الطاولة.

- هو ذا! قال بصوت خافت.

- ما هذا؟ سأله إيڤان الذي كان يرتعش.

- تفضَّل انظر فترى. أجابه سمردياكوف بصوت خافت أيضاً.

اقترب إيڤان من الطاولة، وتناول الحزمة، وأخذ يفضّها. فإذا هو يسحب أصابعه، كأنه قد لمس شيئاً مقززاً أو دنيئاً.

- أصابعك ترتجف يا سيدي! قال سمردياكوف.

ثم تولى فض الحزمة بنفسه دون تعجيل. فظهرت تحت الورقة التي تلف الحزمة، ثلاث رزم من أوراق مالية من فئة المئة روبل.

- المال كله هنا وأضاف سمردياكوف وهو يومىء إلى المبلغ. ثلاثة آلاف روبل تماماً. لا داعي إلى العد.

تهاوى إيڤان على الكرسي، وقد اصفر وجهه بشدة. ثم دمدم يقول بضحكة غريبة:

- روَّعتني... بسبب جوربك...

- هل يُعقل، هل يمكن حقاً ألّا تكون قد عرفت شيئاً حتى الآن؟ عاد سمردياكوف يسأله:

- كنت أجهل كل شيء. كنت أعتقد أن ديمتري هو القاتل.

ثم صاح إيڤان وهو يمسك رأسه بيديه:

- أخي! أخي! آه! اسمع: هل قتلته وحدك؟ هل قتلته بمساعدة أخي أم بدون مساعدته؟

- لم يكن لي شريك في الجريمة سواك. أنا قتلت بالتواطؤ معك. أما ديمتري فيودوروفتش فهو بريء براءة الحمل.

- طيب، طيب... سنتحدث عني أنا فيما بعد. ما لي أرتجف هكذا... إنني لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة.

- كنتَ في الماضي أكثر جرأة حين كنتَ تقول: «كل شيء مباح». قال سمردياكوف مدهوشاً. وها أنت اليوم مذعور. هل تقبل أن تشرب كأساً من شراب الليمون؟ سآمر لك بكأس من شراب الليمون، فإنه يفيدك. ولكن يجب أولاً إخفاء هذا.

قال سمردياكوف ذلك وهو يومىء إلى حزمة الأوراق المالية.

واتجه نحو الباب بهدف استدعاء ماريا كوندراتيفنا ليطلب منها إعداد شراب الليمون وإحضاره. ولكن غيَّر رأيه، وحاول أن يبحث عن شيء يمكنه أن يخفي به الأوراق

المالية حتى لا تراها تلك المرأة، فأخرج في أول الأمر منديله، ولكنه لاحظ أن المنديل وسخ جداً فأعاده إلى جيبه وتناول الكتاب السميك الأصفر الذي رآه إيڤان على الطاولة عندما دخل؛ فجعله غطاءً يخفي تحته الحزمة. واستطاع إيڤان فيودوروفتش أثناء ذلك أن يقرأ عنوان الكتاب قراءة آلية: «مواعظ أبينا المقدس اسحق سيرين».

- لا أريد شيئاً من شراب الليمون قال إيڤان. سنتحدث عني أنا فيما بعد. اجلس الآن وقصَّ عليَّ: ماذا فعلت لتقتله؟ قل الحقيقة كلها...

- يجب أن تخلع معطفك وإلّا شعرت بحر شديد ونضح منك العرق.

خلع إيڤان فيودوروفتش معطفه بسرعة، كأنه لم يخطر بباله ذلك إلّا في تلك اللحظة، ورمى المعطف على البنك دون أن يتحرك من مكانه.

- تكلم الآن، أرجوك، تكلم!

كان قد هدأ روعه، فهو ينتظر بثقة أن سمردياكوف سيقول له الحقيقة «كلها».

- ماذا فعلت؟ قال سمردياكوف وهو يتنهد. الأمر بسيط جداً. استوحيت أقوالك أنت، فـ...

قاطعه إيڤان قائلاً دون أن يصيح كما كان يصيح من قبل، ولكنه ينطق الآن بكلماته واضحةً جداً، ويبدو أنه استرد سيطرته على نفسه تماماً:

- سنتحدث عن أقوالي أنا فيما بعد. أما الآن فاشرح لي بالتفصيل كيف تدبرت الأمر. أبسط الوقائع مرتبةً ولا تُسقط أي تفصيل. أريد أن تذكر التفاصيل، التفاصيل خصوصاً. أنا مصغ إليك.

- بعد سفرك سقطت في القبو...

- أسقطت بنوبة صرع أم متظاهراً بنوبة صرع؟

- متظاهراً طبعاً. تظاهرت بنوبة الصرع إلى النهاية. هبطت سلَّم القبو بهدوء حتى آخر درجة من درجاته، ثم استلقيت على الأرض بهدوء أيضاً. حتى إذا صرت مستلقياً على الأرض أخذت أصرخ، وظللت أتخبط عندما نقلوني.

- لحظة. إذن كنت تتظاهر طوال الوقت، أليس كذلك؟ وفي المستشفى بعدئذ أيضاً؟

- لا. ففي صباح الغد، قبل نقلي إلى المستشفى أصبت بنوبة صرع حقيقية، وكانت نوبة عنيفة جداً لم أعان مثلها منذ سنين. وبقيت يومين كاملين مغمياً عليَّ.

- جيد، جيد... أكمل.

- أرقدوني على مضجع وراء حاجز غرفة غريغوري فاسيلتش. كنت أتوقع ذلك، لأن مارفا إينياتيفنا قد اعتادت أن ترقدني هناك، على مقربة منها، حين أمرض. لقد أحاطتني دائماً بكثير من الحنان منذ ولدت. وفي الليلة التالية كنت أئن أنيناً ضعيفاً، بانتظار ديمتري فيودوروفتش.

- كيف كنت تنتظر مجيئه إليك في غرفتك؟

- لا. ليس في غرفتي؟ كنت أنتظر وصوله إلى المنزل. لأنني كنت واثقاً بأنه سيجيء في تلك الليلة. كان لا بد له، وقد حُرم من معونتي وانقطعت عنه الأنباء التي أزوده بها، كان لا بد له حتماً من أن يتسلل إلى المنزل متسلقاً السور كما يجيد ذلك، ليعرف من الذي أتى، وليتصرف على ضوء ذلك.

- فماذا لو لم يجيء؟

- لم لو يجيء لما وقع شيء. لولا أنه جاء لما عزمت أمري.

- جيد، جيد. تكلم بمزيد من الدقة، ولا تتعجل. ولا تُسقط أي تفصيل!

- كنت أتوقع أن يقتل فيودور بافلوفتش. ذلك أمر ما كان يمكن ألّا يحدث. كنت قد أثرته بقوة في الأيام الأخيرة... ثم لقد كان يعرف الاشارات السرية... فلم يكن يمكنه، وهو فيما هو فيه من شك قوي وغضب مسعور، إلّا أن يستعين بهذه الاشارات ليدخل المنزل. كان هذا مرتباً من قبل. لذلك كنت أنتظره موقناً أنه آتٍ لا محالة...

- قاطعه إيڤان لو قتل لاستولى هو على المال. أما كان ينبغي لك أن تفكر على هذا النحو؟ فأية فائدة كان يمكنك أن تجنيها في هذه الحالة؟ لست أفهم.

- ما كان له أن يعثر على الظرف المودع فيه المال. أنا وحدي الذي أوهمته بأن الظرف مخبأ تحت الفراش. ولكن ذلك كان كذباً مني. كان فيودور بافلوفتش يخبىء المال قبل ذلك في صندوق صغير. ولما كنت الوحيد الذي يثق به فقد نصحته بأن يدس الظرف خلف الإيقونات في زاوية الغرفة حيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث عنها، ولا سيما إذا كان سارقاً يتعجل الهروب. فهناك، وراء الإيقونات، كان المال مخبأً لحظة وقوع الجريمة. أما وضع الثلاثة آلاف روبل تحت الفراش، فهو فكرة غبية أفضلُ منها أن يوضع المبلغ في الصندوق الصغير. لقد اعتقد جميع الناس هنا أن المال كان تحت الفراش. ذلك تفكير أخرق. نعود إلى ديمتري: لو قتل ديمتري أباه لما عثر على المال، ولكان هرب متجنباً أن يحدث ضجة. هكذا يتصرف القاتل دائماً. وإلّا اعتُقل. وكيف جرى الأمر، فإنني أستطيع في الغد أو حتى أثناء الليلة نفسها أن أذهب وآخذ المال من خلف الإيقونات، فأحمله إلى مسكني. وكانت السرقة ستُنسب عندئذ إلى ديمتري فيودوروفتش. يحق لي أن أتوقع ذلك.

- فإذا لم يقتل أباه، ولم يزد على أن يضربه؟

- إذا لم يقتله، لا أجرؤ أن آخذ المال طبعاً. هذا بديهي. وتكون خطتي قد باءت بالفشل. لكنني كنت أفترض، فيما أجريته من حسابات، أن ديمتري كان سيبلغ من ضربه أباه أن الأب كان سيفقد وعيه ويسقط مغمياً عليه. وكنت سأنتهز عندئذ هذه الفرصة فآخذ المال، ثم أوهم فيودور بافلوفتش بعد ذلك أن السرقة من صنع ديمتري، وأن ديمتري قد سرق المال بعد أن ضربه.

- لحظة أخرى... إنني لا أفهم بوضوح! هل ديمتري هو الذي قتل إذن، وأنت سرقت المال؟

- لا، ليس هو الذي قتل. كان سهلاً عليَّ، حتى في هذه اللحظة، أن أزعم أنه هو القاتل... ولكنني لا أريد أن أكذب عليك، لأنني... أدرك الآن أنك لم تفهم شيئاً أبداً حتى هذه اللحظة، وأنك لم تكن تمثل لتلقي التبعة كلها عليَّ، ولتجعلني أرضى هذا الوضع. ومع ذلك فإنك أنت القاتل الأكبر في هذه القضية، لأنك كنت على علمٍ بما كان يتحضَّر، وقد كلفتني بأن أقتل أباك. وسافرت بعد ذلك وأنت تعرف ما سيحدث. لهذا أصرُّ على أن أؤكد لك جازماً،

في هذا المساء، أن القاتل هو أنت، أنت وحدك! أما أنا فلست إلّا معاون قاتل، معاوناً ثانوياً، رغم أن القتل قد تم بيدي. أنت القاتل شرعاً، أنت، أنت!...

- لماذا، لماذا أكون أنا القاتل؟ قال إيڤان أخيراً وقد نفد صبره، ناسياً أنه منذ اللحظة قد أرجأ الحديث عن نفسه إلى ما بعد. آه يا إلهي! أبسبب سفري إلى تشرماشنيا أيضاً؟ قل لي: لماذا كنت تحرص على موافقتي إذا كنت تؤول سفري وحده على أنه موافقة؟ هل لك أن توضح لي هذا التناقض؟

- عندما أثق بأنك موافق، أعرف أنك لن تحدث فضيحة لدى عودتك، بسبب اختفاء الثلاثة آلاف روبل، إذا اشتبهت فيَّ السلطات بدلاً من أن تعتقل ديمتري فيودوروفتش، أو إذا هي اعتبرتني شريكاً له في الجريمة، حتى لقد تدافع عني في هذه الحالة. ثم إنك بعد أن تأخذ حصتك من الميراث قد تكافئني أثناء حياتك. ألم تنل هذا الميراث بفضلي أنا؟ فلو قد تزوج أبوك أغرافينا ألكسندروفنا، لما آل إليك كوبيك واحد من تلك الثروة كلها!.

- ها! كنت تنوي أن تضطهدني طوال حياتي! دمدم إيڤان وهو يصرف أسنانه ولكن ما الذي كان يحدث لو أنني أبلغت عنك حينئذ بدلاً من أن أسافر؟

- لا تملك دليلاً ضدي. لا يكفي لاتهامي أن أكون قد حرضتك على السفر إلى تشرماشنيا. وهذا كله سخافات على كل حال! هناك أمران: إما أن تسافر بعد الحديث الذي جرى بيننا، وإما أن تبقى هنا. فلو بقيت لما حدث شيء أبداً، لأنني أفهم عندئذ أنك لا تريد حدوث جريمة القتل، فأمتنع عندئذ عن البدء بالعمل. أما إذا سافرت فتجعلني أوقن أنك لن تشي بي إلى القضاء وأنك ستغفر لي سرقة الثلاثة آلاف روبل. ومن جهة أخرى، فإنك لم تكن تستطيع ملاحقتي، لأن من الممكن أن أكشف أمام المحكمة عن كل شيء، وأن أذكر لا أنني سرقت وقتلت - فذلك ما لم أكن لأقوله بداهة - وإنما أذكر أنك حرضتني على أن أسرق وأن أقتل، وأنني رفضت ذلك. لقد كنتُ إذن في حاجة إلى موافقتك لكي لا تزعجني بعد ذلك، فما هي الأدلة التي تملكها ضدي؟ ولا كذلك أنا، فإنني أستطيع أن أزعجك في كل لحظة، بالكشف عن رغبتك القوية في قتل أبيك. وأقسم أن جميع الناس سيصدقون كلامي، وكانت سمعتك ستسوء إلى الأبد، وأن شرفك سيلطخ مدى الحياة.

- أنت تزعم إذن أنني أتمنى بحرارة أن يموت أبي. فهل صحيح أنني تمنيت ذلك؟ سأله إيڤان بغضب.

- لا شك إطلاقاً في أنك تمنيت ذلك أجاب سمردياكوف بلهجة ثابتة محدقاً إلى إيڤان، ولقد كلفتني ضمناً ارتكاب هذه الجريمة، دون أن تطلب مني بكلام صريح. كان سمردياكوف ضعيفاً جداً، يتكلم بصوت متعب، ولكن نوعاً من هوى متأجج سرى كان يجيش في نفسه ويحرك لسانه. كان واضحاً أنه يهدف إلى غاية ما. وقد أحسَّ إيڤان بذلك.

- تابع. قُصَّ تفاصيل وقائع تلك الليلة. قال له.

- ماذا أقول أيضاً؟ كنت مستلقياً هنا. فإذا يتراءى لي أنني أسمع صوتاً يطلقه أبوك. كان غريغوري فاسيلتش قد خرج قبل لحظات، وسُمع يصرخ، ثم ارتد كل شيء إلى صمت مطبق. كنت أنتظر في الظلمات راقداً، وكان قلبي يخفق بقوة ويكاد ينشق له صدري. لم أطق صبراً، فنهضت أخيراً وخرجت. في اليسار، كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة. سرت بضع خطوات لأتجسس على أبيك، ولأعرف أهو ميت أم حيّ. سمعته يضطرب ويتنهد. قلت لنفسي: «إذن ما يزال حياً! إذن أخفقت الخطة». اقتربت من النافذة وناديت أباك قائلاً: «هذا أنا، لا تخف!». فأجابني: «لقد جاء، جاء ثم هرب!». كان يقصد ديمتري فيودوروفتش. وأضاف يقول: «لقد قتل غريغوري فاسيلتش». سألته هامساً: «أين وقع هذا؟» فأجابني

بهمس أيضاً: «هناك، في الزاوية». قلت له: «انتظر لحظة». واتجهت نحو الزاوية التي دلني عليها، فاكتشفت غريغوري فاسيلتش عند أسفل السور ممدداً على الأرض، مضرجاً بالدم، مغمياً عليه. «صحيح إذن أن ديمتري فيودوروفتش قد جاء». هاجمتني هذه الفكرة فوراً، فسرعان ما قررت أن أتولى بنفسي إكمال المهمة، لأن غريغوري فاسيلتش، حتى ولو كان ما يزال حياً، لن يستطيع أن يرى شيئاً ولا أن يسمع شيئاً وهو في هذه الحالة من الإغماء. والخطر الوحيد هو أن تستيقظ مارفا إينياتيفنا فجأة. شعرت بوضوح، في تلك اللحظة، بالخطر الذي أتعرض له إذا استيقظت مارفا إينياتيفنا، ولكن الإغراء كان أقوى من أن أتراجع، وشعرت باندفاع مسعور يقطِّع أنفاسي. عدت إلى النافذة التي كان أبوك واقفاً عندها وقلت له: «جاءت، جاءت أغرافينا ألكسندروفنا. هي هنا، وتطلب أن تدخل». فارتعش من شدة الانفعال كطفل صغير، وراح يسألني: «أين؟ أين هي؟». كان لا يستطيع أن يسيطر على نفسه من شدة الهياج، ومع ذلك لم يصدِّق بعد بشكل تام. أجبته: «هي هنا. إنها تنتظر. هلّا فتحت الباب». كان ينظر إليَّ من النافذة حائر النظرة مرتبكاً، متسائلاً هل يجب عليه أن يصدقني أم لا، ولكنه تردد في فتح الباب. قلت في نفسي: «هو الآن خائف مني أنا». أمر غريب: خطر ببالي في تلك اللحظة أن أطرق زجاج النافذة بالاشارات المتفق عليها إيذاناً بوصول غروشنكا. قمت بذلك، فإذا به، هو الذي لم يصدِّق أقوالي، يقتنع بإشاراتي فيسرع ويفتح الباب فوراً. فتح الباب، فأردت أن أدخل، ولكنه وقف أمامي يمنعني من الدخول ويسألني مرتعشاً: «أين هي؟ أين؟ أين؟». قلت لنفسي: «إذا كان خائفاً مني، فمعنى ذلك أن الأمور تجري بشكل سيئ». وفي تلك اللحظة، أحسست بساقيَّ تخوران إذ تصورت أنه لن يدعني أدخل غرفته، أو أنه سيأخذ في الصراخ، أو أن مارفا اينياتيفنا ستأتي مسرعة، أو ما لست أدري أيضاً. لا أتذكر الآن جيداً ما حدث في نفسي عندئذ. لا بد أن وجهي كان قد اصفر بشدة. دمدمت أقول: «هي هناك، أمام النافذة، كيف لاتراها؟». قال: «إئتِ بها إلى هنا، إئتِ بها إلى هنا». قلت: «لقد خافت. روَّعتها الصرخة التي أطلقها غريغوري فاسيلتش، فاختبأت وراء الأشجار. هيَّا، نادها أنت من النافذة». دخل إلى البيت، ومضى إلى غرفته، واقترب من النافذة فوضع على حافتها شمعة مشتعلة، وصاح ينادي: «غروشنكا! غروشنكا! هل أنت هنا؟». ولكنه لم يشأ أن يميل من على النافذة حتى لا يبتعد عني، وذلك بسبب خوفه. كان يخشاني في تلك اللحظة، لذلك لم يبتعد عني قيد أنملة. قلت له وأنا أقترب من النافذة وأميل بنفسي إلى الخارج: «ها هي! وراء تلك الأشجار. هل رأيتها؟ إنها تبتسم لك. انظر!». صدقني، وأخذ يرتجف، لأنه كان مغرماً بها جداً! عندئذ مال من على النافذة تماماً. لم أضيِّع ثانية واحدة، تناولت ضاغطة الورق المعدنية التي كانت على المنضدة، لا شك أنك تتذكرها. إنها تزن ثلاثة أرطال تقريباً. رفعتها، وهويت بها على رأس أبيك بكل ما أوتيت من قوة. فلم تخرج من صدره حتى صرخة واحدة. كل ما حدث أنه تهاوى. وضربته مرة ثانية، فمرة ثالثة؛ وفي المرة الثالثة شعرت أنني حطمت جمجمته. سقط على الأرض مضرجاً بدمه. نظرت إلى نفسي لأرى هل تلطخت، فلاحظت أن ثيابي نظيفة لم يظهر عليها أثر من الدم. مسحت ضاغطة الورق، وأرجعتها إلى مكانها. ثم اتجهت نحو الإيقونات، فأخرجت المال من الظرف، ورميته على الأرض، وحرصت على أن أضع جانباً الشريط الوردي الذي كان يلف الظرف. وبعد ذلك نزلت إلى الحديقة وأنا أرتجف، فمضيت مباشرة إلى الشجرة المجوَّفة الساق، تلك التي تعرفها... كنت قد اخترت هذه الشجرة مخبأ منذ مدة طويلة، حتى لقد وضعت فيها ورقاً وخرقة استعداداً لذلك اليوم. لففت الأوراق المالية بالورقة، ثم غلفت الورقة بالخرقة، ودسست الرزمة في جوف الشجرة. بقيت الرزمة هناك أسبوعين. ولم أخرجها إلّا بعد مدة، بعد خروجي من المستشفى. عدت إلى منزلي، فرقدت على فراشي، وأخذت أفكر عندئذ مذعوراً: «إذا كان غريغوري ميتاً، فقد فسد كل شيء وسيكون الأمر سيئاً، أما إذا كان حياً وصحا من إغمائه فسوف يجري كل شيء على ما يرام، لأنه سيشهد عندئذٍ بأن ديمتري قد جاء فعلاً، وسيستنتجون من ذلك أنه هو الذي قتل وسرق المال». هنا، أخذت أئنّ في الشك وقلة الصبر، لأوقظ مارفا إينياتيفنا بأقصى سرعة. فاستيقظت مارفا أخيراً وأسرعت إليّ.

لكن عندما لاحظت أن غريغوري فاسيلتش غائب، أسرعت إلى الحديقة وقد سمعتها تصرخ. أما أنا فشعرت باطمئنان كامل.

هنا توقف الراوي عن الكلام. وكان إيڤان يصغي إليه طوال الوقت صامتاً، لا يتحرك ولا يحول عنه بصره لحظة واحدة. وكان سمردياكوف أثناء حديثه لا ينظر إليه إلّا نادراً، وإذا نظر إليه فخلسة. لقد كان واضحاً أن سمردياكوف يفضّل أن يتحاشى نظرة إيڤان فيودوروفتش. فلما انتهى من كلامه بدا عليه الانفعال هو أيضاً، وأصبح يتنفس بصعوبة، وظهرت على جبينه قطرات عرق. ومع ذلك كان يستحيل على المرء أن يعرف هل هو يشعر بندم أم لا.

- قال إيڤان. والباب؟ إذا كان أبي لم يفتح الباب إلّا لك وحدك، فكيف رآه غريغوري مفتوحاً قبل ذلك؟ إن غريغوري يؤكد أنه رأى الباب مفتوحاً قبلك.

شيء غريب: إن إيڤان يلقي الآن أسئلته بلهجة هادئة دون أي اهتياج أو غضب، فلو دخل شخص إلى الغرفة في تلك اللحظة، وألقى من العتبة نظرةً على المتحادثين، لأحس أنه يشهد حديثاً هادئاً ودياً يدور بين الرجلين على شؤون عادية وإن تكن هذه الشؤون تعنيهما بعض الشيء.

- أما بصدد الباب الذي يزعم غريغوري فاسيلتش أنه رآه مفتوحاً، فذلك وهم منه لا أكثر. أجاب سمردياكوف مبتسماً بمكر وسخرية. أؤكد لك أن غريغوري ليس رجلاً، بل هو حمار عنيد. إنه لم يرَ شيئاً إطلاقاً، ولكنه يتخيل أنه رأى الباب مفتوحاً، وما من أحد يستطيع أن يزحزحه عن اعتقاده هذا. من حظنا كلينا أنه وضع هذه الفكرة في رأسه، لأن هذه الواقعة تدين ديمتري فيودوروفتش بصورة حاسمة.

- اسمع. قال إيڤان وقد بدا عليه أنه فقد تسلسل أفكاره من جديد، وأنه يحاول أن يفهم شيئاً ما. أردت أن ألقي عليك أسئلة أخرى... ولكنني نسيت ما كنت أريد أن أسألك عنه... لقد شرد عقلي تماماً... نعم...! اشرح لي هذه النقطة على الأقل: لماذا فتحت الظرف ثم تركته على أرض الغرفة؟ لماذا لم تأخذ الظرف مع المال؟ لقد تراءى لي، أثناء حديثك، أنك قد فعلت ذلك عمداً، وأن ذلك كان أمراً ضرورياً... ولكنني لا أفهم لماذا كان ذلك ضرورة...

- إذا كنت قد فعلته فذلك لسبب معيَّن. لو ارتكب الجريمة شخص يعرف المنزل ويعرف نيات أبيك، مثلي أنا، شخص سبق أن رأى المال، ولعله شهد صرّه أو حتى ساهم في صرِّه، فإن ذلك الشخص لم يكن ليحتاج إلى فض الظرف بعد ارتكاب الجريمة، لا سيما وهو يستعجل الهروب لأنه يعرف أين يوجد المال. لو كان القاتل واحداً من أهل المنزل، مثلي أنا، لاكتفى بدسّ الظرف في جيبه دون أن يفضَّه، ولاذ بالفرار بأقصى سرعة. ولا كذلك شأن أخيك ديمتري فيودوروفتش: فلقد كان لا يعرف بوجود هذا الظرف إلّا عن طريق السماع، ولم يرَه بعينيه في يوم من الأيام. فإذا فرضنا أنه أخرجه من تحت الفراش، كان عليه أن يفضه حتماً ليتأكد من وجود المال فيه، ثم كان لا بد أن يرمي الظرف على الأرض بسرعة، دون أن يتسع وقته للتفكير في أن هذا الظرف يمكن أن يكون شهادةً عليه. إن هذا الطيش هو من شأن جميع اللصوص المبتدئين، فهم لا يفكرون في الأمور ولا يفكرون في العواقب. يجب ألّا ننسى أن ديمتري فيودوروفتش نبيل، وأنه لم يسرق في يوم من الأيام حتى ذلك الحين. وإذا قرر أن يسرق في هذه المرة فلأنه يرى أن الأمر ليس أمر سرقة أبداً، وإنما هو استردادٌ لمالٍ يخصه شرعاً. كان ديمتري فيودوروفتش قد أعلن ذلك في المدينة كلّها مسبقاً، حتى لقد تباهى أمام شهود بأنه سوف يسترد حقه من فيودور بافلوفتش. إنني لم أفصح عن هذا التفكير صراحةً في شهادتي أمام وكيل النيابة، ولكنني جعلته يدركه بإشارات وتلميحات، دون أن يبدو عليَّ أنني أفهم ما أقول، فاعتقد أنه اهتدى بنفسه إلى هذه الأفكار

التي أوحيتها إليه. ما أزال أذكر أنه بلغ من سروره عندئذ أن لعابه أوشك أن يسيل من شفتيه...

- هل يمكن فعلاً أن تكون قد بنيت هذا كله في لحظة الجريمة نفسها؟ قال إيڤان وقد بلغ من الدهشة أوجها. ونظر إلى سمردياكوف مرتاعاً من جديد.

- طبعاً لا. لم يكن ممكناً أن يخطر هذا كله ببالي في لحظة كتلك. وإنما رُتِّب كل شيء مسبقاً.

- صاح إيڤان فيودوروفتش متعجباً. إذن لقد ساعدك الشيطان نفسه! لا، لستَ غبياً. بل أذكى كثيراً مما كنت أعتقد...

ونهض إيڤان ينوي أن يمشي بضع خطوات في الغرفة. كان يشعر بانهيار نفسي شديد. ولكن الطاولة كانت تسد الطريق، والمكان الخالي بينها وبين الجدار ضيق لا يسمح للمرء بأن يمشي فيه كما يشاء. لذلك اضطر إيڤان أن يقتصر على أن يدور في مكانه، ثم عاد فجلس. ولعل عدم تمكّنه من أن يتحرك كما كان يتمنى قد أثار غيظه، فإذا هو يعود إلى الكلام بلهجة مهتاجة كالتي تكلم بها حين وصوله. قال:

- اسمع أيها الشقي، أيها الإنسان الحقير البائس! ألم تفهم حتى الآن أنني إن امتنعت عن قتلك منذ بضع دقائق فما ذلك إلّا لأستطيع أن أسلمك إلى المحكمة غداً؟ فليشهد الله عليّ (قال ذلك وهو يَرفع يده كمن يحلف يميناً). ربما كنت أنا نفسي جانياً. لعلني كنت أشعر سراً برغبة في... أن يموت أبي... من يدري؟ ولكنني أقسم لك أنني لست جانياً بمقدار ما تتخيّل، وأنني لم أحرضك على ارتكاب هذه الجريمة فيما يخيَّل إليّ. لا، لا، لم أحرِّضك! على كل حال، ليس هذا بالأمر الهام! لسوف أتهم نفسي غداً، أياً كانت الشهادة التي قد تدلي بها ضدي، فإنني أقبلها منذ الآن، ولا أخشاك. بالعكس: سأؤيد كل ما تقوله. ولكن يجب عليك أن تعترف غداً أنت أيضاً. هذا واجب يقع على عاتقك. يجب عليك أن تعترف، يجب عليك، سنذهب معاً. قررت هذا!

قال إيڤان هذه الكلمات بلهجة حازمة، وكان واضحاً في بريق عينيه أن قراره هذا قاطع لا رجوع عنه.

- أرى أنك مريض، مريض جداً. إن عينيك صفراوان تماماً. قال سمردياكوف، ولكن دون سخرية في هذه المرة، وبلهجة توشك أن يكون فيها شيء من عطف.

- سنذهب معاً. كرر إيڤان فإن رفضت، فلا بأس! سأذهب وحدي!

- لن يكون شيء من هذا. لن نذهب إلى المحكمة. ولن تذهب أنت. قال سمردياكوف أخيراً كمن يصدر قراراً مبرماً.

- أنت لا تفهمني. قال إيڤان بلهجة عتب.

ستخجل من اتهام نفسك، لن يكون لهذا أي فائدة على كل حال، لأنني سأصرِّح عندئذ تصريحاً قاطعاً بأنني لم أجر معك أحاديث من هذا النوع في يوم من الأيام، وسأؤكد أنك اخترعت هذا كله بسبب ما أنت فيه من حالة مرضية (سيصدقون كلامي لما يبدو عليك من مرض)؛ أو أقول أيضاً إنك قلتَ ما قلت إشفاقاً على أخيك ورأفةً به، مؤثراً اتهام نفسك في سبيل إنقاذه، وإنك ألقيت الذنب عليّ لأنك لم تعتبرني في يوم من الأيام إنساناً كسائر البشر، بل عاملتني طوال حياتي كما يعامَل مخلوق حقير. فمن الذي سيصدق كلامك بعد هذا؟ فكِّر قليلاً: أين الأدلة؟

إسمع قال إيڤان. أنت أريتني هذا المال الذي كنت تخبئه عندك، لتقنعني بصدق ما رويته لي، أليس كذلك؟

فأبعد سمردياكوف الكتاب السميك الأصفر الذي كان يغطي حزمة الأوراق المالية، وقال متنهداً:

- خذ المال واحمله معك.

- سأحمله طبعاً! ولكن لماذا ترده إليَّ الآن وأنت قتلت لتحصل عليه؟ سأله إيڤان وهو ينظر إليه بدهشة كبيرة.

فأجابه سمردياكوف بصوت مرتجف وهو يحرك يده بحركة ملل.

- لا أريد هذا المال! لقد قدَّرت خلال مدةٍ ما أن أبدأ بهذا المال حياة جديدة في موسكو، أن أسافر إلى الخارج. كان لي هذا الأمل، ولا سيما أنك كنت تقول: «إن كل شيء مباح». أنت علمتني أن أفكر هذا التفكير، وأن أمضي في الأمور على هذا النحو. كنت تقول لي دائماً: «إذا لم يوجد الله الذي لا نهاية له، فلا جدوى من الفضيلة ولا داعي إليها». هكذا كنت تفكر أنت، ولقد استندت أنا إلى أقوالك واعتمدت عليها.

- ثم توليت تطبيق هذا التفكير بنفسك في هذه الجريمة، أليس كذلك؟ سأله إيڤان بابتسامة ساخرة.

- نعم، مستوحياً آراءك.

- والآن هل عدت إلى الايمان بالله، ما دمت ترد إليَّ المال؟

- لا، أنا لا أؤمن بالله. دمدم سمردياكوف.

- فلماذا ترد إليَّ المال إذن؟

قال سمردياكوف وهو يحرك يده بحركة مللٍ من جديد:

- كفى! فيم يهمك هذا؟ أما كنت تقول عندئذ إن كل شيء مباح؟ فما بالك تضطرب الآن بهذا الشكل، حتى لتنوي أن تشي بنفسك؟ لكنك لن تفعل ذلك، لا، لن تشي بنفسك، لن تشي بنفسك. ردَّد سمردياكوف بصوت جازم ينمّ عن اقتناع كامل.

- سترى! أجابه إيڤان.

- هذا مستبعد تماماً. أنت أذكى من أن تفعل ذلك. أنت تعبد المال، أعرفُ هذا؛ وأنت تحرص كثيراً على أن يحترمك الناس، لأنك متكبر. ثم إنك عدا ذلك تتأثر جداً بمفاتن الجنس اللطيف، وأنت فوق هذا كله تحب أن تعيش على ما يشاء لك هواك دون أن تكون رهناً بأحد. أنت تحرص على هذا أكثر مما تحرص على أي شيء آخر. ولن تريد أن تفسد حياتك بتلطيخ شرفك إلى الأبد أمام المحكمة. أنت تشبه فيودور بافلوفتش. أنت بين سائر أبنائه أكثرهم شبهاً به، لأنك قد ورثت عنه نفسه.

- لستَ غبياً. كنتُ أظنك في الماضي أبله. قال إيڤان وقد ظهر عليه الاعجاب بملاحظات سمردياكوف، وتدفق الدم إلى وجهه:

ثم أضاف وهو يتفرس في الخادم بفضول.

- أرى أنك تتكلم الآن في جد.

- بسبب زهوك وكبريائك كنتَ تعتبرني غبياً. خذ المال. هلّا أخذته!

جمع إيڤان رزم الأوراق المالية الثلاث، ودسَّها في جيبه، حتى دون أن يهتم بلفِّها. وقال:

غداً سأُظهرها للمحكمة.

- لن يصدقك أحد، لأنك الآن غني، فسيقدرون أنك اقتطعت هذا المبلغ من ثروتك أنت.

نهض إيڤان وقال:

- لم أقتلك اليوم، فما ذلك إلّا لأنني سأحتاج إليك غداً. تذكر هذا!

قال سمردياكوف بصوت غريب وهو يلقي على إيڤان نظرة عجيبة:

- اقتلني إذا شئت، اقتلني في هذه اللحظة.

ثم أسرع يضيف وهو يبتسم بمرارة:

- ولكنك لن تجرؤ. لن تجرؤ على شيء بعد اليوم، يا من كنت في الماضي رجلاً جسوراً.

- إلى اللقاء غداً. قال إيڤان.

وتقدم خطوة نحو الباب.

- انتظر... أرِنيه مرة أخرى، هذا المال...

أخرج إيڤان الأوراق المالية من جيبه، وأراه إياها. فتأملها سمردياكوف بضع ثوان، ثم قال وهو يحرك يده بشيء من الملل:

- حسناً. اذهب الآن!

فلما همَّ إيڤان أن يفتح الباب صرخ سمردياكوف:

- إيڤان فيودوروفتش!

- ماذا تريد؟ سأله إيڤان.

فقال له الخادم:

- الوداع يا سيدي!

- بل إلى اللقاء، إلى الغد! أجابه إيڤان.

وخرج من المنزل.

كانت عاصفة الثلج في الخارج ما تزال تعصف. وراح إيڤان يمشي بخطى ثابتة،

ولكنه أحس بعد لحظات أنه يترنح. فقال لنفسه وهو يبتسم: «هذه لحظة تعب». وسيطر عليه نوع من فرح. كان يحس في نفسه ثباتاً لا يتزعزع: هذه خاتمة الشكوك والمخاوف وضروب القلق التي كانت تعذبه منذ زمن طويل. قال لنفسه وهو يشعر بارتياح نفسي كبير: «قررت. ولن يتغير قراري». وفي تلك اللحظة صدم شيئاً على الأرض، فكاد يتعثر. توقف عن السير، فإذا هو يرى الفلاح الصغير الذي كان قد صرعه قبل وقت قصير، نائماً على الأرض، جامداً على ذلك الوضع نفسه، مغمياً عليه. وقد غطّى الثلج وجهه تقريباً. رفعه إيڤان وحمله على كتفيه. وإذ رأى نافذة مضاءةً في منزلٍ على يمينه، اقترب من النافذة وطرقها، فأجابه صاحب المنزل، فعرض عليه إيڤان ثلاثة روبلات ليساعده في نقل الرجل إلى أقرب قسم تابع للشرطة. قبل صاحب المنزل. سأصرف النظر عن التفاصيل، فلا أذكر إلّا أن إيڤان فيودوروفتش قد استطاع أخيراً، بتوزيع بقاشيش كبيرة، أن يضع الفلاح الصغير في مقر الشرطة، واتخذ الاجراءات اللازمة لاستدعاء طبيب على الفور. واستغرقت هذه المسألة قرابة ساعة. ولكن إيڤان كان يشعر برضًى عن نفسه. كان فكره يعمل بعنف، رغم تشتُّت أفكاره. قال يحدّث نفسه مسروراً: «لولا أن كان قراري فيما سأفعله من الغد حاسماً فعلاً، لما ضيّعت ساعةً كاملة في الاهتمام بهذا الفلاح السكران، ولمررت به دون أن اكترث لمصيره، ودون أن أفعل شيئاً في سبيل ألّا يتجمَّد من البرد...» ثم تساءل وهو يشعر بمزيد من الرضى والارتياح: «ولكن كيف أمكن أن أكون قادراً على تحليل نفسي هذا التحليل الصادق العميق. ما أغبى أولئك الأطباء الذين يدعون أنني على وشك أن أصبح مجنوناً!». حتى إذا وصل إلى منزله هاجمه شك. فقال لنفسه: «أليس الأفضل أن أذهب إلى وكيل النيابة فوراً فأقص عليه كل شيء؟». ولكنه أبعد هذه الفكرة، واتجه نحو الباب قائلاً: «غداً، غداً يتم هذا كله». شيء غريب: بينما كان إيڤان يدمدم بتلك الكلمات الأخيرة، إذا بالفرح الذي كان يملأ نفسه منذ قليل، يتبدد في طرفة عين. وحين اجتاز عتبة غرفته شعر ببرد في قلبه، كأنه تذكر شيئاً مقزِّزاً موجوداً في هذه الغرفة بعينها، في هذه اللحظة نفسها، وكان موجوداً فيها كذلك قبل الآن. وتهالك على كنبته منهك القوى. وجاءته الخادمة العجوز بالسماور. فحضَّر لنفسه قليلاً من الشاي، ولكنه لم يشربه، وأمر الخادمة بأن تتركه وحده إلى الغد. كان يشعر بدوارٍ وهو جالس على ديوانه. كان يشعر بأنه مريض خائر القوى. حاول أن ينام. ولكنه نهض ثانيةً وهو في حالة قلق شديد، وأخذ يمشي في غرفته بغية أن يطرد عنه النعاس. وخيِّل إليه في بعض اللحظات أنه بدأ يهذي. على أن المرض ليس هو الذي كان يشغل باله في تلك الساعة.وعاد يجلس، ونظر إلى جميع الجهات كأنه يراقب المكان. وأجال بصره حوله عدة مرات. وتجمدت عيناه أخيراً على اتجاه معيَّن، وأخذتا تحدقان إلى نقطة بعينها في أقصى الغرفة. وابتسم إيڤان. ولكن حمرة الغضب لم تلبث أن صبغت وجهه. وبقي جامداً خلال مدة طويلة، ضاغطاً رأسه بيديه بقوة، ولكن عينيه ما تنفكان تلتفتان إلى تلك النقطة نفسها في جهة الكنبة الموضوعة قرب الحائط أمامه. واضح أن شيئاً ما كان يقلقه ويعذبه.

IX

الشيطان، كابوس إيفان فيودوروفتش

لست طبيباً لكنني أشعر، بأن أقدم للقارىء بعض الإيضاحات عن طبيعة مرض إيڤان فيودوروفتش. وكي لا أستبق التتمة، سأقتصر على القول هنا إنه كان في ذلك المساء نفسه على وشك أن يُصاب غداً بنوبة حمّى حارة. قد تؤدي إلى أن يتغلب المرض أخيراً على جسمه الواهن الذي كان مع ذلك ما يزال يقاوم. وبما أنني أجهل الطب، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع، بفضل توتر إرادته، أن يُبعد، إلى حين، ذلك المرض، آملاً أن يتجاوزه كلياً. كان يعرف أنه مريض، ولكنه يكره أن يكون مريضاً في هذه الفترة الحاسمة من حياته حيث يجب عليه أن يملك جميع قواه، ليتكلم بوضوح، «ليبرر نفسه أمام نفسه». مع ذلك ذهب إلى الطبيب الذي وصل من موسكو منذ مدة قصيرة، والذي استدعته كاترينا إيڤانوفنا بدافع إحدى نزواتها التي سبق وتكلمت عنها. فبعد أن أصغى الطبيب إلى كلامه، وبعد أن عاينه، استنتج أنه مصاب باضطراب دماغي، ولم يستغرب أبداً الاعترافَ الذي قام به إيڤان فيودوروفتش على مضض. قال الطبيب: «من الممكن جداً، وأنت على ما أنت عليه الآن من اضطراب دماغي، أن توافيك هلوسات، رغم أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التحقق... فلا بد إذن من أن تبدأ بمعالجة نفسك بغير إبطاء، خشية حدوث أسوأ العواقب». ولكن إيڤان فيودوروفتش، حين خرج من عيادة الطبيب، لم يلقِ إلى هذه النصيحة وزناً، ولم يتابع العلاج. قال يحدث نفسه: «ما أزال قادراً على المشي، وما أزال أملك من القوة ما يمكنني من أن أهتم بشؤوني. ويوم أسقط فليصنعوا بي ما يشاؤون، وليعاملوني كما يحلو لهم». بهذا ختم كلامه لنفسه وهو يحرك يده بإشارة الملل. فجلس وهو مدرك أنه في تلك اللحظة يمر في حالة هذيان. كان كما قلت يحدق بشدة إلى شيء قرب الجدار المقابل من الغرفة. ذلك أنه على الكنبة المستندة إلى ذلك الجدار كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لا يعلم إلّا الله كيف، لأن هذا الشخص لم يكن موجوداً حين دخل إيڤان فيودوروفتش غرفته عائداً من عند سمردياكوف. إن هذا الشخص سيد روسي، أو هو يشبه أن يكون كذلك، متقدم في السن قليلاً، يناهز الخمسين من العمر، كما يقول الفرنسيون. شعره قاتم طويل كثيف، أشيب في بعض المواضع، وكذلك لحيته الصغيرة المروَّسة. وهو يرتدي صِداراً بنّي اللون، رائع التفصيل، ولكنه عتيق قليلاً، قد بليت «موضته». لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين، وما من أحد بين رجال المجتمع الثري يرتدي مثل هذه الثياب في هذا الزمان. إن القميص وربطة العنق الطويلة التي تشبه أن تكون منديلاً، أنيقان أيضاً، فهما مما يرتديه عادة سادة يهتمون بهندامهم بعناية، ولكنك تشك في نظافتهما إذا أنت أنعمت فيهما النظر من قرب. وتبدو ربطة العنق مهترئة. والرجل يرتدي بنطالاً ذا مربعات، يناسبه كثيراً، رغم أن لونه فاقع جداً، ورغم أنه مسرف في الضيق قد اندثرت موضته. ويصدق هذا أيضاً على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من فصول السنة. باختصار، إن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك إلّا موارد محدودة. فلا شك أنه ينتمي إلى فئة ملاكي الأراضي القدماء الذين كانت أوضاعهم مزدهرةً في عهد القنانة. وهو يجيد الآداب الاجتماعية، فلا شك أنه عاشر المجتمع الراقي، ولا شك أنه ما يزال محافظاً على بعض العلاقات. غير أن هذا السيد، وقد صار شيئاً فشيئاً إلى فقرٍ سببَّه تبذيره في إبان شبابه، وفاقمه إلغاء نظام القنانة في الآونة الأخيرة، قد تردّى الآن إلى حيث أصبح طفيلياً يتنقل بين أصدقائه وأصحابه القدامى

فيحسن هؤلاء استقباله لما يتحلى به من طبع دمث وتربية حسنة؛ حتى لقد كان من الممكن استقباله في المآدب على الموائد بصحبة أرفع الناس قدراً وأوسعهم جاهاً، شريطة أن يُعيَّن له مكان متواضع بطبيعة الحال. وإن الطفيليين الذين هم من هذا النوع الذين يرجعون إلى محتد طيب ويملكون طبعاً مميزاً ويعرفون كيف يقصون حكايات ويروون نوادر، ويجيدون المشاركة في لعبةٍ بالورق، ولا يكرهون أن يقوموا بخدمات حين يطلب كي يقوموا بمثل ذلك، إن هؤلاء يكونون في أكثر الأحيان أرامل أو عازبين. وقد يكون لهم أولاد، لكن أولادهم يعيشون دائماً بعيدين عنهم. تربِّيهم عمة أو خالة يتحاشى السيد أن ينطق باسمها في المجتمع الراقي كأنه يخجل أن تكون له قرابة كهذه. وبمضي الزمن فينسى هؤلاء السادة أولادهم تقريباً، ويتلقون منهم في أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد، وقد يردون على هذه التهنئات سراً وقد لا يردون.

كانت هيئة زائر إيڤان فيودوروفتش المفاجئة، لطيفة، لكن أيضاً محببة، وجاهزة لحظة لأي تعبير متعاطف. ولم يكن يحمل ساعة، ولكنه في مقابل ذلك يضع على عينه نظارةً لها حمالة من صدف، مربوطةً بشريط أسود. وكانت إصبعه الوسطى تزدان بخاتم كبير من ذهب، له فَصٌّ من حجر بخس الثمن. تأمل إيڤان فيودوروفتش زائره الدخيل بعين مرتابة، ورفض أن يبدأ الحديث. كان الضيف ينتظر، وبقي كطفيلي نزل من الغرفة المخصصة له في الطابق الأول ليحتسي الشاي مع صاحب الدار، لكنه يلزم الصمت إذا لاحظ أن صاحب الدار منهمك بأعماله أو مقطب حاجبيه بجدية. ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع في حديث لطيف حلو متى أتيحت له الفرصة. وفجأة أصبح وجه الزائر يعبر عن همّ، وقال يخاطب إيڤان فيودوروفتش:

- اعذرني! فقط على سبيل التذكير: لقد زرت سمردياكوف على نية أن تعرف تفاصيل عن زيارة كاترينا إيڤانوفنا له، ولكنك تركته دون أن تطّلع على شيء. أغلب الظن أنك نسيت...

- صحيح! قال إيڤان وقد أظلم وجهه، نعم، قد نسيت... لا بأس، سيتم هذا كله غداً. تمتم وكأنه يحدث نفسه. واستأنف يقول في حنق وهو يلتفت إلى زائره، أنا من كان يجب أن يتذكر، لأن القلق كان يرهقني بسببه. ما تدخلك أنت في الأمر؟ أتراك تتخيل أنك أنت الذي ذكَّرتني مع أنني تذكرت من تلقاء نفسي؟

- لكن لا تصدق، قال السيد المهذب وهو يبتسم ابتسامة عذبة جداً. هل يمكن أن نؤمن تحت الضغط؟ ثم إن البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الايمان، ولا سيما البراهين المادية. إن القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث، بل لأنه كان ظامئاً إلى الإيمان قبل ذلك. انظر مثلاً إلى أولئك الذين يدعون الاتصال بالأرواح... أنا من جهتي أحبهم كثيراً... تخيل أنهم يتصورون أنهم يفيدون الدين لأن الشيطان يظهر لهم قرونه من حين إلى آخر. هم يقولون: «ذلك برهان، مادي في أقل تقدير، على وجود العالم الآخر». فانظر إلى هذا التفكير: يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية. ثم... هبهم برهنوا على وجود الشيطان، فهل يترتب على ذلك أن الله موجود أيضاً؟ في نيتي أن أنتسب إلى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشىء فيها حزباً معارضاً. سأقول لهم: «أنا واقعي، لا مادي». ها ها!

- اسمع قال إيڤان وهو ينهض بقوة. يخيَّل إليَّ أنني الآن أهذي... أنا أهذي حقاً... فتكلم واكذب ما شاء لك... سيان عندي... لن تنجح في إثارة غضبي كما فعلت في المرة الماضية. ولكنني خجل... لست أدري لماذا... أتمنى أن أمشي في الغرفة... هناك لحظات تغيب فيها عني، فلا أراك ولا أسمع صوتك، تماماً كما في المرة الماضية، ولكنني أعرف دائماً ما ستقوله لي، «لأنني أنا، أنا وحدي، الذي أنطق بهذه الأقوال، لا أنت»! وإني لأتساءل من جهة أخرى أأنا نمت في المرة الماضية فرأيتك في الحلم، أم أنت ظهرت لي في الواقع أثناء

اليقظة؟ سأغطس هذه الخرقة في الماء البارد فأضعها على رأسي. فلعلك تتبخَّر عندئذ.

اتجه إيڤان فيودوروفتش نحو زاوية الغرفة، وتناول منشفة بللها بالماء ووضعها على جبينه. وأخذ يمشي بعد ذلك في الغرفة ذهاباً وإياباً.

- إنه ليسرني حقاً أن نتحدث الآن بصيغة المفرد من دون كلفة.

- أنت غبي! أجابه إيڤان ضاحكاً. هل تتخيل أنني سأستعمل الآن ميم الجمع في مخاطبتك؟ أنا في هذه اللحظة منشرح النفس حسن المزاج، لكنني أحس بأوجاع في صدغيَّ... وأشعر بصداع في مؤخرة رأسي... فرجاءً... لا تتفلسف اليوم كما تفلسفت في ذلك اليوم. إذا لم يكن في وسعك أن تغيب، فتكلم في أمور فرحة. قصَّ عليَّ نمائم وشائعات. ذلك يناسبك ما دمت طفيلياً. يا له من كابوس فظيع ألّا أستطيع التخلص من هذا الشخص! ولكنني لا أخشاك. سأنتصر عليك آخر الأمر. لن أُقاد إلى مستشفى المجانين.

- أنا طفيلي... كلام جميل! حقاً، ما هو دوري على هذه الأرض. هل أنا في الواقع إلّا طفيلي؟ بالمناسبة؟ لقد شعرتُ حين أصغيت إلى كلامك بشيء من الدهشة والاستغراب. لكأنك أخذت تعتبرني شيئاً واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت في المرة الماضية بعناء شديد...

- ما حسبتك لحظة واحدة حقيقة واقعية. هتف إيڤان يقول حانقاً. أنت تكذب. إنك مرضي. لست إلّا شبحاً. ولكنني لا أعرف كيف أتحرر منك، وألاحظ أن عليَّ أن أحتمل حضورك زمناً. أنت هلوسة في دماغي المتعب. أنت تجسِّدُ ذاتي، ولكنك تجسِّد جانباً واحداً من طبيعتي... إنك تمثل جانباً من أحط عواطفي وأفكاري. وكان يمكن، من هذه الناحية ولهذا السبب، أن يعنيني أمرك قليلاً، وأن أهتم بك، لو كان في وقتي متسع...

- اسمح لي... سوف أفضحك إذا سمحت: منذ قليل، قرب مصباح الشارع، ثرت على أخيك إيليوشا صارخاً: «هل علمت هذا منه هو؟ فمن أين عرفت أنه يزورني؟». لقد كنت تقصدني أنا إذن. معنى هذا أنك كنت خلال لحظة قصيرة تؤمن بوجودي، وتعتبرني شخصاً موجوداً في الواقع.

- نعم! كانت تلك لحظة ضعفٍ طبيعي جداً... قال السيد ذلك وهو يبتسم بلطف. ولكن من المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقع لا وهم. إني لأتساءل هل أنا نمت أم سرت في الغرفة في المرة الماضية. فلعلني لم أرك عندئذ إلّا في الحلم لا في الواقع.

- ولمَ كنت قاسياً مع أخيك إيليوشا منذ قليل؟ إنه فتى لطيف جداً! وإني أشعر بأنني آثم في حقه بسبب حكاية الراهب زوسّيما تلك.

قال إيڤان ضاحكاً:

- لا تقل شيئاً عن إيليوشا. كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها الدنيء!

- تشتمني وتضحك في آن واحد. تلك علامة حسنة. ثم إني ألاحظ أنك اليوم لطيف في معاملتي أكثر مما كنت في المرة السابقة. إنني أفهم سبب هذا: هو ذلك القرار النبيل الذي اتخذته.

- لا تقل كلمة واحدة عن قراري. صاح إيڤان وقد عصف به الحنق من جديد.

- أفهم، أفهم تماماً. هذا عمل نبيل، هذا عمل رائع. إنك تنوي أن تدافع عن أخيك،

وأن تضحي بنفسك في سبيله... هذه فروسية!...

- اسكت وإلّا ركلتك بالقدم!

- إن ذلك يسرني وبه يتحقق هدفي. ذلك أن لجوءك إلى استعمال العنف معي سيكون برهاناً على أنك أصبحتَ تؤمن بوجودي واقعاً لا وهماً. هل يركل أحد شبحاً؟ ولكن دعنا من هذه المزحات. اشتمني إذا كان يلذ لك ذلك، سيّان عندي. ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شيء من الأدب والتهذيب حتى في معاملتي أنا. لقد قلت بأنني غبي ودنيء! فما هذه التعابير! عيب أن تصدر عنك هذه الألفاظ!

- بإهانتك أهين نفسي. قال إيڤان ضاحكاً. لست أنت إلّا أنا، أنت نفسي، أنت روحي، ولكن في وجه غير وجهي. أنت دائماً تعبر عن أفكاري في اللحظة نفسها التي توافيني فيها هذه الأفكار... أما أن تقول لي شيئاً جديداً لا أتوقعه فأنت عاجز عن ذلك تماماً!

- شاركتك في أفكارك فهذا ليشرفني. قال السيد بوقار فيه رقة ورهافة.

- لكنك لا تختار من أفكاري إلّا أردأها، وأغباها خاصة. أنت غبي ودنيء. أنت غبي بشكل رهيب في الواقع. لا، لا، لا أطيق أن أحتمل حضورك! ما العمل؟ ما العمل؟ قال إيڤان بغضب.

استأنف الزائر كلامه فقال باعتزاز الطفيلي، إلى مسكنةٍ واستعدادٍ لما يجب من تنازلات:

- من جهتي أحرص على أن أبقى رجلاً مهذباً وأن أُعرف بذلك. صحيح أنني فقير... ولكن دون أن أزعم أنني أشرف من غيري... أستطيع القول إن من المسلَّم به في المجتمع عموماً، كبديهية أنني ملاك سقط. شهد الله أنني لا أستطيع أن أتخيل كيف أمكن أن أكون في الماضي ملاكاً. واعتبر أنني كنت في الماضي ملاكاً، فإن ذلك يرجع إلى عهد بعيد أُعذر إذا أنا نسيته. وكل ما أحرص عليه الآن هو أن يُعرف عني أنني رجل محترم، ثم أن أعيش كما يمكنني أن أعيش محاولاً أن أسرَّ أقراني البشر. آه! إنني أحب الناس حباً صادقاً، وطالما رُوِّجت في حقي النمائم من هذه الناحية. حين أجد نفسي بينكم وحين أقيم عَرَضاً عند واحدٍ من أمثالكم، فإن وجودي يتخذ عندئذ صورة واقعية، وذلك ما يحلو لي أكثر من أي شيء آخر في الأمر كله. لأنني أنا أيضاً مصاب مثلك بخيال مختل، ولهذا أقدر واقعيتكم الأرضية السليمة. إن كل شيء في نظركم محدد بدقة، وإن كل شيء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة، فالهندسة هي المنتصرة. أما عندنا! أما نحن، فإننا نظل ضائعين إلى الأبد في معادلات غير محددة. أنا هنا أحلم وأتنزه. أحب أن أحلم. ثم إنني متى وجدت على الأرض أصبحت أؤمن وأصدق الأوهام. لا تسخر مني: يحلو لي أن أؤمن بالخرافات وأن أصدق الأوهام. إنني أتعود جميع عاداتكم في هذه الحياة الدنيا. لقد أصبحت أحب الذهاب إلى الحمّامات العامة، ويحلو لي أن أجد نفسي في حمام البخار بين التجار والكهنة. أن أخفي رغبة تجيش في نفسي هي أن أتجسد (ولكن تجسداً نهائياً لا عودة عنه) في تاجرة بدينة تزن مئة كيلوغرام، وأن أؤمن بكل ما تؤمن به: وسيكون مثلي الأعلى عندئذ أن أدخل كنيسةً فأشعل شمعة باندفاعة صادقة من الروح. سيكون ذلك خاتمة آلامي. وإني لأجد لذةً كبيرة كذلك في أن أُداوي كما تُداوَوْن . في هذا الربيع انتشر في البلاد وباء الجدري، فذهبت ألتمس أن أُلقَّح كسائر الناس، لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة في ذلك اليوم، حتى لقد تبرعت في تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة إخوتنا السلافيين!... لكنك لا تصغي إلى كلامي. وبعد لحظة صمت أضاف السيد المهذب، أنت تبدو مريضاً. وأنا أعرف أنك ذهبت إلى الطبيب أمس. فماذا قال لك الطبيب؟ كيف حال صحتك؟

- أبله! قال إيفان.

- أما أنت فذكي جداً. لقد عدتَ إلى الفظاظة: أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف والمودة، وإنما لأقول أي شيء. لا تجبني إن شئت. لقد أصبحت أوجاع الروماتزم موضة...

- أبله! كرر إيفان.

- أبله إذا شئت. ولكن هذا لا ينفي أنني أُصبت في السنة الماضية بأوجاع روماتزم ما زلت أتذكرها حتى اليوم.

- دعك من هذا الكلام! هل يمكن أن يعاني شيطان آلام روماتزم؟

- لِمَ لا، ما دمت أتجسد أحياناً؟ إنني أقبل جميع نتائج تجسداتي. «أنا شيطان، ولا شيء مما هو إنساني غريبٌ عني».

- كيف؟ كيف؟ «أنا إنسان ولا شيء مما هو إنساني...» ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله شيطان!

- يسعدني أن أحظى أخيراً برضاك.

- ولكنك لم تستعر هذه العبارة مني أنا! قال إيفان مذهولاً وقد توقف عن المشي، إن هذه الجملة لم تخطر ببالي قطّ! هذا غريب مع ذلك...

- كلام فيه جدة وطرافة، أليس كذلك؟ لكنني سأكون أميناً شريفاً في هذه المرة، فأشرح لك هذا اللغز. كثيراً ما يحدث في الأحلام، ولا سيما في الكوابيس - كتلك الكوابيس التي تنشأ عن اضطراب في المعدة مثلاً، أو عن أي سبب آخر، قطعٌ حقيقية من الحياة صادقة صدقاً عميقاً مركباً معقداً، أحداث وحتى سلسلةٌ من أحداث تربط بينها وتشد بعضَها إلى بعض فكرة موجَّهة، وتملأها تفاصيل غير منتظرة، تراوح بين أعلى تجليات الوجود الإنساني كما تقولون، وبين أحقر التفاهات، كزر كمٍّ مثلاً. إن القصص التي يعيشها المرء على هذا الشكل في الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليون تولستوي نفسه لا يستطيع أن يتخيلها. ومع ذلك فليس الكتّاب على وجه العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع، وإنما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادي جداً، أناس ليسوا أكثر من موظفين أو صحافيين أو كهنة... والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتطرح سؤالاً: لقد صرَّح لي وزير ذات يوم أن أخصب الأفكار إنما توافيه عادةً وهو نائم. ذلك بعينه ما يحدث لك في هذه الساعة. حاولت أن أكون مجرد هلوسة صادرة عن دماغك، لكن هذا لا ينفي أنني أقول أشياء مميزة، لا تخطر في بالك، كما يحدث في كابوس. وهذا ليس ترداداً لأفكارك أنت، ومع ذلك لست إلّا كابوسك ولا شيء آخر.

- أنت تكذب! كي تقنعني بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكري. ثم ها أنت تعلن أنت نفسك أنك لست إلّا حلماً.

- لقد اصطنعت اليوم أسلوباً جديداً وتبنيت طريقة جديدة. سأشرح لك هذا في ما بعد. لحظة، إلى أين وصلت من حديثي؟ قلت لك إنني أصبت ببرد. ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض، وإنما حدث هناك أيضاً...

- هناك؟ أين؟ قل لي: هل ستمكث عندي زمناً طويلاً؟ قال إيفان وقد كاد يبلغ ذروة اليأس. وتوقّف عن المشي وجلس على الديوان متكئاً بكوعيه على الطاولة، ضاغطاً رأسه

بين يديه. ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها بحركة أسف: لم تنفعه هذه الوسيلة في شيء.

- أعصابك مريضة. قال السيد المهذب بلهجة منطلقة ولكن ودية. تلومني لأنني أصبت ببرد، مع أن هذا قد حدث لي بشكل طبيعي جداً. كنت ذاهباً إلى حفلة استقبال دبلوماسية أقامتها سيدة من بطرسبورغ تستقبل شخصيات ذات نفوذ، وتكاد ترى أنها لا تقلّ خطورة شأن ورفعة عن وزير من الوزراء. كنت مرتدياً ثياباً رسمية مع ربطة عنق بيضاء وقفازين. ولكنني كنت قد تأخرت، لأنني اضطررت أن أذهب قبل ذلك إلى مكان ما، فكان عليَّ حتى أصل إليكم على الأرض أن أقطع فضاءات واسعة... المسألة مسألة ثوانٍ طبعاً. ومع ذلك أنتم تعرفون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثماني دقائق حتى تصل إلى الأرض. كنتُ - لا تنسَ هذا - أرتدي ثياباً رسمية مع صِدارٍ مفتوحٍ جداً. إن الأرواح لا تتجلد من البرد، هذا معروف. غير أن تجسد الروح يعرّضها أحياناً لبعض العواقب الوخيمة. الخلاصة أنني ارتكبت في ذلك المساء شيئاً من الطيش حين مضيت في طريقي إلى الأرض مرتدياً تلك الثياب. وليتك تعلم كم هو شديد البرد في تلك الفضاءات، في الأثير. إنه برد فظيع، بردٌ لا يكفي أن نقارنه بالصقيع هنا. الصقيع؟ هه... تصوَّر أن درجة البرودة كانت مئة وخمسين تحت الصفر! إن بنات قراكم قد تخيلن مزحةً شائعة جداً. فحين يشير الترمومتر إلى الثلاثين تحت الصفر، يطلبن من فتى ساذج غير ذي خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس، فإذا بلسانه يتجلد فوراً، وإذا بالغبي يسلخ جلد لسانه لينتزعه من الحديد. هذا إذا كانت درجة البرودة ثلاثين فحسب. أما إذا بلغت مئة وخمسين، فأحسب أنه يكفي أن تقترب الإصبع من الفأس حتى تزول شرط أن يكون في الأثير فأس طبعاً...

- لأنه يمكن أن يكون في الفضاء فأس؟ سأله إيڤان مذهولاً بلهجة متقززة. كان يقاوم بكل قواه لكي لا يصدِّق أنه يهذي، وذلك حتى لا يتردى إلى الجنون نهائياً.

- فأس؟ سأله الزائر مدهوشاً.

- ماذا سيحدث للفأس هناك؟ فهتف إيڤان بعناد غاضب.

- ماذا يحدث للفأس في الفضاء؟ يا لها من فكرة عجيبة. لو رُميت إلى مسافة بعيدة، فأظن أنها ستدور حول الأرض دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين المستقر، كما يحدث لواحد من التوابع، كما يحدث لقمر من الأقمار؛ وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً دقيقاً؛ وسيدوِّن جاتسوك ذلك في التقاويم، وهذا كل شيء.

- أنت غبي، غبي غباءً فظيعاً قال إيڤان مغتاظاً: حاول أن تكذب بفطنة على الأقل، وإلّا كففت عن الاستماع لك. إنك تحاول أن تقنعني عن طريق الواقعية في كلامك، وأن تجعلني بذلك أسلم بوجودك. إعلم أنني لا أريد أن أسلِّم بهذا، إنني أرفض أن أصدّقه! لن أصدّقه!!

- أنا مع ذلك لا أروي أكاذيب. إن كل ما أقوله صحيح. من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكاد تكون مفرحة. أنت مثلاً تتوقع مني، فيما ألاحظ، أفكاراً خارقة، وربما رائعة. يؤسفني هذا كثيراً، لأنني لا أستطيع أن أعطي إلّا ما أستطيع...

- دعك من التفلسف يا حماراً أبله!

- أنت تتكلم عن الفلسفة والجنب الأيمن كله من جسمي مشلول، وأنا أئن وأتوجع! لقد استشرتُ عدداً كبيراً من الأطباء: إنهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض، ويشرحونه بأدق التفاصيل. أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه. حتى لقد أتيحت لي

فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب، فقال لي فرحاً: «هبك متَّ من هذا المرض. لسوف يتيح لك ذلك في أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذي أماتك». وانظر بعد ذلك إلى طريقتهم تلك في إرسالك إلى اختصاصيين حين يقولون لك: «مهمّتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض. بقي عليك الآن أن تذهب إلى الاختصاصي فلان أو فلان، فهو الذي سيشفيك». إن الطبيب الجديد القديم الذي عرفناه في الزمان الماضي وكان يعالج من جميع العلل والأسقام قد اختفى تماماً، تماماً، أؤكد لك! لم يبق اليوم إلّا الاختصاصيون، والصحف ملأى بالاعلانات عنهم. إذا شعرت بآلام في الأنف، أرسلوك إلى باريس: يظهر أن في باريس اختصاصياً له شهرة في أوروبا كلها، يعرف معرفة ممتازة كيف يعالج كل ما له علاقة بالأنف. وتذهب إلى باريس فيفحص الاختصاصي أنفك، فيقول لك: «أنا لا أستطيع أن أشفي إلّا منخرك الأيمن، لأنني لا أهتم أبداً بالمنخر الأيسر، فهو لا يدخل في دائرة اختصاصي. فعليك بعد اتباع معالجتي أن تذهب إلى فيينا حيث يوجد اختصاصي حاذق جداً سيفعل لك كل ما يجب لمعالجة منخرك الأيسر.. ما العمل في هذه الحالة؟ لجأت عندئذ إلى استعمال الأدوية التي تنصح بها النساء العجائز. وصف لي طبيب أن أدلك جسمي بعد الحمّام بمزيج من عسل وملح. ذهبت إلى الحمامات العامة لا لشيء إلّا لأستمتع بوجودي مرةً في غرفة البخار، وهنالك وسَّخت جسمي بذلك المزيج اللزج الذي لم يجدني نفعاً. فلما يئست كتبت إلى الكونت ماتيئي في ميلانو: فأرسل إليَّ نشرة وقطرة. سامحه الله! تخيَّلْ أن مستحلب الشعير الذي ينتجه هوف هو الذي شفاني تقريباً. كنت قد اشتريته عرضاً، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأنني شفيت، حتى لقد تمنيت أن أرقص. زالت أوجاعي كلها. فأقسمت لأنشرن في الصحف رسالة شكر أطري فيها مزايا هذا الانتاج. كان يدفعني إلى ذلك شعور صادق بالامتنان، ولكن لهذا قصة جميلة جداً! تصوَّر أنني لم أجد جريدة واحدة ترضى بنشر شكري... قالوا لي: «إن تصريحك هذا يتصف بشيء من الرجعية. ثم إن أحداً لن يصدقك. فالشيطان لا وجود له». ونُصحت بأن أنشر شكري في رسالة لا تحمل اسم صاحبها. ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه؟ مازحت موظفي مكاتب تلك الجرائد، فقلت لهم: «إن الايمان بالله هو الذي يمكن أن يعدَّ شيئاً رجعياً في زماننا هذا. أما أنا الشيطان، فإنه مباح تماماً أن أصدَّق». فأجابوني: «إننا نفهمك. فمن الذي لا يؤمن بالشيطان؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك، لأن هذا يخالف الاتجاه العام الذي تلتزمه جريدتنا. اللهم إلّا أن تريد أن تسبغ على رسالتك طابع الهزل!». لكني قلت لنفسي، على سبيل المزح، لا بد من بعض الفكاهة. وهكذا، بقيت مجهولاً. صدقني، لم أستوعب ذلك. إن أنبل عواطفي، كعاطفة الشكر مثلاً، قد حُكم عليها أن تظل مكتومةً لا أفصح عنها، دونما سبب غير وضعي الاجتماعي.

- ها أنت تسترسل في التفلسف من جديد! قاطعه إيڤان مغتاظاً.

- ليحفظني الله! لا يمكن للمرء ألّا يشتكي من حين إلى آخر. أنا كائن تُقال في حقي نمائم خطيرة، لقد اتهمتني أنت نفسك بأنني غبي. هذا موقف يقفه شاب. اعلم يا صديقي أن الذكاء ليس أهمَّ شيء. لقد وُلدتُ طيب السريرة مرح الطبع. «وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية». يبدو أنك تعتبرني هلستاكوفاً دبَّ فيه الهرم، مع أن لمصيري شأناً أخطر من ذلك بكثير. إنني بسبب قَدَرٍ أجهل أسبابه وهدفه، لأنه كُتب عليَّ قبل خلق هذا العالم، أن أظل «أجحد» بغير انقطاع، أن أجحد كل شيء، مع أنني في حقيقة الأمر صادق النية لا أستطيع إنكار المنظم المذهبي. «لا مفر. يجب عليك أن تنكر وأن تجحد رغم كل شيء. فبدون إنكار لا يكون نقد، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خالية من زاوية موقوفة على النقد. إن الكون لن يكون بغير النقد إلّا تسبيحاً متصلاً مستمراً. ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على تسبيح الله فقط، وعلى تمجيد خلقه فحسب. لا بد لاندفاع البشر إلى شكر الله من أن يمر بحفرة الشكوك» لكنني لا أطمع في أن أقضي برأي في هذا النظام، فلست أنا من تخيله ووضعه، ولست مسؤولاً عنه إطلاقاً. كل ما هنالك أنني جعلتُ كبش فداء، وأُمرت أن أقوم

بوظيفة ناقدٍ أبدي. على هذا النحو إنما نشأت الحياة الأرضية. إننا نحن أيضاً نشعر شعوراً كاملاً بدناءة هذه المهزلة التي أُريدَ لنا أن نمثلها. وإنني من جهتي أطالب بأن أستطيع الارتداد إلى العدم. فأجاب: «بل يجب عليك أن تحيا، فبدونك لن يجري أي شيء. إذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً، لما حدث ما في الأرض شيء أبداً. بدونك لن يكون ثمَّة أحداث، وهل عن الأحداث غنى؟». أنا إذن أقوم بوظيفتي وأحقق مهمتي محطَّم القلب، من أجل أن يكون ثمَّة أحداث، وأشيع الضلال في هذا العالم بأمرٍ أعلى. والبشر المساكين يأخذون هذه المهزلة على محمل الجد، رغم ما لديهم من ذكاء نافذ. وذلك هو ما يجعل مصيرهم كارثياً، وحياتهم أليمة. إنهم يعانون عذاباً لا نهاية له. هذا صحيح... ولكنهم في مقابل ذلك يعيشون حياة واقعية، لا وهمية. لأن العذاب هو الحياة. ما عسى أن تصير إليه الفرحة بالحياة في هذا العالم إذا لم يوجد الألم؟ لن يكون هنالك عندئذ إلّا نشيد متصل ولطف لا ينتهي. وذلك شيء نبيل جداً، مقدس جداً، ولكنه باعث على أشد الملل والسأم. وأنا؟ أنا أيضاً أتألم، ومع ذلك لا أحيا. أنا حرف «س» في معادلة غير ذات حدود. أنا شبح، أنا طيف أضاع فكرة الزمان وانتهى حتى إلى نسيان اسمه الحقيقي. أتضحك؟ لا. أنت لا تضحك. وإنما تغضب من جديد. إنك تغضب دائماً. يلزمك بعض الذكاء. ولكنني أعود وأكرر: إنني مستعد لأن أتنازل، عن كل حياتي السماوية، وعن جميع امتيازاتي العالية وألقابي الرفيعة، كي أتجسد في نفسِ بائعةٍ تزن مئة كيلو وأقدِم شموعاً للرب.

- يعني أنك لا تؤمن بالله أنت أيضاً؟ سأله إيفان وهو يبتسم بكره.

- ماذا أقول لك؟ إذا كنت جاداً؟

- هل الله موجود أم لا؟ صاح إيفان مجدداً بإلحاح.

- آه أنت جادٌ إذن؟ شهد الله يا بني العزيز أنني أنا نفسي لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً. وتلك كلمة كبيرة أفلتت مني.

- لا تعرف لكن هل ترى الله بعينيك؟ لا، ليس لك وجود واقعي؛ أنت أنا، ما أنت إلّا أنا، ما أنت إلّا أنا... أنت دخان لا أكثر، أنت ثمرة خيالي أنا.

- بل قل إن فلسفتي هي فلسفتك. ذلك أصوب. «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، تلك هي القضية الوحيدة اليقينية. أما كل ما عداي، وكل ما حولي، وتلك العوالم البعيدة، أما الله، وحتى الشيطان، أما كل ذلك فلست أملك برهاناً على وجوده، ولا يستطيع أحد أن يؤكد على وجه الثقة أهذه وقائع موجودة بذاتها، أم هي صادرة عن فكري تحققاً مادياً تدريجياً للأنا، لهذه الأنا التي لا يكون عندئذ وجود لسواها، والتي تكون قد وُجدت منذ الأبد. جملة القول... ولكنني أتوقف عن الكلام، لأنني أرى أنك تهمُّ أن ترتمي عليَّ لتشبعني ضرباً.

- لو تروي لي نكتة مسلية! قال إيفان بألم.

- أعرف نادرة حول هذا الموضوع. والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الحقيقي، بل هي أسطورة. إنك تأخذ عليَّ ترددي، وتريد بسرعة الجواب: هل تؤمن أم لا؟ فاعلم أن هذه الحالة ليست حالتي وحدي، وأننا جميعاً، نحن معشر الذين نعيش في المناطق السماوية، تهزنا روح الاضطراب، وذلك بسبب اكتشافاتكم العلمية اللعينة. إنكم حين تقتصرون على تعليل العالم بالجواهر الفردة، والحواس الخمس، والعناصر الأربعة، يظل الأمر مقبولاً بعض الشيء. ثم إن الأقدمين كانوا يعرفون الجواهر. ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التي تقول إنكم قد اكتشفتم الذرة الكيماوية، والبروتوبلازما، وما لست أدري أيضاً، فإن أصحابنا قد شدوا على أذنابهم بسيقانهم، وحدث في صفوفنا اضطراب نفسي شديد، وأصبحنا في فوضى شاملة، وانتشرت في بيئتنا الخرافات، وازدهرت الأقاويل. لاحظ أن عندنا نمائم

بقدرما عندكم وأكثر. ومنذ ذلك الحين أخذت الوشايات تعيث فساداً في أرجائنا السماوية. يجب أن تعلم، في هذه المناسبة، أن عندنا نحن أيضاً «شعبة خاصة»، أن عندنا نحن أيضاً «مخابرات» تجمع بعض «المعلومات»... والأسطورة التي سأرويها لك يرجع عهدها إلى قروننا الوسطى - أقول قروننا الوسطى نحن، لا قرونكم الوسطى أنتم - وهي أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن، باستثناء البائعات السمينات اللواتي يزنَّ مئة كيلو، لا البائعات البدينات اللواتي عندكم أنتم، بل اللواتي عندنا نحن. إن كل ما يوجد في الأرض يوجد أيضاً في عالمنا. ذلك سر أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة، رغم أن هذا محظور علينا. والأسطورة التي سأرويها لك تتعلق بالجنَّة: يُقال إنه كان يعيش على أرضكم في ذات زمان فيلسوف «ينكر كل شيء، ينكر القوانين والشعور والايمان»، ويرفض خاصةً أن يسلِّم بوجود الحياة الآخرة. وقد مات هذا الفيلسوف وهو على يقين من أنه يغيب في غياهب العدم، فإذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة. كانت دهشته من ذلك عظيمة، وأعظمَ منها كان استياؤه. صاح يقول: «لست أريد الحياة الآخرة هذه، لأنها تخالف عقيدتي». فحوكم وحكم عليه بسبب هذه الكلمة الطائشة. معذرةً إذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قُصَّت عليّ. وما هذه إلّا أسطورة على كل حال... حكم على الرجل بأن يسير في الظلمات، مسافة كادريون كيلومتر وعندما يجتازها تُفتح له أبواب الجنة، ويُغفر له كل أخطائه...

- أي عذاب لديك في الحياة الآخرة، عدا هذا الكادريون من الكيلومترات؟ قاطعه إيڤان بانتعاش قوي غريب.

- أعمال التعذيب؟ لا أريد أن أسمع! في الماضي كان هناك من كل الأنواع. أما الآن فقد اعتقدوا أن عليهم أن يركزوا على الأخلاق و«آلام الضمير»، وخزعبلات من هذا النوع. لقد استوردنا هذا من عندكم، وهو إحدى ثمرات ما وصلت إليه عاداتكم وأخلاقكم من «لطف ورقة». فمن الذي جنى من هذا النظام فائدة، في رأيك؟ إن الأشرار وحدهم انتفعوا بهذا النظام وأفادوا منه. أنَّى لهؤلاء أن يعرفوا «آلام الضمير» وليس لهم ضمير؟ وفي مقابل ذلك كان على النفوس الصادقة التي احتفظت بشيء من الاستقامة والشرف أن تتألم عوضاً عن الآخرين وأن تفتديهم! ذلك ما يحدث حين يراد إدخال إصلاحات في تربة لم تتهيأ لقبولها، وحين تُقلَّد أنظمة أجنبية بشكل أعمى. أمر يستحق الرثاء! إن نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا. ولنعد إلى فيلسوفكم الذي حُكم عليه بأن يقطع مسافة كادريون كيلومتر: لقد رفع كتفيه غير مبالٍ، ثم نام على الطريق بالعرض قائلاً: «أرفض أن أمشي، حفاظاً على العقيدة وتمسكاً بالمبدأ!». خذ نفس ملحدٍ روسي مثقف، وامزجها بنفس النبي يونان الذي لبث في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال متتالية، فتجد طباع المفكر الذي نام على الطريق بالعرض.

- على أي شيء نام؟

- كان هنالك شيء ما. أأصبحت لا تضحك الآن؟

قال إيڤان وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة (وكان يصغي الآن بنهمٍ غير متوقع):

- مرحى لذلك المفكر! ألا يزال نائماً على الطريق بالعرض حتى الآن؟

- لا. بقي على ذلك الوضع قرابة ألف سنة، ثم عاد ينهض وأخذ يمشي.

- يا له من حمار! صاح إيڤان بضحكة عصبية. ثم بدا عليه أنه يفكر تفكيراً عميقاً، ثم استأنف كلامه: ولكن أليس يستوي، على كل حال، أن يبقى نائماً إلى الأبد وأن يقطع مسافة

كارديون كيلومتر؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك إلى بليون سنة، أليس كذلك؟

- أكثر بكثير! لو كان معي قلم وورقة لأجريت لك هذا الحساب بسرعة. على كل حال، لا قيمة لهذا، ما دام قد انتهى من قطع هذه المسافة منذ زمن طويل. وعند ذلك تبدأ النادرة أو النكتة.

- انتهى من اجتياز المسافة؟ كيف هذا؟ من أين جاء ببليون سنة؟

- أنت تندهش لأنك تقيس الزمان بمقاييس زمان أرضكم. والواقع أن هذه الأرض ربما قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل وجودها الحالي. وهي في كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت في كل اتجاه ثم تحللت ورجعت إلى عناصرها الأولى، فساد ملكوت المياه مجدداً، ثم ظهر مذنَّب جديد فشمس جديدة ولَّدت بدورها أرضاً. وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له في المرات بهذه المراحل نفسها وهذه التفاصيل عينها. ذلك ضجر قاتل بغير حياء...

- حسناً، حسناً، فماذا حدث حين انتهى من قطع مسافة الكادريون كيلومتر؟

- لكن ما إن فُتحت له أبواب الجنَّة ودخلها، فما إن انقضت على دخوله ثانيتان - حسب ساعة يده، نعم، ألح على هذا (رغم أن ساعته لا بد أن تكون في رأيي قد فسدت في جيبه أثناء رحلته) - أقول ما إن انقضت على ذلك ثانيتان حتى قال إن هاتين الثانيتين لا تعدل قيمتهما مسافة الكادريون كيلومتر فحسب، بل تعدل قيمتهما كادريون الكادريونيات مرفوعةً إلى أساس الكادريون أيضاً. الخلاصة أنه قد بدأ يرتل تسبيحته، وبلغ من الغلوِّ في التسبيح أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً ونبلاً، قد رفضوا في الآونة الأولى أن يصافحوه، لاعتقادهم بأنه قد بالغ في الانحدار إلى حضيض النزعة المحافظة. تلك هي طبيعة الروس. ولكنني أعود فأكرر لك أن الأمر أمر أسطورة أرويها لك على علّاتها. تلك هي المفاهيم السائدة عندنا اليوم في هذه الشؤون.

- لقد كشفتك! هتف إيڤان بفرح كأنه فرح طفل، كأنه قد تذكر في هذه اللحظة شيئاً ما فجأة: إن هذه النكتة التي ترويها عن الكادريون من السنين إنما اخترعتها أنا نفسي. كنت حينئذ في السابعة عشرة من عمري، وكنت في المدرسة الثانوية... تخيلت هذه النكتة وقصصتها في تلك الآونة على أحد رفاقي اسمه كوروفكين. كان ذلك في موسكو... إن هذه النكتة تبلغ من تميز أفكاري بها أنني ما كان لي أن أستمدها من غير أفكاري هذه، ولكنني نسيتها بعد ذلك الزمان... وقد عاودت ذاكرتي الآن بدون شعور مني. فأنا الذي تذكرتها إذن، ولم تقصّها عليَّ أنت! يحدث هكذا أن تنبجس من النسيان مجموعة من الأشياء فجأة عند الإنسان حين يُقاد إلى التعذيب أو حين يحلم وهو راقد في سريره. فما أنت إذن إلّا حلم، إلّا صورة فكري وليس لك وجود واقعي.

- إن حماستك لإنكار وجودي تؤكد لي أنك تؤمن بي مع ذلك. قال السيد الراقي وهو يضحك مشرق المزاج.

- أبداً! أنا لا أؤمن بك أبداً، أنا لا أؤمن بك حتى ولا بجزءٍ من مئة جزء من الإيمان!

- لنقل جزءاً من ألف جزء! إن المقادير الصغيرة في الأدوية التي تعالج الداء بالداء نفسه قد تكون هي الأقوى أثراً. هلّا اعترفت، هلّا اعترفت بأنك تؤمن بي، ولو جزءاً من عشرة آلاف جزء مثلاً!...

- ولا لحظة! هتف إيڤان بغضب.

- لكنني أود لو أؤمن بك. أضاف بعد ذلك بصوت غريب.

- على الأقل، هذا اعتراف له قيمة كبيرة! اعلمْ أنني طيب القلب وأنني أريد أن أهبَّ إلى نجدتك. اسمع: أنا الذي ضبطتك، لا أنت الذي ضبطتني. لقد تعمدت أنا أن أروي لك نكتتك التي كنت قد نسيتها، وإنما فعلتُ ذلك لكي أقودك إلى أن تشك فيَّ شكاً نهائياً.

- أنت تكذب! أنت ظهرت لي لتقنعني بوجودك.

- بالضبط. ولكن الشكوك والقلق والصراع بين الإيمان وعدم التصديق يمكن أن يرينا الإنسان الذي يملك شعوراً مرهفاً مثلك عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شنقاً خير منها. ولما كنتُ أعلم أنك تؤمن بي قليلاً، فقد زرعت الشك في نفسك برواية تلك النادرة لك. فبذلك أقودك من الايمان إلى الشك ومن الشك إلى الإيمان مرة بعد مرة على التناوب. وحين أفعل ذلك أهدف إلى غاية. وأنا أطبِّق هنا منهجاً جديداً: فمتى شككت في وجودي شكاً نهائياً أردت أن تبرهن لي على أنني لست إلّا حلماً وأنني غير موجود في الواقع. ذلك أنني أعرفك. فبهذه الوسيلة أكون قد حققت هدفي، وهو في الحقيقة هدف نبيل جداً. فأنا أرمي في الواقع إلى أن أضع في نفسك بذرة إيمان متواضعة فإذا بشجرة قوية من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة في المستقبل، شجرة تبلغ من القوة أنك ستريد أن تعيش في حماها حياة ناسك وقديس. والحقيقة أن لديك رغبة خفية مكتومة لكن قوية، سوف تأكل الجراد ساعياً إلى تحقيق خلاصك في الصحراء!

- إذن في سبيل خلاص روحي حمّلت نفسك هذا العناء كله؟

- لا بد لي، أنا أيضاً، من أن أقوم بعمل خير ولو مرة في حياتي. ولكنني أرى أنك تغضب، تغضب غضباً شديداً!

- هل أغريتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون بالجراد ويقضون في الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يُصلون وتغطيهم الطحالب؟

- لكن، هذا هو عملي الرئيسي يا عزيزي. ما أسهل أن ينسى أحدنا الكون وعوالمه التي لا تُحصى من أجل أن يتعلق بواحد من أولئك الرجال، لأنهم في نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً. إن نفساً واحدة من هذا النوع تعدل في بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه. لدينا في هذا الشأن جدول أسعار. إن نصراً نحققه على واحد من هؤلاء الرجال لهو في نظرنا ذو قيمة عظيمة. أؤكد لك أن بينهم أناساً لا يقلون عنك ثقافة وذكاءً، رغم أنك لا تريد أن تسلِّم بهذا، أنا أعرف ذلك... وهم قادرون على أن يسبروا، في لحظة واحدة بعينها، أعماقاً من الشك والإيمان، حتى ليظنّ المرء في مثل تلك اللحظات أنهم يوشكون أن يسقطوا «وأرجلهم في الفضاء» على حد تعبير الممثل غوربونوف.

- أراك تتدخل بما لا يعنيك؟

- من الأفضل يا صديقي. أجاب الزائر بلهجة الواعظ. أن يكون المرء طويلَ الأنف بدلاً من أن يكون بغير أنف، كما قال ذلك في الآونة الأخيرة مركيز مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعي (أغلب الظن أن المركيز كان قد عهد بأنفه إلى عناية اختصاصي). صاح المركيز وهو يلطم صدره: «رُدَّ إليَّ أنفي»، فقال له الكاهن الطيب هامساً: «يا بني، إن أوامر الله لا يُسبر غورها ولا تُدرك حكمتها أحياناً. فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة وإن لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً. لئن شاء حظ قاسٍ أن يحرمك من أنفك، إن في ذلك ميزةً واحدة على الأقل، هي أن أحداً لن يجرؤ بعد الآن أن يجرَّك من طرف أنفك»، فاستأنف المريض اليائس كلامه قائلاً: «ذلك عزاء هزيل!. لسوف يسرني ويسعدني أن أُجرَّ

كل يوم من طرف أنفي، شرط أن يكون أنفي في مكانه»، فأجابه الكاهن متنهداً: «يا بني، لا يمكن أن يملك المرء جميع الخيرات في آن واحد؛ فهذه في حد ذاتها معصية لله الذي لم ينسك في هذه الحالة، لأنك حين تؤكد أنه سيسعدك أن تُجرَّ كل يوم من طرف أنفك، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة، فإنما أنت تحقق أمنيتك على نحو غير مباشر: لأنك إذ فقدت أنفك تكون احتفظت به مع ذلك، بالمعنى المجازي...».

- ما أغبى هذا الكلام! صاح إيڤان.

- يا صديقي، كانت غايتي الوحيدة عندما رويت لك هذه النادرة هي أن أضحكك. ولكنني أقسم لك أن هذا مثال على الجدل اللاهوتي الذي يمارسه اليسوعيون. إن هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً، كلمة بكلمة. وهو حالة وقعت في الآونة الأخيرة وأحدثت لي متاعب جمة وأورثتني هموماً كثيرة. إن ذلك الشاب المسكين الذي حدثتك عنه قد انتحر في تلك الليلة نفسها لدى عودته إلى البيت بعد الاعتراف. وقد بقيت بقربه إلى آخر لحظة... أما كراسي الاعتراف لدى اليسوعيين فإنني أعرفها جيداً، وتلك في الواقع تسلية من تسلياتي المفضلة، حين يوافيني ضجر ويلمُّ بي حزن. وسأقص عليك الآن حالةً أخرى يعود عهدها إلى بضعة أيام خلت. استقبل كاهن يسوعي عجوز على كرسي الاعتراف فتاة شقراء، نورماندية، صبية في العشرين من عمرها، جميلة يفتن جمالها العقل. أما جسمها فيسيل لعابي عندما أتصورها. ولها عدا هذا طبيعة من تلك الطبائع... جثت على ركبتيها، ودمدمت تعترف بخطيئتها من خلال القضبان. هتف الكاهن الصارم يقول: «هل يمكن حقاً، يا ابنتي، أن تكوني قد سقطت من جديد؟ أوه! يا مريم العذراء! ماذا أسمع؟ مع رجل آخر؟ إلى أين تمضين يا بنيتي؟ ألا تخجلين؟»، فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها في الدموع ندماً: «آه يا أبتاه! إن في ذلك لذة عظيمة له، ولا يُحدث لي أنا إلّا ألماً قليلاً!». جواب عظيم؟ ما رأيك؟ لقد دُهشت أنا نفسي من هذا الجواب. كانت تلك صيحة الطبيعة. بدا لي ذلك أطهر من البراءة نفسها. غفرت لها خطيئتها فوراً، وبينما كنت أهم بالانصراف، رأيتني أُضطر إلى أن أعود أدراجي: ماذا أسمع؟ الكاهن يتواعد مع الفتاة من خلال القضبان على أن يلتقيا في المساء. الكاهن العجوز! لقد سقط في لحظة. إن الطبيعة، حقيقة الطبيعة هي التي انتصرت. ما لك تكشِّر؟ أراك تقلب شفتيك؟ لقد أصبحت لا أدري ماالذي يجب أن أقوم به كي أرضيك...

- دعني وشأني! إنك تظن دماغي كالكابوس. صاح إيڤان بصوت موجع فيه أنين، لأنه كان يشعر أنه عاجز عن التخلص من هلوسته: إن حضورك يضجرني ضجراً قاتلاً. لقد أصبحت لا أحتملك. إنني مستعد لأن أعطي كثيراً في سبيل أن أتخلص منك!

- أرجوك للمرة الألف أن تخفف من غلوائك، كفَّ عن توقع أفكار «رفيعة عظيمة» مني، فترى كيف أننا سنتفاهم حينذاك. الواقع أنك حانق عليَّ لأنني لم أمثُل أمامك في إطار أكثر مهابةً، تحفُّ بي هالة حمراء، وتحيطني بروق، وتصحبني رعود. كنت تود لو تراني بجناحين كبيرين محمرَّين بنار جهنم، ولا تغفر لي أنني جئت إليك بثياب متواضعة. إنك تشعر بأنك أوذيت، أوذيت في مشاعرك الجمالية الفنية أولاً، وفي كبريائك ثانياً: كيف يستقبل رجل عظيم - أليس كذلك؟ - كيف يستقبل مثل هذا الرجل زيارة شيطان مسكين لا تستحق الرثاء؟ صحيح! أنا لا أنكر ذلك! إن هذه السمة الرومانسية التي طالما ندَّد بها الناقد بيلنسكي هي جزء من طبيعتك. ولكن ما حيلتي أيها الشاب الطيب؟ منذ قليل، حين كنت آتياً إليك، خطر ببالي أن أرتدي ثياب مستشار دولة متقاعد سبق له أن خدم في القفقاس، فهو يضع على ردائه وسام «الأسد» و«الشمس». وكانت هذه الفكرة محببةً إلى النفس، ولكنني لم أجرؤ أن أنفذها، فلو قد فعلت لضربتني حتماً لأنني وضعت على صدري وسام «الأسد» و«الشمس» بدلاً من أن أضع «نجمة القطب» و «نجمة الأبرق». وأنت إلى هذا لا

تكف عن تذكيري بأنني غبيّ. شهد الله مع ذلك أنني لم يخطر ببالي أن أنافسك في الذكاء. حين جاء مفستوفيليس إلى فاوست قال إنه يريد الشر ثم لا يستطيع أن يفعل إلا الخير. ذلك شأنه هو. أما أنا فعلى نقيض هذا. ربما كنت في الكون بأسره الإنسان الوحيد الذي يحب الحقيقة مخلصاً ويهدف إلى الخير صادقاً. لقد كنت حاضراً حين صعدت «الكلمة» إلى السماء، بعد موتها على الصليب، وهي تحمل على صدرها روح لص اليمين المصلوب. وسمعت صيحات الفرح التي صدحت بها أصوات الكروبيين مسبحين الله، وسمعت الأناشيد الصاخبة يضج بها الساروفيون الذين هزُّوا السماء بأصواتهم المرعدة وأرعشوا بها الخليقة كلها. فيميناً بكل ما أقدس في هذا العالم، لقد تمنيت عندئذ أن أنضمَّ إلى جوقة المنشدين لكي أسبّح الله أنا أيضاً. كان صدري يرتفع، وكانت كلمات الثناء تندفع إلى شفتي... ذلك أنني - أعلم هذا - حساس جداً، وأنني قد أوتيت عاطفة فنية مشبوبة. ولكن العقل - هذه الملكة اللعينة في طبيعتي - قد صدتني في تلك المرة أيضاً، واضطرتني إلى الاعتدال، فأفلتت مني اللحظة الرائعة، أفلتت مني الفرصة الوحيدة. تساءلت عندئذ: «ما عسى أن يحدث بعد أن أرتِّل نشيد تمجيد الرب؟ سوف ينطفىء حينذاك كل شيء في هذا العالم، فلا تجري بعد ذلك أحداث». فبسبب وظائفي وحدها ومن أجل وضعي الاجتماعي وحده خنقت إذن في نفسي ذلك الاندفاع الطيب الكريم، وبقيت وفياً لما أقوم به من أعمال الدناءة. إن شخصاً آخر قد احتكر لنفسه ما يرتبط بالخير من شرف ومجد، ولم تُترك لي أنا إلّا خسة الشر. ولكنني لا أحسد أولئك الذين يعيشون في السهولة واليسر، فما أنا بالطماع. ولكنني أتساءل مع ذلك: لماذا كُتب عليَّ وحدي، من دون سائر مخلوقات الكون، أن أتلقى لعنات الأخيار من الناس، بل وأن أحتمل ركلات أرجلهم في بعض الأحيان، لأن عليَّ أن أذعن لهذه المساوىء حين أتجسد. أنا أعرف أن في هذا سراً، ولكنهم يرفضون أن يطلعوني على هذا السر. ربما كانوا يعرفون أنني، يومَ أعرف السر، سأسبح أنا أيضاً الله، فسرعان ما يتبدد عندئذ ما في هذا العالم من عيوب ضرورية، وسرعان ما ينتصر الرشاد، فيكون ذلك نهاية كل شيء، حتى الصحف والمجلات، إذ من الذي يخطر بباله عندئذ أن يشترك في الصحف والمجلات إذا هي أصبحت خاضعة لسلطان العقل. لست أجهل طبعاً أنني سأتصالح آخر الأمر مع الخليقة، وأنني بعد أن أقطع ما يجب عليَّ من مسافة تبلغ كادريون كيلومتر، سأعرف السرَّ الذي يخفونه عني. ولكن إلى أن يتحقق ذلك، سأظل معتكفاً أقوم بعملي على مضض، أقتل ألوفاً لأنقذ واحداً. كم نفس وجب إهلاكها وكم سمعة وجب تلطيخها، من أجل الوصول إلى رجل مثل أيوب. ما دام السر مكتوماً عني، سيبقى هنالك حقيقتان في نظري: حقيقة السماء التي أجهلها الآن جهلاً تاماً، وحقيقتي أنا. ولا يدري أحد حتى الآن أي الحقيقتين أفضل... هل نمت؟

- إنني أفكر فيك، قال إيڤان وهو يرتعش غضباً. إن أغبى ما في طبيعتي من أمور، إن أسخف ما كان في ذهني من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها مثل القاذورات، تأتي أنت الآن فتقدمها لي كما لو كانت شيئاً جديداً.

- لقد فشلت في إرضائك مرة أخرى. أعتقد مع ذلك أنني أجدت وصف التسبيح الذي أنشدته الأصوات في السماء. ما رأيك في هذه اللهجة الساخرة التي تقتفي آثار هايني؟ يخيَّل إليَّ أنها تناسبني. ألا ترى ذلك؟

- لا، أنا لم أكن أبداً خادماً من هذا الطراز! أيعقل أن تلد نفسي خادماً مثلك؟

- يا صديقي، أعرف شاباً روسياً من أسرة أرستقراطية، فتى أقسم لك أنه رائع: هو فيلسوف، وهو يهتم بالأدب ويعنى بالفن. وقد ألَّف قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن، عنوانها: «المفتش الكبير»... وفيه وحده إنما كنت أفكِّر.

- أمنعك من الكلام عن «المفتش الكبير»!. صاح إيڤان وقد احمرَّ خجلاً.

- حسناً! و «التحول الجيولوجي»؟ ألا يزال يتذكره؟ تلك قصيدة!

- اسكت وإلّا قتلتك!

- أنت تقتلني؟ دعني أولاً أن أقول كل شيء. فمن أجل أن أحصل على هذه المتعة إنما جئت. إنني أعبد أحلام أصدقائي الشباب الذين يفيضون حماسة وحياة. كنت تقول لنفسك في الربيع الماضي وأنت تستعد للمجيء إلى هذه المدينة: «سأجد هنالك أناساً جدداً. إنهم ينوون تحطيم كل شيء والعودة إلى البداية، أي من أكل لحوم البشر! يا لهم من حمقى! لماذا لم يستشيروني؟ لا حاجة إلى التحطيم في رأيي، ويكفي أن نطرد من أذهان البشر فكرة الإله. بهذا ينبغي لنا أن نبدأ مهمتنا. ذلك هو المنطق الحقيقي الذي يجب أن ننطلق منه في عملنا، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئاً. فمتى رفضت الإنسانية الايمان بالله دفعةً واحدة (وأنا مقتنع بأن هذا العصر آتٍ لا ريب فيه، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التي تعاقبت حتى الآن)، فإن المفاهيم القديمة عن الكون ستختفي من تلقاء نفسها دون أن يكون من الضروري أن نعود إلى عهد أكلة لحوم البشر. وستزول الأخلاق القديمة خاصةً، وسيُبنى عالم جديد بعد أن يُمحى الماضي. سوف يتحد البشر ليردوا إلى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة، ولكن في هذا العالم وحده. وسيشعر الإنسان بعزة عظيمة وكبرياء جبارة تحركه وتحمله، لأنه يكون قد أصبح «إلهاً - إنساناً». إن ما سيحققه الإنسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود، بفضل إرادته المتحالفة مع العلم، ستغمر نفسه في كل ساعة بفرح يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به في الماضي من ثواب سماوي. سيعرف كل إنسانٍ أنه فانٍ، وأنه لا قيامة بعد الموت، ولكن جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء فيه عزة، كأنهم آلة. سيعدل الإنسان يومئذ، من شدة كبريائه، عن الشكوى من القدر وعن الاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض. وسوف يحب الإنسان أخاه الإنسان حباً مبرأً من المنفعة، لا يرجو أن ينال على حبه ثواباً فيما بعد. صحيح أن الحب لا يُفرح إلّا لحظات قصيرة، ولكن مجرد وعي تلك اللحظة يقوي لهيبها بالقدر نفسه الذي كان يتحول فيه إلى حب أبدي لا ينتهي. بينما كان في الماضي يضيع في صبوات غامضة إلى حب أبدي ولو من خلف القبر»... وهلمَّ جراً على المنوال نفسه.

كان إيڤان قد سدَّ أذنيه بيديه، وأطرق إلى الأرض وهو جالس على الديوان، وأخذ جسمه كله يرتجف.

- والآن، هذه هي المسألة المطروحة - تابع. هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب - هي:» هل يأتي عصر من هذا النوع أم لا؟ فإذا كان الجواب عن هذا السؤال بنعم، فسوف تحل المشكلة، وسوف تنتظم الإنسانية على أسس جديدة. ولكن لما كان من المستحيل، بسبب حماقة البشر، أن يحل هذا العصر الجديد قبل انقضاء ألف سنة أخرى، فإنه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد، وقد وعى الحقيقة منذ الآن، أن يبني حياته على النحو الذي يناسبه دون أن يهتمّ بالمفاهيم البالية. وبهذا المعنى يمكن أن يقال «إن كل شيء مباح». وأفترض أن ذلك العصر الجديد لن يأتي في يوم من الأيام، فإنه يبقى صحيحاً أنه لا وجود لله، ولا خلود للنفس، فمن المباح إذن للإنسان الجديد أن يصبح «إلهاً إنساناً» ولو وجب عليه أن يكون الوحيد في الكون كله. وواضح أنه سيستطيع، في دوره الجديد، أن يتحرر فَرِحاً من الضغوط الأخلاقية التي كان يخضع لها «الإنسان العبد» في الماضي، وسيكون عليه أن يتحرر كلما بدا له ذلك ضرورياً. فلا قوانين تُفرض على إله، لأن الإله على حق دائماً؛ فأي شيء يفعله الإله فهو الصواب، وأي مكان يكون فيه الإله فهو مكانه. إن كل ما سأفعله بعد اليوم فهو خير، وسأحتل المكان الأول... كل شيء مباح، وكفى!» - هذا كله جميل جداً، ولكنني أتساءل لماذا يكون الإنسان في حاجة إلى أن يتدثر بدثار الحقيقة ما دام قد قرر أن

يعيش وأن يخادع؟ فيم هذا التأييد للحقيقة؟ هذا هو إنساننا الروسي المعاصر: من دون عقاب لا يقوم حتى بخدعة واحدة. فإلى هذا الحد يبلغ حبه الحقيقة...

كان الزائر يبدو مسروراً ببلاغته. فهو يرفع صوته أكثر فأكثر، وينظر إلى صاحب البيت فاحصاً في دهاء. ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه، فإن إيڤان تناول الكأس الموضوعة على الطاولة، ورمى بها الخطيب البليغ بكل ما أوتي من قوة.

- آه! إن هذا لغباء أخيراً! فصاح الخطيب وهو ينهض بسرعة ويمسح بأصابعه قطرات الشاي التي تناثرت على ثيابه: لقد تذكر محبرة لوثر. هو يدّعي أنني لست إلّا حلماً، فيقذف الكؤوس إلى رأس الخيال الذي ظهر له في هلوسته! لكأنه امرأة حقاً! يا لهذا المنطق ما أغربه! لقد كنت أعتقد فعلاً أنك تتظاهر بسدٍّ أذنيك بينما كنت في الواقع تسمعني وتصغي إليَّ...

وفي تلك اللحظة سُمعت طرقات ملحّة على زجاج النافذة، فنهض إيڤان عن ديوانه واثباً.

- هل سمعت؟ خير لك أن تفتح صاح الزائر. فهو أخوك إيليوشا يطرق النافذة حاملاً إليك نبأً لست تتوقعه أبداً، نبأً هاماً جداً، صدقني...

- اسكت أيها الدجّال! قال إيڤان بغضب. لقد عرفتُ قبلك أنه أخي إيليوشا. وكنت أحس أنه سيأتي، ولا بد أن يكون هناك سبب حمله على المجيء. إنه يحمل إليَّ « أنباءً»، هذا بديهي.

- فافتح إذن، افتح له. إن في الخارج عاصفة ثلج. وهو أخوك. هل تعرف يا سيدي رداءة الطقس في الخارج؟ إن الجو يبلغ من الرداءة أن المرء لا يسمح لنفسه بأن يدع كلباً هناك!...

واستمر الطرق على النافذة. أراد إيڤان أن يسرع فيفتح الباب، لكنه أحس فجأة كأنه مشلول، فهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه. بذل جهداً كبيراً من أجل أن ينتزع نفسه من ذلك التجمد، وأن يحطم هذه الحبال التي تشده، ولكنه لم ينجح. وصارت الطرقات على النافذة أقوى. فشعر إيڤان بأنه يتخلّص من عوائقه، فنهض منتفضاً، ونظر حواليه حائراً. كانت الشمعتان قد ذابتا أو أوشكتا، وكانت الكأس التي رمى بها الزائر منذ لحظة ما تزال في مكانها على الطاولة. وليس هناك أحد على الكنبة الموضوعة قبالته جانب الجدار. ورغم أن الطرق على النافذة ما يزال مستمراً بإلحاح، فإن الطرقات بدت لإيڤان أضعف مما كان يسمعها أثناء حلمه، حتى لقد كانت خفيفة.

- لم يكن ذلك حلماً! لا... أقسم أنه لم يكن حلماً. كل ذلك حصل تواً. هتف إيڤان فيودوروفتش وهو يندفع نحو النافذة. أنا لم أحلم! وفتح فرجة النافذة، وصرخ يقول لأخيه لكنني قلت لك ألا تأتي:

- إيليوشا قل بكلمتين: ماذا تريد مني؟ أجب، هل تسمع؟

- شنق سمردياكوف نفسه من ساعة. أجابه إيليوشا من الخارج.

- تعال إلى المدخل. قال له إيڤان.

ومضى يفتح الباب.

X

«هو الذي قال ذلك!»

عندما دخل إيليوشا، قال لإيڤان فيودوروفتش أن ماريا كوندراتيفنا قد جاءته مسرعةً منذ أقل من ساعة، فأبلغته أن سمردياكوف قد انتحر، وأضافت: «دخلت إلى غرفته لآخذ السماور، فإذا بي أراه مشنوقاً على وتدٍ معلق على الحائط»، فلما سألها إيليوشا هل أبلغت من يجب إبلاغه، أجابت بأنها لم تحدّث أحداً في هذا الأمر بعد. لكني: أسرعت إليك فوراً، وكنت أركض طوال الطريق». تركض كالمجنونة وترتعش من قدميها حتى رأسها. ولما رافقها إلى منزلها، وجد سمردياكوف مشنوقاً بالفعل. ورأى رسالة على الطاولة: «أنهيت حياتي برغبتي وإرادتي كي لا أتهم أحداً». ترك إيليوشا الرسالة على الطاولة، ومضى فوراً إلى رئيس الشرطة، فأطلعه على الحادث. وختم إيليوشا كلامه لأخيه إيڤان قائلاً: «ومن هناك جئت إليك مباشرة»، وكان أثناء ذلك يحدِّق بانتباه إلى ملامح وجهه التي أدهشه تعبيرها.

- أخي! لا بد أنك مريض جداً، صاح فجأة. فأنت تنظر إليَّ دون أن يبدو عليك أنك تفهم كل ما أقوله.

- من الجيد أنك جئت. قال له إيڤان مفكراً، دون أن يلوح أنه سمع تعجب أخيه: لكنني كنت أعلم أنه شنق نفسه.

- من أخبرك؟

- لا أعلم، ولكنني كنت أعلم. أكنت أعلم أم لا؟ بل كنت أعلم. هو قال لي ذلك.

كان إيڤان واقفاً في وسط الغرفة، وكان يتكلم وهو يفكر، ويحدِّق إلى الأرض.

سأله إيليوشا وهو ينظر حواليه على غير إرادة منه - من «هو»؟

- اختفى.

رفع إيڤان رأسه وابتسم ابتسامة رقيقة.

- لقد خاف منك، نعم خاف منك أنت. أنت «كروبي طاهر». ديمتري يسميك كروبي. رعود أغاني الحماسة التي يغنيها الساروفيون... ما الساروفي؟ ألعله برج نجوم قد لا يكون هو كله في آخر الأمر إلّا ذرة كيميائية بسيطة... هناك برج «الأسد» وبرج «الشمس»، هل تعلم ذلك؟

- اجلس يا أخي همس إيليوشا يقول خائفاً: اجلس على الديوان، بحق السماء! أنت تهذي. نم هنا، ضع رأسك على المخدة، هكذا. هل تريد أن أضع على جبينك خرقة مبللة؟ قد يفيدك هذا.

- أعطني المنشفة الموجودة على ذلك الكرسي من فضلك. لقد رميتها عليه منذ قليل.

- ليست على الكرسي. لا تهتم. أعرف أين تضعها. قال إيليوشا وهو يتجه نحو الزاوية المقابلة من الغرفة، حيث رأى، قرب الحوض، منشفة نظيفة لم تُمسَّ وما تزال مطوية. نظر إيڤان إلى الفوطة وفي وجهه تعبير غريب. كأن الذاكرة أخذت تعود إليه.

- انتظر. قال وهو ينهض عن الديوان. إنني منذ ساعة - أتذكر ذلك - قد أخذت هذه المنشفة من قرب الحوض فبللتها بالماء البارد، ووضعتها على جبيني، ثم رميتها إلى هناك. فكيف تصبح الآن ناشفة ومطوية؟ لم يكن في غرفتي منشفة أخرى.

- أتقول إنك وضعت هذه المنشفة على جبينك؟ سأله إيليوشا.

- نعم، ومشيت في الغرفة منذ ساعة والمنشفة على جبيني... لماذا ذابت الشموع؟ كم الساعة الآن؟

- قريباً منتصف الليل.

- لا، لا، لا. صاح إيڤان. لم يكن ذلك حلماً! كان هو هناك، كان جالساً هناك، على تلك الكنبة الأخرى. فلما طرقت أنت زجاج النافذة، رميتُ رأسه بكأس... هي هذه الكأس نفسها.. لحظة! في المرة الماضية أيضاً، كنت قد نمت، ولكن الحلم في هذه المرة ليس حلماً. الأمر في هذه المرة كما في المرة الماضية. هل تعلم يا إيليوشا أن الأحلام تلازمني في هذا الوقت؟... ولكنها ليست أحلاماً... أنا يقظ، أنا أمشي وأتكلم وأرى... ومع ذلك فأنا نائم... ولكنه كان هناك، كان هناك، نعم، على تلك الكنبة. إنه غبي جداً، يا إيليوشا. أضاف إيڤان وقد أخذ يضحك، وراح يمشي في الغرفة.

- من هو الغبي؟ عمَّن تتكلم؟ سأله إيليوشا مرة أخرى بقلق.

- الشيطان. لقد بدأ يزورني. جاءني مرتين، مرتين، إن لم يكن ثلاث مرات. قال لي ليزعجني إنني أغضب لأنه شيطان عادي لا إبليس محمرُّ الجناحين، معتاد الظهور تحيط به بروق ساطعة. ولكنه ليس إبليساً إذن. لقد كذب عليَّ. إنه دجال. هو شيطان عادي تماماً، شيطان حقير، من فئة دنيئة. إنه يرتاد الحمّامات العامة! فلو خُلعت ثيابه لاكتُشف حتماً ذنبه الذي لا بد أن يكون طويلاً جداً، لا بد أن يكون طوله أكثر من متر... ذنب أشقر أملس... ذنب غير مهيب، كذنب كلب خسيس! إيليوشا، أرى أنك متجمد من شدة البرد! لقد مشيت في الثلج مدة طويلة. هل تريد قدحاً من الشاي؟ ما رأيك؟ الجو بارد، أليس كذلك؟ هل تريد أن آمر بإعداد شيء من الشاي لك؟ الجو بارد جداً، إلى درجة أن المرء لا يرضى أن يترك في الخارج كلباً...

أسرع إيليوشا إلى المغسلة، فبلل المنشفة بالماء البارد، ثم حمل إيڤان على أن يجلس ووضع المنشفة المبتلة على جبينه، ثم جلس إلى جانبه.

- ماذا قلت لي، منذ لحظة، عن ليزا؟ استأنف إيڤان الكلام وقد أصبح ثرثاراً. إنها تعجبني، ليزا هذه! أظن أنني أسأت قولاً في حقها. لم أكن صادقاً. إنها تعجبني. أنا خائف من الغد، خائف على كاتيا قبل كل شيء، وفوق كل شيء. وخائف على المستقبل أيضاً. ستهجرني في الغد نهائياً، وتركلني بقدميها. هي تتخيل أنني أريد هلاك ميتيا بسببها! نعم، ذلك ما تتصوره. ولكن لا، هذا خطأ. غداً يكون الصليب، ولكن لن يكون الشنق. لأنني لن أشنق نفسي. هل تعلم يا إيليوشا أنني عاجز عن أن أشنق نفسي؟ لعلك تظن أن هذا جبن مني،

أليس كذلك؟ ولكن لا، أنا لست جباناً. فلأنني أحب الحياة حباً قوياً أرفض الانتحار! كيف عرفتُ أن سمردياكوف شنق نفسه؟ آ، نعم. «هو» الذي قال لي ذلك...

- هل أنت واثق بأن أحداً قد زارك؟ سأله إيليوشا.

- نعم. على تلك الكنبة، في الزاوية. كنت ستطرده. على كل حال لقد طردته!. لقد غاب في اللحظة التي وصلت فيها أنت. إنني أحب وجهك يا إيليوشا. هل كنت تعلم أنني أحب وجهك؟ أما «هو» فإنه أنا يا إيليوشا، أنا وحدي. هو كل ما فيَّ أنا من دناءة وحقارة! صحيح أنني «رومنسي»، وقد لاحظ هو ذلك... ولكن هذه نميمة كاذبة. إنه غبي بشكل فظيع. وهو ماكر، ماكر كحيوان. كان يعرف بماذا يستطيع أن يثير غضبي. زعم أنني أؤمن به ليغضبني، وبهذه الوسيلة جعلني أستمع وأصغي إليه. ولكنه ذكر لي أيضاً حقائق كثيرة عني، أشياء ما كنت لأعترف بها في يوم من الأيام. أضاف بلهجة جدية وسرية:

- أتعلم يا إيليوشا أنني كنت أتمنى حقاً أن يكون «هو» لا أنا؟

- لقد أرهقك. قال إيليوشا وهو ينظر إلى أخيه في شفقة.

- أرهقني. كان داهية! «الضمير؟ ما هو الضمير؟ أنا من صنعه. لماذا يشعر الإنسان بعذاب الضمير؟ على سبيل العادة، نتيجةً لطريقة في التفكير تكونت في البشرية خلال سبعة آلاف سنة، فمتى تحررنا من هذه العادة، أصبحنا آلهة». هو الذي قال ذلك، هو الذي قال ذلك!

- ألم تكن أنت الذي قلت ذلك؟ قال إيليوشا وهو يحدِّق إلى أخيه. دعه الآن، لا تفكر فيه، إنسه. فليأخذ معه كل ما تستنكره اليوم وتدينه، ولا يعود بعد الآن أبداً.

- نعم. ولكنه شرير. لقد ازدراني جهاراً. كان وقحاً، صدقني يا إيليوشا. ولكنه افترى عليَّ، افترى عليَّ في أمور كثيرة. قال: «أنت تنوي أن تقوم بعمل نبيل! هأ! أنت تنوي أن تتهم نفسك أمام المحكمة بقتل أبيك، مؤكداً أن الخادم قتله بتحريض منك...».

- توقف يا أخي! قاطعه إيليوشا: أنت لم تقتل أباك. هذا ليس صحيحاً!

- هو الذي قال ذلك، ولا بد أنه على علم به «أنت تنوي أن تقوم بعمل فاضل، مع أنك لا تؤمن بالفضيلة؛ ذلك ما يعذبك، ذلك هو سبب شراستك». هكذا تكلم، وهو يعرف ما يقول... هذه أقوالك أنت لا أقواله هو. قال إيليوشا بمرارة. إنك مريض، إنك تهذي، وتعذب نفسك في هذيانك!

- لا، إنه يعرف ما يقول. قال لي مؤكداً: «أنت تصدر عن زهو وخيلاء، تريد أن تمثُل أمام القضاة فتقول لهم بكبرياء: «أنا القاتل، ما لكم تصطنعون هذه الهيئات المروِّعة؟ إنكم كاذبون. إنني أسخر من ذعركم هذا!». تلك هي الخواطر التي نسبها إليَّ، ثم أضاف: «هل تعرف ماذا تتمنى؟ أنت تتمنى أن يمدحونك قائلين: «هو مجرم، نعم، هو قاتل، ولكن تحركه عواطف سامية رفيعة! يريد أن يتهم نفسه لينقذ أخاه!». أما هذا يا إيليوشا فهو كذب (قال إيڤان وقد سطعت عيناه). أنا لا أتمنى أبداً أن يُعجب بي بُلهاء! لقد كذب في هذا يا إيليوشا، كذب في هذا، أقسم لك! وبسبب ذلك ضربته بكأس فتحطّمت على وجهه القذر!

- هدىء روعك يا أخي، كفَّ عن الكلام هكذا! توسل إليه إيليوشا.

- لا، إنه يجيد التعذيب، إنه قاس. أردف إيڤان قائلاً دون أن يصغي إليه. كنت أقرِّر دائماً لماذا كان يجيء. كان يقول: «إن الزهو هو الذي يحركك ويدفعك. ولكنك تأمل رغم كل

شيء أن يفتضح أمر سمردياكوف، فيرسل إلى السجن، ويُبرَّأ ميتيا، ولا يُحكم عليك أنت إلّا حكماً «أخلاقياً» (وقد ضحك حين نطق بهذه الكلمة، هل فهمت؟)، بينما يُكبر آخرون عظمة نفسك. ولكن ها هو سمردياكوف قد مات! لقد شنق نفسه، فمن الذي سيصدقك أمام المحكمة، من الذي سيؤمن بأقوالك بعد أن أصبحت وحيداً؟ ومع ذلك ستذهب إلى المحكمة، وتقف أمام القضاة. لقد قررتَ ذلك، وستفعل. لماذا ستذهب إلى المحكمة بعد الآن؟». شيء فظيع يا إيليوشا! إنني لا أحتمل هذه الأسئلة. من الذي يحق له أن يستجوبني بهذه الطريقة؟

أخي. قاطعه إيليوشا وقد تجمد من الذعر. ولكنه ما يزال يأمل أن يرجع إيڤان إلى - الواقع: كيف يمكن أن يكون قد كلمك على موت سمردياكوف قبل وصولي، بينما كان جميع الناس ما يزالون يجهلون الحادث، ولم يتسع وقتهم للاطلاع عليه؟.

هو من قال لي ذلك. قال إيڤان بصوت قاطع. بل ظل يكلمني في هذا طوال - الوقت إذا شئت أن تعرف الحقيقة، ولم يكلمني إلّا في هذا. كان يقول لي: «يا ليتك تؤمن بالفضيلة! إن أحداً لن يصدقني، ولكن ذلك لا يهمني، أنا أصدر عن مبدأ. إنك تسخر من الفضيلة، لأنك خنزير، مثل فيودور بافلوفتش! فعلام ذهابك إلى المحكمة، ما دامت تضحيتك لن تجدي؟ الحقيقة أنك أنت نفسك لا تعرف لماذا تريد أن تذهب إلى المحكمة! آه إنك على استعداد أن تعطي كثيراً لكي تعرف ذلك. أتظن أن هذا ما قررته؟ إنك لم تقرر شيئاً بعد. ستقضي الليل كله غائصاً في التفكير متسائلاً هل تذهب أم لا. وأنك تعرف بحقّ مهما يكن قرارك، أن الحل النهائي لا يتوقف عليك. سوف تذهب لأنك لا تجرؤ إلّا أن تذهب. أما لماذا لا تجرؤ، فذلك سؤال عليك أنت أن تعرف جوابه. هذا لغز حاولْ أن تتسلى بحله!». قال هذه الكلمات ثم نهض وانصرف. وصلت أنت، فغاب هو. ولقد وصفني بأنني جبان يا إيليوشا! إن ذلك اللغز هو أنني جبان. لقد أضاف قائلاً: «لستَ من تلك النسور التي تحلّق عالياً في السماء». نعم، أضاف هذه الجملة. وكان سمردياكوف قد قال هذا الكلام نفسه. يجب قتله. إن كاتيا تحتقرني. لاحظت أنا ذلك. وسوف تحتقرني ليزا أيضاً. «ستذهب إلى المحكمة لتحظى بالإعجاب». هذا كذب دنيء. أنت أيضاً تحتقرني يا إيليوشا. سوف أكرهك الآن من جديد. والمسخ أيضاً، لعن الله المسخ. لا أريد أن أنقذ المسخ. لقد غنى نشيده. أوه! سأذهب، سأذهب غداً. سأمثُل أمامهم، وسأبصق في وجوههم جميعاً!

ونهض إيڤان وقد استبد به غضب شديد، فنزع المنشفة عن جبينه وراح يمشي في الغرفة. تذكّر إيليوشا أقواله: «أنام وأنا أحس بأنني يقظ... أمسي وأتكلم وأرى، وأنا مع ذلك أحلم». ذلك بعينه ما يبدو أنه يحدث الآن. لم يشأ إيليوشا أن يترك أخاه. وخطر بباله أن يذهب ليستدعي طبيباً، ولكنه عدل عن ذلك خشية أن يترك إيڤان وحيداً. كان من جهة أخرى لا يعرف إلى من يعهد به. وأخيراً بدأ إيڤان يفقد الذاكرة. كان ما يزال يتكلم بدون توقف، وكانت أقواله مبعثرة، حتى لقد أصبح يبدو عليه أنه يجد عناءً في النطق. وترنح، ولكن إيليوشا استطاع أن يسنده في الوقت المناسب، ومضى به نحو السرير، فانقاد إيڤان دون مقاومة؛ وبعد أن نزع إيليوشا عن أخيه ثيابه كيفما اتفق، وضعه على السرير، ثم جلس قربه، وبقي ساهراً ساعتين. نام المريض نوماً عميقاً دون أن يتحرك، وكان تنفسه منتظماً. فلما لاحظ إيليوشا أن أخاه ينام نوماً هادئاً تناول وسادة ونام على الديوان دون أن يخلع ثيابه. وقبل أن ينام، دعا الله لميتيا وإيڤان. لقد كان إيليوشا يعرف الأسباب العميقة التي نشأ عنها مرض إيڤان: «هذه تباريح قرار فيه عزة وكبرياء، هذا قلق صادر عن ضمير قوي!». إن الله الذي كان إيڤان يرفض أن يؤمن به يفرض نفسه الآن على وجدان إيڤان، وإن الحقيقة الإلهية تشق طريقها إلى قلبه الذي ما يزال عصياً. نعم، قال إيليوشا لنفسه وهو مضطجع على الوسادة: «لقد مات سمردياكوف، ولن يصدِّق أحدٌ شهادة إيڤان. ولكنه سيذهب ويشهد». وابتسم إيليوشا ابتسامة رقيقة وقال بمرارة: «سينتصر الله!». «إما أن يُبعث

إيڤان بنور الحقيقة، وإما... أن يموت في الحقد منتقماً من نفسه ومن الآخرين لأنه خدم قضية لم يكن مؤمناً بها.». وعاد إيليوشا يصلّي من أجل إيڤان.

الكتاب الثاني عشر

الخطأ القضائي

I

اليوم المشؤوم

غداة الأحداث التي وصفتها الآن، افتتحت في الساعة العاشرة صباحاً، جلسة محكمة مقاطعتنا، وبدأت محاكمة ديمتري كارامازوف.

أقول مسبقاً بإلحاح: إنني لا أعتبر أنني أملك القوة على تحمل كل ما جرى أثناء المحاكمة، ليس من حيث الكمال فحسب، بل من حيث التسلسل الزمني أيضاً. وما زلت أعتقد أنني لو كان عليَّ أن أتذكر جميع التفاصيل وأن أشرحها بشكل مناسب، لوجب كتاب بكامله، ومن أكبر الكتب. لذلك ليعذرني القارئ إذا أنا اقتصرت على ذكر الأمور التي أثارت اهتمامي شخصياً وتلك التي بقيت في ذاكرتي. ربما أكون قد أقمت وزناً كبيراً لعناصر ثانوية كما لو أنها أساسية، وربما أكون قد أسقطت بعض الوقائع الهامة... لكنني أعدل الآن عن تسويغ نفسي. فلسوف أبذل قصارى جهدي، وسوف يدرك القارىء أنني قدمت له كل ما استطعت أن أقدّم.

في البداية، وقبل الدخول إلى قاعة المحكمة، سأروي كل ما أثار دهشتي بشكل خاص، في ذلك النهار. علماً بأنني لم أكن الوحيد الذي دهش حسبما تبين فيما بعد. إذن: الكل كان يعرف أن قضية هذه الجريمة قد أثارت اهتمام عدد لا حصر له من الناس، وكانوا يحترقون شوقاً لبدء المحاكمة. وأن مجتمع المدينة كان منذ شهرين لا يفعل شيئاً غير التحدث عنها مع تكهنات كثيرة وصيحات دهشة. وكان من المعلوم كذلك أن القضية قد انتشرت في روسيا كلها. إلّا أن أحداً لم يكن يتصوَّر أن الاهتمام الذي أثارته هذه المحاكمة قد بلغ من قوة الجموح وشدة العصبية أنه هزَّ بعمق لا سكانَ مدينتنا فحسب، بل سكان مناطق أخرى أيضاً. وقد أدركنا هذه الحقيقة في ذلك اليوم نفسه أثناء المحاكمة.

جاء المستطلعون الفضوليون لا من مركز إقليمنا وحده، بل من مدن روسية أخرى كثيرة أيضاً، وحتى من موسكو ومن بطرسبورغ. كان بينهم رجال القانون، وشخصيات مشهورة، ونساء من المجتمع الراقي. وقد اختُطفت تذاكر حضور المحاكمة. بسرعة وعلى خلاف ما جرت به العادة، جرى حجز أماكن خاصة وراء منصة المحكمة، يُخصُّ بها بعض الزائرين من أصحاب الرتب العليا. هكذا رأينا وراء القضاة عدداً من الأشخاص جالسين على مقاعد وثيرة، وذلك أمر لم يحدث عندنا من قبل أبداً. وكانت النساء كثيرات، سواء كنَّ من سيدات مجتمعنا المحلي أو من سيدات الطبقة العليا في مدن أخرى. أما رجال القانون الذين وفدوا لحضور هذه الدعوى فقد بلغوا من الكثرة أن القائمين على الأمر لم يعرفوا أين يضعونهم لأن الأماكن المتوافرة كانت قد وُزِّعت فأُعطيت أو وُعد بها منذ مدة طويلة. وقد رأيت بعيني قيام العمال على عجل ببناء حاجز موقت في آخر القاعة وراء المنصة، فبذلك حُدِّد مكان خصَّ به رجال القانون الذين اعتبروا أنفسهم سعداء بالتمكن من متابعة مناقشات المحاكمة وقوفاً، لأن الكراسي كانت قد رفعت ليتسع المكان لعدد من الأشخاص أكبر. بحيث ظل الجمهور واقفاً طوال مدة المحاكمة كتفاً إلى كتف. وقد ظهرت بعض السيدات، ولا سيما السيدات اللواتي وفدن من خارج مدينتنا، في قاعة المحكمة في أبهى الحلل وأجمل زينة، غير أن أكثر السيدات قد أهملن ما ألفنه من عناية بهندامهن. وكان يُقرأ في وجوههن فضول

قوي شره يشبه أن يكون مرَضياً. ومن خصائص هذا الجمهور المحتشد في قاعة المحكمة التي تستحق أن تُذكر أن الكثرة الغالبة من النساء - كما أيدت ذلك شواهد كثيرة فيما بعد - كنَّ متحزبات لميتيا، وكنّ يتمنين على المحكمة أن تبرئه. وربما كان السبب الأساسي في هذا، ما اشتهر به من أنه شاب يفتن المرأة ويسيطر عليها؛ ولقد كان معروفاً عدا ذلك أن هناك امرأتين تتنافسان فيه وستتجابهان في سبيله أثناء المحاكمة. فأما أولاهما وهي كاترينا إيڤانوفنا، فقد كانت تثير اهتمام جميع الناس. كان الناس يذكرون أموراً خارقة عن عشقها لميتيا عشقاً قوياً لم ينل منه ولا أضعفه أن ميتيا ارتكب هذه الجريمة. وكانت تُذكر عن هذا الموضوع تفاصيل مذهلة. وكانت كبرياء كاترينا إيڤانوفنا هي التي تثير اهتمام الناس خاصة (أن كاترينا إيڤانوفنا لم تكد تزور أحداً)، ويتحدث الناس عن صلاتها الأرستقراطية، ويؤكدون أنها ستلتمس من الحكومة إذناً بأن تصحب الجاني إلى السجن، وأن تتزوجه في مكان ما بالمناجم تحت الأرض. وأما المرأة الثانية، وهي غروشنكا، منافسة كاترينا إيڤانوفنا، فقد كان الناس يتلهفون على ظهورها باهتمام لا يقل حماسة عن هذا الاهتمام. وكانت المجابهــة التي ستتم بين المرأتين - الفتــاة الأرستقراطية المتكبرة و «الهيتائير» - تثير في الجمهور انتظاراً محموماً وفضولاً يوشك أن يكون موجعاً. ثم إن سيدات مدينتنا كنَّ يعرفن غروشنكا أكثر مما يعرفن كاترينا إيڤانوفنا. لقد رأينا مراراً «تلك المخلوقة التي كانت سبب هلاك فيودور بافلوفتش وابنه المسكين»، وكن يدهشن بقوة أن يكون الرجلان قد التهب قلباهما بحب هذه «البورجوازية الروسية الصغيرة التي هي امرأة عادية جداً، حتى أنها ليست جميلة». خلاصة القول إن التعليقات كانت مستقرة. وإني أعرف من مصادر مطلعة موثوق بها أن انشقاقات عائلية خطيرة قد حدثت في مدينتنا بسبب ميتيا. إن عدداً كبيراً من سيدات مجتمعنا قد تشاجرن في ذلك الوقت مع أزواجهن بعنف، لاختلاف رأيهن في هذه القضية المؤلمة عن رأي أزواجهن. فكان أمراً مفهوماً بعد ذلك أن يجيء أزواج هؤلاء السيدات إلى المحكمة متحيزين ضدَّ المتهم ومعادين له صراحةً؛ حتى نستطيع أن نؤكد جازمين أن جميع الرجال الذين شهدوا المحاكمة، على نقيض العنصر النسائي في ذلك الجمهور، كانوا قد تحيزوا ضدَّ المتهم، فبعضهم عابس الوجه قاسي النظرة، وبعضهم الآخر، وهو الأكثرية الغالبة، كان يظهر العداوة بمزيد من الوضوح. والحق أن ميتيا، أثناء إقامته في مدينتنا، كان قد أهان عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال. وكان هنالك، في مقابل ذلك، أناس يكاد يبدو عليهم الفرح، فهم لا يكترثون لمصير ميتيا، وإنما تهمهم النتيجة التي ستنتهي إليها المحاكمة، ولا يفكرون إلّا في الحكم الذي سيصدر، وكان أكثرهم يتمنى معاقبة الجاني بشكل صارم، باستثناء رجال القانون مع ذلك، فلقد كان هؤلاء لا يعنيهم الجانب الأخلاقي من القضية، وإنما تعنيهم الجوانب القضائية وحدها دون غيرها. وقد أحدث وصول المحامي الشهير فيتوكوفتش هزةً عنيفة في النفوس. فقد كانت موهبته الخطابية معروفة في كل مكان، وقد سبق أن ترافع في الأقاليم مراراً في قضايا كان لها دويّ عظيم. وكانت الدعاوى التي يترافع فيها تصبح ذائعة الصيت في روسيا كلها، ويحتفظ الناس بذكرى مرافعاته زمناً طويلاً. وكانت تُروى كذلك نوادر كثيرة عن وكيل النيابة عندنا وعن رئيس المحكمة. ويقال مثلاً إن وكيل النيابة في مدينتنا يتهيب لقاء فيتوكوفتش ويتجنّبه، وإن بينهما عداوةً يعود تاريخها إلى أول عهده بالوظيفة، إلى الفترة التي كان فيها هيبوليت كيريلوفتش المندفع، وهو في مدينة بطرسبورغ، يشعر دائماً بجراح في كبريائه لأن كفاياته لم تكن تقدر حق قدرها. ولقد أعادت إليه قضية كارامازوف أملاً كبيراً، فيما يقال، حتى أنه كان يحلم أن يستعيد في هذه المناسبة شهرته الخطابية التي خبا وهجها، ولكن حضور فيتوكوفتش يقلقه الآن ويبعث في قلبه هماً. لكن الحقيقة هي أن الناس قد أخطأوا الظن حين تصوروا أن وكيل النيابة كان يخشى لقاء المحامي الشهير. إن وكيل النيابة في مدينتنا لا ينتمي إلى تلك الفئة من الرجال الذين يتقهقرون أمام الخطر، بل كان، على نقيض ذلك تماماً، من أولئك الذين تلتهب كبرياؤهم على قدر قوة العقبات التي تعترض طريقهم والحواجز التي تقف في وجههم. يجدر أن نضيف إلى ذلك أن هيبوليت كيريلوفتش كان ذا طبيعة حارة ومزاج

جياش، كان شديد التأثر إلى درجة المرض. كان يضع نفسه كلها في بعض مطالعات النيابة التي يعدها، وكان يتصرف عندئذ كما يمكن أن يتصرف رجل يتوقف مصيره الشخصي وتتوقف ثروته على النتيجة التي ستنتهي إليها الدعوى. وكان الناس في الأوساط القضائية يسخرون منه بسبب هذه الخصلة من طبعه التي جلبت له شهرة إن لم تكن واسعة كثيراً فهي أكبر ما يمكن تصوره على أساس المركز المتواضع الذي كان يحتله في محكمتنا. وكانوا يسخرون خاصة من شدة شغفه بالسيكولوجيا. وبرأيي، جميع الناس كانوا مخطئين فوكيل النيابة في مدينتنا يتمتع بفكر أقرب إلى الجد مما كان يتخيل الناس عندنا عامة. ولكن هذا الرجل بحساسيته المرضية لم يعرف كيف يقدم نفسه في خطواته الأولى في أول عهده بالمهنة، وبقي هذا الخطأ ملازماً له مدى حياته.

أما رئيس محكمتنا فيمكن أن يقال عنه فقط، إنه مثقف، وإنساني، وإنه كان يعرف مهنته بالملموس، ويتبنّى آراء العصر المتطورة. إنه قوي الشعور بنفسه، لكنه لا يعبأ كثيراً بوظيفته، كان أكبر طموح يهزُّه هو أن يُعرف عنه أنه رجل تقدمي. وكانت له صلات مرموقة وكان يتمتع بثروة ضخمة. وقد اهتم اهتماماً قوياً جداً بدعوى كارامازوف، كما عرفنا ذلك فيما بعد، ولكنه لم ينظر إلى هذه القضية إلّا من زاوية عامة تماماً، فهو يرى فيها، بشكل خاص، ثمرةً من ثمرات ظروفنا الاجتماعية، ومظهراً مميزاً من مظاهر الطبيعة الروسية، أي ظاهرة عليه أن يحكم عليها وأن يصنفها بشكل مناسب. أما الجانب الشخصي من الدراما، وأما المأساة الروحية الأخلاقية التي تتألف منها هذه الدراما، وأما المصير الفردي الذي ينتظر الأشخاص الرئيسيين في هذه الدراما، وعلى رأسهم المتهم، فتلك كلها أمور لا يهتم بها رئيس المحكمة كثيراً،ولا ينظر إليها إلّا من أفق مجرد. وربما كان ذلك مطلوباً في مركزه ووضعه.

غصّت القاعة بالحضور قبل ظهور أعضاء المحكمة بوقت طويل. إنها أفضل قاعة في مدينتنا: فسيحة واسعة عالية يترجع فيها الصوت واضحاً رناناً. وعلى يمين أعضاء المحكمة الذين يجلسون على منصة، قد وُضعت منضدة ووضع صفّان من المقاعد للمحلّفين. وعلى اليسار كان مكان المتهم ومحاميه. وعلى منضدة أخرى في وسط القاعة، غير بعيدة من المنصة، جُمعت ثبوتيات الاتهام، فمن بينها الثوب الأبيض الذي كان يرتديه فيودور بافلوفتش ساعة الجريمة في منزله وكان ملطخاً بالدم؛ ومدقُّ الهاون النحاسي، وهو السلاح المزعوم أنه استخدم في ارتكاب الجريمة؛ وقميص ميتيا الملطّخ أحد كمِّيه ببقع دماء؛ وصِداره الملطخ بدم كثير من الجهة الخلفية، في موضع الجيب الذي دسَّ فيه منديله حين كان المنديل ما يزال يقطر دماً؛ ثم ذلك المنديل نفسه وقد تيبس واصفر وغشيته قشرة من دم متخثر؛ ومن بينها أيضاً المسدس الذي كان ميتيا قد حشاه بالرصاص عند برخوتين على نية الانتحار، وقد جرَّده منه تريفون بوريستش خلسةً في قرية موكرويه، والظرف الذي كان قد ضمَّ الثلاثة آلاف روبل المخصصة لغروشنكا، وعليه كتابة بخط المجني عليه، والشريط الوردي الدقيق الذي رُبط به ذلك الظرف، ومجموعة أخرى من أشياء لا أتذكرها الآن. وعلى مسافة من هناك، في عمق القاعة، يبدأ المكان المخصص للجمهور. لكن عدداً من المقاعد قد صُفَّ أمام المنصة، للشهود الذين قد يطلب منهم أن يبقوا في القاعة بعد إدلائهم بشهاداتهم. دخل أعضاء المحكمة في الساعة العاشرة. إنهم رئيس، وقاض، وقاضي صلح شرفي. وطبيعي أن وكيل النيابة وصل في الوقت نفسه تقريباً. الرئيس رجل متين البنية متورد اللون، قامته أقصر من متوسط قامة الرجال، في نحو الخمسين من عمره، له وجه محتقن، وشعر قاتم قد اشتعل شيباً في بعض المواضع وقُصَّ قصيراً. وهو يتوشح بشريط طويل لوسام نسيت اسمه الآن. أما وكيل النيابة فقد بدا لي شاحب اللون في ذلك اليوم شحوباً خاصاً، كما بدا كذلك لكثير آخرين. كان لون وجهه يميل إلى زرقة بل وإلى خضرة، وكأنه قد أصيب بهزال فجأةً في ليلة واحدة، لأنني كنت قد رأيته أمس الأول معافًى تماماً. وبدأ الرئيس بأن سأل حاجب المحكمة هل حضر جميع المحلفين... ولكنني ألاحظ أنه يستحيل

عليَّ أن أستمر في سرد الوقائع سرداً مفصلاً، لأن هناك أموراً لم أسمعها بدقة، وأموراً أخرى لم أنتبه إليها بشكل كافٍ، كما أن هناك أموراً من خصائص هذه الجلسة قد أفلتت من ذاكرتي تماماً منذ ذلك الحين. ثم إنني - وتلك هي الصعوبة الكبرى - لا يتوفر لي الزمان والمكان الكافيان لأن أروي هنا كل ما جرى في أثناء ذلك اليوم، وهذا ما سبق أن قلته. ولكنني أعرف أن عدد المحلَّفين الذين رفضهم هذا الطرف أو ذاك من الطرفين، أعني وكيل النيابة والمحامي، كان قليلاً جداً. وقد حفظت من جهة أخرى تشكيل هيئة المحلَّفين: كانت هيئة المحلَّفين تضم أربعة موظفين من مدينتنا، وتاجرين، وستة فلاحين وبورجوازيين صغاراً من البلدة. وإني أتذكر أن الناس في مجتمعنا الصغير، ولا سيما السيدات، قد تساءلوا طويلاً قبل بدء المحاكمة بفترة طويلة، بكثير من الدهشة والانفعال: «كيف يمكن أن يُعهد بالفصل في مثل هذه القضية إلى بضعة موظفين مغمورين وإلى قبضة من الفلاحين؟ ما الذي يستطيع أن يفهمه من هذه القضية موظف، ناهيك عن فلاح؟». والحق أن الموظفين الأربعة المشتركين في هيئة المحلَّفين كانوا أناساً صغار الشأن ليسوا من أصحاب الرتب العالية، وكانوا جميعاً متقدمين في السن بيض الشعور، باستثناء واحد كان يبدو أصغر سناً من سائرهم. وكانوا مجهولين في مجتمع مدينتنا، فلا بد أنهم كانوا يعيشون بمرتبات صغيرة حياة مغمورة، وأنهم قد كانت لهم زوجات عجائز لا يحرصون على أن يتجولوا بهن في المجتمع. ولا بد أنهم كان لهم أولاد كثيرون يركضون حفاةً في أغلب الظن، ولا بد أن التسليات الوحيدة التي كانوا يتيحونها لأنفسهم عند الاقتضاء هي أن يلعبوا بالورق قليلاً من حين إلى آخر. وطبيعي أن أحداً منهم لم يكن قد قرأ كتاباً واحداً. صحيح أن اثنين من المحلَّفين، وهما تاجران، قد كان في هيئتهما شيء من مهابة، ولكنهما بقيا صامتين بصورة غريبة، واستمرا جامدين لا يحركان ساكناً. فأما أحدهما فكان حليقاً ويرتدي ثياب الطراز الأوروبي؛ وأما الثاني، وهو ذو لحية شائبة، فقد كان يتدلى على عنقه شريط أحمر علِّق به وسام. وأما الفلاحون والبورجوازيون الصغار الذين تضمهم هيئة المحلَّفين، فليس هناك أمور كثيرة يمكن أن تقال عنهم. إن البورجوازيين الصغار في مدينتنا لا يختلفون كثيراً عن الفلاحين، وهم يمارسون أعمال الفلاحة مثلهم. كان اثنان من هؤلاء البورجوازيين الصغار يرتدون ثياباً على الزي الأوروبي، ومما جعلهم يبدون أكثر وساخة من الآخرين. الأمر الذي جعل كثيرين، أنا واحد منهم، يتساءلون: «كيف يستطيع هؤلاء المساكين أن يفهموا ما يقال؟». ومع ذلك بدا لنا على وجوههم نوع من الانطباع القوي والتهديدي. لقد كانوا جميعاً قساة مقطبين متجهمين.

وأخيراً طلب الرئيس دعوى مقتل الموظف المتقاعد فيودور بافلوفتش كارامازوف - وقد نسيت الآن التعابير الدقيقة التي استعملها عندئذ. وأمر الحاجب بإدخال المتهم فظهر ميتيا في القاعة، فإذا بصمت مطبق يخيم عندئذ، فلو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها. لست أدري ما الذي دار في خواطر الحضور، ولكنني أستطيع أن أقول إن المتهم قد أحدث في نفسي شعوراً سيئاً جداً. والأمر الذي ساءني منه خاصة هو إفراطه في السعي إلى أناقة هندامه. لقد ظهر أمام المحكمة يومئذٍ ببدلة جديدة أنيقة للغاية. وقد علمت فيما بعد أنه قد أوصى بهذه البدلة لذلك اليوم عن قصد، أوصى بها خياطه بموسكو الذي كان يحتفظ بمقاسه. وكان المتهم يلبس قفازين جديدين، مصنوعين من جلد ملمَّع، وقميصاً بالغ الرهافة والبذخ. وبعد أن اجتاز القاعة بخطاه العسكرية العريضة، ناظراً إلى أمام بجمود غريب، جلس في مكانه بكثير من الثقة. وفي الوقت نفسه، ظهر محاميه، فيتوكوفتش الشهير، فإذا بهمهمة تطوف في أرجاء القاعة من أولها إلى آخرها. إن هذا المحامي اللامع رجل طويل القامة جاف المظهر، له ساقان طويلتان نحيلتان، وأصابع ضاوية، وشعر قصير قد صفِّف بدون عناية. وشفتاه الرقيقتان تلتويان في بعض اللحظات، دون أن يعرف المرء على وجه الدقة أهما تعبران عندئذ عن مكر أم عن ابتسامة. وكان يبدو في نحو الأربعين من عمره. ولولا عيناه الصغيرتان اللتان ليس لهما تعبير، ولكنهما متقاربتان جداً إحداهما من الأخرى، حتى لكأنهما لا تفصل بينهما إلّا العظمة الحادة من أنفه الدقيق الطويل، لولا عيناه هاتان لكان

يمكن أن يُعدَّ وجهه لطيفاً محبباً. الخلاصة أن سحنته كان فيها شيء من سحنة عصفور، بحيث كانت تلفت الانتباه. وكان يرتدي رداء رسمياً مع ربطة عنق بيضاء. إنني أتذكر بوضوح الأسئلة الأولى التي ألقاها الرئيس على ميتيا، وهي تتناول هُويته، ورتبته، وما إلى ذلك. وقد أجاب ميتيا عن هذه الأسئلة بجفاف، ولكن بصوت قوي يثير الاستغراب حتى إن الرئيس هزَّ رأسه ونظر إليه في دهشة. وبعد ذلك قرئت قائمة أسماء الأشخاص المستدعين إلى الإدلاء بأقوالهم شهوداً أو خبراء. وكانت القائمة طويلة جداً. واتضح أن أربعة من الشهود غائبون، وهم: ميوسوف الذي كان قد سافر إلى باريس، ولكن أقواله قد سجِّلت أثناء التحقيق التمهيدي؛ والسيدة خوخلاكوفا، والمالك ماكسيموف، وكلاهما مريض؛ وأخيراً سمردياكوف الذي مات فجأة قبل افتتاح المحاكمة وقُرِّرت وفاته بشهادة من الشرطة قُدِّمت إلى المحكمة. وقد أحدث نبأ انتحار سمردياكوف جلبة ووشوشات في القاعة. ذلك أن عدداً كبيراً من جمهرة الحضور لم يكن قد علم بالحادث بعد. ولكن الشيء الذي أدهش الناس خاصةً هو انفجار ميتيا: فما إن علم بخبر سمردياكوف حتى صرخ من مكانه بصوت دوَّى في القاعة كلها:

- عاش كلباً ومات ميتة كلب!

أذكر كيف اندفع نحوه محاميه حينئذ، وتوجه رئيس المحكمة إليه مهدداً باتخاذ إجراءات صارمة في حقه إذا هو كرر فعلته هذه. وقد كرر ميتيا لمحاميه، عدة مرات، بصوت هامس، وهو يحرك رأسه ويتكلم كلاماً متقطعاً، ولكن دون أن يبدو عليه أنه آسف لصرخته أو نادم عليها:

- سأتوقف، سأتوقف! لم أقصد ذلك!

قد يكون هذا الحادث الطارىء لم يخدم ميتيا في ذهن المحلفين وفي ذهن الجمهور. فقد رأى هؤلاء أن ميتيا قد كشف في هذه الفعلة عن طبعه. وبذلك أساء هذا الانفجار إلى الصورة القائمة في الأذهان عنه. وفي هذا الجو السيِّئ تلا كاتب المحكمة قرار الاتهام، وهو نص مقتضب رغم اشتماله على وقائع القضية، يقتصر على عرض الأسباب الداعية إلى الاتهام، الباعثة على الادانة. وقد أحدثت قراءة القرار تأثيراً كبيراً في نفسي أيضاً. كان كاتب المحكمة يقرأ بصوت واضح جليّ. فانبعثت صورة المأساة في أذهان الحضور مرةً أخرى ببروز يأسر العقل، كأنما انصبت عليها والتقت عندها أضواء ساطعة صادرة من عدة جهات. وإني أذكر أنه ما إن انتهى كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام حتى بادر الرئيس يسأل ميتيا بصوت قوي نافذ:

- المتهم... هل تعترف بذنبك؟

- أعترف بأنني مذنب بالسكر والعربدة والفجور، صاح ميتيا قائلاً. أعترف بأنني امرؤ كسول سيِّئ الخلق والسلوك. ولقد كنت أنوي أن أصلح أمري وأن أصبح إلى الأبد إنساناً شريفاً، في اللحظة التي حطمني فيها القدر. ولكنني بريء من مقتل العجوز، عدوي وأبي. أنا لم أسرقه، لا، لا! لم أفعل ذلك، ولا كان لي أن أفعل ذلك: إن ديمتري كارامازوف إنسان شقي ولكنه ليس لصاً!

على ذلك، جلس ديمتري في مكانه وهو يرتجف بكل جسمه. فتوجه إليه الرئيس من جديد يطلب منه بإيجاز وحزم صارم ألا يجيب إلا عن الأسئلة، وألا يلقي خطباً ويطلق صيحات هستيرية. وبعد ذلك انتقل إلى سماع أقوال الشهود. فأدخل الشهود ليقسموا اليمين، هناك، رأيتهم جميعاً. إلا أن أخوي المتهم قد سُمح لهما أن يدليا بشهادتيهما دون قسم. وبعد نصائح الرئيس الكاهن، أُخرج الشهود، وأجلسوا بعيدين بعضهم عن بعض. ثم

تمت مناداتهم واحداً واحداً.

II

شهود خطرون

لست أدري إذا كان شهود النائب العام وشهود الدفاع قد انفصلا إلى فئتين متميزتين، وما هو الترتيب الذي اتبعه في استدعائهم. هذا ما كان يجب أن يحصل. ولكنني أعرف أن شهود الاتهام هم الذين تم استدعاؤهم أولاً. أعود فأكرر أنني لا أنوي أن أصف هذه الاستجوابات بالتفصيل كلمة كلمة. ثم إن مثل هذا الوصف قد يكون لا داعي له، لأنه عندما جاء وقت الدفاع، وجهت كل المسيرة وكل المعنى الذي أعطي لشهادات الشهود في ذلك اليوم إلى نقطة واحدة وتحت ضوء ساطع ومميز. وقد سجلت هذين الخطابين الرائعين حرفياً، وسأعرضهما في الزمان والمكان، كذلك حادثاً وقع أثناء المحاكمة على غير توقُّع، وقع فجأة قبل بدء الدفاع وكان له تأثير كبير في النهاية المشؤومة. أما الآن فسأقتصر على الإشارة إلى وجه خاص من وجوه هذه «القضية» تكشَّف دفعةً واحدة وخطف أبصار الجميع، وهو قوة الاتهام غير العادية بالمقارنة بالوسائل التي كان يملكها الدفاع. وأدرك جميع الحضور عندما بدأت عناصر الاتهام تتجمع وتتركز كلما اتضحت الوقائع بشهادات الشهود مزيداً من الاتضاح، وكلما تجلى هول الجريمة بارزاً بوضوح. ثم إن جميع الناس قد فهموا منذ الوهلة الأولى أن القضية واضحة، وأنه لا مجال لأي شك، حتى لكأن المناقشات لا لزوم لها، وأنها لن تجري إلّا من باب التقيد بالشكل، إذ كان واضحاً أن المتهم هو الجاني، وأن ارتكابه الجريمة أمر لا يمكن إنكاره. وأحسب أن السيدات اللواتي شهدن المحاكمة وكنَّ يتمنين بشدّة وشراهة قوية تبرئة هذا المتهم الشائق، أعتقد أن هؤلاء السيدات كنَّ مقتنعات جميعاً، دون استثناء، بشكل مطلق بأن المتهم هو القاتل. وأكثرمن ذلك إنهن كنَّ سيشعرن بكثير من خيبة الأمل لو وُضع ارتكابه الجريمة موضع الشك، لأن الخاتمة تكون عندئذٍ أقل إثارة للمشاعر، ولأن تبرئة الجاني تكون عندئذ أضعف أثراً وأقلّ بهاءً. والغريب أن السيدات كن واثقات أنه سيُبرًّأ: «صحيح أنه هو الجاني، ولكنه سيُبرَّأ باسم الإنسانية وباسم الأفكار الجديدة الرائجة الآن»، الخ. وعلى هذا الأمل كانت جموعهن الغفيرة قد أسرعت إلى حضور المحاكمة، وكنَّ يضربن الأرض بأقدامهن من فرط نفاد صبرهن أثناء المناقشات. أما الرجال فكان يهمهم، خاصةً، الصراعُ بين وكيل النيابة وفيتوكوفتش الشهير. كان الرجال يستغربون ما الذي سيعمد إليه المحامي ليدافع عن هذه القضية الخاسرة سلفاً، وما الذي سيتوصل إلى الظفر به فيها. لذلك كانوا يرصدون جميع حركاته وإشاراته وأوضاعه بانتباه كلي. ولكن فيتوكوفتش بقي حتى النهاية موصداً لا يُسبر غوره ولا تعرف سريرته، إلى أن حان وقت المرافعة. وكان أهل الخبرة يقدرون أنه قد هيأ نظام دفاعه، وأنه يسعى إلى هدف معيَّن، ولكن يستحيل عليهم أن يعرفوا ما هو ذلك الهدف. وفي أثناء ذلك كانت ثقته وطمأنينته واضحتين تخطفان البصر. يضاف إلى هذا أنهم قد عرفوا بارتياح أن وقته قد اتسع أثناء المدة التي قضاها في مدينتنا، وهي ثلاثة أيام، لأن يدرس القضية بعمق، فأصبح يعرف جميع مداخلها ومخارجها». وقد رووا بعد ذلك بكثير من التلذذ كيف تمكّن أن يربك كل شهود الاتهام في الوقت الملائم، وكيف استطاع خاصةً أن يدمِّر سمعتهم الأخلاقية بحذق شديد، ويحطم بذلك قيمة الشهادات التي أدلوا بها. على أنهم كانوا يرون أنه قام بذلك كله من قبيل اللعب في الدرجة الأولى، حباً بالفن، وشغفاً بالمهنة، حتى لا يُغفل أية حيلة من حيل الدفاع الكلاسيكية. وكان الجميع مقتنعين بأنه لا يستطيع أن يعوِّل على كسب أية

فائدة ذات بال من تلك «التشهيرات»، وأنه لا بد أن يكون على معرفة بهذا أكثر من أي إنسان آخر، فلعله كان يدَّخر واحدة من الأفكار، لعله كان يخبىء سلاحاً خفياً آخر، لعله كان يحتفظ بأدلة وحجج لم يستعملها بعد، ولكنه سيخرجها فجأة في اللحظة المناسبة. وبانتظار ذلك كان يبدو معتزاً بقوته، وكان يجد لذة في التلاعب بالشهود. كان من يراه يشعر أنه يتسلى. من ذلك مثلاً أنه حين جاء دور غريغوري فاسيلتش، خادم فيودور بافلوفتش، الذي أدلى بشهادة خطيرة في موضوع «الباب المفتوح» المطل على الحديقة، أمسك المحامي بتلابيبه إن صح التعبير، منذ أتيح له أن يطرح عليه بعض الأسئلة. يحسن أن نذكر هنا أن غريغوري مَثَل أمام المحكمة دون أن يضطرب أبداً، دون أن يبدو عليه أي تهيُّب لا من جلال المحكمة ولا من كثرة الجمهور الذي يصغي إليه. كان هادىء المظهر، بل كان فيه شيء من مهابة، وقد أدلى بشهادته بثقة مطمئنة كتلك التي يخاطب بها امرأته مارفا إينياتيفنا فيما يجري بينه وبينها من أحاديث، ولكن باحترام. كان يبدو أن إرباكه مستحيل. سأله وكيل النيابة أولاً عن تفاصيل الحياة العائلية التي تحياها أسرة كارامازوف، فرسم غريغوري لهذه الحياة صورة حية جداً. وقد أدرك الناس أن هذا الشاهد إنسان ساذج متحيز. فإن ما أظهره من احترام عميق لذكرى سيده الراحل، أكد أن المرحوم لم يكن عادلاً نحو ميتيا، وأنه «لم يحسن تنشئة أولاده». وحين تحدث عن سني طفولة ميتيا ذكر أن الطفل «كان سيأكله القمل لولا أن عُني هو به»، وأضاف إلى ذلك أنه «ما كان ينبغي للأب أن يحرم ابنه من حقه في ميراث أمه». فلما سأله وكيل النيابة عن الوقائع التي تسمح له بأن يقول إن فيودور بافلوفتش قد غبن ابنه عند تصفية الحساب، عجز غريغوري عن ذكر وقائع دقيقة. وهذا ما أدهش الجميع. ولكنه أصرَّ على أن تصفية الحساب كانت غير عادلة، وأن «ميتيا كان من حقه فعلاً أن يطالب أباه ببضعة ألوف أخرى من الروبلات». أحب أن أضيف أن هذا السؤال - أعني السؤال عن الغبن الذي لحق بميتيا - قد طرحه وكيل النيابة بإلحاح خاص على جميع الشهود الذين مثلوا أمام هيئة المحكمة والذين كان يمكن أن يذكروا بعض الايضاحات حول هذا الموضوع، ولم يستثن من هؤلاء الشهود إيليوشا وإيفان فيودوروفتش، ومع ذلك لم يتمكن أيّ شاهد أن يعطي وقائع مقنعة في هذه النقطة. لقد أطبقت آراؤهم جميعاً على أن الغبن واقع، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يجيء ببرهان قاطع. وحين وصف غريغوري المشهد الذي جرى في غرفة الطعام لحظة اقتحمها ديمتري وضرب أباه مهدداً بأنه سيعود ليقتله فيما بعد، خرج من سرده لهذه الوقائع شعور بإدانة المتهم، لا سيما وأن الخادم العجوز كان يتكلم بهدوء، لا يسترسل في عبارات غير ضرورية، وإنما هو يستعمل اللغة المألوفة عنده، فكان بذلك بليغاً جداً دون أن يقصد إلى البلاغة. أما فيما يتعلق بالإهانة التي ناله بها ميتيا - كان ميتيا قد لكمه على وجهه وأسقطه على أرض الغرفة - فقد قال غريغوري إنه لا يحمل لميتيا حقداً وإنه غفر له هذه الإساءة منذ مدة طويلة. ولما سئل عن المرحوم سمردياكوف، رسم إشارة الصليب أولاً، ثم قال إن الفتى لم يكن خالياً من بعض المزايا، لكنه كان غبياً، وكان مرضه قد أوهن جسمه وعقله؛ وأخذ عليه خاصةً أنه كان ملحداً، دون أن ينسى أن يقول إن فيودور بافلوفتش وإيفان بافلوفتش هما اللذان لقَّناه الإلحاد. وفي مقابل ذلك ألحَّ بشيء من الحرارة على أن سمردياكوف كان فتًى أميناً، وروى كيف أن هذا الخادم، حين عثر على الأوراق المالية التي ضيَّعها مولاه في فناء المنزل، لم يخطر بباله أن يستولي عليها، وإنما ردَّها إلى فيودور بافلوفتش الذي كافأه على أمانته بروبل ذهبي، وازدادت ثقته بخادمه منذ ذلك الحين بصورة مطلقة. وأكد غريغوري من جهة أخرى، بعنادٍ، أن الباب المطل على الحديقة كان مفتوحاً. هذا وقد طُرحت عليه أسئلة كثيرة يستحيل عليَّ أن آتي على ذكرها كلها. وأخيراً جاء دور المحامي لاستجواب الشاهد، قبل كل شيء، عن الظرف الذي «يُزعم» أن فيودور بافلوفتش كان قد أودع فيه الثلاثة آلاف روبل «لشخص ما»: «هل رأيت هذا الظرف بعينيك، أنت الذي تعيش في صميم حياة سيدك خلال تلك السنين الطويلة كلها، وكنت قريباً منه جداً؟». فأجابه غريغوري بأنه لم يرَ ذلك الظرف، وأنه كان يجهل وجود هذا المبلغ «إلى اللحظة التي أصبح فيها جميع الناس يتحدثون عنه». وقد ألقى

فيتوكوفتش هذا السؤال عن الظرف على جميع الشهود الذين كان يمكن أن يطرحه عليهم، بإلحاح كإلحاح وكيل النيابة على السؤال عن اقتسام الميراث. فتلقى من جميع الشهود، جواباً واحداً، بأنهم لم يروا الظرف، وإن يكن معظمهم قد سمع عنه. وقد لاحظ الجميع منذ البدء إلحاح المحامي على هذا السؤال.

- هل أستطيع الآن أن أطرح عليك سؤالاً إذا سمحت لي. سأل فيتوكوفتش. هل في وسعك أن تقول لي شيئاً عن تركيب ذلك المرهم، أو إن شئت عن تركيب ذلك السائل المغلي الذي استعملته ذلك المساء قبل أن تنام، كما يظهر من التحقيق الأوّلي، في تدليك كليتيك الموجعتين، آملاً أن تشفى بهذه الوسيلة؟

نظر غريغوري إلى المحامي نظرةً بلهاء، وصمت بضع ثوان، ثم قال:

- يدخل في تركيبه نبات القويسة.

- فقط نبات القويسة؟ لا تتذكر شيئاً آخر؟

- لسان الحَمَل أيضاً.

- وربما قليل من الفلفل؟

- كان فيه فلفل كذلك.

- عظيم. وكل ذلك مع الفودكا، أليس كذلك؟

- في الكحول.

سُمعت في القاعة عندئذ ضحكات مكتومة.

- عظيم، إذن، حتى في الكحول. وبعد أن دلكت ظهرك شربت ما بقي في الزجاجة من هذا السائل، وأنت تتلو صلاة خاشعة لا يعرف أحد نصَّها إلّا زوجتك، أليس كذلك؟

- نعم شربته.

- هل شربت مقداراً كبيراً من هذا السائل؟ كم شربت، مثلاً؟ أقدحاً صغيراً أم ربما قدحين؟

- لنقل؟ قدحاً كاملاً؟ أم قدحاً ونصف قدح إذا شئت؟

صمت غريغوري. كأن ضياءً قد بزغ في ذهنه.

قال المحامي:

- قدح ونصف قدح من كحول صاف. ليس هذا قليلاً؟ إن الإنسان يستطيع بعد ذلك لا أن يرى الباب المطل على الحديقة مفتوحاً فحسب، بل أن يرى كذلك «أبواب الجنة» كلها مفتوحة.

بقي غريغوري صامتاً. وسُمعت في القاعة ضحكات قصيرة من جديد. فاضطرب الرئيس قليلاً.

عاد فيتوكوفتش يسأل بإلحاح وهو يحدِّق إلى فريسته:

- ألست واثقاً أنك غفوت حين أبصرت الباب المطل على الحديقة مفتوحاً.

- كنت واقفاً.

- هذا لا ينفي أن تكون في حالة وسَنٍ (ضحكات قصيرة في القاعة). هل كان في وسعك عندئذ أن تجيب في تلك اللحظة عن سؤال يلقيه عليك أحدهم، كأن يسألك مثلاً في أي سنة نحن؟

- لست أدري!

- وفي أي سنة من العصر المسيحي نحن الآن؟ هل تعرف ذلك؟

بدت الحيرة على غريغوري الذي كان لا يحوِّل نظره عن جلاده. ومن الغريب أنه كان يجهل فعلاً في أي سنة نحن.

- هل تستطيع أن تقول لي ما عدد أصابع يديك؟

- أنا رجل أحترم السلطة. قال غريغوري بصوت قوي واضح وقد تعودت أن أطيع، فإذا حلا لمن هم أعلى مني مقاماً أن يسخروا مني، فمن واجبي أن أتحمل ذلك.

بدا على فيتوكوفتش شيء من الغضب، ولكن الرئيس تدخل فطلب من المحامي أن يلقي أسئلةً تتعلق بالدعوى بشكل مباشر. فلما سمع المحامي طلب الرئاسة انحنى بوقار، وأعلن أنه ليس لديه سؤال آخر يلقيه. واضح أن شكاً خفيفاً قد زُرع الآن في أذهان الجمهور وفي أذهان المحلفين، فيما يتعلق بقيمة شهادة يدلي بها رجل يمكن أن «يرى أبواب الجنة» بتأثير دواء، عدا أنه يجهل السنة التي نحن فيها من العصر المسيحي. في إمكاننا القول إذن إن المحامي قد حقق هدفه على كل حال. وقبل أن ينصرف غريغوري وقع حادث آخر. ذلك أن الرئيس اتجه إلى المتهم فسأله هل لديه ملاحظات على هذه الشهادة، فصاح ميتيا يقول بصوت قوي:

- باستثناء ما قاله عن الباب، فإن كل ما ذكره هو الحقيقة بعينها. صحيح ما ذكره من أنه أنقذني من القمل، وأنا أشكر له ذلك. ولقد سامحني على اللطمات، فأنا أشكر له ذلك أيضاً. إن هذا العجوز كان رجلاً شريفاً صادقاً طوال حياته، وكان وفياً لأبي وفاء سبعمئة كلب.

- المتهم! راقب كلامك. قال الرئيس بلهجة قاسية.

- أنا لست كلباً. قال غريغوري.

- إذن أنا الكلب. صاح ميتيا، إذا كان إهانةً أن يكون المرء كلباً فإنني أصف نفسي أنا بهذه الصفة، وأطلب منه الصفح والعفو. لقد كنت قاسياً وعنيفاً معه. ومع إيزوب أيضاً.

- مع أي إيزوب؟ قال الرئيس برزانة.

- أتكلم على بييرو... أبي. فيودور بافلوفتش.

فطلب الرئيس من ميتيا، أن يحسن اختيار ألفاظه بعد الآن، وقال له:

- إنك تسيء إلى سمعتك لدى قضاتك.

أظهر المحامي البراعة نفسها في استجواب الشاهد راكيتين الذي كان من أهم شهود الاتهام، والذي كان وكيل النيابة يعوِّل عليه كثيراً. لقد اتضح دفعة واحدة أن راكيتين كان يعرف كل شيء، وأنه مطلع على الأمور بشكل غريب، وأنه اختلف إلى جميع الأشخاص، وأنه رأى كل شيء، وتحدث مع كل واحد، وأنه يعرف تفاصيل سيرة فيودور بافلوفتش، كما يعرف تفاصيل سِيَر آل كارامازوف جملةً. صحيح أنه، فيما يتعلق بالظرف الذي أودعت فيه الثلاثة آلاف روبل، لم يكن قد سمع شيئاً عن هذا الأمر، هو أيضاً، إلّا من ميتيا، ولكنه في مقابل ذلك قد وصف سلوك ميتيا في كاباريه «العاصمة الكبرى» وصفاً دقيقاً، ونقل أقواله وذكر إشاراته وحركاته، وروى حادثته مع الكابتن سينغيريف. أما عن أن فيودور بافلوفتش كان لا يزال مديناً لميتيا ببعض المال تصفيةً لحساب الميراث، فإن راكيتين نفسه لم يذكر شيئاً واضحاً، واكتفى بقول بضع عبارات غامضة فيها احتقار: «من الذي يستطيع أن يقول أيهما كان مذنباً في حق الآخر، وأنَّى للمرء أن يعرف شيئاً واضحاً عن حساباتهما في ظل هذا النظام المنزلي العجيب الذي تعيشه أسرة كارامازوف، وفي ظل تصريفهم للأمور المالية تصريفاً لا يتسنى لأحد أن يفهم منه شيئاً أبداً!». لقد صوَّر راكيتين المأساة التي أدت إلى الجريمة على أنها ثمرة عاداتنا وأخلاقنا المتخلفة، وثمرة نظام القنانة، وثمرة الفوضى التي تسيطر على بلادنا روسيا التي تعاني شقاء كبيراً وتفتقر إلى أنظمة لا غنى لها عنها. خلاصة القول إنه سُمح لراكيتين أن يلقي خطاباً مسهباً. وبمناسبة هذه الدعوى اشتهر راكيتين وذاع صيته لأول مرة. كان وكيل النيابة يعرف أن الشاهد ينوي أن ينشر مقالاً عن القضية في إحدى الصحف، حتى لقد أورد في مطالعته (كما سنرى ذلك فيما بعد) عدداً من الأفكار التي يعبر عنها ذلك المقال، فكان إذن مطلعاً على مضمون المقال. كانت الصورة التي رسمها راكيتين مظلمة قاسية يخرج منها شعور يعزز «الاتهام» بقوة. ونستطيع القول إجمالاً إن العرض الذي قدمه قد خلب ألباب الجمهور بما اشتمل عليه من استقلال الرأي وحرية التفكير، وبما أكده من نبل العواطف وسمو المشاعر. حتى لقد سُمع في القاعة تصفيق انطلق تلقائياً، وذلك أثناء كلامه عن نظام القنانة، وعن روسيا الشقية التي تهيمن عليها الفوضى. ولكن راكيتين، الذي لم يكن إلّا شاباً على كل حال، لم يستطع أن يتجنب خرافةً سرعان ما استغلها المحامي استغلالاً يدل على مقدرة فائقة في انتهاز الفرص المناسبة. لقد أُلقيت على راكيتين أسئلة عن غروشنكا، فإذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة منقاداً لما حقق من نجاح شعر به هو نفسه، ومنتشياً بالسمو الأخلاقي الروحي الذي ارتقى إليه، إذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة يزل لسانه فيتكلم على أغرافينا ألكسندروفنا بشيء من الاحتقار ويصفها بأنها «امرأة ينفق عليها التاجر سامسونوف»، كان على استعداد لأن يدفع غالياً كي يسحب هذا التعبير، لأنه أوقعه في فخ المحامي. وذلك كله لأن راكيتين لم يكن يعتقد أبداً أنه استطاع في هذه الفترة القصيرة أن يستوعب هذا الموضوع بهذا التفصيل والدقة.

- اسمح لي أن أسألك. قال المحامي حين جاء دوره لاستجواب الشاهد، وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من اللطف والاحترام. هل أنت ذلك السيد راكيتين نفسه الذي نشرت له سلطات الأبرشية في الآونة الأخيرة كتيِّباً عنوانه «سيرة الأب السعيد المرشد الروحي زوسّيما»، وهو كتيِّب مليء بأفكار دينية أخلاقية عميقة، ومُهدى بكثير من التبجيل إلى صاحب العظمة سيادة الأسقف؟ لقد قرأت هذا الكتيّب مؤخراً باهتمام جدي.

- أنا لم أكتب هذه السيرة لتُنشر، وإنما نُشرت بعد ذلك دون علمي. تمتم راكيتين وقد بدا عليه الاضطراب كأنه يشعر بالعار:

- هذا رائع!! إن مفكراً مثلك يستطيع ويجب عليه أن يبرهن على سعة عظيمة في النظر إلى الأمور، تجاه جميع جوانب الحياة الاجتماعية. وقد قُيِّض لكتيِّبك الممتاز، بفضل حماية صاحب العظمة الأسقف، أن ينتشر انتشاراً واسعاً وأن يكون ذا فائدة... ولكنني أحب من جهتي، دون أن أكون مسرفاً في الفضول، أن ألقي عليك سؤالاً صغيراً: لقد ذكرتَ منذ

قليل أنك تعرف جيداً السيدة سفيتلوفا، أليس كذلك (ليلاحظ القارىء أنه عُرف في تلك اللحظة وحدها أن اسم أسرة غروشنكا هو سفيتلوفا. ولقد سمعت هذا الاسم في هذه المناسبة لأول مرة).

- لا يمكن أن أؤاخذ على معرفتي بجميع من أعرف من الناس... أنا شاب... ومن الذي يتحمل تبعة جميع ما يعرض له من لقاءات؟ أجاب راكيتين وقد احمر وجهه.

- مفهوم! قال فيتوكوفتش مشوشاً وحريصاً على الاعتذار: إنها متعة أن تجتذبك، كما تجتذب أيَّ إنسان آخر، امرأة جميلة يحلو لها أن تستقبل في بيتها زهرة شبان المدينة... ولكنني... أريد أن توضح لي نقطة واحدة: نحن نعلم أن السيدة سفيتلوفا قد تمنت منذ شهرين، بكثير من الإلحاح، أن تتعرف إلى ألكسي فيودوروفتش، أصغر الإخوة كارامازوف، وأنها رجت منك أن تجيئها به، وهو يرتدي ثوب الرهبان، وقد وعدتك إذا أنت نجحت في أن تجيئها به، بمكافأة مقدارها خمسة وعشرون روبلاً. ونحن نعلم أنك لبيت طلبها، وأن الزيارة تمّت في تلك السهرة نفسها التي اختتمت بالفاجعة موضوع الدعوى. لقد قدت ألكسي فيودوروفتش إلى منزل السيدة سفيتلوفا، وأخذت منها المبلغ الذي وعدتك به، وهو خمسة وعشرون روبلاً، هل هذا كله صحيح؟ ذلك ما أحب توضيحه لنا الآن.

- كانت تلك مزحة لا أكثر... ولست أرى فيم يمكن أن يعنيك هذا الأمر. وقد أخذت المبلغ من باب العبث... وعلى نية ردِّه إليها بعد ذلك...

- ولكنك قبلت المبلغ، ولم تردَّه حتى الآن... أم تُراك رددته...؟

- هذه تفاهات. تمتم راكيتين. وأنا أرفض أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع... طبيعي أنني سأرد هذا المال.

تدخل الرئيس، ولكن المحامي أعلن أنه لم يبقَ لديه سؤال آخر يلقيه على راكيتين. وانصرف راكيتين مهزوماً. لقد فسد ما أحدثه خطابه من شعور بأنه إنسان نبيل، فسد هذا الشعور بشكل لا صلاح له بعده... وكأن فيتوكوفتش الذي لاحقه بنظرة ساخرة، كان كمن يخاطب الجمهور قائلاً له: «انظروا إلى شهود الاتهام هؤلاء، ما قيمتهم!» وإني لأذكر أن ميتيا قد أحدث حادثاً في هذه المناسبة أيضاً. فإنه وقد أغضبته اللهجة التي تكلم بها راكيتين على غروشنكا، صاح يطلق على راكيتين من مكانه هذا اللقب: «برنار»، وحين اتجه الرئيس، بعد استجواب راكيتين، اتجه إلى المتهم ليسأله هل له ملاحظات يريد إبداءها، صرخ ميتيا يقول بصوت قوي:

- لقد جاء إلى السجن عدة مرات واقترض مني مالاً. هذا برنار حقير، لا يؤمن بالله، وقد ضلل صاحب العظمة الأسقف وغرَّر به.

طبيعي أن ميتيا قد أُمر مجدداً بالتزام النظام، وتجنّب الألفاظ النابية، ولكن السيد راكيتين كان قد فقد مهابته.

ولم يكن حظ الاتهام مع الشاهد التالي، وهو الكابتن سينغيريف، أكبر من حظه مع الشاهدين السابقين، ولكن بسبب آخر. لقد جاء سينغيريف إلى المحكمة شعث الثياب وسخ الهيئة موحَّل الحذاء، وسرعان ما أدرك الناس أن المسكين سكران تماماً رغم جميع الاحتياطات المتخذة ورغم «تقرير الخبير». فلما سئل عن الاهانة التي ألحقها به ميتيا رفض بإصرار أن يجيب. وقال:

- لا أهمية لذلك. إن صغيري إيليوشا لا يريد هذا. سينصفني الله في الآخرة.

- من الذي لا يريدك أن تتكلم؟

- ايليوشا، ابني الصغير: «بابا... حبيبي بابا... ما أكثر ما أَذلَّك!». هكذا كلّمني قرب الصخرة. وهو الآن يموت.

قال الكابتن ذلك ثم انفجر باكياً منتحباً، وسجد أمام قدمي الرئيس. فأسرعوا يخرجونه وسط ضحك الحضور وقهقهاتهم، وضاع على وكيل النيابة ما كان يعوِّل عليه من أثر يمكن أن يحدثه هذا الرجل المسكين.

واستمر المحامي يستعمل جميع أساليب فنه، ويُدهش الناس أكثر فأكثر بسعة اطّلاعه على القضية بأدق تفاصيلها. هكذا أحدثت الشهادة التي أدلى بها تريفون بوريستش أثراً قوياً في بادىء الأمر، وكانت هذه الشهادة تُدين ميتيا طبعاً. خصوصاً أنه حسب، كوبيكاً كوبيكاً، النفقات التي أنفقها ميتيا أثناء رحلته الأولى إلى موكرويه قبل وقوع الفاجعة بشهر، فبيَّن أن ميتيا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قد أنفق أقل من ثلاثة آلاف روبل، أو ما يقارب من ذلك. ما أكثر ما رمى للغجريات من مال! «أما فلاحونا المقمِّلون فإنه لم يكتفِ بأن ينفحهم نقوداً صغيرة أو نقوداً من فئة الخمسين كوبيكاً بل كان يوزع عليهم أوراقاً مالية لا تقل واحدة منها عن خمسة وعشرين كوبيكاً! ناهيكم عما سُرق منه في تلك الليلة!! إن اللصوص لم يتركوا بطاقات زيارة، ولا كان يمكن أن يخطر ببال أحد أن يبحث عنهم ويعثر عليهم بينما كان ميتيا نفسه يتلف المال ويبدده. إن فلاحينا لصوص لا ضمير لهم ولا وجدان. والبنات! بنات قريتنا! إنه لم ينسهنَّ! لقد اغتنين منذ ذلك الحين، بينما كان جميع الناس عندنا فقراء قبل تلك الليلة». الخلاصة أن تريفون بوريستش أحصى جميع النفقات، وبدا أنه يجري حساباً دقيقاً. وبذلك يكون الافتراض القائل بأن ميتيا لم ينفق إلّا ألفاً وخمسمئة روبل، وأنه خبأ بقية المبلغ في كيس صغير، بذلك يكون ذلك الافتراض مرفوضاً. «رأيت الثلاثة آلاف روبل بعينيَّ، أنا لا أُخدع في مثل هذه الأمور!». كان يصيح تريفون بوريستش، وكان واضحاً أنه يفعل ذلك حباً بإرضاء السلطات؛ ولكن حين جاء دور المحامي لإلقاء الأسئلة على الشاهد، اكتفى بأن ذكر الواقعة التالية دون أن يحاول الطعن في شهادة صاحب الفندق، قال: إن الحوذي تيموفي وفلاحاً آخر اسمه آكيم عثرا على ورقة مالية بمئة روبل كانت قد سقطت على أرض الدهليز من ميتيا وهو في حالة سكر، فحملا هذه الورقة المالية وأعطياها إلى تريفون بوريستش الذي كافأ كلاً منهما بروبل، «فهل أُرجعت المئة روبل هذه إلى السيد كارامازوف أم لا؟ أجب!». فحاول تريفون بوريستش أن يتهرب من الجواب، ولكنه بعد سؤال الفلاحين اللذين عثرا على الورقة المالية، كان مضطراً أن يعترف بالواقعة، واكتفى بأن يؤكد أنه قد أرجع الورقة المالية إلى ديمتري فيودوروفتش فوراً، وأنه فعل ذلك بدافع الأمانة والشرف، ولكن المتهم كان قد بلغ منه السكر أوجه حينذاك، فمن الجائز أن يكون قد نسي أن المال أعيد إليه في حينه». ولكن لما كان تريفون بوريستش قد ظل إلى حين مثول الفلاحين ينكر العثور على ورقة نقدية على أرض الدهليز أصلاً، فإن ما ادعاه بعد ذلك من أن الورقة قد أُرجعت إلى ميتيا السكران، أصبح مطعوناً فيه. هكذا رأينا شاهداً من أخطر شهود الاتهام يفرغ من شهادته وقد تزعزعت سمعته كلياً. وكذلك كان شأن «السيدين» البولنديين. لقد أظهرا في البداية كبرياءً وغروراً، وأكدا بصوت قوي أنهما «خدما التاج» بأمانة وإخلاص وأن «السيد» ميتيا عرض عليهما أن يدفع لهما ثلاثة آلاف روبل ثمناً لشرفهما، وأنهما شاهدا ذلك المبلغ في يديه بأعينهما. وقد استعمل «السيد» موزيالوفكتش عدداً كبيراً من الألفاظ البولندية في جمله، فلما لاحظ أن ذلك قد زاد قيمته في نظر رئيس المحكمة ووكيل النيابة، شعر بارتياح وسرور وبدأ يتكلم بالبولندية. ولكن فيتوكوفتش عرف كيف يقتنص هذين الرجلين أيضاً بشباكه: فرغم أن تريفون بوريستش، الذي استدعي إلى القاعة مرة أخرى، قد حاول الإنكار، فقد اضطر أخيراً أن يعترف بأن «السيد» فروبلفسكي قد استبدل بورق اللعب الذي أخذه منه ورقاً آخر أخرجه خلسةً، وأن «السيد» موزيالوفكتش

قد غش في اللعب أثناء استلامه دور «البنك». وقد جاءت أقوال كالغانوف الذي أدلى بشهادته بعد ذلك، مؤيدةً لصحة هذه «التفاصيل»، فخرج «السيدان» البولنديان مرتبكين مجللين بالعار تشيّعهما قهقهات الحضور.

حصل الأمر نفسه لجميع الشهود الآخرين الخطرين. فقد عرف فيتوكوفتش كيف يسقط اعتبار كل واحد منهم من الناحية الأخلاقية. وقد أُعجب رجال القانون والهواة ببراعته، ولكنهم كانوا يتساءلون إلى ما كان يهدف من ذلك. ذلك لأنهم - أكرر هذا - كانوا يشعرون جميعاً بأن الاتهام غير قابل للنقاش، وهذا الانطباع كان يتزايد أكثر فأكثر. لكن ثقة «المجوسي الكبير»، جعلته يبدو هادئاً مطمئناً، لذلك كانوا ينتظرون الخاتمة. ليس عبثاً أن يزعج هذا الرجل نفسه بالمجيء إلى بلدتنا من بطرسبورغ، فليس هو حتماً بالرجل الذي يرجع خائباً من دون نتيجة.

III

التقرير الطبي وليبرة من بندق

لم يقدم التقرير الطبي أي مساعدة للمتهم. وكان فيتوكوفتش نفسه لا يعوِّل كثيراً عليه، كما تبين فيما بعد. وإنما لم يقدم بالأساس إلا نتيجة إلحاح كاترينا إيفانوفنا التي استقدمت لهذا الغرض طبيباً شهيراً من موسكو. كان واضحاً أن الدفاع لن يخسر باستخدامه شيئاً، وفي أحسن الحالات قد يكون مفيداً له. ومع ذلك، فقد كانت النتيجة مضحكة بسبب اختلاف الأطباء في الرأي. لقد تم تعيين ثلاثة أطباء هم الاختصاصي الشهير الذي استُقدم من موسكو، ثم طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه، وأخيراً الطبيب الممارس الشاب فارفنسكي. على أن هذين الطبيبين الأخيرين قد مَثَلا أمام المحكمة بصفتهما شاهدين أيضاً، لأن وكيل النيابة قد طلب ذلك. فأما الخبير الأول الذي استُدعي للإدلاء برأيه فهو الدكتور هرتسنشتوبه. إنه عجوز في السبعين من عمره، أشيب أصلع، مربوع القامة قوي البنية، كان الناس في مدينتنا يعتبرونه ويحترمونه كثيراً. كانوا يعرفون أنه صاحب ذمة وضمير، وأنه طيب القلب رفيع الأخلاق. حتى لقد كانوا يزعمون أنه ينتمي إلى ملّة دينية هي ملة «الإخوان المورافيين» إذا لم يخطىء ظني. وهو يقيم في مدينتنا منذ سنين طويلة وكان على جانب عظيم من الوقار. وكان رجلاً طيباً وإنسانياً، فهو يعالج الفقراء والفلاحين مجاناً، ويعودهم في أكواخهم ويعطيهم مالاً لشراء الأدوية، ولكنه كان في الوقت نفسه عنيداً عناد بغل. كان لا يمكن أن يُزحزح قيد شعرة عن رأي قام في ذهنه.

كان جميع الناس يعلمون أن الاختصاصي الشهير القادم من موسكو قد تمكّن خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي قضاها في مدينتنا أن يُفصح مراراً عن آراء تطعن في كفاءات الدكتور هرتسنشتوبه الطبية بشكل جارح. ورغم أن هذا الاختصاصي قد تقاضى خمسة وعشرين روبلاً على الأقل عن كل كشف طبي، فكثيرون من مدينتنا قد ابتهجوا لوصوله، وانتهزوا الفرصة لزيارته واستشارته غير ضانّين بالمال. وطبيعي أن جميع هؤلاء المرضى كان قد عالجهم الدكتور هرتسنشتوبه قبل ذلك، فكان الاختصاصي الشهير ينتقد المعالجة التي وصفها لهم الدكتور هرتسنشتوبه نقداً لاذعاً بألفاظ قاسية جداً، حتى لقد صار آخر الأمر يبادر المرضى الوافدين إليه بهذا السؤال: «هيه! أليس الدكتور هرتسنشتوبه هو الذي أوصلك إلى هذه الحال؟ هه، هه! وقد أنبىء الدكتور هرتسنشتوبه طبعاً بما كان يقوله عنه هذا الطبيب. وها هم أولاء الأطباء الثلاثة يمثلون أمام المحكمة واحداً بعد الآخر كخبراء! أكد الدكتور هرتسنشتوبه دفعةً واحدة أن «المتهم لا يملك كامل قواه العقلية، وأن هذا يُرى من أول نظرة». وحين بسط آراءه في هذا الموضوع (وهي آراء لن أعرضها هنا) أضاف يقول إن الشذوذ النفسي الذي يعانيه المتهم يظهر لا في مجموعة كبيرة من الأعمال التي سبق أن ارتكبها فحسب، بل يمكن أن يلاحظ أيضاً - وهذا أهم - في سلوكه في جلسة المحاكمة هذه بالذات. فلما طُلب إلى الدكتور هرتسنشتوبه أن يقول أين هو الشذوذ في وضع المتهم الآن، أجاب الطبيب العجوز بالسذاجة المعهودة فيه أن المتهم حين دخل القاعة «كان يمشي مشية غريبة لا تلائم الظروف التي هو فيها، فهو يسير قدماً لا يلوي على شيء، كما يسير جندي، وهو يحدِّق بعينيه بشكل ثابت لا ينظر يَمنةً ولا يَسرة، مع أن الشيء الطبيعي بالنسبة إليه هو أن ينظر يَسرةً، حيث توجد النساء من الحضور، لأنه رجل يحب

الجنس اللطيف حباً عظيماً، فلا بد أن يقيم وزناً كبيراً لرأي السيدات، لما عسى أن يكون رأي السيدات فيه حينذاك». وكان الطبيب العجوز يتكلم بلغة أصيلة خاصة به. والجدير بالذكر هنا أنه كان يتكلم اللغة الروسية بطلاقة، ولكن كل جملة من جمله كان فيها شيء ألماني لست أدري ما هو، وذلك أمر لم يكن يقلقه أبداً، لأنه اعتاد طوال حياته أن يعتقد أنه يتقن الروسية، وأن روسيته «خير من روسية الروس أنفسهم». وكان يحب كثيراً أن يروي أمثالاً روسية، ويؤكد في كل مرة أن الأمثال الروسية أجمل وأبلغ من أمثال سائر الشعوب. يجب أن أضيف إلى هذا أنه كثيراً ما كان يتفق له أثناء الحديث - عن ذهول في أغلب الظن - ينسى ألفاظاً هي أكثر الألفاظ استعمالاً، ألفاظاً يعرفها حتماً، ولكنها تبخّرت من ذهنه فجأة. على أن هذا نفسه كان يحدث له حين يتكلم بالألمانية أيضاً. وهو في اللحظات التي يحدث له فيها ذلك، يحرك يده أمام وجهه كمن يريد أن يلتقط الكلمة التي طارت، وما من أحدٍ يستطيع عندئذ أن يجبره على مواصلة كلامه قبل أن يهتدي إلى اللفظة الضائعة. وأثارت الملاحظة التي ذكرها عن المتهم حين قال إنه كان عليه أن ينظر إلى جهة السيدات لحظة دخوله قاعة المحكمة، أثارت في جمهور الحضور دمدمات ضاحكة. لقد كانت نساؤنا كلهنّ يحببن كثيراً هذا العجوز، كما كن يعرفن أنه قد عاش طوال حياته عازباً، رحيماً وطاهراً، ويعتبر النساء كائنات عليا ومخلوقات مثالية. لذلك بدت ملاحظته غير المتوقعة، لجميع الناس مثيرةً للدهشة.

عندما سئل الاختصاصي القادم من موسكو، صرَّح بلهجة قاطعة أن حالة المتهم العقلية هي في رأيه حالة غير سويّة، بل هي «غير سوية إلى أقصى حد». وتكلم في إسهاب عن مرض «المسّ» وعن «المانيا»، وبرهن بالاستناد إلى المعلومات المتجمعة أن المتهم كان قبل اعتقاله ببضعة أيام قد أصيب بحالة مسّ؛ فإذا سلمنا جدلاً بأنه كان حين ارتكب الجريمة واعياً بما يفعل، فمما لا شك فيه أنه فعل فعلته بغير إرادة تقريباً، لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الاندفاع المرضي الذي كان قد سيطر عليه. هكذا قال الاختصاصي شارحاً. ثم أضاف: على أن المريض كان مصاباً، عدا مرض الحصار، بداء «المانيا»، وهذا يجعلنا نتنبأ بتطور سيؤدي به إلى الجنون الكامل (ملاحظة: إنني أنقل هنا بلغتي أنا، أقوال ذلك الطبيب الاختصاصي في الأمراض العقلية الذي استعمل عندئذ لغة تكنيكية فيها كثير من التفقُّه). وتابع الطبيب كلامه: «لقد كان يتصرف في جميع الأحوال تصرفاً منافياً للعقل. لن أقول شيئاً عما لم أره بنفسي، أعني الجريمة وتلك المأساة كلها؛ ولكن يجب عليَّ أن أذكر مع ذلك أن نظرته، أمس الأول، أثناء حديث جرى بيني وبينه، كان فيها جمود غريب لا تفسير له. يضاف إلى هذا أنه كان يضحك بدون أي سبب. وقد لاحظت لديه غضباً مستمراً غير مفهوم، كما لاحظت أنه يستعمل كلمات غريبة مثل «برنار»، «إيطيقا»، وغير ذلك من ألفاظ لا محل لها إطلاقاً». على أن أبرز شيء يتميز به مرض «المانيا» لدى المتهم، في نظر الطبيب، هو أنه كان لا يستطيع أن يواجه مشكلة الثلاثة آلاف روبل التي يعتقد أن أباه حرمه منها، وإلّا يُصاب بحالة شديدة من الاندفاع، بينما يكون قبل ذلك هادئاً تماماً أثناء كلامه عن إخفاقات أخرى أو إهانات أخرى تحملها أثناء حياته وهو يتذكرها الآن دون أي اضطراب ظاهر. هذا ويخرج من معلومات أخرى تم الحصول عليها أن المتهم كان يستعر غضبه كلما ذُكرت هذه الثلاثة آلاف روبل، رغم أنه، على ما يقوله الشهود، لا يعد متهافتاً على المنفعة ولا يُعد طماعاً. ثم أضاف الطبيب الوافد من موسكو بلهجة ساخرة خاتماً كلامه: «أما عن رأي زميلي العالم الذي يقول إن المتهم كان ينبغي له عند دخوله القاعة أن ينظر إلى جهة السيدات لا أن ينظر إلى أمام، فإنني أعتقد أن من واجبي أن أؤكد، بصرف النظر عما تتسم به هذه الملاحظة من طابع الفكاهة، أن هذه الملاحظة خطأ فاحش. فإنني على موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن المتهم ما كان ينبغي له أن ينظر إلى أمام، أثناء دخوله قاعة المحكمة التي سيتقرر فيها مصيره، وعلى موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن فعلة المتهم هذه يجب أن تعد عرضاً من أعراض حالته العقلية المختلة، أقول إنني من جهتي أرى أن المتهم كان يجب عليه لا أن ينظر يسرةً إلى جهة السيدات، بل أن ينظر يمنةً إلى جهة

محاميه باحثاً عنه في تلك اللحظة بعينيه، لأن محاميه هو الآن أمله الوحيد، ولأن مصيره كله متوقف على دفاع هذا المحامي.». أعرب الطبيب الاختصاصي عن رأيه هذا بلهجة جازمة. لكن الخلاف المضحك الذي قام به الأطباء الخبراء وصل إلى أوجه حين جاء دور الدكتور فارفنسكي الذي سئل عن رأيه آخرَ من سئل من الأطباء، فأخذ يدلي بآرائه ويقدّم تفسيراته. قال هذا الطبيب إن المتهم هو، الآن وفي الماضي على السواء، رجلٌ حالته النفسية سليمة تماماً؛ ولئن كان قبل اعتقاله في حالة عصبية، وكان مضطرباً بشدة، فذلك كله يمكن تعليله بأسباب طبيعية تماماً، كالغيرة، والغضب، والإسراف المستمر في الشراب وما إلى ذلك. فهذه الحالة العصبية لا تحمل أي أثر لهذا المسّ الخاص الذي جيء على ذكره؛ أما فيما يتعلق بمعرفة الجهة التي كان ينبغي للمتهم أن ينظر إليها لحظة دخوله القاعة، فقد أعلن هذا الخبير الثالث أنه كان على المتهم «بحسب رأيه المتواضع» أن ينظر إلى أمام، كما فعل تماماً، ذلك لأن رئيس المحكمة وأعضاءها، وهم الذين يتوقف عليهم مصيره، كانوا أمامه في تلك اللحظة. «وهو، إذ نظر إلى أمام فعلاً، قد برهن على قدراته العقلية سليمة في هذه اللحظة». بهذا ختم الطبيب الممارس الشاب «رأيه» المتواضع.

- برافو يا طبيب! صرخ ميتيا من مكانه. هذا صحيح!

طلب من ميتيا طبعاً أن ينضبط، ولكن رأي الطبيب الشاب أحدث أثراً حاسماً في أعضاء المحكمة وفي الحضور على السواء، لأن جميع الناس في مدينتنا قد انحازوا إلى رأيه، كما ظهر فيما بعد. ثم إن الدكتور هرتسنشتوبه، حين استُجوب كشاهد، أدلى بأقوال خدمت قضية ميتيا بشكل لم يتوقعه أحد. إن الدكتور هرتسنشتوبه، وهو يسكن مدينتنا منذ زمن بعيد ويعرف أسرة كارامازوف من زمان طويل، قدَّم معلومات تساعد الاتهام كثيراً، ولكنه أضاف وكأنه تذكر شيئاً ما:

- ومع ذلك فإن هذا الفتى المسكين كان يمكن أن يستحق مصيراً أفضل، لأنه كان في طفولته طيب القلب، وكان طيب القلب بعد ذلك أيضاً، أنا أعرف هذا. لكن هناك مثلاً روسياً يقول: «حسن أن يكون المرء ذا عقل، ولكنْ أحسنُ من ذلك أن يزوره رجل آخر ذو عقل، لأن عقلين اثنين خير من عقل واحد...».

- تريد أن تقول إن في اتحاد العقول قوة لها...

كذلك تدخّل الرئيس متمَلملاً وهو يعرف طريقة الطبيب العجوز في بطء الكلام وجرِّ الألفاظ دون أن يكترث لأثر ذلك في مستمعيه ودون أن يحفل بنفاد صبرهم عند الاصغاء إليه (حتى لقد كان يبدو أنه يقدر قدراً كبيراً مزاحاته الجرمانية الثقيلة الضخمة، وكان إلى ذلك يحب الأقوال الحلوة كثيراً ويستعملها مبتهجاً بوضوح).

- نعم، ذلك هو ما قلته. استأنف الطبيب العجوز كلامه معانداً. عقلان اثنان خير من عقل واحد. ولكن هذا الشاب لم يزره رجل عاقل آخر، فمضى عقله هو... مضى يعمل ماذا؟ نسيت الكلمة التي تعبِّر عما يفعله عقله. نسيت تلك الكلمة (ردَّد وهو يحرك يده أمام عينيه) آه نعم. تذكرت. مضى عقله يتنزه.

- يتنزه؟

- نعم يتنزه. ذلك ما قلته أيضاً. مضى عقله يتنزه، فوصل إلى مكان بعيد تائه لا يستطيع فيه أن يهتدي إلى نفسه ويجد ذاته. ولكنه كان فتى نبيلاً حساساً. أوه، إنني أتذكره يوم كان صغيراً جداً قد أهمله أبوه فهو يجري في فناء المنزل حافي القدمين ولا يمسك بنطاله إلّا زرٌّ واحد.

وهنا اختلج صوت العجوز الشريف برنّة انفعال صادق. فارتعش فيتوكوفتش إذ أوجس مؤاتاة الفرصة الجيدة، وسرعان ما تشبث بهذا الشاهد.

واصل الطبيب العجوز كلامه فقال:

- نعم، نعم، أنا أيضاً كنت ما أزال شاباً في ذلك الوقت... كان عمري... نعم كان عمري خمسة وثلاثين عاماً. وكنت قد جئت إلى هذه المدينة منذ مدة قصيرة. فأحسست بشفقة على الصبي وتساءلت: «لماذا لا أشتري له ليبرة من...» نعم، ليبرة من...، ولكن ليبرة من ماذا؟ نسيت الكلمة... ما اسم ذلك النوع؟ هو شيء من تلك الأشياء التي يحبها الأطفال كثيراً... هوه! كيف نسيت؟... كيف نسيت؟ (وحرَّك الطبيب يديه أمام عينيه من جديد)... هو ينبت على الأشجار، على الشجيرات فيُقطف ويوزَّع على الجميع...

- من تفاح؟

- أوه! لا، لا! ليبرة، قلت ليبرة. التفاح يباع بالدسته لا بالليبرة... عجيب!... هو متوفر جداً، وهو صغير الحجم... تضعه في فمك فتضغط عليه بأسنانك فيطق!...

- بندق؟

- نعم، بندق، هذا ما قلته. أكد الطبيب العجوز بهدوء تام، كأنه لم يبحث عن تلك الكلمة، يقول: جئت الصبي بليبرة من البندق، لأن أحداً لم يكن قد جاءه بشيء من قبل ذلك. رفعت إصبعي وقلت له: «اسمع أيها الصبي الصغير العزيز، باسم الإله الأب...» فضحك وردَّد: «باسم الإله الأب»، فقلت: «باسم الإله الأب، باسم الإله الابن»، فردَّد ضاحكاً من جديد: «باسم الإله الأب، باسم الإله الابن»، فقلت: «باسم الإله الابن، باسم الإله الروح القدس»، فضحك وراح يردد عدة مرات «باسم الإله الروح القدس». ثم انصرفت. ومررت قرب الصبي غداة غدٍ. فصرخ يقول: «سيدي! باسم الإله الأب، باسم الإله الابن!» ولكنه نسي الروح القدس. فذكرته بها، ورثيت لحاله وأشفقت عليه مجدداً. ولكنهم نقلوه من هذه المدينة فلم أره بعد ذلك. ومضت ثلاثة وعشرون عاماً، ففيما أنا في عيادتي ذات صباح، وكان شعري قد ابيضَّ، إذا بي أرى شاباً مزهر الوجه طلق المحيّا يدخل عليّ. لم أعرف من هو هذا الشاب. وها هو يرفع يده ويقول: «باسم الإله الأب، باسم الإله الابن، باسم الإله الروح القدس. لقد وصلت إلى هذه المدينة منذ قليل، وأحب أن أشكر لك ليبرة البندق الذي أهديته إليَّ فيما مضى. ما كان أحدٌ قد أهدى إليَّ شيئاً منه من قبل. أنت وحدك أهديتني ليبرة من بندق». تذكرت عندئذ شبابي الغابر السعيد، وتذكرت الصبي الصغير الذي كان يتنقل في فناء الدار حافي القدمين. وتأثر قلبي فقلت له: «أنت شاب نبيل النفس، لأنك لم تنس ليبرة البندق الذي جئتك به في طفولتك». وقبَّلته، وباركته باكياً. فكان يضحك، ويبكي أيضاً... إن الروس كثيراً ما يضحكون حيث يحسن البكاء. ولكنه بكى، أنا متأكد من ذلك، رأيته يبكي. والآن، مع الأسف!...

- والآن إبكِ أيها الألماني الشهم! نعم إبكِ، أنت إنسان شهم. صاح ميتيا من مكانه.

مهما يكن من أمر، فإن هذه القصة الصغيرة قد أحدثت في الحضور أثراً طيباً. غير أن الأقوال التي أدلت بها كاترينا إيڤانوفنا والتي سأتحدث عنها بعد قليل، هي التي كان لها التأثير الرئيسي على قضية ميتيا. على وجه العموم ومنذ بدأ توافد شهود النفي، أي تلك التي كان يستدعيها الدفاع، لأسباب لم يكن يتوقعها أخذ الحظ يبتسم فعلاً لميتيا، وهذا ما يلفت النظر أكثر من أي شيء آخر. لكنه قبل كاترينا إيڤانوفنا تم استجواب إيليوشا الذي تذكر واقعةً بدت له برهاناً إيجابياً، يدحض أحد أكثر أهم النقاط الأساسية في الاتهام.

IV

الحظ يبتسم لميتيا

حدث ذلك بشكل فجائي تماماً حتى بالنسبة لإيليوشا. فقد استدعي دون أن يقسم اليمين. والطرفان قد أحسنا استقباله وشعرا نحوه بعطف ومودة منذ الأقوال الأولى من شهادته. فقد سبقته سمعته إلى قاعة المحكمة. قدم إيليوشا مداخلة متواضعة، لكنها أظهرت عن غير قصد تعاطفاً حاراً مع أخيه البائس وجواباً عن سؤال ألقي عليه رسم صورة عن طباع أخيه كأنها لرجل عنيف شديد الاندفاع في أهوائه، وفي الوقت نفسه نبيل كريم النفس سخي قادر على التضحية حين يُطلب منه. ولكن إيليوشا اعترف أن توله أخيه بغروشنكا، وتنافسه مع أبيه، قد جعلاه في الأيام الأخيرة صعب المراس، ووضعاه في حالة لا تطاق. لكن إيليوشا رفض الفكرة القائلة بأن أخاه يمكن أن يقتل بدافع الطمع في المال، وحتى اعترف بأن هذه الثلاثة آلاف روبل كانت قد ولَّدت في نفس ميتيا شيئاً يشبه المسّ، يفكر فيها دائماً، ويعتبرها جزءاً من ميراثه الذي حرمه أبوه منه زوراً، وهو على كونه زاهداً في الربح قليل الاهتمام بالمنفعة، لا يستطيع أن يتكلم في شأن هذه الثلاثة آلاف روبل دون أن يستبد به غضب شديد ملتهب. أما التنافس الذي أشار إليه وكيل النيابة بين «المرأتين»، أي بين غروشنكا وكاترينا إيڤانوفنا، فقد تكلم على إيليوشا متهرباً، ورفض أن يجيب عن بعض النقاط.

- ألم يخبرك أخوك، على الأقل، أنه كان ينوي أن يقتل أباه؟ سأله وكيل النيابة. تستطيع الامتناع عن الإجابة إذا كنت تؤثر الامتناع.

- لم يقل لي ذلك بشكل مباشر. أجاب إيليوشا.

- كيف قاله إذن؟

- حدَّثني عن الكره الذي يحمله لأبينا، وعن خوفه من أنه قد لا يستطيع أن يمتنع عن قتله... ذات يوم... في لحظة اندفاع شديد... إذا استبد به تقزز لا سبيل إلى التغلب عليه.

- هل صدَّقته حين سمعته يقول هذا الكلام؟

- أخشى أن أقول إنني صدقته. ولكنني كنت دائم الاقتناع بأن عاطفة عليا ستنقذه في اللحظة الحاسمة، وقد أنقذته فعلاً لأنه ليس هو الذي قتل أبي. هكذا ختم إيليوشا كلامه بصوت ثابت ترجَّع في القاعة كلها. ارتعش وكيل النيابة كحصان في ساحة القتال سمع صوت البوق.

- كن على ثقة أنني مقتنع بصدقك، دون أن أنسب هذا إلى ما تشعر به من حب نحو أخيك المسكين. وقد اطلعنا من التحقيق الأوّلي على نظرتك الخاصة إلى الأحداث المفجعة التي جرت في أسرتك؛ إن رأيك يبدو لنا غريباً إلى أبعد الحدود، وهو يناقض جميع الشهادات الأخرى التي جمعها الاتهام. ذلك هو السبب في أنني أرى من واجبي أن أطلب إليك

ملحاً أن تذكر لنا الأساس الذي تبني عليه رأيك حين تؤكد باقتناعٍ جازم أن أخاك بريء، وحين تسند هذه الجريمة إلى شخص آخر سبق لك أن أسميته بشكل غير مباشر في التحقيق التمهيدي.

- في التحقيق التمهيدي، أجبت عن الأسئلة التي طرحت عليَّ، ولم أتهم سمردياكوف من تلقاء نفسي. قال إيليوشا بصوت هادئ رقيق.

- ولكنك أشرت إليه، أليس كذلك؟

- ذكرتُه مستنداً إلى أقوال ديمتري. لقد ذُكر لي، قبل ذلك الاستجواب، ما قد حدث عند اعتقال أخي، وقيل لي إن أخي اتهم هو نفسه سمردياكوف حينذاك. إنني مقتنع تماماً ببراءة أخي. وإذا لم يكن هو القاتل، فقد لا يكون القاتل إلّا...

- إذن سمردياكوف؟ لماذا سمردياكوف بالذات؟ وما الذي يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك؟

- لم أستطع ألا أصدقه. أنا أعلم أنه لن يكذبني بحال من الأحوال. ثم إنني رأيت في عينيه أنه كان يقول الحقيقة.

- في عينيه فقط؟ أليس لديك براهين أخرى؟

- ليس لديَّ براهين أخرى.

- وبالنسبة إلى اتهام سمردياكوف، أليس عندك من البراهين أيضاً إلّا أقوال أخيك وتعابير وجهه؟

- صحيح.

هنا توقف وكيل النيابة عن استجواب إيليوشا. فقد أثارت أجوبة هذا الأخير كثيراً من خيبة الأمل لدى الجمهور الذي قد تكلم على سمردياكوف كثيراً قبل المحاكمة. وكان هناك أشخاص ممن يزعمون الاطلاع على خفايا الأمور، قد ألقوا في روع الناس أن إيليوشا جمع أدلة قوية جداً تقرر براءة أخيه وتثبت أن الخادم هو الجاني. فإذا بكل شيء يتبدد الآن. إن إيليوشا لم يأت بأي عنصر حاسم، ولم يجئ إلّا باقتناع نفسي وهو أمر طبيعي عند أخي المتهم.

لكن فيتوكوفتش بدأ استجواب الشاهد، بسؤال إيليوشا متى حدثه المتهم عن كرهه أباه وعن شعوره بأنه قد يقتله، وهل أفضى إليه بهذه المسارات أثناء لقائهما الأخير قبل وقوع المأساة؟.

وفيما كان إيليوشا يجيب عن هذا السؤال، إذا هو يرتعش فجأة كأنه تذكر شيئاً ما في تلك اللحظة نفسها.

روى إيليوشا كأن فكرة مفاجئة قد ومضت في ذهنه، كيف أن أخاه، أثناء آخر لقاء له معه على طريق الدير قرب شجرة، في المساء، قد لطم صدره عدة مرات، «أعلى صدره» عدة مرات، مردداً بإلحاح أنه يملك الوسيلة لاستعادة شرفه؛ وأن هذه الوسيلة موجودة هنا، في هذا الموضع، على الصدر... «ظننتُ عندئذ أنه حين لطم صدره على ذلك النحو كان يشير إلى قلبه». قدَّرت أن قلبه كان قوياً بما يكفي لاتقاء عارٍ رهيب يهدده، عارٍ لا يجرؤ أن يعترف لي به. أعترف أنني افترضت أنه كان يلمح إلى أبيه ويلطم صدره لشعوره بالخجل

من أنه اندفع يعامل أباه بالعنف. ولكنني أتذكر الآن أنه كان يشير إلى شيء ما على صدره، حتى إنني خطر ببالي في تلك اللحظة أن القلب ليس هذا موضعه، فالقلب يوجد تحت ذلك، وهو يلطم من صدره موضعاً أعلى كثيراً من موضع القلب؛ كان يلطم هنا، تحت العنق، ويظل يشير إلى ذلك الموضع نفسه دائماً. لقد بدا لي هذا غباءً حينذاك فلم أعبأ به، ولكنني أتساءل «...الآن ألم يكن يشير لي إلى الكيس الصغير الذي خاطه على الألف وخمسمئة روبل؟

- تماماً! صاح ميتيا من مكانه. لقد حزرتَ يا إيليوشا. هو ذاك. كنتُ ألطم الكيس الصغير في تلك اللحظة.

أسرع فيتوكوفتش يهدىء ميتيا متوسلاً إليه أن يهدأ؛ ثم التفت نحو إيليوشا يتابع الاستماع إلى شهادته متشبثاً بها بقوة. فعرض إيليوشا فكرته بحرارة، قائلاً إن العار الذي حدثه عنه ميتيا ربما كان قوامه أن ميتيا، رغم أنه يملك الألف وخمسمئة روبل، أي نصف المبلغ الذي يدين به لكاترينا إيڤانوفنا، ورغم أن في وسعه أن يردَّ إليها هذا الجزء من دينها عليه، قد آثر ألّا يردّ المبلغ، وذلك ليستخدمه في غرض آخر هو أن يملك ما يمكّنه من الرحيل مع غروشنكا متى وافقت على الذهاب معه.

- هو ذاك، هو ذاك تماماً. صاح إيليوشا بحماسة. لقد ذكر لي أخي في ذلك المساء أن في وسعه أن يتخلص من نصف ذلك العار، نعم من نصفه، لقد قال لي ذلك (ردَّد إيليوشا كلمة «نصفه» مراراً)، ولكن ضعف إرادته يمنعه من الاقدام... كان يعرف سلفاً أنه لن يستطيع الإقدام، فهو لا يملك القوة اللازمة لذلك!

- أنت متأكد، أنه لطم من صدره ذلك الموضع بعينه تماماً. سأله فيتوكوفتش بنهم.

- تساءلت عندئذ: «لماذا يلطم من صدره ذلك الموضع العالي مع أن القلب يقع تحت هذا الموضع؟». وأذكر أن هذا بدا لي غبياً... أتذكر ذلك بوضوح. وبسبب ذلك التساؤل الذي ومض في ذهني تذكرت الآن هذه الواقعة. فكيف نسيتها حتى الآن؟ أذكر أنه كان يشير عندئذ إلى الكيس الصغير برهاناً على أن في وسعه أن يردَّ الألف وخمسمئة روبل، ولكنه لن يفعل. وبعد ذلك، حين قُبض عليه في موكرويه، صاح يقول - أنا أعلم هذا فقد ذُكر لي - إنه يرى أن أكبر عار في حياته هو أنه رغم أنه كان يملك القدرة على أن يردَّ إلى كاترينا إيڤانوفنا نصف دينها (نعم، ذكر كلمة النصف)، فلا يكون في نظرها بعد ذلك لصاً، لم يحزم أمره على ردِّ المبلغ، مؤثراً أن يعتبر لصاً في نظرها على أن يتنازل عن المال. ومع ذلك، كان يعذبه هذا المال! أوه! ما أشدَّ ما كان يعذبه! بهذا ختم إيليوشا كلامه.

هنا تدخل وكيل النيابة طبعاً، فطلب من إيليوشا أن يصف المشهد ثانيةً وألحَّ مراراً كثيرة من أجل أن يعرف هل صحيح أن المتهم كان يبدو مشيراً إلى شيءٍ موجود على صدره حين لطم صدره. لعله كان يضرب صدره بقبضة يده غضباً؟ لم يضرب صدره بقبضة يده. قال إيليوشا. وإنما كان يشير إلى الموضع بأصابعه، وكان يريني الموضع، هنا، فوق، عالياً جداً... كيف أمكن أن أنسى هذا، وأن لا أتذكره إلّا في هذه اللحظة المحددة!

استدار الرئيس نحو ميتيا وسأله إن كان لديه ما يقول بالنسبة إلى هذه الشهادة، فأكد ميتيا أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، وأنه قد أشار بيده إلى الألف وخمسمئة روبل التي كانت معلقةً في صدره، تحت الرقبة بقليل. وأن هذا كان عاراً. «عار لا أنكره، فهو أحقر عمل قمت به في حياتي! كان في امكاني أن أردَّ المال، ولكنني لم أفعل، آثرت أن تعتبرني لصاً، ولم أرجع المال. وأحقر ما في الأمر أنني أعلم مقدماً أنني لن أردَّ المال. صدق إيليوشا. شكراً يا إيليوشا!».

هكذا انتهى استجواب إيليوشا. إن أهمَّ وأبلغ عنصر في شهادة إيليوشا هو أنه

اكتُشفت أخيراً واقعة يمكن أن تكون ولو شبه برهان، ولو بداية برهان على صدق حكاية ذلك الكيس والألف وخمسمئة روبل التي يحويها. فمن المحتمل إذن ألّا يكون ميتيا قد كذب أثناء التحقيق الأولي حين صرح، في موكرويه، أن هذه الألف وخمسمئة روبل «هي له». فشعر إيليوشا بسعادة. ومضى يجلس في المكان الذي دُلَّ عليه وقد احمر وجهه من الانفعال، وبقي دقائق معدودة يتمتم بصوت خافت: «كيف أمكن أن أنسى هذه الواقعة! كيف أمكن أن تخرج من رأسي! ما أغرب ألّا أتذكّرها إلّا الآن!».

بدأ استجواب كاترينا إيڤانوفنا، وما إن ظهرت حتى اجتاح الحضور انفعالٌ قوي. فالسيدات وجّهن نحوها نظاراتهن، والرجال اضطربوا في أماكنهم؛ ونهض بعض الحضور كي يروها جيداً. وقد رُوي فيما بعد أن ميتيا امتقع لونه في تلك اللحظة، وشحب شحوباً شديداً. كانت ترتدي ملابس سوداء كلها؛ وتقدمت إلى المكان الذي دُلَّت عليه، بتواضع أو ربما بخجل. بقيت قسمات وجهها هادئة ساكنة، فلا شيء مما تشعر به قد ظهر للعيان. غير أن عزيمةً لا تنثني كانت تلمع في عينيها السوداوين المهيبتين. وقد أكَّد عدد من الناس فيما بعد أنها كانت جميلة للغاية في تلك اللحظة. كانت تتكلم بصوت خافت، ولكنه واضح ومتميز، فكان الناس يسمعونها في عمق القاعة. وكانت تتحدث هادئة، أو على الأقل تحاول أن تبقى هادئة. استجوبها الرئيس بكثير من التأني وأظهر لها كثيراً من المداراة، كأنه كان يخشى أن يمس «أوتاراً معينة»، ويريد أن يبرهن على احترامه لتعاسة شديدة. ولكن كاترينا إيڤانوفنا أسرعت تؤكد بقوةٍ، منذ البداية، جواباً عن سؤال أُلقي عليها، أنها كانت خطيبة المتهم «إلى اللحظة التي هجرني فيها من تلقاء نفسه» (كذلك أضافت تقول بصوت خفيض). فلما سئلت عن الثلاثة آلاف روبل التي عهدت إلى ميتيا أن يرسلها إلى قريباتها بالبريد، أجابت بحزم وثبات قائلة: «أنا لم أطلب منه أن يرسل هذا المبلغ فوراً. لقد شعرت حينها أنه كان في حاجة ماسة إلى المال... فأعطيته الثلاثة آلاف روبل شرط أن يرسلها في غضون شهر إذا شاء. ولقد أخطأ حين عذَّب نفسه بسبب هذا الدين...».

لن أنقل بالتفصيل جميع الأسئلة التي أُلقيت عليها، وجميع الأجوبة التي أجابت بها، وإنما سأقتصر على إجمال الأمور الأساسية في شهادتها. واصلت كاترينا إيڤانوفنا كلامها فقالت:

- كنت على ثقة تامة بأنه سيرسل هذه الثلاثة آلاف روبل متى حصل على هذا المبلغ من أبيه، أنا لم يساورني أي شك في نزاهته وأمانته يوماً... لم يساورني أي شك في شدة نزاهته وأمانته.. في شؤون المال... لقد كان على ثقة بأنه سيقبض من أبيه هذه الثلاثة آلاف روبل، وحدثني في ذلك مراراً. كنت لا أجهل أن بينه وبين أبيه خلافات ونزاعات، وكنت مقتنعةً وما أزال أن أباه قد حرمه من حقه. لكنني لا أذكر أنه نطق بأقوال يهدد فيها أباه، بحضوري على الأقل لم يتكلم بهذه الطريقة أبداً. إنني لم أسمعه يهدِّد ويتوعد في يوم من الأيام. ولو قد جاءني في تلك الآونة لطمأنته في شأن تلك الثلاثة آلاف روبل الشقية التي كان مديناً بها لي. ولكنه لم يرجع منذ ذلك الحين... ورأيتني أنا نفسي في وضعٍ لا يمكنني من أن أبادر إلى استدعائه. ثم أضافت وقد دوَّت في صوتها عندئذ نبرة قوية: ثم إنني ما كان يحق لي بحال من الأحوال أن أتشدد معه في موضوع هذا الدين. فأنا نفسي قد أخذت منه في الماضي مبلغاً أكبر كثيراً من تلك الثلاثة آلاف روبل، وقد قبلت منه ذلك المبلغ عندئذ رغم أنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ في ذلك الحين أنني سأصبح في يوم من الأيام قادرة على أن أردَّه إليه...

قالت كاترينا إيڤانوفنا ذلك بنبرة تحسّر. وفي تلك اللحظة نفسها جاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته.

- لم يحصل في مثل هذا في مدينتنا، إلا أثناء لقائكما؟ لأنه، شعر في اللحظة نفسها

حصول شيء إيجابي. (يجب أن نذكر بين قوسين ما يلي: رغم أن المحامي قد استدعي من بطرسبورغ بمبادرة كاترينا إيڤانوفنا تقريباً، فلقد كان يجهل كل شيء عن مسألة الخمسة آلاف روبل التي أعطاها ميتيا للمرأة الشابة في المدينة التي كانت ترابط فيها كتيبته، وكان يجهل كل شيء عن «التحية الساجدة» التي حيَّاها بها عندئذ. إن كاترينا إيڤانوفنا لم تحدّث المحامي عن هذا الأمر، واعتقدت أن من واجبها أن تخفي عنه تلك الوقائع حتى ذلك الحين. وقد يبدو هذا الكتمان من جهتها غريباً. ولكن من الممكن أن نقدِّر مع ذلك أنها كانت هي نفسها تجهل حتى آخر دقيقة هل تكشف للمحكمة عن وقائع تلك الفترة أم لا، وأنها كانت تتوقع نوعاً من الوحي لتعزم أمرها وتتخذ قرارها).

لن أستطيع أبداً أن أنسى تلك اللحظات. لقد بدأت كاترينا إيڤانوفنا قصتها فكشفت عن كل شيء، عن جميع التفاصيل التي أفضى بها ميتيا إلى أخيه إيليوشا التحية الساجدة، والأسباب والدوافع التي قادتها، والحالة التي كان عليها أبوها، ومجيئها إلى منزل ميتيا. ولكنها في مقابل ذلك، لم تذكر أن ميتيا كان قد أوحى إلى أختها بأن ترسل إليه كاترينا إيڤانوفنا لتأخذ المال.». لم تقل عن هذا كلمةً واحدة، وسكتت عن سلوك ميتيا نحوها قبل ذلك. لم تخجل أن تؤكد أنها هي التي أسرعت من تلقاء نفسها إلى بيت ضابط شاب آملةً لست أدري ماذا... للحصول منه على مال. كانت تلك لحظات رهيبة. شعرتُ ببرد يسري في ظهري وبدأت أرتجف وأنا أصغي إلى كلام كاترينا إيڤانوفنا. وسكت جمهور الحاضرين بشكل مطبق وكأنه يشرب كل كلمة من كلماتها. كان في وضع هذه المرأة الشابة شيء لا عهد لأحد بمثله من قبل، فما من أحد يمكن أن يتوقع حتى من امرأة تتميّز بالكبرياء والتسلط، أن تدلي بشهادة فيها كل هذه الصراحة، تضحيةً وفداءً. ولماذا تضحي بنفسها؟ في سبيل من تضحي بنفسها هذه التضحية؟ في سبيل إنقاذ رجلٍ كان يخونها ويهينها، في سبيل أن تساهم في إنقاذه على قدْر طاقتها الضعيفة، وذلك بأن ترسم له صورة جميلة تؤثر في نفوس الناس تأثيراً حسناً. وذلك ما حدث فعلاً: فإن الصورة التي رسمتها، صورةَ ضابط يهَب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها - أي كل ما تبقى له من ثروة - يهَبها لفتاة بريئة ثم ينحني لها احتراماً إلى درجة السجود، أقول إن هذه الصورة قد أعجبت الجميع وفتنتهم! وقد أحسست عندئذ أنها بذلك تعرِّض نفسها للأقاويل، وأن تخرصات كثيرة ستسري بين الناس في حقها. وذلك ما حدث كما تتوقعون. فقد أخذ أهل مدينتنا يومئون في أحاديثهم بعد ذلك، وهم يبتسمون بخبث، إلى أن القصة التي روتها المرأة الشابة لم تكن كاملة جداً، ولا سيما في الموضع الذي يتضمن أن الضابط تركها تنصرف «مكتفياً - فيما ادعت - بأن حيَّاها ساجداً». فأغلب الظن أنها «أسقطت» هنا جزءاً مما جرى. وقالت السيدات المحترمات في مجتمع مدينتنا: «افترضها لم تُسقط من القصة شيئاً، هبها قالت الحقيقة كلها كاملةً، فإن هذا لا يمنع من التساؤل: هل كان يليق حقاً بفتاة فيها حشمة وحياء أن تتصرف على هذا النحو وأن تسلك مثل هذا السلوك، ولو لإنقاذ أبيها؟». كيف يمكن أن يصدِّق المرء أن كاترينا إيڤانوفنا، بما لها من ذكاء حاد، لم تتنبأ بأن أقاويل من هذا القبيل ستنتشر بين الناس في حقها؟ لا شك في أنها توقعت ذلك حتماً، ومع ذلك قررت أن تقول كل شيء! وطبيعي أن هذه الشكوك المسيئة المهينة لم تولد إلّا فيما بعد. أما أثناء إدلاء كاترينا إيڤانوفنا بشهادتها فقد سيطر على جميع الناس انفعال حاد. فأعضاء المحكمة أصغَوا إلى كلام كاترينا إيڤانوفنا بصمت فيه احترام حتى لكأنهم خجلون. ووكيل النيابة لم يسمح لنفسه بإلقاء أي سؤال في هذا الشأن. وفيتوكوفتش اقتصر على أن انحنى لها احتراماً. أوه! انتصر المحامي! إن هذه الشهادة رصيد كبير له: هل يتصوّر عقل أن الرجل الذي وهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها، في وثبة كريمة من قلبه، هل يتصوّر عقل أن يكون من الممكن أن يقتل هذا الرجل أباه، ليلاً، في سبيل أن يجرِّده من ثلاثة آلاف روبل؟ إن في سلوكٍ كهذا تناقضاً لا يمكن فهمه. على الأقل أصبح بإمكان فيتوكوفتش بعد الآن، أن يستبعد تهمة السرقة. لقد اكتست «القضية» نوعاً من الإضاءة الجديدة. وخيم على القاعة جو من التعاطف مع ميتيا. لكنه قيل إنه أثناء إدلاء كاترينا إيڤانوفنا بشهادتها هتف بصوت يخالجه نشيج وهو يمد

نحوها ذراعيه، ثم سقط على المقعد ويداه حول رأسه. ولما انتهت سألها منتحباً:

- كاتيا، لماذا تسببت بهلاكي؟

ثم أخذ ينتحب بقوة، لكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه، وصاح:

- الآن قضي عليّ!

ثم سكن جامداً، صارفاً أسنانه، مصلّباً ذراعيه على صدره. وطُلب من كاترينا إيڤانوفنا أن تبقى في القاعة، فجلست على الكرسي الذي عُيِّن لها. كانت شاحبة اللون حانيةً رأسها. وقد روى الأشخاص الذين كانوا على مقربة منها أنها كانت ترتعش بكل جسمها، كأن بها حمًّى. واستُدعي الشاهد التالي، غروشنكا.

إنني أقترب هنا من لحظة الكارثة التي بانفجارها فجأة أدت عملياً إلى ضياع ميتيا. لأنني من جهتي كنت مقتنعاً بأنه لولا ذلك الحادث الذي وقع - وذلك رأي يشاركني فيه الجميع، ويشاركني فيه رجال القانون خاصةً - لكان من الممكن أن ينتفع بوجود ظروف مخفِّفة على الأقل. سأعود إلى ذكر هذا الحادث بعد قليل، ولكن يجب أن أقول بضع كلمات عن شهادة غروشنكا أولاً.

دخلت هي أيضاً، بثياب سوداء، وشالها الأسود الرائع على كتفيها. وتقدمت بمشيتها الصامتة الهادئة، مع شيء من ذلك الاهتزاز الذي نراه أحياناً في النساء البدينات بعض الشيء، إلى المكان الذي يقف فيه الشاهد، محدِّقة إلى الرئيس تحديقاً ثابتاً، لا تنظر يمنةً ولا يسرة. في رأيي إنها كانت في تلك اللحظة جميلة جداً، ولم تكن شاحبة اللون أبداً، كما زعمت، فيما بعد، السيدات اللواتي شهدن جلسة المحاكمة. وقد زُعم أيضاً أن وجهها كان فيه تقلُّص يعبّر عن خبث وشر. ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تشعر بغضب، وتتألم من نظرات الاحتقار والفضول التي كان يرشقها بها جمهور مدينتنا التوّاق إلى الفضيحة. إن غروشنكا ذات شمم وكبرياء، فهي لا ترضى الاحتقار. وإن فيها كذلك خجلاً مع شعور خفي بالخزي من هذا الخجل في الوقت نفسه، فكان طبيعياً والحالة هذه أنها لم تتكلم بصوت واحد أثناء إدلائها بشهادتها، وإنما تكلمت بغضب تارة، وباحتقار تارة أخرى، مصطنعةً في الحالتين لهجة خشنة قاسية؛ ثم إذا هي بعد لحظة واحدة تتكلم بلهجة يدرك فيها المرء نبراتٍ صادقة من أسف وحسرة حين تتهم ذاتها وتروح تلقي اللوم على نفسها. كانت في بعض الأحيان تتكلم كمن يسقط في هوة ولا يبالي بالعواقب، وكأنها تقول لنفسها: «ليكن ما يكون! ليحدث ما يحدث! فسأقولها...» صرَّحت تقول فيما يتعلق بصلاتها بفيودور بافلوفتش، بلهجة قاطعة: «هذه كلها تفاهات! هل ذنبي أنا أنه تعلق بي؟» ثم بعد ذلك بدقيقة واحدة أخذت تقول: «أنا الآثمة، أنا المسؤولة عن كل شيء. لقد عبثت بهما كليهما - عبثت بالعجوز وعبثت بهذا - فدفعتهما بذلك إلى الكارثة. الذنب ذنبي أنا في كل ما حدث.» ولما ذُكر اسم سامسونوف، انطلقت تقول بلهجة متحدية تكاد تكون وقحة: «ليس لأحد أن يتدخل في هذا. إنه الرجل المحسن إليَّ. لقد انتشلني من وهدة البؤس حين طردني أهلي». فذكَّرها الرئيس، ولكن بلهجة مهذبة جداً، بأن عليها أن تقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي تُلقى عليها دون الخوض في تفاصيل لا داعي إليها. فاحمرت غروشنكا، والتمعت عيناها.

صرحت بأنها لم ترَ الظرف والمال المودع فيه، وإنما عرفت من ذلك «الوغد» أن فيودور بافلوفتش قد أعدَّ لها ثلاثة آلاف روبل.

- عدا ذلك، كل ذلك سخافات، لأنني لم أحمل الأمر على محمل الجد، وما كان لي أن أذهب إليه بأية حال، هذا مؤكد...

- من هذا الذي وصفته بأنه «وغد»؟ سألها وكيل النيابة.

- هو سمردياكوف ذاك الذي قتل سيده، ثم شنق نفسه أمس.

طبيعي أنها سئلت فوراً عن الأساس الذي تبني عليه رأيها حين تقرر اتهاماً واضحاً هذا الوضوح، ولكن اتضح أنها هي أيضاً لا تستطيع أن تذكر أية واقعة محددة. قالت:

- هذا ما قاله لي ديمتري فيودوروفتش نفسه وما عليكم إلّا أن تصدِّقوه! ثم أضافت تقول وهي ترتعد كرهاً وحقداً، إن تلك المرأة هي التي ضيّعته، هذه هي الحقيقة كلها! إنها هي سبب كل شيء، هي وحدها! ذلك واضح!

- سئلت عمن تعني.

- أعني الآنسة هذه كاترينا إيڤانوفنا الحاضرة هنا! لقد دعتني إلى منزلها، وقدّمت لي شوكولاته، بهدف أن تغريني وأن تفتنني. إنها بلا حياء، هذه المرأة...

هنا أوقفها الرئيس عن هذا الكلام، وطلب منها بلهجة قاسية أن تراقب ألفاظها. ولكن قلب المرأة الشابة كان يلتهب غيرة، وكانت تشعر كأنها مستعدة لأن تمضي إلى النهاية لا تخشى العواقب...

- حين قُبض على المتهم في موكرويه. سأل وكيل النيابة فإن جميع الذين أسرعوا من الغرفة المجاورة، رأوك وسمعوك تصرخين قائلة: «إنك أنت سبب كل شيء وإنك تريدين أن تصحبيه إلى السجن». فهل يجب أن نستنتج من ذلك أنك كنت متأكدة منذ تلك اللحظة أن المتهم قد قتل أباه؟

- لا أتذكر المشاعر التي اضطربت في نفسي حينذاك. أجابت غروشنكا. كان جميع الناس يتهمونه في تلك اللحظة بأنه قتل أباه، فشعرت أن الذنب ذنبي، وأنه قتل أباه بسببي. ولكن عندما أكَّد لي أنه بريء ، صدّقته فوراً، ومازلت أصدقه، وسأظل أصدِّقه إلى الأبد، لأنه ليس من نوع الرجال الذين يكذبون. وجـاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته.

أذكر أنه أشار عندئذ، بين أمور أخرى، إلى حكاية راكيتين والمبلغ الذي أعطته إياه، وهو خمسة وعشرون روبلاً، مكافأةً له على أنه أتاها بألكسي فيودوروفتش كارامازوف إلى منزلها. فقالت غروشنكا وهي تضحك بخبث واحتقار:

- المدهش هو أنه أخذ المال. لقد كان يزورني دائماً ليستعطيني بعض المال، وكان يسحب مني بهذه الطريقة حوالى ثلاثين روبلاً في الشهر ينفقها على ملذاته الخاصة، لأن المأوى والطعام كانا مؤمنين له.

سألها فيتوكوفتش، غير عابىء بالرئيس الذي أخذ يتحرك ويضطرب:

- ما الذي جعلك سخيةً إلى هذا الحدّ مع السيد راكيتين؟

- ببساطة، إنه ابن خالتي. أمي وأمه أختان. صحيح أنه رجا مني ألّا أقول هنا كلمةً واحدة عن هذه القرابة، إذ يبدو أنه يشعر بالخجل كونه يمتّ إليّ بقربى!

فوجئ الجميع بهذه الواقعة الجديدة لأنه لم يكن أحد يعرفها في مدينتنا حتى ذلك الحين، ولا حتى في الدير. وكان ميتيا نفسه لا يعرفها. وقد ادعى بعضهم أن راكيتين قد احمر خجلاً على كرسيه حينذاك. وكانت غروشنكا قد علمت، قبل دخولها إلى القاعة، أن

راكيتين أدلى بشهادة تسيء إلى ميتيا، فأغضبها ذلك. وها هو الخطاب الجميل الذي كان قد ألقاه راكيتين مفيضاً في كلام نبيل، ثائراً على نظام القنانة، منتقداً ما يسيطر على روسيا من فوضى، ها هو الخطاب يتحطم، فلا يبقى منه في أذهان الحضور أي أثر. وكان فيتوكوفتش مسروراً: لقد أسعفته السماء. ولم يطل استجواب غروشنكا كثيراً لا سيما وأنها لم تجئ بمعلومات جديدة. وقد تركت شهادتها في النفوس أثراً هو إلى السوء أقرب منه إلى الحسن. مئات نظرات الاحتقار وجهت إليها حين انتهت من الإدلاء بشهادتها. راحت تجلس في القاعة بعيداً عن كاترينا إيڤانوفنا. وفي أثناء استجوابها كان ميتيا صامتاً دائماً كأنه متجمد، مطرقاً بعينيه إلى الأرض.

وظهر إيڤان فيودوروفتش ليدلي بشهادته.

V

الكارثة المباغتة

لاحظت أنه استدعي قبل إيليوشا. غير أن حاجب المحكمة أبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع المثول أمام المحكمة بسبب مرض مفاجئ، أو نوبة ما، وأنه مستعد، بعد أن تتحسن حالته للمثول عندما ترغبون. ولم يعرف أحد بهذا الأمر، ولم يعلم به أحد إلّا فيما بعد. وقد مر ظهوره للمرة الأولى من دون اهتمام كبير. فالشاهدون الرئيسيون، ولا سيما المرأتين المتنافستين، كانت قد سُمعت أقوالهم، فارتوى فضول الناس بذلك إلى حين. حتى لقد لوحظ شيء من التعب أصاب الجمهور. وما تزال هنالك شهادات قليلة يجب سماعها، لكنها شهادات لا يمكن أن تأتي بأشياء جديدة إضافة إلى الأمور الأساسية التي قد قيلت. وكان الوقت يمضي. واقترب إيڤان بخطًى بطيئة، دون أن ينظر إلى أحد، غاضاً نظره مطرقاً إلى الأرض، كأنه يبذل جهوداً شاقة في سبيل أن يجمع شتات أفكاره. كان لباسه سليماً، ولكن تعبير وجهه قد أحدث في النفوس أثراً أليماً، أو أحدث هذا الشعور الأليم في نفسي أنا على كل حال: كان وجهه يبدو بلون التراب وكأنه وجه إنسان يُحتضر. وكانت نظرته مضطربة. رفع عينيه، وأجال نظره في القاعة ببطء. انتفض إيليوشا عن كرسيّه مرتجفاً. إنني أتذكر هذا بوضوح، رغم أن أحداً لم ينتبه إليه.

أعلن الرئيس بما إنه لن يُحلِّف اليمين، بوسع الشاهد أن يتكلم أو أن يسكت، وإنما ينبغي له أن يقتصر طبعاً على ذكر الحقيقة وحدها فيما يقول، الخ. فكان إيڤان فيودوروفتش يصغي محدِّقاً إليه بنظرة مبهمة. غير أن قسمات وجهه افترت عن ابتسامة شيئاً فشيئاً، فما إن انتهى الرئيس الذي كان يراقبه بدهشة، من كلامه، حتى انفجر إيڤان مقهقهاً. وقال للرئيس سائلاً بصوت رنان:

- وماذا أيضاً؟

خيَّم الصمت على القاعة وأحس الناس بأن شيئاً ما سيقع. واضطرب الرئيس.

- أتراك ما تزال مريضاً؟ سأله وهو يبحث بعينيه عن الحاجب.

- اطمئن يا صاحب السعادة، أنا بخير تماماً، وقادر على أن أذكر لكم أشياء هامة. أجابه إيڤان بصوت هادىء فيه احترام.

- هل لديك أشياء هامة تريد أن تنقلها إلينا؟ سأله الرئيس وهو ما يزال في شك من أمره.

فخفض إيڤان فيودوروفتش عينيه، وانتظر بضع ثوان، ثم رفع رأسه وأجاب في تردد:

- لا... لا شيء، ليس عندي شيء خاص يمكن أن أذكره لكم.

وألقيت عليه أسئلة، فكان يجيب عنها على مضض وبإيجاز. ولكن إجاباته كانت

متزنة. وأعلن مرات عديدة أنه لا يعرف شيئاً عما يُسأل عنه. من ذلك أنه قال إنه يجهل كل شيء عن تصفية الحساب بين أبيه وديمتري. وأضاف يقول: «وكان ذلك لا يهمني على كل حال». واعترف بأنه سمع المتهم يهدِّد بقتل أبيه. أما الظرف الذي كان يضم المال فقد علم بوجوده من سمردياكوف...

- لا جديد صاح إيفان في ملل.. ليس لديَّ شيء خاص أقوله للمحكمة.

- أنا أدرك أنك مريض، وأفهم أن... بدأ الرئيس بقوله.

ثم اتجه إلى وكيل النيابة والمحامي يدعوهما إلى استجواب الشاهد.

- اسمح لي بالانصراف يا صاحب السعادة، فإنني أشعر بضعف شديد. قال إيفان فيودوروفتش بصوت منطفىء.

ودون أن ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، اتجه نحو باب الخروج. ولكنه لم يمشِ بضع خطوات حتى توقف كأنه يفكر في شيء ما، وابتسم صامتاً، وعاد إلى حيث كان من مكان الشهود، وقال:

- أنا يا صاحب السعادة شبيه بتلك الفلاحة الشابة التي كانت... كما تعلمون، تقول: «إن شئت ذهبت، وإن شئت لم أذهب». كانوا قد جاؤوها بثوب الزفاف ليأخذوها إلى الكنيسة، ولكنها كانت تردد بدون انقطاع: «إن شئت ذهبت، وإن شئت لم أذهب»... هذا مشهد من مسرحية شعبية...

- ما الذي تريد أن تقوله؟ قاطعه الرئيس بلهجة قاسية.

فأجاب إيفان فيودوروفتش وهو يُخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية:

- إليك ما أريد أن أخلص إليه... هذا هو المال، هذا المبلغ كان موجوداً في هذا الظرف (وأشار إلى الطاولة التي جُمعت عليها وثائق الاتهام)، والذي بسببه قُتل أبي. أين تريدون أن أضعه؟ يا سيدي حاجب المحكمة، انقل هذا المال إلى من يجب نقله إليه.

تناول الحاجب حزمة الأوراق المالية كلها وأعطاها إلى الرئيس.

- كيف وُجد هذا المال معك؟ أهو ذلك المبلغ نفسه فعلاً؟... سأله الرئيس مندهشاً.

- أخذته من سمردياكوف، من القاتل يوم أمس. زرته قبل انتحاره ببرهة قصيرة. إنه هو الذي قتل أبي. ليس أخي القاتل. سمردياكوف هو الذي قتل، وأنا الذي حرضته على ذلك. من الذي لا يتمنى موت أبيه؟

- هل أنت بكامل عقلك؟ صاح الرئيس.

- العقدة كلها هي أنني ما زلت أملك عقلي كاملاً... وهو عقل قذر شبيه بعقولكم أنتم وبعقول جميع هؤلاء الأغبياء... قال ذلك والتفت فجأة نحو الجمهور. وأضاف يقول صارفاً بأسنانه معبراً عن احتقار مبغض: هم جميعاً قتلوا آباءهم، ثم يتظاهرون بالهول! إنهم يمثِّلون أيها السادة، يضحك بعضهم على بعض... كذبة! إنهم جميعاً يتمنون موت آبائهم. السراطين يأكل بعضها بعضاً. إذا لم يوجد أناس يقتلون آباءهم، ساءهم ذلك وخرجوا غاضبين... إنهم في حاجة إلى مشهدٍ يتسلّون بالنظر إليه! خبزاً وماءً ومشاهد مسرح. ولست أنا خيراً منهم على كل حال. هل عندكم ماء نعم أم لا؟ اسقوني ماءً بحق المسيح! صاح وهو يمسك رأسه

بيديه.

أسرع الحاجب يقترب منه. وقفز إيليوشا من مكانه صائحاً: إنه مريض، لا تصدِّقوه، إنه مصاب بنوبة حمى حارة! وانتصبت كاترينا إيڤانوفنا واقفةً وقد جمَّدها الخوف، وحدَّقت إلى إيڤان فيودوروفتش. ونهض ميتيا أيضاً، فتأمل أخاه وهو يبتسم بألم بينما كان يصغي إليه بنهم.

- اطمئنوا. لست مجنوناً. أنا قاتل فحسب! استأنف إيڤان.

ثم أضاف لا يدري أحد لماذا:

- لا يُسأل قاتل أن يكون فصيحاً. وضحك ساخراً.

مال وكيل النيابة على الرئيس مضطرباً؛ واضطرب سائر أعضاء المحكمة وأخذوا يتهامسون. كان فينوكوفتش يصغي بانتباه شديد. وسكت الجمهور ينتظر متجمداً. وبدا على الرئيس أنه ثاب إلى نفسه واستعاد ثباته فقال:

- أيها الشاهد. إن أقوالك غير مفهومة وغير مقبولة في هذا المكان. هدىء روعك إذا استطعت، وقل لنا هل لديك شيء تريد أن تذكره فعلاً... قل لنا ما هي الأدلة التي تقيم عليها مثل هذا الاعتراف.... إذا كنت لا تهذي فحسب؟

- ليس عندي شهود هذه هي المشكلة. إن ذلك الكلب سمردياكوف لن يرسل إليكم اعترافه من العالم الآخر... في ظرف. وأنتم لا بد لكم دائماً من ظروف. فلو أرسل إليكم سمردياكوف ظرفاً لكان هذا كافياً. لا، ليس عندي شهود...

- اللهم إلّا شاهداً واحداً. أضاف وهو يبتسم بوجوم.

- من هو هذا الشاهد؟

- إن له ذيلاً يا صاحب السعادة، وليس يتفق والنظام أن تُسمع شهادته هنا. الشيطان لا وجود له أبداً!

تابع إيڤان الكلام، دون أن يضحك هذه المرة. اصطنع لهجة الرجاء: لا تلقوا إليه بالاً، إنه شيطان تعيس. لا شك في أنه مختبئ في مكان ما هنا، ربما تحت طاولة وثائق الاثبات. أين عساه أن يختبئ إن لم يكن هناك؟. اسمعوا، اصغوا إليَّ: لقد قلت له إنني لن أستطيع أن أسكت، وكان هو لا ينفك يحدثني عن ذلك التحول الجيولوجي... سخافات! ماذا تنتظرون لتفكوا أسر المسخ ولتطلقوا سراحه؟... لقد غنى نشيده لأنه كان فرحاً! هو مثل ذلك الوغد السكران وأغنيته عن فانكا المسافر إلى بيتر! أنا من جهتي مستعد لأن أهب كادريوناً من الكادريونات في سبيل ثانيتين من فرح! أوه! إنكم لا تعرفونني! ما أغبى هذا كله! خذوني أنا بدلاً عنه! لا بد أنني جئت لأمرٍ ما... لماذا، لماذا كل هذا الغباء!...

أجال إيڤان بنظره على القاعة، وهو واجم مفكر. اضطرب جميع الناس. اندفع إيليوشا نحو أخيه، ولكن الحاجب كان قد أمسك إيڤان من ذراعه.

- ما هذا أيضاً؟ صرخ إيڤان وهو يحدق إلى الحاجب. ثم أمسكه من كتفيه، ورماه على أرض القاعة.

هُرع الحرس وسيطروا على إيڤان. فأطلق عندئذ من صدره صراخاً حاداً، وظل

يصرخ مطلِقاً عبارات مفككة، بينما كان يُقاد إلى خارج القاعة.

حصل اضطراب شديد. لا أتذكر جميع التفاصيل، لأنني كنت منفعلاً في تلك اللحظة، ولم ألتقط الأحداث. لكنني أعلم فقط أنه حين عاد النظام إلى نصابه، وفهم الجميع ماذا يحصل، تمّ توبيخ الحاجب بقساوة، رغم أنه أفاض في الشرح قائلاً إن الشاهد لم تظهر عليه قبل ذلك أية علامة من علامات المرض، وإن الطبيب الذي عاينه منذ ساعة حين أصيب بوعكة خفيفة قد وجده سليماً معافى. وأضاف الحاجب يقول: ثم إنه كان حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة يقول كلاماً معقولاً، فما كان يمكن التنبؤ بما حدث له. هذا إلى أنه كان يحرص هو نفسه على أن يدلي بشهادته، وكان يريد المثول أمام المحكمة مهما يكلف الأمر. ولم يكن الانفعال الذي أثاره هذا المشهد في النفوس قد تبدد تماماً، حين وقع حادث أليم آخر. لقد أصيبت كاترينا إيڤانوفنا بنوبة عصبية، فأخذت تنشج بقوة، وتطلق صرخات حادة، ولكنها رفضت أن تنصرف، وبقيت تتخبط متوسلة ألّا يبعدوها. ثم صرخت تقول للرئيس:

- أريد أن أدلي بشهادة أخرى... أن أقول الحقيقة فوراً... فوراً! إليكم هذه الورقة، إنها رسالة... خذوها واقرأوها، بسرعة! هي رسالة أرسلها إليَّ هذا المسخ، نعم، هذا (وأومأت إلى ميتيا). إنه هو الذي قتل أباه، سترون، لقد ذكر لي ذلك كتابةً. كتب إليَّ أنه سيقتل أباه! أما الآخر فهو مريض، مريض، إنه مصاب بحمّى حارة! لاحظت منذ ثلاثة أيام أنه مصاب بحمّى!

هذا ما كانت تقوله وقد خرجت عن طورها. تناول الحاجب الرسالة وأعطاها إلى الرئيس. وتهاوت كاترينا إيڤانوفنا على كرسيها وهي تغطي وجهها بيديها ويهزها بكاء صامت. وكانت تحاول مع ذلك أن تسكت بكاءها مخافة أن تُطرد من قاعة المحكمة. إن الورقة التي تناولها الحاجب من كاترينا إيڤانوفنا هي بعينها الرسالة التي كتبها ميتيا في كاباريه «العاصمة الكبرى»، والتي كان يصفها إيڤان فيودوروفتش بأنها دليل رياضي على الجريمة. ومع الأسف! لقد اعتُبرت هذه الرسالة برهاناً له قوة اليقين الرياضي فعلاً، فلولا هذه الرسالة البائسة لكان من الجائز جداً أن لا يضيع ميتيا، أو أن لا تكون نهايته تلك النهاية الشقية على الأقل. أعود فأقول: لقد كان من الصعب على المرء أن يلاحظ كل شيء بالتفصيل، وما تزال ذكرياتي إلى الآن تختلط في شعورٍ بفوضى عامة. لعل الرئيس قد أطلع المحكمة ووكيل النيابة والمحامي والمحلفين على تلك الرسالة. لست أدري. ولكنني أتذكر أن كاترينا إيڤانوفنا قد أعيد استجوابها. سألها الرئيس في رفق ولطف أهي تشعر بأنها هادئة لتستطيع الاجابة، فهتفت تقول بقوة:

- أنا جاهزة للرد على أي سؤال. أضافت وهي تخشى، من أن يرفضوا الاستماع إليها:

طلبوا منها أن تشرح بالتفصيل أمر هذه الرسالة وظروف وصولها إليها.

- وصلتني عشية وقوع الجريمة، وقد كتبها في مقهى، في اليوم السابق، أي قبل ارتكابه الجريمة بيومين. انظروا: إن هذه الرسالة مكتوبة على ورقة هي نوع من فاتورة حساب (صاحت تقول لاهثة). كان يكرهني في تلك الآونة، لأنه اقترف عملاً حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة... ولأنه كان مديناً لي بتلك الثلاثة آلاف روبل أيضاً... أوه! كان يتعذب بسبب ذلك المبلغ، لأنه كان يدرك دناءته! أما عن تلك الثلاثة آلاف روبل، فإليكم كيف جرت الأمور. أرجو منكم أن تستمعوا إليَّ، أتوسل إليكم: قبل وقوع جريمة القتل بثلاثة أسابيع جاء إليَّ ذات صباح. كنت أعلم أنه في حاجة إلى مال، ولا أجهل سرَّ حاجته إلى المال. كان يريد، نعم، كان يريد أن يغري هذه المخلوقة وأن يرحل بها. وكنت أعرف منذ ذلك الوقت أنه خانني ويريد أن يهجرني. وعندئذ قدمت له ذلك المبلغ من تلقاء نفسي. أعطيته المبلغ

بحجة أنني أريد منه أن يرسله إلى أختي في موسكو. وحين سلمته المال أعلنت له، وعيني في عينيه، أنه يستطيع أن يرسله «بعد شهر» إذا كان ذلك يناسبه. فكيف يمكن أن لا يكون قد أيقن في تلك اللحظة أنني كنت في الواقع أقول له: «هل أنت في حاجة إلى أن تخونني مع تلك المخلوقة؟ إذن خذ المال، إنني أعطيك المال من تلقاء نفسي. خذه، إذا كنت خالياً من المروءة والشرف إلى درجة تستطيع أن تقبل المال مني». كنت أريد أن أُخجله. فماذا فعل برأيكم؟ لقد أخذ المال ومضى ليبدده بعد ذلك في ليلة واحدة، هنالك، مع هذه المخلوقة. وقد فهم مع ذلك في تلك اللحظة أنني كنت على علمٍ بكل شيء. صدقوني إنه عرف أنني كنت أريد أن أمتحنه حين أعطيته هذا المال، وأنني كنت أحب أن أعرف هل تبلغ به قلة الشرف أن يأخذ مني هذا المال. كنت أحدِّق إلى عينيه، وكان يحدِّق إلى عينيّ هو أيضاً، لكان يفهم كل شيء، كان يفهم كل شيء. ورغم ذلك أخذ المال، أخذه ومضى به.

- هذه هي الحقيقة يا كاتيا صاح ميتيا: كنت أحدِّق إلى عينيك فأدركت أنك تريدين تلطيخ شرفي بالعار. ومع ذلك أخذت المال. احتقريني. أنا إنسان شقي، وعليكم جميعاً أن تحتقروني. إنني أستحق هذا الاحتقار!

- أيها المتهم! صاح الرئيس يخاطبه. كلمة واحدة أخرى، أخرجك من القاعة.

- كان هذا المال يعذبه. واصلت كاتيا كلامها بسرعة تشنجية. صحيح، كان حريصاً على إرجاعه، ولكنه كان في حاجة إليه من أجل هذه المخلوقة. لذلك قرر أن يقتل أباه، ولكنه لم يردَّ إليَّ ديني، وإنما ذهب مع هذه المرأة إلى تلك القرية، فتم القبض عليه هناك. لقد أنفق في تلك القرية، مرةً أخرى، المال الذي سرقه من أبيه بعد أن قتله. وقبل الجريمة بيومين كان قد كتب إليَّ الرسالة. كتبها وهو سكران، أدركتُ ذلك فوراً. وكتبها عن حقد، لعلمه بأنني لن أطلع عليها أحداً، ولو ارتكب هذه الجريمة، وإلّا لما كتبها. كان يعرف أنني لن أرضى أن أنتقم منه وأن أكون سبب ضياعه. هلّا قرأتم الرسالة! اقرأوا بإمعان، لكي تعرفوا أنه قد وصف في هذه الرسالة كل شيء سلفاً، ذكر كيف سيتدبر الأمر ليقتل أباه، وذكر أين يوجد المال مخبأً، ذكر ذلك كله سلفاً. وأحب أن ألفت انتباهكم إلى إحدى عباراته خاصةً، وأرجوكم أن تقفوا عندها، وتتلبثوا عليها: «شريطة أن يكون إيفان غائباً». هل رأيتم؟ لقد قتل عن سابق تصور وتصميم، وفكَّر في جميع التفاصيل (قالت كاترينا إيفانوفنا بخبث وسوء، كأنما لتؤثر في عقول القضاة تأثيراً أقوى. واضح أنها كانت قد قرأت وأعادت قراءة كل كلمة في هذه الرسالة المشؤومة، كل سطر فيها). ولولا أنه كان في حالة سكر لما كتب إليَّ بهذه الطريقة. انظروا كيف أن كل شيء مذكور مسبقاً في هذه الرسالة، كل شيء، حتى أدق التفاصيل. كيف قتل فيما بعد، الخطة بكاملها!

هكذا كانت تصيح غضبى؛ وطبعاً كانت لا تبالي في تلك اللحظة بعواقب شهادتها. ولعلها كانت قد تنبأت بهذه العواقب منذ زمن طويل، ذلك أنها لا بد أن تكون قد تساءلت مراراً كثيرة وهي ترتعش استياءً: «أيجب عليَّ أن أقرأ هذه الرسالة في جلسة المحاكمة؟». أما وأنها عزمت أمرها، فإنها لا تأسف الآن على شيء، ولا تبالي شيئاً. أذكر أن هذه الرسالة قد تلاها كاتب المحكمة عندئذ بصوت عالٍ، فأحدثت في الجميع شعوراً بالإدانة.

وسئل ميتيا بعد ذلك هل يعترف بأنه هو كاتب الرسالة، فصاح:

- هي رسالتي، نعم، هي مني. وما كنت لأكتبها لولا السكر!.. يا كاتيا، إن كلاً منا يكره الآخر لأسباب كثيرة. ولكنني أُقسم لك، على أنني، حتى حين كرهتك، كنت لا أزال أحبك. أما أنت فلا!

قال ميتيا ذلك، وارتمى على كرسيه وهو يلوي يديه يأساً. وتناوب وكيل النيابة

والمحامي على إلقاء الأسئلة على كاترينا إيڤانوفنا، ملحّين خصوصاً على الأسباب «التي دفعتها إلى أن تسكت في بداية شهادتها عن وجود رسالة خطيرة إلى هذا الحد، وأن تدلي بتصريحات تختلف في لهجتها ومضمونها عن أقوالها الآن». فقالت كاتيا منقلبة السحنة تقريباً:

- نعم، لقد كذبتُ منذ قليل. كذبت على خلاف ما توجبه أمانتي وضميري. ولكنني أردت أن أنقذه في تلك اللحظة، لأنه كان يكرهني ويحتقرني. أوه! كان يحتقرني احتقاراً فظيعاً؛ كان يحتقرني دائماً! احتقرني منذ اللحظة التي انحنيت فيها أمامه ساجدةً في سبيل ذلك المال. رأيتُ ذلك... أحسست به فوراً، ولكنني بقيت مدة طويلة أتردد في تصديقه. كم من مرة قرأت في عينيه أنه يقول لي: «مع ذلك، أنت التي جئت إليَّ في الماضي». آه... إنه لم يفهمني، إنه لم يفهم شيئاً من سلوكي في يوم من الأيام، إنه لم يدرك سبب مجيئي إليه، لأنه لا يستطيع أن يتخيل إلّا أحقر الدوافع. لقد حكم عليَّ من خلال نفسه هو. وأضافت تقول وهي تصرف بأسنانها غضباً، لأنها كانت في حالة اندفاع شديد: أعتقد أن جميع الناس مثله. ولم يخطر بباله أن يتزوجني بعد ذلك إلّا لأنني ورثت ثروة. ذلك هو السبب، ذلك هو السبب! لقد قدرت دائماً أن ذلك هو السبب الحقيقي! آه هذا وحش مفترس. أعتقد أنني سأبقى طوال حياتي أرتعش أمامه خجلاً من أنني ذهبت إليه في الماضي، وأنه سيستطيع أن يحتقرني لهذا وأن يتسلط عليَّ. ذلك هو السبب في أنه أراد أن يتزوجني، ذلك هو السبب! هذا ما حدث، أؤكد لكم أن هذا ما حدث! حاولت أن آخذه بالحب، بحبٍ لا نهاية له، حتى لقد كنت مستعدةً لأن أغفر له خيانته. ولكنه لم يفهم شيئاً، لم يفهم شيئاً أبداً! وهل هو قادر على أن يفهم أي شيء؟ هذا مخلوق مسخ! وصلتني منه هذه الرسالة في صباح الغد، جاؤوني بها من الكاباريه، بينما كنت في ذلك الصباح نفسه أستعد لأن أغفر له كل شيء، حتى خيانته!

بالطبع حاول رئيس المحكمة ووكيل النيابة أن يهّدئاها. وإني على يقين أنهم جميعاً كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بالخجل من استغلال اندفاع المرأة الشابة هذا الاستغلال، ومن الاستماع إلى اعترافاتها. أذكر أن رئيس المحكمة ووكيل النيابة قالا لها: «نحن نفهم مدى ما تعانين من ألم، وثقي أننا نشاطرك هذا الألم» الخ. ولكن هذا لا ينفي أنهما انتزعا منها شهادة بينما كانت في حالة هستيرية، ولا تستطيع السيطرة على نفسها ولا تتحكم في سلوكها. ووصفت أخيراً بوضوح تام - وهذا ما يظهر في كثير من الأحيان، «ولو بشكل عابر»، في لحظات التوتر النفسي الشديد الذي من هذا النوع - كيف أن إيڤان فيودوروفتش قد أصبح مجنوناً خلال الشهرين الأخيرين بسبب الفكرة التي استبدت به، وهي أن عليه أن «ينقذ أخاه، «هذا المسخ، هذا القاتل».

- كان يعذب نفسه. هتفت تقول: وكان يريد أن يخفف ذنب أخيه معترفاً لي أنه كان هو أيضاً لا يحب أباه، وأنه ربما كان يتمنى موته. هذا إنسان ذو ضمير حي! لقد مرض من كثرة ما عانى من عذاب الوجدان والضمير. قال لي كل شيء، كل شيء إطلاقاً! كان يأتي إلى منزلي يومياً فيتحدث إليَّ حديثه مع صديقته الوحيدة! (هتفت فجأة بنوع من التحدي وقد سطعت عيناها) لقد ذهب إلى سمردياكوف مرتين. وفي ذات يوم جاء إليَّ فقال لي: «إذا لم يكن القاتل أخي بل سمردياكوف (ذلك أن الأسطورة القائلة بأن سمردياكوف قد يكون هو القاتل، كانت قد أُطلقت في الناس)، فمن الجائز أن أكون أنا أيضاً جانياً، لأن سمردياكوف كان يعرف أنني حاقد على أبي وأنني أتمنى موته». وعندئذ أخرجت تلك الرسالة فأطلعته عليها. فلما قرأها اقتنع بأن أخاه هو القاتل، فإذا بهذه الفكرة تحطم نفسه أخيراً. لم يستطع أن يتصور أن يكون أخوه قاتل أبيه. وقد لاحظت، منذ أسبوع، أن ذلك أوقعه في المرض فعلاً. وفي الأيام الأخيرة كان يهذي أثناء زيارته لي. وأدركت أنه في الطريق إلى الجنون. كان يهذي وهو يسير، وقد شوهد هائماً على وجهه محدثاً نفسه في

شوارع مدينتنا. وحين عاينه، أمس الأول، تلبيةً لطلبي، الطبيبُ الاختصاصي الذي جاء إلى مدينتنا، قال لي إنه على وشك أن يُصاب بالحمى الحارة. ذلك كله بسببه، بسبب هذا المسخ. وفاقم الأمر أنه علم أمس أن سمردياكوف قد انتحر، فأحدث هذا النبأ في نفسه أثراً أفقده عقله... وذلك كله بسبب هذا الشيطان، بسبب رغبته في إنقاذ هذا الشيطان المسخ.

إنه معلوم أن المرء لا يمكن أن يتكلم بهذه الطريقة وأن يدلي باعترافات من هذا النوع إلّا مرةً واحدة طوال حياته، في اللحظات التي تسبق الموت مثلاً، أو حين يصعد إلى المشنقة. لكن كاتيا كانت في حالة من هذا النوع، كانت لحظة حياتها. إنها في الواقع تلك الفتاة الجامحة نفسها التي ارتمت على رجلي رجل فاسق إنقاذاً لأبيها، إنها كاتيا نفسها التي ارتضت منذ قليل أن تضحي على رؤوس الأشهاد بحيائها، هي العفة الطاهرة ذات الأنفة، فقصت قصة «السلوك النبيل الذي سلكه ميتيا»، لا لشيء إلّا أن تخفف المصير الذي ينتظره. وهي بهذه الطريقة نفسها، وعلى هذا النحو، إنما تضحّي بنفسها الآن، ولكن في سبيل رجل آخر، في سبيل رجلٍ لعلها أدركت لأول مرة في تلك اللحظة مدى ما تكنّ له من محبة. تضحّي بنفسها في سبيله مخافة أن يكون قد أساء إلى شرفه وإلى سمعته حين قال إنه هوالقاتل. لقد بدا لها أنه بشهادته قد ضيَّع نفسه، فهي تضحي بنفسها لتنقذه هو، لتنقذ اسمه وسمعته! لكن هناك سؤالاً مقلقاً يطرح نفسه: لقد كذبت قبل ذلك حين تكلمت على عواطفها نحو ميتيا، وهل تجنّت عليه حين وصفت موقفه منها؟ لا، لا، إنها لم تندد به عمداً حين صرخت قائلة إنه يحتقرها بسبب التحية الساجدة التي حيته بها في الماضي! لقد كانت تؤمن بذلك بصدق، لقد كانت مقتنعة، ربما منذ حيته بتلك التحية، أن ميتيا، هذا الطفل البسيط الطيب الذي كان يحبها حتى العبادة في ذلك الأوان، قد احتقرها وسخر منها واستهزأ بها. وهي ما تعلقت به ولا أحبته ذلك الحب الهستيري المصطنع إلّا من قبيل الكبرياء فقط. إن ذلك الحب، الذي نشأ عن زهو جريح، كان أقرب إلى الانتقام منه إلى الحنان. صحيح أن هذه العاطفة كان يمكن أن تتحول إلى حب حقيقي، وكانت كاتيا تتمنى ذلك بحرارة على كل حال، ولكن ميتيا أساء إليها بخيانته إساءة عميقة، وأهانها، فلم تستطع نفس الفتاة المتغطرسة أن تسامحه. وحلَّت ساعة الانتقام، بشكل لم تكن تتوقعه هي نفسها، فإذا بالأحقاد التي تراكمت في قلب المرأة المهانة بشكل مؤلم خلال هذه المدة الطويلة، إذا بهذه الأحقاد تتدفق دفعةً واحدة فجأة. إن كاتيا تخون ميتيا الآن، ولكنها تخونه بخيانة نفسها! وطبيعي أن التوتر العصبي قد زال منذ أفصحت عما يختلج في قلبها فأخذ يستولي عليها الشعور بالعار. لقد أصيبت عندئذ بنوبة عصبية جديدة، فتهاوت على مقعدها وهي تبكي وتئن. فاضطروا إلى نقلها من القاعة. وفيما كانوا يبعدونها أسرعت غروشنكا نحو ميتيا صارخة قبل أن يتسع وقت أحد لصدِّها والسيطرة عليها:

- ميتيا! إن هذه الأفعى قد قضت عليك! أضافت وهي ترتجف غضباً وتتجه بكلامها إلى أعضاء المحكمة. ها هي الآن تظهر على حقيقتها. وبأمرٍ من رئيس المحكمة، أُمسكت غروشنكا واقتيدت إلى خارج القاعة. كانت تقاوم وتتخبط وتندفع نحو ميتيا. فأخذ ميتيا يصرخ هو أيضاً، وقام بحركة مباغتة ليلحق بها. فأمسكوه وسيطروا عليه.

أفترض أن سيداتنا اللواتي جئن إلى جلسة المحاكمة كمشاهدات، كنَّ راضيات: لقد كان المشهد غنياً. أذكر بعد ذلك أن الطبيب الاختصاصي الوافد من موسكو قد ظهر في تلك اللحظة. يبدو أن رئيس المحكمة كان قد كلف الحاجب باستدعائه لإسعاف إيڤان فيودوروفتش. قال الطبيب للمحكمة إن إيڤان فيودوروفتش مصاب بنوبة خطرة جداً من نوبات حمى حارة، وإن من الواجب صرفه فوراً. وجواباً عن أسئلة ألقاها عليه وكيل النيابة والمحامي، صرَّح بأن المريض قد جاء يستشيره في أمر مرضه منذ يومين، وبأنه قد تنبأ له بنوبة حمى حارة وشيكة الحدوث، ولكن إيڤان فيودوروفتش رفض أن يُعالَج. قال الطبيب: «لقد كان منذ ذلك الحين مريضاً جداً. واعترف لي هو نفسه بأن أشباحاً تتراءى له، فتارةً

يرى في الشارع أشخاصاً ماتوا منذ زمن بعيد، وتارة يزوره في المساء ابليس». وانصرف طبيب الأمراض العقلية بعد أن انتهى من عرض آرائه. وضُمَّت الرسالة التي قدمتها كاترينا إيڤانوفنا، إلى وثائق الإثبات. وتشاور أعضاء المحكمة، فقرروا أن يواصلوا المناقشات، ودُوِّنت الشهادتان اللتان لم تكونا متوقعتين (أعني أقوال كاترينا إيڤانوفنا وإيڤان فيودوروفتش) في محاضر المحاكمة.

لكني لن أسرد تتمة وقائع الاستجوابات. فإن أقوال الشهود الذين سُمعت شهاداتهم بعد ذلك لم تأت بشيء جديد، ولم تزد على تكرار ما عرفه القارىء حتى الآن، مع بعض الفروق الطفيفة الشخصية. وأقول مرةً أخرى: إن جميع الشهادات قد لخصتها مطالعة وكيل النيابة التي سأعرض لها حالاً. وحسبي أن أشير هنا إلى أن الحضور كانوا يرزحون تحت وطأة انفعال شديد عنيف من هول المصيبة، وكان الجميع ينتظرون خاتمة المأساة وخطابَي الاتهام والدفاع بقلوب محروقة بنفاد الصبر. وكان يبدو على فيتوكوفتش أن أقوال كاترينا إيڤانوفنا قد أرهقته. أما وكيل النيابة فكان يبدو منتصراً. عندما انتهت مداخلات الشهود رُفعت الجلسة نحو ساعة. وأعلن الرئيس فتح باب النقاش. وأظن أنها كانت الساعة الثامنة مساءً حين بدأ المدعي العام، هيبوليت كيريلوفتش إلقاء مطالعته.

VI

مطالعة النائب العام

التمييز

بدأ هيبوليت كيريلوفتش مطالعته وجسده يرتعش بنوبات عصبية، وكان يتصبب عرقاً مرضياً بارداً على صدغيه، ويتعرض لنوبات باردة وحارة. هذا ما وصفه هو نفسه، فيما بعد. كان يرى أن هذا الخطاب هو إنتاجه وأفضل ما أنتجه في حياته، وهو كنشيد البجعة قبيل مماته. وقد مات هيبوليت كيريلوفتش فعلاً بعد ذلك بتسعة أشهر، من سلٍ خبيث لم يمهله طويلاً، فلعله كان على حق حين شبه نفسه ببجعة تغني قبل موتها. لقد وضع في هذه المطالعة كل قلبه، ووضع فيها كل ذكائه أيضاً، وبرهن في هذه المناسبة على أنه يملك حساً وطنياً اجتماعياً لم يكن متوقعاً منه، وأنه يهتم هو أيضاً «بالمشكلات الحادة»، على الأقل في حدود قدرة صاحبنا المسكين على فهمها. وقد أعجب الناس بصدقه خاصة: كان هيبوليت كيريلوفتش يؤمن فعلاً بأن المتهم هو الجاني، فكان لا يتهمه ويطالب بإنزال «العقاب» في الحال بحكم ما تقتضيه منه مهنته فحسب، بل كان مقتنعاً بما يقول، وكان هائماً بعاطفة «إنقاذ المجتمع». إن النساء من جمهور المشاهدين، وهنَّ يعادين بمشاعرهن هيبوليت كيريلوفتش، لم يخفين الأثر العميق الذي أحدثه خطابه في نفوسهن. ولقد بدأ وكيل النيابة إلقاء خطابه بصوت متوتر متقطع، ولكنه صوت ما ينفك يقوى ويثبت شيئاً فشيئاً، ثم يدوِّي في القاعة كلها إلى نهايته. ومع ذلك أوشك هيبوليت كيريلوفتش أن يُغمى عليه حين انتهى من إلقاء الخطاب. بدأ وكيل النيابة مطالعته هكذا:

سادتي المحلَّفين! إن القضية التي ننظر فيها اليوم قد أحدثت ضجة كبيرة في» روسيا كلها. ولكن فيم نُدهش وفيم نروَّع خاصة؟ نحن وخاصة نحن؟ ألم نألف هذا النوع من القبائح منذ زمن طويل؟ إن أشنع ما في الأمر هو أن فظاعات مثل هذه قد أصبحت لا تهز نفوسنا! ذلك هو بلاؤنا! وإن هذا التعود على الشر هو ما ينبغي أن نحزن له، لا هذه أو تلك من الجرائم يرتكبها هذا أو ذاك من المجرمين. فما هي أسباب عدم اهتمامنا، ما هي أسباب عدم انفعالنا إزاء جرائم من هذا النوع، جرائم هي في حقيقة الأمر علامات شر تنذر بمستقبل قاتم؟ هل ترجع تلك الأسباب إلى ما أصبحنا نتصف به من استهتار واستخفاف، هل ترجع إلى أن العقل والخيال قد نضبا نضوباً مبكراً في مجتمعنا هذا الذي ما يزال فتياً وقد تهرَّأ قبل الأوان؟ أهل نعزو عدم انفعالنا وقلة اكتراثنا إلى أن مبادئنا الأخلاقية قد اهتزت، اللهم إلّا أن تكون هذه المبادىء الأخلاقية أموراً تعوزنا أصلاً؟ لست أريد أن أجيب عن هذه الأسئلة، ولكن يجب أن نعترف بأنها أسئلة مقلقة، وبأن كل مواطن يستحق اسم المواطن، لا يحق له أن يطرحها فحسب، بل يجب عليه أن يطرحها أيضاً. إن صحافتنا التي ما تزال في بداياتها، والتي تُظهر شيئاً من التهيب في بعض الأحيان لهذا السبب، قد قدمت للمجتمع من هذه الناحية خدمات كبيرة، فلولاها لما استطعنا أن نعرف كل ما يعيث في بلادنا فساداً من انحلال الارادة وفساد الأخلاق. إنها تطلعنا على الأنباء في أعمدتها كلَّ يوم، وبذلك لا تقتصر معرفةُ الواقع المرير على الذين يحضرون المحاكمات التي يُعتبر نشر وقائعها من حسنات النظام القائم، وإنما تتعداهم إلى جميع المواطنين بغير استثناء. فماذا

نقرأ كل يوم في هذه الصحف؟ مع الأسف! إننا نقرأ في هذه الصحف أنباءً عن جرائم يفوق هولها هول القضية التي ننظر فيها اليوم، وليست هذه القضية بالقياس إليها إلّا حدثاً تافهاً. وأخطر ما في الأمر أن عدداً كبيراً من قضايانا الجنائية الوطنية، قضايانا الروسية، يدل على نوع من سقوط جماعي عام هو بلاء مشترك بيننا جميعاً، بلاء رسخ في أخلاقنا وعاداتنا رسوخاً عميقاً، فأصبحت محاربته أمراً عسيراً. ضابط شاب لامع ينتمي إلى الأوساط الأرستقراطية. إنه في بداية حياته وبداية مهنته. ها هو ذا لا يتردد، في ذات يوم، في ذبح موظف بسيط متواضع كان قد قدَّم له خدمة، وفي ذبح خادمة هذا الموظف، دون أن يشعر بشيء من الخجل، ودون أن يحس بشيء من عذاب الضمير، وذلك ليسترد من هذا الموظف سنداً كان حرَّره له اعترافاً منه بدينه عليه؛ ثم هو ينتهز الفرصة، فيسرق ما يجده في منزل القتيل من مال، قائلاً لنفسه: «سيفيدني هذا المال في الاستمرار في معاشرة المجتمع الراقي، وسيسهِّل ارتقائي في وظيفتي تبعاً لذلك»؛ حتى إذا انتهى من الإجهاز على ضحيتيه، لم ينسَ أن يضع تحت رأسيهما وسادة، وانصرف. وإليكم مثلاً آخر: شاب بطل يزدان صدره بأوسمة حصل عليها لشجاعته. ها هو يقتل في الطريق، كما يفعل قاطع الطريق، أمَّ رئيسه المحسن إليه؛ ومن أجل أن يطمئن شركاءه في الجريمة، ومن أجل أن يشجعهم على مشاركته في ارتكاب الجريمة، يقول لهم: «إن هذه المرأة تحبني كابنها، ولهذا ستتبع نصائحي دون أن تتخذ أي احتياط». صحيح أنه شاذ. ولكنني لا أجرؤ على أن أقول إنه حالة مفردة في هذا العصر الذي نعيش فيه. وهناك آخرون قد لا يقتلون، ولكن نفوسهم ملأى بهذه الرغبات نفسها التي تجيش بها نفس ذلك المجرم، وهم خالون من الشرف خلوَّه هو منه، ولعلهم حين ينفردون بأنفسهم يتساءلون: «ما هو الشرف؟ أليس الخوف من سفك الدم وهماً من الأوهام الباطلة؟». قد تأخذون عليَّ أنني متشائم، وأنني أجتر رؤًى مظلمة، وأشهِّر بالناس بخبث، وأغالي في وصف الشر الذي ألاحظه مغالاة هذيان! آه... كم أتمنى يا إلهي أن يكون هذا المأخذ قائماً على أساس صحيح!. لكم أن لا تصدّقوني إذا شئتم، ولكم أن تعتبروا قلقي هذا وخوفي مرضاً، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم: إذا لم يكن في أقوالي إلّا عُشر من صدق، فذلك وحده رهيب! هل فكرتم، أيها السادة، في العدد المروِّع من الشباب الذين ينتحرون في بلادنا؟ إنهم يقتلون أنفسهم بدون كلام، دون أن يتساءلوا، كما فعل هاملت، عمَّا سيصيرون إليه بعد الموت. كأن مشكلة النفس الإنسانية، مشكلة المصير الذي ينتظرنا في الحياة الآخرة، أصبحت غريبة عن عقولهم، فهم قد نسَوا ودفنوا هذا النوع من الاهتمامات والتساؤلات منذ زمان طويل. وانظروا، بعدُ، إلى فساد أخلاقنا وتحلل عاداتنا الذي يتجلى لدى الفاسقين من أبناء مجتمعنا. إن فيودور بافلوفتش، الشقيَّ المجنيَّ عليه في هذه القضية، يمكن أن يعد طفلاً بريئاً إذا قيس بأولئك الفاسقين الماجنين، ولقد عرفناه جميعاً، «وكان واحداً منا»... قد يأتي يوم تنكب فيه عقول متفوقة، في بلادنا وفي البلاد الأخرى، على دراسة سيكولوجية المجرم الروسي، لأن الموضوع يستحق عناء الدرس طبعاً. ولكن هذه الدراسة ستحصل في المستقبل، حين يهدأ البال ويطمئن العقل، حين تصبح ضروب المآسي التي يعاني منها عصرنا مجرد ذكرى، فيكون من الممكن عندئذ أن تُدرس دراسةً فيها من الإنصاف والعدل والحياد ما لا يستطيعه رجال مثلي في هذا الأوان؛ نحن الآن مروَّعون، أو نحن نتظاهر بأننا مروّعون، مع تلذذنا بمشهد الجريمة، لأننا نحب الأحاسيس الشاذة العنيفة التي توقظ نفوسنا من الخدر وتهز ما نعانيه من قلة الانفعال وكثرة الاستهتار؛ أو قولوا أيضاً إننا أشبه بأطفال صغار، نطرد الرؤى المرعبة بحركة من يدنا، وندفن وجهنا في الوسادة إلى أن تغيب تلك الرؤى المرعبة، عازمين على أن ننساها فوراً بالأفراح واللعب. ولكن لا بد لنا مع ذلك من أن نعزم أمرنا مرةً على أن نأخذ الحياة على محمل الجد، وعلى أن نفكر في ما توجبه علينا الحياة وما تقتضيه منا. لا بد لنا أن نفكر وأن نتأمل وأن نحاسب أنفسنا لكي نتمكن أن نفهم، أو لنحاول أن نفهم، على الأقل، ما يجري في مجتمعنا. إن كاتباً كبيراً من كتّاب عهد قريب، قد شبَّه روسيا، في خاتمة كتابه الرائع، بعربة ترويكا تعدو بسرعة نحو غاية مجهولة، فهتف يخاطبها قائلاً: «أيتها الترويكا، يا طائراً

سريعاً، من الذي أوجدك؟» وأضاف يقول في اندفاعة كبرياء وزهو: «إن الشعوب لتتنحى باحترام عن طريق الترويكا الجبارة. ليكن، أيها السادة! لنسلم بأن الشعوب تتنحى أو لا. ولكنني أعتقد، في رأيي المتواضع، أن الفنان العبقري قد استعمل هذه الصورة وهو في حالة اندفاع مثالي طفولي يُغفر له، أو لعله لجأ إلى هذه الصورة لأنه كان يخشى الرقابة على المطبوعات في ذلك العهد؛ إذ لو أنه لم يشد إلى هذه الترويكا سوى أبطال روايته نفسها، أمثال سوباكيفتش ونوزدريوف وتشيتشيكوف، كان يمكن أن تقودنا الترويكا أياً كان الحوذي الذي يقودها؟ وأشك أن تستطيع هذه الخيول أن تقودنا إلى مكان مقبول. وتلك مع ذلك خيولٌ من عهد غابر لا تضاهي خيول هذا الزمان. وقد رأينا بعدها كثيراً...».

هنا قطع خطابَ هيبوليت كيريلوفتش تصفيقٌ من الجمهور. لقد سُرّ الجمهور مما في صورة الترويكا هذه من لبرالية. ولكن التصفيق الذي انطلقت به الأكف كان متفرقاً هنا وهناك، لذلك لم يرَ رئيس المحكمة أن عليه أن «يهدد بإخلاء القاعة»، واقتصر على أن يرشق الأشخاص المذنبين بنظرة قاسية. غير أن هيبوليت كيريلوفتش قد تشجع. إنه لم يُصفَّق له حتى الآن يوماً في حياته. لقد ظل الناس سنين طويلة يرفضون الاصغاء إليه، وها هو يستطيع أن يُسمع صوته روسيا كلها! وتابع وكيل النيابة خطابه فقال:

«في الواقع ما هي عائلة كارامازوف هذه التي اكتسبت في روسيا كلها، شهرةً سوداء؟ ربما أبالغ قليلاً، ولكنه يبدو لي أن حياة هذه العائلة تعكس عناصر بارزة يتميز بها مجتمعنا المثقف المعاصر؛ صحيح أنها تعكسها مصغَّرة مكروسكوبياً، كما «تعكس الشمسَ قطرةُ ماء»، ولكننا نجد فيها قبساتٍ ذات دلالة. انظروا أولاً إلى ذلك العجوز الشقي، الفاسق الجريء، ذلك «الأب» الذي لقي مصيراً بائساً. لقد بدأ حياته طفيلياً رغم نبالة مَحْتِده؛ وأتاح له زواج موفق لم يكن يأمله، أن ينال مهراً هو رأس مال لا بأس به. لم يكن الرجل في ذلك الحين إلّا غشاشاً ضيِّق المدى ومهرِّجاً يتملق الأقوياء، لكنه يملك مزايا ذكاء تُجحد. وهو قبل كل شيء مرابٍ. وتنقضي السنون، فيتضاعف رأس ماله، يرفع رأسه شيئاً بعد شيء. وتختفي المذلة وتزول المراوغة، ولا يبقى من الرجل إلّا إنسان فاجر يغوص في العهر، إنسان شرير خبيث. غابت الحياة الروحية من نفسه غياباً تاماً لا رجعة لها بعده، وأصبح ظمأه إلى اللذة لا حدود له، وأصبح لا يرى في الوجود إلّا المباهج والملذات؛ وبهذه الروح ربَّى أولاده، أما الواجبات الأخلاقية التي تقع على عاتق أب فإنه لم يعبأ بها. إنه لا يبالي أبناءه، بل يتركهم في الفناء الخلفي من منزله، ويعتبر نفسه سعيداً حين يُنتزعون منه. ثم ينسى وجودهم آخر الأمر بشكل تام. إن قاعدة السلوك التي ارتضاها هذا الرجل لنفسه وأخذ بها تلخَّص في قول القائل: من بعدي الطوفان! إن نظراته ومفاهيمه تجعل منه نقيض المواطن، فهو يعيش خارج المجتمع، في عزلة تشبه أن تكون معادية للمجتمع، ولسان حاله يقول: «ألا فليهلك المجتمع كله، شرط أن أكون أنا بخير». ولقد كان بخيرٍ فعلاً، فهو راضٍ عن مصيره، مغتبط بما ناله، يتمنى بقوة أن يعيش عشرين سنة أخرى أو ثلاثين سنة أخرى. وهو يغبن ابنه ويسلبه حقه؛ وبالمال الذي آل إلى الفتى من ميراث أمه ورفض الأب أن يردَّه إليه، يحاول الأب أن ينتزع من الابن عشيقته. لا، لن أترك عبء الدفاع عن المتهم للمحامي اللامع الذي وفد إلينا من بطرسبورغ! سأقول الحقيقة بنفسي، لأنني أفهم الاستياء والحقد اللذين راكمهما هذا الأب في نفس ابنه. ولكن كفانا ما قلناه عن ذلك العجوز، لأنه قد عوقب على آثامه عقاباً كافياً. ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الأب من معاصرينا. أتقولون إنني أهين المجتمع إذا زعمت أنه واحد من عدد كبير من الآباء المعاصرين؟ مع الأسف! ما أكثر الآباء الذين لا يمتازون عليه، في عصرنا هذا، إلّا بأدب أرهف يمنعهم من أن يفصحوا عن أنفسهم بذلك الاستهتار نفسه، بينما هم في الواقع يشاطرونه آراءه! لنسلِّم جدلاً بأنني متشائم. لقد اتفقنا على أن تعذروني هذه المرة. فليكن مفهوماً منذ الآن أنكم قد لا تصدقونني، ولكنني سأعبِّر عن آرائي تعبيراً حراً، وسأقول كل ما أعتقد به في قرارة نفسي. لكم ألّا تصدقوني. ولكن شيئاً مما سأقوله سيبقى في نفوسكم مهما يكن من بدّ. لننتقل الآن إلى أبناء ذلك

العجوز، ذلك الأب الذي هو رب أسرة: إن واحداً منهم يجلس الآن أمامكم على بنك المتهمين، وسأتحدث عنه، فيما بعد، حديثاً أطول. أما الآخران، فسأوجز الكلام عليهما. إن أكبرهما هو واحد من شبابنا الذين يتمتعون بثقافة ممتازة وذكاء عظيم، ولكنه لا يؤمن بشيء، لأنه كان قد نبذ أموراً كثيرة قبل ذلك، كأبيه تماماً. إننا نعرفه جميعاً: لقد استُقبل بحرارة في مجتمعنا، وأحسنت وفادته. وكان لا يخفي آراءه. بالعكس: كان يجاهر بها، وذلك يجيز لي أن أتكلم عليه اليوم بشيء من الصراحة، فأحلله لا من حيث هو شخص مفرد طبعاً، بل من حيث هو واحد من أسرة كارامازوف. لقد انتحر بالأمس، في الطرف الأقصى من المدينة، رجلٌ شقي ضعيف العقل، مرتبط بهذه القضية ارتباطاً وثيقاً، هو الخادم القديم وربما الابن غير الشرعي لفيودور بافلوفتش. أقصد سمردياكوف. لقد روى لي ذلك المسكين، أثناء التحقيق الأوّلي، وهو يبكي، كيف أن هذا الشاب كارامازوف، أعني إيفان فيودوروفتش، قد روّعه بإباحية تفكيره. كان يقول له: «كل شيء مباح، كل شيء مشروع، كل ما قد يشتهيه الإنسان في هذا العالم حلال، وما ينبغي أن يحرّم شيء بعد الآن». ذلك ما كان يعلّمه اياه. ويظهر أن هذا الرجل الضعيف العقل قد فقد صوابه نهائياً بتأثير هذه الأفكار، قد أثر في حالته العقلية كذلك، وأن تكون المأساة الرهيبة المروّعة التي وقعت بالمنزل قد أسهمت في اختلال عقله. ومع ذلك فإن هذا الأبله قد ساق في يوم من الأيام ملاحظة هامة يمكن أن يفاخر بمثلها رجل أذكى منه، ولذلك أذكرها هنا. لقد قال لي: «بين جميع أبناء فيودور بافلوفتش، لا شك أن الذي يشبهه في طبعه أكثر من الآخرين، هو إيفان فيودوروفتش.». أريد أن أختم، بهذه الملاحظة، التحليل السيكولوجي الذي عرضته لكم، ولا أريد أن أتعجل استخراج النتائج وأن أكون المتنبىء بالشقاء لشاب في مقتبل العمر. لقد رأينا في هذه القاعة، أن القوة التي لا سبيل إلى مغالبتها، أعني قوة الحقيقة، ما تزال تؤكد نفسها في قلب هذا الفتى، وأن عواطف التعلق العائلي لم يخنقها الكفر بالدين ولا الاستخفاف بالأخلاق، وهما كفر واستخفاف يرجعان إلى الوراثة أكثر مما يرجعان إلى تفكيره الخاص. وانظروا بعد ذلك إلى أصغر هؤلاء الأبناء. إن هذا الابن ما يزال مراهقاً متواضعاً يحاول، على نقيض المفاهيم الفلسفية المظلمة التي تدفع إلى الانحلال والتي أخذ بها أبوه، يحاول أن يتعلق بما يُزعم أنه «أسس روح الشعب»، أو ما يطلق عليه في أيامنا هذه، في صفوف بعض الأوساط المثقفة في مجتمعنا، هذا الاسم الذي فيه شيء من الادعاء. لقد وجد النجاة في الاعتصام بدير، وكاد يرتدي هو نفسه مسوح الراهب. يخيَّل إليَّ أنه لا بد أن يكون قد أحس، ربما على غير شعور منه، بذلك الوجل وذلك القنوط الخائف اللذين يقاسي منهما الآن، في بلادنا الشقية، هذا العدد الكبير كله من الأشخاص الذين يروّعهم ما يشيع في مجتمعنا من استهتار، وتحلل الأخلاق. وإذ كان هؤلاء الأشخاص يعزُون الشر كله إلى الثقافة الغربية ظلماً، فإنهم يرجعون، كما يُقال، إلى «تراب الوطن»، ويسارعون إلى الاحتماء بذراعي الأرض الأم التي أرضعتهم، مثلهم كمثل أولئك الأطفال الذين روَّعتهم رؤى أشباح، فهم يلوذون بالصدور الناضبة من أمهاتهم، آملين أن يجدوا فيها هدوء النوم على أقل تقدير. وهم يتمنَّون أن يناموا طوال حياتهم، هرباً من منظر الأهوال التي تروِّعهم. إنني، من جهتي، أتمنى أطيب التمنيات لمستقبل هذا المراهق اللطيف المحبب. وآمل ألّا تنقلب مثاليته الشابة وألّا ينقلب ميله إلى الأفكار الشعبية، كما يحدث هذا في كثير من الأحيان، من وجهة نظر أخلاقية، إلى صوفية ضبابية ومن وجهة نظر وطنية الأخلاق، إلى تعصب قومي أعمى على صعيد السياسة. فهذان ضلالان يهددان ربما مستقبل أمّتنا بمصيبة من الانحلال الأخلاقي المبكر الذي ولَّدته في أخيه ثقافة غربية مفهومة خطأ ومحصلة من دون جهد».

هنا انطلقت بعض الأكف بالتصفيق من جديد، على ذكر التعصب القومي والصوفية الغيبية. وطبعاً إن هيبوليت كيريلوفتش قد استرسل في هذا الكلام بدافع الفصاحة، وإن ملاحظاته لا تمتُّ إلى القضية بأية صلة. ثم لقد كان كلامه كله غامضاً، ولكن هذا الرجل المصدور الخانق قد أراد أن يفصح عمّا بنفسه مرةً واحدة في حياته على الأقل. وقد قيل فيما بعد إنه انقاد في تحليله النفسي لإيفان فيودوروفتش لعاطفة فيها شيء من حقد، لأن

إيفان فيودوروفتش كان قد أحرجه مراراً في الأحاديث التي كانت تدور في صالونات المجتمع، فلم ينسَ هيبوليت كيريلوفتش ذلك، فاستغل هذه المناسبة من أجل أن يثأر لنفسه وأن ينتقم فيما قيل. أما أنا فإنني أتساءل هل هذا الرأي صحيح له ما يبرره. مهما يكن من أمر، فإن هذا الجزء من خطابه لم يكن إلّا استهلالاً، وسوف يأخذ الآن بمعالجة القضية من كثب. واصل وكيل النيابة إلقاء خطابه فقال:

«لكن هذا هو الابن الثالث من أبناء رب هذه الأسرة اليوم. إنكم ترَونه أمامكم جالساً على بنك المتَّهمين، وأمام أبصاركم. وأمامكم أيضاً مآثره وحياته وأعماله وسلوكه: لقد حانت الساعة التي يتضح فيها كل شيء. إنه يمثّل، خلافاً لما يمثله أخواه من اتجاهات أوروبية أو ميول شعبية، يمثّل روسيا على حالتها الطبيعية، ولكن ليس روسيا كلها من حسن الحظ! ولكننا نجد روسيا فيه، نشم رائحتها المألوفة، نكتشف حضورها! نعم، نحن أناس على حالة الطبيعة، يختلط فينا الخير والشر اختلاطاً غريباً. نحب الثقافة ونعجب بشيللر، ولكننا نتحدث عن الفضائح في الكاباريهات ونجد لذةً في جرِّ رفاق السكر من لحاهم. صحيح أننا نعرف كيف نكون أخياراً طيبين وأسخياء في المناسبات، ولكن ذلك لا يحدث لنا إلّا حين نكون سعداء راضين عن أنفسنا. نحن نحب الأفكار النبيلة، ونلتهب حماسةً لها، نعم، نلتهب حماسةً لها، ولكن شرط أن تهبط علينا من السماء دون أن نبذل جهداً، وأن لا تكلفنا شيئاً. نحن لا نريد أن نبذل لها شيئاً، نحن نكره أن نكون مجبرين على العطاء. ولكننا في مقابل ذلك نحب أن نأخذ، نحب الأخذ في جميع الميادين. لسان حالنا يقول: أعطونا، أعطونا جميع خيرات الحياة (أقول جميع الخيرات لأننا لا نرضى بأقل من ذلك)، ولا تعارضوا رغباتنا في شيء، تروا عندئذ كيف نستطيع أن نكون محببين؛ لسنا من الطماعين طبعاً، ولكننا نريد أن تُعطونا مالاً، أن تعطونا مالاً كثيراً، أن تعطونا أكبر قدر ممكن من المال: وسوف ترَون عندئذ كيف نستطيع، باحتقار نبيل كريم للمعدن الخسيس، أن نبدّده وأن نتلفه في ليلة واحدة أثناء قصف محموم. فإذا شاء سوء الحظ أن يُمنع عنا هذا المال، أظهرنا ما نحن قادرون على القيام به للحصول عليه متى اشتدت حاجتنا إليه. ولكنني أرى أنني أستبق الأمور. فلنعمد إلى عرض الأشياء مرتبة منظمة. هذا هو الصبي الصغير يتركه أبوه، «فيتسكع في الفناء الخلفي حافي القدمين»، على حد تعبير مواطننا المحترم، الذي يرجع إلى أصل أجنبي مع الأسف! أعود فأقول: إنني لن أترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم. سوف أكون المتهِم له والمحامي عنه في آن. ذلك أننا بشر نحن أيضاً، وسأعرف كيف أقيم وزناً لما تخلّفه مشاعر الطفولة وحياة المنزل الأبوي من آثار في النفس وما تتركه من بصمات على الطبع. ويكبر الصبي، فيصبح مراهقاً، ثم يصبح شاباً، ويخدم في الجيش ضابطاً. وفي أعقاب أعمال عنفٍ قام بها، وعلى أثر استفزاز إلى مبارزة، نُفي إلى مدينة صغيرة نائية، تقع قرب حدود وطننا الغني الشاسع. وهناك واصل حياته العسكرية، واسترسل في إفراطه طبعاً، فهو يلهو ويقصف ويعبث. ويلزمه الكثير من المال، لا بد له من المال قبل كل شيء. لذلك قرر، بعد مناقشات طويلة أن يتساهل مع أبيه، فقبل أن يدفع له أبوه مبلغاً أخيراً قدره ستة آلاف روبل، وقد تقاضى هذا المبلغ فعلاً. لاحظوا أن هناك سنداً ممهوراً بتوقيعه هو رسالة يصرِّح فيها أنه يتنازل عن بقية الميراث، وأنه يعتبر استلام هذه الستة آلاف روبل نهاية لخلافاته مع أبيه في شأن هذا الميراث. وفي تلك الفترة يلتقي فتاة نبيلة الطبع عالية الثقافة. أوه! أعفوني من الدخول في التفاصيل، فقد سمعتم هذه القصة هنا! أن المسألة مسألة شرف ومروءة، مسألة تضحية، فلا يسعني إلّا أن أسكت باحترام وإجلال. إن الصورة التي رُسمت لكم عن شاب هو إنسان طائش ولكنه يعرف كيف ينحني أمام نفس نبيلة صادقة، أمام مثل أعلى كريم، إن هذه الصورة قد أحببناها جميعاً وأعجبنا بها. ولكنكم قد اطّلعتم بعد ذلك بلحظات، في هذه القاعة نفسها، بشكل غير متوقع، اطّلعتم على قفا الصورة. سأمتنع هنا أيضاً عن فرض الفروض، ولن أحلل الأسباب التي دفعت الشاهدة إلى تغيير موقفها. وهي أسباب موجودة حتماً. لقد سمعنا هذه الشاهدة نفسها، وهي تبكي من آلام طال إخفاؤها، تعلن لنا أنه كان أول من ازدراها واحتقرها للعمل الذي قامت به، العمل الذي ربما كان فيه طيش وعدم

تبصُّر، ولكنه نبيل كريم الهدف على كل حال. ففي منزل هذا الشاب، خطيبها، رأت هذه الفتاة، لأول مرة، تلك النظرة التي تشتمل على معنى الاحتقار والسخرية، تلك النظرة التي لم تستطع هذه الفتاة أن تتحمّلها. وحين عرفت أنه خانها (وقد خانها لاعتقاده بأن عليها أن تحتمل منه كل شيء، حتى الخيانة)، تعمَّدت أن تعرض عليه تلك الثلاثة آلاف روبل وهي تُفهمه بوضوح، وربما بوضوح مفرط، أنها تعطيه هذا المال لتتيح له أن يذهب في خيانته إلى نهايتها. وكانت نظرتها الفاحصة تسأله: «هيه! أتقبل المال أم لا؟ أتبلغ هذا المبلغ من الاستخفاف؟» وقد قرأ هو نظرتها، وأدرك ما يخفيه تفكيرها إدراكاً تاماً (ألم يعترف في هذا المكان نفسه، أمامكم، أنه أدركه؟) ولكنه قبل الثلاثة آلاف روبل دون تردد، وأنفقها خلال يومين على لهوه في حبه الجديد. فماذا نصدق؟ هل الحقيقة قائمة في الصورة الأولى التي رُسمت لنا عنه، هل الحقيقة قائمة في أسطورة تلك الاندفاعة الكريمة التي حملت الضابط الشاب على أن يضحّي بآخر ما يملك، وعلى أن ينحني أمام الفضيلة؛ أم الحقيقة تكمن في ظهر تلك الصورة، في ظهرها الذي يبعث على الاشمئزاز؟ إنه ليحدث في الحياة عادةً أن توجد الحقيقة في الوسط، حين يكون هناك عنصران متناقضان. ولكن الأمر ليس كذلك في الحالة التي ننظر فيها الآن. وأغلب الظن أن الشاب كان صادقاً في المرة الأولى بقدر ما كان صادق الخسة في المرة الثانية. فإذا سألتموني: لماذا؟ قلت لأننا إزاء طبائع واسعة هي طبائع آل كارامازوف - وذلك ما أريد أن أصل إليه - أعني أننا إزاء أناس قادرين على أن تضم نفوسهم جميع تناقضات الحياة، وعلى أن يرنوا بأنظارهم إلى الهوّتين كلتيهما في آن، الهوة العليا التي تحلق فيها أنبل الصبوات وأرفع الأشواق، والهوة السفلى التي تغوص فيها أحقر المخازي وأدنأ أنواع السقوط. تذكروا تلك الفكرة اللامعة التي عبَّر عنها، منذ قليل، السيد راكيتين، هذا الشاب الذي أوتي موهبة الملاحظة الدقيقة، وأتيح له أن يدرس آل كارامازوف من كثب، وذلك حين قال: «إن هذه الطبائع العنيفة المسعورة تحتاج إلى الإحساس بالدناءة والسقوط كحاجتها إلى أرفع النبل». هذا صحيح: إن هذا المزيج الشاذ وهذا الخليط العجيب هما من الأمور التي يقتضيها طبعهم بغير انقطاع. لا بد لنا من هوتين اثنتين أيها السادة، هوتين اثنتين نستطيع أن نرنو إليهما معاً في آن، وإلّا شعرنا بالشقاء، لأن حياتنا بحاجة إلي الامتلاء عندئذ. نحن واسعون، واسعون سعة أمنا الطيبة روسيا؛ نحن نستطيع أن نضم في أنفسنا كل شيء، أن نضم كل شيء وأن نقبل كل شيء! بالمناسبة، أيها السادة: لقد أثرت الآن موضوع تلك الثلاثة آلاف روبل، فاسمحوا لي أن أستبق الأمور قليلاً. هل بإمكانكم أن تتصوروا أن هذا المتهم، الذي وصفت لكم طبعه، قد أمكنه في ذلك اليوم نفسه الذي أخذ فيه المال من خطيبته - لقاء مذلة كبيرة، وخزي قذر - هل في وسعكم أن تتصوروا أنه قد أمكنه في ذلك اليوم نفسه أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يعلقه بعد ذلك في عنقه خلال شهر بكامله دون أن يفتح الكيس ويأخذ المال، رغم الإغراءات التي لا حصر لها والحاجات التي لا سبيل إلى مغالبتها، رغم هذه الإغراءات وهذه الحاجات التي تحفل بها حياته؟ كيف يمكنه ألّا يمس هذه الذخيرة لا أثناء إفراطه في السكر في الكاباريهات، ولا في اللحظة التي قام فيها بمساع لا يعلمها إلّا الله في سبيل الحصول على المال من خارج هذه المدينة لكي يتمكن من السفر مع حبيبته التي يريد أن يقيها ما يريده منها أبوه، غريمه ومنافسه؟ أما أنا فأرى أنه كان لا بد له أن يفتح الكيس، ولو لم يكن له من هدف إلّا أن لا يترك هذه المرأة العزلاء أمام اغراءات أبيه الذي يغار هو منه، وأن يبقى إلى جانبها يحرسها بانتظار اللحظة التي تقول له فيها أخيراً «أنا لك»، فيستطيع عندئذ أن يهرب معها إلى حيث يبعد بها عن هذه البيئة القذرة. ولكن لا، إنه يأبى أن يمس حرزه؛ وما حجته في ذلك؟ إن الباعث الأول الذي ذكره، كما قلنا منذ قليل، هو رغبته في أن يدخر هذا المال للحظة التي ستقول له فيها: «أنا لك، فخذني إلى حيث تشاء»، فيكون في وسعه عندئذ أن يرحل معها مستعيناً بذلك المال. ولكن هذه الحجة الأولى لا قيمة لها بالقياس على الحجة الثانية، وذلك باعتراف المتهم نفسه. كان المتهم يحدث نفسه قائلاً: «ما دمت أحمل هذا المال، فإنني أكون شقياً ولكنني لا أكون لصاً، لأنني أكون قادراً في كل لحظة على أن أذهب إلى خطيبتي التي

أهنتها، وأن أضع أمامها نصف المبلغ، وأن أقول لها: «انظري! لقد أتلفت نصف مالك في اللهو والقصف، مبرهناً بذلك على أنني ضعيف مخلٌ بما تتطلّبه الأخلاق، وعلى أنني شقي إن شئت (إنني أستعمل تعابير المتهم نفسها)، ولكني، مهما أكن شقياً، لست بسارق! فلو كنت سارقاً لما رددت إليك النصف الذي بقي لي من مالك، وإنما كنت أسطو عليه كما سطوت على النصف الأول.». يا لغرابة هذا التعليل! إن هذا الرجل العنيف، ولكن الضعيف، إن هذا الرجل الذي لم يستطع مقاومة إغراء الثلاثة آلاف روبل فأخذها في ظروف تلطِّخ شرفه، يجد في نفسه فجأة قوةً تمكّنه من أن يعلّق بعنقه أكثر من ألف روبل دون أن يمس هذا المبلغ في لحظة من اللحظات! هل يتفق هذا التعليل وسيكولوجية المتهم؟ إنني لا أتردد في رفض هذا التعليل؛ وسأجيز لنفسي أن أقول لكم كيف كان يمكن أن يتصرف، في رأيي، ديمتري كارامازوف الحقيقي، إذا صدق أنه خاط على ذلك المال كيساً علقه في صدره. إنه في سبيل أن يسر المرأة الحبيبة التي كان قد أتلف معها قبل ذلك مبلغاً مماثلاً، كان سيفتح الكيس فيأخذ منه ولو مئة روبل، مثلاً، في أول الأمر، قائلاً لنفسه عندئذ: «علام أدَّخر نصف المبلغ تماماً، أي ألفاً وخمسمئة روبل؟ يكفي أن أرد إليها ألفاً وأربعمئة، فالأمران واحد» لأنه سوف يبقى قادراً على القول لها: - أنا شقي ولكنني لست لصاً، فهأنا ذا أردّ إليك ألفاً وأربعمئة روبل، بينما اللص يأخذ المبلغ كله ولا يرد منه شيئاً». وبعد مدة من الوقت، يفتح الكيس مرة أخرى ليأخذ منه مئة روبل أخرى، ثم ليأخذ منه مئة ثالثة، فمئة رابعة، وهكذا دواليك؛ فما ينقضي الشهر إلّا ويكون قد أخرج ألفاً وأربعمئة ألف روبل محتفظاً بورقة واحدة من أوراق المئة روبل قائلاً لنفسه: «يكفي أن أردَّ إليها مئة روبل، أليس الأمران واحداً؟» - أنا شقي، ولكنني لست لصاً. لقد أتلفت في اللهو والقصف ألفين وتسعمئة روبل، ولكنني أرد إليك مئة روبل رغم كل شيء، وما كان اللص أن يرد إليك شيئاً.». وفي النهاية، بعد أن يتلف تلك المئة السابقة على الأخيرة، كان سيهتف قائلاً: «علام أرد إليها مئة روبل؟ فلأنفقها كما أنفقت غيرها!» ذلك هو التصرف الذي كان سيتصرفه ديمتري كارامازوف الحقيقي، الذي نعرفه. على أن أسطورة الكيس هذه تتناقض مع الواقع إلى درجة يصعب تخيلها. يستطيع المرء أن «يتخيل أي شيء لكن ليس هذا. ولكننا سنعود إلى هذا الأمر فيما بعد.

وبعد أن عرض هيبوليت كيريلوفتش، بالترتيب، كل ما تبيَّن من التحقيق الأوّلي كل ما يمكن معرفته عن المنازعات الارثية والعلاقات العائلية بين الابن وأبيه، وبعد أن استنتجنا، أيضاً وأيضاً، أنه حسب كل الوقائع المتوفرة لدينا، ليس هناك أية وسيلة للحسم في موضوع الإرث، من حصل حصة أكبر أو أصغر. كما تحدث هيبوليت أيضاً عن التقرير الطبي، وعلاقته بالثلاثة آلاف روبل التي كانت تسيطر على أفكار ميتيا. انتقل هيبوليت كيريلوفتش إلى الكلام على الحالة النفسية التي كان عليها ميتيا حين أصبح اهتمامه بالثلاثة آلاف روبل فكرة ثابتة تحاصر ذهنه، فجاء في هذه المناسبة على ذكر تقرير الخبرة الطبية.

VII

لمحة تاريخية خاطفة

حاول تقرير الخبراء الطبيين أن يبرهن لنا على أن المتهم لم يكن يتمتع بقواه العقلية وكان ممسوساً. أنا أؤكد أن المتهم يتمتع بكل قواه العقلية، وذلك هو الأسوأ. فلو كان لا يملك قواه العقلية، لكان تصرف بشكل أكثر ذكاء. لكن كونه مصاباً بمرض «المسّ»، فذلك أمر أسلِّم به، ولكن مرض «المسّ» لا ينصب على نقطة واحدة هي تلك التي أشار إليها التقرير الطبي، أعني الفكرة التي رسخت في ذهنه عن أن أباه قد سلبه تلك الثلاثة آلاف روبل فيما يزعم. ومع ذلك نستطيع لتعليل ذلك الحقد الذي يجتاح نفسه كلما جرى الكلام على هذه الثلاثة آلاف روبل، يمكننا أن نجد تفسيراً أبسط كثيراً من هذا التفسير القائم على أن لدى المتهم استعداداً للجنون. إنني، من جهتي، أوافق الطبيب الشاب على رأيه الذي يقول إن المتهم كان يملك وما يزال جميع قواه العقلية، وأنه طبيعي سليم من الناحية السيكولوجية، ولكنه منفعل غاضب. تلك هي عقدة القضية: ليس مبلغ الثلاثة آلاف روبل، ليس المال هو السبب فيما كان يعانيه المتهم من غضب. إن هناك سبباً آخر كان يثير غضبه، وهو سبب خاص: إنه الغيرة!».

أفاض هيبوليت كيريلوفتش بشكل واسع على الرغبة القاتلة التي شدَّت المتهم إلى غروشنكا؛ وبدأ باللحظة التي ذهب فيها المتهم إلى «تلك المرأة الشابة» كي يضربها - على حد تعبيره - فإذا هو بدلاً من أن يضربها يتهاوى على قدميها. قال وكيل النيابة: «تلك كانت بداية هذا الحب. وفي ذلك اليوم نفسه ألقى العجوز، أبو المتهم، نظرة على هذه المخلوقة. تلك بداية ذلك الحب. مصادفة مشؤومة مدهشة. لقد اشتعل القلبان حباً في آن واحد، في ساعة واحدة تقريباً، مع أن كلاً منهما قد أتيح له أن يراها قبل ذلك مراراً كثيرة. وكان الحب الذي ألهب الرجلين هوى محموماً مسعوراً يتفق وطبيعة آل كارامازوف. وبالإمكان أن نصدِّق أقوال هذه المرأة الشابة التي ذكرت لنا، في هذا المكان بالذات، أنها قد سخرت الرجلين كليهما. وتلك هي الحقيقة: لقد أحبت أن تضللهما وأن تغرر بهما. لم تكن قد اشتهت ذلك من قبل، ولكن هذه الفكرة استهوتها، فإذا بالرجلين يزحفان عند قدميها. فالعجوز الذي كان حتى ذلك الحين لا يعبد شيئاً إلّا المال، هيّأ لها ظرفاً فيه ثلاثة آلاف روبل يهديه إليها متى ارتضت أن تتكرم عليه بزيارة في منزله، بزيارة لا أكثر؛ ثم إذا هو يعلن أنه مستعد لأن يلقي على قدميها اسمه وثروته متى وافقت أن تصبح زوجته الشرعية. إن أمامنا شهادات واضحة جداً في هذا الموضوع. أما المتهم فإن المأساة التي صار إليها وضعُه واضحة لنا. وهي «لعبة» هذه المخلوقة مع ذلك. إن المغوية الخطرة لم تَهَب لهذا الشاب ولو أملاً، لأنه لم يعرف أملاً، أعني لم يعرف أملاً حقيقياً، إلّا في آخر لحظة، حين ركع أمام المرأة التي سببت له تلك الآلام كلها ومدَّ نحوها يديه اللتين كانتا قد تلوثتا بدم أبيه، غريمه ومنافسه. وقد قُبض عليه في تلك اللحظة نفسها، فلما رأت أنه يعتقل، سيطرت عليها ندامة حقيقية، فصاحت: «اسجنوني معه، أريد أن أتبعه، لأنني أنا التي أوردته موارد الهلاك، لأنني أنا المذنبة!». إن السيد راكيتين، الشاب الذي يملك حساً سيكولوجياً مرهفاً والذي تحدثت عنه منذ قليل، قد تولى تحليل خفايا هذه القضية، ووصف طبع بطلتنا في بضع جمل مقتضبة، فقال: «خيبة الآمال وتبدُّد الأوهام في ميعة الصبا؛ والمقاساة من كذب البشر في سنٍّ مبكرة؛ ثم السقوط؛ وخيانة

خطيب أغواها ثم هجرها؛ وأخيراً موكب البؤس والفقر، ولعنات أسرة محترمة، والاحتماء بتاجر عجوز ما تزال تعتبره إلى هذا اليوم محسناً إليها. هكذا تجمَّع الغضب في قلبها الذي لعله عرف اندفاعات طيبة كريمة. فنشأ عن ذلك طبع ماهر في التخطيط، وميل إلى جمع المال، كما نشأ عنه موقف من المجتمع تسيطر عليه روح الخداع والاحتقار والثأر.». إن هذا التحليل السيكولوجي يتيح لنا أن ندرك كيف تمكنت هذه المرأة أن تلعب بالرجلين كليهما في آن، بدافع النزوة وحدها، لتعبث بهما بخبث ولو أدى ذلك إلى تدميرها. وفي أثناء ذلك الشهر المليء بحب لا يعرف الأمل، وبسقوط أخلاقي، وبالخيانة للخطيبة، وبالاستيلاء على مبلغ أؤتمن عليه وليس له، لا بد أن يكون المتهم قد عرف، عدا هذا، غضباً شديداً بسبب غيرة متصلة كانت تعذبه بقساوة؛ وممن كانت غيرته؟ من أبيه نفسه! وأخطر ما في الأمر أن العجوز الطائش كان يحاول أن يفتن المرأة التي تولَّه بحبها بواسطة ذلك المال نفسه الذي كان ابنه يعتبره حقاً آل إليه من ميراث أمه، ويريد أبوه حرمانه منه. نعم، إنه أمر لا يحتمل. كان يمكن أن يصاب بالمس. فليست المسألة مسألة مال لكن في الواقع، هذا المال نفسه قد يُستخدم في تحطيم سعادته!».

بعد ذلك وصف هيبوليت كيريلوفتش كيف أن رغبة المتهم في قتل أبيه قد استولت على نفسه شيئاً فشيئاً، وذكر الوقائع التي تسمح بتتبع نشوء الجريمة خطوة بعد خطوة. قال:

«في أول الأمر كنا نصرخ في الكاباريهات، ونستمر شهراً بكامله لا نعمل شيئاً غير الصراخ. إنه يحب صحبة الناس، ويحلو له أن يفضي، إلى جميع من يلقاهم، حتى بأشد أفكاره خطراً وإيذاءً، متوقعاً من هؤلاء الأشخاص الذين يسمعون لبوحه إلى حين، أن يبدوا عطفهم عليه ومودتهم له وأن يعربوا عن فهمهم لآرائه وتأييدهم لأفكاره. كان يقتضيهم، لا يدري أحد لماذا، أن يشاركوه في همومه وهواجسه، وأن يؤيدوه بشكل كلي، فلا يعارضوه في شيء، وإلّا ثارت ثائرته وأخذ يقلب كل شيء في الكاباريه (هنا ذكر وكيل النيابة الحادثة التي وقعت للمتهم مع الكابتن سنيغيريف). وقد انتهى الأمر بالذين رأوه وسمعوا كلامه خلال هذا الشهر إلى الشعور بأن ما يعلنه هذا الشاب ليس صرخات باطلة وتهديدات عقيمة، وأن ديمتري كارامازوف، وهو على ما هو عليه من اندفاع أخرجه عن طوره، قد يضع تهديداته موضع التنفيذ متى حان الوقت (وهنا وصف وكيل النيابة الاجتماع العائلي الذي عُقد في الدير، وذكر أحاديث المتهم مع إيليوشا، وصوَّر ذلك المشهد البشع الذي وقع في منزل الأب بعد الغداء يومَ اقتحم ميتيا المنزل واستعمل مع أبيه العنف ثم تابع وكيل النيابة كلامه). لست أمضي إلى حد الادعاء أن المتهم كان، قبل وقوع مشهد العنف هذا، قد فكر في الجريمة ملياً، وعزم قاطعاً على ارتكابها. ولكنني أقول إن فكرة القتل هذه قد راودته مراراً وأنه قد فكر فيها بكامل وعيه، وهذا ما تشهد عليه الوقائع، وأقوال الشهود، كما اعترافاته هو نفسه. إنني أعترف لكم، يا سادتي المحلَّفين، أنني ظللت حتى هذا اليوم أتردد في اتهام الرجل بأنه ارتكب، عن سابق تصور وتصميم، جريمة القتل هذه التي كان يشعر بأنه مدفوع إليها. صحيح أنني كنت مقتنعاً بأنه فكر مراراً في أن يقدم في المستقبل على إنهاء القضية بهذه الخاتمة المأسوية، ولكنني كنت مقتنعاً بأنه لم يفكر في هذا الحل إلّا على أنه احتمال قد يتحقق، دون أن يحدد لتنفيذه يوماً بعينه، وطريقة بعينها. وقد زالت اليوم تردداتي هذه، عندما قرأت تلك الوثيقة الحاسمة التي قدمتها الآنسة فرخوفتزيفا إلى المحكمة. لقد سمعتم يا سادتي كيف صاحت تقول: «هذه خطة قتل!» بهذا وصفت تلك الرسالة المشؤومة التي كتبها هذا الرجل العاثر الحظ وهو في حالة سكر. والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك خطة، وعلى أن الجريمة قد ارتكبت بتصميم. لقد كتبت هذه الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين، ومعنى هذا أن المتهم قد أقسم، قبل تنفيذه خطته الرهيبة بثماني وأربعين ساعة، أنه إذا لم يتمكن من الحصول على المال في الغد، فسيقتل أباه ليستولي على المبلغ المخبأ تحت الوسادة في ظرف مربوط بشريط وردي اللون، «شرط أن يكون إيفان غائباً». هل

سمعتم؟ «شرط أن يكون إيفان غائباً». كان إذن في تلك اللحظة قد حدَّد جميع تفاصيل التنفيذ، وقدَّرجميع الاحتمالات. ونحن نعلم أن الجريمة قد تم تنفيذها بعد ذلك على هذا النحو نفسه الذي ورد وصفه في الرسالة! إن التصور والتصميم واضحان: لقد ارتُكبت الجريمة بقصد السرقة. المتهم نفسه أعلن هذا وكتبه بخط يده وذيَّله بتوقيعه. ولم يُنكر المتهم توقيعه. فإذا قيل إنه كان في تلك اللحظة سكران، قلت إن ذلك لا يقلل من خطورة الأمر شيئاً. بالعكس: لقد كتب وهو في حالة السكر ما سبق أن فكر فيه ملياً وهو في حالة اليقظة. فلولا أنه اتخذ هذا القرار قبل أن يسكر، لما أظهر نياته وفضح نفسه حين أثر فيه السكر. وقد يقال أيضاً: فلماذا أعلن نياته قبل ذلك جهاراً في الكاباريهات؟ إن الذين يريدون ارتكاب جريمة عن سابق تصور وتصميم حقاً، يسكتون في العادة، ويكتمون ما يجول في أذهانهم! هذا صحيح، ولكن المتهم لم يكن يقوم بذلك الصراخ إلّا حين لم يكن لديه خطة مبيتة وبرنامج مدبر، وإنما كان يشعر بمجرد الرغبة في القتل والميل إلى القتل. ولقد أصبح بعد ذلك لا يتكلم على هذا الأمر إلّا قليلاً. وفي المساء الذي كتب فيه تلك الرسالة، بعد أن سكر في كاباريه «العاصمة الكبرى»، بدا صامتاً على غير عادته، ولم يلعب البلياردو، وبقي منتحياً لا يقترب من أحد، ولا يخاطب أحداً، واكتفى بأن صفع مستخدماً صغيراً يعمل في محل تجاري. ثم إنه قد فعل ذلك على غير شعور منه تقريباً، لأنه كان يستحيل عليه أن لا يتشاجر مع أحد في كاباريه. صحيح أن المتهم، حين قرَّر ارتكاب الجريمة، لا بد أن يكون قد ساوره خوف من أنه أسرف في الكلام بالمدينة قبل ذلك، لأن ما قاله يمكن أن يكون شهادةً عليه بعد تنفيذ خطته، ولكن لم يكن له في الأمر حيلة، فقد فات الأوان وليس في وسعه أن يستعيد الأقوال التي أفلتت من لسانه. وقد راعاه الحظ حتى ذلك الحين، فما يزال يعتمد على الحظّ. لقد كان أملنا كبيراً بنجمنا! على أن من واجبي أن أعترف أنه قد بذل جهوداً كثيرة في سبيل أن يتحاشى اللحظة المشؤومة، وأنه بذل جهوداً كبيرة كي يتجنب الحل الدموي. كتب يقول بتلك اللغة الخاصة به: «سأحاول في الغد أن ألتمس ثلاثة آلاف روبل لدى جميع الناس، فإن لم يتجاوبوا معي، فسوف يسيل الدم». مرة أخرى، كتب وهو في حالة السكر ومرة أخرى، أنجز في حالة الصحو، بالوضوح نفسه الذي كتب فيه.«.

انتقل هيبوليت كيريلوفتش إلى الدراسة التفصيلية لكل الجهود التي قام بها ميتيا في سبيل الحصول على المال وتجنب الجريمة. روى مساعيه لدى سامسونوف، والرحلة التي قادته إلى عند لياغافي، مستنداً بذلك إلى الوثائق. عاد إلى المدينة أخيراً وقد انهارت قواه، وأرهقه التهكم عليه، وأنهكه الجوع، وباع ساعته ليدفع للحوذي أجره (مع أنه كان يحمل ألفاً وخمسمئة روبل، في زعمه، في زعمه!)، ومزقته الغيرة لأنه ترك حبيبته التي تلهب نار قلبه، ويخاف أن تذهب أثناء غيابه إلى فيودور بافلوفتش. عاد إلى المدينة أخيراً. الحمد لله! لم تذهب حبيبته إلى فيودور بافلوفتش. وها هو يرافقها بنفسه إلى منزل حاميها سامسونوف (الغريب أنه لم يكن يغار من سامسونوف. تلك سمة سيكولوجية خاصةٌ تتميز بها هذه القضية). ثم يسارع إلى المرابطة في مرصده خلف الحديقة. وهناك يعلم بنبأ نوبة الصرع التي أصابت سمردياكوف، ويعلم كذلك بمرض الخادم الآخر. كانت الساحة إذن خالية. وهو يعرف «الاشارات السرية». أليس في هذا إغراءٌ قوي له؟ ولكنه يقاوم نداء الجريمة رغم كل شيء، ويذهب إلى خوخلاكوفا، السيدة المحترمة التي تقيم في مدينتنا موقتاً، والتي نكنّ لها جميعاً هنا أعمق الاحترام. إن هذه السيدة تشفق عليه وتهتم بمصيره منذ زمن، فها هي تسدي إليه بنصيحة عاقلة، وهي أن يعدل عن هذا الحب المخزي، وأن ينقطع عن هذا التنقل بين الكاباريهات، وأن يعزف عن تبديد قوى شبابه في هذه الترهات الباطلة، فيسافر إلى سيبيريا، إلى مناجم الذهب. وقالت له: «هنالك ستجد مصباً للقوى والطاقات التي تفور وتغلي في باطنك، وهنالك ستجد متنفساً لطبيعتك المولعة بالمغامرات.». وبعد أن وصف وكيل النيابة كيف انتهى هذا الحديث، وعندما وصل إلى اللحظة التي علم فيها المتهم أن غروشنكا لم تمكث عند سامسونوف، وصف الغضب الذي استولى على المسكين، والغيرة التي تأججت في قلبه حين تصور أن هذه المرأة قد كذبت

عليه، وأنها الآن عند فيودور بافلوفتش. واعتقد هيبوليت كيريلوفتش عندئذ أن عليه أن يلفت الانتباه هنا إلى الدور الذي لعبته الصدفة، فقال: «لو اتسع وقت الخادمة لأن تقول له إن حبيبته موجودة في موكرويه مع «الصديق القديم المشروع»، لكان من الجائز ألّا يحدث شيء إطلاقاً. ولكن الخادمة، وقد ارتعبت، أخذت تقسم له أغلظ الأيمان على أن لا علاقة لها بالأمر، ولئن لم يقتلها المتهم فوراً، فما ذلك إلّا لأنه أسرع يلاحق الغادرة الخائنة في الحال. ولكن لاحظوا هذه النقطة: إن المتهم، رغم أنه قد جُن جنونه غضباً، لم ينسَ أن يأخذ معه مدق الهاون النحاسي. فلماذا يأخذ هذا المدق بعينه ولا يأخذ سلاحاً آخر؟ ما دام قد فكر في ارتكاب الجريمة خلال شهر كامل، فمن الطبيعي أن يتناول أول شيء تقع عليه يداه مما يصلح أن يكون سلاحاً. لذلك عرف أن هذا المدق يفي بالغرض. معنى ذلك أنه لم يتناول المدق المشؤوم على غير إرادة منه. وها هو الآن في حديقة أبيه: الساحة خالية، لا شهود، لا شيء إلّا الليل المظلم، والظلمات، والغيرة. وتصوَّرَ أنها الآن هناك، قرب غريمه، مع منافسه، وربما كانت في هذه اللحظة تسخر منه وتستهزىء به. استولت هذه الفكرة على المتهم. ليس الأمر في هذه المرة أمر شكوك وشبهات، ليس الأمر أمر خوف مبعثه التخيُّل، مع الأسف! قال لنفسه: «الخيانة واضحة!» هي هنا، هنا، في هذه الغرفة التي يرى نافذتها مضاءة. إنها تختبئ وراء الستائر. ويتسلل المسكين نحو النافذة. هل تريدون منه أن يكتفي بأن يلقي على الغرفة نظرة احترام، ثم يهدأ على الفور، وينصرف في تعقل وحكمة، تجنباً لمصيبة وتحاشياً للاندفاع في عمل خطر مناف للأخلاق؟ ذلك هو ما يحاولون أن يقنعونا به نحن الذين نعرف طبع المتهم وندرك الحالة النفسية التي كان عليها في تلك الدقيقة! إننا نعرف الحالة النفسية التي كان عليها، نعرفها من وقائع ثابتة، ونعرف خاصة أنه كان على علم بالإشارات التي يستطيع بواسطتها أن يحمل أباه على أن يفتح له الباب، فيدخل إلى المنزل!». هنا، بالنسبة إلى الإشارات تخلى هيبوليت كيريلوفتش موقتاً عن اتهامه واعتبر من الضروري التوسع بالنسبة إلى سمردياكوف، بشكل يستنفر كلياً هذا المشهد التمهيدي المتعلق بالشك في الجريمة الذي يقع على سمردياكوف، والانتهاء نهائياً من هذه الفكرة. قام بذلك بشكل مناسب وأدرك الجميع أنه على الرغم من كل الاحتقار لهذه الفرضية. كان يعتبرها مع ذلك مهمة جداً.

VIII

بحث عن سمردياكوف

بدأ هيبوليت كيريلوفتش كلامه بهذا السؤال: من أين أتى احتمال شك كهذا؟ إن أول من أعلن أن سمردياكوف هو القاتل، هو المتهم نفسه لحظة القبض عليه، على الأقل، منذ صرخته الأولى حتى اللحظة الحالية من الدعوى لم يستطع أن يقدم واقعة واحدة تدعم اتهامه. وليس فقط واقعة بل حتى تلميحاً إلى واقعة مهما كان ضعيفاً تطابقها مع المنطق الإنساني. ثم لم يؤكد هذا الاتهام إلّا ثلاثة أشخاص هم: أخو المتهم والسيدة سفيتلوفا. ولكن الأخ الأكبر لم يفصح عن شكوكه حول هذا الموضوع إلّا في هذه الجلسة، بينما هو مريض قد انتابته نوبة هذيان وحمّى حارة. أما خلال الشهرين الماضيين، فقد بقي مقتنعاً، كما نعلم بأن أخاه هو القاتل، ولم يحاول أبداً أن يدحض هذه الفكرة. وإن لنا عودة إلى تصريحاته على كل حال. ثم لقد أكد لنا الأخ الأصغر من أخوي المتهم، منذ قليل أنه لا يملك أيّ دليل يمكن أن يثبت أن سمردياكوف هو القاتل؛ وإنما هو يبني اتهامه على هذيان المتهم، وعلى «تعبير وجهه». نعم أيها السادة، إن هذا الشاهد قد قدَّم لنا هذا الدليل مرتين! أما السيدة سفيتلوفا فقد قالت كلاماً أغرب أيضاً، قالت: «ما عليكم إلّا أن تصدقوا المتهم، فليس هو الرجل الذي يكذب!». تلك هي جميع الأدلة الملموسة التي أمكن تقديمها ضد سمردياكوف حتى الآن، وقد قدمها إلينا ثلاثة أشخاص يعنيهم مصير المتهم ويهمُّهم كثيراً. ومع ذلك، أيها السادة، فإن الشكوك والشبهات حول سمردياكوف قد انتشرت بين الناس وما تزال، رغم كل ما في ذلك من غرابة، ورغم أن هذا الاتهام لا يمكن أن يتصوره العقل.«.

وهنا اعتبر هيبوليت كيريلوفتش أنه من المفيد أن يرسم صورة سريعة لشخصية المتوفَّى سمردياكوف، الذي «أنهى حياته إثر نوبة جنون وهستيريا عقلية مرضية»، فصوَّره على أنه امرؤ ضعيف العقل، يملك مباديء ثقافة، ولكن المفاهيم الفلسفية التي تتجاوز حدود ذكائه قد هزَّت عقله، كما أن بعض الآراء الحديثة في الواجب والالتزامات الأخلاقية قد روَّعته. وقد تعلم هذه النظريات، على الصعيد العملي، من حياة الفجور التي يعيشها سيده فيودور بافلوفتش الذي ربما كان أباه أيضاً، وتعلمها على الصعيد النظري من الأحاديث التي كانت تدور بينه وبين إيفان فيودوروفتش، الابن الثاني من أبناء سيده. كان إيفان فيودوروفتش يتسلى من حين إلى آخر، من قبيل التندر، والضحك على هذا المسكين في أغلب الظن، وذلك حين لا يكون لديه شيء آخر يسرِّي به عن نفسه». هنا واصل هيبوليت كيريلوفتش كلامه قائلاً: «لقد وصف لي هو نفسه الحالة النفسية التي كان عليها طوال الأيام الأخيرة التي قضاها في منزل سيده. وأيَّد ذلك أشخاص آخرون: أيَّده المتهم نفسه خاصةً، وأيَّده أخو المتهم، بل وأيده غريغوري أيضاً، أي جميع أولئك الذين يعرفونه عن كثب. ثم إن سمردياكوف، الذي هدَّه مرض الصرع، «كان خائفاً كدجاجة». لقد أسرَّ إلينا المتهم في وقت لم يكن يتصور فيه، بعدُ، ما قد يشتمل عليه هذا التصريح من أذًى له: «كان يرتمي على قدميَّ ويقبّلهما»، وقال لنا في يوم آخر، بهذه اللغة الخاصة به: «هو دجاجة مصابة بداء الصرع». ومع ذلك فإن هذا الرجل الضعيف هو الذي يتخذه المتهم نجياً له يُفضي إليه بأسراره ويبوح له بخفايا نفسه (وذلك ما اعترف هو به)، ويبلغ من ترويعه أن المسكين ارتضى آخر الأمر أن يكون له جاسوساً يزوّده بالأخبار، فلما وافق أن يكون

«مخبراً»، خان سيده وأطلع المتهم على وجود الظرف الذي يحوي المال، وعلّمه في الوقت نفسه الإشارات التي سيتسنى له بواسطتها أن يدخل المنزل. وهل كان في وسعه ألّا يطلعه عليها؟ لقد قال لنا سمردياكوف أثناء التحقيق وهو يرتجف أمامنا خوفاً، رغم أن جلاده كان قد قُبض عليه في ذلك الحين وأصبح لا يستطيع أن ينال منه، قال لنا: «لو كتمت عنه تلك الأمور لقتلني، رأيت بعينيّ أنه سيقتلني لو كتمتها عنه. كان لا ينفك يشتبه فيّ ويشك في صدقي؛ فكنت حين يهددني أبوح له بجميع الأسرار التي أعرفها، لأدفع عن نفسي غضبه، مبرهناً له على براءتي، لكي أنقذ حياتي». تلك هي الألفاظ التي استعملها المسكين في كلامه بنصّها، وقد دوَّنتها. «كنت إذا أخذ يصرخ، أرتمي جاثياً على ركبتيّ أمامه». وكان الخادم المسكين، وهو بطبيعته أمين جداً، قد حظي بثقة سيده الذي أيقن من صدقه وأمانته يوم ردَّ إليه الأوراق النقدية الضائعة. ولا بد أن يكون سمردياكوف قد عانى كثيراً من عذاب الضمير لأنه خان سيده هذا الذي كان يحبه ويرى أنه محسن إليه. ويعرف أطباء الأمراض العقلية البارزين أن الأشخاص المصابين بداء الصرع يميلون إلى اتهام أنفسهم بغير انقطاع، ويقاسون عذاباً أليماً من شعورهم بأنهم «مذنبون» في حق أحد أو في حق شيء، وأن تبكيت الضمير يرهقهم دون أن يكون هنالك ما يدعو إلى ذلك في كثير من الأحيان، وأنهم يضخمون أخطاءهم وربما اخترعوا جرائم خيالية يعتقدون أنهم ارتكبوها. فكيف بإنسان من هذا النوع أصبح مذنباً أو جانياً بالفعل لأنه أكره على ذلك بالإرهاب.

أضف إلى ذلك أن سمردياكوف كان يشعر سلفاً أن الأحوال التي يرى تطورها في منزل سيده قد تؤدي إلى بلاء عظيم. فحين أراد الابن الثاني من أبناء فيودور بافلوفتش أن يسافر إلى موسكو قبيل وقوع الكارثة، توسل إليه سمردياكوف أن يبقى، ولكنه بحكم ما تتصف به طبيعته من خوف، لم يجرؤ أن يفصح له بوضوح عن المخاوف التي تساوره، واكتفى بالتلميح إليها، ولكن إيڤان لم يفهم. يجب أن نلاحظ أن وجود إيڤان فيودوروفتش في المنزل كان يبدو لسمردياكوف نوعاً من الحماية له، كأنه على يقين من أن شيئاً لن يحدث ما دام إيڤان حاضراً. تذكروا ما كتبه ديمتري كارامازوف في «رسالة السكر» التي بعث بها إلى كاترينا إيڤانوفنا: «شرط أن يكون إيڤان غائباً». كان حضور إيڤان إذن ضمانة لاستتباب الأحوال في نظر الجميع. ولكنه سافر. وبعد رحيله بساعة واحدة انتابت سمردياكوف نوبة صرع. وذلك أمر مفهوم معقول. يجب ألّا ننسى أن سمردياكوف كان، خلال الأيام الماضية، وقد هدَّه الخوف وأضناه نوع من اليأس النفسي، كان يحس بدنوِّ نوبة من نوبات الصرع هذه التي سبق أن انتابته مراراً في ساعات التوتر العصبي. صحيح أن من المستحيل على المصاب بهذا الداء أن يتنبأ بالساعة واليوم اللذين ستوافيه فيهما نوبة كهذه، ولكن جميع المصابين بهذا الداء يستطيعون أن يحسوا سلفاً باقتراب حدوثها. ما إن ابتعدت عربة إيڤان فيودوروفتش عن المنزل حتى نزل سمردياكوف إلى القبو لشأن من شؤون الخدمة. وكان في تلك اللحظة يرزح تحت وطأة الشعور بالعزلة، ويشعر بأنه أعزل لا يملك عن نفسه أيّ دفاع، وكان يتساءل وهو يهبط السلَّم: «هل ستوافينني نوبة؟ ماذا يحدث لو سقطت الآن؟».

بسبب هذه الحالة النفسية، بسبب هذا الخوف وهذا السؤال الذي ألقاه على نفسه، حدث له تقلُّص في الحلق هو ذلك الذي يسبق موافاة النوبة دائماً، ثم إذا هو يتدحرج إلى القبو مغمياً عليه. إن هذا الحادث، الطبيعي تماماً، قد ولَّد شكوكاً، فأراد بعضهم أن يرى فيه دليلاً على نية مبيَّتة، وادعى أن هذا الرجل قد اصطنع النوبة وتظاهر بها. فلنفرض الآن أن هذا الادعاء صحيح. غير أن هناك سؤالاً يطرح نفسه علينا وهو: ما عسى أن يكون هدف هذا الرجل من ذلك التظاهر المزعوم؟ ما عسى أن يكون الحساب الذي أجراه، وما هو الغرض الذي سعى إلى تحقيقه باصطناع النوبة والتظاهر بها؟ لنترك الطب جانباً. يقال إن الطب يمكن أن يخطىء، وكثيراً ما يؤدي إلى ضلال الرأي وفساد الحكم، وإن الأطباء لا يستطيعون أن يميزوا دائماً بين مرض حقيقي ومرض مصطنع. لنسلم بأن هذا صحيح. ولكنني أطلب

منكم أن تجيبوا عن هذا السؤال: ما هي الفائدة التي كان يمكن أن يجنيها من التظاهر بالصرع؟ لو كان قد صمّم على ارتكاب الجريمة، أفكان يتمنى مثلاً أن يلفت إليه انتباه جميع من في المنزل مسبقاً بنوبة صرع يفتعلها؟ لاحظوا، يا سادتي المحلفين، أنه كان في منزل فيودور بافلوفتش، ليلةَ حدوث الكارثة، خمسة أشخاص لا أكثر: الأول هو فيودور بافلوفتش نفسه. ولكن من الواضح أن فيودور بافلوفتش ليس هو القاتل، والثاني هو خادمه غريغوري، ولكن هذا الأخير أوشك أن يكون قتيلاً هو نفسه؛ وأما الثالث فهو زوجة غريغوري، الخادمة مارفا إينياتيفنا، ولكن من المضحك أن نتصور أن تكون هي التي قتلت سيدها. لم يبق هنالك إذن إلّا شخصان، هما المتهم وسمردياكوف. ولما كان المتهم يدعي أنه بريء، فلا يمكن إذن أن تكون جريمة القتل قد ارتكبها أحد إلّا سمردياكوف. ليس هناك حل آخر، إذ يستحيل اكتشاف شخصٍ يمكن اتهامه بهذه الجريمة غير هذين الرجلين. على هذا النحو نشأ إذن ذلك الافتراض «البارع» الذي سمح بتوجيه هذا الاتهام الرهيب إلى أبله مسكين هو ذلك الشقي الذي انتحر بالأمس. وذلك لسبب واحد هو أنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يتهموه! ولو كانوا يملكون ولو ظلَّ شبهة، ولو شك واحد ضد أي كان، أي إنسان سادس، أنا على ثقة أن المتهم نفسه كان خجل من اتهام سمردياكوف، واتهم هذا الرجل السادس، لأن الاشتباه في سمردياكوف سخف محض!«.

»أيها السادة، دعونا من السيكولوجيا، ودعونا من الطب، ودعونا حتى من المنطق، ولنقتصر على النظر في الوقائع وحدها، ولا شيء غير الوقائع، ولنترك الوقائع تتكلم. لنفرض أن سمردياكوف قد قتل، ولنتساءل كيف قتل؟ أقتل وحده، أم قتل بالتواطؤ مع المتهم. لننظر في الافتراض الأول، وهو أن يكون سمردياكوف قد قتل بمفرده. من البديهي أنه إذا كان قد قتل، ففي سبيل أن يكسب منفعة ما، ولما كان لا يجيش في نفسه أي باعث من البواعث التي يمكن أن تدفع المتهم على القتل، كالحقد والغيرة وما إلى ذلك، فإن سمردياكوف لم يكن ليرتكب هذه الجريمة إلّا بدافع الطمع في المال طبعاً، وذلك ليستولي على تلك الثلاثة آلاف روبل التي رأى سيده يودعها في ظرف؛ حتى إذا عزم على ارتكاب هذه الجريمة أسرع يفضي إلى شخص آخر - إلى شخص يعنيه الأمر كثيراً، أعني إلى المتهم - بجميع التفاصيل المتعلقة بالمال، وبالإشارات السرية، وبالمكان الذي خُبِىء فيه الظرف، وبالكتابة التي كتبت على الظرف، وبالطريقة التي تسمح بدخول المنزل. هل قال هذا الكلام ليفضح نفسه؟ هل قاله ليحرض على الاستيلاء على المال شخصاً يستطيع أن يستولي عليه ويحرمه منه؟ ربَّ من يقول إنه تكلم من شدة خوفه! عجيب! هل يقبل رجلٌ لم يتردد لحظة واحدة عن ارتكاب جريمة فظيعة، جريئة، أن يدلي - عن خوف! - بمعلومات لا يعرفها أحد في العالم سواه، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد إذا هو كتمها؟ لا، لا، إن الرجل مهما يكن شديد الخوف، ما كان له أن يبوح لأحد، بعد أن صمَّم على ارتكاب مثل هذه الجريمة، بالتفاصيل المتعلقة بالظرف والإشارات، ولو فعل ذلك لكان يشي بنفسه سلفاً. إن هذا الرجل كان يمكن أن يتخيل شيئاً آخر، أن يكذب وأن يخترع إذا هو أجبر على الكلام، أما أن يبوح بهذه التفاصيل فلا! ولو لم يذكر شيئاً عن المال، ثم استولى على الظرف لنفسه، لما خطر ببال أحد في العالم - أكرر هذا - أن يتهمه بالقتل طمعاً في المال، لأن أحداً غيره في العالم لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المبلغ، ولا رأى هذا المبلغ، ولا يخطر بباله أن له وجوداً في المنزل. وإذا اتهم الرجل بعد ذلك بالقتل، فلا بد عندئذ من تخيل سبب آخر دفعه إلى ارتكاب الجريمة. ولكن أحداً لم يتصور حتى ذلك الحين أن هناك أي سبب يمكن أن يدفعه إلى الجريمة، بل لقد كان جميع الناس يعرفون أن سيده يحبه ويكرِّمه، فما كان للشبهات والحالة هذه أن تحوم حوله، ولكان آخر من يمكن أن تُوجَّه نحوه الشكوك، ولفكَّر الناس عندئذ في اتهام ذلك الذي تجيش في نفسه بواعث من هذا النوع سبق أن جاهر بها في كل مكان، ولم يكتمها عن أحد، بل كان يصارح بها أول قادم، أي لا يتهم الناس عندئذ ابنَ المجني عليه، أعني ديمتري فيودوروفتش. سمردياكوف ربما سيتقبل السرقة لكن المتهم كان سيكون ابنه، القاتل سمردياكوف كان سيعتبر ذلك مفيداً له. والحال هذه، أنه مع هذا الابن، مع ديمتري

فيودوروفتش الذي نظم الجريمة، يتحدث مسبقاً عن المال والكيس والإشارات - يا لهذا المنطق، يا لهذا الوضوح.

«ويجيء يوم ارتكاب الجريمة التي أرادها سمردياكوف، ويتدحرج إلى أرض الدهليز «متظاهراً» بنوبة صرع. ولكن ما هو هدفه من ذلك؟ هل يكون هدفه من ذلك أن يعدل الخادم غريغوري، الذي كان قد قرر أن يعالج مرضه، عن هذه المداواة وأن يرجئها إلى وقت آخر، ليتولى بنفسه حراسة المنزل، إذ يلاحظ أن المنزل أصبح بدون حراسة؟ أم يكون هدفه من ذلك أن يبادر صاحب المنزل، حين يلاحظ أنه لم يبقَ هناك أحد يحرسه من عدوان ابنه الذي يخاف أن يدهمه ولا يكتم خوفه هذا، أن يبادر صاحب المنزل إلى مزيد من الحذر والتيقظ؟ أكثر من ذلك: هل كان سمردياكوف يستهدف، من التظاهر بنوبة الصرع، أن يُنقل من المطبخ الذي كان ينام فيه عادةً والذي كان يستطيع أن يخرج منه دون أن يراه أحد، هل كان يستهدف أن يُنقل إلى الطرف الآخر من المبنى الملحق، إلى غرفة غريغوري ليُمدَّد هناك صريعاً وراء حاجز رقيق لا يبعد عن سرير الخادم العجوزوامرأته إلّا ثلاث خطوات، كما كان يُفعل ذلك به كلما وافته نوبة من الصرع، بأمرٍ من صاحب المنزل ومن مارفا إينياتيفنا الرحيمة، حتى إذا وُضع على حصيرة وراء ذلك الحاجز كان عليه أن يواصل التوجع والأنين طوال الليل، ليحسن تمثيل دوره، فإذا هو يوقظ الشخصين النائمين على بعد ثلاث خطوات منه (وذلك ما حدث فعلاً، بشهادة غريغوري وزوجته)؟ هل يكون سمردياكوف قد تخيَّل هذا كله، قد تخيل هذه التمثيلية كلها، ليتسنى له أن ينهض فيمضي يقتل سيده؟

«قد يقال، ربما، تظاهر سمردياكوف بنوبة الصرع كي يبعد عن نفسه الشبهات كونه مريضاً، ولأنه أطلع المتهم على المعلومات المتعلقة بالظرف والإشارات السرية، ليغري المتهم بأن يجيء فيتولى القتل بنفسه، حتى إذا فرغ المتهم من قتل أبيه وغادر المنزل حاملاً معه المال، بعد أن يحدث ضجة وجلبة من شأنهما أن توقظا سكان المنزل، نهض سمردياكوف، نعم، نهض ومضى يفعل ماذا؟ مضى ليقتل سيده مرةً أخرى، وليسرق مرة أخرى المال الذي سبقه إليه المتهم وذهب به. أتضحكون أيها السادة؟ إني لأعترف لكم بأنني أشعر أنا نفسي بالخجل حين أراني مضطراً إلى النظر في افتراضات من هذا النوع. ولكن هذا التفسير هو بعينه التفسير الذي يقدمه لنا المتهم. فتصوروا! إن المتهم يدعي أن سمردياكوف قد قام بقتل سيده وبسلبه ماله، في الوقت الذي كان هو قد غادر المنزل بعد أن قتل غريغوري. لن أطيل الكلام على هذا التساؤل: كيف تسنى لسمردياكوف أن يتنبأ بكل شيء، وأن يحسب حساباً دقيقاً أن الابن العنيف المندفع الخارج عن القانون سيأتي لا لغرضٍ آخر غير أن يلقي من خلال النافذة نظرة احترام، وأنه على علمه بالإشارات السرّية سينصرف في الحال تاركاً الغنيمة له هو سمردياكوف؟ أيها السادة، إني أسألكم جاداً: في أية لحظة ارتكب سمردياكوف الجريمة؟ دلُّوني على تلك اللحظة، لأنه من دون ذلك لا يمكن اتهامه.

«لكن لعل نوبة الصرع كانت صحيحة. ولعل المريض صحا من غيبوبته فجأة، فسمع صراخاً فخرج. وماذا بعد ذلك؟ نظر حواليه فعزم أمره فجأة وقال: «لديّ فكرة! سأمضي وأقتل سيدي!». ولكن أنّى لسمردياكوف أن يكون قد عرف ما وقع وقد كان حتى ذلك الحين مغمياً عليه؟ إنني أتوقف عن الاسترسال في مثل هذا الكلام، لأن للخيال حدوداً هو أيضاً.

«وقد يقول أشخاص ممن أوتوا فكراً مرهفاً: ربما كان هذا كله صحيحاً، ولكن أفلا يمكن أن يكون قد قام بين الرجلين تواطؤ على الجريمة، فارتكباها معاً واقتسما المال؟

«نعم، في الواقع اشتباه خطير فهو يستند إلى قرائن قوية جداً، كما سترون: الأول يقتل ويتحمل كل العناء، بينما الثاني يبقى نائماً متظاهراً بنوبة صرع، لا لشيء إلّا ليثير الشكوك، والقلق في نفس سيده في نفس غريغوري! إنه مثير للفضول أن تعرف الأسباب

التي ارتكز الشريكان لاختراع خطة حمقاء إلى هذا الحد! لكن، ربما لم تكن مشاركة سمردياكوف في الجريمة فعّالة، بل سلبية معذبة قبلها على مضض، فلعل سمردياكوف ارتضى أن لا يعيق ارتكاب الجريمة، وذلك من شدة الخوف من أن يتهم بأنه سهّل مقتل سيده لأنه لم ينبّه ولم يسارع إلى الدفاع عنه، فتوسّل إلى ديمتري فيودوروفتش كارامازوف سلفاً أن يأذن له بأن يبقى نائماً بسبب نوبة صرع قائلاً له: «أنت، اقتل من شاء، فذلك أمر لا شأن لي به». ولكن لو صحّ هذا لكان من شأن نوبة الصرع أن تنبّه المنزل كله حتماً، ولما قبل ديمتري كارامازوف الذي لا بد أن يتنبأ بذلك، تدبيراً من هذا النوع. ومع ذلك فلنسلّم بأن ديمتري قد ارتضى هذا التدبير. سوف ينتج من ذلك في هذه الحالة أن ديمتري كارامازوف يكون هو القاتل، هو المحرِّض والفاعل في آن، أما سمردياكوف فلا يكون إلّا شريكاً مستتراً، بل إنه يكون أقلّ من شريك، يكون شاهداً كتم الجريمة رغم إرادته من شدة الخوف؛ ولن يفوت المحكمةَ عندئذ أن تحدد درجة مسؤولية كل من الرجلين. ولكن ما الذي رأيناه بالفعل؟ رأينا المتهم، ما إن قُبض عليه، حتى ألقى الجرم كله على عاتق سمردياكوف، واتهمه بأنه «وحده» الفاعل. إنه لم يش به شريكاً له في الجرم، بل وشى به فاعلاً منفرداً بارتكاب جناية القتل. قال صائحاً: «هو القاتل، هو وحده القاتل، هو الذي قتل وسرق!. الجريمة من صنع يديه وحده!». فكيف نتصور أن يتهم كل من الشريكين صاحبه منذ أول لحظة؟ ذلك أمر لم يسبق أن حدث حتى الآن. وانظروا أيضاً إلى الخطر الذي يعرِّض ديمتري كارامازوف نفسه له حين يتصرف على هذا النحو: إنه هو القاتل الرئيسي، بينما الآخر ليس له من المشاركة في الأمر إلّا دور بسيط، فما هو إلّا شاهد لم يحرك ساكناً، وبقي نائماً على حصيرته وراء الحاجز؛ فحين يلقي ديمتري كارامازوف الجرم كله على عاتق هذا الرجل، يعرِّض نفسه عندئذ لأن يستاء منه هذا الرجل وأن يثور عليه فيبادر إلى الكشف عن الحقيقة كاملةً على الفور، ولو بدافع غريزة حب البقاء وحدها. كان سمردياكوف سيروي عندئذ أنهما ارتكبا الجريمة معاً، ولكنه لم يتولَّ هو تنفيذ القتل، بل اكتفى من شدة خوفه بأن يدع لصاحبه أن يفعل وأن لا يعارضه فيما عزم عليه من ارتكاب جريمة القتل. ذلك أن سمردياكوف لا بد أن يدرك أن المحكمة كانت ستعترف بأن نصيبه من المشاركة في الجريمة ضئيل، ولا بد أن يأمل أن يكون عقابه، إذا هو عوقب، أخفَّ كثيراً من العقاب الذي ستنزله المحكمة في الفاعل الأساسي الذي يحاول أن يلقي الجرم كله على عاتقه. فلو كان الأمر كذلك، إذن لأحس سمردياكوف بأنه مدفوع إلى الاعتراف بكل شيء. ولكننا لم نرَ شيئاً من هذا. لم يتفوّه سمردياكوف بكلمة واحدة عن هذا التواطؤ المزعوم، رغم أن القاتل قد اتهمه بشكل صريح، وكان يسمِّيه دائماً على أنه الفاعل الوحيد الذي ارتكب الجريمة. وأكثر من ذلك أن سمردياكوف قد ذكر من تلقاء نفسه أثناء التحقيق أنه «هو» الذي زوّد المتهم بالمعلومات التي تتعلق بالمبلغ، وبالإشارات السرية، فلولاه لما عرف المتهم من هذه المعلومات شيئاً. فهل كان يمكن أن يكشف لقاضي التحقيق عن هذه الحقائق كلها، هل كان يمكن أن يعترف بأنه قد أطلع المتهم على هذه الأمور بنفسه، لو كان شريكه في الجرم فعلاً؟ لو كان شريكه حقاً لحاول استبعاد هذه التفاصيل، ولأنكرها محاولاً أن يشوه الوقائع وأن يخففها. ولكنه لم يشوه شيئاً ولم يخفف شيئاً. ولا يمكن أن يتصرف هذا التصرف إلّا إنسان بريء، لا يخشى أن يُتهم بالاشتراك في الجريمة. وها هو يشنق هذا الرجل نفسه وهو في حالة انهيار مرضي مرده إلى داء الصرع وإلى المصيبة التي ألمت بذويه؛ وقبل موته كتب رسالة بأسلوبه الخاص: «أنهيت حياتي بإرادتي ورغبتي، كي لا تتهموا أحداً». فلماذا لم يضف إلى ذلك قوله: «أنا القاتل، وليس كارامازوف»؟ لكنه لم يضف هذا الكلام، لأن عنده من الضمير ما يكفي لدفعه إلى قتل نفسه، لكن ما كان عنده ما يكفي لتبرئة بريء؟

على ذلك: لقد استلمت المحكمة منذ قليل مبلغاً من المال هو ثلاثة آلاف روبل» (المبلغ الشهير ذاته الذي كان مودَعاً في الظرف الموجود الآن على منضدة وثائق الاتهام، وقد استلمته أمس من سمردياكوف). مع ذلك، كان المحلفون يتذكرون ما وقع هنا منذ قليل. لن أذكر تفاصيل هذا المشهد، وسأكتفي بأن أذكر ملاحظتين أو ثلاثاً في هذا الصدد، الأتفه بينها،

ولكنها لتفاهتها هذه نفسها قد تغيب عن البال وقد تُهمل؛ فأقول أولاً: إن المفروض هو أن سمردياكوف قد انتحر أمس وردَّ المال لأنه شعر بعذاب الضمير. (فلولا عذاب الضمير لما ردَّ المال). وبالأمس إذن يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته لإيقان كارامازوف لأول مرة، كما ذكر لنا إيقان كارامازوف ذلك في شهادته؛ وبدون هذا لا يمكننا أن نفهم لماذا يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته، فإنني أعود فأسأل: لماذا لم يعترف بالحقيقة كلها في الكلمة التي كتبها قبل موته وهو يعلم أن بريئاً قد يصدر في حقه غداً حكم فظيع؟ إن المال وحده ليس دليلاً على شيء. مثلاً إنني علمت منذ أسبوع، بطريق الصدفة وحدها، كما علم ذلك شخصان آخران حاضران في هذه القاعة أن إيقان كارامازوف قد صرف في مركز المقاطعة سندين بفائدة خمسة في المئة، قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل. وإذا كنت أذكر هذا فإنني لا أذكره إلّا لأبيِّن أن أيّ إنسان يستطيع أن يحصل على مبلغ من المال في لحظة معينة، وأن إبراز ثلاثة آلاف روبل يستحيل أن يبرهن برهاناً قاطعاً على أن هذا المبلغ هو بعينه المبلغ الذي كان مودعاً في درج معين أو في ظرف معيَّن. ثم إنني أتساءل أخيراً: لماذا لم يبادر إيقان كارامازوف، حين حصل بالأمس من فم القاتل الحقيقي على اعترافات بمثل هذه الخطورة، أقول لماذا لم يبادر إلى القيام بعملٍ ما على الفور، لماذا لم يبادر إلى إبلاغ القضاء في الحال؟ لماذا أرجأ تصريحه إلى الغد؟ لماذا؟ أعتقد أنني أعرف: إنه وهو مريض منذ ثمانية أيام، ويعاني هلوسات ويرى أشباحاً وتهجس في نفسه أوهام فيتخيل أنه يرى في الشارع أشخاصاً قد ماتوا منذ زمن طويل، أنه وهو في عشية إحدى نوبات حمّى حارة رأيتم كيف صرعته منذ قليل، أنه وهو في تلك الحال قد علم بأن سمردياكوف مات، فإذا هو يفكر التفكير التالي: «لقد مات هذا الرجل فيمكن اتهامه. أما أخي فسوف أنقذه. وعندي مال: سوف آخذ من هذا المال حزمة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل، فأصرح للمحكمة بأن سمردياكوف أعطانيها قبل موته».

قد تقولون لي إن هذا مجاف للشرف، ومجاف للشرف أيضاً الكذب عن رجل ميت وحتى لإنقاذ أخيه. ولكن لعله كذب على غير شعور منه متصوِّراً أن الأمور قد جرت فعلاً على هذا النحو، لأن عقله قد اختل نهائياً حين علم بنبأ موت ذلك الخادم. لقد شهدتم المشهد الذي جرى هنا، ورأيتم الحالة التي كان عليها هذا الشاهد. كان واقفاً وكان يتكلم، ولكن أين كان عقله؟ وبعد الأقوال التي أوردها هذا الرجل المريض، قُدِّمت إلينا وثيقة هي رسالة كتبها المريض قبل وقوع الجريمة بيومين، وأرسلها إلى الآنسة فرخوفتزيفا، مضمناً هذه الرسالة خطة مفصلة لتنفيذ الجريمة. فهل من الضروري بعد هذا أن نطيل التفكير وأن نمعن في التأمل من أجل أن نكتشف الفاعل؟ لقد تم ارتكاب الجريمة على النحو الذي جاء وصفه في هذه الرسالة تماماً، فلا يمكن أن يكون القاتل إلّا ذلك الذي كتب الرسالة. نعم، يا سادتي القضاة، «ذلك مكتوب!». لم يترك المتهم منفذاً لأبيه يلوذ منه بالفرار في احترام، بينما كان فوق ذلك مقتنعاً بأن حبيبته في المنزل مع أبيه. والواقع أنه دخل المنزل، ونفذ خطته حتى النهاية. من الجائز أن يكون قد قتل وهو في حالة اهتياج شديد وغضب سيطرت عليه منذ رأى غريمه الذي يكرهه. يجوز أن يكون قد قتل في لحظة واحدة، جائز أن يكون قد قتل بضربة واحدة هوت بها ذراعه المسلحة بالهاون النحاسي، ثم أدرك بعد ذلك، حين فتش جميع زوايا الغرفة، أن تلك المرأة غير موجودة هناك. ولكنه لم ينس، بعد أن نفذ جريمة القتل، أن يدس يده تحت الوسادة، فيأخذ الظرف الذي يحتوي على المال، ذلك الظرف الممزق الذي هو الآن على منضدة وثائق الإثبات. وأنا أجيء الآن على ذكر هذا الظرف لأوجه انتباهكم إلى أمر هو في نظري من الأمور الهامة جداً. لو كان القاتل مجرماً ذا خبرة، لو كان قاتلاً يهدف إلى سرقة مال، هل كان يترك هذا الظرف على أرض الغرفة، قرب الجثة، حيث عُثر عليه فيما بعد؟ إذا فرضنا مثلاً أن جريمة القتل قد ارتكبها سمردياكوف بهدف السرقة، أفما كان يكتفي سمردياكوف عندئذ بأن يأخذ الظرف دون أن يخطر على باله أن يفتحه، لأنه متأكد من أن المال مودع فيه، فقد رأى سيده يضع المال في الظرف ويغلق الظرف على المال؟ لو كان سمردياكوف هو القاتل لأخذ الظرف قائلاً لنفسه: متى اختفى الظرف فلن

يخطر ببال أحد أن هناك سرقة. إنني أسألكم يا سادتي المحلَّفين: هل كان يمكن أن يتصرف سمردياكوف على النحو الذي تكشف عنه وقائع القضية؟ هل كان يمكن أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة؟ لا، إن هذا التصرف لا يمكن أن يكون إلّا تصرف قاتل خارج عن طوره، قاتل أصبح لا يفكر تفكيراً واضحاً، قاتل لم يجئ من أجل أن يسرق ولا سبق له أن سرق قبل ذلك، قاتل لا يتصرف حتى في تلك اللحظة، حين دس يده في السرير ليأخذ المال، تصرفَ سارق يسطو على غنيمة، وإما يتصرف تصرفَ رجل يسترد مالاً كان قد سُلب منه؛ وتلك هي في الواقع أفكار ديمتري كارامازوف في هذا الشأن، التي كادت تتحول في ذهنه إلى هوس يحاصره. لذلك فإنه حين أمسك الظرف الذي لم يسبق أن رآه قبل ذلك، سارع يمزقه ليتأكد من أن المال مودع فيه حقاً، ثم وضع المال في جيبه وولى هارباً دون أن يحمل نفسه عناء التفكير في أنه يخلّف وراءه دليلاً قاطعاً هو هذا الظرف الممزق الملقى على الأرض.

ذلك كله من فعل كارامازوف، لا من فعل سمردياكوف، ذلك كله من فعل رجل لم يفكر ولم يتسع وقته لأن يفكر! ويهرب إيڤان كارامازوف، ويسمع صرخة الخادم العجوز الذي لحق به فأمسكه، وكان سيقبض عليه، فإذا بالعجوز يتهاوى بضربة من المدق؛ وعندئذ يقفز المتهم من على السياج، ويميل على العجوز. هل مال على العجوز من باب الشفقة والعطف؟ ذلك ما يدعيه، تخيلوا!... إنه يزعم أنه مال على الخادم العجوز شفقةً، ليرى هل في وسعه أن يسعفه! أتلك لحظة يشعر فيها المرء بالشفقة والحنان فعلاً؟ لا، وإنما هو مال عليه ليرى هل الشاهد الوحيد الذي عرف جريمته ما يزال حياً؟ إن كل باعث آخر، وكل عاطفة أخرى، لا يمكن أن يتصور العقل وجودهما في مثل تلك اللحظة. لاحظوا أنه أخذ يتحرك ويضطرب قرب غريغوري، وأنه مسح رأسه بمنديله، فلما تأكد أن الخادم قد مات، انصرف كمجنون، ملطَّخاً بالدماء، ليتوجّه مرة أخرى إلى منزل حبيبته. كيف لم يخطر بباله في تلك الدقيقة أنه ملطَّخ بالدماء وأنه سرعان ما سيشتبه فيه؟ إن المتهم يصرح لنا هو نفسه بأنه لم ينتبه إلى الدم الذي كان ملطخاً به. بإمكاننا أن نصدق كلامه في هذه النقطة. ذلك يمكن قبوله، وهو ممكن جداً، وهذا يحصل مع المجرمين في مثل تلك اللحظات. لأنهم يُجرون حسابات جهنمية من جهة، ويفتقرون إلى التفكير من جهة أخرى. ثم إن سؤالاً واحداً كان يشغل باله في تلك اللحظة، فهو لا يفكر إلّا في ذلك السؤال: أين «هي»؟ كان بحاجة إلى أن يعرف بأقصى سرعة أين عساها تكون، لذلك أسرع إلى منزلها، فعلم هنالك بنبأ غير متوقَّع وطارئ، سافرت إلى موكرويه، مع «صديقها القديم» الذي لا تتناقش مكانته عندها.

IX

سيكولوجية سريعة

الترويكا تعدو. خاتمة مرافعة وكيل النيابة

حين وصل إلى هذه اللحظة من مرافعته، توقف هيبوليت كيريلوفتش الذي اختار طريقة العرض التاريخي الدقيق الذي يؤثره بهذا القدر جميع الخطباء العصبيين الذين يستكشفون أنفسهم أطراً ذات حدود دقيقة ليضبطوا اندفاعهم العارم، توقف، إذن، بشكل خاص عند «الأول» وعند «غير القابل للنقاش» وساق في هذا الموضوع سلسلة أفكار شائقة جداً في نوعها. كارامازوف الذي يشعر بغيرة من الجميع حتى الجنون، بدا فجأة كأنه سقط واختفى أمام هذا الحبيب «القديم الذي لا يناقش»؛ وما يثير الاستغراب أكثر هو أنه لم يفكر قبل الآن في هذا الخطر الجديد الذي كان يهدده والذي انفجر لتوه في شخص هذا الخصم غير المتوقع. لكنه كان يتصور هذا الخطر بعيداً، وكارامازوف لا يعيش إلّا في اللحظة الحاضرة. دون شك، كان ينظر إلى ذلك كأنه ضرب من الخيال. لكنه يدرك، بلحظة، بقلبه المريض، أنه ربما لهذا السبب تخفي هذه المرأة عنه هذا المنافس الجديد. ولهذا خانته، وإن هذا المنافس الذي تعتبر رجوعه إلهاماً ربانياً هو كل شيء بالنسبة إليها وليس نزوة ولا خيالاً وهو يمثّل في الواقع كل آمال حياتها. فلما أدرك هذه الحقيقة استسلم. «ليس في وسعي، يا سادتي المحلَّفين، أن أغفل هذه السمة غير المتوقعة في نفس المتهم الذي كان عاجزاً عن القيام بإعلانه. لقد استولت على نفسه حاجةٌ قوية إلى الحقيقة، واستولى عليه شعور بالاحترام لهذه المرأة ولحقِّها في أن تحب كما تشاء حرةً طليقة، وذلك في تلك اللحظة التي كان فيها قد لطخ يديه بدم أبيه من أجلها. ولا شك أن هذا الدم كان يطالب بالثأر منذ ذلك الحين، ولا بد أن المتهم كان يتساءل بعد أن ضيَّع نفسه وحطم وجوده على هذه الأرض: «ما أنا بالنسبة إليها بعد اليوم، ما الذي أستطيع أن أقدّمه الآن لهذه المخلوقة التي أحبها أكثر من أيّ شيء في العالم؟ ما أنا في نظرها بالقياس إلى الصديق «القديم» الذي عاد تائباً مليئاً بعذاب الضمير تجاه المرأة التي هجرها في الماضي ثم رجع يحمل إليها الآن حباً جديداً وآمالاً مشرقة في حياة شريفة تبعثها من جديد. نعم، ما الذي يستطيع أن يقدمه إليها الآن، ماذا يقترح عليها؟».

لقد أدرك كارامازوف ذلك كله، أدرك أن جريمته قد سدَّت أمامه كل سبل الحياة، ولم يعد إلّا قاتلاً سينزل فيه العقاب، وليس رجلاً يستطيع أن يعيش. سحقته هذه الفكرة ودمَّرته. وفي تلك اللحظة تصور مشروعاً جنونياً لا بد أن يكون بالنسبة إلى طبع كطبعه المَخرج الوحيد والحتمي من وضعه المخيف. ذلك المخرج هو الانتحار. فأسرع إلى الموظف برخوتين ليسترد مسدسيه المرهونين لديه؛ وفيما هو في الشارع، يسرع فيُخرج من جيبه الأوراق المالية التي من أجلها لطَّخ يديه بدم أبيه منذ قليل! ذلك أنه أصبح الآن في حاجة إلى المال أكثر من أي وقت مضى: فإن كارامازوف سيموت، إن كارامازوف سينتحر، وينبغي أن يتذكر الناس هذا المشهد! ليس عبثاً أننا شعراء، ليس عبثاً أننا أفنينا حياتنا كشمعة أشعلناها من طرفيها.. «يجب أن أراها، يجب أن أراها أولاً وبعد ذلك، سأقصف وألهو، سأحتفل احتفالاً لا مثيل له من قبل، احتفالاً يظل الناس يتحدثون عنه زمناً طويلاً بعدي.

وفي وسط الصرخات الوحشية، والأغاني الغجرية، والرقصات المحمومة، سأرفع كأسي، فأشرب نخب السعادة الجديدة التي ستنعم بها المرأة المعبودة. وبعد ذلك فوراً، أهشم دماغي فأسقط على قدميها مكفِّراً عن ذنوبي! هكذا ستتذكر ميتيا كارامازوف، وسترى كم كنت أحبها، وسترثي عندئذ لحال ميتيا!» هكذا كان المتهم يحدث نفسه. إن في هذا المشروع الذي قرّر المتهم تنفيذه غيرَ قليل من الخيال الحار والحماسة الروائية، وأن فيه كثيراً من ذلك الاندفاع القوي والحساسية الشديدة اللذين يتميز بهما آل كارامازوف، وأن فيه شيئاً آخر، شيئاً آخر يا سادتي القضاة، شيئاً كان يصرخ في أعماق نفسه ويحاصر فكره ويسمم قلبه، ألا وهو ضميره، يا سادتي القضاة، ضميره الذي أدانه وحكم عليه، وأصبح يعذبه ويرهقه! ولكن المسدس سيضع حداً لكل شيء، فهو الحل الوحيد، ولا حلَّ سواه. أما عما سيحدث بعد ذلك، فإنني لست أدري هل تساءل كارامازوف في ذلك الأوان عمَّا سيصير إليه في العالم الآخر. لست أدري هل كان كارامازوف قادراً على أن يفكر في حياته الآخرة كما فعل هاملت. لا يا سادتي القضاة، نحن أناس ليس عندنا أمثال هاملت؛ إن بلادنا ليس فيها حتى الآن إلّا أمثال كارامازوف!».

وهنا عرض هيبوليت كيريلوفتش لوحة أكثر تفصيلاً لتحضيرات ميتيا، من زيارته للموظف برخوتين، مروراً بمتجر البقالة، وصولاً إلى مناقشاته مع أصحاب العربات؛ وذكر عدداً كبيراً من أقواله وصيحاته وإشاراته، التي أكدها الشهود. فكان للوحة التي رسمها تأثير كبير على قناعة الحضور. وكان تكامل الوقائع التي سردها هو الذي خطف الانتباه خاصةً، وأصبح واضحاً للجميع ذنب هذا الرجل المجنون، وطائش العقل الذي لم يعد ينتبه لشيء، نفسه هو القاتل فعلاً.

«لم يعد المتهم في حاجة لمن يعتني به، تابع هيبوليت كيريلوفتش. فقد أوشك مرتين أو ثلاث مرات أن يعترف بكل شيء؛ فكان يُلمع إلى جريمته بدون انقطاع، ولكنه لم يتحدث عنها صراحة (هنا ذكر وكيل النيابة بشهادات الشهود)؛ حتى لقد صرخ سائلاً الحوذي وهو في طريقه إلى موكرويه: «هل تعرف أنك تُقلُّ في عربتك قاتلاً؟». ومع ذلك كان لا يذهب في اعترافاته إلى آخرها. المهم أن يصل أولاً إلى موكرويه وأن يكمل القصيدة. ولكن إليكم ما كان ينتظر المسكينَ هناك: لقد لاحظ منذ الدقائق الأولى، منذ وصوله إلى تلك القرية، أولاً ثم أدرك بعد ذلك أن منافسه الذي «لا يُجحد»، أو الذي كان يظن أنه «لا يُجحد»، ليس بالمنافس الذي «لا يُجحد» حقاً، وأن الحبيبة لا تنتظر منه، هو ميتيا، أن يهنئها بالسعادة الجديدة. على أنكم تعرفون الوقائع يا سادتي المحلَّفين، تعرفونها من نتائج التحقيق. لقد انتصر كارامازوف على منافسه انتصاراً كاملاً. وعندئذ يا سادتي، بدأت مرحلة جديدة من مراحل عذابات قلبه، مرحلة من أفظع المراحل التي عرفها والتي سيعرفها أيضاً. إلّا أننا نستطيع أن نؤكد أن الطبيعة تُنزل فيمن يسيء إليها عقاباً أشد هولاً من العقاب الذي تُنزله فيه عدالتنا على الأرض: ذلك هو عذاب الضمير! بل يمكننا أن نذهب إلى أبعد من هذا فنؤكد أن العقاب الذي يمكن أن توقعه العدالة الإنسانية يخفف العقاب الذي توقعه الطبيعة، وهو في هذه الأحوال ضروري لنفس المجرم، لأنه السبيل الوحيد إلى خلاص روحه من اليأس. ليس في وسعنا أن نتخيل أنواع الهول وضروب العذاب التي لا بد أن يكون كارامازوف قد عاناها حين عرف أن هذه المرأة تحبه، وأنها تعدل في سبيله عن صديقها «القديم الذي لا يُجحد»، وأنها تدعوه هو إلى أن يبدأ معها حياة جديدة، وأنها تَعِده هو، هو ميتيا، بالسعادة؛ وذلك في اللحظة التي كان فيها كل شيء في نظره قد انتهى، فأصبح لا يستطيع أن يتعلق بأيّ أمل، وأن يتشبث بأي رجاء. أحب في هذه المناسبة أن أثبت واقعةً أعتقد أنها هامة جداً لفهم الوضع الذي كان عليه المتهم في تلك اللحظات: إن تلك المرأة التي كان يحبها ويشتهيها شهوة عارمة، كانت قد بقيت إلى آخر لحظة، إلى حين القبض عليه، بعيدة المنال لا يستطيع الظفر بها. ربَّ سائل: لماذا لم ينتحر إذن، لماذا غيَّر رأيه حتى لقد نسي مسدسه؟ الجواب عن هذا أن هواه المشبوب وأمله المفاجىء في إرضاء هذا الهوى

لم يلبثا أن منعاه من تنفيذ ما عقد النية عليه. إنه وهو في سكرة اللهو والقصف قد التصق بحبيبته التي كانت تشاركه في لهوه وقصفه، والتي كانت تبدو له في تلك اللحظات أجمل وأروع وأحق بالحب والعبادة منها في أي وقت مضى، فهو لا يحوِّل عنها نظره، وهو لا ينفك يزداد إعجاباً بها. حتى إن هذا الهوى الحار وهذا الظمأ الشديد إلى الحب قد خنقا في نفسه، أول الأمر، لا الخوف من الاعتقال فحسب، بل عذاب الضمير أيضاً. ولكنهما لم يخنقاهما إلّا لحظات قصيرة أيها السادة، لحظات لا أكثر! إنني أتصوّر حالة المتهم النفسية وقد استبدت به عناصر ثلاثة: أولها أبخرة الخمرة التي صعدت إلى رأسه وضوضاء الرقصات والأغاني التي تدوّي في أذنيه وهذه المرأة التي تخضَّب وجهها بالحمرة من أثر الشراب وبدأت تغني وترقص سكرى هي أيضاً، وكانت تضحك أمامه؛ وثانيها أملٌ في أن الخاتمة المحتومة ما تزال بعيدة، أو أنها ليست قريبة على الأقل، وأنها لن يأتي موعدها قبل الغداة، وأنه لن يُقبض عليه قبل طلوع الفجر، وأن أمامه ساعتين من الوقت. إن في وسع المرء أن يضع خلال بضع ساعات خططاً كثيرة. إنني أتصور أن حالته النفسية حينذاك لا بد أن تكون شبيهة بحالة المحكوم عليه الذي يقاد إلى الميدان الذي سيُشنق فيه، فهو يقول لنفسه وهو راكب عربة التحقير بينما الحصان يسير بخطًى بطيئة أمام ألوف المشاهدين: «ما يزال هناك شارع، شارع طويل سأجتازه»، ثم تنعطف العربة يمنة وتلج شارعاً آخر لا يظهر الميدان الذي نُصبت فيه المشنقة الرهيبة إلّا في نهايته! يُخيَّل إليَّ أن المحكوم عليه لا بد أن يشعر، في بداية هذه الرحلة، أنه ما تزال أمامه حياة لا نهاية لها. ولكن المنازل تخطر أمام عينيه واحداً بعد آخر، والعربة تتقدم بغير شفقة، والرجل يقول لنفسه: «ليس هذا بشيء، ما يزال المنعطف بعيداً، ويستمر ينظر رابطَ الجأش، إلى ألوف المستطلعين الذين يزدحمون على اليسار واليمين من ممره دون اكتراث، والذين تحدّق أنظارهم إليه. إنه يتصور عندئذ أنه شبيه بجميع هؤلاء الخلق، وأنه ما يزال ينتمي إلى عالم الأحياء. وها هي العربة تنعطف إلى الشارع الآخر. أوه! ليس هذا بشيء، فما يزال هناك الشارع كله. وتخطر المنازل واحداً بعد آخر، ولكنه يظل يردد: «ما يزال هناك منازل كثيرة»، ويستمر على ذلك حتى النهاية، حتى لحظة الوصول إلى الميدان المشؤوم. تلك هي في رأيي الحالة النفسية التي كان عليها كارامازوف أثناء تلك الساعات. كان يقول لنفسه: «لم يتسع وقتهم لاكتشاف الجريمة، وبإمكاني أن أتوصّل إلى تعليل ما. أوه! سوف أهتدي إلى تعليل ما. سوف أهتدي في أثناء هذا الوقت إلى خطة دفاع، إلى وسيلة أُبعد بها الخطر عن نفسي. أما الآن، أما الآن، الآن فما أجملها!». صحيح أنه كان مضطرباً خائفاً، ومع ذلك فقد ملك من حضور البديهة ما مكَّنه من اقتطاع نصف المبلغ الذي جاء به، وإخفائه في مكان ما - ذلك أنني لا أستطيع أن أفسِّر بغير هذا كيف أمكن أن يتبخّر نصف تلك الثلاثة آلاف روبل التي أخذها من تحت وسادة أبيه. كان قد جاء قبل ذلك إلى موكرويه، وظل يقصف فيها يومين فهو يعرف هذا المنزل الخشبي الكبير القديم، يعرف جميع أركانه، طاف في أروقته، وتجول في غرفه. إنني أفترض أنه في ذلك المنزل خبأ نصف المال قبل أن يُقبض عليه بلحظات، دسَّه في شق أو تحت وتد، في زاوية معتمة، أو بين القرميد، هل أدري؟ فإذا سألتموني ماذا كان هدفه من اقتطاع نصف المبلغ وإخفائه، قلت إن الهدف واضح. فالمصيبة قد تسقط عليه من لحظة إلى أخرى، وهو لمَّا يفكر بعد في وسائل حماية نفسه منها، وليس في وقته متسع للتفكير في ذلك، ما دام رأسه يضج، ولأن كل شيء خلال تلك الدقائق كان يدفعه نحو الحبيبة!. ولكن المرء يحتاج إلى المال في جميع الظروف. ومن ملك شيئاً من مال، فقد ظل في هذا العالم شيئاً مذكوراً. رب قائل إن مثل هذا الحساب ليس طبيعياً في ساعة كتلك. ولكنني أسألكم: ألم يقل لنا المتهم نفسه إنه منذ شهر، في ساعة مضطربة أيضاً من حياته، قد اقتطع نصف الثلاثة آلاف روبل وخاط عليها كيساً؟ ولئن كان زعمه هذا كاذباً، كما سأبرهن على ذلك بعد قليل، فإن هذا لا ينفي أن هذه الفكرة كانت قد راودته وأنه كان قد درسها؛ حتى ليمكن أن نذهب إلى أنه حين أعلن لقاضي التحقيق بعد ذلك أنه وضع نصف المبلغ في كيس (كيسٍ لم يوجد في يوم من الأيام)، إنما وافته فكرة هذا الادعاء عفو الخاطر لهذا السبب عينه، أعني لأنه كان قد

اقتطع نصف المبلغ في موكرويه، قبل ساعتين، وخبأه من باب الاحتياط إلى الفجر، حتى لا يحتفظ به في أحد جيوبه، خاضعاً في ذلك لوحي مفاجئ... تذكّروا الهوّتين، تذكروا الهوَّتين اللتين يمكن أن يتأملهما رجل مثل كارامازوف في آن واحد! ولقد فتشنا المنزل مع ذلك فلم نعثر على شيء؛ ربما يكون المال ما يزال موجوداً في هذه اللحظة التي أتحدث فيها، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المال قد أُخذ في الغد وأنه الآن في حوزة المتهم. مهما يكن من أمر، فعندما اعتقل المتهم كان قربَ هذه المرأة، جاثياً على ركبتيه أمامها، وكانت هي مستلقية على السرير، وكان هو ماداً ذراعيه نحوها، وقد بلغ به النسيان في تلك اللحظة أنه لم يسمع حتى وقع أقدام الرجال الذين جاؤوا للقبض عليه. لم يكن قد هيأ بعدُ شيئاً يجيب به عن أسئلتهم. لقد دهموه فجأة.

وها هو يقف أمام قضاته الذين سيقررون مصيره. سادتي المحلَّفين، إننا، أثناء» ممارسة وظيفتنا، نمر بلحظات يعترينا فيها، فجأة، خوف أمام شخص وخوف عليه؛ وهي اللحظات التي تستيقظ فيه فجأة كل غرائز الدفاع الذاتي، فينظر إليك، وأنت تحاول إنقاذه نظرة ثاقبة وأليمة ومتسائلة تسيطر عليك وتتفحصك أنت وجهك وأفكارك، متسائلاً ما هي الجهة التي سنأتيه منها؛ وسرعان ما تقوم في ذهنه المضطرب عندئذ ألوف الخطط، ومع ذلك يخاف أن يتكلم، فتفلت منه كلمة متسرعة وعجولة. إن الإذلال والشدائد والرغبة البهيمية في الافلات من العقاب، كلها عوامل تولد الألم، وتثير الشفقة والعطف حتى لدى قاضي التحقيق. شهدنا هذا المنظر حين تم القبض على كارامازوف. بدا في أول الأمر مصعوقاً، خائر القوى منهكاً، فأفلتت من لسانه كلمات تعرّضه للخطر. قال: «سفحت دماً! أستحق هذا المصير!» ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه، فماذا يقول، ماذا يجيب؟ إنه لا يعرف لأنه لم يهيىء شيئاً، فلجأ في أول الأمر إلى الانكار: «أنا لم أقتل أبي!». كان هذا المتراس الوحيد الذي أقامه ارتجالاً ليحتمي به، وهناك متاريس أخرى. قال لنفسه: «سأجد تعليلاً، سأتخيل شيئاً ما!». وحاول بعد ذلك أن يصلح ما أفسده وأن يتدارك ما ورطته فيه صيحاته الطائشة التي لم يكن فيها شيء من التروي، فاستبق أسئلتنا وأعلن أنه لا يعتبر نفسه مسؤولاً إلّا عن موت الخادم غريغوري. قال: «صحيح أنني سفحت دمه، ولكن من الذي قتل أبي، من الذي قتله مادمت لست أنا القاتل؟» هل سمعتم: إنه يلقي علينا السؤال، الذي جئنا نطرحه عليه! لاحظوا هذه الطريقة التي يعمد إليها في استباق الأمور: «ما دمت لست أنا القاتل»، انظروا إلى هذا المكر وإلى هذه السذاجة، التي تدل على نفاد الصبر. لست أنا القاتل، وأحذركم من الوقوف عند هذه الفكرة. ثم لا يلبث أن يعترف قائلاً بعد قليل (إنه يتعجل، يتعجل تعجلاً رهيباً): «كنت أريد أن أقتله أيها السادة، كان في نيتي ذلك؛ ولكن لست أنا الذي قتلته، لست أنا المسؤول عن مقتله!». هو يسلِّم لنا بأنه كان ينوي أن يقتله، فكأنه يقول لنا: انظروا كم أنا صادق، فعليكم أن تصدِّقوني متى أكَّدت لكم أنني لم أقتل. إن المجرمين يبرهنون في مثل هذه اللحظات على خفة وطيش وسذاجة لا يتصورها العقل. وفي تلك اللحظة نفسها سُئل، كأنما بمصادفة، وكأن الأمر عادي طبيعي إلى أبعد الحدود: «ألا يجوز أن يكون سمردياكوف هو القاتل؟». فاستخدم طريقة هي بعينها الطريقة التي تنبأنا بها: غضب حين لاحظ أننا كشفنا ما يخبىء في نفسه بينما هو لم يتسع وقته بعدُ لإعداد متراسه واختيار أفضل لحظة لإلصاق التهمة بسمردياكوف؛ فبادر يندفع إلى الطرف الأقصى الآخر، خاضعاً في ذلك لقوانين الطبيعة، وأخذ يحاول أن يبرهن لنا بحماسة وحرارة على أن سمردياكوف لا يمكن أن يكون القاتل، وعلى أنه عاجز عن أن يقتل. ولكن لا تصدِّقوه، فما كان هذا إلّا حيلة: إنه لم يعدل إطلاقاً عن فكرة استعمال سمردياكوف لتبرئة نفسه. بالعكس: سوف يقدِّم سمردياكوف متى آن الأوان، وهل يوجد إلّا سمردياكوف شخصٌ يستطيع أن يحمِّله الجريمة؟ ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد، أما الآن فقد ضاعت الفرصة. قد يخرج سمردياكوف غداً أو بعد بضعة أيام. سوف ينتظر الفرصة الملائمة ليصيح قائلاً: «انظروا! ألا تتذكرون أنني استبعدت أن يكون سمردياكوف هو القاتل؟ ألا تتذكرون أنني دافعت عنه أكثر منكم؟ ولكنني اقتنعت الآن بأنه هو الذي قتل، وأنه الوحيد الذي يمكن أن يكون مرتكب هذه

الجريمة!». أما في تلك اللحظة فقد اصطنع أمامنا موقف الانكار القاطع والنفي، متظاهراً بكثير من الحنق. ومع ذلك فإن نفاد الصبر وشدة الغضب قد أوحيا إليه بتفسيرٍ لسلوكه هو بين جميع التفسيرات الممكنة أقلُّها براعة وأبعدها عن المعقول، فأخذ يقص علينا كيف أنه اقتصر - في زعمه - على أن نظر من خلال نافذة أبيه ثم انصرف بعد ذلك باحترام. يجب ألّا ننسى أن المتهم لم يكن على علم في تلك اللحظة بخطورة الأقوال التي وردت في شهادة غريغوري بعد أن صحا هذا الأخير من غيبوبته. وقمنا بتفتيشه على ما توجبه الأنظمة، فأغضبه هذا الاجراء، ولكنه شجعه في الوقت نفسه، فإننا لم نعثر على الثلاثة آلاف روبل كاملةً، ولم نجد إلّا ألفاً وخمسمئة روبل. وواضح أنه في أثناء تلك اللحظات من الصمت الغاضب خطرت بباله لأول مرة فكرة أن يحدثنا عن ذلك الكيس. كان هو بالذات، بدون شك، يحس بأن هذا الاختراع غير معقول، ولا شك في أنه كان يُعمل فكره بجهدٍ لكي يجعل هذا التلفيق جائزاً محتملاً، دون أن يدري ما يجب عليه أن يتصوره حتى يخترع رواية يقتنع بها العقل. ولكن أول واجب يقع على عاتق المحققين في مثل تلك اللحظات هو أن يباغتوا المتهم فلا يتركوا له فسحة من الوقت لتحضير إجابته، وأن يقودوه بذلك إلى الكشف عمَّا يضمره من حساب مع كل ما يشتمل عليه هذا الحساب من سذاجة، ومع ما يحتويه من تناقضات. ولا يمكن إكراه المجرم على أن يفضح نفسه هكذا إلّا إذا أُطلع فجأة، بما يشبه الصدفة العابرة، على واقعة لها دلالة بليغة، ولكنه ما يزال يجهلها ولم يخطر على باله وجودها ولا استطاع أن يتهيّأ لها. وكنا نحن قد أعددنا هذه الواقعة. كنا قد أعددناها منذ مدة طويلة. ألا وهي شهادة الخادم غريغوري الذي صرَّح حين صحا من غيبوبته أنه رأى الباب الذي هرب منه القاتل مفتوحاً. نسي المتهم تماماً أن يفكر في ذلك الباب، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن يكون غريغوري قد رآه. فلما فاجأناه بهذه الواقعة، كان لها فيه أثر فظيع، فها هو يقفز ويصرخ قائلاً لنا: «سمردياكوف هو الذي قتل! إنه سمردياكوف!». هكذا كشف المتهم عن فكرته السرية، وفضح خطة دفاعه الأساسية، ولكنه أسلمنا ذلك في صورة هي أبعد الصور عن المعقول، لأن سمردياكوف ما كان يمكن أن يقتل إلّا بعد أن قتل المتهمُ غريغوري وولّى هارباً. فلما أخبرناه أن غريغوري رأى الباب مفتوحاً قبل أن يسقط على الأرض وأنه حين خرج من غرفته سمع أنين سمردياكوف، صُعق فعلاً. إن زميلي المحترم والمرح نيكولا بارفينوفتش روى لي بعد ذلك أنه أشفق عندئذ على المتهم. وفي تلك اللحظة سارع المتهم، إصلاحاً للموقف، فأفضى إلينا بقصة الكيس العجيبة تلك: «طيب... إليكم الآن هذه الرواية!». السادة المحلفين، سبق أن ذكرت لكم رأيي في هذه القصة، لماذا كنت أعتبر هذا الاختراع المخيط عليه كيس منذ حوالى شهر، ليس سخيفاً فحسب وإنما الاختراع الأكثر غرابة الذي يمكن إيجاده. إن في وسعنا في هذه النقطة أن نربك قصَّاصنا المرتجل الواثق بنفسه، وأن نفضج كذبه وندمِّر حجته، بأن نجابهه ببعض التفاصيل، بتفاصيل من تلك التي ما أكثر ما يحفل بها الواقع، ولكن هؤلاء المساكين الذين يلفقون القصص الوهمية على غير إرادة منهم يهملونها ويغفلونها على أنها تافهة لا قيمة لها، بل ولا تخطر لهم على بال أصلاً. ولا يتسع وقتهم للاهتمام بهذه التفاهات، وإنما هم يتصورون حكاياتهم في خطوطها العريضة وصورتها المجملة ولكن ها هم يجابَهون بتلك التفاصيل الصغيرة! وعندئذ نستطيع أن نضبطهم. ألقينا على المتهم هذا السؤال: «من أين جئت بقماش ذلك الكيس الصغير، ومن الذي خاطه لك؟» فأجابنا: «خِطْته بنفسي». فألحنا نسأله: «والقماش، من أين جئت به؟» فشعر باستياء، كأن الأمر أمر ترهات غير لائقة به. ولقد كان عندئذ صادقاً، نعم صادقاً! فلا تعذِّبوه. إنهم جميعاً على هذه الشاكلة. هؤلاء المجرمون! قال: «انتزعت قطعة قماش من قميصي». قلنا: «عظيم. سنعثر غداً على هذا القميص بين ملابسك، سنعثر على هذا القميص الذي تنقصه قطعة». إنكم تعرفون يا سادتي المحلَّفين أننا لو كنا قد عثرنا فعلاً على ذلك القميص (وهل كان يمكن ألّا نعثر عليه في حقيبته أو في درج لو كان له وجود حقاً)، لكان ذلك واقعة محسوسة تشهد بصدق أقواله. ولكن ذلك لم يكن قد خطر على باله، واستأنف كلامه يقول: «لست أتذكر جيداً. أعتقد أنني لم أنتزع قطعة القماش من قميص، بل قصصتها

من طاقية لصاحبة المنزل الذي أسكن فيه». سألناه: «أية طاقية؟» فأجاب: «طاقية أخذتها من عندها وكانت ملقاةً في غرفتها، هي متاع من تلك الأمتعة القديمة القطنية». قلنا: «هل ذكرياتك دقيقة؟» قال: «لا، ليست دقيقة!»، وأخذ يثور ويثور. إنني أسألكم: كيف يمكن أن ينسى هذا الأمر؟ إن التفاصيل التي من هذا النوع هي التي تعود إلى ذاكرة المرء في أتعس أوقات الحياة، في لحظة الاعدام مثلاً. فإذا بالمحكوم عليه، الذي ربما يكون قد نسي كل ما عدا ذلك، يتذكر السطح الأحمر من منزل رآه أثناء الطريق، أو يتذكر غراباً أسود رآه جاثماً على صليب، لأن هذه التفاصيل تبقى محفورة في الذاكرة إلى الأبد. ولا بد أن المتهم قد اختبأ عن أعين الناس الذين يقيم عندهم حين أخذ يخيط ذلك الكيس، ولا بد أن يتذكر ما كان يشعر به عندئذ من ذلّ وألم حين كان ممسكاً بالابرة وهو يرتجف خوفاً من أن يدخل عليه أحد فيباغته ملتبساً بالفعل؛ ولا بد أنه كان ينتفض لدى سماعه أخفَّ ضجة فيسرع يختبىء وراء الستارة (لأن في غرفته ستارة)... لكنني أتساءل، يا سادتي المحلَّفين، لماذا أذكر لكم هذا كله، لماذا أذكر لكم جميع هذه التفاصيل، وجميع هذه الترهات! بهذا صاح هيبوليت كيريلوفتش، ثم واصل كلامه قائلاً: إنني مضطر إلى أن أفعل ذلك لأن المتهم ما يزال مصراً في عناده على أن يورد مثل هذه المزاعم السخيفة. إنه خلال هذين الشهرين الماضيين، منذ تلك الليلة التي حملت إليه ذلك الشؤم كله، لم يقدّم لنا تعليلاً واحداً مرضياً، ولم يستطع أن يضيف أبسط واقعة محسوسة إلى ما سبق أن لفقه لنا خياله العجيب. هذه في نظره تفاصيل لا قيمة لها، ويجب علينا أن نصدق أقواله على عهد الشرف وحده. والحق أننا لا نتمنى إلّا أن نصدقه، والحق أننا نحب كثيراً أن نثق به وأن نركن إلى كلامه ولو على عهد الشرف وحده. فهل نحن أناس سفاحون متعطشون إلى دماء البشر؟ ألا فأعطونا واقعة واحدة، يمكن أن تساعدنا على تبرئة المتهم، فنسرّ بذلك، ونغتبط له. ولكن لا بد لنا من عنصر ملموس، لا بد لنا من عنصر واقعي، لا بد لنا من شيء غير الاستنتاجات التي يستنتجها أخوه من تعبير وجهه، ولا بد لنا من شيء غير قول القائل إن المتهم حين ضرب صدره إنما كان يدل على الكيس المخبأ فيه، إنما كان يشير إلى هذا الكيس، وذلك في ظلمة الليل أيضاً! لسوف يسرنا أن نعرف أية واقعة جديدة، ولسوف نكون عندئذ أول من يعدل عن الاتهام ويسارع إلى الاعتراف ببراءة المتهم. ولكن حرصنا الشديد على العدالة يلزمنا بواجبنا في هذه الساعة، فلا بد لنا أن نلح على ذكر الأدلة التي تدين المتهم، وليس لدينا إلّا أن نطلعكم عليها». هنا وصل هيبوليت كيريلوفتش إلى نهاية مرافعته. كان يرتجف عندئذ من الحمى، فتحدث بصوت متهدج متألم عن الدم المسفوح، دم الأب الذي قتله ابنه «بدافع حقير هو الطمع في المال»؛ وألحَّ بشدة على أن الأدلة القاطعة التي تدين المتهم متوافرة تماماً بشكل لا يترك مجالاً لشك أو تردد. وختم كلامه قائلاً: «أياً كان الكلام الذي سيقوله لكم بعدي وكيلُ المتهم، المحامي المعروف بموهبته (لم يملك هيبوليت كيريلوفتش إلّا أن يضيف هذه الكلمات) الذي ستترجع في هذه القاعة أصداء خطابه البليغ المؤثر من أجل أن يهز عواطفكم، فلا تنسوا يا سادتي المحلفين أنكم أمام هيكل عدالتنا. تذكروا أن رسالتكم هي أن تدافعوا عن الحقيقة، وأن مهمتكم هي حماية وطننا المقدس روسيا، وأن تصونوا أسس حياتنا القومية، وأن تذودوا عن الأسرة وعن أرفع قيم الحياة الاجتماعية! نعم يا سادتي المحلَّفين، إنكم تمثلون الآن روسيا كلها، تمثلون روسيا التي تشخُص بأنظارها إليكم في هذه الساعة حماةً وقضاةً من حماتها وقضاتها، فعلى قراركم يتوقف أن يشتد أزرها، أو أن يخيب ظنها. فلا تعذبوا روسيا، لا تخيبوا رجاءها، لأن الترويكا الجامحة التي تحمل مصائرنا القومية تعدو بسرعة قصوى ربما هوت بهذه المصائر إلى الهلاك. إن العقلاء من رجال بلادنا يمدون أذرعهم إلى الخيول الهائجة، منذ زمن طويل، ضارعين مبتهلين أن يوقَف اندفاعها العنيف العارم. وإذا كانت الشعوب الأخرى لاتزال تتنحى عن طريق الترويكا الطائشة، فربما ليس من باب الاحترام، كما أراده الشاعر، وإنما من قبيل الخوف فقط، لاحظوا ذلك. بسبب الخوف وربما بسبب الاشمئزاز منه، ولا يزال جيداً أن ينحوا، ولكن أن تنتصب سداً منيعاً أمام هذه الرؤية الجامحة. وهم الذين يوقفون اندفاع سلوكنا المجنون، إنقاذاً لأنفسهم هم

وإنقاذاً للحضارة والثقافة. إن هذه الأصوات القلقة التي ارتفعت في أوروبا، فقد سبق ووصلت إلى مسامعنا. إن الاحتجاجات أخذت تنطلق. لا تستسلموا لاغراءاتهم، ولا تزيدوا حقدهم المتصاعد علينا بإصدار حكم يسوِّغ أن يُقتل أبٌ بيد ابنه!...».

باختصار إن هيبوليت كيريلوفتش قد انقاد لفصاحته وبلاغته، ولكنه مع ذلك قد أنهى كلامه بنغمة مؤثرة فعلاً، وجاء عملياً خطابه بالغ التأثير. فلما انتهى من مرافعته، أكرر، كاد أن يغمى عليه في الغرفة المجاورة. ولم يصفق الجمهور، غير أن الجديين شعروا بالارتياح والرضى. وكانت السيدات أقل اغتباطاً وابتهاجاً بطبيعة الحال، ولكنهن قد تذوقن، هنَّ أيضاً، فصاحة وكيل النيابة وأعجبن ببلاغته، لا سيما وأن الشك في نهاية المحاكمة لم يساورهن، فهنَّ لا يخشين شيئاً من هذه الناحية، لأنهن يعوِّلن كثيراً على فيتوكوفتش، فإنه «سيتكلم أخيراً، وسينتصر لا محالة!». واتجهت جميع العيون نحو ميتيا: كان قد أصغى إلى مطالعة النيابة وهو صامت، متشنج اليدين، صارفاً الأسنان، خافض العينين. وكان في بعض الأحيان يرفع رأسه، ويُصيخ بسمعه. وهذا ما حدث خصوصاً حين ذكر غروشنكا. فحين أورد وكيل النيابة رأي راكيتين فيها، ارتسمت على شفتي ميتيا ابتسامة شريرة محتقِرة، وقال بصوت مسموع: «هؤلاء أناس من أمثال برنار!». وحين روى هيبوليت كيريلتوفتش كيف استجوب وعذب المتهم في موكرويه، رفع ميتيا رأسه، وأصغي بانتباه شديد. وفي لحظة من اللحظات، أراد أن يقفز عن مكانه ليقول شيئاً ما بطبيعة الحال، لكنه عرف كيف يسيطر على نفسه واكتفى برفع كتفيه احتقاراً. وقد أثارت خاتمة المطالعة، ولا سيما الحديث عن المهارة التي قاد بها استجواب المتهم في موكرويه، مناقشات كثيرة في مجتمعنا؛ وكانوا يسخرون من هيبوليت كيريلوفتش. «إنه لم يستطع مقاومة إغراء التبجح بنفسه». رُفعت الجلسة، ولكن لمدة وجيزة، ربع ساعة أو عشرين دقيقة في أكثر تقدير. سُمعت أثناءها بين الجمهور أحاديث شتى وصيحات تعجُّب كثيرة. إليكم بعض ما حفظته منها:

- المرافعة جادة! قال أحدهم:

- لقد أكثر من السيكولوجيا! أجابه آخر.

- نعم ولكن ما قاله صحيح، هذه هي الحقيقة خالصة!

- نعم هو حجة في هذا الميدان.

- لقد استخلص العبرة.

- ونحن أيضاً، في بداية مطالعته، هل تتذكرون؟ حين أكد أننا جميعاً نشبه فيودور بافلوفتش؟

- وفي نهاية خطابه كذلك. ولكنه كذب!

- ثم إنه لم يكن واضحاً.

- أخذ بالفصاحة وبالبلاغة.

- كان مخطئاً جداً.

- وقد كان بارعاً على كل حال. طال انتظاره ساعة، ولكنه عرف كيف يفصح عما بنفسه أخيراً!

- ماذا سيقول المحامي.

وفي جماعة أخرى، دار الحديث التالي:

- أخطأ حين نال من هذا المحامي القادم من بطرسبورغ: «حتى يؤثر في عواطفكم». لا شك أنكم تتذكرون هذه العبارة.

- نعم، لقد أخطأه التوفيق هنا!

- أسرف في التعجل.

- هو رجل عصبي.

- نحن نضحك، نحن، أما بالنسبة إلى المتهم فليس في كلام وكيل النيابة ما يضحك.

- مسكين ميتيا!

- وددت لو أعرف ما سيقوله المحامي!

وفي جماعة ثالثة جرى هذا الحوار:

- من هي تلك السيدة التي تجلس في الزاوية، وتضع على عينيها نظارتين صغيرتين؟

- هي زوجة جنرال. إنها مطلَّقة. أنا أعرفها.

- آ... لهذا تضع نظارتين.

- هي هول مخيف.

- أما أنا فأرى أنها مثيرة.

- على مقربة منها، بعد كرسيَّين، توجد امرأة صغيرة شقراء. أؤثرها عليها.

- لقد عرفوا كيف يفحمونه بحذق وبراعة في موكرويه، ألا ترون هذا الرأي؟

- لا أنكر أنهم كانوا بارعين. لم يستطع وكيل النيابة مقاومة الاغراء الذي يحضه على سرد هذه الأمور مرة أخرى. طالما سمعناه يروي هذه القصة مراراً قبل الآن، في منازل بعض الأصدقاء!

- لا حيلة له في دفع هذا الإغراء. غلبه حب الظهور.

- هو رجل يشعر أنه مغبون! هه...

- وهو إلى ذلك سريع التأذي. وقد أسرف في اصطناع أساليب البلاغة، وكانت عباراته طويلة جداً.

- لقد حاول أن يخيفنا، حاول أن يروِّعنا باستمرار. هل تتذكرون ما قاله عن الترويكا؟ «إن عند الشعوب الأخرى رجالاً من أمثال هاملت، أما نحن فليس عندنا بعد إلّا أمثال كارامازوف!». تلك براعة منه.

- أراد أن يتملق اللبراليين. إنه يخاف منهم.

- حتماً! إني أتساءل ما الذي سيقوله السيد فيتوكوفتش.

- مهما يتكلم فلن ينتصر على فلاحينا!

- أتعتقد ذلك؟

وفي جماعة رابعة جرى هذا الحديث:

- أحببت كثيراً تلك الفقرة التي تكلم فيها على الترويكا، الفقرة التي تكلم فيها على الأمم الأخرى.

- لقد قال الحقيقة بعينها - هل تتذكر؟ - حين أكَّد أن الشعوب الأخرى ستضيق ذرعاً بنا آخر الأمر!

- لماذا؟

- ظهرت بوادر ذلك منذ الآن. ففي الأسبوع الماضي قام أحد أعضاء البرلمان الإنكليزي، فقدم سؤالاً إلى الوزارة عن العدميين، وسأل: أما آن الأوان لردع الهمجيين هؤلاء، كي نتمكن أن نعيش. كان هيبوليت كيريلوفتش يتكلم عنه. أنا أعرف ذلك. لقد سبق وحدثنا عن هذه الواقعة الأسبوع الماضي.

- هل هذا صحيح؟

- ولم لا. يكفي مينا كرونشتات، ونوقف إمدادهم بالقمح. فمن أين يجيئون بالقمح عندئذ؟

- وأميركا؟ عندهم الآن قمح، في أميركا!

- غير صحيح!

ودوّى رنين جرس رئيس المحكمة، فأسرع الجميع إلى أماكنهم. وتقدم فيتوكوفتش لإلقاء مرافعته.

X

مرافعة المحامي سلاح ذو حدَّين

سيطر الصمت على القاعة عندما دوَّت الكلمات الأولى التي نطق بها الخطيب الشهير. وكادت القاعة تلتهمه بعيونها. بدأ بشكل مباشر وبسيط ومقنع لكن دون أي غرور. خلا كلامه من أية محاولة لاعتماد البلاغة، وإيثار للألفاظ الرنانة التي تسهِّل التأثير في العواطف. كأنه رجل يتحدث في حلقة ضيقة من الأصدقاء لديهم القناعة نفسها. وكان صوته قوياً محبَّباً لطيفاً ينم جرْسه عن الصدق والبساطة. غير أن جميع الناس قد أدركوا مع ذلك أن هذا المتحدث قادر على أن يرتفع إلى مستوى الخطابة التي تؤثر في السامعين تأثيراً قوياً حقاً، وأن «يضرب القلوب بقوة مجهولة». لعل كانت أقل سلامةً من لغة هيبوليت كيريلوفتش، لكنه لا يستعمل جملاً طويلة، وكانت حتى أكثر دقة. وهناك أمر لم يعجب السيدات فيه: لقد كان يحني ظهره دائماً، ولا سيما في بداية مرافعته، لا كما يحني المرء ظهره في التحية، وإنما كمن يندفع نحو سامعيه. وأكثر من هذا إنه كان لا يحني إلّا نصف ظهره الطويل الذي كان يبدو كأنه مزوَّد بمفصَّلة في وسطه تتيح له أن ينثني زاويةً تكاد تكون قائمة. وقد تكلم في بداية خطابه كلاماً مبعثراً، دون أن يلاحظ المستمع وجود رابط ينظم الكلام أو خطة تربط أجزاءه بعضها ببعض، وإنما هو ينتقل من واقعة إلى أخرى بما يشبه الصدفة، غير أنه قد أخرج من ذلك في النهاية مجموعة متسقة الأجزاء ملتحمة الترابط. بإمكاننا أن نقسم مرافعته قسمين: القسم الأول يشتمل على نقد ودحض للاتهام، وكان في بعض مواضعه لاذع السخرية والتهكم. وأما القسم الثاني فقد غيَّر فيه الخطيب لهجته بل وغيَّر موقفه فجأة، فإذا هو يرتقي دفعةً واحدة إلى نبرة مؤثرة تهز القلوب. وكأن القاعة كانت تنتظر تلك اللحظة، فأخذت ترتعش حماسة. وقد عمد المحامي إلى مواجهة القضية مباشرة، فأعلن قبل كل شيء أنه وإن كان يمارس المحاماة عادةً في بطرسبورغ فقد اتفق له مراراً أن ذهب إلى مدن الأقاليم ليدافع عن بعض المتهمين، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلّا حين يقتنع ببراءة أولئك المتهمين أو يحسُّها. وأضاف شارحاً: «وهذا ما حدث لي أيضاً في القضية التي يُنظر فيها الآن. فإنني منذ قرأت أولى المقالات التي نشرتها الصحف عن هذه القضية قد خطفت انتباهي ظروف تشهد ببراءة المتهم. لكن جانباً قانونياً محضاً هو الذي همني في أول الأمر. لقد رأيت عندئذ، رغم أن الملاحظات التي من هذا النوع كثيرة في ممارسة القضاء، أن الأمور التي تشهد ببراءة المتهم لم تكن في أية قضية واضحة بقوة وضوحها في هذه القضية، ولم تشتمل على تفاصيل بارزة كثيرة في هذه القضية، فيما يخيّل إليَّ. وربما كان ينبغي لي أن أحتفظ بهذه الآراء إلى آخر المرافعة، حين أكون قد انتهيت من درس الوقائع، ولكنني أفضّل أن أعبِّر عما يجول في فكري منذ البداية، لأن من عيوبي أنني أمضي إلى هدفي مباشرة، غيرَ مبالٍ بما يكون لكلامي من تأثير، وغيرَ مكترث لما يجب على المحامي في مثل هذه الظروف اصطناعه من تدرُّج فيما يريد أن يحمله إلى نفوس السامعين. وقد أكون في هذا متهوراً، ولكنني صادق على كل حال. إليكم الفكرة التي أريد أن أعبِّر عنها: إننا نرى، من جهة أولى، قرائن قوية ثقيلة قاطعة تشهد بأن المتهم هو القاتل، ونرى من جهة ثانية أنه ما من واقعة تُتخذ أساساً للاتهام يمكن أن تصمد وحدها لأي تفنيد جدي! وقد عزَّز هذا الشعورَ في نفسي كلُّ ما قاله الناس أو نشرته الصحف عن هذه القضية، ثم ها أنذا أتلقى من أهل المتهم، دعوة إلى تولّي الدفاع عنه. سارعت في القبول، وهنا أصبح

اقتناعي نهائياً. فمن أجل تهديم تلك القرائن المتراكمة واظهار غياب البرهان والطابع التخيلي لكل واقعة ذكرها الاتهام، قبلت أن أتولى الدفاع عن المتهم.«

هكذا بدأ المحامي مرافعته، ثم أعلن فجأة:

»سادتي المحلَّفين، أنا امرؤ جديد هنا. إن هذا المتهم الذي يتصف بطبع عنيف لم يسئ إليَّ في الماضي كما لعله أساء في هذه المدينة إلى عدد من الأشخاص إساءاتٍ تفسِّر لنا ما يحمله له الناس من شعور العداء. طبعاً إن الرأي العام ليس ثائراً عليه بدون سبب: فالمتهم رجل عنيف لا يلجم نفسه ولا يكبح جماحه. ومع ذلك كان يُستقبل في المجتمع الراقي، ويُدلَّل حتى في أسرة السيد وكيل النيابة الذي أقدر موهبته العظيمة وأعجب بها كثيراً.

(ملاحظة: أثارت هذه الكلمات في الجمهور ضحكات قصيرة لم تلبث أن خُنقت، ولكن جميع الناس لاحظوها، لأنهم كانوا يعرفون أن وكيل النيابة استقبل ميتيا في منزله على مضض، لمجرد أن زوجته رأت في ميتيا فتى شائقاً. إن زوجة وكيل النيابة امرأة محترمة، وهي سيدة فاضلة إلى أبعد الحدود، ولكنها غريبة الطبع قليلاً، تحب أن تعاكس زوجها أحياناً، ولا سيما في الأمور التي ليس لها شأن كبير فيها. على أن ميتيا لم يزرهما إلّا نادراً). «ولكنني أستطيع أن أؤكد مع ذلك، تابع المحامي كلامه أن موكِّلي سيِّئ الحظ قد خلَّف أثراً سيئاً حتى في نفسية خصمي الذي يتصف باستقلال الرأي ويتميز بالانصاف والعدل. أنا أعرف أن هذا المسكين قد فعل كل ما من شأنه أن يحمل الناس على إساءة الظن به وإساءة الحكم عليه، وأن يحملهم على ألّا يكنّوا له عاطفة طيبة. إن مخالفة الشعور الأخلاقي، ومجافاة الحس الجمالي خصوصاً، أمران لا يُغتفران. لقد سمعنا في المطالعة اللامعة التي ألقتها النيابة تحليلاً قاسياً لنفسية المتهم وأعماله، وسمعنا عرضاً تناول وقائع القضية بنقد صارم؛ وقد حاولت النيابة خاصةً، لكي تُفهمنا جوهر القضية، أن تطلّ بنا على أغوار سيكولوجية ما كان للسيد وكيل النيابة أن يسبرها لولا أنه يضمر لشخص المتهم شيئاً من العداء أو سوء الظن. لكن هناك، في مثل هذه الحالات، أموراً أكثر شؤماً مما قد يحمله المرء للمتهم من عاطفة سيئة، أو ما قد يتخذه منه من موقف معادٍ قصداً وعمداً. ذلك ما يحدث خاصةً حين ننقاد لنوعٍ من العبث الفني، لنوعٍ من الحاجة إلى الخلق الشعري إن صح التعبير، لنوع من الرغبة في إنشاء رواية وتأليف قصة، وهذا أمر مفهوم حين تكون العناية الالهية قد أعطتنا مواهب سيكولوجية.

عندما كنت في بطرسبورغ أستعد للمجيء إلى هذه المدينة قد نُبِّهت - وما كنت أجهل ذلك على كل حال - إلى أنّني سأواجه في هذه القاعة خصماً وُهب إحساساً سيكولوجياً خارقاً عميقاً، اكتسب بفضل كفاءاته المرموقة في هذا الميدان سمعة جيدة لدى الأوساط التي ليس لها خبرة واسعة من رجال هيئتنا القضائية الشابة. ولكن السيكولوجيا، يا سادتي، سلاح ذو حدين، مهما تكن عميقة. (هنا سُمعت في الجمهور ضحكات صغيرة). إنني على ثقة بأنكم ستغفرون لي هذا التشبيه العامي، فأنا امرؤ لا أملك ما يملكه غيري من جمال البيان والبلاغة. لنأخذ مثالاً هو الأول الذي يعرض لنا في مطالعة النيابة. إن المتهم، حين هرب في عتمة الليل عبر الحديقة، تسلق السور، ثم هوى بضربة من مدق الهاون على رأس الخادم الذي تشبث بساقه. وعاد يقفز إلى الحديقة بعد ذلك من جديد، فقضى قرب العجوز الذي قتله خمس دقائق طويلة محاولاً أن يعرف إن هو قتله أم لا. فالنيابة ترفض قطعاً أن تسلِّم، بحال من الأحوال،أن المتهم قد قال الحقيقة حين أكَّد أنه قد اهتمَّ بغريغوري شفقةً عليه. يقول خصمي: «لا، إن هذه العاطفة لا محل لها في مثل هذه الحالة، ولا يمكن أن تكون طبيعية، فإنما قفز المتهم إلى الحديقة مجدداً لا لسبب إلّا أن يتأكد من أن الشاهد الوحيد قد مات، فكأنه حين فعل ذلك قد وقَّع اعترافاً بجريمته، فما كان ليحضه على ذلك أيّ باعث آخر

أو أية عاطفة أخرى، حين عاد إلى الحديقة». إنني أسلم بأن هذا الكلام هو من السيكولوجيا. ولكن فلنأخذ هذه السيكولوجيا فنطبقها على الوقائع تطبيقاً جديداً من الجهة المعارضة، فنرى أن النتائج التي نصل إليها عندئذ لا تقل إقناعاً عن النتائج التي وصلت إليها النيابة. إن القاتل الذي قفز إلى الحديقة ليتأكد من أن الشاهد على جريمته قد مات، كان قد ترك، منذ لحظات، في غرفة أبيه الذي قتله، قرينةً يصفها السيد وكيل النيابة نفسها بأنها قرينة قاطعة ودليل حاسم، ألا وهي الظرف الممزق الذي تثبت العبارة المكتوبة عليه أنه كان يضم مبلغ ثلاثة آلاف روبل. فلو أن المتهم قد سرق هذا الظرف، إذن لما خطر ببال أحد أنه كان هنالك ظرف، ولا خطر ببال أحد أنه كان هنالك مال، ولما استطاع أحد أن ينسب إلى المتهم فعل السرقة. ذلك ما قاله السيد وكيل النيابة. فمن جهة أولى إذن، نرى رجلاً طاش صوابه، واعتراه الخوف فهرب تاركاً في أرض الغرفة برهاناً على ارتكابه الجريمة؛ ومن جهة ثانية نرى هذا الرجل نفسه يسترجع فجأة كل صحو ذهنه وحضور بديهته، ويبرهن على أنه يحسب الأمور حساباً يبلغ أبعد حدود الدهاء، ويمضي إلى أقصى آماد النأي عن العاطفة الإنسانية. لنسلِّم مع ذلك بأن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، لنسلِّم بأن كل رهافة السيكولوجيا تكمن هنا: ربَّ فرد واحد بعينه يملك في بعض الظروف بصيرة دموية كبصيرة نسر من القفقاس، ثم هو يصبح بعد لحظة واحدة أعمى كخلدٍ مروَّع. ولكن إذا كنا قد بلغنا من شدة القسوة ودقة الحساب حدَّ الوثوب مرة أخرى إلى أسفل السور بعد ارتكابنا جريمة قتل، لا لشيء إلّا لكي نتأكد من أن الشاهد الذي قد يشهد علينا قد مات، فلماذا نشغل أنفسنا بعد ذلك خمس دقائق طويلة قرب هذه الضحية الجديدة متعرضين لأن يتنبه إلينا شهود آخرون في أغلب الظن؟ لماذا نلطخ منديلنا بالدم الذي يسيل من رأس الضحية، مع أن هذا المنديل قد يُستخدم بعد ذلك دليلاً علينا؟ ألم يكن من الأفضل لنا، ونحن على هذا القدر من التوحش وقسوة القلب أن نبادر بعد القفز عن السور إلى الحديقة من جديد، فنجهز على الخادم بضربات أخرى نهوي بها على رأسه بمدق الهاون لكي نتأكد من موته، ثم نهرب وقد انتهينا من هذا الهمّ وتخلصنا من هذا الخوف! وإليكم تناقضاً آخر: هل أقفز إلى أسفل السور لأتأكد من موت شاهد مزعج، ثم أترك على ممرٍّ في الحديقة دليلاً قاطعاً عليَّ هو ذلك المدق الذي أخذته من عند امرأتين يمكن أن تتعرفاه وأن تشهدا بأنني أنا الذي أخذته من عندهما؟ ولا يمكن الادعاء بأننا نسينا هذا المدق في الممر أو أنه سقط منا سهواً بسبب ما كنا فيه من انفعال واضطراب. لا، فإنما نحن رمينا ذلك السلاح عمداً، فقد وُجد على مسافة خمس عشرة خطوة على الأقل من المكان الذي كان نائماً فيه غريغوري. فإذا سأل أحدهم لماذا فعلنا ذلك، قلنا نحن فعلناه لما شعرنا به من أسف شديد ومرارة عظيمة لقتلنا رجلاً هو خادم عجوز. فلما تملكنا الغضب من أنفسنا ألقينا السلاح الذي استخدمناه في ارتكاب هذا الذنب، ألقيناه بعيداً عنا. ذلك هو التفسير الوحيد الممكن. وبدون هذا لا يمكن أن يفهم أحد لماذا رمى المتهم ذلك السلاح بمثل ذلك الاندفاع. ولكن إذا استطعنا أن نشعر بتلك المرارة كلها وتلك الشفقة لأننا قتلنا ذلك الخادم العجوز، فإن معنى هذا أننا لم نقتل أبانا: فلو قد ارتكبنا جريمة قتل الأب، لما ذهبنا إلى الضحية الثانية مشفقين، ولكان شعورنا عندئذ مختلفاً عن هذا الشعور كلياً، ولما فكرنا عندئذ إلّا في نجاتنا نحن، ولما أشفقنا على غير أنفسنا أبداً. ذلك أمر بديهي لا سبيل إلى المماراة فيه. بالعكس: كنا سنجهز عندئذ على الضحية، بدلاً من أن نُشغل بها خمس دقائق طويلة! ولئن شعرنا بالشفقة، ولئن استيقظت فينا العواطف الخيِّرة في تلك اللحظة، فما ذلك إلّا لأن الضمير كان نقياً. سيكولوجياً نحن إذن أمام أخرى. وتعمدت، يا سادتي المحلَّفين، أن أعمد أنا أيضاً إلى السيكولوجيا، لأظهر لكم بوضوح أن في وسع المرء أن يخلص إلى ما يشاء من نتائج. والأمر كله هو في معرفة من سيستخدم هذه النتائج. إن السيكولوجيا، يا سادتي، يمكن أن تغري أحرص الناس وأكثرهم جدية، لتأليف القصص، وذلك رغماً عنهم. وهنا، أنا أقصد المبالغة في السيكولوجيا، أيها السادة المحلفون، وبعض إساءات استعمالها».

هنا، سُمعت مجدداً بعض ضحكات الموافقة من قبل الجمهور على مداخلة النائب

العام. لن أعيد هنا مرافعة المحامي بكل تفاصيلها، سوف آخذ مقتطفات منها تعبر عن النقاط الأساسية.

XI

لم يكن ثمَّة مال لم تحدث سرقة

ثمَّة نقطة أدهشت الجميع في مرافعة المحامي وهي إنكار المتهم أن هناك مالاً قد سُرق، أي مبلغ ثلاثة آلاف روبل. وما من أحدٍ يعرف هل كان لهذا المبلغ وجوده..

لا أحد إلّا الخادم سمردياكوف الذي زعم أن هذا المال كان مودعاً في ظرف عليه الكتابة التي علمتم. وهذا الخادم هو الذي نقل أيضاً هذا النبأ، قبل وقوع الكارثة، إلى المتهم وإلى أخيه إيڤان فيودوروفتش، وهمّ عنه إلى السيدة سفيتلوفا. لكن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يَروا هذا المال. وما من أحد رآه إلّا سمردياكوف. ولكن لا بد لنا أن نلقي على أنفسنا عندئذ هذا السؤال: لنفرض أن سمردياكوف كان صادقاً فيما قال، فمتى رأى هذا المبلغ للمرة الأخيرة؟ لنتصوّر مثلاً أن سيده قد أخرج المال بعد ذلك من تحت الفراش ووضعه في صندوقه دون أن يبلغ الخادم ذلك. لاحظوا أن أقوال سمردياكوف تذهب إلى أن المال كان مخبأً في السرير تحت الفراش. فلا بد إذن أن يكون المتهم قد فتش السرير. فهل رأيتم السرير منبوشاً؟ وتلك واقعة مسجلة في محضر التحقيق. فكيف يمكن أن لا يكون المتهم قد جعَّد غطاء السرير ولو بشكل بسيط، بل كيف يمكن أن يكون قد دسَّ يديه الملطختين بالدماء تحت الفراش دون أن يلوِّث المفارش النظيفة المصنوعة من دقيق النسيج، التي وُضعت على السرير في ذلك المساء خصيصاً؟ ربَّ سائل: فما قولك بالظرف؟ فلنتكلم على هذا الظرف قليلاً. لقد دُهشت منذ قليل حين رأيت السيد وكيل النيابة، أثناء حديثه عن هذا الظرف نفسه، في مطالعته اللامعة، حين رأيته هو نفسه - نعم هو نفسه أيها السادة - يقول من أجل أن يبرهن على بطلان اتهام سمردياكوف بارتكاب جريمة قتل: «لولا وجود ذلك الظرف، لولا أن ذلك الظرف كان ملقًى على الأرض دليلاً مادياً، لولا أن السارق لم يأخذ هذا الظرف معه، لما خطر ببال أحد في العالم شيء عن وجوده ووجود المال المودع فيه، ولما أمكن أن يُنسب إلى المتهم أنه سرق». معنى ذلك أن هذه القطعة من الورق الممزق، مع العبارة المكتوبة عليها، هي وحدها الأساس الذي يقوم عليه اتهام المتهم بالسرقة. فلولا هذا الظرف لما عرفنا أن سرقة قد حدثت، ولما كنا متأكدين من وجود المال. فهل يمكن حقاً أن نزعم أن هذه المزقة الحقيرة من الورق الملقاة على الأرض تكون دليلاً كافياً على وجود المال وحدوث السرقة؟ قد يُعترض على هذا بأن «سمردياكوف قد رأى المال في الظرف»، ولكننا نسأل عندئذ: متى، متى رأى هذا الظرف آخر مرة؟ ذلك هو السؤال الذي ألقيه عليكم. لقد تحدثت في هذا الأمر مع سمردياكوف، فذكر لي أنه رآه قبل حدوث المأساة بيومين. فهل محظور علينا أن نفترض والحالة هذه أن العجوز فيودور بافلوفتش قد خطر بباله، حين كان وحده في الغرفة ينتظر حبيبته قلقاً، أن يخرج الظرف من السرير وأن يفتحه، قائلاً لنفسه: «إذا كان المال مودَعاً في الظرف فقد يراودها شك، أما إذا رأت في يدي ثلاثين ورقة جميلة من فئة المئة روبل، فسوف تقتنع فوراً، وسوف يسيل لعابها طمعاً!». ها هو يمزِّق الظرف ويخرج منه المال، ثم يرميه على أرض الغرفة بحركة واثقة هي حركة رب المنزل الذي لا يخشى طبعاً أن يكون في ذلك شهادة عليه. هل هناك حقاً، أيها السادة، افتراض أقرب إلى المعقول من هذا الافتراض الذي عرضته عليكم؟ لماذا لا تكون الأمور قد جرت على هذا الشكل فعلاً؟ ولكن إذا جرت الأمور على هذا النحو، أو على نحو

قريب من ذلك، فقد سقطت تهمة السرقة تلقائياً: فلا وجود لسرقة ما لم يوجد مال. إذا كانت النيابة العامة ترى أن وجود الظرف ملقى على أرض الغرفة دليل على وجود المال، فلا شيء يمنعني أنا من أن أؤكد نقيض ذلك. وهو أن الظرف لم يكن ملقى على الأرض إلّا لأنه قد أفرغ من المال، أفرغه منه صاحبه نفسه سلفاً. ربَّ سائل يسأل الآن: «ولكن إذا صحَّ هذا، إذا صحَّ أن فيودور بافلوفتش هو الذي أخرج المال من الظرف، فأين يوجد هذا المال؟ لم نجد المبلغ أثناء تفتيش المنزل». إن جوابي عن هذا السؤال هو أولاً أن جزءاً من المال قد عُثر عليه في صندوق القتيل؛ وثانياً من الممكن أن يكون العجوز قد أخرج المال في صباح يوم الحادثة، أو قبل ذلك بيوم، ليتصرف فيه تصرفاً آخر، كأن يدفعه لأحد أو أن يرسله إلى أحد؛ وثالثاً يجوز أن يكون قد غيَّر رأيه فيما بعد، فغيَّر خطة عمله بشكل كامل، دون أن يرى اطّلاع سمردياكوف على ذلك سلفاً. فإذا كان هناك أي إمكان لتفسير الأمور على هذا النحو، ففيم هذا الاصرار كله وهذا الاستمرار في تأكيد أن المتهم قد قتل ليسرق، وأنه سرق بعد أن قتل؟ ألا إن هذا مجرد رواية مؤلفة! حين يزعم أحد أن شيئاً ما قد سُرق، فإنما ينبغي له، على الأقل، أن يقول لنا بوضوح ما هو ذلك الشيء، وأن يبرهن لنا على أنه وُجد فعلاً. أما في هذه القضية فإن الشيء المسروق لم يره أحد. لقد حدث في بطرسبورغ، منذ وقت قصير، أن شاباً يكاد يكون مراهقاً، في الثامنة عشرة من عمره، يعمل بائعاً متجولاً، دهم محلَّ صراف في وضح النهار، متسلحاً ببلطة، فقتل الصراف بجرأة وسطا على ألف وخمسمئة روبل. ولكنه قُبض عليه بعد بضع ساعات، فوجدوا المبلغ معه كاملاً لم ينقص منه إلّا خمسة عشر روبلاً كان قد اتسع وقت الشاب لتبديدها. هذا إلى أن أجير الصراف، حين عاد إلى الدكان بعد وقوع الجريمة، تمكن أن يذكر للشرطة لا مقدار المال المسروق فحسب، وإنما ذكر للشرطة أيضاً ما يتألف منه ذلك المال، أي ذكر عدد الأوراق النقدية المسروقة وقيمة كل منها، وعدد القطع الذهبية التي حملها القاتل. وقد عُثر مع القاتل على تلك الأوراق ذاتها وعلى تلك القطع نفسها. يضاف إلى ذلك أن القاتل أدلى أخيراً باعترافات كاملة، فقال إنه قتل وسرق. ذلك يا سادتي المحلَّفين ما أستطيع أن أسميه أدلةً قاطعة. هنا لا مجال للشك: فالمال أمامي، أراه وألمسه، ويستحيل عليَّ أن أزعم أنه لم يوجد. فهل الأمر على هذا الشكل في القضية الراهنة؟ والمسألة مع ذلك مسألة حياة أو موت، مسألة مصير إنسان! رب قائل: «حسناً! ولكن هذا لا ينفي أن المتهم قد قصف في تلك الليلة نفسها، وأنه بدَّد المال يمنةً ويسرة، وأنه قد عُثر معه على ألف وخمسمئة روبل. فمن أين جاء بهذا المال؟». ولكنني أقول إن هذه الواقعة، وهي أنه لم يُعثر معه إلّا على ألف وخمسمئة روبل وأنه استحال رغم جميع الجهود التي بذلت أن يُكتشف النصف الثاني من المبلغ الذي يُزعم أن المتهم قد سرقه، أقول إن هذه الواقعة نفسها تبرهن برهاناً كافياً على أن المال ليس مصدره السرقة وأنه لم يكن مودَعاً في ظرف. إن التدقيق في أجزاء الوقت الذي قضاه المتهم بعد وقوع الجريمة (وقد حُسب هذا الوقت حساباً دقيقاً) قد أوضح أثناء التحقيق أن المتهم لم يذهب إلى منزله بعد أن خرج راكضاً من منزل الخادمتين ليتوجَّه إلى منزل الموظف برخوتين، وأنه لم يذهب إلى أي مكان آخر، وأنه عدا ذلك كان في صحبة أشخاص آخرين طوال الوقت، فمن المستحيل والحالة هذه أن يكون قد أخذ جزءاً من الثلاثة آلاف روبل ليخفيها في مكان ما بالمدينة. وهذه الاعتبارات بعينها هي التي حملت السيد وكيل النيابة على أن يتخيل أن المال لا بد أن يكون قد أُخفي في إحدى الزوايا أو في شق من الشقوق في قرية موكروييه؟ لماذا لا نقول أيها السادة، إنه مخبأ في أقبية قصر أودولف؟ أليس هذا الافتراض غريباً في الواقع؟ لاحظوا يا سادتي المحلَّفين أنه متى سقط هذا الفرض، أعني متى سقط الفرض الذي يذهب إلى أن المتهم قد خبأ المال في موكروييه، فقد سقط الاتهام بالسرقة سقوطاً تاماً، وإلّا فأين ذهبت الألف وخمسمئة روبل الأخرى؟ بأية معجزة اختفت ما دام قد ثبت أن المتهم لم يدخل إلى أي مكان؟ هل بالاستناد إلى روايات يخترعها الخيال على هذا الشكل، يجوز لنا أن ندمِّر مصير إنسان؟ فإذا قيل لي إن المتهم لم يستطع أن يحدّد لنا مصدر الألف وخمسمئة روبل التي عُثر عليها معه، وإنه كان معروفاً لدى جميع الناس أن المتهم لم يكن يملك شيئاً

قبل تلك الليلة، قلت: من يدري؟ إن المتهم قد قدم لنا، من جهته، تفسيراً واضحاً لمصدر ذلك المبلغ؛ وما أحسب إلّا أنكم تسمحون لي، يا سادتي المحلّفين، بأن أنادي قائلاً إنه لا يمكن أن يكون هناك ولا يتصور العقل أن يكون هناك أقوالٌ أقرب إلى الصحة والاحتمال من الأقوال التي أدلى بها المتهم حول هذه النقطة، لاسيما وأن ما رواه المتهم يتفق تماماً مع طبعه وخصاله. لقد أعجب الاتهام بالقصة التي ألّفها: رجل ضعيف الارادة يأخذ ثلاثة آلاف روبل تقدمها إليه خطيبته في ظروف مخزية إلى ذلك الحد، لم يكن باستطاعته أن يقتطع نصف ذلك المبلغ ويخيط عليه كيساً. وفتح على العكس من ذلك، لو أنه فعل ذلك لكان الكيس كل يومين وأخذ منه مئة روبل بعد مئة روبل، إلى أن يعرف المبلغ كله في غضون شهر. لقد قيل لنا ذلك، كما تتذكرون، بلهجة قاطعة. فماذا إذا كانت الأمور لم تجرِ على هذا نحو وإذا كنتم صورتم لنا شخصية روائية لا وجود لها في الواقع! المسألة هي أنكم اخترعتم شخصية مختلفة. أنا أراهن أن هناك شهوداً رأوا المتهم يبدد دفعة واحدة في موكرويه، قبل وقوع المأساة بشهر، كل الثلاثة آلاف روبل التي أخذها من السيدة فرخوفتزيفا، إذن، لا يمكن أن يكون قد احتفظ من ذلك المبلغ بنصفه. ولكن من هم هؤلاء الشهود؟ إن درجة الثقة بهم، قد اتضحت أثناء المناقشات. ثم إن قطعة الخبز تبدو لنا دائماً أكبر مما هي في الواقع حين نراها في يد غيرنا. يضاف إلى ذلك أن أحداً من أولئك الشهود لم يعد المبلغ بنفسه، فقد تم تقديره. لقد أكد الشاهد ماكسيموف أنه رأى في يدي المتهم عشرين ألف روبل؟ أترون، يا سادتي المحلَّفين، أن السيكولوجيا سلاح ذو حدين، فاسمحوا لي إذن أن أواجهها من الطرف الآخر لنرى إلى أين نصل.

قبل وقوع المأساة بشهر، تسلم المتهم من السيدة فرخوفتزيفا ثلاثة آلاف روبل،» كي يرسلها بالبريد.لكن السؤال هو: هل صحيح أن هذا المال قد سُلِّم إليه على النحو المذل الذي وُصف لنا منذ قليل؟ إن الشهادة الأولى التي أدلت بها السيدة فرخوفتزيفا لم تتضمن ذلك، على الاطلاق. أما في شهادتها الثانية فلم نسمع إلا الغضب والانتقام وصرخات الحقد، الذي كان مكبوتاً. ويكفي أن لا يكون هذا الشاهد قد قال لنا الحقيقة دقيقةً في تصريحاته الأولى حتى نشك في صدق التصريحات الأخرى التي أدلى بها بعد ذلك. إن السيد وكيل النيابة «لم يشأ ولم يجرؤ» (وتلك كلماته نفسها) أن يمسَّ هذا الجانب من المأساة. ليكن له ذلك، وهاأنذا أتنازل أنا أيضاً عن التوقف على هذا والتلبُّث عنده. لكنني أسمح لنفسي مع ذلك بإبداء هذه الملاحظة: حين نرى إنسانة فاضلة مثل السيدة فرخوفتزيفا التي نحترمها جميعاً تسمح لنفسها بأن تتراجع أثناء جلسة المحاكمة عن شهادتها الأولى على نية أن تضيّع المتهم، فإنه يكون من الواضح عندئذ أن شهادتها الأولى لا تخلو من الهوى ولا تتصف بالموضوعية. فهل حرام علينا والحالة هذه أن نتصور أن امرأة تجيش في نفسها روح الانتقام وتحركها عواطف الثأر، قد بالغت في كثير من الأمور، وضخمت كثيراً من الأشياء؟ من الممكن أن تكون قد ضخَّمت طابع الذل وصفة العار في تقديمها المال إلى خطيبها. وإني مقتنع بأن هذا المبلغ قد قُدِّم إلى المتهم تقديماً يمكِّن من قبوله، لا سيما بالنسبة إلى رجل خفيف مثل صاحبنا المتهم هذا. ويجب ألّا ننسى أن المتهم كان ينتظر أن يتسلَّم من أبيه في القريب العاجل مبلغ الثلاثة آلاف روبل الذي يدين أبوه له به تصفيةً لحساب الإرث. صحيح أن ذلك كان منه طيشاً، ولكن الخفة هي بعينها التي جعلته لا يشك في أن أباه سيرد إليه هذا المبلغ، فيكون في وسعه في كل وقت أن يعيد إلى السيدة فرخوفتزيفا بالبريد المال الذي أعطته إياه وائتمنته عليه، فيسدِّد دينها عليه. ولكن السيد وكيل النيابة يرفض رفضاً قاطعاً أن يصدِّق أن من الممكن أن يكون المتهم قد اقتطع، في ذلك اليوم نفسه، نصف المبلغ الذي أخذه من خطيبته وأنه خاط عليه كيساً؛ فالسيد وكيل النيابة يرى أن ذلك «لا يتفق وطبع المتهم، وأن المتهم لم يكن يشعر بمثل هذه العواطف». ولكن ألم تهتفوا أنتم أنفسكم قائلين إن لأمثال كارامازوف طبيعة واسعة، ألم تتكلموا هنا على الهوَّتين اللتين يمكن أن يتأملهما في آن واحد رجل مثل كارامازوف؟ إن كارامازوف هو فعلاً ذلك الرجل الذي لا حدود لإمكانياته في الاتجاهين، إنه رجل الهوَّتين الذي إذا انقاد لفرحة إتلاف المال واستسلم

لظمأ اللهو والقصف كان يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يتوقف متى راودته فكرة أخرى تريه الوجه الآخر للموقف. ولقد كان هذا الوجه الآخر قائماً: إنه الحب الذي التهب في نفسه، وكان يحتاج من أجله إلى المال احتياجاً أشد من احتياجه إليه في سبيل اللهو والقصف مع حبيبته. فيومَ تقول له حبيبته: «أنا لك. إنني لا أريد فيودور بافلوفتش» سيرحل معها، وسيكون عندئذ في حاجة إلى مال. وذلك أخطر شأناً من القصف واللهو. إن رجلاً مثل كارامازوف لا يمكن إلّا أن يعرف هذا. وذلك بعينه ما كان يعذبه تعذيباً يوشك أن يتحول إلى مرض، لأن هذه الفكرة كانت تحاصره في لحظة من اللحظات. فلماذا نستبعد أن يكون قد اقتطع ذلك المبلغ وادّخره من باب الاحتياط؟ ولكن الوقت كان يمضي وفيودور بافلوفتش لا يرد إلى المتهم الثلاثة آلاف روبل. والأدهى من ذلك أن المتهم قد عرف أن فيودور بافلوفتش يريد استخدام هذا المبلغ نفسه لإغواء حبيبته بماله هو. فقال لنفسه عندئذ: «إن لم يردَّ إليَّ فيودور بافلوفتش هذا المبلغ فسوف تعتبرني كاترينا إيڤانوفنا لصاً». عندئذ برزت في ذهنه تلك الفكرة، وهي أن يمضي في يوم من الأيام بالألف وخمسمئة روبل التي ما يزال يحملها في عنقه، إلى السيدة فرخوفتزيفا فيقول لها: «أنا شقي ولكنني لست لصاً». أصبح هنالك إذن سببان يدفعانه إلى الاحتفاظ بهذه الألف وخمسمئة روبل، وإلى الاحتفاظ بها وإلى أن يصونها كما يصون بؤبؤ عينيه وإلى أن لا يفض الكيس ليسلَّ مئة روبل بعد مئة أخرى. لماذا تنكرون على المتهم أن يملك شيئاً من الشعور بالشرف؟ لا، إن هذا المتهم يملك الاحساس بالشرف؛ قد يكون في إحساسه بالشرف شيء من البعد عن طريق الصواب، وقد يظهر هذا الإحساس في بعض الأحيان مقلوباً، ولكنه يحس بالشرف إحساساً قوياً ويتصوره تصوراً جياشاً بالهوى والاندفاع، ولقد برهن على هذا! ويتعقد الأمر مع ذلك، فهذه تباريح الهوى تبلغ ذروتها، وهذان سؤالان، سؤالان قديمان، مايزالان يلحّان على نفسه المضطربة بشدّة، وما يزالان يؤلمانه كثيراً: «سأرجع إلى كاترينا إيڤانوفنا مالها، ولكن من أين أجيء بعد ذلك بما سأحتاج إليه من مال لأرحل مع غروشنكا؟». ولعل السبب في أن سلوكه كان طوال هذا الشهر فاسداً وأنه كان يُقبل على السكر بدون انقطاع، لعل السبب في هذا هو أن نفسه كانت منقبضة مؤلمة، وأنه لم يستطع السيطرة على ألمه؛ وتفاقمت الخواطر التي كانت تثيرها هذه المسائل في ذهنه حتى أوصلته إلى اليأس. وأوفد أخاه الصغير إلى أبيه يرجو منه مرة أخيرة أن يدفع له تلك الثلاثة آلاف روبل، ولكن دهم المنزل دون أن ينتظر جواباً، وانتهى به الأمر إلى ضرب العجوز على مرأى من شهود. وبعد ذلك فقد أيّ أمل في الحصول على هذا المبلغ، لأنه تأكد أن أباه لن يعطيه المال حتماً، حقداً عليه. وفي ذلك اليوم نفسه، حين لقي أخاه في المساء، لطم صدره، لطم أعلى صدره، في المكان الذي فيه الكيس، وأقسم أن بوسعه أن لا يكون شقياً حقيراً، ولكنه سيصبح كذلك، لأنه يتنبأ بأنه لن يستعمل هذا الإمكان، لافتقاده القوة النفسية التي تتيح له ذلك. إني لأسألكم لماذا يرفض الاتهام الثقة بأقوال ألكسي كارامازوف وأن يركن إلى شهادته التي أدلى بها بريئاً، صادقاً، عفوياً، والتي هي من جهة أخرى معقولة محتملة إلى أبعد الحدود؟ ولماذا يُراد لي، في مقابل ذلك، أن أُقسر على الاعتقاد بأن هناك مبلغاً من المال قد خبِّىء في شق خفي أو في قبو في قصر أودولف؟ وفي ذلك المساء نفسه، بعد حديثه مع أخيه، كتب المتهم تلك الرسالة المشؤومة، تلك الرسالة التي هي أقوى قرينة ضده، وأكبر دليل عليه، والتي تشكل الأساس لتهمة السرقة. «سأذهب ألتمس المال لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أحصل عليه، فسوف أقتل أبي، وسوف أستولي على المال المخبأ تحت الفراش في ظرف مربوط بشريط وردي اللون، شرط أن يكون إيڤان غائباً». هذه خطة قتل. فكيف لا يكون هو القاتل والحالة هذه، أليس كذلك؟ «ذلك مكتوب». بهذا صاح السيد وكيل النيابة. ولكنني أقول أولاً إن هذه الرسالة قد كتبت في حالة سكر، بينما كان المتهم في غضب شديد. وأقول ثانياً إن المتهم لا يتكلم في هذه الرسالة على الظرف إلّا بالاعتماد على أقوال سمردياكوف، لأنه لم يرد الظرف نفسه؛ وأقول إن هذه الرسالة قد كُتبت فعلاً، ولكن ما الذي يبرهن لنا على أن المتهم قد تصرف بعد ذلك وفقاً لما جاء في تلك الرسالة؟ هل أخرج الظرف من تحت الفراش، هل وجد فيه المال،

هل كان لهذا المال وجود؟ تذكّروا أن المتهم لم يسرع إلى منزل أبيه ليسرق هذا المال، بل ليعرف فقط أين توجد تلك المرأة التي تفطر قلبه. فهو إذن لم يذهب إلى منزل أبيه لينفذ الخطة المكتوبة، سرقه سرقة مدبرة؛ بل هو أسرع إلى هناك فجأة وبشكل عفوي، بدافع الغيرة المسعورة. لكن، ربَّ قائل: «لكنه مع ذلك، ذهب وقتل وأخذ المال». لكن أخيراً، هنا أيضاً، هل سرق نعم أم لا؟ إنني أرفض تهمة السرقة مستنكراً إذا كنا نستطيع أن نحدد الشيء المسروق على وجه الدقة: تلك بديهية. ولكن، بمعزل عن ذلك، هل حقاً قتل، هل قتل دون أن يسرق؟ هل هذا مثبت؟ أليست هذه رواية؟

XII

ليس ثمَّة قتل أبداً

اسمحوا لي، يا سادتي المحلَّفين، الأمر يتعلق بحياة إنسان، فيجب أن نكون حذرين.

لقد رأينا السيد وكيل النيابة يصرِّح هو نفسه بأنه قد تردد حتى آخر يوم، حتى انعقاد جلسة المحاكمة هذه، في أن ينسب إلى المتهم جريمة قتلٍ عن سابق تصور وتصميم، وأنه ظل يتردد حتى وصول هذه الرسالة المشؤومة التي كتبها وهو «في حالة سكر». «حصل كل شيء كما هو مكتوب». ولكنني أعود فأكرر هنا أيضاً أن المتهم قد تسلل إلى الحديقة يبحث عن تلك المرأة، فقط لكي يعرف أين هي. تلك واقعة ثابتة. فلو أنها كانت في منزلها لما ذهب إلى أي مكان آخر، ولظلَّ إلى جانبها، ولما نفَّذ ما أعلنه في رسالته. لقد أسرع إلى منزل أبيه بحركة مفاجئة لم يكن يتوقعها، ولعله كان في تلك اللحظة قد نسي الرسالة التي كتبها وهو في «حالة سكر». رب قائل: «ولكنه أخذ مدق الهاون، أليس كذلك؟». ولا شك أنكم تتذكرون التحليلات السيكولوجية التي اتخذ هذا المدقَّ ذريعة لها، وكيف أريدَ إقناعنا بأن المتهم لا بد أن يكون قد اعتبر هذا المدق سلاحاً، وأنه قد استولى عليه أداةً لارتكاب جريمة قتل الخ. إن فكرة بسيطة جداً تحضرني في هذه المناسبة: ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن مدق الهاون هذا لم يكن موضوعاً على الطاولة أو على رفٍ رآه المتهم فتناوله، وإنما كان مودعاً في خزانة مثلاً؟ ما كان لهذا المدق عندئذ أن يجذب نظر المتهم، ولانصرف هذا الأخير عندئذ خالي اليدين، لا يحمل سلاحاً، ولما أتيح له والحالة هذه أن يقتل أحداً. فكيف يمكننا بعد هذا أن نعتبر ذلك المدق دليلاً على سابق تصور وتصميم، وبرهاناً على نية التزود بسلاح؟ نعم، ولكن المتهم قد صرخ يقول هو نفسه، في الكاباريهات، إنه سيقتل أباه؛ ومع ذلك فإنه قبل الحادث بيومين، في المساء الذي كتب فيه رسالة في حالة السكر، كان هادئاً لم يزد على أن تشاجر قليلاً في أحد الكاباريهات مع مستخدم صغير في متجر: «لأن كارامازوف لا يستطيع إلّا أن يتشاجر مع أحد». وأقول في الردِّ على هذه الحجة إن رجلاً فكر في ارتكاب مثل هذه الجريمة وصمم أن ينفذها وفق خطة مرسومة سلفاً، ما كان له أبداً أن يتشاجر مع أحد، ولو مع مستخدمٍ في متجر؛ بل ولا كان له أن يدخل إلى إحدى الكاباريهات أصلاً، لأن الرجل الذي يفكر في اقتراف جريمة من هذا النوع، يطلب الهدوء والعزلة، ويحاول ألّا يراه أحد، يحاول ألّا يراه أحد ولا أن يسمعه أحد، وكأنه يتمنى في قرارة نفسه أن يقول للناس: «انسوا وجودي، إذا أمكن ذلك»، لا عن حساب وتدبير، بل بغريزته وحدها. إن السيكولوجيا سلاح ذو حدين يا سادتي المحلَّفين، وإنا لنحسن استعمالها نحن أيضاً. أما التهديدات التي أطلقها في الكاباريهات طوال ذلك الشهر فما هي إلّا صراخ شبيه بصراخ الأطفال، وما هي إلّا أقوال حمقاء يطلقها سكارى يتشاجرون فيبدأون بالصراخ قائلين: «لأصرعنك، لأقتلنّك!»، ولكنهم لا يفعلون شيئاً. وأما تلك الرسالة المشؤومة فليست إلّا صرخة سكر وغضب هي أيضاً؛ ليست إلّا تبجح رجل يصيح وهو خارج من خمارة: «لأقتلنكم، أقسم، لأقتلنكم جميعاً!». لماذا البحث عن تعليل آخر غير هذا التعليل، لماذا الإصرار على رفض هذا التعليل؟ إن هذه الرسالة توصف بأنها حجة دامغة، أفليس الأَولى أن توصف بأنها كلام مضحك؟ ولكن لا، إنهم يريدونها أن تكون دليلاً قاطعاً، لسبب واحدٍ هو أن الأب قد وُجدت جثته قتيلاً، وأن شاهداً قد رأى المتهم يهرب خلال الحديقة وفي يده سلاح، وأن هذا الشاهد قد قُتل هو أيضاً بعد ذلك؛ فرتبوا على هذا أن كل شيء قد تم وفقاً لخطة مرسومة مسبقاً، فلا يمكن إذن أن تكون

تلك الرسالة كلاماً مضحكاً، ولا يمكن إلّا أن تكون دليلاً قاطعاً؛ وحمدوا الله على أنهم وصلوا إلى النقطة الحاسمة فقالوا: «أما وأنه كان في الحديقة فقد قتل». مع هاتين الكلمتين «أما وأنه» هي في الواقع جوهر الأساس الذي تقوم عليه القضية ويستند إليه الاتهام. «كان في الحديقة، فهو إذن». ماذا لو أسقطنا كلمة إذن». ماذا لو أسقطنا كلمة «إذن» هذه دون أن ننكر مع ذلك أن المتهم كان موجوداً في الحديقة؟ إنني أسلِّم بأن الوقائع في هذه القضية متوافقة، وإن كثرتها تخطف البصر وتستأثر بالانتباه. ولكن هلّا حملتم أنفسكم عناء تمحيص كل واقعة من هذه الوقائع في ذاتها على حدة، دون أن تهتموا بتوافقها؟ لماذا يرفض جانب الاتهام مثلاً أن يصدِّق أن المتهم ذكر الحقيقة حين قال إنه انصرف عن نافذة أبيه؟ تذكروا الأسلوب الساحر الذي استخدمه السيد وكيل النيابة حين تكلم في هذا الموضوع فأشار إلى مشاعر الاحترام وعواطف الفضيلة التي اجتاحت نفس القاتل فجأة. أيُّ عجب في أن تكون الأمور قد حدثت على هذا النحو فعلاً، أي في أن يكون المتهم قد استيقظت في نفسه حينئذ مشاعر قد لا تكون مشاعر احترامٍ بالضرورة، ولكنها مشاعر فضيلة. لماذا يكون هذا مستحيلاً؟ لقد قال المتهم أثناء التحقيق: «لا بد أن تكون أمي قد تشفعت لي في تلك اللحظة». فالمتهم قد هرب إذن منذ أدرك أن السيدة سفيتلوفا ليست في صحبة أبيه. فإن ردَّت النيابة على هذا قائلة: «ما كان المتهم يستطيع أن يدرك ذلك حين ينظر من النافذة»، قلت لمَ لا؟ لقد فُتحت النافذة بعد أن طرق المتهم النافذة بالإشارات المتفق عليها. ومن الجائز أن يكون فيودور بافلوفتش قد أفلتت منه في تلك اللحظة كلمات أو صرخات استنتج منها المتهم أن السيدة سفيتلوفا ليست في المنزل. لماذا هذا الاصرار على تأويل الوقائع تأويلاً يتفق وما تخيّلته النيابة أو ما حاولت أن تتخيله؟ إن الواقع يشتمل في كثير من الأحيان على احتمالات لا حصر لها، احتمالات تغيب عن أدق الروائيين ملاحظة وأنفذهم رؤية. ربَّ معترض يقول: «حسناً، ولكن هذا لا ينفي أن غريغوري قد رأى الباب مفتوحاً، وهذا دليل على أن المتهم قد دخل المنزل، وعلى أنه قد قتل.». ها نحن وصلنا إلى حكاية الباب هذه، يا سادتي المحلَّفين... تعلمون أن هناك شخصاً واحداً يزعم أنه رأى الباب مفتوحاً، وهذا الشاهد الوحيد كان عندئذ في حالة خاصة، كان في حالة... ولكن لا داعي إلى الالحاح... لنفترض، إذا كنتم تريدون ذلك، بأن الباب كان مفتوحاً، وبأن المتهم قد كذب في هذه النقطة أثناء التحقيق، يدفعه إلى الكذب حرصه على الدفاع عن نفسه، وهو أمر واضح في مثل وضعه. لنفترض بأنه دخل المنزل، نعم، لنسلِّم بذلك. فهل يترتب على هذا بالضرورة أنه قتل؟ إن من الممكن أن يكون قد اقتحم المنزل، وراح يركض من غرفة إلى أخرى، ودفع أباه بل وربما ضربه أيضاً. فلما تأكد بعد ذلك أن السيدة سفيتلوفا ليست في المنزل ولَّى هارباً وهو يشعر بسعادة لأنه لم يجدها ولأنه انصرف دون أن يقتل أباه. ولئن قفز إلى الحديقة مرة ثانية بعد ذلك بدقائق فمال على المسكين غريغوري الذي قتله في لحظة من غضب شديد، فإنه لم يفعل ذلك إلّا لأنه كان قادراً على أن يشعر بعواطف شفقة بسبب أنه انتصر على إغراء قتل أبيه، فكان قلبه يفيض فرحاً وبراءة. إن السيد وكيل النيابة قد وصف لنا، ببلاغة غامضة، الحالة النفسية التي لا بد أنها كانت حالة المتهم في موكرويه، حين عرف أن السعادة والحب يعرضان له، ويناديانه إلى حياة جديدة، بينما كان محظوراً عليه أن يحب، لأنه خلَّف وراءه جثة أبيه، ولأنه كان يرى أمامه العقاب الذي لا مناص منه. ولكن السيد وكيل النيابة قد سلَّم مع ذلك بأن الحب قد تكلم في قلب المتهم، ثم راح يفسر لنا ذلك على طريقته الخاصة وهو يعتمد على تحليلات سيكولوجية مرهفة، فقال: «هذه حالة تشبه السكر، هذه حالة تشبه حالة مجرم يقاد إلى ساحة الإعدام، فيحدث نفسه قائلاً إن الطريق ما يزال طويلاً، الخ». ولكنني أتوجه إلى السيد وكيل النيابة مرة أخرى بهذا السؤال: «ألم تخلق هنا شخصية روائية من نسيج الخيال؟ هل طبيعة المتهم فعلاً طبيعةٌ تبلغ من عدم الإحساس والاستهتار أنه يستطيع، بعد أن سفك دم أبيه، أن يفكر في الحب وأن يبني خططاً خدّاعة للدفاع عن نفسه؟ كلا ثم كلّا! إنني لا أتردد لحظة واحدة في أن أهتف قائلاً: كلا ثم كلا! حين اكتشف أن هذه المرأة تحبه، وتناديه ليتبعها وتعده بحياة جديدة هانئة، أقسم إنه

شعر برغبة مضاعفة في الانتحار لا تقاوم، وكان سينتحر دون أدنى شك، لو أن ضميره كان مثقلاً بوزر قتل أبيه حقاً! وما كان لينسى عندئذ أين وضع مسدسيه! إنني أعرف المتهم: إن ما ينسبه إليه الاتهام يناقض طبيعته. لو كان المتهم آثماً لانتحر حتماً، هذا محقق! وإذا كان لم ينتحر فلأن «أمه قد تشفعت له» وقلبه غير مثقل بدم أبيه؛ وإذا ظل يتعذب طوال تلك الليلة في موكرويه، فبسبب غريغوري الذي كان المتهم قد صرعه، فكان يصلي في سرِّه أن يستفيق ذلك العجوز، وألّا تكون ضربة المدقّ غير قاتلة، وأن ينجو هو نفسه من العقاب. لماذا نرفض تفسير الوقائع على هذا النحو؟ ما الذي يبرهن لنا على أن المتهم يكذب؟ لكن جثة الأب تقول لنا مجدداً: «إذا كان المتهم قد هرب راكضاً، لم يقتل فمن الذي قتل إذن الرجل العجوز؟».

أكرر: هذا هو منطق الاتهام: من الذي قتل، إذا لم يكن هو؟... ليس لدينا أحد نضعه» مكانه. فهل هذا صحيح يا سادتي المحلَّفين؟ هل هذا صحيح، هل هذا حقيقي، إنه ليس لدينا أحد؟ لقد سمعنا السيد وكيل النيابة يحصي على الأصابع جميع من كانوا في المنزل ليلة وقوع الجريمة. إنهم خمسة أشخاص، منهم ثلاثة يجب استبعادهم من القضية فوراً: المجني عليه، وغريغوري، وزوجته. لم يبقَ إذن إلّا اثنان يمكن اتهامهما بارتكاب جريمة القتل هنا المتهم سمردياكوف. وقد صاح السيد وكيل النيابة يقول بلهجة مؤثرة: لئن عمد المتهم إلى تسمية سمردياكوف قاتلاً، فلأنه لم يجد أحداً غير سمردياكوف يمكنه الوشاية به؛ فلو كان هناك شخص سادس، بل طيف شخص سادس يمكن اتهامه بالقتل، إذن لأسرع يترك اتهامه لسمردياكوف محمرَّ الوجه من الخجل، ولمضى يتهم ذلك الشخص السادس على الفور. ولكن ما الذي يمنعني يا سادتي المحلَّفين من أن أقلب هذا الدليل؟ هناك شخصان: المتهم وسمردياكوف. أفلا يجوز لي أن أؤكد أنكم لا تتهمون موكلي إلّا لأنكم لا تجدون شخصاً آخر توجهون إليه التهمة؟ ولكن لم تجدوا شخصاً آخر توجهون إليه الاتهام فما ذلك إلّا لأنكم قد تحيزتم لسمردياكوف منذ البداية دفعةً واحدة، فاستبعدتم كل شبهة حوله، ورفضتم كل شيء فيه. صحيح أن أحداً لم يسمِّ سمردياكوف قاتلاً، إلّا المتهم وأخويه والسيدة سفيتلوفا. لكن ثمة شيئاً آخر يحمل على الاشتباه فيه. إن شائعات غامضة تجري في المدينة عنه، إن أسئلة وشبهات لا يقولها الناس عنها تدور في الخواطر حوله، إن قلقاً مبهماً يساور النفوس ويستحيل إلى توقع عام. ثم إن هناك وقائع مقلقة تشهد عليه رغم غموض دلالتها: أولاً نوبة الصرع تلك التي وافتـه فـي يوم وقوع الكارثة نفسه، بحيث رأى السيد وكيل النيابة أن من واجبه - لست أدري لماذا - أن يهتم بإلحاح على أنها نوبة طبيعية يمكن تعليلها. وثانياً انتحار سمردياكوف عشية انعقاد جلسة المحاكمة انتحاراً لم يكن يتوقعه أحد. ومن ذلك أيضاً هذه الشهادة التي لم يكن يتوقعها أحد أيضاً، أعني شهادة أخي المتهم، إيفان فيودوروفتش، الذي بقي إلى ذلك الحين مقتنعاً بأن أخاه هو القاتل، فإذا هو يصل اليوم إلى المحكمة حاملاً المال المسروق قائلاً إن سمردياكوف هو القاتل! صحيح أنني أوافق المحكمة والنيابة العامة رأيها في حالة الشاهد النفسية. فأنا مقتنع بصورة تامة بأن إيفان كارامازوف مريض، وأنه مصاب بنوبة حمى حارة، وأن أقواله قد تكون محاولة يائسة تصوَّرها وهو في حالة هذيان في سبيل أن ينقذ أخاه بإلقاء الجريمة على عاتق رجل مات. ولكن هذا لا ينفي أن اسم سمردياكوف قد ذُكر في هذه المناسبة مرة جديدة، كل الألغاز التي ترتبط باسمه، فكأن هناك، يا سادتي المحلَّفين، أشياء لم تُذكر إلى آخرها فيما يتعلق بهذا الرجل، وكأن الملاحظات التي قيلت في حقه ما زالت ناقصة، ولعلها تكمل فيما بعد. ولكن يجب ألّا نستبق الأمور. لقد قررت المحكمة منذ قليل أن تتابع المناقشات، فبإمكاني، ما دمنا الآن في انتظار ذلك، أن أبسط لكم بضع ملاحظات تتعلق بخصائص المرحوم سمردياكوف التي صوَّرها لنا السيد وكيل النيابة بكثير من البراعة والموهبة. إنني على إعجابي بما أظهره السيد وكيل النيابة من فن في تخطيط تلك اللوحة النفسية، لا أستطيع أن أوافقه الرأي في هذا الرجل. لقد ذهبت إلى سمردياكوف، رأيته وتحدثت معه، فترك في نفسي صورة تختلف عن الصورة التي رسمها لنا السيد وكيل النيابة. لا، إن سمردياكوف ليس ذلك الشخص

الضعيف الذي وصفه لنا الادعاء. إنني لم أجد فيه أثراً من ذلك الوجل الذي تكلم عليه السيد وكيل النيابة بإلحاح. أما بساطة القلب وسذاجة الطبع فلا وجود لهما عنده أبداً. بالعكس: لقد لاحظت فيه حذراً رهيباً ودهاءً، وإن تخبّأ هذا الحذر وهذا الدهاء بمظهر سذاجة مصطنعة، كما لاحظت فيه ذكاء قادراً على أن يفهم أموراً كثيرة. سادتي المحلّفين، في رأيي إن السيد وكيل النيابة قد تسرَّع قليلاً حين ظن أن هذا الرجل ضعيف العقل. لقد خلّف سمردياكوف في نفسي شعوراً واضحاً: تركته مقتنعاً بأنه إنسان تفيض نفسه شراً وخبثاً، وحقداً وحسداً، وغروراً وميلاً إلى الانتقام. ومن جهة أخرى، فقد جمعت بعض المعلومات عنه: كان يكره أصله، ويصرف أسنانه غضباً حين يذكر أنه ابن امرأة «نتنة». وكان يسيء معاملة الخادم غريغوري وزوجته اللذين أحسنا إليه وأنعما عليه في طفولته. وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها، وكان حلمه هو أن يسافر إلى فرنسا وأن يصبح فرنسياً. وكثيراً ما كان يقول إنه يحتاج إلى مالٍ من أجل أن يرحل. وأعتقد أنه كان لا يحب إلّا نفسه، ويقدّرها أكثر ما تستحق بكثير. كان يعتبر نفسه رجلاً مثقفاً لأنه يعنى بهندامه ويلبس قمصاناً نظيفة وينتعل حذاءً لماعاً. وإذ كان يعتبر نفسه ابناً غير شرعي لفيودور بافلوفتش (ذلك أمر تثبته الوقائع أيضاً)، فمن الجائز أن الفرق بين وضعه ووضع أبناء سيده الشرعيين قد أورثه مرارة وحقداً: كان هؤلاء يتمتعون بجميع المزايا، وكان هو لا يتمتع بأية مزية. كانوا يملكون جميع الحقوق ويستطيعون أن يرثوا أباهم، أما هو فلم يكن إلّا طباخاً. لقد أسرَّ إليَّ أنه ساعد فيودور بافلوفتش على إيداع المال في الظرف. والهدف الذي نُذر له هذا المبلغ - وهو مبلغ كان يمكن أن يعينه في تحقيق أغراضه - لا بد أن يكون قد أثار في نفسه حنقاً شديداً. ثم إنه رأى في تلك اللحظة ثلاثة آلاف روبل أوراقاً مالية زاهية الألوان (سألته عن هذا خصوصاً)، وأنتم تعلمون، يا سادتي، أنه لا يجوز لنا أن نلألىء مبلغاً ضخماً أمام عيني إنسان حسود ومغرور؛ وكانت تلك أول مرة يرى فيها مالاً يبلغ هذه القيمة من الضخامة في يدي شخص واحد. فلا بد أن يكون منظر تلك الكدسة من الأوراق النقدية الجديدة قد أحدثت في نفس هذا الرجل شعوراً مرضياً دون أن يترتب على ذلك شيء في بداية الأمر. إن السيد وكيل النيابة الذي نعجب بموهبته قد حلل برهافة عظيمة جميع الأدلة التي يمكن اللجوء إليها لتأييد أو دحض الافتراض القائل بأن سمردياكوف ربما كان هو القاتل، وقد ألحَّ خصوصاً على هذا السؤال: لأي سبب كان يمكن أن يصطنع سمردياكوف نوبة الصرع؟ ولكن سمردياكوف لم يكن في حاجة إلى ذلك التظاهر، فمن الجائز أن تكون النوبة قد وافته طبيعيةً من تلقاء نفسها، ومن الجائز أن تكون قد زايلته على ذلك النحو نفسه أيضاً. من الجائز أن يكون المريض قد صحا من غيبوبته واستعاد وعيه. صحيح أنه لا يكون قد شفي عندئذ من مرضه، ولكن كان لا بد أن يعود إليه شعوره عاجلاً أو آجلاً، كما يحدث دائماً حين يُصاب المريض بنوبة من نوبات الصرع. إن الادعاء يسأل: في أية لحظة يمكن أن يكون سمردياكوف قد ارتكب جريمة القتل؟ الحق أن الجواب عن هذا السؤال سهل للغاية، فما أسهل أن نحدّد تلك اللحظة. فمن الجائز أن يكون سمردياكوف قد عاد إلى وعيه وصحا من نومه العميق (ذلك أنه كان نائماً فقط، فإن نوبات الصرع يعقبها دائماً نوم عميق)، في تلك اللحظة نفسها التي تشبث فيها العجوز غريغوري بساق المتهم (حين كان هذا يحاول الهروب من فوق السياج) فصرخ بصوت حاد ملءَ حنجرته: «يا قاتل أبيه!». فمن الجائز أن تكون هذه الصرخة الخارقة التي دوَّت في صمت الليل قد أيقظت سمردياكوف من نومه الذي لعله لم يكن عندئذ عميقاً، لأن سمردياكوف لا بد أن يكون قد أخذ يستيقظ منذ ساعة؛ فلما نهض اتجه دون أن يشعر، وبدون أية نية محددة، إلى الجهة التي جاءت منها الصرخة. وكانت أفكاره ماتزال غامضة، وكان خياله ما يزال وسناناً. ولكن ها هو يصل إلى الحديقة، وها هو سيده يقترب من النافذة المضاءة، فإذا هو يعرف بالنبأ الرهيب من فم سيده نفسه، الذي اغتبط لرؤيته طبعاً؛ وإذا بفكرة الجريمة تبرز في رأسه فجأة. لقد أطلعه سيده المذعور على ما حدث. وها هي الفكرة التي برزت في رأسه المريض تظهر إلى النور واضحة المعالم. إنها فكرة رهيبة ولكنها مغرية يؤيدها منطق لا يرحم: وهي أن يقتل العجوز ويستولي على

الثلاثة آلاف روبل، ثم يلقي الجريمة بعد ذلك على عاتق ابن القتيل! من الذي يمكن أن يُشتبه فيه الآن، من الذي يمكن أن يُتَّهم، غير هذا الابن الذي تشهد عليه قرائن قوية وتدينه أدلة دامغة؟ ألم يكن هذا الابن موجوداً هنا منذ لحظات؟ من الجائز إذن أن تكون قد استبدت بسمردياكوف عندئذ شراهة رهيبة إلى سرقة المال، وظمأ شديد إلى الاستيلاء على الغنيمة، مع الشعور بأنه لن يناله عقاب. إلا أننا نعرفها، هذه الاندفاعات المفاجئة التي تشب فجأة في نفوس قتلة كانوا قبل دقيقة واحدة في معظم الأحيان لا يخطر ببالهم أنهم سيقتلون. من الجائز إذن أن يكون سمردياكوف قد دخل إلى غرفة سيده، ونفذ خطته. فإذا سألتموني ما هو السلاح الذي استخدمه في القتل، قلت إن من الجائز أن يكون قد استعمل أول حجر عثر عليه في الحديقة؛ وإذا سألتموني ما هو الهدف الذي قتل من أجله قلت إنه تلك الثلاثة آلاف روبل التي بإمكانها أن تؤمّن مستقبله! لا، إنني لا أناقض نفسي: فمن الجائز أن يكون المال موجوداً. ومن يدري؟ لعل سمردياكوف هو الشخص الوحيد الذي كان على علم بالمخبأ الذي أخفى فيه سيده المال. ربَّ معترض يقول: «والظرف؟ الظرف الممزَّق الملقى على أرض الغرفة؟»، فأجيب: إن السيد وكيل النيابة قد أورد في موضوع هذا الظرف نفسه فكرةً تبلغ غاية الدقة والرهافة، وهي أن هذا الظرف لا يمكن أن يتركه على أرض الغرفة إلّا لص يقوم بفعل السرقة عرضاً، وليس له خبرة سابقة أي لا يمكن أن يتركه إلّا لص مثل كارامازوف، أما رجل مثل سمردياكوف فما كان له أن يرتكب مثل هذه الغلطة فينسى على أرض الغرفة شيئاً سيكون دليلاً دامغاً على أنه هو الفاعل. سادتي المحلَّفين، حين سمعت السيد وكيل النيابة يبدي هذه الملاحظة الدقيقة أحسست أنني أسمع صوت جرس معروف عندي. تصوروا أن هذه الفكرة عن السلوك الذي يمكن أن يسلكه كارامازوف فيما يتعلَّق بهذا الظرف، تصوروا أن هذه الفكرة قد عرضها لي، منذ يومين، شخص ليس إلّا سمردياكوف نفسه. وعدا ذلك، فإن وضعه في تلك اللحظة قد خطف انتباهي، فشعرت بوضوح بأن سذاجته كاذبة، وأنه كان في حقيقة الأمر يسبقني فيوحي إليَّ بهذه الفكرة لكي تتجسد في نفسي بعد ذلك، فأستخرج منها النتائج التي يريد أن يدخلها بهذه الطريقة في ذهني. أفلا يمكن أن يكون سمردياكوف قد لَقَّن قاضي التحقيق هذه الفكرة أيضاً؟ أفلا يمكن أن يكون قد أنبتها خلسةً في فكر السيد وكيل النيابة الذي يمتاز بمواهب عظيمة؟ ولكن العجوز زوجة غريغوري قد ظلت تسمع أنين سمردياكوف على مسافة ثلاث خطوات من سريرها طوال الليل! لست أنكر أنها سمعت أنينه، ولكن هذه الحجة ضعيفة. عرفتُ سيدة شكت يوماً بكثير من المرارة من أن كلباً ظل ينبح طوال الليل فحرمها من النوم، وأكدت هذه السيدة أن جفنها لم يغمض. وقد تبين مع ذلك أن الكلب المسكين لم ينبح في الواقع إلّا مرتين أو ثلاث مرات متباعدة جداً. إن أمثال هذه الأخطاء طبيعية: هذا إنسان نائم يسمع أنيناً فيصحو حانقاً لأنه أوقظ من نومه؛ ثم ما يلبث أن يعود لينام فوراً؛ وتمضي على ذلك ساعتان أو ثلاث ساعات، فإذا بأنين جديد ينطلق، فيستيقظ الرجل ثم يعود إلى النوم كما في المرة السابقة؛ وبعد عدة ساعات أخرى يوقظه أنين ثالث، فتكون مرات الأنين خلال الليلة كلها ثلاثاً لا أكثر. ولكن صاحبنا، حين يستيقظ في الصباح، سيشكو من أن أنيناً متصلاً قد حرمه من النوم طوال الليل. ولا بد أن يحس هذا الاحساس حتماً، لأنه لن يتذكر فترات الساعتين أو الثلاث ساعات التي كان أثناءها نائماً، ولن يحتفظ إلّا بذكرى تلك الاستيقاظات المتكررة. لذلك سيتخيل أنه أوقظ إيقاظاً متصلاً غير منقطع. وقد قال السيد وكيل النيابة سائلاً: «ولكن لماذا لم يعترف سمردياكوف بجريمته في الكلمة التي كتبها قبل موته؟ أيكون لديه من الضمير ما يكفي لكي ينتحر، ثم لا يكون عنده من الضمير ما يكفي لكي يعترف؟». هنا أقفكم لأقول: إن الضمير يتضمن الندم. ولعل سمردياكوف لم يكن يشعر بأي ندم حين انتحر، ولعله لم يختر هذا المخرج إلّا وهو يائس. إن الندم واليأس شيئان يختلف أحدهما عن الآخر تماماً. فاليأس قد يكون زاخراً بكره وحقد لم يشف غليلهما؛ وحين ينتحر سمردياكوف فإنه يستطيع أن يكره بقوة أولئك الذين ظل يحسدهم طوال حياته. سادتي المحلَّفين، إياكم والخطأ القضائي! هل في هذا التأويل الذي أضعه بين أيديكم شيء يخالف العقل ويجافي الاحتمال؟ دلُّوني على

خطأً واحد فيما عرضته لكم، دلّوني على استحالة واحدة، أو بطلان واحد! ولكن إذا كان هذا الافتراض الذي بسطته لكم يشتمل ولو على ظل احتمال، ولو على ظل إمكانية، كان عليكم أن تمتنعوا عن إصدار حكم يدين المتهم. فما بالكم وفيما قلته لكم أكثر من ظلِّ حقيقة! إنني أقسم لكم بكل ما أقدسه في هذا العالم على أنني، من جهتي، مقتنع بصدق تأويل الوقائع على الشكل الذي وصفت فيه. وإني أشعر باضطراب شديد وقلق يخرجاني عن طوري حين تراودني هذه الفكرة التي تلاحقني بدون انقطاع، وهي أنه ليس بين مجموعة القرائن الكثيرة التي جمعها الادعاء قرينةٌ واحدةٌ يمكن اعتبارها واضحة، ويمكن أن تصمد للتفنيد والدحض. إن اجتماع هذه القرائن بعضها إلى بعض هو الشيء الوحيد الذي يوشك أن يكون سبباً في هلاك إنسان. أنا أعرف أن اجتماع هذه القرائن رهيب: ذلك الدم السائل من يدي المتهم، ذلك القميص الملوث بالدم، تلك الصرخة التي دوَّت في ظلام الليل قائلة: «يا قاتل أبيه!»، وسقوط الرجل الذي أطلق تلك الصرخة، سقوطه على الفور مهشَّم الجمجمة، ثم جميع تلك الشهادات المتوافقة التي أدلى بها الشهود، وجميع تلك الحركات والصيحات التي صدرت عن المتهم. آه، إن ذلك كله يمكن أن يؤثر في الفكر وأن يولد اقتناعاً خطأً. ولكن لا في عقولكم أنتم يا سادتي المحلَّفين، لا في عقولكم أنتم، فأنتم لستم ممن يضلّلون على هذا النحو. تذكروا أنكم تملكون سلطةً لا حدود لها، وأنكم قد أُعطيتم حق الربط والحل. وعلى قدر السلطة إنما تكون المسؤولية! إنني لا أتراجع عن حرف واحد مما قلته، ولكن فلنسلم خلال دقيقة، بالرأي الذي يذهب إليه الادعاء حين يزعم أن موكلي قد لطَّخ يديه بدم أبيه. أكرر أن هذا افتراض، فأنا لا أشك لحظة واحدة في براءة موكِّلي. ولكنني أتنازل، فأسلم بأن المتهم قد ارتكب جريمة قتل الأب. فاسمعوا إذن ما أحب أن أقوله لكم حين أسلِّم بهذا الافتراض. إنني أحرص على أن أكلمكم بصراحة في هذه النقطة، لأنني أحس وأقدِّر أن معركة تنشب الآن في نفوسكم وعقولكم... سادتي المحلَّفين، سامحوني على هذا الدخول الذي لا حقَّ لي فيه، إلى مشاعركم الصميمة. فقد آليت على نفسي أن أكون عادلاً وصادقاً إلى النهاية. نعم، لنكن جميعاً صادقين!...

هنا قوطع المحامي بتصفيق متواصل. في الواقع، ذلك أن الكلمات الأخيرة التي قالها بلهجة صادقة، بحيث شعر كل الناس بأنه ربما كان عنده ما يقوله حقاً، وأن ما سيقوله الآن سيكون جوهر القضية فعلاً. ولكن رئيس المحكمة قد هدد، أمام هذا التصفيق بإخلاء القاعة إذا «تكرر شيء من هذا مرةً أخرى». فعاد الهدوء إلى القاعة، واستأنف فيتوكوفتش مرافعته بصوت جديد وقاطع، مختلف كلياً عنه الصوت الذي سمعناه حتى ذلك الحين.

XIII

شهوانيُّ الفكرة

ليس اجتماع الوقائع فقط هو الذي يدين موكِّلي، يا سادتي المحلَّفين كلا، قال، إن ما يدينه في الواقع هو واقعة فقط: إنها جثة أبيه العجوز! فلو كانت مجرد جريمة قتل بسيطة، أمام عدم أهمية الوقائع، وغياب البراهين وأمام جانبها الخيالي، وإذا تم فحص كل واحدة منها على حدة وليس في تقاطعها. ولدحضتم الاتهام دفعة واحدة؛ أو لرفضتم على الأقل أن تربطوا مصير إنسان بسبب ما قام برأي سيِّئ فيه، وهو رأي يستحقه في الحقيقة مع الأسف! ولكن الجريمة ليست عادية. إنها جريمة قتل ابن أباه! فهذا الظرف يفرض نفسه على النفوس والعقول بحيث تصبح القرائن التي تدينه دافعة حتى لدى أكثر العقول تحرراً من الأفكار المسبقة. فكيف يبرىء مجرماً من هذا النوع؟ كيف يرتكب جريمةَ كهذه وينجو من العقاب؟ تلك فكرة تثير النفوس. نعم، إنه لشيء رهيب أن يسفح دم أب، دم إنسان وهب لنا الحياة وأحاطنا بحبه، دم رجل لم يدخر في سبيلنا وسعاً، وكان في طفولتنا يتألم إذا مرضنا، ولم يفكر طوال حياته إلّا في سعادتنا، ولم يعش إلا فرحنا وسعادتنا! إن قتل مثل هذا الأب، أمر لا يتصوره العقل؛ ما الأب الحقيقي يا سادتي المحلَّفين؟ ما الذي في هذه الكلمة يهز قلوبنا، ما هي الدلالة التي يحملها اسم الأب هذا الذي يستأثر باحترامنا جميعاً؟ لقد وصفنا منذ لحظة، ولو وصفاً ضعيفاً ما يجب أن يكونه أب حقيقي، فهل كان فيودور بافلوفتش كارامازوف، وهو الضحية في هذه القضية التي تشغلناوتدمي قلوبنا، يشبه المثل الأعلى الذي رسخ في أعماق نفوسنا عن الأبوة؟ إنها مصيبة يا سادتي. إن بين الآباء من هم كارثة. فلننظر في هذه المصيبة من قرب، لأننا يجب ألّا نخشى شيئاً وألّا نتراجع أمام شيء، يا سادتي المحلَّفين، فإن القرار الذي ينتظر الناس منكم أن تتخذوه قرار بالغ الخطورة. يجب علينا ألّا نخاف عندما نحاول أن نطرد بحركة من يدنا بعض الرؤى المؤلمة، كما يفعل الأطفال أو كما تفعل نساء ضعيفات على حد التعبير الموفق الذي استعمله الاتهام الموهوب. لكن خصمي المحترم (ولقد كان خصماً لي حتى قبل أن أنطق بكلمة واحدة) وقد هتف عدة مرات يقول إنه لن يترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم، وإنه لن يترك الدفاع عنه إلى المحامي الوافد من بطرسبورغ، وإنه سينهض بمهمَّتي المدعي والمدافع في آن. لقد نادى بذلك عدة مرات. ولكنه نسي أن يذكر أن هذا المتهم قد استطاع أن يحتفظ خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعاطفة الشكر والامتنان بسبب ليبرة من بندق أهداه إليه رجل كان هو الإنسان الذي دلَّله في منزل أبيه. وفي مقابل ذلك لم يكن بإمكان المتهم خلال هذه الأعوام الثلاثة والعشرين أن ينسى أنه اضطر أن يركض أثناء طفولته حافي القدمين في الفناء الخلفي من المنزل، «مرتدياً بنطالاً لا يمسكه إلّا زر واحد»، كما ذكر لكم الدكتور هرتسنشتوبه الشهم. إني أسألكم يا سادتي المحلَّفين ما الفائدة من دراسة هذه المصيبة وتكرار ما يعرفه جميع الناس؟ أيَّ استقبال لقيه موكلي عندما وصل إلى هذه المدينة ليزور أباه؟ لماذا هذا الاصرار العنيد على تصوير موكلي في صورة عديم الإحساس، أناني، شاذ؟ هو عنيف مندفع، هو متوحش، وبسبب هذا نحكم عليه اليوم. ولكن من المسؤول عن مصيره، وعلى من يقع الذنب إذا هو ربِّي تربيةً يؤسف لها رغم حسن استعداده ونبل نفسه وقلبه؟ هل تولى أحد في يوم من الأيام أن ينير فكره وأن يثقف عقله، بأن يكشف له عن جمال العلم؟ هل مال عليه أحد في حب وحنان أثناء طفولته؟ لقد شب موكلي في رعاية الله وحده، تربَّى

كحيوان متوحش. لعله كان ظامئاً إلى أن يرى أباه من جديد بعد فراق طال تلك المدة كلها، ولا بد أنه طرد من خياله مئة مرة قبل ذلك، الأشباحَ المقيتة التي ملأت أيام طفولته والتي كان كمن يراها أثناء تلك المدة من خلال حلم، أقول لا بد أنه طرد تلك الأشباح في سبيل أن يغفر لأبيه بكل قلبه. ولقد أسرع يحتضن أباه بذراعيه. ولكن ما الذي حدث؟ حدث أن تلقاه بالسخريات عجوزٌ شكاك، لا يخشى على شيء كما يخشى على مال الميراث. ولا بد أن الشاب قد شهد محادثات كان المتوفّى يعرض فيها فلسفته في الحياة وهي فلسفة تثير في نفوسكم التقزز وكان العجوز يبسطها وهو يشرب «أقداحاً صغيرة من الكونياك». في نهاية المطاف، رأى أباه يحاول أن يسلبه حبيبته، هو ابنه، مستعملاً في ذلك مالاً يعتبره الشاب ماله. يا سادتي المحلَّفين، ذلك كله رهيب متوحش قاسٍ إلى أبعد الحدود. وكان العجوز فوق ذلك هو الذي يجرؤ أن يشكو لجميع الناس أن ابنه خالٍ من الاحترام له والعاطفة نحوه، وكان لا يتردد في التشهير به في المجتمع، والاساءة إليه بالوشايات، وشراء سندات ديونه لإيداعه السجن! سادتي المحلَّفين، إن الرجال الذين هم من طينة موكلي، إن هؤلاء الرجال الذين يدل ظاهرهم على العنف والقسوة والاندفاع، يملكون في أكثر الأحيان قلباً رقيقاً إلى أبعد حدود، ولكن نوعاً من الحياء يمنعهم من إظهار ذلك. تلك حالة شائعة جداً. آه... لا تسخروا من هذا الشرح الذي أقدمه إليكم عن طبعه! إن السيد وكيل النيابة الذي أُعجبُ بموهبته الخطابية قد تهكم منذ قليل بغير شفقة على المتهم وعلى ميله إلى شيللر وحبه للأمور «النبيلة». ولو كنت في مكان الاتهام لامتنعت، عن الاستهزاء والسخرية. آه! هذه القلوب - اسمحوا لي يا سادتي أن أدافع عن أمثال هذه القلوب التي ما أكثر ما يجهلها الناس وينتقدونها ظلماً! - إنها ظمأى إلى الحنان والجمال والطهارة. إن هؤلاء الأشخاص الذين يدل ظاهرهم على جموح الهوى وقسوة القلب، قادرون على الحب إلى درجة الألم، قادرون على أن يحبوا حباً روحياً وسامياً. فذلك ما يحدث، دائماً على وجه التقريب، لدى هذه الطبائع. والبلاء كله أنها لا تعرف كيف تكبح اندفاعاتها الجامحة التي تكون في بعض الأحيان عنيفة؛ وما يثير الدهشة هو ما هو خفي فيها، ولا أحد يرى الرجل الداخلي. ومع ذلك فإن أهواءها العنيفة تهدأ بسرعة، فإذا الرجل الذي يبدو فظاً يبحث عن وسيلة لإصلاح نفسه، آملاً أن يصبح طاهراً هو أيضاً. «النبل والسمو» آه، لماذا الاستهزاء بهاتين الكلمتين؟ لقد أعلنت منذ بضع لحظات أنني لن أجيز لنفسي أن أتحدث هنا عن قصة المتهم مع السيدة فرخوفتزيفا. ولكن يجب مع ذلك أن أشير إلى هذه القصة إشارة سريعة. إن ما سمعناه في هذه القاعة المغلقة لم يكن شهادة شاهد، بل كان صرخة انتقام من امرأة استعر حنقها وجُنَّ جنونها! لا، ما كان يحق لها أن تتهم موكلي بالخيانة، لأنها هي التي خانته في الواقع! ولو قد اتسع وقتها للتفكير قليلاً، لما قالت تلك الأقوال ولما أدلت بتلك الشهادة. لا تصدقوها يا سادتي. لا، ليس موكلي بالرجل الذي وصفته بأنه «شيطان رجيم». إن المصلوب الذي كان يحب بني البشر قد صاح قائلاً وهو يصعد التل الذي نُصب عليه الصليب: «أنا الراعي الصالح الذي يبذل حياته في سبيل خرافه. فلن يهلك واحد من الخراف» ألا فلنحاذر نحن أيضاً أن نهلك نفساً بشرية! لقد سألت منذ هنيهة: ما الأب؟ وهتفت أقول: هذه كلمة كبيرة، هذه تسمية تهز النفس وتؤثر في القلب إلى غير حد. ولكن على المرء أن يكون صادقاً فيما يقول يا سادتي المحلفين؛ ولهذا سأسمح لنفسي أن أسمي الأشياء بأسمائها فأقول: إن رجلاً مثل العجوز كارامازوف لم يكن له حق في أن يسمى أباً، لأنه غير جدير بهذا الاسم. إن حب الابن أباه يصبح سخفاً حين لا يسوِّغه خُلُق الأب. إن مثل هذا الحب لا يمكن أن يقبله العقل. ما كان للحب أن يقوم على العدم، لأن الله وحده يستطيع أن يخلق من عدم. إن الرسول بولس الذي كان قلبه يتأجج حباً قد كتب يقول: «وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم». إنني أسمح لنفسي أن أستشهد بهذه الأقوال المقدسة لا لأنني أفكر في موكلي فحسب، وإنما أنا أستشهد بها متجهاً إلى جميع الآباء. من الذي أعطاني حق أن أعظهم بما هو واجبهم؟ لا أحد! ولكنني أناديهم بصفتي إنساناً ومواطناً! إن إقامتنا على هذه الأرض قصيرة، ونحن نقوم على هذه الأرض بكثير من الأعمال الشريرة، وننطق بكثير من الأقوال المؤسفة. فيحسن بنا لهذا

السبب أن ننتهز دقيقة كهذه التي تجمعنا في مكان واحد، ليقول بعضنا لبعض بضع كلمات طيبة تؤاسي القلب وتشدّ العزيمة. وذلك ما أفعله الآن: إنني أنتهز الفرصة لأخاطبكم جميعاً. ليس عبثاً أن السلطة العليا قد وهبت لنا هذا المنبر: إن الكلمات التي ننطق بها هنا تسمعها روسيا كلها. فإلى جميع الآباء أتجه بالكلام، لا إلى الآباء الحاضرين في هذه القاعة، فحسب، فأهتف قائلاً: «وأنتم أيها الآباء، لا تغيظوا أولادكم!». يجب علينا أن نطبق نحن أولاً تعاليم المسيح، وبعد ذلك يحق لنا أن نطالب أبناءنا بتطبيقها. فإذا لم نفعل ذلك لم نكن آباء أبنائنا بل كنا أعداءهم، وسيصبحون أعداءنا هم أيضاً، سيصبحون أعداءنا بسبب خطئنا نحن. «بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم». لست أنا من يقول هذا الكلام، وإنما يقوله الانجيل: كيلوا بالكيل الذي يكال به لكم. فكيف نأخذ على أبنائنا أن يكيلوا لنا بالكيل الذي نكيل لهم به؟ لقد وقع في فنلندة، في الآونة الأخيرة، أن اشتُبه في خادمة أنها أنجبت ولداً. فاكتشفوا في عنبر المنزل حقيبةً لها كانوا يجهلون وجودها، فلما فتحوا الحقيبة وجدوا فيها جثة طفل وليد، الطفل الذي قتلته. ووجدوا في الحقيبة أيضاً هيكلين عظميَّين لطفلين وليدين كانت قد ولدتهما وقتلتهما فور ولادتهما، وذلك ما اعترفت به هي نفسها. فهل يمكننا يا سادتي المحلفين أن نسمي تلك المرأة أماً؟ صحيح أنها قد ولدت هؤلاء الأولاد، ولكن هل كانت أمهم حقاً؟ هل يجرؤ أحد منا أن يعطيها هذا اللقب المقدس، لقب الأم؟ فلنكن شجعاناً يا سادتي المحلَّفين! ولنكن جسورين، لأن من واجبنا في هذه اللحظة أن نكون كذلك، وأن لا نكون شبيهين ببائعات موسكو أولئك اللواتي يؤمنّ بالخرافات، فيخشين كلمتي «معدن» و «كبريت». بالعكس: يجب أن نبرهن على أن التقدم الذي تحقق في هذه السنين قد شمل تطورنا ولنعلن بوضوح أن الأب هو من يعطي الحياة، ويستحق ذلك. أنا أعلم أن هناك معنى آخر وتفسيراً آخر لكلمة أب التي تفرض أن يكون الأب وحشاً إلى أقصى إمكانياته، وحتى بالنسبة لأولاده، ويبقى أن هو الذي منحني الحياة. ولكن هذا التصور تصوُّر غيبي، تصوُّر لا يستطيع أن يدركه العقل، ولا يمكن قبوله إلّا على أنه عقيدة وايمان، مثله كمثل كثير من الأمور التي لا يفهمها عقلنا ولكن الدين يأمرنا أن نؤمن بها. ومثل هذا التصور يبقى عندئذ في خارج الحياة الواقعية. أما في واقع الحياة الذي لا يشتمل على حقوق فحسب، بل يفرض علينا واجبات سامية، وإذا أردنا أن نكون إنسانيين ومسيحيين، في نهاية المطاف، يجب ألا نقدِّم، وينبغي ألا نقدم الاقناعات إلا إذا خضعت لامتحان العقل والتجربة؛ أي أن نتصرف كبشر عقلاء، وليس بجنون كما في حلم أو هذيان وذلك حتى لا نلحق أذى للآخر ولا نؤذي أحداً، وحتى لا نضيع أحداً. ذلك هو الموقف المسيحي حقاً، الموقف الذي لا يكون عندئذ غيبياً فحسب، بل في الوقت نفسه عقلانياً، نعم، عمل حب حقيقي للآخر...».

هنا انطلقت الأكف بتصفيق حاد من جميع أرجاء القاعة، ولكن فيتوكوفتش أوقف الحضور عن التصفيق بحركة من يده، كأنه يتوسل إليهم ألّا يقاطعوه وأن يأذنوا له بإتمام كلامه. فسرعان ما ساد الصمت من جديد، وواصل الخطيب حديثه فقال:

«هل تعتقدون يا سادتي المحلَّفين أن مثل هذه المسائل توفر أبناءنا المراهقين الذين بدأوا يفكرون؟ كلا، لا يمكن إلّا أن يتساءلوا في هذه الحالة، وليس في وسعنا أن نطلب منهم المستحيل. إن المراهق لا بد أن يشعر باضطراب كبير حين يرى أباه منحطاً، ولا سيما حين يقارن سلوك أبيه بسلوك آباء أولاد الآخرين هم رفاقه، فيلاحظ ما بين السلوكين من تناقض. قد يقال له عندئذ، حسب العادة المألوفة: «لقد وهب لك الحياة، وأنت دم دمه، فعليك أن تحبه». ولكن الفتى سيتساءل عندئذ بدون ارادة منه: «فهل كان يحبني حين وهب لي الحياة؟»، وسيزداد اضطراب الفتى أثناء تأمُلاته، وسيتابع تفكيره قائلاً لنفسه: «لا، إنه لم يهب لي الحياة حباً بي أنا؛ إنه لم يكن يعرفني، بل إنه كان يجهل أذكر أنا أم أنثى في لحظة الخلق تلك، في لحظات الهوى تلك التي لعل الخمرة هي التي كانت توقدها، فلم يورثني إلّا حب الشراب والميل إلى السكر. تلك كانت كل نعمه وآلائه عليَّ... فلماذا يُراد مني أن أحبه لا لسبب غير أنه أنجبني، مع أنه لم يكترث لي بعد ذلك في يوم من الأيام؟». قد

تجدون هذا التفكير قاسياً يا سادتي، ولكن لا تطلبوا من عقل مراهق أكثر مما يطيق: «اطردوا الأمور الطبيعية من الباب تعد إليكم من النافذة». ولنحاذر قبل كل شيء، أن يسيطر علينا الخوف من «المعدن» و«الكبريت»؛ ولنقض في الأمر بما توجبه قوانين العقل الإنسانية، لا بما تفرضه التصورات الغيبية. فما الذي نقرره عندئذ؟ إليكم الأمر: ليتقدم الابن إلى أبيه وليلق عليه في روية هذا السؤال «قل لي يا أبي لماذا يجب عليَّ أن أحبك»، فإذا كان الأب قادراً على أن يجيب عن هذا السؤال، وأن يبرهن على أن من واجب ابنه أن يحبه، كنا بصدد أسرة طبيعية سليمة حقاً، أسرةٍ قائمة لا على أوهام غيبية، بل على وقائع واضحة التصور، إنسانية الحدود. أما في غير هذه الحالة، أي إذا عجز الأب عن الإتيان بالبرهان المطلوب، فقد انتهت تلك الأسرة، ولم يعد من حق الأب أن يتصرف تصرف أب، وأصبح يجوز للابن ويحق له أن ينظر إلى أبيه نظرته إلى غريب، بل إلى عدوّ. إن منبرنا هذا، يا سادتي المحلَّفين، يجب أن يكون مدرسةً للحقيقة والمفاهيم السليمة!».

هنا قوطع الخطيب بعاصفة من التصفيق المسعور. بالطبع لم تعرب القاعة كلها عن استحسانها وتأييدها، لكن نصف القاعة، مع ذلك، كان يصفق. كما أن صرخات حادة وصيحات إعجاب قد قامت في الجزء الأعلى من القاعة، وهو الجزء الذي فيه السيدات؛ وأخذت الأيدي تلوِّح بالمناديل؛ واضطرب الرئيس وتحرك وأخذ يقرع جرسه بغير انقطاع. كان واضحاً أنه غاضب من سلوك الحضور، ولكنه لم يجرؤ أن يمضي إلى حد «إخلاء القاعة» عملاً بتهديداته السابقة: كان يشارك في التصفيق والتلويح بالمناديل تحية للخطيب كبار الموظفين الجالسين على كراسٍ خاصة، وأكثرهم شيوخ يرتدون ملابس رسمية تزينها الأوسمة والنياشين، لذلك اكتفى الرئيس، وبعد هدوء الضجة بالتهديد، بلهجة قاسية بإخلاء القاعة فيما استأنف فيتوكوفتش مرافعته، قائلاً:

«سادتي المحلَّفين، إنكم تتذكرون تلك الليلة الرهيبة التي طالما تناولها الحديث أثناء هذه الجلسة، عندما تسلل فيها المتهم إلى منزل أبيه بعد أن تسلّق السور، ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام عدوه ومهينه، الرجل الذي أنجبه. إنني ألحُّ: إن المتهم لم يأتِ في تلك اللحظة من أجل المال، فاتهامه بالسرقة سخافة كما سبق أن بيَّنت ذلك؛ ولا اقتحم منزل أبيه ليقتل! كلّا! فلو كان ينوي ارتكاب جريمة، لاحتاط للأمر سلفاً فتزود، على الأقل، بسلاح، بسلاح حقيقي، لا مدقّ الهاون هذا الذي تناوله بغريزته حتى دون أن يعرف غرضه من ذلك. لنسلِّم إذن بأنه خادع يقظة أبيه باللجوء إلى تلك الإشارات السرية، فدخل البيت. لنسلّم بهذا، لأنني لم أصدق هذه الأسطورة لحظة من اللحظات، كما سبق أن قلت ذلك. ولكن فلنسلم، خلال بضع دقائق، بأن الأمور جرت على هذا النحو فعلاً. إني أقسم لكم يا سادتي المحلفين، أن المتهم، بعد أن اجتاز جميع الغرف راكضاً واقتنع بأن تلك المرأة ليست في هذا المنزل، لكان هرب مسرعاً دون أن يُلحق بمنافسه أي أذى لولا أن منافسه هذا هو أبوه. لعله كان سيضربه أو سيدفعه عابراً في أكثر تقدير، لأن هناك شيئاً آخر كان يشغل باله. لم يكن يملك الوقت، كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين تلك المرأة. لكن الأب، الأب! آه يا سادتي! إن ظهور ذلك الأب هو الذي سبب كل شيء، ذلك الأب الذي كان يكرهه منذ طفولته، عدوه ومهينه، ثم أصبح الآن منافساً رهيباً له في حبه! إن شعوراً بالكره لا يغالَب قد استولى عليه حينذاك واستبد به، فأصبح لا يستطيع أن يفكر. ثار كل ما في نفسه حينذاك. كان ذلك انفجار جنون، ولكنه جنون طبيعي، جنون هو رد الطبيعة وقوانينها الانتقامية الأبدية التي تحكم الإنسان بدون شعور، شأن كل ما هو من الطبيعة. ولكن القاتل، حتى في تلك اللحظة، لم يقتل! أنا أؤكد هذا وأصيح به هنا! كلا، وإنما هو اكتفى بأن رفع مدقه بحركة استياء، دون أن يكون في نيته القتل، ودون أن يتنبأ بأنه قد يقتل. ولولا أنه كان يمسك بيديه ذلك المدق في تلك اللحظة، فلربما كان سيكتفي بأن يضرب أباه، أما أن يقتله فلا. وعندما لاذ بالفرار بعد ذلك كان لا يدري هل قتل العجوز الذي ضربه أم لا. إن قتلاً يحدث في هذه الظروف لا يُعتبر قتلاً. وإن قتلاً من هذا النوع ليس قتل ابن أباه أيضاً. لا يمكن أن يوصف

قتل مثل هذا الأب بأنه قتل أب. إننا لا نستطيع أن نتكلم هنا على جريمة قتل أب إلّا بسبب وهم قائم في الأذهان! ولكنني أعود فأسألكم مرة أخرى وبكل صدق، بكل نفسي: هل كان ثمَّة قتل فعلاً؟ تخيلوا يا سادتي المحلفين أننا حكمنا على هذا الرجل فقال لنفسه بعد ذلك: «إن هؤلاء الناس لم يفعلوا في سبيلي شيئاً من أجل أن يصلحوا أمري. لم يهتموا بتربيتي، ولم يحاولوا أن يجعلوا مني إنساناً أفضل. وإن هؤلاء الناس لم يعطوني ما أشربه ولا ما آكله، ولم يساعدوني يوماً في سجني المظلم، وها هم يرسلونني الآن إلى السجن في المنفى! إني إذن اليوم براء تجاههم، لا أدين لهم بشيء، ولن أدين بشيء لأحد من الناس في هذا العالم بعد هذه اللحظة! إنهم جميعاً أشرار، فسأكون شريراً مثلهم. إنهم جميعاً قساة، فسأكون قاسياً مثلهم». ذلك ما سيقوله يا سادتي المحلفين. أقسم لكم إنكم إذا حكمتم عليه كنتم تريحونه بهذا الحكم الذي سيمنعه من أن يسمع صوت ضميره. صحيح أنه سيلعن الجريمة التي ارتكبها، ولكنه لن يشعر بالندامة. إذا حكمتم عليه كنتم تحطمون إلى الأبد ما في نفسه من إمكانيات إصلاح حاله، لأنه سيظل شرير النفس أعمى البصر طوال حياته. فلماذا لا تؤثرون على ذلك أن تنزلوا فيه عقاباً رهيباً هو أفظع عقاب يمكن تصوره، مع إنقاذكم نفسه، ومنحه فرصة أن يُخلق مجدداً إلى الأبد؟ ألا فأرهقوه برحمتكم، فتروا وتسمعوا كيف سينتفض مروّع النفس عندئذ، قائلاً: «هل أستطيع أن أحتمل هذه الرحمة، هل أنا جدير بهذا الحب كله، هل أستحق هذا الحب فعلاً؟». هكذا سيكون ردُّه على رحمتكم. إنني أعرف هذا الرجل يا سادتي المحلّفين، إنه متوحش، ولكنه نبيل القلب. لسوف يعجب عندئذ بعظمة موقفكم، لأنه ظامىء إلى الحب قبل أي شيء آخر، وسيلتهب قلبه عندئذ بشكل رائع، وسيولد من جديد. إن هناك نفوساً تلعن العالم كله وتتهم كل إنسان ما ظلت حبيسة وحدتها الضيقة وعزلتها الخانقة. فاشملوا هذه النفس برحمتكم وبرهنوا لها على حبكم، فإذا هي تلعن وضعها السابق وموقفها الماضي، لأن فيها قدْراً كبيراً من الأشواق النبيلة المكبوتة. سوف تتفتح روح هذا الإنسان متى خطفت بصره رأفة الله وطيبة الإنسان وعدالة البشر. سوف تروِّعه عندئذ جريمته، فيسحقه عذاب الضمير، ويضنيه الشعور بالواجب الكبير الذي يقع على عاتقه بعد الآن. لن يقول بعدئذ: «أنا الآن براء لا أدين لأحد بشيء»، بل سيقول: «أنا آثم أمام جميع الناس، لأنني أحط الناس جميعاً». ومن خلال دموع ندامته، سيصيح وهو يشعر بعاطفة لاذعة كأنها نار محرقة: «جميع الناس خير مني لأنهم أرادوا خلاصي لا ضياعي!». سهلٌ عليكم أن تحققوا فعل الرحمة هذا، وسوف يعذبكم ضميركم كثيراً إذا أنتم أصدرتم حكمكم بإدانته رغم عدم توفُّر الأدلة المقنعة! لأن نبرىء عشرة مجرمين خير من أن نجرِّم بريئاً - هل تسمعون هذا الصوت العظيم الذي انطلق في آخر قرن من تاريخنا المجيد؟ هل عليَّ أنا، أنا المخلوق الضعيف، أن أذكِّركم بأن القضاء الروسي لا يهدف إلى العقاب فحسب، وإنما يهدف كذلك إلى إنقاذ الإنسان الذي زلت قدمه فسقط؟ فلتلتزم الشعوب الأخرى بحرفية النص وبالعقاب؛ أما نحن فلنا الروح والمعنى، والخلاص والقيامة للذين خسروا أنفسهم. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان حقاً هذه هي روسيا، وهذا هو قضاؤها، أنت لا تخيفيننا، نعم، لا تخيفيننا بالترويكات إذن، إلى الأمام يا روسيا. خاصتك التي تتجنبها الدول الأخرى تعرف. إنك لست ترويكا مسعورة، إنما مركبة فخمة لروسيا التي ستبلغ هدفها بهدوء وجلال. تتقدم نحو هدفها هادئة مظفَّرة. بين أيديكم مصير موكلي، بل مصير العدالة الروسية أيضاً. يمكنكم إنقاذها وبإمكانكم أن تدافعوا عنها، فتظهروا أن ثمة أناساً يسهرون عليها، وأنها في أيدٍ أمينة!».

XIV

الفلاحون لم يتفككوا

هكذا ختم فيتوكوفتش مرافعته، فإذا حماسة المستعمين تنفجر كأنها العاصفة. كان يستحيل احتواؤه: فالنساء ينتحبن، وعدد كبير من الرجال يبكون أيضاً، حتى أن اثنين من كبار الموظفين بكيا أيضاً. فأذعن الرئيس وتأخر في قرع جرسه. «إن محاولة لجم مثل هذه الحماسة يعني تدنيساً للمقدسات!»، ذلك ما هتفت به نساؤنا. المحامي ذاته كان منفعلاً بصدق. وفي تلك الدقيقة، نهض هيبوليت كيريلوفتش مرة أخرى «ليثير بعض الاعتراضات». نظر إليه الناس نظرة غاضبة: «ماذا؟ كيف؟ إنه يجيز لنفسه أن يردَّ؟». تمتمت إحدى السيدات. ولكن لو أن جميع نساء الأرض، وعلى رأسهن زوجة هيبوليت كيريلوفتش، احتججن لما تمكن من أن يوقفن وكيل النيابة عن الكلام في تلك اللحظة. كان هيبوليت كيريلوفتش شاحب الوجه، يرتجف انفعالاً. إن الكلمات الأولى التي قالها كانت مضطربة غير واضحة، لأن الرجل كان يختنق بكلامه، وكان ينطق بألفاظه بشكل غامض، وكانت عباراته مشوَّشة. ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه. وسأقتصر هنا على نقل بضع جمل من ردِّه:

«... يلوموننا لأننا ألفنا روايات. ولكن ما الذي فعله الدفاع غير تكديس رواية فوق أخرى؟ لم يكن يعوز مداخلته إلا الأشعار. إن فيودور بافلوفتش قد مزق الظرف ورماه على أرض الغرفة بانتظار وصول حبيبته!... وينقلون لنا أيضاً ماذا قال في تلك الواقعة المثيرة للدهشة. أليس هذا شعراً؟ وأين هو البرهان على أنه أخرج المال من الظرف؟ من الذي سمع الكلمات التي قالها حينذاك؟ وهذا الإنسان الضعيف العقل، سمردياكوف، الذي يصوره لنا الدفاع في صورة بطل رومنسي يثأر من المجتمع لولادته غير الشرعية، هل الكلام عليه على هذا النحو إلّا قصيدة من طراز قصائد بايرون؟ والابن الذي دخل منزل أبيه وقتله والذي لم يقتله في الوقت نفسه، ليست حتى رواية، إنها قصيدة. إنه أبو الهول يطرح ألغازاً يعجز هو نفسه عن حلِّها. إذا قتل فقد قتل. لكن كيف يقتل إنسان دون أن يقتل، من يستطيع أن يفهم كلاماً كهذا؟ ثم يعلنون لنا أن منبرنا هو منبر الحقيقة والأفكار السليمة، ثم ها هم، من على منبر «الأفكار السليمة» هذا، كما يعلمون بديهية من البديهيات، أن إطلاق اسم جريمة قتل الأب على مقتل أبٍ بيد ابنه هو وهم من الأوهام الاجتماعية! ولكن إذا كانت جريمة قتل الأب حكماً مسبقاً، وإذا اكتسب كل ابن حق سؤال أبيه عن الأسباب التي توجب عليه أن يحبه، فما هو مصير بلادنا، ما هو مصير الأسس التي يقوم عليها مجتمعنا، وما هو مصير الأسرة؟ وقد زعموا أن ما نشعر به من هول تجاه جريمة قتل الأب شبيه بذلك الخوف الذي تحسُّه النفوس المؤمنة بالخرافات، شبيه بخوف بائعات موسكو من «الكبريت»! إنهم يشوهون أقدس قواعد العدالة الروسية، ويعبثون بمصيرها ومستقبلها، وذلك كله في سبيل الوصول إلى الهدف الحقيقي الذي يسعَون إليه، في سبيل تسويغ ما لا يمكن تسويغه، والعفو عما لا يمكن العفو عنه. لقد صاح المحامي: «حطِّموه برحمتكم!». إن هذا هو كل ما يتمناه المتهم، وسوف ترون غداً كيف سترهقه رحمتكم هذه! يخيَّل إليَّ أن المحامي كان متواضعاً جداً وقنوعاً جداً حين اقتصر على المطالبة ببراءة المتهم. لماذا لم يطالب بإنشاء جائزة تسمى باسم قاتل أبيه، تخليداً لذكرى فعله في نفوس الجيل الجديد؟ ويريدون أن يصححوا

الإنجيل وتعاليم الدين، فيقولون: «هذا من الأمور الغيبية!». إننا نحن الذين نطبّق المسيحية الحقيقية التي يضبطها حكم العقل في ضوء الأفكار السليمة! ومضوا إلى أبعد من هذا فرسموا لنا المسيح في صورة باطلة! «سيُكال لكم بالكيل الذي كلتم به»: بهذا صاح المحامي، ثم أسرع يستنتج من ذلك أن المسيح قد أمرنا أن نكيل للآخرين بالكيل الذي كالوا لنا به. فانظروا إلى ما يجرؤون أن يعلنوه من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة هذا! واضح أنهم من أولئك الناس الذين لا يتنازلون فيلقون نظرةً سريعة على الإنجيل إلّا عشية إلقائهم مرافعاتهم أملاً في أن يلمع نجمهم بالاستشهاد بكتاب عظيم يستطيعون استغلاله للتأثير في النفوس، ما احتاجوا إلى ذلك طبعاً! إن المسيح لا يأمرنا بأن نسلك هذا السلوك الذي هو سلوك عالم فاسد شرير؛ وإنما هو يأمرنا، على خلاف ذلك، أن نغفر الإساءات التي أُلحقت بنا، وأن ندير خدنا الأيسر، بدلاً من أن نكيل للمسيئين إلينا بالكيل الذي كالوا لنا به: ذلك ما يعلّمنا إياه الرب؛ وليس أن منع الأبناء من قتل آبائهم هو حكم مسبق! ونحن لسنا في وارد أن نقوم، من على كرسي الحقيقة والمفاهيم السليمة لانجيل ربنا الذي يتفضل الدفاع ويسميه صديق الإنسانية المصلوب»، خلافاً لروسيا الأورثوذكسية التي تبتهل بهذه التعابير: .«!...«أنت إلهنا

هنا تدخل الرئيس ليدعو وكيل النيابة إلى الهدوء، راجياً منه ألّا يبالغ، وألّا يتجاوز الحدود، إلى آخر ما هنالك من معزوفة الرؤساء. وكانت القاعة تضطرب وتتحرك. لقد أصبح الجمهور عصبياً، وأصبحت تُسمع صيحات استياء هنا وهناك. وعدل فيتوكوفتش عن الرد، ولم يزد على أن تقدم واضعاً يده على قلبه، فقال بضع كلمات تفيض رصانة، قالها بلهجة إنسان أوذي شعوره؛ وعاد يشير إشارة عابرة ساخرة إلى «الروايات» و «السيكولوجيا»، ووجد السبيل إلى أن يستشهد بالقول المأثور: «قد غضبت يا جوبيتر، فأنت إذن على خطإٍ»، فأثار ذلك ضحكات استحسان وتأييد، لأن هيبوليت كيريلوفتش لم يكن فيه شيء من جوبيتر؛ ثم أعلن يقول برصانة إنه لن يردّ حتى على اتهامه بأنه يأذن لأبناء الجيل بأن يقتلوا آباءهم؛ أما فيما يتعلق «بالصورة الباطلة للمسيح»، وبأن المحامي لم يتنازل فيسمي المسيح «إلهاً» وإنما اقتصرعلى تسميته بـ«صديق الإنسانية المصلوب» الأمر الذي يتناقض مع الأورثوذكسية والذي لا يمكن أن يلقى «من على منبر الحقيقة والمعاني المجردة السليمة»، فقد قال فيتوكوفتش إن في هذا «غمزاً»، وإنه حين جاء إلى مدينتنا كان يأمل على الأقل أن يؤذن له بالتحدث من على هذا المنبر بحرية، دون أن يتعرض «لاتهامات خطيرة تمس شخصه كمواطن شريف»... ولكن الرئيس قاطعه عندئذ ليذكّره بالتزام النظام، فما كان من فيتوكوفتش إلّا أن انحنى قائلاً إنه أنهى كلامه، ولم يبق لديه ما يضيفه؛ وعاد إلى مكانه تصحبه تمتمات الاستحسان والتأييد من الجمهور. أما هيبوليت كيريلوفتش فقد كان .«منسحقاً انسحاقاً نهائياً» كما أكدت سيداتنا من بعد

أعطي الكلام إلى المتهم، فنهض ميتيا، ولكنه لم يقل إلّا بضع كلمات. كان يبدو منهار القوى روحاً وجسماً. ومظهر الاستقلال والقوة التي كانت بادية فيه عندما دخل قاعة المحكمة في الصباح قد اختفت الآن أو كادت. كان وكأنه قد عاش في هذا النهار تجربة علمنة وأفهمته شيئاً رئيسياً لم يكن يفهمه قبل الآن. أصبح صوته ضعيفاً، فهو لا يصرخ الآن كما كان يصرخ في بداية الجلسة؛ وفي كلامه الآن نبرة جديدة، نغمة فيها انكسار ومذلة. :قال

ماذا أستطيع أن أقول لكم يا سادتي المحلَّفين؟ لقد دقت ساعة حسابي، ووضع» الله يده عليَّ. نهاية حياة رجل فاسد! ولكنني كما أعترف أمام الله أقول لكم أيضاً: «إنني لم أسفح دم أبي»؛ أكرر لكم للمرة الأخيرة «أنني لست الذي قتله». لقد عشت حياة فاسقة، ولكنني كنت أحب الخير. كنت أفكر دائماً في إصلاح نفسي، ومع ذلك بقيت أعيش كما يعيش حيوان متوحش. أشكر للسيد وكيل النيابة أنه قال عني أموراً كنت أجهلها أنا نفسي.

ولكن قوله إنني قتلت أبي قول خطأ. لقد أخطأ السيد وكيل النيابة! وأشكر للمحامي دفاعه عني أيضاً. لقد بكيت وأنا أصغي إلى كلامه. ولكن من الخطأ أن يُقال إنني قتلت أبي؛ وما كان ينبغي حتى أن يُفترض أنني فعلت ذلك! أما الأطباء فلا تصدقوهم! إنني أملك عقلي كاملاً، ولكن نفسي مرهقة. إن تسامحتم معي فأطلقتم سراحي دعوت لكم وصلّيت من أجلكم؛ وإني لأعدكم بأن أصلح ما فسد من أمري، أقسم لكم أمام الله؛ وإن حكمتم عليَّ توليت بنفسي تحطيم سيفي وقبلت حطامه. ولكن ترفقوا بي: لا تحرموني من إلهي. إنني أعرف نفسي، فلو فعلتم لثرت وتمردت! إن نفسي مرهقة أيها السادة... فترفّقوا بي!».

كاد يسقط في مكانه، تهدم صوته، ولم يكد يستطيع أن ينطق جملته الأخيرة إلّا في كثير من العناء. وانتقلت المحكمة إلى تحرير الأسئلة وطلبت من الأطراف الاستنتاجات. لن أدخل في عرض التفاصيل. ونهض المحلَّفون أخيراً للمداولة. وكان الرئيس مكدوداً فلم يوجه إليهم إلّا جملة واحدة، قال: «لا تتحيزوا، لا تتأثروا بالأقوال البليغة التي تضمنها خطاب الدفاع، بل زنوا قراركم، وتذكروا الرسالة العظيمة الموكولة إليكم»، الخ... وعُلِّقت الجلسة بعد خروج المحلفين. أصبح يحق للحضور أن يقفوا، وأن يسيروا، وأن يتبادلوا الآراء والمشاعر مع الأصدقاء، وأن يذهبوا إلى البوفيه ليصيبوا شيئاً من طعام. وكان الوقت متأخراً، فالساعة هي الواحدة صباحاً، ولكن أحداً لم يخطر على باله أن ينصرف. كانت أعصاب الجميع مشدودة وقد بلغ فرط اهتياج النفوس أن أحداً لم يدر في خلده أن ينصرف ليرتاح. كان الناس ينتظرون قرار المحكمة بما يشبه الحمّى. على أن القلق لم يكن عاماً؛ إن السيدات خاصةً هنَّ اللواتي سيطر عليهن نفاد الصبر إلى حد الهستيريا. ومع ذلك لم يساورهن أي خوف. كنّ وهنّ يتهيأن للحظة الحماسة المؤثرة، كنّ يقلن: «لا شك أنه سيبرَّأ». ويجب عليَّ أن أعترف من جهة أخرى أن عدداً كبيراً من الرجال أيضاً كان يشاطرهم هذا اليقين من أن المتهم سيبرّأ، فرح البعض واسودت وجوه البعض الآخر، بل إن منهم من استطالت أنوفهم امتعاضاً: كان هؤلاء لا يريدون البراءة. أما فيتوكوفش فكان واثقاً بالنصر. وكان الناس يحيطون به، ويهنئونه، ويمدحونه. فقال لجماعة منهم، كما رُوي فيما بعد:

- هناك، قال للبعض، كما روي لاحقاً، خيوط غير منظورة تربط المحامي بالمحلَّفين، وهذه الخيوط تنعقد وتدرَك أثناء المرافعة نفسها. لقد ربحنا القضية، لا تخافوا.

قال سيد ضخم الجسم مقطب الجبين عابس الوجه وهو يقترب من جماعة حمي فيها وطيس المناقشة. إنه أحد مالكي الأطيان في ضواحي مدينتنا، إني لأتساءل عما عسى أن يقرره فلاحونا الصغار الآن!

- ليس ثمة فلاحون، لديهم أربعة موظفين.

- نعم، يوجد موظفون. قال أحد أعضاء «مجلس المدينة» مؤمِّناً وهو ينضم إلى الجماعة.

- وبروخور إيڤانوفتش نازارييف، هل تعرفونه، ذلك التاجر، مع وسامه، عضو في هيئة المحلَّفين؟

- ولماذا؟

- لأنه من أذكى أعضاء الهيئة.

- ولكنه يصمت طوال الوقت.

- صحيح. لا يقول شيئاً. هذا أفضل. ليس أناس بطرسبورغ هم الذين يستطيعون

أن يلقنوه دروساً. إنه أقوى من جميع أهل العاصمة أولئك. إن له اثني عشر ولداً، تصوروا.

وفي جماعة أخرى هتف أحد الموظفين:

- وكيف لا يبرّئونه؟

فقال صوت آخر بلهجة جازمة:

- سيبرّئونه حتماً.

- عار ألّا يبرّئوه، قال الموظف. صحيح أنه قتل، ولكنه قتل أباه، قتل ذلك الأب. ثم إنه كان في حالة اهتياج شديد... من الجائز حقاً أن يكون قد هوى بالمدقّ دون أن يكون في نيته أن يقتل، فإذا بالآخر يسقط على الأرض مجندلاً من الضربة. لكنني أرى أن إقحام ذلك الخادم في القضية أمر مؤسف. كان ذلك من المحاكمة جزءاً مضحكاً لا أكثر. لو كنت في مكان المحامي، لصحت أقول صراحة: «نعم قتل، ولكنه ليس مجرماً؛ وليأخذكم الشيطان جميعاً!».

- ولكن هذا ما قاله هو، باستثناء حكاية الشيطان هذه.

فقال ثالث:

- بل كاد يقول لهم «فليأخذكم الشيطان» يا ميشيل سيميونتش.

- تصوروا يا سادة! لقد برّأوا عندنا، أثناء الصيام، ممثلةً نحرت عنق زوجة عشيقها الشرعية.

- نعم، ولكنها لم تقطعه إلى آخره.

- أوشكت أن تقطعه على كل حال.

- وعن الأبناء؟ كان كلامه رائعاً.

- رائعاً!

- وعن الغيبية؟

- دعوكم من الغيبية قال آخر. ضعوا نفسكم مكان هيبوليت في المصير الذي ينتظره. لسوف تفقأ امرأته عينيه بأظفارها بسبب ميتيا.

- لماذا أهي في القاعة؟

- ما هذا السؤال؟ لو كانت في القاعة لفقأت له عينيه منذ مدة. ولكنها في المنزل، لأنها تشكو من أوجاع في أسنانها، هيء هيء!

وفي جماعة ثالثة دار الحديث التالي:

- من الجائز أن يُبرّأ ميتيا!

- سوف ترى غداً! لسوف يقلب كل شيء في كاباريه «العاصمة الكبرى»، ثم لا يصحو من السكر عشرة أيام.

- يا له من شيطان!

- الشيطان، ولم يمكن الاستغناء عن الشيطان هنا. أين يوجد الشيطان إن لم يوجد في هذه القاعة؟

- كفاكم بلاغة أيها السادة! لا يجوز تحطيم جمجمة أبٍ على كل حال. وإلّا فإلى أين المصير؟

- وما قاله عن المركبة، هل تتذكرون ما قاله عن المركبة؟

- نعم، جعل من العربة المبتذلة مركبة مظفرة!

- سيردها في الغد عربة بسيطة «ما أحتاج إلى ذلك»، على حد تعبير وكيل النيابة. لا شيء إلّا الانتهازية!

- لقد زادت براعة الناس. قل لي: ألا تزال ثمة حقيقة في روسيا؟

ولكن الجرس بدأ يرن. تشاورت هيئة المحلفين خلال ساعة كاملة. ساد صمت عميق منذ عاد الحضور إلى أماكنهم. ها هي هيئة المحلفين تدخل القاعة. لن أذكر، بالترتيب، الأسئلة التي كان عليها أن تجيب عنها، لأنني نسيتها. كل ما أتذكره هو جوابها عن النقطة الأساسية كما صاغها الرئيس: «هل ارتكب المتهم جريمة القتل عن سابق تصوُّر وتصميم بقصد السرقة؟» (نسيت النص الدقيق). خيَّم على القاعة صمت يشبه الموت. وقال رئيس هيئة المحلفين، وهو أصغر الموظفين سناً، قال بصوت قوي واضح دوَّى في أرجاء القاعة كقرع الناقوس حين ينعى ميتاً:

- نعم، إنه مذنب.

وتكرار الجواب نفسه عن كل النقاط: مذنب، مذنب، دون أي ظرف مخفِّف. لم يكن أحد يتوقع ذلك، لأن جميع الناس كانوا يعتقدون أن تكون هنالك أسباب تخفيفية على الأقل. استمر الصمت الذي يشبه صمت الموت، الجميع كان مذهولاً، الذين كانوا يتمنون الادانة كالذين كانوا يتمنَّون أن يُبرَّأ. ولكن هذا السكون لم يدم إلّا بضع دقائق أعقبتها جلبة كبيرة. فأما الرجال فإن عدداً كبيراً منهم قد شعر بالرضى، حتى لقد أخذ بعضهم يفرك الأيدي غبطة وسروراً دون أن يحاول إخفاء فرحه؛ وصُعق المستاؤون منهم فأخذوا يرفعون أكتافهم ويتهامسون، ولكن لا يبدو عليهم أنهم قد أدركوا الواقع بعد. وأما السيدات، فيا رب السماء! لقد خيِّل إليَّ أنهن سيقمن بثورة! إنهن في أول الأمر لم يصدّقن آذانهن؛ ثم لم يلبثن أن انفجرن صائحات في جميع أرجاء القاعة: «ما معنى هذا؟ ما هذه الحكاية؟»، وأخذن يقفزن عن أماكنهن. واضح أنه كان يخيَّل إليهن أن كل شيء يمكن أن يتغير، وأن يستبدل بالحكم حكم آخر. وفي تلك اللحظة نهض ميتيا عن مكانه فجأة، وصاح بصوت ممزَّق، ماداً ذراعيه إلى الأمام:

- إنني أقسم بالله، وبحكم الآخرة، إنني بريء من دم أبي! أما أنت يا كاتيا فإنني أغفر لك. ويا إخوتي، يا أصدقائي، ترفقوا بالأخرى!

لم يكمل ميتيا كلامه، وانفجر بالبكاء بأعلى صوته، بصوت ليس صوته، بصوت جديد غير متوقع، جاءه فجأة لا ندري من أين. وفي أعلى القاعة، من ركن مظلم بالشرفة، انطلقت صرخة حادة: إنها غروشنكا. كانت غروشنكا قد تضرعت كثيراً أن يؤذن لها أخيراً بالعودة إلى القاعة، قبل إلقاء مطالعة النيابة. واقتيد ميتيا. وأرجىء إعلان الحكم إلى الغد. ونهضت القاعة في جلبة شديدة، لكنني لم أكن أسمع ولا أصغي. لا أذكر سوى بضع صيحات

سمعتها على درجات مخرج القاعة.

- سوف يتعفن عشرين عاماً في المناجم.

- ليس أقل!

- نعم، لم يتراجع فلاحونا.

- انتصفوا من ميتينكا!

I

مشاريع لإنقاذ ميتيا

في اليوم الخامس بعد صدور الحكم على ميتيا، استقبلت كاترينا إيڤانوفنا في الصباح الباكر قبل الساعة التاسعة، إيليوشا الذي جاء ليتفق نهائياً معها على أمر يهمّهما كليهما كثيراً، والذي كان عدا ذلك مكلفاً بمهمة. استقبلته وتحدثت معه في تلك الغرفة نفسها التي سبق أن استقبلت فيها غروشنكا. وفي الغرفة المجاورة كان يرقد إيڤان فيودوروفتش غائباً عن وعيه بتأثير الحمى الحارة. لقد نقلته كاترينا إيڤانوفنا إلى منزلها فور حدوث المشهد الذي وقع في جلسة المحاكمة، دون أن تبالي بالأقاويل التي كان لا بد أن تثيرها هذه البادرة منها. وكانت قد سافرت إحدى قريبتيها اللتين كانتا تعيشان معها، إلى موسكو إثر نهاية المحاكمة، وبقيت الأخرى في منزل كاترينا إيڤانوفنا. ولكن كاترينا إيڤانوفنا ما كانت لتعدل عن قرارها، ولو كانت وحيدةً في منزلها، ولسهرت على المريض بنفسها نهاراً وليلاً. وكان الطبيبان فارفنسكي وهرتسنشتوبه يعالجان إيڤان. أما الاختصاصي الذي جاء من موسكو فقد سافر دون أن يفصح عن رأيه فيما عسى تصير إليه حالة المريض، وفيما عسى يكون من أمر تطور المرض. وكان الطبيبان يبذلان لكاترينا إيڤانوفنا وإيليوشا أنواع التشجيع، ولكنهما لا يجازفان فيقدمان لهما آمالاً قاطعة. وكان إيليوشا يزور أخاه المريض مرتين يومياً. لكنه جاء الآن لأمر محرج ومربك، وهو يشعر بمدى الصعوبة في مواجهة الموضوع، ولا يعرف من أين يأتيه. وكان عدا ذلك في عجلة من أمره، لأن عليه أن يقوم بواجب آخر وأن ينهض بعبءٍ ثان، في حيّ غير هذا الحيّ من المدينة، فكان ينبغي أن يسرع. إنهما يتحدثان منذ ربع ساعة. كانت كاترينا إيڤانوفنا شاحبة الوجه ممتقعة اللون، منهوكة القوى، ولكنها في الوقت نفسه مليئة بهياج مرضي؛ كانت في الواقع تعرف الهدف الذي جاء إيليوشا ليراها من أجله.

- لا تقلق من قراره، قالت لإيليوشا بإلحاح لا يلين. بهذا الشكل أو ذاك سيصل مع ذلك إلى هذا المخرج: يجب أن يهرب. إن هذا المسكين، هذا البطل من أبطال الشرف والضمير - أوه! لا أقصد ديمتري فيودوروفتش، لا، هو الذي وراء هذا الباب، والذي ضحى بنفسه في سبيل أخيه - أضافت تقول كاتيا وقد سطعت عيناها - لقد أطلعني منذ مدة طويلة على تفاصيل مشروع الفرار هذا. ولعلك تعلم أنه اتصل بأشخاص عدة... وقد ألمحت لك بشيء من قبل على كل حال... سيتم الفرار في المرحلة الثالثة من مراحل الطريق في أغلب الظن، أثناء سفر قافلة السجناء إلى سيبيريا. أوه! ما يزال الأمر بعيداً. وقد زار إيڤان فيودوروفتش رئيس المحطة الثالثة. ولكننا لا نعرف حتى الآن من الذي سيقود القافلة، لأن من المستحيل أن نعرف ذلك مسبقاً. وقد أطلعك غداً على تفاصيل الخطة التي تركها لي إيڤان فيودوروفتش قبل المحاكمة بيوم، احتياطاً لما قد يحدث له... تمَّ هذا في ذلك اليوم نفسه الذي رأيتنا نتشاجر فيه. أنت تذكر هذا. لقد خرج من عندي فلما رأيتك أجبرته على أن يصعد ثانية. تتذكر هذا، أليس كذلك؟ فهل تعرف فيمَ كنا نتشاجر؟

- لا، لا أعرف. قال إيليوشا.

- لقد أخفى عنك هذا طبعاً: بسبب خطة الفرار هذه. كان قد عرض لي، قبل ذلك

بثلاثة أيام، الأمور الأساسية من هذه الخطة؛ وفي تلك اللحظة قام الشجار بيننا ثم استمر ثلاثة أيام. فحين أعلن لي أن ديمتري فيودوروفتش سيهرب إلى الخارج مع تلك المخلوقة إذا حُكم عليه، شعرت بغضب لا يوصف. لا أستطيع أن أقول لك لماذا غضبت، لأنني أجهل أنا نفسي سبب غضبي... آه! السبب هو تلك المخلوقة طبعاً! فبسببها ثارت ثائرتي، لأن تلك المخلوقة تطمع في أن تسافر إلى الخارج مع ديمتري فيودوروفتش! بهذا صاحت كاترينا إيڤانوفنا وقد أخذت شفتاها ترتجفان من شدة الغضب. وتابعت كلامها فلما لاحظ إيڤان فيودوروفتش أنني غضبت بسبب تلك المخلوقة تخيل فوراً أنني أغار منها، وأنني ما زلت أحب ديمتري فيودوروفتش. هكذا نشبت مشاجرتنا الأولى في ذلك اليوم. لم أشأ أن أشرح له الأمر، ولا كنت أستطيع أن أعتذر إليه أيضاً. ولكن كان يحز في نفسي أن أتصور أن رجلاً له مثل قيمة إيڤان فيودوروفتش يمكن أن يهجس في نفسه أنني ما زلت أحب ذلك الـ... مع أنني كنت قد أكدت له أنا نفسي منذ مدة طويلة أنني أصبحت لا أحب ديمتري، وأنني لا أحب أحداً إلّا هو إيڤان!... فلما غضبت من تلك المخلوقة، ثارت ثائرته عليّ. وبعد ذلك بثلاثة أيام، في ذلك المساء نفسه الذي جئت فيه إليّ، جاءني إيڤان بظرف مختوم وطلب مني ألّا أفض الظرف إلّا إذا وقع له شيء. أوه! لقد كان يتنبأ عندئذ بمرضه. وقال لي إن الظرف يتضمن عرضاً مفصلاً لمشروع الفرار، وإن عليّ أن أتولى وحدي إنقاذ ميتيا، إذا مات هو أو مرض مرضاً خطيراً. وفي تلك المناسبة نفسها ترك مالاً، قرابة عشرة آلاف روبل - هو ذلك المبلغ نفسه الذي جاء على ذكره وكيل النيابة في مطالعته بعد أن علم صدفة أن إيڤان قد كلف أحد الناس إحضاره من مركز الاقليم لقاء سندات يبدِّلها. وقد أدهشني جداً عندئذ أن ألاحظ أن إيڤان فيودوروفتش، رغم غيرته عليّ ورغم اقتناعه بأنني ما زلت أحب ميتيا، لم يبدّل رأيه في إنقاذ أخيه، وأنه يعهد إليّ، إليّ أنا، بالقيام بهذه المهمة. آه... ما كان أقوى روح التضحية في سلوكه هذا! لا يا ألكسي فيودوروفتش! إنك لا تستطيع أن تدرك كل ما يشتمل عليه هذا السلوك من نكران الذات! تمنيت لو أرتمي على قدميه، شعوراً بإعجاب لا حدود له. ولكن هجس في نفسي أنه قد يعزو هذه البادرة مني إلى فرحي بإنقاذ ميتيا (كان سيؤوّل بادرتي هذا التأويل حتماً)، فما إن تصورت أنه قد يفترض هذا الافتراض الظالم في حقي حتى ثارت ثائرتي مجدداً، واشتد غضبي، فبدلاً من أن أقبل قدميه، رحت أضايقه. آه، ما أشقاني! ذلك هو طبعي. إنه طبع رهيب! سوف ترى، سوف ترى: سوف أعمل كل ما من شأنه أن يبعث في نفسه التعب والضجر مني، فإذا هو يهجرني أخيراً إلى امرأة أخرى يسهل عليه أن يتفاهم معها أكثر مما يتفاهم معي، تماماً كما فعل ديمتري. ولكن في هذه الحالة، لا، لن أحتمل في هذه المرة. سوف أنتحر! وحين دخلتَ عليّ، بعد أن أمرتُه بالصعود ثانيةً، جُنَّ جنوني غضباً من نظرة الكره والاحتقار التي لاحظت أنه رشقني بها في تلك اللحظة. وعندئذ - هل تتذكر؟ - عندئذ صرخت أقول إنه «هو وحده» الذي جعلني أعتقد بأن أخاه ديمتري قاتل! لقد كذبت عمداً، لكي أجرحه مرة أخرى. والحقيقة هي عكس ذلك: فأنا التي كنت قد سعيت إلى إقناعه بأن ميتيا قاتل. آه. إن طبعي اللعين هو سبب البلاء كله! أنا، أنا المسؤولة عن ذلك المشهد الرهيب الذي حدث في جلسة المحاكمة! لقد أراد أن يبرهن لي على نبل أخلاقه، أراد أن يبيِّن لي أنه، رغم حبي أخاه، لن يقبل أن يضيِّعه غيرةً وانتقاماً. لهذا تكلم على ذلك النحو أمام المحكمة... أنا سبب كل شيء، أنا وحدي المذنبة!

لم يسبق لكاتيا أن قامت في يوم من الأيام بمثل هذه الاعترافات لإيليوشا، فأحس إيليوشا أنها كانت عندئذ تعاني ذلك العذاب الذي لا يطاق، ذلك العذاب الذي يجعل النفس المتكبرة تعدل فجأة عن صلفها فتنهار مغلوبة على أمرها قد هزمها الألم. ثم لقد كان إيليوشا يدرك أن ثمة سبباً آخر أيضاً لعذاباتها، سبباً رهيباً حاولت أن تخفيه منذ صدور الحكم على ميتيا، ومع ذلك كان سيؤلمه كثيراً أن يراها تذل نفسها أمامه إلى حيث تبادئه الكلام عن سبب عذابها، وأن تحدثه عن هذا السبب تلقائياً في هذه اللحظة نفسها: الواقع أن كاتيا كانت تتألم من «الخيانة» التي قارفتها في المحكمة. وأحس إيليوشا أن ضميرها كان يدفعها إلى أن تتهم نفسها أمامه صادقةً، أن تتهم نفسها بدموع غزيرة وصرخات حادة، وربما برطم

جبينها بالأرض في نوبة هستيرية من نوبات عذاب الوجدان. لكنه كان يخشى هذه اللحظة، ويريد أن يواسي هذه المرأة المعذَّبة. ولقد ازدادت صعوبة المهمة التي جاء من أجلها. وعاد يتكلم على ميتيا.

لا تقلق، لا تقلق له! لا تخش من شيء إن معارضته لن تستمر أكثر من دقيقة. أنا أعرفه، أعرف قلبه. ثق أنه سيوافق على الفرار أخيراً. وخاصةً ليس الآن، وسيكون لديه الوقت الكافي لاتخاذ قراره. ومن الآن إلى أن يحين الموعد، يكون إيڤان قد شفي من مرضه، فيتولى القضية بنفسه، ولن يكون عليَّ أنا أن أهتم بها. لا تخف، سيوافق على الهرب. بل إنه لموافق منذ الآن: فأنَّى له أن يترك تلك المخلوقة! ما داموا لن يسمحوا له بأن تتبعه إلى المعتقل، فلم يبق له إلّا أن يهرب. فهو يخاف منك خصوصاً، يخاف أن تلومه على الهرب لأسباب أخلاقية. فمتى جُدت عليه فأذنت له وافق، ومن واجبك أن تأذن له مادام هذا الإذن ضرورياً.

ثم أردفت بعد لحظات:

- إنه يتحدث في السجن عن نشيد، عن صليب عليه أن يحمله، عن واجب عليه أن يقوم به. ولا أدري أي واجب؟ إنني أتذكر أن إيڤان فيودوروفتش قد أخبرني الكثير عن هذا الموضوع. ولو تعلم بأي طريقة كان إيڤان يتكلم! هتفت كاتيا في اندفاعة لا تقاوم. ليتك تعلم كم كان يحب هذا الشقي حين كان يتكلم عليه، وكم كان يبغضه ربما في الوقت نفسه أيضاً! أما أنا، فقد استمعت إلى هذه القصة التي رواها لي وهو يبكي، استمعت إليها وأنا أحدّق إليه متكبرة ساخرة! ما أحطَّني من مخلوقة! نعم أنا التي يجب أن أسمى مخلوقة! بسببي أصيب بالحمّى الحارة! أما الآخر، الذي حكم عليه، فإنه غير مستعد لأن يتألم أبداً. وهل في وسع امرىء مثله أن يتألم؟ إن رجالاً من نوعه لا يتألمون أبداً.

إن نبرة اشمئزاز واحتقار برزت بصوتها حين نطقت هذه الكلمات الأخيرة. في حين أنها هي التي خانته. قال إيليوشا لنفسه: «هي تكرهه في بعض اللحظات لأنها تشعر بأنها أذنبت في حقه». كان إيليوشا يتمنى أن لا تكرهه إلّا في بعض اللحظات. وقد لاحظ إيليوشا في الكلمات الأخيرة التي قالتها كاتيا شيئاً من تحد، ولكنه لم يكترث.

- كان هدفي من استدعائك اليوم. أضافت كاتيا بلهجة استفزازية. هو أن تعدني بأن تمارس تأثيرك فيه لإقناعه، اللهم إلّا أن تعتبر الفرار عملاً منافياً للشرف، مناقضاً للكرامة، أو ماذا أقول؟... ربما كنت تعتبر الفرار مخالفاً للمسيحية؟

- لا لماذا؟ سأقول له كل شيء. تمتم إيليوشا. إنه يطلب إليك أن تجيئي إليه اليوم. وحدَّق في عينيها، فارتعشت بكل جسمها، وتقهقرت قليلاً إلى الوراء، وتمتمت وقد اصفر وجهها:

- أنا؟... ولكن هل هذا ممكن؟

- هذا ممكن وضروري، قال إيليوشا بإلحاح. لا بد أن يراك، الآن خاصةً. ولولا أن ذلك واجب حتماً، لما تعرضت لهذه المسألة مخافة أن أؤلمك في غير طائل. إنه مريض. إنه شبه مجنون. إنه يناديك باستمرار. وهو لا يريد أن يراك من أجل أن يصالحك. كل ما يطلبه هو أن تذهبي إليه وتظهري له عند باب غرفته. إن تحولاً كبيراً قد حدث في نفسه منذ ذلك اليوم الحاسم. لقد أدرك مدى الإثم الذي اقترفه في حقك. ليس يسألك أن تسامحيه. هو نفسه يقول: «أنا لا أستحق الغفران». كل ما يرجوه هو أن تظهري له عند عتبة غرفته... أنت تحرجني... تمتمت كاتيا. كنت أتنبأ كل يوم أنك ستجيئني طالباً مني ذلك... كنت واثقة بأنه سيدعوني. ولكن لا... مستحيل!

- ربما مستحيل. لكن عليك أن تقومي بذلك. تذكري أنه لأول مرة في حياته يدرك مدى الاساءة التي ألحقها بك. يدرك هذا لأول مرة في حياته. إنه لم يدركه في يوم من الأيام كما يدركه الآن. قال لي: «إذا رفضت أن تأتي فسأكون تعيساً طوال عمري». هل تفهمين؟ رجل محكوم بالسجن عشرين عاماً ثم هو يريد أن يكون سعيداً! أليس هذا مما يستحق الشفقة؟ تذكري أيضاً أنك تزورين إنساناً بريئاً. هتف إيليوشا بلهجة فيها تحدٍ. إن يديه طاهرتان لم يلوثهما دم. فاذهبي إليه، اذهبي إليه بسبب هذه الآلام الذي لا حدود لها!... اذهبي، مدِّي إليه يدك في هذه الليلة... اظهري له على الباب فحسب، على الباب فحسب... هذا واجب عليك، هذا واجب عليك... ختم إيليوشا كلامه ملحّاً على كلمة «واجب» إلحاحاً يكاد يشتمل على عنف.

- هذا واجب عليَّ، ولكن... قالت كاتيا بصوت فيه أنين، لا أستطيع. سينظر إليَّ... لا أستطيع.

- يجب أن تلتقي نظراتكما. كيف يمكنك أن تعيشي حياتك في المستقبل إذا لم تقرري الآن؟

- أؤْثر أن أبقى أتألم طوال حياتي!

- يجب أن تذهبي إليه، يجب. قال إيليوشا بإلحاح لا ينثني عن عزمه.

- ولكن لماذا اليوم؟ قالت كاتيا لماذا حالاً؟ يستحيل عليَّ أن أترك المريض وحده.

- بل تستطيعين أن تتركيه بضع لحظات. لن يطول غيابك. ما كنت لأقول لك هذا لولا أنه حق. ليكن في قلبك شيء من شفقة.

- أنا أوْلى بالشفقة. أجابت كاتيا بلهجة عتاب مر.

وأخذت تبكي.

- معنى هذا أنك آتية. سأبلغه أنك ستجيئين حالاً. قال إيليوشا بصوت جازم وقد رأى دموعها.

هتفت كاتيا مذعورة:

- لا، مهما كلف الأمر لا تقل له ذلك. سأذهب إليه، ولكن لا تبلغه ذلك مسبقاً. لأنني سأذهب ولكن ربما لن أدخل... لا أدري بعد...

انقطع صوتها. كانت تتنفس بصعوبة. ونهض إيليوشا لينصرف.

- فماذا لو لقيت أحداً هناك؟ فسألته بصوت خافت وقد امتقع لونها من جديد:

- لهذا السبب يجب أن تأتي إليه الآن كي لا تجدي أحداً. لن يكون هناك أحد. أنا واثق بما أقول. وختم كلامه يقول بإلحاح: سننتظرك. وخرج من الغرفة.

II

صار الكذب حقيقة في لحظة

أسرع الخطى باتجاه المستشفى حيث كان ميتيا الآن. فقد أصيب ميتيا بحمّى عصبية بعد صدور الحكم، فنُقل إلى مستشفى مدينتنا، حيث أودع القسم المخصص للسجناء. ولكن الدكتور فارفنسكي وافق أخيراً بناء على طلب إيليوشا وأشخاص كثيرين (مثل السيدة خوخلاكوفا وليزا وآخرين) أن لا يوضع ميتيا بين السجناء، وإنما في الغرفة الصغيرة، التي أقام بها سمردياكوف. إن على نافذة هذه الغرفة قضباناً حديدية، فليس على فارفنسكي أن يتمتع بهذه المعاملة المميزة دون أن يخشى شيئاً. أدرك الطبيب شاباً مدى ما يمكن أن يلقاه رجل مثل ميتيا من عناء وهو يعيش في وسط قتلة ولصوص، وأنه يحتاج إلى مرحلة انتقالية ليتعود الوضع الجديد. ويمكن لأقرباء السجين وأصدقائه ضمناً أن يزوروه، بإذن من الطبيب والمراقب وحتى رئيس الشرطة. ولكن إيليوشا وغروشنكا كانا هما الوحيدين اللذين كانا سيزوران ميتيا أثناء تلك الأيام. وقد حاول راكيتين مرتين، لكن ميتيا طلب من الدكتور فارفنسكي أن لا يسمح له بالدخول.

وجده إيليوشا جالساً على مضجعه مرتدياً معطف المستشفى، محموماً قليلاً، ورأسه ملفوف بقطعة قماش مبتلة بالخلّ. فلما رأى أخاه إيليوشا حدَّق إليه بنظرة غامضة خائفة.

أصبح ميتيا منذ صدور الحكم كثير الوجوم. وكان أحياناً يبقى صامتاً خلال نصف ساعة وكأنه يفكر في أمر من الأمور تفكيراً أليما، ناسياً من كان حاضراً. حتى إذا خرج بعد ذلك من تأمله وأخد يتكلم، استرسل في الحديث ارتجالاً، وعالج موضوعاً يختلف عما كان يهمه أن يقوله في الواقع. وكان يثبّت على أخيه في بعض الأحيان نظرة مثقلة بالألم. ويرتاح إلى وجود غروشنكا أكثر من ارتياحه إلى وجود إيليوشا. صحيح أنه كان لا يكاد يكلمها، ولكن وجهه كان يشرق فرحاً متى جاءت.

جلس إيليوشا على سرير أخيه دون أن ينبس بكلمة. وكان أخوه ينتظره في هذه المرة قلقاً، ولكنه يخشى أن يسأله. كان يعتقد أن من المستحيل أن توافق كاتيا على المجيء إليه، وكان يشعر في الوقت نفسه أن رفضها المجيء سيورثه ألماً لا يطاق. وكان إيليوشا يشعر بعواطفه.

- إن تريفون بوريستش، قال ميتيا بعصبية، قد خرب فندقه. فهو يقتلع أخشاب الأرض، وينزع ألواح الجدران، حتى لقد هدم الرواق هدماً تاماً. يبدو أنه يبحث عن الكنز، عن الألف وخمسمئة روبل التي اتهمني وكيل النيابة بإخفائها هناك. فمنذ أن عاد إلي بدأ بالهذيان. يستحق هذا الوغد ذلك. علمت هذا من حارس هناك أخبرني ذلك أمس.

- اسمع. قال إيليوشا. إنها ستجيء. ولكنني لا أعرف بعدُ متى تجيء. ربما اليوم، أو غداً، أو في يوم قريب، لا أعرف تماماً. ولكنها ستجيء، حتماً.

انتفض ميتيا كأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكنه سكت. لقد هزه هذه النبأ. كان واضحاً

أنه يتحرق شوقاً إلى معرفة تفاصيل الحديث الذي جرى بين إيليوشا وكاتيا، ولكنه لا يجرؤ أن يسأل أخاه: فإن كلمة فيها قسوة أو احتقار تقولها كاتيا كفيلة في هذه اللحظة بأن تطعنه كسكين.

- لقد طلبت مني ملحّةً أن تتمهل فيما يتعلق بالفرار. وستتولى هي تدبير الأمر إذا لم يُشفَ إيڤان من مرضه إلى ذلك الحين.

- سبق أن ذكرتَ لي ذلك. قال ميتيا مفكراً.

- ونقلتَ أنت هذا الكلام إلى غروشنكا. أجابه إيليوشا.

- صحيح. قال ميتيا معترفاً.

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلة:

- إن غروشنكا لن تأتي إلّا في المساء. عندما عرفت بالأمس أن كاتيا تهيِّئ أمر فراري، سكتت في أول الأمر ثم انقبضت شفتاها وتمتمت: «لها ما تشاء». لقد أدركت أن الأمر جد. لم أجرؤ أن أقول لها أكثر من ذلك. أعتقد أنها تعرف الآن أن كاتيا لا تحبني أنا، بل تحب إيڤان.

- هل أنت متأكد من هذا؟ أفلت من إيليوشا هذا السؤال.

- ربما كنتُ مخطئاً في ظني.

- على كل حال، لن تأتي هذا الصباح. لقد كلفتها مهمة ستقوم بها. أما إيڤان فإنه خير منا جميعاً. هو الذي يستحق الحياة، لا نحن. وسيُشفى.

- تصوَّر أن كاتيا رغم خوفها الشديد هي واثقة بأنه سيُشفى. قال إيليوشا.

- إذن هي واثقة بأنه سيموت. فمن الخوف تحاول أن تقنع نفسها بأنه سيُشفى.

- إن أخانا إيڤان قوي الجسم متين البنية. قال إيليوشا في قلق. أنا أيضاً أتمنى أن يشفى من مرضه.

- سوف يشفى من مرضه. ولكنها، هي، واثقة بأنه سوف يموت.

وساد السكون بضع لحظات. كان واضحاً أن هناك هماً ثقيلاً يعذب ميتيا.

- إيليوشا، قال ميتيا بصوت مرتجف مثقل بالدموع. إنني أحب غروشنكا حباً رهيباً.

- لن يسمحوا لها بأن تتبعك! أسرع يقول له إيليوشا.

فاستأنف ميتيا كلامه بصوتٍ أصبح مختلجاً:

- إليك ما كنت أريد أن أقوله لك أيضاً تابع ميتيا بصوت محتج، إذا ضربوني أثناء الطريق، أو «هناك»، فلن أسمح لهم بذلك: سأقتل أحداً فيرمونني بالرصاص. كيف لي أن أحتمل عشرين سنة! لقد بدأوا يخاطبونني منذ الآن بصيغة المفرد هنا. الحرس ينادونني بقولهم «أنت». مكثت أفكر وأتساءل طوال الليل. لا، لست مستعداً، لا أستطيع أن أتحمل هذا المصير! لقد أردت أن أنشد «نشيداً»، وها أنا أعجز عن احتمال أن يخاطبني حارس بصيغة المفرد! لو كانوا سيأذنون لغروشنكا أن تصحبني لاحتملت كل شيء في سبيلها... إلّا الضرب

طبعاً... ولكنهم لن يأذنوا لها بذلك.

- اسمع يا أخي. ابتسم إيليوشا ابتسامة رقيقة عذبة. إليك رأيي في هذا الموضوع. وأنت تعلم جيداً أنني لن أكذب عليك. فاسمع إذن: أنت غير مهيأ، وذلك الصليب لم يُخلق لك. أكثر من ذلك: لست بحاجة ولست مستعداً لتحمل صليب الشهادة. لو كنت قد قتلت أباك لما ارتضيت لك أن ترفض المحنة. ولكنك بريء، وهذه الكفارة فوق ما تحتمل. كنت تريد أن تتألم لتحلق نفسك من جديد، ولتصبح إنساناً آخر. في رأيي إنه يكفيك أن تبقى طوال حياتك تفكر في هذا الإنسان الآخر، وأن يبقى هذا الإنسان الآخر ماثلاً أمامك أينما وُجدت، وأينما هربت. ذلك كافٍ من جهتك. وإن رفضك احتمال عذاب أشد لن يكون من شأنه إلّا أن يعزز شعورك بواجبك، وهذه الفكرة الدائمة التي ستتبعك حيثما تذهب قد تساهم في خلقك خلقاً جديداً لا يتحقق لك من وجودك «هناك»؛ ذلك أنك لن تستطيع أن تتحمّل نظام الحياة هناك، فإذا أنت تثور وتتمرد وتقول لنفسك في آخر المطاف فعلاً: «هاأنذا الآن براء تجاه المجتمع». لقد صدق المحامي حين قال هذا الرأي. إن من المحن القوية ما لا طاقة لكل إنسان به. إن من الناس من لا يستطيعون احتمال مثل هذه المحن. تلك هي آرائي ما دمت حريصاً على معرفتها. إذا كان سيعاقب على هربك أشخاص آخرون - كالضباط أو الجنود - فلن أسمح لك بأن تهرب. ولكن في إمكاننا، بشيء من البراعة، أن نجنبهم المتاعب، وفي إمكانهم أن يخرجوا من الأمر بغير كبير عناء (ضابط المحطة نفسه أكد هذا لإيڤان). صحيح أن رشوة الموظفين عمل غير شريف، حتى في حالة من هذا النوع؛ ولكنني أمتنع هنا عن إبداء رأي. فلو كلفني إيڤان أو كلفتني كاتيا أن أتولى هذا الأمر من أجلك، لما امتنعت عن استخدام الرشوة. أنا أعرف ذلك. إن من واجبي أن أقول لك الحقيقة كلها في هذا الموضوع. ولذلك لا أصلح أن أكون قاضياً يحكم على ما قد تفعله. ولكن كن على ثقة أنني لن ألومك ولن أدينك. وأنَّى لي أن أكون قاضيك في هذه المسألة؟ حسناً، الآن، أعتقد أنني قلت كل ما كان يجب عليَّ قوله في هذا الصدد.

- ولكنني سأدين نفسي بنفسي.. قال ميتيا. سوف أهرب، هذا أمر تقرر دون معرفتك. وهل يستطيع ميتكا كارامازوف إلّا أن يهرب؟ ولكنني سأدين نفسي بنفسي بعد ذلك، وسأكفّر عن هذا الذنب طوال حياتي في البلد الذي سألجأ إليه. قل لي: أليس يفكر اليسوعيون هكذا؟ ألا يتكلمون كما نتكلم نحن الآن؟

- بلى. أجاب إيليوشا بابتسامة عذبة.

- أحبك لأنك تقول الحقيقة دائماً ولا تخفي شيئاً. قال ميتيا وهو يضحك بفرح. لقد فاجأت، إذن، إيليوشا متلبساً بإخفاء ما يفعله! كان يجب أن أقبّلك من أجل هذا، هل تعلم؟ اسمع ما أريد أن أقوله لك أيضاً، لأنني أريد أن أفتح لك النصف الثاني من نفسي كذلك. إليك القرار الذي اتخذته بعد أن فكرت فيه ملياً وأنضجته طويلاً ووزنته من كل النواحي: هبني هربت، بمال وجواز سفر، فأقمت في أميركا. سوف يعزيني ويقوي عزيمتي أن أتصور أنني إذ أهرب لا لأكون سعيداً، وإنما أهرب لألقي نفسي في سجن آخر مختلف عن السجن الذي كنت سأودع فيه هنا، ولكنه سجن على كل حال، سجن يشبه السجن هنا أو هو أسوأ منه. أوه! إنني أكره أميركا هذه منذ الآن وستكون غروشنكا معي. ولكن فكِّر قليلاً: ما الذي في غروشنكا من امرأة أميركية؟ فيم تشبه غروشنكا امرأة أميركية؟ إنها روسية، روسية حتى النخاع من عظامها، وستشعر هنالك بالحنين الأليم إلى الأرض التي ولدت فيها. وسوف أرى في كل لحظة أنها من أجلي تحملت عذاب النفس هذا، وأنها في سبيلي حملت ذلك الصليب، هي التي لم تقترف ذنباً. وأنا؟ هل تظن أنني سأتمكن أن أطيق معاشرة أولئك الجفاة من سكان تلك البلاد حتى ولو كانوا كلهم خيراً مني؟ إنني أكرهها، أميركا هذه! إن سكانها ولو كانوا جميعاً، من أولهم إلى آخرهم، تكنيكيين من الطراز الأول أو أي شيء آخر، فليسوا هم

الناس الذين يحبهم قلبي، أنا أحب روسيا يا ألكسي، أنا أحب الإله الروسي، رغم أنني إنسان شقي. ولكني سأموت هنالك!

- فإليك ما عقدت عليه العزم يا ألكسي قال وعيناه مغرورقتان بالدموع. أصغ إليَّ: سأذهب مع غروشا، فمتى وصلنا إلى هناك اندفعنا نعمل فوراً: نستصلح الأرض ونحييها في مكان بعيد لا تجاورنا فيه إلّا الدببة، مكان هو أبعد ما يكون عن المناطق الآهلة بالسكان. لا بد أن هنالك أماكن مقفرة! يُقال إنه ما يزال في أميركا أناس حمر يعيشون في أقاصي البلاد. فإلى هناك سنذهب، إلى آخر قبائل الموهيكان سنلجأ وسنبدأ فوراً، أنا وغروشا، في دراسة قواعد اللغة، لا نضيِّع يوماً واحداً. ونقضي في ذلك ثلاث سنوات: نزرع الأرض وندرس قواعد اللغة. وفي نهاية تلك السنين الثلاث، نكون قد أتقنا اللغة الإنكليزية، وأصبحنا نجيد الكلام بها كبريطانيين أصليين. فمتى أتقنّا اللغة الإنكليزية بشكل جيد قلنا لأميركا وداعاً، وعدنا إلى روسيا كمواطنين أميركيين. ولكن لا تخف: لن نرجع إلى هذه المدينة. بل سنختفي في مكان ما، بعيد عن هنا،بالشمال، وربما بالجنوب. وإلى أن نعود يكون قد تغير مظهري، وتبدلت هيئتي، ويكون قد حدث لها هي أيضاً مثل ذلك. ثم إن أحد أولئك الأطباء الأميركيين سيستطيع أن يجري تعديلاً في ملامح وجهي، كأن يزرع في خدي شامة اصطناعية مثلاً! إنهم هناك بارعون في التكنيك! وسأفقأ إحدى عيني إذا اقتضى الأمر، وسأرخي لحيتي طويلة جداً، بيضاء كلها، (ذلك أن لحيتي ستكون قد شابت بسبب ما أكون قد قاسيت من حنين إلى الوطن). وبذلك آمل ألّا أُعرف حين أعود. وإذا افتضح أمري، فسيرسلوني عندئذ إلى المنفى، لا بأس، هذا يكون قدري. وهنا أيضاً، في روسيا، سنحرث الأرض في مكان بعيد، وسأظل أتظاهر حتى الممات بأنني أميركي. لكننا نموت في وطننا على الأقل. تلك هي خطتي، وذلك هو قراري الذي لن أرجع عنه. هل تؤيدني؟

- بكل قوة. قال إيليوشا الذي لم يشأ أن يعاكسه.

سكت ميتيا لحظة ثم تمتم:

- كيف قاموا بذلك، في المحاكمة!

- بكل الأحوال كانوا سيحكمون عليك. قال إيليوشا وهو يتنهد.

- نعم، قال ميتيا بألم، لقد ضاقوا بي في هذه المدينة؛ سامحهم الله، ولكن هذه قسوة فظيعة.

وساد الصمت مرة أخرى. ثم قال ميتيا:

- إيليوشا، يجب أن أعرف حتماً: أهي آتية أم لا؟ أجب! ماذا قالت لك؟ بماذا وعدتك؟

- وعدتني بأن تأتي. قال إيليوشا. ولكنني لست أدري هل تستطيع أن تأتي اليوم.

- ليس هذا سهلاً عليها. أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلى.

- أعتقد أن هذا ليس سهلاً عليها. قال ميتيا. وكيف يكون سهلاً! إيليوشا، إنني أكاد أُجن. إن غروشنكا لا تكف عن التفرس فيَّ. يبدو أنها تعرف. يا إلهي! ألهمني الصبر! أنظر ماذا أطلب الآن: إنني أطلب كاتيا، لا بد لي من كاتيا. هل أنا أعرف ما الذي أريده بهذا؟ هذه حمى آل كارامازوف! هذا هو اندفاعنا المخزي! لا، لا أستطيع أن أتألم، مع الأسف! لست إلّا إنساناً شقياً تافهاً، ذلك كل شيء!.

- ها هي! صاح إيليوشا.

كانت كاتيا في تلك اللحظة قد ظهرت في عتبة الباب. وتوقفت بضع لحظات تتأمل ميتيا بنظرة تائهة. فقفز هو واقفاً على قدميه، وعبَّر وجهه عن ذعر، ولكن ارتسمت على شفتيه ابتسامة مُذلّة، ومدَّ ذراعيه نحو كاتيا بحركة لا تقاوَم. فاستجابت كاتيا لهذه البادرة، واندفعت إليه، فأمسكت يديه، وأجلسته على سريره عنوةً، وجلست إلى جانبه وهي ما تزال ممسكة يديه، وأخذت تضغط عليهما بقوة تشبه التشنج. وأرادا أن يتكلما عدة مرات، ولكنهما توقَّفا عن الكلام في كل مرة، لينظر كل منهما إلى الآخر صامتاً، مبتسماً ابتسامة غريبة، وكأن كلاً منهما قد شُدَّ إلى صاحبه والتصق به.

- هل سامحتني أم لا؟ تمتم ميتيا أخيراً.

والتفت في اللحظة نفسها نحو إيليوشا، وصرخ يسأله وقد التهب وجهه بفرح عظيم:

- هل تسمع ماذا أسألها؟

- لهذا أحببتك، كم أنت كريم القلب، هتفت كاتيا. لست أنا من يغفر لك، لأنني أنا التي أحتاج إلى غفرانك. ولكن ليس هذا بالأمر الهام. لأن هذا الجرح سيظل نازفاً في قلبي طوال حياتي سواء أغفرت أم لم تغفر. ستكون أنت عذابي، وسأكون أنا عذابك. حسن هذا... ثم استأنفت تقول متعجلةً بصوتٍ أصبح شديد الحماسة والحرارة. لماذا أتيت إليك؟ لأقبِّل قدميك، لأشد على يديك، هكذا، إلى حد إيلامك، كما كنتُ أفعل في موسكو، لأقول لك مرةً أخرى إنك أنت إلهي، إنك أنت فرحي، ولأصرخ أمامك ملء حنجرتي: إني أحبك حب الجنون. صاحت بصوتٍ كأنه الأنين، ثم أطبقت بشفتيها على يد ميتيا، وأخذت تنهمر من عينيها الدموع.

بقي إيليوشا صامتاً متحيراً: لم يكن يتوقع مشهداً كهذا المشهد أبداً.

- الحب قد انقضى، يا ميتيا!، تابعت كاتيا غير أن ما انقضى يبقى عزيزاً في نفسي إلى حد الألم. تذكّر هذا إلى الأبد.

ثم تمتمت وعلى شفتيها ابتسامة متشنجة، وتحدّق إلى عينيه من جديد بنظرة فيها تعبير عن فرح:

- لنفرض، خلال لحظة، أن ما حلمنا به قد تحقق. أنت تحب الآن امرأة أخرى، وأنا أحب رجلاً آخر. سأظل أحبك مع ذلك إلى الأبد وستظل تحبني أنت أيضاً. هل كنت تعرف ذلك؟ هل تسمع؟ أريد أن تحبني، أريد أن تحبني مدى الحياة! صاحت بهذه الجملة الأخيرة وفي صوتها ارتعاشة تشبه التهديد.

أجابها ميتيا وهو يتوقف بعد كل كلمة ليسترد أنفاسه:

- سأحبك، نعم... هل تعلمين أنني كنت أحبك أيضاً منذ خمسة أيام، في ذلك المساء... حين أُغمي عليك ونُقلت من قاعة المحكمة... سأحبك طوال حياتي! ذلك ما سيكون، إلى الأبد...

هكذا أخذا يتبادلان أقوالاً طائشة تفيض حماسة، ولعلها تفيض كذباً. ولكن كل شيء قد أصبح في تلك اللحظة صدقاً وحقيقة، وكانا كلاهما مخلصين بدون شك.

- كاتيا، صاح ميتيا. أتعتقدين بأنني قتلت؟ أنا أعرف أنك لا تعتقدين الآن بذلك... ولكن في تلك المرة... أثناء إدلائك بشهادتك أمام المحكمة... هل يمكن حقاً أن تكوني قد اعتقدت بأنني قتلت؟

- لا، لم أعتقد بذلك حتى حينذاك! لم أعتقد بذلك أبداً! كنت أكرهك في تلك الآونة، ثم أقنعت نفسي خلال لحظات بأنك القاتل... أقنعت نفسي بذلك في تلك الدقيقة ذاتها التي أدليت فيها بشهادتي... أقنعت نفسي بذلك، فسرعان ما اقتنعت... ثم كففت عن الاقتناع منذ انتهيت من الإدلاء بشهادتي. أريد أن تعرف هذا. لقد نسيت أنني جئت إلى هنا لأعاقب نفسي. أضافت كاتيا ذلك وقد تبدل تعبير وجهها وأصبح صوتها لا يشبه في شيء ذلك الصوت الذي كان يتمتم بكلمات الحب الرقيقة منذ قليل.

- هذا قاس عليك يا امرأة. قال ميتيا وقد فقد كل تحفُّظ.

- دعني أنصرف. تمتمت كاتيا. سأعود إليك.

فما إن نهضت من مكانها، حتى أطلقت صرخة حادة وتراجعت إلى الوراء. كانت غروشنكا قد دخلت بغير ضجة، ولم يكن يتوقع أحد أن يراها. توجهت كاتيا نحو الباب مسرعةً، ولكنها ما إن وصلت إلى مستوى غروشنكا حتى توقفت فجأة، ودمدمت تقول لها بصوت فيه أنين وتوجُّع وقد صار وجهها أصفر كالشمع:

- سامحيني!

فحدقت إليها غروشنكا متفرسةً، حتى إذا انقضت بضع ثوان أجابتها بصوت مسموم يفاقمه الكره:

- كلنا شريرات. نحن متساويتان في الشر. فعلام تسامح كل منا الأخرى. أنقذيه، فأصلّي لك كل أيامي!

- لكنك لا تريدين أن تغفري؟ صرخ ميتيا لغروشنكا بلهجة عتاب شديد.

- لا تخافي! سأنقذه. تمتمت كاتيا بسرعة.

وأسرعت راكضةً.

- كيف رفضت أن تسامحيها؟ عاد ميتيا يقول بمرارة.

فتدخل إيليوشا يقول بحرارة:

- لا تلمها يا ميتيا! ليس من حقك أن تلومها!

وأجابت غروشنكا باشمئزاز:

- لم يصدر كلامها من أعماق نفسها، وإنما أوحاه إليها العجب والصلف. فلتنقذك فأغفر لها عندئذ كل شيء!

وسكتت كأنما لتكبت العواطف التي كانت تجتاح نفسها. لم تكن قد عادت إلى هدوئها، وقد جاءت مصادفةً كما اتضح ذلك فيما بعد، دون أن تتوقع لقاءً كهذا اللقاء.

- إيليوشا، حاول أن تلحق بها. قال ميتيا وهو يلتفت بحركة قوية نحو أخيه.

واشرح لها... قل لها... لا أدري ماذا... ولكن لا تدعها تنصرف على هذه الحال!

- سأعود إليك هذا المساء! صرخ إيليوشا وقد اندفع في إثرها.

وأدركها في الشارع. كانت تسير بخطى سريعة، وتبدو مستعجلة، ولكنها حين رأت إيليوشا قالت له بلهجة حادة:

- لا، يستحيل عليَّ أن أذل نفسي أمام تلك المرأة! وإنما سألتها أن تغفر لي، لأنني أردت أن أمضي في التضحية إلى نهايتها، أن أشرب الكأس حتى الثُّمالة. وقد منعت عني غفرانها. إنني أحبها لموقفها هذا!... أضافت كاتيا عبارتها الأخيرة هذه بصوت متشنج، وطاف بعينها لهيب من كره!

- لم يكن يتوقع أخي حضورها. تمتم إيليوشا. كان واثقاً بأنها لن تأتي!

فقالت تحسم الحديث:

- لا أشك في ذلك. دعنا من هذا. اسمع: لا أستطيع أن أرافقكم الآن إلى الجنازة. لقد أرسلت إليهم أزهاراً. وأظن أنه لا يزال معهم بعض المال. وإذا احتاجوا في المستقبل قل لهم، إنني لن أتركهم أبداً... وأما الآن فدعني، رجاءً! لقد تأخرت الآن، سيبدأ القدّاس الثاني... اتركني، أرجوك!

III

جنازة إيليوشيشكا. التأبين أمام الصخرة

وصل إيليوشا متأخراً إلى الجنازة، حيث قرروا بعد طول انتظار أن يذهبوا إلى الكنيسة بدونه، حاملين النعش الصغير المزيَّن بالأزهار. إنه نعش إيليوشا، الصبي الصغير المسكين. لقد مات بعد الحكم على ميتيا بيومين. استُقبل إيليوشا أمام باب المنزل بصرخات الأطفال رفاق إيليوشا. كانوا جميعاً ينتظرونه بفارغ الصبر، وابتهجوا أخيراً بوصوله. كانوا اثني عشر صبياً جاؤوا جميعهم مع حقائب المدرسة على ظهورهم. كان إيليوشا قد قال لهم قبل موته: «سيبكي بابا، فابقوا إلى جانبه»، والأطفال لم ينسوا وصيته. وكان على رأسهم كوليا كراسوتكين.

- كم أنا سعيد بكونك هنا، يا كارامازوف! هتف كوليا وهو يمد يده إلى إيليوشا. إن ما يجري هنا رهيب. أقسم لك أن رؤيته تفطر القلب. سنيغيريوف ليس سكراناً. واثقون أنه لم يشرب اليوم شيئاً، ولكنه كالسكران... إنني رابط الجأش، ولكن هذا رهيب. يا كارامازوف، إذا لم أكن أؤخرك، ولكن أطرح عليك سؤالاً واحداً قبل أن تدخل؟

- ماذا يا كوليا؟ سأله إيليوشا وقد توقف عن السير.

- هل أخوك مذنب أم بريء؟ أهو من قتل أباك، أم الخادم؟ ما ستقوله تكون الحقيقة. إن هذا السؤال قد حرمني النوم أربع ليال.

- الخادم هو الذي قتل. أخي بريء. أجابه إيليوشا.

- ذلك هو رأيي أنا أيضاً. صاح فجأة سموروف الصغير.

- إذن سيسقط بريء ضحية العدالة. صاح كوليا. حتى هكذا، هو سعيد. إنني، من جهتي، لمستعد أن أحسده!

- كيف؟ كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام؟ قال إيليوشا بدهشة.

- نعم! أستطيع أن أضحي بنفسي يوماً في سبيل الحقيقة. أجابه كوليا بحماسة.

- ولكن ليس في قضية من هذا النوع، فيما أتخيل. قال إيليوشا. لا في مثل هذا الجو من الخزي والهول!

- طبعاً... أتمنى أن أموت في سبيل الإنسانية كلها. أما هذا العار الذي تشير إليه فلا قيمة له! سحقاً لأسمائنا! إنني أحترم أخاك!

- وأنا أيضاً أحترمه. قال صوت آخر في جماعة التلاميذ، بشكل لم يكن متوقعاً. إنه صوت ذلك الصبي الذي أكد في الماضي أنه يعرف أسماء بناة طروادة؛ وكما حدث في المرة السابقة اصطبغ وجهه بحمرة شديدة.

دخل إيليوشا الغرفة. كان إيليوشا مسجًى في نعش صغير أزرق مزين بتخريم أبيض، وقد أُغمضت عيناه وضُمت يداه. لم تكد ملامح وجهه الناحل تتغير. والأمر الغريب أنه ما من رائحة تفوح من جثته. وكانت يداه جميلتين متصالبتين على صدره، كما لو أنهما مقدودتان من مرمر. وقد وضعت بين أصابعه أزهار، وكان النعش كله، من جهة أخرى، مزداناً في الداخل والخارج بأزهار أرسلتها ليزا خوخلاكوفا منذ الصباح. وقد وصلت الآن أزهار أخرى أرسلتها كاترينا إيڤانوفنا، ففي اللحظة التي فتح فيها إيليوشا الباب كان الكابتن ينثر تلك الأزهار الجديدة على جسد ابنه الحبيب بيدٍ ترتجف. لم يكد ينظر إلى إيليوشا. وكان لا يبالي بأحد على كل حال، حتى ولا بزوجته الخرفة التي كانت تبكي وتحاول أن تنهض على ساقيها المريضتين لتتأمل طفلها الميت من قرب. أما نينا فكان التلاميذ قد نقلوها على كرسيها وجعلوها قرب النعش، فهي الآن مسندةٌ رأسها إلى النعش، ولا شك أنها تبكي هي أيضاً في صمت. وكان وجه سنيغيريوف يعبِّر عن حركة ونشاط، غير أن فيه شراسة على شيء من قسوة. كان في إشاراته وحركاته جنون، وكذلك في الأقوال التي تنطلق من فمه. كان يصيح في كل لحظة قائلاً: «بنيَّ الصغير الشهم، بنيَّ الصغير الشجاع!». لقد كان يحب، حتى أثناء حياة ابنه، أن يناديه بقوله: «بنيَّ الشهم الشجاع!».

- بابا عزيزي، أعطني بعض الأزهار. خذ منه هذه الزهرة البيضاء التي يمسكها بيده، وأعطني إياها! قالت الأم الخرفة وهي تنتحب. هل كانت تلك الوردة الصغيرة البيضاء هي التي أعجبتها، أم كانت تود أن تحتفظ بالزهرة التي يمسكها ابنها بيده، ذكرى منه؟ لا أحد يعرف، ولكن الأم كانت مضطربة بشكل رهيب. وهي تمد يديها نحو الزهرة.

- لن أعطيها لأحد، لن أعطي شيئاً. صرخ سنيغيريوف بلهجة قاسية. هذه الأزهار له هو، ليس لك أنت! كل شيء له هو، وليس لك شيء إطلاقاً!

- بابا، أعط ماما زهرة! قالت نينوشكا وهي ترفع وجهها المبلل بالدموع.

- لن أعطي شيئاً، لن أعطيها هي خاصةً، لأنها لم تكن تحبه! لقد أخذت منه هذا المدفع الصغير من قبل، وارتضى هو أن يهديه إليها. قال الكابتن وهو ينفجر باكياً من ذكرى اليوم الذي تنازل فيه إيليوشا عن لعبته لأمه من تلقاء نفسه. غطت المجنونة المسكينة وجهها بيديها، وأخذت دموعها تنهمر.

وإذ لاحظ الصبية أن الأب لا يترك ابنه، مع أنه آن أوان نقله، فقد تحلقوا حول الميت الصغير حلقة كثيفة، وأخذوا يرفعون النعش.

- لا أريد دفنه في المقبرة. صاح سنيغيريوف سوف أدفنه أمام الصخرة، أمام صخرتنا. هذا ما أراده ايليوشا. لن أسمح بنقله!.

الواقع أن سنيغيريوف كان يؤكد منذ ثلاثة أيام أنه سيدفنه أمام الصخرة. احتج الحاضرون. وأخذ إيليوشا وكراسوتكين وصاحبة المنزل وأختها وسائر الصِّبية يحاولون إقناعه.

- لكن، ماذا يخترع! قالت صاحبة البيت العجوز. كيف يُدفن قرب صخرة وثنية كأنه منبوذ. المقبرة فيها صليب وأرضها مباركة مقدسة. والناس يجيئون إليها فيصلون على روحه. وأناشيد الكنيسة تصل إلى هناك، وللشماس صوت يبلغ من قوة الرنين والوضوح أن أقواله يمكن أن يسمعها الصبي كأنها تُتلى على قبره قصداً.

وأخيراً حرَّك الكابتن وأشار بيده قائلاً: «خذوه حيث شئتم!». رفع الصبية النعش وساروا به، حتى إذا مروا بالأم توقفوا لحظةً وحنوه لتستطيع أن تودّع ايليوشا الوداع

الأخير. فلما رأت الأم، من قرب، ذلك الوجه الصغير المحبوب الذي كانت تتأمله منذ ثلاثة أيام من بعد، أخذت ترتعش وهي ترجِّح رأسها الأشيب ترجيحاً هستيرياً من أمام إلى وراء، فوق النعش.

- ماما، ارسمي عليه إشارة الصليب وباركيه وعانقيه. صرخت نينوتشكا تقول للأم.

بقيت المجنونة تهز رأسها صامتةً كأنها آلة تتحرك بغير إرادة، وقد تشنج وجهها على ألم شديد؛ وفجأةً أخذت تلطم صدرها بقبضة يدها. وابتعد الصِّبية بالنعش. فلما مروا بأخته نينوتشكا ألصقت الفتاة شفتيها بشفتي أخيها المتوفَّى مرة أخيرة. وعندما خرجوا من الدار اتجه إيليوشا إلى صاحبة البيت فرجاها أن تهتم بأمر الباقين، ولكن صاحبة البيت لم تتح له أن يتم كلامه فقالت:

- أعرف واجبي. لن أتركهم. نحن أيضاً مسيحيون! وكانت العجوز تبكي أثناء كلامها.

كانت الكنيسة تبعد ما يقارب ثلاثمئة خطوة في أكثر تقدير. وكان النهار مضيئاً هادئاً، مع شيء من الصقيع. وكانت أصوات النواقيس تُسمع مؤذنةً بالصلاة. راح سنيغيريوف يركض وراء النعش مضطرب الحركة، زائغ البصر، تائهاً، مرتدياً معطفه العتيق القصير الذي يشبه أن يكون كساءً صيفياً، حاسرَ الرأس يمسك بيده قبعته المهترئة الطويلة الحواف، المصنوعة من لباد. كان كمن تملأ ذهنه مشاغلُ لا يمكن حلُّها؛ هو تارةً يمد ذراعه ليساعد في حمل النعش فيعوق أولئك الذين يحملونه، وهو تارةً أخرى يسرع إلى جانب محاولاً أن يصطف في الموكب. وسقطت زهرة على الثلج، فأسرع يلتقطها كأن سقوطها هذا يمكن أن يؤدي إلى عواقب خطيرة لا يعلم إلّا الله ما هي!

- رغيف الخبز! نسينا الرغيف! صرخ مذعوراً. لكن الصّبية نبهوه إلى أنه قد أخذ الرغيف، وأن الرغيف هو الآن في جيبه. فأسرع يخرجـه، حتى إذا تأكد من وجوده اطمأن باله. وقال لإيليوشا.

- إن إيليوشا هو الذي أمر بهذا. كان لا ينام الليل، وكنت أجلس قربه، وفجأة أمرني قائلاً: «بابا، حين يهيلون على قبري التراب، فانثر فوقه فتات خبز فتتهافت عليه العصافير، فأسمع صوتها، فلا أشعر بأنني وحيد.».

- جيد. يجب فعل ذلك غالباً. قال إيليوشا.

- كل يوم. سأفعل هذا كل يوم! أجاب الأب متحمساً.

وصل الموكب أخيراً إلى الكنيسة، ووُضع النعش في وسطها، أحاط به الصِّبية بأبهة وجلال إلى آخر القداس. كانت الكنيسة قديمة فقيرة، معظم إيقوناتها معلق بغير أُطر. ولكن في كنائس من هذا النوع يُصلى في أكثر الأحيان. بدا على سنيغيريوف أثناء القداس أنه هدأ قليلاً، غير أن قلقاً لا شعورياً ليس له سبب ظاهر، كان يعتريه من حين إلى آخر. فيقترب من النعش مرةً ليرتب الغطاء أو ليعدل العصابة التي تعصب جبين الميت. ومرة أخرى إذا سقطت إحدى الشموع يسرع ليعيدها إلى موضعها. وعاد إليه الهدوء بعد ذلك من جديد، فوقف عند التابوت مذعناً والحيرة تعلو وجهه. حتى إذا انتهت قراءة الانجيل، قال سنيغيريوف لإيليوشا هامساً في أذنه (وكان إيليوشا إلى جانبه): لم تكن القراءة «كما يجب أن تكون»، ولكنه لم يشرح جوهر فكرته. وحين أُنشد نشيد الكروبيين، صاحب الأب الانشاد بصوت خفيض، ولكنه لم يلبث أن توقف عن الإنشاد فجأة وارتمى جاثياً على ركبتيه، ثم سجد حتى التصق جبينه بالأرض، وبقي على هذا الوضع مدة طويلة. وأخيراً تُليت صلاة الجنازة، ووزِّعت الشموع، فاضطرب الأب عندئذ مجدداً، ولكن مهابة الغناء الجنائزي المؤثر

لم تلبث أن نفذت إلى قلبه فهدأت روعه، ثم عاد إلى ذاته، وتجمّع على نفسه، وأخذ يبكي بنشيج قصير سريع، خانقاً صوته في بادىء الأمر، تاركاً لألمه بعد ذلك أن ينفجر صاخباً. حتى إذا آن أوان التوديع وأُريد إغلاق التابوت، أسرع يحيطه بذراعيه كأنما ليحول دون إغلاقه، وألصق شفتيه بوجه صغيره الميت، وراح يغمره بالقبل في ظمأ لا يرتوي، وطفق يقبله على الفم بدون أن يتوقف. وأعادوه أخيراً إلى الصواب واستطاعوا أن يبعدوه. وفيما هو ينزل على الدرجات، غيَّر رأيه فجأة، فأغار بذراعه على التابوت واختطف منه بضع زهرات، وأخذ يتأملها. إن فكرةً جديدة قد نبتت في نفسه عندئذ، حتى لكأنه نسي، خلال لحظات، الأمرَ الذي هو فيه. وهوى، شيئاً فشيئاً، إلى نوع من تأمل عميق، فلم يُظهر بعد ذلك مقاومة ولا معارضة حين رفع التابوت الصغير لنقله إلى القبر. كان القبر قريباً، فهو في الحوش إلى جانب الكنيسة. وقد تكلف ثمناً باهظاً تولت دفعه كاترينا إيفانوفنا. وقام الحفّارون بإنزال التابوت في القبر بعد إجراء الطقوس المألوفة؛ فبلغ سنيغيريوف (وكان يحمل الأزهار بيده) من شدة ميله على القبر المحفور أن الصِّبية أمسكوه من معطفه مذعورين وشدوه إلى وراء. غير أن ما يراه في تلك اللحظة يخيَّل إليه أنه أصبح لا يفهم ما يجري حوله فهماً واضحاً. حتى إذا أهيلت على القبر أولى مجارف التراب، خرج من خدَره فجأةً، فأشار بيده إلى التراب الذي كان يتكوم، ودمدم بعبارات غامضة لم يفهمها أحد. على أنه لم يلبث أن صمت فوراً. وذُكِّر عندئذ بأن عليه أن ينثر فتات الخبز، فاضطرب، وأخرج الرغيف من جيبه، وأخذ يفتته، مبعثراً فتاته على القبر، متمتماً في تشفُّع قلق: «هيَّا أسرعي يا عصافيري الصغيرة!». وقال له أحد الصبية إن الأزهار التي يمسكها بيده تعوق حركته، ومن الأفضل أن يحملها عنه لحظات، ولكنه رفض، حتى أنه خاف على أزهاره كما لو أن أحداً يريد انتزاعها منه، وبعد أن ألقى نظرة على القبر، ليطمئن إلى أن كل شيء قد تم على ما يرام، وأن فتات الخبز قد جُزِئ جيداً، استدار فجأة أمام دهشة الجميع ومضى متجهاً إلى البيت. ولكن خطواته أخذت تسرع شيئاً بعد شيء، وأخذ يسرع في المشي حتى صار كمن يركض ركضاً. ولم يتركه إيليوشا والصِّبية.

- أزهار للأم. هتف يقول. لا بد من أزهار للأم. لا بد من أزهار للأم. لقد أوذيت الأم وأولمت. لفت أحدهم انتباهه إلى أن عليه أن يضع قبعته على رأسه مخافة البرد، فإذا بهذه الملاحظة تغضبه، وإذا هو يرمي قبعته على الثلج بعنف قائلاً: لا أريد قبعة، لا أريد قبعة! فمالَ الفتى سموروف على الثلج، فتناول قبعة اللبّاد وتولى حملها. وكان جميع الصِّبية يبكون، ولا سيما كوليا والصبي الذي اكتشف بناة طروادة. أما سموروف فكان يبكي بكاءً مرّاً هو أيضاً، ممسكاً قبعة الكابتن بيده، ومع ذلك أمكنه أثناء الطريق أن يتناول من الأرض قطعة قرميد كان يتلألأ احمرارها في الثلج، فرماها في الهواء على سرب من العصافير؛ فلم يصبها طبعاً، فعاد ينضم إلى جماعته وهو يبكي. وفي منتصف الطريق توقف سنيغيريوف فجأة، وشرد فكره نصف دقيقة، ثم استدار كأن فكرة مفاجئة قد انبجست في ذهنه، واندفع راكضاً نحو الكنيسة، نحو القبر الصغير المهجور. ولكن الصِّبية لحقوا به وأدركوه وأحاطوا به من جميع الجهات. هنا، تهاوى على الثلج محطماً منهار القوى، وراح يئن منتحباً صائحاً: «بنيَّ ايليوشا، بنيَّ الحبيب!» فحاول إيليوشا وكوليا أن يؤاسياه ويهدّئا من روعه.

- ما هذا يا كابتن؟ دمدم كوليا قائلاً. على الرجل الشجاع أن يعرف كيف يحتمل الألم!

- سوف تُفسد الأزهار، بينما الأم تنتظرها. قال له إيليوشا. هي الآن في البيت لأنك رفضت أن تعطيها بعض أزهار إيليوشا. وفي البيت أيضاً السريرُ الصغير الذي كان يرقد عليه ايليوشا.

- نعم نعم، لنركض إلى البيت. صاح سنيغيريوف يقول وكأن ذاكرته قد عادت إليه

فجأة: سوف يأخذون السرير، سوف يأخذونه، سوف ينقلونه إلى مكان آخر!

وراح يركض نحو البيت. ولم تكن المسافة الباقية طويلة. وصل الجميع في وقت واحد. وفتح سنيغيريوف الباب بسرعة، وصاح يقول لزوجته التي كان قاسياً معها منذ قليل:

- ماما، ماما العزيزة، إن ايليوشا يرسل إليك هذه الأزهار.

ثم أضاف يقول وهو يناولها الأزهار التي تجلدت وتكسرت حين كان يتخبط في الثلج: - ماما المسكينة! إن ساقيك في إحدى الزوايا مريضتان؟

ولكنه في تلك اللحظة نفسها رأى في إحدى الزوايا أمام سرير ايليوشا، حذاء ابنه الذي رتبته صاحبة البيت هناك منذ هنيهة - وهو حذاء عتيق حال لونه واهترأت أطرافه ورُقِّع في كل موضع؛ فلما رآه رفع ذراعيه وركع أمامه، فتناول إحدى فردتيه، وأطبق عليها بشفتيه يقبّلها بنهم، ويئن قائلاً:

- بنيَّ ايليوشا، بنيَّ الشجاع، أين هما الآن قدماك الصغيرتان الحلوتان؟

- إلى أين أخذته؟ إلى أين أخذته؟ صاحت المجنونة تسأل بصوت ممزِّق.

وأجهشت نينوتشكا تبكي وتنتحب بصوت متمزق. فخرج كوليا من الغرفة مسرعاً وتبعه الصبية الآخرون، ولحق بهم إيليوشا إلى الخارج، وقال يخاطب كوليا:

- لنتركهم يبكون. ليس هناك ما نفعله الآن، فلسنا نستطيع أن نعزيهم. لننتظر هنا بضع لحظات، ثم نعود إلى الغرفة.

- كلا، لا نستطيع أن نفعل الآن شيئاً. فظيع! قال كوليا مؤيِّداً!

ثم أضاف خافضاً صوته حتى لا يسمعه أحد غير إيليوشا. أتعلم يا كارامازوف! إنني أشعر بحزن رهيب، وإني لمستعد أن أهَب كل شيء في العالم من أجل أن يُبعث حياً، لو كان ذلك في الإمكان.

- وأنا أيضاً. قال إيليوشا ولكن ذلك غير ممكن مع الأسف!

- ما رأيك يا كارامازوف؟ يجب أن نعود غداً مساءً؟ قد يعود إلى الشراب ويسكر!

- هذا ممكن فعلاً. ولكننا سنجيء وحدنا نحن الاثنين. هذا كاف. وسنقضي في صحبتهم ساعتين، مع الأم ونينوتشكا. أما إذا جئنا جميعاً فقد نوقظ آلامهم. كذلك اقترح إيليوشا.

- إن صاحبة البيت تهيىء المائدة الآن. قال كوليا أغلب الظن أنها تفعل ذلك إعداداً لوجبة إحياء ذكرى الميت. وسيأتي الكاهن. هل يجب أن نعود إلى الغرفة يا كارامازوف؟

- حتماً! أجابه إيليوشا.

- ما أغرب هذا كله يا كارامازوف؟ أيكون الناس في مثل هذا الألم ثم يأكلون الفطائر؟ ما أكثر الأمور الغريبة في ديانتنا!

قال الفتى الذي اكتشف بناة طروادة، بصوت عالٍ:

- هناك أيضاً سمك سومون.

- أرجوك يا كارتاشوف ألّا تتدخل في حديثنا بسخافاتك، لا سيما وأن أحداً لم يسألك عن شيء، وأننا نؤثر أن نجهل وجودك! قال له كوليا بصوتٍ حانق. فاحمر وجه الفتى بشدة، ولكنه لم يجرؤ أن يجيب. وكان الصِّبية يسيرون في الطريق على مهل، فصاح سموروف.

- تلك هي صخرة إيليوشا، التي كان يُراد أن يدفن تحتها.

توقف الجميع أمام الصخرة الكبيرة صامتين. نظر إليهم إيليوشا، وتذكر المشهد الذي قصَّه عليه سنيغيريف، حيث رأى إيليوشا باكياً معانقاً أباه قائلاً له: «بابا! حبيبي بابا! لقد أذلَّك!». وتحرك شيء ما في نفس إيليوشا عندئذ، فألقى نظرة رصينة قاسية على هذه الوجوه الفتية النضرة الزاهية، وجوه التلاميذ، رفاق إيليوشا، وقال لهم:

- يا سادتي، أود أن أقول لكم كلمة هنا، في هذا المكان الذي نحن فيه.

فأحاط به الصِّبية وحدقوا إليه بعيونهم المنتظرة.

- سنفترق عمَّا قريب أيها الأصدقاء. سوف أبقى قليلاً مع أخويَّ اللذين سيُرحَّل أحدهما بعد مدة قصيرة، أما الثاني فيُحتضر. ولكنني سأغادر هذه الديار قريباً، وربما غبت عنها مدة طويلة. سنفترق إذن يا أصدقائي. لنتعاهد هنا، إذن، أمام صخرة إيليوشا، على ألّا ننسى الراحل الصغير أبداً، وعلى أن يتذكر بعضنا بعضاً على الدوام. يجب علينا، مهما يصبنا في هذه الحياة، ولو طال فراقنا عشرين عاماً، أن نتذكر دائماً هذا اليوم الذي دفنَّا فيه الصبي المسكين الذي كنا نرميه بالحجارة قبل ذلك - قرب الجسر الصغير، هل تتذكرون؟ - ثم أصبحنا نحبه جميعاً. لقد كان فتًى شهماً، طيب القلب، شجاعاً، قوي الشعور بالشرف والإباء، عميق الإحساس بالمرارة من الاهانة التي أُلحقت بأبيه، تلك الاهانة التي تمرد بسببها وثار. يجب أن نتذكره طوال حياتنا. مهما يكن مصيرنا المقبل، وأياً كانت الأمور الخطيرة التي ستشغل أفكارنا، وسواء أأصبحنا نحتل مناصب عليا أم نزل بنا شقاء لم يكن في الحسبان، يجب ألّا ننسى أبداً هذا العهد الذي أسعدنا فيه شعورُنا بالاتحاد في هذه المدينة على عاطفة طيبة بريئة طاهرة نحو الصبي الراحل، وأسعدنا فيه هذا الحب الذي حملناه له والذي لعلـه جعلنـا خـلال هـذه المدة أفضل مما نحن في الواقع. يا طيوري الصغار - اسمحوا لي أن أناديكم هكذا لأنكم جميعاً تشبهون طيور الحمام الجميلة - إنني أتأمل الآن وجوهكم التي تفيض طيبة ورقّة، فأقول لنفسي، يا أبنائي الأعزاء، قد لا تفهمون أقوالي الآن لأنني في كثير من الأحيان أعبِّر بشكل غامض، ولكنكم ستحتفظون بذكراها على الأقل، ثم يأتي يوم توافقونني فيه على رأيي. اعلموا أن ليس في حياتنا شيء أقوى ولا أطهر ولا أقدس من ذكرى طيبة، ولا سيما إذا دخلت إلى نفوسنا إبان طفولتنا تحت سقوف منازل الآباء. ما أكثر ما يحدثكم الناس عن تربيتكم وتهذيبكم. ألا فاعلموا أن ذكرى مشرّفة مقدسة يحملها المرء في قلبه منذ طفولته هي خير تربية وأفضل تهذيب. لعلَّ ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافيةً لخلاصنا ولو لم يبق في قلوبنا أي شيء سواها. قد نصبح أشراراً فيما بعد، قد نعجز في المستقبل عن مقاومة فعل سيِّئ، قد نسخر من ألم الإنسان ومن الناس الذين يحترقون شوقاً إلى «التألم في سبيل الإنسانية»، كما قال كوليا منذ قليل، قد نستهزىء بمثل هؤلاء الناس في خبث وشر، ولكن مهما نصبح أشراراً، لا سمح الله، فسنظل نتذكر اليوم الذي دفنا فيه إيليوشا، والحبَّ الذي حملناه له في الآونة الأخيرة، وهذه المودة والصداقة والمحبة التي ترين على حديثنا في هذه الدقيقة أمام هذه الصخرة. إن أشدَّنا ميلاً إلى القسوة وحباً بالتهكم - هذا إذا أصبحنا قساة متهكمين في يوم من الأيام - لن يجرؤ، متى استيقظت في خياله هذه الذكرى، لن يجرؤ، في قرارة نفسه، أن يسخر من العواطف الطيبة والمشاعر النبيلة التي هزته أثناء هذه اللحظات. ومن يدري؟ ربما تمكنت هذه الذكرى أن تمنعه في اللحظة المناسبة عن ارتكاب عمل سيِّئ، فمتى تذكرها عاد إلى ذاته قائلاً: «نعم،

لقد كنت في ذلك اليوم طيباً شجاعاً شريفاً». قد يقول لنفسه، ليس الأمر خطيراً، قد يسخر الناس غالباً مما هو حسن وجيد. تلك خفّة لا أكثر. ولكن أؤكد لكم يا أصدقائي أنه ما إن يبتسم قليلاً حتى يقول في أعماق قلبه: «لا، إن ما قمت به، أمر سيئ، لأنه يجب ألا نسخر من هذه الأمور!».

- طبعاً سيكون الأمر كذلك يا كارامازوف! هتف كوليا وقد سطعت عيناه: إنني أفهمك يا كارامازوف!

واضطرب الصِّبية الآخرون أيضاً، وتمنَّوا أن يصيحوا قائلين شيئاً ما، ولكنهم كبحوا جماح أنفسهم، وحدَّقوا إلى الخطيب تحديقاً شديداً يفيض بالانفعال.

- أقول لكم هذا الكلام في حال نصبح أشراراً، تابع إيليوشا قائلاً. ولكن لماذا إذن يجب أن نصبح أشراراً؟ أليس كذلك أيها السادة؟ فلنكن ولنصبح أخياراً قبل كل شيء، ولنكن شرفاء بعد ذلك، ثم فليتذكر بعضنا بعضاً إلى الأبد. إنني أكرر ذلك؛ وأعاهدكم، من جهتي، على أنني لن أنسى أيّ واحد منكم! سأظل أتذكر، ولو بعد ثلاثين عاماً، كل وجه من وجوهكم هذه التي تنظر إليَّ الآن. منذ قليل زعم كوليا للفتى كارتاشوف أننا «لا نكترث لوجوده». ولكن يمكن أن أنسى وجود كارتاشوف الذي أصبح لا يحمرّ في هذه اللحظة كما احمر حين ظن أنه اكتشف طروادة، والذي ينظر إليَّ الآن بعينيه الصغيرتين الطيبتين الفرحتين. يا أصدقائي، يا أصدقائي الأعزاء، لنكن جميعاً شجعاناً كما كان الصغير ايليوشا، لنكن جميعاً أقوياء نبلاء أذكياء مثل كوليا (الذي سيتوهج ذكاؤه حين يكبر)، ولنكن جميعاً خجولين على ذكاء مثل كارتاشوف! ولكن لماذا أتكلم على هذين الاثنين فحسب؟ إنني منذ اليوم أحبكم جميعاً، فستحيون جميعاً في قلبي، وأتمنى أن أحيا في قلوبكم أيضاً! من الذي وحَّدنا الآن على هذه العاطفة النبيلة الطيبة التي سوف نتذكرها بدون انقطاع، والتي سيظل يجب علينا وسنظل نريد أن نتذكرها بقية العمر؟ من الذي وحَّدنا على هذه العاطفة إلّا إيليوشا، ذلك الفتى الطيب الرائع، ذلك الفتى الذي سنظل نحمل ذكراه الغالية إلى الأبد؟ نعم، يجب أن نتذكر إيليوشا مدى الحياة، يجب ألّا ننساه أبداً. فلتحي في أرواحنا، فلتحي في قلوبنا ذكرى هذا الفتى الأبدية، الآن وإلى آخر الزمان!

- نعم نعم، ذكراه الأبدية! ردَّد جميع الصبية بأصواتهم الرنانة بينما كانت تُقرأ على قسمات وجوههم عاطفة عارمة.

- فلنتذكر وجهه وثيابه، وحذاءيه الصغيرين الفقيرين، ونعشه الصغير، وأباه الشقي الخاطىء، ولنتذكر تلك الجرأة التي تمرد بها إيليوشا في دفاعه عنه ضد جميع تلاميذ الصف!

- نعم نعم، فلنتذكر صاح الصِّبية! لقد كان شجاعاً، وكان طيباً!

- آه، كم كنت أحبه! صاح كوليا.

- يا أحبائي الصغار، يا أبنائي، لا تخافوا الحياة! ما أجمل الحياة عندما نقوم بشيء خيّر وعادل!

- نعم نعم، صحيح. ردَّد الصِّبية في حماسة.

- نحن نحبك يا كارامازوف! صاح فجأة صوت كارتاشوف.

فكرر جميع الصبية قوله:

- نحن نحبك، نحن نحبك! كرر الصبيّة بعده، وعدد كبير منهم سالت الدموع من أعينهم.

- يعيش كارامازوف! صاح كوليا بحماسة شديدة.

- ولتكن أبديةً ذكرى الميت الصغير! أضاف إيليوشا بانفعال.

- ذكرى أبدية! ردد الصبية بصوت واحد.

- كارامازوف! صاح كوليا: هل صحيح ما يعلمنا إياه الدين من أننا سنقوم جميعاً من بين الأموات، وسنُبعث جميعاً أحياء، فيرى بعضنا بعضاً، ونرى كلنا إيليوشا؟

- سوف نقوم بالمطلق. وبالمطلق سنرى بعضنا بعضاً، وسنروي فرحين سعداء كل ما قد حصل، أجاب إيليوشا نصف مبتسم ونصف مأخوذ بحماسته.

- آه، ما أروع هذا! قال كوليا صائحاً.

- حسناً، يكفينا خطباً، ولنذهب إلى وجبة إحياء ذكرى الميت. ولا تنزعجوا إذا أكلتم الفطائر. هذه عادة قديمة وأبدية، ولها جانبها الجميل أيضاً، قال إيليوشا ضاحكاً. هيَّا بنا إلى الطعام، ها نحن الآن نسير يداً بيد.

هيا بنا، إلى الأبد، ومدى الحياة يداً بيد. يعيش كارامازوف، صاح مجدداً كوليا متحمساً، وردَّد الصبيّة جميعهم هتافه مرة أخرى..

Notes

[←1]

نص من قصيدة شهيرة لميخائيل ليرمنتوف: «احترس من نفسك...» (المترجم)

[←2]

يتعلق الأمر بيوم حضوره إلى الهيكل. وتتم تلاوة هذه الكلمات في الطقس الأرثوذكسي أثناء صلاة المساء. إنجيل القديس لوقا II 24 - 30.

[←3]

هذا الاستشهاد هو باللغة الفرنسية في النص الأصلي

"j'ai vu l'ombre d'un cocher, qui, avec l'ombre d'une brosse, frottait l'ombre d'une carosse".

[←4]

كلمة روسية تعني «عجوز، مسنّ»، اسم أعطي في روسيا القديمة لبعض النسّاك أو الحجاج، المعتبرين كأنبياء أو صانعي معجزات، وغالباً ما يختارهم الناس كمرشدين روحيين. ستاريتز (Starets):

[←5]

سيشرح فيودور بافلوفتش بعد بضع صفحات من هو فون زوهن.

[←6]

يقصد فيودور بافلوفيتش قصة القديس دنيز الذي لا يُذكر في سير القديسين الأرثوذكس.

[←7]

متى II 18.

[←8]

خصّ بوشكين في «أوجين أونيجين» بعض المقاطع الشعرية الغنائية «للساقين» الأنثويين.

[←9]

آلة تقليدية للموسيقى الروسية القديمة.

[←10]

نوع من الشراب مصنوع من العنبية.

[←11]

إحدى الملل العديدة من الكنيسة الأورثوذكسية.

[←12]

مقتطف من قصيدة غوته «الإلهي» يذكرها ديمتري بالترجمة الروسية طبعاً.

[←13]

مقتطف من قصيدة لأبولون مايكوف.

[←14]

مقتطف من مأدبة «إيللوزيس» لشيللر.

[←15]

مقتطف من مأدبة «إيللوزيس».

[←16]

أغافيا اسم شعبي لا يجوز أن تسمّى به ابنة ليوتنان كولونيل.

[←17]

الكتاب الأول لنيكولاي غوغول.

[←18]

يخلط فيودور بافلوفتش بين بطلين لميخائيل ليرمونت: بطل «الكرنفال المقنّع» أربينين وبطل «بطل من زماننا» بيتشورين.

[←19]

أحد أكبر أثرياء روسيا.

[←20]

تصغير إيفان وألكسي.

[←21]

من أقوال القديس لوقا 1- 17.

[←22]

مقتطف من «الشيطان» لبوشكين، أصبح مضرب مثل.

[←23]

يشرح دوستويفسكي هنا اشتقاق أسماء أبطاله. اسم كارامازوف يتألف من كلمتين كارا يعني «أسود» باللغة التركية، وبالروسية «عقاب». مازوف من لفظة «ماز» وتعني «مسحة». وأرينا بتروفنا في هذا الاشتقاق تستبدل الكلمة التركية بالكلمة الروسية «تشيورني».

[←24]

سفر الرؤيا III - 7.

[←25]

مقتطف من قصيدة لشيللر «الرغبة»، في الترجمة الروسية لفاسيلي جوكوفسكي.

[←26]

استشهاد من سفر الرؤيا، ليس دقيقاً VIII 10 - 11.

[←27]

الترجمة الفرنسية لهذا المقطع من المزمور 24، مذكرة في اللاهوت الأرثوذكسي، تطرح مشكلة لا حل لها، لأن إيفان في الأصل الروسي يذكر النصّ وفيه خطأ لغوي جعله غير مفهوم.

[←28]

المقطع الأخير من القصيدة لأحد الشعراء الكبار الرومنسيين الروس في العام 1855، فيودور ثيوتشيف

(1803 - 1873) يكنّ له دوستويفسكي إعجاباً كبيراً. وهذا المقطع الأخير مذكور في الجزء الأخير من «خُطب حول بوشكين» (حزيران/ يونيو 1880).

[←29]

استشهاد لكورلويون، قصيدة رومنسية لأسكندر بوليجاييف (1804 - 1838).

[←30]

استشهدان من مقطع «ضيف بطرس» لبوشكين.

[←31]

متى I 24 - 30.

[←32]

كتب دوستويفسكي في 19 أيلول/سبتمبر 1879 أنه سمع هذه الأسطورة من إحدى الفلاحات. وهناك أسطورة مشابهة لم يكن يعرفها وهي موجودة في كتاب أساطير للفلكلوري أفناساييف منشورة في العام 1859.